دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٦

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

خوة
امازوف ١

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد السادس عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا
ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي
الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧
الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢
الخطوط والغلاف: عماد حليم
طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥
Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

SS

الإخوة كارامازوف

١

تقديم

لم يبارح المرض دوستويفسكي ، فنوبات الصرع ما تنفك تزداد ، وقد أضيف اليها احتقان الرئتين وعسر التنفس مع تقدمه في السن • على أن الفترة التي تمتد من سنة ١٨٧١ الى يوم وفاته سنة ١٨٨١ ، يمكن أن تعد سعيدة اذا قيست بالفترات التي سبقتها ، وهي على كل حال خصبة الى أقصى حدود الخصوبة • هي سعيدة من الظاهر : ففيها تعاظم مجد دستويفسكي حتى انتخب عضوا في الأكاديمية سنة ١٨٧٧ ، وحتى ألقى خطابه عن بوشكين سنة ١٨٨٠ ، فأصبح الناس يؤلهونه تأليها ، وأصبح يعترف له بأنه «الكاتب العبقري لروسيا كلها» ، تعترف له بذلك السلطات رغم جرأته واستقلاله ، وتعترف له به الشبيبة الليبرالية رغم « الجن » ورغم المقالات «الرجعية» التي تضمها «يوميات كاتب» • والى جانب المجد هناك سعة الرزق ، فلئن كان ما يزال يتقاضى من الناشرين سلفا على انتاجه ، فانه يملك الآن منزلا صغيرا في ستارايا روسا ، وان حقوقه في الملزمة الواحدة من كتاباته تبلغ ثلاثمائة روبل ، وان كتبه يعاد طبعها مرة بعد مرة ، فهو الآن لا يكتب والسكين على عنقه ان صح التعبير • وأكثر من هذا كله أنه ينعم بحياة عائلية رضية بهيجة : ان آنا جريجوريفنا امرأة مثال ، كزوجة ومديرة أعمال وسكرتيرة ، ودوستويفسكي يحبها ويحب أولاده ، فاذا قرأت رسائله اليها حين كان يضطر الى الغياب عن بيته ، رأيت هذه الرسائل تفيض رقة وعطفا وحنانا • والنازلة الوحيدة التي ألمت به في هذه السنين انما هي موت ابنه ألكسي عام ١٨٧٨ من نوبات الصرع الموروثة عن الأب • وحياته سعيدة في الباطن أيضا ، أو هي هادئة نوعا من الهدوء في أقل تقدير : لقد تخلص دوستويفسكي بجهد الارادة من داء القمار ، وسكن وجدانه بعض السكون فليس يعيث فيه ماكان يعيث فيه من تمزق • صحيح أن القلق مايزال يهز روحه ولكنه ليس قلق الحياة اليومية ، بل قلق المشكلات الفلسفية والمسائل الانسانية التي أوحت اليه بأمهات آثاره • ففي تلك الفترة انما كتب دوستويفسكي رواياته الثلاث: «الجن» ، و «المراهق» و «الاخوة كارامازوف» •

ان هذه الروايات الثلاث أفكار تحيا فى أشخاص •

ان دوستويفسكى لا يعرض مذهبا فلسفيا جامدا يدعو اليه ويتعصب له • ان تعدد الاشخاص الذين يصورهم دوستويفسكى يتيح عرض تلك الأفكار فى مختلف جوانبها ويتيح ابرازها بمزيد من الوضوح فى تعارضها ، ويتيح اظهار الفروق الدقيقة بينها وتقليب الرأى فيها على شتى وجوهها ، فلا يضع القارىء أمام حلول حاسمة أو قناعات قاطعة • ومن هنا يجىء اختلاف الاجتهاد فى تحديد موقف دوستويفسكى ، وتفاوت الرأى فى تعيين اتجاهه وتعارض التفسير فى تعريف الحل الذى ينتهى اليه • فمن قائل : ان دوستويفسكى قد صار الى المحافظة ، ومن قائل : بل انه عاد يتعاطف مع الثوريين ، ومن زاعم انه قد مضى الى أقصى التطرف القومى الروسى ، ومن زاعم أنه ، على عكس ذلك ، قد فتنته أوروبا فتنكر لروسيا ، ومن مدع أنه قد ارتد الى أشد التعصب المسيحى الاورثوذكسى ، ومن مدع أنه على خلاف ذلك ما يزال يساوره الشك ، وينازعه الالحاد •

والواقع أن دوستويفسكى قد وصل من جهته الى حلول ، ولكن هذه الحلول مركبة لا بسيطة ، معقدة غير سهلة ، فان طبيعته كانسان ، ووظيفته كروائى قد أملتا عليه مجتمعتين أن يعرض لمناقشة المشكلات أكثر من أن يخلص الى حلها • فما هى تلك المشكلات التى يثيرها دوستويفسكى ، او تثور فى نفس دوستويفسكى ؟

فى قمة هذه المشكلات تقع المشكلة الميتافيزيقية : « كيف يتفق مع وجود الله ، الرحيم القادر ، وجود الشر ؟ » • لقد كتب دوستويفسكى الى زوجته سنة ١٨٧٥ يقول ان سفر أيوب يمرضه : « اننى أقرأ فى هذا السفر ثم ادعه ، وآخذ أسير فى الغرفة وأنا أكاد أبكى •• ان هذا السفر، يا آنيا ، فذ ، ولكنه واحد من الأسفار التى أثارت دهشتى منذ أن كنت طفلا صغيرا •• » • وان الشر الاخلاقى ، ان ارادة الشر لدى الانسان ، هى التى عذبته خاصة • لقد فهم دوستويفسكى أكثر من أى انسان آخر قوة الالحاد الغربى الحديث الذى لا يجحد الله فحسب ، بل يجحد الخليقة أيضا ، ويكفر بعلة وجود العالم والحياة • لذلك نرى دوستويفسكى ، حين يتناول النقاد اللبراليون كتابه «الاخوة كارامازوف» ، فيقولون عن ايمانه بالله انه «رجعة» ، نرى دوستويفسكى يثور عندئذ ويهتف مستاء : «لا ، اننى لم أومن بالله ولم اعترف به كما يفعل طفل ، وانما أنا وصلت الى

هذا الايمان صاعدا من الشك والالحاد بمشقة كبيرة وعذاب أليم» • ليس ايمان دوستويفسكى ايمان العجائز •

والمشكلة الثانية هي مشكلة الانسان : الانسان سر • ان للانسان طبيعته السوية : « ان جميع البشر ، حتى الأوغاد منهم ، هم فى أكثر الحالات ، أسذج وأبسط مما نتصور حين ننظر الى أفعالهم ••» • ولكن هذه الطبيعة يمكن أن تنفتح لقوى لا سبيل الى مغالبتها ، تأتى من أسفل أو تهبط من أعلى • فالشر يتشبث بالانسان ويلتهمه التهاما «كحشرة» ، «كعنكبوت» كريه ، « كرتيلاء » قاتلة اللدغ • ولهذا الشر صور شتى مختلفة : هو الشهوانية ، والأنانية ، والبـخل ، والرغبة فى السيطرة ، والحاجة الى تعذيب الآخرين والى تعذيب النفس أيضا ، ولو «لمجرد القيام بدور غير متوقع» • ولكن هذه الاندفاعات التى تأتى من غياهب « القبو » تقابلها نداءات سماوية هى التفانى ، والندامة ، والتوبة ، والحب ، وأحلام ملهمة ، وبصيرة نافذة ، ووجد ونشوة • « ان الانسان واسع ، واسع سعة رهيبة» • هو فى حجم الكون بأسره •روحه ميدان قتال «يصطرع فيه الاله والشيطان» • ذلكم هو الاعتقاد الذى انتهى اليه دوستويفسكى بعد تجربة السجن وخبرة الحياة ، غائصا فى قرارة النفس ، نفس الآخرين ، ونفسه هو •••

وهنا تطرح مشكلة العلاقات بين هؤلاء البشر بعضهم وبعض، ومشكلة العلاقات بينهم وبين الله • ما قيمة المجتمع ؟ ان المجتمع يقوم على العدالة• ولكن دوستويفسكى قـد بلا عدالة البشر فى ذات نفسه ، وخبر نتائجها فيما حوله • لقد درس دوستويفسكى أساليب القضاء ، وشهد محاكمات ، وتحدث مع قضاة ، وتساءل عن العدالة قلقا، فانتهى الى أن العدالة لا سلطان لها على الانسان • هى تفصل المجرم عن المجتمع ، وتلقى فى نفسه اليأس، ولكنها لا تشفيه • انها خلو من الروح الانسانية • ولا قيمة الا للنفس ، والدين وحده يقيم للنفس وزنا ، الدين وحده يحسب حسـاب النفس • ليت الدولة تستطيع أن تصبح مسيحية ، ليتهـا تستطيع أن تنصهر فى الكنيسة ، ليت المجتمع الذى يشبه أن يكون الآن وثنيا يستحيل الى كنيسة ، الى كنيسة واحدة ، عامة ، شاملة ، مسيطرة !•• ولكن الكنيسة فى الغرب ، فى أوروبا ، قد انتزعت من الانسان حريته لتحقق سعادته ، كما ان الاشتراكية تريد أن تقوم على أنقاض الدين ، تريد ان تكون ملحدة لتحقق للانسان رخاءه ورفاهيته • ان النظم الاجتماعية التى تتصارع فى

أذهان الناس تشتمل كلها على مضيعة للانســـان : تستوى فى ذلك الرأسمالية البورجوازية ، والاشتراكية المادية الالحادية • أفلا يمـكن أن يتحقق نظام تتعانق فيه الاشتراكية والمسيحية ؟ ان الابطال الحقيقيين فى نظر دوستويفسكى هم أولئك الذين « يؤمنون بالله والمسيحية ، ولكنهم فى الوقت نفسه اشتراكيون » ، ولعل روسيا مهيأة لان تجيء بحل ، لان الشعب الروسى لايزال مؤمنا بالله ، كما أن الكنيسة الارثوذكسية لم تخضع لاغــــراء السلطة والحكم • تلك كانت أمنيـــات دوستويفسكى ونبوءاته • أكان رجعيا فى تفكيره ؟ أكان أعمى فيما تنبأ به ؟ ربما ! ولكن دوستويفسكى كان اشتراكيا على طريقته ، ويظل حقا أن المشكلات التى عذبته لم تكن عبثا ، وربما ظل الانسان يطرحها أبد الدهر •

مهما يكن من أمر ، فتلك هى الآراء التى أراد دوستويفسكى أن يعبر عنها ، فاخذ يبحث لهــــا عن اطار روائى • وسرعان ما وافاه ذلك الاطار الروائى : أسرة يمثــــل أبناؤها الاتجاهات المختلفة التى يمكن أن تتجهها الشبيبة فى المجتمع الروسى • تلك هى أسرة كارامازوف •

ان أبناء هذه الأسرة ، «الاخوة كارامازوف» ، يحملون عيوبا وراثية ، ولكن امكانيات جديدة تنضم الى تلك العيوب الوراثية • فأما أحدهم فهو شاب مثقف متحفظ ، فى نفسه بذور أخلاقية (انه ثائر على وجود الشر) ، ولكن نزعته العقلية هى قوة دمار وفناء : « اذا لم يوجد الله ، فكل شيء مباح» ، «أنا لم أستطع أن أفهم يوما كيف يمكن أن يحب الانسان قريبه» • ذلكم هو ايفان الذى سيجن • وأما الثانى فهو رجل متدفق الحيوية ثرثار ماجن ، ولكنه كريم طيب القلب ، ليس بذى ادعاء فكرى ، نفسه منفتحة للعـــواطف الخــــيرة وللتطهر بالألم ، ولـــكن ذلك لا يوقيه من الانكسار والانحدار • ذلكم هو دمترى الذى سيتهم بقتل أبيه ظلما • وأما الثالث فهو فتى سليم الفطرة بسيط الفكر طاهر القلب ، يسير فى الطريق القويم ، وينذر حياته لحب البشر وخدمة الناس والولاء للكنيسة • انه ، فى نظر دوستويفسكى ، الحياة والمســـتقبل • ذلكم هو اليوشا ، أصغر الاخوة كارامازوف •

قال أحد النقاد : « يبدو أن دوستويفسكى قد أراد أن يعبر فى الاخوة الثلاثة عن الجوانب الثلاثة لشخصه ، وعن المراحل الثلاث لحياته : فأما دمترى الشيلرى فهـــو يصـــور المرحلة الرومانسية التى انتهت بدخوله

السجن ، واما ايفان فهو يمثل السنين التي أوشك فيها أن يستعيض عن الايمان الديني بالاشتراكية الملحدة ، وأما أليوشا فهو خاتمة المطاف ، هو العودة الى الشعب الروسى والى الارثوذكسية » •

مهما يكن من أمر ، فان دوستويفسكي قد أعطانا في « الاخوة كارامازوف » خلاصة أدبه وفكره • ففي هذه الرواية نجد التعارض الذى رأيناه في رواية « المراهق » بين الاب والابن ، ونجد الصراع الذى رأيناه في « الجن » بين الالحاد والقداسة ، ونجد هيكل ما رأيناه في رواية « الأهبل » من شخوص ومن تنافس بين غريمين : لقد كان اسم اليوشا في مسودة «الاخوة كارامازوف» هو «الأهبل» ، وجروشنكا في « الاخوة كارامازوف» تذكر بأناستازيا بطلة «الأهبل» ، وايفان يذكر براسكولينكوف « الجريمة والعقاب » • وسمردياكوف يذكر بشخصية فوما فومتش في « قرية ستيبانتشيكوفو » • والمشكلة التي تطرح في حلم « المفتش الكبير » قائمة بذورها في قصة « الجارة » التي كتبها دوستويفسكي في شبابه •

ان « الاخوة كارامازوف » هي عالم دوستويفسكي كله مصغرا • ولكن صورة هذا العالم الآن تملك من الشفافية والوضوح وقوة البناء الفني وتملك حتى من جمال الاسلوب ، مالم يصل اليه دوستويفسكي في أي أثر من آثاره قبل ذلك • أما الاغوار التي هبط اليها فهي الاغوار نفسها ، وما أعمقها !

ولقد شعر دوستويفسكي بسعادة كبيرة حين فرغ من « الاخوة كارامازوف » ، وقد كتب يقول عندئذ : « أريد أن أحيا وأن أكتب عشرين سنة أخرى » • كان ذلك في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٠ ، ومات دوستويفسكي في ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٨٨١ •

« الاخوة كارامازوف » (BRATIA KARAMAZOVY)
نشرت هذه الرواية فصولا فى مجلة « الرسول الروسى »
سنتى ١٨٧٩ و ١٨٨٠ ، ثم صدرت أولى طبعاتها
المستقلة سنة ١٨٨٠

الإخـــوة كارامازوف

١٨٧٩ - ١٨٨٠

إهداء

إلى آنا جريجوريفنا دوستويفسكي

« الحق الحق اقول لكم : ان لم تقع حبة الحنطة في الارض وتمت فهي تبقى وحدها . ولكن ان ماتت تاتي بثمر كثير »(*)

(انجيل يوحنا ، الاصحاح الثاني عشر ، ٢٤)

إلى القارئ

حين أشرع فى قص حياة بطلى ، ألكسى فيدوروفتش كارامازوف ، أشعر بشىء من الارتباك ، وهو ارتباك له ما يبرره له : اننى أسمى ألكسى فيدوروفتش هنا باسم البطل ، وأنا أعرف حق المعرفة أنه رجل عادى لا يمتاز بشىء ، وليس فيه من العظمة كثير ولا قليل ، لذلك أتوقع أن تجىء الأسئلة التى لا بد أن تطرح علىّ ، من هذا القبيل : « ماذا فى صاحبك ألكسى فيدوروفتش هذا من أمر فذ ، حتى اتخذته بطلا ؟ ما الذى قام به من أعمال نادرة ؟ بماذا أصبح ذائع الصيت ، وأين ؟ ولماذا يجب علىّ أنا القارىء أن أضيع وقتى فى قراءة ما حفلت به حياته من أحداث وحركات ؟ » .

وهذا السؤال الأخير هو الذى يُربكنى أكثر من سائر الأسئلة ، هو الذى يقلقنى أكثر من سائر الأسئلة ، لأننى لا أستطيع أن أجيب عليه بغير قولى « اقرأوا الرواية ، فلربما تفهمون » . وما عسى أن يكون موقفى اذا قرأ القارىء الرواية ، فلم يوافقنى على رأيى ، ولم يشأ أن يسلم بأن صاحبى ألكسى فيدوروفتش شخصية فذة ؟ اننى مضطر الى ان أتساءل هذا التساؤل ، لأننى أتوقع ، على كثير من الأسف ، أن الأمر سيكون كذلك . فهذا الرجل يبدو لى فذاً ، ولكننى أشك أقوى الشك فى أن أصل الى اقناع القارىء بذلك . بل اننى لأراه بطلاً فعّالاً ،

بمعنى من المعانى ، رغم أن فعله يظل غامضاً ، يصعب تحديده . وهل في وسع المرء ، على كل حال ، أن يطلب الى الناس أن يكون سلوكهم واضحا مفهوما فى عصر كهذا العصر الذى نعيش فيه ؟ على أن هناك أمراً يبدو ثابتاً ، هو أن هذا الرجل غريب ، شاذ ! والغرابة والشذوذ تسيئان الى السمعة أكثر مما تدفعان الى العطف والاهتمام ؛ وخاصة فى عصر يجهد فيه الناس أن يوحدوا ما اختلف ، وأن يبددوا ما نشز ، التماساً لشيء من الوضوح والفهم فى هذه الفوضى العامة الشاملة . والشذوذ ، فى أغلب الأحيان ، سبيل الى التميز ، والتفرد . أليس كذلك ؟

مهما يكن من أمر ! اذا كنتم لا توافقون على هذا الرأى الأخير كل الموافقة ، واذا كنتم تجيبون بأن « الأمر ليس كذلك » ، أو بأنه « ليس كذلك دائماً » ، فقد يردُّ الىَّ هذا شيئاً من الثقة ببطلى ألكسى فيدوروفتش . لأن الانسان الشاذ ليس حتما — ليس دائماً — ذلك الذى يبتعد عن القاعدة ؛ حتى لقد يتفق ، خلافاً لهذا ، أن يحمل فى ذاته حقيقة عصره ، بينما يكون الناس ، جميع الناس ، من معاصريه ، قد ابتعدوا عن القاعدة الى حين ، كأنما دفعتهم عنها ريح هبت عليهم على حين فجأة ...

كان فى وسعى ، على كل حال ، أن أستغنى عن محاولة هذه التعليلات المربكة التى ليس لها قيمة ، وأن أدخل فى الموضوع رأساً بلا مقدمات : فاذا حظيت قصتى برضى القارىء ، قرأها دون ما حاجة الى هذا التمهيد ؛ ولكن مصيبتى فى الأمر أننى أعرض تاريخ حياة واحدة بعينها ، فى روايتين اثنتين مستقلتين ، الثانية منهما أخطر شأنا من الأولى، لأننى أقصُّ فيها أعمال بطلى فى العصر الذى نعيش فيه ، فى الأيام التى نجتازها . أما الأولى فقد جرت أحداثها منذ ثلاثة عشر عاما ، وليست فى

حقيقة الأمر رواية ، وانما هى فصل بسيط يصور حياة بطلى فى صدر شبابه . وكان يستحيل علىّ أن أعدل عن هذه القصة الأولى ، ولو فعلت، لاستحال فهم الأمور فى الرواية الثانية . وهذا ما يفاقم حيرتى الأولى كثيراً : اذا كانت رواية واحدة تبدو لى ، أنا الذى أكتبها ، كثيرة على حياة بطل بلغ هذا المبلغ من الغموض والابهام ، فكيف أستطيع أن أتقدم الى الناس بروايتين اثنتين ؟ كيف أبرر لهم مثل هذا الادعاء العريض ؟

أشعر بأن الجهود التى أبذلها للاجابة على هذه الأسئلة تضيعنى ، لذلك أعدل عدولاً حاسماً عن محاولة أى تعليل . وواضح أن القارىء الذى أوتى نفاذ البصيرة قد أدرك دفعةً واحدة ما أهدف اليه من وراء ذلك ، وفهم أننى لم أزد على أن التمست لنفسى العذر عن ذلك العدول، ولا أشك فى أن تضييعى الوقت الثمين فى كلام لا طائل تحته قد أحنقه. ولكن جوابى على هذه النقطة الأخيرة ماثل فى ذهنى . لقد استرسلت فى كلام عقيم ، وأضعت فى ذلك لحظات ثمينة ، لسببين اثنين : أولهما اللياقة ، وثانيهما المكر . « وبهذا ألفت نظر القارىء الى ضرورة الحذر، فى أقل تقدير » . ثم اننى لا يسوءنى كثيرا أن روايتى تنقسم قسمين، مع الاحتفاظ بما فى « مجموعها من وحدة أساسية » . ان القارىء يستطيع، بعد قراءة القصة الأولى ، أن يعرف بنفسه هل ينبغى له أن يحمّل نفسه عناء قراءة الثانية . وواضح أن لكل انسان حريته فى هذا كله ، بل ان فى وسع المرء أن يرمى الكتاب منذ قراءة الصفحات الأولى ، وأن يعقد النية على أن لا يعود اليه أبداً . على أن هنالك قراءً أوتوا حظاً من الرهافة ، فهم يريدون أن يمضوا فى قراءة الكتاب الى آخره ، مهما يكلفهم هذا

من عناء ، وذلك من أجـــل أن يستطيعوا الخـــلوص الى رأى يتصف بالحياد ، ويتفادى الزلل • وهذا هو شأن النقاد الروس عامة ، على وجه التخصيص • واليهم انما أرتاح الآن : لقد قدمت لهم ، رغم ما يتصفون به من قوة الوجدان ومن الحرص على الدقة ، حجة مشروعة للتوقف عن القراءة عند الفصل الأول •

هذه اذن مقدمتى • وانى لأعترف بأنهـــا زائدة لا محـــلّ لها • ولكننى كتبتها ، ومن أجل ذلك أحتفظ بها • لا بأس •

ولننتقل الآن الى الموضوع •

الجزء الأول

الباب الأول: قصة أسرة صغيرة طيبة

١

فيدور بافلوفتش كارامازوف

كان ألكسى فيدوروفتش كارامازوف الابن الثالث لمالك الأطيان فيدور بافلوفتش كارامازوف* الذي اشتهر جداً في مقاطعتنا ، وأحدثت نهايته الفاجعة التي ظلت بلا تفسير ووقعت منذ ثلاثة عشر عاما على وجه الدقة* ، ضجة كبيرة في الماضي (وما يزال الناس يتحدثون عنها الى يومنا هذا (سأروى قصة نهايته تلك متى آن الأوان ، وسأقتصر مؤقتاً على الاشارة الى أن هذا « البوميستشيك » (كما كان يسمى عندنا ، رغم أنه لم يكد يعيش أبدا في أراضيه) كان انسانا عجيبا . انه ينتمي الى ذلك النوع من الأفراد الشاذين ـ وهو نوع منتشر انتشارا كافيا والحق يقال ـ الذين يجمعون بين طبيعة سيئة رديئة منحطة وبين قدر كبير من السخف ، ولكن سخفهم سخف خاص ، فهم يعرفون حق المعرفة كيف يصرّفون أعمالهم المادية الصغيرة وليس فيهم من قلة العقل الا المظهر . من ذلك أن فيدور بافلوفتش هذا قد بدأ من الصفر ان صح التعبير . لقد كان مالكا صغيرا جدا ، يعيش على موائد الناس ، يأكل تارةً عند هذا وتارة عند ذاك ، ويحيا حياة انسان طفيلي تماما ؛ ولكن وُجدت عنده ، حين مات ، ثروة ضخمة تبلغ مائة ألف روبل عداً ونقداً . هذا لا ينفي أنه كان بين سكان منطقتنا من أكثرهم شذوذا

وغرابة . أعود فأكرر أن شذوذه لم يكن هو الغباوة ، فان أكثر هؤلاء الشاذين لا يعوزهم الذكاء ولا يعوزهم الدهاء والمكر ، وانما الأمر أمر سخف ، سخف خاص ، سخف وطني ان صح التعبير .

لقد تزوج هذا الرجل مرتين وأنجب ثلاثة أبناء ، فأما الأكبر فهو دمترى فيدوروفتش الذى ولد له من زواجه الأول ، وأما الآخران فهما ايفان والكسى اللذين ولدا له من زواجه الثاني . كانت امرأته الأولى من أسرة ميوسوف الغنية العريقة فى نبالتها التى كان أفرادها ملاكين أيضا فى مقاطعتنا . فاذا سألتنى كيف أمكن لفتاة تملك بائنة كبيرة بل وتتمتع بالجمال وتنعم الى ذلك بذكاء متفوق ــ ذكاء من هذا الذكاء الذى نلقاه كثيرا بين نساء جيلنا ولكنه لم يكن نادرا كذلك فى الماضى ــ أقول اذا سألتنى كيف أمكن لفتاة هذه مزاياها أن تتزوج « طِرْحاً » تافهاً هذه التفاهة (كذلك يلقبه جميع الناس) قلت ان هذا أمر لا أحب أن أحاول تعليله وتفسيره . لقد أتيح لى أن أعرف على كل حال فتاةً ــ هى من الجيل القديم الرومانسى ــ ظلت خلال سنين طويلة هائمة هياما عجيبا بحب رجل كان فى وسعها أن تتزوجه بسهولة كبيرة ، ولكنها مع ذلك انتهت الى أن تتخيل بنفسها جميع العوائق والعقبات الكأداء التى تحول بينها وبين تحقيق سعادتها ، فاذا هى فى ذات ليلة عاصفة ترمى نفسها من أعلى شاطىء وعر يشبه أن يكون جُرْفاً ، واذا هى تقضى نحبها على هذه الصورة ضحيةً لنزواتها الخاصة ، دون أن يكون لها هدف الا أن تشبه أوفيليا بطلة شكسبير ؟ حتى أن فى وسع المرء أن يتصور أنه لو كان هذا الجرف الذى اختارته منذ زمن طويل متحمسةً له أشد التحمس ، لو كان أقل جمالاً وروعة ، ولو كان فى مكانه شاطىء منبسط عادى مبتذل ، اذن لأمكن أن لا يقع حادث الانتحار هذا . هذه قصة واقعية صادقة ، وهنالك من الدلائل ما يبيح لنا أن نعتقد



فيدور بافلوفتش كارامازوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

بأن الأعمال التي من هذا النوع كانت كثيرة في حياتنا الروسية منذ جيلين أو ثلاثة أجيال • فلعل زواج آديلائيد ايفانوفنا ميوسوفا قد كان هو أيضا ثمرة مؤثرات غريبة وخيال جامح ؟ لعلها أرادت بذلك أن تؤكد استقلالها النسوي ، وأن تخرق الأحكام الاجتماعية السائدة ، وأن تتحرر من طغيان أسرتها وتسلط أقربائها • لعل خيالا طيّعاً قد أقنعها ، ولو خلال لحظة قصيرة ، بأن فيدور بافلوفتش ، رغم ما استقر في أذهان الناس عنه من أنه انسان طفيلي ، هو واحد من أشجع الرجال وأطرفهم في عصر التقدم هذا الذي يصارع أخطاء الماضي ، على حين أن الرجل لم يكن في حقيقة الأمر الا مهرّجاً شريراً حقيرا لا أكثر من ذلك • وقد أضيف الى هذا أمر يؤثر في النفس ويلهب الخيال هو أن الزواج قد سبقه اختطاف ، فذلك ما سحر آديلائيد ايفانوفنا وفتنها عن نفسها • أما فيدور بافلوفتش فقد كان متهيئاً تهيؤاً خاصاً ، بحكم وضعه الاجتماعي ، لحل من هذا النوع ، لأنه كان يتمنى بكثير من الحماسة والحرارة في ذلك الوقت أن تعرض له فرصة نجاح في الحياة ، بأية وسيلة من الوسائل • فلا شك أن التسلل الى أسرة ممتازة والحصول على بائنة ضخمة كانا يغريانه أيما اغراء • وأغلب الظن أن الحب لم يكن له أي شأن في هذا الزواج ، سواء من جهة الخطيبة ومن جهة الخطيب، رغم ما كانت تنعم به آديلائيد ايفانوفنا من جمال لا يُجحد ولعل ذلك كان حالة فريدة في حياة فيدور بافلوفتش الذي ظل طوال حياته انسانا تلتهب عواطف الحب عنده التهابا شديدا ، لأنه بطبيعته شهواني يمكن أن يكلف في طرفة عين أيّ امرأة يقع عليها بصره ، شريطة أن يشجّع• ومع ذلك كانت آديلائيد ايفانوفنا المرأة الوحيدة التي لم تستثر هواه ولا أضرمت عواطفه •

ولم تلبث آديلائيد ايفانوفنا أن أدركت ، بعد الاختطاف رأساً ، أنها

لا تشعر نحو زوجها الا بالاحتقار • ولم تلبث عواقب مثل هذا الزواج في مثل هذه الظروف أن ظهـــرت • فرغم ان اسرة المرأة قد سارعت تذعن للأمر ولم ترفض أن تمهر الرجل بائنة الهاربة ، فان حياة الزوجين سرعان ما أصبحت مضطربة عاصفة تتخللها المشاكل ولا تنقطع فيهـــا المناقشات • وقد قيل ان المرأة عرفت كيف تبرهن في هذا الظرف على نبل ورفعة لم يبرهن على مثلهما فيدور بافلوفتش الذى استطاع ، كمـا نعرف اليوم ، أن يدبر أموره منذ البداية بحيث يأخذ منها ثروتها دفعةً واحدة ، وهي ثروة تبلغ خمسة وعشرين ألف روبل ، فما كاد يقبض هذا المبلغ الضئيل حتى كانت الزوجة قد فقدت رأس مالها الى الأبد • أما القرية وأما المنزل الرخى الذى كانت تملكه في المدينـة ، وهما جزء من البائنة ، فقد ظل الرجـل زمناً طويلاً يحـاول بجميع الوسائل أن ينقلهما الى ملكيته بسند قانوني ، وكان يمكن أن يظفـر بذلك حتما لأن ما كانت تشعر به المرأة نحو زوجها من احتقار واشمئزاز ونفور بتوسلاته الوقحة التي لاحياء فيها ، وبمطالباته المستمرة التي لا تنقطع ، كان قـد حضّها على أن تتنازل له عن القرية والمنزل سأماً وضـجرا ورغبةً في التخلص منه ، لولا أن أسرة آديلائيد ايفانوفنا قد تدخلت في الأمر في الوقت المناسب فوضـعت حداً لهـــذه المكائد وحالت دون ذلك التبديد • وقد عُرف من مصدر موثوق أن معارك حقيقية قد نشبت بين الزوجين ، وادعى بعضهم أن الغالب المنتصر في تلك المعارك لم يكن فيدور بافلوفتش بل آديلائيد ايفانوفنا ، المرأة السمراء ذات الطبع الحاد والارادة الجريئة والمزاج النزق والجسم القوى قوةً مدهشة • وقد انتهى الأمر بالزوجة الى هجر المنزل والفرار من عند فيدور بافلوفتش مع طالب كان يعمـل مربيا ويعيش في فقر مدقع وبؤس مهلك ، تاركةً لزوجها أمرَ الاهتمام بالصغير ميتيا الذى كان يومئـــذ في السنة الثالثة من عمـره • وسرعان

ما استغل فيدور بافلوفتش هـذه الفرصة فأسكن في منزله نساءً من كل نوع ، وأخـذ يتعاطى الشراب بغـير رادع ولا قصـد . وفي أثناء ذلك أخـذ يطـوف في أرجاء الاقليم متبـاكيا شاكيـا من أن آديلائيـد ايفانوفنا قد هجرته ، حاكيا شقاءة لجميع الناس . وكان وهو يفعل ذلك لا يتورع أن يقصّ عن حيـاته الزوجية تفاصيل لا بد أن يحمر الزوج خجلاً من قصّها . وأغرب ما في الأمر أنه كان يجـد نوعا من اللذة في أن يمثل أمام الملأ هذا الدور المضحك ، دور الزوج الذي خانته زوجته ؛ وكأنما كان يسره أن يكون وضعه هذا الوضـع ، فهو يصف النازلة التي ألمت به مضيفا اليها مزيّنا لها ، حتى لقـد كان بعضهم يقول له في معرض السخر منه والتهكم عليه : « لكأنك يافيدور بافلوفتش قد نلت ترقيـة أو ظفرت بترفيع ، فأنت تبـدو مسرورا كل السرور رغم ألمك الشديد . » ؛ وزعم بعضهم أن فيدور بافلوفتش لم يسؤه أن تتيح له هذه المناسبة فرصة العودة الى تمثيـل دور المهرّج ، حتى لقد ألمع هؤلاء الى أنه يتظاهر عامدا بأنه لا يلاحظ ما في وضعه من أمور تبعث على الضحك ، وذلك من أجل أن يزيد ما يتصف به هـذا الوضع من طابع هزلي مضحك . ومن يدري مع ذلك ؟ لعل جانبا من سذاجة كان له شيء من تأثير أيضا ! وقد انتهى الرجل الى اكتشاف أثر امرأته الهاربة . لقد كانت المسكينة في بطـرسبرج ، ذهبت اليهـا مع صاحبها الطالب ، وتحررت فيها تحررا لا يخطر ببالها أن تتراجع عنه . اضطرب فيدور بافلوفتش لهذا النبأ اضطرابا شديدا ، وقرر على الفور أن يسافر الى بطرسبرج حتى دون أن يعرف هـو نفسه الهدف الذي يسعى الى تحقيقه بهذا السفر . وكان يمكن فعلاً أن يسافر الى بطرسبرج لولا أنه حين اتخذ هذا القرار قد شعر أكثر من أي وقت مضى بأن من حقه أن يسكر سكراً قوياً بغية أن يتشجع على القيـام بهـذه الرحلة .



ام اليوشا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وفيما كان يسكر هذا السكر علمت أسرة زوجته أن الشقية قد قضت نحبها . لقد توفيت المرأة فجأة في غرفة حقيرة تحت السطح من أحد المنازل ، فبعضهم يقول انها ماتت بمرض التيفوس وبعضهم يقول انها ماتت من البؤس والجوع اللذين هدّماها تهديما . فلما تناهى هذا الخبر الحزين الى مسامع فيدور بافلوفتش كان في حالة سكر شديد ، فأخذ يركض في الشوارع رافعا ذراعيه الى السماء صائحا بأعلى صوته : «الآن حررت عبدك يا رب !» ذلك ما رواه بعضهم ، ولكن في رواية أخرى أنه حين علم بالنبأ أخذ ينتحب انتحاب طفل صغير ، فاذا رآه الرائي أخذته به شفقة ، رغم ما يوقظه في النفس من اشمئزاز وتقزز . وقد تكون الروايتان كلتاهما صحيحتين على كل حال ، فلعل الرجل قد اغتبط بما ظفر به من حرية ، ولكنه في الوقت نفسه بكى صادقا على تلك التي وهبت له هذه الحرية . ان في البشر ــ وحتى في أعتى المجرمين ــ من السذاجة والطيبة فوق ما قد تتخيل . وهذا يصدق علينا نحن أيضا .

٢

كيف تخلص من ابنه الأول

ليس من الصعب طبعا أن تتخيل كيف يتصور مثل هذا الرجل واجباته أباً ومربياً . لقد تصرف، من حيث هو أب ، التصرف الذى يجب أن نتوقعه منه : أى انه لم يعبا قط بالطفل الذى ولد له من آديلائيد ايفانوفنا ، وأنه جهله جهلاً تاما ، لا لأنه يضمر للصغير كرهاً وعداوة ، ولا لأنه يحمل له حقداً وضغينة من حيث أنه زوج خائنه امرأته ، بل لسبب بسيط جدا هو أنه قد نسى حتى وجود هذا الابن . وبينما كان الأب يزعج الناس بشكاواه ، ويصدّع رءوسهم بندبه حظّه العاثر ، مع اتخاذه منزلة مكانا للفسق والعهر والفجر فى الوقت نفسه، فان خادما وفيا أمينا اسمه جريجورى قد حنا على الصغير ميتيا* الذى كان عمره عندئذ ثلاث سنين ، وضمّه اليه وعنى به، فلولا أن هذا الخادم قد تولى أمر الصبى لما وُجد من يهتم به ، ولما تهيأ له قميص يُستبدل بقميص . زد على ذلك أن أسرة أم ميتيا قد بدا أنها نسيت الصبى هى أيضا فى الآونة الأولى . كان جدُّ الصبى ، وهو الشيخ ميوسوف ، أبو آديلائيد ايفانوفنا ، قد بارح هذا العالم الى العالم الآخر ؟ وكانت أرملته ،

جدة الصبي، التي انتقلت الى موسكو ، تعاني من آلام المرض ما لم يتح لها أن تتدخل في الأمر • أما أخوات آديلائيد ايفانوفنا فكن قد تزوجن • فكذلك لبث الصبي ميتيا سنةً كاملة مقيما مع الخادم جريجوري في كوخ يسكنه في آخر فناء المنزل • وأغلب الظن أن الأب لو تذكر ابنه في مناسبة من المناسبات (وهو لا يمكن أن يجهل أن له ابنا على كل حال) لأسرع يطرده الى ذلك الكوخ ، حتى لا يكون الصبي عقبةً في طريق عهره وفسقه وفجوره • ولكن حدث أن أحد أبناء عمومة المتوفاة آديلائيد ايفانوفنا ، واسمه بطرس الكسندروفتش ميوسوف ، قد رجع في ذلك الأوان من باريس • ان بطرس هذا ، الذي سيعيش في المستقبل سنين طويلة خارج روسيا ، كان عندئذ شابا في شرخ الشباب ، وكان رجلا من نوع خاص يختلف كل الاختلاف عن أفراد أسرة ميوسوف : لقد نشأ وترعرع وتربى في العواصم الكبرى ، وأحالته اقامانه في الخارج رجلاً غربياً ، فكان أوروبياً الى أن أصبح في أواخر حياته لبرالياً على طراز ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠ ؛ وكان على صله بأكثر المفكرين لبرالية وأشدهم تطرفاً في زمانه ، سواء في روسيا وفي خارج روسيا ، حتى لقد عرف برودون وباكونين* معرفة شخصية • فلما بلغ خاتمة المطاف من تجواله وترحاله كان يحلو له كثيرا أن يستحضر ذكرى مشاعره أثناء الأيام الثلاثة الأولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ التي قامت في باريس ، وكان يحلو له كثيرا أن يُفهم سامعيه في هذه المناسبة أنه أوشك أن يشارك في تلك الثورة ، حتى لقد وجد نفسه فوق المتاريس • كان هذا الرجل يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر في ذلك العصر بألف نفس*• وكانت أراضيه العظيمة تقع على مقربة من مدينتنا الصغيرة وتتاخم أراضي ديرنا الشهير الذي أقام عليه ميوسوف منذ صدر شبابه ، أي بعد أن آلت اليه هذه الأراضي فورا ، قضيةً طال أمدها فما تنتهي • والقضية تتعلق

بحقوق الصيد فى النهر أو حقوق قطع الأشجار فى الغابات ، أو غير ذلك مما لم أعد أذكره ، وهى قضية تافهة فى ذاتها ، ولكن صاحبنا قدّر أن من واجبه كمواطن صالح وانسان متنوّر أن يقاضى « اكليركيين » • فلما علم بمصير آديلائيد ايفانوفنا التى لا شك أنه كان يتذكرها حتى لقد لاحظها فى الماضى ، ولما علم بوجود الطفل الصغير قرر أن يتدخل فى الأمر رغم ما كان يحمله لفيدور بافلوفتش من احتقار ، ورغم ما كان يحسه ازاء سلوكه من شعور الاستياء والاستنكار ، وهو شعور طبيعى فى شاب • ففى هذه الظروف انما التقى لأول مرة بفيدور بافلوفتش فأبلغه صراحةً بغير لفٍ ولا دوران أن فى نيته أن يأخذ على عاتقه تربية الصبى • وقد روى فيما بعد ، خلال سنين طويلة ، كأنما ليبرز أخلاق فيدور بافلوفتش ، أن فيدور بافلوفتش هذا ، حين سمع كلامه ، بدا عليه فى أول الأمر أنه لا يفهم أىّ صبىٍ يعنى ، وظهر عليه الاندهاش من أن يكون له ابن يسكن فى مكانٍ ما من المنزل • وهبنا سلمنا بأن فيما رواه بطرس الكسندروفتش شيئا من غلو ومبالغة ، فمما لا شك فيه أنه لم يبتعد عن الحقيقة كثيرا • فمن الحقائق الثابتة أن فيدور بافلوفتش كان طوال حياته يحب أن يمثّل وأن يظهر على حين فجأة فى دور ليس متوقعا ، دون أن يكون هنالك داع الى ذلك ، ودون أن يجنى من ذلك نفعاً ، بل ربما لحقه منه ضرر فى كثير من الأحيان • وتلك صفة نقع عليها لدى كثير من الناس قد يكونون على جانب عظيم من الذكاء، فليست وقفاً على فيدور بافلوفتش وحده وليست خاصة به دون سواه • وصرّف بطرس الكسندروفتش الأمور بهمة وحزم وحماسة ، فعيّن آخر الأمر وصياً على الطفل (بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش) ، لأن هناك بقية من ميراث خلفته الأم هو منزل وأرض صغيرة • هكذا مضى ميتيا يعيش فى منزل ابن عم أمه ، الذى لم يكن له أسرة فأسرع يعود الى باريس فيقيم

فيها اقامة طويلة بعد أن رتب أموره وتقاضى ريع أراضيه ، وعهد بالصبى الى احدى بنات أعمامه وهي سيدة من موسكو • وانتهى به الأمر ، أثناء حياته الباريسية الطويلة ، الى أن ينسى الصبى هو أيضا ، ولا سيما بعد ثورة شباط (فبراير) تلك الشهيرة التى أثرت في خياله تأثيراً كبيراً حتى أصبح فكره مشدودا اليها فلا فكاك له منها • وماتت السيدة الموسكوفية ، فانتقل الصبى الى منزل احدى بناتها المتزوجات • ويظهر أنه غيَّر عشه بعد ذلك مرةً رابعة ، ولكننى لا أريد أن أفيض في ذكر هذه التفاصيل الآن ، لا سيما وأننى سأتحدث كثيرا عن هذا الابن الأول من أبناء فيدور بافلوفتش ، وحسبى أن أسوق بعض الاشارات التى لا غنى عنها ، والتى بدونها يستحيل عليَّ أن أشرع فى قصِّ هذه الرواية •

فأقول قبل كل شيء أن دمترى فيدوروفتش هذا قد شبَّ على الاعتقاد ، رغم أن لأبيه فيدور بافلوفتش ثلاثة أبناء ، بأنه يملك ثروة ضخمة سيئول اليه أكثرها فيكفل له الاستقلال • وقد قضى مراهقته والسنين الأولى من شبابه حياةً مضطربة • لم يتم سنى دراسته في الكوليج ، ثم دخل مدرسة عسكرية ، وأرسل بعد ذلك الى القفقاس ، ونال هنالك ترقية • ولكنه تورط في مبارزة ، فجرِّد من رتبته ، ثم استرد شاراته ، ثم راح يلهو ويقصف ، فبدد مبالغ لا بأس بها ••• ومع ذلك فانه لم يبدأ بتلقى أموالٍ من أبيه فيدور بافلوفتش الا حين بلغ مبلغ الرجال ، أما قبل ذلك فقد كان يعيش على ديون يتراكم بعضها فوق بعض • ولم يَرَ أباه لأول مرة منذ تركه فى طفولته ، ولم يعرفه ان صح التعبير ، الا بعد بلوغه سن الرشد بقليل ، وذلك حين جاء الى مدينتنا يناقش أباه فى أمر ميراثه • ويظهر أنه نفر من أبيه دفعةً واحدة ، فلم يمكث عنده الا زمنا قصيرا ، ثم قفل راجعا بعد أن حصل منه على مبلغ

من المال ، وأبرم مع أبيه اتفاقا غامضا على أن يرسل اليه أبوه ريع أرضه تباعا ، دون أن يستطيع حمل أبيه على أن يعيّن له قيمة الأرض وايرادها (هذه نقطة يجب أن تظل ماثلة في أذهاننا) . وقد أدرك فيدور بافلوفتش في تلك اللحظة ، ومنذ سمع الكلمات الأولى التى قالها ابنه (وهذه أيضا نقطة يجب أن نسجّلها) أن الفكرة القائمة في ذهن ميتيا عن ثروته فكرة مغالية . وسُرّ الأب بذلك سرورا عظيما ، لأنه بيّت أمورا تحقق له مصالحه . لقد لاحظ أن الفتى خفيف طائش مندفع تسيطر عليه أهواؤه الجامحة ، وتتحكم فيه رغباته العنيفة ، وأنه نافد الصبر متعجل ، وانه الى ذلك يحب اللهو والقصف . فاستنتج من ذلك ببساطة أن الشيء الذى يهم هذا الفتى خاصةً هو أن يحصل على بعض المال لاشباع حاجاته المباشرة ، فمتى تحقق له ذلك هدأ فورا ، ولو الى حين طبعا . أدرك فيدور بافلوفتش الفائدة التى يمكن أن يجنيها من هذه الصفة التى يتصف بها طبع ابنه ، وجنى هذه الفائدة فعلا ، فكان يتحرر من مطالب ابنه بدفعاتٍ زهيدة من المال يرسلها اليه متقطعةً من حين الى حين . حتى اذا نفد صبر ميتيا أخيرا ، عاد الى مدينتنا بعد أربع سنين ، ليسوّى قضية الميراث هذه تسوية نهائية مع أبيه ، فما كان أشد دهشته حين عرف أنه أصبح لا يملك شيئا البتة ، فقد قبض بتلك الدفعات المتعاقبة مبالغ يصعب تحديدها على وجه الدقة ، ولكنها تتجاوز قيمة الأرض الموروثة على كل حال ، فهو المدين لأبيه الآن ، وليس أبوه مدينا له بشيء ؛ وما كان أشد دهشته حين عرف أنه بحكم الاتفاق الذى أبرمه مع أبيه أصبح لا يحق له أن يطالب بشيء البتة ! الخ الخ ... صُعق الفتى ، وأحسّ بأنه خُدع وغُرِّر به ، وشعر بأن أباه يكذب عليه ، فثارت ثائرته حتى بدا كمن طاش لبه وذهب صوابه وجن عقله . تلكم هى الوقائع التى أدت الى

الكارثة .. الكارثة التى تتألف من سرد قصتها روايتى الأولى التمهيدية، أو قل يتألف من سرد قصتها البناءُ الخارجى لتلك الرواية . ومع ذلك ينبغى لى قبل أن أعالج الرواية أن أتكلم عن ابنى فيودور بافلوفتش الآخرين ، ينبغى لى أن أتكلم عن أخوى ميتيا ، وأن أذكر كيف جاءا الى هذه الحياة الدنيا .

٣

الزواج الثاني وابنا الفراش الثاني

بعد أن تخلص فيدور بافلوفتش من ابنه ميتيا ولمّا يكد يبلغ الرابعة من عمره ، لم يلبث أن تزوج مرةً أخرى . وقد دام زواجه الثانى هذا زهاء ثماني سنين . وكانت امرأته الجديدة، صوفيا ايفانوفنا ، فى هذه المرة أيضا ، شابة فى ريعان الصبا ، من اقليم مجاور ذهب اليه فيدور بافلوفتش فى صحبة يهودى صغير حقير من أجل قضية تتعلق بشراء أرض . ذلك أن فيدور بافلوفتش ، على استرساله في اللهو والقصف والشراب والمجون والفسق ، لم ينقطع أثناء ذلك أبدا عن الاهتمام باستثمار رءوس أمواله، وقد عرف دائما كيف يصرّف شئونه الصغيرة تصريفا فيه حكمة وتدبر ، ولكن بشىء من النذالة والغش فى كثير من الأحيان كما يُتوقع ذلك من مثله . وكانت صوفيا ايفانوفنا فتاة يتيمة لم تعرف أسرتها يوما . انها ابنة شماس مغمور ، نشأت وترعرعت في منزل ارستقراطى ثرى هو منزل زوجة الجنرال فوردخوف ، التى كانت تراقبها بعين يقظى ساهرة فهى تحسن اليها وتربيها وتضطهدها فى آن واحد . لست أعرف جميع التفاصيل ولكننى سمعت من يروى أن هذه البنت الصغيرة التى كانت تعيش فى كنف الجنرالة وكانت مخلوقة مسكينة عذبة دمثة ، قد وُجدت ذات يوم تحاول أن تشنق نفسها بمسمار

فى شونة ، من فرط ما ضاقت بقسوة الفورات المستمرة والنزوات المتصلة تصبها على رأسها هذه العجوز التى كانت فى الظـاهر شريرة ، ولكنها كانت فى حقيقة الأمر امرأةً جعلها الفراغ متسـلطة تسلطاً لا يطاق ، مستبدة استبدادا أحمق لا يحتمل • وقد خطب فيدور بافلوفتش الفتـاة فسألوا عنه ، فرفضوه • فما كان منه الا أن فعل ما سبق أن فعله فى المرة الأولى ، فعرض عليهـا أن يختطفهـا • وأغلب الظن بل الأرجح أنهـا ما كانت لتوافق على الهروب معه لو عرفت تفاصيل حياته خيراً مما عرفتها. ولكن السمعة السيئة التى نالها فيـدور بافلوفتش لم تكن قد تجاوزت حدود اقليمنا الى الاقاليم الأخرى ، وكانت الفتاة المسكينه لا تعرف الا شيئا واحدا هى أن وجودها فى قاع نهر من الأنهار خير من بقائها فى منزل هذه السيدة المحسنة اليها • هكذا غادرت الشقية بيت محسنة الى بيت محسن • ولم يقبض فيدور بافلوفتش فى هذه المرة قرشا واحداً ، لأن الجنرالة قد غضبت غضبا شديدا فلم تهب للعروسين شيئا عدا اللعنة. على أن فيدور بافلوفتش لم يكن قد عوّل على الحصول على مال فى هذه المرة ، وانما أغراه ما كانت تتمتع به الفتاة البريئة من جمال أخاذ ، وفتنه ما رآه فى نظرتها من صفاء أحـدث تأثيرا عميقا فى نفس هـذا الرجل الشهوانى الذى كان لا يحفل الا بملذات الحس ، هذا الرجل السـاقط الذى لم تجتذبه فى المرأة حتى ذلك الحين الا المفاتن الخسيسة • « ان تينك العينين الصغيرتين البريئتين قد نفذتا الى نفسى عنـدئذ كسكين » : كذلك اعتاد أن يقول فيما بعد ، وهو يضحك تلك الضـحكة الساخرة المعهودة فيه • ومن الجائز أيضا أن ذلك الافتتان بالبراءة لم يكن لدى فاسق مثله الا صـورة من صور اللذة الحسية • وقد اعتقـد فيدور بافلوفتش ، لأنه لم ينل أى تعويض مالى ، أنه ليس عليه أن يتحرج مع امرأته أى تحـرج ، واستغل شعورها بأنها « مذنبة » فى حقه هو الذى

« أنقذها من الحبل » ، واستغل من جهة أخرى مايتصف به طبعهـا من عذوبة مفرطة واذعان عجيب ، فركل بقدميه أبسـط قـواعد اللياقة التى توحيها الحياة الزوجية ، فكان يقيم حفلات الخلاعة والفجور على مرأى منها ، وكان يجيء الى البيت بنساء فاسقات ساقطات • ويجب أن أذكر ، فى هذه المناسبة ، كسمة من السمـــات التى تميز هذه البيئه ، أن الخادم جريجورى ، الانسان الماحك المتجهم الغبى العنيد ، الذى كان قد كره زوجة سيده الأولى ، آديلائيد ايفانوفنا ، قد انحاز فى هذه المرة الى صف الزوجة الجديدة ، ودافع عنها ، وكثيرا ما اختصم مع فيدور بافلوفتش فى أمرها ، مستعملا فى مخاطبته ألفاظا توشك أن لا تكون مقبـــولة من فم خادم • حتى لقد اتفق له ذات مرة أن وضع حدا لحفلة خليعة ، مستعملا القوة فى طرد المخلوقات الفاجرة التى تجمعت فى المنزل • وقد أصيبت هذه المرأة البائسة التى قاست من الارهاب والعذاب ما قاست منذ طفولتها، أصيبت بنوع من المرض العصبى منتشر خاصةً بين أبناء الطبقة الدنيا من الشعب وبين الفلاحات اللواتى يسمَّين بسبب هذه الاصابة «كليكوشى»* • ان هذا المرض الذى تصحبه نوبات رهيبة من نوبات الهستريا ، كان يهوى بالمرأة الشابة فى بعض الأحيان الى حالة من الهذيان والخرف • ومع ذلك أنجبت هذه المرأة ابنين ، ولد أحدهما ، وهو ايفان ، بعد الزواج بسنة ، وولد الثانى ، وهو الكسى ، بعد ولادة الأول بثلاث سنين • وحين ماتت ، كان الصغير ألكسى قد دخل السنة الرابعة من عمره • وانى لأعلم ، مهما يبد لكم هذا الأمر غريباً عجيباً ، أن ذكرى أمه قد بقيت ماثلة فى ذهنــه طوال حياته ، ولو فى صورة تشبه أن تكون حلماً • وقد كان مصير هذين الابنين ، بعـــد موت أمهما ، شبيهاً بمصـير أخيهما الأكبر ميتيا : نسيهما أبوهما نسيانا تاما ، وهجرهما هجرا كاملاً ، وضمهما اليه جريجورى فى كوخه مثلما ضمّ اليه أخاهما من قبل • وهناك ، فى ذلك الكوخ ، انمـا

اكتشفتهما الجنرالة العجوز المهووسة التى كانت لأمهما محسنةً ومنشئةً. كانت العجوز ما تزال على قيد الحياة ، ولم تستطع خلال تلك السنين الثمانى أن تغفر الاهانة التى أُلحقت بها . وكانت طوال تلك الفترة تتسقط أخبار « عزيزتها صوفيا » تفصيلاً ، فلما علمت بنبأ المرض الخطير الذى ألمّ بها ، كما علمت بأنباء البيئه الفاسدة الفاضحة التى اضطرت المسكينة أن تعيش فيها ، قالت مراراً كثيرة ، بصوت عالٍ ، أمام صديقاتها ومحمياتها: « لقد استحقت ذلك ، فان الله هو الذى يعاقبها على نكرانها الجميل وجحودها النعمة . . » .

وبعد موت صوفيا ايفانوفنا بثلاثة أشهر تماما ، ظهرت الجنرالة ذات يوم بشخصها فى مدينتنا الصغيرة واتجهت رأساً الى منزل فيدور بافلوفتش . ولم تمكث عندنا أكثر من نصف ساعة ، ولكنها لم تضع وقتها سدى . كان ذلك فى نحو المساء . ان فيدور بافلوفتش الذى لم يرها منذ اختطاف صوفيا مرة واحدة خلال تلك السنين الثمانى قد هبّ الى لقائها الآن وهو فى حالة سكر لطيف . فما كادت تراه حتى صفعته منذ اللحظة الأولى صفعتين مدويتين ، دون أن يراودها أى تردد ، ثم أمسكته من شعره وهزته فى مكانه ثلاث مرات . ذلك ما رواه بعضهم. ثم اتجهت الى الكوخ الذى يوجد فيه الطفلان ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، فلما لاحظت بنظرة سريعة أنهما لم يُغسلا ويُنظفا ، وأن ملابسهما الداخلية لم تُغيَّر ، أسرعت تصفع جريجورى أيضا ، وأعلنت له أنها ستأخذ الصبيين الى منزلها . ثم خرجت بهما كما كانا ، بعد أن لفتهما بغطاء ، ووضعتهما فى عربتها ، وعادت بهما الى مدينتها . لقد تلقى جريجورى هذه الصفعة كما يتلقاها عبد خاضع مطيع ، دون أن ينطق بكلمة ، ودون أن يخرج عن أدبه ؛ بل لقد رافق السيدة العجوز الى عربتها ، وقال لها وهو ينحنى حتى مستوى الحزام ، قال لها فى اقتناع

كامل وايمان قوى : « ان الرب سيجزيها جزاءً حسناً بسبب هـذين اليتيمين . . » ، فصرخت الجنرالة تقول له وهى تنصرف : « أنت مع ذلك أبله . . » . وبعد أن قلَّب فيدور بافلوفتش الأمر على وجوهه المختلفة انتهى الى أن كل شيء قد جرى على ما يرام . ثم لم يضع بعد ذلك أية عقبة تحول دون موافقته الرسمية على أن يُربَّى الصبيَّان فى منزل الجنرالة وذيَّل بتوقيعه جميع الشروط التى اقترحت عليه . أما الصفعات التى تلقاها فقد مضى يتباهى بها فى المدينة كلها .

وحدث أن توفيت الجنرالة بعد ذلك بزمن قصير ، ولكنها أورثت كلاً من الطفلين فى وصيتها مبلغ ألف روبل ، وقد نصت الوصية على أن هذا المبلغ « مخصص لتعليمهما ، فما ينبغى أن ينفق منه شيء الا عليهما ، ولكن على شرط أن يكفيهما حتى يبلغا سن الرشد ، لأن مثل هذا المبلغ الكبير كثير على طفلين مثلهما ، فاذا ظن بعض الناس أن هذا الميراث غير كاف فليتفضلوا بتدارك النقص من جيوبهم هم ، الخ الخ » . اننى لم أقرأ وصية الجنرالة ولكن قيل لى انها تضمنت أموراً غريبة من هـذا القبيل ، وانها قد كتبت بعبارات طريفة عجيبة . ومن حسن الحظ أن الوارث الرئيسى الذى آلت اليه أموال الجنرالة كان رجلاً شريفاً هـو ايفيم بتروفتش بولينوف سيد نبلاء هذه المقاطعة . وقد كتب الى فيدور بافلوفتش ولكنه لم يلبث أن أدرك أن هذا لن يدفع قرشا واحدا فى سبيل تعليم ابنيه (رغم أن فيدور بافلوفتش ما كان ليرفض ذلك رفضاً مباشراً ، وانما هو يقتصر فى مثل هذه الحالة على المماطلة والتسويف ، وربما عمد أحيانا الى التدفق فى أقوال عاطفية) . قرر ايفيم بتروفتش عندئذ أن يهتم باليتيمين شخصيا ، وتعلق تعلقاً خاصاً بأصغرهما ألكسى ، فربَّاه فى أسرته نفسها خلال سنين . أرجو من القارىء أن تظل هذه النقطة ماثلة فى ذهنه . لئن استطاع هذان الشابان أن ينعما فى حياتهما بتربية جيدة

وثقافة مناسبة ، فانما يرجع الفضل في ذلك الى ايفيم بتروفتش هذا الذى كان انسانا يتمتع بطيبة عظيمة وشهامة كبيرة يندر أن نقع على مثلهما فى غيره • انه لم يمسّ الروبلات الألف التى ورثها كل من الصبيين من الجنرالة ، فلما بلغا سن الرشد كان الألف قد صار بالفوائد ألفين • لقد أخذ الرجل على عاتقه تربية الصبيين ، فأنفق على كل منهما أكثر كثيرا من الروبلات الألف طبعا • لن أدخل هنا في قصّ تفاصيل حياتهما أثناء الطفولة والمراهقة ، وانما أقتصر مرة أخرى على اشارات لا غنى عنها • فأما عن الابن الأكبر ايفان فأقول انه أصبح مع الأيام مراهقاً يتصف بشيء من التجهم والانطواء • صحيح أنه لم يكن خجولاً ، ولكن كان يبدو أنه أدرك منـــذ السنة العاشرة من عمـره أنه يعيش هو وأخوه في أحضان أسرةٍ هى أسرة أجنبية رغم كل شيء ، وأنهما يُربَّيان في هذه الأسرة من باب الرأفة والاحسان على وجه الاجمـــال ، وأن أباهما انسان شاذ يضيق المرء ذرعاً حتى بالكلام عنه ، الخ الخ •وقد أظهر هذا الصبى في وقت مبكّر ــ منذ طفولته الأولى فيما يقال ــ استعدادا عظيما للتعلم وتفوقا واضحا في الدراسة • انني لم أطلع على التفاصيل ، ولكنني أعلم أن الفتى ترك أسرة ايفيم بتروفتش وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره فيما يبدو ، فدخل مدرسة ثانوية بمـوسكو حيث عاش في « بنسـيون » عالم من علماء التربية واسع الخبرة ذائع الصيت في ذلك الزمان ، كان أحد أصدقاء ايفيم بتروفتش في طفولته • وقد روى ايفان نفسه فيما بعد أن ذلك كله انما مردُّه الى « ما يتصف به ايفيم بتروفتش من حماسـة شديدة لأعمال الخير » ، لأن ايفيم بتروفتش قد استقر في ذهنه أن صبياً عبقرياً لا بد أن يتولى تربيته مربٍ عبقـــرى • على أن ايفيم بتروفتش والمربى العبقرى كانا قد انتقلا كلاهما الى رحمـة الله حين أنهى الفتى دراسته الثانوية فانتسب الى الجامعة • وقد تأخر استلام الروبلات الألف

التى أوصت بها الجنرالة المهووسة للطفلين والتى صارت بالفوائد ألفين، تأخر استلامها نتيجةً لسوء تدوين التدابير التى اتخذها ايفيم بتروفتش، وبسبب أنواع كثيرة من الاجراءات الشكلية والآجال الطويلة التى لا بد منها ولا غنى عنها فى بلادنا ••• لذلك كانت السنتان الأوليان اللتـــان قضاهما ايفان فى الجامعة حافلتين بالمصاعب والمشقات • لقد اضطر الفتى أن يلتمس رزقه بنفسه أثناء تلك المدة ، مع استمراره على متابعة دراسته• يجب أن نذكر هنا أنه لم يخطر بباله فى لحظة من اللحظات أن يستنجد فى ذلك الظرف بأبيه ، اما عن كبرياء وشمم فى نفسه ، واما عن احتقار وازدراء لأبيه ، واما لأن عقله الهادىء قد حدّثه بأنه ليس له أن يعوّل على الحصول من أبيه على معونة ذات بال • المهم أن المصاعب لم تفت فى عضد الفتى ولا أضعفت عزيمته ، واستطاع أخيرا أن يجد عملا • أخذ فى أول الأمر يعطى دروسا فى المنازل بأجر زهيد ، ثم استطاع أخيرا ـ بالسعى من ادارة تحرير الى ادارة تحرير ـ أن يكتب للجرائد اليومية مقالات مقتضبة ، فى حدود عشرة أسطر ، عن حوادث الشارع ، مذيلةً بتوقيع « شاهد عيان » • وقد أكد المؤكدون أن تلك المقالات القصيرة كان فيها من الفكر المتـــوقد والفكاهة اللاذعة ما كفل لها أن تصيب نجـاحاً سريعا • بذلك استطاع هـــذا الشاب أن يبرهن على تفوقه على أولئـك الطلاب الكثيرين من الجنسين ، الذين يعيشون دائما فى عـوز وفاقة ، ويلم بهم فى عواصمنا البؤس والفقـــر والشقاء ، ويحـاصرون ادارات تحرير شتى الجرائد والمجلات من الصباح الى المساء • انهم فى العـادة لا يحسنون أن يبتكروا شيئاً غير تكرار طلبهم الأبدى ، وهو أن يكلفوا بترجمة بعض النصوص عن اللغة الفرنسية ، أو أن يقوموا ببعض أعمال المراسلة • فلما استطاع ايفان فيدوروفتش أن يصل الى ادارات التحرير دبّر أموره بعد ذلك بحيث يبقى على صلة بها ، ونشر أثناء الســنين

الأخيرة من دراسته الجامعية مقالات نقدية ودراسات طيبة عرض فيها لأنواع شتى من المؤلفات ، فأخذ يُعرف حتى فى المحافل الأدبية . على أنه لم يظفر ، مصادفةً ، بأن يلفت اليه ، على حين فجأة ، انتباه دائرة من القراء أوسع كثيراً من ذلك ، الا فى نهاية تلك الفترة ، فأصبح عدد كبير من القراء يتذكرونه منذ ذلك الحين ولا ينسونه . كان هذا فى مناسبة طريفة جدا شائقة جدا . كان ايفان فيدوروفتش قد أنهى دراسته الجامعية ، وكان يتهيأ بالألفى روبل التى يملكها أن يسافر الى الخارج ، حين نشر ذات يوم ، فى جريدة من كبرى الجرائد اليومية ، مقالاً غريبا التفتت اليه حتى أنظار غير المختصين من القراء ؛ والعجيب أن المقال يعالج موضوعا لا يمت بصلة من الصلات الى ما انصرف اليه الشاب من اختصاص علمى (ذلك أنه قد تخصص فى العلوم الطبيعية) . لقد تناول المقال مسألة القضاء الاكليركى * الذى كان فى تلك الأيام يهز جميع العقول ويحرك جميع الأذهان . فبعد أن ناقش كاتب المقال مختلف الآراء التى وردت فى صدد هذا الموضوع ، أبدى آراء شخصية . وقد تميز المقال خاصةً باللهجة التى كتب بها ، كما تميز بالنتيجة التى انتهى اليها ، وهى نتيجة تتصف بأنها جديدة غير متوقعة . ومع ذلك فان عددا من أنصار الاكليروس قد عدوا الكاتب مؤيداً لهم ، بينما أخذ أنصار العلمانية ، وحتى الملحدون ، يعربون عن تأييدهم للكاتب واستحسانهم لما تضمنه مقاله . وأدرك بعض أهل الحصافة والذكاء أخيراً أن المقال ، من أوله الى آخره ، لم يكن الا مزحة وقحة ومهزلة ساخرة . وانما أذكر هنا هذه النقطة التفصيلية لأن المقال قد وصل بعد ذلك الى الدير الشهير الذى يقع على أبواب مدينتنا ، فاذا بمسألة القضاء الاكليركى تثير اهتماما عاما على حين فجأة . لقد قرىء المقال فى المدينة فأحدث هزة قوية ؛ حتى اذا عُرف اسم كاتبه اشتدت حماسة الناس ، من حيث أن

الكاتب يرجع أصله الى مدينتنا ، ومن حيث أنه ، فوق ذلك ، « ليس الا ابن فيدور بافلوفتش ذاك بعينه » • وها هو ذا كاتب المقـــال يظهر في مدينتنا بنفسه في تلك الآونة نفسها •

تُرى ماذا كانت غاية ايفان فيدوروفتش من تلك الزيارة ، ولماذا جاء الى مدينتنا ؟ أذكر جيدا أنني قد ألقيت هذا السؤال على نفسي منذ تلك اللحظة شاعرا بشيء من القلق • ان هـــذه الزيارة المشئومة التي كانت السبب في وقوع أحداث كثيرة ، قد ظلت في ذهني خلال زمن طويل ، بل ظلت في ذهني الى الأبد ، أمرا غامضا لم أستطع الى فهمه سبيلاً • انه لشيء غريب ، على وجه العموم ، أن يقرر شاب يبلغ هذا المبلغ من سعة الثقافة وشدة الكبرياء وكثرة الحذر ، فيما يبدو ، أن يقـرر على حين فجأة أن يجيء الى منزل يبلغ هذا المبلغ من سوء السمعة ، أن يجيء الى أب كهذا الأب الذي جهله طوال حياته ، ولم يشأ يوما أن يعـــرف شيئاً عنه ، حتى نسي وجوده ذاته • والفتى يعلم حق العلم مع ذلك أن أباه الذي كان سيرفض قطعاً في أي ظرف من الظروف أن يعطي ابنـــه شيئاً من مال لو سأله ذلك ، كان في خوف متصل من أن ينتهي الامر بابنيه ، ايفان والكسي ، أن يطلبا منه بعض المال واحدا بعد آخر • ورغم ذلك فهذا هو ايفان يسكن منزل أب كهذا الأب ، ويقضي فيه شهرا بعد شهر ، وهذان هما الرجلان يتفاهمان أحسن تفاهم ! ان هذا الأمر لم يدهشني وحدي ، بل أدهش عددا آخر من الناس أيضا • وكان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف ، قريبُ زوجة فيدور بافلوفتش الأولى ، الذي سبق أن تحدثت عنه ، كان في ذلك الحين يقيم عندنا في الأرض التي يملكها بضواحي مدينتنا • فلقد رضي أن يترك باريس الى حين ، بعـد أن اتخذها مقراً له • ان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف هذا كان من أشد الناس دهشة حين تعرف بالشاب ايفان ، فاهتم به وأصـــبح يحس

بالمنافسة بينه وبينه فى شئون العلم والثقافة العــامة ، على شيء من ألم يستشعره خفياً . كان يسر الينا فى كثير من الأحيان أثناء تلك الفترة حين يتحدث عنه ، قائلا : « هذا رجل ذو كبرياء . ولن يصعب عليه أن يجنى رزقه . ماذا جاء يفعل هنا ؟ واضح أنه لم يأت الى أبيه ليحصل على مال، لأن أباه لن يعطيه شيئاً . أما أن يسكر وأن يسترسل فى المجون فذلك ليس من أذواقه وميوله ، ومع ذلك فان الشيخ أصبح لا يستطيع الاستغناء عنه ، من شدة تعلقه به ! » . هذا صحيح . ولقد كان واضحا أن الشاب يؤثر فى أبيه بعض التأثير ، وكان يبدو أن أباه يطيعه فى بعض الأحيان، رغم أن طبعه ليس بالطبع الاجتماعى كثيراً ، ورغم أنه يكون فى بعض المناسبات شرساً ، حتى لقد أخذ الأب يحتشم فى سلوكه قليلاً ...

ولم يعلم أحد الا بعد ذلك بزمن طويل ان ايفان فيدوروفتش قد كان من أسباب مجيئه أن أخاه الاكبر دمترى قد طلب منه ذلك ليهتم بمصالحه . وفى هذه الفترة بعينها ، أثناء اقامته تلك بمدينتنا ، انما عرف ذلك الأخ الذى لم يكن قد رآه من قبل فى يوم من الايام ، رغم أنه قد أخذ يراسله قبل سفره الى موسكو فى موضوع قضية هامة تتعلق خاصةً بدمترى فيدوروفتش . وسأشرح للقارىء ماذا كانت تلك القضية ، حين يجىء أوان الكلام عليها . ومع ذلك يجب أن أقول اننى حتى بعد أن اطلعت على هذه الظروف الخاصة ، ظللت أجد سلوك ايفان فيدوروفتش سراً محيِّراً ، وظللت أعد زيارته لمدينتنا أمراً لا أجــد له تعليلاً ولا تفسيراً .

أضيف الى هذا أن ايفان فيدوروفتش كان يُشــعر النـاس بأنه يتدخل وسيطاً فى النزاع الناشب بين أبيه وأخيــه الاكبر دمترى الذى ساءت علاقته بالأب الى حيث أقام عليه دعوى قضائية .

أعود فأقول ان هذه الأسرة الصغيرة قد وجدت نفسها تجتمع في تلك اللحظة لأول مرة ، فاذا ببعض أفرادها الذين لم يسبق لهم أن التقوا يوما ، يتعارفون في هذه المناسبة . ان الابن الاصغر ، ألكسى فيدوروفتش ، هو الوحيد الذي كان يقيم منذ سنة في مدينتنا التي وصل اليها قبل أخويه . ما أصعب أن أتحدث عن ألكسى هذا في هذه القصة التي هي تمهيد للرواية ، قبل أن أبرزه الى المكان الأول من الأحداث ! ومع ذلك لا بد أن أعزم أمرى على قول بضع كلمات تكون مقدمة للدخول في موضوعه أيضا ، ولو لأوضح ، منذ الآن ، طابعا غريبا جدا تتصف به هذه القصة : انني مضطر في الواقع الى أن أقدم بطلي للقارىء في مسوح فتى يتأهب للترهب . انه يعيش في ديرنا منذ قرابة سنة ، متهيئاً لأن يعتكف فيه الى آخر حياته فيما كان يبدو .

٤

اليوشا، الابن الثالث

لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره بعد (لقد دخل أخوه ايفان فى الرابعة والعشرين ؛ أما أخوهما دمترى فهو يشارف على الثامنة والعشرين) • أريد أن أقول على وجه الاجمال ان الفتى اليوشا لم يكن فيه شىء من تعصب دينى فى رأيى ، لا ولا كان صوفياً ؛ واذا شئت أن أكشف عن جوهر رأيى فيه قلت : انه ، بكل بساطة ، انسان يفيض قلبه حباً للبشر ، وذلك منذ السنين الأولى من حياته •فلئن اختار طريق الاعتكاف فى الدير ، فما ذلك الا لأن هذا الطريق كان يبدو له فى تلك الآونة السبيل الوحيدة التى يجب أن تسير فيها حياته ، والملاذ المثالى لنفسٍ مفتونة بالنور والمحبة ضدَّ ظلمات الكره والبغض فى هذا العالم • أضف الى ذلك أن هذا الطريق لم يجتذبه الا بفضل التقائه بذلك الراهب الشيخ من رهبان ديرنا ، وهو الشيخ زوسيما*، الذى عدّه الشاب انساناً فذاً وتعلق به عندئذ تعلقا شديدا فيه كل الحرارة الأولى التى تتدفق فى قلبه الظامىء • على أننى لن أنكر أن هذا الشاب كان منذ تلك الآونة غريب الأطوار جداً ، حتى لقد كان كذلك منذ المهد • سبق أن ذكرت ، فى هذا الصدد ، أنه بعد أن فقد أمه فى السنة الرابعة من عمره ، قد ظلت ذكراها ماثلة فى خياله طوال حياته ، فهو

يرى وجهها ويرى ملاطفاتها « كأنها حاضرة في هذه اللحظة نفسها أمامي » . ذلك ما كان يقوله . انكم تعلمون أن ذكريات من هذا النوع قد ترسخ في النفس ، حتى في سن أصغر ، وحتى منذ السنة الثانية من العمر ، ولكنها لا تكون في مثل هذه الحالة الا نقاطاً مضيئة مبعثرة تبرز من وسط الظلام ، أو أجزاءً منفصلةً من لوحة كبيرة انطفأ سائرها وبلعته الظلمات ، باستثناء تلك التفاصيل التي بقيت وحدها ساطعة. وذلك بعينه ما حدث له : لقد احتفظ الفتى بذكرى أمسية ساجية من أماسي الصيف ، ونافذة مفتوحة ، وأشعة مائلة ترسلها الشمس الغاربة (وهذه الأشعة المائلة هي ما يتذكره خيراً مما يتذكر أي شيء آخر) ، وصورة مقدسة في ركن من الغرفة ، وسراجٍ صغير يشتعل أمام الصورة ، والأمّ راكعةً على ركبتيها ناشجةً منتحبة قد ألم بها نوع من الهستريا وأخذت تطلق صرخات حادة وأنات موجعة ، ثم اذا هي تمسكه بذراعيها على حين فجأة وتشدها الى صدرها شداً قوياً يؤلمه ، وتبتهل الى السيدة العذراء أن تحميه ، وأن ترعى هذا الطفل الذى كانت الأم تمده الى الأيقونة كأنما لتضعه في حمى أم الرب ... وتظهر خادمة الطفل فجأة في الغرفة ، فيبدو في وجهها ذعر شديد ، وتسارع تنتزع الطفل من بين يدى أمه . يا لها من لوحة ! لقد انحفرت صورة وجه الأم في ذاكرة أليوشا في تلك اللحظة . وهو يؤكد أن الوجه كان مروّعاً ولكنه كان جميلاً جداً ، هذا على قدر ما يستطيع أن يتصوره . ولكن كان يندر أن يعزم أليوشا أمره على الكلام عن هذه الذكرى . لقد كان أليوشا أثناء طفولته ومراهقته قليل الافصاح عن نفسه ، بل لقد كان صموتاً ، لا عن شك وحذر طبعاً ، ولا عن خجل أو وجل ، ولا عن تجهم في الطبع والمزاج ... أبداً ... بل بسبب شيء خاص في نفسه ، بسبب اهتمام داخلي ، شخصي تماما ، لا شأن له بالآخرين ، يبلغ عنده من خطورة

الشأن أنه ينسيه حتى وجود الناس . ومع ذلك كان أليوشا يحب البشر . وكان مظهره يدل على أنه عاش حياته كلها في اندفاعة ثقة بالناس ، ومع ذلك لم يعده أحد في يوم من الأيام امرءاً غراً أو ساذجاً . كان في نفسه شيء لا أدري ما هو ، شيء يُشعر الآخرين شعوراً واضحاً بأنه لا يريد أن يحكم على أخيه الانســـان ، بأنه يأبى أن يتهم أو يُدين ، وبأنه لن يرضى بحال من الأحوال أن يلقي اللوم على الملأ . حتى لقد كان يبدو أنه يقبل كل شيء دون أن يحكم عليه ، ولكن بمرارة حزينة في كثـير من الأحيان . ووصل من ذلك الى أن لا يدهشه شيء ، وأن لا يخيفـه شيء ، وذلك منذ غضارة صباه . وفي منزل أبيـــه ، الذي كان ماخور فحش وعهر ، كان الفتى يقتصر ، وهو الذي بلغ العشرين من عمـره محافظاً على عفته وطهارته ، كان يقتصر على الابتعاد صامتاً اذا شعر بأنه لا يستطيع أن يحتمل رؤية هذا المشهد أو ذاك ، ولكن دون أن يظهـر عليه شيء من الاحتقار أو النقد لأي انسان . أما أبوه ، الطفيلي القديم الذي كان لهذا السبب سريعا الى ادراك الاهانة والشعور بها ، فقد استقبله في أول الأمر بشك وحذر وريبة ، وشعر نحوه بعواطف ليس فيها ود كثير (« انه مسرف في الصمت تجاهي ، مسرف في التفكير دون أن يقول شيئاً ») ، ولكنه أصبح بعد أسبوعين في أكثر تقدير يعانقه ويضمه الى ذراعيه في كل لحظة . صحيح أنه كان يفعـــل ذلك بدموع السـكران وعواطف المخمور . ولكن كان واضحا مع ذلك أنه يحبـه حبا صادقا عميقا ، كما لم يحب رجل من نوعه أحدا ...

وكان جميع الناس يحبون أليوشا على كل حال . لقد أيقظ عواطف المحبة والمودة له في نفوس كل من عرفوه ، وذلك منذ طفولته . وأيام كان يعيش في منزل المحسن اليه والمربي له ، ايفيم بتروفنش بولينوف ، بلغ من رضى جميع أفراد الأسرة عنه ومن اعجابهم به انهم كانوا يعدونه

ابنا من أبناء الأسرة تماما ، رغم أنه قد دخل ذلك المنزل طفلا صغيرا فهو عاجز عجزاً تاما عن أى مكر أو حساب ؛ لقد دخل أليوشا ذلك المنزل وهو فى سن يجهل فيه الكائن الانسانى كل شىء عن فن الممالأة والتملق والارضاء ، أى فن اجبار الآخرين على حبه • لقد أوتى أليوشا موهبة حمل الآخرين على حبه بحكم طبيعته ، فكأن هذه الموهبة قد ولدت معه ، فالناس يحبونه من تلقاء أنفسهم ، دون أن يحتال هو لذلك • هكذا كان شأنه فى المدرسة أيضا ، رغم أنه كان فى ظاهره من أولئك الأطفال الذين لا بد أن يوقظوا فى رفاقهم الحذر والشك ، وأن يجلبوا لأنفسهم سخريات زملائهم ، بل وعداوتهم فى كثير من الأحيان • لقد كان يتفق لأليوشا كثيراً أن يعتزل رفاقه فى فترات الراحة بين الدروس ، فيغرق فى التأمل • كان أليوشا يحب كثيرا ، منذ طفولته ، أن ينزوى فى ركن من الأركان يقرأ كتابا من الكتب ؛ ومع ذلك فقد أحبه التلاميذ حباً عظيما ، حتى لقد ظل طوال حياته المدرسية أثير رفاقه غير منازع • كان لا يتحمس الا نادرا ، بل وكان لا يبدو فى العادة مرحاً ، ولكن يكفى أن تنظر اليه حتى تدرك أن ذلك لا يرجع الى نفوره من الناس ، وانما هو انسان ذو نفس هادئة صافية رائقة • وكان لا يحاول أن يظهر قيمته لرفاقه ، ولعل هذا هو السبب فى أنه كان لا يخشى كذلك أحدا • ولكن الصبية لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يزهو بشجاعته ولا يُدلّ بها ، بل يظل بسيطا منطلقا على طبيعته وسجيته ، كأنه لا يشعر بشجاعته وجرأته وجسارته • وكان لا يحتفظ أبدا بذكرى اساءة نالته أو اهانة أُلحقت به • وكثيرا ما كان يتفق له أن يبادر الى مخاطبة الشخص الذى ناله بالاساءة أو ألحق به الاهانة ، وذلك بعد وقوع الحادثة بساعة واحدة ، فكان يبدو فى كلامه عندئذ من الثقة والهدوء ما يُشعر المرء بأن شيئاً لم يحدث بين الرفيقين • كان لا يبدو عليه ، فى مثل تلك المناسبات ، أنه

يريد أن ينسى الاساءة أو يغفرها عامدا ، وانما هو يرى أن الاساءة لم تحدث ، فكان ذلك يفتن الصبية ويسحرهم فورا • ولم يكن فيه الا صفة واحدة أغرت رفاقه ، في جميع فصول المدرسة ، من أولها الى آخرها ، بأن يمازحوه ، لا عن رغبة خبيثة في السخرية بل لأن ذلك كان يفرحهم ويشيع في نفوسهم المرح ، ذلك هو حياؤه الشديد ، وخفره العظيم المرتبط بالحشمة والعفة • ان الأحاديث التي يتبادلها التلاميذ عن النساء، والتعابير التي يستعملونها في هذا المجال ، كانت أمورا لا يطيق الصبي أليوشا أن يسمعها • ومن المؤسف أن هذه الأحاديث وهذه التعابير لا تنفصل عن الحياة المدرسية ولا يمكن استئصالها منها • ورب تلاميذ أطهار النفس والقلب ، رب تلاميذ ما يزالون أطفالا صغارا ، يجدون لذة كبيرة في أن يتحادثوا في هذه الأمور ، بصوت عالٍ في كثير من الأحيان، وأن يصفوا صورا أو مشاهد قد يستحي حتى الجنود في الثكنات أن يتكلموا فيها • الجنود ؟ ألا أن هؤلاء ليجهلون أو لا يفهمون ، في كثير من الحالات ، أمورا أصبحت في أيامنا هذه مألوفة أو شبه مألوفة عند الأطفال الصغار من أبناء الطبقات المثقفة والطبقات العليا من الشعب• والحق أن ذلك لا يجب أن يُعدّ فجورا ، أو حتى استهتارا ، لأنه ليس لديهم صادقا ولا عميقا ، وما هو اذن بالخروج عن الأخلاق حقا ، وانما هو نوع من الاباحية الكلامية الخارجية السطحية التي يحلو للتلاميذ أن يعدوها علامة رهافة في الذوق ، ودليل جرأة خليقة بأن تُقلَّد • فلما لاحظ التلاميذ أن هذا «الفتى الشهم أليوشا كارامازوف» يسارع الى سدّ أذنيه حين يدور الحديث على « هذه الأمور » ، أصبح يلذ لهم أن يتحلقوا حوله ، ويأخذوا ينطقون بعبارات بذيئة وهم يبعدون يديه عن أذنيه بالقوة • فكان الفتى عندئذ يتخبط بينهم ، ويرتمي على الارض ، ويخفي وجهه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة ، ودون أن يثور ، وانما هو يتحمل

الاساءة صامتا • وانتهى الامر بالتلاميذ الى أن تركوه وشأنه ، وعدلوا عن معاملته معاملة « بنت » ، حتى أن السخرية حول هذا الموضوع قد حلّ محلها نوع من الرأفة به والعطف عليه • وكان أليوشا من جهة أخرى تلميذا ممتازا ، ولكنه لم يكن أول تلاميذ صفه فى يوم من الأيام •

ظل أليوشا يواظب على مدرسة المقاطعة سنتين بعد موت ايفيم بتروفتش • ان أرملة ايفيم بتروفتش الحزينة التى لا يجد العزاء الى قلبها سبيلا قد سافرت بعد وفاة زوجها فورا الى ايطاليا ، وأقامت هنالك زمناً طويلاً مع أسرتها كلها التى تتألف من نساء فقط • فانتقل أليوشا الى منزل سيدتين تمتان الى أسرة بولينوف بقربى بعيدة ، ولم يكن قد رآهما قبل ذلك ، حتى لقد كان يجهل هو نفسه ما هى الترتيبات التى استقبلته هاتان السيدتان على أساسها • تلك سمة بارزة من سمات طبعه، هى أنه كان لا يهمه أبدا أن يعرف بأى مال يعيش وعلى نفقة من يعيش! كان من هذه الناحية يختلف كل الاختلاف عن أخيه الأكبر ايفان فيدوروفتش الذى عاش حياةً شديدة البؤس والفقر والعوز خلال السنتين الأولين من دراسته الجامعية ، وعمل عملاً مضنياً من أجل أن يجنى رزقه ، وشعر منذ الطفولة بكثير من المرارة والمذلة والهوان لأنه كان يأكل خبز البر والاحسان فى منزل الرجل الذى كفله • على أننا لا نستطيع أن نقسو فى الحكم على هذه السمة الغريبة فى طبع ألكسى ، اذ يكفى أن نعرفه قليلاً حتى نقتنع بأنه كان فى شئون المال واحدا من أولئك الشبان المجانين الذين اذا هبط على أيديهم مبلغ ضخم من المال عرضاً لم يترددوا أن يهبوه لأول قادم متى سألهم ذلك أو أن ينفقوه فى عمل من أعمال الخير ، أو أن يتيحوا لوغد حاذق أن يسطو عليه ويسلبهم اياه • وفى وسعنا أن نؤكد أن أليوشا كان يجهل قيمة المال

بوجه عام ، وانما يجب أن نفهم هذه الكلام على المجـــاز لا على الحقيقة طبعا . كان أليوشا اذا أعطى شيئاً من المال ليكون في جيبه ينفق منه عند الحاجة (وهو لا يطلب شيئا من ذلك في يوم من الأيام) كان يتفق له اما أن يظل المال في جيبه أسابيع طويلة لا يعرف ماذا يصنع به ، واما أن ينفقه بلا حساب فاذا بكل شيء يختفي في غمضة عين . ان بطـــرس ألكسندروفتش ميوسوف ، وهو رجل من أكثر الناس دقة في شـــئون المال ، ومن أشدهم تقديسا للأمانة البورجوازية ، قد قال عن ألكسى يوما بعد أن لاحظه عن كثب : « لعل هذا الفتى هو الانسان الوحيد في هذا العالم الذي يمكنك أن تتركه وحيدا بلا مورد في وسط مدينـــة كبرى لا يعرفها ، ثم اذا هو لا يهلك من الجوع والبرد ... انه سيدبر أموره عندئذ بأيسر طريقة ... فسرعان ما سيأخذه أحدهم فيطعمه ويسكنه .. ولن يكلفه ذلك أي جهد ولن يحمّله أية مذلة .. والشخص الذي سيضمه اليه لن يشعر بعبئه ، بل لعله سيجد في ذلك لذة كبرى . . » .

لم يتم أليوشا دراسته في الكوليج . كان قد بقي عليه أن يقضي في المدرسة سنة أخرى حتى يتم دراسته فيها ، حين أعلن في ذات يوم للسيدتين اللتين كان يقيم في منزلهمـــا أنه سيذهب الى عنـــد أبيه لأمر يتنويه . ندبت السيدتان حظه كثيرا ، حتى لقد حاولتا أن تصـــداه عن عزمه . ولم تكن الرحلة تكلف نفقة باهظة ، واذ خشيتا أن يرهن ساعته — وهي هدية أهدتها اليه أسرة المحسن اليه قبل سفرها الى الخارج — فقد زوّدتاه بمبلغ وافر من المال ، وأعطيتاه ثيابا جديدة وملابس داخلية. ولكنه رد اليهما نصف المبلغ قائلاً انه يحرص حـــرصاً مطلقاً على أن يسافر في الدرجة الثالثة من القطار . فلما وصـــل الى مدينتنا أبى أن يجيب عن الأسئلة الأولى التي ألقاها عليه أبوه (« ماذا دهاك ، يا بنيّ ، حتى جئت الى قبل أن تتم دراستك ؟ ») ، حتى لقد أظهر من الشرود

والتأمل أكثر مما عُهد فيه . ذلك ما قيل . وسرعان ما عُرف أنه كان يحاول أن يعرف مكان قبر أمه . وقد اعترف هو نفسه ، على كل حال، بأن ذلك هو السبب الوحيد الذى دفعه الى المجيء . ولكننى لا أعتقد أن هذا السبب كاف لتعليل رحلته هذه . ولعله كان يجهل هو نفســـه فى تلك الآونة الأسباب العميقة التى حملته على المجيء ، ولعله كان لايستطيع أن يقول ما هى تلك القوى التى انبجست فجأة فى كيانه ثم صعدت الى سطح نفسه فدفعته دفعاً لا سبيل الى مقاومته فى هذه الطريق الجديدة التى كان يجهلها ولكنه لا يملك أن يتجنبها . لم يستطع فيدور بافلوفتش أن يدله على المكان الذى دُفنت فيه زوجته الثانية . انه لم يزر قبرها مرة واحدة منذ شيَّع جنازتها ، وقد أصبح بعد انقضاء ذلك العدد كله من السنين لا يتذكر أين دفنت ...

هنا يجب أن أقول كلمة عن فيدور بافلوفتش . لقد أقام فيـدور بافلوفتش قبل هذه الأحداث التى نصفها الآن ، أقام مدةً طويلة بعيدا عن مدينتنا . انه بعد وفاة زوجته الثانية بثلاث سنين أو أربع ، قد سافر الى جنوب روسيا ، واســـتقر فى أوديسا حيث عاش عـدة سنين متصلة . وهناك ، فى أوديسا ، تعرف بعدد كبير من « أنواع اليهود » على حـــد تعبيره ، حتى أصبح يُستقبل « لا فى منازل يهود فحسب ، بل فى منازل عبريين أيضا » . فمن حقنا اذن أن نقدر أنه فى تلك الفترة من حيـاته انما نمَّى وحسَّن وجوَّد فنه فى تصريف الأعمـــال وارباء الأموال . ولم يعد الى مدينتنا ليستقر فيها تماما الا قبل وصول أليوشا بثلاث سنين. وقد لاحظ الذين كانوا يعرفونه أنه قد شاخ كثـــيرا ، رغم أنه لم يبلغ سن الشيخوخة بعـد ؛ كما اكتسب عادات فيهـــا مزيد من الاستهتار والوقاحة . من ذلك مثلا أن هذا المهرّج القديم أصبح يحاول الآن فى كثير من الغطرسة والعجرفة أن يخفض الآخـــرين الى هذا المستوى ؛

وأصبح يتعاطى الفحش والفجور والغش لا كما كان يتعاطى ذلك كله في الماضي ، بل بطريقة أدعى الى النفور وأبعث على الاشمئزاز أيضا . ولم يلبث أن فتح في مديريتنا عدة دكاكين لبيع الخمرة . وواضح أنه كان يملك رءوس أموال ربما كانت تبلغ مائة ألف روبل أو شيئا قريبا جدا من ذلك . وسارع كثير من سكان مدينتنا ومديريتنا يقرضونه أموالاً ، لقاءَ فوائد طيبة بطبيعة الحال . وقد ضعف وتضعضع وتغضَّن في الآونة الأخيرة ، وأصبح فيما يبدو لا يملك من الثقة ما كان يملكه منها في الماضي ؛ وأصبح سلوكه أقل ترويا وتأنيا ووعيا ، حتى لقد برهن في بعض المناسبات على شيء من التبلد والخبل ، فهو ما يكاد يشرع في أمر حتى يتركه الى غيره، وهو يبعثر جهوده يمنةً ويسرة بلا رابط يربط بينها وبلا استمرار يصل بعضها ببعض . وأصبح يسكر مزيدا من السكر ، فلولا خادمه الأمين جريجوري الذى دلف الى الشيخوخة قليلاً هو أيضا ، والذى كان يسهر عليه سهر المربى أو المربية تقريبا ، اذن للقى فيدور بافلوفتش كثيرا من المتاعب والهموم . على أن مجيء ألكسى قد أثر فيه من الناحية النفسية تأثيراً حسنا فيما يظهر ، فكأنه أيقظ في نفس هذا الرجل الذى شاخ قبل الأوان عواطف كانت مخنوقة منذ زمان طويل . كان كثيرا ما يقول لابنه أليوشا : « هل تعلم يا أليوشا أنك تشبه كليكوشا كثيرا ؟ » (كذلك كان يسمى امرأته المتوفاة ، أمَّ ألكسى .) . واستطاع أليوشا أخيرا ، بفضل جريجورى ، أن يهتدى الى قبر كليكوشا . لقد قاده الخادم في ذات يوم الى مقبرة المدينة ودلَّه على صفيحة من الصلب كانت مهجورة في مكان ضائع ، وقد نقش عليها اسم المتوفاة وأصلها وسنها وتاريخ وفاتها ، بل لقد كتبت عليها في أسفل هذه الوقائع بضعة أبيات مقفاة من شعر المناسبات الذى جرت العادة أن تزين بها قبور أبناء الطبقة المتوسطة من الناس . والامر المدهش أن هذه

الصفيحة المعدنية انما كانت قد و ضعت في ذلك المكان بعناية جريجوري الذي أمر بها للمرحومة كليكوشا ودفع ثمنها منه ، وذلك بعد أن سافر فيدور بافلوفتش الى أوديسا . لقد حاول جريجوري أن يذكّر مولاه مرارا بأن المتوفاة ليس لها ضريح ، ولكنه لم يظفر منه بطائل ، وسافر فيدور بافلوفتش غير عابيء بالقبور ، وغير حافل بالذكريات . لم يظهر أليوشا أي انفعال أمام قبر أمه؛ واستمع بغير اهتمام الى مارواه جريجوري جاداً متعالماً متحذلقاً عن اللوح المعدني كيف صنعه ؛ وانطوى على نفسه بضع لحظات خافضا رأسه ثم انصرف دون أن ينطق بكلمة ، ثم لم يعد الى زيارة المقبرة مرةً أخرى ربما خلال سنةٍ كاملة . على أن تذكر الماضي هذا قد أثر في فيدور بافلوفتش بعضَ التأثير ، فتصرف تصرفاً لم يكن يُتوقع منه . أخذ ألف روبل دون أن ينبيء أحداً بذلك ، ومضى بها الى ديرنا يسأل أن تُتلى صلوات على روح زوجته ، لا زوجته الثانية، أم ألكسى ، المسكينة كليكوشا ، بل زوجته الأولى آديلائيد ايفانوفنا ، تلك التي كانت تضربه . وفي ذلك اليوم نفسه أيضا ، سكر سكراً شديداً وقال بحضور أليوشا كلاما أسوأ من شنق الرهبان . لا شك أن فيدور بافلوفتش كان قليل التدين الى أقصى حدٍ ممكن ، ومن المشكوك فيه أن يكون قد أشعل طوال حياته شمعةً بقرشٍ واحد أمام أيقونة . غير أن أفرادا من هذا النوع قد يتفق لهم أن يغزوهم على حين فجأة سيل من عواطف غريبة وآراء عجيبة ، على نحو لم يكن في الحسبان ، ولكنه موقت على كل حال .

سبق أن قلت انه قد تغضَّن وجهه . والحق أن وجهه كان يحمل في تلك الآونة آثاراً تدل دلالة واضحة على طراز الحياة التي عاشها ، وأنواع الأهواء التي عصفت به . فالى الجيوب الطويلة المنتفخة التي كانت قد تشكلت تحت عينيه الصغيرتين اللتين تظلان دائماً باحثتين مفتشتين

وقحتين ساخرتين ، والى الغضون الصغيرة العميقة الكثيرة التى كانت تخدد وجهه الذى كان صغيرا ولكنه ملىء بالشـــحم ، قد أضيفت الآن ، تحت ذقنه الدقيقة ، مخدة من لحم سميك مستطيل كأنها كيس صغير ، تضفى على وجهه سيماء شهوانية حيوانية منفّرة • وكان له أيضا فم كبير نهم منتفخ الشفتين ، تظهر فيه بقايا أسنان صغيرة سوداء توشك أن تكون قد تفتتت تماما • فكلما فتح فاه للكلام سال منه اللعاب متناثرا • ولقد كان يحب أن يتندر على وجهه ، ولكنه كان راضيا عنه على كل حال ، فيما يظهر ؛ كان يلح فى كلامه خاصـــةً على شكل أنفه الذى كان صغيرا دقيقا جدا ولكنه شديد التقوس • كان يقول : « هو أنف رومانى حقا ، فاذا ضممت اليه ذقنى المزدوجة كنت ترى نبيلا من نبلاء روما فى عصر الانحطاط • • » • كان فيدور بافلوفتش يبدو معجبا بوجهه معتزا به •

بعد أن اهتدى أليوشا الى قبر أمه بزمن قصير أعلن لأبيـه فجـأة أنه ينوى أن يدخل الدير وأن الرهبان مستعدون لاستقباله فيه مبتدئاً • وأضاف الى ذلك قوله ان ذلك هو أعظم أشواق نفسه وأحرُّ أمنياتها ، وانه فى هذه اللحظة الخطيرة من حياته يسأل أباه بكل احترام أن يأذن له بدخول الدير • وكان الشيخ يعلم من قبل أن الراهب العجوز زوسيما الذى انزوى فى الدير واعتكف فيه قد أثر تأثيراً قويا فى « ابنه الطيب العذب » •

قال بعد أن أصغى مطرقاً صامتا الى شروح أليوشا الذى لم يدهشه قراره هذا مع ذلك :

ـ لا شك أن هذا الشيخ زوسيما* هـو خير أولئك الرهبان ••• هِمْ ! ••• ذلك اذن ما تصبو اليه نفسك يا بنى الطيب اللطيف • (كان

قد شرب ، فهذا فمه يتسع فجأة في ضحكة سكران عريضة لا تخلو من مكر وخبث) ••• هم ! ••• لقد تنبـأت أنا بأنك ستنتهى الى حيث انتهيت ، هل تعلم ؟ هأنت ذا قد عزمت أمرك الآن • انك تمـلك ألفى روبل هما لك وحدك ••• تلك ذخيرة طيبة ••• أما أنا يا ملاكى فلن أتركك قط ، حتى اننى مسـتعد ، اذا لزم الأمر ، أن أدفع للدير كل ما سيطلبه منى • ولكن اذا لم يطلبوا شيئا ، فلن نجبرهم اجبارا ، لن نزعجهم ••• أليس هذا صحيحا ؟ ثم انك لست بالمتلاف الذى ينفق كثيرا ، ولست تحتاج من المـال الى أكثر مما يحتاج طائر من طيـور الكنارى ••• تكفيك حبتان فى الأسبوع ••• اننى أعرف ديراً يملك ، فى خارج المدينة ، دوراً صغيرة • وجميع الناس يعلمون أن هذه الدور تضم « زوجات الدير » ••• ذلك هو الاسم الذى تسمى به تلك النسوة هناك ••• ان عدد هاته الزوجات ثلاثون فيما أعلم • لقد ذهبت الى هناك، وأعترف أن الأمر شائق ، فى نوعه طبعا ، من ناحية التنوع • ليس ثمة الا عيب وحيد ، هو التعصب القومى ، فالنساء جميعا روسيات ليس بينهن فرنسية واحدة ، مع أن من السهل استقدام أجنبيات ، لأن المال لا يعوز رهبان الدير ، ومتى عرفت الفرنسيات ذلك جئن ذرافات ووحدانا ••• أما هنا فلا شىء من ذلك ! ليس للدير زوجات ••• وعـددهم مائتان هؤلاء الرهبان ! لا شىء هنا الا العفة والشرف • هم أناس أطهـار ••• أعترف أن ••• هم ••• أتريد أن تكون راهبا ؟ اننى أرثى لحـالك قليلا يا أليوشا ، صدقنى ! هل تعلم أننى تعلقت بك ؟ على كل حال ••• رب مصيبة نافعة ، مصائب قوم عند قوم فوائد : سوف تدعو لنا الله على الأقل نحن الضالين ، عسى أن يعفو عنا ويغفر لنا ، ذلك أننا قد أثمنـا كثيرا على هذه الأرض • اننى أتساءل منذ زمن طويل : « ترى من ذا الذى سيصلى لنا فى يوم من الأيام ؟ هل فى العالم كله انسان يمكن أن

يصلى لنا ؟ » • يا ولدى المسكين ، اننى غبى جدا فى هذه الأمور ، لو علمت ••• غبى جدا ، صدقنى ! ••• ولكن مهما أكن غبيا فى هـــذه الأمور فقد فكرت فيها مع ذلك ، فكرت فيها طويلا • صحيح أننى لم أفكر فيها أحيانا كثيرة ، ولكننى فكرت فيها • قلت لنفسى : « يستحيل أن تنسى الشياطين انتقاطى بمجارفها حين أموت » ، ثم تساءلت : «مجارف؟ من أين لها المجارف ؟ وممَّ صُنعت هذه المجارف ؟ ألعلهـــا صنعت من حديد ؟ فأين صنعت اذن ؟ ألعل عندهم اذن مصنعا ؟ » • ان الرهبـان ، هناك ، فى الدير ، يؤمنون مثلا بأن فى الجحيم سقفا • أما أنا فلا مانع عندى من أن أعتقـــد بوجود الجحيم ، ولكن شريطـة أن لا يكون له سقف • اننى أوثر على ايمانهم ايمانا ألطف ، ايمانا أكثر ضياء ، ايمـانا أقرب الى مذهب لوثر بمعنى من المعانى• ثم ألا يستوى أن يكون للجحيم سقف وأن لا يكون له سقف ؟ انظر الى مسألة الجحيم هذه ما أسخفها ! ولكن اذا لم يكن ثمة جحيم ، لم يكن ثمة مجارف أيضا ؟ وبدون مجارف لا تجرى الأمور ، فنعود الى ذلك السؤال نفسه ••• من عسى يلتقطنى بعد موتى ، من عسى يحملنى على مجرفة ؟ وما عسى يحدث اذا لم تلتقطنى الشياطين ؟ أين تكون « الحقيقة » عندئذ فى هـــذا العالم ؟ لا بد اذن من اختراعها ، هذه المجارف ، من أجلى أنا خاصة ، من أجلى وحدى ، لأننى مذنب خالع العذار يا أليوشا ، لو علمت ! ••••

قال أليوشا بصوت عذب جاد وهو يتفرس أباه بانتباه :

ـ لا ليس فى الجحيم مجارف •

ـ هه ! هى اذن أطياف مجارف فحسب ؟ فهمت ! فهمت ! هـــذا يذكرنى بفرنسى وصف الجحيم كما يلى : « رأيت طيف حوذى * كان ينظف طيف عربة بطيف فرشاة » • من أين عرفت يا طائرى الصغير

أن ليس ثمة مجارف ؟ ان عشت عند الرهبان لتقولنّ غير هذا الكلام • اذهب اليهم على كل حال • ستبحث لديهم عن « الحقيقة » ، فاذا وجدتها تعال اليّ فحدثنى عنها ، فيكون الموت بعد ذلك أقل قسـوة على ، لأننى أكون قد عرفت ما ينتظرنى فى الآخرة ! ثم ان الدير مكان يناسبك أكثر من منزلى الذى يعيش فيه أب سكير مع هاته النساء ••• رغم أنك بمـا لك من عفة وطهارة لم تتسخ يوماً بهذه الأشياء ، كما لا يمكن أن يتسخ بها ملاك • لا أدرى هل تستطيع البقاء أيضا مع هؤلاء الرهبان ••• لذلك آذن لك أن تلتحق بالدير ! ••• اننى أعتمد على سلامة حكمك وحصافة رأيك • ليس الذكاء ما يعوزك • ان النار تشـتعل ثم تنطفىء • فمتى شفيت رجعت اليّ • لسوف أنتظرك • أنت الانسان الوحيد فى هـذا العالم الذى لم يتهمنى ولم يدنّى ، ذلك ما شعرت به ، ذلك ما أعـرفه يا صغيرى الطيب الشهم ، وهل كان يمكن أن لا ألاحظه ؟

قال الأب ذلك وأخذت دموعه تهطـل • انه عاطفى : هو خبيث وعاطفى معا •

٥

مشايخ الرهبان

قد يميل بعض قرائى الى الاعتقاد بأن الشاب الذى أتحدث عنه انسان مريض شديد الاندفاع ذو طبيعة فقيرة ، وانه واحد من أولئك الحالمين الصفراء وجوههم الضعيفة صحتهم الضاوية أجسامهم • والواقع أن أليوشا كان فى تلك الآونة عكس ذلك : انه مراهق فى التاسعة عشرة من عمره فياض العافية شديد المهابة مورّد الخدين مضىء النظرة ؛ بل لقد كان جميل الوجه قوى البنية • وهو مربوع القامة بنى الشعر ، له وجه متسق القسمات على شىء من الاستطالة ، تسطع فيه عينان شهباوان قاتمتان متباعدان تفيضان حياة • انه يبدو شارد الذهن كثير التفكير ، وهو فى الظاهر هادىء هدوءا كبيرا • ورب قائل يقول ان تورد الخدين لا ينفى شدة التعصب الدينى ولا ينفى الميل الى الصوفية • ولكننى أعتقد أن أليوشا كان واقعيا أكثر من أى انسان آخر • صحيح انه اكتسب فى الدير ايمانا بالمعجزات وأنه كان صلبا جدا فى هذه الناحية ، ولكن المعجزات لا تستطيع فى رأيى أن تزعزع فكر انسان واقعى • ذلك أن المعجزات ليست هى التى تولد الايمان لديه • ان الواقعى الحقيقى اذا كان غير مؤمن يستطيع دائما أن يجد فى نفسه القوة والقدرة على انكار معجزة من المعجزات ، فاذا أكدت هذه المعجزة نفسها

بحادثة لا سبيل الى جحودها آثر أن يشك في صـــدق حواسه على أن يسلم بالواقع • حتى اذا قرر أخيرا أن يعترف بهذا الواقع عده ظاهـرة طبيعية كانت الى ذلك الحين مجهولة لا أكثر • ان المعجــزات لا تولد الايمان لدى الواقعي • بالعكس : فان الايمان هو الذى يستدعى لديه المعجزات • فمتى أصبح مؤمنا سلّم بالمعجــزات حتما ، بحكم واقعيته نفسها • لقد أعلن الرسول توما * أنه لن يؤمن بشيء قبل أن يرى ، ولكنه حين رأى هتف يقول : « أنت الهي يا رب ! » • فهل المعجزة هي التي أدت به الى الايمان ؟ أغلب الظن أن لا ••• وأنه انمـا آمن لأنه كان يريد أن يؤمن ، بل لعله كان مؤمنا ايمانا عميقا ، من قبل ، في أعمـاق كيانه منذ كان يقول : « لن أؤمن ما لم أشاهد • »

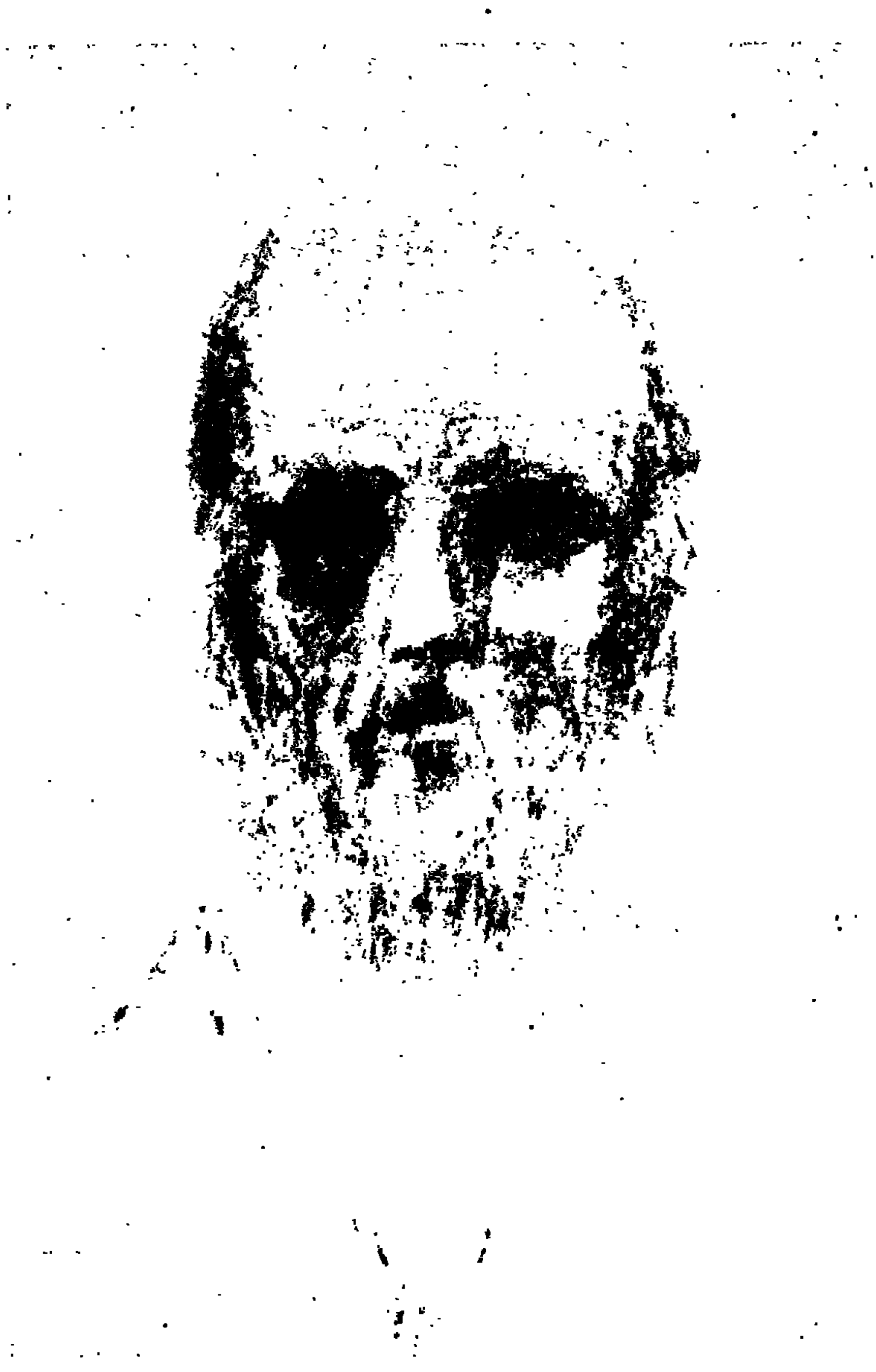
وقد يُظن أن أليوشا كان محدود العقل قليل الذكاء ، بدليل أنه لم يتم دراسته في الكلية ، الخ • فأما أنه قطع دراسته فذلك أمر لا أنكره ، غير أن حسبانه رجلا غبيا أو محدودا أمر فيه ظلم كبير • ولا أستطيع هنا الا أن أكرر ما سبق أن قلته : وهو أنه لم يختر هذه الطريق الا لأنها الطريق الوحيدة التي كانت تجتذبه في تلك الآونة ، لأنها الطريق الوحيدة التي تتيح له فرصة رائعة هي أن يتمكن مرة واحدة من حـل الصراعات القائمة في نفسه ومن الخلاص من عالم الظلمات والانطـلاق نحو النور • تذكروا أيضا أن هذا الشاب كان من أبناء جيلنا بعض الشيء، أي كان انسانا ذا طبيعة صادقة شريفة تريد « الحقيقة » وتســعى اليها وتؤمن بها • فلما اهتدى اليها أصبح يرغب رغبة عارمة في أن يقف على خـدمتها كل روحه ، وأن يؤكد ايمانه بأفعال من غير ابطـاء أو تلكؤ ، وأن يثبت عقيدته بالتضحية على الفور ، يحرقه الشوق الى العدول عن كل شيء في سبيلها والزهد بكل شيء من أجلها ، ولو كان هذا الشيء هو الحياة ذاتها • من المؤسف أن الشباب الذين من هذا النوع لايدركون

أن التضحية بالحياة قد تكون بين جميع انواع التضحيات أقلها صعوبة في كثير من الأحوال ، وان الزامهم انفسهم ببذل الجهد الشاق خلال خمس سنين أو ستة من الدراسة ـ ولو لمضاعفة وسائل تاثيرهم وأدوات عملهم بالمعرفة المكتسبة ـ بغية أن يخدموا بعد ذلك العقيدة التي يريدون ان ينذروا انفسهم لها ، وبغية أن يحققوا أعمـــالهم التي يحلمـون بها تحقيقا أتم وأكمل ، اقول ان الزامهم انفسهم ببذل هذا الجهد يتطلب شجاعة أكثر من الشجاعة التي تتطلبها التضحية بحياتهم . تلك صورة أخرى من التضحية قد تفوق في كثير من الأحوال قوى هؤلاء الشباب. صحيح أن أليوشا قد اختار طريقا تعارض الطريق التي كان يسلكها في ذلك الزمان أكثر معاصريه ، ولكنه اندفع في هذه الطريق برغبة قوية حارة في الفعل والعمل لا تقل عن رغبة الآخرين . انه منذ فكر تفكيرا عميقا فاقتنع بوجود الله وخلود الروح قال لنفسه على نحو طبيعي تماما : « انني أريد أن أعيش للخـــلود ، وانني أرفض التســـويات وأنصاف الحلول » . ولو قد انتهى الى نتيجة أخرى فاقتنع بأنه لا وجود لله ولا وجود للخلود لما اختلف الأمر ، ولأصبح على الفور ملحدا واشتراكيا (لأ نالاشتراكية ليست نظرة الى مسألة الطبقة العاملة فحسب أو مايطلق عليه اسم « الدولة الرابعة » ، وانمـا هي قبـــل كل شيء نظرة الحادية وتجسيد حديث للكفر بالدين . انها قصة برج بابل القديمة التي أراد البشر أن يشيدوه بلا اله كما يحاولون ذلك الآن ، لا ليرتفعوا من الأرض الى السماوات ، بل لينزلوا السماء الى الأرض) . ما كان لأليوشـــا أن يتصور أن يظل يعيش كما كان يعيش في الماضي . لقد قيل : « هب كل ما تملك واتبعني اذا أردت أن تبـــلغ الكمال » » فحـدث أليوشا نفسه قائلا : « هل في وسعي أن أهب روبلين فحسب ، بدلا من أن أهب « كل شيء » ؟ واذا أردت أن أستجيب لنداء « اتبعني » فهل أكتفي بالذهاب الى

الصلاة ؟ » . من الجائز أن يكون الدير المجاور لمدينتنا قد احتل مكانا في ذكريات طفولته ، وأن تكون أمه قد مضت به الى الدير في الماضي للصلاة ؛ ومن الجائز أن تكون رؤيا الأشعة المائلة ترسلها الشمس الغاربة أمام الأيقونة التي كانت ترفع أمه ذراعها نحوها وتمده اليها ، من الجائز أن تكون هذه الرؤيا قد جذبته أيضا . ومهما يكن من أمر فقد جاء الى مدينتنا في ذلك الوقت مفكّراً حالماً ، ربما للاستطلاع وحده ، ربما ليرى هل يعطي « كل شيء » أم يعطي روبلين فحسب . ولكنه التقى في الدير بشيخ الرهبان ذاك .

انه شيخ الرهبان زوسيما ، كما سبق أن أشرت الى ذلك . وقد آن لي أن أقول هنا بضع كلمات عن الدور الذي يمثله ، على وجه عام ، شيوخ الرهبان في أديرتنا . سوف أحاول ، رغم انني أشعر ، على أسف ، بأنني لست بالعالم الكفء في هذا المجال ، وبأن معارفي ليست راسخة جدا في هذه الشئون ، سأحاول أن أشرح الأمر شرحاً موجزاً سطحيا . ويجب أن أذكر قبل كل شيء ان المختصين في هذه الأمور والمطلعين عليها يؤكدون أن شيوخ الرهبان والمؤسسة التي يمثلونها لم تظهر لدينا في الأديرة الروسية الا في عهد متأخر بعض التأخر ، في عهد لا يكاد يرجع الى أكثر من مائة سنة ، على حين أنها وجدت في الشرق الأرثوذكسي كله ، وخاصة على جبل سينا وجبل آثوس منذ أكثر من ألف عام . ويقال ان شيوخ الرهبان هؤلاء قد وجدوا في روسيا في أزمنة بعيدة ، أو لعلهم وجدوا فيها ، ولكن ما أحاق ببلادنا بعد ذلك من مصائب ، وما حل بها من الغزو التتري والاضطرابات الداخلية وانقطاع الصلات بالشرق بعد سقوط القسطنطينية ، قد قضى على هذه المؤسسة فلم يبق لشيوخ الرهبان وجود . ثم لم تقم هذه المؤسسة مرة أخرى بعد ذلك في بلادنا الا في نهاية القرن الماضي على يد أحد كبار

المناضلين منا في سبيل الايمان ، ألا وهو الناسك بائيسى فيلتشوفسكى * (كان يسمى ناسكاً) ، وعلى يد مريديه ، غير أنها لم توجد خلال تلك المدة كلها ، وهى تقارب مائة عام ، الا في عدد صغير من الأديرة ، بل لقد أثارت عداوة شديدة لها وصلت أحيانا الى حد الاضطهاد والتعذيب كما لو كانت بدعةً خارقة • ويقال ان هذه المؤسسة قد نمت خاصةً (في روسيا) في الصحراء الشهيرة ،صحراء كوزلسكايا أوبتينا * • أما متى دخلتْ الدير المجاور لمدينتنا ، ومن أدخلها الى هذا الدير ، فذلك أمر اعترف بأنني أجهله ، ولكنى أعرف أن قد تعاقب على هذا الدير ثلاثة شيوخ ، آخرهم زوسيما • كان زوسيما يحس أنه يوشك أن يموت من الضعف والمرض ، وكان لا يُعرف من الذى سيحل محله اذا مات • ان لهذه المسألة شأنا خطيرا بالنسبة الى ديرنا الذى لم يكن يملك شيئا يمكن أن يكفل له الشهرة : فلا رفات قديسين ، ولا أيقونات لها معجزات معترف بها ، بل ولا أساطير جميلة تضمن للدير أن يرتبط بتاريخنا القومى • ان هذا الدير لم يشارك فى أى عمل باهر ، ولم يسهم فى أي عمل وطنى • انه لم يحصل على المجد ولم يصبح شهيرا فى روسيا كلها الا بفضل مشايخه الذين كانوا يجتذبون الحجاج ذرافات من جميع أنحاء البلاد ، من مناطق تبعد عن مدينتنا آلاف الفراسخ ، رغبة فى رؤية هؤلاء الرجال والاستماع اليهم • فما هو الشيخ على وجه التحديد ؟ انه السيد المطلق الذى يسيطر على النفوس والارادات ، ويحتوى فى ذاته جميع ما تجيش به نفوس مريديه من صبوات وأفكار• فحين يختار المريد شيخا لنفسه يتنازل عن حريته ، ويلزم نفسه بطاعة مطلقة ، ناسيا ذاته كل النسيان • والذى يختار هذا النظام القاسى ، ويرتضى تعلم الحياة على هذه الطريقة الرهيبة ، انما يفعل ذلك بارادته، أملاً فى أن يصل ، بعد محنٍ طويلة ، الى التغلب على ذاته ، والى



الشيخ زوسيما

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

أن يكتسب هكذا ، بالطاعة المتصلة المستمرة ، الى الحرية الحقيقة : أى يتخلص من ذاته ويفلت من مصير أولئك الذين يطوفون فى طريق الحياة دون أن يصلوا الى معرفة أنفسهم ، ودون أن يستطيعوا اكتشاف حقيقتهم . ونظام المشايخ هذا لم ينشأ من تأمل مجرد نظرى ، وانما نشأ فى الشرق من ممارسة يرجع عهدها الى أكثر من ألف عام ، قبل أن يدخل الى بلادنا . ان الواجبات التى تشد الراهب الى شيخه تمضى الى أبعد من مجرد « الطاعة » التى كانت سائدة على الدوام فى أديرتنا الروسية . فان الرابطة التى تربط الراهب بشيخه فى هذا النظام تفترض ثقة دائمة لا حدود لها ، هى نوع من الاعتراف المستمر للشيخ فى اتصال روحى أصبح لا يقبل الانفصام بحال من الأحوال . يحكى مثلا أن راهبا مبتدئاً من رهبان هذا النظام ، فى القرون الأولى من المسيحية ، أبى أن يخضع لقاعدة فرضها عليه شيخه ، فترك الشيخ والدير وذهب الى بلد آخر ، ذهب من سوريا الى مصر ، فيما يقال ، فاشتهر فى البلد الجديد الذى مضى اليه بمزايا رفيعة وأعمال عظيمة ، واستطاع أخيرا أن يظفر بمجد الاستشهاد حين مات فى سبيل الدين . وأخذت الكنيسة تستعد لدفنه على أنه قديس من القديسين ، فما كاد الكهنة يفرغون من تلاوة الصلوات ، حتى رأوا التابوت التى يضم رفات الشهيد يرتفع فجأة ويخرج من الكنيسة مسرعاً ، وتكرر ذلك ثلاث مرات . وعرف أخيرا أن هذا القديس الذى استشهد انما خالف فى الماضى أوامر شيخه وخرج على طاعته وهجره ، فلذلك لا يمكن أن ينال الغفران ، رغم جميع أعماله العظيمة ، مالم يأذن بذلك شيخه . واستدعى الشيخ ، ولم يمكن دفن الراهب الا بعد أن أعفاه شيخه من واجب طاعته . تلكم أسطورة قديمة طبعا ، ولكن اليكم قصة حديثة صادقة : اعتكف راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون فى عصرنا * ، اعتكف فى دير بجبل آثوس ، وهذا شيخه

يأمره فجأة بأن يترك جبل آثوس هذا الذى ارتبط به الراهب ارتباطا شديدا وتعلقت به نفسه تعلقا عظيما وأصبح يؤثره على كل ما عداه من أرجاء ، لأنه وجد فيه شاطىء الأمان ؛ أمره الشيخ أن يذهب أولا الى بيت المقدس فيحج الى الأماكن المقدسة ، وأن يعود بعد ذلك الى شمال روسيا ، الى سيبيريا • قال له الشيخ : « هنالك مكانك لا هنا » • حزن الراهب حزنا شديدا ، واستبد به كرب خانق ويأس مضن ، فمضى الى القسطنطينية ، وسعى الى رئيس البطارقة ، وتوسل اليه أن يعفيه من واجب الطاعة • ولكن البطريق أجابه بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، رغم رتبته ، وبأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد فى العالم أية سلطة يمكنها أن تعفيه من هذا الواجب ، الا شيخه الذى فرضه عليه وألزمه به • هكذا يتمتع المشايخ بسلطة يمكن أن تصبح فى بعض الأحوال مطلقة غير ذات حدود • وذلكم هو السبب فى أن أنصار هذا النظام قد تعرضوا فى كثير من أديرتنا فى أول الأمر لمعارضة شديدة أوشكت أن تستحيل الى اضطهاد • ولكن الشعب قد أجل المشايخ اجلالا كبيرا وقدسهم تقديسا عظيما • من ذلك مثلا أن مشايخ ديرنا كانوا يستقبلون زوارا يتوافدون عليهم حشودا غفيرة من صغار الناس أو من علية القوم ، يظهرون لهم اكبارهم واعجابهم ويُسرّون اليهم ، فى مذلة ، بما يساور نفوسهم من ريب وشكوك ، وبما ارتكبوا من خطايا وآثام ، وبما يقاسون من عذاب وآلام ، طالبين اليهم أن يسدوا اليهم بالنصح وأن يمدوهم بالتوجيه والارشاد • وقد استاء خصوم المشايخ من هذه الحظوة التى نالوها وهذه الثقة التى اكتسبوها فادعوا فيما ادعوا أن هذه الطريقة بدعة طائشة تفسد قداسة الاعتراف ، مع أن ما كان يبوح به الرهبان المبتدئون أو الأشخاص العاديون لهؤلاء المشايخ لم يكن يتم على أسلوب الاعتراف• غير أن نظام المشايخ هذا قد استقر أخيرا فى بلادنا ، وامتد شيئا فشيئا الى

أديرتنا • يجب أن نعترف ، مع ذلك ، أن هذا الأسلوب الذى يرجع عهده الى أكثر من ألف عام ، والذى كان الهدف منه تحقيق اصلاح روحى للانسانية يرفعها من العبودية الى الحرية ، ويحقق لها كمالا روحيا ، يمكن أن يصبح فى بعض الأحوال سلاحا ذا حدين ، وأن يخلق لدى بعضهم ، لا تواضعا وسيطرة كاملة على الذات ، بل غطرسة خبيثة وعنجهية شيطانية ، أى أن يؤدى الى استعباد النفس بدلا من تحريرها •

ان الشيخ زوسيما هو الآن فى الخامسة والستين من عمره ، كان فى سالف الزمان « بوميستشيك » انخرط فى العسكرية فى صدر شبابه، وعمل ضابطا فى القفقاس • لا شك أن شيئا ما كان ينبع من روحه ، فأحدث فى نفس أليوشا تأثيرا قويا • كان أليوشا يعيش فى الحجرة نفسها التى كان يعيش فيها الشيخ ، وقد عطف الشيخ على أليوشا عطفا كبيرا ، فارتضى أن يكون له ولياً حميما • يحسن أن نذكر هنا أن أليوشا ، رغم أنه يعيش الآن فى الدير ، لم يكن قد ارتبط بعد بأية قاعدة ، ولم يكن قد تقيد بأية أصول ، فهو يستطيع أن يغيب عن الدير ما شاء له هواه أن يغيب ، وربما غاب عن الدير أياما بكاملها • ولئن ارتدى مسوح الرهبان، فلقد فعل ذلك بارادته ، حتى لا يتميز عن الرهبان فى شىء • على أن من الواضح أنه كان يجد فى ذلك رضى وغبطة أيضا • ولعل خيال أليوشا المراهق قد افتتن افتتانا قويا بهالة السلطة ومهابة المجد اللتين كانتا تحيطان بشيخه • ويقال ان زوسيما هذا كان قد اكتسب من طول ما استقبل خلال هذه السنين الكثيرة كلها جميع أولئك الذين كانوا يجيئون اليه فيفتحون له قلوبهم راغبين رغبة قوية عنيفة فى أن يسدى اليهم بنصائحه أو أن يشفيهم بأقواله ، قد اكتسب قدرة غريبة على معرفة النفوس ، وموهبة عظيمة فى النفاذ الى أعماق القلوب ؛ حتى لقد أصبح فيما يقال ، بعد الذى سمعه من اعترافات وعرفه من أسرار وما أفضى به

اليه ذلك العدد الغفير من الناس من شـــجون قلوبهم ولواعج ضمائرهم الخفية المستسرة ، قد أصبح قادرا منذ أول نظرة يلقيها على وجه زائر مجهول على أن يحزر الغاية من مجيئه والرغبة التى تجيش فى نفســه وحتى الآلام الخبيئة التى تعذب ضميره ، فكان بهذه القدرة على التنبــؤ يوقظ الدهشة ويبعث الاضطراب فيمن يلقونه لأول مرة ، حتى ليــكاد يرمى فى قلوبهم الذعر حين يكتشف سر قلوبهم من قبل أن يفتحـوا أفواههم بكلمة واحدة • وقد لاحظ أليوشا مع ذلك أن أكثر الأشخاص الذين كانوا يدخلون على الشيخ دون أن يعرفوه ، من أجل أن يتحدثوا معه حديثا حميما لأول مرة ، كان يبدو عليهم عند وصولهم اضـــطراب وخوف ، حتى اذا خرجوا بعد ذلك من عنده كان جميعهم أو جميعهم تقريبا يخرج رابط الجأش ثابت الجنان هادىء النفس مطمئن البـــال مشرق الوجه متهلل الأسارير ، وأن أشد الوجوه ظلاماً وجهامة فى أول الأمر كان عندئذ يشع بضياء السعادة • ومما خطف بصر أليوشا من جهة أخرى أن الشيخ لم يكن قاسيا البتة • بالعكس : لقد كان حين يتحدث الى الناس أميل الى الفرح والمرح • وكان الرهبان يؤكدون أن الشيخ يحب خاصة أولئك الذين تحمل ضمائرهم عددا أكبر من الآثام ، وأن عاطفته تنصرف الى من هم بين الناس أكثرهم خطايا • صحيح أنه كان بين رجال الدير ، حتى فى نهاية حياة الشيخ ، رهبان يحملون له كرهاً ويشعرون نحوه بحسد ، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة ، وكانوا لاينتقدونه صراحة ، رغم أن بينهم شخصيات شهيرة كان لها فى الدير نفوذ كبير ، كذلك الراهب الذى كان من أقدم رهبان الدير ، والذى اشتهر بما كان يأخذ به نفسه من صيام عن الطعام والكلام • غير أن أكثر الرهبان قــد انحازوا الى الشيخ نهائيا ، وكان بينهم من يحبونه حبا عميقا من صميم القلب ، بل ان منهم من أخلصوا له اخلاصا يوشــك أن يكون تعصباً ،

SS

فكان هؤلاء لا يترددون أن يعلنوا ، خافضين أصواتهم مع ذلك ، أن هذا الشيخ قديس ، وأنه لا يجوز أن يتطرق الى الأذهان أي شك في أنه قديس ؛ واذ كانوا يتنبأون بموته قريبا ، فقد كانوا يتوقعون أن تحدث معجزات مباشرة ، وكانوا يسعدون سلفا للمجد الذي سيناله الدير في مستقبل قريب ، لأنه سيضم رفات انسان مثله . وكان أليوشا يؤمن ايمانا جازما بما للشيخ من قدرة على المعجزات ، مثلما كان مقتنعا اقتناعا قاطعا بصدق حكاية التابوت الذي اندفع الى خارج المعبد . لقد شهد أليوشا مرارا استقبال زوار يصطحبون أولادهم أو أهلهم المقعدين ، جاءوا يسألون الشيخ أن يضع يديه عليهم وأن يدعو الله لهم ، فما هو الا زمن قصير قد لا يتجاوز يوما واحدا اذا هم يعودون فيرتمون على قدمي الشيخ شاكرين له أنه شفى مرضاهم ! لم يخطر على بال أليوشا أن يتساءل هل تمّ الشفاء بمعجزة أم كان الشفاء تحسنا طبيعيا في حالة أولئك المرضى، لأن ايمانه بما يملكه الشيخ من قدرة فوق الطبيعة كان ايمانا عميقا ، ولأن مجد شيخه قد أصبح في نظره نصراً شخصيا له . كان قلبه يشعر بفرح عميق ، وكان وجهه يضيء بسعادة عظيمة ، حين كان الشيخ يقترب من جمهرة الناس البسطاء الذين ينتظرونه عند مدخل المنسك ، حاجّين اليه من جميع أرجاء روسيا ، بغية أن يروه وأن ينالوا مباركته : كانوا ينحنون أمامه ، ويبكون ، ويقبلون يديه ، بل ويقبلون الأرض التي سار عليها ويصيحون صيحات الوجد والنشوة . وكانت النساء تمد اليه أطفالها أو تجيئه برجالها ليشفيهم . فكان الشيخ يحدثهن ، ويتلو دعاء قصيرا ، ويباركهن قبل أن يصرفهن . وقد أصبحت نوبات المرض في الآونة الأخيرة تبلغ من اضعافه في بعض الأحيان أن لا يملك من القوة ما يمكنه من ترك حجرته ، فكان الحجاج ينتظرون خروجه أياما بكاملها . ان أليوشا يرى أن من الطبيعي أن يحب الحجاج هذا الشيخ حب العبادة .

انه يفهم لماذا يرتمون على قدميه ويبكون حناناً حين يرون وجهه • كان أليوشا يشعر شعورا قويا بأن نفساً مذعنة كنفس الشعب الروسى ، نفساً يرهقها العمل والعذاب ، ويضنيها الظلم الأبدى والخطايا اليومية خاصة — خطايا الناس وخطايا هى — كان أليوشا يشعر أن نفساً كهذه لا يوجد بالنسبة اليها حاجة أقوى ولا عزاء أعظم من أن تملك هيكلا أو قديساً تستطيع أن تركع أمامه متعبدة قائلة : « انا نعيش فى الخطيئة والكذب والغواية ، ولكن لا ضير ••• ما دام يوجد فى مكان ما على هذه الأرض قديس وانسان هو خير منا ؛ فهذا الانسان يملك الحقيقة على الأقل ، ويعرف أين هى الحقيقة ، فلا يمكن اذن أن تهلك الحقيقة فى هذا العالم ، ولسوف نعرفها نحن أيضا فى ذات يوم ، لأنها ستسود العالم ، كما جاء فى الكتاب • » • كان أليوشا يعلم أن الشعب يحس ويفكر على هذا النحو ، وكان هو يفهم الشعب • فأما أن الشيخ هو القديس وهو الانسان الذى عهد اليه الرب بالحفاظ على الحقيقة للشعب ، فذلك أمر كان أليوشا لا يشك فيه لحظة واحدة ، وكان يؤمن به ايمانا لا يقل عمقاً عن ايمان الفلاحين الباكين وزوجاتهم المريضات أو عن ايمان الفلاحات اللواتى يمددن صغارهن الى الشيخ ؛ ولعل يقينه من أن الشيخ سيهب للدير بعد وفاته مجداً خارقاً كان أرسخ وأقوى من يقين أى راهب آخر• ثم ان قلبه قد أصبح منذ زمن يزخر بمزيد من حماسة عميقة تلهبه يوما بعد يوم • وكان لا يقلقه أن يتصور أن قداسة هذا الشيخ أمر استثنائى فى هذا العالم رغم كل شىء • كان يقول لنفسه : « أى بأس فى هذا ! انه قديس ، وان قلبه يضم سرّ بعث جميع البشر ، فيه تكمن القدرة التى ستكفل انتصار الحقيقة على هذه الأرض بغية أن يصير جميع الناس قديسين وأن يحب بعضهم بعضا ، فلا فقراء ولا أغنياء ، ولا متكبرين ولا مستذلين ، لأنهم جميعا سيصبحون كأبناء الرب ، وسيسود ملكوت

يسوع المسيح ٠٠٠ ذلك كان الحلم الذى يملأ قلب أليوشا ٠

ويظهر أن وصول أخويه اللذين لم يكن يعرفهما حتى ذلك الحين قد أحدث في نفس أليوشا أثراً كبيرا فى تلك الآونة ٠ لقد تفاهم مع أخيه غير الشقيق ، دمترى فيدوروفتش ، تفاهما أسرع وأعمق من تفاهمه مع أخيه الشقيق ايفان فيدوروفتش ، رغم أن ايفان قد وصل قبل دمترى ٠ كان يرغب رغبة قوية فى أن يعرف أخاه ايفان عن كثب ، ولكن رغم أنهما يعيشان تحت سقف واحد منذ شهرين ، ورغم أنهما يلتقيان كثيرا ، لم يحدث بينهما أى تقارب حقيقي : فأما أليوشا فكان يظل صامتاً لا يتكلم ، ويبدو أنه ينتظر شيئاً ما أو ينطوى على نفسه فى نوع من الخشية أو من الحرج الداخلى ؛ وأما ايفان الذى لاحظ أليوشا نظراته الطويلة المتفرسة فى البداية ، فقد بدا أنه سرعان ما عزف عنه فأصبح لا يهتم به ٠ وكان أليوشا يعزو قلة اكتراث أخيه الى ما بينهما من فرق فى السن والثقافة ٠ غير أن تعليلا آخر كان يساور فكره أحيانا ، فكان يتساءل : ألا يمكن أن تكون قلة اكتراث ايفان ناشئة عن سبب ما يزال يجهله ، عن سبب لا يدركه البتة ؟ لقد كان يبدو له ان ايفان مشغول البال دائما بشىء ما ، بمسألة نفسية لعلها خطيرة جدا ، وأنه يتطلع الى بلوغ هدف لعله رفيع جدا وصعب جدا ، فما يتسع وقته كثيرا لأن يلتفت الى أخيه وأن يفكر فيه ٠ أفلا يكون هذا هو السبب الحقيقى الوحيد لموقفه منه ، وذهوله عنه ؟ وكان هنالك أمر آخر يقلق أليوشا : ألا يمكن أن يشتمل هذا الموقف على شىء من الاحتقار يشعر به عالم ملحد تجاه راهب مبتدىء غبى ؟ لقد كان أليوشا يعلم أن أخاه لا يؤمن بالله ٠ ان مثل هذا الاحتقار ـ اذا وجد ـ قد لا يكدّر أليوشا ، ومع ذلك كان أليوشا ينتظر ، بقلق غامض تخالطه خشية ، اللحظة التى يقرر فيها أخوه أن يقترب منه ٠ أما دمترى فيدوروفتش فقد كان يتحدث عن أخيه

ايفان بكثير من الاحترام ، ويتكلم عليه بلهجة فيها حماسة عظيمة • ومن دمترى انما عرف أليوشا جميع تفاصيل القضية التى خلقت بين الأخوين فى الآونة الأخيرة هذه الصلة الحميمة وشدت أحدهما الى الآخر شداً وثيقا • وكانت هذه الحماسة التى يظهرها دمترى فى تقدير أخيه ايفان تكتسب مزيدا من الدلالة فى نظر أليوشا لأن دمترى كان بالقياس الى ايفان رجلا لا يكاد ينعم بأى حظ من ثقـــافة ، فاذا قارنا بين الأخوين وجدناهما يبلغان من عمق اختـــلاف أحدهما عن الآخـــر فى الطبـع والشخصية أن من الصعب على المرء أن يتصـــور انسانين بينهما من قوة التنافر وشدة التفاوت ما بين هذين الأخوين •

وفى تلك الفترة بعينها انما تم اللقاء العائلى أو قل الاجتماع العائلى فى حجرة الشيخ زوسيما بين جميع أفراد هذه الأسرة المتنافرة ، وذلك حادث كان له فى أليوشا تأثير كبير• الحق أن الحجة التى اتخذت ذريعة لهذا اللقاء كانت باطلة • ان الخلاف الناشب بين دمترى فيدوروفتش وأبيـــه فيدور بافلوفتش حول الميراث وتصـــفية الحساب كان قـد بلغ فى تلك اللحظة أوجه ، وان العلاقات المتوترة الى أقصى حدود التوتر بين الأب وابنه كانت قد أصبحت لا تطاق • وان فيدور بافلوفتش هو الذى اقترح ـ مازحاً فيما يظهر ـ أن يُعقد اجتماع فى حجرة الشيخ زوسيما بغيـة الوصول الى التفاهم بروح أقرب الى المـــودة وأدنى الى الصفاء ، دون اللجوء الى تدخل الشيخ فى الأمر بالضرورة : ذلك أن منزلة هذا الانسان المحترم وشخصيته كفيلتان بأن تؤثرا فى الجميع تأثيرا يهـدىء النفوس ويصالح القلوب • وقد تخيل دمترى فيدوروفتش ، الذى لم يسبق له أن زار الشيخ يوما والذى لم يكن يعرفه حتى بالنظر ، تخيل طبعا آن الغرض من هذا الاجتماع انما هو تخويفه بسلطان هذا الشيخ • ومع ذلك قبل دمترى هذا التحدى ، لأنه كان فى سرّه يلوم نفسه على الحدة العنيفة

والنزق الشديد فيما كان يوجهه الى أبيه من قارص الكلام وهاجر القول أحيانا كثيرة في الآونة الأخيرة • ويحسن أن نذكر هنا أنه كان لا يسكن في منزل أبيه ، كأخيه ايفان فيدوروفتش ، وانما كان يقطن وحيدا في الطرف الآخر من المدينة • وقد حدث أثناء هذه الظروف أن بطـرس ألكسندروفتش ميوسوف الذى كان يقيم في مدينتنا آنذاك ، أن تبنى الرأى الذى اقترحه فيدور بافلوفتش • انه ، وهو اللبرالى على طراز سنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠ ، المتحرر من العقائد الكافر بالأديان ،قد ساهم في هذه القضية مساهمة فعالة ، ربما عن ضجر وسأم ، وربما عن رغبة طائشة في السخرية والاستهزاء • وقد اشتهى فجأة أن يرى الدير وأن يرى « قديس » الدير • واذ كانت الدعوى القائمة بينه وبين الدير قد طال عليها الأمد ، واذ أن النزاع بينه وبين الدير على تعيين حدود أراضيه وحدود أراضى الدير ، وعلى الحقوق الغامضة في قطع أشجار الغابات وصيد أسماك النهر ، لم يكن قد حُسم حتى ذلك الحين ، فقد أسرع ينتهز هذا الظرف متعللا بأنه يريد أن يكلم كبير الرهبان* شخصيا ، فعسى أن يكون ذلك وسيلةً لتصفية الخلاف بالود دون احتكام الى القضاء ! وقد ذكر في تأييد رأيه هذا أنه اذا دخل الدير على هذه النية الحميدة فيمكن أن يُستقبل استقبالاً ألطف وأكرم من الاستقبال الذى سيستقبل به ، لو ذهب الى الدير بدافع الاستطلاع والفضول لا أكثر • وقد أتاحت هذه الاعتبارات المختلفة تحريك بعض المؤثرات في داخل الدير ، وفعلت فعلها في الشيخ المريض الذى أصبح منذ زمن لا يكاد يبارح غرفته ، وأصبح يرفض بسبب حالته استقبال زائريه الذين ألفوا أن يفدوا اليه • لقد وافق الشيخ على الاجتماع ، وحُدِّد موعد للقاء ، واقتصر الشيخ على أن يقول لأليوشا وهو يبتسم : « ما أنا في الحقيقة حتى يحق لى أن أكون حكماً بينهما ؟ » .

حين علم أليوشا بأمر هـــذا الاجتماع قلق قلقا شديدا واضطرب اضطرابا عظيما . لا شـــك ان أخاه دمترى هو بين سائر ذويه الذين تقسمهم هذه المنازعات والمشاجرات ، هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يأخذ هذا الاجتماع مأخذ الجد . أما الآخرون فلعلهم لا يذهبون الى الدير الا لبواعث طائشة وأسباب سخيفة قد تسيء الى الشيخ وتجـــرح شعوره . كان أليوشا يدرك ذلك حق الادراك . فأخوه ايفان والســـيد ميوسوف لن يأتيا الى الدير الا بداعى حب الاستطلاع ، وربمـــا بداعى الفضول الفظ الغليظ . أما أبوه فليس بالمستبعد أن يكون فى نيته تمثيل مهزلة ساخرة مهرّجة . ذلك أن أليوشا ان كان يحسن الصمت ، فلقد كان يعرف أباه ، بل كان يعرفه معرفة عميقة . يجب أن أكرر أن هذا الفتى كان أذكى فؤاداً وأنفذ بصيرة مما كان يتخيل أكثر الناس . لذلك أخذ ينتظر يوم اللقاء واجف القلب مهموم النفس . صحيح أنه كان فى قرارة نفسه يتمنى كثيرا أن تنتهى هـــذه المنازعات العائلية على نحو من الأنحاء. غير أن اهتماماته الأساسية كانت منصرفة الى الشيخ، فكان يرتعد قلقاً عليه ، وحرصا على مجده ، وكان يخشى أن يلحقوا به اهانة أو أن يمسوه بسوء ، وكان يخشى خاصة السخريات اللطيفة المهذبة التى يمكن أن يعمد اليها ميوسوف ، وغمزات الاحتقار التى يمكن أن يدسّها أخوه العالم ايفان ، وكان يتخيل هذا كله سلفا . خطر على باله فى لحظة من اللحظات أن ينذر الشيخ ، أن يقول له كلمتين عن أهـــله هؤلاء الذين يستعدون لزيارته ، ولكنه بعد أن فكر فى الأمر آثر أن يصمت فلا يقول شيئا ، واقتصر فى عشية اليوم المحدّد للزيارة أن يبـــلغ أخاه دمترى بواسطة صديق لهما كليهما أنه يحبه كثيرا وانه يعتمد على وعده . واحتار دمترى فى أمر هذه الرسالة وأخذ يفرض الفروض ويخمن التخمينات فى فهم معناها ، ذلك أنه لا يتذكر أنه قطع على نفسه لأليوشا أى عهد ،

ثم أجاب أخاه فى رسالة مكتوبة بأنه سيبذل قصارى جهوده فى سبيل أن يسيطر على نفسه وفى سبيل أن يتجنب أى « صغار » ، وأضاف الى ذلك قوله انه على احترامه العميق للشيخ وأخيه ايفان ، واثق ثقة عميقة بأن الأمر لا يعدو أن يكون اما فخاً يُراد له أن يقع فيه ، واما مهزلة منحطة يُراد تمثيلها ، وختم رسالته بقـوله : « ومع ذلك فاننى أوثر أن أبلع لسانى على أن أقول كلاما يؤذى هـذا الانسان المقـدس الذى تجله وتعظمه . » . غير أن هذه الرسالة لم تكن كفيلة بأن تطمئن أليوشا .

الباب الثاني: اجتماع في غير محله

١

الوصول الى الدير

كان ذلك في صبيحة يوم من أواخر شهر آب (أغسطس) ، يوم مضيء حار . ان لقاء الشيخ قد حُدِّدت له الساعة الحادية عشرة والنصف، بعد نهاية الصلاة الثانية فورا . ولكن أصحابنا الزائرين لم يروا أن من الضروري أن يحضروا الصلاة ، فوصلوا الى الدير لحظة انتهاء القداس . كانوا قد ركبوا عربتين . فأما الأولى فهي مركبة أنيقة من مركبات السادة يجرها حصانان جوادان ، فيها بطرس الكسندروفتش ميوسوف ، وفتى يصحبه في نحو العشرين من عمره ، اسمه بطرس فومتش كالجانوف ، وهو يمت الى ميوسوف بقربى بعيدة . ان على هذا الشاب أن يدخل الجامعة قريبا ، ولكن ميوسوف الذي كان الشاب يعيش في تلك الفترة عنده ، يريد أن يصطحبه الى الخارج حيث يستطيع أن يتم دراسته بمتابعة المحاضرات في جامعة زوريخ أو جامعة فيينا . لم يكن كالجانوف قد عزم أمره واتخذ قراره بعد . فهو الآن واجم مفكر يبدو ذاهلاً . هو فتى قوي البنية طويل القامة حلو الوجه ، ولكن نظرته تجمد في بعض الأحيان جمودا غريبا : كان يتفق له في بعض الأحيان ، كما يتفق ذلك لجميع كبار الذاهلين ، أن يحدق الى الناس تحديقا طويلا دون أن يلمح حتى وجودهم . وهو

فى العادة كثير الصمت قليل الكلام ، لا يخلو من شيء من خراقة ، ولكنه يتحمس فى بعض الأحيان ــ اذا خــلا الى صديق ــ فينطلق عندئذ على سجيته ، ويفصح عن نفسه ، ويضحك دون تحرج ، بل ودون سـبب ظاهر . على أن هذه الحماسة تزول بسرعة كما شبت بسرعة . والفتى حسن الهندام دائما ، على شيء من تأنق . وهو يملك ثروة حسنة تكفل له الاستقلال منذ الآن ، ولكنه ينتظر مواريث أضخم وأعظم . ولقد كان صديقاً لأليوشا .

وأما العــربة الثانية فقد ركبهــا فيدور بافلوفتش وابنــه ايفان فيدوروفتش ، وهى عربة عتيقة مهترئة مترنحة مقرقعة ، ولكنها فسيحة ، يجرها حصانان عجوزان أشهبان كانا يلقيان عناءً فى اللحاق بمـركبة ميوسوف ويتركان لها دائما أن تسبقهما .

أما دمترى فيدوروفتش فقد تأخر ، رغم أنه قد أبلغ يوم اللقاء وساعته ، منذ الليلة البارحة .

ترك الزائرون عربتهما قرب السور أمام الفندق واجتازوا أبواب الدير سيراً على الأقدام . يظهر أن أحداً من هؤلاء الزائرين ، باستثناء فيدور بافلوفتش ، لم يسبق له أن رأى الدير قبل اليوم ؛ أما ميوسوف فانه لم يضع قدميه فى كنيسة من الكنائس منذ ثلاثين عاماً . كان ينظر حواليه بشيء من الاستطلاع ، دون أن يتنازل مع ذلك عن التظاهر بعدم الاهتمام وقلة الاكتراث . ولكن ما من شيء فى داخل هذا الدير كان يمكن أن يلفت انتباه فكره الملاحظ ، الا تلك المبانى الدينية والمبـانى الضرورية لحياة الرهبان المشتركة ، وهى مبانٍ ليست على حظ وافـر من جمال فن العمارة . كان أواخـر المصلين يخرجون من الكنيســة ويرسمون اشارة الصليب وهم ينزعون قبعاتهم عن رءوسهم ؛ وهم أناس

من عامة الناس بينهم عدد قليـــل من طبقة اجتماعية أعلى ، وسيدتان أو ثلاث سيدات ، وجنرال عجوز جدا . كان هؤلاء جميعا قد نزلوا فى الفندق . وسرعان ما احتشد المتسولون حول أصحابنا الزائرين ، ولكن أحدا لم يهتم بهم ولم يلتفت اليهم ، باستثناء بتروشكا كالجانوف ، فقـد أخرج من حافظه نقوده قطعة عشرة كوبكات ، وسارع يدسها مضطرباً بعض الاضطراب ــ لا أدرى لمـاذا ــ سارع يدسها خلسةً فى يد احدى هاته الفقيرات وهو يقول لها بصوت لا يكاد يبين : « توزعوها جميعا » . لم يُبد له أحد ملاحظةً على ما فعل ، فما كان له اذن أن يضطرب ، ومع ذلك فان صمتهم هذا قد بدا أنه زاد اضطرابه .

استغربوا أن أحدا لم يجىء لاستقبالهم فى الدير . يظهر أنهـم كانوا يتوقعون أن يُنتظروا بل وأن يُستقبلوا استقبالاً فيه حفاوة . ألم يتبرع واحد منهم للدير بألف روبل فى الآونة الآخيرة ؟ أليس الثـانى منهم رجلاً غنياً جداً من أصحاب الأطيان ، عدا أنه على جانب عظيم من الثقافة ، وعدا أن هؤلاء الرهبان جميعا قد يتـــوقف أمرهم عليـه وقد يصبحون رهناً به فيما يتعلق بحقوق الصيد فى النهر اذا جرت القضـية مجرى يتفق ودعواه ؟ ومع ذلك لم تجىء أية شخصية رسمية لاستقبال هؤلاء الزوار ! أجال ميوسوف نظرة ذاهلة على أحجار القبور المجـاورة للكنيسة ، وهمَّ أن يقول ان أهل هؤلاء الموتى لا بد أن يكونوا قد دفعوا مبالغ طائلة من المال حتى حقَّ لهم أن يدفنوا موتاهم فى مكان يبلغ هذا المبلغ من « القداسة » ، ولكنه صمت ولم يقل شيئا ، ثم اذا بالســخرية الليبرالية تحرك فى نفسه نوعاً من غضب فقال فجأة وكأنه يخاطب نفسه :

ــ لا يعلم الا الشيطان من الذى سنتجه اليه فى هذه الفوضى ... وعلينا مع ذلك أن نسرع فان الوقت يمضى ...

وفى تلك اللحظة اقترب منهم سيد متقدم فى السن ، أصـلع ، متلطف النظرة • انه يرتدى معطفا فضفاضا من معاطف الصيف • رفع الرجل قبعته ، وقدّم نفسه اليهم جميعا ، بصوت متعاذب مترقق ينطق الجيم زاياً ، قائلاً انه المـلاّك ماكسـيموف من اقليم تولا • وسرعان ما أدرك حيرة القادمين فقال :

ـ ان الشيخ زوسيما يقطن الصومعة فى مكان منزوٍ على مسـافة أربعمائة قدمٍ من الدير • فيجب للذهاب اليه اجتياز الغابة الصـغيرة ، هذه الغابة الصغيرة •••

فأجاب فيدور بافلوفتش :

ـ أعرف أن منسكه يقع وراء الغابة الصغيرة ، ولكننا نسينا الطريق اليه ، لأننا لم نجىء الى هنا من زمان طويل ••••

قال الرجل :

ـ يجب اجتياز هذا الباب ، ثم السير رأساً فى الغابة ••• الغـابة الصغيرة •• هيّا بنا •• هل أستطيع أن •• اننى أنا أيضاً ، أنا أيضاً •• الطريق من هنا ، من هنا ! ••

خرج الجميـع من الباب وساروا فى الغـابة • كان مالك الأطيـان ماكسيموف ، وهو رجل فى نحو الستين من عمره يسير الى جانبهم ، بل قل يكاد يركض الى جانبهم ركضاً ، وهو يتفرس فيهم بنـوع من استطلاع متشنج لا يطاق ، وقد اتسعت عيناه اتساعاً يدعو الى الدهشة •

قال ميوسوف بلهجة قاسية :

ـ يجب أن أقول لك اننا ذاهبون الى هذا الشيخ لأمور تتعلق بنا وحدنا ، وقد فزنا بالحصول على موعد لمقابلة هذه « الشخصية » ، فلعلك

SS

تدرك اذن أننا مع شـــكرنا لك على أنك تدلنا على الطـريق نسألك أن لا تصحبنا فى الدخول عليه •

ـ لقد كنت عنده ••• كنت عنده ••• هو فارس عظيم ••

قال الرجل ذلك وهو يصفق بأصابعه في الهواء •

سأل ميوسوف :

ـ من ؟ من هذا الذى تصفه بأنه فارس ؟

ـ الشيخ ، الشيخ العظيم ، هذا الشيخ ••• شرف هـــذا الدير ومجده •• زوسيما •• ذلك الشيخ •

وفى تلك اللحظة لحق بجماعة الزوار راهب قصير القامة ، شديد النحول ، شاحب اللون جداً ، يرتدى برنساً ، فقطع على مالك الأطيـان حديثه المضطرب المفكك • توقف فيدور بافلوفتش وميوسوف• وخاطبهم الراهب يقول بأدب عظيم وهـــو ينحنى أمامهم حتى ليكاد يبـلغ رأسه مستوى الحزام :

ـ ان الأب الأكبر يرجوكم ، بكثير من التواضع ، أن تشرفوه ، حين عودتكم من الصومعة ، بالمجىء اليه جميعاً لتناول طعام الغداء •

ثم التفت نحو ماكسيموف ، فأضاف يقول له :

ـ وأنت أيضاً مدعو •

هتف فيدور بافلوفتش يقول وقد طار لبه فرحاً بهذه الدعوة :

ـ سأجىء ، سأجىء حتماً ••• لن أتخلف عن المجىء ! اعلم أننا قد تعهدنا جميعا بأن نتصرف هنا باحتشام • هل تجىء أنت أيضا يابطرس ألكسندروفتش ؟

ـ سؤال غريب ! أكنت أجيء الى هنا لولا حرصي على أن أرى جميع عاداتهم ؟ ولكن الشيء الوحيـــد الذى يقلقني الآن هــو أنني في صحبتك يا فيدور بافلوفتش !

ـ نعم ! وما رأيكم في دمترى فيدوروفتش الذى لم يتنـــازل أن يصل حتى الآن ؟

ـ ليته لا يصل أبدا ! ألعلك تظن أنه يسرني أن أجد نفسي مقحماً في جميع هذه القضايا الوسخة ، وأن أحتمل فوق هذا صحبتك ؟

قال ميوسوف ذلك ، ثم أردف يقول وهو يلتفت نحو الراهب :

ـ اننا نقبل الدعوة ، اشكر الأب الأكبر باسمنا •

فأجاب الراهب :

ـ أنا باق معكم ، لأنني مكلف باصطحابكم الى الشيخ •

قال مالك الأطيان ماكسيموف مزقزقاً :

ـ أما أنا فذاهب أثناء ذلك الى الأب الأكبر رأساً • أنا ذاهب اليه حالاً •

قال الراهب متردداً :

ـ الأب الأكبر مشغول الآن ، ولكن اذا كنت تحرص على أن •••

قال ميوسوف بصوت عالٍ بينما كان الملاّك ماكسيموف يتجه نحو الدير بخطاه القصيرة السريعة :

ـ يا للعجوز الصغير المزعج !

فعقب فيدور بافلوفتش فجأة بقوله :

ـ انه يذكرني بفون سون ! *

ـ كل شيء يذكرك بفون سون ؟ أى شبه بينه وبين فون سون ؟ وهل رأيته أنت ، فون سون هذا ؟

ـ رأيت صورةً له . قد لا يشبهه بملامح الوجه ، ولكنه يشبهه بشيء يصعب تحديده ... هو نسخة عن فون سون . أنا لا يخطئني الظن أبدا في مثل هذه الأمور . تكفيني نظرة واحدة ألقيها على الوجه ...

ـ طيب . لا بد أن تكون لك هذه القدرة على كل حال . ولكن لا تنس يا فيدور بافلوفتش ما قلته أنت نفسك منذ قليل : لقد قطعنا على أنفسنا عهداً ليكونن سلوكنا هنا محتشماً . تذكر هذا . راقب نفسك. انني أطلب اليك ذلك جازماً قاطعاً. اياك أن تأخذ في تمثيل دور المهرج. انني أرفض أن أؤخذ بجريرتك وأن أحمل وزرك .

قال ميوسوف ذلك ثم أضاف يقول للراهب :

ـ أرأيت أى نوع من البشر هو ؟ يميناً انني أخشى أن أذهب في صحبته الى عند أناس محترمين ...

ارتسمت على شفتي الراهب الرقيقتين الذاويتين ابتسامة ناعمة صامتة لا تخلو من بعض المكر ، ولكنه لم يجب بشيء . لقد كان واضحا كل الوضوح أنه انما يتعمد الصمت شعوراً منه بكرامته الشخصية . قطّب ميوسوف حاجبيه مزيداً من التقطيب . وقال يحدث نفسه : «شيطان يأخذ جميع هؤلاء الرهبان مع أوضاعهم الخارجية المدروسة بعناية ، الثابتة منذ قرون ! ما هذا كله الا سخف ودجل ! » .

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

ـ هذه هى الصومعة ! هذا هو المنسك ! لقد وصلنا ! الحديد موصد والباب مغلق !

وأخذ يرسم اشارة الصليب بحركات عريضة أمام صور القديسين التى تزين المدخل فوق الباب وعلى جانبيه • وقال :

ـ لكل دير قواعد تجب مراعاتها • هم هنا خمسة وعشرون قديساً على وجه التقريب ، ينشدون الأمن والسلامة والخلاص فى هذا المنسك، يتفرس بعضهم فى بعض ويأكلون الكرنب المخلل • ولكن ما من امرأة واحدة يُسمح لها باجتياز هـــذا الباب • ذلك أعجب شىء هنـا ، ولكنه حقيقة • فكيف نعلّل ، رغم هذا ، أن الشيخ يستقبل فى هـــذا المكان سيدات فى بعض الأحيان كما قيل لى ذلك ؟

بهذا السؤال ختم فيدور بافلوفتش كلامه ، متجهاً به الى الراهب•

ـ ان نساء من عامة الشعب توجد هنا فى هذه اللحظة نفســـها • تستطيع أن تراهنّ : انهن ينتظرن قرب الرواق جالسات أو راقدات • أما سيدات المجتمع الراقى فقـــد خصصت لهن فى الرواق ، ولكن على الطرف الآخر من السياج ، غرفتان صغيرتان هـــذه نوافذهما تراها من هنا • فالشيخ يذهب اليهن من ممر داخلى متى أحس بأنه قادر على ذلك، دون أن يجتاز السياج طبعاً • وثمة سيدة من مالكات الأطيان هى الآن هناك مع ابنتها المريضة تنتظر الشيخ : انها السيدة هوخلاكوفا • أغلب الظن أن الشيخ قد وعد بلقائهما رغم أنه قد بلغ من الضعف منذ زمن أنه أصبح لا يكاد يخرج •

ـ هناك اذن ممر يؤدى من المنسك الى السيدات • لا يذهبنّ بك الظن أيها الراهب المحترم الى أن فى كلامى هذا شيئاً من غمز ! حاشا•• فأنا انما أقول هذا الكلام بغير نية البتة ! هل تعلم أن زيارات النســاء ،

في جبـل آثوس ، ولا شك أن ذلك قد ذُكـر لك ، ليست وحـــدها ممنوعة ، وانما يُمنع هناك أيضاً وجود الأناث من أى نوع من أنواع الحيوان ••• فلا دجاجة ولا أوزة ولا أية عجلة صغيرة يمكن أن يحتمل وجودها هناك ؟ •••

ـ فيدور بافلوفتش ، اذا استمررت فسأنصرف وأتركك وحدك ! ولئن انصرفت أنا ليُخـــرجُنَّك من هنـا جـراً من كتفيـــك ! انني أحذرك •••

ـ وددت لو أعرف ما الذى يزعجك مني يابطرس ألكسندروفتش؟

كذلك قال فيدور بافلوفتش ، ثم صاح يقول فجأة وهو يجتاز سياج المنسك :

ـ انظر الى وادى الأزهار هذا الذى يعيشون فيه ! •••

حقاً ••• ان الناظر يرى أزهاراً رائعة نادرة ، وان لم ير وروداً في هذا الأوان • لقد زُرعت أزهار فى كل ركن خال • وكان واضحاً أن يداً ماهرة صناعاً هى التى تعنى بالأزهار فى كثير من الحب • ان هناك أحواض أزهار بين القبور وعلى طول الجدران • والبيت الصـغير الذى يضم حجرة الشيخ ، والذى كان مبنياً بخشب ومؤلفاً من طابق واحد مع رواق أمام المدخل ، يزدان هو أيضاً بالأزهار تطوّقه من كل جهة •

ـ قل لى : هل كان الأمر على هذه الحال فى عهد الشيخ السابق ، الشيخ فارسونوف ؟ يُقال انه كان يكره الترف وان الأناقة كانت تغضبه كثيراً حتى ليتفق له أن يرفع عصاه على سيدات •

كذلك قال فيدور بافلوفتش وهو يقترب من درجات المدخل •

أجاب الراهب الصغير قائلاً :

ـ كان مظهر الشيخ فارسونوف يوهم حقاً فى بعض الأحيان أنه انسان بسيط ، ولكن ما أكثر السخافات والأكاذيب التى قيلت فى حقه ورويت عنه ! انه على كل حال لم يرفع عصاه على أحد فى يوم من الأيام ! انتظروا هنا لحظة يا سادة . سأبلغ الشيخ قدومكم .

اتسع وقت ميوسوف لأن يدمدم قائلاً لفيدور بافلوفتش :

ـ أحذرك آخر مرة يا فيدور بافلوفتش ... أحسن التصرف ، والا جعلتك تندم ! ...

فأجابه فيدور بافلوفتش ساخراً :

ـ لا أستطيع أن أفهم ما الذى يجعلك ثائر الأعصاب الى هذه الدرجة .أهى خطاياك تعذب ضميرك ؟ أأنت خائف من قدرة هذا الشيخ ؟ يقال انه يقرأ فى أعين الناس ، ويستشف كل ما يجيش فى الضمائر وكل ما يثوى فى قرارة النفوس . هل يجوز لرجل باريسى تقدمى مثلك أن يقيم هذا الوزن كله لرأى هؤلاء الرهبان ؟ الا أن هذا ليدهشنى منك قليلاً ، هل تعلم ؟

لم يتسع وقت ميوسوف للرد على هذه السخريات ، لأنهم قد دعوا الى الدخول . وكان يشعر ، وهو يدخل ، بحنق يلم به وغيظ يغزو قلبه .

قال يحدث نفسه : « اننى أعلم ما سيحدث الآن . أنا أعرف نفسى . سوف تثور أعصابى ، سوف أغضب ... سوف أتحمس ، فبذلك أخفض قدرى وأغض من قيمة آرائى . » .

٢

المهرج العتيق

دخلوا الحجرة فى نفس الوقت الذى ظهر فيه الشيخ على عتبة مهجعه تقريباً • كان فى الحجرة كاهنان من رهبان المنسك ينتظران فيها خروج الشيخ اليهما• ان أحدهما هو الأب القيِّم على مكتبة الدير، والثانى هو الأب بائيسى • ان الأب بائيسى رجل مريض جداً رغم انه غير طاعن فى السن كثيراً ، وهو يعد على جانب عظيم من العلم • وكان هنا لك فتى يبدو فى الثانية والعشرين من عمره ، قد وقف فى ركن من الحجرة (ولقد ظل واقفاً حتى نهاية الاستقبال) • انه طالب سيصبح فى المستقبل لاهوتياً ، والدير وهذه الفرقة الدينية يهتمان به لسبب من الأسباب ويشملانه بالرعاية والحماية • هو شاب طويل القامة ، نضر المحيا ، عريض الوجنتين ، تضىء وجهه عينان شهباوان طويلتان ضيقتان تعبران عن ذكاء وانتباه • وكان وجهه يفصح عن كثير من الاحترام والتوقير ، ولكن بغير غضاضة ولا مذلة • انه لم يسلِّم على الزائرين الذين دخلوا الحجرة ، دالاً بهذا الامتناع على انه لا يعد نفسه نداً لهم ، بل شخصاً ثانوياً مرءوساً •

دخل الشيخ يصحبه أليوشا ومترهب مبتدىء • نهض الراهبان

SS

الكاهنان فسلَّما على الشيخ سلاماً عميقاً وانحنيا له حتى لامست أصابعهم الأرض ؛ ثم تبادلا كلمات المباركة وقبلا يدى الشيخ ، فباركهما الشيخ أولاً ثم ردَّ عليهما التحية منحنيا أمام كل منهما تلك الانحناءة نفسها لامساً بيديه الأرض . ولقد تم هذا الاحتفال بكثير من الوقار والمهابة ، لا كما يتم طقس من الطقوس المألوفة اليومية ، حتى لقد كانت الحركات التى قاموا بها مشبعة بانفعال صادق وعاطفة حقيقية . ومع ذلك أحسَّ ميوسوف انهم يسكبون فيها شيئاً من التصنع والافتعال . وكان ميوسوف فى مقدمة صحبه . وكان يقول لنفسه ـ وذلك أمر فكَّر فيه طويلاً منذ الليلة البارحة ـ ان عليه من باب اللباقة وحدها ، مهما تكن آراؤه الخاصة ، ان يقترب من الشيخ وأن يتلقى مباركته (ما دامت السنة قد جرت بذلك فى هذا المكان) ، أن يتلقى مباركته على الأقل ما دام لا يريد أن يقبل يده . ولكنه حين رأى هذه التحيات الاحتفالية وهذه القبلات التى طبعها الرهبان على يدى الشيخ لم يلبث أن تراجع عن قراره ، فاكتفى بأن حيَّا الشيخ تحية عميقة منحنياً له الانحناءة الكبيرة التى ينحنيها رجل مهذب من رجال المجتمع الراقى ثم تقهقر نحو كرسيه هادئاً رصيناً وقوراً . واقتفى فيدور بافلوفتش أثره فحاكاه فى كل حركة من حركاته حتى لقد بدا أنه يقلده تقليداً ، ولعله فعل ذلك عامداً . وسلَّم ايفان فيدوروفتش هو أيضا سلاما رصيناً مهذبا ؛ أما كالجانوف فقد بلغ من الاضطراب أنه نسى أن يسلِّم . وأنزل الشيخ يده التى كان قد رفعها مباركاً ؛ وبعد أن حيَّاهم مرةً أخرى رجاهم أن يجلسوا . صعد الدم الى خدى أليوشا . لقد كان يشعر بالخجل والخزى من ذويه . ان ما أوجسه وتنبأ به قد تحقق .

جلس الشيخ على أريكة صغيرة من خشب الآكاجو ، قديمة الطراز جداً ، مغطاة بجلد ؛ وأجلس ضيوفه ، باستثناء الراهبين الكاهنين ، صفاً

واحدا أمام الجدار المقابل مشيراً لهم الى مقاعد أربعة من خشب الآكاجو مغطاة بجلد أسود رث جدا . وجلس الراهبان الكاهنان على الجانبين ، أحدهما قرب الباب والثانى أمام النافذة . أما الطالب وأليوشا والمترهب المبتدىء فقد ظلوا واقفين . ان الحجرة ضيقة قليلة الاتساع تُشعر بأنها عتيقة بالية كل البلى ، والأثاث الذى فيها عادى فقير يقتصر على ما هو ضرورى لا غنى عنه . وهذان أصيصان للزهر يزينان حافة النافذة ، وهذه طائفة كبيرة من الأيقونات تتكدس في ركن من الغرفة ، احداها للسيدة العذراء ، وهي أيقونة كبيرة جدا يرجع تاريخها الى عهد سابق على الانشقاق الدينى * . وعلى جانبى العذراء صورٌ مقدسة أخرى فى صناديق من معدن لامع محفور ؛ وبعدها بقليل يرى الرائى تماثيل أطفال لهم أجنحة ، وبيضاً من خزف ، وصليبا كاثوليكيا مع أم محزونة تضم الصليب بذراعيها ، وعددا من نسخ أجنبية للوحات كبار الرسامين الطليان فى القرون الخوالى ، وهذا كله قد اختلط بعضه ببعض فوضى ؛ والى جوار تلك الصور الفنية التى لها قيمة كبيرة يرى الرائى عدة صور ليتوغرافية روسية شعبية تافهة تمثل قديسين وشهداء ، هى من تلك الصور التى تباع فى جميع أسواق البلاد بكوبك واحد . وهناك صور ليتوغرافية أخرى هى وجوه أساقفة من الروس قدماء أو حاليين تزين الجدران الأخرى من الغرفة . طاف ميوسوف على هذه « التفاهات » بنظرة سريعة ، ثم حدّق الى الشيخ . ان ميوسوف يعد نفسه ثاقب النظرة نافذ البصيرة ، غير أن ذلك ضعف يمكن أن نغفره له حتماً اذا نحن تذكرنا أنه قد بلغ الخمسين من عمره ، وهى سنٌّ يكون فيها الانسان الذكى الذى ينتمى الى المجتمع الراقى وينعم بمركز وطيد قد تعود أن يحترم نفسه كثيرا ، على غير شعور منه فى بعض الأحيان .

لم يعجبه الشيخ فى الوهلة الأولى . والحق أن فى وجه الشيخ

شيئاً يمكن أن لا يرضى غير ميوسوف أيضا • هو رجل قصير القامة محدودب الظهر مترنح الساقين ، عمره خمسة وستون عاما فحسب ، غير أنه يبدو أطعن فى السن بسبب مرضه الذى يُظهره أكبر من عمره بعشر سنين فى أقل تقدير • وان وجهه النحيل الضامر المعروق مخدَّد كله بغضون صغيرة تكثر حول العينين خاصة• وليست عيناه بالكبيرتين، غير أنهما واضحتان صافيتان ، فيهما كثير من الحركة والسطوع ، بحيث لا يرى المرء منهما الا نقطتين مضيئتين • ولم يبق من شعره الا خصلتان شائبتان على الصدغين • أما لحيته الدقيقة فهى صغيرة قليلة زهيدة ؛ وأما شفتاه اللتان كثيرا ما تعبران عن الدهاء فانهما تبدوان أرقَّ من سيور الجلد ؛ وأما أنفه فهو دقيق على غير طول ، يشبه منقار طائر صغير •••

حدث ميوسوف نفسه قائلاً : « ان كل شيء فيه يدل على ان له طبيعة كالحة شرسة ، وعلى أن فيه زهواً سخيفا وكبرياء مسكينة » • وأحس ميوسوف باستياء من نفسه •

ودقت الساعة تقطع الصمت • ان ساعةً صغيرة بخسة الثمن كانت معلقةً بالحائط ومزوَّدة بنواس ، قد ترجع صوتها يدق اثنتى عشرة دقة متتابعة سريعة ، مؤذناً بحلول بالظهر • فصاح فيدور بافلوفتش يقول :

ـ هو الموعد المحدد ولمَّا يصل ابنى دمترى فيدوروفتش • أرجو أن تعذرنى أيها الراهب المقدس جدا (ارتعش أليوشا حين سمع قول أبيه هذا « أيها الراهب المقدس جدا ») • لقد تعودت أنا أن أكون دقيق المواعيد ، فلم أتأخر عن موعدٍ فى يوم من الأيام دقيقة واحدة ، لأننى أتذكر أن دقة المواعيد هى أدب الملوك •

ـ ولكنك لست ملكا فيما أعلم •••

كذلك دمدم يقول ميوسوف الذى كان منـــذ ذلك الحين لا يكاد يستطيع السيطرة على نفسه • فأجابه فيدور بافلوفتش بقوله :

ـ صحيح • لست ملكا • ثق يا ألكسندر بتروفتش أننى أعلم حق العلم أننى لست ملكا ، لا يراودنْك فى هـذا شك ! ولكن هـذا شأنى دائماً : أقول كلاما فى غير محله ، كلاما لا معنى له •

قال فيدور بافلوفتش هذا ثم صاح يضيف بانفعال مفاجىء غريب :

ـ يا صاحب القداسة ، ان أمامك رجلا هو مهرِّج عريق • كذلك أقدم اليك نفسى • هذه عادة قديمة راسخة وا أسفاه ! ولكن لئن كنت أكذب فى كثير من الأحيان ، ولئن كنت أكذب عامدا ، ولئن كنت أكذب كذبا لا معنى له ولا داعى اليه ، فاننى لا أفعـــل ذلك الا فى سبيل أن أضحك الناس وأن أبهجهم • أليس من واجب الانســان أن يبهج أخاه الانسان ؟ اسمع ••• منذ سبع سنين مثلاً ذهبت الى قرية صغيرة لعقـد بعض الصفقات ، فلم البث أن انعقدت الصلات بينى وبين بعض المهرة من تجار القرية • قـررنا أن نزور الايسبرافنك (رئيس الشرطة) الذى كنا نأمل أن نفوز بمساعدته وكان علينا من جهة أخرى أن ندعوه الى الغداء • استقبلنا الايسبرافنك • انه رجـل ضخم طويل أشـقر متجهم المظهر • ان الأفراد الذين هم من هذا النوع هم أخطر الناس حين يكون الأمر أمر أعمال وصفقات • ان أكبادهم مريضـة ، نعم أكبادهم ، هل تفهمون ؟ قررت أنا أن أهجم عليه مجابهةً ان صح التعبـــير ، فقلت له بلهجة منطلقة هى لهجة رجل من رجال المجتمع : « هلاَّ تنازلت ياسيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك * بمعنى من المعانى ؟ » ، فما كان منه الا أن أجاب قائلا : « ماذا ؟ كيف ؟ أى نابرافنك ؟ » • فسرعان ما أدركت أن كل شىء قد ضاع • صمت الرجل قاسىَ النظرة كالح الهيئـة صعب المراس • حاولت أن أعتذر • قلت : « لقد سمحت لنفسى بمزاحة بريئة

بغية أن أشيع المرح فى الجو • وأنت تعلم أن نابرافنك هو اسم أكبر رئيس أوركسترا عندنا ، ونحن ان كنا فى حاجة الى شىء فالى نوع من رئيس أركسترا يحقق لمشروعنا الاتساق والانسجام ••• » • ظننت أننى قدمت له بهذا الكلام تفسيرا معقولاً قائما على تشبيه سليم ، أليس هـــذا صحيحا ؟ » • فأجابنى قائلا : « عفواً ، أنا ايسبرافنك ، ولست أقبل أى تلاعب بالألفاظ فى موضوع الوظائف • » • قال ذلك وأدار لى ظهـره وانصرف • ركضت وراءه صائحا : « أنت الايسبرافنك ! أنت ايسبرافنك لا نابرافنك » . ولكنه هزّ كتفيه ببرود وقال : « لا تحاول ••• لقـــد سميتنى نابرافنك ، فحسبنا هذا ! » • هكذا غرقت صفقتنا فى الماء •• فهل رأيت كيف أنا ؟ ان رغبتى فى أن أكون لطيفا تسىء الىّ دائما فى هذه الحياة • من ذلك أننى قلت فى ذات يوم ، منذ سنين كثيرة ، لشخصية لها نفوذ وتأثير : « زوجتك يا سيدى حسّاسة اذا دغدغت » ، وكنت أقصد بهذه الكلمة معناها المجازى ، كنت أقصد أنها سريعة التأذى اذا أسىء الى كرامتها ، الى مبادئها الأخلاقية • ولكن الرجل أسرع يسألنى فجـأة : « أأنت دغدغتها اذن ؟ » ولم أملك أن أقاوم رغبتى فى المزاح ، فما كان منى الا أن قلت له : « والله ••• دغدغتها قليلا ، وهكذا » ••• فليتـك رأيت ما أصابنى فى ذلك اليوم من دغدغة ! ••• غير أن هذه الحادثة قديمة جدا ، بعيدة العهد جدا ، بحيث لا أستحى الآن أن أرويها • فانظر كيف أسأت الى نفسى دائما فى هذه الحياة !

دمدم ميوسوف يقول باحتقار :

ـ وانك لتستأنف الاساءة الى نفسك فى هذه اللحظة •

وكان الشيخ يتفرس فيهما صامتا ، واحدا بعد آخر •

ـ صحيح يا بطرس الكسندروفتش ••• ولكننى أعـرف ذلك ،

وقد تنبأت به منذ فتحت فمي • وكنت أعلم أيضا أنك ستكون أول من يلاحظ هذا • وفي مثل هذه اللحظات ، يا صاحب القداسة ، حين أدرك أن المزحة لم تنجح ، يتصلب خداى فكأنهما يلتصقان بالفكين ، حتى لأشعر من ذلك بتشنجات ! ذلك يرجع عهده الى أيام شبابى ، الى الأيام التى كنت فيها طفيليا أعيش على موائد النبلاء أصحاب الأملاك ، وألتمس رزقى بتلك المهنة ! أنا مهرّج يا صاحب السعادة ، أنا مهرّج حقيقى ، مهرّج مفطور على التهريج ، وان شئت فقل يا صاحب السعادة اننى انسان بسيط أبله ! ••• قد تكون الروح التى تحركنى غير طاهرة ، أنا لا أجحد ذلك ، ولكنها روح صغيرة • فلو كانت روحا كبيرة قوية اذن لاختارت لها مسكناً أفضل • على أنها ما كانت لتختارك أنت أيضاً يا بطرس الكسندروفتش ، لأنك لست بالمسكن الحسن لها ! ومع ذلك فأنا مؤمن ، مؤمن بالله ، لم يساورنى الشك الا فى الآونة الأخيرة ، وهأناذا الآن أمامك ، يا صاحب السعادة ، أنتظر كلمة تحررنى من اسارى • أنا يا صاحب السعادة مثل الفيلسوف ديدرو • لا شك أنك سمعت أن هذا الفيلسوف ، أيها الراهب المقدس جدا ، قد جاء يوما الى البطريرك افلاطون فى عهد الامبراطورة كاترين* ، فما ان دخل عليه حتى أعلن يقول فى برود : « الله غير موجود » • فرفع الرجل العظيم المقدس ابهامه وقال له باللغة السلافونية : « الطائش يقول فى سرّه : الله غير موجود » ، فأُخذ الآخر بهذه الكلمات فاذا هو يرتمى فجأة على قدمي الكاهن صائحاً : « آمنت ، آمنت ، عمّدونى ! » • وسرعان ما تم تعميده على الفور ، فالأميرة داخكوفا * أمسكته على حوض التعميد ، وبوتمكين كان عرّابه •••

قاطعه ميوسوف يقول بصوت يرتعش فيه الغضب ، وكان قد أصبح منذ مدة طويلة عاجزاً عن كبح جماح نفسه :

ـ فيدور بافلوفتش ! هذا لا يطاق ! أنت تعلم تماماً أنك تكذب ، وأن هذه القصة السخيفة لا أصل لها ، أنت تعلم ذلك ، ففيم هذا التمثيل ؟ .

فهتف فيدور بافلوفتش يقول في حماسة فرحة :

ـ كنت طول حياتي أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه القصة كاذبة لا أصل لها . والآن أيها السادة سأقول لكم الحقيقة كلها . غفرانك أيها الشيخ العظيم ! ان هذه النقطة الأخيرة التي ذكرتها عن تعميد ديدرو انما اخترعتها في هذه اللحظة نفسها ، وتخيلتها وأنا أرويها ، ولم تكن قد خطرت ببالي مرة واحدة من قبل ، وانما أنا أضفتها رغبة في مزيد من الملاحة ... انني أمثّل هذا التمثيل ليرضى عني بطرس السكندروفتش مزيداً من الرضى . ثم انني لا أدري أنا نفسي في بعض الأحيان لماذا أفعل ذلك . أما عن ديدرو ذاك ، وعن قول الأسقف : « الطائش يكفر بالله » ، فتلك نقطة سمعت السادة القرويين في هذه المقاطعة يروونها منذ أكثر من عشرين عاما ، وذلك في شبابي أيامَ كنت أعيش عندهم ؛ حتى أن عمتك نفسها يا بطرس الكسندروفتش ، عمتك المحترمة مافرا فومينشنا كانت تحب أن ترويها بين ما كانت تحب أن ترويه من أمور . وجميع الناس مقتنعون حتى هذا اليوم بأن ذلك الملحد ديدرو قد ذهب الى البطريرك أفلاطون ليناقشه في مسألة وجود الله .

نهض ميوسوف نافدَ الصبر ، شاعراً أنه فقد كل سيطرة له على نفسه . لقد جن غضباً ، وأدرك أنه أصبح من ذلك مضحكاً هو أيضاً . ان ما يجرى في هذه الحجرة لهو في الواقع أمر مستحيل لم يسبق أن جرى مثله من قبل . فمنذ ثلاثين عاماً أو أربعين تتوافد على هذا المكان ، حتى في عهود المشايخ السابقين ، حشود كثيرة من الزائرين ، ولكن أولئك الزائرين جميعا بغير استثناء كانوا يجيئون ممتلئين بروح الاحترام

والخشوع والتقديس . ان جميع أولئك الذين سُمح لهم بأن يتخطوا عتبة هذه الحجرة كانوا يدركون أنهم نالوا حظوة كبيرة وظفروا بنعمة عظيمة ؛ وان عددا كبيرا منهم كان اذا دخلها ارتمى على الأرض راكعاً وظل على هذه الحال الى آخر الزيارة . وان أكثر الزائرين ، حتى أعلاهم مقاماً ، وأغزرهم علماً ـ وقد كان بينهم أناس يتصفون بحب النقد وكثرة المشاكسة والميل الى الالحاد ـ أقول كان أكثر الزائرين الذين يجيئون الى الدير من باب الفضول أو لسبب آخر من الأسباب ، يلزمون أنفسهم بواجب أولى بسيط هو أن يتقيدوا عند دخولهم الى الحجرة جماعةً أو عند دخولهم اليها لمقابلة خاصة ، أن يتقيدوا طوال مدة وجودهم فى هذا المكان المقدس باتخاذ وضع يتصف بأقصى الاحترام والأدب واللباقة ، وما من أحد منهم أخلّ يوماً بهذا الواجب أو خرج على هذه القاعدة ؛ لا سيما وأن الدير كان لا يطالب بأى مال ، وأن كل شىء فيه يتم محبةً واحسانا من طرف وتوبةً وندامة من طرف آخر ، وبدافع الظمأ الى الحقيقة والرغبة القوية فى حل مشكلة نفسية صعبة أو تجاوز ساعة أليمة من حياة القلب . كذلك كانت تجرى الأمور دائماً ، ثم اذا بفيدور بافلوفتش هذا يندفع فجأة فى تهريج لا يليق بهذا المكان، تهريج لا بد أن يحدث فى نفوس من يرون هذا المشهد أو فى نفوس بعضهم على الأقل استغرابا شديدا ودهشة أليمة . فأما الراهبان الكاهنان اللذان ظل وجهاهما هادئين على كل حال فقد كانا يرقبان ردّ الفعل عند الشيخ بانتباه رصين وقور ، ويبدو عليهما أنهما يهمان أن ينهضا مثل ميوسوف تماماً . وأما أليوشا فقد كان خافضاً رأسه مجاهداً مصابراً باذلاً قصاراه حتى لا يبكى . ان ما يدهشه خاصة هو أن أخاه ايفان فيدوروفتش ، وهو الوحيد الذى كان يمكن أن يتدخل فى الأمر ، قد لبث ساكناً على كرسيه ، غاضاً بصره ، ينتظر نهاية هذا المشهد بنوع من

استطلاع ليس فيه اكتراث أو اهتمام ، كأنه غريب عن هـــذه القضية لا علاقة له بها ولا شأن له فيها . وأما راكيتين (وذلك هو اسم الطالب) الذى كان أليوشا يعرفه أيضا حق المعرفة ، ويكاد يعـــده صديقا قريبا جدا ، فان أليوشا لم يجرؤ حتى أن ينظر اليه ، لأنه كان يحزر مايدور فى فكره من معان وخواطر (وهو الوحيد الذى يحزرها فى هذا الدير على كل حال .) .

بدأ ميوسوف يقول وهو يلتفت نحو الشيخ :

ـ سامحنى ... لا شك أنك تعدنى شريكا فى هذه المهزلة الحقيرة. ان ذنبى الوحيد هو أننى تصورت أن كل انسان ، حتى ولو كان من نوع فيدور بافلوفتش ، لا بد أن يحرص على أن يسلك سلوكا حسناً لائقا أمام شخص محترم مثلك ... فلو كنت تنبأت بأننى سيكون علىَّ أن أعتذر عن مجرد الدخول الى هذا المكان فى صحبته ، اذن ...

لم يكمل بطـــرس الكسندروفتش جملته ، وكان قـد بلغ ذروة الاضطراب ، فهم أن يخرج من الغرفة ، ولكن الشيخ صده عن عزمه وأوقفه . قال له وهو ينهض على ســـاقيه النحيلتين ويمسك بطـــرس الكسندروفتش من يديه ، ويجلسه على مقعده من جديد :

ـ لا تخش شيئاً ، أرجوك ... هدىء روعك ، أرجوك ... ان زيارتكم تسرنى كثيرا وتبهجنى بهجة خاصة .

وبعد أن حيَّا مرة أخـــرى ، عاد الى مكانه يجلس على الأريكة الصغيرة .

صاح فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

ـ تكلم أيها الشيخ العظيم ، قل : هل تؤذيك حرارتى هذه ، هل يسىء اليك اندفاعى هذا ؟

وكان فيدور بافلوفتش قد أمسك ذراعي المقعد بيديه كمن يستعد لأن ينهض واثباً اذا جاء جواب الشيخ موجبا لذلك ، فقال له الشيخ بصوت قاطع جازم :

ـ أرجوك ملحاً أن لا تقلق وأن لا تتحرج • لا تكره نفسك على شيء ، وتصرَّف كما لو كنت في منزلك ••• واياك أن تشعر بالخزى من نفسك خاصةً ، فان شعورك بالخزى من نفسك هو بعينه أصل البلاء•

ـ أتصرف كما لو كنت في منزلى ؟ أتريد أن تقول ان عليَّ أن أطلق نفسى على سجيتها وأن أظهر على طبيعتى ؟ ألا ان هذا لكثير ، بل انه لجميل مسرف في الجمال ، ولكنني أوافق ••• انني أقبل ما تقترحه عليَّ شاعرا من ذلك بتأثر شديد وانفعال قوى • اسمع أيها الأب المبجل! لا تدفعنى الى حالة الطبيعة ، لا تجازف فتفعل هذا ••• على انني لن أمضى بعيدا هذا البعد كله ، ولن أصل الى درجة الانطلاق على السجية والظهور على حالة الطبيعة • وليس ما أقوله لك هنا الا تنبيهاً • أما فيما عدا ذلك فان كل شيء ما يزال غارقا في ظلمات الجهل ، رغم ما قاله بعضهم في وصف طبيعة نفسى• ان هذه الملاحظة تستهدفك أنت يابطرس الكسندروفتش ! أما أنت أيها الانسان الذى هو ضياءٌ كله ، فانني أضع عند قدميك اعجابى مندفعاً بغير حدود •

ثم نهض فرفع يديه الى السماء وقال :

ـ « بورك البطن الذى حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك»*، نعم الثديان ••• انك حين نصحتنى منذ هنيهة بأن « لا أشعر بالخزى من نفسى ، لأن هذا هو أصل البلاء » ، قد نفذت الى سريرتى وقرأت في أعماق قلبى • ذلك بعينه هو ما أحسه • انني أشعر دائما ، حين أدخل على الناس ، بأننى أخبث من غيرى ، وأن الآخرين جميعا يعدوننى

مهرّجاً ، فأخاطبهم عندئذ بيني وبين نفسي قائلا : « ليكن .. سأمثل دور المهرج طائعا مختارا ، ولست أخشى رأيكم ، لأنني أعرف أنكم جميعاً شر مني وأجدر بالاحتقار والازدراء ! » ذلك هو السبب أيها الشيخ العظيم في أنني أهرّج ... انني أهرج لشعوري بالخزي ، لشعوري بمذلة عميقة ! انني لانعدام ثقتي بنفسي اضطرب فأمثل دور المجنون ! آه ... ليتني ، حين أدخل على الناس ، أستطيع أن أكون واثقا من أن كل واحد سيعدني على الفور خير انسان وأذكى انسان في العالم ، اذن لأصبحت عندئذ رجلا من أنبل الرجال ...

قال ذلك ثم ارتمى راكعا على حين فجأة يقول :

ـ ماذا يجب عليّ أن أعمل ، يا معلم ، حتى أظفر بالحياة الأبدية ؟

انه ليصعب على المرء أن يقول في تلك اللحظة هل كان الرجل ما يزال يمثل ويهرّج ، أم كان قد استولى عليه حقاً انفعال كبير ؟ ...

نظر اليه الشيخ وقال له مبتسماً :

ـ تعرف أنت نفسك ، منذ زمن طويل ، ما الذي يجب عليك أن تعمله ، فليس الذكاء هو ما يعوزك . امتنع عن الاسراف في الشراب ، لا تستسلم للفجور ، وتخلَّ خاصةً عن عبادة المال . أغلق دكاكين بيع الخمرة ، أغلق دكانين أو ثلاثة منها على الأقل اذا لم تشأ أن تغلقها كلها . وقبل هذا وذاك ، لا تكذب ... فذلك أهم شيء ...

ـ ألعلك تشير الى ما رويته عن ديدرو ؟

ـ لا ... ليس الأمر أمر ديدرو ... فانما الشيء الأساسي أن لا تكذب على نفسك . ان من يكذب على نفسه ، ويرضى أن تنطلي عليه أكاذيبه ، يصل من ذلك الى أن يصبح عاجزا عن رؤية الحقيقة في أي

موضع ، فلا يعود يراها لا في نفسه ولا فيما حوله .
لهذا السبب ، الى فقد احترامه نفسه واحترامه غـير ، لا يحترم أحدا ، أصبح لا يحب أحدا ، فاذا هو من أجل أن يتلهى ، ويتسلى ، أصبح بغير حب ، يستسلم للأهواء وينـدفع وراء الملذات الخشنة هذه فيهوى عندئذ الى قاع الرذيلة ، ويصل من ذلك الى درجة الحيوانية وما هذا كله الا لأنه يكذب بغير انقطاع ، يكذب على غيره ويكذب على نفسه . ان من يكذب على هذا النحو يسرع كذلك الى اهانة نفسه . ألا يشعر المرء بكثير من اللذة في بعض الأحيان حين يحس أنه مهان ؟ وهو يعلم مع ذلك أنه ما من أحد قال له كلمة سوء ، وانما هو اخترع الاهانة بنفسه اختراعاً في سبيل التلذذ بها ، وكذب على نفسه ، وبالغ وغالى تزييناً للموقف وزخرفة للوضع ، وحمل كلمة من الكلمات على غير معناها ، جاعلاً من الفأرة جبلاً ... هو يعلم ذلك ، ولكنه يسارع الى اهانة نفسه ، ويهين نفسه متلذذا تلذذا يبلغ حد الفرح ، فاذا هـو يصل من ذلك آخر الأمر الى الشعور بكره حقيقي ... ولكن انهض عن الأرض ، أرجوك ... اجلس في مكانك ، أرجوك ، تلك كلهـا أوضاع كذب أيضا ...

ـ أيها الانسان المقـدس ، اسـمح لي أن أقبـل يدك العزيزة اللطيفة ! ...

لقد نهض فيـدور بافلوفتش بوثبة ، واقترب من الشيخ بحرارة وقوة ، وطبع قبلة رنانة على يده الضاوية المعروقة .

ـ تماما ، تماما ، هذه هي الحقيقة . ان في اهانة المرء نفسه لذة . لقد أحسنت الافصاح عن هذه الحقيقة . وتلك أول مرة أسمع فيها هذا الكلام . لقد ظللت طوال حياتي أهين نفسي ، نشداناً للذة ، بل وطلبـاً للجمال ، لأن الاهانة ليست متعة فحسب ، بل يمكن أن يكون فيها جمال

فنى أيضا . ذلك ما نسيت أن تضـــيفه الى كلامك أيها الشيخ العظيم ! سوف أدون هذا فى دفترى الصغير . لقد كذبت ، كذبت بغير انقطاع عن الكذب طوال حياتى ، فى كل يوم ، وفى كل ساعة . أنا فى الواقع كذب يحيا ، أنا للكذب أبوه ! لا بل لســت للكذب أباه ... لعل هــذا التعبير بقايا جملة قرأتها فبقيت فى ذاكرتى فاستيقظت الآن .. والأولى أن أقول اننى ابن الكذب لا أبوه ... يكفينى كِبَراً أن أكون ابن الكذب ... ولكن يا ملاكى الطيب ، أحسب أن كذبة كالكذبة التى قلتها حين تكلمت عن ديدرو ، أمر مباح من حين الى حين ، أليس كذلك ؟ ان كذبة كهذه لا تسىء الى أحد ، لا تؤذى أحداً ، على حين أن هناك أكاذيب ضارّة... بالمناسبة ، أيها الشيخ العظيم ... لقد أوشكت أن أنسى ... اننى أنتظر منذ ثلاث سنين أن تتاح لى فرصة القاء سؤال عليك . كنت أريد أن أتعلم منك ،كنت أريد أن أجىء الى هنـا لهذا الأمر خاصـة ، كنت أريد أن أعرف منك الحقيقة حول هذه النقطة تفصيلاً . ولكن أصدر أمرك أولاً الى بطرس السكنـدروفتش بأن لا يقاطعنى . اليـــك ما كنت اريد أن أعرفه : هل صحيح أيها الأب المبجَّل ان كتاب أسماء الشهداء القديسين يروى فى موضع من مواضعه قصة قديس قام بمعجـزات واستشهد فى سبيل ايمانه ، أى قطعوا رأســه ، فاذا هو ينهض ، فيتناول رأســه من الأرض ، ويعانقه فى حنان ، ثم يسير مدة طويلة ، حاملاً رأسه بيديه ، حانيا عليه ملاطفاً له * . قولوا لى أيها الآباء الطيبون ، أهذا صحيح أم لا ؟

قال الشيخ :

ـ بل هو غير صحيح .

وقال الراهب قيِّم المكتبة :

ـ لم يرد ذكر هذه القصة فى أى موضع من مواضع كتاب أسماء

الشهداء • من هو القديس الذى تقصده ؟

ـ أنا لا أعرف عن هذا شيئاً • أنا أجهل كل شيء عن هذه الأمور • لا شك فى اننى خُدعت وضُللتّ • لقد سمعت أحداً يروى هذه القصة • وهل تعلمون من رواها لى ؟ لم يروها لى أحد غير بطرس السكندروفتش هذا الذى ثار علىّ منذ هنيهة بصدد ديدرو ! هو الذى روى لى هذه القصة ، نعم هو •••

ـ هذا كذب • أنا لم أرو لك هذه القصة ! ثم اننى لا أكلمك أبداً ، ولا أتحدث اليك يوماً !

ـ اعترف بأنك لم تروها لى أنا • ولكنك رويتها فى اجتماع كنت أنا فيه • حدث ذلك منذ ثلاث سنين • ولئن كنت أتذكرها هذا التذكر الواضح فلأنك قد زعزعت ايمانى فى ذلك المساء ، بتلك القصة المضحكة ••• نعم يابطرس الكسندروفتش ! أنت لم تعرف ذلك ، وما كان لك أن تتنبأ به ،ولكننى عدت الى منزلى فى ذلك اليوم وأنا أشعر بأن يقينى قد ترنح ، ولم يزد منذ ذلك اليوم على أن يهبط مزيداً من الهبوط • انك يا بطرس الكسندروفتش قد كنت السبب الحقيقى فى سقوطى الأخلاقى ، وا أسفاه ! ليست القضية الآن قضية ديدرو •••

كان فيدور بافلوفتش يتكلم بلهجة فيها لهجة الانفعال ونبرة التأثر ، ولكن كان واضحاً لنا جميعاً فى هذه المرة انه عاد يمثل ويهرّج • ومع ذلك شعر ميوسوف بأنه أوذى ايذاءاً شديداً أليماً • فدمدم يقول :

ـ يا للسخف ! انك لاتقول الا حماقات ! من الجائز حقاً أن أكون قد رويت هذه القصة مرة ••• ولكننى لم أكن أخاطبك أنت ! كنت قد سمعت أنا هذه القصة ••• حدث ذلك فى باريس • أكد لى فرنسى أن هذه القصة الواردة فى كتاب أسماء الشهداء تتلى عندنا أثناء القداس •

وكان هذا الفرنسي رجلاً مثقفاً قد تعمق دراسة احصائيات روسيا تعمقاً كبيراً ، وكان قد عاش في بلادنا زمناً طويلاً ••• أنا لم أقرأ كتاب أسماء الشهداء بنفسي ••• ولست أنوى أن أقرأه على كل حال ••• ما قيمة أحاديث تجرى بها الألسن على مائدة طعام ؟ لقد حدث هذا أثناء عشاء •••

ــ أثناء عشاء ••• ها ••• ها •• يا للعشاء الجميل الذى كلفنى ايمانى ! •••

كذلك قال فيدور بافلوفتش ساخراً !

فانفجر ميوسوف يصيح :

ــ ما شأنى أنا بايمانك ؟

ولكنه سرعان ما ثاب الى هدوئه فقال بلهجة احتقار :

ــ انك تدنس كل ما تلمسه يداك !

فنهض الشيخ عندئذ مخاطبا جميع الحضور :

ــ معذرةً أيها السادة • اننى مضطر أن أترككم لحظات • هناك زوار ينتظروننى وقد وصلوا قبلكم !

ثم أضاف يقول بمرح وهو يلتفت الى فيدور بافلوفتش :

ــ أما أنت فاترك الكذب ! •• صدقنى •••

وخرج • واندفع اليوشا والمترهب المبتدىء ليمسكاه ويساعداه على هبوط السلم • كان أليوشا قد نفد صبره ، وقد أسعده أن ينصرف ، وأسعده كذلك أن الشيخ قد استقبل الأمر مرحاً دون غضب • وكان الشيخ يتجه نحو الرواق ليبارك أولئك الذين كانوا ينتظرونه هناك ،

غير أن فيدور بافلوفتش وجد السبيل الى استيقافه عند العتبة . قال بصوت مختلج :

ـ أيها الانسان المقدس جدا ، اسمح لى أن أقبل يدك العزيزة اللطيفة مرة أخرى . ذلك أن المرء يستطيع أن يتفاهم معك دون أن يفقد حبه للحياة واقباله عليها وميله اليها . لا تظنن أننى أكذب هكذا طول الوقت وأننى لست الا مهرجاً . الحق أننى فعلت هذا عامداً من البداية الى النهاية ، فعلته عامدا لأختبرك وأمتحنك ! لقد أردت أن أتأكد من أنك رجل انسانى ، ومن أن شخصى الهين يمكن أن يؤكد ذاته دون أن يصدم كبرياءك . فى وسعى الآن أن أشهد لك شهادة جميلة : ان فى وسع الانسان أن يتنفس بحضورك . والآن لن أتكلم قط ، لن أقول كلمة واحدة . سأجلس على هـذا المقعد ، فألبث ساكناً حتى النهاية . الكلام الآن لك يا بطرس الكسندروفتش ! تستطيع منذ هذه اللحظة أن تمثل دور الشخص الرئيسى .. مدةَ عشر دقائق .

٣

إيمان نساء الشعب

قرب الرواق الخشبى المتاخم للحاجز الخارجى من السور ، كان يزدحم جمهور ليس فيه هذه المرة الا نساء • ان عددهن نحو من عشرين فلاحة • لقد أبلغن أن الشيخ سيخرج اليهن ، فاحتشدن ينتظرنه • وقد ذهبت السيدتان هوخلاكوف أيضا الى الرواق ، ولكنهما ذهبتا الى المكان الموقوف على ذوات المكانة من الزائرات • هما أم وابنتها • ان السيدة هوخلاكوف الأم ، وهى امرأة غنية جداً أنيقة الهندام دائماً ، ما تزال تبدو شابة ، وهى لطيفة باشة ، شاحبة الوجه قليلاً ، لها عينان توشكان أن تكونا سوداوين على سطوع شديد وحركة قوية • انها لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرها، وقد مات عنها زوجها منذ خمس سنين • أما ابنتها ، وهى فى الرابعة عشرة من العمر ، فهى مصابة بشلل فى الساقين • لقد أصبحت الصبية المسكينة عاجزة عن المشى منذ ستة أشهر ، فهى الآن تخرج على كرسى متحرك • ان لها وجهاً رائعاً فتاناً ، قد أضواه المرض قليلاً ، لكنه على جانب عظيم من اللطف والبشاشة ، بل ان شيئا من المكر يتراءى فى عينيها الصغيرتين القاتمتين اللتين لهما أهداب طويلة • لقد كانت أمها تنوى

منذ الربيع أن تمضى بها الى الخارج ، غير أن أعمالاً بدئت فى أرضهما فأجبرتهما على البقاء فى روسيا طول الصيف ؛ وهما لا تقيمان فى مدينتنا الامنذ أسبوع ، لا لزيارة الدير بل لقضاء بعض الاعمال فى الواقع ، غير أنهما قد جاءتا الى الشيخ مرة أولى منذ ثلاثة أيام ، وهما تعودان الآن الى الدير على غير توقع ، رغم أنهما تعلمان حالة الشيخ الذى أصبح لا يكاد يستقبل الزائرين بسبب ضعفه وسوء صحته . لقد توسلتا بكثير من الالحاح أن يُمنَّ عليهما « بأن تسعدا برؤية هـــذا الشافى العظيم مرة أخرى » . وبانتظار ظهور الشيخ اتخذت الأم مكاناً على كرسى قـرب مقعد ابنتها المتحرك ؛ وعلى بعد خطوتين منهما كان يقف راهب عجـوز لا ينتمى الى ديرنا ، ولكنه كان ماراً بالمدينة . لقد ترك ديره الى حين ، وهو دير غير مشهور يقع فى منطقة نائية بشمال روسيا . ان هذا الراهب العجوز يريد هو أيضا أن يحظى بمباركة الشيخ . ولكن الشيخ الذى ظهر على الرواق فى تلك اللحظة انما اتجه أولاً الى طبقـــة الشعب . تدافع الجمهور نحو درجات المدخل التى لا تزيد على ثلاث ؛ ومن على هذه الدرجات الثلاث انما يطل على الحقـــول الرواقُ الذى لا يرتفع كثيراً عن سـطح الأرض . توقف الشيخ على الدرجة العليا من هـــذه الدرجات ، وتلفع بجبته وأخذ يبارك النساء اللواتى يزدحمن أمامه . قدمت اليه كليكوشا كانت تجرها امرأتان تمســكانها من يديها ، فما ان لمحت المسكينة الشيخ حتى أخذت تطلق صرخات حادة رهيبة تدل على هذيان ، وهى ترتعش ارتعاشاً قوياً من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، كأنها تعانى آلام ولادة . وضـــع الشيخ جبته على رأس المريضة ، وتلا دعاءً قصيراً ، فاذا بالمرأة تصمت وتهدأ . لا أدرى ماذا يحدث الآن ، ولكننى فى أثناء طفولتى قد أتيح لى مرارا أن أرى وأن سمع هاته النسوة المريضات فى قرانا وفىأديرتنا . كان يؤتى بهن الى الصلاة معولات أو

نابحات كالكلاب ، فيملأن بصرخاتهن أرجاء الكنيسة . فما ان يُقرّبن من القربان المقدس حتى يزول عنهن «المس» فجأة ، ويستعدن هدوءهن كاملاً الى حين . لقد كانت المريضات تهدأ بعد الاقتراب من القربان المقدس في كل مرة ، الى أن توافيهن حالة « المس » ثانية . وقد أدهشني ذلك كثيراً في طفولتي وترك في نفسي أثراً قوياً . ولكنني حين سألت عن سرّ هذا الأمر قال لي بعض الملاكين ، وقال لي معلمو مدرستي خاصة ، ان ذلك كله ليس الا تظاهراً كاذباً ، وأن هاته النسوة كسالى لا يردن أن يعملن ، وان من الممكن دائماً ردهن الى الصواب باظهار شيء من القسوة . حتى لقد رُويت حكايات في بيان صحة هذا التفسير. ومع ذلك علمت بعد ذلك من أطباء مختصين ، على دهشة مني ، أن الأمر ليس أمر تظاهر كاذب ، وأن هذا في الواقع مرض رهيب تصاب به النساء ، وأن هذا المرض منتشر انتشارا واسعا في روسيا خاصة ، وأن مردّه الى ما تتصف به ظروف حياة المرأة في أريافنا من قسوة شديدة ؛ فهذا المرض يرجع الى أن الفلاحات في بلادنا يقمن بأعمال مرهقة بعد نفاس شاق أليم لم تحتمله أجسامهن بسبب قلة العناية الطبية بهن ؛ تضاف الى ذلك آلام من أنواع شتى ، جسمية ونفسية ، مرد ها الى ما ينالهن من ضرب مبرح ، والى ما يصيبهن من سوء المعاملة ، والى مايلم بهن تبعاً لذلك من كمد وكرب ويأس ، لأن بعض النساء لا يستطعن احتمال محن قد يعدها غيرهن عادية لا غرابة فيها . فأما ذلك الشفاء العجيب الذي تُنقَذ به نساءٌ مصابات بهذا المس متى أدنين من القربان المقدس ـ وهو شفاء يدعي بعضهم تعليله بالتظاهر الكاذب ، وحتى بخداع مقصود يخرجه « رجال الدين » اخراجا مسرحيا ـ فالحق أنه يرجع هو أيضا الى أسباب طبيعية ؛ ثم ان النساء اللواتي يدنين المسوسات من القربان المقدس ، والمسوسات انفسهن خاصة ، مؤمنات ايمانا عميقا



كليكوشــا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

كايمانهن بحقيقة راسخة ثابتة ، أن الروح الخبيثة التي حلت فيهن لا تستطيع احتمال وجود القربان المقدس ، فاذا هي تبارحهن متى دنون منه وانحنين له • لذلك لا بد أن يحدث اهتزاز شامل قوي في جسم هاته النسوة المصابات بمرض عصبي نفسي معا منذ يُواجهن بالقربان المقدس ؟ فهذا الاهتزاز نتيجة طبيعية لتوقع الشفاء الذي لا بد منه في نظرهن ، ولانتظار البرء الذي لا محيص عنه حتما ، وهو نتيجة طبيعية لايمانهن بالمعجزة ايمانا ليس له حدود • فلذلك كان يحدث الشفاء ويتم البرء ، ولو الى حين قصير • وهذا بعينه هو ما وقع في الحالة الراهنة حين خلع الشيخ على المريضة جبته وتلا دعاءه •

كان بين الجمهور الذي ازدحم حول الشيخ نساء كثيرات أخذن يبكين حناناً وخشوعاًوحماسة •واندفعت نساء أخريات تريد أن تقبل ثيابه على الأقل • وراحت قلة منهن ترتل بصوت خافت رتيب • باركهن الشيخ جميعاً ، وتحدث مع بعضهن • وكان يعرف الكليكوشاالتي قدمت اليه • انها من قرية مجاورة تقع على مسافة ستة فراسخ من الدير ؟ وما هذه أول مرة يؤتى بها اليه على كل حال •

قال الشيخ وهو يشير الى امرأة أخرى لم تطعن في السن بعد ، ولكنها نحيلة ضاوية معروقة ، لها وجه ليس ملوحاً ولكنه مسود اسودادا غريباً (كانت راكعةً على ركبتيها تحدق الى الشيخ بنظرة ساكنة جامدة، وفي وجهها شيء من الوجد والنشوة) :

ـ هذه آتية من مكان أبعد •

فقالت المرأة بصوت كأنه الغناء وهي ترجح رأسها ترجيحاً متواتراً موقعاً ، وقد أسندته الى راحة احدى يديها :

ـ نعم يا أبي ، أنا آتية من مكان بعيد ، من مكان بعيد جداً ، يبعد عن هنا ثلاثمائة فرسخ •

كانت المرأة تتكلم بلهجة هي الى الترتيل أقرب . ان بين أفراد الشعب أناسا يتألمون ألماً أخرس مذعناً ، هو الم ينطوى على ذاته ويعتصم بالصمت • غير أن هناك أناسا يتألمون ألماً متفجرا ينطلق انتحابات على حين فجأة ، ثم اذا هو يعتصم بعد ذلك بالترتيل • وهـذه حالة تلاحظ على النساء خاصة • وليس هذا الألم أقل من ألم الصامتين • ان الترتيل لا يخفف عن النفس الا لأنه يحيي جروح القلب بلا انقطاع ، وينكؤها بغير توقف • ان هذه الصورة من صور الألم لا تتطلب عزاء ولا تسعى الى سلوى ، لأنها تغتذى من الشعور بسعة أبعادها ، فالترتيل انما يعبر عن الحاجة الى النزول الى هوة الألم وقاع العذاب •

استأنف الشيخ يقول وهو يتفرس فيها بانتباه :

ـ لعلك من سكان المدن ؟

ـ أنا من المدينة أيها الأب الطيب ، نعم ••• وان أكن قروية الأصل• نحن من سكان المدن لأننا نعيش فيالمدن• ومن أجل أن أراك انما جئت الى هنا أيها الأب الطيب • لقد حدثونا عنك ، أيها الأب، فرووا أشياء كثيرة • لقد دفنت ابنى ، ابنى الصغير ••• فخرجت أضرب فى الأرض حاجّة ، فمررت بثلاثة أديرة ، فقيل لى هنالك : « اذهبى اليه أيتها المسكينة ناتا سيوشكا*••• اذهبى لرؤيته هو ••• يقصدون أنت •• اذهبى لرؤيته ••• رؤية الأب العزيز جدا ••• »• هكذا جئت اليك • أمس اعترفت وتناولت ، وهأنذا الآن أمامك •

ـ لماذا تبكين ؟

ـ أبكى صغيرى أيها الأب الطيب • كان عمـره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر*• اننى أبكى ابنى ، أبكى صغيرى • ذلك ما يعذبنى • كان آخر أبنائى • كان لنا أنا وزوجى المسكين نيكيتوشكا * أربعة أبناء • ان

الأطفال لا يبقون عندنا . انهم يتركوننا يا أبانا المحترم ، انهم يتركوننا . دفنت الثلاثة الأول ، فسرعان ما تعزيت عنهم . أما ذاك ، الأخير ، فانني لا أستطيع أن أنساه . يخيل الىّ انني أراه ، هنا ، أمامي ، أراه طول الوقت . جفّت نفسي ، يبس قلبي . أنظر الى ملابسه ، الى قميصه الصغير ، الى حذاءيه ، فآخذ أنشج وأنتحب . أعرض أشياءه أمامي لأتأملها ... أستعرض جميع بقاياه التي تذكرني فأبكي . قلت لعزيزتي نيكيتوشكا ، زوجي : « دعني أمضي ... أريد أن أضرب في الأرض حاجّة » . زوجي حوذي . ولسنا فقراء أيها الأب الطيب . عندنا مال . لا ترتبط حياتنا بأحد ، لا نحتاج الى أحد . نملك خيولا وعربة ننفق عليها من مالنا . فيم ينفعنا هذا كله الآن ؟ وقد انحدر عزيزي نيكيتوشكا الى طريق الضلال حين تركته . أخذ يشرب . أنا أعلم ذلك . وما هذه أول مرة . كان يضعف كلما حولت عيني عنه . ولكنني الآن لا أحفل بذلك . استوت عندي جميع الأمور . أصبحت لا أفكر فيه . تركت المنزل منذ ثلاثة أشهر . نسيته . نسيت كل شيء . أصبحت لا أريد أن أتذكره . وما عساني أفعل معه ؟ لقد أنهيت صلتي به ، أنهيت صلتي بجميع الناس . لا أريد أن أرى منزلي بعد الآن يوما ، لا منزلي ولا رزقي ، لا أريد أن أرى شيئا البتة !

قال الشيخ ببطء :

ـ اسمعي أيتها الأم الطيبة ! في يوم من الأيام رأى قديس كبير من قديسي الماضي ، رأى في الهيكل أماً تبكي ابنها الذي فقدته مثلما تبكين ابنك الآن ... كان ابنها طفلا صغيرا كابنك ، وكان ابنا وحيدا أخذه الرب اليه . قال لها القديس : «ألست تعلمين اذن أن جميع الصغار الذين من هذا النوع يملكون جرأة كبيرة أمام عرش الرب ؟ ليس بين الناس في ملكوت السماء كله أحد أجرأ من هؤلاء الصغار ! انهم يقولون

للرب : « لقد وهبت لنا الحياة أيها الرب ، فما ان رأينا الحياة حتى استرددتها منا ! » هم يكلمون الرب بهذه الجرأة ؛ وهم يتوسلون الى الرب أن يرفعهم فورا الى مصاف الملائكة ، وهم يعرفون كيف يلحون في ذلك • » • وقال لها القديس بعد ذلك : « يا امرأة ! كفى اذن عن البكاء ، وابتهجي وافرحي ، ما دام الأمر كذلك ، لأن ابنك يسكن الآن قرب الرب بين الملائكة ! » بهذا حدث القديس في الماضي المرأة التي كانت تبكي • ولقد كان قديسا عظيما فلا يمكن أن يكذب على تلك المرأة • فاعلمي هذا أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، اعلمي أن ابنك الصغير يسكن الآن قرب عرش الرب ، فهو سعيد ، وهو فرح ••• وصلي للرب من أجله • كفاك بكاءً ••• ابتهجي وافرحي ! •••

كانت المرأة تصغي الى الشيخ مسندةً رأسها الى احدى يديها ، غاضةً بصرها • وتنهدت تنهداً عميقا •

ـ بمثل هذه الأقوال انما كان يعزيني زوجي المسكين نيكيتا ! كان يقول مثلما تقول : « لماذا تبكين أيتها المرأة الطائشة ؟ لا شك في أن ابننا هو الآن قرب الرب مع الملائكة • • » • كان يقول لي هذا الكلام ، ويبكي هو نفسه ، وكنت أنا أرى أنه يبكي مثلما أبكي ••• قلت له : « أعلم ذلك يا نيكيتا ••• أعلم أن ابننا هو الآن عند الرب ، وأين عساه يكون ان لم يكن عند الرب ؟ ولكنه ليس عندنا يا نيكيتا ، ليس معنا ، ليس جالسا الى جانبنا كما كان يجلس الى جانبنا من قبل ! ليتني أستطيع أن أراه مرة أخرى ، مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر ••• وأن أنظر اليه ، أن أنظر اليه مرة واحدة ، صغيري الحبيب ! لن أقترب منه ، سأختبىء في ركن ، وسأصمت ! آه ••• أن أراه مرة أخرى ، ولو دقيقة واحدة ! ليتني أسمعه يلعب في فناء المنزل ، ثم يناديني بصوته الصغير كما كان يفعل : « ماما ! أين أنت ؟ » • ليتني أسمعه يركض في الغرفة

على قدميه الصغيرتين ، ليتنى أسمع وقع خطواته على الأرض : تك •• تك ••• ولقد كان يجيء الى – اننى أتذكر هذا كثيرا ، كثيرا جدا – يجيء الى راكضا صائحا ضاحكا •• آه •• ليتنى أسمع وقع خطواته ، خطواته الصغيرة ، فأعرف أنه هو ••• » • ولكن لا ••• يا أيها الأب الطيب ••• لن أسمعه بعد اليوم قط ••• انظر ••• هذا حزامه الصغير ••• أما هو فقد ذهب ، ولن أراه بعد الآن فى يوم من الأيام ، ولن أسمعه بعد الآن فى يوم من الأيام ! ••

قالت المرأة ذلك وأخرجت من عبّها الحزام الصغير المزخرف ، حزام ابنها الغائب ، فما ان رأته حتى هزّها النشيج ، فسارعت تخفى عينيها بيديها ، وأخذت الدموع تسيل من خلال أصابعها متدفقة على حين فجأة فى كل جهة من الجهات •

قال الشيخ :

– هذه راشيل ، راشيل القديمة ، تبكى صغارها ولا يعزيها عن فقدهم شيء * • ذلك هو حظكن فى هذا العالم أيتها الأمهات ! لا تتعزى يا امرأة ، فليس العزاء هو ما أنت فى حاجة اليه • لا تتعزى ••• بل ابكى ما استطعت الى البكاء سبيلا • ولكن تذكرى وأنت تبكين ، تذكرى فى كل مرة ، أن صبيك الصغير هو أحد ملائكة الرب ، وانه يراك من علياء السماء ، وأنه ينظر اليك ، ويغتبط لدموعك ، ويلفت اليها انتباه الرب • ستظلين خلال زمن طويل تسكبين هذه الدموع ، دموع الأم المفجوعة بابنها • ولكن بكاءك سيستحيل أخيرا الى فرح هادىء ، وستصير دموع المرارة التى تحسينها الآن الى عبرات حنان وادع ، وعاطفة ساجية ، وتطهر روحى • سوف تتخلصين من الخطيئة • أما ابنك فسأصلى من أجل راحة روحه • ماذا كان اسمه ؟

– الكسى ، أيها الأب الطيب •



امرأة مؤمنة في الدين
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ اسم جميل • مولاه هو القديس ألكسى أحد أولياء الله •

ـ نعم يا أبانا ! ألكسى أحد أولياء الله !

ـ ما أعظمه من قديس ! سأذكره فى صلواتى * • وسوف أصلى من أجلك أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، لأنك تتألمين ، وسوف أصلى من أجل زوجك كذلك حتى لايصيبه سوء• ذلك أن هجرك اياه خطيئة، هل تعلمين ؟ عودى الى البيت لتسهرى عليه وتعتنى به • ان ابنك حين يرى من علياء السماء أنك تركت زوجك سوف يبكى عليكما كليكما • فهل تريدين أن تدمرى راحة نفسه وأمن روحه ؟ انه حى ، حى لأن النفس لا تموت • ولئن غاب عن منزلك ، انه لقريب منك ولو لم تريه • فكيف يمكن أن يجيء اليك اذا كنت قد كرهت منزلك وبيتك ؟ من عساه يزور اذا لم يستطع أن يجد الاثنين ، أمه وأباه معاً ؟ انه يظهر لك فى المنام فتتعذبين ، فعودى الى منزلك يرسل اليك أحلاما تهدىء روعك ! ارجعى الى زوجك أيتها الأم الطيبة ، ارجعى اليه منذ اليوم !

ـ سأعمل بما تقول أيها الأب ، سأرجع الى منزلى ، سأتبع نصيحتك ! لقد قرأت ما فى قلبى ! أواه يا عزيزى نيكيتا ، يا عزيزى نيكيتوشكا ، يا طائرى الصغير ، انك تنتظر أوبتى ، وانى لآيبة •••

عادت المرأة ترتل كلامها ترتيلا ••• ولكن الشيخ كان قد دنا من عجوز قصيرة طاعنة فى السن جدا ، لا ترتدى ما يرتديه الحجاج ، وانما هى تلبس ثوبا عاديا من ثياب المدينة • كان فى وسع المرء أن يرى فى عينيها أنها جاءت لأمر بعينه من الأمور ، وأنها تريد أن تتكلم فى هذا الأمر • قدمت نفسها للشيخ على أنها أرملة رجل كان من ضباط الصف فى الجيش • انها تسكن فى مدينتنا غير بعيد • وقد خدم ابنها فاسنكا فى مركز من مراكز الشرطة ، ثم سافر الى ايركوتسك بسيبريا • كتب

اليها رسالتين فى البداية ، ثم انقطعت عنها أخباره منذ سنة • أرادت أن تسأل عنه وأن تتقصى أنباءه ، ولكنها لا تعرف الى من تتجه ••• قالت :

ـ ان ستيبانيدا ايلينشنا بدرياجينا ، وهى تاجرة غنية ، قالت لى : « هلمّى فخذى منذ اليوم شيئا من المــال يا بروخورفنا ، واحمليه الى الكنيسة ، بغية أن تتلى الصلوات على روح ابنك ، فيتذكرك ويحن الى المنزل فيكتب اليــك •• » • ذلك ما قالته لى تلك المــرأة • وقد أكدت ستيبانيدا ايلينشنا أن هذه وسيلة مضمونة نجحت دائما •• » • غير أن فى نفسى شكوكا ••• فقل لى ، وأنت ضياؤنا ، أهذا صحيح أم لا ، وهــل يجب علىّ أن أتبع نصيحتها ؟

ـ دعيك من فكرتك هذه ! ألا تستحين أن تلقى سؤالا كهذا السؤال؟ كيف يخطر ببالك أن يُصلّى على روح ابنك وهو ما يزال حياً ؟ أتفعلين هذا وأنت أمه ؟ تلك خطيئة كبرى تشبه خطيئة السحر ! ولكن هــذه الخطيئة ستُغفر لك بسبب جهــلك ! والأولى أن تتضرعى الى ملكة السماء ، التى تسارع الى الشفاعة والحماية ، أن تسهر على صحة ابنك ، وأن تغفر لك هذه الفكرة الآثمة التى خطرت ببالك ! واسمعى ماسأقوله لك أيضا يا بروخوروفنا : ان ابنك سيرجع اليك قريبا ، أو سيكتب اليك حتما • كونى على ثقــة • وانصرفى الآن بســلام • ان ابنك حى • صدقينى •

ـ جزاك الله خيراً أيها المحسن الينا ، الشفيع لنا ، يا من تصلى من أجلنا جميعا ، وتستغفر عن خطايانا •

فى أثناء ذلك لاحظ الشيخ فى الجمهور نظرة حادة شاخصة اليه محدقة فيه ، هى نظرة فلاحة شديدة النحول يبدو عليها أنها مصــابة بالسل ، على أنها ما تزال شابة • كانت تنظر اليه صامتة ، وكأن عينيهــا

تسألان شيئا من الأشياء ضارعتين متوسلتين ، ولكنها تخشى أن تقترب فيما يبدو • سألها الشيخ :

ـ وأنت ماذا تريدين أيتها الأخت الحبيبة ؟

فقالت بصوت بطيء خافت :

ـ أنقذ نفسي أيها الأب الحبيب !

ثم جثت على ركبتيها وانحنت ساجدة على الأرض •

ـ لقد أثمت يا أبتاه ، وأنا خائفة من الثمن •

قعد الشيخ على الدرجة الدنيا ، واقتربت المرأة منه وهي ما تزال جاثية •

بدأت تقول بما يشبه الهمس ، بينما كان يهزُّها نوع من التشنج :

ـ ترملت منذ ثلاث سنين • كنت شـــقية مع زوجي • كان هرماً وكان يضربني كثيرا • ففي ذات يوم ، بينما كان مريضـــا متمددا على سريره ، نظرت اليه وقلت بيني وبين نفسي : « ما عسى تكون حياتي اذا شفي من مرضه ونهض من جديد ؟ » • في تلك اللحظة انما برقت في ذهني تلك الفكرة الخبيثة •

ـ انتظري لحظة •

كذلك قال الشيخ ثم دنا من المرأة ووضع أذنه على شفتيها •

تابعت الفلاحة رواية قصتها بهمس يبــلغ من الخفــوت أن المرء أصبح لا يكاد يسمع كلمة مما تقوله • ولم تطل مسارّتها •

سألها الشيخ :

ـ أهذا منذ ثلاث سنين ؟

ـ نعم منذ ثلاث سنين • لم أكن أفكر فى الأمر من قبل • أما الآن فقد صرت مريضة • ان خواطر مظلمة تملأ جوانب نفسى •

ـ أأنت آتية من مكان بعيد ؟

ـ من مكان يقع على مسافة خمسمائة فرسخ من هنا •

ـ هل ذكرت هذا فى الاعتراف للكاهن ؟

ـ نعم •• ذكرته مرتين •

ـ هل قبلوا أن تتناولى القربان المقدس ؟

ـ قبلوا • ولكننى خائفة ، خائفة من الموت •

ـ لا تخشى شيئا ! هدئى روعك ! اطمئنى بالاً ! لا تدعى للخوف أن يستولى عليك ، واطردى الحزن من نفسك • اجعلى الندامة مستقرة فى قلبك قويةً عميقة ، فيغفر الله لك كل شيء • ليس على هذه الأرض ولا يمكن أن يكون على هذه الأرض خطيئة تبلغ من الهول أن الرب لا يمكن أن يغفرها لمن ندم عليها صادقاً • ثم ان الانسان لا يمكن أن تبلغ خطيئته هذا المبلغ ، ولا أن يقترف آثاماً كبيرة الى حيث تستنفد رحمة الرب التى لا حدود لها • أفتظنين أن فى هذا العالم ذنباً يمكن أن يفوق الحب الالهى ؟ اندمى ، اندمى بنفسك كلها ، واطـــردى من قلبك كل خوف • ثقى أن الرب يحبك أكثر مما تستطيعين أن تتصـورى ، وأنه يحبك حتى فى خطيئتك ، ورغم هـــذه الخطيئة • ان الآثم الذى يندم ويتوب قد أعدت له فى الآخرة أفراح أكبر من أفراح عشرة لم يأثمـوا فما ندموا * • كذلك قيل من زمان بعيد • امضى • لا تخشى شيئا • ولا تحملى للبشر حقداً • انسى الاساءات • اغفرى فى قلبك للمتوفى ما ألحقه بك من سوء وما نالك به من أذى ، وصالحيه فى قـــرارة نفسك • أنت تحبين ما دمت تشعرين بالندامة • وما دمت تحبين فأنت لله ••• ان الحب

قادر على كل شيء ، انه ينقذ كل شيء . لئن كنت ، أنا الخاطيء، أشاركك ألمك وأندب حظك ، فما بالك بالرب ! ان الحب غنى عظيم يمكن أن يهب لنا الكون كله ، وأن يجعلنا نكفّر لا عن خطايانا نحن وحدها ، بل عن خطايا الآخرين أيضا . انصرفي الآن بسلام ، وكوني بعد اليوم بلا خوف .

قال الشيخ ذلك ورسم اشارة الصليب عليها ثلاث مرات ، وتناول صورة مقدسة كان يحملها في عنقه فوضعها في عنق الفلاحة . حيته الفلاحة صامتةً وانحنت حتى الأرض . ونهض الشيخ ببطء ، وأشرقت نظرته حين وقعت على امرأة تفيض صحة وسناءً وهي تحمل بذراعيها رضيعاً .

ــ أنا آتية من فيشجوريه يا أبانا الطيب .

ــ من فيشجوريه ؟ قطعت اذن ستة فراسخ حاملةً هذا الصبي على ذراعيك ؟ فيم ترغبين ؟

ــ أردت أن أراك فقط . لقد سبق أن جئت اليك ، ألا تتذكر ؟ ان كنت قد نسيتني فليست ذاكرتك اذن بالقوية . لقد قالوا عندنا انك مريض ، فأردت أن أراك بعيني . واني لأنظر اليك الآن فما ألاحظ أنك مريض . دعك من هذا ! لتعيشنّ عشرين سنةً أخرى ان شاء الله . ما أكثر الذين يدعون لك ويصلون من أجلك ، فكيف يمكن أن تمرض ؟

ــ أشكرك أيتها المرأة الطيبة ، أشكرك من كل قلبي !

ــ لي عندك رجاء آخر ، وان يكن هيناً . اليك خمسين كوبكاً فأهدها يا أبت لامرأة أخرى ، لامرأة أفقر مني . لقد قلت لنفسي وأنا في طريقي

الى هنا : « سأدفع هـذا المـال اليه هو ، فانه أدرى منى بمن يستحق أن يوهب له • » •

ـ شكراً ، شكراً أيها القلب الطيب • هذا يسرنى • سوف أفعل ما تطلبين • هل طفلك هذا بنت ؟

ـ بنت أيها المبارك ! اسمها اليزابيث •

ـ بارك الله فيكما كليكما انت وابنتك اليزابث • لقد أفرحت قلبى أيتها الأم الطيبة • الى اللقاء يا أصدقائى ، الى اللقاء يا أعزائى ، يا أولادى الطيبين •

بارك الشيخ الحجاج وحيّاهم جميعا تحية عميقة •

٤

السيدة الضعيفة ايمانها

كانت السيدة الزائرة تبكى بكاءً رقيقاً هادئاً من تأثرها برؤية الشيخ وهو يتحدث الى العامة ويباركها ؛ وكانت تجفف عبراتها بمنديل صغير . انها امرأة من الطبقة العليا حساسة جداً صادقة الطيبة كثيرا . فلما اقترب الشيخ منها أخيرا ، تلقته بكثير من العاطفة المتدفقة قائلة :

ــ ما كان أعمق انفعالى ، وأشد اضطرابى حين رأيت هذا المشهد المؤثر ...

وقطع الاهتياج كلامها فلم تتابعه . ثم استأنفت تقول بعد لحظة :

ــ اننى أفهم أن يحبك الشعب . وأنا أيضا أحب الشعب ، أنا أريد أن أحبه . وكيف لا يحب المرء شعبنا الروسى الرائع هذا ، كيف لايحب المرء هذا الشعب العظيم الطفل فى آن واحد ؟

ــ كيف حال ابنتك ؟ كنت تريدين حديثاً آخر معى ؟

ــ أوه ... لقد ألححت فى طلب هذه المنة . توسلت وتضرعت ،

وكنت مستعدة لأن أجثو على ركبتى ثلاثة أيام بلياليها تحت نوافذك فى سبيل أن تستقبلنى • لقد جئناك ، أيها الشافى العظيم المقدس ، لنعبّر لك عن شكرنا الحار ، لأنك قد شفيت ابنتى ليزا من مرضها ، شفيتها شفاء تاماً ، وبماذا ؟ بأن دعوت لها يوم الخميس الماضى ووضعت يديك عليها ! ان علينا أن نسارع الى تقبيلهما ، هاتين اليدين المباركتين ، وأن نظهر لك تأثرنا ، وأن نعرب عن تبجيلنا وتقديسنا •

ـ شفيتها ؟ كيف هذا ؟ اننى ما زلت أراها متمددة فى مقعدها •••

ـ ولكن الحمى التى كانت توافيها فى الليل قد زالت زوالا تاما ، زالت منذ يومين ، منذ ذلك الخميس تماما (كذلك أسرعت تضيف السيدة قولها هذا بشىء من العصبية) • وأكثر من ذلك أن ساقيها قد اشتدتا وقويتا ، لقد استيقظت هذا الصباح معافاةً تماما ، بعد أن نامت طول الليل • أنظر الى ألوان خديها وبريق عينيها ! كانت قبل الآن ما تنفك تبكى ، وها هى ذى الآن تضحك مرحةً كل المرح سعيدة كل السعادة• أصرت اليوم اصراراً مطلقا على أن تنهض قائمة ، واستطاعت أن تقف على ساقيها ساعة كاملة دون أن تُسند • وقد راهنتنى على أنها ستكون بعد خمسة عشر يوما قادرة على أن ترقص • استدعيت طبيبنا الدكتور هرتسنشتوبه ، فهزّ كتفيه وقال : « اننى لا أفهم شيئا ! هذا أمر خارق!»• فكيف تريد بعد هذا أن لا نجيئك ونحن نحترق شوقاً الى أن نطير اليك ، وأن نصيح تعبيراً عن عرفاننا بجميلك ؟ أشكرى له صنيعه يا ليزا، عبّرى له عن عميق امتنانك •••

اكتسى وجه ليزا الجميل الضاحك، هيئة الجد ، ونهضت على كرسيها ما استطاعت النهوض ، ونظرت الى الشيخ ضامةً يديها • ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فاذا هى تنفجر ضاحكةً على حين

فجأة • قالت وهي تشير الى أليوشا خجلةً غاضبةً كطفل لم يملك أن يسيطر على نفسه وأن يمتنع عن الضحك :

ــ هو السبب ، هو السبب !

لو ألقى أحد في تلك اللحظة نظرة على أليوشا الذى كان واقفاً وراء الشيخ على بعد خطوة منه ، للاحظ الحمرة الشديدة التى اصطبغ بها خداه فجأة • وومضت شعلة في عينيه اللتين سارع يغضهما •

تدخلت الأم قائلة :

ــ عندها رسالة تريد أن تنقلها اليك يا ألكسى فيدوروفتش •

وأضافت الفتاة تقول وهي تلتفت نحو أليوشا بحرارة وتمد اليه يداً صغيرة يكسوها قفاز أنيق :

ــ كيف حالك ؟

التفت الشيخ نحو أليوشا وألقى عليه نظرة منتبهة • ودنا الفتى من ليزا فمدَّ اليها يده وهو يبتسم ابتسامة غريبة فيها كثير من الارتباك والحرج • وحاولت الفتاة أن تصطنع هيئة الجد والوقار والرصانة • وقالت له وهي تناوله رسالة صغيرة :

ــ كلفتنى كاترين ايفانوفنا بأن أوصل اليك هذه الرسالة • انها ترجوك كثيرا أن تجيء اليها ، أن تجيء اليها بأقصى سرعة ، ومن غير ابطاء • انها تريد أن تراك حتماً ، وتأمل أن لا تخيب ظنها •

ــ تريد أن أزورها ؟ أنا ؟ ••• لماذا ؟

كذلك دمدم يقول أليوشا وقد ظهرت في وجهه دهشة واضحة • وسرعان ما اكتست سحنته تعبيرا عن همٍ أظلمت له عيناه •

قالت الأم تشرح :

ـ أوه ••• الأمر أمر دمترى فيدوروفتش طبعا ••• وأمر هـــذه الأحداث كلها أيضا ••• لقد اتخذت كاترين ايفانوفنا قرارا فى هـذا الشأن • ولكنها تريد أن تراك أولاً ••• لماذا ؟ لا أدرى ••• ولكنهـا تصر اصرارا شــديدا على أن تراك بأقصى سرعة • ستزورها ، أليس كذلك ؟ عليك أن تزورها حتما ! ••• العاطفة المســيحية نفسها تأمر بذلك •

عاد أليوشا يقول بلهجة تعبر عن تلك الدهشة نفسها :

ـ ولكننى لم أرها فى حياتى الا مرة واحدة !

قالت الأم :

ـ ولكنها انسانة نادرة المثال ، عظيمة النقاء ، سامية النفس ••• ولو بسبب ما قاست من آلام على الأقل ••• تذكر ما عانته وما تزال تعانيه•• وفكّر أيضا فيما ينتظرها ••• أليس هذا رهيبا ، أليس رهيبا ؟

قال أليوشا بعد أن تصفح الرسالة المقتضبة العجيبة التى لا تشتمل على أى ايضاح ، ولا تزيد على أن تدعوه الى زيارتها بالحاح :

ـ طيب ••• سأذهب •••

صاحت ليزا تقول وقد تحمست على حين فجأة :

ـ أوه ! ••• ما أجمل هذ منك وما أنبله ••• تباً لى ••• لقـد قلت لأمى : « لن يذهب حتماً ••• سوف يرفض قطعاً ••• لأنه اعتكف فى الدير » • انك طيب جداً ، نبيل جـــدا • لقد قدّرت دائما أن لك نفسا رائعة ، ويسرنى أن أقول لك ذلك اليوم •

تدخلت الأم تقول بلهجة قاسية :

ـ ليزا ! ...

ولكنها لم تلبث أن ابتسمت ، ثم أضافت تخاطب أليوشا :

ـ لقد تركتنا جميعا نحن أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أصبحت لا تزورنا أبداً ، مع أن ليزا أسرت الىّ مرتين أنها لا تشعر بارتياح الا بحضورك .

رفع أليوشا عينيه اللتين كانتا مطرقتين الى الأرض ، واحمر من جديد، وابتسم مرة أخرى دون أن يعرف لماذا ! وكان الشيخ قد انصرف عنه فهو لا يلاحظه . كان الشيخ قد أخذ يكلم الراهب المار بالمدينه ، الذى كان كما سبق أن قلنا ينتظر قرب مقعد ليزا . كان واضحا أن هذا الراهب واحد من أولئك الرهبان العاديين جدا الذين ينتمون الى فرقة رهبانية غامضة ، ويملكون أفكارا محدودة جامدة ، ولكن يحركهم ايمان عميق جدا ، ايمان ثابت على طريقتهم الخاصة . ذكر الراهب للشيخ انه آتٍ من منطقة نائية بالشمال ، من مدينة أوبدورسك* ، وأنه ينتمى الى دير فقير جدا بسان سلفستر ، ديرٍ لا يضم الا تسعة رهبان . باركه الشيخ ، ودعاه أن يزوره فى حجرته متى حلا له ذلك .

سأله الراهب فجأة وهو يومىء الى ليزا باشارة رصينة ذات أبهة :

ـ ما تلك القوة التى تتيح لك أن تحقق مثل هذه الأمور ؟

كان الراهب يشير الى « الشفاء » بمعجزة .

فقال له الشيخ :

ـ لم يحن حين الكلام عن الشفاء بعد . ليس التحسن شفاء تاماً وربما كان مرد هذا التحسن الى أسباب أخرى . واذا كان ثمة معجزة مع ذلك ، فليس الأمر الا أمر قوة واحدة هى القوة التى تصدر الينا عن النعمة الالهية . لا شىء يتم الا بارادة الله .

SS

وأردف الشيخ يقول متجهاً بالكلام الى الراهب :

ـ تعال زرني أيها الأب ، قبل أن يوافيني أجلي . انني مريض ، وانني أحس أن أيامي معدودات .

صاحت أم ليزا تقول :

ـ لا .. لا ... ان الرب لن يحرمنا منك ! ستعيش طويلاً ، طويلاً جدا . ما عسى يكون مرضك ؟ ان في وجهك كثيرا من الحياة والفرح والسعادة .

ـ صحيح أنني أشعر أن حالتي اليوم أحسن كثيرا مما كانت ، ولكنني أعلم أن هذا لن يدوم . أنا أعرف الآن مرضي معرفة كاملة . تقولين انني أبدو فرحاً . فاعلمي أنه لا شيء يمكن أن يفرحني كما يفرحني أن أسمع منك هذه الملاحظة . لأن الانسان انما خلق للسعادة ، والذي يشعر بسعادة كاملة يحق له أن يقول : « لقد حققت ارادة الله في هذا العالم » . ان جميع الأتقياء ، ان جميع القديسين ، ان جميع الشهداء كانوا سعداء في جميع ظروف الحياة .

هتفت الأم تقول :

ـ ما أجمل هذا الكلام الذي تقول ! ما أعظم وما أرفع هذه المعاني التي تعبّر عنها كلماتك ! ان كل كلمة تقولها تمضي الى القلب رأساً . ولكن أين هي السعادة ؟ من ذا الذي يستطيع أن يقول انه سعيد ؟ يا من تلطفت فأذنت لنا بأن نراك اليوم مرة أخرى ، هلاً تحمّلت أن أفضي اليك اليوم بما سكتُ عنه أثناء زيارتنا السابقة ولم أجرؤ قط أن أتحدث عنه في المرة الأولى ! دعني أكلمك فيما يعذبني كثيرا منذ زمان طويل ، منذ سنين . انني أتألم . انني شقية ! آه ... معذرة .

قالت السيدة ذلك وهى تضم يديها أمامه فى سورة مفاجئة من الانفعال .

ـ ما الأمر ؟

ـ اننى أتألم ... من فقدى الايمان ؟

ـ أأنت لا تؤمنين بالله ؟

ـ ليس هذا ... اننى لا أجرؤ حتى أن أفكر فى هذا . وانما أنا أشك فى الحياة الأبدية . ذلك لغز لم أستطع أن أستبينه ! وما من أحد، ما من أحد يستطيع أن يهب لى جوابا عن هذه المسألة ، ما من أحد يستطيع أن يقدم لى حلاً لهذه المشكلة . اصغ الىّ : أنت انسان تشفى المرضى وتعرف أغوار النفوس . لست أطمع طبعاً فى أن أفوز بثقتك ، لست أطمع فى أن تصدّقنى تصديقاً كاملاً ، ولكننى أؤكد لك ، أقسم لك بأعظم ما فى هذه الحياة ، أننى لا أتكلم فى هذه اللحظة طيشاً وخفة. صدقنى : ان فكرة الحياة الآخرة هذه تؤلمنى الى حد العذاب ، الى حد الرعب ، الى حد اليأس . لا أدرى الى من يجب أن أتجه ... لقد ظللت مترددة فى هذا الأمر طول حياتى . ولكننى أجازف الآن فأكشف لك عن دخيلة نفسى . يا رب ! ما عساك تظن بى من ظنون ؟ ما عساك ترى فىّ من رأى ؟ (قالت ذلك وهى تعقف يديها) .

أجابها الشيخ قائلاً :

ـ لا تهتمى برأيى . أنا مقتنع بصدق ما تعانين من قلق .

ـ أشكر لك ذلك أعمق الشكر . اننى أغمض عينى وأفكر . أقول لنفسى : « ان جميع البشر يؤمنون ، فما تعليل هذا ؟ ألا يذهب بعضهم الى أن الدين قد نشأ من الخوف الذى أحدثته فى نفس الانسان فى الماضى

قوى الطبيعة العاتية ، وأن لا شيء من ذلك موجود في الواقع ؟ » ثم أقول لنفسي عندئذ : « واذن فانني أنا التي آمنت طوال حياتي سأموت فما يبقى مني بعد الموت شيء ، ما يبقى الا قليل من العشب على قبري ، كما قرأت هـــذا الكلام لكاتب من الكتاب ؟ ذلك أمر مخيف ، ذلك أمر مرعب ! فكيف ، كيف أرتد الى االايمـــان ؟ على انني لم أؤمن الا في طفولتي ، وكان ايماني بغير شعور البتة ، بغير تفكير قط ... فكيف ، كيف السبيل الى البرهان على الحقيقة ؟ » . لقد جئت أسألك في مذلة وتواضـــع أن تنيرني يا أبتاه ! فاذا أفلتت مني هذه الفرصـــة اليوم ، فلن يستطيع أحد أن يجيبني في يوم من الأيام . أليس هذا صحيحاً ؟ انني أريد أن أقتنع. ما أشقاني ! انني أنظر حولي فما أرى أحداً يقلقه هذا الأمر ، وان جميع الناس ، أو جميع الناس تقريبا ، لا يحفلون به ولا يكترثون له ، وانني الوحيدة التي لا تطيق احتمال هذا الشك . أمر رهيب ، أمر رهيب .

ــ هو رهيب فعلاً . ولكن لا سبيل في هذا المجال الى برهان . ومع ذلك يستطيع الانسان أن يصل الى اليقين .

ــ كيف ؟ بأية طريقة ؟

ــ بمعاناة الحب الفعال . حاولي أن تحبي أقرانك حباً فعالاً غـير منقطع . فكلما ازددت حباً ازددت اقتناعا بوجود الله ، وازددت اقتناعاً بالحياة الأبدية . متى وصلت الى نسيان نفسك في حب الآخـرين نسياناً تاماً ، أصبح يقينك كاملاً فلم يساور نفسك بعد ذلك أي شك . تلك حقيقة من حقائق التجربة ، تلك حقيقة مؤكدة ...

ــ أتقول : الحب الفعّال ؟ هذه مشكلة أيضا ، ويا لها من مشكلة ! انظر يا أبتاه : انني أبلغ من حبي الانســـانية أنه يتفـــق لي في بعض اللحظات ــ صدقني ــ أن يخطر ببالي أن أدع كل شيء ، وأن أنفصل

حتى عن ليزا لأصبح راهبة من راهبات المحبـــة ! اننى أغمض عينى ، وأفكر ، وأحلم ، فأشعر فى نفسى أثناء تلك اللحظات بقوة لا تغالَب • ما من جروح ولا من قروح متقيحة يمكن أن تخيفنى • أنا أشــعر بأننى مستعدة لأن أضمّدها ، لأن أغسلها بيدى ، وأتمنى لو أصـــبح حارسة للمرضى قرب هؤلاء الأشقياء ، وأن أقبل جراحهم •

ــ انه لحسن جدا وجميل جدا أن ينصرف فكرك الى هذه الأمور بدلا من أن يفكر فى أشياء أخرى كثيرة • بدأت أعتقد أنك ستنتهين فى يوم من الأيام الى أن تقومى بعمل جليل فعلاً •

تابعت السيدة تقول بحرارة وكأنها خارجة عن طورها حماسةً :

ــ نعم ، ولكن الى متى أستطيع أن أحتمل مثل هذه الحياة ؟ ذلك هو السؤال الأساسى ، ذلك هــــو ، بين جميع الأسئلة ، السـؤال الذى يعذبنى أكثر من سائر الأسئلة • اننى أغمض عينى وأسأل نفسى : «أتراك تستمرين طويلاً فى هذا الطريق اذا لاحظت أن المريض الذى ستغسلين قروحه لا يُظهر لك امتنانه ولا يعبِّر لك عن شكره فوراً ، وانما هـــو يرهقك بنزواته ، دون أن يقدِّر بل ودون أن يلاحظ اخلاصك للانسانية المعذبة ، وتفانيك فى سبيلها ؟ وما عساك تفعلين اذا هو ثار عليك ، وأغلظ لك القول ، أو شكاك الى الادارة (وذلك ما يفعله فى كثير من الأحيـــان أولئك الذين يعانون آلاماً شديدة) ؟ أتراك تســـتمرين فى حبك أم لا تستمرين ؟ » • ولقد أجبت نفسى عن هذا السؤال ، هل تتصور ؟ أجبت نفسى عن هذا السؤال قائلة : « اذا كان هنالك شىء يمكن أن يطفىء جذوة حبى « الفعال » فوراً ، فذلك الشىء انما هو نكران الجميل • » • معنى هذا على وجه الاجمال اننى لا أقبل أن أفعل الا بأجر ، وأننى أطالب بأن يُجزى حبى على الفور مديحاً وحباً • وما لم أنل هذا الجزاء ، لا أستطيع أن أحب أى انسان !

كذلك اتهمت المرأة نفسها في سورة صدق جامح ، حتى اذا فرغت من كلامها حدّقت الى الشيخ وقد بدا في وجهها عزم يوشك أن يكون تحدياً .

قال الشيخ :

ـ ذلك بعينه ما حدثني به طبيب منذ زمان طويل . كان رجلاً مسناً ينعم بحظ وافر من الذكاء . وكان يتكلم بصدق واخلاص كما تتكلمين ، ولئن تكلم مازحاً ، لقد كان الحزن ظاهراً في مزاجه . قال : « انني أحب الانسانية ، غير أن هناك شيئاً في نفسي يدهشني : كلما ازداد حبي للانسانية جملةً واحدة ، نقص حبي للبشر أفراداً ، أي أشخاصاً لهم حياتهم الخاصة » وقال هذا الطبيب يسرُّ اليَّ بدخيلة نفسه : « انه ليتفق لي كثيراً أثناء اندفاعي في الأحلام أن تستبد بي حماسة شديدة ورغبة عارمة جامحة في خدمة الانسانية ، حتى لقد ارتضى أن أُصلب في سبيلها اذا بدا هذا ضرورياً في لحظة من اللحظات . ومع ذلك لو أريد لي أن أعيش يومين متتالين في غرفة واحدة مع أي انسان ، لما استطعت أن أحتمل ذلك . انني أعرف هذا بتجربة . فمتى وجدت نفسي على صلة وثيقة بانسان آخر أحسست بأن شخصيته تصدم ذاتي وتجور على حريتي . انني قادر في مدى أربع وعشرين ساعة على أن أكره أحسن انسان : فهذا يصبح في نظري انساناً لا يطاق لأنه مسرف في البطء في تناوله الطعام على المائدة ، وهذا يصبح في نظري انسانا لا يطاق لأنه مصاب بزكام فهو لا ينفك يمخط . انني أصبح عدواً للبشر متى اقتربت منهم . . » . وأضاف الطبيب يقول مؤكداً : « ولكنني لاحظت في كل مرة انني كلما ازددت كرها للبشر أفرادا ، ازدادت حرارة حبي للانسانية جملةً . . » .

ـ فما العمل في هذه الحالة ؟ ما العمل ؟ أليس هذا مدعاة لليأس تماما ؟

ـ كلا ••• انه ليكفي أن تشعري من ذلك بأنك تعيسة شقية• افعلى ما تستطيعين أن تفعلى ، وسيُحسب لك هذا • ولقد فعلت منذ الآن كثيرا ما دمت قد استطعت أن تقرئي في قلبك بهذا العمق كله وهذا الصدق كله • واذا كنت لم تحدثيني بمثل هذا الصدق ، حتى في هذه اللحظة ، الا لتسمعى مني ثناءً على حبك للحقيقة ، كما فعلتُ ذلك ، فانك لن تصلى طبعا الى شيء على طريق الحب الفعال ، وستضيع حياتك في أحلام لا أكثر • ولكن من المؤكد أنك ستنسين عندئذ قلقك بصدد الحياة الآخرة ، بل وستنتهين الى أن يهدأ بالك فيما يتعلق بهذا الأمر ، بطريقة أو بأخرى •

ـ لقد دمرتني ! الآن أدركت ، في هذه اللحظة وحدها ، حين سمعت كلامك ، أنني كنت لا أتوق في الواقع الا الى سماع ثنائك على صدقي في الاعتراف لك بعجزي عن احتمال نكران الجميل • لقد نفذت الى دخيلتي ، وكشفت عن قرارة قلبي ، وحملتني على أن أفهم نفسى بنفسى •

ـ أصحيح هذا الذين تقولين ؟ انني بعد اعترافك هذا قد اقتنعت بصدقك كل الاقتناع ، وأيقنت بأن لك قلبا طيبا • فاذا لم تبلغي السعادة ، فلا تنسى أنك سائرة في الطريق السليمة ، فلا تحيدى عنها • واهربي من الكذب قبل كل شيء ، اهربي من جميع أنواع الكذب ، ولا سيما كذب الانسان على نفسه • راقبي ذاتك وافضحي الكذب في نفسك كل ساعة ، وكل لحظة • وتجنبي الاشمئزاز أيضا ، تجنبي الاشمئزاز من الناس ومن نفسك على السواء : ان ما قد يبدو لك في طبيعتك شراً انما يصفيه وينقيه ويطهره مجرد شعورك به • حاربي الخوف كذلك ، وما الخوف على كل حال الا ثمرة من ثمرات الكذب • لا يصدنك عن ملاحقة الحب ما قد تثيره فيك عيوبك من رعب أو يأس ، لا تدعي حتى لأفعالك السيئة نفسها أن تهزمك في هذا الكفاح • يؤسفني أنني لا أملك أن أقول لك شيئا فيه

SS

مزيد من التشجيع : ان الحب الفعال شيء قاس رهيب اذا قيس بالأحلام التي يحلمها المرء عنه • ان من يحلم بالحب يشعر بظمأ الى عمل مبـــاشر بطولي يحققه بسرعة وينال به اعجاب الناس؟ حتى لقد يصل بهذه الطريقة الى التضحية بحياته راضيا شريطة أن لا يدوم الأمر زمناً طويلا ، وانمـا يتم بسرعة ، كما لو كان على مسرح تراه الأبصار وتمدحه الألسن • ولا كذلك الحب الفعال ، فانه يقتضي جهدا ويتطلب صبرا ، وهو بالنسبة الى بعضهم كالعلم يجب تحصيله • وثقي مع ذلك أنك حتى في اللحظة التي ستلاحظين فيها مذعورةً أن جميع جهـــودك ضاعت سدىً بغير جدوى ، فتعترفين بأنك قد ابتعدت عن الهدف بدلاً من أن تقتربي منه ، ثقي أنك في تلك اللحظة نفسها تكونين في الواقع قد بلغت الهدف ، وسترين عندئذ بوضوح كامل ما قد أحدثه الرب في نفسك من فعـــل هو المعجزة ، فان حب الرب يكون طوال تلك المدة قد شدّ أزرك وقاد خطاك وأرشدك الى الصواب على نحو لا تعرفين سره • معذرةً اذا كنت لا أستطيع أن أبقى معك زمناً أطول ، فان هناك أناسا ينتظرونني • الى اللقاء •

كانت المرأة تبكي • ثم هتفت تقول كأنما هي ثابت الى نفسها على حين فجأة :

ـ ليزا ، ليزا ، لا تنس أن تباركها • باركها !

فقال الشيخ مازحاً :

ـ هي لا تستحق حتى أن تحب • لقد لاحظتُ كيف أنها لم تزد على أن تتسلى هنا • لماذا كنت تسخرين من أليوشا طول الوقت ؟

كانت ليزا ، فعلاً ، قد انصرفت منذ البداية الى لعب ماكر • لقد لاحظت منذ الزيارة الماضية أن أليوشا يضطرب ويحاول أن لا ينظر اليها، فكان هذا يسليها كثيراً • فهي اليوم ترقب نظرته وتترصدها بالحاح •

واذ لم يستطع أليوشا أن يقاوم نداء العينين اللتين كانتا تحدقان اليه،

فقد كان يرفع رأسه دائماً رغم ارادته ، كأن قوة عليا تحركه ، فينظر الى الفتاة هو أيضاً ، فاذا بالفتاة تأخذ تضحك مثبتة نظرها عليه ، فيضطرب أليوشا مزيداً من الاضطراب ويغضب . وانتهى أخيراً الى أن أدار لها ظهره واختبأ وراء الشيخ . ولكنه التفت من جديد بعد بضع دقائق ، بتأثير تلك القوة القاهرة نفسها ، ليعرف ألا تزال الصبية تراقبه أم هي كفت عن ذلك ، فاذا هو يلاحظ أن ليزا التي مالت عن كرسيها المتحرك حتى تكاد تخرج منه لتراقب الفتى بمزيد من الانتباه ، كانت تنظر اليه من جانب ، منتظرةً بالحاح شديد أن يرفع عينيه نحوها ، فلما فأجأت نظرته اليها أخيراً انفجرت تضحك في قهقهة بلغت من الاندفاع المباغت أن الشيخ نفسه لم يحتملها ، فقال للفتاة :

ــ لماذا تحاولين أن تضايقيه أيتها الصبية الشريرة ؟

فاحمر وجه الفتاة على حين فجأة احمراراً لم يكن في الحسبان ، والتمعت عيناها ، واكتسى وجهها هيئة الجد الشديد ، وأجابت بغتةً بلهجة استياء عنيف ، وبعبارات سريعة عصبية ، أجابت تقول :

ــ ولماذا تركني هو ؟ لقد لعبنا معاً حين كنا طفلين صغيرين ، وكان يحملني بذراعيه ، وكان يجيء في الماضي الينا ليعلمني القراءة ، هل تجهل ذلك ؟ ومنذ سنتين فقط ، أكّد لي ، حين ودعنا ، أنه لن ينساني في يوم من الأيام وأننا سنظل صديقين دائما الى الأبد ! وهذا هو الآن يشبه أن يكون خائفا مني كأنني سآكله ! لماذا لا يقترب مني ؟ لماذا لا يكلمني ؟ لماذا لا يجيء الينا ؟ أأنت الذي تمنعه ؟ نحن نعلم مع ذلك أن في امكانه أن يخرج بحرية . وليس عليّ أنا أن أناديه ، وانما واجبه هو أن يجيء ، اذا كان لا يزال يتذكر . ولكن لا ! هو يحقق لنفسه الأمن والسلام والخلاص ، أليس كذلك ؟ ولماذا ألبستموه ثوب الراهب هذا الطويل ؟ ... انه يتعرض للسقوط على الأرض اذا ركض ...

قالت الفتاة ذلك ثم لم تستطع أن تتمالك نفسها فاذا هي تعطي وجهها بيديها على حين فجأة وتنفجر ضاحكةً ضحكة كبيرة هي ضحكتها الطويلة العصبية التي لا تستطيع مغالبتها والتي تهزها هزاً قوياً دون أن تكون صاخبةً كثيراً • أصغى الشيخ اليها مبتسماً ، ثم باركها في حنان • فتناولت يده لتقبلها ، وشدتها فجأة الى عينيها وأخذت تبكي قائلة :

ـ لا تغضب مني • ما أنا الا حمقاء لا أساوي شيئاً ••• ولا شك في أن أليوشا على حق ••• انه على حق حين لا يريد أن يهتم بأمر صبية سخيفة هذا السخف كله •••

قال الشيخ بلهجة جازمة :

ـ سأرسله اليكم حتماً •

٥

لتكن مشيئة الرب

طال غياب الشيخ قرابة خمس وعشرين دقيقة • كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف ولمَّا يصل بعدُ دمترى فيدوروفتش الذى عقد هذا الاجتماع من أجله • وكان يبدو أنهم قد نسوه ، حتى أن الشيخ وجد ضيوفه غارقين فى مناقشة حامية جدا • ان المناقشة تدور بين ايفان فيدوروفتش والراهبين الكاهنين • أما ميوسوف فهو يتدخل فى المناقشة فى كثير من الأحيان ، بل وبكثير من الحرارة ، ولكنه لم يحالفه التوفيق فى هذه المرة أيضا ، فهو يظل فى الدرجة الثانية، والمتناقشون يجيبونه ذاهلين ، فكان هذا يزيد حنقه ويفاقم غيظه• لقد سبق له أن تنافس مع ايفان فيدوروفتش فىميدان سعة الاطلاع وغزارة المعرفة. فلم يستطع أن يطيق ذلك الازدراء الخفيف الذى أظهره له ايفان • كان يحدثه نفسه قائلاً : « كنت أعتقد ، حتى الآن على الأقل ، أننى فى مستوى كل ما يشكل التقدم فى أوروبا ، ولكن هـذا الجيل الجديد يظهر أنه يتجاهلنا عامدا » • وأما فيـدور بافلوفتش فكان قد آلى على نفسـه أن لا يتحرك من مكانه ، وأن لا ينطق بكلمة واحدة ، لذلك ظل صامتا بعض الوقت ، ملاحظاً مع ذلك جاره بطرس ألكسندروفتش ، مبتسـما ابتسامة

هزء وسخرية ، مبتهجا بما يراه فيه من حنق وغيظ • انه يفكر فى أن يثأر لنفسه منذ مدة طـــويلة ، ولا يريد أن يفوّت فرصة جميلة كهـذه الفرصة • واذ أصبح لا يطيق صبرا ، فقد مال على كتف جاره وعاد يمطره بسخرياته من جديد ، متكلما بصوت خافت :

ـ لماذا لم تنصرف منذ قليل ، بعد تلك القصة التى رويت عن القديس الذى قطعت عنقه والقبلات التى طبعها على رأسه ؟ لماذا رضيت أن تبقى فى صحبة أناس يبلغون ما أبلغه أنا من قلة الاحتشام وسوء الأدب ؟ سأذكر لك السبب : انك قد بقيت لأنك شعرت بمذلة واهانة ، فأنت تنتظر اللحظة التى تثأر فيها لنفسك باظهار مواهبك الفذة وفكرك اللماح • وانى لأراهن على أنك لن تبارح هذا المكان قبل أن تحملهم على الاعجاب بذكائك •

ـ استأنفت ثرثرتك ؟ سوف أنصرف ، بل سوف أنصرف فورا •

ـ دعك من هذا ! لسوف تبقى الى النهاية ، ولن تنصرف الا آخـر المنصرفين ! •••

وفى تلك اللحظة نفسها تقريبا انما رجع الشيخ الى الحجرة •

توقفت المناقشة لحظات ، ولكن الشيخ ، بعـــد أن جلس فى مكانه السابق ، ألقى على المتناقشين نظرة لطيفة رضية كأنما ليشجعهم على مواصلة المناقشة • ولاحظ أليوشا الذى كان قد درس جميع تعابير وجه الشيخ ، لاحظ فورا أن الشيخ منهوك القوى وأن يتحامل على نفسه ويكلفها من أمرها عسراً فى سبيل أن يتغلب على تعبه • ان المرض قد أحدث للشيخ فى الآونة الأخيرة عدة غيبوبات من شـدة الضعف : وها هى ذى صفرة شبيهة بالصفرة التى تسبق حالات الغيبوبة هذه عامةً ، ها هى ذى تغشى وجه الشيخ الآن ، وها هما شفتاه تبيضّان • وكان واضحاً مع ذلك أن الشيخ لا يرغب فى أن يختم هذا الاجتماع • لا بد أن هناك سبباً يدعوه

الى ذلك • ولكن ما هو هذا السبب ؟ كان أليوشا يلاحظ الشـيخ بانتباه شديد •

قال الراهب الكاهن جوزيف ، وهو قيِّم مكتبة الدير ، قال يشرح وهو يشير الى ايفان بتروفتش :

ـ كنا نتكلم عن المقالة الشائقة جداً التى نشرها هذا الشاب • لقد أورد آراء أصيلة فى عدد من النقاط ، غير أن بعض آرائه يبدو ذا حدين• والموضوع هو موضوع القضاء الاكليركى ومدى الصلاحيات التى يجب أن يُعطاها • كان أحد رجال الدين قد نشر كتاباً ضخماً فى هذه المسألة*، فردَّ عليه هذا الشاب بمقالة نشرها فى جريدة •••

أجاب الشيخ وهـو يلقى على ايفان فيـدوروفتش نظرة طويلة متفرسة :

ـ يؤسفنى أننى لم أقرأ مقالتك ، ولكننى سمعت عنها •

استأنف الأب قيِّم المكتبة كلامه يقول :

ـ ان هذا الشاب يدافع عن نظرية شائقة حقا ، وكأنه حين يعـالج مشكلة القضاء الاكليركى ، يدحض مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة •

قال الشيخ يسأل ايفان فيدوروفتش :

ـ هذه فى الحق فكرة شائقة ، ولكن بأى معنى تفهمها ، وما الذى تقصده بها ؟

فأجابه ايفان بعد بضع لحظات من صمت ، فلم يصطنع فى جـوابه ذلك التعالى الذى يشتمل على احترام مهذب ، وهو ما كان يخشاه أليوشا حتى الليلة البارحة ، وانما تكلم بلهجة فيها تواضع وتحفظ ، وفيها تقدير واعتبار ، ولا أثر فيها لأية فكرة ميتة أو حكم سابق • قال :

ـ ان فكرتى هى أن ذلك التوحيد الذى يفرضه هوانا على عناصر متعارضة فى جوهرها كتعارض الكنيسة والدولة ، سيظل قائماً الى الأبد ولا شك ، رغم أنه يخالف طبيعة الأشياء ولا يمكن أن يؤدى الى جعل العلاقات سليمة سوية بين السلطتين بل ولا الى مصالحة بسيطة مهما يكن حظها من الاتساق والانسجام يسيرا • والواقع أن الكذب هو المصدر الذى ينشأ عنه هذا الحل أو هو الأساس الذى يقوم عليه• وعندى أن تسوية بين الدولة والكنيسة فى مسائل كمسألة القضاء مثلاً ، أمر" مستحيل ولا يمكن تخيله اطلاقاً• ان رجل الاكليروس الذى انتقدت نظرياته قد ذهب الى أن الكنيسة تحتل فى داخل الدولة مكانا معينا واضح الحدود • فأجبته بأننى، من جهتى ، أرى أن الكنيسة يجب ، على عكس رأيه تماماً ، أن تستغرق الدولة كلها وأن لا تكتفى بمأوى بســـيط تعتصم به فى داخـل التنظيم الاجتماعى • وأضفت الى ذلك قولى انه اذا تعذر الوصول الى هذا الهدف فى الظروف الحالية لسبب من الأسباب ، فيحسن أن تنظر اليه على أنه الغاية الضرورية التى يجب على المجتمع المسيحى أن يتجه اليها بكل قواه أثناء تطوره المقبل •

قال الأب بائيسى الراهب الكائن ، العلاّمة الشـــديد الصمت ، قال بصوت قاطع جازم ولكنه لا يخلو من عصبية :

ـ هذا صحيح تماما •

فصاح ميوسوف يقول وهو يضع ساقا على أخرى بحركة تدل على نفاد الصبر :

ـ ولكن هذا ليس الا عقيدة مما وراء الجبال *

فانطلق الأب جوزيف قائلا :

ـ دعك من هذا الكلام ! نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال !

ثم استأنف بعد ذلك يقول متجهاً الى الشيخ :

ــ ان هذا الشاب قد أورد الردود التالية ، فيما أورد من ردود على آراء خصمه ــ ولاحظوا أن خصمه عضو من أعضاء الاكليروس ــ وهى آراء يعدها خصمه « جوهرية وأساسية » : الرأى الأول أو الموضوعة الأولى : « ما من طائفة اجتماعية يجوز لها أو يجب عليها أن تدعى لنفسها حق التصرف فى الحقوق المدنية والسياسية لأفرادها • » ؛ الموضوعة الثانية : « ان حق القضاء الجزائى والمدنى يجب أن لا ينتمى الى الكنيسة، لأنه يتنافى مع ماهيتها كمؤسسة دينية ويتنافى أيضا مع صفتها كتنظيم انسانى وُجد لتحقيق أهداف دينية • » الموضوعة الثالثة والأخيرة : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم • » •

فقال الأب بائيسى يتدخل مرة أخرى وقد بدا عليه الاستياء واضحا :

ــ ذلك لعب بالالفاظ لا يليق فى رأيى بعضو من أعضاء الاكليروس•

ــ لقد قرأت الكتاب الذى رددت عليه ، وقد أدهشنى أن أرى مؤلفه يقول : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم • » • ذلك أنه ان لم يكن ينتمى الى هذا العالم فمن البديهى أنه لن يمكن عندئذ أن يتحقق فى هذا العالم على أية صورة من الصور • وليس هذا هو المقصود اطلاقاً من التعبير الوارد فى الأناجيل ، القائل بأن «ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم » • ان التلاعب بالألفاظ على هذا النحو غير جائز ولا مقبول • ان سيدنا يسوع المسيح انما جاء ليقيم الكنيسة على الأرض• صحيح أن ملكوت السماوات لا ينتمى الى هذا العالم ، لأنه فى السماء ، ولكن دخول ملكوت السماء لا يكون الا عن طريق الكنيسة التى أقيمت فى الأرض • لذلك يجب أن نعد هذا التلاعب بالألفاظ المصطبغ بالروح العصرية أمرا لا يليق استعماله ولا يمكن قبوله فى هذا المجال • ان الكنيسة

هى فى الواقع مملكة • وان رسالتها هى أن تسود وأن تحكم ، وستشمل مملكتها الأرض كلها أخيراً ، وذلك ما جاء فى النبوءة على كل حال •••

قال الأب بائيسى ذلك ثم صمت فجأة كأنما هو يمسك عن الكلام عامداً •

وكان ايفـــان فيدوروفتش يصغى الى كلامه بانتباه فيه كثـير من الاحترام ، فاستأنف حديثه متجهاً الى الشيخ قائلاً بهدوء عظيم ولهجـة رصينة باشة طيبة :

ــ ان الفكرة الأساسية التى تجمل مقالتى كلها هى أن المســيحية كانت فى الأزمنة القديمة ، أى طوال القرون الثلاثة الأولى من قيامها ، كانت كنيسةً فحسب ، وكانت لا تطمع فى أن تصبح أكثر من ذلك • ولكن حين قررت الدولة الوثنية التى هى الدولة الرومانية أن تعتنــق الديانة المسيحية فان الذى حدث بالضرورة هو أنها حين أصبحت مسيحية قد احتوت الكنيسة واستوعبتها مع بقائها وثنية فى كثير من النواحى • ولم يكن من الممكن أن يحدث غير هــــذا على كل حال • فان روما من حيث هى دولة سياسية قد احتفظت بعناصر كثيرة مستمدة من الحضـارة الوثنية والحكمة الوثنية ، ولا سيما فيما يتعلق بأهداف الدولة وأسسها نفسها • وكان طبيعيا أن لا تستطيع الكنيسة المســـيحية حين دخلت فى الدولة أن تضحى بأى مبـدأ من مبـادئها ، ولا أن تترك أى جـــزء من الصخرة التى بُنيت عليها • كانت الكنيسة المسيحية لا تستطيع الا أن تتابع أهدافها الخاصة كما رسمها لها الرب نفسه ، وهى امتصاص الكنيسة للعالم بأسره وللدولة الوثنية القديمة تبعا لذلك • ويترتب على هذا أن الكنيسة ليست هى التى يجب عليها أن تسعى الى احتلال مكان معيَّن فى داخل الدولة ، « ككل طائفة اجتماعية أخرى » أو « ككل تنظيم انسانى وُجد لتحقيق أهداف دينية » (وذلك ما يقـــوله فى موضوع الكنيسة

مؤلف الكتاب الذى انتقدته) ، بل العكس هـو الصحيح ، فان الدول الأرضية جميعها هى التى يجب عليها أن تستحيل فى خاتمة المطاف من تطورها الى كنيسة ، وأن لا تصبح الا كنيسة، متنازلةً من أهدافها الخاصة عن تلك التى لا تتفق وأهداف الكنيسة . وهـذا التحول لن يغضّ من قيمة هذه الدولة ولن ينتقص من شأنها ، ولن يفقدها شيئاً من كرامتها ومجدها من حيث هى دول كبرى ، لا ولن يسىء الى مايتمتع به ملوكها وقادتها من بريق اجتمـاعى نتيجة للوظائف التى يقومون بهـا ، وكل ما هنالك أنه سيُخرج هؤلاء الملوك والقادة من طريق الضلالة والوثنية الذى ساروا فيه ، وسيضعهم فى اتجاه السليم الرشيد ، الاتجاه الوحيـد الذى يمكن أن يؤدى الى تحقيق غاياتهم الأبدية . لذلك أقول ان مؤلف كتاب « أسس القضاء الاكليركى فى داخل المجتمع » كان عليه حين بحث عن هذه الأسس وحاول استخلاصها ، أن لا يعدها الا تسوية مؤقتة ، تسوية لا بد منها ولا محيص عنها فى هذا العالم الذى ما يزال فى حالة الخطيئة ولمّا يبلغ بعد خاتمة المطاف من تطوره . أما أن يتورط مؤلف هذا الكتاب فيزعم أن هـــذه الأسس التى عرضها والتى عدّد لنا الأب جوزيف بعضها منذ هنيهة هى بطبيعتها نفسها أبدية ثابتة كالكون نفسه ، فانه يناقض عندئذ حقيقة الكنيسة ، ويعارض رسالتها المقدسة الأبدية التى يجب أن لا تُمس . ذلك كل ما قلته فى مقالتى التى أوجزتها لكم ايجازا وافيا .

قال الأب بائيسى يتدخل مرةً أخرى مشدّدا على كل كلمة من كلماته :

ـ الخلاصة اذن أن بعض النظريات الشائعة كثيرا فى قرننا التاسع عشر هذا تريد للكنيسة أن تتحرك نحو الدولة ، منتقلةً من مرحلة دنيا الى مرحلة عليا ان صح التعبير ، وأن تذوب فى الدولة ، بعد أن أخلت



ايفان كارامازوف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

المكان للعلم وروح العصر والحضارة ، فاذا هى رفضت هذا مع ذلك ، وقاومت هذا التحول ، عُرض عليها عندئذ مكان" محدود تلوذ به وتأوى اليه ، تحت رقابة الدولة ، كما يحدث اليوم فى أكثر البلاد الأوروبية . أما النظرة الروسية ، أما عقيدتنا فهى ترى أن الكنيسة ليس عليها هى أن تستحيل الى دولة كما يتم الانتقال من صـــورة دنيا الى صورة عليا من صور الوجود ، وانما الدولة هى التى يجب عليها أن تحاول أن تصـير أخيرا الى كنيسة وأن لا تكون شيئا غير ذلك . هذا ما يجب أن يكون ! ألا فلتكن مشيئة الرب !

قال ميوسوف ساخراً وهو يضع ساقاً على ساق مرة أخرى ، ولكن فى اتجاه معاكس :

ـ أعترف لك بأنك قد رددت الىَّ شجاعتى : اذا صح فهمى فأنت ترى أن المسألة مسألة مثل أعلى يجب الوصول اليه فى زمان مقبل مايزال بعيدا كل البعد ، وربما امتد الى يوم عودة المسيح . لك ما تشاء ! ذلك حلم جميل جدا ، فلا حروب عندئذ ولا دبلوماسية ولا بنوك ، الخ ؛ بل ان هذا يذكّر بالاشتراكية بعض الشىء . لقد كنت أخشى فى البداية أن تكون جاداً فيما تقول ، وأن تطمع للكنيسة ، منذ الآن ، فى أن تمارس السلطة فتقضى فى الأمور الجزائية مثلا فتصدر أحكاما بالجلد والأشغال الشاقة وربما بالاعدام !

استأنف ايفان فيدوروفتش كلامه هادئاً بغير تعثر ، فقال :

ـ حتى لو كانت المحاكم الاكليركية هى السلطة القضائية الوحيدة المعترف بها اليوم فى العالم ، فان الكنيسة لن تصدر أحكاماً بالاعـدام أو بالأشغال الشاقة . ان صفة الجريمة وطـــريقة معالجتها تتبدلان عندئذ حتماً ، لا دفعة واحدة بطبيعة الحال ، بل شيئا فشيئا ، على التـدريج . ولكن هذا التبدل سيتحقق مع ذلك بسرعة كافية ...

قال ميوسوف وهو يحدّق اليه بنظرة نافذة :

ـ أأنت جاد فيما تقول ؟

فتابع ايفان فيدوروفتش كلامه قائلاً :

ـ يوم تحتوى الكنيسة المجتمع بأسره فانها سوف تحرم الخطاة العصاة ، ولكنها لن تقتل أحدا • قل لى : ما عسى يصير اليه المحروم ، وأين عساه يعتصم ؟ لسوف يكون عليه أن يقطع صلته لا بالبشر فحسب، بل بالمسيح أيضا • وستجعله جريمته عندئذ عدواً للانسانية وعدواً لكنيسة المسيح • وان الأمر لكذلك منذ الآن ، اذا نحن نظرنا فى أعماق الأمور، ولكننا لا نعترف بهذا صراحةً • ان السىء يجد اليوم ، فى حالات كثيرة جدا ، سبيلا الى ارضاء ضميره ، فهو يقول لنفسه : « صحيح أننى سرقت، ولكننى لم أناصب الكنيسة العداء ••• اننى لست عــدو المسيح • » • هكذا يفكر المذنب فى كثير من الأحيان فى عصرنا هذا • أما يوم تحل الكنيسة محلّ الدولة فسوف يصعب على المسىء أن يفكر هذا التفكير والا كان ينكر سلطة كل كنيسة فى هذا العالم ويرفض هذه السلطة رفضاً تاماً ، قائلاً : « البشر جميعا على ضلال ، هم وكنيستهم على ضلال ، وأنا وحدى ـ أنا القاتل أو السارق ـ أنا وحدى الكنيسة المسيحية الحق » • وذلك موقف يصعب جدا اتخاذه ، اللهم الا بتضافر ظروف شاذة لا يعقل أن تتوافر • وانظر الآن من جهة أخرى الى مفهوم الكنيسة للجريمة : أليس هذا المفهوم خليقاً بأن يؤدى الى هجر الأساليب الجزائية الحالية الميكانيكية التى تقضى ببتر العضو المــريض ، كما يُفعل اليوم لحماية المجتمع ، وبأن يكفل الغلبة لفكرة خلق الانسان خلقاً جديدا وبعثه بعثاً جديدا وتحقيق الخلاص والسلام له فى الحياة الواقعية هذه المرة •

قاطعه ميوسوف سائلاً :

ـ الى ماذا تريد أن تتخلص من هذا ؟ لقد أصبحت مرة أخرى لا أفهمك . انك تعود الى الأحلام . هذا الكلام الذى تقوله غامض مبهم، بل لا سبيل الى فهمه . عن أى حرمان تتكلم ؟ ما هذا الحرمان ؟ اننى أتساءل ألست تسخر منا وتضحك علينا لا أكثر من ذلك ، يا ايفان فيدوروفتش ؟

هنا انبرى الشيخ فجأة للكلام ، فالتفت الجميع اليه بحركة واحدة، قال :

ـ ولكن هذا هو ما يحدث فى الواقع منذ الآن . ذلك أنه ان لم توجد اليوم كنيسة للمسيح فان المذنب لن يرتدع عن جريمته ، لا ولن يعاقب بعد جريمته ، وأقصد بالعقاب هنا العقاب الحقيقى لا العقاب الميكانيكى فحسب ، كما قيل منذ هنيهة . فذلك العقاب لا يزيد على أن يهيج النفس فى أكثر الحالات ، أما العقاب الحق ، العقاب الذى يخيف ويهدىء فى آن واحد ، العقاب الوحيد الناجع المجدى ، فهو حكم الضمير على صاحبه .

قال ميوسوف يسأل باستطلاع حار عنيف :

ـ كيف هذا ؟ هلا شرحته لنا ؟

قال الشيخ :

ـ انظر . ان ارسال المذنبين الى سجون الأشغال الشاقة ، وما كان يضاف اليه قبل الآن من تعذيب جسدى ، ان ذلك كله لم يُصلح أحدا ، وهو على وجه الخصوص لا يخيف المجرمين ، باستثناء عدد قليل منهم. فعدد الجرائم لم ينقص ، بل انه ليزداد . لا تستطيع أن تعترض علىّ فى هذه النقطة . يترتب عن ذلك أن هذه الأساليب لا تحمى المجتمع البتة . فان العضو الضار الذى يُحذف من المجتمع بهذه الطريقة الميكانيكية فيرسل الى مكان بعيد ويغيب عن الأنظار ، ما يلبث أن يحل محله مجرم

آخر أو مجرمان آخران • فاذا رأينا المجتمع مع ذلك محمياً حتى فى الوقت الراهن ، واذا رأينا أن المجرم نفسه يملك اليوم أن يصلح نفسه وأن ينبعث انسانا جديدا ، فالفضل فى ذلك انما يرجع هنا أيضا الى قانون المسيح على نحو ما رسخ فى قرارة ضميرنا • ان اعتراف المجرم بذنبه كابن من أبناء المجتمع المسيحى ، أى كابن من أبناء الكنيسة ، هو السبيل الوحيدة الى شعوره بأنه آثم فى حق المجتمع أى فى حق الكنيسة • فازاء الكنيسة وحدها لا ازاء الدولة انما يمكن أن يشعر المجرم الحديث بأنه مذنب • فاذا تمت ممارسة حق القضاء باسم الكنيسة ، عرف المجتمع عندئذ من هم الذين يستحقون أن ينتهى حرمانهم ويستحقون أن يرجعوا الى الاندماج فى الحياة الاجتماعية • ان الكنيسة التى لا تملك الآن أى سلطة قضائية فعّالة ولا تملك أن يكون لها تأثير أو نفوذ الا بالادانة الروحية ، لا يهمها العقاب الفعلى الذى يتم انزاله فى المذنبين • انها لاتطرد هؤلاء الجناة من حضنها ، بل تظل تحدب عليهم حدب الأب على أبنائه ، وأكثر من ذلك أنها تحاول أن تحافظ معهم على جميع الصلات التى تشد المؤمنين الى الكنيسة وتربطهم بها؛ انها تقبل أن يدخلوا الكنيسة ويشاركوا فى الصلاة ولا تضن عليهم بتناول القربان المقدس • انها تتجدهم وتغيثهم، وتعاملهم معاملة تعساء أكثر مما تعاملهم معاملة جناة• وما عسى يقع لهؤلاء المجرمين ، يا رب ، لو أن المجتمع المسيحى ، أى لو أن الكنيسة قد نبذتهم كما نبذهم قانون الجزاء وفصلهم عن سائر البشر ! ما عسى يحدث لو أن الكنيسة تضربهم هى أيضا ، فتحرمهم كلما حكم عليهم قانون الدولة ، وتضيف عقابها الى عقاب الدولة ؟ انك لا تستطيع أن تتخيل انحداراً الى الدرك الأسفل من اليأس الكامل كالانحدار الذى يمكن أن يهوى اليه هؤلاء الجناة فى مثل هذه الحالة ، ولا سيما اذا كانوا من الروس ، لأن الروس ما يزالون محافظين على ايمانهم ! ومن ذا الذى يضمن أن

لا يحدث عندئذ شيء رهيب لدى هؤلاء الجناة ، كأن يزول الايمان من قلوبهم اليائسة ؟ ولكن الكنيسة تتصرف معهم تصرف أم حنون رءوف، وهي تعزف عن معاقبتهم في الواقع ، لأنهـا ترى أنهم ، حتى دون أن تعاقبهم هي ، قد نالتهم عدالة الدولة بعقـاب قاس ، فهم في حاجة الى أحد تأخذه بهم شفقة على الأقل . وهي تمتنع عن معاقبتهم خاصةً لأن عدالة الكنيسة هي العدالة الوحيدة القائمة على الحقيقة، فلا يمكنها والحالة هذه أن تتعاون معنويا وعمليا مع أي قضاء أجنبي ولو على صورة تسوية مؤقتة . ولا سبيل الى أي تنازل في هذه النقطة . ان المجرمين لايشعرون في البلاد الأخرى بالندم والتوبة الا نادرا فيما يقال ، لأن المذاهب الحديثة الرائجة هناك لا تستطيع الا أن تعزز شعورهم بأن الجرائم التي ارتكبوها ليست جرائم ، وانما هي أعمال تمرد على القوى التي تضطهدهم ظلمـا وعدوانا ، فالمجتمع ينبذهم من حضنه آليا ، ويغلبهم على أمرهم بقـوته العليا ، وهو يشفع هذا الابعاد للمجرمين (هذا على الأقل ما يقوله في أوروبا كتاب تلك البلاد) يشفعه بكره لهم ولا يحفل بمصيرهم وينساهم نسيانا تاما مع أنهم اخوتنا على كل حال . فكل شيء يجري اذن دون أي عطف من الكنيسة ، لأن الكنيسة أصبحت لا وجود لها في عدد من تلك البلاد التي لم يبق فيها الا رجال الاكليروس ومبانٍ دينية رائعة . أما الكنائس بالمعنى الحقيقي فقد سارت منذ زمن طويل في طريق يجب أن ينقلها من مرحلة يقال انها دنيا ، وهي مرحلة الجماعة الاكليركية ، الى المرحلة التي يُزعم أنها عليا وهي مرحلة الدولة ، بغية أن تغرق فيهـا غرقاً كاملاً . تلك هي على الأقل حالة الشعوب اللوثرية فيما يظهر . أما الكاثوليكيـة الرومانية فانها منـذ ألف سنة قد أقامت الدولة مقـام الكنيسة . لذلك لا يشعر المجرم هناك بأنه عضو في الكنيسة ، فهو حين ينبذه المجتمع يهوى الى قاع اليأس . فاذا اتفق له أن يعود بعد ذلك الى

المجتمع ، فانه فى أكثر الاحيان يظل يشعر نحو هذا المجتمع بكره يبلغ من القوة أن المجرم هو الذى ينبذ المجتمع فى هذه المرة • وفى وسعكم أن تتخيلوا بسهولة الى أين يؤدى هذا • قد يتراءى ان الامور تجـرى على هذا النحو غالبا فى بلادنا أيضا • ولكن الفرق بين بلادنا والبـــلاد الأخرى هو أن بلادنا ما يزال فيها ، عدا المحاكم النظامية ، كنيسة لا تفقد اتصالها أبداً بالمجرم ، لأنها تعده ابناً عزيزاً ما يزال جديرا بالحب • هذا الى أننا احتفظنا بالعدالة الاكليركية ولو فكرياً ، ولئن أصبحت هـــذه العدالة الآن غير فعالة ، فهى ما تزال موجودة للمستقبل على الأقل ، من حيث هى أمل على كل حال ، والمجرم نفسه يعترف بسلطتها فى قرارة نفسه حتماً • وانه لصحيح كل الصحة أيضا ، كما قيل هذا منذ هنيهة ، أنه اذا استطاعت عدالة الكنيسة أن تؤكد نفسها فى الواقع بكل قوتها ، أى اذا استحال المجتمع كله الى كنيسة ، فان المحاكم الاكليركية ستساهم فى اصلاح المجرمين اصلاحا لا تُعرف حدوده حتى الآن ، بل ربما نقص عدد المجرمين كذلك نقصا كبيرا • ان الكنيسة نفسها ـ وهذا أمر مؤكد ـ ستستطيع عندئذ أن تكشف عن الشخص الذى سيرتكب ذنبا فى المستقبل ، وأن تعرف الجريمة التى تتهيأ ، أكثر كثيرا مما تفعل اليوم ذلك فى أكثر الأحوال ، وسيكون فى وسعها أن تهدى الضالين ، وأن تُبقى فى طريق الرشاد أولئك الذين ينوون أن يقارفوا عملاً سيئاً ، وأن تُنهض أولئك الذين سقطوا •

وأضاف الشيخ يقول وهو يضحك ضحكة صغيرة :

ـ صحيح أن المجتمع المسيحى ما يزال حتى الآن غير مهيأ ، وأنه غير باقٍ الا بفضل الصالحين السبعة ؟ ولكن هؤلاء لايمكن أن يزولوا ، والمجتمع المسيحى يقوم عليهم قيامه على أعمدة راسخة وطيدة بانتظار أن يتحول تحولاً كاملاً ، فلا يبقى مجتمعا أى تنظيما انسانيا يشبه أن يكون

وثنيا حتى الآن ، وانما يصير كنيسة واحدة شاملة كلية تحكم الجميع • هذا ما يجب أن يكون ، هذا ما يجب أن يكون ، ولو فى آخر الزمان ، لأنه قد أريد وحُدِّد منذ الأزل • وما ينبغى أن يقلقنا طول الانتظار وبطء الزمن ، ما دام مفتاح العصور بيد الرب ، وما دام الرب يرتب تعاقبها بحكمته وطيبته وسابق علمه • ذلك أن ما يبدو أنه ما يزال بعيدا جدا فى تقدير البشر قد يكون فى بعض الأحيان على وشك أن يتحقق بحكم المشيئة الالهية ، وقد يكون على عتبة حياتنا يوشك أن يدخلها • لذلك أقول : فلتكن مشيئة الرب ، فلتكن مشيئة الرب •

قال الأب بائيسى مؤيدا فى رصانة ووقار :

ـ فلتكن مشيئة الرب •

قال ميوسوف بحرارة فيها استياء شديد :

ـ هذا غريب ، غريب الى أبعد حدود الغرابة !

فسأله الأب جوزيف قائلاً بحذر :

ـ ما هو الشىء الذى تراه فى هذا الكلام غريبا هذه الغرابة كلها ؟

فهتف ميوسوف يقول منفجرا على حين بغتة :

ـ شىء عجيب كل العجب ! شىء لم أسمع به من قبل ! يزيلون الدول القائمة ليشيدوا فى مكانها الكنيسة كدولة ! ليس هذا من عقائد ما وراء الجبال فحسب ، بل هو تطرف فى الأخذ بعقائد ما وراء الجبال ! ان البابا جريجوار السابع نفسه ما كان له أن يحلم بشىء من هذا القبيل!*

قال الأب بائيسى بصوت خشن :

ـ الأمر نقيض ما ترى تماما • نحن لا نعتقد أن الكنيسة هى التى يجب أن تستحيل الى دولة ، فافهم رأينا حق فهمه • ان ذلك الحلم هو حلم روما حقا ، وهو ثالثة غوايات الشيطان ! وانما رأينا عكس هذا

الرأى ، فالدولة هى التى يجب أن تتحول الى كنيسة ، هى التى يجب أن ترتقى الى حيث تصبح الكنيسة الكلية الشاملة على الارض ، وذلك نقيض ما تراه روما ، نقيض عقيدة ما وراء الجبال ، نقيض التأويل الذى تؤوله أنت ، وهو بعينه الرسالة الحقيقية الكبرى التى تحملها الارثوذكسية • أن نجمة هذا الايمان المظفر ستطلع فى سماء الشرق •

كان ميوسوف صامتا صمتا وقورا • ان شخصه كله يعبر فى هـذه اللحظة عن شعور خارق بمهابته وكرامته • وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبرياء تصطنع التواضع • وكان أليوشا يشهد هذه المناقشة ويتابع جميع تفاصيلها ، خافق القلب • لقد هزّت هـذه المناقشة جميع جوارحه • ووقع بصره عرضا على راكيتين الذى لم يكن قد تحرك من مكانه والذى كان ما يزال واقفا قرب الباب يلاحظ كل شيء بانتباه ، ويسمع كل شيء باصغاء ، رغم أنه غاضْ بصره • ومع ذلك فان أليوشا اذ لاحظ لون خديه أدرك أن راكيتين لم يكن أقل منه اضطرابا لهذه المناقشة ، وحزر الخواطر التى كانت تبث فيه هذا الاضطراب •

قال ميوسوف فجأة بلهجة فيها سلطة ، وهيئة فيها تعاظم :

ـ اسمحوا لى أيها السادة أن أقص عليكم حكاية قصيرة • حين كنت فى باريس منذ بضع سنين ، بُعيدَ الانقلاب الذى وقع فى شهر كانون الأول (ديسمبر) ، حدث أن زرت فى يوم من الأيام شخصية ذات نفوذ ، ذات نفوذ عظيم ، كانت تتولى فى ذلك الوقت وظائف حكومية ، وكنت على صلة بها قوية • فالتقيت عند تلك الشخصية بسيد عجيب أمره • لم يكن هذا السيد من رجال الشرطة بمعنى الكلمة ، ولكن يظهر أنه كان يدير جهازا كبيرا من أجهزة الشرطة السياسية ـ ومعنى هذا أنه شخصية كبيرة فى بابها • انتهزت الفرصة فدخلت فى حديث مع هذا الرجل ، تدفعنى الى ذلك رغبة قوية فى الاطلاع • واذ

لم يكن عنـد رب الدار عنـدئذ بصفته زائراً بل بصفته مرءوسا يقدم تقريرا ، فانه وقد لاحظ حفاوة رئيسه بى ، قد شرفنى بأن أفضى الىّ ببعض الأمور وباح لى ببعض الأسرار • طبعا لم ينفتح لى الا الى حد ، وكان أقرب الى الملاطفة منه الى المصارحة ، وهى تلك الملاطفة المعهودة فى الفرنسيين ، ولا سيما مع الأجانب • ولكننى استطعت أن أرى ما فى نفسه واضحا كل الوضوح• لقد دار الحديث على الاشتراكيين الثوريين، الذين كانوا يضطهدون فى ذلك الوقت على كل حال • ولست أحب أن أتعرض لموضوع الحديث الذى دار بينى وبينه ، بل أدع هذا الموضوع جانبا وأقتصر على أن أذكر لكم فكرة عجيبة جدا أفلتت من لسان هـذا السيد الصغير على حين فجأة ، قال يسرُّ الىّ : « الحق أننا لا نخشاهم كثيراً ، هؤلاء الاشتراكيين الفوضويين الملحدين الثوريين • نحن نراقبهم من كثب ونعرف أعمالهم وحركاتهم • غير أن بينهم رجالاً من طـــراز خاص ، وان لم يكن عددهم كبيرا جدا : أولئك هم المؤمنون، المسيحيون، الذين يربطون الاشتراكية بايمانهم الدينى • نحن نخشى هؤلاء أكثر من أى شىء آخر • هؤلاء أناس خطرون جدا • ان رجلا يجمـــع بين الاشتراكية والمسيحية معا لهو أخطر كثيرا من اشتراكى ملحد • • » • لقد فجأتنى هـــذه الفكرة كثيرا فى تلك اللحظة ، وقد تذكرتها الآن حين سمعت كلامكم ، أيها السادة ، لا أدرى لماذا •••

سأله الأب بائيسى فجأة بغير لف أو دوران :

ـ هل تريد أن تقول ان هذه الفكرة تصدق علينا واننا فى نظـرك اشتراكيون ؟

ولكن قبل أن يهتدى بطرس الكسندروفتش الى جـواب يقوله ، فُتح الباب وظهر دمترى فيدروفتش بعد تأخر طويل جدا • كان الجمع قد أوشك أن يكف عن توقع وصوله ، حتى أن وصوله المفاجىء هذا قد أحدث فيهم شيئا من دهشة •

٦

لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل

إن دمترى فيدوروفتش ، وهو شاب فى الثامنة والعشرين من عمره ، قصير القامة لطيف الوجه، يبدو فى الواقع أكبر من سنه . انه نامى العضلات ، فاذا رآه الرائى أدرك أن له قوة جسمية كبيرة ، ومع ذلك فان فى قسمات وجهه شيئا مرضياً . هو نحيل المحيا خاسف الخدين ، فى لونه انعكاسات عليلة ضاربة الى صفرة . وان فى عينيه القاتمتين الواسعتين الجاحظتين تعبيراً غامضا مبهما ، رغم أن نظرته تبدو حازمة واثقة . وحتى حين يخرج عن هدوئه ويتكلم هائجاً، فان نظرته تبدو كأنها لا تطاوع حالته النفسية ولا تجاريها وانما هى تفصح فى كثير من الأحيان عن عواطف مختلفة قد لا تتفق والظروف القائمة فى بعض الأحوال . « ان من الصعب على المرء أن يعرف مايدور فى فكره » ، كذلك كان يقول عنه محدثوه من حين الى حين . وكان الناس اذ يلاحظون نظرته القاتمة الواجمة يدهشهم فى أحيان كثيرة جداً أن يروه ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ضحكاً كبيراً يدل على مشاعر فرحة مرحة يندفع فيها ويستسلم لها فى نفس اللحظة التى تتجهم فيها عيناه . على أن ما يظهر فى سحنته من مظهر المرض ليس فيه ما يدهش الآن أحداً : ان جميع الناس يعرفون الحياة المضطربة القلقة التى يعيشها

بمدينتنا فى الآونة الأخيرة « لاهياً قاصفاً مستهتراً » ، أو هم قد سمعوا عن ذلك ، وما من أحد يجهل أيضا درجة الاهتياج المرضى الذى وصل اليه في خصوماته مع أبيه بصدد أمور تتعلق بالمال ؛ حتى أن الناس فى مدينتنا قد تناقلوا عن ذلك قصصاً وحكايات ٠ والحق أنه بطبيعته غضوب، وأنه « مندفع مشوش » ، كما وصفه بذلك صادقاً كلّ الصدق قاضى الصلح سيميون كاتشالتيكوف أثناء أحد الاجتماعات ٠ ولقد كان فى ذلك اليوم يرتدى صدرة ذات أزرار أنيقة أناقة لا مأخذ عليها ، ويلبس قفازين أسودين ، ويحمل بيده قبعة عالية ٠ وكما يفعل كل عسكرى محال على الاستيداع منذ مدة قصيرة ، فقد أطال شاربه وحلق لحيته ، ودفع شعره القصير الى أمام على الصدغين ٠ وهو يمشى مشية حربية حازمة واسعة الخطى ٠

توقف على العتبة لحظة قصيرة ، وبعد أن أجال بصره على الحضور، اتجه نحو الشيخ قُدُماً ، لأنه أدرك أنه رب المنزل ، فحيّاه منحنياً له انحناءة كبيرة ، وطلب بركته ، فنهض الشيخ وباركه ، وقبّل دمترى فيدوروفتش يد الشيخ باحترام ، ثم قال مضطرباً اضطراباً شديدا بصوت يدل على الحنق والاستياء ، قال يشرح :

ـ أرجو أن تتفضلوا فتغفروا أننى جعلتكم تنتظرون هذه المدة الطويلة كلها ٠ ان الخادم سمردياكوف الذى أرسله «باتيوشكا» * قد أجاب عن أسئلتى الملحة مرتين بلهجة الواثق أن الاجتماع قد حُدِّدت له الساعة الواحدة بعد الظهر ٠ وهأنذا أعلم الآن أن ٠٠٠

قاطعه الشيخ قائلا :

ـ اطمئن ٠ ليس الأمر بذى بال ٠ لقد تأخرت قليلاً ، ولكن ليس لهذا التأخر من خطورة ٠٠٠

ـ أشكر لكم تسامحكم • ولقد كنت أعوّل على هذا التسامح لما أعرفه عنكم من طيبة •••

قال دمترى فيدوروفتش ذلك وحيًّا مرة أخرى ، ثم التفت نحو أبيه (« باتيوشكا ») فجأة ، فحيّاه تحية فيها ما كان فى تحيته للشيخ من انحناء شديد واحترام عظيم • واضحٌ أنه كان قد هيأ هذه التحية سلفاً ، وأعدّها مقدماً ، وأنه فعل ذلك صادقاً مخلصاً ، لأنه يرى أن من واجبه أن يبرهن بهذه البادرة على احترامه وحسن نياته • وقد بوغت فيدور بافلوفتش وبهت ، ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه فاذا هو يهب واقفاً فيرد تحية ابنه بمثلها • لقد اكتسى وجهه على حين فجأة تعبيرا رصيناً مفرطاً فى التصنع ، فما زاده ذلك الا خبثاً وشراً • وبعد أن حيا دمترى فيدوروفتش سائر الحضور فى الحجرة بانحناءة واجدة صامتة ، اتجه نحو النافذة سائراً بخطاه الواسعة الحازمة ، وجلس قرب الأب بائيسى ، على المقعد الوحيد الذى كان لا يزال خالياً • ومال بصدره الى أمام ، متهيئاً لمتابعة المناقشة التى قطع حبلها •

ان وصول دمترى فيدوروفتش لم يستغرق أكثر من دقيقتين، وكان لا بد أن تُستأنف المناقشة بعد ذلك فوراً، ولكن ميوسوف لم يرَ فى هذه المرة أن من واجبه أن يرد على السؤال الملح الذى طرحه الأب بائيسى والذى يكاد يكون مزعجاً •

قال بشىء من الاهمال الذى يُعرف به أبناء المجتمع الراقى :

ـ اسمح لى أن لا أتعرض لهذه النقطة • ثم ان المسألة معقدة جدا من جهة أخرى • وأنا ألمح أن ايفان فيدوروفتش يبتسم وهو ينظر الينا، فلعله يخفى آراء أصيلة طريفة فى هذا الموضوع ، فاتجه بالسؤال اليه ان شئت •

فأجاب ايفان فيدوروفتش على الفور قائلا :

ـ ليس لدى شيء خاص أقوله ، الا ملاحظةً ثانوية . ان اللبراليين في أوروبا ، كسائر هـــواة اللبرالية في روسيا ، يخلطون في كثير من الأحيان ، ومنذ زمن طويل جداً ، بين الأهداف القصوى التي ترمي اليها الاشتراكية وبين الغايات التي ترمي اليها المسيحية . وهذه النتيجة الغريبة العجيبة هي مع ذلك الصفة التي تتميز بها طريقتهم في التفكير . ويبدو من جهة أخرى أن هذا الخلط بين الاشتراكية والمسيحية لا ينفــرد به اللبراليون وهواة اللبراليـــة ، وانما هو يحـــدث كثيرا في أذهان رجال الشرطة، أقصد رجال الشرطة في البلاد الأجنبية . وان حكايتك الباريسية هي من هذه الناحية ذات دلالة هامة يا بطرس ألكسندروفتش .

فكرر بطرس الكسندروفتش كلامه الأول قائلاً :

ـ أرجوكم مرة أخرى أن تعفوني من معالجة هـــذا الموضوع ، وانما أنا أؤثر أيها السادة أن أقص عليكم حكاية أخـــرى شائقة جدا ومميّزة جداً ؛ والحكاية في هذه المرة تتصل بايفان فيدوروفتش . لقد كان ايفان فيدوروفتش منـــذ ما لا يزيد على خمسة أيام ، في مجتمع يتألف خاصةً من سيدات من هذه المدينة ، فأعلن صراحةً أثناء مناقشة جرت بين الحضور أنه ما من شيء في هذا العالم يمكن أن يجبر البشر على أن يحبوا أقرانهم ، وأنه ما من قانون طبيعي يفرض على الانسان أن يحب الانسانية ،فاذا كان قد وجد وما يزال يوجد على هذه الأرض شيء من الحب ، فليس مرد ذلك الى قانون طبيعي ، بل الى سبب واحد هــو اعتقاد البشر بأنهم خالدون . حتى لقد أضاف ايفان فيدوروفتش الى ذلك عابراً أن هذا الاعتقاد هو في الواقع الأساس الوحيد لكل قانون أخلاقي طبيعي ، فاذا فقدت الانسانية هــذا الاعتقــاد بالخلود فسرعان ما ستغيض جميع ينابيع الحب ، بل وسرعان ما سيفقد البشر كل قدرة على مواصلة

SS

حياتهم في هـــذا العالم • أكثر من ذلك أنه لن يبقى هنالك شيء يعـــد منافيـاً للأخلاق ، وســـيكون كل شيء مباحاً ، حتى أكل لحوم البشر • بل لقد مضى الى أبعد من هذا أيضاً فقال أخيراً ان القانون الأخلاقي للطبيعة يتغير وجهه فوراً في نظر كل فرد ـ في نظرنا نحن مثلاً ـ متى كان هذا الفرد لا يؤمن بالله ، وان القانون الأخلاقي للطبيعة يأمر عنـدئذ بنقيض ما سلـّم به الدين من قبل وما جاء في تعاليم الدين من قبل ، فاذا بالانانيه التي تمضي الى حد الجـــريمة لا تصبح مباحةً للانســان فحسب ، بل تصبح كذلك مشروعة وضرورية من حيث أنها المخرج الوحيد المعقول، بل والمخرج الوحيد النبيل • ففي وسعكم اذن أيها السادة أن تحكموا بهذه المفارقة على الآراء الأخرى التي يراها عزيزنا الخيالي الكبير والسفسطائي العظيم ايفان فيدوروفتش ، سواء آراؤه التي سبق أن أعلنها وآراؤه التي لعله ما يزال ينوي أن يعلنها •

هتف دمتري فيدوروفتش يقول دون أن يكون هذا في حسبان أحد البتة :

ـ اسمح لي ! هل ما سمعته منك هو « أن الجريمة يجب أن لا تعد مباحةً فحسب ، بل يجب أن تعدَّ كذلك ، في نظر كل ملحد ، هي المخرج المعقول الذكي من وضعه ؟ » •

قال الأب بائيسي :

ـ تماما •

فقال دمتري فيدوروفتش :

ـ انني أسجل هذا •

وبعد أن نطق دمتري فيدوروفتش بهذه الكلمات صمت فجأة ، كما تكلم فجأة • فنظر اليه جميع الحضور بكثير من الفضول •

واتجه الشيخ فى تلك اللحظة الى ايفان فيدوروفتش يسأله :

ـ هل يمكن أن يكون فى تقديرك ان زوال اعتقاد الناس بخلود الروح ستكون له هذه النتائج ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش :

ـ نعم ، ذلك هو الرأى الذى ذهبت اليه ، فعندى أنه لا فضيلة بلا خلود .

ـ ان الذى يفكر على هذا النحو هو أحد اثنين : فاما سعيد جدا واما شقى جدا .

فسأله ايفان فيدوروفتش مبتسما :

ـ ولماذا أكون شقيا جدا ؟

فقال له الشيخ :

ـ لأن أغلب الظن عندى انك لا تؤمن أنت نفسك لا بخلود الروح ولا بشىء مما كتبته عن الكنيسة وعن المسألة الاكليركية .

فقال ايفان فيدوروفتش يعترف هذا الاعتراف الغريب وقد احمر وجهه على حين فجأة :

ـ قد تكون على حق ... ولكننى لم أعبث الا نصف عبث ، لم أمزح الا نصف مزاح !

ـ أعلم أنك لم تمزح الا نصف مزاح . فان هذه المسألة لمّا تُحلّ فى قلبك حلاً حاسماً بعد ، وهى ما تزال تعذبك . ان الذين يعانون هذا العذاب يحبون أحياناً أن يعبثوا بعذابهم ، وتلك طريقة فى التعبير عن كربهم ويأسهم . وهذا ما تفعله أنت . فانك ليأسك تلهو الآن بكتابة

مقالات فى الجرائد ، أو بالاندفاع فى مناقشات فى الصالونات ، دون أن تكون مؤمناً بجدلك نفسه ، حتى أنك تسخر من هذا الجدل فى سرك متألماً ... ان هذه المسألة لم تحسم فى نفسك بعد . وذلك هو مصدر عذابك الكبير ، لأن هذه المسألة تقتضى الحل حتماً ...

فقال ايفان فيدوروفتش يسأل الشيخ وقد تغيرت سحنته تغيراً غريباً وحدّق الى الشيخ مبتسماً ابتسامة لا يُعرف معناها :

ـ وهل من سبيل لى الى حلّها ؟ هل يمكننى أن أحلها ايجاباً ؟

ـ اذا لم تتوصل الى حسمها ايجاباً ، فلن تتوصل كذلك الى حلها سلباً ، وذلك بسبب قانون فى قلبك تعرفه حق المعرفة : وذلك هو بعينه عذابك . اشكر لله مع ذلك أنه وهب لك نفساً سامية قادرة على أن تعانى ألماً كهذا الألم : « ان الذكاء المتفوق يبحث عن الحقيقة فى الأعالى ، لأن وطننا فى السموات » . أسأل الرب أن يهب لك القدرة على أن تجد فى قلبك حلاً لهذا الصراع أثناء حياتك على هذه الأرض ، وأن ترافقك بركته طوال طريقك .

قال الشيخ ذلك ومدّ يده يريد أن يرسم ، وهو فى مكانه ، اشارة الصليب على ايفان فيدوروفتش ، ولكن ايفان نهض فجأة فاقترب من الشيخ وتلقى مباركته ، ثم قبل يده وعاد يجلس فى مكانه دون أن ينطق بكلمة واحدة . كان وجهه فى تلك اللحظة يعبر عن صلابة وجد ورصانة. ان هذه البادرة التى قام بها وان تلك الكلمات التى تبادلها مع الشيخ والتى كانت لا تُتوقع أبداً من ايفان فيدوروفتش ، ان ذلك كله قد أحدث فى جميع الحضور أثراً قوياً ، وفاجأهم بما يشتمل عليه من سر ويشيع فيه من أبهة . ساد الصمت بضع لحظات ، بينما كان وجه أليوشا يفصح عن اضطراب يوشك أن يكون جزعاً . ولكن ميوسوف

بدد فجأة هـذا الجو الأخّاذ اذ رفع كتفيه مستهزئاً ، ثم اذا بفيـدور بافلوفتش يهب عن مقعده بسرعة فيقول للشيخ مشيراً الى ايفان فيدوروفتش:

ـ أيها الشيخ المقدس الرباني ! هذا ابنى ، هذا فلذة كبدى ، هذا ولدى الحبيب ! انه أعلى أبنائى قدراً وأكثرهم احتراماً ؛ هـو من نوع كارل مور قليـلاً ان شئت ... أما الذى وصـل الآن ، أما دمترى فيدوروفتش هذا الذى جئت أستعين بك عليه ، فانه أدناهم قدراً وأقلهم احتراماً ، انه صنو فرانتس مور ومنافسه . انك تعرف هذين البطلين من أبطال مسرحية شيلر « قطاع الطرق » ، وأنا من جهتى أشبّه نفسى فى هذه القصة بجراف فون مور * . فانظر فى الأمر واقض فيه ! انقذنا ، فنحن فى حاجة لا الى دعواتك وصلواتك فحسب ، بل الى نبوءاتك أيضا .

قال الشيخ بصوت ضعيف منهك مكدود :

ـ لا تتكلم كما يتكلم انسان طائش العقل ، دعك من التهريج ، ولا تهن أهلك قبل أية مناقشة !

كان واضحاً أن التعب يستولى على الشيخ ، وأن قواه تبارحه شيئاً بعد شيء .

هتف دمترى فيدوروفتش واثباً عن كرسيه بحركة استياء واستنكار، هتف يقول :

ـ هذه مهزلة كريهة ! لقد كنت أوجس هذا وأنا آت الى هنا . مغفرةً أيها الأب المحترم ! (كذلك قال دمترى بافلوفتش للشيخ) . أنا امرؤ ضئيل الحظ من التعليم ، حتى اننى أجهل اللقب الذى يجب أن أناديك به . لقد خـدعوك وغرروا بك ، فكنت ضـحية طيبة نفسك وصفاء سريرتك حين أذنت بأن تجمعنا هنا . ان أبى لا يسـعى الا الى الفضيحة والجرسة ... أما هدفه من ذلك ، فلا بد أنه يعرفه ... ان

في كل عمل يقوم به حساباً يجريه • وأظن مع ذلك انني أحزر مايضمر من نيات خفية في هذه الساعة !

صاح فيدور ايفانوفتش هو أيضا يقول :

ـ انهم جميعا يتهمونني • هم جميعا يناصبونني العداء • وبطرس الكسندروفتش يتهمني أيضا •••

أضاف ذلك وهو يلتفت نحو ميوسوف ، مع أن ميوسوف لم يخطر بباله أن يقاطعه ، وتابع كلامه يقول مخاطبا ميوسوف :

ـ نعم يا بطرس الكسندروفتش ! لقد اتهمتني • هم يأخذون عليّ أنني سلبت أولادي ثروتهم ، واغتنيت على حسابهم • أليس هناك اذن محاكم ؟ انني ألقي عليكم هذا السؤال • هلا اتجهت الى المحاكم يادمتري فيدوروفتش فتقول لك عندئذ ، بالاستناد الى الايصالات التي وقعتها ، والرسائل التي أرسلتها ، والاتفاقات التي أبرمتها ، ما هو مقدار ميراثك ، وما هو المبلغ الذي بددته ، وكم بقي لك ؟ لماذا يرفض بطرس الكسندروفتش أن يقضي في خلافنا هذا ؟ ليس دمتري فيدوروفتش شخصاً أجنبياً عنه ، فلماذا يرفض ؟ سأقول لكم لماذا يرفض : لأنهم جميعاً يناصبونني العداء ، مع أن دمتري فيدوروفتش ما يزال مديناً لي بمال في آخر الحساب ! هو المدين لي ، وليس ديني عليه مبلغاً زهيداً بل هو ألوف الروبلات ، أستطيع أن أثبت ذلك بوثائق في يدي ! ان حياة القصف واللهو والتبذير التي يعيشها تترجع أصداء اشاعتها في مدينتنا كلها ؟ وهو منذ كان في الجيش قد تعود أن يرمي ألف روبل أو ألفين في سبيل أن يقضي على عفاف البنات الشريفات ! هه ••• انني أعرف هذا يا دمتري فيدوروفتش ••• انني أعرف أدق التفاصيل الخفية ، وأستطيع أن أبرهن على ذلك عند الحاجة ! ••• فاعلم هذا اذن أيها

الأب المقدس جدا : لقد أفسد دمترى فيدوروفتش أخلاق أنبل فتاة من الفتيات ، فتـاة تنتمي الى أسرة كريمـــة غنية كان أبوها رئيسه ، وهو كولونيل شهم شجاع مُنح لمزاياه وساماً رفيعاً هو صليب القديسة حنا مع سيوف ! لقد أفسد دمترى فيدوروفتش طهارة تلك المخلوقة البريئة اذ خطبها ، وها هى ذى الآن تقيم فى مدينتنا كتيمة مع أنها خطيبته ، بينما هو يتردد أمام بصرها على امرأة من النساء « الساحرات » يعرفها الناس عندنا حق المعرفة • ولكن هذه المرأة الساحرة ، رغم أنها قد عاشت بما يشبه الزواج المدنى مع رجل محترم جدا ، هى قلعة حصينة لا يمكن الوصول اليها ــ كزوجة شرعية تماما ــ لأنها امرأة فاضلة ، نعم فاضلة ••• يمينا انها لفاضلة ! هى الفضيلة بعينها أيها الآباء المبجلون ! غير أن دمترى فيدوروفتش يريد أن يقتحم هذا الحصن بمفتـــاح من ذهب ، وذلك هو السبب فى هجومه علىّ الآن ، لأنه يأمل أن يسلبنى مالاً • وبانتظار ذلك أنفق على هذه الساحرة حتى هذه اللحظة ألوف الروبلات، وهو ما ينفك يستدين من أجلها مالاً بعد مال • انه يستدين ، وهـــلْ تعلمون ممن يستدين ؟ تخيلوا ! أأقول يا ميتيا ؟

قال دمترى فيدوروفتش بصوت مدوٍ :

ــ صـــه ! انتظر حتى أخرج من هنا ، لأننى لن أســـمح لك بأن تدنس أثناء وجودى سمعة أنبل فتاة ! ان تجرؤك وحده على الالماع اليها اهانة لشرفها ••• لا لن أطيق هذا !

كان دمترى فيدوروفتش يختنق غضباً وحنقاً •

قال فيدور بافلوفتش فيما يشبه الأنين وهو يحاول أن يمنع انسكاب دموعه :

ــ ميتيا ، ميتيا ! ورضى الأب على ابنه ، ما عساك فاعلاً به ؟ ما عسى يحدث لو لعنتك ؟



ديمتري كارامازوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

فزأر دمترى فيدوروفتش يقول وقد جُن جنونه غيظاً :

ــ ممثل هزلى وقح !

فقال فيدور بافلوفتش :

ــ انظروا كيف يعامل أباه ! انظروا كيف يعامل أباه ! وهو فى معاملة الآخرين أسوأ من ذلك أيضاً . اسمعوا هذا أيها السادة : فى مدينتنا رجل فقير ولكنه محترم ؛ هو رائد (كابتن) محال على التقاعد . لقد نزلت بهذا الرجل مصائب ، واضطر أن يستقيل من الجيش ، غير ان كل شيء قد جرى مجرى رفيقاً ، فلا تشهير به ولا حكم عليه ، وظل شرفه سليماً لم يمسسه أذى ولم ينله سوء . وهذا الرجل يعيل أسرة كبيرة . فهل تعلمون ما صنع به دمترى فيدرووفتش منذ ثلاثة أسابيع ؟ لقد أمسكه من لحيته فى احدى الخمارات ، وجرّه الى الشارع وهو ما يزال ممسكاً لحيته ، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً على مرأى ومسمع من جمهرة الناس ! كل ذلك لأننى عهدت الى هذا الرجل سراً ببعض الأمور فى قضية صغيرة ! ...

قال دمترى فيدوروفتش وقد أخذ جسمه كله يرتعش حنقاً :

ــ هذا كذب ! هذا كله كذب ! هو حقيقة فى الظاهر كذب فى الباطن ! اننى لا أحاول أن أسوّغ هذا العمل الذى قمت به ، بل اننى تصرفت مع هذا الكابتن تصرف حيوان كاسر مفترس ، واننى نادم على ما بدر منى كل الندم ، واننى أشعر بالخزى والعار من ذلك الغضب المسعور الذى استبد بى . ولكن ذلك الكابتن ، ذلك الرجل الذى تقول انك عهدت اليه ببعض الأعمال، انما ذهب الى تلك التى وصفتها منذ هنيهة بأنها ساحرة ، فكلمها باسمك ، وعرض عليها أن تشترى السندات التى وقعتها لك ، وأن تلاحقنى لدى القضاء ، من أجل أن أودَع السجن

متى أصبحت أزعجك بمطالبى فيما يتعـــلق بتصفية حساباتنا • فكيف تجرؤ أن تأخذ عليّ اليوم أننى أميل الى هذه المرأة على حين أنك سألتها أنت نفسك أن تجتذبنى اليها ! ثم انها لا تجد أى حرج فى أن تقص هذا على جميع الناس ، ولقد روته لى أنا أيضا ، ساخرةً منك متهكمـة عليك ! ولئن كنتَ تريد أن تُدخلنى السجن فليس لهـــذا الا سبب واحد على كل حال ، هو أنك تغار منى ، لأنك حاولت أن تزعج هــذه المرأة بحبك ! ذلك أمر أعرفه أيضا ! هى التى روته لى ضاحكةً عليك، هل تسمع ؟ ضاحكةً عليك ، مستهزئةً بك ! تلكم هى ، أيها الباركون، حقيقة هذا الرجل ، تلكم هى حقيقة هذا الأب الذى يظهر امتعاضه من سوء سلوك ابنه ! أيها السـادة الذين شـهدتم هذا المشهد ، اغفروا لى ما أظهرت من عنف ! لقد أوجست سـلفاً ، وا أسفاه ، أن هذا العجوز الوقح انما جمعكم كلكم هنا من أجل أن يحدث وقيعة وأن يثير مشاجرة أما أنا فلقد جئت على نية الصـفح والمغفرة اذا مدَّ اليَّ يده ، وعلى نيـة نسيان الاسـاءة التى ألحقها بى ، والشر الذى نالنى به ، وعلى نية طلب الصـفح والمغفرة كذلك • أما وأنه أهاننى الآن ثم لم يكتف بذلك بل تجرأ على أن يهين أنبل فتاة ــ وهى فتاة أتحاشى أنأذكر اسمها فى غير طائل ، لأننى أحترمها احتراماً دينياً ــ فقد قررت أن أفضح لعبته الحقيرة على رءوس الأشهاد ، رغم انه أبى •••

لم يسـتطع دمترى فيدروفتش أن يتـابع كلامه • كانت عيناه تقدحان شرراً ، وكان تنفسه صعباً شاقاً • وكان جميع الحضور من جهة أخرى مضطربين أشد الاضطراب • وقد تجهم وجها الراهبين الكاهنين ، ولكنهما ينتظران قرار الشيخ • ولم يكن الشيخ قد تحرك • كان وجهه مصفراً اصفراراً رهيباً ، لا من انفعال ، بل من ضعف مرده الى المرض• ان ابتسامة ضارعة تطوف على شفتيه • وهـو من حين الى حين يهمُّ ان

يرفع يده ليهدىء روع هؤلاء الممسوسين ، وكان يمكنه فى الواقع أن يضع حداً لهذا المشهد بحركته • ولكن كان يبدو أنه ينتظر هو نفسه شيئاً ما ، فكان يراقب المتحادثين بانتباه مشدود ، كأنه يحاول أن يفهم مزيداً من الفهم ، كأنه يحاول أن يدرك عنصراً فى الموقف ما يزال خافيا عنه مستعصيا على فهمه • وأخيرا شعر بطرس الكسندروفتش ميوسوف بأنه أُذل اذلالاً عميقا ، وأنه جُلِّل بالخزى والعار • قال بحرارة :

ـ اننا جميعا نتحمل قسطاً من تبعة هذه الجرسة ! كيف كان يمكننى أن أتنبأ بشىء من هذا حين جئت الى هنا ؟ غير أننى كنت أعرف مَنْ هذا الرجل •• يجب أن ينتهى هذا الأمر فورا ••• أيها الأب المبجَّل ، ثق أننى لم أكن على علم دقيق بالتفاصيل التى كُشف عنها الآن • لقد كنت أرفض أن أصدِّقها ، وانما عرفتها فى هذه اللحظة لأول مرة ••• أبٌ يغار من ابنه على امرأة سيئة الخلق ، ويتفق مع هذه المخلوقة على زج ابنه فى السجن ••• هؤلاء هم الناس الذين اضطررت أن أجىء معهم اليك • لقد غُرِّر بى ، فأريد أن أصرِّح علانية أننى قد غُرِّر بى وخدعت كما خُدع غيرى •••

أعول فيدور بافلوفتش يخاطب ابنه بصوت ليس مألوفاً فيه :

ـ دمترى فيدوروفتش ! لو لم تكن ابنى لناديتك الى المبارزة فورا •• بالمسدس •• على مسافة ثلاث خطوات •• والأعين معصوبة •••

ثم كرر يقول وهو يقرع الأرض بقدميه :

ـ نعم ، والأعين معصوبة ! •••

ان الكذابين العريقين الذين ظلوا طوال حياتهم يمثّلون يبلغون أحيانا من عمق تشبعهم بالدور الذى يمثلونه أنهم يرتعشون انفعالاً

ويبكون ، رغم قدرتهم على أن يقولوا لأنفسهم في الوقت نفسه (أو بعد بضع دقائق) : أنت تكذب أيها الكاذب العريق ! أنت تمثل حتى في هذه اللحظة ، رغم غضبك « المقدس » ورغم هذه الدقيقة « المقـدسة » من الحماسة والاندفاع • » •

قطّب دمترى فيدوروفتش حاجبيه ، وأظلم وجهـه ، ورشق أباه بنظرة ثابتة فيها احتقار لا يوصف • ثم قال بصوت رفيق مكظوم :

ـ ما كان أغباني حين اعتقدت ، حين أمّلت وأنا أعود الى مدينتي التي رأيت فيها النور ، بصحبة هذه الملاك ، خطيبتي ، أنني سأستطيع أن أجمّل أيامه الأخيرة ، فاذا أنا لا أرى فيه الا رجلاً فاسقاً فاجراً ، وممثلاً دنيئاً خسيساً !

زأر العجوز يقول من جديد ، وقد تقطعت أنفاسه وأخذ اللعاب يتدفق من فمه عند كل كلمة ينطق بها :

ـ الى المبارزة ! أما أنت يا بطرس الكسندروفتش ميوسوف فاعلم أيها السيد أن أسرتنا كلهـا لعلها لم تضم ولن تضم في يوم من الايام امرأة أنبل ولا أشرف ـ نعم ولا أشرف ، هل فهمت ؟ ـ من هذه المرأة التي وصفتها أنت في غير تحرج ولا حياء بأنها « مخلوقة » ! وأما أنت يا دمترى فيدوروفتش ، فقد هجرت خطيبتك في سبيل هذه «المخلوقة»، وبذلك اعترفت بأن هذه الفتاة التي هي خطيبتك لا ترقى الى مسـتوى كعب حذائها • تلكم هي المرأة التي سميتموها « مخلوقة » !

صاح الأب جوزيف يقول فجأة :

ـ هذا خزي وعار !

وانبرى الفتى كالجانوف الذي لم يفتح فمه بكلمة واحـدة حتى ذلك الحين ، انبرى يقول فجأة بصـوته المراهق وهو يرتجف استياءً وامتعاضا واستنكارا :

ـ يا للفظاعة ! يا للشناعة !

وكان الفتى قد احمر احمرارا شديدا •

وزأر دمتری فیدوروفتش وقد بلغ ذروة الغضب ورفـــع كتفيه عاليتين كل العلو حتى ليكاد يبدو من ذلك أحدب الظهر ، زأر يقول في نوع من التخفف :

ـ لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل ؟ هلاّ قلتم لى ، هلا قلتم لى هل يجوز أن ندع له أن يدنس الأرض برذائله مدة أطول ؟

سأل دمترى فيدوروفتش هذا السؤال وهو ينظر الى جميع الحضور واحداً بعد واحـــد ، مومئاً الى أبيه بيـــده • وكان يتكلم ببطء مقطّعاً ألفاظه •

هتف فيدور بافلوفتش يقول متهجماً على الأب جوزيف :

ـ هل سمعتم أيها الرهبـــان ، هل سمعتم ما يقـــوله قاتل أبيه ؟ ذلك هـــو جوابه على قولك « هـــذا خزى وعار ! » • هلاّ قلت لى أين الخزى والعار ؟ ان هـــذه « المخلوقة » ، ان هذه « المـــرأة السيئة الخلق » ربما كانت أقدس منكما أيها السادة الرهبان الكهنة الذين تظنون أنكم تظفرون فى الدير بالسلامة والخلاص ! صحيح أنها سقطت فى شبابها ضحيةَ بيئتها ، ولكنها « أحبت كثيراً » ، والمسيح نفسه قد غفر للمرأة التى أحبت ••• *

قال الأب اللطيف جوزيف صابراً :

ـ المسيح لم يغفر من أجل ذلك الحب !

ـ بل من أجل ذلك الحب ، من أجل ذلك الحب نفسه أيها السادة الرهبان ••• نعم ، من أجل ذلك الحب نفسه • تحسبون أنكم تحققون

لأنفسكم السلامة والخلاص بأكل الكرنب الحامز ، وتظنـــون أنفسكم بررة تقاةً صالحين . تغتذون بالأسماك ، تغتذون بسمكة صغيرة في اليوم، وتتخيلون أنكم تخدعون الله بأسماككم هذه التي تأكلونها ! ...

ـ هذا لا يحتمل ولا يطاق ، هذا لا يحتمل ولا يطاق ... هذا لا يغتفر بحال من الأحوال .

كذلك أخذ الحضور يقولون في كل جهة من الجهات .

غير أن هذا المشـــهد الذي بلغ أوج الغلظة والحطة قد انتهى على نحو لم يكن في الحسبان : نهض الشيخ فجأة ، فهرع أليوشا الذي كاد يفقد صوابه من شدة خوفه على الشـــيخ وعلى أهله ، هرع يسنده من ذراعه . اتجه الشيخ نحو دمتري فيدوروفتش ، فلما وصل اليه هـوى يركع على ركبتيه . اعتقد أليوشا أن الشيخ قد سقط على الأرض ضعفاً ووهناً ، ولـكن الأمر لم يكن كذلك . فحين صار الشـــيخ راكعا على ركبتيه ، انحنى يحيي دمتري فيدوروفتش عامدا ، وبلغ من شدة انحنائه أن جبينه كاد يلامس الارض . دُهش أليوشا دهشة عظيمة نسي معهـا أن يمسك الشيخ بعد ذلك حين عاد الشيخ ينهض . وهذه بسمة صغيرة لا تكاد تُدرك ، تحرّك شفتي الشيخ . قال وهو ينحني لجميع ضيوفه في كل جهة من الجهات :

ـ معذرة ، معذرة ...

لبث دمتري فيدوروفتش جامدا من الذهول بضع لحظـــات : لقد ركع الشيخ أمامه ، فما معنى هذا ؟ وهتف يقول بعد لحظة :

ـ يا رب !

ثم أخفى وجهه بيديه ، وأسرع يخرج من الحجرة .

اتجه سائر الزوار وراءه نحو الباب ناسين من شدة اضطرابهم أن يستأذنوا صاحب الدار بالانصراف . واقترب الراهبان الكاهنان وحدهما من الشيخ يتلقيان مباركته .

ـ لماذا ركع ذلك الركوع ؟ أيكون هذا رمزاً الى شيء ؟

بهذا دمدم فيدور بافلوفتش وقد هدأ روعه فجأة وحاول أن يجرى الحديث بينه وبين صحبه دون أن يجازف مع ذلك فيخاطب واحدا بعينه منهم (كانوا يجتازون في تلك اللحظة نطاق الصومعة) .

فسرعان ما أجاب ميوسوف يقول بلهجة غضبى :

ـ لست مسئولاً عن ملجأ المجانين هذا وعن هؤلاء المجانين جميعاً لست أعبأ بحركاتهم ، ولكنني في مقابل ذلك سأعفى نفسى بعد الآن من صحبتك يا فيدور بافلوفتش ، وثق أن هذا سيكون الى الأبد . أين ذلك الراهب الصغير الذى استقبلنا منذ قليل ؟

ولكن « ذلك الراهب الصغير » ، وهو الذى كان قد دعاهم الى الغداء عند كبير الرهبان ، لم يدعهم ينتظرونه ، فما ان هبطوا درجات المدخل الذى تطل منه الصومعة على الحقول حتى كان قد اقترب منهم ، كأنه كان ينتظرهم هنالك طول الوقت .

قال له بطرس الكسندروفتش دون أن يستطيع التحكم بحنقه والسيطرة على غضبه :

ـ أيها الأب المحترم ، أرجو أن تنقل الى الأب كبير الرهبان احترامى العميق ، وأن ترجو سيادته أن يتفضل بأن يعذرنى ، أنا ميوسوف ، عن اضطرارى الى التخلف حتما ، بسبب ظروف طارئة لم تكن في الحسبان ، عن التشرف بتلبية دعوته الى الغداء رغم رغبتى القوية في تلبية هذه الدعوة الكريمة .

فأسرع فيدور بافلوفتش يتدخل قائلا :

ـ آ ... هذا أنا . الظروف الطارئة التي لم تكن في الحسبان هي أنا . اعلم أيها الأب الطيب أن بطرس الكسندروفتش قد سئم صحبتي ولولا ذلك للبى الدعوة بغير تردد . ولكنك سوف تذهب الى الدعوة يا بطرس الكسندروفتش ، ستتشرف بتناول طعام الغداء عند الأب كبير الرهبان ، وأنا أتمنى لك شهية طيبة وطعاما هنيئاً ! أنا الذي سأمتنع عن حضور الوليمة لا أنت ! هيَّا اذهبوا اليه ، أما أنا فأعود الى منزلي ، وآكل في داري ، لأنني لن أستطيع أن أبلع شيئا هنا ، هل فهمت يا بطرس الكسندروفتش ، يا قريبي العزيز جدا ؟

ـ أنا لست قريبك ، ولم أكن قريبك في يوم من الأيام أيها الانسان الدنيء !

ـ لقد تعمدت أن أقول لك قريبي لأزعجك ، فأنا أعلم أنك تخجل من هذه القرابة وتنكرها . ولكنك قريبي مع ذلك ، وفي وسعي أن أبرهن على هذا بصكوك الأحوال المدنية وتقويم القديسين . أما أنت يا ايفان فيدوروفتش فسأرسل اليك العربة لتعيدك الى المنزل فيما بعد ، فابق هنا ان شئت . ان اللباقة توجب عليك يا بطرس الكسندروفتش أن تذهب الى غداء الأب كبير الرهبان ، ولو لتعتذر اليه عن الفضيحة التي شاركنا فيها جميعا ...

ـ أصحيح أنك منصرف ؟ أأنت لا تكذب ؟

ـ كيف أجرؤ أن أحضر المأدبة بعد الذي حدث يا بطرس الكسندروفتش ؟ لقد اندفعت اندفاعا طائشا أيها السادة ، لقد نسيت نفسي ، فاغفروا لي ذلك . هذا الى أنني مضطرب ، وأنني أشعر بالخزي أيضا . أيها السادة ، ان لبعض الناس شجاعة كشجاعة الاسكندر الكبير ،

وان لبعضهم الآخر شـــجاعة كشجاعة الكلب الصـغير « أمين » . وأنا كالكلب « أمين » أشعر فجأة بخوف ووجل ، فكيف أجرؤ بعد الذى بدر منى أن أشارك فى هذا الغداء وأن ألعق مرق الدير ؟ اننى لا أستطيع ذلك ، ان شعورى بالخزى أكبر من أن أستطيع ذلك ، فاعذرونى !

« الشيطان وحده يعلم أهو يقول الحقيقة أم هو لا يزال يمثـل تمثيلا» بهذا حدّث ميوسوف نفسه وهو يتوقف عن السير ويتابع المهرّج الذى أخذ يبتعد ، بنظرةٍ فيها دهشة وحيرة . والتفت فيدور بافلوفتش الى وراء ، فلما لاحظ أن ميوسوف يراقبه أرسل اليه قبلةً باليد .

قال ميوسوف يسأل ايفان فيدوروفتش فجأة :

ــ أأنت ذاهب الى عند الأب كبير الرهبان ؟

ــ ولم لا أذهب ؟ ثم انه قد دعانى أمس دعوةً خاصةً ...

ــ المصيبة اننى أشعر بأننى أكاد أكون مضطراً حقاً الى حضور هذا الغداء اللعين ، على الأقل لنعتذر عن الفضيحة التى وقعت ، ولنشرح أننا لا نتحمل تبعتها . ما رأيك ؟

كذلك قال ميوسوف بلهجة هى تلك اللهجة المرة نفسها ، دون أن يعبأ بحضور الراهب الصغير الذى كان يصغى الى كلامه . فأجابه ايفان فيدوروفتش قائلا :

ــ صحيح . يجب أن نشرح أن التبعة لا تقع علينا نحن . وعلى كل حال ، لن يكون أبى معنا .

ــ أبوك ؟ ما كان ينقصنا الا أن يكون معنا ! يا للغداء اللعين !

مضى المدعوّن الى الغداء . كان الراهب الصغير يصغى الى حديثهم

صامتاً . واقتصر على أن قال لهم مرة واحدة حين اجتياز الغابة الصغيرة أن الأب كبير الرهبان ينتظرهم منذ زمن طويل وانهم تأخروا نصف ساعة . ولكن أحداً لم يجبه .

ألقى ميوسوف نظرة على ايفان فيدوروفتش ، وقال يحدث نفسه : « انه يحضر الغداء ، كأن شيئاً لم يحدث ! رأس عنيد ، وضمير كارامازوفي ! » .

٧

طالب اللاهوت

قاد أليوشا شيخه الى المهجع وأجلسه على السرير • هى حجرة صغيرة جـدا لا تضم من الأثاث الا ما لا غنى عنه • السرير صغير من حديد ، عليه قطعة من لباد تقوم مقام فراش • وفى ركن من الأركان ، قرب الأيقونات ، منضدة صغيرة عليها صليب وانجيل • تهالك الشيخ على السرير منهوك القوى • كانت عينـــاه تلتمعان وكان تنفسه ثقيلاً • فلما جلس ، ألقى على أليوشا نظرة طويلة منتبهة ، كأنه يفكر فى أمره ، ثم قال له :

ــ اذهب يا عزيزى ، اذهب • يكفى بروفير لمساعدتى • أسرع • هم فى حاجة اليك هناك • اذهب الى الأب كبير الرهبان ، واحضر ذلك الغداء لتخدم على المائدة •

فقال أليوشا بصوت متوسل ضارع :

ــ اسمح لى أن أبقى قربك !

ــ أنت هناك أفيد ! ليس بينهم هناك سلام • سوف تخدمهم ، وقد يكون فى حضورك خير لهم • اذا استيقظت الشياطين فاتل دعاءً • واعلم

أيضا يا بني العزيز جدا (كان يحلو للشيخ أن يناديه بهذا) أن مكانك ليس هنا بعد اليوم • تذكر ما أقوله لك أيها الشاب : متى تفضل الرب فدعاني اليه ، اترك أنت هذا الدير ، واذهب ، اذهب تماما !

ارتعش أليوشا • فقال له الشيخ :

ـ فيم اضطرابك ؟ مكانك ليس هنا الآن • انني أبارك بدايتك العظيمة في هذا العالم ، ذلك أن هناك أشياء كثيرة ما يزال عليك أن تعرفها وأن تعانيها في الحياة • وسيكون عليك أن تتخذ لنفسك امرأة ، يجب أن تتزوج • ان عليك أن تتألم كثيرا وأن تقاسي كثيرا قبل أن تستطيع العودة الى هنا • لن تخلو حياتك من الأثقال والأعباء • ولكنني لا أشك فيك • ومن أجل هذا انما أرسلك • المسيح معك • فاعرف كيف تحافظ عليه في نفسك ، ليحميك ويحرسك • ان آلاماً كبيرة تنتظرك ، ولكنك ستعرف السعادة في العذاب • اليك نصيحتي ، اليك وصيتي : ابحث عن الفرح في التجربة • اعمل ، اعمل بغير هوادة • تذكر ما أقوله لك اليوم ، ذلك أنني أعلم ، ولو أتيح لي أن أتحدث اليك مرة أخرى ، أن أيامي بل ساعاتي أصبحت بعد الآن معدودة •

عبرّ وجه اليوشا مرة أخرى عن انفعال عنيف • وأخذ طرفا شفتيه يرتعشان •

سأله الشيخ وهو يبتسم ابتسامة عذبة رفيقة :

ـ ما بك أيضاً ؟ فليسكب أبناء هذا العالم دموعاً على موتاهم • أما نحن هنا فاننا نغتبط مع الأب الذي يبارحنا الى العالم الآخر ، نبتهج معه ونصلي له • دعني الآن • يجب علي أن أصلي • هيّا أسرع • ابق قرب أخويك ، لا قرب واحدٍ منهما ، بل قربهما كليهما •

ورفع الشيخ يده ليباركه • كان يستحيل على أليوشا أن يعصي أمر الشيخ مهما تكن رغبته في البقاء معه قوية • وكان يحترق توقاً الى سؤاله عمّا تدل عليه أو تعلن عنه تحيته لأخيه دمتري ساجداً • وكان هـذا السؤال على طرف لسانه ، ولكنه لم يجرؤ أن ينطق به • انه يعرف أن الشيخ كان سيشرح له هذا الأمر من تلقاء نفسه لو كان يقدّر أن ذلك في الامكان • أما وأنه لم يفعل ، فمعنى ذلك أنه لا يريد أن يفعل • غير أن تلك التحية قد أحدثت في نفس أليوشا تأثيراً قوياً جدا : كان أليوشا مقتنعاً بأن لهذه التحية دلالة خفية ومعنى سرياً • ان هذه الحركة التي قام بها الشيخ تبدو له مثقلة بالسر ، وربما كانت مثقلة بالهول • ولما خرج من نطاق الصومعة حاثاً خطاه من أجل أن يصل الى الدير قبل ابتـداء الغداء عند كبير الرهبان (من أجل أن يخدم على المائدة لا أكثر ، طبعا)، انقبض صدره فجأة وتوقف عن السير لحظة : لقد عادت تدوّي في نفسه كلمات الشيخ التي يعلن فيها أن نهايته قد قربت • ان ما يتنبأ به الشيخ بمثل هذه الدقة وهذا التحديد لا بد أن يقع • هـذه في نظر أليوشا حقيقة مقدسة • فما عسى تصير اليه حاله وحيدا بعد موت الشيخ ؟ كيف يعيش دون أن يراه ودون أن يسمعه ؟ الى أين عساه يذهب ؟ أيمسك عن البكاء ويترك الدير ؟ يا رب ! ان أليوشا لم يشعر منذ زمن طـويل بمثل الذي يشعر به الآن من حـزن • أغذّ أليوشا خطاه وهو يقطع الغابة الصغيرة التي تفصل المنسك عن الدير ، واذ أحس بعجـزه عن احتمال خواطره التي كان ثقلها يسحقه سحقاً ، فقد أخذ يتأمل أشجار الصنوبر التي تبلغ أعمارها مئات السنين ، والتي تنتصب قائمة على جهتي الممر في الغابة • ليست المسافة بعيدة ؟ هي خمسمائة خطوة في أكثر تقدير ؟ وفي مثل هذه الساعة من النهار يندر أن يصادف المرء فيها أحداء ولكن ما ان بلغ أليوشا أول منعطف حتى لمح راكيتين على حين فجأة • كان يبدو على راكيتين أنه ينتظر •

سأله أليوشا حين أدركه :

ـ أتنتظرني أنا ؟

فأجابه راكيتين ضاحكاً :

ـ حزرتَ . أنت ذاهب الى الأب كبير الرهبان ، أعلمُ ذلك . ان عنده وليمة غداء . هل تعرف أنه منذ اليوم الذى استقبل فيه الأسقف الذى كان يصحبه الجنرال باخاتوف ـ هل تتذكر هذا ؟ ـ لم يعدّ مائدة تبلغ ما تبلغه مائدة اليوم من عناية ! لن أحضر أنا الغداء . اذهب اليه وحدك . قدّم المرق للضيوف . هناك سؤال يجب أن أطرحه عليك يا أليوشا : ما دلالة ذلك الرمز ؟ لقد انتظرتك من أجل أن ألقى عليك هذا السؤال .

ـ أى رمز تعنى ؟

ـ تلك التحية الساجدة أمام أخيك دمترى فيدوروفتش . لقد بلغ من السجود له أن جبينه صدم الأرض .

ـ هل تقصد الأب زوسيما ؟

ـ طبعا أقصد الأب زوسيما .

ـ صدم جبينه الأرض ؟

ـ أيكون فى هذا التعبير اخلال بواجب الاحترام ؟ طيب ... لنفرض أننى أخللت بواجب الاحترام . ولكن ما معنى ذلك الرمز ؟

ـ أجهل معناه يا ميشا .

ـ كنت أعلم أنه لن يشرحه لك . وليس فى الأمر شىء من سر طبعا . هى تلك الحركات التقية الجوفاء نفسها تتكرر . ولكن الشيخ

لم يمثل هذه يمثل هذه التمثيلية بغير نية يبيتها • ان جميع الثرثارين والاقليم سيتحدثون الآن في هذا الأمر وسيتساءلون : « ما دلالة هــذا الرمز على المستقبل ؟ بأي شيء يؤذن هــذا الرمز ؟ » • في رأيي أن الشيخ لا تعوزه حصافة الرأي ولا يعوزه نفاذ البصيرة • لقد أحس أن هناك جريمة سترتكب ، لقد شم هذه الرائحة • ان الروائح في منزلكم تنذر بشر مستطير •

ــ أية جريمة تقصد ؟

كان واضحا أن راكيتين يحاول أن يجد السبيل الى الافصاح عما يدور في رأسه ويجول في خاطره •

ــ في أسرتك انما سترتكب هذه الجريمة • ستقع هذه الجريمة بين أخويك وذلك الثرى أبيك • وبسبب ذلك انما صدم الأب زوسيما الأرض بجبينه • فاذا وقع شيء في ذات يوم قال الناس : « لقد تنبأ به ذلك الشيخ القديس ! » • ألا ما أسخفها من نبوءة أن يصدم المرء بجبينه الأرض ! ولكن الناس سيدعون أن ذلك كان رمزا ، وسيرفعون الشيخ الى السحاب ، وسيظلون يذكرون بغير انقطاع أنه تنبأ بالجريمة ، واكتشف المجرم • ان معتوهي القرية لا يفعلون الا هذا ؟ يرسمون اشارة الصليب أمام حانة ، ويرمون المعبد بالحجارة ! ألا ان شيخك ليشبههم : يطرد الصالح طرداً بالعصا ، ويسجد أمام قاتل •

ــ أية جريمة تقصد ؟ أي قاتل تعني ؟ أأنت مجنون ؟

قال أليوشا ذلك وتوقف ، فتوقف راكيتين أيضا ، وقال يسأل أليوشا :

ــ أية جريمة ؟ أتزعم أنك تجهل الجريمة التي أعنيها ؟ ألا انني أراهن على أنك فكرت في هــذا الأمر من قبل • وددت لو أعلم بهذه

المناسبة • اسمع يا أليوشا : انك تقول الحقيقة دائما ، رغم أنك جالس دائما بين كرسيين : أفكرت فى هذا الأمر من قبل أم أنت لم تفكر فيه ؟ أخطر ببالك أم لا ؟

أجاب أليوشا بصوت خافت :

ـ خطر ببالى :

فاضطرب راكيتين هو نفسه ، وهتف قائلا :

ـ ماذا ؟ خطر ببالك ؟ أهذا ممكن ؟

فتمتم أليوشا يقول :

ـ أقصد أننى ••• لم يخطر ببالى ••• ولكننى حين سمعتك تتكلم على هذا النحو الغريب جدا منذ هنيهة ، خيِّل الىَّ أنه خطر ببالى •

ـ أرأيت ؟ لقد عبَّرت عن نفسك تعبيراً واضحاً • أرأيت ؟ انك حين رأيت كيف اشتبك أبوك وأخوك اليوم قد خطرت ببالك الجريمة ! لم يخطىء اذن ظنى •••

فقاطعه أليوشا يقول قلقاً مهموماً :

ـ انتظر ، انتظر ! من أين أدركت هذا كله ؟ ••• ولماذا تهتم بالأمر هذا الاهتمام الشديد ؟ وددت لو أعرف ذلك أولا •••

ـ هذان سؤالان اثنان يتميز أحدهما عن الآخر ، ولكنهما سؤالان مشروعان ، وسأجيبك عن كل واحد منهما على حدة • فأما عن السؤال الأول وهو : من أين أدركت هذا كله ؟ فاننى أقول لك اننى ما كان لى أن أدرك شيئاً وما كان لى أن أحزر شيئاً لولا أننى فى لحظة معينة قد نفذت الى سريرة أخيك دمترى فيدوروفتش ، فرأيت ما فى نفسه بمثل

ومض البرق . لقد فهمت كل جوانب نفسه بفضل سمة من سمات طبعه . هناك بالنسبة الى رجال من نوع أخيك ، وهم رجال شرفاء في حقيقة أمرهم ، ولكنهم ميالون الى الملذات مقبلون على المباهج ، هناك حد يجب أن يتحاشى المرء تجاوزه في معاملتهم ، والا أصبحوا لا يتورعون حتى عن قتل أبيهم ! وأبوك رجل فاسق فاجر سكير عربيد لا يستطيع أن يسيطر على نفسه ، ولم يعرف القصد والاعتدال في شيء من الأشياء يوما ، فسينجرف الاثنان ، فتقع مصيبة في يوم من الأيام .

ـ لا يا ميشا ! اذا لم يكن ما تقصده الا هذا ، فأنت مخطيء ، وأنا أسترد تفاؤلي ، لن يمضيا الى هذا الحد .

ـ فلماذا أراك ترتعش اذن كورقة في مهب الريح ؟ اسمع : ان أخاك ميتيا رجل شريف ، أسلّم لك بذلك (هو غبي لكنه شريف) ، غير أنه يحب الملذات . ذلك أساس طبيعته ، وهو العنصر المسيطر في نفسه . وقد أخذ هذا عن أبيه الذي أورثه شهوانيته الخبيثة . انني لأستغرب في بعض الأحيان حين أنظر اليك يا أليوشا . كيف استطعت أن تحافظ على طهارتك ؟ كيف استطعت أن لا تقارب امرأة ؟ انك واحد من أسرة كارامازوف رغم كل شيء ... والميل الجامح الى اللذة قد أصبح في أسرتك مرضا فتاكا ، أصبح قرحةً في الروح ، أصبح سلاً مفترساً ! فانظر الى هؤلاء الشهوانيين الثلاثة الذين يرقب بعضهم بعضاً الآن ويتربص به مخفياً في كمه خنجراً . لقد تجابهوا هم الثلاثة أنفاً لأنف ، ولعلك ستصبح رابعهم .

ـ أنت مخطيء في موضوع تلك المرأة . ان دمتري يحتقرها ... كذلك قال أليوشا في تشنج . فأجابه راكيتين :

ـ من ؟ جروشنكا ؟ * لا يا صاحبي ... لا ... انه لا يحتقرها

البتة • يكفى أن تعلم أنه قادر على ترك خطيبته فى سبيلها حتى تصبح على يقين من أنه لا يحتقرها ذلك الاحتقار الذى تتصوره ! هناك شىء •• شىء لا تستطيع حتى الآن أن تدركه أيها الأخ ! حين يتوله بعض الرجال بحب امرأة جميلة ، ويعشقون جسدها ، أو حتى جزءا من جسدها (ويجب أن يكون المرء مترف الذوق ليفهم هذا) ، فانهم يصبحون قادرين على أن يضحوا بأولادهم فى سبيلها ، وأن يبيعوا أباهم وأمهم من أجلها ، وأن يخونوا روسيا ارضاءً لها ، وأن يبيعوا وطنهم لينالوا الحظوة لديها • قد يكونون شرفاء فاذا هم يسرقون ، وقد يكونون رقاقاً لطافاً انسانيين فاذا هم يقتلون ، وقد يكونون أوفياء أمناء فاذا هم ينسون ويغدرون • ان شاعرنا بوشكين الذى تغنى بالمفاتن الجسدية للمرأة ، قد مجَّد ساقيها الصغيرتين فى شعر * • وهناك آخرون لا ينظمون شعرا ولكنهم لا يستطيعون أن ينظروا الى هاتين الساقين الصغيرتين الا ويعتريهم من ذلك اضطراب عنيف • وليست مفاتن المرأة ساقين فحسب • لا أيها الأخ ، ان الاحتقار لا حيلة له فى ذلك ، هذا اذا سلمنا جدلا بأنه يحتقر جروشنكا • قد يكون صحيحا أنه يحتقرها ، ولكنه لن يستطيع بعد اليوم أن ينفصل عنها وأن يتحرر من أسرها •

أفلت لسان أليوشا يقول فجأة :

ـ أنا أفهم هذا !

فقال راكيتين وقد ظهر عليه فرح خبيث :

ـ هه ! لا بد أنك تفهمه فعلاً ما دمت قد اعترفت بذلك على هذا النحو منذ الكلمات الأولى التى نطقت بها • ولقد قلت قولك دون أن تريد ذلك ، وانما زلَّ به لسانك • وهذا يجعل لاعترافك قيمة أكبر ، فالموضوع ليس بالجديد عليك ، ولا شك أنك فكرت اذن فى اللذة !

ذلك هو اذن فتانا العف الذى احتفظ بطهارته ! أنا أعلم يا أليوشا أنك انسان رقيق القلب ، أنا أعلم أنك قديس . ولكن مهما تكن فتى نقياً بريئاً هادئاً فان الشيطان وحده يعلم ما الذى فكرت فيه ، وما الذى أصبحت تعرفه منذ هذه السن ! أنت فتى بكر طاهر الذيل ، ولكنك سبرت الأغوار السحيقة ... اننى ألاحظك وأرصدك منذ زمن طويل ! أنت واحد من أسرة كارامازوف ... أنت واحد من هذه الأسرة تاماً كاملاً ... ولا بد أن نؤمن بأن للعرق والوراثة أثراً رغم كل شيء.. أنت شهوانى من جهة أبيك ، بسيط من جهة أمك . مالى أراك ترتعد فجأة ؟ ربما لأننى أقول الحقيقة ؟ هل تعلم ماذا حدث ؟ لقد تضرعت الى جروشنكا منذ بضعة أيام قائلة : « جئنى به (كانت تتكلم عنك) ، فأخلع عنه ثوب الراهب الذى يرتديه ! » . ليتك تعرف كم ألحت : « جئنى به ، جئنى به ! » ولقد تساءلت ما الذى يجعلها تهتم بك هذا الاهتمام كله ، ما الذى يشوقها فيك الى هذا الحد ؟ ... هى امرأة خارقة ، صدقنى ...

قال أليوشا وهو يضحك ضحكة مصطنعة :

ـ بلغها تحيتى ، وقل لها اننى لن أجيء . أكمل ما كنت تريد أن تقوله يا ميشا ، وسأجيبك بعد ذلك .

ـ ما حاجتى الى مزيد من الكلام ؟ ان كل شيء واضح ! اذا كان فيك أنت انسان يحب اللذة والمتعة ، فما بالك بايفان ، أخيك من أبيك ؟ انه كارامازوف هو أيضاً ... ان مشكلة الاخوة كارامازوف جميعاً تكمن هنا : هم أناس شهوانيون ، أناس طماعون ، أناس بسطاء . ان أخاك ايفان يسلى نفسه الآن بنشر مقالات لاهوتية من باب الهزل ، خاضعاً فى ذلك لحساب لا أدرى ما هو ، لأنه فى حقيقته ملحد ، وهو لا يخشى أن يعترف بهذه الخطة وهذا الصغار ، أخوك الطيب ايفان ! ... وعدا

هذا يحاول أن يسلب أخاك ميتيا خطيبته ، وسيظفر بذلك فيما يبدو . كيف ؟ بموافقة ميتيا ... ان ميتيا مستعد لأن يتنازل له عنها ، بغية أن يتحرر منها بأقصى سرعة ، وأن ينصرف الى جروشنكا انصرافاً كاملاً . وهذا كله ـ لاحظ ذلك ـ لا يبث شيئا من الاضطراب في نفسه النبيلة المبرأة من المنفعة ! ان أمثال هؤلاء الرجال هم من أشد الناس خطراً . الشيطان وحده يعلم ماذا يجرى في نفوسكم . ان أخاك يعترف بحطته وصغاره ، ولكنه يسرع الى هذا الاعتراف فرحاً به كل الفرح . اسمع أيضاً : ان أباك ، العجوز الصغير ، قد وقف الآن يعترض طريق ميتيا . لقد أفقدته جروشنكا هذه صوابه ، وذهبت برشــده ، فمتى لمحها سال لعابه شبقاً . وبسببها وحدها انما أثار منذ قليل تلك الجرسة في حجرة الشيخ ، لأن ميوسوف قد سمح لنفسه بأن يصفها بأنها مخلوقة خالعة العذار . ان أباك مجنون جنونَ قط بقطة ... لقد استخدمها في الماضي بأجرٍ في شئون حقيرة من شئون الخمارات التي يديرها . فلما لاحظ ذات يوم أنها جميلة ، اشتعل اشتعالَ نار الهشيم على الفور ، وهو منذ ذلك اليوم يكد ويجهد في ملاحقتها ، ويحاصرها بعروضه ، عروضه الخسيسة طبعاً ... ولكن الأب اصطدم على تلك الطريق بالابن . وأما جروشنكا فهي لمّا تعزم أمرها بعد ، ولا قررت أيهما تختار ، وانما هي تمثل عليهما كليهما ، وتتسلى بالهاب نار غرامهما . انها مترددة تتساءل أيهما أنفع لها وأجدى عليها . فأما الأب فانها تستطيع أن تسحب منه مالاً ولكنه لن يتزوجها ، وهي تعلم ذلك ، حتى لقد يعود الى بخله بعد أن يكسب المعركة فيوصد دونها خزنته . وذلك هو السبب في أنها لا تهمل ميتيا ولا ترى أن عليها أن لا تحفل به ، فان كان ميتيا لا يملك مالاً فانه قادر على أن يتزوجها ، على أن يتزوجها تماماً ! يدع خطيبته ذات الجمال الذى لا يضاهى ، يدع كاترين ايفانوفنا ذات المحتد النبيل ،

ابنة الكولونيل ، ليصبح زوج جروشنكا التي كان يعيلها في الماضي تاجر عجوز ، فلاح فاسق ، اسمه سامسونوف ، هو عمدة المدينة • ذلك كله ظرف يمكن ان يؤدي حقاً الى جريمة • وهذا بعينه هو ما ينتظره أخوك ايفان • وهو يجني من ذلك فائدة من كل ناحية من النواحي : يظفر بكاترين ايفانوفنا التي يتوق اليها ، ويظفر ببائنتها التي تبلغ ستين ألف روبل ، وذلك أمر لايستخف به رجل صغير مثله لا يملك قرشا واحدا• لاحظ أيضا أنه لا يكون في هذا كله قد أساء الى ميتيا ، وانما يكون قد أحسن اليه احسانا يعتز به ••• انني أعلم من مصدر مطلع أن ميتيا ، وقد كان منذ أسبوع في احدى الخمارات ثملاً يقضي وقته مع نساء غجريات ، قد صرح بصوت عال أنه غير جدير بخطيبته كاتنكا* ، وأن أخاه ايفان هو الجدير بها حقاً • أما كاترين ايفانوفنا فمن المؤكد أنها لن تصمد مدة طويلة أمام رجل منو مثل ايفان فيدوروفتش ، حتى أنها منذ الآن مترددة بين الاثنين • ألا انني لأتساءل ما الذي تجدونه أنتم جميعاً في ايفان هذا حتى تفتنوا به هذا الافتتان ، وحتى تكونوا أمامه في حالة تشبه أن تكون وجداً ! صدقني اذا قلت لك انه يسخر منكم ويضحك عليكم جميعاً •

سأله أليوشا بلهجة جافة وهو يقطب حاجبيه :

ـ من أين عرفت هذه الأشياء كلها ؟ ولماذا تؤكدها هذا التأكيد القاطع الجازم واثقاً من صحتها هذا الوثوق كله ؟

ـ تسألني هذا السؤال بينما أنت تخاف جوابي • انك تسلّم اذن، في قرارة نفسك ، بأنني على حق •

ـ أنت تحمل عداوة لايفان ! ليس ايفان بالرجل الذي يرضى أن يغريه المال •

ـ صحيح ؟ طيب ••• وما قولك بجمال كاترين ايفانوفنا ؟ ليست المسألة مسألة مالٍ فحسب ، رغم أن ستين ألف روبل مبلغ مغرٍ •

ـ ايفان يهدف الى ما هو أسمى من ذلك لن يرضى أن تفتنه ألوف الروبلات • انه لا يسعى الى المال والترف والرخاء • وربما كان يتوق الى الألم ويرنو الى العذاب ! •••

ـ ما هذا الحلم أيضا ؟ ألا انهم جميعاً لمتشابهون ، هؤلاء النبلاء !

ـ اسمع يا ميشا ! ان نفس ايفان قلقة عاصفة ، وان عقله مهموم بمسائل خطيرة • ان فكراً عميقاً يقطن فيه ويعذبه • هو من أولئك الذين لا يسعون الى الملايين ، وانما يتطلعون الى حل مشكلات الحياة الروحية •

صاح راكيتين يقول مفصحاً عن كره أصبح لا يخفي نفسه :

ـ ترهات لفظية ! وسرقات أدبية فوق ذلك ••• انك لم تزد على أن كررت أقاويل شيخك !

قال راكيتين ذلك ثم تبدل تعبير وجهه ، وتقبضت شفتاه ، وتابع كلامه :

ـ ولكن ليس فيه سر ، ليس فيه لغز ! ما أغبى كلامك ! ما من شيء فيه الا ويمكن حزره بسهولة • يكفي أن تفكر قليلاً حتى تفهم كل شيء • ان مقالته التي نشرها في الجريدة مضحكة سخيفة باطلة ! أما النظريات التي عرضها منذ قليل فهي غبية بليدة ! « لا فضائل بغير ايمان بخلود الروح • كل شيء مباح اذا لم نؤمن بخلود الروح • » (وقد صاح أخوك ميتنكا عندئذ يقول : « انني أسجل هذا الكلام » ، هل تتذكر ؟) • هذه نظرية تغري أناساً أوغاداً أوباشاً ـ مالي أصبح فظاً فأنطق بهاجر القول ، هذه بلاهة ! ـ لا ••• لا أناساً أوغاداً أوباشاً،

بل مثقفين أدعياء يحملون فى أنفسهم « مشـــكلات عميقة لا تُحل » ! ألا انهم لمتبجحون ! ان جـــوهر تفكيرهم هو ما يلى : « من جهة أولى يستحيل عدم التسليم ، ومن جهة أخـــرى يستحيل عدم الانكار ! » . ليست نظريته كلها ، من أولها الى آخرها ، الا سفاهة ! ان الانســانية ستجد فى نفسها القدرة على أن تحيا للفضيلة ، سواء آآمنت بخـــلود الروح أم لم تؤمن . لسوف يكفيها من أجل ذلك أن تستلهم معـــانى الحرية والمساواة والأخوة ...

لقد أصبح راكيتين عاجزاً عن كبح جماح نفسه ، فالتهب حماسة. وها هو ذا يصمت فجأة كأنه تذكر شيئا ما .

قال وهو يبتسم ابتسامة مصـــطنعة متكلفة أكثر من الابتســـامة السابقة :

ــ كفانا كلاماً فى هذا الموضوع ! لماذا تضحك ؟ أتحسبنى نمـــاماً خبيثاً ؟

ــ لا ... ليس يخطر ببالى أن أحسبك نماماً . انت انسان ذكى ... ولكن فلندع هذا الموضوع ... ثم اننى قد ضحكت بغير سبب . أنا أفهم حق الفهم أن من الممكن أن تندفع هذا الاندفاع يا ميشا . لقد أدركت من اللهجة الجامحة والنبرة العنيفة فى أقوالك أنك أنت أيضا لست تشعر نحو كاترين ايفانوفنا بعدم الاكتراث . انك لا تقف منهـــا موقف من لا يبالى بها ... وقد راودنى هذا الظن منذ زمن طويل أيها الأخ . فذلك هو السبب فى أنك تكره ايفان . أنت تغار منه عليها .

ــ لعلنى أغار منه على بائنتها أيضا ؟ هه ؟ ما رأيك ؟

ــ لا ... لن أتكلم عن المال ... لن أهينك !

ــ أصدق قولك ما دمت قد قلته . ولكن فليأخذكما الشيطان ، أنت

وأخاك ايفان ••• ألا يمكنك أن تفهم اذن أن فى وسع المرء أن يكرهه بصرف النظر عن كاترين ايفانوفنا ؟ هلاّ قلت لى لماذا يجب على أن أحبه ؟ لقد قال عنى سوءاً منذ أيام ، أفلا يكون من حقى والحالة هذه أن أقول فيه سوءاً أنا أيضا ؟

ـ لم أسمعه يتحدث عنك يوما ، لا بخير ولا بشر ••• انه لا يهتم بك •

ـ تذكرت الآن مع ذلك أنه ، منذ ثلاثة أيام ، قد قال عنى ، فى منزل كاترين ايفانوفنا ، كلاماً أهون منه الشنق • انه يجهل من أنا ، انه يجهل خادمك المطيع ! أما من منا يغار من الآخر ، فان لى فى هذا رأياً ••• لقد تفضل فقال عنى اننى ان لم أقرر فى مستقبل قريب جدا أن أصبح أرشمندريت ، فسأسافر حتماً الى بطرسبرج ، فأعمل هنالك فى صحيفة يومية كبرى ، كناقدٍ طبعا ••• وأبقى محرراً مدة عشر سنين ، ثم أصبح بعد ذلك صاحب الجريدة ، وأوجه الجريدة فى اتجاه آخر ، فأجعلها جريدة لبرالية ذات ميول الحادية مع صبغة اشتراكية ، مراعياً رغم ذلك قواعد الحكمة والحذر ••• معنى هذا أننى سألعب على الحبلين ، وسأخدع الناس ! وبعد ذلك ، حين أشارف على نهاية حياتى الصحفية ، أكون قد جمعت ـ فى رأى أخيك ـ رأس مال ضخما رغم الصبغة الاشتراكية ، فأستثمر رأس المال هذا بمعاونة يهودى صغير ما ، الى أن أبنى عمارة فخمة فى سان بطرسبرج ، فأجعل طابقها الأرضى مقراً لتحرير الجريدة ، وأؤجر باقى العمارة شققاً • حتى لقد حدد أخوك المكان الذى سأبنى فيه العمارة ، فقال اننى سأبنيها قرب الجسر الحجرى الذى سيقام فيما يقال على نهر نيفا بين حى ليتساينى وحى فيبورج •••

ـ ولكن هذا بعينه هو ما سيحدث يا ميشا نقطةً نقطـة في أغلب الظن !

كذلك هتف أليوشا يقول وقد أخذ يضحك ضحكاً فرحاً لم يستطع أن يمسك عنه .

ـ أنت أيضا أصبحت ساخراً يا ألكسى فيدوروفتش !

ـ لا ... لا ... تلك مزحة ... سامحنى ! وانما كنت أفكر فى شيء آخر تماما . ولكن قل لى : من قصَّ عليك هذه التفاصيل ، ومن أين جئت بها ؟ انك لم تكن حاضرا عند كاترين ايفانوفنا فيما أتخيل ، حين دار الحديث عنك !

ـ لم أكن حاضراً عند كاترين ايفانوفنا حين دار هـــذا الحديث عنى ، ولكن دمترى فيدوروفتش كان حاضرا . ومنه انما سمعت هـذا هذا الكلام بأذنيَّ . أو قل ان شئت انه لم يذكره لى أنا ، ولكننى سمعته على غير ارادة منى طبعا ، لأننى كنت فى غرفةنوم جروشنكا ، ولم أكن أستطيع الخروج من الغرفة ، لأن ايفـــان فيدوروفتش كان متلبثاً فى الغرفة المجاورة .

ـ صحيح ... تذكرت الآن ... هى قريبتك فيما أظن ، أليس كذلك ؟

ـ قريبتى ؟ جروشنكا قريبتى ؟ أتراك جُننت ؟ أيكون عقـــلك مختلاً ؟

كذلك صاح راكيتين وقد احمر احمرارا شديدا .

ـ لماذا ؟ ألستما قريبين ؟ لقد سمعت أنكما قريبان ...

ـ سمعت ؟ أين سمعت هذا ؟ انكم معشر الســـادة كارامازوف ،

تصطنعون أوضاع من ينتمى الى الطبقة النبيلة العريقة ، على حين أن أباك كان مهرّجاً على موائد الأغنياء ، وأن هؤلاء كانوا يشرفونه أحياناً بوجبةٍ يأكلها فى المطبخ ! أنا أعلم أننى لست ابن قس ، وهذا يجعلنى فى نظرك انساناً لا قيمة له ، ولكن هل ذلك سبب كافٍ لتهيننى بهـــذه الخفة وهذا الطيش اهانة لا داعى اليها ؟ ان لى كرامتى وشرفى أنا أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا لا يمكن أن أكون قريب جروشنكا ، البنت المبذولة ، فاعلم هذا ! ...

كان راكيتين غاضبا مهتاجا .

ـ معذرة ... سامحنى ... أرجوك ! لم يكن فى وســعى أن أعرف هذا . ثم لماذا تصفها بأنها مبذولة ؟ ألعلها ... واحدة من تلك النساء ... ؟

كذلك سأله أليوشا وهو يحمر على حين فجأة . ثمّ أردف يقول :

ـ أعود فأقول لك اننى قد ذُكر لى انها قريبتــك . وأنت تراها أحيانا كثيرة ، وقد أكدت لى بنفسك أن ليس بينك وبينها علاقات حب .. فهل كان يمكننى أن أتصور أنك تحتقرها الى هذه الدرجة من الاحتقار؟ وهل هى تستحق هذا الاحتقار حقا ؟

ـ قد يكون ثمة أسباب تدعونى الى التردد اليها . لن أقول لك أكثر من ذلك . أما القرابة مع جروشنكا فان أخاك ، أو ربما أباك ، هو الذى سيفرض عليك هذه القرابة ، يفرضها عليك أنت لا علىّ أنا ... ها نحن وصلنا الآن . الأفضل أن تمضىَ رأساً الى المطبخ . آه .. ولكن ما الذى يحدث ؟ أنكون قد تأخرنا الى هذا الحد من التأخر ؟ لا يمكن أن يكونوا قد فرغوا من تناول الغــداء مع ذلك ! اللهـم الا أن يكون الأخوان كارامازوف قد دبرا «مقلبا» مما عُهد فيهم ! أكيد ... هــذا

أبوك يبتعد ، ووراءه ايفان فيدوروفتش • انهما يهربان من عند الأب كبير الرهبان • وهذا هو الأب ايزودور على درجات المدخل يصيح لهما بكلام • ان أباك يصيح أيضا ، ملوّحاً بيديه • انه يقذف شتائم ، فيما يبدو ••• أنظر ! هذا ميوسوف قد خرج راكباً عربته • هل تراه ؟ وهذا ماكسيموف يركض في تلك الجهة ! ألا انها لفضيحة حقاً ! اذن لم يتم الغداء ••• أتراهم ضربوا كبير الرهبان أيضاً ؟ اللهم الا أن يكون الآخرون هم الذين ضربوهم ! ••• وددت لو أرى هذا •••

لم يكن تعجب راكيتين في غير محله • لقد وقعت فضيحة فعلاً •• فضيحة لم تكن في الحسبان ••• فضيحة لم يُسمع بمثلها من قبل ••• وقعت بمجرد « وحي والهام » •••

٨

فضيحة

وصل ميوسوف وايفان فيدوروفتش الى عند رئيس الدير (كبير الرهبان) ، تغيرت حالة بطرس ألكسندروفتش النفسية تغيراً سريعاً ، بتأثير طبيعته المهذبة المرهفة : لقد شعر فجأة بالخجل من حنقه . أحس فى قرارة نفسه أنه كان عليه أن يحتقر ذلك الرجل السافل فيدور بافلوفتش مزيداً من الاحتقار ، فما يفقد هدوءه فى حجرة الشيخ بسببه ، الى حيث يفلت منه زمام سيطرته على نفسه . قال لنفسه وهو يصعد درجات المدخل الى مسكن كبير الرهبان رئيس الدير : « مهما يكن من أمر ، فان الرهبان لا يتحملون تبعة شىء مما حدث ، فما ينبغى أن أؤاخذهم .. وما داموا هم أيضا أناساً محترمين (أحسب أن هذا الأب نيقولا ، رئيسَ الدير ، يرجع الى أصل نبيل هو أيضا) ، فلماذا لا أكون فى معاملتهم لطيفا رقيقا مهذبا ؟ لن أتهجم على آرائهم ، بل سأتظاهر بتأييدها ، فأكسب مودتهم ، وسأبرهن لهم أخيرا على اننى لا شىء يجمعنى بهذا الرجل الجافى الغليظ ، هذا الايزوب ، هذا المهرِّج ، هذا التافه ، وأننى فى هذه المغامرة كلها ضحية مثلهم ! » .

أما حقوق قطع الأشجار فى الغابة ، وحقوق الصيد فى النهر

(وكان ميوسوف لا يعلم من جهة أخرى على وجه الدقة ما هو الجزء الذى كان يقوم عليه الخلاف من أراضيه) ، فقد قرر أن يتنازل لهم عنها تنازلا كاملا نهائيا ، وأن يعلن هذا التنازل فى ذلك اليوم نفسه ، لا سيما وأن قيمة ذلك كله زهيدة • سوف يسحب القضية من المحاكم ، ويضع حداً لهذه الدعوى القديمة التى أقامها على الدير •

وقد تعززت نياته الطيبة هذه فى نفسه مزيدا من التعزز حين دخلوا غرفة طعام رئيس الدير • والحق أن الغرفة لم تكن غرفة طعام ، ذلك أن مسكن رئيس الدير كان لا يتجاوز غرفتين • ولئن كانت هاتان الغرفتان أوسع مساحة وأوفر راحة من غرف الشيخ ، فان الأثاث فيهما بسيط غاية البساطة : هو أثاث من خشب الأكاجو منجَّد بالجلد ، ولكنه من الطراز القديم البالى الذى كان رائجاً فى العقود الأولى من هذا القرن • حتى أن الأرض لم تكن مطلية • ولكن كل شىء كان فى مقابل ذلك يسطع نظافة وزهاءً ، وكانت حافات النوافذ تزدان بأزهار جميلة ثمينة • على أن الشىء الذى كان يجذب الانتباه ويفتن البصر فى تلك اللحظة خاصة انما هو تلك المائدة المرتبة الحافلة ، رغم أنها ليست على جانب عظيم من الترف : غطاء نظيف جدا ، أوان لامعة ، ثلاثة أصناف من الخبز أُحسن خبزها ، زجاجتان من نبيذ ، قمقمان مليئان بشراب العسل اللذيذ الذى عرف به الدير ، ابريق كبير من زجاج فيه شراب التفاح الذى يُصنع بالدير وهو شراب اشتهر كثيرا فى المنطقة كلها • ولم يكن على المائدة كحول • وقد روى راكيتين فيما بعد أن وجبة الطعام فى ذلك اليوم كانت تضم خمسة أطباق : حساءَ سمك ، فسمكاً مشوياً بطريقة خاصة يقال انها رائعة ، فأضلاعاً من سمك الحفش ، فمثلجات ، فثمارا مسلوقة بالسكر ، فبالوظة فاكهة * • كان راكيتين قد اطلع اطلاعا دقيقاً على كل شىء • انه لم يستطع أن يقاوم فضوله ، فتسلل

حتى الى مطبخ رئيس الدير ، وكان يدخله من حين الى حين ؛ ولقد كانت له علاقات في كل مكان على كل حال ، وكان يعرف كيف يكلم الناس • ان له نفساً قلقة حسودا • وكان لرضاه العظيم عن كفاءاته الكبرى ومقدراته العظيمة ، يميل الى تضخيمها والمبالغة فيها • وكان واثقا من أنه سيصبح في المستقبل شخصا مرموقا ، وأنه سيمثل في الحياة دورا كبيرا • ولكن أليوشا الذى كان يحبه كثيرا كان يؤلمه أن يلاحظ أن صاحبه يفتقر الى الاستقامة والشرف ، حتى أنه لا يظهر عليه أنه يخطر بباله لحظةً أنه كذلك : ان راكيتين ، لثقته بأنه لايسرق مالاً من دروج الناس ، كان يعدُ نفسه مثال الكمال الأخلاقي • وما كان لأليوشا، ولا كان لأحد في العالم كله ، أن يحمله على تغيير رأيه في هذه النقطة•

ولأن راكيتين شخصية ثانوية فانه لم يكن من الممكن أن يدعى الى وليمة الغداء هذه ، غير أن الأبوين جوزيف وبائيسي قد دُعيا اليها ، كما دُعي كذلك راهب كاهن آخر • ففي اللحظة التي وصل فيها بطرس ألكسندروفتش بصحبة كالجانوف وايفان فيدوروفش كان هؤلاء ينتظرون في غرفة طعام رئيس الدير ، وكان المالك ماكسيموف جالساً كذلك في أحد الأركان • استقبل الأب رئيس الدير ضيوفه متقدما اليهم حتى وسط الغرفة • انه شيخ فارع القامة نحيل الجسم ، ما يزال قوى البنية ، له وجه طويل صارم وقور • حيَّا ضيوفه باحترام ، ولكن هؤلاء اقتربوا في هذه المرة يتلقون مباركته ، حتى أن ميوسوف جازف فأراد أن يقبل يده ، غير أن الرئيس سحب يده في الوقت المناسب ، فلم يتم تقبيل ••• أما ايفان فيدوروفتش وكالجانوف فانهما أقبلا بغير تردد ، وتلقيا مباركة رئيس الدير على نحو طبيعي بل وشعبي ، وطبعا على يده قبلةً كبيرة سُمع صوتها •

بدأ بطرس الكسندروفتش الكلام وهو يبتسم ابتسامته الودود اللطيفة ، ولكن بلهجة فيها جد ووقار واحترام :

ـ نعتذر الى سيادتك أصدق الاعتذار عن أننا جئنا الى هنا دون أن يصحبنا فيدور بافلوفتش الذى تفضلت بدعوته أيضا . لقد اضطر أن يعدل عن حضور الوليمة ، ولهذا أسبابه . لقد سمح لنفسه ، فى حجرة الأب المبجّل زوسيما ، بأن يندفع فى مناقشات عائلية مؤسفة مع ابنه ، فقال كلاماً فى غير محله ... أى بدرت منه أقوال غير لائقة أبدا ... وهذا أمر أظن أن سيادتك قد علمت به (قال هذا وهو ينظر الى الراهبين الكاهنين) . وقد أدرك خطأه ، وشعر بأسف شديد ، وأحس بالخجل والعار ، فرجانا أنا وابنه ايفان فيدوروفتش أن نعرب لك عن عميق ألمه وشديد أسفه وصادق ندمه . وهو يأمل أن يصلح خطأه فى المستقبل ، ويرجوك أن تتكرم اليوم فتهب له مباركتك صافحاً عنه ناسياً ما بدر منه.

صمت ميوسوف . انه بعد أن أنهى خطابه المسهب قد بلغ من شعوره بالرضى عن نفسه أنه لم يبق فيه أى أثر للحنق الذى ألمّ به من قبل . أصبح يحب الانسانية من جديد ، حباً صادقاً لا تردد فيه .

أصغى رئيس الدير الى كلامه بوقار ورصانة ، ثم أحنى رأسه قليلا ، وقال يجيبه :

ـ يؤسفنى غياب رفيقكم كل الأسف . فلعله كان سيتعلم محبتنا أثناء هذه المأدبة ، ولعلنا كنا سنشعر نحوه بمحبة . تفضلوا فاتخذوا أماكنكم الى المائدة أيها السادة .

ووقف أمام الأيقونة ، وأخذ يتلو صلواته بصوت عالٍ ، فخفض جميع الضيوف رءوسهم باحترام ، وخشوع ، وتقدم المالك ماكسيموف الى أمام ضاماً يديه الصغيرتين احداهما الى الأخرى معبراً عن تقوى خاصة .

وفى تلك اللحظة بعينها انما أخرج فيدور بافلوفتش من جعبته آخر مكيدة • يجب أن نذكر أنه قد كان فى نيته حقا أن ينصرف • كان قد أدرك فعلاً أن من المستحيل أن يحضر مأدبة رئيس الدير بعد سلوكه الشائن الفاضح فى حجرة الشيخ ، حتى لكأن شيئاً لم يكن ، لا لأنه كان يشعر بخجل خاص من نفسه ، أو لأنه كان يلوم نفسه ، فربما كان عكس هذا هو الأصح ! ومع ذلك فقد شعر أن حضور المأدبة سيكون خالياً من الاحتشام فى هذه الظروف • ولكن ما كادت عربته المترجحة توصله الى أمام درجات مدخل الفندق ، حتى أحسّ بتردد مفاجىء ، فتوقف فى اللحظة التى كان يهم أن ينزل فيها من العربة • تذكر أقواله نفسها التى نطق بها فى حجرة الشيخ : « اننى أشعر كلما دخلت على بعض الناس أننى أسوأ من الآخرين ، وأن الجميع يعدوننى مهرّجاً ! فأقول لنفسى عندئذ : فليكن ! سأقوم بدور المهرّج ، لأنكم جميعا أكثر منى غباوة ، وأخبث سريرة » • تمنى فى تلك اللحظة لو ينتقم من صحبه بحقارته • وتذكر بهذا الصدد ، فى الوقت المناسب تماما ، أنه سئل مرةً عن السبب الذى يجعله يكره فلاناً من الناس ، فأجاب فى اندفاعة من اندفاعات تهريجه الوقح قائلا : « لماذا ؟ سأقول لكم • صحيح أنه لم يسىء الىّ أية اساءة • ولكننى ارتكبت أنا فى حقه حقارة سافرة ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أكرهه بسبب تلك الدناءة التى ارتكبتها فى حقه ! » فلما راودت هذه الذكرى فيدور ايفانوفتش ضحك ضحكة خبيثة صامتة ، وأخذ يفكر بضع لحظات ، والتمعت عيناه ، وارتعشت شفتاه ، ثم ما لبث أن اتخذ قراره فجأة : « لقد صُبَّت الخمرة فيجب شربها • سوف أتم ما بدأته • » • ان الشعور الخفى الذى خضع له فيدور بافلوفتش فى ذلك الظرف يمكن التعبير عنه على النحو التالى : « لقد فاتنى أوان رد الاعتبار الى نفسى • فالأولى ما دام الأمر كذلك أن

SS

أمضى الى النهاية ، وأن أهينهم مزيدا من الاهانة ، فسوف يرون عندئذ على الأقل اننى لا أخشاهم ، وأننى لا أحفل بما عدا ذلك ! » • وهاهو ذا يأمر الحوذى بأن ينتظر ، وها هو ذا يعـــود أدراجه الى الدير مستحثاً خطاه ليمضى الى عند كبير الرهبان رأساً • لم تكن فى رأسه أية خطة واضحة معينة ، ولكنه يعلم أنه أصبح لا يســـتطيع السيطرة على نفسه والتحكم بسلوكه ، وأن أى أمر تافه يمكن أن يدفعه فجأة الى الحـدود القصوى من الدناءة ـ دون أن يتعرض مع ذلك للمضى الى أبعـــد من ذلك ، ودون أن ينجرف الى ارتكاب جريمة أو الى اقتراف أى عمـل يمكن أن يؤدى به الى المثول أمام المحاكم • انه يعرف دائماً كيف يحجم فى اللحظة المناسبة ، بل كثيرا ما كانت تدهشه سيطرته على نفسه فى هذا المجال • ولقد وصل الى غرفة طعام رئيس الدير فى اللحظة التى كانت فيها الصلاة قد انتهت فاقترب الضيوف من المائدة • وقف ساكنا جامدا على عتبة الغرفة ، وطاف ببصره على الحضور ، ثم أطلق ضحكة طويلة متغطرسة خبيثة بينما هو يتفرس فى جميع الأشخاص الحاضرين وقـد ظهرت فى وجهه معانى التحدى والاستفزاز • وصاح يقول بصوت دوّى فى الغرفة كلها :

ـ ها ••• لقد ظنوا أننى انصرفت ••• فهأنذا أعود •

اتجهت اليه جميع الأنظار خلال لحظات فى جو من صمت مطبق ، ثم أدرك الجميع فجأة أنه سيحدث شىء كريه أهوج طائش ، وأن فضيحة توشك أن تقع • ولم يلبث بطرس ألكسندروفتش أن انتقـل من حالة المزاج المشرق والخلق الرضى الى حالة غضب شديد وحنق مســعور • ان الغيظ الذى كان قد هدأ فى نفسه وانطفأ فى قلبه قد اشتعل فى مثـل لمح البصر سرعة ، وانطلق يتدفق تدفقا قويا • صاح يقول :

ـ لا ••• هذا كثير في هذه المرة • لن أطيق ذلك ولن أحتمله • انني لا أستطيع الصبر على هـــذا بأي وجه من الوجـوه وأي حال من الأحوال •

ازدحم الدم في رأسه ، وتعثرت كلمـــاته واختلطت أقواله ••• ولكن الأمر لم يكن أمر فصاحة ! ••• وها هو ذا يتناول قبعته •

قال فيدور بافلوفتش :

ـ ما الذي لا يستطيع أن يحتمله وأن يصبر عليه« بأي وجه من الوجوه وأي حال من الأحوال » ، أيها الأب المبجَّل ؟ أتأمرني بالدخول أم تأمرني بالانصراف ؟ أتقبلني ضيفاً مدعواً الى مائدتك أم لا ؟

فأجابه رئيس الدير كبير الرهبان :

ـ أهلا وسهلا • انني سعيد برؤيتك •

ثم أسرع يقول للحضور :

ـ أيها السادة ، انني أسمح لنفسي بأن أرجوكم من أعماق قلبي أن تنسوا خلافاتكم العابرة المؤقتة ، وأن يلتئم شملكم حول هـذه المائدة مصلِّين لله بعاطفة المحبة ووفاق الأخوة •

فأعول ميوسوف يقول وقد خرج عن طوره :

ـ لا •• لا •• هذا مستحيل !

فقال فيدور بافلوفتش :

ـ اذا كان هذا مستحيلاً بالنسبة اليه ، فهو مستحيل بالنسبة اليَّ أيضا • لن أبقى أنا ما لم يبق هو • فعلى هذه النية انما جئت • لن أترك بطـــرس ألكسندروفتش بعـــد الآن : فاذا انصرفت أنت يا بطـــرس

ألكسندروفتش انصرفت أنا أيضا ، واذا بقيت أنت بقيت أنا • ذلك هو وفاق الأخوة ! لقد جرحته جرحاً عميقاً حين ذكرت وفاق الاخوة هذا أيها الأب الرئيس • انه لا يريد أن يكون أخي ! انه ينكر القرابة التي بيننا ! أليس كذلك يا فون سون ؟ لقد عثرت عليه واهتديت اليه ، صاحبي فون سون ! نهارك سعيد يا فون سون !

تمتم المالك ماكسيموف يسأل مذهولاً :

ـ أأنا الذي ••• تسمينى بهذا الاسم ؟

فقال فيدور ايفانوفتش :

ـ طبعا أنت ! من عسى يسمى بهذا الاسم غيرك ؟ ألعلك تحسب أن الأب الرئيس هو الذي يجب أن يسمى بهذا الاسم ؟

قال ماكسيموف :

ـ ولكننى لست فون سون ، وانما أنا ماكسيموف ؟

ـ بل أنت فون سون ! هل تعرف يا صاحب السيادة من هو فون سون ؟ انه بطل دعوى قضائية شهيرة • لقد قُتل فى ماخور ـ أحسب أن هذا هو الاسم الذى يطلق على تلك الأماكن فى بلادنا ـ قُتل ••• وجرِّد من كل ما كان معه ؟ ثم وضع فى صندوق دون مراعاة لتقدمه فى السن ، ثم سمِّر على الصندوق لوح من خشب ، ثم شُحن طرداً بسيطاً مرقماً من سان بطرســـبرج الى موسكو بالقطار البطىء • وبينمـا كان الصندوق يسمَّر كانت المومسات تغنى وترقص على أنغام البسالتريون ، أعنى على أنغام البيانو• ان فون سون ذاك هو الذى ترونه الآن أمامكم • لقد بُعث بعد موته • أليس هذا صحيحا يا فون سون ؟

ـ ما هذا الكلام ؟ ماذا يريد أن يقول ؟

هذا ما هتفت به جماعة الرهبان الكهنة من كل جهة ٠

صاح بطرس الكسندروفتش يقول متجهاً نحو كالجانوف :

ـ فلننصرف !

فتدخل فيدور بافلوفتش يقول بصوت حاد موعوع وهو يتقدم الى الأمام خطوة أخرى :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ اسمحوا لى ٠٠ تحملوا أن أنهى كلامى أولاً ٠ لقد ادُعى أننى تصرفت تصرفاً خاليا من الاحتشام والاحترام فى حجرة الشيخ منذ قليل ٠ لماذا ؟ لأننى أتيت على ذكر الأسماك الصغيرة ! ان بطرس الكسندروفتش ، قريبى المحترم ، يؤثر أن يكون فى الكلام من الرفعة أكثر مما فيه من الصدق أما أنا فأقول : فلتذهب الرفعة الى الشيطان ! أليس هذا صحيحا يا فون سون ؟ أيها الأب الرئيس المحترم ! قد أكون مهرجاً ، واننى لأقدم نفسى مهرجاً، ولكننى فارس من فرسان الشرف ، وأحب أن أتكلم هنا بصراحة تامة ٠ نعم ، أنا فارس من فرسان الشرف ، على حين أن بطرس ألكسندروفتش هذا ليس الا حزمةً من غرور جريح ، ولا شيء غير هذا ! لئن جئت الى هذا الدير ، لقد جئت على نية أن ألاحظ وأن أحكم ٠ ان ابنى الكسى يحقق فى هذا الدير خلاصه ٠ وأنا أبوه ٠ فمصيره يهمنى ، ومن واجبى أن أسهر عليه ٠ لقد ظللت أمثّل طول الوقت ، ولكن دون أن تفوتنى كلمة واحدة مما كان يقال ٠ لم يفتنى شيء البتة ، وأحب أن أعرض عليكم الآن الفصل الأخير من تمثيليتى ! اننى أعرف كيف تجرى الأمور عندنا ٠ ما سقط فقد سقط ، أليس هذا صحيحا ؟ ان الخطأ الذى يرتكب يستمر قروناً ! ولكن لا ٠٠٠ اننى لا أقبل هذا ٠٠٠ اننى لا أسلم بهذا ٠٠٠ اننى أثور وأتمرد ! أيها الآباء المحترمون ! ان اراءكم تثير فى نفسى أعمق الاستياء

والاستنكار ! الاعتراف سرٌ مقدس أشعر أنا نفسي تجاهه بتأثر قوى ، وتقوى شديدة ، وعبادة خاشعة ! ولكن الناس في تلك الحجرة يعترفون جاثين على ركبهم ، متكلمين بصوت عالٍ . فهل الاعتراف بصوت عالٍ أمر جائز ؟ ان آباء الكنيسة قد أمروا بأن يتم الاعتراف همساً في الأذن ، وبهذا الشرط وحده انما يبقى الاعتراف سراً مقدساً . تلك قاعدة قديمة محترمة معظّمة . كيف تريدون مني مثلاً أن أروى بحضور جميع الناس أنني فعلت كيت وكيت ـ هل تفهمون ؟ ـ كيت وكيت ... أقصد كيت ... وكيت ... قد لا يكون من الحشمة أحيانا أن يروى المرء أموراً بعينها . تلك فضيحة أيها الآباء المبجّلون ! من ذا الذي يضمن أن لا تصيروا من هذا شيئا بعد شيء الى ملة الخلستيس ؟ * ... لسوف أشكوكم الى المجلس الكنسي الأعلى عند أول مناسبة ... أما ابني ألكسى فقد قررت أن استرده الىّ وأصطحبه الى منزلي ...

هناك ملاحظة يجب علينا أن نذكرها هنا . كان فيدور بافلوفتش قد سمع في الماضي صدىً ضعيفا عن الخلافات الاكليركية ، فهو اذن يعرف على أي وتر يجب أن يضرب . ان وشايات خبيثة كانت قد انتشرت في الماضي ، فوصلت حتى الى الأسقفية (حدث هذا لا في مدينتنا وحدها بل حدث كذلك في أديرة أخرى دخلها نظام المشايخ) . قيل فيما قيل ان الاحترام الذي يحاط به الشيخ فيه غلو كثير ، وانه لا داعي اليه ، بل قيل أيضا انه يسيء الى مهابة رئيس الدير ويسيء الى كرامته . وقيل خاصة ان المشايخ يسيئون استعمال سرّ الاعتراف ، وقيلت أيضا حماقات كثيرة من هذا النوع . ثم سقطت هذه الاتهامات من تلقاء نفسها بعد ذلك ، سقطت عندنا ، كما سقطت في كل مكان على كل حال . ولكن الشيطان الأحمق الذي ركب فيدور بافلوفتش وأخذ يهوى به متوترَ الأعصاب الى قاع الدناءة قد لقنه هذا الاتهام القديم الذي كان

فيدور ايفانوفتش لا يدرك منه كلمة واحـــدة على كل حال ، حتى أنه لم يحسن صياغة هذا الاتهام صياغة مفهومة ، لا سـيما وأن أحدا لم يكن قد جثا على ركبتيه أمام الشيخ فى ذلك اليوم ، ولا أعترف بصوت عال ، ومعنى هذا أن فيدور بافلوفتش لم ير بعينه شيئا وانما هو يردد ما كان قد سمعه ، متذكرا أقاويل قديمة • لكنه وقد أخرج هـــذه الحماقة لم يلبث أن شعر بأنه قال كلاما سخيفا فأراد عندئذ أن يبرهن للآخرين ، وأن يبرهن لنفسه خاصة ، أن ما قاله ليس فيه شيء من سخف • ورغم أنه كان يدرك ادراكا كاملا أن كل كلمة أخرى يقولها انما تفاقم بشاعة كلامه وتجعله يتردى فى الطيش والحماقة مزيدا من التردى ، فانه لم يســـتطع أن يتوقف على المنحـــدر ، بل أخذ يهـوى الى القاع منكّس الرأس •

صرخ بطرس السكندروفتش يقول :

ــ يا للحقارة ! يا للصغار !

فتدخل كبير الرهبان فجأة يقول :

ــ اسمح لى • جاء فى كلام الأقدمين : « قد قيل عنى سوء ، وقـد اتهمت بأشياء منكرة • فلمـا سمعت تلك الأقـوال ، قلت لنفسى : « ان المسيح هو الذى أرسل الىّ هذا الدواء لأشفى ، انه يفرض علىّ هـذه المحنة لأخلص نفسى من غرورها » • لذلك أشكر لك كلامك أجـزل الشكر •

قال كبير الرهبان ذلك وحيّا فيـدور بافلوفتش منحنياً له انحناءةً كبيرة •

ــ ته ته ته ! •• نفاق قديم وجمل مهترئة ! •• معروفةٌ هذه الجمل وهذه الحركات ! لا تخدعنى هـذه التحيات ! « قبلة على الشـفتين وطعنة

في القلب » * تماماً كما ورد في كتاب شيللر « قطاع الطرق » ! انني أكره الكذب أيها الآباء ، وأحب الحقيقة ! ولكن الحقيقة ليست في أكل الأسماك الصغيرة ، سبق أن قلت لكم ذلك • هلاّ قلتم لي أيها الآباء لماذا تصومون ؟ لماذا تنتظرون مكافأة في السماء على ما تحتملونه من حرمان ؟ ألا انني مستعد أنا أيضاً لأن أصوم راضياً في سبيل مكافأة من هذا النوع ! دعك من هذا أيها الراهب المقدس ! لأن تمارس الفضيلة في الحياة ، ولأن تكون نافعاً للمجتمع ، خيرٌ من أن تلوذ بدير لتحمي نفسك من الحاجة الى العمل ، ولتنال فوق ذلك مكافأة في الحياة الآخرة ! ولكن لعل هذا يبدو لك أصعب وأشق ••• أنا أيضاً أجيد الكلام أيها الأب الرئيس ••

قال ذلك ثم اقترب من المائدة وأضاف :

ــ فلننظر ماذا أعدوا هنالك ! يا سلام ••• خمر معتق ، وشراب العسل اللذيذ الذي يباع في متجر الاخوة اليسايف * : فليس الأمر أمر أسماك صغيرة في هذه المرة ، أليس كذلك أيها الآباء الطيبون ؟ هيه ••• هيه ••• ما أروع هذه الزجاجات التي أخرجوها ! ••• ومن ذا الذي أمد المدير بهذه الأشياء ؟ من ؟ الفلاح الروسي الطيب الشهم الذي يعمل ويكد ويجهد ، ثم يدفع الى الدير بالدريهمات التي جنتها يداه المتشققتان، مهملاً أسرته ناسياً حاجات الدولة ! ألا انكم لتمصون دم الشعب ، أيها الآباء المبجلون !

قال الأب جوزيف :

ــ عيب ما تقول •

أما الأب بائيسي فقد أصرّ على الصمت في عناد • وأسرع ميوسوف يخرج من الغرفة ، وتبعه كالجانوف •

قال فيدور بافلوفتش :

ـ اننى أترككم أيها الآباء الطيبـــون ، تماما كما فعـــل بطرس الكسندروفتش ! ولن أجىء بعد اليوم الى هنا ، فلو تضرعتم الىّ جاثين على ركبكم ما عدت قط ! لقد أهديت اليكم ألف روبل ، فأيقظ هـــذا شهوتكم وأسال لعابكم ، أليس كذلك ؟ انكم تحاولون أن تكونوا لطافا ... هأ هأ ... لا جدوى من هذا ... لن أعطيكم بعد الآن شيئاً .

ثم صاح وهو يضرب المائدة بقبضة يده ، وقد عصفت به ســـورة عنف مقصود :

ـ لشـــبابى انما أنتقم الآن ... ان هـــذا الدير قد لعب فى حياتى دوراً ... جعلنى أسكب سيولاً من دموع مرة ! أهجَم علىّ زوجتى الكليوكوشا . أثقلتمونى باللعنات فى جميع معابدكم ، وأسأتم الى سمعتى فى المنطقة كلها ! كفى كفى أيها الرهبان ! اننـا نعيش فى عصر لبرالى ، اننا نعيش فى عصر ســفن البخار وسكك الحديد . لن أعطيكم لا ألف روبل ولا مائة روبل ، ولا مائة كوبك ... لن أعطيكم شيئاً البتة .

ملاحظة أخرى : ان الدير لم يحتـــل فى حياته مكاناً فى يوم من الأيام ، ولا جعله يسكب دموعاً مرة . ولكن الرجل قد بلغ من اندفاعه فى التمثيل أنه أوشك أن يصدّق هو نفسه ، خلال لحظة قصيرة ، الألم الذى كان يتظاهر به ، حتى لقد كاد يبكى اشفاقاً على نفسه مما عاناه من هذا الألم المزعوم . ومع ذلك أحس فى تلك اللحظة أنه قد آن له أن يتوقف .

أما كبير الرهبـــان فانه لم يردّ على أكاذيبـــه الخبيثة التى نطق بها الا بأن انحنى برأسه انحناءة خفيفة ، وقال بصوت رصين :

ـ لقد قيل أيضاً : «افرح للاهانة الظالمة التى تُلحق بك على رءوس

الأشهاد ، دون أن تضطرب ، ودون أن تغضب ممن أهانك » . وذلك ما سنفعله .

ــ ته ته ته ... سفاسف وترهات ! لكم ما تشاءون أيها الآباء الطيبون ! ... أما أنا فذاهب . وسآخذ ابني من هذا المكان الى الأبد ، بحكم ما لي عليه من سلطة الأب على ابنه . يا ايفان فيدوروفتش ، يا بني المطيع ، هلاّ تحملت أن آمرك بأن تتبعني . وأنت يا فون سون ، ليس لك ما تفعله هنا أنت أيضاً ! تعال اليّ بالمدينة في غير ابطاء ! ان المرء ليتسلى هناك ويروّح عن نفسه . وليست المسافة بعيدة . هي فرسخ صغير . وسأطعمك خنزيراً صغيراً بالبرغل ينسيك مطبخ الدير . سوف تتغذى عندي . وسيكون على المائدة كونياك وخمور شتى . عندي خمرة رائعة من فاكهة التوت . هيه ! فون سون ! لا تفوّت هذه الفرصة ، والا كنت تجهل سعادتك !

قال ذلك وخرج وهو يصرخ محركاً يديه . وفي تلك اللحظة انما لمحه راكيتين منصرفاً ، ودلّ عليه أليوشا .

فلما رأى الأب ابنه صاح يقول له من بعيد :

ــ ألكسي ! عد الى البيت في هذا اليوم نفسه ... عد الى البيت نهائياً ... خذ وسادتك وفراشك ، ولتغب عن هذا المكان الى الأبد ، فما يراك أحد فيه بعد اليوم !

توقف أليوشا مذهولاً ، ينظر الى المشهد بانتباه أخرس . كان فيدور بافلوفتش قد اتخذ مكانه في عربته ، وكان ايفان فيدوروفتش يتهيأ لأن يتبعه مظلم الوجه صامتا ، حتى دون أن يلتفت الى وراء ليودّع أليوشا . وفي تلك اللحظة انما وقع مشهد جديد لا يتصوره العقل ، مشهد تهريجي عجيب ، كان لا بد أن يختم آخر ذلك النهار . ان

المالك ماكسيموف قد ظهر فجأة أمام مصعد العربة • كان يلهث لهاثاً شديدا بعد أن ركض ركضاً سريعا حتى لا يصل متأخرا • كان راكيتين وأليوشا قد رأياه يندفع راكضاً • وقد بلغ من شدة التعجل أنه وضع قدمه على مصعد العربة بينما كانت قدم ايفان فيدوروفتش ما تزال عليها ، وتمسك بهيكل العربة وأخذ يبذل جهودا كبيرة ليثب الى داخلها •

صاح يقول بصوت نحيل وهو يقفز الى العربة ويطلق ضحكة صغيرة فرحة ، وقد أشرق وجهه وبدا عليه أنه مستعد لكل شيء :

ــ جئت ، جئت معكم •

فهتف فيدور بافلوفتش يقول بلهجة المنتصر :

ــ ألم أقل انه فون سون ؟ انه فون سون الأصلي رجع من عند الأموات ! ماذا فعلت حتى خرجت من هناك ؟ بأي واجب من واجبات الأدب أخللت ، وما الذي دعاك الى العدول عن غدائهم ؟ لا بد أن لك جبهة من تلك الجباه الفولاذية ! ان لي جبهة أنا أيضا ، ولكن لا يسعني أيها الأخ الا أن أعجب بجبهتك ! هيَّا اقفز ، اقفز بسرعة ! دع له أن يمر يا فانيا * ••• سيكون هذا مضحكا ••• سوف يجد مكانا بين أقدامنا. أليس يريحك أن تقعد بين أقدامنا يا فون سون ؟ أم الأفضل أن يجلس على المقعد بجانب الحوذي ؟ اقفز الى المقعد بجانب الحوذي يا فون سون !•••

ولكن ايفان فيدوروفتش الذي كان قد استقر في العربة ، لم يلبث أن أرسل الى صدر ماكسيموف ضربة قوية دون أن ينطق بكلمة واحدة، فاذا بمكسيموف يطير مسافة ثلاثة أمتار ! وكانت معجزةً أنه لم يسقط •

وصرخ ايفان فيدوروفتش يأمر الحوذي بصوت غاضب :

ــ امش !

فسأله فيدور بافلوفتش :

ـ ما بك ؟ لماذا ضربته ؟

ولكن العربة كانت قد سارت . ولم يجب ايفان فيدوروفتش .

أردف فيدور بافلوفتش يقول بعد دقيقتين من صمت ، وهو يختلس النظر الى ابنه :

ـ عجيب أمرك ! انت الذى تخيلت هذه الزيارة للدير ، ودفعتنى اليها ، وشجعتنى عليها ، فما لى أراك الآن غاضبا ؟

فقاطعه ايفان فيدوروفتش يقول بصوت قاس :

ـ كفَّ عن قول هذه السخافات ! أَوْلى بك الآن أن ترتاح !

وصمت فيدور بافلوفتش من جديد ، دقيقتين ، ثم قال فى تفخم :

ـ قليل من الكونياك لن يضر الآن ...

ولكن ايفان فيدوروفتش لم يستجب .

قال الأب :

ـ ستشرب معى قليلا من الكونياك فى المنزل .

وظل ايفان فيدوروفتش صامتا .

فأردف فيدور بافلوفتش يقول :

ـ أما أليوشا فسأخرجه من الدير مع ذلك ، رغم أن اخراجه قد لا يرضيك كثيرا أيها الابن المطيع جدا ، كارل فون مور .

ولم يزد جواب ايفان فيدوروفتش على أن هز كتفيه احتقارا . ثم أشاح بوجهه ، وأخذ يتأمل الطريق . ولم يتبادلا بعد ذلك كلمة واحدة الى أن بلغا المنزل .

الباب الثالث: الشهوانيون

١

في الخدمة

إنّ منزل بافلوفتش ، رغم أنه بعيد جدا عن وسط المدينة ، لم يكن مع ذلك فى أقصى الضاحية . هو مبنى أميل الى القدم ، لكنه حسن المظهر : طابق أرضى واحـــد ، رمادى اللون ، يغطيـه سقف من صفيح أحمر ؛ قد أُحسن بناؤه جدا ، ففى امكانه أن يصمد لأذى الزمن طـــويلا ؛ مريح واسع ، يضم حجـرات مظلمة متعددة ، وأركانا منعزلة كثيرة ، وسلالم صغيرة تباغتك هنا وهناك ؛ الفئران فيــه كثيرة ، ولكن فيدور لا يقلقــه وجودها ، حتى لقد كان يقــول : « ان المرء لا يحس بالعزلة كثيرا فى المساء ، اذا كان هنالك فئران . » . ذلك أنه قد تعود عند هبوط المساء أن يصرف خدمه الذين يسكنون فى مبنى ملحق ، فيحبس نفسه بالمنزل طول الليل . وكان ذلك المبنى الملحق ، وهو مبنى واسع متين ، يقع فى الفناء ، وهناك انما كان فيدور بافلوفتش قد أقام مطبخه . صحيح أن المبنى الرئيسى كان يضم مطبخا ، غـــير أن فيدور بافلوفتش كان يمقت الروائح الكريهة ، فكان يؤتى اليه بطعامه من المبنى الملحق عبر الفناء شتاء وصيفا على السواء . ويمكن أن نقــول على وجه العموم ان هذا المنزل قد تصوره بانيه على أساس أن يضـــم أسرة كبيرة العدد ، وكان يمكن أن يسكنه عدد من السادة والخـــدم

يساوى خمسة أضعاف العدد الذى يقيم فيه منهم الآن . ومع ذلك لم يكن يقطنه فى الآونة التى جرت فيها حوادث هذه القصة الا فيدور بافلوفتش وايفان فيدوروفتش ، ولم يكن الخدم الذين يعيشون فيه الا ثلاثة : جريجورى العجوز ، وامرأته العجوز مارفا ، والخادم سميرد ياكوف ، وهو رجل ما يزال شابا . يحسن أن نذكر هنا بعض التفاصيل عن هؤلاء الخدم الثلاثة . الحق أنه ليس هنالك أشياء كثيرة نضيفها الى ما سبق أن قلناه عن جريجورى فاسيلفتش كوتوزوف الذى أسلفنا الكلام عليه قبل الآن بما فيه الكفاية . انه رجل صلب العزيمة متشدد الرأى ، يمضى الى هدفه فى عناد متى بدا له هذا الهدف حقيقة راسخة لا سبيل الا جحودها (وذلك لأسباب كثيرا ما تدهشك قلة المنطق فيها) . وفى وسعنا أن نقول عنه انه رجل شريف عنيف نزيه . لقد ألحت عليه امرأته مارفا اجناتفنا ، رغم أنها كانت طوال حياتها خاضعة لارادة زوجها خضوعا أعمى ، ألحَّت عليه الحاحاً قوياً ، ولا سيما غداة تحرير الأقنان ، أن يترك فيدور بافلوفتش فيسافر الى موسكو فيفتتح هناك تجارة صغيرة (فلقد كانا يملكان شيئا من مال ادخراه) . ولكن جريجورى أيقن عندئذ يقينا نهائيا أن امرأته تقوده الى الخطأ والضلال ، لأن « كل امرأة ناقصة العقل » ، وأضاف الى ذلك قوله انه لا يليق بهما أن يتركا مولاهما القديم ، مهما تكن عيوبه « لأن ذلك هو الواجب الذى يقع على عاتقهما الآن » . وسأل الرجل زوجته مارفا قائلا :

ـ هل تفهمين أن هنالك واجبا لا يجوز التخلى عنه ؟

فأجابته مارفا تقول جازمة :

ـ أنا أعرف ما معنى الواجب ، ولكننى لا أفهم أبدا ما هو الواجب الذى يلزمنا بالبقاء هنا .

فقال لها :

ـ سيان أن تفهمي وأن لا تفهمي • وعليك بعد الآن أن تسكتي !

وكذلك كان • بقي جريجوري ومارفا • ولقد حدّد لهما فيدور بافلوفتش أجراً ليس بالأجر المرتفع طبعا ، ولكنه كان يدفع لهما هذا الأجر في مواعيده بغير تأخير • وكان جريجوري يشعر من جهة أخرى أن له على مولاه نفوذا لا يُنكر • كان جريجوري يحس ذلك ، وكان على حق في احساسه هذا : ان فيدور بافلوفتش المهرّج ، الماكر ، العنيد، الذي يعرف كيف يكون صلبا في « بعض شئون الحياة » على حد تعبيره، كان ضعيفا الى أقصى درجات الضعف في « شئون أخرى من شئون الحياة » • وكان يعرف أنواع ضعفه ، وكان لمعرفته بها محاصرا بمخاوف شتى • كان يرى أن على المرء « في بعض شئون الحياة » أن تكون أذناه دائما بالمرصاد ، وأن يستطيع الاعتماد على شخص موثوق تصبح الحياة بدونه صعبة جدا • وكان جريجوري شخصا موثوقاً حقاه حتى لقد اتفق لفيدور بافلوفتش مرارا (أثناء حياته) أن أوشك أن يضرب ، وأن يُضرب ضربا مبرحا يلحق به أذى شديدا ، ولكن جريجوري كان ينقذه دائما من المأزق ، مع ازجاء النصح له بخطاب طويل وموعظة مستفيضة بعد كل مغامرة من تلك المغامرات • على أن الخوف من الضرب ما كان له أن يكفي وحده لافقاد فيدور بافلوفتش شجاعته في بعض الأحيان • ان هناك ظروفا أخطر من ذلك كثيرا ، وان هناك ضروبا من القلق أشد ، وان هناك حالات نفسية دقيقة معقدة كان فيدور بافلوفتش يعانيها دون أن يستطيع تفسيرها هو نفسه ، هي حاجة مفاجئة قوية صارمة عارمة الى الاحساس بأن الى جانبه شخصا قريبا منه مخلصا له • تلك لحظات يمر بها فيدور بافلوفتش وتشبه أن تكون مرضاً : انه وهو الفاجر العاهر الى أقصى حدود الفجور والعهر ، انه وهو الرجل القاسي في

شهوانيته قسوةَ حشرة رهيبة ، كان يحس فى بعض لحظات من السكر بنوع من خوف سرى وتضعضع نفسى يرهقانه جسمياً ان صح التعبير ، حتى لقد كان يصف ذلك أحيانا بقوله : « يبدو لى فى تلك اللحظات أن روحى تندفع خارجةً من أحشائى » . ففى تلك اللحظات انما كان يجب أن يوجد على مقربة منه ، فى المبنى الملحق على الأقل ، ان لم يكن فى غرفته نفسها ، رجل موثوق أمين مخلص ، رجل يختلف عنه كل الاختلاف ، رجل ليس فيه من الفجور والعهر شىء ، لكنه رغم معرفته بأنواع استهتاره ورغم اطلاعه على أسراره ، يغفرها له من باب الاخلاص ولا يعارضه فيها ، ولا يلومه عليها خاصةً ، ولا يهدّده بعقوبات مقبلة لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر ... رجل يمكن أن يحميه عند الحاجة ... ممَّن يحميه ؟ من انسان مجهول ، ولكنه رهيب خطر .. كان لا بد له حتماً فى مثل تلك الساعات من أن يوجد على مقربة منه كائن « آخر » ، مألوف له معروف عنده منذ زمن طويل ، يمكن أن يعده صديقا ، حتى يستطيع أن يناديه اليه فى لحظة من كآبة ، وأن يستدعيه لا لشىء الا أن يرى وجهه ، وربما بادله عندئذ بضع كلمات فى أى موضوع من المواضيع : فاذا أظهر له هذا الرجل شيئا من لطف وتسامح ولم يؤنبه ولم يقرّعه أصبح حزنه أقل ثقلاً فى قلبه ، واذا تجهَّم له وقسا عليه ثقلت كآبته مزيدا من الثقل . حتى لقد كان يتفق لفيدور بافلوفتش (فى النادر القليل على كل حال) أن يذهب الى جريجورى فى المبنى الملحق ، فيوقظه من نومه ليلاً ، ليطلب اليه أن يلحق به . وكان الخادم يجىء عندئذ الى مولاه الذى يأخذ يُجرى معه حديثاً تافهاً يدور على تفاصيل لا قيمة لها ولا شأن ، ثم ما يلبث أن يصرفه ؟ ويعود الى سريره فينام فى هذه المرة نوما هادئا بعد أن أفرغ ما فى جوفه . ولقد مرّ فيدور بافلوفتش بساعات كهذه الساعات عند وصول أليوشا الى منزله.

ان هذا الفتى قد « طعن قلبه » لأنه « يعيش معه ، ويرى كل شيء ، ثم هو لا يدين شيئا من الأشياء » • وأكثر من ذلك أن أليوشا قد حمل الى حياة أبيه عنصراً جديداً كل الجدة ، عنصراً لا عهد للأب بمثله من قبل، هو أن أليوشا لم يحتقره البتة ، حتى لقد حنا عليه وشعر نحوه بعاطفة بسيطة تصدر عنه من تلقاء نفسها بغير افتعال ، دون أن يكون أبوه جديرا بها • ان موقفا كهذا الموقف خليق بأن يثير دهشة العجوز المستهتر الذى كان يعيش بغير أسرة ويركض وراء النساء ويعتز بأنه قليل الاحساس ولا يسعى الا الى خسيس الملذات • ذلك موقف ما كان لهذا العجوز أن يتوقعه • وقد اعترف لنفسه بعد رحيل أليوشا بأنه أدرك فى ذاته أشياء لم يشأ أن يقبلها وأن يسلّم بها قبل ذلك •

سبق أن ذكرت فى مطلع هذه القصة أن جريجورى كان يكره آديلائيد ايفانوفنا زوجةَ فيدور بافلوفتش الأولى ، أمّ ابنه دمترى ؛ وأنه فى مقابل ذلك قد تعلق بزوجة فيدور بافلوفتش الثانية ، صوفيا ايفانوفنا، الكليكوشا ، وأنه تحيّز لها ضد كل من يمكن أن تسوّل له نفسه أن يقول فى حقها كلمة سوء ، عن خبث أو عن طيش • وقد استحالت هذه المودة التى محضها تلك المرأة ، استحالت فى نفسه مع الزمن الى عاطفة مقدسة بلغت من القوة أنه أصبح حتى بعد انقضاء عشرين عاما على موتها لا يطيق أن يسمع من أى انسان ، كائناً من كان ، أية اشارة تسيء الى المتوفاة ، فلو فعل أحد ذلك أمامه لهب يهاجم من هاجمها على الفور • وكان جريجورى فى مظهره رجلا هادئاً وقورا رصيناً ، وكان قليل الكلام ، فاذا تكلم تكلم عن دراية ، شاعرا بوزن كل لفظ من ألفاظه ، لايلقى الحديث على عواهنه، ولا يقول قولا خفيفا ولا ينطق بكلمة لاداعى اليها ولا محل لها • وكان يستحيل عليك أن تعرف من النظرة الأولى أهو يحب امرأته الخاضعة الطيعة أم هو لا يحبها • ولكن الحقيقة هى أنه

كان يحبها ، وكانت هي لا تجهل ذلك • ولم تكن مارفا اجناتفنا هـذه بالمرأة الغبية ، ولعلها كانت تملك من الذكاء أكثر مما كان يملك منـه زوجها ، ولقد كانت على كل حال أصدق منه حكما وأصوب منه رأيا في شئون الحياة العملية • ومع ذلك خضعت له منذ أن تزوّجا ، فلم تجحد سلطته عليهـا ، وكانت تحترم احتراما أعمى ما كان ينعم به من تفوق أخلاقي • يجب أن نذكر أنهما كانا ، طوال حياتهما ، قلّما يتبادلان الكلام ، فاذا اتفق أن دار بينهما حديث جرى الحديث على المسائل التى لا مهرب منها من مسائل الحياة الجارية • لقد تعود جريجورى الوقور الرصين المهيب أن يفكر في أموره وحـده ، فكان لا يفضى الى أحـد بمشاغله ولا يشرك أحدا في همومه ، وقد بلغ من هذا أن امرأته أدركت نهائيا أنه في غير حاجة الى نصائحها • وكانت تحس أن زوجها يقدّر لها صمتها ، وأنه يرى فيه دليـلا على ذكائها • ولم يضربها زوجها في حياته الا مرة واحدة ــ وكان ضرباً خفيفاً على كل حال • واليكم كيف حدث هذا : أثناء السنة الأولى من زواج فيـدور بافلوفتش بآديلائيـد ايفانوفنا ، فان نساء القرية وبناتها ، ولم يكنّ قد تحررن من القنانة في ذلك العهد ، اجتمعن ذات يوم في فناء منزل السـادة يغنين ويرقصن ، فبينما كانت الفلاحات تغنى أغنية « في المروج » ، اذا بمارفا اجناتفنا التى كانت ما تزال في ميعة الصبا وريعان الشباب ، اذا بها تندفع فجأة الى أمام جوقة المغنيات ، فتأخذ ترقص رقصاً خاصاً ليس هو الرقص الذى تعودت الفلاحات أن ترقصه ، وانما هو الرقص الذى تعلمته أيامَ كانت ما تزال تعمل خادماً في منزل أسرة ميوسوف الثرية ، فكانت ترقص على المسرح الذى أقامته تلك الأسرة في أملاكها والذى استدعت له من موسكو أستاذ باليه يعلم ممثلاته الرقص • رأى جريجورى زوجته تندفع في ذلك اللهو فرحةً كل الفرح ، فما ان عادا الى البيت بعد ساعة حتى أدّبها التأديب

SS

الذى تستحقه وهو يشدها من شعرها • تلك هى المرة الوحيـدة التى ضرب فيها جريجورى امرأته ، ثم لم يتجدد شىء من هذا فى حياتهما بعد ذلك • ثم ان مارفا اجناتفنا قد تابت منذ ذلك اليوم عن حبها هـذا للرقص وميلها اليه •

لم يهب الرب للزوجين أولادا ، الا واحدا لم يعش طويلا • ومع ذلك كان جريجورى يحب الأطفال ، ولا يخفى هذا الحب ، أى أنه كان يعترف به ويجاهر به فى غير خجـل • فلما هربت آديلائيد ايفانوفنا احتضن الصغير دمترى فيدوروفتش الذى لم يكن قد تجاوز الثالثـة من عمره ، قرابة سنة ، يعنى به ويعطف عليه ويحبه ، متوليا بنفسه تمشيط شعره وغسل جسمه ، وتلكم ، على كل حال ، تفاصيل سبق أن أتيت على ذكرها • أما ابنه هو ، فانه لم يذق الا فرحة انتظاره مدة حبل أمه به • حتى اذا وُلد الطفل امتلأ قلب أبيه هولاً وحزناً • ذلك أن الصبى قد جاء الى هذا العالم بست أصابع فى كل يد • وقد بلغ جريجورى يومئذ من الانصعاق أنه أصر لا على أن يصمت فما ينطق بحرف الى حين التعميد فحسب ، بل أصر على أن ينزوى فى الحديقة طوال تلك المدة ليغرق فى الصمت مزيدا من الاغراق • كان ذلك فى الربيع • وقد قضى الرجل الأيام الثلاثة التى سبقت التعميد ، قضاها يعزق الأرض فى بسـتان الخضار • فلما حل اليوم الثالث الذى سيُحتفل فيه بتعميد الصبى كانت فكرة جريجورى قد اختمرت فى رأسه • فهذا هو يدخل على مسـكن الخدم حيث اجتمع القسس والمدعوون ، وحيث جاء فيـدور بافلوفتش أخيرا ليكون للصبى عرّابه ، هذا هو يدخل فيقول فجأة : « الأفضـل أن لا يُعمَّد الطفل البتة • » • لم يقل ذلك بقوة كبيرة ، ولم يسترسل فى كلام لا داعى اليه ، وانما قاله وهو لا يكاد ينطق بألفاظه واضحةً ، وقاله وهو يلقى على الكاهن نظرة قاتمة عنيدة •

سأله الكاهن مدهوشاً ضاحكاً من كلامه :

ـ لماذا ؟

فتمتم جريجورى يجيبه :

ـ لأنه ... تنين !

ـ ماذا ؟ أى تنين ؟

صمت جريجورى بضع لحظات . ثم دمدم يقول مضطربا أشد الاضطراب ، ولكن وجهه كان يعبر عن الحزم ، وكان واضحا أنه لا يريد أن يدخل فى شروح أوسع ، دمدم يقول :

ـ اختلط الأمر على الطبيعة !

ضحك الحضور ، وتم تعميد الصبى المسكين مع ذلك . صلّى جريجورى بحرارة وخشوع أمام جرن التعميد ، ولكنه لم يغيّر رأيه فى الوليد . على أنه لم يخلق أية صعوبة بعد ذلك ، وانما اكتفى ، خلال الأسبوعين اللذين عاشهما الطفل الضعيف الهزيل ، بأن يصر على أن لا يراه ، متظاهرا بأنه يجهل وجوده، قاضيا أكثر وقته فى خارج مسكنه. ولكن حين مات الصبى بعد أسبوعين بمرض القُلاع ، تولى هو نفسه ارقاده فى تابوته الصغير وتأمله طويلا بحزن شديد . وحين أهيلت آخر مجرفة من التراب على الحفرة التى دفن فيها الصبى ، وهى حفرة لم تكن عميقة ، جثا على ركبتيه ، وحيَّا القبر منحنيا حتى الأرض . ومنذ ذلك اليوم ، خلال سنين طويلة ، لم يجىء جريجورى على ذكر هذا الصبى مرة واحدة ، كما أن مارفا اجناتفنا لم تذكره بحضور زوجها فى يوم من الأيام . فاذا اتفق لها أن تكلمت مع أحد عن « صغيرها » ، تكلمت هامسةً همساً حتى فى غياب جريجورى فاسيلفتش . وفى رأى

SS

مارفا اجناتفنا أن هذه الجنازة هي أصل الاهتمامات الدينية التي أصبحت تُلاحَظ عند جريجوري الذي انصرف منـذ ذلك الحين الى دراسة « الأمور الالهية » ، فهو يكب على قراءة كتاب أسماء الشهداء صامتا معتزلا في كثير من الأحيان ، واضعا على عينيه لهذه المناسبة في كل مرة نظارتيه الضخمتين الكبيرتين اللتين لهما اطار من فضة • كان ينـدر أن يقـرأ جريجوري في هذا الكتاب جهراً ، الا في أيام الصـيام الكبير • وكان يحب أن يقرأ « سفر أيوب » خاصـةً ، كما استطاع أن يحصـل من مكان ما على كتـاب يضـم أفكار ومواعظ « أبينا حبيب الله ، اسحاق السوري » * ، فكان لا ينى يقرأ هذا الكتاب ويعيد قراءته سنين طويلة ، دون أن يفهم منه شيئا بطبيعة الحال ، ولكن لعل هذا بعينه هو ما كان يجعله يقدّر هـذا الكتـاب مزيدا من التقـدير ويحترمه مزيدا من الاحترام • وقد عنى في الآونة الأخيرة بآراء ملة الفلاجلان ، فدرس ، من كتب ، هذه الحركة التي التقى ببعض المنضمين اليها في القـرى المجاورة ، فاهتزت نفسـه من ذلك اهتزازا واضحا ، ولكنـه رأى أن الانضـمام الى العقائد الجـديدة ليس بالأمر المستحسن • وطبيعي أن العكوف على قراءة « الكتب الدينية » قد أضفى على تعبير وجهه مزيدا من الخطورة والرصانة والوقار •

لعل جريجوري كان ميالا الى الصوفية • وهذا حادث من أغرب ما يمكن أن يقع من حوادث ، حادث لم يكن في الحسبان قط ، يحدث كأنما على عمد ، في تلك الآونة نفسها التي شهدت ميلاد ابنه ذي الأصابع الست وشهدت موته السريع ؛ وهـو حادث خلّف في نفسه ، خلال سنين طويلة بعد وقوعه ، كما رضي أن يعترف هـو نفسه بذلك مرةً ، خلف في نفسه « أثراً لا يندرس » وألقى عليهـا « طابعا لا يندثر » • اليكم ما حدث : في الليلة التي أعقبت دفن الصبي الصغير ، استيقظت

مارفا اجناتفنا فجأة على شعور بأنها تسمع بكاء آتياً من بعيد ، بكاء يشبه بكاءَ وليد • ذعرت مارفا اجناتفنا ، فايقظت زوجها • وأصاخ الرجل بسمعه فقال ان الأصوات التي يسمعها هي أصوات أنين « كأنه أنين امرأة » • ونهض فارتدى ملابسه • هي ليلة حلوة من ليالي شهر أيار (مايو) • خرج جريجوري الى درج المدخل ، فأدرك ادراكا واضحا أن أصوات الشكوى كانت آتية من جهة الحديقة • فدهش واستغرب : ان الحديقة تُغلق في الليل من جهة الفناء بقفل قوي، وليس يمكن الدخول اليها من ممر آخر ، لأنها محاطة بسياج عالٍ قوي • عاد جريجوري الى بيته ، فأشعل سراجا ، وتناول المفتاح واتجه نحو الحديقة دون أن ينطق بكلمة واحدة ، غيرَ عابيء بذعر امرأته الهسترى التي أكدت أنها تسمع سماعا واضحا أصوات بكاء طفل وليد ، وأن هذه الأصوات لا يمكن أن تكون الا أصوات ابنهما يبكي في الحديقة ويناديها هذا النداء • وأدرك جريجوري عندئذ أن أصوات الشكوى آتية من الحمامات القامة في الحديقة على مقربة من الباب الحديدي ، وأنها أنّات امرأة ما في ذلك ريب • فلما فتح باب الحمامات جمد في مكانه دهشةً من المنظر الذي رآه : ان معتوهة المدينة التي تجوب الشوارع كل يوم والتي يعرفها سكان مدينتنا حق المعرفة ــ وقد أطلقوا عليها لقب اليزابث سمردياستشايا * ــ قد تسللت الى الحمامات ، فولدت هنالك ولداً • وكان الصغير راقدا قرب أمه التي تحتضر • لم تنطق المعتوهة بكلمة واحدة ، لسبب بسيط ، هو أنها لا تعرف أن تتكلم • يحسن مع ذلك أن نتحدث عن هذه المرأة بمزيد من التفصيل •

٢

اليزابث سمردياستشايا

بث هذا الحادث في قلب جريجوري اضطرابا عميقا، وذلك بسبب تفاصيل ذكَّره هذا الحادث بها، وعزَّز في نفسه شبهة أليمة مقزّزة كانت قد ساورته من قبل . اليزابث سمردياستشايا بنت قصيرة القامة جدا « لا يزيد طولها كثيرا عن ذراعين » كما أصبح يحلو لعجائز النسوة التقيات في مدينتنا بعد موتها أن يقولوا . وكان وجه هذه المرأة الشابة التي تبلغ العشرين من العمر معافى عريضا ملونا، ولكنه يفصح عن العته والبلاهة افصاحا تاما : ان نظرتها جامدة، وهي نظرة تشتمل رغم هدوئها على شيء يؤلم النفس . وكانت تسير حافية القدمين منذ ولدت، في الشتاء وفي الصيف لا يستر جسمها الا قميص من قنب. وكان شعرها، الأسود تقريبا، الكثيف جدا، المتجعد كأنه جزائز شاة، يتكوم على رأسها كطاقية ضخمة ؟ وهو على كل حال ملطخ دائما، زاخر بالتراب وأوراق الأشجار والغصينات والأقذاء والنشارات، لأنها اعتادت أن تنام على الأرض في الغبار والوحل . وكان أبوها ايلياء وهو رجل من سكان المدينة مسكين مدمَّر مريض لا مأوى له قد أدمن على الشراب، وأصبح منذ عدة سنين يعيش في دار رجل من أهل مدينتنا

حصل عنده على وظيفة غامضة مبهمة هي وظيفة عامل . أما أم اليزابث فكانت قد ماتت منذ زمن طويل . وكان ايليا ، المريض الممرور الشرس يضرب اليزابث ضربا مبرحا بلا رحمة ولا شفقة اذا هي جاءت الى الدار . على أن اليزابث كانت لا تجيء الى الدار الا نادرا ، لأن جميع سكان المدينة كانوا يحسنون وفادتها من حيث هي امرأة « مجذوبة » يحبها الرب . وقد حاول سادة ايليا ، كما حاول ايليا نفسه أيضا ، وكما حاول عدد كبير من المحسنين في مدينتنا ولا سيما رجال ونساء ممن يعملون في التجارة ، حاولوا مرارا أن يكسوا اليزابث بما هو أقرب الى الحشمة من قميص القنب وحده ، فكانوا يدثرونها كل عام ، في أوائل أيام البرد، بمعطف من جلد الخروف ، وكانوا يلبسون قدميها حذاءين . فكانت اليزابث تدع لهم أن يفعلوا بها ذلك طائعة بغير احتجاج ، ولكنها ماتلبث أن تبتعد عنهم ، وتمضي الى مكان ما بالمدينة ، هو فناء الكاتدرائية في أغلب الأحيان ، فتخلع عن جسمها جميع الثياب التي أُلبستها ــ اللفعة والتنورة والمعطف والحذاءين ــ فتدعها هنالك ، ثم تمضي كما كانت ، حافية القدمين لا يستر جسمها الا قميص . وقد حدث مرةً أن حاكم اقليمنا الجديد مرَّ بمدينتنا في جولة تفتيشية ، فلما رأى اليزابث هذه صدم منظرُها أفضل عواطفه ، ورغم أنه أدرك أن المرأة هي «يوروديفايا» * ، وقد ذُكر له ذلك فورا على كل حال ، فقد أصر على أن منظر فتاة شابة تجوب الشوارع بقميص شيءٌ يؤذي الأخلاق العامة ، وأمر بوضع حدٍ لهذه الفوضى . ولكن الحاكم انصرف من المدينة فلم يهتم أحد بعد انصرافه باليزابث وتُركت تعيش كما يحب لها هواها أن تعيش . ومات أبوها أخيرا ، فأصبحت يتيمة لا أب لها ولا أم ، فكان من شأن ذلك أن جعلها أقرب الى قلوب التقاة من سكان مدينتنا وأحب الى نفوسهم ؛ بل يبدو أن جميع الناس كانوا يحبونها حبا صادقا ، حتى الصغار الذين

كانوا يمتنعون عن مشـــاركتها ويعفون عن تنكيدها ، مع أن الأطفال في مدينتنا ، ولا سيما أطفال المدارس ، كانوا فئة عدوانية متحرشة مشاجرة. كانت اليزابث تدخل بيوتا لا تعرفها ، فما يخطر ببال أحد أن يطردها. بالعكس : كان كل واحد يسرع الى تدليلها ، ويعطيها قرشا أو قرشين ، فكانت تأخذ هـــذه الاعطيات الصـــغيرة من النقود ، ولكنها ماتلبث أن تلقيها في صندوق الصدقات بكنيسة من الكنائس أو سجن من السجون. فاذا أعطاها أحد في السوق رغيفا من أرغفة الخبز الطرية الصغيرة التي تسمى « بوبليك » أو « كالاتش » ، لم يفتها أن تهبها لأول طفل تلقاه في طريقها أو هي تستوقف في الشارع سيدةً من أغنى سيدات مدينتنا فتعطيها الرغيف ، فتقبله السيدة منها فرحةً . كانت لا تريد أن تتغذى الا بخبز أسود وماء . وكانت في بعض الأحيان تدخل دكانا من الدكاكين الحافلة بأجمل المعروضات فتجلس فيه : ان كل شيء في متناول يدها ، البضاعة الثمينة والمال الوفير ، ولكن أصحاب المتاجر لا يخطـر ببالهم أن يراقبوها لثقتهم بأنها لن تسرق شيئا في يوم من الايام ، ولن تمتد يدها الى كوبك واحد ولو صفت أمامها ألوف الروبلات ثم نُسيت . وقلَّما كانت تُرى في الكنيسة ، ولكن كان يحلو لها أن تقضي ليـــالي بأسرها مضطجعةً في فناء معبد من المعابد ، حين لا تتسلل الى بستان من بســاتين الخضار من خلال سياج (ما تزال الأسيجة التي تقوم مقام الحواجـــز كثيرة في منطقتنا) . وكانت تذهب الى الدار – أعني دار أسياد أبيهـا المتوفى – مرة في الاسبوع تقريبا أثناء الصيف ، وفي جميع الأيام أثناء الشتاء ، ولكنها لا تذهب الى هناك الا لقضاء الليل ، فهي تلطو عندئذ في دهليز من الدهاليز أو تقبع في الاســـطبل . والناس يستغربون كيف تستطيع اليزابث أن تتحمل هذا النوع من الحياة ، ولكن اليزابث كانت

قد تعودت ذلك ، وهي رغم ضآلة جسمها قوية البنية شديدة الاحتمال • صحيح أن بعض الأشخاص الذين خصتهم الأقدار في مدينتنا بحظ وافر من الهناء كانوا يؤكدون أن اليزابث انما تتصرف هذا التصرف من باب الكبر والزهو والخيلاء • ولكن هذا التفسير يصعب على المرء أن يصدقه، لأن هذه الفتاة كانت لا تعرف حتى الكلام ، فهي لا تزيد على أن تحرك لسانها من حين الى حين بأصوات مبهمة لا تبين • فهل يمكن الحـــديث بصددها عن كبر أو زهو أو خيلاء ؟

ففي ذات ليلة من ليالي شهر ايلول (وقد حدث هذا منذ زمان بعيد جدا) ، ليلةٍ مضيئة دافئة يغمرها القمر البدر بنوره ، كانت عصبة فرحة مرحة من اللاهين العابثين من أصحاب اليسار في مدينتنا عائدة من النادي بعد افراط في الشراب والطعام ، فهي تعود قاطعة أفنية الدور وبساتين المنازل • كان الوقت ساعةً متأخرة من الليل بالنسبة الى عاداتنا ، وكانت العصبة خمسة رفاق أو ستة • ان الشارع الصغير الذي يجتازونه الآن محفوف بسياج من كل جهة ، ووراء السياج تمتد بساتين لخضـــار في المنازل المطلة على الشارع ، والشارع يفضي الى الجسور الضيقة الممدودة عرضاً على غديرنا الطويل الآسن الذي اعتاد الناس أن يسموه في بعض الأحيان نهرا • وان العصبة لتسير اذا هي تلمح اليزابث على حين فجأة نائمةً قرب السـياج بين نباتات القرّاص والأرقطيون • توقف العابثون القاصفون يضحكون لهذا المشهد في قهقهة مجلجلة مدوية ، وأخـــذوا يطلقون الأمازيح البذيئة في غير حياء • وفجأة خطرت ببال أحد أبنـــاء الأسر فكرة عجيبة هي أن يطرح سؤالا من طبيعة خاصة جدا فقـــال : « هل يمكن أيّ انسان أن يرى في هذه البهيمة امرأة ، في هذه اللحظة نفسها مثلا ؟ الخ •••• » فضج الجميع يظهرون اشمئزازا متكبرا ونفورا مستعليا ، مؤكدين أن ذلك غير وارد • ولكن فيدور بافلوفتش الذي كان

أحد أفراد العصبة تقدم فورا فقال : « بالعكس : ذلك شيء يمكن فعله جدا ، وان في وسع المرء تماما أن يعد هذه المخلوقة امرأة ، بل وان ذلك قد يكون فيه كثير من الاثارة اللذيذة ، الخ الخ ... » . يجب أن نذكر أن فيدور بافلوفتش كان في ذلك الأوان يغالي في ابراز دور المهرّج الذي يمثله ، ويسعى الى انتهاز جميع المناسبات التي يتاح له فيها أن يلمع نجمه في هذا المجال وأن يسلّي رفاقه وأن يضحكهم ، على قدم المساواة بينه وبينهم في الظاهر ولكن بروح العبودية الدنيئة لهم في حقيقة الأمر . وقد حدث هذا في الآونة التي كان قد تلقى فيها من سان بطرسبرج نبأ وفاة امرأته آديلائيد ايفانوفنا ، فكان وقد وشّح قبعته بشريط أسود يسترسل في السكر ويرتكب من الأعمال الفاجرة ما كان يثير الاشمئزاز ويبعث الاحساس بالفضيحة في نفوس كثير من الناس ، حتى أشدهم انحلالا وأكثرهم دعارة . طفقت العصبة الفرحة تضحك طبعا لهذا التصريح الذي لم يكن في الحسبان . وقد مضى أحد العابثين الى حد تشجيع فيدور بافلوفتش على أن يفعل ، ولكن الآخرين أكدوا اشمئزازهم بقوة متزايدة ، وان فعلوا ذلك بمرح ما ينفك يشتد قوة . وأخيرا تابع الجميع طريقهم . وقد حلف فيدور بافلوفتش فيما بعد أنه انصرف مع رفاقه في وقت واحد . وقد يكون ما قاله صحيحا ، فان أحدا لم يعرف حقيقة الامر ، لا ولن يعرفها أحد يوما على وجه اليقين . غير أن ما حدث هو أن المدينة كلها أصبحت بعد خمسة أشهر أو ستة لا تتحدث الا عن اليزابت التي صار واضحا أنها حبلى ، وأن المدينة تتحدث عن هذا الأمر باستياء صادق واستنكار عميق ، وأن السؤال الذي تلقيه جميع الشفاه هو هذا السؤال : « من الآثم ؟ من الجاني ؟ » . وفي تلك اللحظة انما انتشرت في مدينتنا شائعة رهيبة تقول ان الآثم ليس الا فيدور بافلوفتش نفسه . فكيف ولدت هذه الشائعة ؟ ان العصبة

الفرحة التى كانت عائدة من النادى فى تلك الليلة من ليالى شهر ايلول، لم يبق منها فى مدينتنا الا واحد هو رجل مسن ، محترم جدا ، برتبة مستشار دولة ، متزوج وله ابنتان كبيرتان • ومن المحقق تماما أنه لم يقصص شيئاً ، حتى ولو كان يعرف شيئا • أما اللاهون الآخرون ، وعددهم خمسة تقريبا ، فكانوا قد بارحوا مدينتنا أثناء تلك المدة • ومع ذلك كانت الشائعة تنصب على فيدور بافلوفتش وتتهمه اتهاما ملحا عنيدا• والحق أن فيدور بافلوفتش قد استاء من الامر • ولو قد سئل فيه يومئذ لامتنع عن الرد على هؤلاء العامة من الباعة وعلى أولئك الصغار من سكان المدينة • لقد أصبح فيدور بافلوفتش فى ذلك الوقت متكبرا ، فهو لا يصاحب الا أنداده ، لا يصاحب الا الموظفين والسادة الذين كان يحلو له كثيرا أن يسلّيهم ويضحكهم • ولقد تحيز جريجورى لمولاه ، ودافع عنه بقوة واقتناع ، وهاجم تلك الأقاويل الكاذبة بكل ما أوتى من قوة ؛ حتى لقد طفق يشتم الواشين ويهينهم ؛ كما أنه اندفع يقيم الأدلة الطويلة ويدلى بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة ، بحيث أن عددا كبيرا من الأشخاص تبددت شكوكهم وزايلتهم شبهاتهم • كان جريجورى يؤكد قائلا بلهجة جازمة : « ان هذه البنت السيئة هى وحدها مسئولة ، وان الجانى لا يمكن أن يكون أحدا غير قاطع الطريق كارب » • (بهذا الاسم كان يسمى مجرم خطر معروف جدا عندنا ، هرب فى تلك الآونة من سجن الاقليم ، واختبأ فى مدينتنا) • لقد بدا هذا الافتراض مقبولا، لأن الناس يتذكرون مغامرات كارب هذا ، ولم ينسوا أنه فى تلك الليلة نفسها من ليالى شهر ايلول قد حام فى شوارع المدينة وسطا على ثلاثة مارة فنهبهم • على أن هذا الحادث وما أثاره من ثرثرات كثيرة لم يحرم اليورودينايا المسكينة من عطف الناس عليها • بالعكس : أصبح الجميع منذ ذلك الحين يهتمون بها مزيدا من الاهتمام ويرعونها مزيدا

من الرعاية ويعملون على حمايتها قصاراهم • حتى أن التاجرة كوندراتيفا وهي أرملة ثرية جدا ، قد قررت فى نهاية شهر نيسان (أبريل) أن تضم الشقية الى منزلها وأن تحتفظ بها عندها الى أن تضع طفلها • وقد روقبت اليزابث بيقظة شديدة ، ولكنها رغم هذه المراقبة اليقظة المستمرة استطاعت فى آخر يوم أن تهرب مع المساء من عند السيدة كوندراتيفا لتلوذ بحديقة فيدور بافلوفتش • أما كيف استطاعت وهى فى حالتها تلك أن تجتاز الحاجز العالى المتين ، فتلك مسألة ظلت بغير حل الى حد ما • فبعضهم يزعم أن هناك « أناساً » نقلوها الى هناك نقلا ، وبعضهم يذهب الى أن « قوى خفية سرية » قد أعانتها على اجتياز الحاجز • وأغلب الظن أن الامر قد تم على نحو طبيعى تماما ، ولو بمهارة عظيمة : ان اليزابث ، الماهرة فى تسلق الأسيجة للتسلل الى بساتين الخضار ، لا بد أنها تسلقت سور حديقة فيدور بافلوفتش ، ثم قفزت الى الحديقة رغم حملها ، فآذت نفسها بذلك طبعا •

هرع جريجورى الى مارفا اجناتفنا فكلفها بأن تمضى الى اليزابث لتعنى بها ، بينما ذهب هو يبحث عن قابلة عجوز تسكن من حسن الحظ فى قرية قريبة من المدينة • ولقد أمكن انقاذ الطفل • أما الأم فقد فاضت روحها عند الفجر •

وأخذ جريجورى الطفل فحمله الى مسكنه ، وأجلس مارفا فوضع الوليد على ركبتيها وأسنده الى صدرها ، وقال لها : « ان اليتيم ابن الله ، فهو قريب جميع البشر ، وهذا يصدق علينا نحن الاثنين أكثر مما يصدق على غيرنا • ان صغيرنا الميت هو الذى أرسله الينا ! ان هذا الطفل قد ولد من أم صالحة وشيطان رجيم ، فأطعميه ، ولا تبكى بعد الآن • • » • هكذا تولت مارفا اجناتفنا تربية الصغير • وقد عُمِّد وسُمِّى بافل ، أما الاسم الأبوى الذى كان يجب أن يسمى به فقد تم الاجماع بغير كلام

وبغير شرح أو تعليل أو تفسير ، على أن يكون اسم « فيدوروفتش » . ولم يعترض فيدور بافلوفتش أى اعتراض على ذلك ، حتى لقد وجد الأمر داعيا الى الضحك جدا ، ولكنه ظل فيما عدا ذلك ينكر انكارا قاطعا أنه هو الفاعل . وتخيَّل فيدور بافلوفتش فيما بعد أن يسمى الصبى باسم أسرة ، فأسماه سمردياكوف مشتقا ذلك من لقب أمه ، اليزابث سمردياستشايا .

ان سمردياكوف هذا هو الذى أصبح فيما بعد الخادم الثانى لفيدور بافلوفتش ، وكان يعيش فى بداية هذه القصة بالمبنى الملحق الذى يقيم فيه العجوزان جريجورى ومارفا . وقد جُعل سمردياكوف طباخاً .

قد يكون ضروريا أن أتحدث عن سمردياكوف هذا بمزيد من الافاضة ، ولكننى أشعر بوخز فى ضميرى اذا أنا صرفت انتباه القراء مدةً طويلة الى الحديث عن خدمٍ مبتذلين ، فهأناذا أعود اذن الى سرد قصتى ، آملاً أن تعرض لى من تلقاء نفسها فرصة الكلام مرة أخرى عن سمردياكوف فى باقى الرواية .

٣

اعتراف قلب حار شعراً

حين تلقى أليوشا الأمر الذى أصدره اليه أبوه صائحاً من عربته عند مغادرته الدير ، لبث جامدا فى مكانه مدة من الوقت وقد استبدت به حيرة شديدة • على أن أليوشا لم يكن جامدا كتمثال، ذلك أنه لا يفقد أبدا ما يتصف به من حضور الذهن وسرعة البديهة • حتى لقد اتسع وقته ، رغم الخواطر التى هزّت نفسه وبثت فيها الاضطراب ، لأن ينزل الى مطبخ كبير الرهبان فيسأل عما قام به أبوه من أعمال فى غرفة الطعام • ثم مضى فى طريقه الى المدينة آملاً أن يهتدى أثناء الطريق الى جواب عن الأسئلة التى كانت تدور فى رأسه وتعذبه وتقلقه• ويجب أن أذكر فورا أن الأقوال التى صاح بها أبوه والأمر الذى أصدره اليه بالعودة الى المنزل « مع وسادته وفراشه » ، أن ذلك كله لم يوقظ فى نفس أليوشا شيئا من خوف• فهو يدرك حق الادراك أن هذا الأمر بالعودة الى المنزل ، الذى ألقاه اليه أبوه بذلك الصوت القوى وتلك الطريقة الجازمة ، انما هو ثمرة « اندفاع » عابر ، بل هو نتيجة رغبته فى الاخراج التمثيلى والتزيين المسرحى ••• وقد ذكّره هذا بما حدث فى مدينتنا منذ زمن قصير ، حين احتفل أحد سكانها بعيد ميلاده ، فلما

أسرف في الشراب أكثر مما اعتـــاد أن يسرف ، غضب على حين فجأة غضبا شديدا واندفع اندفاعا رهيبا ، وذلك في منزله نفسه وبحضور ضيوفه، لأنه مُنع من أن يصب له مزيد من الفـودكا ، فاذا هـــو يأخذ يكسر الأطباق ويمزق ثيابه وثياب امرأته ، ويحطم الأثاث ، ثم انتهى الأمر الى أن أخذ يهشم زجاج النوافذ ، كل ذلك في سبيل حسن الاخراج وجمال التأثير ••• فلا شك أن أباه حين ألقى اليه أمره كان يقوم بعمل من هذا النوع • ذلك ما حدث به أليوشا نفسه • وقد ثاب الرجل الذى احتفـل بعيد ميلاده ، ثاب الى رشده منذ الغد ، وبكى طبعا على أطباقه وصحونه وأوانيه التى تحطمت • كان أليوشا يعلم اذن أن أباه سيأذن له فى الغداة أن يرجع الى الدير ، وربما أذن له بذلك قبل نهاية هذا النهار نفسه • ولقد كان واثقا على كل حال من أن أباه لن يحب يوما أن يحـــزنه ، أن يحزنه هو على الأقل ! ثم انه ليس هناك أحد ـ كان أليوشا مقتنعا بذلك ـ ليس هناك أحد فى العالم يمكن أن يريد أن يحزنه ، وما من أحد يمكن أن يبلغ منه ذلك ولو أراد • تلك عند أليوشا بديهية واضحة وحقيقة ثابتة لا تقبل نقاشا • لذلك سار قُدماً لا يتردد ولا يلوى على شيء •

أما الخوف الذى كان يساوره فى تلك اللحظة فهو خوف من نوع خاص يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، خوف يثقل على نفسه خاصة لأنه لا يستطيع أن يستبين طبيعته وأن يجلو كنهه واضحا : انه خوف من المرأة ، بل هو خوف من امرأة بعينها هى كاترين ايفانوفنا تلك التى توسلت اليه بكثير من الالحاح ، فى البطاقة التى أرسلتها اليه مع السيدة هوخلاكوفا منذ بضع ساعات ، أن يجيء اليها ، دون أن تشير الى الهدف من هذه الزيارة التى تلح فى طلبها • ان رجاءها ذاك ، واضطراره الى تلبية هذا الرجاء اضطرارا لا فكاك منه ولا محيد عنه ، ان ذلك كله قد

ملأ نفسه منذ البداية بضيق غامض وهمٍ مبهم ، وجعله يشعر بنوع من خوف يعذّبه وما ينفك يتفاقم طوال ذلك الصباح شيئا بعد شيء حتى غدا ألماً واخزاً كاوياً لا يطاق ، دون أن تستطيع كبته الأحداث التى تعاقبت بعد ذلك فى الدير ، والمشاهد والوقائع التى تلاحقت فى حجرة الشيخ وفى مسكن كبير الرهبان . وليس مرد هذا القلق الى أنه يجهل ماستقوله له هذه المرأة ، وما سيجيبها به . فليست المـرأة بوجه عام هى ما كان يخشاه فيها ويخافه منها ، فانه وان تكن معرفته بالنساء قليلة ولا شك ، قد عاش طول الوقت فى صحبة النساء وحدهن تقريبا ، منذ طفولته الأولى الى حين دخوله الدير . وانما هو خائف من هـذه المرأة بعينها ، من كاترين ايفانوفنا بذاتها ، ولقد خاف منها منذ اللحظة الأولى التى رآها فيها ؟ وهو مع ذلك لم يلقها الا مرة أو مرتين ـ وربما ثلاثا ـ وبادلها بضع كلمات عرضاً فى مناسبة من المناسبات . ان الصـورة التى بقيت فى خياله منها هى صورة فتاة بارعة الجمال ، شديدة الكبرياء، قوية السطوة. ومع ذلك فليس جمالها هو ما كان يعذبه ، وانما كان يعذبه شيء آخر لم يستطع له تعليلا ، فكان جهله هذا يفاقم عذابه مزيدا من المفاقمة فى تلك الساعة . لا شك أن هـذه الفتاة تسعى الى أنبل الأهداف . ذلك أمر يعرفه : انها تحاول انقاذ أخيـه دمترى الذى أذنب فى حقهـا ، وهى لا ترغب فى ذلك ولا تتمناه الا شهامة منها وأريحية . ولكن أليوشا رغم ما فى هذه العواطف من نقاء ورفعة لا يملك الا أن يمجدهما ولا يملك الا أن ينصفهما ، لم يستطع أن يتغلب على الضيق الذى كان يغزو نفسه ويثقل على صدره كلما ازداد اقترابا من منزل الفتاة .

وقدّر أليوشا أن أخاه ايفان الذى توثقت الصداقة الحميمة بينـه وبين كاترين ايفانوفنا ، قد لا يكون الآن عندها ، لأنه لا بد أن يكون مع أبيه . أما دمترى فان أليوشا أكبر ثقة بأنه لن يلقاه عندها أيضا ، وهو

يوجس سبب ذلك. معنى هذا أن الحديث بينه وبينها سيجرى في خلوة. ألا ليته يستطيع ، على الأقل ، أن يرى أخاه دمترى قبل هذا الحديث المحتوم ! خطر ببال أليوشا أن يسرع الى أخيه بوثبة ليراه . تُرى أليس ممكنا أن يتناقش معه أولا ، دون أن يظهره على رسالتها طبعا ؟ ولـكن دمترى يقيم في مكان بعيــد ، وأغلب الظن أنه ليس في منزله الآن . توقف أليوشا لحظة ليفكر ، ثم عزم أمره أخيرا . رسم على نفسه اشارة الصليب بحركة سريعة ، ولم يلبث أن ابتسم بدون سبب ظاهر ، ثم اتجه يسير بخطى حازمة نحو منزل السيدة « الرهيبة » .

كان يعرف أين تقطن . ولكن الاتجاه الى « الشارع الكبير » ثم عبور الميدان ، ثم ... الخ ... كل ذلك يجعل الطريق اليها طويلا . ان مدينتنا الصغيرة مبعثرة جدا ، والمسافات فيها شاسعة أكثر الأحيان * أضف الى ذلك أن أباه ينتظره ، فلعله لم ينس الامر الذى ألقاه اليه ، وقد ينفد صبره وتعود اليه نزواته . وقرر أليوشا ، بعد تقليب الامر على وجوهه المختلفة هذه ، أن يسلك الطرق المختصرة عبر الأفنية والحدائق، فهو يعرف الشوارع الصـغيرة والمخـارج المختلفة في مدينتنا كما يعرف راحة كفه . كان عليه أن يقطع الشوارع قطعـا ، فيمر بأراض بور ، ويجتاز في أماكن شتى أسيجة تحيط بأملاك خاصة ، ويعبر أفنية منازل أناس غرباء يعرفه كل واحد منهم ، ويحييه عند مروره . فعلى هذا النحو يبلغ « الشارع الكبير » بنصف الوقت الذى يحتاج اليه لو سلك السبيل العادى . فلما اتبع أليوشا هذا الطريق المختصر وجد نفسه في لحظة من اللحظات قريبا من منزل أبيه على حدود بستان متاخم لبستانه ، تابع لمنزل صغير عتيق بال ليس له من النوافذ الا أربع وكأن القدم قد شقق جدرانه. ان صاحب هذا المنزل هو ، كما كان أليوشا يعرف ذلك ، امرأة متواضعة من سكان المدينة ، عجوز ليس لها الا ساق واحدة ، تسكن في المنزل

مع ابنتها • وكانت ابنتها هـــذه قد عملت في الآونة الأخيرة بالعاصمة ، خادمة رئيسية ، لدى جنرالات في الغالب • ولكنها رجعت منذ مايقرب من سنة ، بسبب مرض أمها ، فهي الآن تظهر في مدينتنا بأثواب أنيقـة جدا • وكانت العجوز وابنتها تعيشان مع ذلك حياة فاقة شديدة وعـوز كبير ، حتى لقد كانتا تذهبان كل يوم الى مطبخ فيدور بافلوفتش ، من حيث هما جارتان ، تلتمسان شيئا من حساء وخبز تغـدقه عليهما مارفا اجناتفنا راضية مسرورة • ولكن الفتاة رغم أنها تقتات من البر والاحسان لم تقبل أن تبيع أي ثوب من أثوابها التي كان بينها ثوب سابغ الذيل • وكان أليوشا قد عرف هذه النقطة الأخيرة بمصادفة محضة من صديقـه راكيتين الذي كان على علم بكل شيء في المدينة حتما ، ثم لم يلبث أن نسيها طبعا ، ولكنه وقد بلغ الآن حديقة هذه الجارة تذكر الذيل السابغ على حين فجأة ، فاذا هو يرفع رأسه بعد أن كان مطرقا الى الارض طوال المدة التي قضاها مفكرا متأملا أثناء سيره • وعندئذ انما وقع بصره على ما لم يكن في حسبانه قط •

لقد لمح أخاه دمتري فيدوروفتش وراء سياج الحديقة ، قاعدا على شيء من الأشياء مشرئباً برأسه متجاوزاً الحاجز بصدره ، يومىء اليــه بحركات عريضة من يده ، ويناديه مهيبا به بالاشارات أن يجيء اليـه ، متحاشيا أن يصرخ ، بل ومتجنبا أن يقول كلمة واحدة بصوت عال ، مخافة أن يُسمع • فسرعان ما هرع اليه أليوشا •

ـ من حسن الحظ أنك رفعت رأسك ، والا لكنتُ اضطررت أن أصيح •

كذلك همس يقول دمتري فيدوروفتش لأخيه مسرعاً وقد بدا عليه فرح شديد برؤيته • ثم أضاف :

ــ تسلق من هنا ... هيا أسرع ! ما أحسنها فكرة أنه خطر ببالك أن تجيء . لقد كنت أفكر فيك ...

سُرَّ أليوشا هو نفسه سرورا عظيما أيضا ، مع تساؤله عما يجب أن يفعله حتى يجتاز الحاجز . ولكن ميتيا رفعه من كوعه بيد قوية ليساعده على أن يقفز ، فشمر أليوشا ثوبه الرهبانى ، ثم اذا هو يصير فى داخل الحديقة بوثبة كوثبة صبى صغير من الصبية الذين يسيرون حفاة الأقدام .

همس ميتيا يقول له بحماسة :

ــ والآن فلنسر !

فسأله أليوشا بصوت هامسٍ أيضا ، وهو ينظر الى جميع الجهات فيرى أنهما وحيدان فى الحديقة تماما فلا يمكن أن يسمعهما أحد :

ــ الى أين ؟

لم تكن الحديقة واسعة طبعا ، ومع ذلك فان المنزل الصغير الذى تمكله العجوز وابنتها يبعد خمسين خطوة على الأقل .

ــ نحن وحيدان ، فلماذا تتكلم همساً ؟

ــ لماذا أتكلم همساً ؟ لا يعلم الا الشيطان لماذا !

هكذا صاح دمترى فيدوروفتش بأعلى صوته ، وتابع يقول :

ــ حقا ... فعلا ... لماذا تكلمت همساً ؟ انظر كيف تحلو السخافات للطبيعة فى بعض الأحيان ! أنا موجود هنا سراً ، ويجب أن أكون كتوما . سأشرح لك الامر فيما بعد . اننى لشعورى بضرورة الحفاظ على السر ، أخذت أهمس بغباوة ، مع أن ذلك لا داعى اليه البتة . هيا ... سأشرح لك الأمر . والى أن أشرحه لك ، اياك أن تقول كلمة واحدة . هل تعلم ؟ وددت لو أقبلك ...

SS

المجد للخالق في الخلق *
المجد للخالق في نفسي

لقد كنت أردد هذين البيتين من الشعر هنا ، لحظة وصلت أنت ..

ان الحديقة التى تبلغ مساحتها قرابة هكتار كانت خالية من الأشجار الا فى محيطها على طول الأسوار الأربعة ؛ وهى أشجار تفاح وقيقب وزيزفون . أما داخل الحديقة فلم يكن فيها الا مرج أعشاب يعطى فى كل صيف حوالى ثلاثين كيلو من العلف . وكانت صاحبة البيت تؤجر هذه الحديقة منذ مطلع الربيع ببضع روبلات . وهناك شجيرات من توت العليق وثمر الريباس وعنب آذار متناثرة على طول الأسوار . وقد زُرع قرب المنزل الصغير شيء من خضار ، ولكن ذلك لم يتم الا منذ زمن قصير .

قاد دمترى فيدوروفتش ضيفه الى ركن من أنأى أركان الحديقة بعيد عن المنزل . فهناك ، وسط أجمة كثيفة من أشجار الزيزفون وشجيرات الكشمش الهرمة وأشجار البيلسان والغبيراء والأزدلخت ، يرى المرء بقايا « كشك » قديم جدا ، قد سوّده الزمان ولواه ، جدرانه متباعدة ، ولكن سقفه ما يزال سليما ، فيمكن الاحتماء به اذا هطل مطر . لقد بنى هذا « الكشك » منذ زمن بعيد ، منذ نصف قرن فيما يقال ، بناه أحد المالكين السابقين الذى تعاقبوا على هذا المنزل الصغير ، رجلٌ يسمى الكسندر كارلوفتش فون شميدت ، ليوتنان كولونيل محال على التقاعد . كل شيء فى هذا « الكشك » منخور مسوّس : أرضه خربة نتنة ، أخشابه متزعزعة مترنحة ، رائحته عفنة رطبة . وفى داخله كانت توجد مائدة خضراء من خشب ، قد غاص نصفها فى التراب ، وأحاطت بها مقاعد هى أيضا خضراء ، وما يزال يمكن الجلوس عليها .

كان أليوشا قد لاحظ فورا حالة الحماسة التى كان عليها أخوه ، فلما دخل الآن « الكشك » رأى على المائدة زجاجة كونياك ممتلىء نصفها، والى جانبها قدح صغير •

قال ميتيا وهو ينفجر ضاحكا :

ـ هو كونياك يا عزيزى ! لا شك أنك تقول لنفسك : « انه ثمل من جديد » • ألا فاطرد هذه الأشباح من خاطرك !

أكاذيب يروجها أناس لا خلاق لهم *

فلا تسمع لها ابدا ، وبدد كل أوهامك •

ـ لا •• اننى لا أسكر •• ولكننى «أتلذذ» ، كما يقول صديقك، ذلك الخنزير راكيتين ••• الذى سيصبح فى يوم من الأيام مستشــار دولة ، دون أن يكف عن أن يتكلم كما يتكلم رجــل من الأرياف • اجلس هنا • وددت لو أضمك الى صدرى ، يا صغيرى أليوشا ، وددت لو أضمك الى صدرى ضما قويا حتى لأكاد أحطمك ، هل تعلم هذا ؟ ذلك أنك فى الواقع ••• فى الوا ••• قع ••• (افهمنى جيدا ، افهمنى جيدا) ••• ذلك أنك فى الواقع ••• الانسان الوحيد ••• فى العالم ••• الانسان الوحيد ••• الذى أحبه ••• فى العالم •••

نطق دمترى فيدوروفتش كلماته الأخيرة هذه بنوع من النشــوة والوجد •

ـ أنت الكائن الوحيد الذى أحبه ، أنت وكائن آخر ، هو «مخلوقة بائسة» عشقتها لأضيع وأهلك ••• ولكن العشق شىء آخر غير الحب • فان من الممكن أن يكون الانسان عاشقا ، مع شعوره بالكره • احفظ هذا الكلام ! اننى أتكلم الآن فى فرح ومرح • اجلس هنا ، قربى ، الى هذه

المائدة . وسأجلس أنا الى جانب حتى أراك رؤية أوضح. سأقول لك كل شيء. وستصمت أنت طول الوقت، بينما سأتكلم أنا، لأنه قد آن الأوان!... بالمناسبة ، أنا أرى أن الأفضل أن تتكلم هنا همساً ... ذلك أن من الجائز ... هل تعلم ؟ ... من الجائز أن توجد هنا آذان مختبئة ... آذان لا تتوقع وجودها ... سأشرح لك ... اتفقنا على هذا . تابع كلامي ... لماذا كنت أحرص على أن أراك بغير ابطاء ، لماذا كنت في مثل تلك الحاجة القوية اليك خلال تلك الأيام كلها وفي هذه اللحظة بعينها (لقد ألقيت مرساتي هنا منذ خمسة أيام) لماذا ؟ لأنك الوحيد الذي يمكن أن أركن اليه ركونا تاما ، لأنك الوحيد الذي يمكن أن أفضي اليه بما في نفسي ، ولأن هذا ضروري لا مناص منه ، ولأنك لا غنى لي عنك. هل شعرت يوما ، في المنام مثلا ، بأنك تنحدر من جبل في هاوية ؟ فاعلم انني الآن أتدحرج الى هاوية ، وليس هذا حلماً. ولكنني لست خائفا ، وليس عليك أن تخاف من شيء أنت أيضا . أقصد ... أنا أشعر بخوف، ولكنه شعور عذب جدا ، بل ليس شعورا عذباً ، وانما هو شعور رائع.. لا يدري الا الشيطان ماذا ... جني قوي ، جني ضعيف ، جني المرأة ... ليس هذا بذي بال على كل حال ! ... ألا فلنمجِّد الطبيعة : ما أكثر الشمس في كل مكان ، ما أصفى السماء الآن ! لا شيء الا الخضرة ... نحن في قلب الصيف ، والساعة لم تكد تبلغ الثالثة بعد . صمت شامل مطبق ! الى أين كنت ذاهبا ؟

كنت ذاهبا الى أبينا ، ولكنني كنت أنوي أن أمرَّ أولا بكاترين ايفانوفنا .

ــ اليها واليه ؟ أوه ... يا للمصادفة العجيبة ! ... هل تدري لماذا كنت أنتظرك فارغَ الصبر الى ذلك الحد ؟ هل تدري لماذا كنت ظامئاً الى رؤيتك ظمأ الصحراء الى المطر ؟ هل تدري لماذا كنت أناديك

من جميع مسام روحي وجسمي ؟ هل تدرى لماذا ؟ لأنني كنت أريد أن تذهب الى الأب رسولاً مني ، وأن تذهب بعد ذلك الى كاترين ايفانوفنا، بغية أن أصفِّي الأمر معهما كليهما ، معه ومعها ... كان لا بد لى أن أرسل اليهما ملاكاً . كان في وسعى أن أكلف بهذا أى انسان ، ولكنني كنت أريد ملاكاً . وهأنت ذا تذهب اليها وتذهب الى الأب .

ـ أهذا ممكن ؟ هل كنت تريد أن ترسلنى حقا ؟

كذلك سأله أليوشا بلهجة تنبيء عن ألم شديد يوشك أن يكون ألم مرض . فقال له دمترى :

ـ اذن كنت تعلم هذا . انني أرى أنك قد فهمت كل شيء دفعة واحدة . عليك بالصمت خاصةً ، لا تقل كلمةً واحدة الآن . لا تأسف على شيء ، ولا تبك قط .

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم نهض ، وفكَّر بضع لحظات واضعاً ابهامه على جبينه ، ثم سأله :

ـ هى التى استدعتك ، أليس كذلك ؟ لا بد أنها كتبت اليك ، أو فعلت شيئاً من هذا القبيل ، والا لما ذهبت اليها من تلقاء نفسك فيما أظن ؟

أجابه أليوشا وهو يخرج رسالتها من جيبه ويمدها اليه :

ـ هذه بطاقتها .

قرأ ميتيا البطاقة بنظرة سريعة ، ثم قال له :

ـ وسلكتَ طرقاً مختصرة لتذهب اليها . أيتها الآلهة المحسنة .. شكرا على أنك وجهته فى هذا الطريق فقدت خطاه نحوى ، كتلك السمكة الذهبية الصغيرة التى تروى الحكاية أنك أرسلتها الى ذلك الصياد العجوز الغبى . اسمع يا أليوشا ! اصغ الىَّ يا أخى ! لقد قررت

الآن أن أقول لك كل شيء . لا بد لي من أن أفتح نفسي لانسان ما ، أليس كذلك ؟ لقد سبق أن أفضيت بما في نفسي الى ملائكة السماء ، ولكنني كنت أريد أن أبوح بسري الى ملاك من ملائكة الأرض أيضا . وأنت أنت الملاك على هذه الأرض . ستصغي وتفهم عني ، وتغفر لي .. ان بي حاجة قوية الى ن يغفر لي انسان أعلى وأسمى . اسمع : اذا تحول اثنان عن جميع مشاغل الارض وهمومها ، واندفعا أو اندفع أحدهما على الأقل نحو العالم الرائع ، فاذا هو ، في اللحظة التي يهمُّ فيها أن يبلغ السعادة أو يهوى الى الحضيض ، يلقى انسانا آخر فيقول له : « قدِّم لي هذه الخدمة ، اعمل من أجلي هذا الامر الذي لا يمكن أن يطلبه أحد من أحد ، اللهم الا وهو على فراش الموت ... » فهل يمكن أن يرفض هذا الشخص الآخر طلبه ... اذا كان صديقه ، اذا كان أخاه ؟

فأجابه أليوشا :

ـ سأفعل ما تطلبه مني ، ولكن ما هو الأمر ؟ أسرع في ذكره مزيدا من الاسراع !

ـ مزيدا من الاسراع ؟ هِمْ ... لا تتعجل هذا التعجل كله يا أليوشا ! انك تستعجل الأمور وتضطرب في غير طائل . لكل شيء أوانه ! انها لخسارة كبيرة يا أليوشا أنك لا تستطيع أن ترقى الى حيث تبلغ الحماسة ! ولكن لماذا آخذ عليه هذا في الواقع ؟ أعليك أنت أن ترتقي هكذا ؟

كن نبيلا يا أيها الانسان !*

من قائل هذا البيت من الشعر ؟

قرر أليوشا أن يصبر . لقد أدرك أنه في هذا المكان انما سيقوم

بمهمته على خير وجه فى الواقع . وفكّر ميتيا دقيقة ، متكئاً بكوعه على المائدة ، واضعاً رأسه فى راحة يده . صمت الاثنان كلاهما .

استأنف ميتيا كلامه يقول :

ـ أليوشا ! أنت وحدك تستطيع أن تسمعنى دون أن تضحك ... أريد أن أبدأ ... أن أبدأ ... اعترافى ... مرتلاً نشيد الفرح الذى كتبه شيلر « الى الفرح ! » ولكننى لا أجيد اللغة الألمانية ، ولا أعرف من النشيد الا عنوانه : « الى الفرح ! » . حذار خاصة أن يذهب بك الظن الى اننى سكران . ليس السكر هو ما يجعلنى أتكلم . الكونياك هو الكونياك ، ولكن لا بد لى من زجاجتين على الأقل حتى أسكر :

سيلين ذو الوجه المزهر

قد امتطى يوما حمارا يترنح *

... وأنا لم أشرب الا ربع زجاجة فى أكثر تقدير . ثم اننى ان لم أكن سيلين ، فأنا سيليون (قوى) . أنا قوى لأننى اتخذت قرارى ، وقد اتخذته الى الأبد ! اغفر لى هذه النكتة القائمة على الجناس اللفظى . وهناك أمور أخرى سيكون عليك أن تغفرها لى اليوم ! الأمر فعلاً أمر نكتة قائمة على الجناس . اطمئن بالاً ... اننى أهذر ولا أهرف ... اننى أتكلم جاداً ، وأمسُّ قلب الموضوع . لا يخطر ببالى أبداً أن أتيه فى لف ودوران . انتظر ... اننى أحاول أن أتذكر ...

ورفع دمترى فيدوروفتش رأسه مفكراً ، ثم اذا هو يأخذ يتلو هذه الأبيات من الشعر بلهجة نافذة :

**سكان الكهوف الخائفون الوجلون *
اختباوا شبه عراة فى المغاور
بينما كان البداة العتاة
يسلبون السهول والغابات •
كان الصيادون المسلحون بالأقواس والنبال
يبثون الذعر فى قلب كل حى يتنفس •
ويل لمن ترميه الأمواج الهائجة
على شاطىء أجنبى •
من أعلى الأولب الهادىء
هبطت سيريس الأم على الارض
تبحث عن بروزربين •
ناصبتها الأرض العداء
لم يستقبلها احد
لم تجد مأوى لها فى مكان
بحثت الالهة عبثا عن معبد
يمجد ألوهيتها •
لا يرى أحد فى المآدب
ثمار الطبيعة مضيئة ساطعة •
وعلى الهياكل الدامية
يتصاعد دخان القرابين المضحى بها •
تأملت سيريس المشهد الأليم
بنظرات تفيض حزنا وأسى •
فى كل مكان يذل الانسان ،
وعذابه شديد لا حدود له !••**

وفجأة أخذ صدر ميتيا يعلو ويهبط من شدة الانتحاب • أمسك أليوشا يده •

ــ أخى ، أخى ، صديقى ! مذل هو الانسان حتى اليوم • رهيب مصير الانسان ، شديدة آلام الانسان • لا تحسبن ، لأن لى رتبة ضابط، أننى امرؤ فظ غليظ القلب لا يعنيه الا أن يشرب الكونياك وأن يتلذذ

بالسناء ! انني في الواقع لا أفكر الا في مصـير البشر الذي يدعو الى الشفقة والعطف والرثاء ، ذلك هو اهتمامي الوحيـد تقـريبا ، وما أنا بكاذب عليك البتة . ألا فلتشهد السماء أنني لا أكذب ولا أتباهى فيهذه اللحظة ! ان المصير الفاجع الذي كتب على البشر يعذبني تعذيبا شديدا ، لأنني أنا نفسي واحد من هؤلاء الأشقياء البؤساء .

لا بد للانسان
من اجل ان تبعث نفسه بعثا جديدا
وان ترتفع بعد سقوط
لا بد له ان يقطع للالهة القديمة « ام الارض »
عهدا الى الأبد .

ولكن الصعوبة هي هذه : ما عساني أفعل من أجـل أن أعاهد الأرض ؟ أنا لا أزرع الأرض ، أنا لا أفتح جوف الأرض ؟ هل يجب أن أصبح فلاحاً أو راعيا صغيرا ؟ انني أسير في الليل دون أن أعـرف أأنا أغوص في الوحل والعار ، أم أنا أتقدم نحو الضياء والفرح ؟ ذلك هو بعينه البلاء : ان كل شيء في هذا العالم لغز . حين كان يتفق لي أن أغوص الى القرارة من هوة الدناءة والعهر (ولم أكن أفعل شيئا غير هذا على كل حال) ، فقد كنت في كل مرة أعيد قراءة تلك القصيدة التي تحدثنا عن سيريس وعن الانسان . فهل أصلحني ذلك ؟ كلا ثم كلا ! لأنني كارامازوف . فحين أسقط في الهوة أتدهور تدهورا تاما ، رأسي في الأمام، وقدماي في الفضاء ؛ حتى لقد أشعر عندئذ بسعادة ، من السقوط على هذا النحو المزري المذل المهين ؛ انني أحس عندئذ بنوع من المتعة الفنية . فاذا بلغت القرارة من هوة الدناءة والخسة ، طفقت أترنم بنشيد . ألا فلأكن ملعونا ، ألا فلأكن منحطاً سافلا ، ولكنني أريد ، أنا أيضا ، أن أقبل ذيل الثوب الذي يتدثر به الهي . لئن اتبعت الشيطان يا رب ،

فانى أظل ابنك ، لأنى أحبك ، ولأن فى نفسى سبيلا الى الفرح الذى لولاه ما وُجد الكون .

**روح العالم التى خلقها الله *
تغنى الفرح الى الأبد .
الفرح قائم فى أعماق الحياة
يحركها بقوة مستترة .
ينبت العشب من الأرض
يحيل السديم شمسا
ينشر ضياءه الخير
فى الفضاوات التى لا نهاية لها .
كل حى يبتهج
فى حضن الطبيعة .
جميع الكائنات ، جميع الشعوب
تعيش به وحده .
يزين مصائبنا
يهب لنا أصدقاء وأزهارا وثمارا .
هو اللذة فى الحشرة ...
وهو الله فى الملاك**

ولكن كفانا شعرا ! لقد سكبت بضع عبرات ، دعنى أبكى قليلا . أسلّم لك بأن فى هذا حماقة وسخفاً . وربما ضحك الآخرون منه ، أما أنت فلا ... لقد رأيت شعلة تومض فى عينيك يا أليوشا . كفانا الآن شعرا . أريد أن أحدثك عن أولئك « الحشرات » ، عن أولئك الذين وهب لهم الله اللذة .

هو اللذة فى الحشرة

أنا تلك الحشرة بعينها يا أخى ! هذه الأبيات من الشعر انما تستهدفنى أنا خاصة . ونحن ، آل كارامازوف ، نحن جميعا سواء فى هذه النقطة ! فيك أيضا تحيا هذه الحشرة ، فيك أنت الملاك ! انها

هنالك الشيء الذي لا تتوقعه . هنالك الورود التي تنبت على الدمن . أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخي . أما في هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية . لو كنت مثلي لفهمت عني . لقد أحببتُ المجون حتى في العار . لقد أحببت القسوة : ألستُ بقة ، ألست حشرة خبيثة ؟ قلت لك انني واحد من آل كارامازوف . ان مجتمع المدينة التي كنت أعيش فيها قد نظم في ذات يوم نزهة جماعية . ركبنا عربات ترويكا، ركبنا سبع عربات ترويكا . كان ذلك في فصل الشتاء . ففي العربة التي كنت فيها أخذتُ ، بفضل الظلمة ، أشد على يد فتاة كانت جارتي ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتي . كانت طفلة . هي بنت موظف صغير، انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيعة ، لطيفة ... تركتْ لي أن أفعل ما أشاء ، وسمحتْ لي أن أتمتع بحريات كبيرة في الظلام ! كانت المسكينة تتخيل أنني سأذهب من الغد الى أبويها لأخطبها (كنت أقدَّر خاصة كخطيب ممكن) . ولكنني لم أخاطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتها تجاهلا تاما مدة خمسة أشهر . كنت أرى عينيها في أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعاني من ركن من الصالة ، فألاحظ الوميض الذي يشتعل في نظرتها ، واللهيب المفاجيء المكظوم الذي يفصح عن حنق ذليل وثورة مهانة ... فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة في نفسي . وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تغفر لي وتصفح عني ، ولعلها ظلت تحبني ... وقد سعد الزوجان بعد ذلك . لاحظ أنني لم أقصص هذه الحكاية على أحد ، وأنني لم أعرّض سمعة الفتاة لسوء . صحيح أن لي رغبات منحطة ، وأنني أجد لذة في الانحدار الى حضيض الخسة ، ولكنني لست مجردا من الشرف ... ان وجهك يتخضب الآن بحمرة شديدة ، وان عينيك تلتمعان

٤

اعتراف قلب حائر

نثراً

نعم

لقد لهوت وعبثت وتلذذت هنـــاك ! ادعى أبونا فى هذا الصباح أننى كنت أرمى ألوف الروبلات من أجل أن أقضى على طهـــارة بنات فضليات ! كذبٌ هذا الكلام ، كذب مقزِّز ... لم يحـدث شىء من ذلك قط ! لم يُطلب منى شىء من مال من أجل «هذا» . كان المال أمراً ملحقا الحـــاقاً ، كان حمى عابرة ، كان زينـــة لا أكثر . أحب سيدة فى ذات يوم ، فاذا أنا فى الغداة أوثر عليها بنتاً من بنات الشوارع . وأنا أنفق على هذه وتلك كلتيهما ، أنفق تحقيقاً لنزوات وسعياً الى تسليات . أصحب المرأة الى المسارح ، وأخرج معها فى نزهات ، وأمضى بهـا الى حفلات رقص الغجر ، وأدفع أثناء ذلك مبالغ ضخمة للخـدم وغيرهم . وكنت أعطيهن هن أيضا مالاً اذا اقتضى الأمر ، ذلك أنهن يحرصن على هذا ، بل يحببنه حبا قويا (يجب أن أعترف بذلك) وهن يقبلنه فرحات ممتنات . أحبتنى نساء من المجتمع الراقى ... لا جميع نســـاء المجتمع الراقى ، بل عدد منهن ، عـــدد على كل حال ... ولكن كانت تجذبنى دائما قبل كل شىء الأزقة الضيقة ، والطرق المسدودة المظلمة ، والأحيـاء المريبة البعيدة عن الأماكن التى يختلف اليها الناس . فهنالك المغامرة ،

هنالك الشيء الذى لا تتوقعه • هنالك الورود التى تنبت على الدمن • أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخى • أما فى هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية • لو كنت مثلى لفهمت عنى • لقد أحببتُ المجون حتى فى العار • لقد أحببت القسوة : ألستُ بقة ، ألست حشرة خبيثة ؟ قلت لك اننى واحد من آل كارامازوف • ان مجتمع المدينة التى كنت أعيش فيها قد نظم فى ذات يوم نزهة جماعية • ركبنا عربات ترويكا• ركبنا سبع عربات ترويكا • كان ذلك فى فصل الشتاء • ففى العربة التى كنت فيها أخذتُ ، بفضـــل الظلمة ، أشد على يد فتـاة كانت جارتى ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتى • كانت طفلة • هى بنت موظف صغير• انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيعة ، لطيفة ••• تركتْ لى أن أفعل ما أشاء ، وسمحتْ لى أن أتمتع بحريات كبيرة فى الظلام ! كانت المسكينة تتخيـل أننى سأذهب من الغد الى أبويها لأخطبها (كنت أقدَّر خاصة كخطيب ممكن) • ولكننى لم أخاطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتهـا تجاهلا تاما مدة خمسة أشـــهر • كنت أرى عينيها فى أمسـيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعانى من ركن من الصالة ، فألاحظ الوميض الذى يشتعل فى نظرتها ، واللهيب المفاجيء المكظوم الذى يفصح عن حنق ذليل وثورة مهانة ••• فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة فى نفسى • وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تغفر لى وتصفح عنى ، ولعلها ظلت تحبنى ••• وقد سعد الزوجان بعد ذلك • لاحظ أننى لم أقصص هـذه الحكاية على أحـــد ، وأننى لم أعرّض سمعة الفتاة لسوء • صحيح أن لى رغبات منحطة ، وأننى أجد لذة فى الانحدار الى حضيض الخسة ، ولكننى لست مجردا من الشرف ••• ان وجهــك يتخضب الآن بحمرة شـــديدة ، وان عينيك تلتمعان

وتسطعان • طيب ••• لن أزعجك بعد الآن بسرد مثل هذه الحكايات القذرة المزرية • ولكن ما ذكرته لك ليس الا شيئا قليلا ••• هو زخرفات اضافية على طريقة بول دو كوك ، ولكن الحشرة القـــاسية قد نمت في نفسي واستولت عليّ واستبدت بي • ما أكثر أمثال هذه الذكريات عندي ••• ان لي منها « ألبوماً » كاملا ••• ولقد كنت أحاول دائما ، حين أقطع صلتي باحدى النساء ، أن أتصرف تصرف صديق ، وأن أتجنب السلوك المفاجيء العنيف ، وأن أتقي المشاكل والمشاهد • ثم انني ما أفشيت سراً في حياتي قط ، ولم أعرّض سمعة احداهن لسوء • ولكن كفاني ما قلته حتى الآن في هذا • أرجو أن لا يدور في خلدك أنني جئت بك الى هنا لأقص عليك هذه المباذل ! اطمئن بالاً ! هناك أمور أشق من هذه الأمور أحب أن أفضي بها اليك • ولا يدهشك مع ذلك أنني لا أستحي منك ولا أشعر بخجل أمامك ، وأنني ربما كنت ألتذ بايقاظ هذه الذكريات في حضورك •••

قاطعه أليوشا سائلاً :

ـ أأنت تقول هذا لأنك رأيت احمـــرار وجهي ؟ ان وجهي لم يحمرّ بسبب حكاياتك ، ولا بسبب سلوكك ، بل لأنني مثلك •••

ـ أنت ؟ أنت مثلي ؟ ألا انك لتبالغ قليلا •••

قال أليوشا بلهجة قاطعة :

ـ لا ••• لا أبالغ (كان واضحا أن هذه الفكرة قد شغلته منذ مدة طويلة) • ليس بيننا الا فرق في المقدار • نحن لا نقف على درجة واحدة من السلّم • فأنا ما زلت في أسفل ، بينما وصلت أنت الى أعلى ، الى الدرجة الثالثة عشرة مثلاً ••• أنا الآن لا أزيد على أن أتكلم ، ولكن

الأمر واحد في الحقيقة ، واحد تماما ... ان من وضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم لا بد أن يصل الى نهايته حتما ، لا بد أن يبلغ ذروته .

ــ ففي رأيك اذن أن على المرء أن يتجنب وضع قدمه على الدرجة الأولى ؟

ــ يجب على المرء أن يتجنب ذلك اذا استطاع .

ــ هل تستطيع هذا أنت ؟

ــ يبدو أنني لا أستطيع .

ــ اسكت يا أليوشا ، اسكت يا عزيزي الطيب الشهم . وددت لو أقبل يدك ، هكذا ، حناناً وعطفاً . ان تلك الوغدة جروشنكا خبيرة في شئون الرجال ! لقد أكدت لي ذات يوم ان في وسعها أن تزدردك لقمة واحدة . هأنذا أمسك عن الكلام فما أقول شيئاً بعد . دعنا من هذه الحكايات ، دعنا من هذه العفونة ، ولنصل الى مأساتي الشخصية ... التي ليست خيراً من هذه الحكايات على كل حال ، فهي معجونة بالخسة والدناءة أيضاً . اسمع : لئن افترى أبونا علي حين تحدث عن فتيات بريئات لطخت شرفهن ، فهذا لا ينفي ان ذلك بعينه هو ما حدث في مأساتي ، رغم أنه لم يحدث الا مرة واحدة، أو قل أخيرا انه لم يحدث قط. وأبونا العجوز الذي اتهمني بفعال دنيئة كثيرة لا وجود لها ، يجهل هذه القصة في مقابل ذلك . انني لم أحدث عنها انساناً في يوم من الأيام . ستكون أنت من عرفها ، بعد ايفان طبعا . ذلك أن ايفان قد عرف كل شيء ، وقد عرفه قبلك بزمان طويل . ولكن ايفان قبر .

ــ ايفان قبر ؟

ــ نعم .

كان أليوشا يصغي الى كلام أخيه بانتباه شديد • وبدأ دمتري يقص حكايته • قال :

ـ رغم أنني كنت ملازما (ليوتنان) في تلك الكتيبة ، وهي كتيبة ترابط على الجبهة ، فقد كنت تحت المراقبة بمعنى من المعاني ، أشبه أن أكون منفيا من المنفيين • وقد استقبلني مجتمع المدينة الصغيرة التي فيها المعسكر استقبالا ممتازا واحتفى بي واكرم وفادتي • كنت أنفق المـال بغير حساب ، وكانوا يظنونني غنيا ، وكنت أنا أظن نفسي غنيا كذلك • يبدو على كل حال أنهم قد استلطفوني لسبب آخر أيضا • كانوا كثيرا ما يهزون رءوسهم مستغربين ، ولكنهم كانوا يحبونني كثيرا • وفجأة أخذ الليوتنان كولونيل ، وهو رجـل طاعن في السن ، أخذ يناصبني العداء ، ويلتمس الفرص لمناكدتي ومشاكستي • غير انني لم أكن بلا سند أعتمد عليه ، وانحازت المدينة كلها الى صفي ، وتحزبت لي • ثم انه كان من الصعب عليه أن يجد ما يستحق الشكوى مني والحاق الأذى بي • ولا شك في أنني كنت مخطئاً في حقه ، لأنني تعمدت أن لا ألتزم ما ينبغي أن ألتزمه تجاهه من واجبات التـوقير والتعظيم • لقـد كنت أصطنع التكبر والاستعلاء • ان ذلك العجوز العنيد ، الذي لم يكن امرءا خبيثا شريرا وكان رب أسرة طيب السريرة ، كان قد تزوج مرتين ، ولكن ماتت زوجتاه كلتاهما • فأما الأولى ، وهي مخلوقة بسيطة متواضعة، فقد خلّفت له بنتاً ساذجة الطبع كأمها كانت في ذلك الأوان تقترب من السنة الرابعة والعشرين من عمرها • كانت تعيش عند أبيها مع احـدى خالاتها • وكانت الخالة امرأة بسيطة النفس مذعنة الطبـع هي أيضا • ولكن ابنة أختها ، كبرى ابنتي الليوتنان كولونيـل ، كانت تجمع الى بساطة الخلق كثيرا من الجرأة والاقدام • انه ليسرني وأنا أستحضر

ذكراها أن أطريها وأثني عليها : انني يا صديقي لم ألق في حياتي امرأة تضارع تلك الفتاة جمال طبع • كان اسمها آجاتي ••• تصور ••• آجاتي ايفانوفنا • ولم تكن خالية من الحسن في الذوق الروسي : قامة طويلة ممتلئة قوية ، عينان رائعتان ، ولكن في تعبيرهما شيئا من عامية • ولم تتزوج الفتاة ، رغم أنها خُطبت مرتين • لقد رفضت الخطبة الأولى والخطبة الثانية كلتيهما ، دون أن تفقد بشاشتها وجذلها وصفاء مزاجها • وقد انعقدت الصلة بيني وبينها ـ لا على تلك الطريقة ، لأن كل شيء قد ظل بيننا طاهرا بريئا ـ وانما أصبحنا صديقين لا أكثر • والواقع أنه كثيرا ما اتفق لي أن صادقت بعض النساء مصادقة خالصة شريفة • وكنت حين أتحدث معها أخرج على هذه الأمور أحيانا ، من باب الصراحة ، فما تزيد على أن تضحك • اعلم أن نساءً كثيرا تحببن الصراحة •• ولكن تلك كانت عدا ذلك فتاة ، فكان هذا يسليني كثيرا • يجب أن أضيف الى ذلك أن في وسع المرء أن يسميها آنسة • وكانت الفتاة وعمتها تحتجبان في منزل الأب بارادتهما ، وتعيشان فيه خاضعتين خضوع المرءوسين ، ولا تضعان نفسيهما في مستوى سائر أفراد المجتمع • وكان النـاس جميعا يحبون آجاتي حبا عظيما ، لأنها كانت تجيد الخياطة كما لا تجيدها امرأة: لقد كانت تملك موهبة فذة في الخياطة ، ولكنها لا تتقاضى عن خدماتها أجراً ، وانما هي تعمل لتكون نافعة للناس لا أكثر • على أنهـا كانت لا ترفض أخذ شيء من المال اذا عُرض عليها • أما الليوتنان كولونيل فقد كان من نوع مختلف كل الاختلاف • لقد كان شـخصية من أهم شخصيات المدينة • كان يعيش حياة عريضة ، ويستقبل الضيوف في منزله كثيرا ، ويقيم مآدب غداء ، وينظم أمسيات رقص • وحين وصلتُ الى المدينة والتحقت بالكتيبة لم يكن للمدينة الصغيرة من حديث غير الحديث عن ابنة الليوتنان كولونيل الصغرى التي ستصل قريبا ، والتي يقال انهـا

ذات جمال خارق نادر ، والتي تركت منذ زمن قصير مدرسة داخلية ارستقراطية ببطرسبرج أتمت فيها دراستها • ان هذه الفتاة الاخرى ليست الا كاترين ايفانوفنا نفسها ، بنت الليوتنان كولونيل من زوجته الثانية التي ماتت هي أيضا • كانت زوجته الثانية هذه تنتمي الى أسرة كبيرة ـ أحسب أن أباها كان جنرالا معروفا ـ رغم أنها لم تحمل الى زوجها ، هي أيضا ، مهرآ ضخماً ••• ذلك أمر عرفته من مصدر مطلع • لقد كان لها اذن أقرباء ، وربما كانت لها امال في أكثر تقدير ، اما المال فلم يكن عندها مال ••• على أن وصول طالبة ببطرسبرج الى المدينة (وقد جاءتها زائرةً فحسب) قد كان حدثاً من الأحداث رد الى المدينة صباها ان صح التعبير • فهؤلاء أرقى سيدات مجتمعنا ، وهن زوجتا « صاحبي سعادة » ، وزوجة كولونيل ، وسيدات أخرى كثيرات ، هؤلاء هن يحطن بالفتاة ويحتفين بها ويتبارين في اقامة المآدب لها • لقد أصبحت الفتاة ملكة حفلاتنا الراقصة ونزهاتنا ورحلاتنا ، حتى لقد أقيمت على شرفها حفلة تمثيلية رُصد ريعها لاعانة مربيات عجائز لا أدرى من هن• لم أقل أنا شيئا ، بل بقيت بعيدا متنحيا ، ألهو وأقصف على ما يشاء لى هواى • وفى تلك الآونة بعينها انما اقترفت فضيحة من تلك الفضائح التي أثارت العياط والزياط في المدينة كلها • لقد لاحظت في ذات مساء، أثناء حفلة استقبال أقامها كومندان الكتيبة ، أنها كانت تروزنى بنظرها ، ولكنني لم أقترب منها بل تظاهرت بالاستخفاف بهذه الفرصة التي عرضت لى للتعرف بها • وبعد ذلك بزمن قصير ، قررت أثناء سهرة أخرى ، أن أتجه اليها بالكلام • فلم تكد ترضى أن تتنازل فتنظر الى ، وعبَّرت شفتاها عندئذ عن احتقار • قلت بيني وبين نفسي عندئذ : « اصبرى قليلا ••• سأعرف كيف أثأر لنفسى » • وكنت في ذلك الأوان شرس الطبع ، شديد التهور ••• وكنت أعرف ذلك في نفسى ••• وقد شعرت خاصةً

أن « كاتينكا » ليست واحدة من تلك الآنسات الساذجات الكثيرات بنات المدارس الداخلية ، وانما هي انسانة قوية الطبع ، ذات كبرياء وخيلاء ، فاضلة طاهرة حقا ••• والامر الذى أشعرنى بالمذلة خاصة أنها عدا ذلك ذكية مثقفة ، على حين أننى لا ذكي ولا مثقف • لعلك تظن أننى أردت أن أخطبها ؟ أبدا • كل ما كنت أتمناه هو ان أستطيع ، أنا الفتى البارز المرموق ، أن أثأر منها لنفسى ، لأنها لم تعرف قيمتى ولم تحس بقدرى• وبانتظار ذلك اندفعت ألهو وأقصف بغير قصد ولا اعتـــدال ، حتى ان الليوتنان كولونيل انتهى به الامر الى حبسى ثلاثة أيام • وفى تلك الآونة انما أرسل الىّ أبوك ستة آلاف روبل بعد أن بعثت اليه بتنازل مكتوب عن جميع حقوقى الاخرى • لقد اعترفت فى ذلك التنازل بأننا قد « صفينـا حساباتنا » ، وبأننى لن أطالبه فى المستقبل بشىء البتة • ولقد كنت لا أفهم شيئا من أمر هذه الحسابات فى الماضى • ويجب أن أعترف لك ، يا أخى أليوشا ، اننى قبل مجيئى الى هنا ، وحتى الآونة الأخيرة ، بل وحتى يومنا هذا الذى نحن فيه ، لم أفهم قط شيئا من أمر هذه الخلافات المالية بينى وبين أبينا • على كل حال ، دعنا من هذه المسألة الآن ••• وان لى اليها عودة • المهم أننى بعد أن تلقيت المال بزمن قصير علمت علم اليقين ، من رسالة بعث بها الىّ صديق ، أمراً يمكن أن يهمنى كثيراً، وهو أن المراجع العليا مستاءة من صاحبنا الليوتنان كولونيل، وانها تشتبه فى أمره وتظن فيه سوء الادارة وارتكاب المخالفات ، أى أن أعداءه يدبرون له مكيـدة خبيثة • وها هو ذا آمر الفرقة يصل على حين فجأة ، فيقرّع صـــاحبنا الليوتنان كولونيل تقريعا شديداً ، وما هى الا فترة قصيرة اذا بالليوتنان كولونيل يتلقى أمرا بتقديم استقالته • لن أقص عليك تفاصيل هــــذه الحكاية • فانما المهم أن هذا الرجل كان له فى الواقع أعداء • وقــد

تنكرت له المدينة كلها منذ تلك اللحظة ، وأظهرت له ولأسرته فتورا شديدا ، وصار الناس يتحاشونهم تحاشيهم مرضى مصابين بالطاعون ! وفى تلك الآونة انمـــا ارتكبت غلطتى الأولى • ففى ذات يوم التقيت بآجاتى ايفانوفنا التى ظللت صديقا لها :

« ـ هل تعلمين أن الاموال التى فى عهدة أبيك تنقص أربعة آلاف وخمسمائة روبل ؟

فقالت لى آجاتى :

« ـ كيف هذا ؟ لماذا تقول هذا الكلام ؟ لقد جاء الجنرال مفتشا منذ مدة قصيرة ، فلم يكن المال ينقص كوبكا واحدا •••

قلت لها :

« ـ صحيح • كان المال كاملا يومذاك ، ثم اختفى » •

جزعت آجاتى • وقالت :

« ـ لا تخفنى ! من قال لك هذا الكلام ؟

فأجبتها :

« ـ اطمئنى ••• لن أقول لأحد كلمة واحدة • أنت تعلمين أننى كالقبر صمتا حين يجب الصمت • ولكننى أحب أن تعرفى أيضا ما يلى : اذا طولب أبوك بهذه الأربعة آلاف وخمسمائة روبل ، فلم يستطع أن يردها فسيكون عليك ـ حتى لا يمثل أمام المحاكمة وحتى لا يُحكم عليه فى آخر عمره بأن يصبح جنديا بسيطا ـ سيكون عليك أن تبعثى الىَّ ، خفيةً ، بأختك الآنسة طالبة المدرسة الداخلية • لقد تلقيت منذ مدة قصيرة مبلغا ضخما ، سأتنازل لأبيك منه عن أربعة آلاف وخمســـمائة روبل • وأحلف لك أن أحدا لن يعرف شيئا عن هذا الامر فى يوم من الايام •

هتفت تقول :

« ـ يا للشقى ! ألا انك لشقى ! (تلك هى الكلمة التى استعملتها). يا للعار ! يا للدناءة والجبانة ! كيف تجرؤ أن ... ؟ » .

« وتركتنى مستاءة أعنف الاستياء ، وصحت أقول لهـا مرة أخرى ان أحدا لن يعرف شيئا اذا وافقت ، واننى سأحافظ على السر محافظة تامة ، وأكتمه كتمانا كاملا . يجب أن أقول لك فورا ان هاتين المرأتين ، آجاتى وخالتها ، قد تصرفتا فى هذه القضية تصرف ملاكين . كانتا فى الواقع تعبدان كاترين المتكبرة عبادةً ، وتمّحيان أمامها امحاءً ، وتسعيان بين يديها كخادمتين ... ومع ذلك أسرعت آجاتى تقص الحادث على أختها ، أى تروى لها حديثى معها . عرفت ذلك فيما بعد . لقد قالت لها كل شىء . وكانت تلك قضيتى كلها فى الواقع .

« ففى ذات يوم وصل ميجر جديد على حين فجأة ليستلم قيادة الكتيبة . وتمت الاجراءات المعتادة . فاذا بالليوتنان كولونيل العجوز يمرض بغتة ، ويعلن أنه لا يستطيع مبارحة السرير ، ولا يسلّم أموال الدولة . وقد أكد طبيبنا كرافتشنكو أنه مريض حقا ، وأنه لا يتظاهر بالمرض تظاهرا . ولكننى كنت أعرف حقيقة الامر ، فقد اطلعت على تفاصيل المسألة سرا منذ زمن طويل : وهى أن المال يكون فى الخزنة عند اجراء الحسابات فى موعدها من كل سنة ، ولكنه يختفى بعد ذلك دائما الى حين ، وذلك منذ أربع سنين . لقد كان الليوتنان كولونيل يقرض هذا المبلغ رجلا موثوقا أمينا من تجار المدينة هو الأرمل العجوز تريفونوف ذو اللحية الطويلة والنظارتين الذهبيتين . فكان تريفونوف يمضى بالمبلغ الى « المعرض » فيعقد صفقات ويبرم أعمالا حتى اذا عاد الى المدينة رد المبلغ المقترض الى الليوتنان كولونيل مضيفا اليه الفوائد وبعض

الهدايا . ولكن تريفونوف حين رجع هذه المرة من « المعرض » لم يردّ المبلغ (عرفت هذه التفاصيل بمصادفة محضة من ابنه القذر الذى هو وريثه والذى هو أفسد مخلوق فى هذا العالم) . لم يرد تريفونوف المبلغ اذن . فلما هرع اليه الليوتنان كولونيل يطالبه برد المال قال له تريفونوف : « أنا لم أقترض منك شيئاً ، ولا كان فى وسعى أن أقترض منك شيئا على كل حال » . فاذا بصاحبنا الليوتنان كولونيل يرقد فى فراشه ، ويغطى رأسه بمنشفة ، وتأخذ السيدات الثلاث تضع على صدغيه ثلجاً . وفجأة يصل الى منزله فرّاش حاملا دفتر الحسابات مع أمر بردّ « أموال الدولة بغير ابطاء ، فى غضون ساعتين على أكثر تقدير » . فيضع العجوز توقيعه على المذكرة المرسلة اليه ، وقد رأيت توقيعه بنفسى فيما بعد ، ثم ينهض قائلا انه يريد أن يرتدى بزته العسكرية ، فيمضى الى غرفة نومه ، فيتناول بندقية صيد ذات طلقتين ، فيحشوها برصاص من رصاص الحرب ، ويخلع حذاء قدمه اليمنى ، ويضع فوهة البندقية على صدره ، ويتلمس الزناد باصبع قدمه . ولكن آجاتى التى ساورت فكرها شبهات ، لأنها تذكرت الحديث الذى جرى بينى وبينها، كانت قد تسللت وراءه خلسةً ورأت فى الوقت المناسب ما كان يريد أن يصنعه بنفسه ، فهرعت الى الغرفة وارتمت على أبيها من خلف وأمسكت ذراعيه، فانطلقت الرصاصة فى اتجاه السقف لم تجرح أحدا . وهرعت المرأتان الأخريان أيضا ، فتمت السيطرة على العجوز ، وانتُزعت منه البندقية ... لقد رُوى لى هذا المشهد تفصيلا فيما بعد ... وكنت فى تلك اللحظة فى مسكنى . وكان الوقت مساء ، فأنا أستعد للخروج . لقد ارتديت ثيابى، وصففت شعرى ، وعطّرت منديلى ... وانى لأتناول قبعتى ، اذا بالباب يُفتح فجأة ، واذا بكاترين ايفانوفنا أمامى ، فى مسكنى ...

« ان مصادفات غريبة تقع فى هذه الحياة .. وبفضل هذه المصادفات

لم يرها أحد من سكان المدينة آتية الىّ ، فلم ينتشر خبر هذه الزيارة ، ولم يشع أمرها . كنت أسكن فى شقة أجّرتنيها أرملتا موظفين صغيرين، طاعنتان فى السن جدا ، تخدمانى باحترام وتعظيم واجلال ، وتطيعان أوامرى طاعة عمياء . أمرتهما أن لا تنطقا بحرف واحد فى أمر هذه الزيارة ، فكانتا خرساوين كخرس الشبوط . أدركت كل شىء من أول نظرة طبعا . دخلت الفتاة ، ونظرت الىّ وجهاً لوجه . كان فى عينيها القاتمتين عزم وحزم ، بل كان فيهما تحدٍ ووقاحة ، غير أن شيئا من تردد كان يلم بشفتيها ويطوف حول فمها .

« ـ قالت لى أختى انك ستعطينى أربعة آلاف وخمسمائة روبل اذا جئت أطلبها منك ... بنفسى . فهأنا ذا جئت ... هات المبلغ ! » .

« لم تستطع أن تزيد على ذلك شيئا ، فقد اختنقت وجزعت وتكسر صوتها وارتجفت شفتاها ، واختلج خداها . أتصغى الىّ يا أليوشا أم تراك نمت ؟

قال أليوشا مضطربا :

ـ ميتيا ، أنا أعلم أنك ستقول لى الحقيقة كلها .

ـ سأقول لك الحقيقة ، اطمئن . سأقول لك الحقيقة ولن أدارى نفسى . اليك الحقيقة اذن : الفكرة الأولى التى ساورتنى هى فكرة جديرة بواحد من آل كارامازوف . لقد اتفق لى فى الماضى يا أخى أن لدغتنى حشرة فرقدت فى فراشى أسبوعين من الحمى . فاعلم أن حشرةً أخرى قد لدغتنى فى تلك اللحظة فى القلب من جسدى ... هى الحشرة المفترسة الكاسرة ، هل تفهم ؟ شغلت الفتاة ببصرى . هل رأيتها ؟ انها جميلة جمالا رائعا ، ولكن ليس وجهها هو الذى بدا لى جميلا عندئذ : لقد كانت فى تلك اللحظة جميلة بنبل نفسها وعظمة روحها بالقياس الىّ

أنا الشقي ، كانت جميلة بالتضحية التي تقدمها في سبيل أبيها بالقياس الىّ أنا البقة الحقيرة ! وها هي ذي الآن تقع تحت سلطان هـذه البقة ، ها هي ذي الآن خاضعة خضوعا كاملا لي أنا ، أنا الشقي ، خاضعة كلها ، جسما وروحا . انها كلها تحت رحمتي ... سأعترف لك بالحقيقة من غير لف ولا دوران : ان هـذه الفكرة التي خطـرت ببالي ، ان فرحة الحشرة هذه التي نبتت في نفسي ، قد استولت عليّ في أول الامر استيلاء تاما وملأت قلبي الى حيث أوشك أن ينفجر من فرط التوتر . بدا لي أنه ليس ثمة مجال لمقاومة ، وأنه لم يبق لي الا أن أتصرف تصرفَ بقـة ، تصرفَ رتيلاء مفترسة ، بغير شفقة ولا رحمة ... وكادت تنقطع من ذلك أنفاسي . افهمني حق الفهم ... انه لبديهي أنني لو فعلتُ لمضيت أخطبها منذ الغد ، لأختم هذه المغامرة بأناقة ونبل ان صح التعبير ، فما يعلم أحد بما جرى ، ولا تخطر بالبال أية شبهة في أي مكان . صحيح أن لي شهوات دنيئة ، ولكنني مع ذلك رجل شريف . غير أنني في تلك اللحظة سمعت كأن صوتا يهمس في أذني قائلاً « دعك من هذا ... ان هذه المرأة لن تستقبلك اذا ذهبت تخطبها في الغد ، وستكتفي بأن تأمر حوذيّها بأن يخرجك مطرودا . ستقول لك : افضح سمعتي ، وشهّر بي في المدينة كلها ، فأنا لا أخاف منك » . ألقيت نظرةً على الفتـاة ، فأدركت أن ذلك الصوت لم يكذبني ، فذلك بعينه ما سيحدث . لسوف أُطرد شر طردة : انني أقرأ هذا في عينيها منذ الآن . استولى عليّ حنق مسعور حين خطرت ببالي هذه الفكرة ، فاشتهيت فجأة أن أقوم بأحقر وأسفل عمل ممكن ، أن أقوم بعمل خليق بصاحب دكان : أنظـر اليها مبتسما وأدمّرها تدميرا في مكانها ، هنا ، أمامي ، قائلا لها بلهجة لايجيدها الا صاحب دكان :

« ـ أجئت حقاً من أجل أربعة آلاف روبل ؟ أنا قلت ما قلته مازحاً

عابثاً يا آنسة ! ألا انك قد برهنت اذن على خفة وطيش حين حملت كلامى محمل الجد ! مائتا روبل ، معقول ! ... لو سألتنى أن أعطيك مائتى روبل لفعلت ، ولفعلت مسرورا ... أما أربعة آلاف روبل يا آنسة ، فذلك مبلغ أضخم من أن نهينه هذه الاهانة من أجل أمور تافهة كهذه ! لقد أزعجت نفسك فى غير طائل يا آنسة !

« هل ترى يا أليوشا ؟ لو قد قلت لها هذا الكلام لضاع كل شىء طبعا ! كانت ستهرب ... ولكننى أكون قد ثأرت لنفسى ثأراً رهيبا ، وأكون قد أرضيت كرامتى الجريحة ارضاءً جهنمياً ! كنت سأظل أبكى طوال حياتى بعد ذلك ، حنقاً وحسرة وأسفاً ، ولكننى لو قلت لها ذلك الكلام لاستطعت على الأقل أن أنتصر عليها فى تلك اللحظة انتصارا ساحقا ! صدقنى اذا قلت لك اننى لم يتفق لى يوما أن نظرت الى أية امرأة فى ظرف كهذا الظرف نظرةً فيها كره ، أما فى تلك المرة فقد لبثت ثلاث ثوانٍ أو خمساً أتفرس فيها وأنا أشعر بكره رهيب ... أحلف لك ... هو ذلك النوع من الكره الأهوج الطائش الذى لاتفصله عن الحب الجامح المجنون الا شعرة ! اقتربت من النافذة ، ووضعت جبينى على زجاجها البارد ... اننى أتذكر الآن أن ملامسة الزجاج المتجلد قد أحدثت لى احساسا بحرق قوى . اطمئن : لم أُبقها عندى طويلا . التفت ، واتجهت نحو منضدتى ، ففتحت الدُرْج وأخرجت منه الحوالة التى كنت قد أودعتها معجمى الفرنسى ، وهى بمبلغ خمسة آلاف روبل تدفع « لحامله » . أريتها الحوالة دون أن أنطق بكلمة واحدة ، ثم طويتها وأعطيتها اياها . وبعد ذلك فتحت باب الممر بنفسى ، ثم تراجعت خطوة الى وراء ، وحييتها منحنيا حتى الحزام ، تحيةً فيها أعظم الاحترام ... تستطيع أن تصدّق ذلك ! ... ارتعشت الفتاة من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، وحدّقت الىّ لحظةً ، وانكفأ لونها انكفاء

SS

رهيباً ، ثم اذا هي ، على حين فجأة ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ودون أن تظهر شيئاً من خشونة ، تنحني هي أيضا ، برفق وعمق ، فما تزال تميل حتى يلامس جبينها الأرض ، فتحييني ساجدةً هـذا السجود ، لا على طريقة آنسة تعلمت في مدرسة داخلية ، بل على الطريقة الروسية • ثم نهضت بوثبة واحدة ، وولّت هاربة • وكنت حاملاً سيفي في تلك اللحظة فسللته ووددت لو أغمده في صدري • لماذا ؟ لا أدري ! لو قد فعلت لكان هذا مني حماقة طبعا ، ولكن أحسب أن ذلك كان ثمرة الحماسة • هل تفهم أن من الممكن أن يقتـل الانسان نفسه في بعض لحظات الحماسة ؟ على أنني لم أفعل شيئاً من ذلك ، واكتفيت بأن قبلت السيف ، ثم أعدته الى غمده • تلك تفاصيل لم يكن من الضروري أن أرويها لك على كل حال • ويخيَّل اليَّ أنني قد زخرفت دوري قليلاً حين وصفت لك تلك الصراعات كلهـا ، وأنني قـد أضفت عدة أشياء لأمجد نفسي • لا ضير ••• لنسلّم بهذا ••• تباً لجميع الجواسيس على قلب الانسان ! تلك هي « مغامرتي » مع كاترين ايفانوفنا ! اثنان يعرفانها الآن : أنت وأخي ايفان ••• ولا أحد يعرفها سواكما ! ••• » •

نهض دمتري فيدوروفتش ، وسار بضع خطوات ، مضطرباً اضطراباً شديدا ، وأخرج منـديله فجفف به جبينه • ثم عاد فجلس ، لكنه لم يجلس في المكان الذي كان يجلس عليه حتى تلك اللحظة ، وانما جلس على المقعد المواجه ، المستند الى الجدار المعارض ، فاضـطر أليوشا أن يستدير حتى يقابله وجهاً لوجه •

٥

اعتراف قلب حار
« والقدمان في الفضاء »

قال أليوشا :

– الآن عرفت الجزء الأول من القصة •

– عرفت الجزء الاول ، وهو دراما مثّلت فى مدينة أخرى • أما الجزء الثانى فهو تراجيدية ستجرى أحداثها هنا •

قال أليوشا :

– لم أفهم حتى الآن شيئاً من هذا الجزء الثانى •

– وهل تظن أننى ، أنا نفسى ، أفهم من هذا الجزء الثانى شيئاً كثيراً ؟

– لحظةً يا دمترى • هناك عنصر أساسى • قل لى : أنت خطيبها ، أليس كذلك ؟ وما زلت خطيبها ؟

– لم أخطبها فورا ، وانما خطبتها بعد الحادث بثلاثة أسابيع • قلت لنفسى غداة ذلك اليوم ان كل شىء قد انتهى ، وانه لن يكون لما وقع تتمة ، فان مضيت أخطبها كان ذلك حطة وصغارا • وهى ، من جهتها ، لم تحرك ساكنا طوال الأسابيع الستة التى قضتها فى المدينة بعد ذاك ،

ولا أشعرتني بوجودها ، اللهم الا مرة واحدة في الواقع : ففي اليوم الذي أعقب زيارتها جاءتني خادمتها وأعطتني حزمة دون أن تنطق بكلمة واحدة • قرأت على الحزمة عنواني • وفضضت الحزمة فوجدت فيها بقية الخمسة آلاف روبل • لقد كانت في حاجة الى أربعة الاف وخمسمائة فقط ، فباعت السند بخسارة قدرها أكثر من مائتي روبل («عمولة» صرف السند) ، ثم أرسلت الي الباقي وهو مائتان وستون روبلاً فيما أظن ، ولكنني لا أتذكر مقدار المبلغ تذكراً واضحاً • لم يكن في الحزمة الا المال ••• لم يكن فيه كلمة شرح واحدة • بحثت في داخل الحزمة عن أية اشارة ولو بالقلم الرصاص ، فلم أظفر بشيء • ما العمل ؟ اندفعت ألهو وأقصف مزيدا من اللهو والقصف ، وبلغت من ذلك حداً اضطر معه الميجر الجديد أن يقرعني تقريعا شديدا • أما الليوتنان كولونيل فقد ردّ أموال الدولة كاملةً لا تنقص كوبكا واحدا ، فدهش جميع الناس ، لأنهم كانوا مقتنعين بأنه لا يملك هذا المبلغ • وما لبث بعد ردّ المال أن مرض فلزم فراشه وظل راقدا ثلاثة أسابيع ثم أصيب بضمور دماغي على حين بغتة فمات بعد خمسة أيام • وقد شيعت جنازته تشييعا عسكريا لأن وقته لم يكن قد اتسع لتقديم الاستقالة التي طلب اليه أن يقدمها • وسافرت كاترين ايفانوفنا الى موسكو بعد دفن أبيها بعشرة أيام ، تصحبها أختها وخالتها • وفي تلك اللحظة فقط (فانني ما رأيتهن مرةً أخرى ولا ودعتهن في المحطة) انما تلقيت منها بطاقة صغيرة من ورق أزرق هو ورق الرسائل الأنيق ذي الحافة المخرّمة الجميلة ، وقد كتب على البطاقة سطر واحد بالقلم الرصاص : « سأكتب اليك • انتظر رسالتي • ـ ك) • ذلك كل شيء •

سأسرد عليك التتمة مقتضبا موجزا • في موسكو تغير حالهن بين عشية وضحاها ، تغيراً مفاجئاً لا يعرف المرء له مثيلا الا في الحكايات

الشرقية . لقد فقدت قريبتُها الجنرالة ابنتى أختها على حين فجأة ، وهما أقرب ورثتها اليها ، فقدتهما مصابتين بجدرى الماء الذى خطف الأولى ثم خطف الثانية بعد أيام قليلة ، فاهتزت الجنرالة اهتزازا عميقا لهذا المصاب وتألمت ألماً شديدا ، فاحتضنت كاترين وفرحت برؤيتهـــا كأنها ابنتها ، وأصبحت كاترين عندها هى الأمن والسلام لها فى وحدتها الموحشـــة وعزلتها الكئيبة . استولت الجنرالة على كاترين ، وسرعان ما كتبت وصية جديدة لمصلحتها . على أن الوصية ليست الا آمالاً . غير أن العجـــوز وهبت لها كذلك أربعة وعشرين ألف روبل أعطتها اياها بغير ابطـاء ، بحجة أن هذا المبلغ مهر لها ، من أجـل أن تستطيع التصرف فيـه على ما يشاء لها هواها . كانت الجنرالةَ امرأة هســـترية ، وقد أتيح لى أن ألاحظها بعـــد ذلك فى موسكو . فى ذات يوم ، تلقيت بالبريد أربعـة آلاف وخمسمائة روبل ، فدهشت أشد الدهشة وذُهلت أكبر الذهول ، لأننى لم أفهم من الأمر شيئاً . وبعد تلقى المال بثلاثة أيام وصلتنى الرسالة الموعودة . ان الرسالة معى الآن ، فأنا أحملها دائما ، وسأحتفظ بها حتى الممات . هل تريد أن ترى الرسالة ؟ اقرأها ... اننى أحرص على أن تقرأها حتماً : ان كاترين ايفانوفنا تعرض علىَّ فى هذه الرسالة أن تصبح خطيبتى ، تعرض علىَّ هذا بنفسها رأساً . كتبت تقول ما معناه : « اننى أشعر نحوك بحب لا حدود له . ولست أطلب منك أن تحبنى اذ كنت لا تستطيع ذلك . كل ما أطلبه منك هو أن توافق على أن تتزوجنى . لا تخش شيئا : فاننى لن أزعجك ، ولن أكون الا قطعة أثاث فى منزلك، لن أكون الا السجادة التى سوف تمشى عليها ... اننى أريد أن أحبك الى الأبد ، اننى أتمنى لو أنقذك من نفسك . » . لا أستحق يا أليوشا أن أكرر هذه الأسطر التى كتبتها لى ، لا أستحق أن أرددها بألفاظى القذرة، بهذه النبرة الحقيرة التى لازمتنى طوال حياتى والتى لن أستطيع التخلص

منها فی یوم من الایام ! لقد حطمت تلك الرسالة قلبی ، فما يزال ينزف بتأثيرها حتى الآن • أتظن أننی مرح النفس فی هذه الأيام ، وأن وضعی لا يعذبنی عذابا شديداً ؟ ولقد أسرعت أجيبها (لأننی كنت لا أستطيع أن أسافر الى موسكو فورا) ، كاتباً لها من خلال الدموع • غير أن هناك شيئاً سأظل أشعر منه بالخزی والعار ماحييت • لقد ذكرت فی رسالتی التی بعثت بها اليها أنها أصبحت تملك الآن ثروة طائلة ، وأن لها بائنة ضخمة، أما أنا فلست الا ضابطا فقيرا ليس له علاقات • نعم ، لقـــد كلمتها عن المال ، كلمتها هی عن المال ! ••• كان ينبغی لی أن أسكت ، كان ينبغی لی أن أقبل هذا التفاوت بينی وبينها صامتاً ، ولكن هذا الكلام قد أفلت منی رغم أنفی ••• وكتبت فی الوقت نفسه الى ايفان الذی كان يومئـــذ بموسكو • عرضت عليه الموقف عرضا دقيقا فی حدود الامكان ــ ضمت الرسالة ست صفحات ــ وكلفت ايفان أن يذهب اليها • لمـاذا تنظر الیّ هكذا ؟ ما بالك تحملق هذه الحملقة ؟ نعم ••• لقد وقع ايفان فی حبها ، وما يزال يحبها ، أنا أعرف ذلك ••• فی رأيكم أنتم وفی رأی الناس أننی ارتكبت بهذا حماقة كبری ••• ولكن من الممكن أن تكون الحماقة هی الآن سبيلنا الوحيد الى الخلاص جميعا ! ألست تری مدی ما تكنه له من تقدير ، بل وما تحمله له من اعجـاب ؟ كيف يكون فی وسعها اذا هی وازنت بينی وبينه ، أن تحب رجلا مثلی ولا سيما بعد كل ما حـــدث هنا ؟

ــ أما أنا فأعتقد أنها لا تستطيع أن تحب الا رجلاً مثلك أنت لا مثله هو •

ــ هی ؟ لا ••• انها لا تحبنی أنا ، وانما تحب نبل نفسها وأريحية قلبها وشهامة روحها •••

ذلك ما أفلت من لسان دمتری فيدوروفتش مع شیء يشبه أن يكون

كرهاً . ثم سرعان ما أخذ يضحك ، ولكن عينيه سطعتا بعد بضع ثوان ، واحمر وجهه ، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة ، وصاح يقول بغضب رهيب على نفسه ، غضب رهيب لكنه صادق :

ـ أحلف لك يا أليوشا ... صدّق أو لا تصدق ... أحلف لك صادقاً صدقَ وجود الله وصدقَ أن يسوع المسيح ربُّنا ، أحلف لك أنني ، مهما أكن قد سخرت منذ لحظة بعواطفها الرفيعة ، أعلم حق العلم أنني لا أرقى الى مستوى كعب قدمها ، وأن نفسي لا تعدل جزءا من مليون جزء من نفسها ، وأن لها من صدق نبل القلب ما لا ينعم به الا ملاك من ملائكة السماء ! وان يقيني من هذا هو بعينه مأساتي كلها !.. أي ضير في أن يحب الانسان العبارات الجميلة وأن يشوبَ أطهرَ اندفاعاته شيء من تمثيل ؟ ألست أستعمل أنا عبارات مصطنعة ؟ ومع ذلك فأنا صادق ، صادق جدا . أما ايفان فانني أتخيل أنه في هذه الساعة يلعن الطبيعة ولا شك ، يلعن الطبيعة هو الرجل الذكي ذلك الذكاء كله ! من الذي تفضله المرأة ؟ ما الذي تؤثره المرأة ؟ انها تخص بايثارها الانسان النذل الذي هو أنا ، الانسان الذي برهن هنا ، وهو خاطب ، على عجزه عن أن يتحكم بميله الى الدعارة والفجور ، رغم ايثارة خطيبته ، هل تفهم ؟ نعم ... رغم ايثاره خطيبته ... فهذا هو الرجل الذي يُؤثَر ، أما الآخر فيُبعَد .... ولماذا ذلك كله ؟ لأن فتاة من الفتيات تريد أن تتحدى قدرها ، وأن تقهر سعادتها ! سخف ! أنا طبعاً لم أطلع ايفان على خواطري هذه في يوم من الأيام ، ولا هو اعترف أي اعتراف أو أشار أية اشارة حول هذا الأمر . ولكن يجب أن ينال كل واحد منا نصيبه ، فأما الأفضل فيحتل المكان الذي يستحقه ، وأما الآخر الذي لا يستحق ذلك المكان فيغوص في الأزقة المظلمة ، ويختفي من حياتهما الى الأبد . ان هذا الآخر سيجد له مأوى في الأزقة الموبوءة العفنة التي

يحبها ، والتى تستهويه وتجذبه اليها ، والتى يشعر فيها أنه فى بيته ، ليهلك هنالك فى الحقارة المقززة راضيا عنها متلذذا بها • اننى أسترسل الآن فى عبارات جوفاء ، وأقول ألفاظاً بالية أجمعها من هنا وهناك • ولكن الأمور ستجرى هذا المجرى الذى أصفه • سأغطس أنا فى الحضيض ، وستتزوج هى ايفان •

قاطعه أليوشا مرة أخرى يقول وقد اضطربت نفسه اضطرابا شديدا :

ـ لحظةً يا أخى ! هنالك نقطة لم تشرحها لى مع ذلك حتى الآن : أنت خطيبها ، أليس كذلك ؟ أنت خطيبها رغم كل شىء ••• فكيف يخطر ببالك والحالة هذه أن تفصم خطبتك اذا كانت هى ، خطيبتك ، لا تريد ذلك ؟

ـ أنا خطيبها ، هذا صحيح • وقد احتفلنا بخطوبتنا وفقاً لجميع القواعد المقررة ، ونلنا جميع المباركات المألوفة المعهودة • تمَّ ذلك فور وصولى الى موسكو ، تمَّ فى كثير من الأبهة وسط كثير من الأيقونات مع عدد كبير من المدعوين هم صفوة المجتمع وخيار القوم • وقد باركتنا الجنرالة ، حتى لقد هنأت كاترين ايفانوفنا ـ هل تصدق ذلك ؟ ـ هنأتها قائلة لها : « أحسنت الاختيار يا بنيتى ••• اننى أرى قرارة نفس هذا الفتى •• » • أما ايفان فقد ناصبته العداء ـ هل تتصور ؟ ـ ولم ترض أن تهنئه ••• وقبل أن أترك موسكو جرت بينى وبين كاتيا أحاديث طويلة ، فكشفت لها عن نفسى كاملة بنبل واخلاص ، ووصفت لها أخلاقى وصفا دقيقا صادقا ، فكانت تصغى الى ما أقول بانتباه شديد •

فكان اضطراب وكانت دموع
وكان كلام رقيق وديع

وكان كذلك كلامٌ فيه كبرياء وخيلاء • وأجبرتني على أن أقطع على نفسي عهداً لأُصلحنَّ حالي • قطعت لهـــا على نفسي ذلك العهد • وهأنت ذا ترى •••

ــ ماذا ؟

ــ لقد ناديتك اليوم ، ودعوتك أن تجيء الى هنا في هـــذا النهار ــ تذكّر التاريخ ــ من أجل أن أوفدك قبل حلول المســـاء الى كاترين ايفانوفنا ، فتبلغها •••

ــ أبلغها ماذا ؟

ــ انني لن أذهب اليهـــا بعـد اليوم قط • وانقل اليهـــا تحيتي واحترامي •

ــ ما هذا الكلام ؟ أهذا ممكن ؟

ــ هو ممكن لأن من غير الممكن أن أذهب اليها بنفسي ، فما عساني قائلاً لها ، وكيف أستطيع أن أقول هذا الأمر ؟

ــ وما الذي ستفعله بعد ذلك ؟

ــ أضيّع نفسي في الأزقة !

ــ هي اذن جروشنكا ! ستذهب الى جروشنكا ؟

بهذا هتف أليوشا سائلاً بلهجة مرة وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى • وتابع كلامه :

ــ أيكون ما قاله راكيتين هذا صحيحا وا أسفاه ! أعترف لك بأنني قد خطر ببالي أنك قد ارتضيت الانسياق الى منزلها ، ولكنني كنت آمل أن تكون قد سئمتها أخيرا •

ـ الانسياق الى منزلها ؟ هل يستطيع خطيب أن يرتضي الانسياق الى منزلها ؟ أتظن أن هـــذا ممكن ومقبول ، على مرأى ومسمع من جميع الناس ، لا سيما والخطيبة فتاة كتلك الفتاة ؟ ان لى شيئا من شرف رغم كل شيء • صحيح أنني منذ اللحظة التى بدأت أختلف فيها الى جروشنكا قد فقدت صفة الخطيب وفقدت صفة الانسان الشريف • ذلك أمر أفهمه كل الفهم • ما بالك تنظر الىّ هكذا ؟ اعلم انني حين ذهبت اليهـا أول مرة انما ذهبت اليها لغرض واحد هو أن أضربها • كنت أعلم وما زلت أعلم علم اليقين أن ذلك الضـابط الذى يكلفه أبى بقضـاء أعمال له ، قد أعطى جروشنكا سنداً ممهوراً بامضائى ، لتطالب بملاحقتى فتضطرنى بهذه الوسيلة أن أنسحب • لقد أرادوا تخويفى• لذلك قررت أن أؤدبهم وكنت قد رأيتها مرة من بعيد ، فلم تحـــدث فى نفسى أثراً كبيرا لأول وهلة ، وكنت أعرف وجود صاحبها ذاك التاجر العجوز ، الذى هـو الآن مريض راقد فى فراشه قد بارحته قواه ، ولكنه سيترك لها مع ذلك بعد موته كنزا كبيرا ؛ وكنت أعلم أيضا أنها تحب المـــال حباً عظيما ، وتحاول أن تربح المزيد منه بالاقراض بربا فاحش لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ، هذه الوغدة ، هذه الحقيرة ••• فذهبت اليها لأضربها ••• فاذا أنا أؤخذ بها ••• كان الأمر صاعقة أو نازلة أو طاعونا أو ماشئت فسمّه ••• ولكننى قد أُصبت وما أزال • وأنا أعلم أن لا مهربَ لى منذ الآن ، وأن كل شيء قد انتهى ، فأنا أسير هذه المرأة ولن أرى فى الحياة بعد اليوم شيئا سواها ••• وقد اتفق عرضاً فى تلك اللحظة ، كأنما على عمد وقصد ، أن كان معى ثلاثة آلاف روبل ، أنا الذى لست الا شحاذا ••• فذهبنا معا الى موكرويه التى تبعد عن هنا مسافة خمسة وعشرين فرسخا ، فاستدعيت هنالك غجـــراً ، رجالا ونساء ، وفتحت زجاجات شمبانيا ، فأخذت أسقى جميع الفلاحين وجميع الفلاحات وجميع البنات ،

أسقى بسخاء ، بوفرة ••• كنت لا أحسب ما أنفق من مال ، فمئات الروبلات تذهب بعضها وراء بعض ، فما هي الا ثلاثة أيام حتى خلا وفاضى فلم يبق معى شيء ••• ولكننى كنت أحسب أننى قد غزوت هذه المرأة واستوليت عليها • فهل تظن أننى قد وصلت معها الى شيء ، هل تظن أننى ظفرت منها بشيء ؟ أبدا ••• لم أنل منها شيئا البتة • لقد رفضتْ ، بل لم تتنازل حتى أن أتأمل جمال جسدها معجبا به عن بعد ! ان لها قواما ••• أوه ••• لن أقول لك الا هذا ••• قواما ••• ان فى جسمها نوعا من تثنٍ تراه فى الساق أيضا ، وتراه حتى فى الاصبع الصغير من قدمها اليسرى • لقد رأيت هذا الاصبع ، وقبلته ••• ولكن ذلك كان كل شيء ، أحلف لك • كانت تقول لى :

« ـ أتزوجك اذا شئت ، رغم فقرك ـ عِدْنى بأن لا تضربنى ، وبأن تدع لى أنْ أفعل فى المستقبل ما يحلو لى ، فَربما قبلت عندئذ أن أصبح زوجتك •

« كانت تقول ذلك ضاحكة ، وهى ما تزال تضحك الى الآن ! » •

نهض دمترى فيدوروفتش على حين فجأة وقد بدا عليه نوع من غضب مسعور • أصبح كالسكران دفعة واحدة • احتقنت عيناه دماً •

ـ وهل ترفض أنت أن تتزوجها ؟

ـ اذا وافقتْ تزوجتها فورا ؛ واذا رفضت بقيت الى جانبها ولو خادماً • هل تعلم أنت ••• أنت •••

توقف دمترى فيدوروفتش فجأة أمام أليوشا ، فأمسكه من كتفيه ، وأخذ يهزه بكل ما أوتى من قوة •••

ـ هل تعلم ، أيها الطفل البرىء ، هل تعلم أن هذا كله ليس الا هذيانا ، ليس الا كلاما يدل على جنون ، وأن الأمر فى الواقع أمر مأساة؟

اسمع يا أليوشا : أنا رجل دنيء منحط تستبد به رغبات حقيرة وتضيعه شهوات سافلة ، أما أن أكون لصاً صغيرا ، أما أن أكون لصاً صغيرا شقياء فذلك ما لن يرضاه دمتري كارامازوف لنفسه في يوم من الأيام ! ألا فاعلم اذن أنني لص صغير يسرق المال من على منضدة أو من جيب سترة معلقة ! ففي ذلك الصباح الذى ذهبت فيه الى جروشنكا لأضربها ، كانت كاترين ايفانوفنا قد استدعتني الى منزلها سرا ، وكلفتني (راجية أن أنفذ طلبها في الخفاء فما يعلم به أحد) ، أن أذهب الى مركز الاقليم فأرسل هناك بالبريد ثلاثة آلاف روبل الى أختها آجاتي ايفانوفنا بموسكو • ذلك أنه كان يجب أن لا يطلع أحد من سكان مدينتنا على هذا الامر • فهذه الثلاثة آلاف روبل هي التي كانت في جيبي حين ذهبت الى جروشنكا ، وبهذه الثلاثة آلاف روبل انما مضيت أنا وجروشنكا الى موكرويه • ولقد تظاهرت بعد ذلك بأنني ذهبت الى مركز الاقليم ، ولكنني لم أسلّم كاترين ايفانوفنا ايصال البريد ، وانما أكدت لها أنني أرسلت المال ووعدتها بأن آتيها بالايصال في يوم آخر • ولم أعطها الايصال طبعا حتى هذه الساعة ، متعللا بالنسيان • فتخيل الآن أنك ذهبت اليها اليوم ، فنقلت اليها تحيتي واحترامي ، فسألتك : « والمال ؟ » ، فما عساك قائلا لها ؟

ــ أنت شقي يا ميتيا ••• هذا أكيد ! ولكن لا تبالغ ! ان البلية أهون مما تظن • لا تدع لليأس أن يصعقك ، لا تدع لنفسك أن تتحطم هذا التحطم !

ــ أتراك تظن أنني سأنتحر لأنني لن أستطيع أن أجد ثلاثة آلاف روبل أردها الى كاترين ؟ ألا ان البلية بعينها هي أنني لن أنتحر ، لن أنتحر الآن على كل حال ، فلست أملك من القوة ما يمكنني من الانتحار • لا أحد يدرى ما قد أفعله في المستقبل • أما الآن فانني لا أفكر الا في الذهاب الى جروشنكا ••• وليكن ما يكون !

ـ وما الذى ستفعله عندها ؟

ـ أصبح زوجها • أنال هذا الشرف • فاذا جاء عشيقها يزورها اختبأت فى الغرفة المجاورة • وسأنظف أحذية أصدقائها ، وسأغلى الماء فى السماور ، وسأتولى شراء ما تكلفنى بشرائه من أشياء صغيرة •••

قال أليوشا بصوت مهتاج :

ـ ان كاترين ايفانوفنا ستفهم كل شيء ، ستفهم مدى شقائك ، وستغفر لك • ان لها ذكاء فذاً • لا يمكن أن يكون أحد أشقى منك ، وستدرك هى هذا !

فأجابه ميتيا يقول بلهجة مرة :

ـ لن تغفر لى قط • هناك أشياء لا يمكن أن تقبلها وأن ترتضيها أية امرأة • هل تعرف ما هو أفضل شيء يجب أن نعمله ؟

ـ ماذا ؟

ـ أن نرد اليها الثلاثة آلاف روبل •

ـ ولكن من أين نجيء بهذا المبلغ ؟ اسمع: اننى أملك ألفى روبل، ولا شك أن ايفان سيعطى ألفاً آخر ، فيكون المجموع ثلاثة آلاف • خذ هذه الآلاف الثلاثة ورُدَّها اليها •

ـ ولكن متى تصبح هذه الآلاف الثلاثة فى جيبك ؟ انك ما زلت الى الآن قاصراً ، ولا بد حتما أن تذهب اليها موفدا منى ، فى هذا اليوم نفسه ، بالمال أو بدون المال، لأننى أصبحت لا أطيق احتمال هذا الوضع• لقد بلغت الأمور حداً لا أملك معه أن أنتظر مزيدا من الانتظار • فى غد سيكون الأوان قد فات ، سيكون قد فات • سوف أرسلك الى أبينا •

ـ الى أبينا ؟

ـ نعم ، تذهب اليه قبل أن تذهب اليها ، وتطلب منه هذه الثلاثة آلاف روبل .

ـ ما هذا الكلام يا ميتيا ؟ انه لن يعطيك المبلغ بحال من الاحوال .

ـ أقدّر ذلك . هل تعلم يا أليوشا ما هو اليأس ؟

ـ أعلم .

ـ فاسمع اذن : انني أعلم أن أبانا ليس مديناً لى بشيء من الناحية القانونية ، فقد أخذت حقوقي كاملة . ولكنه مدين لى من الناحية الأخلاقية ، أليس كذلك ؟ لقد شق طريقه فى الحياة بمبلغ الثمانية وعشرين ألف روبل التى خلفتها أمي ، فجنى من استثمار هذا المبلغ مائة ألف . فليعطني من هذه الثمانية وعشرين ألفاً ، فليعطني ثلاثة آلاف فقط ، لا أكثر من ذلك ، فينقذ روحي من هذا الجحيم ، وتُغفر له بذلك خطايا كثيرة في مقابل ذلك ! وأُقسم لك يمينا لا مين فيه أنني سأختفي متى ملكت هذه الآلاف الثلاثة ، فما يرى وجهي بعدئذ ولا يسمع عني . هذه آخر فرصة أتيحها له ليتصرف تصرف أب . قل له ان الله نفسه هو الذى يهب له هذه الفرصة .

ـ أوه ... ميتيا ... انه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال .

ـ أعلم أنه سيرفض أن يعطي المبلغ . أنا من ذلك على يقين مطلق، اليوم أكثر من أى وقت مضى ! بل انني أعلم شيئاً آخر أيضا : لقد بلغه منذ زمن قصير جدا ، فى الأيام الأخيرة ، وربما أمس فقط ، أن جروشنكا تتكلم جادةً حين تعلن أنها تريد أن تتزوجني . فلأول مرة ، أدركَ « فعلاً » (« فعلاً » ، لاحظ كلمة « فعلاً » هذه) ، أنها لا تمزح ، أنها لا تهزل ، وأنها قد تتزوجني حقا . انه يعرف طبعها ، انه يعرف طبعها ، انه يعرف أية قطة هي ! فهل يمكن أن يعطيني مزيدا من المال ليشجعها

على انفاذ هذه النية ، وهو مجنون بها هياماً ؟ وليس هذا كل شيء ، فسأقول لك المزيد : أنا أعلم أنه ، منذ خمسة أيام ، قد سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل ، وأبدلها أوراقا نقدية من ذات المائة روبل ، فوضعها في حزمة كبيرة مختـــومة ، وربط الحـــزمة بشريط أحمـــر متصالب في الاتجاهين • هأنت ذا تلاحظ اننى مطلع على أدق التفاصيل ! وقد كتب على الحزمة هذه العبارة : « الى ملاكى جروشنكا ، اذا هى رضيت أن تجيء » • كتب هذه العبارة بخط يده فى كثير من العناية ، وفعـــل ذلك كله سراً فى الخفاء ، فما من أحد يخطر بباله أن هذا المبلغ يوجد الآن عنده ، ما من أحد يعرف هذا الأمر الا الخادم سمردياكوف الذى يثق به ثقته بنفسه • وهو الآن ينتظر مجيء جروشنكا منذ ثلاثة أيام أو أربعة آملاً أن يجتذبها هذا المبلغ• لقد أبلغها أنه يضع هذا المبلغ تحت تصرفها، فأجابته بأنها « قد تعزم أمرها » • ولكن اذا ذهبت الى العجـــوز فكيف أستطيع أن أتزوجها بعد ذلك ؟ فهل أدركت الآن لماذا أختبىء فى هـــذا المكان مترقباً مترصداً ؟

ـ أتترصدها هى ؟

ـ نعم • ان هاتين العجوزين الشمطاوين ، صاحبتى المنزل ، قـــد أجَّرتا توماس غرفةً من بيتهما الصغير ، وتوماس هذا رجل من مدينتنا كان قد خدم جندياً تحت امرتى ، وهو لهما الآن بمثابة خادم وحارس فى الليل • انه فى النهار يمضى الى صيد ديوك الخلنج فيجنى من ذلك بعض الرزق • وأنا الآن مقيم عند توماس هذا • فلا هو ولا العجوزتان يعرفون السرَّ ، أو يخطر ببالهما أننى هنا أترقب وأترصد •

ـ هل سمردياكوف وحده مطلع على الأمر ؟

ـ وحده • ثم انه سيبلغنى مجيئها باشارة سريعة اذا هى جاءت •

ـ أهو الذى حدثك عن تلك الحزمة ؟

ـ نعم ، فى الخفاء . وايفان نفسه لا يعرف شيئاً عن المال وعن بقية الأمر . لقد قرر العجوز أن يرسل ايفان الى تشرماشنيا يوما أو يومين . لقد جاء اليه أحد المشترين يعرض عليه قطع أخشاب بمبلغ ثمانية آلاف روبل ، فألحّ العجوز على ايفان قائلا له : « اذهب الى هناك نيابةً عنى . قدم لى هذه الخدمة » . وانما يهدف العجوز الى ابعاده بضعة أيام بغية أن لا يكون حاضرا حين تجىء جروشنكا .

ـ أهو ينتظر اذن أن تجىء اليه جروشنكا اليوم كما انتظر فى الأيام الماضية ؟

ـ لا ... لن تجىء اليه اليوم . هنالك قرائن تثبت لى ذلك . لن تجىء اليوم حتماً (كذلك صاح ميتيا فجأة) . وهذا رأى سمردياكوف أيضاً . ولا بد أن يكون الأب جالسا الآن الى المائدة يسكر ، والى جانبه أخونا ايفان . اذهب اليه يا ألكسى ، واطلب منه هذه الآلاف الثلاثة ...

ـ ميتيا ، عزيزى ، ماذا دهاك ؟

بهذا صاح أليوشا وهو ينهض فجأة ، ويتفرس فى دمترى فيدوروفتش الذى أصبح خروجه عن طوره واضحا . (حتى لقد خطر ببال أليوشا أن أخاه قد جُن) .

قال دمترى فيدوروفتش ببطء فيه ما يشبه الأبهة والجلال وهو يحدق الى أخيه هادئاً :

ـ اطمئن . ما زلت أملك عقلى كاملا . لا تخش شيئاً . أنا أعرف ما الذى أعمله حين أرسلك الى أبينا . اننى أعتقد بحدوث معجزة .

ـ معجزة ؟

ـ معجزة الهية • ان الله يعرف ما بقلبي ، ويعلم ما أنا فيه من كرب وكمد ويأس • انه يرى ما يجـــرى هنا • فلن يرضى ـ أنا واثق من هذا ـ لن يرضى أن يتم هذا الأمر الفظيع• انني أؤمن بالمعجزة يا أليوشا ! اذهب اليه •

ـ سأذهب • هل ستنتظرني هنا ؟

ـ سأنتظر • أنا أعلم أن الأمر سيستغرق زمناً ، وأنك لن تستطيع أن تنجح في مهمتك فورا ، وأنه لن يكفي أن تذهب اليه فتقول له : «هأنذا ••• هات المال ! » • لا بد أنه في هذه اللحظة سكران • سأنتظر ماوجب الانتظار ، سأنتظر ثلاث ساعات ، أربعاً ، خمساً ، بل سبعاً بل اذا لزم • واعلم مع ذلك أن عليك أن تذهب في هذا اليوم نفسه ، ولو في منتصف الليل ، أن تذهب الى كاترين ايفانوفنا ، بمال أو بغير مال ، لتقول لهـا انني كلفتك بابلاغها تحيتي واحترامي • انني أحرص حرصا مطلقا على أن تقول لها هذه العبارة : « كلفني بأن أنقل اليك احترامه » •

ـ ميتيا ! فماذا لو جاءت جروشنكا غدا أو بعد غد، هذا اذا لم تجيء اليوم ؟

ـ جروشنكا ؟ سأترصدها ، ثم أسرع الى منزل العجوز فأحـــول دون الأمر مهما يكن الثمن •••

ـ فاذا حدث رغم كل شيء أن •••

ـ اذا حدث ؟ عندئذ سأقتل ! لن أطيق لاحتمال •

ـ من تقتل ؟

ـ أقتل العجوز • أما هي فلن أقتلها !

ـ أخي ،أخي ، ما هذا الكلام الذي تقوله ؟

ـ لا أدرى ، أصبحت لا أدرى ... قد لا أقتل ، ولكن قد أقتل... أخشى أن لا أطيق رؤية وجهه القذر الكريه فى تلك اللحظة ! اننى أكره جوزة عنقه ، أكره أنفه ، أكره عينيه ، أكره ضحكته الصغيرة الوقحة الخليعة . انه يوقظ فىّ اشمئزازاً جسمياً . ذلك ما أخشاه خاصة . قد لا أستطيع أن أكبح جماحى وان أسيطر على نفسى .

ـ أنا ذاهب اليه يا ميتيا . اننى مؤمن بان الله سيفعل كل شىء فى سبيل أن لا يقع هذا الأمر الرهيب الفظيع !

ـ وسأنتظرك أنا هنا آملا أن تحدث معجزة . أما اذا لم تحدث المعجزة ...

اتجه أليوشا الى منزل أبيه مطرقاً مفكراً .

٦

سمردياكوف

دخل اليوشا على أبيه فوجده ما يزال جالساً الى المائدة فعلاً . ولقد قُدِّم الطعام فى الصالون ، كما جرت العادة بذلك ، رغم أن بالمنزل غرفة طعام .

الصالون أوسع حجرة فى المنزل ، وقد حرص صاحبه على ان يكون أثاثه قديماً من باب الأبهة والعظمة . ان الأثاث كله قديم جداً ، أبيض اللون منجد بقماش عتيق أحمر من حرير وقطن . وعلى الجدران بين النوافذ قد صُفَّت مرايا لها أطر مفخمة من طراز بالٍ ، بيضاء اللون أيضاً ، ولكنها مذهبة . والسجاد أبيض كذلك ، مهترىء فى مواضع كثيرة، والحيطان مزدانة بلوحتين كبيرتين ، احداهما صورة أمير من الأمراء كان حاكماً للمنطقة قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضت ، والثانية صورة أسقف مات هو أيضاً منذ زمن بعيد جداً . وفى الركن الذى يواجه باب المدخل توجد عدة أيقونات تُشعل أمامها فى المساء مصابيح زيت ، لا من قبيل التقى بل لتظل الغرفة مضاءةً أثناء الليل . ذلك أن فيدور بافلوفتش لا ينام الا فى ساعة متأخرة جداً ، فهو يأوى الى فراشه فى الثالثة أو الرابعة من الصباح ، ويقضى وقته قبل ذلك سائراً فى الغرفة الى غير نهاية ، أو

جالساً على مقعد من المقاعد يفكر طويلاً . لقد أصبح هذا عادة فيه . وكان فى بعض الأحيان يبقى وحيداً أثناء الليل ، بعد أن يصرف خدمه الى المبنى الملحق . ولكنه فى أكثر الأحيان يحتفظ بخادمة سمر دياكوف الذى ينام فى الدهليز على دكة .

حين دخل أليوشا الغرفة كانت وجبة الطعام قد انتهت ، وجيء بمربب وقهوة . ان فيدور بافلوفتش يحب ان يصيب شيئاً من الحلوى بعد الغداء ، أثناء شرب قدح صغير من الكونياك . وكان ايفان فيدوروفتش بجانبه ، يحتسى القهوة معه . وكان الخادمان جريجورى وسمر دياكوف واقفين قرب المائدة . وكان يبدو فى تصرف السيدين والخادمين ، على السواء ، مرح غير مألوف وفرح غير معهود . كان فيدور بافلوفتش يضحك ملء حنجرته ، وقد سمع أليوشا ، منذ وصل الدهليز ، النبرات الحادة التى تتصف بها هذه الضحكة والتى يعرفها فى أبيه حق المعرفة من قبل ؛ فاستنتج من هذه النبرات أن أباه ما يزال بعيداً عن حالة السكر ، فهو الآن مسترسل فى نوبات ملاطفة ومطايبة .

صرخ فيدور بافلوفتش يقول ضاجاً صاخباً وقد سرَّه فجأة أن يرى أليوشا :

ـ ها هو ذا ! تعال معنا ! اجلس . قهوة ؟ ليست القهوة كحولاً ، وهى ساخنة ولذيذة . لا أقدم اليك كونياكاً ، فأنت راهب ، اللهم الا أن تريد ... هل تريد ؟ لا ؟ طيب ... سأعطيك اذن خمرة ، خمرة عظيمة ! ياسمر دياكوف ، افتح الخزانة ... الخمرة على الرف الثانى يمنةً . اليك المفاتيح . هيَّا أسرع !

وكان أليوشا يتهيأ منذئذ لأن يرفض أن يشرب الخمرة . قال له أبوه مشرق الوجه متهلل الأسارير :

ـ لاتريد ؟ طيب ••• لا بأس ••• سيؤتى بها الينا نحن ، ما دمت لا تريد أن تشربها ••• بالمناسبة ،هل تغديت ؟

ـ تغديت ، ولكن هل لى أن أشرب قليلاً من قهوة ساخنة ؟

بهذا أجاب أليوشا الذى لم يكن قد أكل فى الواقع الا كسرةً من خبز واحتسى قدحاً من شراب التفاح فى مطبخ كبير الرهبان •

قال الأب :

ـ مرحى ! ألا انك لفتى طيب ! سوف يشرب قهوة ! ألا يحسن تسخين القهوة ؟ ولكن لا ••• انها ما تزال تغلى • هى قهوة ممتازة ، هل تعلم ؟ لقد أعدّها سمردياكوف • ان صاحبى سمردياكوف فنان فى اعداد القهوة وتحضير أنواع الكوليباكا* ، وكذلك فى طهى حساء السمك • هذا حق • يجب أن تجىء الينا ذات يوم ، فتذوق حساء السمك هذا ، ولكن عليك أن تنبئنى بمجيئك سلفاً • آ ••• صحيح•• نسيت ! ألم آمرك فى هذا الصباح بأن تترك الدير مع وسادتك وفراشك وأن تعود الى المنزل نهائيا ؟ هل أتيت بفراشك ؟ ها ها ها •••

أجابه أليوشا وهو يضحك أيضا :

ـ لا ، لم آت به •

ـ لقد أخفتك فى هذا الصباح ، هه ؟ لقد روّعتك ، أليس كذلك؟ يا طائرى الصغير ، أنت تعلم أننى لا أستطيع أن أدخل الحزن الى قلبك• ايفان ، ايفان ، اننى لأشعر باضطراب شديد حين ينظر الى عينىّ هذه النظرة ضاحكاً • ان أحشائى لتأخذ تتحرك عندئذ ••• ذلك أننى أحبه ، هذا الفتى • اقترب يا أليوشا ، فاننى أريد أن أمنحك بركتى الأبوية •

نهض أليوشا ، ولكن أباه كان قد عدل عن رأيه ، فقال له :

ـ لا بل حسبي اليوم أن أرسم عليك اشارة الصليب ، هكذا ••• اجلس هنا ••• سوف تسلى الآن ، وذلك بصدد مسألة مألوفة عندك • سوف تضحك يا عزيزى • تخيَّل أن حمارة بلعام* قد أخذت تتكلم • هى تتكلم الآن ، تتكلم ••• وما أفصحها !

ولم تكن حمارة بلعام التى يعنيها الأب الا الخادم سمردياكوف•ان سمردياكوف ، وهو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، كان يبدو شديد التوحش دائم الصمت ، لا لأنه خجول ، فهــو فى الواقع جرىء جسور حتى ليظهر عليه أنه يحتقر جميع الناس ، ولا بد أن نقول فى هذه المناسبة : ان مارفا اجناتوفنا وجريجورى فاسيلفتش هما اللذان توليا تربيته ، ولكنه « قد شب على نكران الجميــــل » كما كان يقول جريجورى ، صبياً متوحشاً ينظر الى جميع الناس نظرة شزراء • كان أثناء طفولته يجد لذة كبيرة فى أن يشنق قططاً ثم يدفنها بعد ذلك محتفلا بدفنها احتفالا كبيرا ، فهو يتــدثر فى هــذه المناسبات ببطانية يتخــذها بمثابة جبة كاهن ، ويأخذ يرتل بعض الصلوات محركاً يديه فوق جثة القطة كمن يحمل مبخرة • وكان يسترسل فى هذه اللعبة فى خلوة تامة وخفاء كامل فلما فاجأه جريجورى فى ذات يوم يمارس هذه الرياضــة عاقبه بالسياط معاقبة شــديدة • فانزوى الصبى يومئــذ فى ركن من الأركان ، وصام عن الكلام أسبوعا برمته •

كان جريجورى يقول لمافرا اجناتفنا :

ـ ان هذا الصبى الشاذ لا يحبنا كلينا ، وهو لا يحب أحدا على كل حال •

ثم يضيف وهو يلتفت فجأة الى سمردياكوف :

ـ أأنت كائن انسانى ؟ ما أنت بانسان ••• لقد وُلدت فى رطوبة الحمامات ، هذا أنت •••

لم يغفر سمردياكوف لجريجورى تلك الأقوال فى يوم من الأيام، كما اتضح ذلك فيما بعد • ولقد علَّمه جريجورى القراءة ، فلما تجاوز الصبى السنة الثانية عشرة من عمره ، أراد جريجورى أن يعلمه «التاريخ المقدس » • ولكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل فلم يكن لها غد • ففى ذات يوم ، أثناء الدرس الثانى أو الثالث ، أخذ الصبى يضحك على حين فجأة • سأله جريجورى وهو يرشقه بنظرة قاسية من وراء نظارتيه :

ـ ما بك ؟

ـ لا شيء • ان الرب قد خلق الضياء فى اليوم الأول ؛ وفى اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم ، فمن أين جاء الضياء اذن فى اليوم الاول ؟

بُهت جريجورى لحظةً • وكان الصبى ينظـــر الى معلمــه نظرة ساخرة، حتى لقد كانت عيناه تعبران عن احتقاره• فلم يستطع جريجورى أن يكظم غيظه ، فاذا هـــو يلطم تلميذه على وجهه لطمة قوية وهـــو يقول له :

ـ من أين ؟ من هنا •••

تلقى الصبى الصفعة دون أن يقول كلمة واحـــدة ، ولكنه حرن وأمسك عن الكلام مرة أخرى بضعة أيام • وبعد ذلك الحادث بأسبوع انما وقعت له أول نوبة من نوبات الصرع ، وهو المرض الذى لم يبارحه بعد ذلك طوال حياته • فلما علم فيدور بافلوفتش بالأمر تبدل موقفه من الفتى تبدلاً كاملاً بعد أن كان حتى ذلك الحين لا يعبأ به ولا يكترث له ، رغم أنه لم يقرِّعه فى يوم من الأيام ، حتى لقد كان ينفحه كوبكاً

كلما لقيه ، وكان يتفق له في حالات الكرم والطيبة التي يمر بها أن يرسل الى الصبي من مائدته بعض الحلوى • ولكن فيدور بافلوفتش ، بعد أن عرف بمرضه ، أخذ يهتم به اهتماما جاداً ، حتى لقد استدعى طبيبا وأراد أن يعالجه • غير أن المرض استعصى على الشفاء ، واتضح أنه لا برء منه • كانت نوبات الصرع توافي الصبي مرةً في الشهر وسطياً، على تفاوت في طول المدة ، واختلاف في قوة النوبة ، فالنوبة خفيفة تارة ، خطيرة كل الخطورة تارة أخرى • وقد حظر فيدور بافلوفتش على جريجوري أن ينزل في الصبي عقوبات جسمية حظراً صارماً باتاً ، وأخذ يستدعي الصبي اليه من حين الى حين ، كما عارض في تعليم الصبي أي شيء خلال تلك الفترة • ومع ذلك حدث في ذات يوم أن فاجأ فيدور بافلوفتش الفتى الذي أصبح مراهقا في نحو الخامسة عشرة من عمره ، فاجأه قرب خزانة الكتب يحاول أن يقرأ عناوين المؤلفات من خلال زجاج الخزانة • كان فيدور بافلوفتش يملك عددا كبيرا من الكتب ، كان يملك نحو مائة كتاب ، ولكن أحدا لم يره قارئا في يوم من الأيام • وسرعان ما بادر فيدور بافلوفتش فأعطى الفتى مفاتيح خزانة الكتب قائلا له :

ـ اقرأ ما يحلو لك أن تقرأه ، وستكون بعد اليوم أمين مكتبتي•• ذلك خير من التسكع في فناء المنزل • تناول كتابا واجلس • اسمع ، خذ هذا الكتاب أولا •

قال له فيدور بافلوفتش ذلك ، ومدّ اليه كتاب « سهرات في المزرعة قرب ديكانكا » * •

قرأ الفتى الكتاب ، ولكن لم يظهر عليه أنه افتتن به ، حتى أنه لم يبتسم مرةً واحدة أثناء قراءته ، بل انه قطّب حين فرغ منه •

سأله فيدور بافلوفتش :

ـ هيه ... كتاب مضحك أليس كذلك ؟

فصمت سمردياكوف ولم يجب بشيء .

فألح فيدور بافلوفتش قائلا :

ـ هلاّ أجبت يا أهبل ؟

فتأتأ سمردياكوف يقول وهو يطلق ضحكة صغيرة :

ـ هذا كله أكاذيب ... أمورٌ لم تحدث ! ...

ـ شيطان يأخذك ! ... طيب خذ ... اقرأ اذن « التاريخ العام » من تأليف سماراجدوف * . ستجد ههنا أحداثاً جرت ، ستجد أحداثاً صادقة . اقرأ .

ولكن سمردياكوف لم يصل من الكتاب حتى الى صفحته العاشرة، فقد رآه مملاً باعثاً على الضجر . وأُعيد اغلاق المكتبة . وبعد ذلك بقليل نقل جريجورى ومارفا الى فيدور بافلوفتش أن الصبى أصبح يقف من الطعام موقفاً فيه حساسية شديدة وتأذٍ كبير يتفاقمان يوماً بعد يوم : أصبح حين يجلس الى المائدة ليتناول حساءه يمسك الملعقة فيأخذ يقلب بها الحساء مرة بعد مرة فاحصاً مدققاً ، ويميل على الطبق فينعم النظر فيه طويلا ، ثم يملأ ملعقة ويمضى بها نحو الضوء يتأملها ملياً . فكان جريجورى يسأله :

ـ هل وجدت فى الحساء خنفسة ؟

وتضيف مارفا ساخرة :

ـ أم لعلك وجدت فيها ذبابة ؟

ولكن الفتى المشمئز المتقزّز لا يجيب بشيء . وهو يتصرف هذا

التصرف نفسه ازاء جميع أنواع الطعام ، سواء أكان خبزاً أم لحماً أم غير ذلك • انه يرفع شوكته فيأخـــذ ينعم النظر في اللقمة طويلاً قبل أن يأكلها ، كأنما هو يفحصها بمكروسكوب ، ويظل يتردد برهة طويلة ، الى أن يعزم أمره فجأة فيضعها في فمه •

فكان جريجوري ينظر اليه فيهمهم قائلا :

ـ انه يعد نفسه سيداً من السادة !

فلما أُبلغ فيدور يافلوفتش موقف ســـمردياكوف الجديد هذا ، قرر فورا أن الفتى يصلح أن يصبح طاهياً ممتازاً ، فأرسله الى موسكو ليتعلم فيها المهنة • قضى سمردياكوف عدة سنين يتعلم الطهى في موسكو، ثم عاد منها وقد تغيرت سحنته تغيراً كبيراً • لقد دبت فيه الشيخوخة على نحو غريب ، فتغضن وجهـــه تغضناً لا يتفق وسنَّه • أما من الناحية النفسية فانه لم يكد يتغير : فهو ما يزال ، كما كان من قبل ، متوحشـــاً لا يشعر بحاجة الى أن يعيش في صحبة الناس ، والى أن يتقرب من أى انسان • ولقد لبث في موسكو قليل التواصل كثير الصمت لا يفصح عما بنفسه ولا يفضى الى أحد بشأن من شئونه ، كما عُرف ذلك فيما بعد • ولم تشغفه المدينة الكبيرة كثيرا ، ولم يعرف منها الا أماكن قليلة ظل يجهل كل ما عداها • وقد شهد في ذات مرة حفلة تمثيلية ، فلم تخرجه هذه الحفلة عن صمته المطبق ، ولا أبدلت استياءه رضى • غير أنه ، في مقابل ذلك ، قد عاد الينا من موسكو شديد العناية بهندامه ، فهو يرتدى ثياباً أنيقة وملابس داخلية نظيفة جدا ؛ وهو ينظف ثيابه بالفرشاة مرتين في اليوم على الأقل ، وهو يجد لذة خاصة في ان يدهن حذاءيه الأنيقين، المصنوعين من جلد العجل ، بدهن انجليزى خاص ، ثم ما يزال يفركهما الى أن تلمعا لمعان مرآة • وبرهن ســـمردياكوف على أنه طاهٍ عظيم •

وحدّد له فيدور بافلوفتش أجراً معلوماً ، فكان ينفق كل أجره تقريباً في اقتناء الملابس وشراء العطور وما الى ذلك . وكان يبدو مع ذلك أنه يكره النساء كرهه للرجال . فهو يبتعد عنهن ، ويتحاشى لقاءهن ، حتى لكأن وصولهن اليه مستحيل . وقد دُهش فيدور بافلوفتش من هذه الظاهرة ، وأخذ ينظر اليها نظرة خاصة ، لأن له رأيه في هذا الموضوع. ذلك أن نوبات الصرع قد اشتدت وتكاثرت في ذلك الأوان ، حتى أن مارفا اجناتفنا اضطرت أن تقرر اعداد وجبات الطعام بنفسها في تلك الأيام ، وذلك أمر لم يحفل به فيدور بافلوفتش ، وانما كان يقول للطاهي الجديد في بعض الأحيان ، وهو يتفرس في وجهه وينظر اليه نظرة اشتباه :

ـ انني أتساءل لماذا تتكاثر عليك نوبات الصرع ، أفلا يكون من المستحسن أن تتزوج ؟ هل تريد أن أجد لك زوجة ؟

ولكن سمردياكوف لا يجيب عن هذه الأسئلة ، ولا يزيد على أن يصفرّ وجهه حزناً وحسرة ؛ فينصرف عنه فيدور بافلوفتش عندئذ محركاً يده بحركة تعبّر عن العجز . المهم أن أمانة هذا الخادم لم تكن محلّ شبهة أو شك ، كما أمكن أن يقتنع فيدور بافلوفتش بذلك مرةً الى الأبد ، فهو لا يمكن أن يسطو على شيء ، ولا يمكن أن يسرق مولاه يوما . ان فيدور بافلوفتش ، وقد استبد به السكر في ذات يوم ، قد أضاع في فناء منزله ثلاث أوراق نقدية ملونة* كان قد قبضها منذ قليل : سقطت الأوراق في الوحل ، ثم لم يفتقدها فيدور بافلوفتش الا في الغداة ، ولكنه ما ان أخذ ينبش جيوبه كلها باحثاً عنها حتى لمحها على مكتبه . فمن أين جاءت الى هنا ؟ وعرف فيدور بافلوفتش أن سمردياكوف قد عثر بها فحملها الى مكتب مولاه منذ البارحة .

قال فيدور بافلوفتش لخادمه بلهجة جازمة :

ـ يمينا ما لقيت في حياتي أناساً مثلك •

ثم أسرع يهدي اليه عشرة روبلات •

يجب أن نضيف الى هذا أن فيدور بافلوفتش لم يكن مقتنعاً بأمانة سمردياكوف فحسب ، وانما كان يحبه أيضا ، لا يدري أحد لماذا ، رغم أن الفتى كان متوحشاً معه كتوحشه مع سائر الناس ، وكثيرا ما كان ينظر اليه نظرة شزراء ، وهو لا يكاد يفتح فمـــه بكلمة في حضوره يوما • وكان الفتى لا يتكلم الا نادرا على كل حال ، فلو تساءل متسائل في ذلك الأوان ، وهو ينظر الى سمردياكوف ، عمَّا لعله يشغل بال الفتى ، وعن الهموم التي يمكن أن تكون مسيطرة على فكره ، لما استطاع أن يجد لهذا السؤال جوابا • ومع ذلك كان يتفق لسمردياكوف ، سواء في المنزل ، أو في الفناء ، أو في الشارع ، أن يتوقف على حين فجأة ، فاذا هو يبدو عليه أنه يسترسل في تفكير عميق خــــلال عشر دقائق أو أكثر ، دون أن يتحرك من مكانه قيد أنملة • وأغلب الظن رغم هذا أنه لو نظر اليه في مثل تلك اللحظات عالم من علماء الفراسة لأدرك من دراسة قسمات وجهه أن ليس ثمة تفكير أو تأمل من أي نوع ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون استسلاما لأحلام عابرة • ان هناك لوحة جميلة رسمها الرســـَّام كرامسكوي* وجعل عنوانها « المتأمل الحالم » • ان اللوحة تمثل غابةً في فصل الشتاء ، قد وقف على الممر الذي يقطعهـــا ، فلاحٌ يرتدي قفطاناً وينتعل خفين باليين ، فهو في عزلة تامة • لقد ضل الفلاح طريقه هنالك، فهو يبدو في هذه الخلوة الكاملة مسترســـلاً في التأمل • والحق أن الرجل لا يتأمل ، وانما هو غارق في « أحلام غامضة » ، فلو لكزه أحد بكوعه في تلك اللحظة لانتفض فجأة كأنه يستيقظ من حلم ، ناظراً حوله لا يفهم شيئا مما جرى له ، وسرعان ما يثوب الى رشده ، فلو سألته في تلك اللحظة عما كان يفكر فيه لمـــا استطاع أن يجيبـك بشيء • ولكنه

سيظل محتفظاً في قرارة نفسه بالمشاعر التي تجمعت له أثناء استرساله ذاك في أحلامه ، وهي مشاعر عزيزة عليه أثيرة عنده ، يجمّعها في نفسه طوال حياته على نحو لا يدركه بل ولا يشعر به . وهو لا يدري طبعا لماذا يفعل ذلك . ولعل هذه المشاعر التي تراكمت في نفسه خلال سنين أن تدفعه ذات يوم الى أن يهجر كل شيء على حين فجأة فيمضي الى القدس حاجاً ينشد الخلاص ؟ أو تدفعه ، لا تدري لماذا ، الى أن يشعل النار في قريته فيحرقها . وقد يفعل الأمرين كليهما . ان هؤلاء الحالمين كُثُر في شعبنا . ولا شك أن سمردياكوف واحد منهم ، فهو يراكم في نفسه مشاعر فوق مشاعر ، مندفعا الى ذلك في حماسة وحميًّا ، دون أن يعرف حتى الآن الهدف الذي يرمي اليه والغاية التي يسعى اليها .

٧

مجادلة

كانت الحمارة قد أخذت تتكلم فعلاً . وكانت المناسبة غريبة غرابة كافية : ان جريجورى ، حين كان فى الصباح عند التاجر لوكيانوف لشراء بعض الأشياء ، قد سمع قصة ذلك الجندى الروسى الذى وقع فى أيدى أفراد قبيلة مسلمة على حدود آسيا ، فأرادوا اكراهه على انكار المسيحية واعتناق الاسلام ، والا عذبوه وقتلوه ، فرفض أن يرتد عن دينه ، وارتضى أن يستشهد فى سبيل عقيدته ، فسُلخ جلده حياً ومات وهو يمجّد المسيح . كانت الصحف فى ذلك اليوم تتحدث عن هذا الجندى ، وعن تضحيته البطولية، وكان جريجورى قد روى ماسمعه أثناء الغداء . ان فيدور بافلوفتش يحب أن يمزح بعد الغداء عند تناول الحلوى ، ولا يأنف أن يدخل فى حديث لهذا الغرض ولو مع الخادم جريجورى . ثم انه كان فى ذلك اليوم هاشاً هشاشة خاصة ، وكان مرح المزاج مبتهج النفس متفتح القلب . فبعد أن أصغى الى ما رواه جريجوى وهو يشرب قدح كونياك، قال ان من الواجب أن تبارك الكنيسة ذلك الجندى وأن تعده ولياً من الأولياء بغير ابطاء ، وان من المستحسن أن يهدى جلده المسلوخ الى دير من الأديرة ، « بغية أن يجتذب الجماهير والمال » . فقطب جريجورى حاجبيه عابساً ، حين لاحظ أن مولاه استرسل فى

التجديف على عادته بدلاً من أن يتأثر . وفي تلك اللحظة انما سُمع سمردياكوف يُطلق ضحكة ساخرة من مكانه قرب الباب . كان الخادم الشاب قد سُمح له مرارا ، حتى في السنوات الماضية ، أن يشهد وجبات الطعام ، أعني أن يشهد المناقشات التي تعقبها . ولكنه تعوّد منذ وصول ايفان فيدوروفتش الى مدينتنا أن لا يفوته حضور وجبة الغداء في يوم من الأيام تقريبا .

سأله فيدور بافلوفتش حين سمع ضحكه فأدرك على الفور أنه يسخر من جريجوري ، سأله قائلا :

ـ ما بك ؟

فاندفع سمردياكوف يلقي خطابا بصوت عال وطريقة لم تكن في الحسبان ، فيقول :

ـ بصدد تلك القصة . فأنا أرى أن فعل ذلك الجندي الجدير بالاطراء والثناء قد كان فعلا بطوليا عظيما ولا شك ، ولكنني أرى أنه ما كان ليعد خاطئاً آثماً لو أنكر اسم المسيح في ذلك الظرف وتنازل عن تعميده انقاذاً لحياته بهذه الوسيلة واحتفاظا بها لحسنات تكفّر ، بعد سنين ، عن لحظة الضعف والتخاذل تلك .

تدخل فيدور بافلوفتش قائلا :

ـ ما كان ليعد خاطئاً آثماً ؟ كيف هذا ؟ أنت تكذب ، وستذهب الى جهنم رأساً بسبب هذا الرأي الذي تراه ، أو ستُشوى كما يُشوى خروف .

وفي تلك اللحظة بعينها انما وصل أليوشا فابتهج أبوه لوصوله ابتهاجا قوياً ، كما سبق أن رأينا ذلك ، وقال لأليوشا وهو يدعوه أن يجلس وأن يصغي الى المناقشة :

ـ هذا موضوع مألوف لك • هـــذه مسألة لا بد أنك تعرفها حق معرفتها •

قال سمردياكوف مؤكداً :

ـ لا أوافق على موضوع الخروف المشوى • ولن يكون هناك عقاب بسبب رأى من هذا النوع ، ولا يجب أن يكون هناك عقاب اذا أردنا العدل والانصاف •

ـ اذا أردنا العدل والانصاف ؟ ماذا تقول ؟

كذلك صاح فيدور بافلوفتش بصوت فيه مزيد من المرح وهـــو يلكز ركبة أليوشا •

قال جريجورى فجأة ، وهو يحدق الى عينى سمردياكوف بغضب مسعور :

ـ هذا شاب شقى لا أكثر !

فأجابه سمردياكوف قائلا بلهجة هادئة صابرة :

ـ أما عن قولك بأننى شقى أو ما الى ذلك ، فأرجو يا جريجورى فاسيلفتش أن تتنازل فتتمهل قليلا وتقضى فى الأمر بنفسك : هبْ أن جلادى الجنس المسيحى قبضوا علىّ ذات يوم وطالبونى بأن ألعن اسم الرب وأن أتنكر لتعميدى المقدس : ان العقل يجيز لى فى هذه الحالة أن أفعل ذلك ، ولن يكون فى هذا اثم •

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

ـ سبق أن قلت ان هذا لا اثم فيه • فلا تكرر ما سبق أن قلته ، وانما عليك أن تبرهن على رأيك بالأدلة والحجج •

ودمدم جريجورى يقول باحتقار :

ـ طاهي حساء !

فقال سمردياكوف :

ـ أما عن قولك بأنني طاهي حساء ، فأرجو ياجريجورى فاسيلفتش أن تتنازل فتمهل بعض التمهل أيضا • لا تشتمني ، وانما فكِّر قليلا : هب أنني قلت للذين يعذبونني : « ليكن لكم ما تريدون ••• انني أرتد عن ديني المسيحي وأتنكر لالهي الحق » • أفلا تدينني الحكمة الالهية في تلك اللحظة نفسها ، وتكفرني على الفور صراحة ؟ اذن سأكون منذ تلك الدقيقة قد أُخرجت من الكنيسة المقدسة ، وسأكون قد حُرمت منها كأي وثني ، منذ تلك الدقيقة ، بل منذ اللحظة التي نطقت فيها بتلك الكلمات ، بل منذ اللحظة التي راودتني فيها نية النطق بهذه الكلمات ، بحيث لا يمضي ربع ثانية الا وأكون قد حُرمت من الكنيسة ؟ أليس هذا صحيحا يا جريجورى فاسيلفتش ؟

كان واضحا أن سمردياكوف يجد لذةً في الاتجاه بكلامه الى جريجورى فاسيلفتش ، رغم أنه لا يجيب في الواقع الا عن أسئلة فيدور بافلوفتش ، وذلك أمر كان سمردياكوف يشعر به شعورا تاما ، ولكنه يتخابث فيتظاهر بأن تلك الأسئلة انما طرحها الخادم العجوز •

هتف فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

ـ ايفان ! مِلْ عليَّ حتى أستطيع أن أهمس في أذنك بشيء •

ثم همس يقول له :

ـ من أجلك انما يقول سمردياكوف هذا الكلام ، وهو ينتظر تأييدك واستحسانك ، فامدحه اذن •

أظهر ايفان كثيرا من الاهتمام والجد في الاصغاء الى هذه الملاحظة التي أسرّ بها اليه أبوه .

وعاد فيدور بافلوفتش يقول :

ـ اسكت الآن يا سمردياكوف .

ثم أهاب بابنه ايفان مرة أخرى أن يميل عليه قائلا له :

ـ هناك شيء آخر أريد أن أهمس به في أذنك .

فمال ايفان على أبيه من جديد مظهرا ذلك الجد نفسه الذي أظهره في المرة الأولى . فقال له الأب :

ـ انني لا أحبك أقل مما أحب أليوشا . لا يخطرن ببالك أنني أوثره عليك . قليلاً من الكونياك ؟

ـ بكل سرور .

وقال ايفان لنفسه وهو يتفرس في أبيه : « لقد سكر بعض السكر منذ الآن » . وكان من جهة أخرى يرقب سمردياكوف بانتباه شديد .

وصاح جريجوري يقول فجأة :

ـ كافر ! أنت ملعون منذ الآن . كيف تجرؤ أن تستمر في المناقشة أيها الشقي ؟

فأجابه سمردياكوف :

ـ مهلاً يا جريجوري فاسيلفتش ، اصبر عليّ ولو لحظة قصيرة ، واصغ الى كلامي حتى النهاية ، لأنني لم أتممه بعد . أعود فأقول انني متى لعنني الله في تلك اللحظة الحاسمة ، يصبح شأني شأن أي وثني ،

ويكون تعميدى قد أُلغى تبعاً لذلك ، فلا يُحسب له أى حساب ، أليس هذا صحيحاً ؟

فاستحثه فيدور بافلوفتش وهو يتلذذ ببلع جـــرعة من الكونياك ، استحثه قائلاً :

ـ أوصلنا الى النتيجة التى تريد أن تخلص اليها ، أسرع يا بنى .

فتابع سمردياكوف حديثه :

ـ فاذا لم أعـــد مسيحياً ، فاننى لا أكذب على الذين يعـــذبوننى ويسألوننى : « أتعد نفسك مسيحياً أم لا ؟ » ، ذلك أن الله نفســه يكون قد أخرجنى من المسيحية بسبب نيتى وحدها قبل أن يتسع وقتى للاجابة عن سؤالهم بكلمة واحدة . فاذا كنت قد أُخرجت من المسيحية فكيف يمكن أن أُحاسب فى العالم الآخر ، وأية عدالة ترضى أن أحاسب فى العالم الآخر كما يُحاسب مسيحى ارتد عن دينه ، مع أننى أكون قـــد جُرِّدت من تعميدى بسبب نيتى وحدها حتى قبل أن أرتد عن دينى بالقول ؟ اننى بعد أن جُرِّدت من مسيحيتى ، لا أكفر بالمسيح ، لأننى لا يكون قد بقى لى دين أرتد عنه . هل يخطر ببال أحد يا جريجورى فاسيلفتش أن يلوم تترياً كافراً على أنه لم يولد مسيحياً ؟ من ذا الذى يريد أن يعاقب مثل هذا التترى ، حتى فى السماء ؟ ما من أحد يســلخ بقرة واحدة مرتين ! وهبْ أن الله العلى القدير سيحاسب هذا التترى بعد موته : انه لن يوقع فيه الا عقابا يسيراً (فمن غير المقبول أن لا يعاقب البتة) ، ذلك أن الله يقدر أن هذا التترى لم يأثم حين ولد من أبوين غير مسيحيين . ان الله لا يمكن أن يكرهه بالقوة على أن يقول انه كان مسيحيا ، ولا يمكن أن يعده مسيحيا ، فان عدَّه مسيحيا كان هذا كذبا ظاهرا واضحا ، والله الذى هو رب الســـماوات والأرض لا يمكن أن

يكذب ولو في مناسبة واحدة ، ولو في كلمة واحدة من كلماته •

أصيب جريجوري بالبكم من شدة ذهوله ، ونظـــر الى الخطيب محملقا • فهو رغم أنه لم يستطع أن يتابع المناقشة قد أدرك ادراكا غامضا بعض ما يشتمل عليه هذا الكلام المضطرب ، فتجمد تجمد رجلٍ صـدم الحائط بجبهته على حين فجأة • وأفرغ فيدور بافلوفتش في جوفه قدح الكونياك ، وأطلق من صدره ضحكة حادة •

ـ أليوشا ، أليوشا ، ما رأيك ؟ يا له من مجادل ! لا شك أنه تعـلم هذا لدى اليسوعيين ، ألا ترى ذلك يا ايفـــان ؟ اذهب أيها اليســوعى العفن ؟ من ذا الذى لقنك هذه الضلالات ؟ اطمئن يا جريجوري ، سوف نهدِّم آراءه الوقحة ، سوف نحيلها دخاناً ، سـوف نحيلها عدماً ، حالاً بلا ابطاء ! أجب عن هذا السؤال يا حمارة : لنفرض أنك على صواب في موقفك من معذِّبيك • ان هذا لا ينفى أنك أنكرت دينك في قـرارة نفسك ، وأصـــبحت في تلك اللحظـة كافرا ، كما تعترف بذلك أنت نفسك ، فاذا كفرت فلن تكافأ على هذا في جهنم فيما أتخيل • فبماذا تجيب عن هذا السؤال أيها اليسوعى الظريف ؟

ـ لا أنكر أنني أكون قد ارتددت عن ديني في قـــرارة نفسى ، ولكن ليس في هذا أي اثم كبير ، واذا كان ثمـــة خطأ فهو خطأ عادى جداً •

ـ عادى ؟ كيف ؟

قال جريجوري بصوت صافر :

ـ أنت تكذب • أنت ملعون •• مل •• عو ••ن •

تابع سمردياكوف كلامه يقول بلهجة هادئة واثقة ، شاعرا بانتصاره ولكن مصطنعاً هيئة الكرم والتسامح مع خصم طُرح أرضاً :

ـ اقض في الأمر بنفسك يا جريجورى فاسيلفتش : لقد جاء في الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق ، ولو لم يملك منه الا ذرة صغيرة ، يستطيع أن يأمر الجبل قائلاً له : « اذهب أيها الجبل الى البحر » ، فاذا بالجبل يذهب الى البحر فورا عند أول أمر يصدر اليه*. فياجريجورى فاسيلفتش ، ما دمت تبلغ من عمق الايمان ما يهب لك حق اهانتى بغير انقطاع ، فحاول أن تأمر هذا الجبل القريب لا أن يذهب الى البحر (فالبحر بعيد جدا) بل ان يتقدم قليلا نحو ذلك الجدول الصغير النتن الذى يجرى وراء حديقتنا . فلسوف ترى عندئذ أن الجبل لن ينصاع لأوامرك، وأن كل شيء سيبقى على ما كان، مهما يكن صراخك شديدا ومهما يكن زعيقك قوياً ! فهذا يبرهن يا جريجورى فاسيلفتش على أنك أنت أيضا لا تملك الايمان الحق ، على حين أنك لا تكف عن اهانة الناس بحجة أنهم لا يملكون الايمان الحق . يجب أن نعترف على كل حال أنه ليس فى زماننا هذا أحد على الاطلاق ، سواء أكان أقوى الناس سلطانا وأرفعهم منزلة أم كان أحقر فلاح من الفلاحين ـ أقول ليس فى زماننا هذا أحد يملك القدرة على أن يدحرج هذا الجبل الى البحر ، فأنا اذن لا أتكلم عنك وحدك . لا ، ليس فى زماننا هذا أحد يملك هذه القدرة ، وربما باستثناء رجل واحد أو رجلين اثنين فى أكثر تقدير ، ولكن هذين الرجلين لا بد أن يكونا مختبئين فى صحراء ما من صحارى مصر ، يحققان لنفسيهما هنالك الخلاص والسلام ، فلا نستطيع أن نهتدى اليهما ونعثر عليهما مهما نبحث عنهما . فاذا كان الرجال الآخرون ليسوا بالمؤمنين حقا ، فكيف نسلّم بأن الرب سيلعنهم جميعا ، وبأنه سيحرم الانسانية كلها الا ذينك الرجلين الغامضين ، وبأنه لن يغفر

لأحد وهو الغفور الرحيم ؟ لذلك ترانى آمل ، اذا أنا شككت أو جحدت، أن أحظى بمغفرة الرب ، بعد أن أسكب دموع الندم والتوبة ...

ــ قف ! أنت تسلّم اذن بأن هناك رجلين على الأقل فى العـــالم يستطيعان أن يحركا الجبال ! سجّل هذا يا ايفان ، سجل هذه النقطة ! تلك هى سمة الانسان الروسى كله .

كذلك قال فيدور بافلوفتش بصوت حاد كريه .

فقال ايفان فيدوروفتش مؤمناً على رأى أبيه مبتسماً ابتسامة تأييد :

ــ ملاحظتك صحيحة تماماً . تلك سمة خاصة يتميز بهـا ايمـان الشعب الروسى .

ــ أنت تشاطرنى هذا الرأى . لا بد اذن أن أكون على صواب . هذا هو الأمر يا أليوشا ! ذلك هو الايمان الروسى الحق ، أليس كذلك؟

فقال أليوشا بلهجة جادة حاسمة :

ــ لا ... ان ايمان سمردياكوف ليس روسياً البتة .

ــ لست أتكلم عن ايمانه ، بل عن هذه السمة وحدها ، عن فكرة ذينك الناسكين . أليس هذا سمة روسية خاصة ؟

قال أليوشا يوافق مبتسما :

ــ نعم هى سمة روسية ، روسية جدا .

قال فيدور بافلوفتش يخاطب سمردياكوف :

ــ قولك هذا يساوى دينارا ذهبيا يا حمارة ، سأرسل اليك الدينار فى هذا اليوم نفسه . أما فى كل ما عدا ذلك فقد كذبت ، نعم كذبت ، أعود فأكرر لك ذلك . ألا فاعلم أيها الغبى أن خفة العقل وحدها هى

التى جعلتنا جميعاً غير مؤمنين ، ذلك أن وقتنا لا يتسع للتفكير فى الله : فنحن أولاً منصرفون الى أعمالنا تحتكرنا احتكارا ، والرب ثانيا قد ضنَّ علينا بالساعات فجعل يومنا أربعاً وعشرين ساعةً فقط ، فنحن لا نملك حتى الوقت اللازم لأن ننام نوماً كافياً . فأين لنا الوقت اللازم للندامة والتوبة ؟ أما أنت فقد ارتددت عن دينك أمام الجلادين ، مع أنك لا يمكن أن يكون فى ذهنك فى مثل تلك اللحظة ، فكرة أخرى غير فكرة الايمان التى كانت هى بعينها الفكرة التى يجب أن تكفل لها الغلبة والنصر ! ألم تجر الأمور على هذا النحو يا صديقى ؟

ـ لقد جرت الأمور على هذا النحو حقا . ولكنك تسلم أنت نفسك يا جريجورى فاسيلفتش ، أن ذلك يجعل الخطيئة أهون شأنا وأخف وزنا ما دامت الأمور قد جرت على هذا النحو . لنفرض اننى اعتقدت ، فى ساعة المحنة ، بما كان يجب أن أعتقد به : اننى لأرتكب عندئذ اثما اذا أنا رفضت الاستشهاد فى سبيل دينى ، وارتضيت اعتناق دين محمد . ولكننى فى مثل هذه الحالة لا أصل الى الاستشهاد ، اذ يكفينى أن أقول للجبل فى تلك الدقيقة : « امش أيها الجبل فاسحق الجلاد » ، فاذا بالجبل يرتمى على الجلاد فيخنقه بثقله كأنه خنفساء ، واذا أنا أمضى فى سبيلى هادئا أغنى وأمجد الله . فاذا راودتنى هذه الافكار لتحقيق هذه الغاية مناديا : « اسحق الجلادين أيها الجبل » ، فاذا بالجبل لا يستجيب لندائى ، أفلا يهاجمنى الشك عندئذ لا محالة ؟ هلاَّ قلت لى كيف يمكننى فى تلك الساعة الرهيبة من الخوف القاتل أن لا يراودنى الشك ؟ لقد علمت سلفاً اننى لن أظفر بملكوت السماوات كاملا (لأن الجبل لم يطع أوامرى ، وذلك دليل على أن ايمانى ليس محلَّ ثقة هناك فى السماء ، ودليل على أننى لا أستطيع أن أتوقع مكافأة كبيرة فى الحياة الآخرة) . فأى جدوى اذن فى أن أدع لهم أن يسلخوا جلدى حياً بغير فائدة البتة ؟

وحتى حين يكونون قد سلخوا من جلدى نصفه ، فناديت الجبل مرة أخرى أهيب به أن يسحقهم ، فان الجبـــل لن يتحرك من مكانه رغم جميـع صرخاتى • وفى تلك اللحظة يمكن أن لا يساورنى الشك فحسب ، وانما يمكن أيضا أن أفقد عقلى بسبب ذعرى الشديد بحيث أصبح عاجزاً حتى عن التفكير • أفيكون اثمى والحالة هذه كبيرا اذا أنا أردت ، بعد أن لم أظفر بنفع لا من هنا ولا من هناك ، وبعد أن لم أستطع أن أرجو مكافأة وأن أعوّل على جزاء حسن ، أقول أفيكون اثمى كبـــيرا اذا أنا أردت عندئذ أن أنقـــذ جلدى على الأقل ؟ ذلك هـــو السبب فى ثقتى الكاملة بالرحمة الالهية ، وفى أننى آمل أن تغفر لى السماء غفرانا كاملا •

٨

أثناء شرب الكونياك

انتهت المجادلة ، ولكن الأمر الغريب هو أن فيدور بافلوفتش الذى كان مرحاً فى أول الأمر قد عبس واكفهر وجهه فى النهاية • وها هو ذا ، وقد بدا عليه الامتعاض واضحا ، يفرغ فى جوفه قدحاً آخر من الكونياك ، متجاوزاً الحدّ المألوف تجاوزاً كبيرا • وصاح يقول للخادمين :

ـ انصرفوا ، اخرجوا ••• أيها اليسوعيون ! امض يا سمردياكوف • سيصلك الدينار الذهبى الذى وعدتك به ، ولكن هيّا انصرف ! وهوّن عليك يا جريجورى ، عُدْ الى مارفا فتردّ اليك هدوءك وتضعك فى سريرك •

فما ان نفذ الخادمان أمره فانصرفا ، حتى أضاف يقول بحدة وشراسة :

ـ ان هؤلاء الأوغاد لا يدعون لى شيئاً من راحة بعد الغداء • وسمردياكوف هذا يجيز لنفسه الآن أن يجىء كل اليوم عند الغداء ، أأنت الذى تجتذبه يا ايفان ؟ ماذا فعلت حتى فتنته ؟

كذلك سأل الأب ابنه ايفان ، فأجابه هذا بقوله :

ـ لم أفعل شيئا البتة • وانما شعر نحوى بالاحترام ، لا أدرى لماذا ••• هو خادم ، هو رجل خشن الطبع فظ غليظ ••• ولكنه واحد من أولئك الذين يندفعون الى الصف الأمامى متى حانت الساعة •

ـ الى الصف الأمامى ؟

ـ سيكون هنالك آخرون ، وسيكون هنـالك أناس أفضل منه ، ولكن سيجىء أيضا أناس مثله • وأمثاله هم الذين سيؤكدون أنفسهم أولا ، ثم يجىء دور من هم أفضل منه •

ـ ومتى تحين تلك الساعة ؟

ـ ربما اشتعلت الأسهم النارية ثم انطفأت قبـل أن تنطلق • ان الشعب لا يحب الآن هؤلاء المحرّضين كثيرا •

ـ ان تلك الحمارة قد أخذت تفكر ، ولا يدرى الا الشيطان الى ماذا يمكن أن تؤدى أفكارها •

قال ايفان ماكرا ساخرا :

ـ انه يجمّع آراء ويراكم أفكارا •

قال الأب :

ـ أنا أعلم تماما أنه يكرهنى كما يكره الآخرين ، وكما يكرهك أنت أيضا رغم ما تظنه من أنه يكنّ لشخصك الاحترام • أما شعوره نحو أليوشا فهو أسوأ من ذلك أيضـا : انه يحتقره • ولكن يجب أن نعترف أنه فى مقابل ذلك لا يسرق ، وأنه ليس بنمّام ، فهو يعرف كيف يصمت ، ولا يثرثر خارج المنزل فيما يسمعه بالمنزل • وهو الى هـذا يجيد طهى أنواع الكولبياكا • أما فيما عدا ذلك ، فشيطان يأخذه ! أليس هذا صحيحا ؟ وهل يستحق منا عناء التحدث عنه طويلاً ؟

ـ لا ... لا يستحق منا هذا العناء !

ـ أما فيما يتعلق بالأفكار التي يمكن أن تقوم في رأسه ، فأنا من جهتي أعتقد على وجه العموم بأن الفلاح الروسي يستحق أن يُضرب ضربا مبرحاً . لقد أكدت هذا الرأي دائما . ان فلاحينا أوغاد أوباش لا يستحقون الشفقة . ويمينا انه لمن حسن الحظ أنهم ما يزالون يُضربون من حين الى حين ، هؤلاء الأوغاد ... ان أشجار الخيزران التي تؤخذ منها العصي دليل على قوة روسيا . فمتى قطعت غابات أشجار الخيزران ضاعت بلادنا . أنا شخصيا أحب العقل . ولا شك أننا قد كففنا عن ضرب الفلاحين لافراطنا في حب العقل . ولكن الفلاحين مستمرون على جلد أنفسهم بأنفسهم * . وما أعتاهم في هذا : على قدر اعتبار المرء نفسه يكون فقدانه القصد والاعتدال ... من قائل هذا القول المأثور ؟ على كل حال ... هو يفقد القصد والاعتدال ... أما روسيا فهي بلد قذر حقير ... ليتك تعلم يا صديقي كم أكره روسيا ... أو قل انني لا أكره روسيا بمقدار ما أكره هذه العيوب ... وربما كرهت روسيا أيضا ... هذه كلها حقارات ووساخات ! هل تعرف ما الذي أحبه أنا ؟ أنا أحب الفكاهة ...

ـ لقد شربت قدحاً آخر منذ هنيهة . فعليك أن تمسك !

ـ لا لن أمسك بعد . سأشرب قدحاً ، فقدحاً ثانيا ، ثم أمسك بعد ذلك . ماذا كنت أريد أن أقول ؟ قطعتَ سلسلة أفكاري.. ها.. نعم.. حين كنت ماراً بموكرويه سألت رجلا عجوزا فأجابني بما يلي : « نحن نحب كثيرا أن نحكم على البنات بالجلد ، ونعهد بتنفيذ هذه العقوبة الى شباب . فكثيرا ما يحدث أن نرى الفتى الذي جلد الجميلة بالأمس يجيئها اليوم خاطبا . وهكذا تنتفع البنات أيضا من الامر ، كما يقال » . ما رأيك في شبابنا أنصار المركيز دي ساد ؟ منظر فكه على الأقل ...

ليتنا نذهب يوما لرؤية المشهد • ما رأيك يا أليوشا ، هه ؟ مالك تحمر ؟ لا تخجل يا صغيرى ! يا لها من خسارة أننا لم نحضر مأدبة كبير الرهبان لنقص على الرهبان قصة بنات موكرويه هذه ! لا تؤاخذنى يا أليوشا على أننى أهنت صاحبك كبير الرهبان منذ قليل • ان الخردل يصعد الى أنفى فى بعض اللحظات ••• لا شك أننى أكون آثما ، ولا شك أننى سأعاقب، اذا كان الله موجودا • ولكن اذا لم يكن الله موجودا ، فما فائدة جميع هؤلاء الرهبان ؟ اذا لم يكن الله موجوداً فانه لقليل جدا أن نقطع رءوسهم ، لأنهم يعوقون التقدم ! هل تصدقنى يا ايفان اذا قلت لك ان هذا يهين أسمى عواطفى ؟ لا ••• أنت لن تصدقنى ••• اننى أرى هذا فى عينيك ! أنت تظن كما يظن سائر الناس أننى مهرج لا أكثر • أليوشا ، هل تصدقنى اذا قلت لك اننى لست مهرجا فحسب ؟

ــ أنا أعلم أنك لست مهرجا فحسب •

ــ أصدقك • أعرف أنك تتكلم الآن مخلصا ، كما تفعل ذلك دائما • أنت تقول الحقيقة • وعيناك لا تكذبان • ولا كذلك ايفان ••• فانه ليس بمخلص ••• هو رجل مزهو بنفسه ••• مع ذلك ، لو كنت فى مكانك لتركت هذا الدير وانتهيت منه ••• هذه الصوفية يجب اجتثاثها من الأرض الروسية ، يجب الغاؤها الغاء تاما من روسيا كلها فى ذات يوم ، لنردّ الأغبياء الى العقل ، ونرجعهم الى الرشاد • ما أكثر المال، ما أكثر الذهب الذى يمكن أن تسترده خزانة الدولة بهذه الطريقة !

سأل ايفان :

ــ لماذا نلغيها ؟

ــ لماذا ؟ لنعجّل انتصار الحقيقة فى هذا العالم •

ـ أفلا تدرى اذن أنه اذا انتصرت الحقيقة فسيأخذون يجردونك تجريدا تاما ، ثم ••• يزيلونك ؟

ـ هه ! ••• على كل حال ، قد تكون مصيبا •••

قال فيدور بافلوفتش ذلك ثم لطم جبينه بيده لطمة خفيفة على حين فجأة، وأضاف :

ـ اذن فلا نمسنّ ديرك بسوء يا أليوشا ، ما دام الأمر كذلك • أما نحن ، معشر الأذكياء ، فلنستمر ••• نعيش فى رخاء ونحتسى الكونياك! ان الله نفسه ، يا عزيزى ايفان ، هـو الذى لا بد أنه أراد اقامة ذلك النظام • ولكن قل لى يا ايفان : هل الله موجود أم غير موجود ؟ قل لى وأرحنى ••• ولكن قف ! اننى أريد جوابا صادقا ، جواب جادٍ لاهازل! لماذا تضحك من جديد ؟

ـ أضحك لأننى تذكرت الفكرة التى عبّرت عنها منذ برهة تعبيرا فكهاً فى موضوع سمردياكوف واعتقاده بوجـود ناسـكين قادرين على تحريك الجبال •

ـ هل يذكرك كلامى الذى أقوله الآن بسمردياكوف فى هـذه النقطة ؟

ـ جدا •

ـ معنى هـذا أننى أنا أيضا روسى حقا ، أتصف بمـا يتصف به الروسى من خصائص تميزه • ولا بد أن تكون أنت أيضا متصفاً بهـذه الخصائص ، مهما تكن فيلسوفا • هـل تريد أن أبرهن لك على ذلك بالوقائع ؟ اننى أراهن على اننى سأستطيع ذلك منـذ الغـد • ومع ذلك أجبنى : أيوجد اله أم لا ؟ تكلم جادا لا هازلا ، فاننى أريد أن أعـرف ذلك •

ـ لا ... لا يوجد اله .

ـ أليوشا ، هل الله موجود ؟

ـ الله موجود .

ـ سؤال آخر يا ايفان : هل هناك شيء بعد الموت ؟ هل هناك حياة أخرى ، أية حياة أخرى ، ولو شبح حياة أخرى ، شبح صغير ، صغير جدا ؟

ـ لا شيء بعد الموت !

ـ لا شيء البتة ؟

ـ البتة .

ـ أهو العدم المطلق اذن ؟ أم يوجد شيء ما رغم كل شيء ؟ ربما وُجد قليل من حياة مع ذلك ! لقليلٌ خيرٌ من لا شيء ...

ـ لا شيء الا العدم الكامل ! صفر ... لا أكثر من ذلك !

ـ أليوشا ، هل هناك خلود ؟

ـ نعم هناك خلود .

ـ اذن يوجد اله ويوجد خلود ؟

ـ نعم ، يوجد اله والخلود موجود فى الاله .

ـ هِمْ ... لا شك أن ايفان هو صاحب الرأى الصحيح . ومع ذلك ما أكثر التضحيات التى ضحاها الانسان فى سبيل هـذا الاعتقاد ، وما أكثر القوة التى أنفقهـا على هذا الأمل فى غـير طائل ، منذ ألوف السنين ! ... فمن ذا الذى يضحك على الانسانية هذا الضحك ، من ذا الذى يسخر منها هذا السخر ، قل لى يا ايفان ! اننى ألقى عليك هـذا

السؤال آخر مرة ، ألقيه عليك قاطعا جازما : الله موجود أم لا ؟ أجبنى آخر جواب •••

ــ أجيبك آخر جواب : لا !

ــ فمن ذا الذى يسخر اذن من البشر المساكين ويضحك عليهم ؟

فقال ايفان ماكرا ساخرا :

ــ هو الشيطان ما فى ذلك شك •

ــ اذن يوجد شيطان على الأقل ؟

ــ لا ••• لا يوجد حتى شيطان •

ــ خسارة ••• لا يعلم أحد ماذا كان يمكن أن أصنع به ، ذلك الذى اخترع الله أولَ من اخترعه ••• ان الشنق قليل عليه •

ــ لولا أن أختُرع الله لما وُجدت المدنية !

ــ المدنية ؟ لولا الله لما وُجدت المدنية ؟

ــ لا ••• ولما وُجدت خمور أيضا ! أحسب أنه قد آن مع ذلك أن ننتزع منك قارورة الكونياك هذه •

ــ لحظة ، لحظة يا عزيزى ! كأساً صغيرا آخر ••• لقد أسأتُ الى أليوشا • ألم تزعل منى يا ألكسى ؟ ألم تحقد علىّ يا عزيزى الصغير اليوشا ، يا بنىّ الطيب الشهم ؟

ــ لا ••• لست غاضبا • أنا أعرف أفكارك • ان القلب فيك خير من الرأس •

ــ قلبى خير من رأسى ؟ وهو الذى يقول هذا الكلام يا رب ! ايفان ، هل تحب أليوشا ؟

ــ أحبه •

ــ يجب أن تحبه (كان فيدور بافلوفتش فى تلك اللحظة قد أخذ السكر منه مأخذه) • اسمع يا أليوشا • لقد أسأت الى شيخك فى هذا الصباح ، لقد أهنته ••• ولكننى كنت مهتاجاً اهتياجا شديدا • ألا ان فى قلبه شيئاً من فكر ، ما رأيك يا ايفان ؟

ــ صحيح •

ــ نعم نعم ••• ان فى داخله شيئا من بيرون * • انه يسوعى ، أقصد أنه مجادل روسى • وهو ، ككل انسان ذى عواطف رفيعة ومشاعر سامية لا بد أن يسوءه أحيانا فى الخفاء أن يضطر الى التظاهر والتمثيل فى هذا العالم••• أن يصطنع مظاهر قديس ، أن يتخذ أوضاع ولىّ •••

ــ لكنه يؤمن بالله •

ــ هو ؟ أبدا • ألم تكن تعرف ذلك ؟ ثم انه يعترف بهذا هو نفسه لجميع الناس ••• لا لجميع الناس طبعا ••• بل للأذكياء ممن يزورونه• لقد قال جازماً قاطعاً وهو يتحدث الى الحاكم شولتس : أنا أؤمن ، ولكن لا أدرى بماذا •

ــ أهذا ممكن ؟

ــ تماما • وأنا أحترمه مع ذلك • انه فيه عنصرا مفستوليسياً ، أو قل ان هناك شيئاً بينه وبين « بطل من زماننا » ، آر بنين * ، اذا صدقت ذاكرتى ••• أقصد أنه رجل يحب الملذات ، رجل شهواتى • وهو يبلغ من الميل الى النساء أننى أكون ، حتى اليوم ، قلقاً على زوجتى أو على ابنتى ، اذا هما ذهبتا تعترفان له ••• فتخيل ! ••• هل تعلم أنه يتفق له أن يروى قصصاً من تلك القصـــص ! ••• منذ ثلاث سـنين دعانا الى

احتساء الشاى عنده مع خمور (ان السيدات يرسلن اليه خمورا) ، فأخذ يستحضر ذكرى مغامرات ماضيه ... فاضطررنا أن نمسك بطوننا حتى لا تنفجر من شدة الضحك ... ولا سيما حين حدثنا عن تلك المرأة العاجزة التى شفاها ... لقد قالت له : « لولا أن ساقىّ مريضتان هذا المرض ، لرقصت لك رقصةً من تلك الرقصات ! » هه ؟ ظريفة ، أليس كذلك ؟ وقد اسرّ الينا يومئذ قوله : « كانت لى فى حياتى مغامرات !» وقد سلب التاجر ديميدوف ستين ألف روبل .

ـ ماذا ؟ سرقها ؟

ـ استودعه الرجل المبلغَ أمانةً لما عرف به من صلاح وفضل . قال له : « احتفظ لى به عندك ، لأن منزلى سيفتّش فى الغد » . فاحتفظ الآخر بالمبلغ كاملا غير منقوص . قال له : « أنت قد وهبت المبلغ لمبرات الكنيسة . » . فقلت له أنا : « أنت وغد ... ما أنت الا وغد » ... فقال لى : « لا ... لست وغداً ، بل أنا رجل واسع النظرة . » . ولكن لا ... لا ... لقد أخطأت ... لم يجر الحديث معه هو ... لقد خلطت بينه وبين شخص آخر .. دون أن ألاحظ ذلك ، دون أن أشعر بذلك ... كأساً أخرى ، كأساً أخيرة ، يا ايفان ، ثم ارفع قارورة الكونياك ! لقد كذبت ، لقد كذبت .. كان عليك أن توقفنى عن الكلام يا ايفان ! لماذا لم تقل لى اننى أكذب ؟

ـ كنت أعرف أنك ستتوقف من تلقاء نفسك .

ـ غير صحيح ! انك تركتنى أتكلم بدافع الخبث ، بدافع الخبث وحده . انك تحتقرنى ، أنا أعرف ذلك . لقد جئت تعيش معى ، ثم أنت تعاملنى باحتقار حتى فى منزلى !

ـ سأرحل . اطمئن . ان الكونياك قد شوش عقلك !

— لقد تضرعت اليك ، باسم يسوع المسيح، أن تذهب الى تشرماشنيا ••• يوما أو يومين ••• ثم لم تفعل !

— سأذهب غدا ما دمت تلح •

— لن تذهب • أنا واثق من ذلك • انك تريد أن تراقبنى هنا • تلك هى غايتك ياذا النفس السوداء ! لذلك لن تذهب •

أصبح العجوز لا يسيطر على نفسه • لقد وصل من نشوة الكحول الى تلك المرحلة التى يشعر فيها بعض السكيرين الذين هم فى العادة أناس مسالمون بحاجة مفاجئة الى أن يغضبوا ، وأن يظهروا ما هم قادرون عليه •

— مالك تتفرس فىّ هكذا ؟ يا لعينيك هاتين ما أقذرهما ! انك تنظر الىّ فأقرأ فى نظرتك قولك : « أيها السكير الدنىء » ! آه من هاتين العينين اللتين تفيضان شكاً وريبة واحتقارا ! ••• أنت انما جئت الى عندى لغاية معينة فى نفسك ••• ولا كذلك أليوشا ••• انه ينظر الىّ بعينين تشرقان صراحة • أليوشا لا يحتقرنى • يا الكسى اياك أن تحب ايفان •

قال أليوشا بحزم مباغت :

— لا تغضب من أخى • أكفف عن اهانته !

— السبب هو •• آه ••• أصبحت لا أدرى ••• أنت على حق • اف ••• ما أشد هذا الصداع الذى ألم برأسى على حين فجأة ! ارفع هذا الكونياك يا ايفان ! هذه ثالث مرة أطلب اليك فيها أن ترفع هذا الكونياك •

قال فيدور بافلوفتش ذلك ، ثم أطرق يفكر ، واستطالت شفتاه بابتسامة ماكرة •

ـ لا تحقد يا ايفان على هذا العجوز المهووس ... لا تحقد عليَّ يا ايفان ! ... أنا أعرف أنك لا تحبني كثيرا . وليس هناك ما يوجب أن تحبني على كل حال ... اذهب الى تشرماشنيا ، وسألحق بك حاملاً اليك حلوى ... وسأعرّفك هناك ببنت من تلك المنطقة لاحظتها منذ زمن طويل . هي الآن فتاة صغيرة رثة بائسة . لا تخش الصبايا المزفّتات . لا تحتقرهن قط ... فهنّ لآلىء في كثير من الاحيان .

قال ذلك وقبّل يده قبلة مدوّية ، من باب التأكيد . ثم أردف وقد انتعش فجأة كأن اثارة موضوعة المفضل قد أوتيت القدرة على أن تردّه الى الواقع رداً مباغتاً :

ـ ما أنتم أيها الفتيان الا صبية ، الا خنازير صغيرة ... هأ ... أنا من جهتي لم أقبل في حياتي أن تستطيع امرأة أن لا تعجبني ... تلكم هي مبادئي ! أأنتم قادرون على أن تفهموا هذا ؟ ولكن أني لكم أن تفهموه ! ان عروقكم ليس فيها بعد الا لبن ... انكم لم تنضجوا بعد ! ان القاعدة التي التزمها في سلوكي هي أن في كل امرأة شيئا خاصا شائقاً لا يمكن أن يوجد في امرأة أخرى .. وانما المهم أن يستطيع المرء اكتشافه ... وذلك فن ... ذلك فن يحتاج الى موهبة ! ما من امرأة أمكن أن تكون في نظري دميمة أو باعثة على الاشمئزاز في يوم من الأيام . حسبها أن تكون امرأة .. هذا وحده نصف الحب .. حتى العوانس لا بد أن يكتشف المرء فيهن متى عرضت الفرصة أشياء يُذهله أن يتصور أن هناك اناسا أغبياء حمقى تركوا لهن أن يشخن دون أن يلاحظوهن . وأول شيء يجب أن يعمد اليه الرجل مع هاته الصغيرات الرثات الوسخات هو أن يدهشهن . بهذه الوسيلة انما يجب التوسل اليهن . ألم تكن تعرف ذلك ؟ يجب أن تبلغ بهن الدهشة حد النشوة والوجد ، حدّ الألم والعذاب ، حدّ الشعور بالخزى والعار من أن سيداً

أنيقا أمكن أن يتوله حباً بدمامة كهذه الدمامة . ألا انه لشيء رائع يشحذ العزيمة أن يعرف المرء أنه سيبقى في هذا العالم الى الأبد سادةٌ وخدم ، ففي هذه الحالة سيظل هناك صغيرة رثةٌ ما يحلو لها أن تفرح سيدها ومولاها . تلك هي سعادة الحياة ! انتظر ... هل تعرف يا أليوشا ؟ ان هذا الامر يذكرني بأنني قد بعثت الدهشة دائما في نفس المرحومة أمك، ولكن بمعنى آخر . كنت أدعها مدة طويلة بلا ملاطفات ومداعبات ، ثم اذا أنا في ذات يوم ، في دقيقة من تلك الدقائق التي يتفق لي أن أعرفها ، أسترسل فجأة في اظهار جميع أنواع العواطف ، حتى لأزحف على ركبتي ، وأقبل قدميها الصغيرتين ، فأنقلها في كل مرة ـ ما زلت أتذكر هذا كأنه حدث بالأمس ـ أنقلها في كل مرة الى حالة نفسية خاصة ، فاذا هي تأخذ تضحك ... تأخذ تضحك ضحكة فريدة في نوعها ... ضحكة واهنة حادة في آن واحد ، ضحكة عصبية طويلة . وكان ذلك على كل حال هو النوع الوحيد من الضحك الذي عرفته فيها . وكنت أعلم أن مرضها انما يبدأ عندها بهذه الطريقة نفسها ، فهي تأخذ في الغداة تصرخ مثل كليكوشا ، وأن ذلك الضحك الخاص لم يكن يعبِّر في الواقع عن أي فرح . ولكنني كنت أرى ذلك الضحك لذيذا ، سواء أعبَّر عن فرح أم لم يعبر عن فرح . فهل رأيتم كيف كنت أستطيع أن أجد في كل شيء جانبا جذابا مجهولا ؟ وقد اتفق في ذات يوم أن بيليافسكي ـ وهو رجل متظرف غني جدا كان يسعى اليها واستطاع أخيرا أن يدخل بيتي ـ قد صفعني على وجهي في بيتي بحضورها ! فماذا حدث ؟ لقد أوشكت هذه المرأة التي تشبه أن تكون حملاً ، أوشكت أن تضربني بسبب هذه الصفعة ! ليتكم سمعتم كيف أخذت تؤنبني وتقرعني: « سمحت له أن يضربك ؟ أن يضربك ؟ ... ارتضيت أن تتلقى صفعةً من هذا الشخص ؟ لقد أردت أن تبيعني له ... كيف تجرأ أن يصفعك

أمامي ؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم هنا ... هل تسمع ؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم قط ... هيَّا اطلبه الى المبارزة .. اسرع .. أركض » . هكذا أخذت تقول لي . أخذتها الى الدير لأهدىء روعها ، وصلَّى الرهبان من أجلها . ولكنني أقسم لك يا أليوشا أمام الله أنني لم ألحق بها أذى في يوم من الايام ، لم ألحق أي أذى بصغيرتي العزيزة الكليكوشا .. اللهم الا مرة واحدة ، أثناء السنة الأولى من حياتنا ، ثم لم يحدث شيء من هذا بعد ذلك يوما . وكانت منذ ذلك الأوان تسرف في الصلاة في رأيي ، وتراعي أعياد السيدة العذراء مراعاة دقيقة ، فما تسمح لي بأن أقاربها أثناء ذلك . خطر ببالي مرة أن علي أن أطرد هذه الأفكار من ذهنها ، فقلت لها : «هل ترين هذه الأيقونة ؟ هذه الأيقونة المقدسة ؟ سأمضي اليها الآن ، فأرفعها من مكانها ... انك تعتقدين بأن هذه الصورة تحقق معجزات .. طيب .. سأبصق عليها الآن أمامك ، فلا يحدث لي شيء ... » . يا الهي ! حين نظرت اليها عندئذ فرأيت تعبير وجهها ، خيِّل الىَّ أنها ستقتلني فورا . ولكنها لم تزد على أن انتفضت ، ورفعت ذراعيها في الهواء ، ثم غطت وجهها بيديها ، وأخذت ترتعش من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، ثم هوت على الأرض ... منهارة انهيارا تاما ... أليوشا ، أليوشا ؟ ما بك ؟ ماذا دهاك يا صغيري ؟

وثب العجوز عن مقعده مروَّعاً مذعورا . كان وجه أليوشا قد بدأ يتغير تعبيره شيئا فشيئا منذ أخذ العجوز يتحدث عن أمه . لقد احمر في أول الامر ، واشتعلت عيناه ، وأخذت شفتاه تختلجان ... وكان العجوز السكران يقذف من فمه رذاذا من لعاب أثناء كلامه دون أن يلاحظ شيئاً ، الى أن استولت على أليوشا تلك الحالة من الاضطراب الغريب : لقد صار أليوشا الى تلك الحالة نفسها التي وصفها أبوه في كلامه عن الكليكوشا : نهض عن مكانه فجأة كما فعلت أمه في القصة التي رواها

أبوه عنها ، ورفع ذراعيه فى الهـــواء ، ثم غطى وجهــه بيديه ، ثم عاد يتهاوى على كرسيه كتلةً واحدة ، وأخـذ يرتجف جسمه كله ويهتز فى نوبة هسترية تصاحبها دموع صامتة • وقد دُهش العجوز دهشـة خاصة من هذا التشابه الخارق الذى ظهر فى تلك اللحظة بين أليوشـا وأمه • فقال ينادى ايفان :

ـ ايفان ! ايفان ! هات ماءً ، أسرع ! هو مثلها ، مثل أمه تماما ! صبَّ عليه ماءً بالمغرفة ، فذلك ما كنت أفعله أنا بها • هذا بسبب أمه ، أمه •••

ـ أمه ؟ يخيَّل الىَّ أن أمه هى أمى أيضا ، ألا تقدِّر ذلك ؟

هكذا انفجر يقـــول ايفان على حين فجأة ، فى سورة من غضب شديد واحتقار هائل ، فارتعش العجـــوز حين رأى نظـــرته الحانقة المسعورة •

عندئذ حدث شىء عجيب ، ولكنه لم يدم الا بضع ثوان • يبدو أن العجوز قد نسى فعلاً أن أم أليوشا هى أم ايفان أيضا ، فها هو ذا يقول مدمدماً دون أن يفهم :

ـ أمك ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ عن أى أم تتكلم ؟ أتكون هى حقاً ؟ ••• آه ••• لعن الله الشيطان ! نعم ••• هى أمك أيضـا ! لعن الله الشيطان ! يا لهذه الذاكرة السيئة التى لم أعرف مثلها فى حياتى! معذرةً يا ايفان • لقد خيِّل الىَّ أن ••• هأ هأ هأ ! •••

قال العجوز ذلك ثم توقف فجأة على ابتسامة بلهـــاء من ابتسامات السكيرين • وفى تلك اللحظة نفسها سُمعت من الدهليز جلبة رهيبة ،

وضوضاء شديدة تقطعها صرخات حادة عنيفة • وانفتح الباب بما يشبه الاعصار ، وظهر دمترى بافلوفتش مندفعاً الى الغرفة •

ارتمى العجوز نحو ايفان وقد استولى عليه جـــزع هائل ، وطفق يصيح وهو يتشبث بحافة رداء ايفان بكل ما أوتى من قوة :

ـ سيقتلنى ، سيقتلنى •• لا تتركنى •• دافع عنى •• احمنى !

٩

الشهوانيون

ما ان دخل دمترى بافلوفتش الغرفة حتى هرع جريجورى وسمردياكوف فى أثره . كانا قد حاولا فى الدهليز أن يمنعاه بالقوة من الدخول (تنفيذا للأوامر التى أصدرها اليهما فيدور بافلوفتش منذ بضعة أيام) ، فلما صار دمترى فيدوروفتش فى الصالون فتوقف لحظة قصيرة ليعرف الى أين يجب عليه أن يتجه ، انتهز جريجورى هذه الفرصة فدار حول المائدة ، ومضى الى الباب الذى يوجد فى آخر الصالون ويفضى الى الغرف الداخلية فأغلق مصراعيه ووقف أمامه مصالباً عليه ذراعيه كأنه مستعد لأن يمنعه من الدخول منه الى آخر رمق . فلما رآه دمترى أطلق صرخة حادة ، بل قل زأر زئيراً رهيباً وارتمى على الخادم العجوز ، قائلا :

ـ هى اذن هنا . خبأتموها فى الغرفة المجاورة . ابعد أيها الشقى !

أراد دمترى أن يقصى جريجورى ، ولكن جريجورى دفعه عنه ، فجُنَّ جنون دمترى حنقاً ، فرفع ذراعه وهوى على الخادم بضربة قوية ، فسقط الخادم على الأرض كتلةً واحدة ، وركله دمترى بقدمه ، واقتحم

الباب . أما سمردياكوف فقد ظل فى الطرف الآخر من الصالون يشد نفسه الى فيدور بافلوفتش شاحب الوجه مرتعد الجسم .

صرخ دمترى فيدوروفتش يقول :

ـ هى هنا حتماً . رأيتها تتجه الى هذا المنزل منذ هنيهة ، ولكننى لم أستطيع أن أدركها . أين هى ؟ أين هى ؟

أحدثت هذه الصرخة « هى هنا » ، أحدثت فى فيدور بافلوفتش أثراً خارقاً ، فتبدد خوفه وزال جزعه وهلعه دفعةً واحدة ، وزأر يقول وهو يندفع وراء دمترى :

ـ أوقفوه ! أوقفوه !

وكان جريجورى قد نهض عن الأرض أثناء ذلك ، ولكنه ما يزال طائش اللب . وأسرع ايفان فيدوروفتش وأليوشا يجريان وراء أبيهما ليصداه . وسُمعت فى الغرفة الثالثة ضجة سقوط شىء وتناثر حطام : انها زهرية كبيرة من الكريستال (ليست من أثمن الزهريات) كانت موضوعة على قاعدة من المرمر ، فاصطدم بها دمترى أثناء جريه فسقطت على الأرض وتهشمت .

أعول العجوز من جديد يقول :

ـ أمسكوه ! النجدة ! النجدة !

وأدركه ايفان فيدوروفتش وأليوشا فى تلك اللحظة ، واستطاعا أن يرجعاه الى الصالون بالقوة .

ـ بنىّ فانيا ، بنى ليوشا* ! جاءت اذن جروشنكا . هى هنا . رآها بنفسه تجرى نحو دارى ...

SS

ان فيدور بافلوفتش يتعثر فى الكلام • كان لا يتوقع أن تجىء جروشنكا فى ذلك اليوم ، فلما سمع أنها جاءت طاش عقله • ان جسمه كله يرتعد • وكأنه قد فقد جميع رشده •

قال له ايفان حانقاً :

ـ أنت نفسك تعلم حق العلم أنها لم تأت •

ـ لعلها دخلت من الباب الآخر •

ـ ولكن الباب الآخر مقفل ، ومفتاحه فى جيبك •

وفجأةً ظهر دمترى مرةً أخرى فى الصالون • لقد وجد الباب الثانى مغلقاً بطبيعة الحال ، لأن مفتاح ذلك الباب كان فى جيب فيدور بافلوفتش ؛ وكانت النوافذ موصدة فى جميع الحجرات من جهة أخرى ، فما كان لجروشنكا اذن أن تستطيع دخول المنزل من أى مدخل ولا أن تغادره من أى مخرج •

أعول فيدور بافلوفتش حين رآه ، قائلاً :

ـ اقبضوا عليه • لقد ذهب يسرق مالاً من غرفة نومى !

واستطاع فيدور بافلوفتش أن يتملص من يدى ايفان ، فهجم ثانيةً على دمترى • ولكن دمترى رفع ذراعيه ، وأمسك العجوز فجأة من خصلتى شعره الباقيتين على صدغيه ، وشده منهما شداً قوياً فرماه على الأرض فى قرقعة ، واتسع وقته كذلك لأن يطرق رأس أبيه بكعب حذائه مرتين أو ثلاثاً وهو متمدد بين قدميه ، فأطلق العجوز من صدره أنيناً حاداً • ولكن ايفان فيدوروفتش ، رغم أنه لا يملك ما يملكه أخوه من قوة ، طوق أخاه بكلتا ذراعيه واستطاع أن يبعده عن الأب ؛ وعاونه أليوشا الضعيف على ذلك فى حدود طاقته ، ممسكاً دمترى من أمام •

صرخ ايفان يقول :

ـ أأنت مجنون ؟ لقد قتلته •

فصاح دمترى يقول وهو يتنفس تنفساً قوياً :

ـ أحسن ! لقد استحق ذلك • واذا أخطأته هذه المرة ، فسأعود مرة أخرى لأجهز عليه ! ولن تحول عندئذ بينى وبينه !

وقال أليوشا بلهجة قاطعة :

ـ اذهب يا دمترى ! اخرج من هنا فورا •

ـ ألكسى ! قل لى الحقيقة كلها • أنت الانسان الوحيد الذى أثق به وأطمئن الى صدقه : أكانت هنا منذ قليل أم لا ؟ لقد لمحتها متسللة على طول السياج فى آخر الزقاق ، متجهة نحو هذه الدار ، فناديتها فولت هاربة •••

ـ أحلف لك انها لم تأت هنا ، وأن أحداً لم يكن ينتظرها عدا ذلك ! •••

ـ ولكننى رأيتها بعينى ••• اذن هى ••• لن ألبث أن أعرف أين هى الآن ! ••• الى اللقاء يا ألكسى ! لا تقل لايزووب* كلمةً واحدة فى أمر المال الآن • اذهب فورا الى كاترين ايفانوفنا • يجب أن تذهب اليها حتماً • قل لها : « انه يبلغك احترامه ، احترامه ، احترامه، يبلغك احترامه مودعاً ! » • وصِفْ لها هذا المشهد •••

وكان ايفان وجريجورى قد أنهضا العجوز أثناء ذلك ، وأجلساه على مقعد • كان وجهه دامياً ، ولكنه ليس مغشياً عليه ، فهو يتابع أقوال دمترى وصيحاته بشراهة ، وما يزال يسيطر عليه الشعور بأن جروشنكا

مختبئة في مكان ما بالمنزل . وحين همّ دمترى فيدوروفتش أن ينصرف رشق أباه بنظرة تفيض كرهاً وبغضاً ، وقال له :

ـ لا يعذبني ضميرى على أنني سفحت دمك . حذار أيها العجوز! اذا كان ما يزال لك أمل ، فاحذر من أملي أنا ! انني ألعنك وأنكرك !

قال ذلك وخرج من الغرفة مسرعاً .

ـ هي هنا ، هي هنا قطعاً . سمردياكوف ، سمردياكوف !

هكذا نادى العجوز بصوت محشرج لا يكاد يُسمع ، وهو يومىء بأصبعه الى الخادم .

فأجابه ايفان بصوت حانق يقول :

ـ بل ليست هنا ، ليست بالمنزل ، أيها العجوز الفاقد عقله ! ها .. ها هو ذا يُغمى عليه . هاتوا ماءً ، أسرعوا ، وهاتوا خرقة ! أسرع يا سمردياكوف !

مضى سمردياكوف بأقصى سرعة لاحضار ماء . وخلعوا عن العجوز ثيابه أخيرا ، ونقلوه الى غرفة نومه ، وأرقدوه على سريره ، وأحاطوا رأسه بخرقة مبللة . فما ان لامس رأس العجوز مخدته ، وقد أوهنه الكونيـاك وأضعفته الانفعالات العنيفة والضربات القوية ، حتى أغمض عينيه ونام . وعاد ايفان فيدوروفتش وأليوشا الى الصالون . ولمّ سمردياكوف حطام الزهرية المهشمة . ولبث جريجورى جامداً قرب المائدة ، مظلمَ الوجه ، خافض الرأس في عناد .

قال أليوشا لجريجورى :

ـ يحسن بك أنت أيضا أن تلفع رأسك بخرقة مبللة وأن ترقد في فراشك . لقد ضربك أخي ضربة قوية كذلك .

قال جريجوري بصوت مبحوح بطيء :

ـ تجرأ أن يضربني •

فقال ايفان فيدوروفتش :

ـ تجرأ ؟ لم « يتجرأ » أن يضربك وحدك ، بل ضرب أباه أيضا !

ـ لقد ربيته صغيراً ، وكنت أتولى غسله بنفسي ••• ثم هو يتجرأ عليّ الآن فيضربني •••

كذلك ردد جريجوري •

واستأنف ايفان كلامه مخاطباً أليوشا بصوت خافت :

ـ من يدري ؟ لعله كان سيقتله لو لم نبعده عنه بالقوة • ترى هل ينجو ايزوب زمناً طويلاً أيضاً ؟

فهتف أليوشا يقول :

ـ حمانا الله من هذا !

فاستأنف ايفان كلامه يقول خافضاً صوته :

ـ حمانا الله من هذا ؟ ألا فلتأكل السراطين بعضها بعضاً ! ذلك هو المصير الذي تستحقه !

ارتعش أليوشا •

ـ طبعاً سأحول دون وقوع الجريمة كما فعلت منذ هنيهة • ابق هنا يا أليوشا • وسأخرج أنا الى الفناء استنشق الهواء قليلاً ، فقد بدأت أشعر بصداع في رأسي •

عاد أليوشا الى غرفة نوم أبيه ، ولبث عند سريره قرابة ساعتين ، جالساً بين السرير والحاجز • ثم اذا بالعجوز يفتح عينيه فجأة ، فيطيل

النظر الى أليوشا صامتا ، وهو يحـــاول أن يتذكـر وأن يفهم ؟ ثم اذا باضطراب خارق ينعكس على وجهه فيدمدم قائلاً بوجل وخوف :

ـ أليوشا ، أين ايفان ؟

ـ في الفناء . ان به صداعاً . ولكنه مهتم بنا ساهر علينا ، ولسوف يحمينا .

ـ ناولني المرآة . هي هناك ، هل تراها ؟ ناولنيها .

مدّ اليه أليوشا المرآة الصغيرة المدوّرة ذات المســـند المطوى التي كانت موضوعة على المنضدة . نظر العجوز في قسمات وجهه : كان أنفه قد تورم تورماً شديدا ، وكانت فوق حاجبه الأيسر بقعة حمراء تدل على أن دماً قد نزف .

ـ ماذا دها ايفان ؟ أليوشا ، بني الطيب الشهم ، أنت وحدك ابني ! انني أخشى ايفان ، أخشاه أكثر مما أخشى الآخر . أنا لا أشعر بالطمأنينة الا معك . ولا أخاف منك ...

ـ ولا تخف من ايفان أيضا . صحيح أنه يلوم ويؤنب ، ولكنـه سيدافع عنك .

ـ أليوشا ! والآخر ، أين هو ؟ ذهب الى جروشنكا ، أليس كذلك؟ يا ملاكي الطيب ، قـل لي الحقيقة كاملةً : أجاءت جـــروشنكا الى هنا أم لا ؟

ـ لم يرها أحد هنا . تلك كذبة . انها لم تجيء .

ـ يريد دمتري أن يتزوجها ، هل تعلم ذلك ؟ أن يتزوجها ...

ـ لن توافق هي على هذا !

ـ سترفض ، سترفض حتماً أن تتزوجه ، سوف تصده وتنبذه !

كذلك صاح العجوز جذلاً فرحاً ، وقد انتعش دفعةً واحدة على حين فجأة ، كأنه ما من شيء يمكن أن يسره كما تسره فى تلك الدقيقة هذه الفكرة التى عبَّر عنها أليوشا !

ومن فرط حماسته ، أمسك يد ابنه فوضعها بقوة على قلبه ، حتى لقد تلألأت دموع فى عينيه •

ـ خذ الأيقونة ، أيقونة العذراء المقدسة ، التى تكلمت عنهـا منذ برهة • اننى أهب لهاهذه الأيقونة ، انقلها الى مسكنك • وانى لأعـدك أيضاً بأن تعود الى الدير ••• لا تؤاخذنى يا أليوشا ، فاننى ما أردت الا المزاح • بى صداع يا أليوشا ، يا عزيزى أليوشا ••• هدىء روعى ، طمئن قلبى يا من أنت كالملاك ، قل لى الحقيقة كلها •

ـ أفى أمر جروشنكا أيضا ؟ أأنها جاءت الى هنا ؟

كذلك سأل أليوشا أباه بلهجة مرة • فقال له أبوه :

ـ لا ••• لا ••• سامحنى ••• اننى أصدقك • اليك ما أريده منك : اذهب الى جروشنكا ، أو دبِّر أمرك بحيث تراها ، واسألها بأقصى سرعة ممكنة ، دون أن تضيع من الوقت دقيقة واحـدة ••• حاول أن تعرف منها هى ، أو أن تحزر من كلامها : أيُّنا تفضل ، هو أم أنا ؟ هه؟ هل تستطيع أن تفعل هذا فى سبيلى ؟

دمدم أليوشا يقول مضطرباً :

ـ سأسألها عن ذلك اذا رأيتها •

ـ بل الأفضل أن لا تراها • اننى أعرفها • هذه امرأة مجنونة • سوف تلعب بعقلك وتجيبك قائلة انها تؤثرك أنت ، انها تريدك أنت ! هى امرأة كذابة ، امرأة قليلة الحياء خالعة العذار ! ما ينبغى أن تراها ••• لا تصلح جروشنكا لمثلك !

ـ ثم ان الذهاب اليها ليس بالأمر الحسن ، يا باتيوشكا !

ـ قل لى : الى أين كان يريد أن يرسلك حين صاح قائلاً لك لحظة انصرافه « اذهب اليها » ؟

ـ الى كاترين ايفانوفنا .

ـ للحصول على مال ؟ ليسألها مالا ؟

ـ لا ... ليس الأمر أمر مال .

ـ أنا أعلم أنه لا يملك قرشا واحدا . اسمع يا أليوشا . سأرتاح حتى صباح الغد ، وسأفكر فى جميع هذه الأمور . دعنى الآن . قد تلقاها فى طريقك ... ولكن تعال الىّ غدا فى ساعة مبكرة ، تعال حتماً . هناك مسألة صغيرة أريد أن أحدثك فيها . هل تجىء ؟

ـ أجىء .

ـ تظاهر بأنك تجىء من تلقاء نفسك لتسأل عن أخبارى . لاتذكر لأحد انى رجوتك أن تجىء . ولا تقل كلمة واحدة لايفان خاصة .

ـ سأصمت .

ـ الى اللقاء يا ملاكى . لقد دافعت عنى ، فلن أنسى هذا أبداً ... سأقول لك فى الغد شيئا ... يجب أن أفكر فى هذا الشىء مزيدا من التفكير ...

ـ ما شعورك بصحتك الآن ؟

ـ سأنهض منذ الغد فأخرج . سأكون فى غدٍ قد شُفيت ، سأكون قد أبللت تماما .

وحين قطع أليوشا فناء المنزل وجد أخاه ايفان جالسا على دكة قرب

الباب • كان ايفان بسبيل تدوين بعض الأشياء فى دفتره الصغير بالقلم الرصاص • أبلغه أليوشا أن العجوز قد استيقظ واسترد شعوره، وأضاف الى ذلك أنه قد أذن له بالعودة الى الدير لليل •

قال له ايفان ناهضاً وقد بدا فى وجهه كثير من التودد والتحبب :

ـ أليوشا ، أحب كثيرا أن أراك غدا فى الصباح •

فدُهش أليوشا من هذه البشاشة التى لم يألفها فيه • وأجابه :

ـ سأكون غدا عند السيدة هوخلاكوفا وابنتها • ومن الجائز أيضاً أن اذهب غداً الى كاترين ايفانوفنا اذا لم أجدها الآن فى دارها •

ـ أأنت ذاهب اذن الى كاترين ايفانوفنامع ذلك ؟ لتنقل اليها احترامه ؟

كذلك سأله ايفان وهو يبتسم على حين فجأة •

اضطرب أليوشا • وأردف ايفان يقول :

ـ أحسب انني فهمت الموقف مما قاله لك منذ قليل، ومن ملاحظات أخرى سابقة • أغلب الظن أن دمترى رجاك أن تذهب اليها لتبلغها أنه يريد ••• أنه يريد •• أليس كذلك ؟ أقصد أنه يريد ان يقطع علاقته بها ؟

سأله أليوشا :

ـ قل لى يا أخى • كيف سينتهى هذا الصراع الفظيع ، هذا النزاع الرهيب بين دمترى وأبينا ؟

ـ يستحيل التنبؤ بذلك • قد يسوّى الأمر ، وقد يهدأ الخلاف من تلقاء نفسه • ان هذه المرأة وحش كاسر مفترس • مهما يكن من أمر ، يجب احتجاز العجوز فى المنزل ومنع دمترى من الدخول اليه •

ـ اسمح لى بسؤال آخر يا أخى : هل تعتقد فعلاً أن من حق كل

انسان أن يعيِّن ، حين ينظر الى أقرانه البشر ، أولئك الذين ما يزالون يستحقون أن يعيشوا وأولئك الذين يجب أن يزولوا ؟

ـ ما جدوى أن نعالج هذا السؤال من وجهة نظر الاستحقاق ؟ ان أكثر الناس لا يحسمون هذا السؤال فى قلوبهم على هذا الأساس ، وانما هم يحسمونه مستلهمين اعتبارات مختلفة جدا عن هذا الاعتبار ، اعتبارات أقرب كثيرا الى الطبيعة . أما عن الحق فهل يمكن أن ننكر على انسان من الناس حقاً أن يتمنى ما يناسبه ؟

ـ أن يتمنى موت انسان آخر ؟

ـ حتى الموت ، اذا دعت الحاجة . ما ينبغى للمرء أن يكذب على نفسه ... ان جميع الناس يعيشون على هذا النحو ، وقد لا يكون من الممكن أن تجرى الأمور على غير هذا النحو ... أأنت تلقى علىَّ هذا السؤال بسبب فكرتى تلك عن السراطين ؟ فاسمح لى اذن أن ألقى عليك أنا أيضا هذا السؤال : هل تعتقد أننى قادر ، مثل دمترى ، على أن أسفح دم ايزوب ، أى أن أقتله ؟ هه ؟

ـ ما هذا الكلام يا ايفان ؟ لم يخطر ببالى شىء من هذا فى يوم من الأيام ! ... وحتى دمترى ، ما أظنه قادرا على أن ...

قال ايفان ساخرا :

ـ أشكر لك هذه الثقة على الأقل . اعلم أننى سأدافع عنه فى كل ظرف . أما عن أمنياتى مع ذلك ، فاننى أحتفظ فى هذا المجال بحريتى . الى اللقاء . الى الغد . لا تُدِنّى ولا تحسبنّى مجرماً .

كذلك أضاف وهو يبتسم .

تصافح الأخوان بقوة كما لم يتصافحا قبل ذلك قط . وأحسّ أليوشا أن أخاه قد خطا الخطوة الأولى نحوه لغاية فى نفسه ، وأنه بيّت نية من النيّات حتماً .

١٠

المرأتان كلتاهما

خرج أليوشا من دار أبيه أشد حـــزناً مما كان حين دخلها . انه يشعر باضطراب عميق فى ذهنه . أفكاره تتلاحق وتتبعثر بغير تسلسل ينظمهـا ، وبغير رابطة تصل بعضها ببعض . ولكنه يدرك فى الوقت نفسه أنه يخشى تجميع أفكاره المشتتة وانعام النظر فى خواطره البلبلة ، مؤثراً أن لا يستخلص أية نتيجة من المشاعر المتناقضة المعذّبة التى عاناها فى هذا النهار. ان نوعاً من القلق يحاصره ويستبد به ويوشك أن يكون يأساً . وذلك أمر لا عهد له بمثله من قبل. هناك مسألة أساسية فاجعة مستعصية كانت تسيطر فىفكره على سائر الهموم الأخرى وتلاحقه وترهق قلبه كأنها الجبل ثقلاً : ما عسى يصير اليه هذا النزاع بين أبيه وأخيه دمترى على تلك المرأة الرهيبة ؟ انه يعرف خطورة هذه المشكلة الآن ، بعد أن شهد الدرامة ورأى الرجلين يواجه أحدهما الآخـر . وأحق الناس بالرثاء على كل حال انما هو دمترى ، لأن شقاءه يبدو رهيباً، ولأن بلاءه يبدو مستعصيا لا دواء له ولا برء منه : ان الكارثة تتربص به . وهناك أشخاص آخرون لهم فيها أدوار أضخم كثيرا مما كان يتراءى لأليوشا حتى ذلك الحين . هذا كله يُحـــدث فى نفس أليوشا احساسا مضطرباً ويشعره بأنه أمام لغز لا يفهم . من ذلك مثلا أن أخاه ايفان قد

خطا الخطوة الأولى نحوه متقرباً منه متودداً اليه ، ولقد طالما تمنى أليوشا هذا التقارب بينه وبين أخيه ، ومع ذلك فان ملاطفات أخيه هذه قد بثّت في نفسه جزعاً لا يفهم له علة . وهاته النساء أيضا ؟ ما أغرب ما يحس به أليوشا الآن ! حين كان ذاهبا الى كاترين ايفانوفنا منذ بضع ساعات ، فانه قد ملأته تلك الزيارة اضطرابا . ولا كذلك في هذه اللحظة ، فانه ماض اليها بغير وجل البتة . أكثر من ذلك أنه يستعجل الآن رؤيتها كأنهـا تستطيع أن تنقذه من قلقه ! على أن المهمة التي كلّف بها تبدو له الآن أصعب وأشق: لقد عدل دمتري عدولا نهائيا عن ردّ الثلاثة آلاف روبل. هو يرى الآن أن شرفه قد تلطخ الى الأبد ، وهو قد فقد كل أمل ، فلن يتردد بعد اليوم عن أي سقوط . ثم انه قد ألحّ على أليوشا أن يروى لكاترين ايفانوفنا المشهد الذي جرى في دار أبيه .

حين وصل أليوشا الى أمام مسكن كاترين ايفانوفنا التي تشغل في « الشارع الكبير » منزلاً واسعا فخماً ، كانت الساعة قد بلغت السابعة ، وكان الظلام قد أخذ يهبط . ان أليوشا يعلم أن كاترين ايفانوفنا تعيش في هذا المنزل في صحبة قريبتين لها . فأما أولاهما فلا تمت اليها بقربى الا من جهة أختها آجاتي ايفانوفنا ، وهي بعينها تلك الانسانة الخضوع الطيعة التي عُنيت مع آجاتي تلك العناية كلها بكاترين بعد خروجها من المدرسة الداخلية . وأما الثانية فهي سيدة من موسكو فارعة القامة شاعرة بخطورة شأنها وعلو منزلتها رغم أنها ليست على جانب كبير من الثراء . وكان يقال ان هاتين القريبتين كلتيهما تخضعان لكاترين ايفانوفنا في كل شيء ، ولا يعيشان قربها الا مراعاةً للمواضعات الاجتماعية . أما كاترين ايفانوفنا فهي لا تطيع الا الجنرالة ، المحسنة اليها ، التي لبثت في موسكو بسبب حالتها الصحية ، والتي كان على كاترين أن تكتب اليها مرتين في الأسبوع لتطلعها على تفاصيل حياتها .

حين دخل أليوشا الدهليز ورجا الخادم التى فتحت له الباب أن تبلغ أهل الدار وصوله ، كان يبدو أن أهل الدار الجالسين فى الصالون كانوا على علم بزيارته (لعلهم قد لمحوه من خلال النافذة) . فقد سمع أليوشا حركة غامضة ووقع خطوات نساء يبتعدن بسرعة ، وحفيف أثواب، كأن امرأتين أو ثلاثا قد هرعن يبارحن الغـــرفة . استغرب أليوشا أن يحدث وصوله كل هذا الاضطراب . ومع ذلك أُدخل الصالون فورا بدون انتظار . هى غرفة واسعة يزدحم فيها أثاث كثير أنيق ، على ذوق ليس فيه من ذوق الأرياف شىء . دواوين وصــوفات وكنبـات وموائد ومناضد ، ولوحات تزين الجدران ، ومزهـــريات ومصابيح تنتصب على الموائد ، وأزهار كثيرة فى كل ركن ، بل وحوض أسماك قرب احـدى النوافذ . والغرفة مظلمة قليلا فى هذا الوقت من الغسق . ورأى أليوشا خـماراً من حرير ملقى على ديوان لا شك أن أحدا كان جالسا عليه قبل لحظات ، ورأى على المائدة الصغيرة القريبة من الديوان فنجانين ما يزال نصفهما ممتلئاً بالشوكولاته ، وبسكويتاً وآنية من الكريستال فيها زبيب من زبيب كورنثيا وآنية أخرى فيها سكاكر . لاشك اذن فى أن أهـل الدار كانوا يقدمون حلوى لضيوف عندهم . فلما أدرك أليوشا أنه قد وصل أثناء زيارة شعر بحرج كبير . ولكن الســتارة أزيحت فى تلك اللحظة نفسها ، ودخلت كاترين ايفانوفنا الغرفة بخطى سريعة عجلى ، مادةً الى أليوشا يديها كلتيهما ، مبتســـمة له ابتسامة فرحة مبتهجـة . وسرعان ما دخلت فى اثرها خادم تحمل شمعدانين مشتعلين وضعتهما على المنضدة .

ــ الحمد لله ! هأنت ذا أخيراً ! لقد لبثت طـول الوقت أضرع الى الله أن تجىء . اجلس من فضلك !

ان جمال كاترين ايفانوفنا كان قد لفت نظر أليوشا حين أخـذه

أخوه دمترى اليها قبل ثلاثة أسابيع ليعـــرّفها به لأنها أحبت كثيرا أن تعرفه • ولم يتحدثا أثناء تلك الزيارة كثـــيرا على كل حال • ذلك أن كاترين ايفانوفنا قد لاحظت ما كان فيه أليوشا من حرج ، فدارته فى تلك المرة فلم تتجه بكلامها الا الى دمترى ، وصمت أليوشا طـــوال الوقت ، ولكنه لاحظ المرأة الشابة فأحسن ملاحظتها ، وخطف بصرَه ما رآه فيها من مظهر الارادة المتسلطة والثقة بالنفس وانطلاق الحركات على كبرياء وخيلاء • كانت هذه السمات فى طبعها واضحة ، وأحسّ أليوشا أنه لم يضخمها ولا بالغ فى تصـــورها • وقد أعجب أشـــد الاعجاب بعينيها الواسعتين السوداوين الحادتين اللتين تتسقان اتساقاً تاماً مع لونها الشاحب الذى تشبه صفرته صفرة العاج قليـــلا ، ومع وجهها المســـتطيل بعض الاستطالة • ومع ذلك كان فى عينيها ، كما كان فى رسم شفتيها الرائع ، شىء يمكن أن يتوله به أخوه تولهاً جامحاً من غير شك ، ولكنه لا يبدو أنه يوقظ فى النفس حباً باقياً مستمرا • ولقد أعرب أليوشا لأخيه دمترى عن شعوره هذا صراحةً بدون لف ولا دوران ، حين أصرّ دمترى ، بعد انتهاء الزيارة ، على أن لا يخفى عنه أخوه رأيه ، وحين تضرع اليه أخوه أن يفصح له بصراحة عن حكمه على خطيبته • لقد قال له أليوشا يومئذ :

ـ سوف تكون سعيداً معها ••• ولكن سعادتك قد لا تكون هادئة•

ـ هذه هى الحقيقة يا أخى ! ان النساء اللواتى هن من هذا النوع لا يتغيرن أبدا ، ولا يذعنّ للقدر • أأنت تعتقد اذن أننى لن أحبها الى الأبد ؟

ـ بلى ••• ربما أحببتها الى الأبد ، ولكن من الجائز أن لا تســعد معها دائما •

أفصح أليوشا عن هذا الرأى وهو يحمر استياءً فى قرارة نفسه ، من رضوخه لالحاح أخيه وقبوله الاعراب عن أفكار « حمقاء » كهذه الأفكار • ذلك أن رأيه قد بدا له غبياً غباءً رهيبا منذ عبَّر عنه • ثم انه قد شعر بخزى شديد من جزمه فى الحكم على امرأة مثل هذا الجزم ؟ وقد ازدادت دهشته الآن حين لاحظ منذ أول نظرة ألقاها على كاترين ايفانوفنا التى هرعت تستقبله هاشة باشة ، أنه لعله قد خُدع عن حقيقتها فى المرة الماضية وأنه قد أخطأ فى الحكم عليها خطأ فاحشا • لقد كان وجهها فى تلك اللحظة يشرق طيبة بسيطة خالية من أى تصنع ، وكانت قسمات وجهها تعبِّر عن صراحة ملتهبة حارة • ولم يبق من « الكبرياء والخيلاء » اللتين خطفتا بصره من قبل الا تعبير عن جرأة نبيلة وجسارة سامية ، وكذلك تعبير عن ايمان بنفسها قوى واضح مضىء • وأدرك أليوشا دفعةً واحدة ، من هيئة الفتاة ومن أولى الكلمات التى نطقت بها ، أن مأساة وضعها ازاء رجل تحبه هذا الحب الحاد المندفع كله لم تكن خافيةً عنها ، وأنها ربما كانت على علم بكل شىء منذ الآن ، بكل شىء اطلاقاً • ورغم ذلك كان يشع منها كل هذا الضياء ، وكان يشع منها كل هذا الأمل بالمستقبل • وشعر أليوشا فجأة بأنه مذنب فى حقها ، كأنما هو أساء اليها اساءة كبيرة ، وأهانها اهانة شديدة ، عن عمد • لقد غُلب أليوشا ، ولكنه لاحظ مع ذلك ، منذ أولى الكلمات التى قالتها ، أنها فى حالة اضطراب نفسى عنيف لعله لم يكن مألوفا لها أو معهودا فيها ، وهو اضطراب يكاد يشبه الحماسة •

قالت كاترين ايفانوفنا :

ـ انتظرتك نافدة الصبر ، لأنك الانسان الوحيد الذى أستطيع أن أعرف منه الحقيقة كلها ••• أنت الانسان الوحيد الذى سيذكر لى الحقيقة كلها ! •••

فتمتم أليوشا يقول وقد اضطربت أفكاره واختلطت على حين فجأة :

ـ أنا جئت •• أنا جئت •• موفداً منه !

ـ آ ••• أهو الذى أرسلك اذن ؟ لقد أوجست ذلك • الآن فهمت كل شيء ، كل شيء !

بهذا هتفت كاترين ايفانوفنا وقد اشتعلت عيناها فجأة ، ثم تابعت كلامها تقول :

ـ لحظة يا ألكسى فيدوروفتش ! اننى أحرص على أن أشرح لك أولاً لماذا انتظرتك فارغة الصبر • وسترى أننى ربما كنت أعلم من الأمر أكثر مما تفترض اننى أعلم ، وأكثر كثيرا مما أنت تعلم • فلن أسألك اذن معلومات ، وانما أنا أعتمد عليك فى شيء آخر : اننى أريد أن تطلعنى على رأيك ، على شعورك ، على آخر ما رأيته فيه ولاحظته عليه فى الآونة الأخيرة • اننى أحرص على أن تذكر بصراحة تامة ، دون أية مداراة أو مراعاة ، بل وبخشونة اذا لزمت الخشونة (بأكبر خشونة تريدها) أن تذكر لى رأيك فى حالة أخيك الآن بعد لقائك معه اليوم • فلعل ذلك خير من أن أمضى أفاتحه أنا فى الأمر ، لأنه أصبح لا يريد أن يرانى • هل فهمت ما أريده منك ؟ والآن قل لى : ما هى المهمة التى عهد اليك بها ، ما هى الرسالة التى كلفك بنقلها الى (كنت أتنبأ بأنه سيرسلك) • تكلم بلا تردد • قل كل شيء ، ولا تخش أن تسيء الى !••

ـ لقد كلفنى بأن ••• أنقل اليك احترامه ••• وأن أقول لك انه لن يجيء بعد اليوم ••• وأن احترامه •••

ـ احترامه ؟ أهذا ما قاله ؟

ـ نعم !

ـ لعله استعمل هذه الكلمة عرضاً ومصادفةً ، دون أن يريد ذلك، ودون أن يلح أيضا ، لأنه لم يجد كلمةً أخرى ؟

ـ بل لقد حرص حرصاً على أن استعمل كلمة « الاحترام » هذه، حتى لقد ألح عليها ثلاث مرات ، مخافة أن أنساها .

تخضب وجه كاترين ايفانوفنا بحمرة شديدة . وقالت :

ـ ساعدني الآن يا ألكسي فيدوروفتش ، أنا في حاجة الى مساعدتك . سأفتح لك أعماق فكري ، وستقتصر أنت على أن تقول لي هل تعد رأيي صحيحا أم لا ؟ اصغ الي جيدا . لو كان قد كلفك عرضا ومصادفةً بأن تبلغني « احترامه » دون أن يلح على هذه الكلمة الحاحاً خاصا ، فان كل شيء يكون قد قيل ... ويكون الأمر في هذه الحالة قد انتهى ! ... أما وأنه قد ألح على هذه الكلمة الحاحا خاصا ، وأنه رجاك صراحة أن تستعمل تعبير «الاحترام» هذا ، فمعنى ذلك أنه كان في حالة اضطراب شديد ، بل لعله كان خارجا عن طوره ! لقد اتخذ قرارا ، ولكن قراره نفسه يبث الجزع في نفسه ! انه لم يتركني بخطى حازمة، وانما هو أسرع يسقط في هاوية . ان اصراره على استعمال هذه الكلمة لا يمكن أن يُفسَّر الا بأنه تبجح وتحد ...

فقال أليوشا مؤيداً :

ـ هو كذلك ، هو كذلك تماما . وهذا هو شعوري الآن أيضا .

ـ فاذا صح هذا فانه لم يضع بعد ، وليس الأمر اذن الا أمر فعل يدفع اليه اليأس . ولكنني أستطيع أن أنقذه رغم كل شيء . لحظة ! ألم يكلمك في موضوع مال ، في موضوع ثلاثة الاف روبل ؟

ـ طبعا ... حدثني في هذا الموضوع ... بل ان هذا هو مايرهقه

أكثر من أى شىء آخر رغم أن شرفه قد تلطخ ، وقال ان جميع الأمور تستوى لديه بعد الآن ، فلن يعبأ بشىء .

كذلك قال أليوشا بحرارة ، لأنه فى تلك اللحظة أحسّ بالأمل يملأ قلبه ، وحدث نفسه بقوله : ربما كان هنالك مخرج لأخيه فعلاً ، وربما كان هنالك سبيل الى خلاص أخيه . ثم أضاف يقول وهو يضطرب على حين فجأة :

ـ أأنت اذن على علمٍ ... بما حدث لذلك المبلغ ؟

ـ أنا على علم بما حدث له ، منذ زمن طويل . اننى أعرف كل شىء . لقد أرسلت برقية الى موسكو لأسأل هل وصل المال ، فما لبثت أن عرفت الحقيقة . انه لم يرسل المبلغ ، ولكننى لم أحدثه فى الأمر . حتى لقد علمت فى هذا الاسبوع الاخير مدى حاجته الى المال . ولم يكن لى فى هذا الشأن الا هدف واحد : هو أن يعرف من الذى يستطيع أن يتجه اليه ويعتمد عليه فى مثل هـــذا الحالة ، هو أن يعرف أننى خير صديق له فى هذه اللحظة ! ولكن لا ... انه لا يؤمن بصداقتى . لم أخطر بباله فى هذا الظرف . هو لا يرى فىّ الا المرأة . ان هناك سؤلا يعذبنى منذ ثمانية أيام : ما الذى يجب علىّ أن أفعله حتى لا يشعر تجاهى بالخزى والعار من أنه أتلف تلك الثـــلاثة آلاف روبل ؟ افهمنى حق فهمى : فليشعر بالخجل أمام الآخرين أو أمام نفسه ، ولكن ما ينبغى له أن يشعر بالخجل تجاهى ! هل يخجل أمام الله من الافضاء اليه بأموره، والاعتراف له بسرّه ؟ فلماذا يخجل منى ؟ لماذا لا يعرف ما أنا قادرة على احتماله فى سبيله ؟ لماذا ، نعم ، لماذا يجهلنى هذا الجهل كله ؟ كيف يجرؤ أن يجهلنى بعد كل ما جرى بيننا ؟ اننى أريد أن أنقذه الى الأبد. فلينس أننى خطيبته، لينس أن لى هذه الصفة، ولكن ماينبغى له أن يخشى

أن يفتح قلبه لى ، وأن يثق بى ، وأن يطمئن الىّ فى مسألة كمسألة الأمانة هذه ! هل خشى الاعتراف بالحقيقة لك أنت يا ألكسى فيدوروفتش ؟ فلماذا لا أكون حتى الآن جديرة بمثل هذه الثقة ؟

حين نطقت كاترين ايفانوفنا بهذه الكلمات الأخيرة ، ضعف صوتها فجأة ، وانبجست الدموع من عينيها .

قال أليوشا بصوت متهدج أيضا :

ــ علىّ أن أروى لك ما وقع فى منزل أبى منذ قليل .

وقصّ عليها القصة ، ذاكراً أن أخاه كان قد كلّفه بأن يطلب له مالاً من فيدور بافلوفتش ، ثم اذا هو يقتحم الغرفة على حين فجأة . وصف لها كيف أساء أخوه معاملة أبيه ، وذكر لها أن أخاه قد ألح عليه ، بعد ذلك ، مرة أخرى ، أن يجيء اليها ليبلغها « احترامه » .

وختم أليوشا كلامه قائلاً وهو يخفض صوته :

ــ ثم ذهب الى تلك المرأة .

ــ أتظن أننى لا أستطيع احتمال وجود تلك المرأة فى حياته ؟ أيحسب أننى لن أطيق وجودها فى حياته ؟

ألقت كاترين ايفانوفنا هذا السؤال ، ثم قالت فجأة وهى تضحك ضحكا عصبيا :

ــ ولكنه لن يتزوجها . هل يستطيع رجل من آل كارامازوف أن يلتهب قلبه بهوى من هذا النوع الى الأبد ؟ ذلك هوى وليس حباً . ثم انه لن يتزوجها لأنها لن ترضى هى أن تتزوجه .

كذلك رددت كاترين ايفانوفنا وهى تضحك تلك الضحكة الغريبة نفسها .

فقال أليوشا فى حزن وهو يغض بصره :

ـ من الجائز جدا أن يتزوجها •

ـ قلت لك انه لن يتزوجها ! ان هذه الفتاة ملاك حق ، هل كنت تعرف ذلك ؟ لا ؟ فاعلم الآن اذن •

كذلك هتفت كاترين ايفانوفنا بحرارة وحماســة قوية • وتابعت تقول :

ـ هى أروع انسان يمكن أن يلقاه المرء فى حياته ! أنا أعرف مدى ما تتصف به من فتنة واغــراء ، ولكننى أعرف أيضا طيبتهـا وشهامتها ونبلها • لمــاذا تنظر الىّ هكذا يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لعــل كلماتى تدهشك ؟ أغلب ظنى أنك لا تصــدقنى ، أليس كذلك ؟ يا آجــرافين الكسندروفنا ، يا ملاكى (كذلك نادت كاترين ايفانوفنا وهى تنظر الى الغرفة المجاورة) ، تعالى الينا ! انه فتى لطيف ! انه أليوشا • هو على علم بكل ما يتصل بنا • تعالى •

فأجاب صوت نسوى لطيف أو متلطف :

ـ انما كنت أنتظر من وراء الستارة اللحظة التى تنادينني فيها •

وأزيحت الستارة فاذا ••• بجروشنكا نفسها تظهر • اقتربت من المائدة ضاحكةً وقد بدت فى وجهها سعادة • أحسّ أليوشا فى اللحظة الأولى أنه يوشك أن ينهار • حدق الى المرأة الشابة بنظرة عنيفة ، دون أن يستطيع تحويل عينيه عنها • أهذه هى اذن تلك المرأة المخيفة ؟ أهذه هى اذن ذلك « الوحش المفترس الكاسر » على حد التعبير الذى أفلت من أخيه ايفان قبل نصف ساعة ؟ ان أليوشا لا يرى أمامه الآن الا امرأة عادية بسيطة طيبة محببة ، قد تعدها حسناء ان شئت ، ولكنها شبيهة بكثير

من النساء الحسناوات اللواتى لا يُحسبن « خارقات » . والحق أنها جميلة ، بل جميلة جدا ... لها ذلك الجمال الروسى الذى قد يوقظ فى بعض الرجال حباً جامحاً وهوى قوياً . هى طويلة القامة ، ولكنها أقل طولاً من كاترين ايفانوفنا (الطويلة جدا) ، ويتميز جسمها بحركات لينة حلوة تشبه أن تكون صامتة ، حركات تتصف تلوياتها وانعطافاتها بنفس الليونة والرقة والرخاوة التى تظهر فى تنغيمات صوتها . اقتربت ، ولكن مشيتها ليست صلبة حازمة كمشية كاترين ايفانوفنا . انها تمشى بلا جلبة ولا ضوضاء . وتهالكت على مقعد من المقاعد ، فكان لحفيف ثوبها الحريرى الأسود الفاخر شىء من عذوبة ورقة فى السمع أيضا . وكان يلتف على جيدها الناصع البياض كالثلج ، وعلى كتفيها العريضين، شال ثمين من صوف أسود ، يلتف التفافاً فيه كثير من رهافة الذوق . انها فى الثانية والعشرين من عمرها . وان قسمات وجهها تدل على أنها فى هذه السن تماما . لونها ناصع البياض ، وخداها متوردان توردا خفيفا عند الوجنتين ، وفكها الأسفل بارز بعض البروز ، وشفتها العليا دقيقة جدا على حين أن شفتها السفلى الناتئة قليلا تبدو أسمك من الشفة العليا مرتين حتى لكأنها منتفخة قليلا . ولكن شعرها الكستناوى الغزير الرائع وحاجبيها القاتمين المخمليين ، وعينيها الزرقاوين الشهباوين الفاتنين ، وأهدابها الطويلة ، كل ذلك خليق بأن يجتذب اليه أقل الرجال اكتراثا، وأشدهم ذهولا ، وخليق بأن يجعل مثل هذا الرجل ، ولو فى وسط جمهور مضطرب متدافع أو فى زحمة الشوارع الكبرى المكتظة بالمارة ، أن يتوقف لحظةً أمام هذا الوجه وأن يتأمل ملامحه ملياً . وقد أخذ أليوشا خاصةً بما فى هذا الوجه من تعبير عن براءة واضحة صريحة . ان لها نظرة طفل ، وكأنها فرحة فرح صبية صغيرة لسبب مجهول . ولقد تقدمت من المائدة فى الواقع « متهللة » الأسارير ، كأنها تنتظر حادثاً

وشيكا ، متعجلة حدوثه نافدة الصبر مطمئنة النفس كطفل . وكان فى نظرتها ضياء يبهج القلب ، ضياء أحس به أليوشا واضحا قويا . وكان يشع منها شيء آخر لم يستطع أليوشا أن يستبينه جليا فى تلك اللحظة ، ولكنه أثر فيه تأثيرا لاشعوريا، أعنى تلك العذوبة وتلك الرقة فى حركات جسمها وفى ليونتها ورشاقتها الصامتة . ومع ذلك كانت قوية الجسم نامية الأعضاء . ان كتفيها العريضين يرتسمان تحت شالها ؛ ومن ينظر اليها يدرك أن لها صدراً كاعباً ما يزال صدر فتاة مراهقة . ان جسدها يَعد بأن يكتسب مع تقدمها فى النضج اتساق جسد فينوس ميلو ، رغم أن نِسبه مفرطة قليلا منذ الآن . على أنها لو رآها خبير فى جمال المرأة الروسية لتنبأ بأن هذه الرشاقة النضرة الربيعية فى جسدها ستضمحل فى نحو الثلاثين من عمرها ، وأنها ستثقل وستسمن ، وأن عضلات وجهها سترهل عندئذ ، وأن غضوناً ستظهر عند عينيها وعلى جبينها فى وقت مبكر ، وأن لونها سيحول ، وقد يصاب بداء الاحمرار ، أى ان جمالها، بايجاز ، جمال عارض ليس له غد ، كالجمال الذى يلاحَظ كثيرا لدى النساء الروسيات . ان أليوشا لم يسترسل فى أفكار من هذا النوع طبعا، ولكنه ، رغم افتتانه بالمرأة الشابة ، قد تساءل وهو يحس احساسا غامضا بنوع من النفور وبنوع من الأسف ، لماذا تجرُّ هذه المرأة كلامها جراً، ولا تطلق صوتها فى الحديث على سجيته طبيعياً بغير تكلف ؟ ان المرء ليشعر أنها تحسب الرشاقة والأناقة والجاذبية فى هذه الطريقة فى تلوين ألفاظها بنبرات الغناء وتحليتها بما يشبه السكر . والحق أن تلك عادة رديئة تدل على وضاعة أصلها وعلى الأفكار العامية التى تكونت فى ذهنها منذ طفولتها عن الآداب الاجتماعية . وقـد بدا لأليوشا أن هناك تناقضاً لا يكاد يُطاق بين هذا النطق المتصنع والتنغيم المفتعل وبين ما يظهر فى وجهها من تعبير عن الفرح البرىء والابتهاج الساذج وما يشع فى نظرتها

الوديعة وداعةً نظرة الطفل من سعادة هادئة عذبة . وقد قامت كاترين ايفانوفنا بتقبيل جروشنكا على شفتيها عدة مرات بحماسة وحرارة ، حتى لكأنها هائمة بها غراماً ...

قالت كاترين ايفانوفنا مخاطبة أليوشا بفرح وافتتان :

ـ اننا نلتقي اليوم لأول مرة يا ألكسى فيدوروفتش . كنت أتمنى أن أعرفها ، أن أراها ، وقد فكرت في أن أزورها ، ولكنها جاءتني من تلقاء نفسها منذ عرفت برغبتي . وكنت على ثقة سلفاً بأنني سأستطيع التفاهم معها على كل شيء ، تفاهماً تاماً . قلبي أدرك ذلك وحدثني به.. وقد حاولوا أن يصدوني عن القيام بهذا المسعى وأن يثنوني عن انفاذ هذه النية ، ولكنني كنت أتنبأ بالنتيجة الموفقة السعيدة ، فلم يخطىء ظني ولا خاب فألي . لقد شرحت لي جروشنكا كل شيء ، وأطلعتني على جميع ما عقدت النية عليه . جاءتني الى هنا تحمل اليَّ السلام والفرح ، كملاك طيب ...

قالت جروشنكا بصوت منغم متباطىء ، وهي تبتسم تلك الابتسامة الباشة السعيدة نفسها :

ـ الفضل لك يا آنستي العزيزة المحترمة ، فقد ارتضيت صحبتي ولم تحتقريها .

ـ كيف تستطيعين أن تقولي مثل هذه الأشياء ، أيتها الساحرة ! أأحتقر صحبتك أنت ؟ دعيني أقبل هذه الشفة السفلى مرة أخرى . لكأنها متورمة قليلا ، فلأزدها تورماً ! هذه قبلة ... هاتِ قبلةً أخرى ... وقبلة أخرى أيضا ... انظر اليها كيف تضحك يا ألكسى فيدوروفتش ! ان رؤية هذا الملاك تملأ القلب بهجة وفرحاً ....

احمر أليوشا وأخذ يرتعش ارتعاشاً خفيفا لا يُرى .



جروشنكا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ــ أنت تدللينني يا آنستي اللطيفة ، مع أنني قد لا أستحق ملاطفاتك ومداعباتك •

ــ أنت ؟ دعيك من هذا الكلام ! تدعي أنها لا تستحقها •

كذلك صاحت كاترين ايفانوفنا تقول من جديد بحرارة شديدة ، ثم أردفت :

ــ اعلم يا ألكسي فيدوروفتش أنها فتاة جامحة الخيـال ، متسلطة القلب ، ولكنهـا ذات كبرياء وكرامة . هي نبيـلة الروح يا ألكسي فيدوروفتش ، سامية النفس كريمة الطبع ، هل تعلم ذلك ؟ ولكنها كانت شقية عاثرة الحظ • لقد تعجلت فأرادت أن تضحي بكل شيء في سبيل رجل خسيس الطبع ، أو ربما طائش العقـل • كان ضابطا هو أيضا • أحبته ووهبت له كل شيء • حدث ذلك منذ زمن طـويل ، منذ خمس سنين • ثم هجرها ، ونسيها ، وتزوج • وقد توفيت امرأته فهـو الآن أرمل ، وقد كتب اليها يبلغها أنه آت اليها • اعلم يا ألكسي فيدوروفتش أن هذا هو الرجل الوحيد الذي أحبته فعلا وما تزال تحبه • وسيجيء وستعود الى جروشنكا سعادتها ، لأنها لم تزد على أن تتألم وتتعذب منذ خمس سنين • من ذا الذي يجرؤ أن يلومها ، من ذا الذي يستطيع أن يتباهى بأنه حظي منها بشيء ؟ هو ذلك العجوز وحده ــ التاجر ــ ولكنه كان لها أبا ، كان لها صديقا ، كان لها حارسا • وجدها فريسة اليأس ، قد هجرها الرجل الآخر ، الرجل الذي محضته ذلك الحب كله ••• وقد فكرت في أن ترمي بنفسها الى الماء ، هل تعلم ذلك ؟ فأنقذها ذلك العجوز ، أنقذها •

عادت جروشنكا تقول بصوتها المتباطيء :

ــ أنت تدافعين عني بحرارة فيها غلو يا آنستي العزيزة ، ولعلك في هذا تسرفين في التعجل •

ـ أأنا أدافع عنك ؟ هل علينا نحن أن ندافع عنك فى حقيقة الأمر؟ وكيف يمكن أن نجرؤ على ذلك أصلاً ؟ جروشنكا ، ملاكى ، هاتى يدك الصغيرة ! أنظر الى هذه اليد الجميلة يا ألكسى فيدوروفتش ، أنظر الى هذه اليد اللذيذة السمينة ! انظر اليها ! لقد حملت الىّ السعادة ، لقد ردتنى الى الحياة • سأقبلها ، هذه اليد الصغيرة ، وجهاً وقفا •• هكذا ، وهكذا ، ومرة أخرى ! •••

قبلت كاترين ايفانوفنا يد جروشنكا ثلاث مرات فعلا ، وهى فى حالة تشبه أن تكون نشوة ووجداً ••• قبلت تلك اليد اللذيذة حقاً ، وان تكن مسرفة فى السمنة • وكانت جروشنكا قد مدت اليها ذراعها ، وأخذت تلاحظ « الآنسة اللطيفة » ، مغتبطة اغتباطا واضحا بتقبيلها على هذا النحو • قال أليوشا لنفسه سراً : « لعلها تسرف فى الحماسة » ، واحمر وجهه • ان نوعاً من القلق كان يعتلج فى قلب أليوشا طوال ذلك الوقت •

قالت جروشنكا :

ـ لا تخجلينى يا آنستى اللطيفة بتقبيل يدى هذا التقبيل أمام ألكسى فيدوروفتش •

فأجابت كاترين ايفانوفنا مدهوشة بعض الدهشة :

ـ أأنا خطر ببالى أن أخجلك ؟ آه ••• يا عزيزتى انك تسيئين فهمى كثيراً !

ـ وأنت أيضا تسيئين فهمى فيما يخيّل الى يا آنستى اللطيفة • أنا قد أكون أخبث كثيرا مما تقدرين • ان لى قلبا شريرا ذا نزوات • لقد اجتذبت دمترى فيدوروفتش الى منزلى لغاية واحدة هى أن أسخر منه وأستهزىء به •

ـ ما قيمة هذا ما دمت ستنقذينه الآن ؟ لقد قطعت على نفسك عهداً ••• ستردينه الى الصواب ••• ستقولين له انك تحبين رجلا آخر ، منذ زمن طويل ، وان هذا الرجل سيتزوجك الآن •

ـ آه •• كلا ••• أنا لم أقطع لك على نفسى هذا العهد • أنت قلت لى هذ االكلام كله ، أما أنا فلم أعد بشىء •

قالت كاترين ايفانوفنا فى لين ورفق وقد بدت فى وجهها صفرة خفيفة :

ـ أنا لم أفهم الأمر على هذا النحو ، وأحسب أنك وعدت •••

ـ كلا يا ملاكى ، كلا يا آنستى ، أنا لم أعدك بشىء البتة •

كذلك قالت جروشنكا بصوت متساوٍ هادىء ، وما تزال تبدو عليها هيئة السعادة والبراءة تلك • ثم أضافت تقول :

ـ فهأنت ذى ترين الآن ، يا آنستى المحترمة ، مدى ما يشتمل عليه سلوكى معك من خبث ونزوة • أنا أفعل ما يخطر ببالى ، أنا أفعل ما يبرق فى رأسى • قد أكون وعدتك بشىء منذ قليل ، ولكننى فى هذه اللحظة أقول لنفسى : « فماذا لو أعجبنى من جديد ميتيا هذا ؟ » ؛ ذلك أنه قد أعجبنى مرةً فى الماضى ، بل لقد أعجبنى طوال ساعة بكاملها ! وربما شعرت بأننى قادرة على أن أذهب اليه لأقول له : تعال اسكن فى منزلى نهائيا منذ الآن ••• هكذا أنا : متقلبة لا أستقر على حال •••

قالت كاترين ايفانوفنا بصوت ضعيف واهن :

ـ كنتِ منذ لحظات تتكلمين ••• بطريقة أخرى مختلفة كل الاختلاف •••

ـ منذ لحظات ؟ ربما ••• ولكن لى قلباً حنوناً غبياً ••• فحين

أتصور كل ما قاساه من آلام بسببي .. ثم ماذا لو أخذتني به شفقة على حين فجأة منذ أن أرجع الى الدار ؟ ما عسى يحدث عندئذ ؟

ــ لم أكن أتوقع أن ...

ــ أوه .. آنستي العزيزة ! فما أطيبك وما أنبلك اذن بالقياس الي ؟ لا شك أنك ستكفين عن حبي الآن ، أنا الحمقاء الغبية ، بسبب سوء طبعي . هاتي يدك الصغيرة أنت أيضا ، أيتها الملاك (قالت لها ذلك راجية ضارعة بصوت رقيق ناعم، ثم أمسكت يدها بنوع من الحماسة والحرارة). لقد قبلتني ثلاث مرات فيجب علي أن أقبلك ألف مرة لأرد اليك دينك علي . ولندع الأمور على ما هي عليه الآن ، ولنسلم أمرنا الى الله ! من يدري ؟ قد أنتهي الى الخضوع لارادتك خضوعا أعمى ، فأفعل كل ما تأمرينني به . لندع الأمور تجري على مشيئة الله ! فلا نقطع على أنفسنا عهودا ، ولا نقيد أنفسنا بوعود ! ما أجمل يدك ! أوه ما أجملها يداً فاتنةً أخاذةً ! آنستي اللطيفة ، انك جميلة جمالاً لا يتصوره الخيال ..

قالت جروشنكا ذلك ورفعت يد كاترين ايفانوفنا الى شفتيها ، على تلك النية الغريبة حقاً ، وهي أن « ترد اليها دينها عليها » . لم تعارض كاترين ايفانوفنا . كانت قد أصغت الى الوعد الذي وعدتها به جروشنكا ، وهو أنها قد تخضع لارادتها خضوعا أعمى ، أقول كانت قد أصغت الى ذلك الوعد مؤمِّلة خجلى ، رغم أن الوعد قد قيل على نحو خاص. وهي تحدق الآن الى عينيها اللتين ماتزالان تعبِّران عن تلك البراءة نفسها ، وعن تلك الثقة نفسها ، وعن تلك السعادة المشعة نفسها ... وحدثت كاترين ايفانوفنا نفسها قائلة بسرعة : « لعلها ساذجة مسرفة في السذاجة » ، وعاد الأمل يشرق في قلب كاترين ايفانوفنا . وفي أثناء ذلك الوقت كانت جروشنكا التي تبدو نشوى أمام « اليد الصغيرة اللذيذة » ، ترفع هذه اليد الى فمها على هون وبطء . ولكنها بعد أن

وضعتها على شفتيها ، لبثت بضــع لحظات لا تقبّلهــا ، وكأنها تفكر في شيء ما ، ثم قالت فجأة وهي تجر كلماتها بطيئة وتسكب فيها أرق التثنيات وأطرى الترجحات العذبة :

ـ هل تعلمـــين يا ملاكي ؟ لقـد قررت فجأة أن لا أقبّـل يدك الصغيرة .

ثم انطلقت تضحك ضحكة خفيفة مرحة .

قالت لها كاترين ايفانوفنا وهي ترتعش :

ـ كما تشائين ... ولكن ماذا بك ؟

ـ لا شيء . عيشي بعد اليوم مع ذكرى تقبيلك يدي ورفضي تقبيل يدك !

ـ وقحة !

بهذا قذفتها كاترين ايفانوفنا كأنها أدركت شيئاً في هذه اللحظـة فقط .

لقد تخضب وجهها بحمرة شديدة حتى صار كالأرجوان ، ونهضت عن مكانها فجأة ، فنهضت جروشنكا أيضا ولكن بغير اسراع .

ـ بعد لحظة سأذكر لميتيا أنك قبلت يدي أما أنا فرفضت أن أفعل.

ـ شقية ! اخرجي من هنا !

ـ يا آنسة ؟ ألا تستحين أن تتكلمي على هــذا النحو ؟ ألا تعلمين أنه لا يليق بك أن تستعملي مثل هذه الألفاظ يا آنستي العزيزة ؟

زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ اخرجي من هنا أيتها المخلوقة التي تبيع نفسها بالمال .

ـ ها ها ! تبيع نفسها بالمال ؟ أنسيت اذن أنك حين كنت فتاة عذراء، كنت تذهبين في الظلام الى منازل شباب لتحصلي على مال ؟ أما ذهبت تبيعين جمالك ؟ ثقي انني على علم بهذا الأمر ! ...

صرخت كاترين ايفانوفنا صرخةً قوية ، وانقضت عليها ، ولكن ألكسي فيدوروفتش أمسكها بكل ما أوتي من قوة قائلا لها :

ـ اياك أن تقولي كلمة واحدة ! لا تجيبيها بشيء ، لاتنطقي بحرف، سوف تنصرف ، سوف تمضي فورا .

سمعت قريبتا كاترين ايفانوفنا صرختها ، فهرعتا الى الغرفة وتبعتهما الخادم ، وأحطن بها جميعا .

قالت جروشنكا وهي ترفع شالها عن الديوان :

ـ أنا ذاهبة ! أنا ذاهبة ! أليوشا ، حبيبي ، رافقني !

فقال لها أليوشا متوسلاً متضرعاً ضاماً يديه احداهما الى الأخرى:

ـ اذهبي ، اذهبي ، ناشدتك الله ...

ـ صغيري العزيز أليوشكا ، رافقني ! سأقول لك أثناء الطريق شيئا يسرك ، يسرك كثيرا ... من أجلك أنت يا ملاكي انما مثلت هـــذه المهزلة . رافقني ، يا طائري الصغير ، ولن تندم على أنك فعلت ...

تحول عنها أليوشا وهو يعقف يديه . وخرجت جروشنكا راكضة وهي تضحك ملء حلقها .

وأصيبت كاترين ايفانوفنا بعد انصراف جروشنكا بنوبة عصـــبية عنيفة ، فأخذت تبكي منتحبة ، وأخذت تخنقها تشنجات قوية. ومن حولها كان الجميع يتحركون ويضطربون .

قالت لها كبرى قريبتيها :

ـ لقد حذرتك •• أردت أن أمنعك من الاحترام على هذه الخطوة ••• أنت مسرفة في الاندفاع ••• كيف أمكنك أن تقررى القيام بهـذا المسعى ؟ كان ذلك طيشاً وجنونا ! أنت لا تعرفين أمثال هاته المخلوقات ، وهذه أخبثهن طرأ ، وأسوأهن كافة ، فيما يؤكد النـاس ! ••• انت مسرفة في التشبث برأيك والاصرار على انفاذ ارادتك ! قلت لك ذلك••

زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ انها نمرة ! لماذا صددتني عنها يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لقد أردت أن أضربها ، أن أضربها •••

أصبحت كاترين ايفانوفنا لا تسيطر على نفسها بحضور أليوشـا ، ولعلها لم تشأ أن تكبح جماحها وتملك زمام نفسها •

ـ انها لا تستحق الا الجلد بالسياط • يجب أن يجلدها جلاد على رءوس الأشهاد !

اتجه أليوشا نحو الباب •

وهتفت كاترين ايفانوفنا تقول فجأة :

ـ آه ••• يارب ! وهو ! هو أيضاً ! لم يخجل أن يكون حقيراً الى هذا الحد ، أن يكون بلا قلب ! لقد قصَّ على هذه المخلوقة ما جرى في ذلك اليوم المشئوم ، ذلك اليوم الملعون ، الملعون الى الأبد • « أما ذهبت تبيعين جمالك يا آنستي العزيزة ! » • هي تعلم اذن • ان أخاك وغد دنيء يا ألكسى فيدوروفتش !

ودَّ أليوشا لو يجيب ، ولكن الكلمات لم تسعفه • كان قلبه ينهصر ألماً •

ـ اذهب يا ألكسى فيدوروفتش ! اننى أشعر بالعار ، أشعر بالعـار شعورا رهيبا ! عُدْ غدا ... أضرع اليك جاثيـــة أن تجيئنى غـدا . لا تؤاخذنى ، لا تحقد علىّ ، سامحنى ، اغفر لى . أصبحت لا أعـرف ماذا أصنع بنفسى !

خرج أليوشا الى الشارع يمشى كالمترنح ترنحاً . كان يود لو يبكى مثلها . وأدركته الخادم راكضةً بضع خطوات فقالت له :

ـ نسيت الآنسة أن تودعك هذه الكلمة للسيدة هوخلاكوفا . لقد احتفظت بها الآنسة لك منذ الغداء من أجل أن تنقلها اليها .

تناول أليوشا الظرف الوردى الصغير ، ودسَّه فى جيبه دون أن يوليه انتباها .

١١

أخرى تعرض نفسها للضياع

بين المـــدينة والدير لا تزيد كثيرا على فرســـخ واحد • كان أليوشا يســـير بخطى سريعـة على الطريق الخالى فى تلك الساعة • لقد هبط الليل تقريبا ، فأصبح البصر لا يستبين الأشياء واضحة على بعد ثلاثين مترا • وفى منتصف الطريق كان على أليوشا أن يجتاز تقاطع دروب • فها هو ذا شبح يظهر تحت شـــجرة مزهرة عند ذلك التقاطع ، فما ان يصل أليوشا الى ذلك الموضع حتى يندفع الشبح هاجمـا عليه قائلا له بصوت صارخ مروِّع :

ـ مالك أو حياتك !

ارتعش أليوشا ارتعاشا قويا ، ثم قال مدهوشا :

ـ كيف ؟ أهذا أنت يا ميتيا ؟

قال مترى فيدوروفتش وهو يضحك :

ـ هأهأهأ ! لم تكن تتوقع هذا ، أليس كذلك ؟ لقد تساءلت أين عساى أستطيع أن أترقبك ؟ قرب منزلها ؟ ثم تذكرت أن هنـــاك ثلاث

طرق مختلفة يمكن أن تسلكها حين تخرج من عندها؟ وبذلك قد يفوتنى أن ألقاك • فقررت أخيرا أن أرابط هنا قائلاً لنفسى انك لا بد أن تمر بهذا المكان ، اذ ليس هناك طريق آخر يؤدى الى الدير • طيب ••• قل لى الحقيقة الآن ، إسحقنى كما تُسحق حشرة خبيثة . . ولكن ماذا بك ؟

ـ لا شيء يا أخى •• هو الخوف وحده • آه يا دمترى ، يادمترى! دم أبينا الذى سُفح منذ قليل •• (قال أليوشا ذلك وأخذ يبكى • كان يود لو يبكى منذ مدة طويلة ، وها هو ذا شيء ينفجر فى نفسه فى تلك اللحظة) ••• لقد أوشكتَ أن تقتله •• وقد لعنته •• ثم هأنت ذا الآن تمزح •• وتتفكه •• قائلا : مالك أو حياتك ! •

ـ آ •• هذا هو الأمر اذن ؟ لعل فعلتى لم تكن لائقة ؟ يخيَّل الى أن موقفى لا يتفق والظرف القائم ، أليس كذلك ؟

ـ لا •• ليس هذا ما أردت أن أقوله •

ـ لحظةً يا أخى • انظر من حولك • الظلام دامس ، أليس كذلك؟ والغيوم تغطى السماء ، والريح قد هبَّت ، وهى ريح متأوهة حزينة • لقد رابطت هنا ، تحت الشجرة ، لأنتظرك ••• فاذا أنا أقول لنفسى فجأة (هيه •• نعم ••) : « فيم التأجيل يا هذا ؟ ماذا تنتظر ؟ هذه شجرة •• ومعك منديل وعليك قميص •• فلا شيء أسهل من أن تصنع منهما حبلاً بلَّ القميص قليلاً ، ثم تكف عن ازعاج الآخرين ، ولا تدنِّس الأرض بعد ذلك بحقارة حياتك ودناءة وجودك ! » ، وفى تلك اللحظة بعينها ، فى تلك اللحظة التى خطرت لى فيها هـــذه الفكرة ، انما ســمعت وقع خطواتك على الطريق ! يا رب ! ومضت فى رأسى عندئذ فكرة تشبه أن تكون الهاماً مباغتاً ، قلت لنفسى : « هناك اذن انسان أحبه أنا أيضا • وهذا

هو ذلك الانسان ، هذا هو الانسان الذى أحبه ، هـــذا هو ، انه أخى الصغير الذى أعبده أكثر من أى شىء فى هذا العالم ، انه الانسان الوحيد الذى أحبه حقا ! »• وشعرت نحوك فى تلك اللحظة بحب يبلغ من القوة أننى وددت لو أرتمى عليك معانقا • غير أن فكرة غبية خطرت فى ذهنى عندئذ • قلت لنفسى : « سأخيفه قليلا لأسلّيه وأضحكه » • لذلك صرخت أقول كغبى : « مالك أو حياتك ! » فاغفر لى هذه المزاحة الحمقاء البلهاء، لقد فعلتها دون تفكير ••• أما عن حالتى النفسية فهى على ما يرام ••• تستطيع أن تصدقنى ! بئست هذه الأفكار كلها على كل حال ! الأحرى أن تقول لى أنت الآن : كيف جرت الأمور هناك ؟ ماذا قالت لك ؟ هيًّا اعدمنى ، هيا اسحقنى ، بلا مراعاة ولا مداراة ! هل غضبت ؟ هل طاش صوابها ؟

ـ لا •• ليس هذا هو الأمر •• كان هناك شىء آخر يا ميتيا ••• كان هناك .. لقد وجدتهما كلتيهما هناك ...

ـ كلتيهما ؟ من هما ؟

ـ كانت جروشنكا عند كاترين ايفانوفنا ..

جمد دمترى فيدوروفتش دهشةً وذهولا • ثم صرخ يقول :

ـ مستحيل ! لا شك أنك حلمت ! أجروشنكا عندها ؟

قصَّ أليوشا على أخيه كل ما جرى منذ وصوله الى منزل كاترين ايفانوفنا ، قصّه عليه تفصيــلاً • دامت روايته نحو عشر دقائق ، ولا نستطيع أن نقول هل كان حديثه واضحا وضوحاً تاما ، ومتسقا اتســاقا كاملاً • لكنه استطاع أن يذكر ، بدقة ، الوقائعَ الأساسية التى جرت ، والأقوال الهامة التى تبودلت ، والبوادر الحاسمة التى تمت ، مستعينا

على ايضاحها بمشاعره الخاصة التى وصفها وصفا حياً ، مركّزا فى بعض الأحيان على هذا الأمر أو ذاك من الأمور البارزة .

أصغى أخوه الى حديثه صامتاً وقد جمدت نظرته جمودا مرعبا . وشعر أليوشا ، منذ الكلمات الأولى التى قالها ، أن أخاه قد فهم كل شيء منذ الآن ، وأنه أدرك دلالة الحادث ادراكا صحيحا . كان تعبير وجهه، كلما أوغل أليوشا فى سرد القصة ، يزداد تجهماً وعبوساً ، حتى ليفصح عن معانى التهديد .. فحاجباه يقطبان ، وأسنانه تكز ، وجمود نظرته يتفاقم مزيدا من التفاقم ، ويصبح مخيفا مروّعا .. ولكن ما كان أشد دهشة أليوشا حين رأى وجه أخيه الذى كان حتى ذلك الحين متوحشا مفترسا مهدّدا ، يتغير على حين فجأة تغيراً عجيبا محيّراً . فقد انفرجت شفتاه بغتةً ، وانفجر يضحك مقهقهاً قهقهة عريضة لا تغالَب ولا تقاوَم، حتى أصبح جسمه يتلوى تلوياً من شدة الضحك ، وظل على هذه الحال مدة طويلة لايستطيع أن يتوقف عن القهقهة ولا يستطيع أن يقول كلمة. ثم صاح يقول بنوع من الحماسة المرضية التى كان يمكن أن تكون وقحة خالعة العذار لولا أنها عفوية منطلقة على سجيتها :

ـ اذن لم تقبّل يدها .. هأهأ .. رفضت أن تقبل يدها وانصرفت بكل بساطة .. هأهأ .. والأخرى زأرت تقول عنها انها نمرة ؟ حقاً انها لنمرة ! وقالت عنها كذلك انها تستحق أن تجلد على رءوس الأشهاد ؟ طبعاً .. أنا أيضا أرى هذا الرأى .. انها تستحق ذلك .. تستحقه منذ زمن طويل .. هأ هأ .. أنا لا أعارض أيها الأخ أن تُنزل فيها هذه العقوبة ، ولكن يجب أن أشفى أولاً . اننى أفهمها هذه الملكة من ملكات الوقاحة ! ان هذه الحركة منها تصوّرها أحسن تصوير ، وتصفها أصدق وصف . ان رفضها تقبيل اليد يعبّر عن حقيقتها ، انه هى بعينها ، هذه البنت الجهنمية ! انها ملكة جميع الأعمال الشيطانية التى يمكن أن تخرج

من جوف جهنم ! انها فى نوعها لا تضارَع ، انها فى نوعها مدهشة ! اذن لقد هربت وعادت الى منزلها .. هأهأ .. سأذهب اليها ، هه ؟ .. يجب أن أراها ! لا تُدنِّى يا أليوشا ! أنا أعلم حق العلم أن ذبحها قليل عليها ...

قال أليوشا فى حزن :

ـ وكاترين ايفانوفنا ؟

ـ اننى أتصورها هى أيضا ، أراها رؤية كاملة ، أنفذ الى نفسها كما لم أنفذ اليها قبل الآن فى يوم من الأيام ! اكتشفها اكتشاف القارات الأربع أو قل القارات الخمس ! ما هذه الفكرة التى راودتها ! أن تلقى جروشنكا ! ولكن هذه هى ، هذه هى بعينها ، هذه هى كاتنكا التى لم تهيب ، بعد خروجها من المدرسة الداخلية بزمن قصير ، لم تتهيب لرغبتها الكريمة فى انقاذ أبيها ، أن تذهب الى بيت ضابط فظ غليظ غبى، معرِّضة نفسها لأسوأ الأذى وأبشع الاهانة ! ولكن يا ليتلك الكبرياء التى تفيض بها نفسها ، يا لذلك الشمم الذى يملأ جوانب قلبها ، يا لهذا الميل الى المخاطرة والتحدى للقدر والثقة التى لا حدود لها ! قلت ان عمتها أرادت أن تمنعها ؟ هل تعلم أن عمتها هذه لا تقل عنها تشبثاً بالرأى وميلاً الى التسلط ؟ انها أخت جنرالة موسكو ولقد كانت فى الماضى تتخذ أوضاعاً فيها من الأبهة والعظمة أكثر مما فى الأوضاع التى تتخذها جنرالة موسكو من أبهة وعظمة ، ولكن زوجها اتهم بالاختلاس ، فأقيل من منصبه ، وفقد كل شىء ، حتى أراضيه ، فما لبثت زوجته المتكبرة أن خفضت جناحها ، وغيَّرت لهجتها . اذن لقد أرادت أن تمنع كاتيا من لقاء جروشنكا ، فرفضت كاتيا أن تتبع نصائحها ؟ « أستطيع أن أتغلب على كل عقبة ، لا شىء يمكن أن يصمد فى وجهى ، يكفى أن أشاء كى أسحر حتى

جروشنكا » • ذلك ما قالته كاترين ايفانوفنا لنفسها ، وآمنت به منذ نبتت الفكرة في ذهنها ! فمن المذنب في هـذه الحالة ؟ لعلك تظن أنها كانت البادئة في تقبيل يد جروشنكا ، عن عمد ومكر ، وبعد حساب وتفكير ! أبدا ••• لقد كانت صادقة كل الصـــدق في تولهها بحبهـــا ، لا بحب جروشنكا الحقيقية ، بل بحب حلمها هي بها ، بحب الوهم الذى قام فى ذهنها هي عنها ••• قل لى يا أليوشا : ماذا فعلت حتى استطعت أن تفلت من تلك النساء ؟ أحسب أنك هربت تركض ركضاً ، شامراً ثوب الكاهن الذى ترتديه ، هه ؟ هأهأهأ •••

ـ أخي ! أظن أنك لم تدرك ، بعد ، مدى الاساءة الكبيرة والاهانة الضخمة التى ألحقتها بكاترين ايفـــانوفنا حين حكيت لجروشـــنكا قصة زيارتها لك في ذلك اليوم المشئوم ! لقد صرخت هذه المرأة فى وجههـــا قائلةً في غلظة وفظاظة : « ذهبت سراً تبيعين جمالك لشباب ! » • ليس هنالك اهانة أخطر من هذه الاهانة ، ولا مسبة أكبر من هذه المســـبة يا أخي !

لقد كان يعذِّب أليوشا تعذيبا خاصا تصوره أن أخاه يبدو مغتبطاً لمذلة كاترين ايفـــانوفنا ، رغم أن هذا التصور كان خاطئـــا فى أغلب الظن !

ـ آه •••

كذلك تأوه دمترى فيدوروفتش فى تلك اللحظة وقد اكفهر وجهه اكفهرارا غريبا ، ولطم جبهته بيده •

لقد أدرك دمترى فيدوروفتش ، في تلك اللحظة فقط ، هـــذا الجانب من جوانب الموقف ، رغم أن أليوشا لم يفته أن ينقل اليه أثنـاء سرده لوقائع المشهد الذى حدث ، منذ بضع لحظات ، الأقوال المهينة التى

وجهتها جروشنكا الى كاترين ايفانوفنا ، والصرخة التى أطلقتها كاترين ايفانوفنا حين قالت تخاطب أليوشا « ان أخاك وغد حقير ... » .

قال دمترى :

ـ من الجائز فعلا أن أكون قد حدثت جروشنكا عن ذلك « اليوم المشئوم » ، على حد تعبير كاتيا ... صحيح ، لقد حدثتها عن ذلك ... تذكرت الآن .. وقع هذا أثناء تلك الرحلة الى موكرويه .. كنت ثملاً ... وكانت الغجريات تغنى ... ولكننى زويت القصة ضارعاً أمام صورة كاتيا ، وفهمتنى جروشنكا حق الفهم .. فهمتْ كل شيء ... أتذكر الآن هذا ... وأخذت تبكى هى نفسها .. شيطان يأخذ النساء ! كان ينبغى لى أن أتنبأ بهذا ... لقد بكت فى ذلك الحين ، ثم ها هى ذى الآن « تسل خنجراً تطعن به القلب » ! ... هكذا هنَّ النساء ! ...

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم خفض بصره ، وأخذ يفكر . وقال بعد هنيهة بصوت قاتم حزين :

ـ أنا وغد حقير .. هذا صحيح ... سيان أن أكون قد بكيت وأن لا أكون قد بكيت .. ليس لهذا من قيمة ! ليس ينفى بكائى أننى وغد حقير ! ... قل لهنَّ هناك اننى أقبل هذا النعت ، اذا كان فى ذلك تعزية لهن . وحسبنا الآن ما قلناه ! وداعا ! فيم المزيد من الثرثرة ؟ وليس هذا بالأمر السخيف .. ستسير أنت فى طريقك ، وأسير أنا فى طريقى .. لك سبيلك ولى سبيلى .. ثم اننى لا أريد أن أراك بعد الآن، اللهم الا أن يكون ذلك فى آخر نهاية ! أستودعك الله يا ألكسى !

صافح دمترى فيدوروفتش أخاه أليوشا بقوة ، ومضى يسير كأنه ينتزع نفسه فجأة من شيء ما ، مضى يسير غاضاً بصره ، دون أن يرفع رأسه . واتجه نحو المدينة بخطى سريعة . أتبعه اليوشا نظرة دون أن يستطيع أن يصدق أن أخاه مضى نهائيا .

ـ لحظةً يا ألكسي ! هناك اعتراف أخير ...

قال دمتري فيدوروفتش ذلك ، وقفل راجعا على حين فجأة . وتابع يقول :

ـ هو اعتراف لك وحدك ! انظر الى يا أخي ! أنعم النظر الىَّ! ان رجساً كريهاً يتهيأ هنا ، هل ترى أين ؟ هنا (قال دمتري كلمة «هنا» وهو يلطم صدره بقبضة يده وقد بدا في وجهه تعبير غريب ، كأن الرجس الذي يشير اليه انما يوجد مدفونا في هذا المكان بعينه ، مختبئاً في جيب السترة أو في كيس معلق بالعنق) . انك تعرفني الآن : أنا وغد ، وغد أصيل ، وغد مشهود له معترف به ! ألا فلتعلم مع ذلك أنه لا شيء مما فعلته في الماضي ومما قد أن أفعله في الحاضر والمستقبل ، يمكن أن يعادل في حقارته الدنيئة الوغدة ما أحمله في نفسي ، في هذه اللحظة ، هنا ، في هذا الموضع ، على صدري ، من رجس ينضج ويتخمر ويمكنني أن أكبته .. ذلك أنني حر أستطيع أن أحققه وأستطيع ان لا أحققه ، لاحظ هذا ... ولكن ألا فلتعلم انني سأحققه ، وانني لن أعدل عنه ! لقد حكيت لك كل شيء منذ بضع ساعات ، حكيت لك كل شيء الا هذا الامر وحده ، لأنني استحيت أن أعترف به ، نعم حتى أنا استحيت أن أعترف به ! ما يزال في وقتي متسع لأن أتراجع ، واذا أنا توقفت عن الانحدار في الهوة ، فسأستطيع منذ الغد أن أسترد نصف سعادتي الضائعة ، على الأقل ... ولكنني لن أتوقف عن الانحدار ! سأمضي في انفاذ خطتي السوداء حتى النهاية ، وأحب أن تكون شاهدا على قراري الذي اتخذته وأنا في كمال حريتي وتمام وعيي ! رعب وظلمات ! لن أشرح لك شيئا ، ستعرف كل شيء قريبا . زقاق عفن وامرأة جهنمية! وداعا . لا تصلِّ من أجلي ، لا تدعُ لي ... فأنا لا أستحق ذلك .. ثم

ان صلاتك من أجلي ودعاءك لى أمران نافلان لا حاجة بى اليهما ، أؤكد لك هذا . والآن ، انصرف ! ...

قال دمترى فيـــدوروفتش ذلك ، ومضى فى هـذه المرة نهائيا .
واستأنف أليوشا سيره فى الطريق الى الدير . « كيف هذا ؟ ألن أراه بعد اليوم قط ؟ ماذا يريد أن يقول ؟ » بهذا كان أليوشا يحدث نفسه دون أن يستطيع قبول هذه الفكرة . « دعك من كلامه ! سأذهب اليه غـدا ، وسأراه حتما ، سأذهب اليه خصـــيصا . كيف يمكنه أن يقـول كلاما كهذا ؟ » .

دار أليوشا حول الدير واجتاز غابة أشجار الصـــنوبر ليذهب الى الصومعة راسا . فتُح له الباب ، رغم أن القاعدة هى أن لا يـسمح لأحد بالدخول فى هذه الساعة المتأخرة . وانقبض صدر أليوشا حين دخـــل الحجرة . سأل نفسه : « لماذا ؟ لماذا ابتعدت ؟ لماذا أرسلنى الى العالم ؟ هنا مكانُ صمتٍ وقداسة ، أما هناك فيسود الاضطراب وتخيِّم الظلمات، هناك يتيه الانسان ويضل ، ثم يهوى آخر الأمر .. » .

وجد فى الحجرة الراهب المبتدىء بورفير ، والراهب الكاهن بائيسى الذى ظل طوال النهار يجيء ساعةً بعد ساعة يستطلع أخبار صحة الأب زوسيما . كانت حالة الأب زوسيما تتفاقم مزيدا من التفاقم ، كما عـرف أليوشا ذلك مروَّعاً مذعوراً . حتى لقد ارتُئى الاســتغناء عن الحديث الذى اعتاد الأب زوسيما أن يجريه فى المساء بغير انقطاع ولا تخلف مع رهبان الدير . لقد جرت العادة أن يجتمع الرهبان كل مساء ، بعــد القداس ، وقبل راحة الليل ، فى حجرة الشيخ ، فكان كل واحد منهم يعترف له جهارا بالخطايا التى ارتكبها أثناء النهار ، وبالخواطر الآثمـة التى ساورت ذهنه ، وبالأحلام المحظورة التى رآها ، وبالاغراءات المباغتة التى فاجأته ، وحتى بالمشاجرات الداخلية اذا كان قد حـدث شيء من

ذلك • وكان بعضهم يجثون على ركبهم ليعلنوا أخطاءهم • وكان الشيخ يصغى اليهم ، ويفصل فى أمورهم ، ويصالح بينهم ، ويصدر اوامره فيهم ، ويعرض عليهم كفارات ، ثم يبارحهم جميعا قبل أن يصرفهم فينفضوا عنه • وعلى هذه الطريقة فى الاعتراف انما كان يعترض خصوم طريقة المشايخ ، قائلين انها تبتذل هذا السر من الأسرار المقدسة ، أعنى الاعتراف الدينى ، وانها بدعة تفسد الدين وتدنس العقيدة ؟ وتلك تهمة باطلة فى واقع الأمر • حتى لقد حاول بعضهم أن يبرهن لسلطات الأسقفية أن هذا النوع من الاعتراف لا يقتصر شره على أنه لا يحقق الهدف الأخلاقى المنشود ، وانما هو يقود النفس الى الخطيئة والغواية أيضا • وقالوا فيما قالوا ان عددا كبيرا من الرهبان يكرهون أن يكشفوا عن أنفسهم للشيخ ، وانهم لا يذهبون اليه الا لأن الآخرين يفعلون ذلك، فهم يخشون أن يُتهموا بالتكبر والاستعلاء والتمرد اذا هم امتنعوا عن الذهاب الى الشيخ كسائر من عداهم • بل لقد حكى فيما حكى أن هناك رهباناً كانوا يتفقون فيما بينهم أحياناً قبل أن يذهبوا الى الاعتراف فى المساء ، على أن يمثلوا أدوارا معينة : « سأقول للشيخ اننى غضبت منك وتهجمت عليك ، فتؤكد أنت ذلك وتثبته » ، حتى يكون هنالك ما نقوله فنتخلص من هذه المهمة وننتهى من هذه السخرة • وكان أليوشا يعرف أن ذلك يحدث فعلا فى بعض الأحيان • وكان لا يجهل أيضا أن هناك رهبانا كانوا يستاءون استياء شديدا ويمتعضون امتعاضا قوياً من أن رسائل أقربائهم نفسها ، التى يحملها اليهم حجاج ، انما يستلمها الشيخ أولا فيفضها ويطلع عليها قبل أن يطلع عليها أصحابها • الحق أن الأصل فى هذا الأسلوب أنه يُتبع برضى الرهبان أنفسهم ، عن اندفاع روحى ، وخضوع نفسى ، واذعان ارادى ، تحقيقا لأهداف السلامة ، وغايات الخلاص • ومع ذلك كان الرهبان فى الواقع يرضخون لهذا الأمر فى

كثير من الأحيان ، كما برهنت التجربة على ذلك ، رضوخا لا يشتمل على كثير من الصدق ، ويسلّمون به تسليما فيه مذلة مصطنعة وخشوع مفتعل. على أن القدامى والحكماء من أفراد هذه الرهبنة كان لا يسوؤهم هـذا الأمر كثيراً ، فهم يرون أن « من دخل الدير نشدانا للخلاص والسلامة بنية صادقة فلا بد أن يجنى فائدة روحية وأخلاقية كبرى من مراعاة هذه القواعد او الكفارات المختلفة ، وأن التقيد بهذه القواعد والكفارات لا بد أن يعود عليهم بنفع عظيم على طريق الخلاص ؛ وأن أولئك الذين يشتكون من هذه الأمور ويرون فيها امتحانات لا فائدة منها ولا طائل تحتها ، ليسوا برهبان حقاً ، وما كان ينبغى لهم أن يدخلوا الدير ، لأن المكان الذى خلقوا له انما هو العالم ؛ وأن هؤلاء لا يمكن أن يفلتوا من الخطيئة ولا أن ينجوا من الشيطان لا فى العالم ولا فى الدير على السواء ، فلا مجال والحالة هذه للقول بأن هذا الاعتراف اليومى يمكن أن يحضّ على الخطيئة».

أسرّ الأب بائيسى الى أليوشا بعد أن باركه ، أسرّ اليه قائلاً بصوت خافت :

ـ انه ضعيف جدا قد سيطر عليه الوسن فيصعب ايقاظه ؛ والأولى أن لا يوقظ على كل حال . لقد فتح عينيه خمس دقائق ، ورجانا أن نبلغ الرهبان بركته وأن نطلب منهم أن يصلّوا فى الليل من أجله . وفى نيته أن يتناول القربان المقدس غدا مرة أخرى . وقد تذكرك يا ألكسى ، وأراد أن يعرف هل ذهبت ، فأجبناه بأنك مضيت الى المدينة ، فقال : « لقد باركته من أجل أن يمضى الى المدينة ، فهناك مكانه الآن لا هنا » . ذلك ما قاله عنك . وكان يتكلم عنك بمحبة واضحة ، وكان ظاهرا أنه مهتم بمصيرك اهتماما كبيرا . فهل تدرك هذا الشرف الذى تناله من اهتمامه بك هذا الاهتمام ؟ ولكنى أتساءل لماذا أمرك أن تعيش

فى العالم زمناً • أتراه تنبأ بشىء عن قدرك ؟ اعلم مع ذلك يا ألكسى أن عليك ، اذا أنت عدت الى العالم ، أن تتصرف فيه بروح الخضوع للقاعدة التى ألزمك بها شيخك ، متحاشيا الأفكار الطائشة والمباهج المبتذلة •••

وخرج الأب بائيسى • فأما أن الشيخ بسبيل الانطفاء ، فذلك أمر أصبح أليوشا لا يشك فيه ، ولكن الشيخ يمكن أن يعيش يوما آخر أو يومين آخرين • لذلك قرر أليوشا ، بصلابة وحرارة وحماسة ، أن لا يبارح الدير فى الغد رغم الوعود التى قطعها على نفسه بالذهاب الى أبيه ، وبالذهاب الى السيدتين هوخلاكوفكا ، الأم وابنتها ، وبالذهاب الى كاترين ايفانوفنا ، وكذلك رغم القرار الذى اتخذه هو نفسه بالذهاب الى أخيه دمترى • فلن يترك الدير ، وانما يظل قرب شيخه حتى موته • وامتلأ قلبه بحب قوى للشيخ ، ولام نفسه لوماً مراً على أنه أثناء زيارته للمدينة قد نسى ، ولو لحظة واحدة ، ذلك الانسان الذى تركه فى الدير بين يدى الموت ، والذى يحترمه أكثر مما يحترم أى انسان فى هذا العالم • ودخل أليوشا غرفة نوم الشيخ ، فجثا على ركبتيه ، وسجد امام الشيخ النائم • كان الشيخ يرقد ساجيا بلا حركة ، وكان تنفسه الضعيف جدا يجرى مطردا منتظما ، رغم أنه لا يكاد يدرك • وكان وجهه ساكنا هادئا •

فلما عاد أليوشا الى الغرفة الأخرى ــ وهى الغرفة التى استقبل فيها الشيخ ضيوفه صباحا ــ اضطجع ، دون أن ينضو عنه ملابسه ، وبعد أن خلع حذاءيه وحدهما ، اضطجع على الديوان الصغير الضيق الصلب ، المنجد بالجلد ، الذى اعتاد منذ زمن طويل أن ينام عليه كل ليلة • كان أليوشا يكتفى بأن يضع تحت رأسه وسادة ، مستغنياً منذ مدة طويلة عن وضع الفراش الذى كلمه أبوه عنه • وكان يكتفى بأن يخلع عنه ثوب الراهب ليتخذ منه غطاء يلتحفه •

ومع ذلك جثا أليوشا على ركبتيه قبل أن ينام ، ولبث يصلى زمناً طويلا . لم يدعُ الله فى صلاته الحارة أن يخلصه من قلقه وأن ينقذه من مخاوفه ، لأن ظمأه الوحيد هو أن يظفر بمشاعر الحنان السعيد الذى عرفه من قبل والذى كان يغزو نفسه دائما بعد تلاوة الآيات التى تمجد الله ... فتلك هى صلاة الليل كلها ... ان الفرح الذى يغمر قلبه فى تلك اللحظات كان يكفل له نوماً هادئاً مريحا .

وانه ليصلى فى ذلك المساء اذا هو يحس فجأة بوجود ذلك الظرف الصغير الوردى الذى أعطته اياه خادم كاترين ايفانوفنا حين أدركه فى الشارع . فاضطرب أليوشا ، ولكنه أكمل صلاته ، حتى اذا فرغ منها ، فض الظرف بعد لحظات من تردد ، ونظر الى ذيل الرسالة فاذا هو يقرأ توقيع « ليزا » ، بنت السيدة هوخلاكوفا ، الصبية الصغيرة التى سخرت منه ذلك السخر كله فى الصباح بحضور الشيخ . وأخذ أليوشا يقرأ رسالتها اليه :

« ألكسى فيدوروفتش ! أكتب اليك خفيةً ، على غير علم أمى ، وذلك شر ، أنا أعرف ذلك . ولكن أصبح يستحيل علىّ أن أعيش دون أن أبوح لك بما يعتلج فى قلبى ، ودون أن أطلعك على العاطفة التى وُلدت فيه والتى يجب أن يجهلها جميع الناس الآن ، الا نحن الاثنين. ولكن كيف أتدبر الأمر لأقول لك ما أتحرق شوقاً الى قوله ؟ يقال ان الورق لا يمكن أن يحمر خجلا وحياء ... ولكننى أؤكد لك أن هذا القول خطأ ، لأن الورق يحمرُّ الآن أمامى مثلما أحمرُّ أنا ! عزيزى أليوشا ، اننى أحبك ، أحبك منذ طفولتى ، منذ سنى موسكو التى كنت فيها مختلفا عنك الآن اختلافا كبيرا . لقد أحببتك منذ ذلك الحين مدى العمر . اختارك قلبى لأشاطرك الحياة كلها ، ولنختم أيامنا معا فى الشيخوخة ... شريطة أن تترك الدير طبعا ... أما عن السن ، فان

في وسعنا أن ننتظر المدة التي يقتضيها القـــانون • والى أن يحين ذلك الأوان أكون أنا قد شفيت من مرضى شفاء كاملا ، فأستطيع أن أمشي وأن أرقص كما كنت أمشي وأرقص ••• ذلك أمر لا ريب فيه •

« هأنت ذا ترى أنني فكرت في كل شيء • ومع ذلك هناك نقطـة عجزت عن أن أستجمع فيهـــا شتات فكرى : ما عسى أن يكون حكمك عليّ ورأيك فيّ بعد أن تقرأ هذه الرسالة ؟ أنا صبية « شيطانة » ، أكثر من الضحك عادةً ، حتى لقد أغضبتك في هذا الصباح • ولكنني أحلف لك أنني صليت منذ قليل أمام أيقونة العذراء المقدسة قبل أن أقرر الكتابة اليك ؛ وانني لأصلّي حتى هذه الدقيقة ، وأوشك أن أبكي !

« هذا سرّي وضعته بين يديك • واني لأتساءل كيف سأستطيع أن أنظر اليك غدا حين تجيء ؟ أوه ! ألكسى فيـــدوروفتش ! ما عسى يحدث اذا أنا لم أملك أن أســـيطر على نفسي فاذا أنا الحمقاء أنفجر ضاحكةً مقهقهة حين أراك ، كما حدث لي هذا من قبل ! لسوف تظنني عندئذ فتـــاة خبيثة ساخرة ، ولن تصـــدق عندئذ ما عبَّرت لك عنه في رسالتي • لذلك أضرع اليك ، يا صديقي العزيز ، اذا كنت ترحمني بعض الرحمة وتشفق عليّ بعض الشفقة ، أن لا تنظر الى عينيّ كثيرا حين تجيء الينا غداً ؛ ذلك أنني قد يتملكني ضحك لا سبيل الى مغالبته متى التقى نظري بنظرك ، ولا سيما بسبب هـــذا الثوب الطويل الذي ترتديه ! ••• حتى في هذه اللحظة ، أشعر برعدة تسري في جســـمي حين أتصور أن من الممكن أن يحـــدث شيء من ذلك • أستحلفك أن لا تنظر اليّ البتة ، خلال مدة من الوقت ، حين تجيء الينا غدا ، وانمـــا تلتفت بنظرك نحو أمي أو نحو النافذة •

« هأناذا كتبت اليك رسالة حب • رباه ، ما هذا الذي فعلته ؟ آه

يا أليوشا ، لا تحتقرني ! اذا كان ما أفعله شرا كبيرا واذا كنت أحدث لك ضيقا وألماً فاغفر لي ! واعلم على كل حال أن سري الذي قد يضيّع سمعتي ـ وربما الى الأبد ـ هو الآن بين يديك .

« سأبكي في هذا اليوم حتماً . والى اللقاء ، بانتظار المقابلة «المرعبة» في الغد .

« ليزا »
حاشية : أليوشا ، يجب أن تأتي قطعاً ، قطعاً ، قطعاً !
« ليزا »

قرأ أليوشا الرسالة مدهوشا ، وأعاد قراءتها مرتين ، ثم فكّر قليلا، فاذا هو يضحك فجأة بغير صوت ، شاعراً بسعادة ، ثم اذا هو يرتعد بعد ذلك حين تصور أن هذا الضحك قد يكون اثماً . ولكنه عاد يضحك ضحكا هادئا بعد لحظة ، وقد غمرته تلك الهناءة الهادئة نفسها . وطوى الرسالة ببطء ، وأعادها الى الظرف ، ورسم على نفسه اشارة الصليب ، ورقد ... زال من نفسه كل اضطراب بما يشبه السحر . « اللهم اشملهم برحمتك ، اشمل برحمتك جميع أولئك الذين لقيتهم في هذا النهار ، لأنهم أشقياء ، لأن العاصفة تهمهم في نفوسهم . اللهم احرسهم وسدّد خطاهم ! أنت سيد المصائر ، وان لك طرقاً لا نعرفها : فانقذهم يا رب بطرقك . ارسل اليهم السعادة ، لأنك أنت المحبة . » .

بهذا تمتم أليوشا وهو يرسم اشارة الصليب ، ثم نام نوماً هادئاً .

الجزء الثاني

الباب السابع: التمزقات

١

الأب تيرابونت

استيقظ أليوشا فى ساعة مبكرة قبل أن يطلع الصباح . وكان الشيخ قد صحا فلا يستطيع النوم ، وكان يشعر بوهن شديد وضعف هائل ، ولكنه أصرّ مع ذلك على أن يبارح سريره وأن يجلس على مقعد . انه كامل الوعى ، وان وجهه يبدو مضيئا حتى لكأنه فرح ، رغم آثار التعب الشديد الظاهرة فيه . وان نظرته مرحة باشة هاشة مشجعة .

قال الشيخ لأليوشا :

ـ قد لا أعيش الى آخر هذا اليوم .

ثم أعرب عن رغبته فى أن يعترف وأن يتناول القربان المقدس . وكان الأب بائيسى هو الذى يقوم له بدور الكاهن فى اعترافه . فبعد أن أتم الشيخ التناول بنوعيه ، استعد للقيام « بالمسحة الأخيرة » . فاجتمع الرهبان الكهنة فى حجرته التى أخذت تمتلىء بالنساك شيئاً بعد شىء . وكان النهار قد طلع حين أخذ الرهبان الذين يعيشون فى الدير يتوافدون هم أيضا . وبعد القداس أظهر الشيخ نيته فى توديع الجميع ، فأخذ يقبل كل واحد . واذ كانت الحجرة ضيقة فقد كان الواصلون الأول يخلون المكان للواصلين بعدهم . ولبث أليوشا الى جانب الشيخ زوسيما

الذى كان قد جلس على مقعده • فكان الشيخ يتكلم ويعلم بقدر ما كانت تسمح له قواه ، وكان صوته ، رغم ما أصابه من ضعف شديد ، ما يزال قاطع اللهجة صارم النبرة •

ـ انقضت سنين كثيرة وأنا أعلمكم حقائق الدين • انقضت سنين كثيرة وأنا أتكلم اذن بصوت عال ! وقد بلغت من شدة التعود على مخاطبتكم وعلى البحث عن الحقيقة معكم حين أتحدث اليكم ، أيها الآباء والاخوة الاعزة ، أنني أصبحت لا أستطيع الاستغناء عن هذا الامر ولو أردت ، وأن الكلام أصبح أسهل عليّ من الصمت فى هذه اللحظة رغم ضعفى (كذلك قال مازحاً ، وهو يُجيل على الرهبان والزوار الذين يزدحمون حوله نظرة ودوداً حنونا) •

تذكر اليوشا فيما بعد بعض الأفكار التى عبر عنها الشيخ فى ذلك اليوم • ورغم ان الشيخ قد تكلم كلاما واضحا متميزا ، ورغم أن صوته ظل صلبا صلابة كافية ، فان أقواله لم يكن فيها تسلسل كثير • لقد عالج مسائل كثيرة ، كأنه يريد أن يقول كل ما كان يزخر به قلبه ، وأن يفصح مرة أخيرة ، وهو على مقربة من الموت ، عن أعمق خطرات نفسه ، عن تلك الخطرات التى لا يتوصل المرء أثناء حياته أن ينقلها الى الناس نقلا كاملا • وكان لا يفعل ذلك بنية تعليم الآخرين بقدر ما كان يفعله مدفوعا اليه بظمأ حار الى اشراك الجميع فى الفرحة والحماسة اللتين كانتا تملآن نفسه ، والى نشر حبه فى العالم مرة أخيرة •••

كان الشيخ يعلّم قائلا :

ـ أحبوا بعضكم بعضا • أحبوا جميع أبناء الرب • لا تظنوا أنكم أقدس من العلمانيين لأنكم اخترتم أن تعيشوا فى الدير ، ولأنكم مسجونون داخل جدرانه • بالعكس : ان كل واحد من الذين جاءوا الى

هنا قد أحس واعترف هو نفسه ، من مجرد اعتكافه فى الدير ، بأنه كان شراً من الانسان العادى وأسوأ من جميع أولئك الذين بقوا فى الجهة الأخرى من الحاجز ... هذه الحقيقة يجب على كل راهب أن يتشربها تشربا ما ينفك يزداد عمقا كلما طالت حياته فى الدير . فلولا أن الامر كان كذلك ، لما كان ثمة أى سبب يبعث على الالتجاء الى الدير والاعتصام به . يجب على الراهب أن يدرك أنه ليس أسوأ من العلمانيين فحسب ، بل أنه كذلك مذنب فى حق جميع البشر الآخرين ، مسئول عن كل الشر الذى يقع على الأرض بفعل الأفراد أو بفعل الجماعات . فبهـذا الشرط وحده انما يتحقق الهدف من اعتزالنا فى الدير . اعلمو أيها الاخوة الأعزة أن كلا منا يتحمل مسئولية مظالم هـذا العالم لا بسبب الخطيئة الأصلية المشتركة وحدها ، فهذه المسئولية ليست مسئولية جزئية، بل هى مسئولية تامة كاملة ، مسئولية عن جميع ذنوب المجتمع وعن جميع أخطاء أفراده . ان الشعور بهذه الحقيقة هو الذى يتوج الحياة الرهبانية، كما يتوّج من جهة أخرى حياة كل انسان أياً كان . ذلك أن الرهبان لا يختلفون عن سائر البشر ، كل ما هنالك أنهم يحاولون أن يصيروا الى ما ينبغى لكل الناس أن يصيروا اليه . فاذا تحقق هذا الهدف انفتحت قلوبنا أخيرا للحب اللانهائى ، الشامل ، الذى لا يعـرف الحدود ولا يرتوى ظمؤه قط . وعندئذ سوف يجد كل منكم فى نفسه القدرة على غزو العالم كله بالحب ، وعلى أن يكفّر بدموعه عن خطايا الأرض ... ألا فلتصغوا جميعا الى صوت قلوبكم ، ألا فلتعترفوا جميعـا بأخطائكم لأنفسكم فى غـير مهادنة . لا تخشـوا خطاياكم وان تكن واضحة لأبصاركم ، شريطة أن تندموا على ارتكابها وأن تتوبوا عنها ! ولكن اياكم و « التسويات » مع الرب ، وحاذروا أن تفرضوا عليه شروطا ! واياكم والعجب والزهو والصلف ، قبل كل شىء وفوق كل شىء ! لا تتعالوا على

الصغار ، ولا تتعالوا كذلك على الكبار ! لا تكرهوا أولئك الذين ينبذونكم ويصدونكم ويهينونكم ويهاجمونكم ويغتابونكم . ولا تكرهوا الملحدين، الانبياء الكاذبين ، الماديين ، لا تكرهوا حتى اسوا هؤلاء واخبثهم ، ناهيكم عن اخيارهم ، لان بينهم أخيارا ، في عصرنا هذا خاصه . اذكروهم في صلواتكم على النحو التالى : « انقذ جميع الناس يا رب ! انقذ جميع الذين لا يصلى لهم احد ، واولئك الذين لا يريدون ان يصلوا لك ! » . ولكن عليكم ان تبادروا فتضيفوا الى ذلك فـــورا : « اللهم انى لا أسألك هذا زهوا بنفسى ، فاننى شر الناس طرا واشقاهم قاطبة » . احبوا أبناء الرب، احبوا الشعب ، لا تسمحوا للغرباء أن يسلبوكم القطيع . فاذا استسلمتم للكسل ، وسيطر عليكم وهم الاكتفاء والتفوق ، أو اذا انسقتم الى حب الرخاء والخيرات المادية (وذلك أسوأ وأنكى) ، فان رجالا من جميع البلاد سيظهرون عندئذ ليسلبوكم قطيعكم . بشروا بالاناجيل فى صفوف الشعب بغير كلال ولا ملال ... اياكم والطمع ، اياكم والتعلق بالذهب او الفضة ... ازهدوا في امتـــلاك الذهب والفضة ... آمنـوا بالله ، وارفعوا راية العقيدة بيد قوية صلبة ، ارفعوها عالية ، عالية ...

كان الشيخ يقول كلاما فيه من التقطع والتفكك أكثر مما يظهـر منهما هنا فيما دونه بعد ذلك أليوشا . كان يتوقف عن الكلام من حين الى حين ، كأنما ليستجمع قواه ، وكان يلهث لهاثا واضحا ، ولكنه كان يشعر بنوع من الحماسة . وكان الحشد يصغى اليه في حميا وخشوع، رغم أن أقواله بدت غريبة لبعضهم ، غامضة لبعضهم الآخر ... وقـد تذكر المستمعون هذه المعانى التى عبر عنها الشيخ ، تذكروها فيما بعد .

وقد تغيب أليوشا عن الحجرة لحظات ، فما كان أشد دهشته حين عاد فلاحظ اضطرابا شديدا قد استولى على جميع من كانوا فى الحجرة ومن كانوا يحتشدون ويزدحمون وراء الباب ! كان جميع الرهبان فى

حالة انتظار شديد وتوقع عنيف يمازجه قلق لدى بعضهم ، ويصطبغ بجلال وأبهة لدى بعضهم الآخر . كان يبدو عليهم جميعا أنهم يرتقبون حدوث معجزة خارقة بعد موت الشيخ فورا . قد تدل هذه الحالة النفسية على شيء من خفة وطيش ، ولكنها غزت قلوب جميع الرهبان ، حتى أكثرهم هدوءا وأشدهم صرامة . وكان وجه الكاهن الراهب بائيسى يعبر عن خطورة خاصة .

لقد غاب اليوشا عن الحجرة لحظة لان راكيتين الذى عاد من المدينة حاملا اليه من السيدة هوخلاكوفا رساله غريبه بعض الغرابه ، قد أرسل اليه احد الرهبان يستدعيه خفية . ان هذه الرساله تبلغ اليوشا حادثا غريبا جاء وقوعه الان فى أنسب وقت . يتذكر القارىء أن بين نساء الشعب المؤمنات اللواتى جئن امس الى الشيخ ليحيينه وليتلقين بركته كانت هنالك امراة عجوز قصيرة من بلدتنا اسمها بروخوروفنا وهى أرملة صف ضابط . ان هذه المراة قد سالت الشيخ هل فى وسعها ان تطلب اقامة صلوات فى الكنيسة على روح ابنها فاسيا الذى سافر بمهمة الى منطقة نائية من سيبريا تقع فى جهة ايركوتسك ، ثم لم تصلها أنباؤه منذ سنة ، سألت هل فى وسعها أن تطلب اقامة صلوات على روحه كما لو كان قد مات ؟ ويتذكر القارىء أن الشيخ قد نهاها عن هذا نهياً قاسياً ، ووصف اللجوء الى مثل هذه الأسباب بأنه شعوذة وسحر . ولكنه غفر لها بعد ذلك بسبب جهلها ، وختم كلامه لها من باب المواساة قائلا لها « كأنه قد وُهبت له القدرة على القراءة فى كتاب المستقبل » (هذه هى العبارة التى استعملتها السيدة هوخلاكوفا فى رسالتها) ، قائلا لها ان ابنها فاسيا مايزال على قيد الحياة حتما ، وانه عائد اليها قريبا ، أو انه سيكتب اليها على كل حال ، وان عليها أن ترجع الى بيتها مطمئنة تنتظر أوبته . « فما الذى حدث ؟ » (هذا ما جاء فى رسالة السيدة هوخلاكوفا) « حدث أن النبوءة

قد تحققت كاملة ، بل أكثر من ذلك ! » . فان المرأة العجوز ما ان رجعت أمس الى مسكنها حتى أُعطيت رسالة وصلت من سيبريا أثناء غيبتها ، وفى هذه الرسالة التى كتبها اليها فاسيا فى طريق عودته ، من ايكاتيرنبورج*، يبلغ الولد أمه أنه عائد الى روسيا بصحبة موظف ، وأنه « يأمل أن يستطيع تقبيل أمه » بعد ثلاثة أسابيع فى أكثر تقدير .

ان السيدة هوخلاكوفا ترجو أليوشا ملحه ان ينقل الى علم كبير الرهبان وسائر أهل الدير نبأ هذه « المعجزة الجديدة من معجزات النبوءة » ، وتقول له هاتفة فى ختام رسالتها : « يجب أن يعلم جميعهم هذا النبأ ، يجب أن يعلمه جميعهم حتما ... » . وكان واضحا أنها قد كتبت هذه الاسطر متعجلة تعجلا شديدا ، وكان واضحا أن كل كلمة من كلماتها تزخر بانفعال قوى وتأثر عميق . غير أن أليوشا لم يحتج الى ابلاغ الرهبان النبأ ، لأنهم كانوا قد اطلعوا عليه ، لأن راكيتين ، حين كلف أحد الرهبان باستدعاء اليوشا اليه ، قد رجاه فى هذه المناسبة نفسها أن « يبلغ الأب المحترم بائيسى ، بكثير من الاحترام ، أنه يود لو يراه حالا ليكلمه فى أمر هام جدا يرى أن من واجبه أن يطلعه عليه فى غير ابطاء ، بسبب ما تتصف به الظروف الراهنة من خطورة خاصة ، آملاً فى كثير من المذلة والتواضع أن تُغتفر له هذه الجرأة». ولما كان الراهب قد نقل هذه الرسالة الى الأب بائيسى قبل أن يستدعى أليوشا ، فانه لم يبق على أليوشا بعد عودته الى الحجرة الا أن يقرأ الرسالة وأن يُظهر عليها الأب بائيسى من باب الأدب وتقيداً بالشكل . أخذ هذا الرجل الصارم الريّاب يقرأ الرسالة مقطبا حاجبيه ، فلم يملك هو أيضا حين اطلع على رواية هذه المعجزة أن يمسك عن اظهار بعض العواطف التى هزت نفسه ، فاذا نظرته تسطع ، واذا شفتاه تلينان قليلا ، واذا فمه يبتسم

ابتسامة رزينة عميقة ، واذا لسانه تُفلت منه هذه العبارة على غير ارادة منه :

ـ سنرى معجزات أخرى كثيرة .

فردد الرهبان الذين كانوا يحيطون به ، ردّدوا يقولون :

ـ سنرى معجزات أخرى كثيرة .

ولكن الأب بائيسى قطب حاجبيه من جديد ، ورجاهم أن يمتنعوا ، الآن على الأقل ، عن التعليق على هذا الحادث جهارا ، وأن لا ينقلوه الى أحد قبل الأوان :

ـ يحسن أن ننتظر معرفة تفاصيل أخرى أشد اقناعا، لأن العلمانيين كثيرا ما يظهرون خفة وطيشا في هذه الأمور .

ثم أضاف يقول بحذر كأنما ليهدىء ضميره :

ـ ثم ان الحوادث ، فى هـــذه الحالة التى أمامنا ، قـد يمكن أن تُفسَّر كذلك تفسيرا لا شأن له بما هو فوق الطبيعة ...

قال الأب بائيسى ذلك ، ولكن هذا التحفظ لم ينقص من حماسته شيئاً ، وذلك ما أدركه الحضور ادراكا قويا واضحا .

وسرعان ما انتقل نبأ « المعجزة » من فمٍ الى فم ، فما هى الا برهه قصيرة حتى عرفه جميع سكان الدير ، وحتى عـــرفه كذلك كثير من الزائرين الذين جاءوا الى الدير لحضور الطقوس . وكان أشـــد الناس انبهارا فى الظاهر انما هو راهب « سان سيلفستر » ذاك القصـــير الذى وصل أمس من دير أوبدورسك بشمال سيبريا . كان بالأمس قد انتظر الشيخ واقفا الى جانب السيدة هوخلاكوفا ، فبعد أن حيَّا الشيخ سأله ،

بمناسبة « شفاء » ابنة تلك السيدة ، « ما هى القوة التى تتيح له تحقيق مثل هذه الأمور ؟ » .

فهذا الراهب يشعر الآن بحيرة شديدة وتشوش كبير، فهو لا يعرف ماذا يجب أن يصدق وبماذا يجب أن يؤمن . ذلك انه فى مساء أمس قد زار واحدا من رهبان الدير هو الاب تيرابونت ، فى الحجرة الخاصة التى يسكنها وراء خلايا النحل ، وقد تأثر تأثرا عميقا بالحديث الذى جرى بينه وبينه ، حتى لقد شعر من هذا الحديث برعب ، وساوره منه جزع. والاب تيرابونت انما هو بعينه ذلك الراهب العجوز المنزوى الذى اشتهر بصيامه عن الطعام والكلام ، والذى كان يعدُّ ، كما سبق أن ذكرنا ذلك من قبل ، خصما للشيخ زوسيما ، وكان يحارب نظام المشايخ خاصة ، ويرى فيه بدعةً طائشة ضارة . وانه لخصم خطر جدا رغم أنه لا يكاد يكلم أحدا من الناس ، تقيداً بقاعدة الصمت التى كان يحب أن يلزم بها نفسه . وكان يبدو مخيفا بوجه خاص لأن رهبانا كثيرين كانوا يشاطرونه آراءه مشاطرة تامة ، ولأن بين الزوار العلمانيين أناساً كانوا يرون فيه رجلا صالحا مقدسا ، رغم تسليمهم بأنه رجل محدود الفكر بسيط العقل . ولكن بساطة العقل هذه هى بعينها عنصر الجاذبية فيه . كان الأب تيرابونت لا يذهب الى الشيخ زوسيما قط . ورغم أنه عاش فى المنسك ، فما من أحد كان يماحكه كثيرا فى أمر مراعاة القواعد المتبعة فى الدير لأن تصرفه فى هذه النقطة أيضا كان تصرف رجل بسيط العقل . انه فى الخامسة والسبعين من عمره أو تزيد ، وهو يعيش وراء خلايا النحل ، عند زاوية الجدار ، فى حجرة قديمة جدا مبنية من خشب تشبه أن تكون أطلالاً متداعية منذ الآن ، وقد بنيت هذه الحجرة خلال القرن الماضى فيما يقال ، لراهب آخر اشتهر هو أيضا بكفارات الصيام عن الطعام والكلام : ذلك هو الأب جوناس الذى عمَّر مائة سنة،

وعُرف بأعمال قداسة ما يزال الناس فى الدير وفى المنطقـــة المجاورة يذكرون عنها تفاصيل شائقة • وقد اســـتطاع الأب تيرابونت أن يظفر أخيرا ، منذ سبع سنين ، بسكنى هذه الحجرة المنزوية التى تكاد تكون خِربةً بسيطة والتى فيها شَبَهٌ غامض بمعبد، لكثرة عدد أيقونات النذور التى تملؤها ولكثرة عدد مصابيح النذور أيضا التى تشتعل فيها أمام الصور المقدسة بغير انقطاع • وقد كُلِّف الأب تيرابونت نوعا من التكليف بأن يتولى صيانة هذه المصابيح الصغيرة وأشعالها • وكان طعامه ، كما يقـال (وهذا صحيح) لا يزيد على كيلو واحد من الخبز فى أكثر تقــدير يحمله اليه كل ثلاثة أيام ، الراهبُ الذى يتعهد خـلايا النحل ويسكن غيرَ بعيد عن ذلك المكان أيضا • فكان الأب تيرابونت ، حتى مع هــذا الراهب الذى يخدمه ، لا يتحدث الا نادرا جدا • وهو لا يأكل طوال الأسبوع ، الا هذين الكيلوين من الخبز ، اضافةً الى لقم القربان المقدس التى كان كبير الرهبان يرسلها الى هذا الراهب الناسك بعد الصلاة الثانية• وكانت جرة الماء التى يشرب منها تُملأ له كل يوم • وكان الأب تيرابونت لا يكاد يحضر القداس أبدا • وقد لاحظ زواره والمعجبون به أنه كثيرا ما كان يقضى أياما بكاملها فى الصلاة جاثيا على ركبتيه طول الوقت لاينظر حوله يمنة ولا يسرة • فاذا اتفق له فى مناسبة من المناسبات أن يكلمهم، كان كلامه لهم موجزا مقتضبا غريبا ، حتى ليكاد يكون فظاً غليظاً فى جميع الأحيان • صحيح أنه كان يحدث ، فى القليل النـــادر ، أن يندفع فى مناقشات أطول ، ولكنه كان فى أكثر الأحيان يكتفى باطلاق جملة عجيبة يكون وقعها فى نفس زائره وقع لغز محيِّر ، ثم يرفض أن يعقِّب عليها بأى شرح رغم جميع التوسلات • ولم يكن الأب تيرابونت فى رتبـة كاهن ، وانما ظل راهبا بسيطا • وقد راجت عنه فى بعض الأوســاط ، وهى الأوساط الجاهلة التى تؤمن بالخرافات والحق يقال ، راجت عنـه

شائعة غريبة مفادها أن الأب تيرابونت على اتصال بالأرواح السماوية ، فهو لا يتحدث الا مع تلك الأرواح ، وهو لهذا السبب يكره أن يكون على صلة بالبشر الفانين •

استطاع راهب أوبدورسك القصير أن يهتدى الى الطريق المفضى الى حجرة الأب تيرابونت ، متبعا اشارات الراهب الذى يتعهد خلايا النحل ، وهو راهب صموت متجهم أيضا ، فاتجه نحو ركن الحائط الذى توجد عنده حجرة الناسك • وقد قال له الراهب الذى يتعهد خلايا النحل :

ـ ربما رضى أن يخاطبك ببضع كلمات ، لأنك راهب حاج ، ولكن قد لا تستطيع مع ذلك أن تنتزع منه كلمة واحدة •

اقترب الراهب الحاج من حجرة الناسك وهو يشعر برعب شديد، كما روى ذلك هو نفسه فيما بعد • وكان ذلك فى ساعة متأخرة • ان الأب تيرابونت جالس فى هذه المرة أمام باب مسكنه على دكة واطئة جدا وفوقه يُسمع حفيف أغصان شجرة دردار كبيرة ، والهواء قد أنعشته طراوة المساء •

سجد راهب أوبدورسك أمام الناسك المقدس ، وطلب اليه أن يباركه • فقال له الأب تيرابونت :

ـ أتراك تريد أيها الراهب أن أسجد أنا أيضا على الارض أمامك؟ هيا انهض •

نهض الراهب الصغير •

ـ ألا فلتحل عليك البركة • اجلس بجانبى • من أين أنت ؟

دُهش راهب أوبدورسك خاصة من أن الأب تيرابونت ، رغم أنه

طاعن في السن ، ورغم الصيام القاسى الذى يفرضه على نفسه ، ما يزال صحيح البنية قوى الجسم ، وهو فارع الطول منتصب القامة ، له وجل نحيل لكنه نضر سليم . ان المرء يشعر أنه ما يزال محتفظا بقوة بدنية عظيمة . ولقد كانت بنيته بنية رجل رياضى على كل حال . ثم انه على تقدمه فى العمر لم يشب تماما ، وما يزال شعر رأسه ولحيته ، الذى كان فى الماضى فاحم السواد ، ما يزال غزيرا كثيفا . وعيناه الشهباوان كبيرتان ساطعتان ، ولكنهما جاحظتان كثيرا ، وتلك سمة تخطف البصر رأساً . وهو يتكلم مشددا حرف « الواو » تشديداً قويا . أما لباسه فعباءة طويلة حمراء من ذلك القماش الذى كان يسمى فى الماضى « جوخ السجناء » مع حبل طويل يتخذه حزاما . والعنق والصدر عاريان . وتحت الثوب يرى قميص من نسيج مبتذل يكاد يبدو أسود اللون لأن الاب تيرابونت لا يبدله خلال شهور . وكان يقال انه يثقل جسمه بسلاسل تزن ثلاثين رطلاً . وقدماه بلا جوربين ، وانما هو ينتعل حذاءين عتيقين قد تشوه شكلهما كل التشوه .

ـ أنا آت من دير سان سيلفستر الصغير فى أوبدورسك .

كذلك قال الزائر مجيبا بلهجة ذليلة وهو ينظر الى الناسك بعينيه الصغيرتين الحادتين الغريبتين اللتين ما تزالان مروّعتين قليلا .

ـ أنا أعرف صاحبك سان سيلفستر . لقد عشت عنده زمنا . كيف حاله ؟ كيف صحته ؟

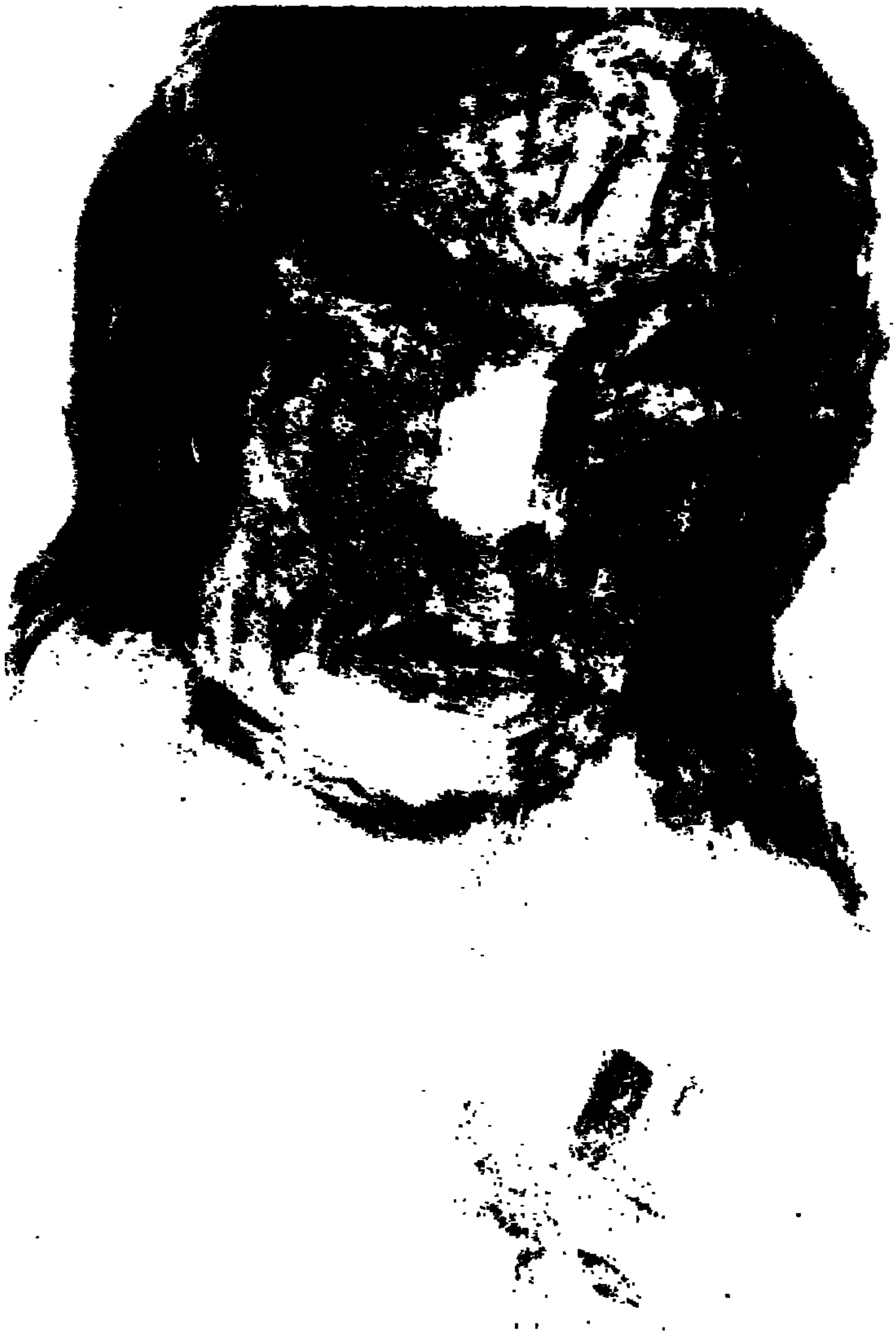
اضطرب الراهب الصغير .

ـ يا لكم من رجال حمقى مجانين ! كيف تصومون هناك ؟

ـ طعامنا تحكمه القاعدة الرهبانية القديمة : ففى أثناء الصيام الكبير لا نطعم شيئا فى أيام الاثنين والأربعاء والجمعة . وفى أيام الثلاثاء

والخميس يأكل الرهبان خبزاً أبيض وفاكهة مسلوقة أو عسلاً ، وتوتاً برياً أو كرنباً مملحاً ، مع شيء من طحين الشوفان مخلوط بالماء • وفي أيام السبت نأكل كرنباً أبيض وشعيرية بالحمص وبرغلاً خشناً ، وذلك كله مطبوخ بالزيت • ويضاف الى الكرنب شيء من سمك مقدد وبرغل عادي في أيام الأحد • أما في الأسبوع المقدس فلا نأكل ، من صباح الاثنين الى مساء السبت ، أي خلال ستة أيام ، الا خبزا وماء وخضارا نيئة ــ وحتى هذا يجب أن نلتزم فيه حدود القصد والاعتدال • ذلك أنه اذا كان مباحا لنا أن نأكل في ذلك الأوان ، فيجب أن لا نفهم هذا بالمعنى الواسع ، ولا أن نفعله كل يوم • ففي يوم الجمعة من الأسبوع المقدس نصوم صوما كاملا ، وفي يوم السبت من هذا الاسبوع نمتنع عن الطعام حتى الساعة الثالثة ، ثم يُسمح لنا بعد هذه الساعة أن نصيب شيئاً من خبز وماء وأن نحتسي قدحا واحدا من النبيذ ؛ وفي يوم الخميس من الأسبوع المقدس يقدم الينا طعام مطبوخ بغير زيت ، وشيء من نبيذ ، وبعض المآكل الناشفة • ذلك أن مجمع الأساقفة الذي انعقد في لاوديسه قد أقر النظام التالي في أمر يوم الخميس من الأسبوع المقدس : « لا يحسن قطع الصيام في خميس آخر الأسبوع ، حتى لا يفسد بذلك الصيام كله » • ذلك هو صيامنا • وهو مع ذلك لا يعد شيئاً مذكورا بالقياس الى القاعدة التي فرضتها على نفسك يا أبانا المبجل (كذلك أضاف يقول الراهب الصغير الذي بدا أنه استرد شيئا من رباطة جأشه) ، لأنك لا تتغذى الا بخبز وماء طوال السنة ، حتى في يوم الفصح ، ولأن مقدار الخبز الذي نأكله في يومين يكفيك أنت أسبوعا كاملا • فمن واجب المرء أن يعجب أشد الاعجاب حقا بمثل هذا التقشف العظيم •

سأله الاب تيرابونت على حين فجأة بطريقته الخاصة في نطق بعض الأحرف ولا سيما حرف « الجيم » :



الأب تيرابونت

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ وفطر الغابات ؟

فكرر الراهب الصغير يقول دهشاً :

ـ فطر الغابات ؟

ـ طبعا ! أنا أستطيع أن أستغنى عن خبزهم ، فما بى اليه حاجة قط : أذهب الى الغابة اذا لزم ذلك ، فأتغذى فيها بالفطر والثمار . ولا كذلك الرهبان هنا ، فانهم لا يستطيعون الاستغناء عن الخبز ، فهم مشدودون الى الشيطان ، مرتبطون به . ان فى زماننا هذا كفرة كريهين يؤكدون أن الصيام لا حاجة اليه ولا ضرورة له . فتفكيرهم مشبع بالزهو والصلف والكبر قد تسللت اليه روح الشيطان وسكنته .

قال الراهب الصغير متنهدا :

ـ ما أصدق هذا الكلام !

ـ هل رأيت الجن حين كنت عندهم ؟

ـ عندهم ؟ عند من ؟

كذلك سأل الراهب الصغير على خجل ووجل واستحياء .

قال الاب تيرابونت :

ـ زرت كبير الرهبان فى عيد الخمسين من السنة الماضية ، ولكننى لم أعد اليه منذ ذلك الحين . لقد رأيت عندهم جناً ! رأيت جناً يتسلقون صدور الرهبان ، ورأيت جناً يختبئون تحت أثوابهم فما تظهر منهم الا قرونهم . حتى لقد رأيت واحدا من هؤلاء الجن يقبع فى جيب من الجيوب ، فما يظهر منه الا رأسه ، فلاحظت عينيه الحادتين المتحركتين . كان خائفا منى فيما يبدو . وبعض الرهبان يؤوون جناً فى بطونهم بين

أحشائهم النجسة • وبعضهم يحملونهم على رءوسهم حول الأعناق يتشبث بها الجن دون أن يلاحظهم الرهبان أنفسهم •

سأله الراهب الصغير :

ـ وهل ••• وُهبت لك القدرة على رؤيتهم ؟

ـ قلت لك اننى أراهم • ان نظـــرتى تخترقهم اختراقاً • حين خرجت من عند كبير الرهبان ، فاجأت واحـــدا منهم حاول أن يختبىء وراء الباب حين لمحنى • كان هذا طويل القامة ، يبلغ طوله مترا • وكان له ذيل ضخم أشقر ، طويل جدا ، قد انحشر فى شق الباب فى تلك اللحظة • ولم أكن غبياً فدفعت الباب بقوة فسحقت له ذيله ، فأطلق من صدره أنينا حادا ، فبينما كان يتخبط رسمت عليـــه اشارة الصليب ثلاث مرات ، فاذا هو يفطس كما يفطس عنكبوت ديس بالقدم ، وقد تفسخت جثته منذ ذلك الحين عند زاوية الباب ، فصار الهواء هنالك موبوءا ، ولكن هؤلاء الرهبان لا يرون شيئا ولا يشمون شيئا ! وقد انقضت سنة لم أعد خلالها الى ذلك المكان • انى أسرُّ اليك وحدك بهذا الامر ، لأنك غريب عن هذا الدير •

هتف الراهب الصغير يقول :

ـ رهيب ما تقوله !

ثم أضاف وقد ازدادت جرأته شيئا بعد شيء :

ـ وددت لو أعرف أيها الاب العظيم المحترم المبجَّل ، هل صحيحة تلك الشائعة المجيدة التى راجت حتى بلغت أبعد المناطق النائية ، وهى أنك على صلة مستمرة بالروح القدس ؟

ـ الروح القدس يأتى فيقف هنا أحيانا • ذلك يحدث •

ـ يقف هنا ؟ في أية صورة ؟

ـ في صورة طائر .

ـ الروح القدس يظهر لك في صورة حمامة ؟

ـ يجب أن لا تخلط بين الروح القدس وبين زوح القداسة . فأما روح القداسة فيمكن أن تتجلى في صور شتى ، فتارة تظهر في صورة سنونو ، وتارة تظهر في صورة حسُّون أو في صورة قرقب أيضا .

ـ فكيف تميزها عن قرقب عادي ؟

ـ أعرفها لأنها تتكلم .

ـ كيف هذا ؟ بأي لغة ؟

ـ بلغة الانسان .

ـ ماذا تقول لك ؟

ـ يختلف ما تقوله لي باختلاف الأحوال . ففي هذا الصباح مثلاً أبلغتني أن زائراً غبيا سيزورني وسيزعجني بأسئلة حمقاء . هل تعرف أيها الراهب أنك تسرف في الاستطلاع ؟

ـ أيها الأب المحترم جدا ، المقدس جدا ، ان هذا الذي تعلمني اياه يطيش اللب ويذهب بالصواب !

كذلك قال الراهب الصغير وهو يحرك رأسه . على أن شيئا يسيرا من عدم التصديق قد ظهر في عينيه اللتين عاد اليهما الروع والخوف .

سأله الأب تيرابونت بعد صمت قائلا :

ـ هل ترى هذه الشجرة ؟

ـ أراها يا أبي المحترم .

SS

ـ لا شك أنك تظنها شجرة دردار . أما أنا فأرى فيها شيئا آخر.

وانتظر الراهب الصغير بضع لحظـــات يرتقب أن يقول له الاب تيرابونت ماذا يرى فيها ، فلما لم يفعل الاب تيرابونت ذلك ، قـرر أن يسأله ، فقال :

ـ فماذا ترى فيها ؟

ـ يحدث لى هذا فى الظلام . هل ترى هذين الغصنين ؟ ان المسيح يظهر لى فى هذا الموضع حين يخيِّم الليل ، فيمد الىَّ ذراعيه ويبحث عني . انني أراه رؤية واضحة جلية ، فأرتعش عندئذ خوفا . ذلك شيء يبث الذعر فى النفس ، هل تعلم ؟

ـ لماذا الخوف ما دام هو المسيح ؟

ـ قد يقبض على ويرفعنى الى السماء .

ـ حياً ؟

ـ ألم تسمع اذن عن مار الياس ومجده ؟ سوف يحيطنى المســيح بذراعيه ويأخذنى ...

رغم أن راهب أوبدورسك الصغير قد شعر باضطراب شديد وحيرة كبيرة حين رجع بعد هذا الحديث الى الحجرة التى عُيِّنت له والتى كان عليه أن يشارك فيها أحدَ رهبان الدير مدة اقامته ، فقد كان فى قـــرارة قلبه يشعر بأن الاب تيرابونت قد اجتذبه أكثر كثيرا مما اجتذبه الشـيخ زوسيما . ان هذا الراهب الصغير ، وهو من الأنصار المتحمسـين للصيام الذى يحترمه أكثر مما يحترم سائر شعائر الرهبانية ، قـــد اعتقد أن صائما يملك من القوة ما يملكه الاب تيرابونت يمكن حقا أن يكون قد أوتى موهبة « رؤية المعجـــزة » . صحيح أن الأقوال التى قالهـا الأب

تيرابونت تبدو مفككة بعض التفكك ، ولكن الرب وحده قادر على أن يعرف ما لعلها تشتمل عليه من دلالة عميقة • ثم ان جميع البسطاء ، جميع «اليورودينويس» المأخوذين بالمسيح انما يعبرون عن أنفسهم بهذه اللغة، ويقولون كلاما أدعى الى الاستغراب أو يفعلون أفعالا أبعث على الدهشة• أما قصة الجنى الذى حشر ذيله الضخم فى شق الباب وسُحق ، فان الراهب الصغير لم يصعب عليه أن يسلم بها ، لا بالمعنى المجازى بل بالمعنى الحقيقى ، وكان يشعر أنه مستعد لتصديقها بكل نفسه ، وبفرح أيضا • ثم انه ، عدا ذلك ، كانت تراوده ، حتى قبل وصوله الى الدير ، شكوك كثيرة حول نظام المشايخ ، حتى لقد كان يشعر بعداوة لهذا النظام الذى لم يكن يعرفه الا عن طريق السماع على كل حال ، وكان يعده بعد أنظمة كثيرة أخرى بدعةً ضارة ضررا صريحا • وكان قد أتيح له أثناء اقامته القصيرة فى الدير أن يسمع دمدمات الاستنكار من بعض الرهبان ذوى العقول السطحية ، الذين كانوا ينتقدون هذا النظام • واذ كان بطبيعته امرءاً طلعة يعرف كيف يتسلل الى كل مكان ، فان النبأ الباهر الخارق عن آخر « معجزة » حققها الأب زوسيما قد هزَّ نفسه هزاً قوياً وبث فيها اضطرابا شديدا وحيرة قصوى • وقد تذكر أليوشا فيما بعد أنه لمح ، عدة مرات ، فى زحمة الرهبان المحتشدين قرب الشيخ أو فى جوار الحجرة ، أنه لمح هذا الراهب الصغير ينتقل من جماعة الى جماعة ، يصغى الى كل شيء ويسأل كل واحد • ولكن أليوشا لم يهتم بذلك فى حينه ، وانما تذكره فيما بعد ••• وهل كان يمكن الالتفات الى ذلك الراهب الصغير فى ذلك اليوم ؟

كان الأب زوسيما الذى خارت قواه من جديد ، قد انتقل الى سريره ، فلما أغمض عينيه تذكر أليوشا فجأة ، فطلب احضاره ، فهرع اليه أليوشا فورا • ولم يكن الى جانب الشيخ عندئذ الا الأب بائيسى ،

والراهب الكاهن جوزيف والراهب المبتدىء بروفير • فتح الشيخ عينيه المتعبتين بكثير من العناء ، وحدق الى أليوشا ، ثم بادر يقول له :

ـ هل ينتظرك ذووك يا بنى المحبوب ؟

فاضطرب أليوشا •

وعاد الشيخ يسأله :

ـ أليسوا فى حاجة الى حضورك ؟ هل وعدت أحدا بالعودة اليه اليوم ؟

ـ وعدت أبى ••• وأخوىّ ••• وآخرين أيضا •

ـ ذلك ما قدّرته • فاذهب اليهم حتماً • ولا تحزن • اعلم اننى لن أموت قبل أن أنطق آخر كلماتى على هذه الأرض بحضورك • اليك سأوجه آخر أقوالى يا بنى المحبوب ، اليك سأعهد بها ••• اليك أنت يا بنى لأنك تحبنى . امض الآن الى من ينتظرونك .

سارع أليوشا يطيع أمر الشيخ ، رغم أنه قد شق على نفسه أن ينصرف فى هذه اللحظة • ولكن الوعد الذى قطعه له الشيخ ، وهو أن يُسمعه آخر كلماته على هذه الأرض ، ولا سيما ما ذكره الشيخ من أنه سيوجه هذه الكلمات اليه هو ، وأنه سيعهد بها اليه على أنها وصيته الروحية ، قد ملأ نفس أليوشا نشوةً وسكراً • لذلك أغذّ خطاه حتى يستطيع أن يفرغ مما كان عليه أن ينجزه فى المدينة وأن يعود الى الدير بأقصى سرعة • وقد تحدث الأب بائيسى هو أيضا الى أليوشا عند انصرافه؟ وما قاله له الأب بائيسى عندئذ ليسدد خطاه فى طريقه ، قد أحدث فى نفسه أثراً عميقا لم يكن فى الحسبان • لقد قال له الأب بائيسى :

ـ تذكر أيها الفتى (بهذا انما بدأ الأب بائيسى كلامه دون أى

تمهيد) ، تذكر أن المعرفة العلمانية التى نمت نمواً كبيراً وأصبح لها سلطان عظيم ، قد هجمت ، فى خلال هـذا القرن خاصة ، على كل ما تركته لنا النصوص المقدسة من حقائق سماوية . فعلماء هذا العالم ، بعد أن قاموا بنقد حاقد لا يشفى غليله ، لم يحتفظوا بشىء ، لم يحتفظوا بشىء البتة مما كان يُعدُّ مقدساً فى القرون الماضية . لقد حللوا بكثير من التدقيق والامعان كل جزء من أجزاء التعليم الدينى على حدة ، ولكن فاتهم ادراك الدين فى مجموعه ، وبلغوا من ذلك أن المرء تذهله فيهم هذه العماوة حقا . ذلك أن «الحقيقة» انما هى فى «المجموع» ، فلن يستطيعوا أن ينالوا منها ، ولن يستطيعوا أن يمسوها بسوء ، وستظل باقية ثابتة خالدة كما كانت من قبل ، لا تقدر أبواب الجحيم أن تتقيأ شيئاً يؤذيها ، ولا تتمكن قوى الشر أن تغلبها وأن تنتصر عليها . ألم تعش هذه الحقيقة تسعة عشر قرنا ؟ ألا تزال تعيش اليوم فى أشواق جماهير الناس ؟ ألا انها لباقية ، هذه الحقيقة ، حتى فى قلب أولئك الملحدين الذين أرادوا أن يدمّروها . ذلك أن هـؤلاء أنفسهم الذين جحدوا المسيح وعصوه وتمردوا عليه ما يزالون يحتفظـون بصورته حيةً فى أنفسهم ، كما كانت فى الماضى ، شاءوا أم أبوا . ذلك أنه استحال عليهم فى الواقع ، رغم الرغبة القوية التى اضطرمت فى نفوسهم ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها عقلهم ، استحال عليهم أن يتصوروا مثلا أعلى ، أسمى وأجدر باعجاب الانسان من المثل الأعلى الذى قدمه الينا المسيح فى الزمان القديم . ان جميع المحاولات التى من هذا النوع لم تؤدِّ الى غير الحطة والغلطة . فاحفظ هذا جيدا أيها الفتى ما دام شيخك المحتضر قد أرسلك الى العالم . فلعلك حين تتذكر فى المستقبل هذا اليوم العظيم تفكر أيضا فى هذه الكلمات التى قلتها لك صادرة من أعماق قلبى لتضىء لك طريقك . ذلك لأنك شاب ، ولأن مغريات العالم قوية ذات سلطان ، ولن

تكفيك قواك وحدها للتغلب على هذه المغريات دائما • والآن امض أيها اليتيم •

وبعد أن قال الأب بائيسى هـــذا الكلام بارك أليوشا • وقد أدرك أليوشا فجأة ، وهو يبتعد عن الدير ويتدبر هذه الأقوال التى لم يكن يتوقعها ، أدرك فجأة أن هذا الراهب الذى كان الى ذلك الحين صـارماً تلك الصـرامة كلها قاسياً تلك القسوة كلها فى معاملته ، سيكون له بعد اليوم صديقا جديدا وموجّها روحيا يحمل له أعمـــق المودة والعطف ـ كأن الأب زوسيما هو الذى عهد اليه بهذه المهمة وهو يحتضر • قال أليوشا يحدث نفسه : « من يدرى ؟ لعلهما قد اتفقا على هذا ! » • ألا تدل هذه الشروح العليمة النقية التى سمعها من فم الأب بائيسى ، وهى شروح أدهشته فى أول الأمر وأثارت استغرابه ، ألا تدل أكثر مما يمكن أن يدل أى حديث آخر ، على أن الأب بائيسى يضمر له عاطفة صادقة حارة ؟ لقد أسرع الأب بائيسى يزوّد عقله بالأسلحة التى تسهل عليه مكافحة مغريات هذا العالم ، وأراد بغير ابطاء أن يحصّن نفسه الفتية المراهقـة التى عُهد اليه بها بأقوى الدروع الروحية الأخلاقية •

٢

في منزل الأب

ذهب أليوشا أولا الى منزل أبيه • فتذكر وهو يقترب من المنزل ان أباه قد ألح عليه كثيرا بالأمس أن يتدبر أمره بحيث يدخل دون أن يراه ايفان • فتساءل فجأة : « لماذا ؟ اذا كان أبى يريد أن يبوح لى بشىء من الأشياء سراً ، فهل هذا سبب كاف لأن أدخل المنزل دون أن يعلم أخى بذلك ؟ أحسب أن أبى قد أساء التعبير من شدة اضطرابه ، فلم يجد الكلمات المناسبة التى يفصح بها عن مراده • • » • هذا ما قاله لنفسه • ومع ذلك شعر بارتياح شديد ورضى عظيم حين فتحت له مارفا اجناتفنا الباب الحديدى (كان جريجورى قد مرض فلزم سريره فيما قالت مافرا) ، فعلم منها ، جوابا على سؤال ألقاه عليها ، أن ايفان فيدوروفتش قد خرج من المنزل منذ ساعتين •

ــ وباتيوشكا ؟

ــ نهض من فراشه ، وهو يحتسى الآن قهوته •

هكذا أجابته مارفا اجناتفنا بشىء من الجفاف والخشونة •

دخل أليوشا ، فوجد أباه وحيدا الى المائدة ، منتعلاً خفين ، مرتديا مبذلاً عتيقا • كان الأب بسبيل التدقيق فى بعض الحسابات تزجيةً

للوقت ، دون أن يبدو عليه أنه مهتم فعلا بهذا العمل الذى يقوم به • ولم يكن فى المنزل أحد غيره (كان سمردياكوف قد خرج هو أيضا لشراء بعض الأشياء من أجل اعداد طعام الغداء) • كان الأب يتصفح حساباته اذن ، ولكن فكره منصرف الى غير ذلك • وكان يبدو عليه التعب والوهن والضعف ، رغم أنه صحا فى ساعة مبكرة من الصباح وحاول أن يستجمع قواه وأن يسيطر على نفسه • وقد عقد على جبينه الذى ظهرت فيه بقع أرجوانية كبيرة أثناء الليل ، عقد عليه منديلاً أحمر • وكانت على أنفه الذى تورم كثيرا منذ البارحة ، كانت على أنفه بقع مماثلة ان لم تكن واسعة كثيرا فهى تضفى على وجهه تعبيراً عن غضب حانق خبيث • وكان العجوز يعرف هذا على كل حال ، فهذا هو يرشق أليوشا حين دخل ، بنظرة فيها عداوة • وصاح يقول له بلهجة قاطعة :

ــ القهوة باردة ، فلن أقدم لك منها شيئاً • وأنا نفسى ألتزم اليوم حميةً قاسية ، فلا أطعم الا حساءً بالسمك ولا أدعو الى مائدتى أحدا • لماذا رأيت أن عليك أن تجىء ؟

قال أليوشا :

ــ أردت أن أسأل عن صحتك •

ــ أعرف • ثم اننى أمرتك أنا نفسى بالأمس أن تزورنى • تلك كلها سخافات ! لقد أزعجت نفسك فى غير طائل • على أننى تنبأت بأنك ستسارع الى المجىء •••

قال الأب هذه العبارة الأخيرة بلهجة منفِّرة كريهة ، ونهض فى الوقت نفسه ليرى حالة أنفه فى المرآة وقد بدا فى وجهه الهم والقلق (لعله ينظر فى أنفه للمرة الأربعين منذ هذا الصباح) ؛ وفى هذه المناسبة

عدل المنديل الأحمر الذى يلف جبينه وجهد أن يعقده على آنق طريقه• وقال بلهجة متكلفة :

ـ لقد اخترت اللون الأحمر ، لأن الأبيض يذكر بالمستشفى • هيه ! ماذا وراءك من جديد ؟ ماذا يقص الناس ؟ كيف حال شيخك ؟

فأجابه أليوشا قائلاً :

ـ حاله سيئة جدا ، وقد يموت فى هذا النهار •

ولكن الأب لم يصغ الى جواب ابنه ، وكان قد نسى السؤال الذى ألقاه عليه •

قال العجوز بدون تمهيد :

ـ خرج ايفان • انه يهيىء جميع المكائد لينتزع من ميتكا* خطيبته•

ثم أضاف يقول بخبث وقد لوى شفتيه على ابتسامة مكشّرة :

ـ وذلك هو الهدف الوحيد الذى جاء من أجله الى هنا •

فسأله أليوشا :

ـ هل باح لك بهذا فعلاً ؟

ـ طبعا • قال لى ذلك منذ زمن طويل ؟ ماذا كنت تظن اذن ؟ اعترف لى بهذا منذ ثلاثة أسابيع • ما أحسب أنه جاء الى هنا ليذبحنى خفية هو أيضا • فلا بد أن يكون هنالك سبب يدفعه الى المكوث فى هذه المدينة •

سأله أليوشا مضطربا اضطرابا رهيبا :

ـ ولكن ما هذا الذى تقوله ؟ لماذا تتكلم هكذا ؟

ـ صحيح انه لم يطلب مني مالاً ، ولن أعطيه قرشاً واحدا على كل حال . انني أريد ، يا ألكسي فيدوروفتش المحترم جدا ، أن أعيش في هذا العالم أطول عمر ممكن ... ضع هذا في ذهنك ! ... لذلك سأكون في حاجة كبيرة الى كل كوبك مما أملك .

ثم أضاف وهو يسير في الغرفة طولاً وعرضا ، واضعا يديه في جيبي مبذله الفضفاض المتسخ المصنوع من نسيج صيفي خفيف أصفر اللون :

ـ وكلما طعنت في السن وتقدمت في الشيخوخة ازدادت حاجتي الى المال . أنا الآن ما أزال رجلا ، فعمري لا يزيد على خمسة وخمسين عاما ، وأريد أن أعيش عشرين سنة أخرى دون أن أتنازل عن رجولتي . واذ أنني سأشيخ طبعا ، فسأصبح منفراً ، فلا يأتين الي من تلقاء أنفسهن راضيات ، فيصبح المال عندئذ ضرورة لا بد منها و لاغنى عنها . لذلك تراني الآن أجمع أكبر مقدار ممكن من الثروة لنفسي وحدها يا بني العزيز ألكسي فيدوروفتش ... ضع هذا في بالك ... ذلك أنني أعزم عزماً قاطعا جازما ـ اعلم هذا أيضا ـ على أن أسترسل في خلاعتي الى آخر أيام عمري . ان الخلاعة تلطف الحياة : جميع الناس يعيبون الخلاعة ، ولكنهم جميعا يتعاطونها . كل ما هنالك أنهم يتعاطونها سراً على حين انني أتعاطاها علانية . ان صراحتي وسذاجتي هما اللتان تعرضاني لهجوم ونقد تلك العصبة الفاسقة من الواعظين بالأخلاق . أما جنتك يا ألكسي فيدوروفتش فانني لا أريدها لنفسي ... اعلم هذا ... ان الانسان اللائق ليس له في الجنة ما يعمله ، هذا اذا وجد انسان لائق ، وسيكون من غير الحشمة أن يذهب مثل هذا الانسان الى الجنة . وفي رأيي أنا أن المرء يموت فينتهي بموته كل شيء . ينام ثم لايستيقظ ، ولا شيء بعد الموت أبداً . صلوا من أجلي بعد موتي اذا شئتم ، وان لم

تشاءوا فلا تصلوا ••• شيطان يأخذكم ••• تلك هى فلسفتى كلهـــا • لقد تكلم ايفان بالأمس فأحسن الكلام ، رغم أننا كنا جميعا سكارى • ان ايفان انسان متبجح • ليس هو بالعالم قط • بل انه ليس على شىء من ثقافة حقيقية • انه لا يزيد على أن يسكت ، وأن يسخر من جميع الناس صامتا • ذلك كل ما يعرف أن يفعله ايفان هذا •

كان أليوشا يصغى الى أبيه دون أن يقول كلمة واحدة •

وتابع الأب كلامه قائلاً :

ـ لماذا لا يكلمنى أبدا من تلقاء نفسه ؟ انه اذا كلمنى كان يمثـل تمثيلا ! انه وغد حقير ، أخوك ايفان هذا ! أما جروشكا* فسأتزوجها متى حلا لى أن أتزوجها • ما دمت أملك المال ، فيكفى أن أريد حتى أبلغ كل شىء يا ألكسى فيدوروفتش ! وذلك بعينه هو ما يخشاه ايفان ! انه يعيش هنا ويراقبنى حتى لا أتزوج ، ويحض ميتيا فى سبيل تحقيق هذا الهدف على أن يتزوج جروشكا : هو يأمل أن يبعـدنى عن هـذه المرأة بهذه الوســيلة (كأنه يظن أننى ســأورثه مالا حتى ولو لم أتزوج جروشكا !) • ومن جهة أخرى سيسلب ميتيا خطيبته اذا تسنى لميتيا أن يتزوج جروشكا • ذلك هو الحساب الذى يجريه • انه وغد ، صاحبك ايفان هذا !

قال أليوشا :

ـ ما أشد اهتياجك اليوم ! ان مرد هذا الى ما حدث لك بالأمس• فالأفضل أن ترقد فى السرير •

أجاب الأب العجوز يقول وكأن هذه الفكرة قد ساورت ذهنه فى هذه اللحظة وحدها :

SS

ـ قد تكون على حق فيما تقول . انك الآن تنصحني فما أغضب. ولكن لو سمح ايفان لنفسه بأن يقول لي ما قلته أنت ، اذن لثارت ثائرتي. معك وحدك انما أتيح لي أن أقضي لحظات ممتعة مبهجة ، وأن أكون طيبا، لأنني شرير في العادة .

قال أليوشا مبتسما :

ـ ما أنت بشرير .

ـ اسمع يا أليوشا . لقد أردت اليوم أن أطلب اعتقال هذا اللص ميتكا ، ولا أدري حتى الآن هل أعزم أمري على ذلك أخيراء أنا لا أجهل أن « الموضة » الرائجة الآن هي أن يُعدّ احترام الأبناء آباءهم وهماً باطلاً وعادة سخيفة . ولكن القانون لا يجيز ، حتى في عصرنا هذا ، أن يجرّ ابن أباه العجوز من شعره ، وأن يركل وجهه بكعب حذائه ، في منزله نفسه ، وأن يتباهى كذلك أمام شهود بأنه سيعود ليجهز عليه فيما بعد . فلو شئت لرميته في السجن منذ هذا اليوم لما جرى بالأمس .

ـ وقد عدلت عن شكواه ، أليس كذلك ؟

ـ ثناني ايفان عن عزمي . على أنني لا أحفل برأي ايفان ، وانما خطر ببالي شيء آخر ...

قال الأب ذلك ثم مال على أليوشا وتابع كلامه بلهجة البوح وهو يكاد يهمس همساً :

ـ لو اعتقل هذا الوغد، لعلمتْ هي بأنني أودعته السجن ، فهرولت تسعى اليه فورا . أما اذا رُوي لها اليوم أن هذا اللص قد أوشك أن يقتلني أنا الشيخ العجوز ، فقد لا تهجره ولكنها ستعودني ... ذلك هو طبعها الذي فطرت عليه : تحب أن تفعل نقيض ما يُنتظر منها ، بدافع

حب المناقضة وحده ! اننى أعرفها حق معرفتها ! بالمناسبة ، هل لك بقليل من الكونياك ؟ اشرب هذه القهوة الباردة ، سأضيف اليها ربع قدح من الكونياك فيطيب مذاقها •

ـ لا ••• شكرا ••• لا أريد ••• ولكننى فى مقابل ذلك سآخذ هذا الرغيف من الخبز اذا سمحت بذلك •

قال أليوشا هذا وتناول رغيفا صغيرا من خبز أبيض ثمنه ثلاثة كوبكات ، ودسَّه فى جيب ثوبه • ثم أضاف يقول فى خشية وهو يتفرس فى وجه أبيه :

ـ أما الكونياك فلعلك تحسن صنعاً اذا عدلت عنه أنت أيضا •

قال الأب :

ـ أنت على حق • ان الكونياك يثيرنى بدلا من أن يهدئنى • لذلك لن أشرب الا كأسا واحدا ••• كأسا واحدا ••• الكونياك هناك ، فى الخزانة الصغيرة •••

وأدار مفتاح « الخزانة الصغيرة » ، فملأ كأساً ، وأفرغه فى جوفه، ثم أقفل الخزانة من جديد ، وردَّ المفتاح الى جيبه •

ـ يكفينى هذا • كأس واحدة لن تقتلنى •

قال أليوشا وهو يبتسم :

ـ ها قد عدت طيباً •

ـ طيب ؟ هِمْ ••• اعلم أننى أحبك أنت دون أن أشرب شيئاً من الكونياك ••• أما الأوغاد فاننى أعرف كيف يجب أن يُعامَلوا ! لم يذهب فانكا* الى تشرماشنيا ! لماذا ؟ لأنه يريد أن يبقى هنا ليتجسس علىَّ:

انه يحب أن يعرف هل سأعطى جروشنكا مالا كثيرا اذا هى جاءت • انهم أوغاد ! هم جميعا أوغاد ! أما ايفان فاننى لا أعترف به ابناً لى • من أين جاء ، هذا الوبش ؟ انه ليس مثلنا ، ان له نفساً غير نفوسنا ! أيظن أننى سأورثه شيئاً من مال ؟ ألا اننى لن أكتب حتى وصية ••• اعلم هذا ! ••• وأما ميتكا فلأسحقنه كما تُسحق خنفساء قذرة • انه يتفق لى أن أسحق خنفساوات فى الليل ، فتطقُ طقيقاً جافاً حين تفطس، فبهذه الطريقة سأسحقه ، صاحبك ميتكا هذا ••• واذا قلت « صاحبك » فلأنك تحبه ••• أنا أعرف ذلك • ولكن تعلقك به لا يقلقنى ••• على حين أنه لو أخذ ايفان يحبه لانتابنى خوف ، ولخشيت عندئذ على نفسى• غير أن ايفان لا يحب أحدا • انه ليس منا • ان أناسا مثل ايفان ليسوا بشراً مثلنا ، هم تراب أثارته الريح ••• تذهب الريح ويعود يتساقط التراب ••• لقد خطرت ببالى فكرة سخيفة أمس حين أمرتك بأن تجىء اليوم • أردت أن أكلفك بأن تسأل ميتكا : هل اذا أنا نقدته ألف روبل أو حتى ألفين ، هل يوافق هذا الشقى ، هذا الشحاذ ، هل يوافق عندئذ على أن يبارح هذه المدينة خمس سنين ، بل خمساً وثلاثين سنة ، بدون جروشنكا طبعا ، متنازلاً عنها الى الأبد ؟

تمتم أليوشا يقول :

ــ سوف •• سوف •• أسأله •• واذا زدت المبلغ فجعلته ثلاثة آلاف ، فمن الجائز أن •••

ــ خطأ ! لا تكلمه فى هذا الامر ! لا تقل له كلمة واحدة ، هل تسمع ؟ لقد غيّرت رأيى منذ الأمس • هى فكرة غبية خطرت ببالى • لن أعطيه شيئا ، لن أعطيه كوبكا واحدا ، لأننى فى حاجة الى هذا المال أنا نفسى (كذلك صرخ الأب العجوز وهو يحرك ذراعيه) • لسوف أعرف كيف أسحقه كما تُسحق خنفساء ، بدون هذا • لا تقصص عليه

شيئاً ، والا فقد تراوده آمال • ثم انه ليس ثمة ما تفعله عندى • فاذهب الآن ، امض الى ديرك • ولكن قل لى : هل تريد خطيبتُه ، هـل تريد كاترين ايفانوفنا تلك التى حرص أشد الحرص على أن يخفيها عنى ، هل تريد أن تتزوجه أم لا ؟ لقد ذهبت أنت اليها بالأمس ، فيما أظن ، أليس كذلك ؟

ـ انها لا تريد أن تتركه ، مهما يحدث !

ـ هؤلاء هم الرجال الذين تحبهم بنات الصالونات الرقيقات هاته ! انهن يحببن شبابا عابثين لاهين أوباشاً ! ثق أن هذه الآنسة الشاحبة الراقية لا تساوى شيئا • ما أكبر الفرق بينها وبين ••• الخلاصة ! آه لو كان لى عمره ووجهى أيامَ شبابى (لقد كنت أجمل منه فى صباى) •• اذن لكانت لى غزوات أنا أيضا •• ألا انه لشقى ! أما جروشنكا فلن ينالها ، لن يحظى بها •• لأمرغنَّه فى الوحل !••

استعر حنق العجوز من جديد وهو ينطق بهذه الكلمات • ثم قال بلهجة جافة خشنة :

ـ اذهب الآن • لا عمل لك اليوم هنا •

اقترب أليوشا من أبيه ليودعه ، وقبـــله فى كتفه • فســأله الأب دهشاً :

ـ لماذا هذه القبلة ؟ سوف نلتقى بعد الآن • أم تُراك تقدر أننا لن نلتقى قط !

ـ لم يخطر ببالى هذا • لقد قبلتك بغير نية ، وعلى غير قصد •

ـ ولا خطر ببالى أنا أيضا • وانما ألقيت عليك هذا السؤال سهواً وغفلة •

كذلك قال العجوز وهو ينظر الى أليوشا قلقاً • وفيما كان أليوشا يبتعد صرخ الأب يناديه :

ـ لحظة • انتظر لحظة ! تعال الىّ فى أقـــرب فرصة • سأذيقك ما أعده من حساء السمك ، هو حساء خاص ، لا كحساء اليوم ! تعـال حتماً ، هل فهمت ؟ تعال منذ الغد ، هل سمعت ؟ منذ الغد !

وحين أُغلق الباب وراء أليـــوشا ، اقترب العجوز من الخـزانة الصـغيرة مرة أخرى فأفرغ فى جـــوفه نصف كأسٍ دفعة واحدة • ثم دمدم يقول وهو يتنحنح :

ـ سأتوقف عن الشراب الآن •

ثم أقفل الخزانة ، وردّ المفتاح الى جيبه ، ومضى بعـــد ذلك الى غرفة نومه ، واضطجع على سريره وهو يشعر بأنه منهك مرهق• وسرعان ما نام •

٣

لقاء مع تلامذة

حدّث أليوشا نفسه قائلا حين خرج من عند أبيه متجهاً نحو منزل السيدة هوخلاكوفا : « الحمد لله على أنه لم يُلق عليّ أسئلةً عن جـــروشنكا ، فلو فعل لاضطررت أن أحدثه عن مقابلة الأمس »٠

وقد قدّر أليوشا ، وهو يشعر بكثير من الشجن ، أن الأهواء قد ازدادت استعارا أثناء الليل ، وأن الخصوم يستعدون للمواجهة والمجابهة بقوى غضة جديدة ، وأن الصبح قد طلع عليهم وهم أقسى قلباً وأعتى نفساً ٠ قال يحدث نفسه : « الأب حانق سيء المزاج خبيث النية وقد نبتت فى رأسه فكرة لن يتخلى عنها ٠٠٠ ودمترى ؟ لا شك أن كرهه قد اشتد رسوخا واصرارا منذ أمس ، وأن قلبه هـــو أيضا قد امتلأ حقدا ومقتا وغضبا ٠ ولا شك أنه أخذ يبيت أمرا ٠٠٠ أوه ! يجب عليّ حتما أن أستطيع رؤيته فى هذا اليوم ، يجب أن أراه اليوم مهما كلف الأمر » ٠

ولكن أليوشا لم يتسع وقته للتفكير طويلا ٠ فقد وقعت له أثنـاء الطريق حادثة قد لا يكون لها شيء من خطورة الشأن طبعا ، ولكنهـــا أحدثت فى نفسه أثرا قويا جدا ٠ كان قد اجتاز الميدان الى شارع ميشيل الذى يوازى « الشارع الكبير » ، ولكن تفصله عنه قناة صغيرة (ان مدينتنا تقطعها فى جميع الاتجاهات حفر وقنوات صغيرة) ؟ وانه ليسير فى هذا

الزقاق اذا هو يلمح تحت ، قرب الجسر الصغير ، عصبةً من التلاميذ هم جميعا أطفال تتراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة في أكثر تقدير . انهم عائدون من المدرسة ، يحملون على ظهورهم ذلك الكيس الصلب الذي يحمله التلاميذ ، ويحمل بعضهم على الجنب كيساً ليناً من جلد له سيور طويلة يضعونها فوق الكتف . بعضهم يرتدي دراعة ، وبعضهم يرتدي معطفا قصيرا ، وبعضهم ينتعل جزمة عالية على ساقيهما أخاديد ، من تلك الجزمات التي يحب انتعالها الاطفال الذين يدللهم آباؤهم الأغنياء . وكان الاطفال يتناقشون بحرارة ، وكان يبدو أنهم أجمعوا أمرهم على شيء . ان أليوشا لا يمكن أن لا يحفل يوما بمنظر الاطفال ، فكذلك كان شأنه أيضا في موسكو ؛ ولئن كان يؤثر الصغار الذين تحوم أعمارهم حول السنة الثالثة ، فان التلاميذ الذين هم في العاشرة أو الحادية عشرة يعجبونه كثيراً أيضاً . لذلك أحب فجأةً ، رغم الهموم التي كانت ترهق نفسه ، أن ينضم الى هؤلاء التلاميذ وأن يدخل معهم في حديث . فلما اقترب منهم متفرساً في وجوههم الملونة المنتعشة لاحظ ان كلاً منهم يحمل بيده حصاةً ، حتى أن بعضهم يحمل حصاتين اثنين . ورأى في الجهة الأخرى من القناة ، على مسافة ثلاثين خطوة من عصبة التلاميذ هذه تقريبا ، طفلا آخر واقفا قرب سياج من أوتاد . ان هذا الطفل تلميذ هو أيضا ، يحمل كيسه على الجنب ، وأغلب الظن أنه في العاشرة من عمره وربما كان أصغر من ذلك سناً ، كما يدل على هذا طول قامته . كان الصبي يراقب عصبة التلاميذ الستة الذين يقابلونه ، وكان واضحا أنه يعدهم أعداءه . انه يبدو شاحب الوجه عليل الصحة ، ولكن عينيه السوداوين تسطعان . تقدم أليوشا بضع خطوات أخرى ، فلما لمح صبيا أشقر مجعد الشعر متورد الوجه يرتدي دراعة سوداء ، نظر اليه بانتباه وقال له :

ـ أيامَ كنت أحمل أنا كيساً مثل كيسك ، كانت العادة أن نضعه في الجنب الأيسر ، حتى تناله اليـــد اليمنى بســهولة أكبر • أما أنتم فالكيس يتدلى عندكم على الجهة اليمنى ، فلا تستطيعون امساكه على وجه مريح •

وقد أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية* ، دون أن يعمد الى أية حيلة نفسية يتودد بها الى الطفل ويكسب ثقتـه • ومن المؤكد على كل حال أن خير وسيلة لكسب ثقة طفل من الاطفـال ، ولكسب ثقة عصبة من الاطفال خاصة ، هي أن تدخل في الحديث معهم على الوجه الذى عمد اليه أليوشا، أى أن تخاطبهم جادا في أمور محسوسة ملموسة جاعلا نفسك نداً لهم ، واقفاً على قدم المســـاواة معهم • وكان أليوشا يدرك ذلك بغريزته •

ـ ولكنه أعسر !

كذلك أسرع يجيب واحد من الصبية جرىء الهيئة قوى الجسم ظاهر الصحة يبدو في نحو الحادية عشرة من عمره •

وأخذ الصبية الخمسة الآخرون يحدّثون الى أليوشا •

وقال تلميذ ثالث :

ـ وهو يستعمل يده اليسرى أيضا في قذف الحجارة •

وفي تلك اللحظة نفسها سقط حجر على عصبة الأطفال ، فلامس الأعسر الصغير لكنه أخطأه رغم أنه قد قُذف بمهارة واحكام وقوة • ان ذلك الصبي المرابط في الجهة الأخرى من القناة هو الذى رمى الحجر •

هتف جميع الصبية يقولون دفعة واحدة :

ـ هيّا يا سموروف •• سدّد اليه •• ارمه بحجر ! ••

ولكن سموروف (الصبي الأعسر) لم ينتظر أن يشجعه رفاقه هذا التشجيع ، وانما بادر الى الردّ فورا ، فرمى الصبي الواقف في الجهة الأخرى من القناة بحجر ، ولكنه لم يصبه ، وانما سقطت الحصاة على الارض . وسرعان ما ردّ الصبي على ذلك ، فرمى الجماعة بحجر ثان، ولكنه رمى في هذه المرة مستهدفاً أليوشا ، فأصابه في كتفه ، فأوجعه وجعاً شديداً . وكانت جيوب الصبي ملأى بالحصى ، فذلك ما يراه الرائي حتى على بعد ثلاثين خطوة ، لأنها كانت بارزة من تحت المعطف .

صاح الصبية يقولون وهم يضحكون ضحكاً قوياً :

ـ انه حاقد عليك أنت ، حاقد عليك أنت ! لقد استهدفك خصيصاً. ألست من آل كارامازوف ؟ ألست من آل كارامازوف ؟ أصحيح أم لا ؟ هيّا بنا يا أولاد ، فلنحكم التسديد اليه جميعاً ، جميعاً في هذه المرة !

وطارت حجارة ست في آن واحد معاً . فأصابت احداها الصبي في رأسه ، فسقط ، ولكنه لم يلبث أن نهض حانقاً مسعوراً ، وأخذ يقصف عصبة الصبية ، فكانت الحجارة تطير بلا توقف في الاتجاهين . وكانت جيوب عدة أطفال حول أليوشا ملأى هي أيضاً بقذائف .

صاح أليوشا يقول لهم :

ـ ما هذا الذي تفعلونه ؟ ألا تستحون ؟ أستة على واحد ؟ سوف تقتلونه .

ووثب أليوشا الى أمام ، ووقف في مسار القذائف ليحمي بجسمه الصبيّ الواقف في الجهة الأخرى من القناة . فهدأ ثلاثة أطفال أو أربعة بضع لحظات .

وصرخ صبي يرتدي دراعة حمراء ، صرخ يقول بصوت حانق :

ـ هو الذي بدأ . انه قاطع طرق .. لقد جرح كراسوتكين في

المدرسة بطعنة موسى • وتدفق دم كراسوتكين غزيراً • ولم يشأ كراسوتكين أن يشكوه • ولكنه يستحق عقاباً •••

ـ ماذا كان السبب ؟ لاشك أنكم شاكستموه فى البداية ، أليس كذلك ؟

صاح الأطفال يقولون :

ـ ها هو ذا قد ضربك مرة أخرى فى الظهر • لقد عرفك • انه يستهدفك أنت الآن ولا يستهدفنا نحن • هيًّا بنا ! عليه يا أولاد ! لا تخطئه يا سموروف !

وعاد القصف يتتالى من الجهتين ، أشدَّ هولاً فى هذه المرة • فأصيب صدر الصبى الواقف فى الجهة الأخرى من القناة ، فأطلق صرخة ألم ، وأخذ يبكى ، ثم هرب راكضاً نحو قمة الرابية فى اتجاه شارع ميشيل ، فأخذت عصبة الصبية تقول مولولة :

ـ آه •• خاف •• هرب •• جبان •• خرقة مبللة ••

وعاد الصبى الذى يرتدى دراعة حمراء ، عاد يقول لأليوشا وقد اشتعلت عيناه بحمى :

ـ أنت لا تعرف حتى الآن أى لص هو هذا الصبى يا كارامازوف• ان قتله قليل عليه •

وكان واضحاً أن هذا الفتى هو أكبر أفراد العصبة سناً •

ـ ماذا تأخذون عليه ؟ أهو واشٍ مثلاً ؟

تبادل الصبية نظرة تتسم بالسخرية •

وتابع الصبى نفسه كلامه فقال :

ـ أأنت ذاهب في اتجاهه ، نحو شارع ميشيل ؟ أدركه اذن ...
أنظر ! لقد توقف ... يبدو عليه أنه ينتظر ... وهو يتفرس فيك ...

وردّد الصبية الآخرون يقولون جوقة واحدة :

ـ هو يتفرس فيك ، يتفرس فيك .

ـ أدركه اذن ... واسأله هل يحب ليفة الحمام ! اسأله هـذا السؤال ، وسترى ...

ما ان سمع الصبية هذا الكلام حتى انفجروا ضاحكين . فنظر اليهم أليوشا ونظروا اليه صامتين .

وصرخ سموروف يقول له محذراً :

ـ اياك أن تذهب اليه ، فلسوف يقتلك ...

قال أليوشا :

ـ لن أكلمه عن ليفة الحمام ، لأنني أظن أنكم تشاكسونه وتغيظونه بهذه الكلمة . ولكنني سأعرف منه لماذا يكرهكم هذا الكره .

فأجابه الصبية ضاحكين :

ـ فسأله اذن ، اسأله !

عبر أليوشا الجسر الصغير ، واتجـه الى قمة الرابيـة ، ماراً قرب سياج الأوتاد ، بحيث يصل الى الصبي المعتزل .

قال الأطفال يحذرونه مرة أخرى وهو يبتعد عنهم :

ـ انتبه ! انه لا يخاف منك ، وسـوف ينبجس فجأة ليطعنك من خلف ، كما فعل بكراسوتكين .

كان الصبي ينتظره دون أن يتحرك من مكانه . فلما اقترب أليوشا كل الاقتراب رأى أمامه طفلاً في التاسعة من عمره على أكثر تقدير ،

ضعيفاً هزيلاً له وجه مستطيل نحيل تسطع فيه عينان واسعتان دكناوان ترشقانه بنظرات شريرة خبيثة • انه يرتدى معطفاً عتيقا جـداً أصبح صغيراً على قامته وجعل منظره مضحكاً ؛ وذراعاه العاريتان تخرجان من الكمين المسرفين فى القصر • وعلى السروال تُرى رقعة عنـد الركبة اليمنى • ومن ثقب فاغر فى حذاء القدم اليمنى يظهر الابهام مطلياً بالحبر من قبيل الاخفاء • وجيبا الرداء منتفختان بما فيهما من حجارة •

وقف أليوشا على بعد خطوتين منه ، وألقى عليه نظـرة سائلة ، فأدرك الصبى من نظرته فورا أنه لا ينوى أن يضربه • فبدا عليه شىء من التأنس ، حتى لقد بدأ هو الكلام :

ـ أنا واحد وهم ستة ••• ولكننى سأغلبهم دون أية مساعدة •

قال ذلك واشتعلت عيناه •

قال أليوشا :

ـ لا شك أن احدى تلك الحجارة قد أوجعتك كثيرا •

فهتف الصبى يقول :

ـ ولكننى أنا أصبت سموروف فى رأسه •

سأله أليوشا :

ـ هم يزعمون أنك تعـرفنى ، وأنك رميتنى بالحجـر عامدا • فلماذا ؟

لم يجب الطفل وانما ألقى على أليوشا نظرة قاتمة •

قال أليوشا ملحاً :

ـ أما أنا فلا أعرفك ، أفهل تعرفني أنت ؟

فصرخ الصبي فجأة يقول بصوت حانق ولكن دون أن يتحرك فكأنه ينتظر شيئا ما :

ـ دعني وشأني . انك تزعجني وتضايقني !

قال أليوشا :

ـ طيب . سأنصرف . ولكن لاحظ أنني لا أعرفك ولم أشاكسك أبدا . وقد ذكروا لي كيف يمكنني أن أغيظك ، ولكني لا أنوي أن أفعل ذلك . استوعك الله !

ومضى أليوشا .

ـ راهب منافق ! انك ترتدي تحت مسوحك سروالاً !

بهذا الكلام قذف الصبي أليوشا وهو يتابعه بنظرة كارهة ، وسرعان ما وقف وقفة دفاع ، لاعتقاده بأن أليوشا لا بد أن يهجم عليه الآن .

ولكن أليوشا لم يزد على أن التفت الى وراء ، فنظر الى الصبي صامتا ، ثم ابتعد ... ومع ذلك فانه ما كاد يسير ثلاث خطوات حتى شعر بألم شديد في ظهره . لقد أصابه الصبي بحصاة ضخمة جدا هي أثقل حصاة كان يحملها في جيوبه ؟ فاستاء أليوشا ، والتفت من جديد ، فقال للصبي :

ـ آ ... تهاجم من خلف ؟ لقد صدق الصبية اذن حين ذكروا أنك تضرب بغتةً كما يفعل جبان !

غير أن الصبي وقد استبد به غيظ شديد قد رماه في هذه المرة بحجر على وجهه ، فلولا أن أليوشا سارع يحمي وجهه بذراعه ، اذن لأصيب وجهه ، وهكذا أصاب الحجر كوعه .

هتف أليوشا يقول له :

ـ ألا تستحي ؟ ماذا فعلت لك ؟ ماذا صنعت بك ؟

صمت الصبي جامدا في مكانه وقد لاح في وجهه الشر والعدوان. كان مقتنعا بأن أليوشا سيهجم عليه في هذه المرة ، فلما أدرك أن أليوشا لا يخطر بباله ، حتى بعد هذه الضربة ، أن يهاجمه ، استبد به حنق مسعور كوحش صغير مفترس ، فوثب هو نفسه على أليوشا . وقبل أن يتسع وقت أليوشا للقيام بأية حركة ليدافع عن نفسه كان الولد الشقي الشرير قد خفض رأسه فأمسك ذراع أليوشا اليسرى بكلتا يديه ، وعض خنصره عضةً قاسية رهيبة ، غارساً أسنانه في لحم الاصبع بكل ما أوتي من قوة مدةثانيتين . صرخ أليوشا من شدة الألم ، وحاول أن يسحب اصبعه من بين أسنان الصبي . فلما أرخى الصبي أسنانه أخيرا ، أسرع يهرب ثم وقف على مسافة من أليوشا هي المسافة السابقة نفسها. كانت العضة قوية ، قريبة من الظفر ، قد وصلت الى العظم . انبجس الدم من اصبع اليوشا ، فأخرج منديله وربط به الجرح ربطاً قوياً ، فقضى في هذا التضميد دقيقة كاملة . وفي أثناء ذلك ظل الصبي واقفا في مكانه ينتظر . وعندئذ رفع أليوشا رأسه ، وألقى عليه نظرة هادئة وقال له :

ـ هل رأيت الجرح العميق الذي أحدثته في اصبعي ؟ أحسب أن هذا كاف ، ألا ترى هذا الرأي ؟ فقل لي الآن : بماذا أسأت اليك ؟ أي أذى ألحقته بك ؟

فنظر اليه الصبي مشدوها . وتابع أليوشا كلامه يقول بتلك اللهجة الهادئة نفسها :

ـ أنا لا أعرفك .. صدقني .. وهذه أول مرة أراك فيها .. ومع

ذلك لا أستطيع أن أتصـــور أننى لم أسىء اليك أية اساءة ، فلولا أننى أسأت اليك لما عذبتنى هذا التعذيب بغير سبب حتما • فما هو الذنب الذى اقترفته فى حقك ، وما هو الشر الذى أنزلته فيك ، قل لى ! •••

ولكن الصبى ، بدلا من أن يجيب ، أخذ يبكى بكاء قويا جدا على حين فجأة ، ثم ولّى هارباً ••• وتبعه أليوشا بخطى بطيئة ، متجهاً نحو شارع ميشيل ، وظل مدة طويلة يرى أمامه الطفل الهـــارب لا يخفف سرعته ولا يلتفت الى وراء ولعله ما يزال يبكى • وعزم أليوشا عزماً قاطعاً على أن يسعى الى رؤية الطفل متى أتيحت له لحظة من حرية ، ليجلو هذا السرّ الذى أحدث فى نفسه أثراً قوياً • أما الآن فان وقته لا يتسع لهذا •

SS

٤

في منزل أسرة هوخلاكوف

لم يلبث اليوشـــا أن وصـــل الى منزل الســـيدة هوخلاكوفا وهو مبنى أنيق من حجر ، مؤلف من طابقين ، تملكه السيدة هوخلاكوفا . انه من أجمل مبـــانى مدينتنا . ورغم أن الســـيدة هوخلاكوفا قد عاشت أكثر وقتها فى مقاطعة أخرى تملك فيهـا أرضا ، وعاشت كذلك فى موسكو حيث تملك قصراً خاصا ، فقد احتفظت بالمنزل الذى تملكه فى مدينتنا والذى ورثته عن آبائها وأجدادها . يجب أن نذكر مع ذلك أن أرضها فى مدينتنا هى أوســـع الاراضى الثـلاث التى تملكها . ورغم هذا لم تكن السيدة هوخلاكوفا قد أقامت بمدينتنا الا نادرا حتى الآن .

هرعت السيدة هوخلاكوفا تستقبل أليوشا فى الدهليز ، وسـألته بسرعة عصبية :

ـ هل تلقيت ، هل تلقيت رسالتى بشأن المعجزة الجديدة ؟

ـ تلقيتها .

ـ هل نقلت النبأ ، هل أطلعت الناس على الرسالة ؟ لقد ردَّ الشيخ الى هذه المرأة ابنها .

SS

قال أليوشا :

ــ سيموت الشيخ فى هذا اليوم !

ــ أعلم ، أعلم ، لقد قيل لى هـــذا • آه ••• ما أشـد رغبتى فى التحدث اليك ! ما أشد رغبتى فى التحدث عن جميع هذه الأشياء اليك ، أو الى شخص آخر •• بل اليك •• اليك أنت ! خسارة أننى لا أستطيع أن أزوره ! ان المدينة كلها مضطربة ، المدينة كلها قائمة قاعدة ! جميع الناس ينتظرون ••• ولكن هل تعلم أن كاترين ايفانوفنا هى الآن عندنا ؟

هتف أليوشا قائلا :

ــ صحيح ؟ هذا حظ موفق ! سأراها اذن عندكم ! لقد أصرَّت أمس أن أزورها اليوم •

ــ أعرف هذا • أنا على علم بكل شىء • لقد رُوى لى ما حدث فى منزلها بالأمس تفصيلاً ••• عرفت كل قطاعات تلك ••• المخـــلوقة ! هذه فاجعة ! ••• لو كنت فى مكانها ••• حقا اننى لا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل فى هذه الحالة ! ولكن ما رأيك أيضا فى أخيك هـــذا الكريه دمترى فيدوروفتش ؟ آه ••• يارب ! ••• أصبحت لا أعرف ماذا أقول يا ألكسى فيدوروفتش : تصور أن أخاك موجود الآن هنا ••• لا أقصد أخاك ذاك نفسه ، أخاك ذاك الرهيب الذى فعل مافعل بالأمس ، بل أخاك الآخر ايفان فيدوروفتش ! هو الآن هنا يتحدث معها، ان حديثاً فخماً يدور بينهما ! ••• ليتك تعلم ما يجرى بينهما الآن ! شىء فظيـع ، شىء فظيع ، أؤكد لك ••• تمزق حقيقى ! قصة لا يصـــدقها العقل ، حكاية لا يتصورها الخيال : كل منهما يضيِّع نفسه الآن ، لا يدرى أحد لماذا ! وهما يدركان ذلك ، ويجدان فيه نوعاً من لذة • أوه ! لقد انتظرت وصولك ••• كنت فى حاجة الى أن أراك • يستحيل علىَّ ، يســتحيل

عليّ اطلاقاً أن أشهد هذه الدرامة مكتوفة الأيدى عاجزة كل العجـز ! سأقص عليك هـــذا فيما بعد • ولكن يجب على الآن أن أقـول الشيء الأساسى •• آه •• كدت أنسى الشيء الأساسى • هل تستطيع أن تشرح لى لماذا أصيبت ليزا بنوبة عصبية منذ قليل ؟ انها ما كادت تعلم بنبأ وصولك حتى ألمت بها نوبة هستريا !

ـ ماما ، أنت المصابة بنوبة هستريا الآن ، لا أنا •

بهذا ارتفع صوت ليزا المزقزق ، من خلال شق الباب ، فى الغرفة المجاورة •

ان شق الباب ضيق جداً والصوت يبدو متوتراً الى أقصى حـدود التوتر ، حتى ليوشك أن ينكسر كما يحدث حين يحس المرء برغبة فى الضحك لا سبيل الى مقاومتها ثم هو يكظم ضحكته ويكبحها بكل ما أوتى من قوة • ولم يلبث أليوشا أن لاحظ هذاالشق ، فأيقن أن ليزا تنظر اليه من خلاله ، جالسةً على مقعدها المتحرك ، ولكنه لا يستطيع أن يلمحها •

ـ أأنا مصابة بنوبة هستريا ؟ لو أصبت بنوبة هستريا لما كان فى هذا غرابة يا ليزا ، لما كان فيه غرابة البتة ! ••• ان نزواتك المســتمرة الدائمة خليقة بأن تجعلنى مجنونة • ليتك تعلم يا ألكسى فيدوروفتش الى أى حد هى مريضة ! لقد لازمتها الحمى طوال الليل ، وكانت لاتزيد على أن تئن ••• ولم أكد أملك القدرة على الانتظار حتى هذا الصباح لاستشارة الدكتور هرتسنشتوبه • وقد أكد الدكتـور أنه لم يفهـم من الأمر شيئا ، وأن علينا أن نصبر ، فنرى كيف ســتتطور حالتهـا • ان هرتسنشتوبه لا يعرف أن يقول شيئا غير هذا الكلام ! يجيء فيصرخ فى كل مرة أنه لا يفهم من الأمر شيئاً ! وما ان اقتربت أنت من المنزل حتى أطلقت صرخة وألمت بها نوبة ، ثم طالبت بأن تنقل الى غرفتها القـديمة هنا •

ـ ولكننى يا ماما لم أكن أعرف أبداً أنه هنا • فأنا لم أهرب الى هذه الغرفة بسببه هو •

ـ غير صحيح يا ليزا ! لقـــد أسرعتْ جوليا تبلغـك أن ألكسى فيدوروفتش وصل ، وكنتِ قد كلفتها بأن ترابط هنا لترقب وصـوله •

ـ ماما ، ملاكى الصغير ! ليس هذا الذى تدعينه بالدعابة الفكهة • فاذا أردت أن تصلحى الخطأ وأن تقولى شيئاً يكون على جانب كبـير من الذكاء فأبلغى ألكسى فيدوروفتش المحترم جدا ، الذى وصل منذ هنيهة أنه قد أخطأه الذكاء حين قرر أن يجىء بعد الذى حدث بالأمس ، وبعد أن أصبح جميع الناس يسخرون منه ويضحكون عليه •

ـ ليزا ، انك تسرفين ! ثقى أننى سأتخذ فى حقك اجراءات قاسية آخر الأمر • من ذا الذى يسخر منه أو يضحك عليه ؟ اننى من جهتى سعيدة جدا برؤيته • أنا فى حاجة اليه ، أنا لا غنى لى عنه • آه يا ألكسى فيدوروفتش ! ليتك تعرف مدى شقائى وتعاستى ! •••

ـ ماذا بك يا ماما ، يا ملاكى ؟

ـ هى نزواتك يا ليزا ، وتقلب مزاجك ، ووطأة مرضك وهـــذه الليلة الرهيبة التى عانيت فيها الحمى ، ثم هـــذا الطبيب الفظيع الأبدى هرتسنشتوبه ، هذا الطبيب الأبدى خاصةً ، هذا الطبيب الأبدى الذى لا مفرّ منه ولا معدى عنه ! ثم كل شىء ، نعم كل شىء ، كل شىء اطلاقا ••• وحتى هذه المعجزة ! ••• لا تستطيع أن تتصور يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى الاضطراب الذى أحدثته هذه المعجزة فى نفسى ! ثم هذه التراجيديا التى تجـــرى الآن فى الصالون والتى يستحيل علىّ احتمالها ، يستحيل ، يستحيل كل الاستحالة ••• أؤكد لك ذلك منـذ الآن ، وأنبهك اليه وأحذرك منه ••• ولعلها كوميديا لا تراجيديا ! قل

لى : هل يعيش الأب زوسيما حتى الغد ، حتى الغد على الأقل ؟ آه ••• يا رب ! ••• أصبحت لا أدرى ماذا يقع لى • فى كل لحظة أغمض عينى، فأرى أن كل شيء باطل لا معنى له •••

قاطعها أليوشا سائلا :

ـ هل أستطيع أن أرجوك أن تعطينى خرقةً نظيفة أعصب بها اصبعى ؟ لقد جُرحت جرحاً عميقاً يؤلمنى الآن ايلاماً شديداً •

نزع أليوشا الضماد عن جرح العضة ، فكان المنديل أحمر من الدم ، فأطلقت السيدة هوخلاكوفا صرخة وأغمضت عينيها وغضنت حاجبيها •

ـ يا رب ! يا لهذا من جرح ! فظيع ! •••

ولكن ما ان لمحت ليزا اصبع اليوشا من شق الباب حتى فتحت الباب بدفعة قوية ، وصاحت تقول بصوت آمرٍ صارم :

ـ ادخل الى هنا ، ادخل فورا ، لا محل الآن لتبادل أقوال سخيفة! آه ••• يا رب ! كيف أمكنك أن تسكت عن هذا طوال هذه المدة ؟ كان يمكن أن يفقد دمه يا ماما ! كيف جُرحت هكذا ؟ هاتوا ماءً قبل كل شيء ، هاتوا ماء ••• يجب أن نغسل الجرح أولاً ثم تغطس اصبعك فى الماء البارد تهدئةً للألم • لن يكون عليك الا أن تبقى اصبعك مدة طويلة فى الماء ••• اسرعى يا ماما ، هاتوا ماءً على الفور ، وهاتوا طستاً !

ثم صاحت تقول فى عصبية :

ـ هلاَّ أسرعتم !

كانت ليزا مروَّعة مذعورة ، فقد أحدث جرح أليوشا فى نفسها أثراً رهيبا •

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ ألا يستحسن أن نستدعى الدكتور هرتسنشتوبه ؟

ـ سوف تقتليننى يا ماما ! ان صاحبك هرتسنشتوبه سيجىء فيقول انه لم يفهم من الأمر شيئا . هاتوا ماءً ، هاتوا ماءً ! هاتى الماء بنفسك يا أماه ، ناشدتك الله ، أو قولى لجوليا أن تسرع . ان جوليا بطيئة دائماء ولا تستطيع أن تقوم بما يجب القيام به فى حينه . أسرعى يا ماما ، انك تميتيننى ...

تدخل أليوشا يقول وقد أقلقه جزعهما :

ـ ولكن ليس هذا الجرح الصغير بشىء .

وهرعت جوليا فى تلك اللحظة حاملةً طستاً مملوءاً بالماء . فغطس فيه أليوشا اصبعه .

ـ ماما ! ناشدتك الله ، هاتى لنا شاشاً ، وهاتى لنا أيضاً من ذلك السائل العكر الذى يحرق والذى يستعمل فى مداواة الجروح ... لقد نسيت اسمه .. عندنا منه .. نعم عندنا منه .. أنت تعرفينها يا ماما .. تلك القارورة الموجودة فى غرفتك ، فى الخزانة ، على اليمين .. ويوجد هنالك شاش أيضا ...

ـ سأجىء لك به ، ولكن لا تصرخى ولا تضطربى يا ليزا ، أرجوك ، أتوسل اليك ... انظرى كيف يحتمل ألكسى فيدوروفتش الألم صابراً ! ولكن أين جُرحت هكذا يا ألكسى فيدوروفتش ؟

وخرجت السيدة هوخلاكوفا مسرعة . وذلك بعينه ما كانت ترغب فيه ليزا وتتمناه .

قالت ليزا لأليوشا متعجلة :

ـ أجب عن سؤالى أولا : أين جُرحت هذا الجرح ؟ ثم تتكلم بعد ذلك فى أمرٍ آخر • هيه ؟

واذ أدرك أليوشا بفطرته أن الدقائق القليلة التى ستنقضى الى حين وصول الأم ثمينة جدا فى نظر ليزا ، فقد روى لها قصة لقائه بالتلاميذ، موجزاً مقتضباً مسقطاً تفاصيل كثيرة ، ولكنه روى لها القصة مع ذلك واضحة دقيقة • فبعد أن أصغت ليزا الى روايته ، ضمت يديها احداهما الى الأخرى ، وصاحت تقول غاضبة حانقة ، كأن من حقهـا أن تؤنبه وتقرعه بعد الآن :

ـ فيم كنت تفكر ؟ كيف أمكنك أن تتدخل فى أمر أولاد صـغار وأنت فوق ذلك ترتدى مسوح راهب ؟ ألا انك لطفل صغير ، ألا انك لصبى عر أنت أيضا ••• ومع ذلك اسأل عن هذا الولد الشقى الشرير ، ثم حدثنى بعد ذلك فى أمره ، فلا شك أن ههنا سراً • شىء آخر الآن • قل لى أولا يا ألكسى فيـدوروفتش : هـل أنت قادر رغم الألم على أن تتحدث فى أمور لا تشوقك ولا تهمك ، شريطة أن تتحدث فيها جاداً •

ـ أنا قادر على ذلك كل القدرة • ثم اننى أصبحت لا أشعر بألم فى اصبعى •

ـ لأنك غطستها فى الماء • يجب تغيير الماء حالاً ، لأنه يدفأ بسرعة• جوليا ! أسرعى الى القبو فائتينى بقطعة من ثلج ، وائتينى كذلك بطست آخر فيه ماء بارد • ها هى ذى قد مضت الآن فلنتحدث جادّين : هل لك أن ترد الىّ فورا ، أيها العزيز ألكسى فيدوروفتش ، الرسالة التى بعثت بها اليك أمس ؟ هيّا ردها الىّ بسرعة ، لأن أمى قد تصل من لحظـة أخرى ، وأنا لا أريد لأمى أن •••

ـ ليست الرسالة معى !

ـ كذب ! هى معك ! كنت أتوقع هذا الرد • الرسالة معك ، فى هذه الجيب ! ••• ما كان أشد ندمى طوال الليل على هذه المزحة • رد الىّ الرسالة فورا ! اعطنيها !

ـ تركتها فى الدير •

ـ لا بد انك أصبحت تحسبنى طفلةً صغيرة ، صغيرة جداً ، بعد مهزلة هذه الرسالة ••• انها مهزلة خبيثة سيئة ! ••• أرجوك أن تغفر لى هذا الشذوذ الأحمق • أما الرسالة فيجب أن تأتينى بها حتماً ، اذا هى لم تكن معك الآن • بل يجب أن تأتينى بها فى هـذا اليوم نفسه ، قطعاً ••• اننى أطلب ذلك ، وأصرُّ عليه !

ـ أما أن آتيك بها اليوم فهذا مستحيل • ذلك اننى عائد الى الدير، ولن أراك قبل انقضاء يومين أو ثلاثة وربما أربعة ، لأن الأب زوسيما ••

ـ أربعة أيام ؟ هذا جنون ! قل لى بصراحة : هل سـخرت منى كثيراً ؟

ـ لم أسخر البتة •

ـ لماذا ؟

ـ لأننى صدقت كل ما كتبته تصديقا قاطعا •

ـ أنت تهيننى !

ـ أبدا • اننى بعد أن قرأت رسالتك قلت لنفسى فورا : لتجريَنَّ الأمور على هذا النحو فمتى مات الأب زوسيما ، سأضطر الى مغـادرة الدير ، وسأستأنف دراستى ، وسأتقدم الى الامتحانات • حتى اذا انقضت المدة القانونية تزوجنا • وسوف أحبك • فرغم اننى لم يتسع وقتى لأن

أفكر فى الأمر ملياً ، قد قدّرت أننى لن أجد لنفسى زوجة أفضل منك، وقد أمرنى الشيخ بأن أتزوج •••

هتفت ليزا تقول وهى تنفجر ضاحكة ، بينما اشتعلت وجنتاها بحمرة شديدة :

ـ ولكننى دميمة ، مقعدة ، كسيحة •

ـ سأجر الكرسى المتنقل بنفسى اذا لزم الأمر • ثم اننى على يقين من أنك ستكونين قد شفيت أثناء هذه المدة •

قالت ليزا بعصبية :

ـ ألا انك لمجنون ! أنا انما كنت أمزح ، فاذا بك تبنى على هذا المزاح مشاريع سخيفة مضحكة ! آ ••• هذه ماما قد رجعت • أحسب أنها عادت فى الوقت المناسب • ماما ، لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟ أنت دائما تتأخرين ! هذه جوليا قد جاءت بقطعة الثلج !

ـ أوه ! ليزا ! لا تصرخى هذا الصراخ ! أرجـــوك ، أستحلفك بالله ! ••• ان هذا الصراخ يطيش عقلى ••• ليس ذنبى أنك قد دسست هذا الشاش فى غير الموضع الذى ذكرته لى ••• لقد بحثت عنه فى كل مكان فلم أظفر به ••• انى لأتساءل ألم تفعلى هذا عامدة •

ـ تماما ••• عامدة ! لم يكن فى وسعى أن أتنبأ مع ذلك أنه سيصل بجرح فى اصبعه ، ولو قد تنبأت بذلك لأخفيت الشاش فعـــلاً ! ماما ، ملاكى الصغير ، انك تقولين اليوم فكاهات ظريفة حقا !

ظريفة أو غير ظريفة ! المهم أننى أخذت أرى أنك لا تشفقين على ألكسى فيدوروفتش من جرحه ، كما لا تشفقين على أحد من شىء على كل حال ! ليتك تعلم يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى ما أقاسى



ليزا هوخلاكوفا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

من ألم وعذاب ! ليست هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تقتلني ، ليس هذا الطبيب هرتسنشتوبه وحده هو الذي يرهقني ... بل جملة الأمر ... جملة الامر ... ذلك هو ما أصبحت لا أملك القدرة على احتماله.

قاطعتها ليزا تقول وهي تضحك مرحة :

ـ كفى كلاما عن هرتسنشتوبة يا ماما ! ناوليني الشاش والسائل . هو مرهم بسيط من محلول الرصاص يا ألكسي فيدوروفتش .. تذكرت الآن ... ولكنه نافع جدا . اعلمي يا ماما أنه اقتتل في الشارع مع ضبية صغار ، وأن طفلا قد عضه في اصبعه ! أليس هو نفســـه صبيا صغيرا ؟ ما رأيك يا ماما ؟ هل يمكنه بعد هـــذا أن يتزوج ؟ ذلك أنه ينوى أن يتزوج يا ماما .. تخيلي هذا ... هل تتصورينه متزوجا ؟ شيء يُميت من الضحك ! ... أليس هذا فظيعا ؟

وكانت ليزا تضحك ضحكها العصبي بلا توقف ، وهي تلقي على أليوشا نظرة ماكرة .

ـ ما هذا الذي تقولينه يا ليزا ؟ كيف يمكنه أن يتزوج ؟ دعيك من هذه السخافات ! ثم ان هـــذا الامر لا يعنيك ... أما ذلك الصبي الذي عضّه ، أفلا يمكن أن يكون مصابا بداء الكَلَب ؟

ـ ولكن يا ماما ، هل يوجد أطفال مصابون بداء الكلب ؟

ـ ما هذا السؤال يا ليزا؟ لكأنني قلت اذن سخافة حمقاء ! ان من الجائز أن يكون الصبي قد عضّه كلب مصاب بداء الكلب ، فاذا هو يعض بدوره كل من يقتربون منه ! لقد ضمدت اصبعك تضميدا رائعا يا ألكسي فيدوروفتش ! ما كان لي أنا أن أتقن التضميد هذا الاتقان ! أما تزال تشعر بوجع ؟

ـ قليلا جدا .

وسألته ليزا :

ـ ألا تخشى الماء ؟

قالت الأم :

ـ لا تسرفى يا ليزا . لقـــد تعَجلت أنا حين تكلمت عن داء كلب بصدد ذلك الصبى ، فأخذت تستنتجين استنتاجات ! يا ألكسى فيدوروفتش ان كاترين ايفـــانوفنا ، وقد علمت الآن أنك هنا ، تصرُ على أن تراك حالا ... انها فى أشد الحاجة الى التحدث اليك !

قالت ليزا :

ـ اذهبى اليها وحدك يا ماما ! أما هو فانه لا يستطيع أن يمضى اليها، لأن اصبعه توجعه كثيرا ..

فقاطعها أليوشا قائلا :

ـ كلا ! ... اننى لا أشعر الآن بوجـع . فى امكانى أن أذهب اليها .

ـ ها ! .. تذهب ؟ أهكذا اذن ؟ طيب ...

ـ ولم لا ؟ متى فرغت من الحديث معها عدت الى هنا ثانية ، فاستطعنا أن نتكلم عندئذ ما شئنا أن نتكلم . اننى أحرص فى الواقع حرصا شديدا على أن أرى كاترين ايفانوفنا بأقصى سرعة ، لأننى أريد أن أرجع الى الدير فى أقرب وقت .

ـ خذيه يا ماما ، خذيه ! ويا ألكسى فيدوروفتش ، وفّر على نفسك عناء العودة الىّ بعد مقابلة كاترين ايفانوفنا . ارجع الى الدير رأساً ،

فهنالك انما يطيب لك المقام أكثر مما يطيب لك فى أى مكان آخر . أما أنا فأحب أن أنام ، لأننى قضيت فى البارحة ليلة بيضاء !

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ أنت تمزحين يا ليزا ! ومع ذلك سأكون سعيدة جدا اذا أنت استطعت أن تنامى قليلا .

وتمتم أليوشا يقول :

ـ لا أدرى ماذا فعلت حتى ... وعلى كل حال ، سأبقى معك ثلاث دقائق أخرى ، بل وحتى خمس دقائق اذا كنت تحرصين على ذلك .

ـ وحتى خمس دقائق ؟ ياه ! .. خذيه يا ماما .. ماذا تنتظرين ؟ هذا مخلوق عجيب ، هذا مخلوق مشوه !

ـ ليزا ! أنت مجنونة ! هيًّا بنا يا ألكسى فيدوروفتش ! انها اليوم شديدة النزوات ، وأخشى أن تثير أعصابها ... ما أشقى التعامل مع نساء عصبيات يا ألكسى فيدوروفتش ! على كل حال ، لعلها شعرت حقا بحاجة الى النوم أثناء حديثكما . ماذا فعلت حتى استطعت أن ترد اليها النعاس بهذه السرعة ؟ ذلك توفيق فى الواقع ...

ـ مرحى يا ماما ! هأنت ذى الآن تقولين كلاما لطيفا ! أحب أن أقبلك .

ـ وأنا أيضا يا ليزا !

كذلك قالت السيدة هوخلاكوفا لابنتها ثم أضافت تخاطب أليوشا وهما يخرجان من الغرفة :

ـ اصغ الىّ يا ألكسى فيدوروفتش ...

وراحت تكلمه متعجلةً بصوت خافت ، وقد لاح في وجهها الاهتمام والجد والتعجب ، قالت :

ـ لا أريد أن أؤثر فيك ... لن أزيح الحجاب قبـــل الأوان ، ولكنك سترى بعينك ما يجرى الآن هناك ، وستحكم عليه بعقلك . شيء رهيب . تمثيليـة عجيبة !... انها تحب أخاك ايفان فيدوروفتش ، ثم هي تحاول أن تقنع نفسها ، بكل ما أوتيت من قوة ، بأنها تحب دمترى فيدوروفتش . شيء مروِّع ! سأدخل معك ، فاذا لم أُطرد بقيت لأرى خاتمة هذا كله .

٥

التمزق في الصالون

كان الحديث في الصالون يشارف نهايته . ان كاترين ايفانوفنا تبدو مضطربة اضطرابا شديداً، رغم أن فى وجهها تعبيراً عن عزم وحسم. وحين دخل أليوشا والسيدة هوخلاكوفا كان ايفان فيدوروفتش ينهض استعدادا للانصراف . انه شاحب الوجه . لاحظه أليوشا فى قلق . ذلك أن أليوشا قد اتضحت له ، فى تلك اللحظة، شبهة كانت تعذبه منذ زمن طويل ، فاذا هو يرى الآن حل ذلك اللغز المقلق الذى كان يشغل باله . ان أشخاصا كثيرين كانوا قد أكدوا له مرارا ، منذ أكثر من شهر ، أن أخاه ايفان يحب كاترين ايفانوفنا ، وأنه خاصةً ينوى أن « ينتزعها من ميتيا » فعلا . ولم يستطع أليوشا حتى هذه الأيام الاخيرة أن يصدّق هذا الامر ، لأنه كان يبدو له عجيبا شاذا شيطانيا ، غير أن تلك المزاعم كانت تقلقه مع ذلك . انه يحب أخويه كليهما ويخشى أن يقوم بينهما تنافس كهذا التنافس ، وأن تنشب بينهما خصومة كهذه الخصومة . على أن دمترى فيدوروفتش قد قال له من تلقاء نفسه أمس ان حب ايفان لكاترين ايفانوفنا يسعده ويبهجه ، لأنه يسهّل وضعه وييسّر أموره . وكان أليوشا يتساءل : لماذا ؟ ألأنه يتيح له أن يتزوج

جروشنكا ؟ ولكن هذا فعل يائس وحل رهيب ! ثم ان أليوشا كان الى أمس مقتنعا اقتناعا جازما بأن كاترين ايفانوفنا تحب أخاه دمترى حباً قوياً عارماً . ولكن هـذا الاقتناع قد تزعزع فى نفسـه الليلة البـارحة . يضاف الى ذلك أنه كان يخيَّل اليه ، دون أن يعرف لماذا ، ان كاترين ايفانوفنا لا يمكن أن تحب رجـلاً من نوع ايفان ، وأنهـا انما تحب دمترى كما هو ، على عـلاته ، رغم ما فى هـذا الحب من أمور عجيبة مستحيلة سخيفة ! غير أن المشهد الذى جرى أمس مع جروشنكا قـد أنبت فى نفسه على حين فجأة شعورا معارضا لهذا الشعور تماما ، لم يتضح له على الفور . ان تعبير « التمزق » الذى استعملته السيدة هوخلاكوفا منذ لحظات قليلة قد جعل أليوشا يرتعش ، لأنه فى ذلك اليـوم نفسه ، أثناء « شبه النوم » الذى ينامه المرء عند الفجر ، قد كرَّر كلمة « حب التمزق » هذه عدة مرات ، جوابا على أحلام لم تكد تتبدد . وكانت جميع أحلامه فى الليلة البارحة انما تدور على المشهد الذى وقع أمس فى منزل كاترين ايفانوفنا . فلما قالت له السيدة هوخلاكوفا جازمةً ان كاترين ايفانوفنا انما تحب فى الواقع ايفان ، وانها تكذب على نفسها لعباً ، من قبيل الميل الى « التمزق » ، ومن باب التحدى ، أو بسبب اندفاعة شكران غامضـة غير مفهومة ، اهتز أليوشا اهتزازاً قوياً واضـطرب اضـطراباً شديداً ، وتساءل : « ألا يمكن أن تكون هـذه هى الحقيقـة رغم كل شىء ؟ » . ولكن اذا صحَّ هذا فما هو وضع ايفان الآن ؟ لقد كان أليوشا يقدِّر بفطرته وغريزته أن امرأةً مثل كاترين ايفانوفنا تشعر بحاجة الى السيطرة والتسلط ، وهى لا تستطيع أن تمارس هذه السـيطرة وهذا التسلط الا على رجل مثل دمترى ، أو هى على الأقل لا تسـتطيع أن تمارس هذه السيطرة وهذا التسلط على شخصية من طراز ايفان . ذلك ان دمترى وحده قادر على الاذعان لارادتها والخضوع لسلطانها (لا على

الفور طبعا ، بل بمرور الزمن) ، وذلك « يحقق له الخير كله » ، وهو ما يتمناه له أليوشا من جهة أخرى • ولا كذلك ايفان • فان ايفان لن يقبل الرضوخ في يوم من الايام ، ولن يجعله الخضوع سعيدا بحال من الاحوال ؛ أو هذا على الاقل ما كان أليوشا يقدّره على أساس معرفته بطبع ايفان ، وعلى أساس الفكرة التى قامت فى ذهنه عن ايفان •

هذه الترددات وهذه الخواطر قد ازدحمت فى فكر أليوشا لحظة دخل الصالون • ثم هاجمته فكرة أخرى ، فاذا هو يتساءل : « فماذا لو كانت لا تحب لا هذا ولا ذاك ؟ » • ويحسن أن نلاحظ هنا أن أليوشا كان يشعر بخجل واضطراب من اطلاق أحكام من هذا النوع ، وأنه قد لام نفسه على ذلك مرارا أثناء هذا الشهر الأخير ، « ما معرفتى أنا بالنساء وبالحب ، وكيف أجيز لنفسى أن أرى آراء من هذا القبيل ؟ » كذلك كان أليوشا يقول لنفسه مستاءً كلما اتفق له أن يسترسل فى تأملات أو تخمينات وتقديرات فى هذا المجال • ولكن كان يستحيل عليه من جهة أخرى أن لا يفكر فى هذه المسائل • كان يدرك بغريزته ، مثلا ، أن هذا التنافس بين أخويه الآن يجثم ثقيلا على مصيريهما ، وأنه يحمل فى طياته عواقب ضخمة • « فلتأكل السراطين بعضها بعضا ! » كذلك قال ايفان بالأمس وهو يتحدث حانقاً عن أبيه وعن أخيه دمترى • معنى ذلك أنه يعدُّ أخاه سرطانا ، ولعله يعده كذلك منذ زمان طويل • أفلا يمكن أن يكون قد أصبح يعده سرطانا فى اللحظة التى عرف فيها كاترين ايفانوفنا ؟ صحيح أن هذه الكلمة قد أفلتت من ايفان على غير ارادة منه، ولكن هذا نفسه يجعلها أصدق دلالة وأبلغ كشفاً عن الحقيقة • فكيف يمكن والحالة هذه أن نأمل أن يحل السلام والوئام بينهما ؟ أليس فى هذا مزيد من أسباب الخلاف وعوامل الكره فى داخل الأسرة ؟ وتساءل أليوشا خاصة أيهما فى هذا النزاع أحق بالشفقة عليه والرثاء له ؟ وما

الذى ينبغى أن يتمناه لكل منهما ؟ انه يحبهما كليهما . ولكن فى أى مكان بين جميع هذه التناقضات توجد السعادة التى يتمناها لهما ؟ لقد ارتبك عقل أليوشا أشد الارتباك بين خيوط هذا الظرف المعقد المتشابك المشوش . وهو انسان ذو قلب لا يطيق الحيرة ، لأن حبه يتصف دائما بأنه حب فعال . انه لا يعرف الحب الذى يقف ساكنا بغير حركة . فمتى أحب أصبح يحترق شوقا الى أن يبادر الى المساعدة ، ولا غنى له من أجل هذا عن أن يحدد لنفسه غاية ، وأن يعرف على وجه الدقة والوضوح ما هو خير وما هو ضرورة لكل من أخويه ، حتى اذا عرف ذلك كان سهلا عليه عندئذ أن يخدم قضيتهما . ولكن كل شىء فى حياتهما كان اضطرابا واختلاطا وتعقيدا وابهاما ، وا أسفاه ! فأين يمكن الاهتداء الى غاية معينة وهدف محدد فى داخل ذلك كله ؟ لقد ذُكر أمامه تعبير « الميل الى التمزق » أو « حب التمزق » . فكيف يؤول هذا التعبير ؟ يبدو أن الكلمة الأولى فى هذا اللغز كانت تفوت فكر أليوشا .

ما ان دخل أليوشا فرأته كاترين ايفانوفنا ، حتى أسرعت تقول لايفان فيدوروفتش الذى وقف استعدادا للخروج ، حتى أسرعت تقول له فرحة فرحا واضحا :

ــ لحظة أخرى ! لا تنصرف فورا . أحب أن أعرف رأى هذا الشاب الذى أمحضه ثقة مطلقة .

ثم أضافت تخاطب السيدة هوخلاكوفا :

ــ ابقى أنت أيضا يا كاترين أوسيبوفنا .

وأجلست أليوشا قربها بينما اتخذت السيدة هوخلاكوفا مجلسها أمامهما الى جانب ايفان فيدوروفتش .

وبدأت تقول بحرارة ، والدموع التى يدرك المرء أنها تهمُ أن تسيل من عينيها ، تهدّج صوتها بانفعال صادق أليم :

ـأنتم جميعا أصدقائى ، أنتم أصدقائى الوحيدون فى هذا العالم ..
يا أصدقائى الأخيار ، الأوفياء ...

أحسّ أليوشا فى تلك اللحظة أن المرأة الشابة قد غزت قلبه من جديد .

وتابعت كلامها تقول :

ـ لقد شهدتَ بالأمس ذلك المشهد يا ألكسى فيدوروفتش ... شهدت ذلك المشهد الفظيع ، ورأيت كيف تصرفت أنا ... أنت لم ترنى فى تلك اللحظة يا ايفان فيدوروفتش ، أما هو فقد رآنى . لا أدرى ما الذى رآه فىّ من رأى فى تلك الظروف . ولكنى فى مقابل ذلك أعلم علم اليقين أننى لو وُجدت اليوم فى موقف مماثل لكان ردّى هو الرد الذى بدر منى أمس ، مع تلك العواطف نفسها ، وتلك الأقوال نفسها ، وتلك الحركات نفسها . انك تتذكر يا ألكسى فيدوروفتش الحركات التى بدرت منى أمس ، وقد اعتقدتَ أن من واجبك أن تثنينى ... (احمر وجهها واشتعلت عيناها حين نطقت بهذه الكلمات) . فاعلم يا ألكسى فيدوروفتش ، وأنا أعلن لك هذا جازمة قاطعة ، أننى عاجزة عن الاذعان لأى شىء ، عاجزة عن الرضوخ لأى شىء . واعلمْ أيضا أننى أصبحت لا أدرى فى هذه الساعة أأنا أحبه « هو » أم لا . اننى الآن أشعر نحوه « بشفقة » ، والشفقة علامة حب تافهة مسكينة حقيرة . واذا ظللت أحبه ، اذا ظللت أحبه رغم كل شىء ، فلن أرثى لحاله ، وانما سأكرهه من غير شك ...

أخذ صوتها يرتجف ، والتمعت دموع صغيرة فى أطراف أهدابها . واضطرب أليوشا . قال لنفسه : « هذه الفتاة انسان مخلص صادق ، و ... قد أصبحت لا تحب دمترى ! » .

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ هذا صحيح ، صحيح كل الصحة !

ـ انتظرى يا كاترين أوسيبوفنا ! أنا لمَّا أقل بعد الشيء الأساسي، لم أذكر القرار الذى اتخذته الليلة ولن أتراجع عنه • اننى أوجس أن قرارى هذا سيعود علىَّ بعواقب رهيبة ، ولكننى أعلم أننى لن أنكص على عقبىَّ ، لن أتقهقر الى وراء ، مهما يحدث ، بأية حال من الأحـــوال • لقد حسمت الامر على مدى حياتى كلها • وان صديقى المخلص الوفى ، ان ناصحى النبيل الطيب الذى يعرف قلبى معرفة عميقة ، ان ايفـــان فيدوروفتش الصديق الوحيد الذى أنعم بصداقته فى هذا العالم ، يؤيد رأيى تأييدا تاما ، ويطرى قرارى اطراءً كاملا ، ويشجعنى على المضى فيما عقدت النية عليه ••• وقد عرف قرارى •••

قال ايفان فيدوروفتش بصوت رفيق لكنه حازم :

ـ أنا أؤيد قرارك ••• هذا صحيح !

ـ أحب مع ذلك أن يقول لى أليوشا (أوه ••• اغفر لى يا ألكسى فيدوروفتش اننى سميتك أليوشا) ، أحب أن يقول لى ألكسى فيدوروفتش هو أيضا ، بحضور صديقىَّ ، أأنا على حق أم لا ؟

وتابعت تقول بحماسة وهى تمسك بيدها الحارة يدَ أليوشا الباردة:

ـ أنا على يقين غريزى ، يا أليوشا أخى (ذلك أنك أخى العزيز الغالى) ••• أنا على يقين ••• أنا أحس أن جوابك وتأييدك سيعيدان السلام الى نفسى رغم كل ما أقاسيه الآن من ألوان العذاب ، واننى سأقبل مصيرى وأرتضى قدرى بعد أن أســمع كلامك ••• نعم ، أنا أحس ذلك !

قال أليوشا وقد تخضب وجهه بحمرة قانية :

ـ لا أعرف ما هو الامر ! ولكننى أحبك بكل قلبى ، وأحرص على سعادتك أكثر من حرصى على سعادتى ...

ثم أسرع يضيف ، لا يدرى أحد لماذا :

ـ على أننى لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً .

ـ فى هذه الامور ، يا ألكسى فيدوروفتش ، المسألة الآن مسألة شرف وكرامة وواجب ، وربما شىء آخر أيضا ، شعور لا أستطيع أن أعرِّفه ، ولكنه فوق الواجب . هو نداء أعلى أسمعه فى قلبى ، وقوة لا تقاوَم تهيب بى أن ألبيه . وأُجمل فأقول اننى قد اتخذت قرارى ، واليك هذا القرار : هَبْه تزوج هذه ... المخلوقة (هنا أصبح صوتها مهيباً) ... هبه تزوج هذه المخلوقة التى لن أغفر لها أبدا ، أبدا ... فاننى لن أتركه هو ، حتى فى هذه الحالة ! ... لن أتركه بعد اليوم ، وسأظل دائما الى جانبه (كذلك قالت بنوع من حماسة غريبة حزينة) . لن أتعلق بكمِّه طبعا ، لن أحاصره بوجودى دائما ، لن أعذبه بحبى أبدا ... بالعكس ... سأسافر الى مدينة أخرى ، الى مدينة نائية ، نائية كل النأى اذا اقتضى الامر ذلك ، ولكننى سأظل أهتم به من بعد ، وأسهر عليه طوال حياتى لا أكل ولا أمل . فاذا شقى مع الأخرى ـ وذلك أمر لن يتأخر كثيرا ـ فلن يكون عليه الا أن يعود الىَّ ، فيجد فىَّ صديقة مخلصة ، أختاً حنونا ... أختاً لا أكثر ... طبعا ... ذلك أن كل شىء بيننا لن يتجاوز هذه الحدود فى المستقبل . يجب أن يعلم يومئذ اننى أخت له حقا ، أخت مخلصة ضحَّت فى سبيله بحياتها كلها . سوف أحسن التصرف بحيث يعرفنى أخيرا ، سوف أجبره على أن يعرفنى ، وسيصل من ذلك الى الاعتماد علىَّ بلا خجل . سأكون الاله الذى يصلى له : ذلك أقل ما يجب عليه لى تكفيرا عن خيانته وعمَّا قاسيته أمس بسببه ! يجب أن يعرف وأن يرى فى جميع أيام حياته أننى وفية له

الى الأبد ، وأنني أحفظ العهد رغم أنه خانني وهجرني • سأكون ••• سأصبح ••• سأجعل نفسي أداةً لسعادته (أحسب أنني لا أجيد التعبير عما بنفسي) ، سأجعل نفسي آلة تصنع له السعادة ، وذلك طوال حياتي ،، طوال حياتي ••• ليرى هو هذا طوال حياته ! ذلك هو قراري ! ان ايفان فيدوروفتش يؤيدني تأييدا كاملا •

كانت تلهث • لا شك أنها كانت تتمنى أن تفصح عن نفسها افصاحا أرصن وأبرع وأيسر ، غير أن كلماتها قـد تدفقت سريعة ، مترجمـة عواطفها بلغة فيها كثير من الانطلاق المباشر العنيف • ان المرء يحس ، في جميع ما قالته ، اندفاع شبابها وبقايا غضب الأمس وحاجتها الى تأكيد عزتها وكبريائها من جديد • وقـد أدركت هي ذلك على حين فجأة ، فأظلم وجهها والتمع في عينيها تعبير شرير • ولاحظ أليوشا هذا ، فأخذته بها شفقة • وتدخل ايفان في تلك اللحظة يقول :

ـ أنا لم أعبّر الا عن رأيي الشخصي • ان عواطف من هذا النوع كان يمكن أن تبدو ، عند أية امرأة أخرى غيرك ، عواطفَ مصطنعةً مفتعلة هي ثمرة جهد ارادي شاق أليم معذِّب ، أما عندك أنت فلا ••• لو تصرفت امرأة أخرى هذا التصرف لكانت على خطأ ، أما أنت فلا •• لست أدري كيف أعبّر عن شعوري ، ولكنني ألاحظ أنك صادقة الى أبعد حدود الصدق ، فاستنتجمن ذلك أنك على صواب •

فلم تستطع السيدة هوخلاكوفا أن تمنع نفسها من أن تقول :

ـ هي صادقة ، ولكن خلال لحظة واحدة ! ما قيمة قرار عابر سريع تتخذه وهي تحت وطأة اهانة الأمس ؟ ذلك هو السبب في قرارها هذا !

كان واضحا أن السيدة هوخلاكوفا لم تكن تريد أن تقحم نفسـها

في المناقشة ، ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فأفلتت منهـا هـذه الملاحظة السديدة •

فقال ايفـان بعنف مكظوم ، وقـد بدا عليه الاستياء والحنق من مقاطعته :

ـ صحيح ••• غير أن ما يمكن أن لا يكون لدى امرأة أخرى الا اندفاعا مؤقتا مردُّه الى حادث الأمس ، لا يمكن الا أن يبقى مدى الحياة لدى امرأة لها طبع كطبع كاترين ايفانوفنا • ان ما يمكن أن لا يكون من فتاة عادية الا كلاماً يُطلق فى الهواء ووعداً ما يلبث أن ينسى ، لا بد أن يصبح لدى فتاة مثل كاترين ايفانوفنا واجباً باقياً والتزاماً مستمرا قد قد يكون قاسيا أليما حزينا ، ولكنه لا مفـر منه ولا عدول عنـه • ان كاترين ايفانوفنا ستحيا على هذا الشعور بأنها قامت بواجبها • ان حياتك ، يا كاترين ايفانوفنا ، ستنقضى بعد اليوم فى تأمل أليم لعواطفك وبطولتك وشقائك • على أن هذا الشقاء ستخف وطأته مع الزمن ، وسيستحيـل شيئاً فشيئاً الى رضى هادىء عـذب عن أنك عرفت كيف تخلصين حتى النهاية لقرار جرىء فيه كبرياء ••• نعم فيه كبرياء بمعنى من المعانى ، ولكن فيه يأس فى الدرجة الأولى ••• وستنتصرين آخـر الأمر ••• وسيملؤك هذا الشعور يومئذ بفرح هادىء وغبطة ناعمة ، وسيصالح بينك وبين كل ما عدا ذلك •••

تكلم ايفان بلهجة نافذة فيهـا غضب مكبوح • وكان واضحا أنه يسخر وأنه لا يريد أن يتخفى ، ولعله كان يتمنى أن تُدرَك سخريته•

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ هذا كله خطأ ، هذا كله زيف !

فقالت عندئذ كاترين ايفانوفنا وقد أخذت الدموع تسيل على خدها :

ـ ألكسى فيدوروفتش ! هلاً قلت رأيك أخيرا ! اننى أشعر بحاجة شديدة قاهرة الى معرفة رأيك .

نهض أليوشا عن الديوان .

وتابعت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة من خلال دموعها :

ـ ليس هذا بشىء ، ليس هذا بشىء البتة . اننى مرهقة الأعصاب بسبب هذه الليلة التى قضيتها أرقة مسهدة . ولكننى ، بحضور صديقين مثلكما أنت وأخيك ، أشعر بأننى قوية ... ذلك لأننى أعلم أنكما لن تتركانى أبدا .

قال ايفان فيدوروفتش فجأة :

ـ آسف . قد أضطر أن أسافر الى موسكو منذ الغد ، وأن أتركك فترة طويلة .

ـ الى موسكو ؟ منذ الغد ؟

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وتقبض وجهها . ثم أردفت تهتف قائلة بصوت تغير فجأة ، وقد كفت دموعها عن السيل حتى أصبحت آثارها لا تُرى :

ـ ولكن ... ولكن هذا يقع فى حينه ... يجىء فى وقته ! يا رب !

فما كان أشد دهشة أليوشا لهذا التغير المذهل الذى حدث فى نفسها ! ان الفتاة الشقية المهانة التى كانت تبكى عواطفها منذ برهة ، وهى فى حالة توتر ممزق ، قد حلت محلها الآن امرأة تسيطر على نفسها كل السيطرة ، وتبدو راضية ذلك الرضى الذى يعقب فرحاً مباغتاً .

وسرعان ما استدركت تصحح موقفها وهى تبتسم ابتسامة مهذبة :

ـ أوه ... لا يذهبن بك الظن الى أننى ابتهجت لتركك ... طبعا لا ... ان صديقا مثلك لا يمكن أن يذهب به الظن هذا المذهب ، وأن ينسب لى مثل هذه العواطف ... بالعكس : اننى لأحزن أشد الحزن حين أتصور أننى سأفقدك (قالت ذلك واندفعت نحو ايفان فيدوروفتش ، فأمسكت يديه وشدتهما بكثير من الحرارة) . ولكنه حظ سعيد موفق أن تستطيع أن تشرح بنفسك لعمتى ولأختى آجاتى ، فى موسكو ، الظرف الذى أنا فيه . حدثهما عن فظاعة الأيام التى عشتها هنا ، فأما مع آجاتى فبصراحة ، وأما مع عمتى العزيزة فبشىء من المداراة. وانى لواثقة على كل حال من أنك ستجد بنفسك الصيغة المناسبة لاطلاعهما على حقيقة الأمور . لا تستطيع أن تتصور مدى ما عانيته أمس واليوم من عذاب وأنا أتساءل كيف أتدبر أمرى لأكتب اليهما هذه الرسالة الرهيبة ... ذلك أن من المستحيل على المرء أن يروى هذه الأشياء كتابة ... أما الآن فقد أصبح الأمر سهلا : ستلقاهما بنفسك فتشرح لهما كل شىء! آه ... ما أسعدنى ! هذا هو السبب الوحيد فيما رأيت من فرحى . صدقنى ! ... وانك لتعلم أنت نفسك على كل حال ، أنه مامن شىء يمكن أن يحل عندى محل صداقتك ...

وختمت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة وهى تتجه نحو باب الغرفة :

ـ سأكتب الرسالة حالا .

فسألتها السيدة هوخلاكوفا بلهجة لاذعة حانقة :

ـ وأليوشا ؟ أليوشا الذى كنت تحرصين ذلك الحرص كله على أن تعرفى رأيه ؟

فأجابتها كاترين ايفانوفنا قائلة :

ــ ما نسيته .

ثم سألتها بلهجة عتاب فيها مرارة ومودة :

ــ ولكن لماذا ، لماذا تظهرين لى الآن هذه العداوة كلها يا كاترين أوسيبوفنا ؟

وتابعت تقول :

ــ ما زلت مصرّة على ما قلته . اننى لا غنى لى عن معرفة رأيه. بل اننى أريد منه أكثر من هذا : أريد منه أن يتخذ لى قرارا . وسأتبع ما ينصحنى به . فانظر يا ألكسى فيدوروفتش الى أى مدى أنا فى ظمأ الى سماع كلامك ... ولكن ماذا بك ؟

صاح أليوشا يقول فى ألم :

ــ ما كان لى أن أصدّق هـــذا فى يوم من الايام ! ما كان لى أن أتخيل هذا فى يوم من الايام !

ــ ماذا ؟

ــ يسافر الى موسكو ثم تهتفين قائلة : ما أسعد ذلك ! لقد قلت هذا عامدةً ! وما كدت تقولينه حتى استدركت تؤكدين له أنك لا تغتبطين لسفره ، وأنك على عكس ذلك يُحزنك فقده . وهذا أيضا قلته عامدة ... كما فى المسرح ... كما لو كنت تمثلين تمثيلاً ! ...

ــ كما فى المسرح ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

كذلك سألت كاترين ايفانوفنا بحرارة وقد بلغت أوج الدهشة .

لقد احمر وجهها احمرارا شديدا ، وقطبت حاجبيها .

واستأنف أليوشا كلامه :

ـ وفيما ترددين على مسامعه أنك حزينة لحـــرمانك من صديق عزيز ، تصرحين له وجهاً لوجه أن سفره الى موسكو يملؤك ارتياحاً •

ـ الى ماذا تريد أن تصــل ؟ ما الذى تريد أن تســــتنتجه ؟ اننى لا أفهم •

ـ أنا نفسى لا أعرف تماما ••• لقد تراءت لى الحقيقة فجأة كأنمـا فى ضوء برق •••

وتابع أليوشا كلامه يقول بصــوت يختلج ألماً حتى ليـــوشك أن ينكسر :

ـ أنا أحس أننى أرتكب خطأ اذا عبرت عن مشــاعرى ، ولكننى سأقول ما بنفسى مع ذلك • اليك ذلك الضوء الذى رأيته : انك لا تحبين أخى دمترى •• ولعلك ما أحببته فى يوم من الأيام ••• ثم ان دمترى أيضا لا يحبك ••• فيما أظن ••• لا هو يحبك الآن ، ولا هو أحبك فى الماضى •• وانما هو يقدرك ويحترمك فحسب ••• اننى أتســاءل : ما الذى يجيز لى أن أكلمك هكذا ••• ولكن لابد أن يعزم أحدٌ أمره على أن يقــول الحقيقــة أخيراً ••• ما دام لايريد أحــد هنا أن يعترف بها •••

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول بصوت فيه شيء من الهستريا :

ـ أى حقيقة تعنى ؟ عن أية حقيقة تتكلم ؟

فتمتم أليوشا يقول وهو يحس أنه يهوى فى هاوية :

ـ عن أية حقيقة أتكلم ؟ اليك الحقيقة التى أتكلم عنها • استدعى دمترى ـ وأنا أعرف كيف يمكن العثور عليه عند الضرورة ـ استدعيه ، وليتناول يدك فيضعها فى يد أخى ايفان • انك لا تريدين على أن تعذبى

ايفان ، وذلك بسبب بسيط ، هو أنك تحبينه ـ وأنت انما تعذبينه لشغفك بالتمزق ... لأنك تخيلت حباً مصطنعاً لدمترى ... حباً لا تشعرين به البتة ... وتحاولين أن تقنعى نفسك به .

قال أليوشا ذلك ثم توقف عن الكلام فجأة وصمت .

ـ ما أنت ... ما أنت الا أبله صغير ... ما أنت الا يوروديفوى ... ذلك أنت !

كذلك قالت كاترين ايفانوفنا بصوتها القاطع الجازم ، وقد شحب وجهها شحوباً شديدا وظهر على شفتيها انهما تنعقفان غضبا مسعورا .

وأخذ ايفان فيدوروفتش يضحك فى تلك اللحظة ، ونهض عن مكانه حاملاً قبعته بيده . وقال يخاطب أليوشا وقد ظهر فى وجهه تعبير لم يره فيه أليوشا قبل ذلك يوما ، تعبير يفيض صدقاً كصدق المراهقين ، ويفيض صراحة منطلقة على سجيتها :

ـ أنت مخطىء يا أليوشا . فان كاترين ايفانوفنا ما أحبتنى فى يوم من الأيام . وكانت تعلم منذ البداية أننى أحبها ، رغم أننى لم أحدثها فى حبى قط . كانت تعلم ذلك ، ولكنها لم تحبنى . لا ولا كنت صديقها فى ظرف من الظروف . ان هذه المرأة المتكبرة لم تكن فى حاجة الى صداقتى . وهى لم تحتفظ بى الى جانبها الا لتستطيع ارواء ظمئها الى الانتقام ، الا لتثأر منى ، نعم منى أنا ، لجميع الاذلالات والاهانات التى أنزلها فيها دمترى منذ أول لقاء بينهما ... ذلك أن ذكرى هذا اللقاء الأول قد بقى فى نفسها اهانة أليمة وجرحاً بالغاً . هذه هى كاترين ايفانوفنا ! وأنا لم أجىء الى هنا الا لأصغى اليها متحدثة عما تحمله من حب لدمترى . وسأنصرف الآن . ولكن اعلمى يا كاترين ايفانوفنا أنك لا تحبين حقاً الا دمترى . وستحبينه مزيداً من الحب على قدر ماسيذلك

مزيدا من الاذلال . ذلك هو تمزقك كله ! فأنت انما تحبينه كما هو ؟ أنت انما تحبين فيه الرجل الذى يهينك ! ولو أصلح نفسه فى يوم من الأيام ، اذن لكففت عن الاهتمام به فوراً ، ولأشحت وجهك عنه حتماً. ولكنك محتاجة اليه ، كيما تستطيعى أن تتأملى منظـــر وفائك البطولى ، وكيما يتاح لك أن تأخذى عليه خياناته ... وذلك كله زهواً وصـلفاً وتكبرا ! ان ههنا جحيما من مذلة تريدينها وتتحملينها ، والكبرياء هى التى تدفعك دفعا الى السعى وراء هذا الجحيم ... اننى ما زلت فى ريعان الشباب ، ولقد أحببتك فأسرفت . والآن أدرك أن ابتعادى صامتا أحفظ لكرامتى أنا ، وأخف وطأة على جـــروحك أنت . ولكننى سأسافر الى مدينة نائية ، ولن أراك بعدئذ أبدا . لقد سئمت من أن أكون شاهدا أبديا على تمزقاتك النفسية ! ... أحسب أننى لا أحسن التعبير الآن عما يعتلج فى قلبى ويدور فى خلدى . ولقد انتهى الأمر على كل حال ... لقد قيل كل شىء ... فوداعاً يا كاترين ايفانوفنا . وليس من حقـــك أن تؤاخذينى وأن تحقدى على ، لأن العقاب الذى أناله أنا أقسى كثيرا من العقاب الذى تنالينه أنت . حسبى عقاباً أننى لن أراك بعد اليوم أبداً . وداعاً ! لا تمدى الىّ يدك . لقـــد آلمتنى ايلاماً فيه من الوعى والعمـد ما يجعلنى لا أستطيع أن أغفر لك فى هـــذه اللحظة . قـد أنساك فى المستقبل ، أما الآن فلا أستطيع أن أصافح يدك .

ثم أضاف ينشد هذا البيت من الشعر :

بالشكر يا سيدتى لا أحفل *

وقد أنشد هذا البيت من الشعر وهو يبتسم ابتسامة يجبر نفســه عليها اجباراً ، مبرهناً بهذا الاستشهاد ، على نحو لم يكن فى الحسبان ، أنه يستطيع هو أيضـــا أن يقرأ الشاعر شـيلر فى هوى وشغف ، وأن

يحفظ أبياتا من شعره على ظهر القلب ، وذلك أمر ما كان لأليوشا أن يتخيله من قبل • ثم خرج من الغرفة حتى دون أن يودع ربة البيت •

صاح أليوشا يناديه بصوت تائه ، ضاماً يديه احداهما الى الأخرى:

ـ ايفان ، ايفان ! ارجع يا ايفان ، ارجع !

ثم أضاف يقول بمرارة كأنما رسخ في نفسه يقين مباغت :

ـ لا ••• لا ••• انه لن يعود ••• لن يعود مهما يكن الثمن••• أنا أعرف ذلك • هي غلطتي ، هي غلطتي أنا ••• انني بما قلته سبب هذا كله ! لقد قال ايفان أشياء شريرة ظالمة ••• ما كان ينبغي له أن •• هذا ظلم ! •••

وكان أليوشا يصيح بهذه الأقوال مفككة غير مترابطة ، كمجنون !

وفي تلك اللحظة مضت كاترين ايفانوفنا الى الغرفة المجاورة •

وهمست السيدة هوخلاكوفا تقول لأليوشا في أسف ولوعة :

ـ ليس هناك ما تؤاخذ نفسك عليه • بالعكس : لقد تكلمْتَ كملاك • سأفعل كل ما يمكن أن أفعله حتى لا يسافر ايفان •

وقد أضافت هذه الجملة الأخيرة متحمسة ، وأشرق وجهها فرحاً، رغم ما كان فيه أليوشا من حزن شديد • ولكن كاترين ايفانوفنا رجعت في تلك اللحظة من الغرفة الثانية حاملةً ورقتين نقديتين كلٌّ منهما بمائة روبل •

وقالت تخاطب أليوشا مباشرة ، بلهجة هادئة طبيعية الى أقصى حد، كأن شيئا لم يحدث :

ـ لي عندك رجاء كبير يا ألكسي فيدوروفتش • منذ أسبوع •••

نعم ، أحسب أن هذا وقع منذ أسبوع ... ثار دمترى ثورة عنيفة ظالمة ، فأباح لنفسه ارتكاب فعلة كريهة . ان فى هذه المدينة مكانا مشبوها هو نوع من « كاباريه » ، التقى فيه دمترى ، فى ذلك اليوم ، بضابط محال على التقاعد هو ذلك الضابط الذى يستعين به أبوك فى بعض شئونه . وقد غضب دمترى من هذا الرجل غضبا شديدا ، لا أدرى لماذا ، فأمسكه من لحيته وجرّه الى الشارع جراً سفيهاً على مرأى من جميع الناس ، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً خلال مدة طويلة . وقد ذكر الذين شهدوا الحادث ان ابن هذا الضابط ، وهو صبى يختلف الى مدرسة المدينة ، صبى صغير فيما يبدو ، قد أخذ يركض الى جانب أبيه باكياً ناشجاً منتحباً متوسلاً الى أخيك أن لا يؤذى أباه ، متضرعا الى شهود الحادثة أن يتدخلوا لحماية أبيه ، ولكن أحدا لم يسمع له ولم يصغ اليه ، وانما كانوا جميعا يضحكون. معذرة يا ألكسى فيدوروفتش ! ولكننى لا أستطيع الا أن أشعر باستياء شديد واستنكار عظيم حين أتذكر هذا السلوك المخزى الذى سلكه أخوك فى ذلك الظرف ، حين أتذكر تلك الفعلة المشينة التى لا يستطيع أن يقدم عليها أحد فى هذا العالم غير دمترى فيدوروفتش بأهوائه الجامحة وعيوبه الكثيرة ! بل اننى لأعجز عن رواية هذه الحادثة على النحو المناسب ، فذلك يفوق طاقتى ... لذا ترانى أتيه فى سردها واضطرب ... وقد سألت عن الرجل الذى أهانه أخوك هذه الاهانة ، فعرفت أنه يعيش فى فقر مدقع وبؤس رهيب . ان اسمه هو سنيجيريف . لقد ارتكب خطيئة ما أثناء خدمته فى الجيش ، فسُرِّح ... لا أدرى تماما . وقد صار هو وأسرته البائسة ، أولاده المرضى وامرأته المجنونة فيما أظن ، صاروا أخيرا الى حالة رهيبة من العوز والفاقة . انه يعيش فى هذه المدينة منذ مدة طويلة ، وكان قد وجد وظيفة فى مكتب من المكاتب فيما يبدو ولكنهم قطعوا عنه راتبه على حين

فجأة • عندئذ خطــرتَ أنت ببالى ••• أو قل اننى قدَّرت أن ••• لا أدرى ماذا دهانى حتى صرت لا أعرف ماذا أقـول ••• ان كلامى مضطرب • أردت أن أرجوك يا ألكسى فيدوروفتش ، يا عزيزى الطيب الشهم ألكسى فيدوروفتش ، أردت أن أرجوك أن تذهب الى هذا الرجل متذرعا بحجة مناسبة ، متعللا بعذر لائق ، فتراهم ، أقصد ترى هــذا الضابط ••• أوه ••• رباه ! اننى أخلط كل شىء ••• فتعطيه هــذه المساعدة الطفيفة بطريقة لبقة ، كريمة ••• كما لا يستطيع أحــد أن يفعل ذلك مثلك على كل حال (احمر وجه أليوشا عند سماعه هــذه الكلمات) ، أن تعطيه هاتين المائتين من الروبلات بأسلوب مرهف حكيم محاذر • انه سيقبل هذه المساعدة حتماً ••• أقصد أن عليك أن تلح فى سبيل أن يقبلها ••• هل فهمت ما أقصده ؟ اللهم الا أن •• ولكن لا•• يجب أن تشرح له أن الامر ليس استرضاءً له حتى لا يشكو أمره الى القضاء (يبدو أنه نوى أن يشكو أمره الى القضاء فى لحظة من اللحظات)، وانما هو شعور بالمودة له ، ورغبة فى مد يد المساعدة اليه • وليعلم أيضا أن هذا المبلغ هو منى أنا ، منى أنا ، أى من خطيبة دمترى فيدوروفتش ، لا من دمترى فيدوروفتش نفسه ••• الخلاصــة : ســتعرف كيف تتصرف ••• كان يمكن أن أذهب اليه أنا ، ولكنى أعلم أنك ستدبر الأمر خيراً منى • انه يسكن فى « شارع البحيرة » عند امرأة من سكان المدينة اسمها كاليكوفا ••• قدم لى هذه الخدمة يا ألكسى فيدوروفتش ، أرجوك ، أتوسل اليك ••• أشعر الآن بأنى متعبة ••• أشـعر شىء من الاعياء ••• الى اللقاء •••

قالت ذلك واستدارت على عقبيها وبلغت من الاسراع الى الاختفاء وراء الباب أن وقت أليوشا لم يتسع حتى لقول كلمــة واحــدة • وكان أليوشا مع ذلك يشــعر بحاجة قــوية الى أن يكلمها • كان يريد أن

يستغفرها ، أن يعتذر اليها ، أن يتهم نفسه أمامها ، لأن قلبه كان يفيض في تلك اللحظة حباً ، فلم يعزم أمره على مبارحة الغرفة . ولكن السيدة هوخلاكوفا أمسكته من يده وقادته الى خارج الحجـــرة ، ثم توقفت في الدهليز ، كما فعلت قبل ذلك ، من أجل أن تكلمه .

قالت له السيدة هوخلاكوفا بصوت خافت :

ـ انها متكبرة تصارع نفسها ، ولكنها طيبة ، رائعة ، كريمة ، الى أقصى الحدود . ليتك تعلم كم أحبها ، ولا سيما في بعض اللحظـات ، وكم يعاودني الشعور بالرضى من جديد ، وكم ترتد الىّ السعادة بكل شيء ! يجب علىّ يا ألكسى فيدوروفتش أن أبوح لك بشيء كنتَ تجهله حتى الآن . اعلم اننا جميعا ، جميعا ، أقصد أنا وعمتيها ، أي جميعــا ، وحتى ليزا ، كنا نتمنى ونتوقع ، منذ أكثر من شهر الى الآن ، أن تعــزم أمرها أخيرا على أن تقطع صلتها بدمترى فيدوروفتش الذى تؤثره أنت، وذلك لأنه لا يريدها ولا يحبها ، وأن تتزوج ايفان فيدوروفتش الذى هو على جانب عظيم من سعة الثقافة وامتياز الطبع ، والذى يحبها أكثر مما يحب أي شيء في هذا العالم . حتى لقد دبـَّرنا مؤامرة لبلوغ هــذا المأرب وتحقيق هذا الهدف ، ولعل ذلك أيضا هـــو السبب في أنني لم أسافر بعد ...

صاح أليوشا يقول :

ـ ولكنها عادت تبكى من شعورها بالمذلة .

ـ لا تصدّق دموع النساء يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا في هـــذه الحالات أتحيز للرجل على المرأة . أنا مع الرجال .

وهنا دوّى صوت ليزا الناحل من وراء الباب يهتف :

ـ ماما ، انك تفسدينه بالدلال ، انك تودين بك الى الهلاك !

وردّد أليوشا الحزين الذى لا سبيل الى عزائه ، ردد يقول وهو يشعر بخزى شديد من غضبته ، ويخفى وجهه بيديه خجلاً وحياء واضطرابا :

ـ شيء رهيب ! أنا سبب هذا كله ! لقد قارفت خطيئة لا تغتفر !

فقالت له السيدة هوخلاكوفا :

ـ بالعكس : لقد تصرفت تصرف ملاك ، تصرف ملاك ... لن أمل من تكرار هذا ...

وصاح صوت ليزا الناحل يقول مرة أخرى :

ـ كيف كان تصرفه تصرف ملاك ؟

وتابع أليوشا كلامه قائلاً وكأنه لم يسمع سؤال ليزا :

ـ لقد تراءى لى فجأة ، وأنا أنظر اليهما ، تراءى لى فجأة أنها تحب ايفان ، فأفلت منى ذلك الكلام الأحمق ... ما عسى يحدث الآن ؟ ...

ـ عمن تتكلمان يا ماما ؟ عمن تتكلمان ؟ انك تميتينني يا ماما ! ألقى عليك أسئلةً ولا تجيبين ! ...

وفى تلك اللحظة دخلت الخادم مسرعة تقول :

ـ كاترين ايفانوفنا فى حالة سيئة ... الآنسة تبكى ... تتخبط كأنها فى نوبة هستريا ...

وعادت ليزا تصيح قائلةً فى هذه المرة بصوت قلق مروّع :

ـ هلاّ قلت لى يا ماما أخيرا ما هى الفضية ؟ ماما ، أنا التى سأصاب الآن بنوبة هسترية ، لا هى ! •••

ـ هدئى نفسك يا ليزا ، ناشدتك الله ! انك تقتلينني بهذا الصراخ! ان عمرك لا يسمح لك بعدُ أن تعرفى كل شىء كما يعـرفه الكبار • سأجىء اليك بعد قليل فأطلعك على ما يمكن أن أطلعك عليه • آوه ! رباه ! أنا ذاهبة اليها ، أنا ذاهبة اليها ••• نوبة عصبية ••• ولكنْ هذه علامة طيبة يا ألكسى فيدوروفتش ! حسنٌ جداً أن تنتابها نوبة من هذا النوع ••• ذلك ما يجب أن يحدث ••• أنا أقف دائما ضدّ النساء فى هذه المناسبات ، ضد نوباتهن ودموعهن • يا جوليا ، امضى اليها فقولى لها اننى آتية اليها حالاً • سأدركها فوراً • على كل حال ليس عليها الا أن تحمّل نفسها تبعة خروج ايفان فيدوروفتش على ذلك النحو ! ولكنه لن يسافر • ليزا ، لا تصرخى ، لا تصرخى ، ناشدتك الله ! صحيح أنك لا تصرخين • فأنا التى صرخت • سامحى أمك يا ليزا ، ولكننى سعيدة، سعيدة جدا ، سعيدة سعادة رهيبة ! هل لاحظت يا ألكسى فيدوروفتش كم كان وجهه فتياً ، أخوك ايفان ، حين تكلم وحين خرج على ذلك النحو ؟ انه يُشعر بأنه مثقف جدا ، عالم جدا ، ثم ها هو ذا يكشف فجأة عن أنه شاب حقا ، حار القلب ، صادق النفس ، يزخر بنضارة الفتوة ، وهو قليل التجربة ، قليل التجربة جدا • آه ••• ما أروع هـذا ، ما أجمله ، ما أعظم أثره فى الفؤاد ! هو مثلك تماما ! •• وهذا البيت من الشعر الذى رواه ، هذا أنت أيضا ••• أنا ذاهبة اليها الآن ، أنا ذاهبة اليها •• أسرع يا ألكسى فيدوروفتش ، فقم بالمهمـة التى عهدت بها اليك ، ثم ارجع الى هنا بأقصى سرعة • ليزا ! ألست فى حاجة الى شىء ؟ أستحلفك بالله أن لا تؤخرى ألكسى فيدوروفتش ، سيعود اليك بعد بضع لحظات••

وخرجت السيدة هوخلاكوفا أخيرا مسرعة •

حاول أليوشا ، قبل انصرافه ، أن يدخل على ليزا ، ولكن البـاب كان مغلقاً • وهتفت ليزا تقول له :

ـ أبدا ••• مستحيل ••• لن أطيق الآن أن تجيء الىّ ••• تكلم من خلف الباب • ما الذى جعلك تستحق أن توصف بأنك ملاك ؟ هذا هو الأمر الوحيد الذى أحب أن أعرفه •

ـ هو قولى كلاماً سخيفا غبياً يا ليزا !

صاحت ليزا تقول :

ـ لا أسمح لك أن تمضى هكذا !

ـ ليزا ! ان بى حزناً كبيرا • سأعود بعد قليل • ان عذابى كبير، كبير جدا ، صدقينى •

وخرج مسرعاً •

SS

٦

التمزق في الحزبة

كان حزنه كبيرا جدا قلما شعر بمثله من قبل. لماذا تعجل فقال ذلك الكلام ؟ لقد ارتكب « حماقة » ! وفي أي موضوع ؟ في موضوع حب ... « أنا أعلم حق العلم أنني لا أفهم في هذا الأمر شيئا ، فكيف أمكن أن أدعي ادراك شأن من هذه الشئون ادراكا واضحا ؟ » . كذلك ردَّد يسأل نفسه للمرة المائة وهو يحمر خجلاً وحسرة . « ليس العار الذي أشعر به شيئا يُذكر ، فهو العقاب الذي أستحقه وانما الشقاء الحق هو أنني سأكون سبب كوارث جديدة.. لقد أرسلني شيخي العالم لأوحِّد بين المختلفين وأصالح المتخاصمين ، أفبهذه الطريقة يكون ذلك ! » . وتذكر أليوشا في تلك اللحظة اليدين اللتين أراد أن يضع احداهما في الأخرى ، فازداد اضطرابه الى أقصى حد . وأخيرا قال لنفسه دون أن يتخفف من ألمه ، ودون أن يسرَّى عنه : « لئن كان تصرفي مخلصاً في تلك المناسبة ، فيجب أن أبرهن في المستقبل على مزيد من الذكاء والعقل » .

ان المهمة التي كلفته كاترين ايفانوفنا أن يقوم بها ، تضطره أن يذهب الى « شارع البحيرة » . وأخوه دمتري يسكن غير بعيد عن هناك، في زقاق جانبي . فقرر أليوشا أن يرى أخاه على أية حال قبل أن يمضي

الى الضابط المتقاعد ، رغم احساسه بأنه لن يجده فى منزله • كان أليوشا يشعر أن أخاه سيحاول أن يتجنبه بعد اليوم ، ولكنه أراد أن يعثر عليه مهما كلف الأمر • والوقت يمضى فى أثناء ذلك سريعا • وصورة الشيخ المحتضر لم تبارح أليوشا لحظة واحدة منذ خرج من الدير ، فهى تلاحقه حيثما يذهب •

هناك نقطة أشارت اليها كاترين ايفانوفنا ، فأثارت انتباهه اثارة قوية • لقد جاءت على ذكر ابن ذلك الضابط ، تلميذ المدرسة الذى كان يركض الى جانب أبيه باكياً منتحباً ؛ وقد قال أليوشا لنفسه فى تلك اللحظة : لابد أن هذا الولد هو الصبى الذى عضه فى أصبعه ، حين سأله فيم أساء اليه • وأصبح أليوشا الآن على مثل اليقين من أنه هو ذلك الصبى نفسه ، دون أن يدرك سبب هذا اليقين ادراكاً واضحاً • وقد صرفته هذه التأملات لحظةً عن همومه الثقيلة ، واذ استرد شجاعته ورباطة جأشه قرر أن لا « يجتر » بعد الآن طويلاً فكرة تلك الخرافة التى بدرت منه وتلك « المصيبة » التى سبَّبها ، وأن لا يرهق نفسه بعد الآن بحسرات عقيمة وأسف لا جدوى منه ولا طائل تحته ، وانما يعمل ويرى كيف ستجرى الأمور • وقد سرِّى عنه هذا القرار وخفف ما كان يشعر به من حزن ثقيل • ولاحظ عندئذ أنه جائع ، فلما دخل فى الزقاق المؤدى الى حيث يسكن دمترى ، أخرج من جيبه رغيف الخبز الصغير الذى أخذه من عند أبيه ، فأكله ، فاسترد شيئاً من قوته •

لم يكن دمترى فى المنزل • فلما سأل أليوشا أهلَ المنزل ـ وهم نجار عجوز وامرأته وابنهما ـ أخذ هؤلاء يلقون على أليوشا نظرات متغطرسة فيها شك وحذر وتخوف •

قال العجوز لأليوشا الذى ألح فى السؤال عن أخيه :

ـ انه لم يبت هنا منذ ثلاث ليال ، فلعله سافر •

SS

فبدا لأليوشا أن جواب العجوز تنفيذ لأوامر أصدرها اليه دمترى.

قال أليوشا يسأل العجوز مرة أخـــرى ، متعمدا أن يذكـر هذه المعلومات السرية :

ـ أتراه عند جروشنكا ؟ أم تراه مختبىء عند توماس مثلاً ؟

ولكن أصحاب الدار رشقوه بنظرة تشبه أن تكون مذعورة . فقال أليوشا لنفسه : « هم يحبونه اذن ، ما داموا ينحازون الى صفه . » .

قفل أليوشا راجعا ووصل أخيرا الى « شارع البحيرة » ، أمام منزل ساكنة المدينة الصغيرة كاليكوفا ، وهو خربة عتيقة متداعية ليس لهـا الا ثلاث نوافذ تطل على الشارع ، وفناؤها قذر جدا رأى فيه أليوشا بقرة. ان الدخول الى الفناء يتمُّ عبرَ حجرة صغيرة تتصل من الجهة اليمنى بمسكن صاحبة البيت العجوز وابنتها المتقدمة في السن كثيرا هيالأخرى. والمرأتان تبدوان صماوين قليلا ، فقد اضطر أليوشا أن يكرر لهما سؤاله عن الضابط عدة مرات . وفهمت احداهما أخيرا أن أليوشا انما يسأل عن الرجل القاطن في دارهما مستأجرا ، فأومأت باصبعها نحو الجهـة الاخرى من حجرة الدخول ، مشيرةً الى الغرفة التى هى أفضل غرفة فى الدار . ان الضابط المتقاعد يحتل فى الواقع غرفة واحدة .

وضع أليوشا يده على قبضة الباب وهمَّ أن يفتحه ، ولكنه لم يلبث أن أمسك عن فتح الباب ، ذلك أنه قد ذهل من الصمت المطبق الذى يخيم فى الجو . لقد كان يعرف مما قالته له كاترين ايفانوفنا أن الضابط المتقـــاعد له أسرة كبيرة العدد فقال لنفســـه : « انهم نائمون ، أو انهم أحسوا بمقدمى فهم ينتظرون دخولى عليهم ، فالأفضل أن أقرع الباب». وقرع الباب فعلاً ، فأُجيب ، ولكن الجواب لم يجىء رأساً ، وانما تأخر نحو عشر ثوانٍ .

قال صوت خشن حانق :

ــ من ؟

ففتح أليوشا الباب واجتاز العتبة ، فاذا هو يجد نفسه فى غـــرفة واسعة سعةً كافية ، ولكنها مزدحمة أشد الازدحام بالأشخاص وأنواع الأمتعة المنزلية . فعلى الشمال مدفأة روسية كبيرة ؛ وفى تلك الجهة نفسها حبل مشدود من أول الغرفة حتى النافذة ، قد عُلّقت عليه أنواع الملابس الداخلية ؛ وعلى طول الجدارين الجانبيين يمتد سريران فوق كل منهما غطاء من نسيج التريكو ، فأما سرير الجهة اليسرى فعليه أربع وسادات مختلفة الأحجام من النوع الهندى قد نُضّدَ بعضها فوق بعض على شكل هرم ، وأما سرير الجهة اليمنى فليس عليه الا وسادة واحدة صغيرة ؛ وفى ركن ضيق تفصله عن الغرفة ستارة مشدودة بحبل أيضا قد هيئت زاوية لسرير ثالث يتألف من دكة يكمّلها كرسى ، والسرير لا يُرى الا جزء منه ؛ وتحت النافذة الوسطى مائدة من خشب مستطيلة الشـكل بسيطة كل البساطة ، هى من نوع تلك الموائد التى تُرى كثيرا فى بيوت الفلاحين . والنوافذ الثلاث ذات الألواح الزجاجية الضيقة ، تبدو مغبرة فلا يتسلل منها الا ضوء قليل ؛ ولقد كانت مغلقة على كل حال ، فالغرفة بسبب ذلك مظلمة يشـــعر فيها المرء باختناق . وعلى المـائدة ترى قدر صغيرة ذات مقبض ، وصحفة فيها بقايا بيض ، وقطعة خبز ناقصة، وابريق خمر يتسع لنصف لتر ، ولكنه يكاد يكون فارغاً . وقرب السرير الأيسر تجلس امرأة لها شىء من مظهر ســـيدة . انهـا ترتدى ثوباً من قماش هندى ، وهى ناحلة الوجه شاحبة اللون لها خدان خاسفان جدا ينبئـان بحالتها المرضية من أول وهلة . وقد فوجىء أليوشا خاصةً بتعبير نظرتها الذى ينم عن تساؤل وتعالٍ فى آن واحد . وفيما كان أليوشا يكلم رب المنزل ، والى أن تدخلت هى فى الحديث ، لم تكفّ عن تنقيل نظرتها

بين الرجلين معبِّرة عن ذلك التساؤل نفسه ، وذلك الاستعلاء نفسه. والى جانب السيدة ، على مسافة غير بعيدة عن النافذة اليسرى تقف فتاة يمكن أن تعد دميمة الوجه ، ترتدى ثيابا فقيرة ولكنها محتشمة ؛ لها شعر قليل الغزارة يضرب لونه الى حمرة؛ وكانت تتفرس فى أليوشا باحتقار وازدراء. وعلى اليمين ، قرب السرير أيضـــا ، تجلس امرأة أخرى هى مخلوقة بائسة ، فتاة فى نحو العشرين من عمرها ، حدباء الظهر مقعدة متيبسة الساقين ، كما شُرح ذلك لأليوشا فيما بعد ؛ وتُرى عكازتاها فى الزاوية بين السرير والجدار . غير أن لها عينين رائعتين تشعان طيبة ، وهى تلقى على أليوشا نظرة متواضعة عذبة حلوة . وهذا رجل فى نحو الخامســة والأربعين من عمره قد جلس الى المائدة ينتهى من أكل بيضة مقلية . انه قصير القامة ، جاف الجلد ، نحيل الجسم أعجف يضرب لونه الى حمرة هو أيضا ، تذكر لحيته الحمراء المتناثر شعرها بليفـــة من الليف الذى يستعمل فى الحمام . (ان هذا الشبه بين لحية الرجل وبين ليفة الحمام قد خطف بصر أليوشا رأساً ، فسرعان ما برق فى ذهنه تعبـــير « ليفة الحمام» الذى استعمله تلاميذ المدرسة ، كما تذكر أليوشا ذلك فيما بعد. واضح أن هذا الرجل هو الذى صاح من وراء الباب يسأل : من ؟ ذلك أنه لم يكن فى الغرفة رجل سواه . فلما رأى أليوشا نهض عن المـــائدة بحركة مفاجئة ، وبعد أن مسح فمه بمنشفة مثقَّبة ، تقدم نحو الزائر مسرعاً .

قالت الفتاة الواقفة فى الزاوية اليسرى :

ـ هذا راهب يجمع الصدقات لديره . يميناً لقد عرف الى أين يجىء ! ...

ولكن الرجل الذى اقترب من أليوشا التفت اليها بسرعة عسكرية، وأجابها يقول بصوت قلق متقطع :

ـ في هذه المرة أخطأت يابربارا نيكولايفنا ! ليس الأمر ماتصورت.

ثم استأنف كلامه يقول ملتفتاً الى أليوشا من جديد :

ـ هل لى أن أسألك ما الذى جعلنى أستحق شرف زيارتك ... في هذا المكان الحقير ؟

تفرس أليوشا فى هذا الرجل الذى يراه أول مرة . ان فى مظهره شيئاً من التكسر والتعجل والحنق . لا شك أنه كان قد شرب ، ولكنه لا يبدو ثملاً . وفى وجهه تُرى وقاحة قصوى ، ولكن يُرى فى الوقت نفسه جبن شديد ، وهذان أمران يدهش المرء اجتماعهما ... ان هيئته هيئة انسان اضطر زمنا طويلا الى احتمال الذل وقبول الخضوع والاستكانة ولكنه يهب الآن فجأة ليؤكد ذاته من جديد ؟ أو قل بتعبير أدق ان هيئته هيئة رجل يشعر برغبة قوية فى أن يَضرب ، ولكنه يخاف خوفا قويا من أن يُضرب هو نفسه . ان المرء يلمح فى أقواله ، وكذلك فى نبرات صوته الحاد ، نوعاً من سخرية دنيئة مبتذلة هى تارةً شريرة خبيثة ، وهى تارة أخرى خائفة وجلى ، فهو لا يستطيع أن يجربها على نمط واحد ، حتى لتنهار وتتحطم فى بعض اللحظات . لقد ألقى سؤاله عن « المكان الحقير » وهو يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، محملقاً عينيه ، بالغاً من الاقتراب من أليوشا أن أليوشا تراجع خطوةً الى وراء بغريزته. كان الرجل يرتدى معطفاً حقيرا مهترئاً رثاً خلقاً ، قاتم اللون ، مرقعاً فى مواضع كثيرة ، متسخا ببقع كبيرة . أما سرواله فهو فاتح اللون جداً ، عليه رسوم مربّعة الأشكال ، وذلك نوع من السراويل أصبح منذ زمن طويل لا يُرى فى أى مكان . والسروال من نسيج رقيق ، قد تجعد أدناه وانشمر ، فكأن لابسه صبىٌ طالت قامته وكبر جسمه فأصبح السروال صغيرا قصيرا عليه .

قال أليوشا يجيب عن سؤال الضابط المتقاعد :

ـ أنا ... أنا ألكسى كارامازوف .

ـ لى شرف معرفة ذلك من قبل .

كذلك أجاب الرجل ليدل على أنه لا يجهل شخصية الزائر . ثم أضاف يقول :

ـ فاسمح لى أن أقدم لك نفسى أنا أيضا : الضابط الرائد سنيجيريف ـ س* . ولكن هل لى أن أعرف الهدف الذى ترمى اليه من ...

ـ لم أجىء لهدف معيَّن . كل ما أردته هو أن أقول لك بضع كلمات باسمى ... اذا كنت لا ترى فى ذلك ضيراً ...

ـ فى هذه الحالة ، اليك هذا الكرسى ! تفضل فاجلس ... أليس هذا ما يقال فى الدرامات الكلاسيكية : تفضل فاجلس !

قال الضابط المتقاعد ذلك وتناول كرسياً بحركة مباغتة عنيفة (هو كرسى بسيط غير منجَّد ، من كراسى الفلاحين) ، فوضعه فى وسط الغرفة تقريبا ؛ ثم تناول كرسياً آخر من ذلك النوع نفسه فجلس عليه أمام أليوشا ، ولكنه بلغ من تقريبه من كرسى أليوشا أن رُكَب الرجلين يحتك بعضها ببعض .

ـ اسمى نيكولا ايلتش سنيجيريف ، نعم ، رائد سابق فى سلاح المدفعية بالجيش الروسى . واننى لأظل ضابطا رغم عيوبى ورذائلى التى هوت بى الى الحضيض . ولقد كان ينبغى أقول الرائد ـ س ، لا الرائد سنيجيريف ، ذلك أننى فى الشطر الثانى من حياتى قد أخذت أستعمل «س» . تلك عادة ناشئة عن الانحطاط .



سنيجيريف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

قال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة متحرجة :

ــ نعم . ولكن هل يتعود المرء هذه العادة عامدا أم هو يتعودها على غير ارادة منه ؟

ــ بل على غير ارادة منه ، شــهد الله ! يمينا ما كنت أتكلم بهــذه الطريقة فى الماضى ! ولكن حرف «س» قد هبط على لسانى أثناء سقوطى، كهبوط الذباب على القاذورات . ذلك يحدث بتأثير قوة عليا . ولكنى أراك تهتم بشئون الحياة الحديثة ، فهل لى أن أعرف السبب الذى جعلنى أستحق شرف زيارتك ؟ اننى أعيش هنا فى ظروف لا تؤهلنى للقيــام بواجبات الضيافة .

قال أليوشا :

ــ أنا انما جئت ... من أجل ذلك الامر الذى ...

فقاطعه الرجل سائلا :

ــ أى أمر ؟

فأجاب أليوشا وقد اضطرب قليلا :

ــ أمر لقائك ذاك بأخى دمترى فيدوروفتش ...

ــ أى لقاء تعنى ؟ ها ... ذلك اللقاء ! هو اذن موضوع الليفة ؟

قال الضابط المتقاعد ذلك ، وازداد اقترابا من أليوشا حتى صدم فى هذه المرة ركبتيه .

ودقّت شفتاه فى تلك اللحظة حتى لكأنهما خيط نحيل .

تمتم أليوشا يسأله :

ــ أية ليفة ؟ لست أفهم !

فصاح من وراء الستارة صوت" عرف أليوشا فورا أنه صوت الصبى الذى لقيه منذ قليل ، صاح صوت الصبى يقول :

ـ بابا ! لقد جاء يشكونى أنا . أنا الذى عضضت اصبعه !

وانزاحت الستارة فلمح أليوشا عدوه فى الركن تحت الايقونات مضطجعا على السرير الذى يتألف من دكة وكرسى . كان الصبى مغطى بمعطفه الرث وبلحاف عتيق . كان واضحا أنه مريض ؛ واذا صدق ما يدل عليه بريق عينيه فلا بد أن تكون به حمى . انه يحدق الى أليوشا بغير خوف ولا وجل ، واثقا ثقة لم تظهر عليه فى الشارع ، كأنه يريد أن يقول : « أنا الآن فى بيتى ، فى بيتى ، فلن تستطيع أن تصنع بى شيئا . » .

سأل الضابط المتقاعد وهو ينتفض :

ـ عضك فى اصبعك ؟ أأنت من عضه فى اصبعه ؟

ـ نعم أنا . كان يقتتل فى الشارع مع أطفال آخرين بتراشق الحجارة . وكان واحدا وكانوا ستة . فاقتربت منه ، فرمانى بحجر ، ثم رمانى بحجر آخر مستهدفا رأسى ، فلما سألته ماذا فعلت له ، انقض علىّ فجأة فعضنى فى يدى ، لا أدرى لماذا !

صاح الرائد يقول وهو يثب عن كرسيه :

ـ لأجلدنّه ، لأجلدنّه !

ـ ولكننى لم أجىء لأشكوه ، ولا رويت لك الحادث لتعاقبه . اننى لا أحب أن تعاقبه قط . ثم انه مريض فيما يبدو .

ـ أفصدّقت حقا أننى سأجلده ؟ أفصدّقت أننى سأجلد عزيزى

الطيب الشهم ايليوشا * ، هكذا ، فورا ، لأسرك وأبهجك ؟ أأنت تحرص على هذا اذن حرصا شديدا ؟

كذلك قال الضابط السابق ملتفتا نحـو أليوشا وقد لاح في وجهه التهديد كأنه يهم أن ينقض عليه .. ثم أضاف :

ـ يؤسفني ، يا سيدي العزيز ، ما نال اصبعك من أذى . ولكني أوثر على ضرب ايليـــوشا ، اذا شئت ، أن أبتر الآن أمامك أربعاً من أصابعي بهذه السكين ، ارضاءً لك ... أرجو أن يكون بتر أربع أصابع من أصابعي كافيا لارواء ظمئك الى الانتقام ، وأن تسمح لي بالابقاء على الاصبع الخامسة !

قال هذا وتوقف عن الكلام فجأة كأنه اختنق ، وكانت عضـــلات وجهه جميعا ترتعش ، وكانت نظرته تفيض تحـــدياً واستفزازاً . لقد أصبح عاجزاً عن كبح جماح نفسه والسيطرة على سلوكه .

قال أليوشا بصوت خافت حزين ، دون أن يتحرك عن كرسيه :

ـ أحسب أنني فهمت كل شيء . ان لابنك قلباً طيباً ، فهو يحب أباه ، وقد هجم عليَّ لأنني أخو الرجل الذي أساء اليك ... فهمت الآن ... (كذلك استأنف كلامه يقـــول مطرقاً مفكرا) ... ولكن أخي دمتري نادم على فعلته ... أنا أعرف ذلك ... فاذا أذنت له أن يجيئك الى هنا ، أو حتى أن يلقـــاك في ذلك « الكاباريه » نفسه مرةً أخرى ، فسيكون مستعداً لأن يعتذر اليك أمام جميع الناس ... متى رغبت في ذلك ...

ـ أهكذا اذن ؟ تُنتف لحية الانسان ، ثم يُعتذر اليه ، فينتهي كل شيء ويسوَّى كل شيء ، أليس كذلك ؟



نينوتشكا ابنة سنيجيريف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ كلا ••• كلا ! ••• انه مستعد لأن يفعل ما تطلبه منه ، على النحو الذى يرضيك •

ـ معنى هذا أن فى وسعى أن أطلب من « سموه » أن يجثو على ركبتيه فى ذلك « الكاباريه » نفسه ـ كاباريه « العاصمة الكبرى » ـ أو حتى فى الميدان العام ، فاذا هو يلبى طلبى اذا صدق ما تقول •

ـ نعم ، يجثو على ركبتيه !

ـ كلامك يهز قلبى ، ويؤثر فى نفسى ، حتى ليكاد يفجر الدموع من عينى ! اننى أقدر هذا الكلام حق قدره ••• فاسمح لى اذن أن أقدم اليك أفراد أسرتى • هـــذه أسرتى : بنتاى ، وابنى ••• هذه ذريتى المحترمة • فمن ذا الذى يُعنى بأمرهم ، من ذا الذى يلاطفهم ويداريهم، اذا أنا مت ؟ ومن ذا الذى يمكن أن يحبنى ، أنا الانسان الشقى ، من ذا الذى يمـــكن أن يحبنى ما دمت حياً ، من ذا الذى يمـــكن أن يحبنى غيرهم ؟ ان الرب قد شاءت رحمته أن يكون لأمثالى عزاء كهذا العزاء•• ذلك أنه لا بد لأمثالى أن يجدوا ، هم أيضا ، شيئا من الحب فى هـــذا العالم •••

ـ صحيح ، هذه حقيقة كبرى •

كذلك هتف يقول أليوشا •

فصاحت الفتاة الواقفة قرب النافذة ، وهى تلتفت نحو أبيها معبّرة بهيئتها عن ازدراء واشمئزاز ، صاحت مستاءةً تقول :

ـ ألا تستحى أن تصطنع هذا التهريج ؟ أيكفى أن يظهر معتوه ما حتى تظهروا جميعا بمظهر أناس مضحكين ؟

فأجابها أبوها بلهجة قاسية صارمة ، وهو ينظر اليها مع ذلك نظرة تأييد وتشجيع واستحسان :

SS

ـ مهلاً يا بربارا نيكولايفنا ... تذرعى بشيء من الصبر ... دعينى أكمل ما أريد أن أقوله ...

ثم أضاف يقول ملتفتا الى أليوشا :

ـ ان لها طبعا صعبا ... يصدق عليها قول الشاعر :

ليس فى الطبيعة كلها ما يرضيها*

ولكن اسمح لى أن أقدم اليك زوجتى : ايرين بتروفنا ، سيدة مقعدة ، عمرها ثلاثة وأربعون عاما ، فقدت استعمال ساقيها تقريبا ؛ هى من أصل وضيع جدا . يا ايرين بتروفنا ، هلاً بسطت أسارير وجهك قليلاً ! هذا ألكسى فيدوروفتش كارامازوف . وأنت يا ألكسى فيدوروفتش ، هلا نهضت ! (قال ذلك وأمسك ذراع أليوشا بقوة لا يُتوقَّع مثلها منه ، وأنهضه عن كرسيه وتابع كلامه) ... اننى أقدمك الى سيدة ، فعليك أن تنهض ... اسمحى يا عزيزتى ، هذا ليس ليس نفس كارامازوف الذى ... الذى ... هِمْ ... هذا أخوه ... شاب يشع فضائل وتزخر نفسه تواضعاً ومسالمة ووداعة . اسمحى لى يا ايرين بتروفنا ، اسمحى لى يا امرأتى الكريمة المحترمة ، اسمحى لى أن أقبل يدك أولا .

وقبل الضابط المتقاعد يد امرأته باحترام ، بل وبحنان . فرفعت الفتاة الواقفة قرب النافذة كتفيها وأشاحت بوجهها حتى لا ترى بعد ذلك شيئا . غير أن وجه الزوجة الذى كان يعبِّر عن تساؤل واستعلاء ، هش وبش على حين فجأة .

قالت :

ـ تفضل فاجلس يا سيد ألكسى تشرنومازوف ! *

فقال زوجها مصححاً :

ـ بل كارامازوف ••• اسمه كارامازوف •

ثم أضاف يقول لأليوشا همساً :

ـ هى من أصل وضيع ، وضيع جدا •

قالت المرأة :

ـ طيب ••• كارامازوف ••• فليكن اسمه كارامازوف ما دمت تحـــرص على ذلك • كارامازوف أو تشرنومازوف ، الاســـمان عندى واحد • تفضل فاجلس يا سيدى • أما لماذا أنهضك ؟ فلأننى مقعدة ، كما قال لك ذلك • صحيح أن لى ساقين ، ولكنهما منتفختان انتفاخ قادوسين، أما باقى جسمى فهو يصوّح • كنت فى الماضى سمينة جدا ، وهأناذا الآن نحيلة مثل ابرة •••

ردّد الضابط قوله :

ـ هى من أصل وضيع ، من أصل وضيع جدا •

فصاحت الفتاة الحدباء الظهر التى كانت الى ذلك الحين صامتة على كرسيها ، صاحت فجأة تقول :

ـ بابا ! أوه ! بابا !

وغطت وجهها بمنديلها •

وقالت الفتاة الواقفة قرب النـــافذة ، قالت بلهجـة احتقار شديد عنيف :

ـ جبان !

وقالت الأم وهى تمد ذراعيها مشيرةً الى ابنتيها :

ـ أنظر ما يحدث لنا • سحائب ثم تنقشع • وستنقشع • وستعود الموسيقى • فى الماضى ، حين كنا فى الجيش ، كنا نستقبل فى كثير من الأحيان زيارات كزيارتك • لا أقصد أن أجرح شعورك بهذا التشبيه • يجب على الانسان أن يحب جميع الناس • وفى ذات يوم جاءت امرأة الشماس فقالت : « الكسندر ألكسندروفتش رجل ممتاز ، أما ناستازيا بتروفنا فهى نفثة من نفثات جهنم ! » قلت لهـا : « لكل امرىء أذواقه الخاصة • وما أنت الا كرة صغيرة ، ولكنك كرة عفنة نتنة » قالت : « سنعرف كيف نؤدبك ونردك الى الصواب » ، فأجبتها : « يا سوداء ! من أباح لك حق المجىء الى هنا لتلقى دروساً ؟ » فقالت لى عندئذ : « أنا أجيئكم بهواء نقى ، على حين أن الهواء الذى تنفثينه أنت موبوء يفسد الجو » ، فأجبتها : « اذا كان هوائى كريه الرائحة ، فاذهبى واسألى أولئك السادة الضباط » • ومنذ ذلك الحين بقى هذا فى قلبى لايبارحه• وهكذا حدث لى منذ قليل ، أن رأيت ، وأنا جالسة هنا ، ذلك الجنرال الذى أتى يزورنا فى عيد الفصح » ، فقلت له : « يا صاحب السعادة ، ان من حق امرأة مرموقة أن تدخل هواء نقياً الى منزلها ! » فقال لى : « هذا صحيح ، ليس الهواء هنا نقياً • يجب فتح الباب أو النافذة • » • هم جميعا سواء ! لماذا يكرهون هوائى ؟ ان الأموات ينشرون رائحة كريهة أكثر من رائحتى • قلت : « لن أفسد الهواء الذى تستنشقه ؟ سأشترى لنفسى حذاءين ، ثم أمضى ، مادام الأمر كذلك • » • يا أولادى ، يا صغارى ، لا تدينوا أباكم • يا نيكولا ايلتش ، يا زوجى الطيب ، أأصبحت لا أرضيك ولا أعجبك ؟ لم يبق لى الا ايليوشا ••• فهو الذى ما يزال يحبنى • يعود من المدرسة ، فيغمرنى بملاطفاته • وقد جاءنى أمس بتفاحة • ارحمونى يا صغارى ، يا أولادى الذين أعبدهم ، اشفقوا

على أمكم المسكينة التي أصبحت الآن وحيدة • بماذا أفسد الهواء الذى تستنشقونه ؟

وأخذت المرأة التعيسة تبكى منتحبة على حين فجأة ، فتسكب سيولاً من دموع • اسرع اليها الضابط •

ـ عزيزتى ، عزيزتى ، حمامتى ، هدئى روعك ، أرجوك ، أتوسل اليك • الجميع هنا يحبونك ، نحن جميعا نعبدك !

قال لها ذلك وغمر يديها بالقبل، ثم دغدغ خديها فى رفق ولطف• ثم تناول منشفة فأخذ يجفف وجهها الذى أغرقتــه الدموع • وتراءت لأليوشا فى تلك اللحظة دموعٌ فى عينى الضابط السابق أيضا • والتفت هذا فجأة نحو أليوشا ، فهتف يسأله مشيرا الى امرأته ، وقد استبد به يأس شديد :

ـ هل رأيت وهل سمعت ؟

فدمدم أليوشا يقول :

ـ رأيت وسمعت •

وصرخ الصبى وقد نهض عن سريره نصف نهوض وأخذ يحدق الى أبيه بعينيه الملتهبتين ، صرخ يقول :

ـ بابا ! بابا ! أتراك ستعقد الآن صلةً بهــذا الـ ••• قل له أن ينصرف !

وهتفت بربارا نيكولايفنا تقول من زاوية الغرفة ، وقد استبد بهـا فى هذه المرة غضب شديد فقرعت الأرض بقدمها ، هتفت تقول لأبيها :

ـ دعك من هذه التهريجات المستمرة والتمثيليات الهزليـة البلهاء التى لا تؤدى الى شىء ! كفى كفى ! •••

فقال الأب :

ـ حقاً ان لحنقك ما يسوّغه الآن يا بربارا نيكولايفنا ، وسألبى أمرك على الفور • يا ألكسى فيدوروفتش ، خذ قبعتك ، وسآخذ أنا قبعتى ، فنخرج • أريد أن أكلمك جاداً ، ولكننى لا أستطيع ذلك هنا• ان هذه الفتاة القاعدة هناك هى ابنتى نينا نيكولايفنا التى نسيت أن أقدمها اليك • انها ملاك تجسد وهبط على الأرض ••• ملاك حق نزل من السماء ••• هل فى وسعك أن تفهم هذا الكلام ؟

وعادت بربارا نيكولايفنا تتكلم ، فقالت مستاءة :

ـ ها هو ذا يرتجف ويضطرب كأن تشنجات قد هزته هزاً قوياً ! •••

ـ أما هذه التى قرعت الأرض بقدمها ووصفتنى بأننى مهرج منذ هنيهة ، فهى أيضا ملاك من السماء ، وهى على حقٍ اذ تعاملنى هذه المعاملة • لنخرج يا ألكسى فيدوروفتش ، يجب أن نفرغ من هذا الأمر •••

قال الرجل ذلك ، وأمسك ذراع أليوشا ، وجرّه الى الشارع •

٧

وفى الهواء الطلق

قال الضابط المتقاعد :

ـ هنا يتنفس المرء ، أما فى مسكنى فيختنق، بجميع معانى هذه الكلمة • سنمشى الهوينى • أرجو أن لا تبعث أحاديثى السأم والضجر فى نفسك !

قال أليوشا :

ـ هناك أمر أريد أنا أن أحدثك فيه ••• ولكننى لا أعرف من أين أبدأ •

ـ لقد تصورت أن هناك شيئاً تريد أن تقوله لى • ولولا ذلك لما جئت الى مسكنى بغير سبب ••• اللهم الا أن يكون الهدف الوحيد من مجيئك هو أن تشكو الىّ الصبى ؟ ولكن هذا قليل الاحتمال ! ••• وعلى ذكر هذا الصبى ••• اننى لم أكن أستطيع أن أقول لك كل شىء بحضوره • فسأشرح لك الأمر الآن • لقد كانت الليفة منذ أسبوع أكثف مما هى الآن ••• أعنى بالليفة لحيتى ••• وأولئك التلامذة هم الذين سموا لحيتى ليفة ••• فمنذ أسبوع أمسك أخوك دمترى فيدوروفتش لحيتى هذه ، فى ذلك « الكاباريه » ، وجرنى الى الميدان • وكان التلاميذ

راجعين من المدرسة فى تلك اللحظة نفسها ، وكان ايليوشا بينهم ، فما ان رانى على هذه الحال حتى ارتمى على صارخا : « بابا ! بابا ! » ، وأمسكنى بذراعيه الصغيرتين ، وشدنى بجماع قواه ليخلصنى ، وتشبث بى ، باكياً صائحاً مناشدا المعتدى بقوله : « دعه ! هذا أبى ، هذا أبى ، اتركه ، اغفر له ! » نعم قال هكذا : « اغفر له ! » . وأمسك أيضا ذراع أخيك ، حتى لقد قبَّل يده ، يده تلك نفسها التى كانت قابضةً على لحيتى . ما زلت أتذكر كيف كان وجه الصبى فى تلك اللحظة . لم أنسه ولن أنساه ما حييت ! ...

هتف أليوشا يقول منفعلاً :

ـ أحلف لك ، أحلف لك أن أخى سيعبر لك عن ندمه أصدق التعبير وأكمله ، ولو اضطر أن يجثو أمامك على ركبتيه فى ذلك الميدان نفسه ... سأجبره على أن يفعل ذلك ، والا فلن يكون أخى .

ـ آ ... آ ... فهذا الاعتذار ليس حتى الآن اذن الا مشروع اعتذار ؟ وهذه النية ليست صادرة عنه ، بل عنك أنت ، عن قلبك النبيل الحار . كان عليك أن تذكر لى هذا فورا . أما وأن الأمر كذلك ، فاسمح لى أن أصف لك روح الفروسية التى أظهرها أخوك فى ذلك الظرف . انه بعد أن جرَّنى من هذه الليفة ، تركنى وقال لى : « أنت ضابط ، وأنا ضابط أيضا ، فاذا استطعت أن تعثر على رجل شريف يرضى أن يكون لك شاهدا ، فأرسله الىَّ : اننى أهب لك فرصة استرداد اعتبارك بالسلاح ، رغم أنك حقير دنىء » . هذا ما قاله أخوك ، كفارس حق . انصرفت بعد ذلك مع ايليوشا ، ولكن هذا المشهد العائلى الجميل النبيل قد استقر فى نفس الصبى الى الأبد ، فهو لا يبارح ذاكرته فى لحظة من اللحظات . كيف يمكن أن يخطر ببالنا بعد الآن أن نستطيع المحافظة على مركزنا كأناس شرفاء ؟ واقض فى الأمر بنفسك على كل حال ، ما دمت

قد رأيت مسكننا ! مسكن جميل ، أليس كذلك ؟ ثلاث سيدات، احداهن عاجزة ومجنونة ، والثانية مقعدة وحدباء ، أما الثالثة فليست ساقاها مريضتين ولكنها أذكى مما يحتمله ظرفنا من ذكاء . انها طالبة ، وليس لها من حلم الا أن تعود الى سان بطرسبرج لتدافع عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا . ولن أقول شيئاً عن ايليوشا . انه لم يتجاوز التاسعة من عمره ، وهو وحيد ليس هناك أحد يحميه . فاذا مت أنا ، فما الذى سيحدث لهم جميعاً ؟ انني ألقى عليك هذا السؤال . اذا دعوت أخاك الى المبارزة فقتلني ، فما هو الوضع الذى سيصيرون اليه ؟ من الذى سيعنى بهم وسيهتم بأمرهم ؟ والأنكى من ذلك أن لا يقتلني ، وانما يصيبني بعاهة تقعدني : لن أستطيع بعدئذ أن أعمل ، بل أصبح فماً لا فائدة منه ، أصبح عالةً عليهم . من ذا الذى سيطعمني وسيطعمهم عندئذ ؟ وقد أضطر أن أُخرج ايليوشا من المدرسة ، وأن أرسله الى الشوارع كل يوم يستعطى الصدقات . ذلك ما يمكن أن تجرّه علىّ مبارزةٌ من عواقب . هى كلمة سخيفة ، لا أكثر ...

هتف أليوشا يقول من جديد وقد التهبت نظرته ناراً :

ـ ليستغفرنَّك ، ليرتمين على قدميك فى وسط ذلك الميدان .

ـ خطر ببالى أن أشكوه الى القضاء . ولكن يكفى أن نرجع الى نصوص القوانين حتى ندرك أن مقاضاته لن تثأر لى من الاهانة التى ألحقها بى. زد على ذلك آجرافين ألكسندروفنا استدعتني وقالت لى غاضبة أشد الغضب : « اعدل عن هذه الفكرة ، فلئن سمحت لنفسك بأن ترفع قضية ، لأكشفنّ اختلاساتك للقضاء ، فأبرهن على أنه انما ضربك معاقبة لك ، وستكون أنت الملاحَق يومذاك ! » والله يعلم هل ارتكبت أنا تلك الاختلاسات بارادتى ، أم أننى أُمرت بها فكنت أداةً لا أكثر ! اننى لم أفعل ما فعلت الا بأوامر منها ، وبأوامر من فيدور بافلوفتش ! وقد أضافت

تقول لى : « واعلم عدا هـذا أننى سأطردك من خدمتى عندئذ طرداً حاسماً ، فما تجنى منى بعد ذلك قرشاً واحداً . وسأقول كلمة لصاحبى التاجر (بهذا الاسم تسمى عجوزها) ، فيطردك هو أيضا » . فتساءلت حينذاك : ما عسى تصير اليه حالى اذا استغنى التاجر عن خدماتى ؟ ماعسانى أصنع بعد ذلك فى سبيل أن أكسب رزقى ؟ ذلك أنه لم يكن قد بقى لى الا هذان الزبونان بعد أن أصبح أبوك لا يثق بى ، لسبب آخر ... حتى أن أباك يفكر فى جرّى الى المحاكم مستندا الى الايصالات التى وقعتها بامضائى . فلهذه الأسباب مجتمعةً ، انما ارتضيت أن لا أشرع فى شىء.. لقد رأيت بنفسك الظروف التى نعيش فيها . ولكن قل لى الآن : هل أوجعتك كثيرا عضة صغيرى ايليوشا ؟ اننى لم أجرؤ أن ألقى عليك هذا السؤال أمامه .

ـ نعم . أوجعتنى كثيرا . فقد كان غاضباً غضبا شديدا . لقد ثأر منى أنا للاساءة التى أُلحقت بك ، لأننى واحد من آل كارامازوف . لقد اتضحت المسألة الآن . ولكنك لم تر كيف اقتتل مع رفاق مدرسته بتراشق الحجارة . ذلك خطر جدا . ان من الممكن أن يقتلوه . هؤلاء أطفال ، لا يفكرون . رب حجر يُقذف بقوة فاذا هو يصيب رأسه فيشق جمجمته .

ـ أصيب اليوم بحجر ، ولكن لا على الرأس بل على الصدر . أصابه الحجر فى موضع يعلو القلب قليلا ، فوصل الى البيت مزرقاً باكياً يئن أنينا شديدا ، وها هو ذا الآن مريض ...

ـ يظهر أنه هو الذى يبادىء رفاقه بالهجوم . ان غضبه مما أصابك لا يهدأ له أوار . والتلاميذ يزعمون أنه جرح الصبى كراسوتكين فى جنبه بطعنة من موسى ...

ــ قيل لى هذا . شيء مزعج . ان كراسوتكين هذا هو ابن موظف من الموظفين ، وأخشى أن يجرّ علينا هذا الحادث وبالاً ...

تابع أليوشا كلامه قائلا :

ــ أنا أنصح بأن تخرجه من المدرسة الى حين ، الى أن تهدأ نفسه ، الى أن يخف هذا الغضب الشديد الذى يتقد فى قلبه .

قال الضابط المتقاعد مؤمّناً :

ــ الغضب ! الغضب ! تلك هى مشكلته . غضب كبير فى كائن صغير . وأنت لمّا تعرفْ بعدُ كل شيء . فاسمح لى أن أقصّ عليك كيف جرت الأمور فى الواقع . بعد ذلك حادث « الكاباريه » ذاك أخذ جميع التلاميذ يناكدونه ويغيظونه ، ويسمونه ليفة . ان الأطفال الذين هم فى هذه السن لا تعرف قلوبهم الشفقة . هم ملائكة اذا نظرت الى كل واحد منهم على حدة ، ولكنهم متى اجتمعوا ولا سيما فى المدرسة أصبحوا وحوشاً لا ترحم . لقد أخذوا اذن يشاكسونه ، فثار طبع ايليوشا الصغير النبيل وتمرد . رب صبى آخر ، رب ولد فاتر المزاج ، كان يذعن ويستسلم ويرضخ ، وكان يشعر بالخزى والعار من أبيه ، أما هو فقد هبّ وحيدا ضدّ جميع الأطفال ، يدافع عن أبيه ، يدافع عن أبيه ، ويدافع عن الحقيقة أيضا ... نعم ، عن الحقيقة ... ما من أحد يعرف فى الواقع ، ما من أحد يعرف الا الله وأنا ، كم قاسى من ألم حين قبّل يد أخيك متوسلاً اليه « أن يغفر لأبيه » . فانظر كيف يعرف أطفالنا ــ أطفالنا نحن لا أطفالكم أنتم ، أقصد أطفال الفقراء الهينين عليكم الكرام على أنفسهم ــ أنظر كيف يعرفون الحقيقة على هذه الارض منذ السنة التاسعة من عمرهم ! ان الأغنياء لا يستطيعون ذلك . فهم مهما يعيشوا ويكبروا لن يروا أعماق الهوة فى يوم من الايام ! أما ابنى

ايليوشا فقد غاص الى قرارة الحقيقة في تلك اللحظة التي قبّـل فيها يد أخيك بالميدان ... لقد نفذت الحقيقة كلها اليه عندئذ ، وانحفرت في كيانه الى الأبد .

انتعش الضابط المتقاعد وهو يقول هذا الكلام ، وألمت به حماسة مفاجئة وحمياً قوية ، حتى أنه ضرب بقبضة يده اليمنى راحة يده اليسرى كأنما ليوضح مزيدا من التوضيح كيف انغرست «الحقيقة» في نفس ايليوشا .

وتابع الرجل كلامه فقال :

ـ وفي الليلة التالية انتابته حمى ، فظل يهذي طوال الوقت . ولم يكلمني في الغداة ، وانما التزم صمتا يشبه أن يكون مستمرا ، ولكنني لاحظت أنه كان يرقبني ويرصدني من الركن الذي هو فيه ، رغم ميله على النافذة وتظاهره بأنه يهيء واجباته المدرسية . لقد أدركت أنه لم يكن يفكر في دروسه في تلك اللحظة . حتى اذا جاء اليوم التالي شربت فأصبحت لا أتذكر شيئا ... يا لي من شقي ! ... نعم لقد شربت ، من شدة ما استولى عليّ الكرب والكمد واليأس . وأخذت زوجتي عندئذ تبكي ـ انني أحبها كثيرا ـ ولكن ماذا تريد ؟ لقد أنفقت آخر كوبك أملكه لأسكر فأنسى . لا تحتقرني يا سيدي . ان أصحاب القلوب الحسّاسة هم الذين يسكرون أكثر من غيرهم في بلادنا روسيا . ونمت ، ولم أحفل بايليوشا . وفي ذلك اليوم بعينه انما أخذ الصبية يعيّرونه ، صارخين : « يا ليفة ! أُخرج أبوك من الكاباريه مشدودا من لحيته ، فأخذت تركض الى جانبه تستغفر له وتستعفي عنه ! » . وفي اليوم الثالث حين عاد من المدرسة ، لاحظت أنه شاحب اللون ، مهشم الوجه . سألته : « ماذا بك ؟ » فلم يجب . وكان يستحيل علينا التحدث في الغرفة ، فلو قد تحدثنا في الغرفة لتدخلت الأم والبنات في الحديث ... وكانت بناتي

على علم بالقضية منذ أول يوم . كانت بربارا نيكولايفنا ما تنفك تبدي استياءها وغضبها قائلة : « مهرجون ! جبناء ! ما عسى يُنتظر منكم ؟ » . قلت لها : « أنت على حق ، مانحن بقادرين على شيء غير ارتكاب الحماقات تلو الحماقات . » . وبذلك أرحت نفسي منها . وفي نحو المساء خرجت أتنزه مع الصغير . يجب أن أذكر لك أنني كنت قد تعودت أن أقوم بنزهة مع ابني كل مساء . وكنا في العادة نسلك هذا الطريق الذي نسير فيه الآن أنا وأنت : نخرج من البيت ونصل الى تلك الصخرة الكبيرة التي تراها على الطريق قرب السياج . ان البرية تبدأ هنا . المكان خال جميل . سرت في ذلك اليوم وابني الى جانبي . يدي في يده . ان يده صغيرة ، وأصابعه نحيلة باردة . انه يشكو من داء في صدره ، ابني هذا. قال لي فجأة : « بابا ! بابا ! » ، فسألته : « ماذا ؟ » قال : « في ذلك اليوم، حينما شدّك ... » قلت : « ما العمل يا صغيري ايليوشا ؟ » ، قال : « لا تصالحه يا بابا ! لا تصالحه أبدا ! ان الأولاد في المدرسة يدّعون أنه أعطاك عشر روبلات تعويضا لك عما فعله بك » . قلت له : « لا ، لا يا صغيري ايليوشا ، لن أقبل منه مالاً في يوم من الايام ! » . أخذ الصبي يرتجف جسمه كله ، وقبض على يدي بيديه الصغيرتين، وغمرها بالقبل. ثم عاد يقول : « بابا ! اطلبه الى المبارزة ! فالأطفال يدعون في المدرسة أنك جبان ، وأنك لن تطلبه الى المبارزة ، وانما ستقبل منه عشر روبلات . » . فشرحت لابني عندئذ كيف أنني لا أستطيع أن أبارز أخاك ، وأطلعته بايجاز على الاسباب التي تعرفها ، فأصغى اليَّ باتنباه ، ثم هتف يقول وقد اشتعلت نظرته : « بابا ! لا تصالحه أبدا . ولأطلبنه أنا الى المبارزة حين أكبر ، فأقتله ! » . وأنا أبوه على كل حال ... فاعتقدت أن من واجبي أن أقول له كلمة حق . قلت له : « انه لاثم أن يقتل انسان انسانا ولو في مبارزة . » . فصاح عندئذ يقول : « لسوف



ايليوشا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

أقاتله في مبارزة حين أكبر ، فألقيه على الأرض بعد أن أُسقط له سلاحه بضربة من سيفي ، ثم ارتمى عليه وأشهر سيفي فوق رأسه قائلا له : انني أستطيع الآن أن أقتلك ، ولكنني أعفُ عنك ، فذلك كل ما تستحقه ! » . فانظر يا سيدي في أي شيء قد فكَّر هذا الصبي طوال يومين ، انظر الى الخواطر التي شغلت رأسه الصغير طوال ذينك اليومين! لقد ظل يفكر خفيةً في هذا الثأر الفروسي ، ولا شك أن هذيانه في الليلة الأولى كان يدور حول هذا الثأر . ولكنه الآن يعود من المدرسة كل يوم مضروبا ، مضروبا ضربا قاسيا . ولم أعلم بأمر اشتباكاته هذه مع رفاقه الا أمس الاول . وأظن أنك على حق : يجب أن لا يعود الى هذه المدرسة . لقد خفت عليه خوفا شديدا حين بلغني أنه واجه كل تلاميذ فصله وناصبهم العداء وأنه هو الذي تحداهم أولا . ان الغضب يعصف في قلبه ، ويحضه على الاعتداء والهجوم . لقد خرجنا نتنزه مرة أخرى في يوم من الايام ، فاذا هو يسألني : « بابا ، هل الأغنياء أقوى من غيرهم اذن في هذا العالم ؟ » فقلت له : « نعم يا ايليوشا ، ان الرجل الغني يملك قدرة لا حدود لها » فقال لي بعد ذلك : « بابا ، سأصبح غنياً أنا أيضا في يوم من الايام ، وسأصبح ضابطا ، أغلب الأعداء ، فيكافئني القيصر ، فأعود فما يجرؤ أحد بعدئذ أن ... » . وصمت بضع لحظات، ثم أخذت شفتاه ترتجفان كما كانتا ترتجفان من قبل ، وأضاف يقول : « أليست هذه المدينة مدينة شريرة ؟ » قلت له : « نعم يا بني ايليوشا ، ليست هذه المدينة محببة الى القلب كثيرا » ، فقال : « فلماذا لا نتركها الى مدينة سكانها خير من سكان هذه المدينة ، لماذا لا نتركها الى مدينة أخرى لا يعرفنا فيها أحد ؟ » ، فأجبته بأن هذه هي نيتي في الواقع وأننا سنغادر هذه المدينة متى جمعت قليلا من المال . لقد أسعدني أن أصرفه بذلك عن خواطره السوداء ، وأخذنا نتحدث عن هذا الرحيل ، ونناقش

تفاصيله . قلت له : « سنشترى حصانا وعربة كارّة ذات عجلتين . نُركب ماما والأختين على العربة ونغطيهما جيدا ، ونمشى نحن الاثنين الى جانبهما . وقد أُركبك أنت أيضا من حين الى حين ، أما أنا فسأمشى على قدمى ، لأن علينا أن نراعى الحصان وأن نداريه ، والا فستنهد قواه اذا اضطر أن يجر الأسرة كلها . سنرحل قريبا » . بهذا وعدته . تحمس الصبى تحمساً شديداً ، وكانت فكرة امتلاك حصان يستطيع هو أن يقوده وأن يركبه هى التى تلهب حماسته أكثر من أى شىء آخر . ان الصبيان فى روسيا يولدون فرسانا كما تعلم . وقد ثرثرنا مدة طويلة فى ذلك المساء . قلت لنفسى : « الحمد لله على أنه استرد طمأنينته وهدأت نفسه ، وسُرّى عنه . » . حدث هذا فى مساء أمس الأول . ولكن كل شىء تغير أمس من جديد . لقد عاد من المدرسة فى الظهر مظلم الوجه مكفهر الأسارير أكثر من أى يوم مضى . وفى المساء أمسكته من يده لنقوم بنزهتنا اليومية . كان مصراً على الصمت فما ينطق بكلمة . الريح تهب قليلا ، والسحب تغطى الشمس ، والغسق يهبط . ان المرء يحس قدوم الخريف . كنا نسير دون أن نتكلم ، وفى قلب كل منا حزن دفين . قلت له آملاً أن نستأنف حديث الليلة البارحة : « هيه ! يجب علينا يا بنى أن نفكر قريبا فى الاعداد لسفرنا » . فلم يجب . ولكننى شعرت بأصابعه الصغيرة ترتجف فى يدى متشنجة . قلت لنفسى : «حالته سيئة ... لا شك أن هناك جديدا . » . ومضينا الى تلك الصخرة التى تراها هناك . جلست على الصخرة . كان فى السماء طيارات كثيرة من طيارات الورق التى يطلقها الأولاد . انها تهمهم فى الفضاء وتقرقع . كان فى السماء يومئذ ثلاثون طيارة من هذه الطيارات على الأقل . ذلك هو الفصل الذى تطلق فيه هذه الطيارات فى الفضاء . قلت له : « لقد آن لنا يا ايليوشا أن نطلق طيارتنا نحن أيضا ، طيارة العام الماضى . سوف

أتولى أنا اصلاحها . أين وضعتها ؟ » . لم يجب بشيء ، وانما أدار لى ظهره ناظراً الى جانب . وفجأة هبَّت علينا ريح مثقلة بسحابة كبيرة من غبار ... فاذا هو يرتمى علىّ ، ويحيطنى بذراعيه الصغيرتين ، ويشدنى اليه بجماع قواه . تعلم أن هذا النوع من الاطفال الصموتين المتكبرين يستطيعون أن يكظموا ألمهم وأن يحبسوا دموعهم مدة طويلة ، ولكن حين ينفجر بكاؤهم أخيرا ، لأن عذابهم أصبح فوق طاقتهم ، فان عبراتهم تتدفق عندئذ كالسيول . فما هى الا طرفة عين حتى كان وجهه غارقا فى هذه الدموع المنهمرة الحارة . كان ينتحب فى تشنج ، ويرتعد ارتعادا قويا من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ويشد جسمه الىّ وهو جالس على الصخرة . قال لى منتحباً : « بابا ! ما أشد ما أذلّك ! » . فأجهشت أبكى أنا أيضا . وتعانقنا عناقا شديدا والدموع تهزنا كلينا . فكان ما ينفك يردد قوله : « بابا ... حبيبى بابا ! » ، وكنت أجيبه : « بنى ... بنى الطيب ايليوشا ! » . لم يرنا أحد فى تلك اللحظه ... لم يرنا الا الرب من عليـاء سمائه ... الرب الذى قد ينتصف لى . أشكر أخاك يا ألكسى فيـدوروفتش . لا يا ألكسى فيـدوروفتش ، لن أجلد ابنى لأسرّك وأرضيك ! ...

عاد الضابط المتقاعد ، حين ختم قصته ، الى سخريته المرة الحانقة الوضيعة . ومع ذلك أحس أليوشا أنه قد حظى بشيء من ثقة هذا الرجل، وأن هذا الرجل ما كان له أن « يتحدث » الى غيره بهذه الطريقة ، وأن يقص على غيره ما قصَّه عليه هو . وسُرّ أليوشا من ذلك . كان يرتعش من شدة التأثر ، وكانت دموعه تهم أن تسيل .

قال أليوشا :

ـ أوه ! لشدما أتمنى أن أصالح ابنك ! ليتك تستطيع أن تهيىء ..

فدمدم الضابط المتقاعد يقول :

ـ كما تشاء ••• طبعاً •••

وتابع أليوشا كلامه يقول بحرارة :

ـ يجب عليّ الآن أن أكلمك في شيء آخر • اصغ الى • ان أخي ذاك نفسه ، ان دمتري ذاك نفســه ، قد أهان خطيبته أيضــا ، وهي فتــاة نبيلة جدا أغلب ظني أنك سمعت عنها• ومن حقي أن أكلمك عن الاهانة التي ألحقها بها ، بل ان ذلك واجبي أيضا ، لأن هذه الفتاة ، بعد أن علمت بالاساءة التي نالتك ، وبعد أن عرفت الظروف البائسة التي تعيش فيها•• قد كلفتني ••• قد عهدت الىّ منذ قليل بمعونة صغيرة طلبت مني أن أقدمها اليك • اعلم أن هذه الفتاة هي التي ترسل اليك المعونة لا أخي دمتري الذي هجر الفتاة من جهة أخرى ••• والمعونة ليست من دمتري على كل حال ، ولا مني أنا أخيه ، ولا من شخص آخر ، بل منهــا هي وحدها • وهي تتوسل اليك أن تقبل معونتها ••• ألم يذلكما كليكما شخص واحد بعينه ؟ ثم انها لم تتذكرك الا بعد أن أُلحقت بها الاهانة نفسها التي أُلحقت بك (الاهانة نفسها بضــخامتها) • فهي اذن أخت تريد أن تساعد أخاها ••• لقد كلفتني أن أطلب اليك قبول هاتين المائتين من الروبلات ، معونةً من أختٍ لأخيها • ولن يعلم أحد بالأمر ، ولن تروج أقاويل شريرة حول هذا الموضــوع • اليك المائتي روبل ••• عليك أن تقبلها ••• أحلف لك ••• والا كان على البشر أن يعــدوا أنفسهم أعداء على هذه الأرض ! ولكن الأخوة موجودة في هذا العالم•• انها موجودة أيضا ••• ان لك نفساً نبيلة ••• فلسوف تفهم ••• لسوف تفهم حتماً ! •••

قال أليوشا ذلك ومدّ الى الرجــل ورقتين نقديتين جديدتين كل

الجدة ، كل منهما بمائة روبل • وكانا في تلك اللحظة قد وقفا قرب الصخرة الكبيرة الى جانب السياج ، ولم يكن حواليهما أحد • بدا أن الورقتين النقديتين قد أحدثتا في نفس الضابط المتقاعد أثرا خارقا • ارتعش في أول لحظة ، ولكن ارتعاشه كان من الدهشة خاصة • انه لم يحلم بشيء من هذا ، ولا كان يتوقع أن ينتهي الحديث بهذه الخاتمة• انه لم يخطر بباله في لحظة من اللحظات ، حتى ولا أثناء النوم ، أن أحدا يمكن أن يهب الى مساعدته ، ولا سيما بمبلغ ضخم كهذا المبلغ • تناول الورقتين النقديتين ولبث قرابة دقيقة لا يستطيع أن يتكلم • وطاف في وجهه تعبير جديد كل الجدة •

ـ أهذا لي ، لي أنا ، كل هذا المال ؟ مائتا روبل ؟ يا رب السماء ! انني لم أر مبلغا ضخما كهذا المبلغ منذ أربع سنين ! أوه ! رباه ! وهي تعطيني هذا المبلغ كما تعطي أخت أخاها ؟ أهذا صحيح ؟ أهذا صحيح ؟

هتف أليوشا يقول :

ـ يميناً ما قلت لك الا الحقيقة !

ـ قل لي يا صديقي العزيز : أأكون جبانا اذا أنا قبلتها ، هذه الروبلات المائتين ؟ لن أكون جبانا ، أليس كذلك ؟ أأكون جبانا في نظرك ؟ اصغ الي يا ألكسي فيدوروفتش ، اصغ الي حتى النهاية (كذلك أضاف يقول محموما وهو يلمس أليوشا بكلتا يديه في كل لحظة) : انك تشجعني على قبول هذا المال ، لأنه مرسل الي من أخت ، ولكن ألن تشعر نحوي باحتقار وازدراء ، في قرارة نفسك ، سراً ، اذا أنا أخذته؟ قل •••

ـ يميناً لا ••• أحلف لك على هذا أغلظ الأيمان • ثم ان أحدا لن يعلم بالأمر ، لن يعلم به أحد قط الا نحن ، أعني أنا وأنت وسيدة أخرى هي صديقتها الكبرى •••

ـ لا تهمني السيدة • دعني أقول لك كل شيء • انني في لحظة كهذه اللحظة أشعر بحاجة الى الافصاح عن كل ما بنفسي •

ثم أضاف الرجل البائس الذي أخـــذت تغزوه شيئا فشيئ حماسة مضطربة مشوشة توشك أن تكون وحشية :

ـ انك لا تستطيع حتى أن تتخيل قيمة هذه الروبلات المائتين بالنسبة الىّ اليوم •

كان يبدو على الضابط المتقاعد أنه فقد السيطرة على أفكاره ، فهو يتكلم بتعجل قلق كأنه يخشى أن لا يســـمح له باتمام كلامه ، وتابع يقول :

ـ ان هذا المبلغ ليس مالاً حلالاً ترسله الىّ « أُخت » محترمة مبجلة فحسب ، وانما أنا أستطيع أن أستعين به أيضـــا على مداواة الأم المسكينة وعلى معالجة بنتي الحبيبة ، ملاكي الحدباء ، نينوتشكا التي يمكنني أن أداويها ! لقد جاء الينا الدكتور هرتسنشتوبه في ذات يوم ، شــهامةً منه ونبلاً ، ففحصهما كلتيهما خلال ساعة كاملة ، فبعد أن قال « انه لم يفهم من الأمر شيئاً » ، ذكر أن الماء المعدني (الذي وصفه للأم العزيزة) قد ينفعها كثيرا ، ويمكن شراؤه من الصيدلية • وقد وصف لها أيضـاً حمامات للرجلين بأملاح طبية • وسعر الماء المعدني ثلاثون كوبكا ، وعليها أن تشرب منه قرابة أربعين زجاجة • لقد أخذت الوصفة من الطبيب ، واذ كنت لا أستطيع أن أسمح لنفسي بهذا البذخ والترف ، فقد وضعتها على الرف تحت الأيقونات ، وما تزال راقدةً هناك • وقد وصف كذلك لنينوتشكا حمامات ساخنة ببعض المحاليل ، قائلاً ان عليها أن تســتحم مرتين في اليوم ، مرةً في الصباح ومرة في المساء • فكيف يكون في وسعها أن تتبع هذا العلاج في مسكننا الفقير ، بغـــير خادم ، بغير أحد

ساعدها ، وليس عندنا لا ماء ولا حوض ؟ ان نينوتشكا المسكينة تشكو من الروماتزم ـ لم أذكر لك هذا من قبل ـ وهي تشعر في الليل بآلام شديدة في كل الجانب الأيسر من جسمها . ولكن هل تصدق ؟ ان هذه الملاك تغالب عذابها حتى لا تقلقنا ، وتمسك عن التوجع والأنين حتى لا تعكر علينا صفو نومنا . ونحن نأكل بقدر ما تتيح له مواردنا الضئيلة أن نأكل ، وذلك يختلف باختلاف الايام . فهل تصدق أنها تختار لنفسها في كل مرة أسوأ قطعة من الطعام ، قطعة يتردد المرء أن يرميها لكلب ؟ وكأن عينيها الملائكيتين تقولان حينذاك : « أنا لا أستحق حتى هذا . أنا أحرمكم من نصيبكم ، وأنا عبء عليكم جميعا » ونحن نساعدها ماوسعنا أن نساعدها ، فيؤلمها أننا نكلف أنفسنا عناءً في سبيلها ، وكأنها تقول لنفسها: « أنا لا أستحق هذا ! فما أنا الا مقعدة بلهاء لا خير فيها ولا فائدة منها » أهي تستحق ؟ هي ؟ مع أنها هي التي تفتدينا عند الرب بطيبتها الملائكية ! ألا ان الحياة لتصبح في بيتنا جحيما بدونها ، وبدون الكلمات الحلوة الرقيقة العذبة التي تعرف كيف تقولها في اللحظة المناسبة ! لقد استطاعت أن تلين حتى فاريا ! واياك أن تظلم فرفارا نيكولايفنا ! انها هي أيضا ملاك .. هي ضحية ... مثلنا جميعا ... لقد وصلت الينا هذا الصيف وفي جيبها ستة عشر روبلاً كانت قد كسبتها من اعطاء دروس خاصة ، وقد ادخرت هذا المبلغ لتستطيع أن تدفع أجور سفرها حين عودتها الى سان بطرسبرج ، التي يجب أن تكون في شهر ايلول (سبتمبر) ، أي الآن . ولكننا أخذنا هذا المال وأنفقناه في سدّ رمقنا . فبأية وسيلة يمكنها أن تعود الآن الى سان بطرسبرج لاتمام دراستها ؟ هأنت ذا عرفت كيف تجري أمورنا . ثم انها لن تستطيع أن تسافر ، لأنها تعمل في خدمتنا بالمنزل كما تعمل بهيمة مقرونة : تهتم بكل فرد من أفراد الأسرة، وتصلح ما يحتاج الى اصلاح ، وترقع ما يجب ترقيعه ، وتغسل الثياب ،

وتنظف الارض ، وترقد الأم في سريرها ، والأم ذات نزوات وبدوات، تبكي لأيسر سبب ، تبكي لغير سبب ، فهي مجنونة ... هي مجنونة ، الأم العزيزة ! وهأنذا سأستطيع بهذه الروبلات المائتين أن أستخدم خادما ... هل تفهم يا ألكسي فيدوروفتش ؟ سأستطيع أن أداري المريضتين العزيزتين ، وتستطيع الطالبة أن تملك ما تسافر به الى سان بطرسبرج ، وسوف أشتري لحماً ، فأحسّن ما نصيبه عادةً من طعام . آه ... يارب السماء ! ما أجمله من حلم !

أسعد أليوشا كثيرا أنه استطاع أن يفرح الرجل المسكين هذا الفرح كله ، وهنأ نفسه على أن الرجل قد ارتضى قبول هذه السعادة .

ولاحت للضابط المتقاعد رؤية جديدة فأوقدت في نفسه حماسة جديدة ، فاستأنف كلامه يقول بسرعة محمومة جياشة :

ـ لحظةً يا ألكسي فيدوروفتش ، لحظة أخرى ! هل تعلم أنني أملك الآن أن أحقق أمنية ايليوشا وأن أفي بوعدي له ؟ لسوف نشتري حصانا وعربة كارّة . وسيكون الحصان أكحل . ان ايليوشا يصرُّ على هذا اللون . وسنسافر ، كما وصفت له سفرنا أمس الاول . انني أعرف في مدينة «ك» محاميا هو من أصدقاء الطفولة . وقد علمت من شخص موثوق به أن صديقي هذا سيعينني كاتبا في مكتبه اذا أنا ذهبت الى تلك المدينة . من يدري ؟ قد يستخدمني فعلا ! سأُقعد الأم اذن على العربة ، وسأُقعد عليها نينوتشكا أيضا ، ثم يمسك ايليوشا بزمام الحصان فيجره، وأسير أنا على قدمي الى جانب العربة . وهكذا نرحل جميعا ! يا رب السماء ! ليتني أستطيع أن أسترد ذلك المبلغ الصغير الذي يدين لي به أحدهم هنا ، اذن لملكت من المال ما يكفيني لهذه الرحلة !

صاح أليوشا يقول :

ـ ستملك ما أنت في حاجة اليه ! سترسل اليك كاترين ايفانوفنا من المال كل ما ستحتاج اليه • وأنا أيضا عندى بعض المال ، هـل تعلم ذلك ؟ خذ مني ما أنت في حاجة اليه ، خذه مني كما يأخذ أخ من أخيه، كما يأخذ صديق من صديقه • وسترده الىّ في المستقبل (ذلك انك ستغتني ، هذا مؤكد) • صدقني اذا قلت لك ان فكرة السفر الى اقليم آخر هي خير فكرة يمكن تخيلها • ان فيها خلاصك ، وخلاص ابنـك خاصةً • وأؤكد لك أن الاسراع أفضل شيء • سافر قبل حلول الشتاء، سافر قبل اشتداد البرد • وستكتب الينا من هناك ، وسنظل اخوة • ليس هذا حلماً ، ليس هذا حلماً البتة !

ودّ أليوشا لو يقبله وهو فيغمرة الفرح هذه• ولكنه أمسك فجأةً حين نظر اليه • لقد مدّ الرجل عنقه ، وقدّم فمه ، شاحب اللون منقلب السحنة • ان شفتيه تختلجان ، كأنما هو يهمس بشيء أو يحـاول أن يتكلم • ولكن لم يخرج من فمه أي صوت ، وظل يحرك شفتيه صامتاه منظر غريب مقلق •

سأله أليوشا وهو يرتعش دون أن يدرى لماذا ؟ :

ـ ما بك ؟

فتمتم الضابط المتقاعد يقول بصوت متقطع ، محدقا الى أليوشا بنظرة غريبة شاردة ، وقد بدا كانسان يهم أن يهوى في فراغ ، بينما شـفتاه تصطنعان ابتسامة :

ـ ألكسي فيدوروفتش •• انني •• أ •• نعم •• انني أ •••

ثم قال فجأة بهمس سريع ، ولكن بلهجة جازمة ليس فيها الآن شيء من تقطع :

ــ هل تريد أن أريك براعة صغيرة من براعاتى ؟

ــ براعة ؟

ــ نعم ، براعة من نوع براعة الحواة !

كذلك أجاب الضابط المتقاعد فى همس أيضا •

فهتف أليوشا مذعورا كل الذعر :

ــ ولكن ماذا بك ؟

فقال الضابط المتقاعد فجأة بصوت حاد :

ــ نعم •• هى براعة •• أنظر •

قال ذلك ثم أراه الورقتين النقديتين اللتين ظل طوال الحديث يمسكهما مشدودتين بين السبابة والابهام من يمناه ، ثم اذا هو يقبض عليهما فما يزال يدعكهما فى قبضة يده بعنف وقوة حتى سحقهما سحقا وقد أخذ منه الحنق كل مأخذ •

ثم صرخ يقول لأليوشا بصوت ثاقب :

ــ فهل رأيت ؟ هل رأيت هذه المرة ؟

ثم رفع قبضة يده شاحبَ الوجه مرتعد الجسم ، فرمى الورقتين المسحوقتين على الرمل •

وعاد يعول من جديد قائلاً وهو يشير اليهما باصبعه :

ــ هل تراهما ؟ اليك هما ! ••

ثم رفع قدمه اليمنى ، فأخذ يدوسهما بحنق مسعور وحشى ، وهو يصرخ بصوت لاهث بعد كل دوسة عليهما :

ــ أنظر ماذا أفعل بمالك ، أنظر ماذا أفعل به ! انظر اليهما ، ورقتيك •••

ثم تراجع خطوة الى وراء ، على حين فجأة ، ووقف أمام أليوشا مشدود الجسم منتصب القامة • كان وجهه يعبر عندئذ عن كبرياء لا تغلب •

وهتف يقول وهو يمد ذراعه :

ـ قل للذين أرسلوك ان ليفة الحمام لا تبيع شرفها !

ثم استدار فجأة ، ومضى راكضا • ولكنه ما ان قطع خمس خطوات حتى التفت نحو أليوشا ، وحرّك له يده مودّعاً • ثم ما ان قطع خمس خطوات أخرى حتى توقف ملتفتاً نحو أليوشا مرة ثانية • كانت الابتسامة الساخرة قد اختفت من وجهه وحلت محلّها دموع • وبصوت مختلج تقطعه شهقات انتحاب ، صاح يسأل أليوشا من خلال عبرات يحاول أن يكظمها فتشطر كلماته شطرين :

ـ ماذا كان يمكنني أن أقول لابني لو قبلت مالكم ثمناً لعارنا ؟

قال ذلك وانصرف راكضا دون أن يلتفت مرة أخرى • تابعه أليوشا بنظره وهو يشعر بحزن عميق • وأدرك أليوشا أن هذا الرجل لم يكن قد خطر بباله ، حتى آخر لحظة ، أنه سيدعك الورقتين النقديتين وأنه سيرميهما • انه الآن يركض ، ولن يرجع• ذلك أمر كان منه أليوشا على يقين • ولم يشأ أليوشا لا أن يناديه ، ولا أن يجرى وراءه ليدركه، لأنه أحس أن عليه أن لا يفعل ذلك • حتى اذا غاب الرجل عن بصره ، تناول الورقتين اللتين كانتا مدعوكتين مسحوقتين غائرتين في الرمل ، ولكن دون أن يصيبهما أى تمزق ، وأخذ يبسطهما فيسمع قرقعتهما بين أصابعه كأنهما جديدتان • حتى اذا أزال عنهما ما نالهما من دعك ، عاد فطواهما ودسهما فى جيبه • ثم سار فى طريقه ليبلغ كاترين ايفانوفنا ثمرة مسعاه فى انفاذ ما عهدت اليه بانفاذه •

حواش

الصفحة

١٢ ★ « الحق الحق أقـــول لكم ••• » : يرى بعضهم أن تصـــدير دوستويفسكي كتـــابه بهذه الآية من الانجيل يعبر عن اقتناع دوستويفسكي بأن النفس الانسانية (والنفس الروسية) لن تبعث بعثا جديدا الا بعد أن تجتاز أزمة عميقة •

١٩ ★ ان اسم كارامازوف ، كغيره من أســماء بعض الأسر النبيلة ، يرجـــع الى أصل تترى • ولكن بعض النقاد يرون ان اختيار دوستويفسكي هذا الاسم لأبطال روايته قد تاثر خاصة باسم دمترى كاراكوزوف ، الثورى الذى حاول يوم ٤ نيسان (أبريل) ١٨٦٦ اغتيال القيصر الاسكندر الثـــانى بينما كان القيصر يتنزه فى حديقة الصيف • ويقال ان دوستويفسكي قد هزته كثيرا محاولة الاغتيال هذه • ويشير آخرون الى ان كلمة كارا (قره) تعنى فى اللغة التترية الاسود ، ويرون فى ذلك رمزا •

١٩ ★ «ووقعت منذ ثلاثة عشر عاما على وجه الدقة •••» يشير النقاد الى أن معنى ذلك أن دوستويفسكي يضع أحداث رواية « الاخوة كارامازوف » فى خريف ١٨٦٦ ، وبذلك يكون قـــد أخطأ فى الحساب حين أشار فى الفصل الثامن من الباب الثانى من هذه الرواية الى مقتل فون سون الذى وقع فى نهاية سنة ١٨٦٩

٢٧ ★ « ميتيا » تصغير اسم دمترى ، تحببا

٢٨ ★ بيير ــ جوزيف برودون (١٨٠٩ ــ ١٨٦٥) وميشيل باكونين (١٨١٤ ــ ١٨٧٦) : من أقطاب حركة « المذهب الفوضوى » منذ ١٨٤٠

٢٨ ★ « الايام الثلاثة الاولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ » : هى الايام التى تمتد من ٢٢ الى ٢٤ فبراير ، والتى أدت الى تنازل لويس فيليب عن العرش •

SS

٢٨ ★ يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر فى ذلك العصر «بألف نفس»: ألف نفس ، أى ألف قن ، وهذا يدعو الى افتراض أن الاراضى المملوكة تزيد على عشرة آلاف هكتار .

٣٥ ★ « كليكوشى » : الكلمة مشتقة من فعل كليكات الروسى ومعناه صرخ ، وهو اسم يطلق على النساء الهستريات اللواتى يأخذن فى صراخ كأن بهن مسا من جن .

٤٠ ★ « لقد تناول المقال مسألة القضاء الاكليركى » : ان مسألة المحاكم الاكليركية (التى كانت تفصل فى شئون الطلاق خاصة) ترتبط باصلاح المحاكم المدنية سنة ١٨٦٤ ، وقد نوقشت فى الصحافة مناقشة حادة فى ذلك العهد .

٤٤ ★ « الشيخ » : بالروسية « ستارتس » ، وهو اسم يطلق تعظيما وتبجيلا على الرهبان الطاعنين فى السن . أما العجوز العادى فاسمه بالروسية « ستاريك » .

٥٤ ★ « الشيخ زوسيما » : ان هذه الشخصية تذكر بشخصية الشيخ أمفروسى الذى زاره دوستويفسكى فى أوبتينا سنة ١٨٧٨ ، ولكن دوستويفسكى قد استوحى أيضا كتابا بعنوان : « حياة الشيخ الراهب زوسيما وأعماله المجيدة » ، وقد نشر هذا الكتاب فى موسكو سنة ١٨٦٠ ، ان هذا الراهب (١٧٦٧ ــ ١٨٣٥) هو ابن حاكم مقاطعة سمولنسك المسمى فرخوفسكوى ، وقد كان فى شبابه ضابطا فى حرس كاترين الثانية ، ثم ترهب وأصبح شيخا يعيش حياة نسك قاسية . وقد جمع أحد مريديه أقواله ومواعظه ونشرها ، فاستخدمها دوستويفسكى فى اعداد الباب السادس من روايته « الاخوة كارامازوف » .

٥٦ ★ « رأيت طيف حوذى ... » : عرض بتصرف لمقطع من النشيد الرابع من « الانياذة المزورة » (التى تصف الجحيم) ، وقد نشرها سنة ١٦٤٣ الاخوة شارل ونيقولا وكلود بيرو .

٥٩ ★ « أعلن الرسول توما ... » : ان ما يذكر عن هذا الرسول من

عـــدم تسرعه فى التصديق قد أشـير اليه فى انجيل يوحنا (الاصحاح العشرين ، ٢٤ ــ ٢٩) ٠

٦٢ ★ بائيسى فيليتشكوفسكى (١٧٢٢ ــ ١٧٩٤) : ناسك يرجـع أصله الى روسيا الصغرى ، كان راهبــا فى جبـل آثوس ، وفالاشيا ، ومولدافيا ، وهو الذى أدخل نظام « المشايخ » الى روسيا ، ترجم كتب اسحاق السورى وتيودور ستوديت ٠ وقد نشرت مؤلفاته سنة ١٨٤٧

٦٢ ★ كوزلسكايا أوبتينا (بوستين) ، منسك أوبتا : دير يقع قرب كوزلسك فى مقـــاطعة كالوجا ، أنشأه رجل من قطاع الطرق تائب ، اسمه اوبتا ، وقد اشتهر هذا الدير فى القرن التاسع عشر بتقوى رهبانه ٠ وزاره دوستويفسكى فى شـهر حزيران (يونيه) سنة ١٨٧٨ بصـحبة الفيلسوف الشـــاب فلاديمير سولوفييف (١٨٥٣ ــ ١٩٠٠) بعد موت ابنه أليوشا ٠ وكان فى هــــذا الدير الشيخ أمفروسى ، الذى اتخذه دوستويفسكى نموذجا للشيخ زوسيما فى هذه الرواية ٠

٦٤ ★ « راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون فى عصرنا ٠٠٠» ٠ هو الراهب بارتين نيبوزا (١٦٤٨ ــ ١٧٠٤) الذى قضى حياته فى الاديرة بتركيا وفلسطين ، ثم أصبح أسقف هولموجورى ، ومات فى روسيا ٠ كان دوستويفسكى مطلعا على حجات هذا الراهب الى الشرق ٠

٧٢ ★ يطلق على كبير الرهبان أو رئيس الدير فى الكنيسة الارثوذكسية اسم « ايجومين » ، والكلمة يونانية ٠

٨١ ★ «فون سون» موظف مسن قتل وسرق ماله سنة ١٨٦٩ فى ماخور بموســكو ، ووضعت جثته فى صندوق وأرسل الصندوق الى سان بطرسبرج بالقطار ٠

٨٢ ★ « لكل دير قواعد ٠٠٠ » : هناك مثل روسى يقول : « لا تذهب الى دير أجنبى لتفرض عليه قواعدك أنت » ٠

٨٧ ★ « يرجع تاريخها الى عهد سابق على الانشقاق » : أى الى سنة ١٦٦٠ ، حين حدث انشقاق « قدامى المؤمنين » فى روسيا ٠

SS

٨٩ ★ « هلا تنازلت يا سيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك٠٠»:
ها هنا لعب لعظى على كلمتى ايسبرافنك ونابرافنك ، فأما كلمة ايسبرافنك التى يسمى بها رئيس الشرطة فهى مشتقة من فعل ايسبرافت ومعناه أدب أو عاقب ، وأما نابرافنك فهو اسم ادوار نابرافنك (١٨٣٩ ـ ١٩١٦) رئيس الاركسترا الشهير فى دار الاوبرا الكبرى بمدينة سان بطرسبرج منذ سنة ١٨٦٩ ، وهو من أصل تشيكى ، وقد شاءت المصادفة أن يكون اسمه هذا مشتقا من فعل نابرافيتى ومعناه : وجه ، أدار ، أصلح ٠

٩١ ★ الفيلسوف الشهير دينيس ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) ، دعته كاترين الثانية الى سان بطرسبرج سنة ١٧٧٣ ، وقد ركب الناس هذه النادرة عن محاورته مع ذلك الواعظ الممتاز أفلاطون لفشين (١٧٣٧ ـ ١٨١٢) ، الذى كان مربى الدوق الاكبر ولى العهد بافل ، ثم أصبح رئيس أساقفة موسكو ٠

٩١ ★ الاميرة كاترين داخكوفا (١٧٤٣ ـ ١٨١٠) لعبت دورا كبيرا فى الفتنة التى أوصلت كاترين الثانية الى العرش سنة ١٧٦٢ ، وهى امرأة مثقفة ثقافة واسعة ، وقد كانت فى وقت من الاوقات رئيسة الاكاديمية الروسية للآداب ٠

٩٥ ★ « بورك البطن الذى حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك »:
كلام قالته امرأة من الشعب ليسوع المسيح (انجيل لوقا ، الاصحاح الحادى عشر ، ٢٧) ٠

٩٨ ★ هل صحيح ٠٠ ان كتاب أسماء الشهداء ٠٠ يروى ٠٠٠ قصة قديس ٠٠ قطعوا رأسه ٠٠ فتناوله من الارض ٠٠» : هذه القصة لا وجود لها فى كتاب الشهداء الروسى ، وانما هى تحكى عن شهيد سان دينيس اسقف باريس ، وهى رائجة جدا فى فرنسا:

١٠٧ ★ ناتاسيوشكا : تصغير اسم ناستازيا ، ويستعمل تحببا ٠

١٠٧ ★ « ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر » : فى هذه السن تماما مات اليوشا ابن دوستويفسكى • وقد كتبت أرملة دوستويفسكى تقول : « هذه ثمرة تأثر فيدور ميخائيلوفتش بموت ابننا اليوشا الذى مات سنة ١٨٧٨ وعمره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر • ففى تلك السنة انما شرع فيدور ميخائيلوفتش فى كتابة الرواية » •

١٠٧ ★ نيكيتوشكا : تصغير اسم نيكيتا ويستعمل تحببا •

١١٠ ★ « هذه راشيل ••• تبـــكى صـــغارها ••• » : تروى زوجة دوستويفسكى أن هذه الكلمات هى الكلمات التى وجهها الشيخ أمفروسى الى دوستويفسكى محاولا مواساته عن موت ابنه •

١١٢ ★ « سأذكره فى صلواتى » : علقت زوجة دوستويفسكى على ذلك قائلة : ان فيدور ميخائيلوفتش قد نقل الى أقوال الشيخ هذه حين عاد من أوبتينا بعد حديثه مع أمفروسى ووصفه له مدى ما نعانيه من لوعة لموت ابننا •

١١٥ ★ النص فى انجيل لوقا (الاصحاح الخامس عشر ، ٧) كما يلى : « أقول لكم انه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارا لا يحتاجون الى توبة » •

١٢٢ ★ « أوبدورسك » : مدينة صغيرة فى أقصى شمال سيبريا الغربية، بين الأورال والمحيط المتجمد •

١٣٤ ★ « كان أحد رجال الدين قد نشر كتابا ضخما فى هذه المسألة » : ان أستاذا فى القانون الكنسى هو الراهب ميخائيل جورتشاكوف قد نشر كتـــابا عنوانه : « بحث فى الاسس العلمية للقضـــاء الاكليركى » ، وكانت مكتبة دوستويفسكى تضم هذا الكتاب ••

١٣٥ ★ « ولكن هذا ليس الا عقيدة ممـا وراء الجبال » : المقصود بما وراء الجبال هو ايطاليا ، والكلام ينطبق على العقيدة اللاهوتية التى تتفق ودعاوى بابا روما • وهكذا تفهم النكتة التى ترد فى الحوار بعد ذلك « ـ نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال » •

١٤٦ ★ كان البابا جريجوار السابع (١٠٧٣ ــ ١٠٨٥) أكبر ممثل لفكرة الحكم القائم على السلطة الدينية ، وقد خاصم الامبراطور هنرى الرابع وغلبه ٠

١٥٠ ★ « باتيوشكا » : بهذا اللقب ينادى رب الأسرة والكهنة وغيرهم من الاشخاص المحترمين ، من باب الملاطفة ٠

١٥٦ ★ « تعرف هذين البطلين من أبطال قصة شيللر ٠٠٠ » : فى هذه الدرامة التى كتبها شيللر سنة ١٧٨١ ، أخرج المؤلف على المسرح اخوين متنافسين هما ابنا الكونت دى مور ٠ فأما الاول وهو كارل مور فيترأس عصابة من قطاع الطرق ، وأما الثانى وهو فرانتس مور فيهيىء مقتل أبيه ٠

١٦٤ ★ « المسيح نفسه غفر للمرأة التى أحبت » : اشارة الى غفران المسيح للخاطئة « من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها لانها أحبت كثيرا » (انجيل لوقا ، الاصحاح السابع ، ٤٧) ٠

١٧٦ ★ « جروشنكا » : لقب ملاطفة ، ومن عجب أن يشتق من اسم أجرافين تصغيرا ٠

١٧٧ ★ «ان شاعرنا بوشكين ٠٠٠ قد مجد ساقيها الصغيرتين فى شعر»: ذلك فى الفقرتين ٣٠ ، ٣٤ من النشيد الاول من قصة بوشكين « أوجين أونيجين » ٠

١٨٠ ★ « كاتنكا » : تصغير اسم كاتيا (كاترين) توددا وملاطفة ٠

١٨٨ ★ كان الرهبان الروس لا يأكلون اللحم أبدا ٠

١٩٦ ★ « ملة الخلستيس » : ظهرت فى القرن الثامن عشر ، وكان لها أنبياؤها واجتماعاتها التى تتسم برقص محموم وأعمال خليعة ٠

١٩٨ ★ « قبلة على الشفتين وطعنة فى القلب » : كلمات كارل مور فى المشهد الثانى من مسرحية شيللر « قطاع الطرق » ٠

١٩٨ ★ أحسن متجر لبيع المواد الغذائية فى سان بطرسبرج .

٢٠١ ★ « فانيا » : تصغير اسم ايفان

٢١١ ★ « اسحاق السورى » : ناسك من القرن السابع نشرت ، مجموعة من مواعظه سنة ١٨٥٨ فى موسكو . وقد ضمت مكتبة دوستويفسكى هذا الكتاب .

٢١٢ ★ « اليزابت سمردياستشايا » : اسم مشتق من فعل سمرديت ، ومعناه النتنة . وقد روى أخو دوستويفسكى الاصغر (وهو آندره دوستويفسكى) فى مذكراته التى نشرت سنة ١٩٣٠ أن امرأة معتوهه اسمها أجرافين كانت تسكن فى أراضى أبيهما أيام شبابهما : « كان عمرها ٢٠ ــ ٢٥ سنة . وكانت قليلة الكلام ، فاذا تكلمت تكلمت كارهة على مضض ، وقالت كلاما غامضا مفككا . فاذا سمع السامع ما تقول فهم أنها تتذكر ابنها المدفون فى المقبرة . ويظهر أنها كانت معتوهة منذ ولادتها، وقد اغتصبت فولدت ولدا مات فى سن مبكرة . فحين قرأت قصة اليزابت فى رواية الإخوة كارامازوف تذكرت تلك المرأة المعتوهة أجرافين» .

٢١٤ ★ « يوروديفايا » : اسم يطلقه الشعب على بعض ضعاف العقول ممن يعدون « مجذوبين الى الله » .

٢٢٤ ★ « ان مدينتنا مبعثرة جدا ... » . ان دوستويفسكى يسمى هذه المدينة فى روايته بهذا الاسم الساخر: سكوتوبريجونيفسك المنحوت من كلمتين (قاد ــ بهائم) . وفى المسودات يسميها توبولسك ، وفى رأى زوجة دوستويفسكى أنه وصف ستارايا روسا ، تلك المدينة الصغيرة الهادئة الوادعة ، بأفنيتها ، وحفرها وحدائقها ذات الاسيجة الخشبية .

٢٢٧ ★ هذان الشطران هما من نظم دمترى نفسه ، وسينشدهما مرة أخرى (الجزء الثانى ، الباب الثامن ، الفصل الخامس) .

٢٢٨ ★ « اكاذيب يروجها أناس لا خلاق لهم ، فلا تسمع لها أبدا وبدد

كل أوهامك » : بيتان من قصيدة للشاعر نكراسوف ، نشرت سنة ١٨٤٦ ، وفيها يخاطب الشاعر فتاة ضائعة يريد اصلاحها وبعثها بحبه • وقد استشهد المؤلف بأبيات من هذه القصيدة فى غير هذه الرواية («قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها» ، و «فى قبوى ») •

٢٣١ ★ « كن نبيلا يا أيها الانسان » : مطلع قصيدة للشاعر جوته عنوانها : « الالهى » ، وقد نظمها سنة ١٧٨٣

٢٣٢ ★ «سيلين ذو الوجه المزهر» : من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها . «آلهة اليونان» ، فى ترجمة قام بها ليخاتشيف ، وهنا يتلاعب دمترى بالالفاظ مستغلا الجناس بين كلمة سيلين ، وكلمة سيلون (ومعناها قوى) •

٢٣٣ ★ « سكان الكهوف الخائفون الوجلون » : ان دمترى لا يتلو هنا نشيد الفرح بل قصيدة أخرى للشاعر شيللر هى « عيد ايليئوزيس » (١٧٩٨) فى ترجمة روسية قام بها ف • آ • جوكوفسكى (الفقرات ٢ ، ٣ ، ٧) •

٢٣٥ ★ « روح العالم التى خلقها الله » : هاتان هما الفقرتان الثالثة والرابعة من قصيدة شيللر الشهيرة «الى الفرح» ، فى الترجمة الروسية التى قام بها ف•اى• تيوتشيف، وقد استخدم بتهوفن هذه الابيات لخاتمة سمفونيته التاسعة •

٢٧٠ ★ « الكولبياكا » : فطائر بالسمك •

٢٧١ ★ « حمارة بلعام » : ان الأتان التى ركبها الرسول بلعام قد نطقت فجأة حين رأت ملاك الرب (التوراة ، الاعداد ٢٢ ، الآيات من ٢٣ الى ٣٠) •

٢٧٣ ★ « سهرات فى المزرعة قرب ديكانكا » : مجموعة اقاصيص خيالية رومانسية كتبها نيقولا جوجول (١٨٣٢) •

٢٧٤ ★ « التاريخ العام » من تأليف سماراجدوف : هو موجز فى التاريخ للمدارس الابتدائية ، طبع مرارا منذ سنة ١٨٥٤

٢٧٦ ★ « ثلاث أوراق نقدية ملونة » : هما أوراق نقدية من فئة المائة روبل .

٢٧٧ ★ « هناك لوحة جميلة رسمها الرســام كرامسكوى » : هو ايفان كرامسكوى (١٨٣٧ ـ ١٨٨٧) ، زعيم الحركة الواقعية فى ذلك العصر ، وقــد رسم وجوه تولستوى ونكراسوف وغيرهما فى لوحات رائعة .

٢٨٦ ★ « جاء فى الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق ... » : تحوير لما ورد فى الأناجيل : « الحق أقول لكم لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ، ولا يكون شىء غير ممــكن لديكم » (انجيل متى ، الاصحاح السابع عشر ، ٢٠) .

٢٩٢ ★ « ولكن الفــلاحين مستمرون على جلد أنفسهم بأنفسهم » : ان الاصلاح القضائى الذى صدر ســنة ١٨٦٤ قــد الغى العقوبات الجسدية فى محاكم الدولة ، ولكنه تســامح فى تطبيقها فى محاكم القرى .

٢٩٧ ★ ليس المقصود هنا الشاعر الانجليزى بايرون ، بل الشاعر الهجاء الكسى بيرون (١٦٨٩ ـ ١٧٧٣) .

٢٩٧ ★ « آربنين » : ان الاب كارامازوف ، وهو قليل الحظ من الثقافة يخلط هنا بين بطل رواية الشاعر ليرمونتوف الشهيرة «بطل من زماننا » ، واسمه فى الواقع هو بتشورين ، وبين بطل مسرحية لهذا الشاعر نفسه عنوانها « التنكر » ، وبطل هذه المسرحية هو الذى اسمه آربنين .

٣٠٦ ★ « فانيا ، ليوشا » : تصغير اسمى ايفان وأليوشا .

٣٠٨ ★ « لا تقل لايزوب كلمة واحدة» : ان دمترى يسمى أباه هنا باسم الشاعر اليونانى الشهير ايزوب فى معرض الاحتقار ، ومعروف

أن هذا الشاعر قد ولد عبدا ، وأنه كان دميم الوجه عي اللسان أحدب ٠

٣٦٠ ★ « ايكاتيرنبورج » : مدينة في منطقة المناجم من الاورال ، على طريق سيبريا ٠ وتسمى الآن سفردلوفسك ٠

٣٧٨ ★ « ميتكا » : تصغير تحقيري لاسم ميتيا (دمترى) ٠

٣٨٠ ★ « جروشكا » : تصغير تحقيري لاسم جروشنكا (أجرافين) ٠

٣٨٢ ★ « فانكا » تصغير تحقيري لاسم فانيا (ايفان) ٠

٣٨٨ ★ « أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية » : روت أرملة دوستويفسكي أن هذه الطريقة هي التي كان يستعملها زوجها في مخاطبة أطفال لا يعرفهم ٠

٤٢٤ ★ « بالشكر ياسيدتي لا أحفل » : آخر بيت من قصيدة شيللر « القفاز » (١٧٩٧) ٠ ان كاترين قد عذبت ايفان كثيرا وسببت له آلاما شديدة ، مثلما فعلت تلك السيدة الجميلة بفارسها دولورج ٠

٤٣٨ ★ « الرائد سينجيريف ــ س » : يشير سينجيريف هنا ، باستعمال حرف السين (س) ، الى انحطاط مكانته الاجتماعية الآن ٠ فهكذا يتكلم الحقراء أمام العظماء ، مضيفين هذا الحرف الى أواخر الكلمات ٠

٤٤٢ ★ « ايليوشا » : تصغير اسم ايليا ، تحببا ٠

٤٤٥ ★ « ليس في الطبيعة كلها ما يرضيها » : استشهاد بقصيدة ليرمونتوف التي عنوانها «الشيطان» ٠ وهاهنا تحريف ، فالنص الاصلي لهذا البيت يجب أن يكون هكذا : « لا تريد أن تبارك شيئا في الطبيعة بأسرها » ٠

٤٤٥ ★ « تشرنومازوف » : لعب لفظي على اسم كارامازوف الذي يعني نصفه (كارا) : أسود (تشرني) فيكون معنى تشرنومازوف : «المسود» أو «الملطخ بالسواد» ٠

SS

فهرس

الموضوع | الصفحة

SS

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكى قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" "والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يتندر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التى يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكى إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكى كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسى التى أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، فى كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف

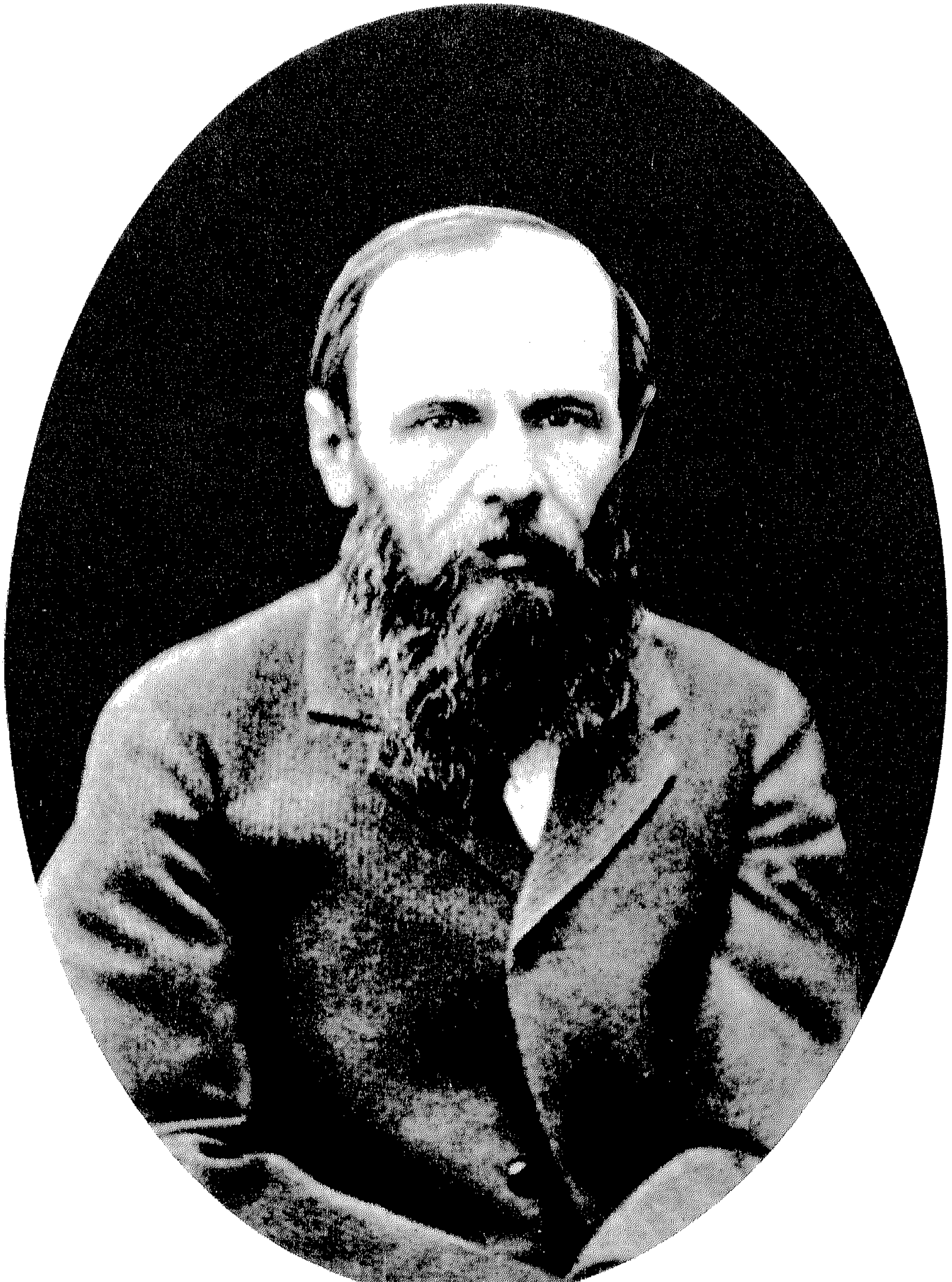
دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٧

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

إخوة كارامازوف ٢

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد السابع عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً
ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي
الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧
الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢
الخطوط والغلاف: عماد حليم
طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥
Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA · Via Bertini, 34 · 20154 Milano

SS

الإخـــوة كارامازوف

٢

SS

الباب الخامس: ما للأمر وما عليه

١

الخطوبة

إنّ السيدة هوخلاكوفا هي التي استقبلت أليوشا من جديد في الدهليز • كانت تبدو منهكة جداً • لقد وقع حادث خطير : ان نوبة الهستريا التي أصابت كاترين ايفانوفنا قد « انتهت الى اغماء أعقبه ضعف فظيع واعياء رهيب • لقد رقدت كاترين ايفانوفنا ، وأغمضت عينيها ، وأخذت تهذي ، وارتفعت حرارتها • واستدعينا الدكتور هرتسنشتوبه والعمتين ، فوصلت العمتان ، ولكن الطبيب تأخر وصوله • الجميع محتشدون الآن في غرفتها • انهم ينتظرون قلقين خائفين • ماعسى يحدث ؟ انها في غيبوبة • آمل أن لا تكون قد أصابتها حمى دماغية • • » •

كانت هيئة السيدة هوخلاكوفا تدل على ذعر حق • فهي تصيح في كل لحظة قائلة لأليوشا من أجل أن تطلعه على الواقع : « الأمر في هذه المرة خطير ، خطير جدا » ، كأن كل ما جرى حتى ذلك الحين لم يكن على شيء من خطورة • كان أليوشا يصغي اليها بمرارة • أراد أن ينهي اليها نتيجة المساعي التي قام بها ، ولكنها كانت تقاطعه منذ ينطق بأول كلمة قائلةً له : « ليس الآن » • ان وقتها لا يتسع للاستماع اليه • وطلبت منه أن يتفضل فينتظر عند ليزا ، واعدةً اياه أن تلحق به فيما بعد •

قالت له بما يشبه الهمس في أذنه ، مفضيةً اليه بسر :

ـ تصور يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش ! لقد أدهشتنى ليزا أشد الدهشة منذ قليل ؛ ولكنها تبلغ من التأثير فى قلبى أننى أغفر لها راضية ما ان خرجت أنت حتى استبدت بها ندامة صادقة جدا ، لأنها فيما نزعم قد سخرت منك أمس واليوم . الحقيقة أنها لم تسخر سخراً ، فأنا أعرفها، وانما هى مزحت مزاحاً . ومع ذلك فقد بلغت من الأسف العميق أنها أوشكت أن تبكى، فما وسعنى الا أن أدهش. لم يتفق لها أن ندمت يوماً حين كانت تسخر منى ، سخراً لا خبث فيه على كل حال . وهى تسخر منى بغير انقطاع كما تعلم . أما الآن فالأمر خطير . لقد أصبح كل شىء خطيراً . انها تحرص كثيراً على رأيك يا ألكسى فيدوروفتش ، وما ينبغى لك أن تؤاخذها وأن تستاء منها . لا تسوءنْك أساليبها . أنا شخصياً أفعل ما أستطيع أن أفعله لأداريها وأراعيها ، ذلك أنها لطيفة جدا ، ذكية جدا ... ليتك تعلم كم هى لطيفة وذكية ! ولقد ذكرت لى منذ هنيهة أنك كنت صديق طفولتها ، أنك كنت « خير أصدقاء طفولتها ، وأخلصهم ، وأصدقهم » . كذلك قالت . أصدقهم ، هل تفهم ؟ فأين مكانى أنا من نفسها اذن ؟ ان لها فى هذا المجال ذكريات حية وعواطف عميقة . وهنالك خاصة تلك العبارات وتلك الكلمات التى تجيد استعمالها ، تلك التراكيب التى لا يتوقعها المرء ! ذلك يخرج من فمها فجأة ، ارتجالاً . قصة الصنوبر تلك مثلاً . لقد كان فى حديقتنا شجرة صنوبر ، أيام كانت ليزا صغيرة جدا . أحسب أن هذه الشجرة ما تزال موجودة الى الآن ، فما ينبغى أن نتحدث عنها بصيغة الفعل الماضى . ليست الأشجار بشراً يا ألكسى فيدوروفتش ، انها لا تتغير . قالت ليزا منذ أيام : « ماما ، اننى أرى شجرة الصنوبر هذه كأنها فى حلم ، أى « Sosnt nik so sna » . الحق أنها قالت لى ذلك بطريقة أخرى * . نسيت الآن كيف قالت لى ذلك . المهم أن كلمة الصنوبر كلمة سخيفة فى ذاتها . ولكن ليزا بلغت من

الطرافة والأصالة في توشيتها أنني لا أستطيع أن أقلدها • ثم ان هذا كله قد خرج من رأسي • والآن ، الى اللقاء • ان هـــذه الأحداث قد قلبت نفسي رأساً على عقب ، حتى لأخشى أن تذهب بعقـــلي • لقد أوشـــكت يا عزيزي ألكسى فيدوروفتش أن أُجنّ مرتين في حياتي • فاضـــطروا الى معالجتي • اذهب الى ليزا ، وواسها كما تجيد أنت ذلك ايما اجادة •

ثم صرخت تنادي ليزا وهي تقترب من الباب :

ـ ليزا ! جئتك بألكسى فيدوروفتش الذي تظنين أنك أسأت اليه اساءة كبرى • انه غير غاضب منك ولا عاتب عليك ، أؤكد لك ذلك ، بل انه ليدهشه أن يكون قد خطر ببالك هذا الخاطر !

ـ شكراً يا ماما ! ادخل يا ألكسى فيدوروفتش •

دخل أليوشا الغـــرفة • ان ليزا تبدو مضطربة اضطرابا شديدا ، خجلى خجلاً قوياً ، فقد احمر وجهها فجأة حتى الأذنين • كان واضحاً أنها تشعر بشيء من الخزي • وكما يحدث دائما في مثل هذه الحـــالة ، طفقت تتحدث في أمور لا شأن لها في نظرها ، متظاهرةً بأنها مهتمة بها في هذه اللحظة اهتماما كبيرا • قالت :

ـ حدثتني أمي منذ برهة يا ألكسى فيدوروفتش عن المائتي روبل ، وعن المهمة التي كلفت بها ••• لدى ذلك الضابط المسكين ••• وقـــد وصفت لي الاهانة الفظيعة التي أُلحقت به ••• رغم أن أمي لا تحسن سرد قصة من القصص ، وانما هي تخلط الأمور بعضها ببعض ، وتُسقط في جميع الأحيان تفاصيل هامة ••• لقد تأثرت تأثراً شديداً ، وبكيت • فقل لي الآن : هل أعطيته المبـــلغ وكيف تصرف هـــذا الانسان الشقي المعذب ؟

أجاب أليوشا متظاهراً هو أيضاً بأن اخفاق مسعاه هو ما يشغل باله، أجاب يقول :

ـ المشكلة هي أنني لم أعطه المبلغ ! تلك قصة طويلة !

وأدركت ليزا مع ذلك أنه يشيح عينيه في ضيق وحرج ، ويحاول مثلها تماما أن يتحدث في أمور ليست بذات بال • وجلس أليوشا قرب المائدة وأخذ يروي الحكاية ، فما ان قال بضع كلمات حتى زال ارتباكه تماما ، وحتى أسر انتباه ليزا • كان يتكلم وهو ما يزال تحت وطأة الانفعال الذي ما يزال قوياً في نفسه لم يخمد أواره ، ذلك أن الضابط المتقاعد قد أحدث في نفسه أثرا شديدا • وقد عرف كيف يروي القصة رواية أمينة صادقة ، جذابة أخاذة • كان قد اعتاد في الماضي ، بموسكو ، أن يجيء الى ليزا أيام كانت ما تزال طفلة صغيرة ، فيقص عليها حادثاً وقع له منذ وقت قصير ، أو يحدثها عن قراءاته ، أو يثير أمامها ذكرى من ذكريات سنيه الأولى ، فكان يتفق لهما في كثير من الأحيان أن يلفقا أحلاما مشتركة أو أن يخترعا حكايات هي في الغالب مضحكة خيالية غريبة • وها هما يستعيدان الآن جو موسكو ، ويشعران في نفسيهما باستيقاظ مناخ الحياة التي قضياها هنالك قبل سنتين • اضطربت ليزا من رواية هذه القصة اضطرابا قوياً • لقد عرف أليوشا كيف يرسم للصبي ايليوشا صورة حارة • فلما فرغ من سرد جميع تفاصيل المشهد ، ووصف كيف داس المسكين الورقتين النقديتين ، هتفت ليزا تقول وقد استبد بها انفعال عنيف :

ـ ألم تعطه المال اذن ؟ أتركته ينصرف ؟ أوه ! يا رب ! كان عليك أن تلحق به وأن تدركه ، فتحاول أن تكلمه مزيدا من الكلام •••

ـ لا يا ليزا ، لقد كنت على حق حين لم أحاول أن أدركه • ذلك أفضل •••

قال أليوشا ذلك وهو ينهض شارد النظرة حالم الهيئة ، وأخذ يسير في الغرفة •

ــ هذا أفضل ؟ كيف يكون هدا أفضل ؟ لسوف يهلكون الآن فقراً !

ــ لن يهلكوا ، لأن هاتين المائتين من الروبلات ستصلهما على كل حال . سيقبلهما فى الغد حتماً .

ثم تابع كلامه يقول وهو ما يزال يسير فى الغرفة مطرقاً مفكراً :

ــ نعم ... لن يعارض فى الغد ... هذا أكيد ...

ولم يلبث أن توقف فجأة أمامها فقال :

ــ لقد ارتكبت خطأ ، ولكن هذا الخطأ ستكون له ثمرات طيبة .

ــ ما هو الخطأ الذى ارتكبته ، ولماذا تتصور أنه ستكون له ثمرات طيبة ؟

ــ اسمعى . ان هذا الرجل له طبع ضعيف وجل . لقد أرهقه القدر ، ولكن له قلباً طيباً . حاولت أن أفهم لماذا شعر فجأة بأنه أُهين فأخذ يدوس هاتين الورقتين النقديتين ، ذلك أنه كان هو نفسه يجهل حتى آخر لحظة أنه سيتصرف هذا التصرف ، ثقى بهذا ! وأحسب أننى استشف الآن الأسباب الكثيرة التى جعلت شعوره تُجرح ... وكان ذلك أمراً لا بد منه ... فهو أولا قد أسرف فى اظهار ابتهاجه بهذا المال أمامى ، ولم يكتم سعادته فى اللحظة الأولى . فلا بد أنه شعر بعد ذلك بمذلة من استجابته تلك السريعة التى لم يستطع أن يسيطر عليها وأن يتحكم بها . فلو أنه اغتبط اغتباطا أقل ، لو أنه امتنع عن اظهار هذا الاغتباط ، لو أنه اصطنع أوضاعاً واتخذ مظاهر كما يفعل كثير من الناس لأخذ المال ، لقبل الوضع بسهولة أكبر ، ولما رفض هذه المساعدة . لقد أسرف فى الصدق والاخلاص ، وذلك هو ما يجرح شعوره . آه يا ليزا !

انه انسان طيب صادق ، وهذا يصعّب الأمور دائماً في مثل هذه الأحوال.
لقد كان طوال مدة حديثنا يتكلم بصوت ضعيف مرهق مكدود متعجل . وكان يضحك ضحكه صغيرة أيضا ... يضحك أو يبكي ... لا أدري ... بل أدري ... لقد كانت ضحكاته أقرب الى البكاء .. كان يبكي حماسةً ... حدثني عن ابنتيه ... عن الوظيفه التي عُرضت عليه في مدينة أخرى ... لقد فتح لي قلبه ، وأسرّ لي بذات نفسه ، وأفاض في الافصاح عن عواطفه ... فما لبث بعد ذلك أن شعر من ذلك بخزي وعار ... ثم اذا هو يشعر نحوي بكره على حين فجأة . انه واحد من أولئك الناس المساكين الذين يسرفون في الاحساس بالخجل والعار . لقد شعر بالذل من انه سارع يعدني صديقا ، وأنه استسلم لي بغير مقاومة. في بيته كان قد هدّدني وتوعّدني تقريبا ، ثم ها هو ذا حين تلقى المال يسارع فيوشك أن يرتمي على عنقي . لقد ودّ لو يقبلني ، وكانت يداه تلامسني في كل لحظة . فلهذه الاسباب جميعا أحسّ أنه أذلّ نفسه أمامي ؛ ومما زاد الطين بلة أنني ارتكبت تلك الخطيئة ، أنني قارفت تلك الغلطة الخطيرة : لقد صرّحت له فجأة بأنه سيُمنح مزيدا من المال اذا كان ما يملكه لا يكفيه للهجرة الى مدينة أخرى ، حتى لقد عرضت عليه أن أسهم أنا في ذلك بمالي اسهاماً كبيرا . ذلك ما فاجأه . لقد تساءل : لماذا أقحم نفسي في مساعدته أنا أيضاً ؟ يجب أن تعلمي يا ليزا أن المذلين أمثاله لا يحبون أن يروا جميع الناس تتقدم اليهم محسنة . ذلك يشق على أنفسهم كثيرا . سمعت هذا الرأي كثيرا ، ولا سيما من الشيخ زوسيما. لا أعرف كيف أوضح هذه الحقيقة ، ولكن أتيح لي أن ألاحظها بنفسي مرارا . ثم انني لو كنت في مكانهم لكان ردّي كردّهم . انني أشعر بذلك في ذات نفسي . يجب أن نتصور خاصةً أنه رغم جهله حتى آخر لحظة بأنه سيدوس المال أخيرا ، كان يشعر بذلك شعورا غامضا مبهما .

هذا آكيد • ولم تكن حماسته فائضة ذلك الفيض كله الا لأنه كان يحس هذا الاحساس الغامض المبهم بأنه سيقوم بهـــذه الحركة ••• على كل حال ، مهما تكن هذه الخاتمه داعيةً الى الأسف والحسرة ، فما ينبغي أن نقلق منها • بل انني لعلى يقين بأن ما حدث كان هو الأفضل ، وأن الأمور هي الآن على خير ما يرام •••

ـ على خير ما يرام ؟ كيف هذا ؟ انني لا أفهم !

كـذلك هتفت ليزا وهي تلقي على أليـــوشا نظرة دهشة • فقال أليوشا :

ـ لو أنه لم يدس الورقتين النقديتين بقدميه ، لو أنه أخذ المال ، اذن لظل يبكي في بيته من الذل ساعةً بكاملها ، ذلك أمر محتوم ، واندم على ما فعل ولجاءني مع الغد حانقاً ساخطاً ليرمي بهما وجهي ، أو ليدوسـهما بقدميه كما فعل منذ قليل • أما وقد صنع ما صنع ، فسيشعر بعـد الآن بالكرامة والكبرياء ، وبالظفر والانتصار ، رغم علمه بأنه قد « ضـيّع بفعلته نفسه » • يترتب على ذلك أنه لن يكون هنالك شيء أسهل من ردّه الى قبول هاتين المائتين من الروبلات منذ لغد ، ما دام قد برهن على شرفه برفض المال ودوسه • ذلك أنه حين أخذ يدوس الورقتين بقدميه لم يكن يتنبأ أنني سأردهما اليه في الغداة • وهو في حاجة رهيبة الى هذه المساعدة الماليه ؟ ومهما يبلغ من الشعور بالكبرياء ، فانه سيظل يفكر في هذا الأمر طوال النهار ، وسيدرك مدى الخسارة التي مني بها • وسيكون أمره في الليل أدهى ، فان الندم والحسرة سيقضان مضجعه، وسيعذبانه في أحلامه، فما ان يطلع الصبح حتى يكون ميالا الى المجيء اليّ معتذراً • وفي تلك اللحظة انما سأذهب اليه أنا ، وقد لاح في وجهي انني أقول له معترفاً : « أنت انسان كريم على نفسك ، وقد برهنت على ذلك ، فاقبل الآن هذا

المال ، واغفر لى واعف عنى » • وسوف يقبل المال عندئذ ، ما فى ذلك ريب •

نطق أليوشا هذه الكلمات الأخيرة وهو فيما يشبه السكر • وصفقت ليزا يديها احداهما بالأخرى ، وقالت :

ـ هذا صحيح جدا ! هذا واضح جدا ! فهمت كل شيء فهماً تاماً ! أوه ! أليوشا ، كيف تستطيع أن تعرف هذه الأشياء كلها ؟ ما تزال فى ريعان الشباب ثم تدرك ما يجرى فى النفس الانسانية هذا الادراك العميق ••• ما كان لى أنا أن أستطيع ذلك !

تابع أليوشا كلامه يقول وهو فى غمرة الحماسة :

ـ الأمر الأساسى الآن هو أن نقنعه بأننا سنعامله على قدم المساواة رغم أنه يقبل أخذ المال منا • يجب أن يشعر بأننا لا نعامله على قدم المساواة فحسب ، بل على قدم التفوق أيضا •••

ـ « على قدم التفوق » هذا تعبير رائع يا ألكسى فيدوروفتش ، ولكن هلاّ شرحته لى •••

ـ أقصد ••• الحق أننى لم أحسن الافصاح ••• لا ••• ليس الأمر أمر قدم ••• ولكن سيان •••

ـ طبعا ••• سيان ••• أنت على حق ! اغفر لى يا أليوشا ، ياعزيزى أليوشا ••• لقد كنت حتى الآن لا أكاد أحترمك كثيراً ، هل تعلم ؟ أقصد ••• كنت أحترمك ، ولكن على قدم المساواة ، أما بعد الآن فسأحترمك على قدم التفوق •••

وسرعان ما أردفت تقول بحرارة :

ـ لا تؤاخذنى يا صديقى العزيز اذا أنا تفكهت وتندرت قليلاً •

أنا فتاة صغيرة تحب أن تضحك ، ولكن أنت ، أنت ... قل لي يا ألكسي فيدوروفتش ، ألا تظن أن في استدلالاتنا ، أو قل في إستدلالاتك أنت – لا في استدلالاتنا نحن – شيئاً من الاستخفاف بهذا المسكين ، شيئا من الازدراء له ؟ اننا نشرّح عواطفه واضعين أنفسنا فوقه . أفلا نبرهن على احتقار له حين نطمئن كل هذا الاطمئنان منذ الآن الى أنه سيقبل أخذ المال ؟

فأجاب أليوشا بلهجة جازمة ، كأنه كان ينتظر هذا السؤال :

– لا يا ليزا ، ليس يداخل هذا شيء من احتقار البتة . لقد ألقيت على نفسي هذا السؤال ذاته وأنا عائد الى هنا . فكري قليلا : كيف يمكننا أن نحتقره ونحن جميعا مثله ، كيف يمكننا أن نحتقره والبشر جميعا مثله ؟ ذلك أننا لسنا خيراً من هذا المسكين ، وهبنا خيراً منه الآن ، فاننا لن نبقى خيراً منه متى وُجدنا في ظرف كالظرف الذي هو فيه . لا أستطيع أن أقطع برأي فيما يتصل بك أنت يا ليزا ، ولكنني على يقين من أنني أنا « مسكين » في بعض الأمور . أما ذلك الضابط فليس « مسكيناً » ، ان له نفساً مرهفة جداً . لا يا ليزا ، صديقتي ، ليس في موقفنا هذا احتقار ولا ازدراء . هل تعرفين ماذا علمني شيخي مرة ؟ قال لي : يجب أن تعامل أكثر الناس معاملتك أطفالاً ، وأن تعامل بعض الناس معاملتك مرضى ...

– قل لي يا ألكسي فيدوروفتش ، قل يا صديقي ! ما رأيك في أن ننذر نفسينا أنا وأنت للاهتمام بالناس كما لو كانوا مرضى ؟

– أوافق يا ليزا ، أتمنى . ولكنني لست متأهباً بعد كل التأهب . ان صبري ينفد في بعض الأحيان ، فأضيق ذرعاً . وفي أحيان أخرى أراني غائباً فما ألاحظ شيئا . أما أنت فشأنك شأن آخر .

ـ لا أصدق من هـــذا الكلام شيئاً ! آه يا ألكسى فيدوروفتش ! ما أعظم سعادتى !

ـ ما أحلى أن أسمعك تقولين هذا يا ليزا !

ـ ألكسى فيدوروفتش ، أنت طيب طيبه خارقة . ولكنك توهم فى بعض اللحظات بأنك متفيهق قليلا . ومع ذلك فان المـــرء حين يعرفك مزيدا من المعرفة ، يدرك أنك لست كذلك ... اقترب من الباب فى رفق وهدوء ، فافتحه بلا ضجة ولا ضوضاء ، وتأكد من أن ماما ليست تتنصت علينا .

كذلك أضافت ليزا تقول بهمس سريع عصبى . فاتجه أليوشا نحو الباب ، فشقه قليلا ، ثم عاد فقال ان أحدا لا يتجسس عليهما .

وتابعت أليوشا كلامها تقول وهى تزداد احمرارا :

ـ أقترب منى مزيدا من الاقتراب . هات يدك ... هكذا ... يجب أن أبوح لك بسر كبير : ان الرسالة التى بعثت بها اليك أمس لم تكن مزاحا ، بل جداً ...

قالت ذلك وغطت عينيها بيدها . كان واضحا أنها تشعر من هـــذا الاعتراف بحياء شديد . وفجأة ، أمسكت يد أليوشا فلثمتها ثلاث مرات بعنف وقوة وحرارة .

هتف أليوشا يقول :

ـ أوه ! ليزا ! حسن منك هذا ! ولقد كنت مقتنعا كل الاقتناع على كل حال بأنك كنت جادةً فى رسالتك .

ـ كنت مقتنعا ؟ أهذا كلام ؟

قالت ذلك وأقصت عنها يد أليوشا ، ولكن دون أن تتركها ، وقد احمر وجهها احمرارا شديدا مرة أخرى ، وضحكت ضحكة خفيفة سعيدة •

ـ ألثم يده فيقول « حسن منك هذا » !

على أن هذا اللوم كان لا يخلو من ظلم ، فلقد كان أليوشا يشعر باضطراب شديد هو أيضا •

تمتم يقول بخراقة ، وهو يحمرّ أيضاً :

ـ لشد ما أحب أن أرضيك يا ليزا ، ولكنني لا أعرف كيف أحتال لهذا ولا كيف أتدبره •

ـ أليوشا ، عزيزى ، أنت فاتر ووقح • أليس هذا ما يمكن أن يتصوره المرء ؟ لقد تفضل فاختارنى زوجةً له ثم ها هو ذا هادىء النفس! كان مقتنعاً بأننى جادة فى رسالتى ، لا مؤاخذة ! ولكن هذه وقاحة ، وقاحة •••

سألها أليوشا ضاحكاً :

ـ أكان عيباً الى هذا الحد اذن أننى كنت مقتنعاً بذلك ؟

فقالت له ليزا وهى نلقى عليه نظرة حنونا رقيقة سعيدة :

ـ أوه ! أليوشا ! بالعكس ••• كان ذلك منك حسنا جدا ، حسنا جدا جدا •

وكان أليوشا ما يزال ممسكا يدها بيده ، فما هى الا لحظة حتى مال عليها فجأة فقبلها فى فمها •

هتفت ليزا تسأله :

ـ ما هذا أيضا ؟ ماذا دهاك ؟

كان أليوشا قد فقد سيطرته على نفسه • قال :

ـ اغفرى لى ••• ان كنت قد أخطأت ••• لعلنى ••• حقا انها لحماقة رهيبة ••• لقد أخذت علىّ أننى بارد ، لذلك ••• قبلتك ••• ولكننى أدرك الآن أن هذا كان حماقة منى •

انفجرت ليزا ضاحكة ، وأخفت وجهها بيديها • ثم لم تملك أن تمنع نفسها من أن تقول له من خلال ضحكها وقد اتخذ وجهها هيئة رصينة بل قاسية :

ـ أتفعل هذا وأنت في مسوح الراهب أيضا ؟ ان علينا أن ننتظر قليلا فيما يتعلق بالقبلات يا أليوشا • نحن لا نعرف حتى الآن كيف تندبرها ، لا أنا ولا أنت • لا بد لنا أن ننتظر زمناً طويلا أيضا •

بهذا ختمت كلامها فجأة • ثم أردفت بعد لحظة تقول :

ـ ولكن اشرح لى : ما الذى حملك على أن تختار بلهاء حقيرة مثلى هى فوق ذلك كسيحة ، فى حين أنك على هذا الجانب العظيم من الذكاء والتعقل والفطنة ؟ ••• أوه ! أليوشا ، أنا سعيدة جدا ، لأننى لا أستحقك أبدا •••

ـ لا تقولى مثل هذا الكلام يا ليزا • سوف أترك الدير تماما بعد بضعة أيام • فاذا عشت فى العالم فسيكون علىّ أن أتزوج ، أنا أعرف ذلك • ثم انه « هو » الذى أمرنى بهذا • فأين عسى أجد امرأة خيراً منك ••• ومن عسى يريدنى سواك ؟ لقد فكرت فى كل شىء • أنت أولاً تعرفيننى منذ الطفولة • وأنت ثانيا تملكين مزايا كثيرة لا أملكها • نفسك أقرب الى المرح من نفسى • وأنت خاصةً أكثر براءةً منى • فأنا

قد عرفت حتى الآن أشياء كثـــيره • أوه ! أنت لا تعلمين هــذا ! انني كارامازوف أنا أيضا • أى ضير فى أن تضحكى وأن تمزحى دائما وأن تسخرى حتى منى ؟ بالعكس : اسخرى ما شاء لك هواك أن تسخرى •• اننى لأسعد بهذا ••• انك تضحكين كطفلة صغيرة ، وتحكمين على نفسك بأنك شهيدة •

ـ شهيدة ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ نعم يا ليزا • انظرى مثلا فى ذلك السؤال الذى ألقيته منـــذ لحظات حين قلت : أليس فى نفسنا شىء من احتقار لذلك الضابط المسكين الذى نشرّح قلبه ؟ تلك فكرة تخطـــر ببال شهيدة يا ليزا ••• لست أعرف كيف أفصح عما أريد أن أقول ، غير أن من يشعر بمثل هذه الأنواع من القلق قادر فى رأيى على أن يتألم كثيرا ••• لا شـــك أنك قلّبت معانى كثيرة وأنت قاعدة على هذا الكرسى المتنقل •••

قالت ليزا بصوت أوهنته السعادة :

ـ أليوشا ، ناولنى يدك ! لماذا تسحبها دائما ؟ قل لى يا أليوشا : أى زى تنوى أن ترتدى حين تترك الدير ؟ لا تضحك ، ولا تغضب ، ذلك أن هذا الأمر يهمنى كثيرا •

ـ لم أفكر بعد فى الزى الذى سأرتديه يا ليزا • ولكننى أريد أن ألبس ما يرضيك أكثر من غيره •

قالت ليزا :

ـ أحب أن ترتدى سترةً من مخمل أزرق قاتم ، وصديرة من « بيكيه » بيضاء ، وقبعة رمادية من جوخ طرى ••• قل لى الحقيقة : لقد

صدّقتَ في مساء أمس أنني لا أحبك ، حين تنكرتُ لرسالتي ، أليس كذلك ؟

ـ لا ... لم أصدّق !

ـ أوه ! ألا انك لفتى لا سبيل الى اصـــلاحه ! انك لا تطاق ولا تحتمل ، هل تعلم ذلك ؟

ـ كنت أعرف أنك ... تحبينني ، ولكنني تظاهرت بأنني أعتقـد بأنك لا تحبينني ... وذلك لأجعلك ... أكثر ارتياحا ...

ـ هذا شر وأدهى ! ولكن لا ... حسنا فعلت يا أليوشا ! انني أحبك حباً رهيبا ! قلت لنفسي في هذا الصباح وأنا أنتظـــر زيارتك : « سأطلب منه مرة ثانية أن يردّ اليّ رسالتي ، فاذا أخرجهـا من جيبه بلا مقاومة فمدّها اليّ (كما يمكن توقع ذلك منه) فانه يكون فتى أبله لا يحبني ولا يستحق حبي ... وأكون أنا قد هلكت . » . غـير أنك تركت الرسالة في الدير ، فردّ هذا اليّ شيئاً من شجاعتي . انك لم تحملها لأنك كنت تحس سلفاً أنني قد أطلبها منك ، وأنت لا تريد أن تردها ، أليس كذلك ؟ قل ! نعم ؟

ـ أوه ! ليزا ! كلا ... الرسالة معي الآن ، ولقد كانت معي من قبل . هي هنا ، في هذه الجيب . انظري !

قال أليوشا ذلك وأخرج الرسالة من جيبه ضاحكا ، وأظهرها عليها من بعيد ، ثم أضاف :

ـ اعلمي مع ذلك أنني لن أردها اليكِ . انظري اليها من بعيد .

ـ كيف هـــذا ؟ أكذبت اذن حين طالبتـك بها ؟ أتكذب وأنت راهب ؟

فقال أليوشا مسلّما باتهامها وهو يضحك :

ــ نعم أكذب ! لقد أبيت أن أقول الحقيقة حتى لا أردّ اليك الرسالة .

ثم أضاف يقول بانفعال شديد وقد احمر وجهه من جديد :

ــ هذه الرسالة عزيزة عليّ الى أقصى حد . سأحتفظ بها ما حييت، ولن يستطيع أحد أن ينتزعها منى !

كانت ليزا شاخصةً اليه ببصرها مأخوذة مفتونة . ثم قالت له هامسةً :

ــ أليوشا ! هيّا انظر هل تتنصت علينا ماما وراء الباب ؟

ــ طيب يا ليزا ، سأنظر ما دمت تريدين ذلك . ولكن أليس الأفضل أن لا نحاول التثبت من هذا ؟ لماذا نظن فى أمك هذا الظن ؟ لماذا نتصور أنها يمكن أن ترتكب سماجة كهذه ؟

فقالت ليزا مستاءةً وقد احمر وجهها احمرارا شديداً :

ــ أية سماجة ؟ فيم الكلام عن السماجة ؟ هل من السماجة أن تراقب أمٌ ابنتها وأن تحاول سماع أحاديثها ؟ ان من واجب الأم أن تفعل هذا مع ابنتها . وليس فى عملها ذاك أى اخلال بقواعد اللباقة وأصول الأدب . كن على يقين يا ألكسى فيدوروفتش من أننى حين سيكون لى ابنة أنا أيضا ، فلن يفوتنى أن أتجسس عليها فى كل مناسبة !

ــ صحيح ؟ ولكن هذا شر يا ليزا !

ــ لماذا يكون هذا شراً ؟ أى ضير فيه ؟ لو قد تجسست هذا التجسس

على حديث عادى يجرى فى المجتمع ، اذن لكان ذلك منى ضعة وحقارة بدون ريب • أما هنـــا فالأمر مختلف كل الاختلاف • هنا فتاة مختليه بشاب ••• اسمع يا أليوشا : أحب أن أقول لك منذ الآن اننى سأراقبك أنا أيضا متى تمت خطوبتنا ، وسأفض بريدك ، وأقرأ جميع رسائلك • اعلم هذا • هأناذا أبلغك منذ الآن •

ـ موافق ••• ما دمت تريدين ذلك ••• ولكن هذا ليس حسناً ، صدقينى •

بهذا تمتم أليوشا • فقالت ليزا :

ـ أوه ! هذا الاحتقار ! أليوشا ، صديقى ، لا نتشاجرن منذ أول يوم • اننى أوثر أن أعترف لك بالحقيقة : أنا أعرف أن التجسس على الناس معيب جدا • لقد أخطأت أنا ، وأصبت أنت • ولكننى سأراقبك مع ذلك •

فقال أليوشا ضاحكاً :

ـ راقبينى ، راقبينى •• ولن تكتشفى أشياء كثيرة ، أقول لك ذلك منذ الآن •

ـ أليوشا ، هل ستطيعنى ؟ تلك أيضا مسألة يجب أن نســـوّيها سلفاً •

ـ سأطيعك يا ليزا ، سيسرنى جدا أن أطيعك ، ولكن لا فى الأمور الأساسية • فى الشئون الهامة ، سأعمل بما يمليه علىّ ضميرى ، حتى ولو خالفتنى •

ـ هكذا أفهم أنا الأمر • ألا فاعلم يا أليوشا أننى مستعدة من جهتى لأن أطيعك لا فى الشئون الاساسية فحسب ، بل فى كل شىء ، وفى كل

وقت ، مدى الحياة ••• أعاهدك على هذا منذ الآن • واذا خضعت لك، فانني أخضع راضيةً سعيدة فرحة • (كذلك هتفت ليزا تقول بحرارة)• واني لأحلف لك أيضا أنني لن أراقبك أبدا ، لن أراقبك مرةً واحدة، لا ولن أقرأ رسائلك قط ، في يوم من الأيام • ذلك أنك على حق ، وانني على خطأ • أعرف أن رغبة رهيبة في مراقبتك سوف تتأجج في نفسي ، ولكنني سأحبس هذه الرغبة ، لأن هذا معيب في نظرك • ستكون لي بمثابة العناية الالهية ••• اسمع يا ألكسي فيدوروفتش : لماذا أنت حزين هذا الحزن كله في هذه الآونة الأخيرة ، أمس واليوم ؟ أنا أعرف أن هناك أنواعا من الهم والقلق تملأ جوانب نفسك ، ولكني لاحظت فيك حزناً خاصا ••• أهو ألم سري ؟

قال أليوشا بصوت مكبوح :

ـ نعم يا ليزا ، هو حـــزن سري • انني أرى أنك تحبينني حقاً ما دمت قد أدركت ذلك •

سألته ليزا بلهجة فيها رجاء وضراعة :

ـ ما سبب حزنك ؟ هل أستطيع أن أعرفه ؟

فأجابها أليوشا محرَجاً :

ـ سأذكره لك يا ليزا ••• ولكن فيما بعد • اذا حدثتك الآن عن سبب حزني ، فلن تفهمي • ثم انني لن أحسن شرحه كما ينبغي •

قالت ليزا :

ـ أحسب أن موضوع أخويك وأبيك هو الذي يعذبك !

قال أليوشا حالماً مفكراً :

ـ نعم ، هناك أخواى أيضا !

قالت ليزا فجأة :

ـ أنا لا أحب أخاك ايفان يا أليوشا •

استقبل أليوشا هذا التصريح بشيء من الدهشة • وتابع كلامه يقول :

ـ أخواى يسيران الى الضياع ، وكذلك أبى • وهم يجرّون الى الشقاء كائنات أخرى • انهم ألعوبة فى يدى « القوة الخفية الغامضة التى تحرك آل كارامازوف » ، كما قال الأب بائيسى فى الآونه الأخيرة ••• هى قوة خفية ، عارمة ، لا يمكن السيطرة عليها والتحكم به ••• حتى أنى لست واثقا من أن روح الله تحلّق فوق هذه القوة ••• ولكننى أعلم أننى واحد من آل كارامازوف ، أنا أيضا • أنا فى الظاهر راهب • فهل أنا راهب حقاً يا ليزا ؟ لقد قلت منذ هنيهة اننى راهب •••

ـ نعم قلت ذلك ••

ـ راهب ••• ومع ذلك قد لا أكون مؤمناً بالله •••

ـ أأنت لا تؤمن بالله ؟ ماذا دهاك ؟

كذلك سألته ليزا قلقة محاذرة بصوت خافت •

ولكن أليوشا لم يرد • ان هذا القول الذى أفلت من لسانه يعبّر عن فكرة تثوى فى قرارة قلبه ولعله لا يستطيع هو نفسه أن يستبينها ، ولكنها كانت تعذبه ما فى ذلك ريب • وتابع أليوشا كلامه :

ـ وفوق ذلك كله ، هذا هو يموت ••• ان الانسان الذى أعده خير انسان فى هذا العالم سيبارح الأرض • آه ! ليزا ! لو علمت مدى

تعلقي بهذا الانسان ، ومدى شعوري بالارتباط به ارتباطاً لا انفصام له ! ••• سوف أكون بعد اليوم وحيداً ••• سأجيء اليك كثيرا يا ليزا ••• لن نفترق بعد الآن •••

ـ نعم سيظل كل منا قرب الآخر • سنكون متحدين مدى الحياة ، متحدين الى الأبد ••• أليوشا ، قبلني الآن ••• اسمح لك الآن بأن تقبلني •

قبلها أليوشا •

ـ والآن اذهب • كان المسيح معك • (قالت ذلك وهي ترسم عليه اشارة الصليب) • أدركه « هو » قبل أن يموت • الآن أفهم أنني أضعت لك وقتاً ثميناً • سأصلي له ولك اليوم • أليوشا ، سنكون سعيدين، سنكون سعيدين ، أليس كذلك ؟

ـ أعتقد يا ليزا •

لم ير أليوشا ، حين خرج من عند ليزا ، أن من الضروري أن يذهب أولاً الى السيدة هوخلاكوفا ، وانما تأهب لمغادرة المنزل دون أن يودعها • ولكنه ما ان فتح باب البيت وخطا خطوة على السلّم حتى انبجست السيدة هوخلاكوفا أمامه • فأدرك أليوشا فورا أنها كانت تترقب انصرافه •

ـ هذا فظيع يا ألكسي فيدوروفتش ! هذه أمور صبيانية ، هذه سخافات وحماقات • آمل أن لا تحمل أقوال ابنتي على محمل الجد ، وأن لا تهدهد أوهاماً وأحلاماً ! يا للحماقه ! يا للحماقة ! يا للحماقة !

كذلك أخذت تردد وقد لاح عليها أنها تُدينه • فقال لها أليوشا :

ـ لا تقولي هذا الكلام لها على الأقل ، والا اضطربت اضطرابا شديدا وساءت حالها كثيرا •

ـ هذا أخيرا كلام متزن يبرهن لى على أنك شاب عاقل • هل أفهم من كلامك هذا أنك انمـــا وافقتها اشفاقا على حالتهـــا ، حتى لا تنير بمعارضتك حنقها ؟

قال أليوشا بلهجة قاطعة :

ـ لا بل كنت جاداً فى حديثى معها كل الجد •

ـ لا شأن للجد هنا • هذا شيء لا يمكن تصوره ، لا يمكن تخيله ! اعلم أولاً اننى لن أستقبلك بعد اليوم فى منزلى ، واعلم ثانيا أننى سأسافر من هذه المدينة مبتعدةً بابنتى • هل فهمت ؟

قال أليوشا :

ـ فيم تقلقين هـــذا القلق كله ؟ انمـا الأمر أمر مشروع ما يزال تحيققه بعيدا جدا • لا بد أن ننتظر سنة ونصفا على الأقل •

ـ لعلك على حق يا ألكسى فيدوروفتش • فالى ذلك الحين يتسع الوقت للتشاجر معها والانفصال عنهـــا مائة مرة • آه ••• ما أشقانى ! ما أشقانى ! صحيح أن هذا كله صبيانيات ، ولكننى صعقت حقـا • أنا الآن فى موقف فاموسوف فى آخر مشـــاهد المسرحية الهزيلة * • أما تشاتسكى فأنت ، وأما صوفيا فهى • انظر الى هذا التطابق • لقد رابطت على السلّم لأنتظرك • وفى تلك المسرحية الهزلية حدثت جميع المصائب على السلم أيضا • سمعت كل شيء • وتجلدت تجلداً شديدا حتى أستطيع أن أسيطر على نفسى • هذا هو اذن سرّ الأرق الرهيب فى الليل وسر نوبات الهستريا بالأمس ! البنت عاشقة • ولم يبق للأم الا أن تموت ! هو قبرى اذن يُهيَّأ ! أجب عن سؤالى الثانى الآن وهو أهم : ما تلك الرسالة التى تحدثتما عنها ؟ هل كتبت اليك رسالة ؟ أرنيها فورا ! اننى أطالبك بذلك وأصر •

ـ لا تلحّى • والأفضل من هذا أن تقولى لى كيف حال كاترين ايفانوفنا الآن • اننى أحرص على معرفة ذلك •

ـ ما زالت تهذى • لم تستردّ حواسها بعـــد • وعمتّاها معها ، ما تنفكان تتفجعـان وتئنان وتصـــطنعان مظاهر الأبهة • أما الدكتـــور هرتسنشتوبه فقد وصل ، ولكنه بلغ من الذعر أننى أصبحت لا أعرف ماذا يجب علىّ أن أعمل لأهدىء روعه • حتى لقد خطر ببالى أن أستدعى طبيبا له• وجىء بالطبيب فى عربتى• ثم هأناذا الآن أمام مشكلتك ومشكلة هذه الرسالة ، تتمةّ للشقاء والبلاء ! صحيح أن هناك ثمانية عشر شهرا ••• ولكننى أستحلفك بكل ما هو عزيز عندك مقدس لديك ، أستحلفك بشيخك المحتضر ، أن ترينى هذه الرسالة يا ألكسى فيدوروفتشْ • أرنى الرسالة ، أرنيها أنا ، أنا أم ليزا • امسكها بأصابعـــك اذا شئت ، فلن آخذها ، وانما أقرؤها من بعيد •

ـ لا يا كاترين أوسيبوفنا ، لن أريك الرســـالة • لا جدوى من الالحاح • لن أريك الرسالة حتى لو أذنت لى هى بذلك • سأعود غدا، فاذا شئت ناقشنا جميع المشاكل • أما الآن فالى اللقاء •

قال أليوشا ذلك ، وهبط السلّم راكضا ، فخرج الى الشارع •

٢

قيثارة سمردياكوف

كان يغذ الخطى . فحين ودع ليزا كانت قد برقت في ذهنه فكرة عن الطريقة التى يستطيع بها أن يفاجىء أخاه دمترى الذى كان واضحا أنه يحاول أن يتجنب لقاءه . الوقت متأخر . هى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبا . كان أليوشا يتمنى بكل كيانه أن يعود الى الدير قرب شيخه المحتضر ، ولكن حاجتــه الى رؤية أخيه دمترى مرة أخرى قد تغلبت أخيرا : ان احساسه بوشك وقوع كارثة ، بوشك حدوث أمر رهيب ، يرسخ فى نفسه مزيدا من الرسوخ كلما انقضت الساعات . أما ما هى تلك الكارثة التى ستقع ، أما ما هو ذلك الشقاء الذى سينزل ، فان ذلك شيء لم يكن يعلمه أليوشا ، لا وكان يستطيع فى تلك اللحظة أن يوضح لنفسه ما يريد أن يقوله لأخيه دمترى . « اذا مات شيخى المحسن الى أثناء غيابى ، فلن ألوم نفسى فى أقل تقدير ، مدى الحياة ، على اننى كان فى وسعى أن أحول دون وقوع الشر ثم أهملت أن أفعل ذلك ، وأغفلت واجبى وأسرعت أعود الى مسكنى بأقصى سرعة . وانى اذ أفعل الآن ما أفعل انما أطيع أوامر معلمى . . »

كانت خطته هى أن يعثر على دمترى فجأة ، متسللا الى الحديقة من خلال السياج الذى سبق أن تخطاه أمس داخلا الى « الكشك » . وكان يقول لنفسه : « فان لم أجده ، فسأختبىء فى الجناح دون أن أنبىء

لا أهل لدار ولا توماس ، ثم انتظره هنالك حتى المساء اذا وجب الأمر . فاذا كان ينوى أن يترقب جروشنكا كما فعل أمس ، فربما جاء الى هذا الكشك ... » . ولم يتأخر أليوشا فى وضع خطته بجميع تفاصيلها ، ولكنه قرر أن يضعها موضع التنفذ فورا ، ولو اقتضاه ذلك أن لا يرجع الى الدير فى ذلك اليوم ...

وقد جرى كل شىء على ماصورته له نبوءاته . تخطى السياج فى موضع غير بعيد عن الموضع الذى تخطاه فيه أمس ، وتسلل الى الجناح دون أن يراه أحد . وكان يريد أن لا يلاحظ حضوره أحد . ذلك أن من الجائز أن يكون أهل الدار وتوماس (فى حالة وجــوده بالدار) منحازين الى صف دمترى ، فقد يمنعونه اذن من دخول الحديقة ، أو قد يبلغون دمترى وصــوله فى الوقت المناسب ، تنفيذاً لتعليمات دمترى نفسه . لم يكن فى الحديقة أحــد . جلس أليوشـا فى مكان الأمس وانتظر . ونظر الى الكشك فبدا له أكثر تداعيا مما بدا له كذلك فى اليوم السابق ، وأحدث فى نفسه شــعورا بالشقاء . ولكن النهار كان مضيئا مشمساً كما كان يومَ زيارته الأولى . وعلى المائدة الخضراء تُرى علامة مستديرة خلّفها قدح الكونياك الذى لعله صُدم أثناء المناقشــة . وساورت أليوشا خواطر تافهة كثيرة لا صلة لها بالظروف الراهنة ، كما يحدث عامةً أثناء انتظار مضجر ممل . تساءل مثلاً : لماذا جلس فى المكان نفسه الذى جلس فيــه بالأمس ، ولم يجلس فى مكان آخــر . واجتاحه شيئاً فشيئاً حزن كبير مردُّه الى قلة التأكد وشدة القلق . وبعد أن مكث هنالك قرابة ربع ساعة أو أقل من ذلك ، سمع ألحان قيثـارة تنطلق قريبةً منه . لا شك أن أحداً كان متلبثاً فى الغابة الصغيرة على مسافة عشرين خطوة فى أكثر تقدير ، أو أن أحداً وصل الى ذلك المكان منذ برهة قصيرة . وتذكر أليوشا فجأة أنه حين ترك أخاه أمس ، وابتعد

عن « الكشك » قد لمح على اليسار قرب الحاجز دكه ريفية قديمة غائرة في الأدغال . فهنـــالك اذن لا بد أن يكون قـــد جلس الواصـــل أو الواصلون . ولكن من عساه يكون أو من عساهم يكونون ؟ وهذا رجل ينطلق في تلك اللحظة مغنياً أبياتاً من الشعر يرافقها عزف على القيثـارة (ان الصوت صوت مترقق من طبقة التينور ، عاميُّ النبرات) :

بقوة عظيمة انجذب *
الى الجميلة التي لا تغلب
رفقا بنا يارب
بي وبها يارب
بي وبها يارب
بي وبها يارب

وصمت الصوت ذو التثنيات العامية . وهذا صـــوت امرأة لطيف وجل يُسمع عندئذ قائلاً في غنج ودلال :

ــ لماذا لا تجيء الينا الا نادرا يا بافل فيـدوروفتش ؟ أأنت تكره صحبتنا ؟

فقال صوت الرجل في تأدب ، بلهجة يدرك المرء فيها مع ذلك شيئا من ارادة تأكيد الرصانة والوقار والتفوق :

ــ لا ... لا ...

كان واضحا أن الرجل مسيطر على الموقف ، في حين أن المرأة تبدو مستعجلة . قال أليوشا لنفسه : « ولكن هذا سمردياكوف ! هذا صوته على الأقل . أما المرأة فأتخيل أنها ابنـــة صاحب الدار ، التي رجعت من موسكو في الآونة الأخيرة بثوب طويل الذيل ، والتي تجيء كل يوم الى مارفا اجناتفنا التماسا لشيء من حساء .. » .

وعاد صوت المرأة يقول :

ـ اننى أعيد الأشعار ، ولا سيما اذا كانت متسقة متناغمة . لماذا توقفت عن الغناء ؟

فاستأنف صوت الرجل صداحه :

تاج الملوك هين فى نفسى
مادمت احظى بصديقة أنسى
رفقا بنا يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب

قال صوت المرأة :

ـ غنيتها فى المرة الماضية خيراً مما تغنيها الآن. كنت فى المرة الماضية تقول : « صديقة أنسى العذبة » ، فكان ذلك أرق عاطفة . هل نسيت ؟

فقال سمرد ياكوف بلهجة قاطعة :

ـ ما الأشعار الا سخف وحماقة !

ـ أوه ! لا ... أنا أحب الأشعار كثيرا .

ـ الشعر هزل لا جد . افضى فى الأمر بنفسك : من ذا الذى يتكلم فى هذا العالم مقفياً ؟ ولو أخذ جميع الناس يتكلمون شعراً ، بأمرٍ صادرٍ عن السلطات مثلاً ، لما وجدوا أشياء كثيرة يقولونها . لا ... صدقينى يا ماريا كوندراتيفنا : ما الشعر الا كذب وتصنع !

فاستأنف صوت المرأة كلامه قائلا وقد ازداد غنجاً ودلالاً :

ـ ما أذكاك ! كيف تفعل من أجل أن تكون على هذا الجانب العظيم من الثقافه ؟

ـ كان يمكن أن أفعل أكثر من ذلك ، وأن أصبح أوسع ثقافه وأغزر علما ، لو ان القدر لم يحاربني منذ المهد • كان يمكنني ان أقتل في مبارزة بالمسدس ذلك الذي قد يصمني بأنني امرؤ جلف لانني ليس لي أب ، ولأن أمي امرأة نتنه * • لقد قذف أحدهم هذا الكلام في وجهي ذات يوم بموسكو ، حيث شاع سر مولدي بفضل جريجوري فاسيلفتش• ان جريجوري فاسيلفتش يعيب عليَّ تمردي على ميلادي • وقد قال في معرض حديثه عن أمي : « لقد مزقت لها أحشاءها • » • انني أسلم بذلك ، ولكنني كنت أوثر أن أُقتل في بطنها على أن أجيء الى هذا العالم • ان الناس يتناقلون في السوق (وقد ظنت أمك ، لقلة لباقتها ، ان من واجبها أن تقول لي ذلك أيضا) أن أمي كانت مصابة بداء تلبد الشعر ، وأن طولها كان لا يزيد على خمس أقدام • وكانت أمك تمط أحرف المد وهي تكلمني ، فلماذا كانت تفعل ذلك مع أن من السهل جدا على المرء أن يتكلم كما يتكلم سائر الناس ؟ لأنها كانت تحب أن تظهر عاطفيتها • ولكن هذه العاطفية تفوح منها رائحة الفلاح (الموجيك) • هل يستطيع الموجيك أن يشعر بعواطف نحو رجل مثقف ؟ انه أجهل من أن يشعر بأي شيء • انني حين أسمع أحرف المدّ تُمطُ هذا المط أتمنى لو ألطم رأسي بجدار • وذلك أمر أعرفه في نفسي منذ طفولتي ! أوه ! انني أكره روسيا يا ماريا كوندراتفنا •

ـ لو كنت ضابطا أو من سلاح الفرسان لما فكرت هذا التفكير ، بل لجرّدت سيفك دفاعاً عن روسيا •

ـ لا أحب أن أكون من سلاح الفرسان يا ماريا كوندراتفنا ، بل ان من رأيي الغاء الجيش أصلاً •

ـ فمن يدافع عنا اذن اذا هاجمنا العدو ؟

ـ لا داعى الى الدفاع • فى عام ۱۸۱۲ غزا امبراطور الفرنسيين ، نابوليون الأول ، وهو أبو الامبراطور الحالى * ، غزا روسيا ، فلو قد تم له الاستيلاء عليها لكان ذلك سعادة كبرى ، وحظاً عظيماً ؛ لأن أمةً ذكية تُخضع لنفسها عندئذ أمة غبية ، وتلحقها بها • فلو قد تم تحقيق ذلك اذن لكان عندنا الآن نظام مختلف عن نظامنا كل الاختلاف •

ـ كأنهم خير منا ! ••• ألا اننى لأرفض أن أستبدل بشاب واحد من شبابنا الحسان ثلاثة رجال من الانجليز •••

كذلك هتفت تقول ماريا كوندراتفنا بأرق صوت وأعذب نغمة • ولا شك أنها كانت تلقى على صاحبها عندئذ نظرات تفيض حباً وحناناً •

قال الرجل :

ـ المسألة مسألة ذوق !

ـ هيئتك أنت نفسك هيئة أجنبى ، أجنبى نبيل جداً • أعترف لك بهذا دون أن أحمر خجلا •

ـ هل تريدين أن أقول لك الحقيقة ؟ انهم جميعا سواسية من ناحية التحلل من الأخلاق ، أجانب كانوا أم روساً • هم جميعا أوغاد أوباش ، مع فارق واحد هو أنهم هناك ينتعلون أحذية ملمَّعة ، فى حين أن أهلنا الحفاة هنا قانعون ببؤسهم النتن ، لا يجدون فيه ضيراً • ان الشعب الروسى يستحق أن يُجلد • لقد صدق فيدور بافلوفتش أمس حين قال هذا الكلام ، رغم أنه مجنون ، هو وأبناؤه جميعا •

ـ ولكن سبق لك أن قلت انك تحترم ايفان فيدوروفتش احتراما كبيرا •

ـ ذلك لم يمنعه من أن يصفنى بأننى خادم نذل • هو يتخيل أننى واحد من أولئك المتمردين • ولكنه مخطىء • لو ملكت قدراً كافيا من المال ، اذن لسافرت منذ زمن طويل • أما دمترى فيدوروفتش فهـو شر من خادم ، سواء بسلوكه وقلة ذكائه أو ببؤسه وشقائه• هذا رجل لا خير فيه ، ولا يصلح لشيء • ومع ذلك يحترمه جميع الناس • أنا أعلم أننى لست الا طباخاً فاشلاً ، ولكن لو أوتيت شيئاً من حظ فسـوف أفتتح « مقهى مطعماً » بموسكو ، فى شارع بتروفكا • اننى أجيد اعداد أطباق حسب الطلب ، وما من أحد من زملائى قادر على ذلك ، الا الأجانب • ودمترى فيدوروفتش هذا ليس الا انسانا دنيئاً ، ومع ذلك لو طلب الى المبارزة أنبلَ أبناء أحد الكونتات ، لرضى هذا أن يبارزه • فيم هو يفضل غيره ؟ انه أقل منى ذكاء ! وما أكثر ما أتلف من مال فى سبيل حماقات وترهات ! •••

قالت ماريا كوندراتفنا :

ـ لا بد أن المبارزة شيء جميل جدا •

ـ لماذا ؟

ـ هى خطرة جدا وتحتاج الى شجاعة ، لا سيما حين يتواجه ضباط شبان بمسدسات فى سبيل سيدة ! ما أروعه من منظر ! لو كانت تُقبل فتيات فى مشاهدة مبارزة ، لو هبت أى شيء فى سبيل أن أشهد مبارزة •

ـ المبارزة ممتعة حين يسدِّد المرء بنفسه ، أما حين يكون الآخر هو الذى يسدِّد اليك ، فالأمر يصبح عندئذ كريهاً ، وربما تهربين ياماريا كوندراتفنا •

ـ أتخاف أنت فى مثل هذه الحالة ؟

SS

لم يتنازل سمردياكوف فيجيب عن سؤالها • وبعد برهه من الوقت سُمع لحن آخر تعزفه القيثارة وصوت مترقق من طبقة التينور يصدح مغنياً :

سأرحل مهما أكابد
فانى سئمت العذابا •
سيبهجنى ان أعيش بعيدا
أمتع نفسى وأحيا سعيدا
حياة العواصم •
فلا شيء يمسكنى ها هنا
ولست بباك عليك كذلك
ولست بباك على أى شيء •

وفى تلك اللحظة حدث شيء ليس فى الحسبان : لقد عطس أليوشا فجأة • فسرعان ما صمتت الأصوات • فنهض أليوشا عن مكانه واتجه نحو الدكه • الرجل هو سمردياكوف فعلاً ، بثيابه الجميلة ، وحذاءيه الملمّعين ، وشعره المدهّن حتى لكأنه مجعّد • كان قد وضع القيثارة على الدكة • والمرأة الشابة هى ماريا كوندراتفنا بنت صاحبة الدار • انهـا ترتدى ثوباً أزرق فاتحاً ذا ذيل طويل جداً • وكان يمكن أن تبدو جميلة لولا تلك البقع الحمراء البشعة فى وجهها المسرف فى الاستدارة •

سأل أليوشا بلهجة هادئه وهو يحاول أن يسبغ على سؤاله مظهر سؤال بسيط لا قيمة له :

ــ هل سيأتى أخى دمترى الى هنا بعد قليل ؟

فنهض سمردياكوف بدون تعجل، وكذلك فعلت ماريا كوندراتفنا•

ــ أنّى لى أن أعرف ما يفعله دمترى فيدوروفتش ؟ اننى لم أكلف بحراسته فيما أعلم •••

كذلك أجاب سمردياكوف مقطّعاً ألفاظه دون أن يرفع صوته ، وقد بدا في وجهه الاهمال .

فقال أليوشا شارحاً :

ـ انما سألتك لتجيبني اذا كنت تعلم .

ـ أنا أجهل أين يمكن أن يكون الآن ، ولا أحرص على أن أعرف ...

ـ لكن أخي أسرّ اليّ أنك تطلعه على كل ما يحدث في الدار ، وأنك وعدته بابلاغه عن مجيء آجرافين ألكسندروفنا .

فرفع سمردياكوف بصره الى أليوشا ببطء دون أن يضطرب . ثم قال وهو يحدّق الى أليوشا ويتفرس فيه :

ـ هل يمكنني أن أسألك أنا أيضا كيف فعلت حتى استطعت أن تدخل الى هنا رغم أن باب المدخل مقفل بالمفتاح منذ أكثر من ساعة ؟

قال أليوشا :

ـ مررت بالزقاق وتخطيت السياج لأصل الى الكشك رأساً .

ثم أضاف يقول مخاطبا ماريا كوندراتفنا :

ـ أرجو أن لا تؤاخذيني على عدم تحرجي . لقد كنت أحرص على أن أرى أخي بأقصى سرعة .

فأجابت المرأة الشابة تقول بصوت ممطوط وقد بدا واضحاً أن اعتذار أليوشا اليها قد سرها كثيراً :

ـ كيف أؤاخذك ؟ ان دمتري فيدوروفتش يسلك هذا الطريق

نفسه لبلوغ الكشك ، فما ان نلاحظ وصوله حتى يكون قد استقر فيه •

ـ لا بد لى أن أراه حتماً • اننى أبحث عنه فى كل مكان • ألا تستطيعين أن تقولى لى أين يمكننى أن أعثر عليه الآن ؟ ان الأمر أمر مسألة تهمه كثيرا •

فتمتمت المرأة الشابة تقول :

ـ انه لا يطلعنا على تنقلاته •

واستأنف سمردياكوف كلامه فقال :

ـ اننى أجيء الى هنا زائراً ، فاذا هو يلاحقنى حتى الى هذا المكان ليسألنى عن أخبار سيدى • لقد طالبنى بأن أذكر له ماذا يفعل أبوه ، ومن يدخل الدار ومن يخرج منها ، وكل ما يمكننى أن أطلع عليه من أمور أخرى • حتى لقد هدّدنى بالقتل مرتين !

ـ بالقتل ؟ لماذا ؟

ـ انه ، بما له من طبع خاص ، لا يتورع عن شيء ••• ولقد أتيح لك أن ترى ذلك بنفسك أمس على كل حال • لقد أنذرنى بأن عاقبتى ستكون وخيمة اذا أنا تركت لآجرافين ألكسندروفنا أن تدخل وأن تقضى ليلةً فى الدار • اننى أخافه وأخشاه ، ولولا أنه يثير فى نفسى هذا الجزع كله اذن لأبلغت عنه السلطات • الله وحده يعلم مايمكن أن يفعله دمترى فيدوروفتش !

وأضافت ماريا كوندراتفنا تقول :

ـ وقد صرّح له منذ أيام بأنه سيسحقه بالهاون سحقاً ، ويدقه دقاً •••

قال أليوشا :

ـ لئن تكلم عن الهـــاون ، فليس الأمر بالجد • ليتنى أستطيع أن أعثر عليه الآن ، اذن لقلت له كلمةً عن هذه التهديدات أيضا •

قال سمردياكوف وكأنه قد غيَّر رأيه فجأة :

ـ اليك المعلومات الوحيدة التى أستطيع أن أنهيهـا اليك • اننى أجىء الى هنا كصديق قديم ، ولِمَ لا أزور جيرانا ؟ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ايفان فيدوروفتش قد أرسلنى فى ساعه مبكرة من هذا الصباح الى أخيك فى « شارع البحيرة » • لقد كلفنى ، دون أن يحملنى رسالة مكتوبة ، بأن أُعلم دمترى فيدوروفتس جهاراً أنه يرجوه ملحاً أن يجىء لتناول طعام الغداء معه فى الكاباريه الذى يقع فى الميدان • لم أجد دمترى فيدوروفتش في مسكنه • كانت الساعة هى الثامنة صباحا • وقالت لى صاحبتا المنزل « ان دمترى فيدوروفتش قد خرج » • أنا مستعد لأن أحلف أنهما متواطئتان معه • من الجائز جداً أن يكون أخوك دمترى فيدوروفتش الآن فى ذلك الكاباريه مع ايفان فيدوروفتش ، لأن ايفان لم يرجع الى المنزل للغداء • أما فيدور بافلوفتش فقد تغدى أخيراً منـــذ ساعة ، ولا بد أنه الآن يُقيل • أتوسل اليك مع ذلك أن لا تحدِّث أخاك عنى ، وأن لا تقول له اننى ذكرت لك هذه المعلومات • فلقد يقتلنى اذا هو عرف ذلك !

سأله أليوشا كأنما ليتأكد من الأمر مزيدا من التأكد :

ـ هل ضرب ايفان موعدا لدمترى فيدوروفتش فى لكاباربه ؟

ـ تماما •

ـ أهو كاباريه « العاصمة الكبرى » الذى يقع فى الميدان ؟

ـ هو نفسه •

هتف أليوشا يقول وقد ألمّ به انفعال شديد :

ـ جائز جدا • شكرا يا سمردياكوف • هــذه معلومات ثمينه • سأذهب الى هناك فورا •

قال سمردياكوف ملحاً :

ـ اياك أن تفضحني !

ـ لا تخف • سأتظاهر بأنني دخلت الكاباريه مصادفةً •

وبينما كان أليوشا يتجه نحــو السياج ، هتفت ماريا كوندراتيفنا قائلة :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟ سأفتح لك باب البستان •

ـ لا داعي الى ذلك • من هنا أقرب • سأتخطى السياج •

أحدث هذا النبأ في أليوشا أثرا قويا • وأسرع متجهاً الى الكاباريه• ليس من الحشمة طبعا أن يدخل أليوشا الكاباريه وهو في مسوح راهب• ولكن أليوشا قد قرر أن يسأل عن أخويه دون أن يدخل الصالة ، وأن يستدعيهما اليه على السلّم • وانه ليقترب من مبنى الكاباريه اذا بايفــان يناديه سائلا :

ـ هل تستطيع أن تجيئني الى هنا يا أليوشا ؟

ـ طبعا • ولكنني أتحرج من الدخول بثوبي هذا •

ـ أنا في حجرة خاصة • تعال الى سلّم المدخل ، فأتلقاك هناك •

وبعد دقيقة ، كان أليوشا يجلس الى جانب أخيه • لقد كان ايفان وحيدا ، وكان يتناول غداءه •

٣

الإخـــوة يتعـــارفون

لم يكن ايفان يحتل حجرة خاصة بمعنى الكلمه • وانما كان جالساً قرب النافذة فى ركن تعزله عن الصالة حواجز • فالأشخاص الذين يجلســون فى هذا المكان الخاص لا يراهم روّاد الكاباريه الآخرون • هى قاعة مدخلٍ تفضى الى الصالات التى بعدها ، قد نصب « بوفيه » أمام جدارها الجانبى • والخدم يجتازون هذه القاعة فى كل لحظة • ولم يكن فى القاعة حينذاك الا زبون واحد هو ضابط محال على التقاعد كان يحتسى الشاى • ولا كذلك الصالات الأخرى فهى تزخـر بما تزخر بها أمثال هـــذه الأماكن عادةً من نداءات عالية ، وصرخات فرحة ، وقرقعات الزجاجات التى تُفتح ، وطقطقات الكرات على مائدة البلياردو ، مع أصوات أرغن بربارى تشق هذه الجلبة كلها •

كان أليوشا يلعم أن أخاه ايفان لا يكادُ يرتاد هذا الكاباريه أبدا ، لأنه لا يحب جو الأماكن التى من هـــذا النوع على وجه العموم • فقال أليوشا لنفسه : « فانما هو جاء اذن ليلقى دمترى ، ولكن دمترى لم يلبّ دعوته » •

قال ايفان وكان يبدو سعيدا بحضور أليوشا :

ــ هل تريد أن آمر لك بحساء سمك ؟ يخيّل الىّ أنك لا تتغذى بالشاى وحده !

وكان ايفان قد فرغ من تناول طعامه ، فهو الآن يحسو فنجاناً من الشاى . أجابه أليوشا مبتهجاً مرحاً :

ــ يسرنى أن أصيب طبقاً من حساء السمك ؛ واطلب لى كذلك شايا ، فاننى جائع .

ــ فما قولك اذن بشيء من مربب الكرز ؟ ان عندهم هنا مربّب كرز . وعهدى بك أنك كنت تحب هذا المربب فى الماضى حين كنت صغيرا وكنا نعيش كلانا عند أسرة بولينوف . أما تزال تتذكر هذا ؟

ــ أأنت تتذكره اذن يا ايفان ؟ موافق على المربب ، فاننى ما أزال أحبه كما كنت أحبه فى الماضى .

نادى ايفان الخادم وأمر بطبق من حساء السمك ، وبشاى ، وبمربب كرز .

ــ اننى أتذكر طفولتك يا أليوشا حتى الحاديه عشرة من عمرك . وكنت أنا عندئذ فى الخامسة عشرة . ما كان يمكن أن تنعقد أواصر رفاقة بين أخوين فى ذلك العمر اذا كانت تفصل بينهما أربع سنين . ولست على يقين من أننى أحببتك فى ذلك الأوان . وبعد سفرى من موسكو لم تخطر ببالى قط أثناء السنين الأولى . حتى اذا جئتَ بعد ذلك الى موسكو أنت أيضا ، لم أصادفك الا مرةً واحدة لا أدرى أين ! وهأناذا أعيش هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر ، دون أن يتاح لنا أن نتبادل حديثا حقيقيا مرة واحدة . وانى مسافر غدا ، لذلك تساءلت منذ لحظات: « تُرى أين يمكن أن أجده لأودّعه ! » وفيما أنا أتساءل هذا التساؤل لمحتك من النافذة .

ـ أكنت تحرص حرصا كبيرا على أن تراني اذن ؟

ـ نعم ، حرصا كبيرا . انني أود أن أعرفك مرةً ، وأن تعرفني كذلك مزيدا من المعرفة . ان أفضل لحظة للتعارف هي في رأيي اللحظة التي تسبق الفراق . لقد راقبت تعبير نظراتك خلال هذه الأشهر الثلاثة. كان في عينيك انتظار دائم وتوقع مستمر ، وهذا ما لا أستطيع أن أحتمله. لذلك لم أحاول أن أقترب منك . ولكنني تعلمت أن أحترمك . قلت لنفسي : « ما يزال الرجل الصغير ثابتا على مواقعه » . انني أمزح قليلا ، ولكنني أتكلم الآن جاداً . أنت فتى ثابت جدا ، أليس هذا صحيحا ؟ وأنا امرؤ يحب الثبات كيف ظهر وأين ظهر ، حتى لدى صبية صغار مثلك . لهذا أصبحت نظراتك التي تعبِّر عن الانتظار والتوقع لا تسوءني ولا تنفِّرني ، حتى لقد أصبحت محبَّبةً اليَّ ... يبدو لي أنك تحبني يا أليوشا ، أليس كذلك ؟

ـ أحبك يا ايفان . دمتري يصفك بأنك « قبر » ، أما أنا فأقول انك لغز . ولم أستطع أن أحل هذا اللغز حتى الآن . هناك نقطة مع ذلك أحسب أنني أبصرتها واضحةً في نفسك ، ولكن منذ هذا الصباح فحسب .

سأله ايفان ضاحكاً :

ـ فما هي ؟

ـ ألن تغضب ؟

ـ طبعا لا ...

ـ اذن فاعلم أنني اكتشفت أنك شاب شبيه سائر الشباب الذين هم في الثالثة والعشرين من أعمارهم ، تزخر فتوة ونضارة وعفوية مثلهم ، ويعوزك النضج كما يعوزهم ، أي ... هل كدَّرك قولي هذا كثيرا ؟

ـ بالعكس ! بل أدهشني صدق رأيك ، وهو يتفق ورأيي • لقد كنت منذ لقائنا في هذا الصباح أفكر في هذا الجانب من طبيعتي ، في هذا الفتوة العارمة الجامحة التي تزخر بها سنتي الثالثة والعشرون ، فاذا أنت تقع على هذه الحقيقة دفعة واحدة ! ••• هل تعلم بماذا كنت أحدّث نفسي قبل وصولك ؟ كنت أقول لنفسي : مهما تخيب الحياة ظني ، ومهما أفقد ايماني بالمرأة التي أحبها ، ومهما أقتنع بأن الكون سديم ملعون لعله خاضع لمشيئة الشيطان ، فلن يغير هذا من الأمر شيئاً ••• قد أغوص في جميع وهاد اليأس الانساني ، ثم أظل أحب الحياة مع ذلك ورغم كل شيء • أود لو أعب كأس الحياة متلذذا حتى الثمالة ، وقد لا أستطيع تركه قبل أن أفرغه • ولكن حين أبلغ الثلاثين من العمر فقد أرمي الكأس قبل نفاده ، ثم أمضي ••• الى أين ؟ لا أدري بعد ••• أما حتى ذلك الحين ، أي الى أن أبلغ الثلاثين ، فان الشباب سينتصر على كل شيء ـ أنا واثق من هذا ـ سينتصر على تبدد الأحلام وعلى مشاعر الاشمئزاز • لقد تساءلت مرارا : « هل في هذا العالم يأس يمكن أن يخنق في نفسي هذا الظمأ الى الحياة ، هذا الظمأ المسعور الذي قد لايكون لائقاً ؟ » • وانتهيت الى الاعتقاد بأن لا ، ولكن حتى الثلاثين من عمري فحسب ، ثم أزهد وأعف من تلقاء نفسي بعد ذلك ••• فيما أظن ••• ان الواعظين بالأخلاق ، المصدورين الحزانى ، وكذلك الشعراء ، يحلو لهم أن يصفوا بالجبن والضعة هذا الحب الحارّ للحياة • ويجب أن نعترف على كل حال أن من السمات الخاصة بآل كارامازوف ارادة الحياة هذه بأي ثمن • لا بد أن تكون هذه الارادة قائمة فيك أنت أيضا • ولكن لماذا توصف بالجبن والضعة ؟ ان القوة الصادرة عن المركز لم تنفد في كوكبنا السيّار هذا يا أليوشا • الحياة ممتعة ، و نى لأحيا ولو على خلاف كل منطق • أنا لا أؤمن بقيمة النظام الذي يحكم العالم • لنسلم بهذا •

ولكننى أحب وريقات الأشجار الطريات النديات حين تطلع فى الربيع * ، وأحب السماء الزرقاء ، وأحب أيضا دون أن أدرى لماذا ــ هل تصدق ذلك ؟ ــ أحب أيضا بعض البشر وتهــزنى الحماسة لأعمال من أعمال البطولة الانسانية التى انقطعت مع ذلك عن الايمان بها منذ زمن طويل، ولكننى ما زلت أقدسها بحكم عادة عــزيزة على نفسى أثيرة فى قلبى • جاءوك بحساء السمك • كُلْه وتذوقه • انهم يحسنون اعداده هنا • أنوى أن أسافر الى الخارج يا أليوشا • سأسافر الى الخارج من هنا رأساً، وانى لأعلم مع ذلك اننى لن أجد هنــالك الا مقبرة ، ولكننى شــديد الارتباط بذكرى هؤلاء الموتى • ان كل حجر يذكرنى بسورة جامحة من سورات الايمان بالحياة ، وبقيمة العمل ، وبالحقيقة ، وبالكفــاح ، وبالعلم أيضا • أوه ! أنا أعلم سلفاً أننى سأرتمى على ركبتىّ جاثياً أمام هذه الذكريات الكثيرة ، وأننى سأبكى على أحجار القبور هذه ، وأغمرها بالقبل ، مع شعورى فى قرارة قلبى بأن ذلك ماض تصرّم ولن يعود • على أننى لن أبكى من كرب ويأس ، بل من سعادة الشعور بانسكاب دموعى • سيسكرنى حزنى وحنانى • اننى أحب البراعم فى الربيــع ، أحب السماء الزرقاء • ليس الأمر أمر عقــل ومنطق • ان حب الحياة ينبجس من أرحامى ، وان قوى شــبابى التى لم تضعف ولم تهــن ولم يمسسها سوء هى التى أحبها هــذا الحب • أأنت تفهم شيئا من هــذه المعمّيات يا صغيرى أليوشا ؟ هه ؟

ألقى ايفان هذا السؤال وهو يضحك • فأجابه أليوشا بقوله :

ــ أفهمها جدا يا ايفان ، أفهمها أكثر مما يجب ! من قرارة الأرحام انما ينبع حب الحياة ؟ لقد أجدت التعبير عن هذه الحقيقة • وانى لأبتهج لك كثيرا حين أراك راغبا فى الحياة رغبة قوية هذه القوة •

كذلك هتف يقول أليوشا ثم أضاف :

ـ وعندى أن على كل انسان فى هذا العالم أن يتعلم حب الحياة قبل كل شىء •

ـ حب الحياة لا محاولة فهمها ؟

ـ نعم ، حب الحياة ، دون اكتراث بالمنطق ، كما قلت أنت • وبهذا وحده انما يصل الانسان الى اكتشاف معنى الحياة • أنا من جهتى أفكر فى هذا منذ زمن طويل • لقد ملكت نصف الحقيقة ما دمت تريد أن تحيا ، ولم يبق عليك الا أن تملك نصفها الآخر حتى تحقق لنفسك الخلاص والسلامة •

ـ أأنت تهتم بخلاصى وسلامتى ؟ ماكنت أحسب أننى بسبيل الضياع والهلاك • وما هو النصف الثانى فى رأيك ؟

ـ النصف الثانى هو بعث أولئك الموتى الذين لعلهم لم يبرحوا الحياة • اعطنى الشاى • اننى سعيد جدا بحديثنا هذا يا ايفان •

ـ ألاحظ فعلاً أنك تحمست قليلا • ما أكثر ما أحب « اعترافات الصدق » هذه التى يقولها ••• رهبان مبتدئون ! انك رجل ثابت يا أليوشا • هل صحيح أنك تفكر فى ترك الدير ؟

ـ صحيح ! ان شيخى أمرنى بالذهاب الى العالم •

ـ سوف نلتقى اذن ، سوف نلتقى اذن فى هذا العالم قبل حلول الثلاثين ، قبل أن أرمى الكأس • أبونا لا يريد أن يعدل عن التمتع بالحياة قبل أن يبلغ السبعين ، ولعله يحلم أن يعيش ثمانين عاما ، كما يقول ذلك هو نفسه • انه جاد فى هذا كل الجد ، مهما يكن مهرّجاً • انه يتهالك على اللذة ، ويحسب أنه مقيم عليها اقامته على صخرة وطيدة ••• صحيح أن الانسان لا يبقى له بعد الثلاثين شىء غير اللذة ••• ولكن الحياة على

على هذا الطراز حتى السبعين شيء معيب مقيت • فالأفضل أن يمسك المرء حين يبلغ الثلاثين • وبذلك يستطيع أن يحافظ على « مظهر نبلٍ » فى أقل تقدير ، كاذباً على نفسه • هل رأيت دمترى اليوم ؟

ـ لا ••• ولكننى رأيت سمردياكوف •

وقصّ أليوشا على أخيه بسرعةٍ تفاصيل لقائه بالخادم • فكان ايفان يصغى اليه وقد اكتسى وجهه تعبيرا عن الهمّ والقلق على حين فجأة ، حتى أنه استوضح أليوشا بعض النقاط •

وأضاف أليوشا قوله :

ـ وقد ألحّ سمردياكوف على أن لا أذكر لدمترى شيئا مما أسرّ به الىّ •

فقطب ايفان حاجبيه ، ووجم يفكر لحظة •

سأله أليوشا :

ـ أبسبب سمردياكوف ألمّ بك هذا الانزعاج ؟

ـ نعم ، بسببه • شيطان يأخذه على كل حال !•••

ثم أضاف يقول كأنما على مضض :

ـ حقاً لقد كنت أرغب فى أن أرى دمترى ، ولكن لم تبق بى حاجة الى ذلك الآن •

ـ هل تنوى أن تسافر بمثل هذه السرعة فعلاً ؟

ـ نعم •

فسأله أليوشا قلقاً :

ــ ما عسى يصير اليه حال دمترى والأب ؟ ترى كيف ينتهى هذا الأمر كله ؟

ــ انك ما تفتأ تعود الى هذا الموضوع ! فيم يعنينى نزاعهما ؟ أأنا حارس لأخيك ؟

كذلك أجاب ايفان بلهجة حانقة ، ولكنه لم يلبث أن تدارك نفسه ، فابتسم ابتسامة مرة وقال :

ــ ذلك جواب قابيل لله عن الأخ الذى قتله قابيل، أليس هذا ماخطر ببالك فى هذه اللحظة ؟ الى جهنم على كل حال ! ... أنا لا أستطيع أن أبقى هنا لأراقبهما ! لقد أنهيت أعمالى ، وسأسافر . أتراك تتخيل أننى غيور من دمترى ، واننى حاولت خلال هذه الأشهر الثلاثة المنصرمة أن أنتزع منه جميلته كاترين ايفانوفنا ؟ دعك من هذا ! لقد كانت لى أنا شئونى وأعمالى . وقد أنجزتها فسأسافر . أنجزتها فى هذا الصباح ، وكنت أنت شاهدا عليها .

ــ هل تعنى ذلك الحديث الذى جرى بينك وبين كاترين ايفانوفنا ؟

ــ نعم . لقد قطعت صلتى بها دفعةً واحدة . أليس هذا طبيعيا جدا ؟ فيم يهمنى دمترى ؟ انه لا شأن له بهذا الأمر ، ولا دخل له فيه. كانت علاقاتى بكاترين ايفانوفنا شأناً خاصاً بى . ثم انك تعرف أنت نفسك أن دمترى قد تصرف فى هذا الأمر كله تصرف متواطىء معى . أنا لم أطلب منه شيئاً ، وانما هو تركها لى من تلقاء نفسه ، وزاد على ذلك فبارك . لكأنها تمثيلية . أف ... ليتك تعلم يا أليوشا مدى شعورى بالتخفف الآن ! حين كنت أتناول غدائى منذ قليل هنا ، اشتهيتُ أن أطلب شيئاً من الشمبانيا احتفالاً بأول ساعة من ساعات حريتى التى عادت الىّ . حين أفكر فى هذا الأمر ... آه ... لقد دام ستة أشهر ، وهأناذا

أتحرر دفعةً واحدة . حتى أمس ، ما كنت لأتخيل أننى سأستطيع أن أقطع الصلة بمثل هذه السهولة متى شئت !

ـ أعن حبك تتكلم يا ايفان ؟

ـ عن الحب أتكلم ان شئت أن تستعمل هذا التعبير . لقد عشقت آنسة من الآنسات ، فتاةً هى طالبة فى مدرسة داخلية ؟ فتألمت ، وجعلتنى هى أتألم . وكنت أحسب أننى مشدود اليها ... ثم اذا بكل شىء يتبدد فى طرفة عين . فى هذا الصباح كنت أكلمها مستهاماً ، حتى اذا صرت فى الشارع انطلقت أضحك ضحكا مجلجلا ، هل تصدق هذا ؟ تلك هى الحقيقة بعينها مع ذلك .

قال أليوشا وهو يتفرس فى وجه أخيه الهادىء المطمئن :

ـ أنت حتى فى هذه اللحظة تتكلم فى الأمر بمرح وحبور .

ـ كيف كان يمكننى أن أحزر أننى لا أحبها البتة ؟ هأهأ ! ... ومع ذلك فهذه هى الحقيقة . أنا لا أحبها . وضح هذا الآن . ولكن ما أكثر ما كانت تعجبنى ! فى هذا الصباح نفسه ، حين أجريت معها ذلك الحديث ، كنت لا أمل ولا أكل من الاعجاب بها ! وحتى فى هذه اللحظة تعجبنى كثيرا ، هل تصدق ؟ ورغم هذا فما كان أسهل تركها علىَّ ! أتحسبنى أقول هذا الكلام تباهياً وتبجحاً ؟

ـ لا ... ولكن لعله لم يكن بالحب حقاً ؟

قال ايفان ضاحكا :

ـ يا صغيرى أليوشا ، لا تندفع فى اصدار آراء فى الحب ! ذلك لا يناسب حالتك . اننى أفكر فى اندفاعك هذا الصباح يا بنى ! أى .. كان ينبغى لى أن أقبلك عندئذ ! ومع ذلك ما أشد ما آلمتنى وعذبتنى ! ...

SS

لقد اضطررت أن أحتمل جميع تلك التمزقات • أوه ! كانت تعلم حق العلم أنني أحبها • وكانت تحبني أنا لا دمتري (قال ذلك مرحاً) ، ولم يكن دمتري الا عذراً لها وتعلة في سبيل أن تعذب نفسها • ان كل ماقلته لهـا هو الحق ، هو الحق اطلاقاً • ولكن من المؤسف أنهـا تحتـاج الى خمسة عشر عاما أو الى عشرين عاما أخرى ـ وهذا هو الشيء الأساسي ـ من أجل أن تدرك أخيرا أنها لا تحب دمتري البتة ، ولا تحب أحداً سواي رغم أنها تؤلمني وتعذبني • وقد لا تدرك هذه الحقيقة في يوم من الايام على كل حال ، رغم درس هذا الصباح ! بالمناسبة ، ما الذي صارت اليه ؟ ماذا حدث بعد انصرافي ؟

أطلعه أليوشا على النوبة العصبية التي ألمت بهـا ، وذكر له أنها ما تزال مغشياً عليها في أغلب الظن ، وأنها ما تزال تهذي •

ـ لعل هوخلاكوفا قد بالغت ؟

ـ لا أظن •

ـ يجب أن أذهب أستطلع أنباءها • على كل حال ، لا أحد يموت من نوبة عصبية !••• ولقد يحسن اليها هذا •• قد ينفعها ولا يضرها ••• ان الرب قد شاء كرمه أن يهب للنساء هذه النعمة: النوبات العصبية• لا ••• لن أذهب اليها ! فيم استئناف الامر ؟

ـ زعمت لها منذ قليل أنها لم تحبك يوماً •

ـ زعمت ذلك عامدا يا أليوشا ! سأطلب شيئاً من الشمبانيا فنشرب احتفالا باستردادي حريتي • ليتك تعلم مدى ما أشعر به من سعادة !

أجابه أليوشا بحرارة قائلا :

ـ أخي ، الأفضل أن لا تشرب • انني أحس بحزن شديد • ثم ان •••

ـ أنت حزين منذ زمن طويل ، لقد لاحظت أنا هذا .

ـ أأنت مصر" على أن تسافر غدا فى الصباح ؟

ـ لماذا فى الصباح ؟ أنا لم أقل اننى مسافر فى الصباح ... على أننى قد أفعل . هأنت ذا ترى أننى أصبت غدائى هنا حتى لا أخلو الى العجوز على مائدة واحدة ، فالى هذا الحد ينير العجوز اشمئزازى ... كان يمكن أن أسافر منذ زمن بعيد لأتحرر من وجوده . ولكن لماذا يقلقك سفرى هذا الاقلاق ؟ ما يزال أمامنا وقت طويل ، ما يزال أمامنا أبد" تقريبا ...

ـ أيكون أمامنا أبد" وأنت مسافر غدا ؟

قال ايفان ضاحكاً :

ـ فيم يهمنا هذا السفر ؟ سيكون لنا من الوقت متسع لأن نتحدث عما يهمنا نحن الاثنين ، لأن نتحدث عما جمعنا فى هذا المكان . لماذا تنظر الى" بهذه الدهشة ؟ ما هو الأمر بالنسبة الينا ؟ أجب ! أنحن هنا من أجل أن نتحدث عن الحب ، وعن كاترين والعجوز ودمترى ، وعن ظروف الحياة فى الخارج ، وعن أحوال روسيا المتردية وعن الامبراطور نابوليون ؟ أنحن هنا من أجل أن نتحدث فى هذه الأمور ؟

ـ لا ... طبعا ...

ـ هأنت ذا تدرك بنفسك اذن ما يجمعنا هنا . هناك أناس آخرون يتناقشون فى شئون هذا العالم ، أما نحن ، نحن الأغرار البسطاء ، فنريد أن نحل" أولا" مشكلات الحياة الميتافيزيقية . ذلك هو همنا نحن شباب" روسيا . ان جميع شباب روسيا يعالجون الآن ألغاز الكون الخالدة . وقد اختاروا للاهتمام بهذه الألغاز الكونية الخالدة اللحظة التى قرر الشيوخ

فيها أن يدرسوا المسائل العملية • ما الذى كان يدفعك طوال هذه الأشهر الثلاثة الى أن تنظر الىّ نظرةً فيها ذلك التعبير عن الانتظار ؟ كنت تريد أن تعرف أأنا مؤمن أم ملحد ••• ذلك ما كان يثوى فى أعماق نظرتك منذ ثلاثة أشهر ، أليس هذا صحيحا يا ألكسى فيدوروفتش ؟

أجاب أليوشا مبتسما :

ــ جائز جدا • ولكننى أرجو أن لا تكون فى هذه اللحظة بسبيل السخر منى والضحك على يا أخى •

ــ أأنا أسخر ، أنا ؟ ألا اننى لا أحب أن أشجى قلب أخى الصغير الذى يبدو أنه انتظر منى أشياء كثيرة طوال هذه الأشهر الثلاثة • أليوشا، انظر الىّ جيداً • ألست ، أنا أيضا ، فتى صغيرا مثلك ، مع فارق واحد هو اننى لست راهبا مبتدئاً ؟ كيف يتصرف اليوم شبابنا الروس أو بعضهم على الأقل ؟ انهم يلتقون فى خمارة تفوح فيها رائحة كريهة كهذه الحجرة ، ويجلسون الى مائدة ••• لقد عاشوا دون أن يتعارفوا حتى الآن ، وسينكر بعضهم بعضا من جديد ، بعد اربعين عاما ، متى خرجوا من الخمارة ! ••• فما الذى يتناقشون فيه أثناء هذه اللحظات القصار التى تتيحها لم المصادفة فى كاباريه ؟ يتناقشون فى الكون وسرّ الكون حتماً • هم يتساءلون : هل الله موجود ، وهل النفس خالدة بعد الموت ؟ والذين أصبحوا منهم لا يؤمنون بوجود الله ، يتناقشون فى الاشتراكية والفوضوية ، وفى اعادة بناء الانسانية بناءً كاملاً على أسس جديدة ؛ والفريقان كلاهما سواء • فالمشكلات التى يعالجها هؤلاء ، هى المشكلات التى يعالجها أولئك ، ولكنهم يعالجونها من الجهة المعارضة• ان عددهم لا يُحصى فى بلادنا ، هؤلاء الشبان الروس ، الذين يفيضون

أصالة وطرافة والذين أصبحوا الآن لا يجيدون أن يناقشوا الا المسائل الأبدية • ألستَ متفقاً معي في هذا الرأي !

أجاب أليوشا أخاه وهو ينظر اليه نظرة مشفوعة بابتسامة رقيقة عذبة ، كأنما ليشجعه على أن يفصح عن أعماق فكره مزيدا من الافصاح:

ــ حتماً • ان المسائل المتصلة بوجود الله وخلود النفس أو هذه المسائل نفسها التي تعالَج من الجهة المعارضة كما قلت ، هي في نظر الروسي الحق ذات خطورة حيوية ، ومن الخير جدا أن تكون كذلك •

ــ اعلم يا أليوشا أن الروسي لا يلمع دائماً بالذكاء والعقل ، واعلم على كل حال أن هذه الأمور التي تشغل بال الشبان في روسيا هي أغبى ما يمكن أن يتصوره الخيال من أمور • غير أن بين هؤلاء المراهقين واحدا أحبه كثيرا يا أليوشا •

قال أليوشا ضاحكا :

ــ هذه نتيجة بلغت في استخلاصها غاية اللطف •

ــ بماذا تريد أن نبدأ ؟ انني أترك لك الخيار • هل تريد أن نتكلم عن الله وأن نتساءل أهو موجود أم لا ؟ قل •••

ــ ابدأ من حيث تؤثر أن تبدأ ، ولو بمعالجة تلك المسائل التي وصفتها بأنها تعالَج من « الجهة المعارضة » • ألم تؤكد أمس ، في منزل أبينا ، أن الله غير موجود ؟

كذلك سأل أليوشا أخاه ، وهو يحدق اليه متفرساً فيه •

ــ تعمدت أن أقول ذلك بالأمس لدى العجوز لأناكدك وأغيظك ، ورأيت لهيباً ينبجس في عينيك • أما الآن فأنا أشعر بأنني على أتم الاستعداد لأن أناقش هذا الامر معك ، ولسوف أناقشه جاداً لا هازلاً •

SS

انني أحب كثيرا أن أتفاهم معك يا أليوشا ، لأنني لس لي أصدقاء • انني أحاول أن أقترب منك •

قال ايفان ذلك ثم أضاف يسأل أخاه ضاحكا :

ــ هل تتصور أنني ربما سلّمت بوجود الله ؟ هذا يدهشك ، أليس كذلك ؟

ــ نعم ••• اللهم الا أن تكون مازحاً من جديد ؟

ــ مازحاً ؟ لقد أخذوا عليّ ذلك بالأمس ، عند شيخك ، ولكنهم أخطأوا • اسمع يا عزيزي : ان عجوزاً آثماً عاش في القرن الثامن عشر قد قال : « اذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه »* . والحق ان الانسان قد اخترع الله • وليس أغربَ ما في الأمر ولا أبرزَه أن الله لا وجود له في الواقع ، بل أن هذه الفكرة ، فكرة وجود الله بالضرورة ، قد أمكن أن تنبت في دماغ حيوان يبلغ ما يبلغه الانسان من توحش وخبث وشر، ذلك أن هذه الفكرة فكرة مقدسة تؤثر في لقلب ، وهي في الوقت نفسه ذكية عاقلة • الحق أن هذه الفكرة تشرّف الانسان • أما أنا فقد قررت منذ أمد طويل أن لا أتساءل هل الله هو الذي تصور الانسان ، أم الانسان هو الذي تخيّل الله • فسأعفي نفسي اذن من فحص البديهيات التي يستند اليها شبابنا الروس في هذه الأيام والتي يستمدونها في حقيقة الامر كما هي من الافتراضات التي يفترضها الناس في البلاد الأوروبية الأخرى • ذلك أن ما هو افتراض" لا أكثر ، في نظـر العلماء الأجانب ، سرعان ما يصبح بديهية في نظر مراهقينا ، بل وفي نظر أساتذتهم الذين لا يفضلون المراهقين سدادَ رأي وصدق حكم في كثير من الأحيان • فسأترك جانبا جميع الافتراضات اذن ، وأتساءل ما هي غايتنا الآن على وجه الدقة ؟

SS

أما أنا فانما يهمنى أن أشرح لك طبيعتى بأقصى سرعة ممكنة ، يهمنى أن أُفهمك أى انسان أنا ، وما هو ايمانى ، وأين أضع آمالى ؟ لذلك سأقول لك فوراً اننى أسلم بوجود الله دون مناقشة أخرى • ولكننى أحب أن تلاحظ ما يلى : اذا كان الله موجوداً ، واذا كان قد خلق الأرض فعلاً ، فهو انما اتبع فى هذا الخلق ، كما أصبحنا نعرف ذلك اليوم حق المعرفة ، قوانين هندسة اقليدس ، ولم يهب للعقل الانسانى الا فكرة مكانٍ ذى ثلاثة أبعاد • ومع ذلك فقد وُجد وما يزال يوجد الى يومنا هذا أناس من أشهر علماء الهندسة ومن الفلاسفة يشكّون فى أن يكون الوجود وأن يكون الخلق كله بوجه أعمّ ، مستنداً الى قوانين هندسة اقليدس وحدها؛ حتى ليقررون أن الخطين المستقيمين المتوازيين اللذين ترى هندسة اقليدس أنهما لا يمكن أن يتقاطعا على الأرض ، يمكن فى الواقع أن يتقاربا ويتلاقيا فى نقطة موجودة فى اللانهاية* . ولقد قلت لنفسى ياعزيزى: اذا كنت عاجزاً عن فهم هذه الحقيقة ، فلن أستطيع أن أعرف أى شىء عن مسألة الله ! اننى أعترف فى كثير من التواضع أننى لا أملك المواهب اللازمة للقطع برأى فى مسائل من هذا النوع ، لأن عقلى اقليدسى قد خُلق للأرض ، ومن العبث الذى لا طائل تحته أن نشغل أنفسنا بأمور ليست من هذا العالم • وانك لتحسن صنعاً أنت نفسك يا أليوشا اذا أنت لم تفكر فى هذه الأمور ، واذا أنت لم تتساءل خاصةً هل الله موجود أم هو غير موجود ! هذه عناصر لا سبيل لعقلنا الى ادراكها ، لأن عقلنا قد خُلق لمعرفة مكان ليس له الا ثلاثة أبعاد • ذلك هو السبب فى اننى أسلم بوجود الله • ولست أسلم بوجود الله فحسب ، ولكننى أسلم أيضا بحكمته العليا وبغاياته ، رغم أن من المستحيل علينا أن ندرك هذه الغايات • اننى أؤمن بوجود نظام كونى شامل يضفى على الحياة معنى ، وأؤمن بانسجام أبدى علينا أن نذوب فيه جميعا ذات يوم فيما يبدو • أؤمن « بالكلمة » التى

يتجه اليها الكون ، « الكلمة التى هى الله » ، وهلم جرا الى غير نهاية.
لقد قيل فى هذا المجال كلام كثير مسرف فى الكثرة . ولكننى على طريق الصواب ، ألا ترى هذا الرأى ؟ فاعلم اذن الآن ، ختاماً لكل ماقلته ، أننى لا أقبل العالم على نحو ما خلقه الله ، ولا أستطيع الموافقة على قبوله ، رغم علمى بوجوده . لست أرفض الله ... افهمنى جيداً ... وانما أنا أرفض العالم الذى خلقه ولا أريده . وهأناذا أشرح لك ما أريد قوله : اننى أؤمن ايماناً جازماً ، كايمان طفل ، بأن آلام هذا العالم ستخف شيئا بعد شىء وستزول آخر الأمر ، وأن هذه المهزلة الحقيرة ، مهزلة التناقضات الانسانية ستتبدد تبدد سراب باطل ، تبدد شىء تافه اخترعه كائن ضعيف صغير ، وأنها ستتبدد تبدد الذرة فى ذهن اقليدس . أؤمن بأن حقيقة عليا ستنبثق فى خاتمة المطاف من هذه الحياة ، حين يتأكد الانسجام الأبدى ، فاذا هى تبلغ من السمو والنقاء أنها تهدىء جميع القلوب ، وتسكن جميع أنواع الغضب ، وتكفر عن جميع جرائم الانسانية ، وتفدى كل الدم الذى سُفح على الأرض. وهذه الحقيقة لن تتيح العفو عن جميع الأخطاء الانسانية فحسب ، كائنةً ما كانت تلك الأخطاء ، وانما هى ستسوغها فوق ذلك . لنسلّم بهذا كله ! ولكن حتى فى هذه الحالة ، فاننى لن أقبل الأمر ولن أريد أن أقبله ! ألا فلتلتق الخطوط المستقيمة المتوازية ولأرها ، فاعترفَ بأنها التقت ، ولكننى لن أقبل ذلك . تلك طبيعتى يا أليوشا ، وذلك احساسى بالعالم . لقد حدثتك حديثاً جاداً كل الجد فى هذه المرة . تعمدت أن أبدأ حديثنا على أغبى نحو ممكن ، ولكننى قدته الى حيث أبلغ اعترافاً كاملاً صادقاً ، لأن ذلك وحده يهمك . ليس الحديث عن الله هو ما كنت تريد أن تسمعه منى ، وانما كنت تريد أن تسمعنى متحدثاً عن نفسى ، بغية أن تعرف ما يدور فى نفس أخٍ تحبه . فهأنت ذا عرفت ذلك الان .

أنهى ايفان كلامه المطنب الطويل بفيض من عاطفة كان يبدو غير متوقع منه •

سأل أليوشا أخاه وهو يلقى عليه نظرة شاردة :

ـ قل لى : لماذا تعمدت أن تبدأ الحديث بيننا « على أغبى نحو ممكن » ؟

فأجابه ايفان بقوله :

ـ أولاً لأننى أحببت أن أجارى عادات الناس : فان الأحاديث حول هذا الموضوع فى روسيا غبية دائما • وثانيا لأن المرء يكون أقرب الى الحقيقة حين يكون غبياً • ان الغباء يمضى نحو الهدف رأساً ، دون لف ودوران غامضين • الغباء بساطة وايجاز ، أما الذكاء فمكر ومخاتلة • ان الفكر الذكى فاجر فاسد ، أما الغباء فمستقيم شريف • لقد شرحت لك يأسى ، وعلى قدر ما يكون الشرح غبياً ، يكون الأمر أفضل فى نظرى •

سأله أليوشا مرة أخرى :

ـ أتقول لى لماذا ترفض « قبول الخليقة » ؟

ـ طبعاً أقول لك • ليس هذا بسر • وأنا انما بدأت هذه المناقشة لأصل منها الى ذلك •

بهذا أجابه ايفان ، ثم أردف يقول وهو يبتسم ابتسامة بريئة كمراهق خجول :

ـ يا أخىّ الحبيب ! لست أريد بحال من الأحوال أن أصرفك عن ايمانك ، وأن أحوّلك عن اعتقاداتك ••• بالعكس ••• اننى أتمنى أنا نفسى أن أُشفى وأبرأ بالاتصال بك •

لم يره أليوشا يبتسم هذه الابتسامة فى يوم من الايام •

٤

التمــرد

بدأ ايفان كلامه يقول :

يجب أن أعترف لك بهذا الأمر : اننى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أفهم أن يحب المرء الناس القريبين منه • ففى رأيى أن أقرب الناس الينا يصعب علينا أن نحبهم أكثر مما يصعب علينــا أن نحب غــيرهم • ان الانســان لا يحب الا من بعد • لقــد قرأت فى موضع ما أن رجلاً اسمه « يوحنا الرحيم » * (هو قديس من القديسين) قد تضرع اليه فى ذات يوم متشردٌ جائع مرتعد من شدة البرد أن ينجده ويدفئه • فأضجعه على سريره وأحاطه بذراعيه ونفخ فى فمه النتن المتقيح المصاب بمرض رهيب • اننى أعتقد اعتقاداً قاطعاً بأن اندفاعة هذا القديس مصطنعة ، وأنه لا يقوم بفعله هذا من تلقاء نفسه ، وانما هو يلزم نفسه به الزاماً باسم حبٍ لا يشعر به ، فكأنه قد قام بهذا الفعل بدافع التكفير عن ذنبه ، فهو يعاقب نفسه على افتقادها المحبة • اننا لا نستطيع أن نحب انساناً الا اذا ظل مختفيا عن نظرنا • فمتى لمحنا وجهه تبدد الحب •

قال أليوشا :

ـ هذه ملاحظة طالما ردّدها الشيخ زوسيما • كان يقول ان وجه الانسان يخلق فى كثير من الأحيان حاجزاً يحول دون الحب لدى أولئك الذين لما يتعلموا بعدُ أن يحبوا • ومع ذلك فان فى الانسانية كثيرا من

المحبة ؟ ان هناك محبة تكاد تشـــبه محبة المسيح ••• أنا أعـرف ذلك بتجربة يا ايفان •••

ـ جائز • أما أنا فلم أستطع أن ألاحظ ذلك ولا أن أفهمه ، وما أكثر الناس الذين يشبهونني من هذه الناحية ! وانما السؤال هو : هل يرجع هذا الى خبث القلب الانسانى أم هو قانون طبيعى • وانى لأرى أن محبة المسيح للناس معجزة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض • ان المسيح اله ونحن بشر • لنفرض مثلاً اننى قادر على أن أتألم كثيراً • ان من الصعب على شخص آخر غيرى أن يعرف عمق الألم الذى أعانيـه ، وذلك لسبب بسيط هو أنه ليس أنا بل آخـــر • ثم انه يعزُ على المرء دائماً أن يسلّم بألم غيره (كما لو كان ذلك عزةً واباءً !) • فهل تعلم لماذا يعزُ عليه أن يسلّم بألمى ؟ ربما لأن رائحة فمى كريهة ، أو لأن وجهى غبى ، أو لأننى دست على قدمه فى يوم من لأيام ! على أن الآلام أنواع : فهنـاك آلام تخفض قيمتنا أو تنقص قدرنا ، كالجـــوع مثلاً : فالناس تحب أن تصدقنا فيما يتعلق بهذا النوع من الآلام ، ليجعلوا من أنفسهم محسنين الينا بعد ذلك • أما اذا كان الألم أرفع من ذلك درجةً أو درجتين ، اذا كان ألماً نحتمله فى النضال من أجل فكرةٍ مثلاً ، فان الناس يرفضون أن يصدّقوه ، باستثناء قلةٍ قليلة • وهم لا يصدقونه لأنهم حين نظروا الى صاحبه رأوا أن رأسه ليس ذلك الرأس الذى لا بد أن يكون فى نظرهم رأسَ من يتألم فى سبيل قضية رفيعة تلك الرفعة كلها• وهم عندئذ يأبون أن يتعاطفوا معه أى تعاطف، دون أن يكون فى موقفهم هذا شيء من روح الشر على كل حال• ان على الشحاذين المستعطين، ولا سيما حين تكون نفوسهم نبيلة ، أن يظلوا مختبئين عن الأنظار ، وأن لا يطلبوا الاحسان الا باعلانات ينشرونها فى الجرائد • ان من الممكن أن يحب لانســان الانســان حباً مجرداً ، وأن يحبه فى بعض الأحيان

فعلاً ، ولكن من بعد • أما من قرب فذلك يشبه أن يكون مستحيلاً •
لو كانت الأمور تجرى كما تجرى على المسرح ، فى باليه نرى فيـــه
الشحاذين يظهرون ، اذا ظهروا ، لا بسين اسمالاً من حرير ومغطَّين
بتخاريم ممزقة ، ويطلبون الصدقة راقصين برشـــاقة ، فقد نعجب بهم
عنـدئذ ، نعجب بهم ولكن دون أن نحبهم • حسـبنا الآن ما قلناه حول
هذا الموضوع • لقد كان فى نيتى ان أحدثك عن آلام الانسانية عامةً ،
ولكننى أحسب أن من الأفضـل أن نقتصر على آلام الأطفال وحدهم •
ولئن كانت حجتى ستفقد من ذلك تسعة أعشـــار دلالتها ، فاننى أظل
أحسب أن هذا أفضل• لسوف تكون المناقشة أقل مواتاةً لى بطبيعة الحال•
ولكن الأطفال يمتازون على الأقل بأن المرء يستطيع أن يحبهم من قرب ،
مهما تكن وساختهم ودمامتهم (وان كنت أعتقد أن وجه طفلٍ لا يمكن
أبداً أن يكون دميماً) ؛ ثم اننى لا أحب أن أتكلم عن الكبار ، لا لأنهم
يبعثون على الاشمئزاز ولا يستحقون الحب فحسب ، بل لأنهم ينمتعون
من جهة أخرى بتعويض : فهم قد أكلوا تفاحة شجرة المعرفة وأصبحوا
« شبيهين بالآلهة »، وما يزالون يأكلون منها ••• أما الأطفال فانهم لمَّا
يذوقوا تلك الثمرة ، فبراءتهم ما تزال ســليمة لم يمسسها سوء • هل
تحب الأطفال يا أليوشا ؟ أحسب أننى أعلم أنك تحبهم ، ولسوف تفهم
اذن لماذا لن أحدثك الا عنهم • اذا اتفق للأطفال أن يتألموا ألماً قاسياً فى
هـــذا العالم ، فذلك لا يمـكن الا أن يكون بذنب آبائهم الذين أكلوا
التفاحة ، ومن أجل أن يكفّروا عن تلك الخطيئة • ألا ان هذا فهم ليس
من هذا العالم ، وسيظل قلب الانسان على هذه الأرض عاجزاً عن ادراكه•
ان من الظلم أن يُعذَّب أبرياء ــ أبرياء الى هذه الدرجة من البراءة ــ
لذنب اقترفه غيرهم • أنا أيضا أحب الأطفال كثيرا يا أليوشا ، تخيل هذا
••• سجِّل هذا ! ان القساة الضوارى أصحاب الأهواء الجامحة ، من

أمثال آل كارامازوف ، كثيرا ما يحبون الأطفال . فالأطفال يختلفون عن الكبار اختلافاً عظيماً ما ظلوا صغاراً لما يتجاوزوا السابعة من أعمارهم ، حتى لكأنهم ينتمون الى نوع آخـــر لأن طبيعتهم ليست كطبيعتنا . انني أعرف حالة لص من اللصوص كان سجيناً فى أحد السجون . لقد اتفق لهذا اللص أثناء حياته أن قتل أسراً بكاملها فى المنازل التى تسلل اليهـا ليلاً ليسرقها ، فلم يوفر الأطفال ... ومع ذلك استبدت بهذا الرجـل أثناء وجوده فى السجن عاطفة قوية نحـــو الصغار ، فكان يقضى وقته ناظراً من خلال الكوة الى الصبية يلهون ويتسلون فى ساحة السجن ، واستطاع أخيرا أن يكسب مودة واحد منهم ، فكان هذا يجىء يتحـدث معه بغير تخلف واقفاً تحت الكوة ... لا شك فى أنك تتساءل يا أليوشا لماذا أقص عليك هذا كله ؟ ان بى صداعاً ، وهأنذا أشعر بحزن شديد على حين فجأة .

قال أليوشا قلقاً :

ـ انك تتكلم بطريقة عجيبة غريبة ، كأنك لا تملك وعيك كله .

وتابع ايفان كلامه يقول وكأنه لم يسمع ملاحظة أخيه :

ـ بالمناسبة ... لقد قص علىّ بلغارى" فى الآونة الأخيرة بموسكو أن الأتراك والشراكسة يعمدون فى بلاده بلغاريا الى أنواع شديدة من القسوة بغية ارهاب الشعوب السلافية التى يخشون أن تثور عليهم ثورة عامة شاملة. فهم يحرقون القرى ، وينهبون الأرزاق، ويذبحون السكان، وينتهكون النساء والأطفال ، ويسمّرون بعض السجناء من آذانهم بسياج فيدعونهم هنالك طول الليل ثم يعودون اليهم فى الصباح ليشنقوهم . أمور تفوق الخيال . يقال أحيانا ان الانسان « حيوان كاسر » . ألا ان فى هذا القول اهانة" للحيوانات لا داعى اليها : فالحيوانات لا تبلغ مبلغ البشر فى

القسوة أبداً ، وهى لا تتفنن فى قسوتها تفنن الانسان • النمر يكتفى بتمزيق فريسته والتهامها • انه لا يمضى الى أبعد من ذلك ، ولا يخطر بباله يوماً أن يسمّر أحداً من أذنيه بسياج ، ولو قدر على ذلك • وأولئك الأتراك يتسلّون خاصةً بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً • انهم ينتزعون بالسيف صغاراً من أحضان أمهاتهم ويرمونهم من النوافذ فيتلقفهم فى الفناء أتراك آخرون بأسنة الرماح على مرأى من أمهاتهم اللواتى يعدُّ حضورهن أهمَّ عنصر من عناصر هذه المتعة • ولقد حفظت ذاكرتى على الخصوص مشهداً وُصف لى : أمٌ ترتجف جزعاً وهلعاً وفى يديها طفل صغير ؛ وأتراك يحيطون بها ويتخيلون لعبةً صغيرة • انهم يلاعبون وجه الطفل ويلاطفونه ويسلّونه ويضحكونه • والطفل سعيد فها هو ذا يمد اليهم ذراعيه • وفى تلك اللحظة يصوّب اليه أحد الأتراك مسدسه، فينفجر الطفل ضاحكاً ، ويمد يديه الصغيرتين ليتناول المسدس ، فيضغط الفنان عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشّم جمجمة الصبى ••• أليس هذا فناً فى الواقع ؟ يظهر أن الأتراك يحبون الحلاوى •••

ــ أخى ، الى ماذا تريد أن تنتهى ؟

ــ أعتقد أنه اذا لم يكن الشيطان موجودا ، واذا كان الانسان قد خلقه ، فلا شك فى أن الانسان قد خلقه على صورته هو •

ــ كما خلق الله اذن ؟

ــ انك تجيد قلب الألفاظ كما يقول بولونيوس فى « هملت » •

كذلك قال ايفان ضاحكاً ، وتابع كلامه يقول :

ــ هذه حرب شريفة ، وأنا أقبلها • ألا فاعترف مع ذلك أنه جميل الهك اذا كان الانسان قد خلقه على صورته • لقد سألتنى الى أين أريد

SS

أن أنتهى ؟ انني امرؤ يجمع وقائع شتى يقتطفها مصادفةً من الجرائد أو من أحاديث الناس ثم يدونها على الفور . تخيل هذا . لقد جمعت منذ الآن حصاداً كبيراً من هذه الوقائع . والأتراك يحتلون فى هذه الوقائع مكانا كبيرا بطبيعة الحال ، ولكن الأتراك أجانب . وأنا أملك كذلك وقائع كثيرة عن حالات روسية صرفة تفوق حتى وقائع البلاد الأخرى . فى بلادنا روسيا انما يُعمد خاصةً الى السوط والعصا ... هذا اختصاص قومى لنا ان صح التعبير . نحن لا نسمّر الناس من آذانهم ، لأننا أوروبيون رغم كل شيء . ولكننا فى مقابل ذلك نملك السياط والعصى ، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منا . يظهر أن الناس فى البلاد الأجنبية قد عدلت عن هذه الأساليب . فاما أن العادات هنالك أصبحت أقرب الى اللين ، واما أن القوانين النافذة هنالك أصبحت لا تجيز للانسان أن يجلد أخاه الانسان . على أن الانسان قد وجد هنالك ما يعوّض به ما افتقده تعويضاً يتصف كذلك بطابع قومى خاص فيبدو للوهلة الأولى مستحيلاً فى بلادنا . على أن هنالك علامات تدل ، والحق يقال ، على أن أساليب التعويض هذه قد أخذت تتسرب الى روسيا منذ زمن ، ولا سيما بفضل الحركة الدينية التى تنتشر فى الآفاق العليا من مجتمعنا . ان عندى نشرة شائقة* مترجمة عن الفرنسية تروى قصة اعدام مجرم فى مدينة جنيف هو قاتل شاب اسمه ريشار فى الثالثة والعشرين من عمره ، فيما أظن ، قد ندم على فعلته واعتنق المسيحية قبل أن يصعد الى المقصلة . ان الواقعة حديثة قد وقعت منذ حوالى خمس سنين . وريشار هذا زنيم كان أبواه قد « أهدياه » وهو فى السادسة من عمره الى رعاة جبليين ربّوه بغية أن يعمل لهم بعد ذلك . شبّ الصبى كحيوان صغير متوحش . والرعاة الذين تبنوه لم يعلموه شيئاً ، وأرسلوه يحرس القطعان منذ بلغ السنة السابعة من عمره دون أن يلبسوه ودون أن يطعموه تقريباً ، وذلك فى

جميع الفصول والأجواء • وكانوا يعاملونه هذه المعاملة دون أن يشعر ضميرهم بأن عذاب ، لأن الصبى كان قد « أُهدى » اليهم كما يُهدى شيء من الأشياء ، فهم لذلك لا يعتقدون أن من واجبهم أن يطعموه كما يجب أن يطعموه لقاء ما يقوم به من عمل • وقد روى ريشار هذا أمام المحكمة أنه كان يتفق له خلال هذه السنين (كالابن الضال الذى يحدثنا عنه الانجيل) أن يشتهى أن يأكل ثمار الخروب التى كانت تُعلف بها الخنازير المسمَّنة للبيع • ولكن لم يكن يُسمح له بذلك ، وكان يُضرب اذا سرق بعضها من المذود • هكذا عاش ريشار سنى طفولته وشبابه الى الساعة التى شب فيها عن الطوق وشعر بأنه أصبح قوياً ، فترك الرعاة وأخذ يسرق • وأصبح هذا المتوحش يجنى رزقه فى جنيف من العمل بأجر يومى ، ولكنه كان ينفق ما يجنيه فى السكر ويعيش حياة كريهة مستهجنة • وانتهى به الأمر الى قتل رجل عجوز فى سبيل أن يسلبه ما معه • وقد اعتقل وحوكم وحكم عليه بالاعدام • ان الناس ليسوا عاطفيين فى البلاد الأجنبية • وسرعان ما وجد نفسه فى السجن محاطاً بقسيس بروتستانتى وأعضاء جمعيات دينية مختلفة وسيدات من مترئسات الأعمال الخيرية ، الخ ؟ فاذا هو أثناء مدة اعتقاله يُعلَّم القراءة والكتابة ويفسَّر له الانجيل ويوعظ ، ويُردُّ الى الصواب ، ويُلام ويقرَّع ،ويؤنب ويوبخ ، وتُشرح له العقيدة ويُلقنَّ تعاليم المسيحية ، فاذا هو يعلن جهاراً فى ذات يوم أنه نادم على فعلته وأنه تاب وأناب • وقد وجه الى المحكمة رسالةيصف فيها نفسه بأنه كان شيطاناً رجيماً ، وأضاف الى ذلك قوله ان الرب قد أدركه أخيراً برحمته فهداه الى الحق وأتم عليه نعمته • وقد اهتزت المدينة كلها للأمر ، فاذا جنيف الفاضلة العاقلة الحكيمة تغلى وتفور ، واذا جميع الناس فى المجتمع الراقى ، اذا جميع « الأخيار » يريدون أن يزوروه فى سجنه : حضنوه وعانقوه وقبَّلوه ، وقالوا له :

« أنت أخونا وقد أدركتك نعمة الله » ، فكان ريشار يبكي حنانا ويكرر قوله : « نعم لقد أدركتني نعمة الله . كنت أثناء طفولتي وشبابي أحسد الخنازير على طعامها ، وها هو ذا الرب يرسل الى الآن نعمته . سأموت في صلح مع الله » ؟ فيجيبه الآخرون : « نعم ما تقول يا ريشار ، ستموت متصالحاً مع الرب . لقد سفحت دماً فيجب أن تموت . صحيح أنك لم تكن مذنباً اذ جهلت الله أيام كنت تحسد الخنازير على علفها وأيام كنت تُضرب اذا أنت سرقت بعض هذا العلف من مذودها (وأنت مخطىء في ذلك على كل حال لأن السرقة حرام) ، ولكنك سفكت دماً فلا بد أن تموت.» . وحان اليوم الأخير . فكان ريشار ، وقد ضعف ضعفاً شديداً، ما ينفك يردد بغير كلال ولا ملال : « هذا أسعد يوم في حياتي ، فانني ذاهب الى ملكوت الرب » ، وكان القسس والقضاة والسيدات رئيسات الجمعيات الخيرية يرددون بعده متنافسين : « نعم نعم ... هذا أسعد يوم في حياتك ، لأنك ذاهب الى ملكوت الرب ! » . وقد رافق هذا الجمهور ريشار الى المقصلة ، فبعضهم يتبع عـربة العار التي تقل الجاني راكباً وبعضهم يتبعها سائراً . ووقف الجميع أمام المقصلة ، وأخـذ الصياح يتعالى من كل مكان قائلاً : « مت أيها الأخ ، مت في صلح مع الله ، لأن نعمة الله قد أدركتك . » . ودُفع ريشار الى المقصلة تغمره القبـلات ، وأُضجع عليها ، وقطع رأسه قطعاً أخويا جدا لأن نعمة الله قد أدركته . أليس هذا شيئا يتميز بطابع خاص ؟ لقد تُرجمت هذه النشرة عن اللغة الفرنسية ... ترجمها أشخاص ينتمون الى الأوساط اللوثرية والجمعيات الخيرية من أعلى طبقات المجتمع الروسي ، وأرسلوا منها أعداداً ضخمة الى جميع الصحف لتوزع مجانا في سبيل تثقيف شعبنا .

» ان حالة ريشار هذا شائقة بما تتصف به من طابع قومي . فنحن في بلادنا ، والحق يقـال ، لا نقطع رأس رجل* لأنه أصبح أخانا ولأن

نعمه الله قد أدركته • ولكن عندنا شيئاً لا بأس به هو أيضاً • نحن في روسيا نضرب ضرباً قاسياً مبرحاً ، وقد أصبح هذا نوعا من تقليد تاريخي ومتعة مألوفة طبيعية مشروعه • لقد صــــور نكراســـوف ، في احدى قصائده ، شقاء حصان كان فلاح من الفلاحين يضربه بالسوط على العينين ، على «عينيه الوديعتين» ★ •• من ذا الذى لم يشهد في يوم من الأيام منظراً كهذا المنظر الشائع كثيرا ، الروسى جدا ان جاز التعبير ؟ ان ذلك الحيوان المسكين الضعيف الذى كان يجر عربة منقلة بأحمال فوق طاقته قد سقط في الوحل ثم لم يســـتطع أن يتخلص منـــه • فأخذ الفلاح يضربه ثم يضربه ••• وبلغ من شدة حنقه وهو يرفع سوطه في الهواء ويهوى به على الحيوان أنه أصـــبح لا يشعر بما يفعل ، فهو فيما هو فيه من سكر وحشى بضراوته المستيقظة يضاعف ضرباته بمزيد من القسوة قائلاً : « أصبحت لا تقوى على جر العربة ، ولكنك ستجرها رغم أنفك ••• سأجبرك على ذلك اجبارا أيها الحيوان القذر • مت ان شئت ، ولكن عليك أن تجر العربة ! » • وأخذ الحيوان يتخبط ، فما كان من الفلاح وقد استبد به غضب أعمى الا أن أخذ يجلده على عينيه اللتين تتضرعان طالبتين الرأفة والرحمة ••• على « عينيه الوديعتين » العزلاوين اللتين لا تملكان ما تدفعان به عن نفسهما الأذى • واستطاع الحيوان بوثبة مستميتة قصوى أن يتخلص من سقطته فيقف على قوائمه فيستأنف سيره مرتعشاً مجللاً بالخزى والعار ، لا يكاد يستطيع أن يتنفس ، يتقدم بخطى متقطعة مقهورة تبعث الشفقة في القلب • ان أشعار نكراســوف هذه تحــدث في النفس أثراً رهيباً • والأمر مع ذلك أمر حيوان ، ونحن نعلم ان الرب قد وهب لنا الحيوانات لنضربها ، أو هذا على الأقل ماتعلمناه من التتر الذين أورثونا السوط هدية تذكرنا بهم • ولكن البشر يُضربون أيضاً • انني أعرف حالة سيد مرموق مثقف تعاون مع زوجته في ضرب ابنته الصغيرة وهي

طفلة فى السابعة من عمرها *• لقد دوّنت الواقعة بجميع تفاصيلها • كان للعصىّ أشواك ، فسُرّ الأب من ذلك أعظم السرور • قال : « لتشعرن بالعقوبة شعوراً أقوى » ••• وأخذ يضرب ابنته • هناك أشخاص ــ وأنا أعلم ذلك علم اليقين ــ يسكرون من الضربات التى يكيلونها ، ويبلغون من النشـــوة بها حدّ اللذة الجســـدية ويتمتعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً • ضُربت الصبية دقيقة ، فخمس دقائق ، فعشر دقائق ، ضرباً ما ينفك يزداد قوة وضراوة • والصبية تصرخ وتبكى ، ثم تقول مختنقة الصوت بدموعها : « بابا ، بابا ، بابا الحبيب ! » • وبمصادفة شيطانية غير لائقة ، رُفعت القضية الى المحكمة • واستعان الأبوان بمحام • ان الشعب يقول منذ زمن طويل : « المحامى ضمير يؤجر نفسه » • وأخذ المحــامى يصيح قائلاً أمام المحكمة : « أب أدّب ابنته • فما هذا الا حادث مبتذل شائع من حوادث الحياة العائلية • ومن عار هذا العصر الذى نعيش فيه أنه ظُن أن هـــذه قضية يجب أن ترفع الى المحكمة ! » • وقـــد تأثر المحلّفون أشد التأثر بأقوال المحامى ، فمضوا يتداولون فى الأمر ، ثم عادوا يعلنون حكمهم بالبراءة • وضجّ الجمهور فرحاً حين سمع الحكم ببراءة الجلاد • اننى لم أشهد المحاكمة ، والا لاقترحت انشاء صـندوق اعانة ، تكريماً لهذا الأب الجلاد ! هذه لوحة جميلة يا أليوشا ، غير أننى أملك لوحات أخرى ربما كانت أجمل منها ، وهى تتعلق خاصةً بالأطفال من الروس • اليك قصة بنية فى الخامسة من عمرها ، غضب منها أهلها، وهم « أناس محترمون ، موظفون مثقفون ، نشأوا نشأةً كريمة وأُحسنت تربيتهم » • أؤكد لك جازماً يا أليوشا أن هناك أناساً يشعرون بميل خاص الى تعذيب الأطفال ، الأطفال وحدهم دون سواهم • ان هؤلاء الجلادين يبرهنون فى تعاملهم مع سائر البشر على كثير من الدماثة والليونة ، كما يليق ذلك بأوروبيين متعلمين متنورين • ولكنهم فى مقابل ذلك يجـدون

لذة كبيرة فى تعذيب الأطفال ، مع حبهم لهم على طريقتهم الخاصة • ان منظر هذه الكائنات الصغيرة العزلاء التى لا تحسن الدفاع عن نفسها ، ولا تعرف كيف تشتكي ولا الى أين تلجأ ولا بماذا تعتصم ، مع ما تتصف به هذه الكائنات من ثقة ملائكية ، يملك القدرة على ايقاظ القسوة الغريزية فى نفوس أولئك الناس • لا شك أن فى قرارة كل انسان وحشاً نائماً ، وحشاً ضارياً مسعوراً يلتذ بسماع صرخات ضحيته ، فينطلق عندئذ انطلاقاً كاملاً بكل قسوته التى ضاعفها الفجور وضاعفها كل ما يولده الفجور من أمراض كالنقرس والتهاب الكبد وما الى ذلك • ولنعد الى أهل تلك البنية • لقد أنزل الأبوان المثقفان فى ابنتهما المسكينة أنواعاً من التعذيب لا يتصورها الخيال • كانا يضربانها ويجلدانها ويدوسانها بدون أى سبب ، حتى انهد جسم البنية المسكينة وامتلأ بقعاً زرقاء • وشيئاً فشيئاً توصلا الى صور من القسوة فيها كثير من التفنن • من ذلك أنهما أثناء الليالى الباردة كانا يحبسان الطفلة فى المرحاض ، بحجة أنها كانت لا تطلب الخروج لقضاء حاجاتها فى حينها (كأن طفلاً فى الخامسة من عمره يستطيع دائما أن يستيقظ من نومه الهادىء العميق فى الوقت المناسب للذهاب الى المرحاض) ؟ وكانا يلطخان لها وجهها بغائطها نفسه « لتعلمها » ، ويجبرانها على أن تبلع غائطها ، وكانت أمها ، أمها نفسها ، هى التى تكرهها على ذلك • وكانت هذه الأم تستطيع أن تنام بعدئذ نوماً هادئاً دون أن تهزها صرخات طفلتها السجينة فى ذلك المكان الموبوء ! فهل تستطيع أن تتخيل يا أليوشا ذلك الكائن الصغير الذى ما يزال عاجزاً عن أن يفهم ما يجرى له ، هل تستطيع أن تتخيله لاطماً صدره المختنق بيديه الصغيرتين فى غياهب الظلام والبرد ضارعاً الى « الرب الرحيم » بدموع شقية بريئة أن يحميه ؟ هل تستطيع أن تفهم علة وجود عالم سخيف هذا السخف ، باطل هذا البطلان ، مستحيل هذه الاستحالة ••

قل لى يا صديقى ويا أخي ... هل تستطيع أن تدرك علة وجود هذا العالم أنت يا من تتهيأ لأن تكون راهباً ينذر حياته للرب تقياً متعبداً ؟ يزعم بعضهم أن الوجود على هذه الأرض لايمكن تصوره خاليا من الألم ومن الظلم للذين يستطيعان وحدهما أن يهبا للانسان معرفة الخير والشر ! ألا بئست تلك المعرفة اذا كان ثمنها هذا الثمن ! ان كل ما فى العالم من علم لا يكفى للتكفير عن دموع تلك الطفلة التى تتوسل الى « الرب الرحيم » أن ينجدها . لن أقول شيئاً عن الآلام التى يعانيها الكبار . فان الكبار قد أكلوا الثمرة المحرَّمة ، فليجنوا جزاء ما فعلوا ، وليأخذهم الشيطان جميعا اذا كان الشيطان ما يزال يلوى عليهم ويهتم بأمرهم ... أما الأطفال ، أما الصغار الأبرياء ، فما ذنبهم ؟ ألاحظ أننى أعذبك بهذا الحديث يا أليوشا . ان فى وجهك حزناً وشقاء . سأمسك عن الكلام ان شئت » .

تمتم أليوشا يقول :

ـ لا ... اننى أحب أن أتألم أنا أيضا .

ـ لن أقصَّ عليك الا قصة واحدة أخرى ، لأنها شائقة جدا ، ولأنها تتسم بطابع مميِّز حقا . لقد قرأتها منذ زمن قصير فى مجلة « السجل الروسى » أو مجلة « الماضى الروسى » * ، لا أدرى على وجه الدقة ... يجب التحقق من ذلك ... لقد وقعت هذه القصة فى أحلك عهود الرق عند بداية هذا القرن . عاش محرر الشعب* ! كان يعيش فى ذلك الزمان جنرال له علاقات رفيعة ويملك أطيانا واسعة . هو واحد من أولئك الرجال (وقد أصبحوا قلة قليلة نادرة حتى فى ذلك الزمان) الذين يعتقدون حين يُحالون على التقاعد أنهم بما قدموا للدولة من خدمات قد أصبح لهم على أقنانهم حق الحياة والموت . لقد وجد أمثال

هؤلاء الرجال فى الماضى • كان ذلك الجنرال يعيش فى أراضـــيه التى يعمرها ألفان من الأقنان • وكان يصطنع الأبهة والعظمة ، وينظر نظرة استعلاء الى جيرانه المتواضعين ، متظاهرا بأنه يعدهم مهرّجين أو طفيليين • وكان يملك بضعة مئات من كلاب الصــيد لها ما يقرب من مائة خادم يجرون وراءها على خيولهم ، لابسين زياً واحدا • ففى ذات يوم كان قن صغير هو صبى فى الثامنة من عمره يتسلى برمى الأحجـــار • فاذا هو يصيب باحداها الكلب الأثير لدى الجنرال ، سهواً وغفلة • وسأل الجنرال مستطلعاً : « لماذا يعرج هذا الكلب الذى هو خير كلابى ؟ » فقيل له انه قد جُرح بحصى رماها ذلك الصبى • قال الجنرال وهو يتفرس فى الصبى: « أأنت السبب اذن ؟ » • ثم أضاف : « احبسوه ! » • انتُزع الصبى من أمه ، وألقى فى زنزانة مظلمة ضيقة لبث فيها طول الليل • وفى ساعة مبكرة من صباح الغد تهيأ الجنرال للذهاب الى الصيد فى احتفال عظيم • انه يمتطى صهوة جواده وقد أحاط به طفيليوه وكلابه وخـــدمه الذين يجرون وراء الكلاب يطاردون الفرائس ، وقد امتطوا صهوات خيولهم جميعا • وأمر الجنرال بجمع الخدم فى الحوش لتلقينهم درساً ، وجُعلت أم الصبى الجانى فى أول صف من صـفوفهم • وأُخـــرج الصبى من زنزانته • كان ذلك فى صباح كالح بارد يملؤه الضباب من أصـــباح الخريف ، صباحٍ يبشر بصيد وافر • وأمر الجنرال بأن تُخـــلع عن الصغير ثيابه فخُلعت حتى صار عاريا كل العرى • ان الصبى يرتعش مصفراً من الخوف ، ولا يجرؤ أن يفتح فاه ••• قال الجنرال آمرا : «اجعلوه يركض» ، فأخذ المطاردون يدفعون الصبى قائلين له : « اركض، اركض » ، فأطاع الصبى أمرهم وأخـــذ يركض ، فاذا بالجنرال يعول صائحاً : « عليه ! » مهيباً بكلابه أن تطارده ، فانطلقت الكلاب تمزق جسم الصبى على مرأى من أمه ••• أحسب أن الجنرال قد حُجر عليه بعدئذ •

فما رأيك ؟ أما كان يستحق أن يعـــدم رمياً بالرصاص ؟ ألم يكن من الضرورى اعدامه تهدئةً للضمير الأخلاقى ؟ هلاَّ أجبت يا أليوشا !

قال أليوشا بصوت خافت وهو يرفع عينيه نحو أخيه ويرسم على شفتيه المرتعشتين ابتسامة ضعيفة :

ـ نعم كان يجب رميه بالرصاص .

فصاح ايفان يقول بنوع من الحماسة :

ـ مرحى ! ما دمت تقر بذلك أنت نفسك ، فلا بد ... هاه ... يا لرسول المحبة ! ذلك هو الشيطان الذى تؤويه فى قلبك يا أليـــوشا كارامازوف !

قال أليوشا :

ـ لقد قلتُ سخافة ، ولكن ...

صاح ايفان :

ـ ولكن ... هذا هو الأمر : « ولكن » ... أليس كذلك ؟ ألا فاعلم أيها الراهب المبتدىء أن السخافات لازمة لوجود هذا العالم . ان الكون يقوم على سخافات بدونها قد لا يوجد شىء وقد لا يحدث شىء . نحن نعلم ما نعلم !

ـ ماذا تعلم ؟

ـ لست أفهم شيئاً (كذلك استأنف ايفان كلامه قائلاً فى هذيان)، ولقد أصبحت لا أريد الآن أن أفهم شيئا . أريد أن أكتفى بالوقائع وأن أقتصر عليها . لقد قررت منذ زمن طويل أن لا أحاول تأويلها . فلو حاولت أن أفهم اذن لشوّهت الوقائع فورا ، وأنا أحرص على أن أبقى فى الواقع لا أخرج منه ...

صاح أليوشا يقول بمرارة :

ـ لماذا تعذبنى هذا التعذيب ؟ هلاّ قلت لى أخيراً •••

ـ سأقول لك • ذلك ما كنت أريد الوصول اليه منذ البداية • أنت عزيز فى نفسى يا أليوشا ، ولا أريد أن أتنازل عنك لصاحبك زوسيما بدون كفاح •

قال ايفان ذلك وصمت لحظةً مظلمَ الوجه ، ثم أردف يقول :

ـ اصغ الىّ الآن • لقد اخترت لأمثلتى أطفالاً حتى يكون برهانى أكثر اقناعاً • ولن أقول شيئاً عن سائر الدموع الانسانية التى تتبلل بها الأرض ، اننى أضيّق موضوع مناقشتنا عامداً • ما أنا الا حشرة صغيرة من الحشرات • وانى لأعترف ذليلاً كل الذل بعجزى عن فهم نظام هذا العالم • هل يجب أن نؤمن بأن البشر مسئولون وحدهم عن شرورهم ؟ لقد وُهبت لهم الجنة ، ولكنهم آثروا أن ينالوا حريتهم واختطفوا النار من السماء وهم يعلمون سلفاً أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم الشقاء ، فلا داعى اذن الى أن نشفق عليهم ونرثى لحالهم • ولكن عقلى ، عقلى المسكين الاقليدسى الأرضى يؤكد لى ، على عكس ذلك ، أن العذاب موجود دون أن يكون هنالك مذنبون ، وأن جميع الأفعال الانسانية ينحدر بعضها من بعض بالضرورة ، وأن كل شىء ينقضى آخر الأمر ، وأن التوازن يقوم مرة أخرى من تلقاء نفسه • ذلك على الأقل وهمٌ أنشأه عقلى الاقليدسى ، أعرف هذا ••• وأنا لا أقبل أن أحيا فى عالم كهذا العالم • فيم يهمنى أن أعلم أنه ليس هناك مذنبون ؟ اننى فى حاجة الى عدل ، والا دمرت نفسى • وهذا العدل الذى أطالب به ، أنا لا أريده فى « لا نهاية » لا يمكن الوصول اليها ، وفى « أبدية » تفوقنى ، وانما أنا أريد أن أراه على هذه الأرض ، أن أراه بعينى • لقد آمنت ، وأريد أن

أشهد انتصار الحقيقة ! فاذا كنت ميتاً ساعة انتصارها فلأبعث حياً ! لسوف يسيء الي كثيراً أن يتحقق هذا المجد للانسان في غيابي . هل تألمت أنا من أجل أن أمهد الطريق بخطاياي وآلامي لانسجام مقبل لن ينتفع به الا آخرون ؟ انني أريد أن أرى الوعلة بعيني مستلقية أمام الأسد في هدوء وسلام ، وأن أرى الضحية مرتدة الى الحياة تعانق قاتلها . أريد أن أكون حاضراً حين ينكشف سر هذا العالم للجميع . ان هذا الانتظار هو القاعدة التي تقوم عليها جميع الأديان ، وأنا امرؤ مؤمن . ولكن الأطفال ... ما ذنب الأطفال ؟ كيف نسوغ عذاب الاطفال ؟ تلك مشكلة لا أجد الى حلها سبيلاً . أعود فأقول لك للمرة المائة : ان هناك في هذا العالم مشكلات كثيرة ، ولكنني اخترت هذه المشكلة ، مشكلة الاطفال ، لانها تتيح لي أن أعبر عما يشغل بالي ويقض مضجعي تعبيراً أوضح . قل لي : اذا كان على البشر أن يتألموا من أجل أن يمهدوا بألمهم للانسجام الكلي ، فلماذا يجب أن يتألم الأطفال أيضا ؟ لماذا حبس الأطفال في هذه الدائرة ، لماذا يجب عليهم هم أيضا أن يساهموا في الانسجام بعذابهم ؟ ذلك أمر لا سبيل الى فهمه اطلاقاً . ماذا جنوا حتى يجروا في هذه الزوبعة ؟ قد أسلم عند الاقتضاء بتضامن البشر في الخطيئة وتضامنهم في التكفير عنها ولكن الأطفال لم يشاركوا في الخطيئة فان قيل انهم يحملون في أجسادهم خطايا آبائهم وانهم متضامنون اذن مع آبائهم في هذه الخطايا قلت : هذه حقيقة لن تكون من هذا العالم على كل حال ولا يمكن أن يدركها عقل ! رب مازح خبيث يعترض بقوله ان الطفل سيشتد ساعده وسيقارف الخطيئة متى حان الوقت ولكنني أقول ان ذلك الصبي الذي ما يزال في الثامنة من عمره لما يشتد ساعده بعد وقد مزقته الكلاب ! آه يا أليوشا هيهات أن يكون في نيتي أن أجدف . انني أتخيل كيف سيتهلل الكون فرحاً حين ستدوي

أصوات السماء والأرض جميعا منشدة للخالق نشيد الشكر معاً وحين سيهتف جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء قائلين : « أنت على حق يا رب وقد فهمنا طرقك ! » • سوف تعانق الأم عندئذ الجلاد الذى أمر الكلاب بتمزيق ابنها وسوف يقول الثلاثة عندئذ من خلال دموع الحنان أنت على حق يا رب • ستنجلى عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم يوم تمجيد المعرفة • ولكن ذلك بعينه هو العقدة لأننى لا أقبل هذا الحل للغز وأنا أسارع الى اتخاذ اجراءات ما زلت فى هذا العالم • قد يحدث يا اليوشا حين أشهد ذلك الانتصار النهائى للحقيقة وحين أبعث حياً لأشهد ذلك الانتصار أن أصبح أنا أيضا مع الجميع اذ أرى الأم والجلاد والطفل يتعانقون ويتصالحون : « أنت على حق يا رب ! » • ولكننى لا أريد أن أفعل ذلك وأحرص على أن أحمى نفسى سلفاً من ذلك الاستسلام ولهذا السبب ترانى أتنازل تنازلا حاسما عن الانسجام الأعلى• ان هذا الانسجام لا يعدل فى رأيى دمعة واحدة من دموع ذلك الطفل المعذب الذى كان يلطم صدره بقبضتى يديه فى مكان موبوء ويضرع الى الله الرحيم من خلال دموعه التى لا يكفر عنها شىء • نعم ما من انسجام مقبل سيكفر عن تلك الدموع ولا بد من التكفير عنها والا فلا يمكن أن يقوم انسجام ولكن بماذا يمكن التكفير عنها ؟ ما الذى يمكن أن يمحوها ؟ أهو القصاص الذى سينزل بالجانى ؟ فما قيمة هذا القصاص ؟ فيم يهمنى هذا القصاص ؟ اننى لا أريده ! اننى لا أطالب بتعذيب الجلادين فى الجحيم• ان جهنم لن تغير من الامر شيئاً ولن تنفى أن الطفل قد عذب • وأين عسى أن يكون الانسجام اذا كان ثمة جحيم ؟ اننى أحب أن أغفر وأن أصالح • اننى أتمنى أن لا يبقى فى الكون عذاب • فاذا كانت دموع الأطفال أمراً لا بد منه ولا غنى عنه لاكمال مقدار الألم الذى سيكون دية للحقيقة فاننى أعلن جازماً أن الحقيقة لا تستحق أن يُدفع ثمنها باهظا

الى هذا الحد انني لا أريد أن تصالح الأم الجلاد الذى أمر كلابه بتمزيق جسد ابنها • ليس من حقها أن تغفر له• لها أن تتغاضى عن ألمها هى ، عن عذاب الأم العظيم الذى قاسته ، لها أن لا تحقد على الجانى اذا شاءت ولكن ليس لها أن تعفو عن التعذيب الذى نال ابنها حتى ولو عفا عنه ابنها • فاذا كان الامر كذلك ، اذا لم يكن من حق الضحايا أن تغفر فأين أين الانسجام ؟ قل لى : أين الانسجام ؟ هل فى الكون فرد يجب عليه ويحق له أن يغفر ؟ انني لا أريد هذا الانسجام بل أرفضه حباً بالانسانية• انني أفضل أن تبقى آلام هذا العالم بغير تكفير • انني أؤثر أن يظل ألمى بغير فدية وأن يظل استيائى متأججاً بغير ارتواء ولو كنت على خطأ • ان الثمن المطلوب للانسجام باهظ جدا وهو فوق ما نطيق أن ندفع من ثمن ان بطاقة الدخول غالية مسرفة فى الغلاء • لذلك أسارع فأردّ بطاقتى• انني أشعر بأن علىّ أن أردها بأقصى سرعة لأننى انسان شريف وذلك ما أفعله• انني لا أجحد الرب يا أليوشا وانما أقتصر على أن أعيد اليه بطاقتى بكثير من الاحترام •

قال أليوشا بصوت رقيق وهو يخفض عينيه :

ــ هذا عصيان •

فقال ايفان بلهجة نافذة مؤثرة :

ــ عصيان ؟ لا أحب أن تحكم علىّ هذا الحكم• ان من المستحيل على المرء أن يحيا فى العصيان ، وأنا امرؤ يحرص على أن يحيا • أجبنى عن سؤال أليوشا ولكن أجبنى بصراحة • فاننى أحرص على جواب صريح عن هذا السؤال : لو كنت مهندس المصائر الانسانية وأحببت أن تبنى عالماً تجد فيه الانسانية السعادة والهدوء والأمن أخيرا أفتشرع فى هذا العمل اذا علمت أنه لن يتحقق الا اذا كان العذاب ثمنه ولو لم يكن الا

عذاب انسان واحد صغير بريء هو مثلاً تلك الطفلة التى كانت تلطم صدرها بقبضتى يديها ؟ لو كان البناء لا يمكن أن يقوم الا على تلك الدموع التى لا فدية لها تذرفها تلك البنية الصغيرة ، لو كان ذلك ضرورة لا مناص منها ولا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها أفتظل توافق على أن تكون مهندس الكون فى تلك الشروط ؟

أجاب اليوشا بصوت جازم :

ـ لا ... لا أوافق .

ـ وهل فى وسعك أن تسلم عدا ذلك بأن يقبل البشر الذين تبنى لهم هذا العالم أن يصبحوا سعداء على حساب آلام ودماء طفل بريء وأن يعرفوا السعادة الى الأبد بعد أن يقبلوا ذلك ؟

ـ لا ... لا أستطيع أن أسلم بهذا .

كذلك قال أليوشا ثم صاح يقول فجأة وقد سطعت عيناه :

ـ أخى لقد سألتنى منذ لحظة هل فى الكون كائن فى وسعه ومن حقه أن يغفر ؟ ان هذا الكائن موجود يستطيع أن يغفر كل شيء وأن يغفر لجميع الناس لأنه وهب هو نفسه دمه البريء للانسانية بأسرها لقد نسيته أنت وهو هو الذى يقوم عليه البناء كله وهو الذى يقع عليه أن يصيح : « أنت على حق يا رب فلقد أدركت طرقك » .

ـ آه ... انك تتكلم عن « ذلك المبرأ وحده من الخطيئة وعن دمه ! لا يا اليوشا أنا ما نسيته وانه ليدهشنى أن تنتظر هذه المدة الطويلة قبل أن تستشهد به فأمثالك فى العادة يبرزون هذه الحجة منذ بداية المناقشة ، اسمع يا اليوشا هل تعلم أننى نظمت قصيدة فى ذات مرة ؟ لا تسخر منى لقد فعلت ذلك منذ سنة فاذا وافقت على أن تضيع فى صحبتى بضع دقائق أخرى قلت لك هذه القصيدة .

ــ كتبت قصيدة ؟

ــ لا لم أكتبها (كذلك أجاب ايفان ضاحكاً) ولا كنت قادرا فى يوم من الأيام على أن أُسطر بيتين من الشعر ولكننى تخيلت هذه القصيدة وحفظتها فى فكرى لقد تصورتها وأنا فى نوع من سورة النفس وستكون أنت أوّلَ قرائى أو قل أول المستمعين الىّ • ولماذا يجب على المؤلف أن يتنازل عن المستمع الوحيد الذى يملك أن يتـــلو عليه ما ألف (كذلك أضاف ايفان مبتسماً) أأقول القصيدة أم لا ؟

أجاب أليوشا :

ــ اننى أُصغى اليك باهتمام وشوق •

ــ عنوان القصيدة « المفتش الكبير » • هى قصة خيالية ولكن يسرنى أن أقصها عليك •

٥

المفتش الكبير

بدأ ايفان كلامه يقول :

ـ لا بد من مقدمة . هـذا من التقاليد الأدبيـة (قال ايفـان ذلك ضاحكاً) . ألست مؤلفاً أنا أيضا ؟ ان الأحداث تجرى فى القرن السادس عشر . ولقـد كان رائجاً فى ذلك الزمان ادخال القـوى السماوية فى القصائد ، كما لا بد أنك تعلمت ذلك فى المدرسة . يكفى أن أذكّرك، حتى دون أن أستشهد بمثال دانتى ، بأن رجال الدين والرهبـان كانوا يقدمون تمثيليات تظهر فيها العذراء والملائكة والقديسون ، ويظهر فيهـا المسيح ، ويظهر فيها حتى الله نفسه . تمثيليـات ساذجة . وقد وصف فكتور هوجو فى روايته « أحدب نوتردام » ★ تمثيلية أخلاقية مجانية مُثلت للشعب فى قاعة « الأوتيل دوفيل » فى عهد لويس السادس عشر احتفالاً بميلاد ابنه البكر ، وكان عنوان التمثيلية هو « الرأى الصائب للعـذراء مريم المقدسة المنعمة » ، وفيها نرى العذراء تظهر بنفسها لاصدار رأيها الصائب وحكمها السديد . وعندنا فى موسكو★ ، قبل عهد بطرس الأكبر، كانت أسرار من هذا النوع تُمثَّل من حين الى حين ، وكانت تُستوحى من التوراة خاصة . وعدا هذه التمثيليات ، فقد انتشرت فى العالم طائفة من الأقاصيص أو القصائد يظهر فيهـا القديسون وتظهر فيهـا الملائكة والقوى السماوية الأخرى ، تبعاً للحاجات . وفى أديرتنا كانت تُترجم

وكانت تنسخ أشياء كثيرة ، بل لقد كانت تؤلف قصائد فى بعض الأحيان، حتى فى عهد الاحتلال التترى . فكذلك على سبيل المثال ، احتفظ بقصيدة رهبانية (مترجمة عن اليونانية طبعا) عنوانها : « نزول العذراء الى الجحيم » * ، مليئة بلوحات تكاد تبلغ فى جرأتها وجسارتها لوحات دانتى . ففى تلك القصيدة تذهب العذراء الى المعذبين فى الجحيم يقودها رئيس الملائكة ميخائيل ، فتراهم وترى ما يقاسون من عذاب أليم ، وترى بينهم على وجه الخصوص طائفة عجيبة من الخطاة تتخبط فى بحيرة مشتعلة ، فالذين يغوصون فى هذه البحيرة منهم لا يرجعون بعد ذلك الى سطحها قط ، ويقال عنهم « ان الله قد نسيهم » ، وذلك تعبير عميق زاخر بالقوة ؛ وقد استبدت بالعذراء شفقة قوية ، فسقطت باكية أمام عرش الرب تضرع اليه أن يعفو عن معذبى الجحيم ، وأن يغفر لهم جميعا بغير تمييز . ان حديثها مع الرب شائق جدا ، فهى تضرع اليه وتلح وتأبى أن تنصرف ، فاذا أومأ الرب الى قدمى ويدى ابنها المثقوبة بالمسامير وسألها : « كيف أعفو عن هؤلاء الجلادين » ، أمرت جميع القديسين والشهداء والملائكة أن يركعوا معها وأن يسألوا العفو عن جميع الخطاة بغير استثناء. واستطاعت أخيرا أن تحصل على أن ينقطع عذاب جهنم كلّ سنة بين الجمعة الحزينة وعيد الخمسين ، وأن يسارع المعذبون عندئذ الى أن ينشدوا من قرارة الجحيم نشيد العرفان بالجميل : « أنت على حق يارب، وعادلٌ حكمك . » .

ان قصيدتى أنا كان يمكن أن تكون من هذا النوع لو أننى عشت فى ذلك العصر . ان الرب يظهر فى قصتى ، ولكنه لا ينطق بكلمة واحدة ، ولا يزيد على أن يجتاز المسرح . لقد انقضت خمسة عشر قرنا منذ أن وعد بأن يعود الى مملكته ، منذ أن كتب رسوله : « سأعود قريبا * . أما اليوم والساعة فان الابن نفسه لا يعرفهما ، وانما يعرفهما

أبى الذى فى السموات » ، على حد الأقوال التى نطق بها هو نفسه أثناء مروره بالارض • ولكن الانسانية ما تزال تنتظره بايمان واحد وحماسة لم تتغير ، بل ان الايمان قد قوى واشتد ، لأن خمسة عشر قرنا قد انقضت منذ أن كفت السموات عن بذل ضمانات للبشر •

صدق صوت قلبك ايها الانسان

ان السموات لا تبذل ضمانات * •

فلا قيمة بعد الآن الا ليقين القلب دليلا وبرهانا • صحيح أن المعجزات كانت كثيرة فى ذلك العصر • فلقد كان هنالك قديسون يبرئون المرضى بمعجزات فوق الطبيعة ، واذا صدق ما يروى فى سير بعض الصالحين ، فان ملكة السموات قد ظهرت لهم بشخصها • ولكن الشيطان لم ينم ، وأخذت الانسانية تشك فى صدق هذه المعجزات • وظهرت عندئذ هرطقة رهيبة فى شمال ألمانيا * فاذا بكوكب كبير « شبيه بشعلة (هو الكنيسة طبعا) يسقط على نبع المياه فتصبح المياه مرة » • لقد كان أولئك المجدّفون الهراطقة ينكرون المعجزات • فازداد ايمان المؤمنين ، واشتدت حماستهم • وأخذت الانسانية ترفع أعينها الدامعة الى الرب منتظرةً مجيئه ، محبةً اياه بقلب حار ، مؤمّلةً فيه ، ظامئة الى التألم من أجله والموت فى سبيله ، كما حدث فى الماضى ••• ان صلوات البشر ترتفع الى السموات حارةً منذ قرون طويلة قائلةً له : « تفضل بالمجىء الينا يا رب » ، لذلك أراد الرب برحمته الواسعة ، أن يعود الى أولئك الذين يضرعون اليه هذه الضراعة • لقد ظهر حتى ذلك الحين لبعض الصالحين والشهداء والقديسين النساك كما تروى سيرة حياتهم • وفى بلادنا روسيا تغنى الشاعر تيوتشيف به فى هذه الأبيات (وكان يؤمن ايمانا عميقا بما يقول) :

أيتها الأرض التى ولد فيك ملك السموات *
لقد طاف فى كل جهة من جهاتك فى صورة عبد ،
منحنيا تحت ثقل صليبه ،
يهب لك بركته الواسعة .

ذلك كله صحيح ، أؤكد لك . لقد قرر الرب أن يظهر فى هذه المرة لا لافراد من القديسين ، بل للشعب بأسره، لجمهرة الناس المغمورين الذين يتألمون فى خطاياهم وعارهم ولكنهم يحبونه بقلب ساذج كقلب الاطفال . الأحداث تجرى فى اسبانيا ، بمدينة اشبيلية ، فى أحلك عهود « التفتيش » ، أيام كانت أكوام الحطب تشتعل لاحراق المتهمين كل يوم فى جميع أرجاء اسبانيا تمجيدا للرب★ :

فى نيران رائعة *

كان يحرق الزنادقة الأشرار .

لم يكن يقصد فى هذه المرة أن يرجع الى الارض ذلك الرجوع الذى بشّرت به الكتب الدينية حين قالت انه سيرجع فى آخر الدهور ، فيتجلى فجأة بكل مجده السماوى « كبرقٍ يسطع من الشرق الى الغرب★ . فكل ما كان يريده هو أن يقضى بضع لحظات عابرة بين أبنائه فى تلك الأماكن نفسها التى تزفر فيها النيران الموقدة لاحراق الهراطقة . لقد أراد بفعلٍ من أفعال محبته الالهية أن يظهر للناس مرةً أخرى فى الصورة الانسانية التى اتخذها قبل ذلك بخمسة عشر قرنا أثناء حياته الأرضية التى دامت ثلاثة وثلاثين عاما . فهكذا نزل الى الشوارع الملتهبة من المدينة الجنوبية التى تم فيها أمس ، بأمر الكاردينال ، المفتش الكبير، احراقُ مائة من الزنادقة ، تمجيداً لله ، بمعاونة الأهالى وحضور الملك ورجال البلاط والفرسان وأمراء الكنيسة والسيدات الحسناوات وسائر

من يعدون ألمع أبناء المجتمع فى اشبيلية • وقد ظهر الرب خفيةً بدون ضوضاء ، ولكن الامر الغريب هو أن جميع الناس سرعان ما عرفوه • وها هنا مادة لأجمل أجزاء القصيدة : لماذا عرفه الناس جميعا ؟ لقد انجذب اليه الجمهور بقوة لا تقاوَم ، وأحاط به ، واحتشد حوله ، وتابع خطواته • فسار هو بين الجمهور صامتاً وهو يبتسم ابتسامة عطف لانهاية له • ان شمس المحبة تتقد فى قلبه ، ومن عينيه يشع الضياء وتشع القوة فينتشران فى المؤمنين ويشعلان المحبة فيهم • وهو يمد ذراعيه نحو الشعب ليباركه • ان ملامسته ، وحتى ملامسة ثيابه ، تملك القدرة على ابراء المرضى • فهذا شيخ من الجمهور ، أعمى منذ طفولته ، يهتف قائلا على حين فجأة : « ردَّ الىَّ البصر يا رب حتى أستطيع أن أتأملك » فما هى الا لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه ، فاذا هو يرى الرب • وبكى الشعب تأثراً ، وأغرق بالقبلات الأرض التى مشى عليها • وأخذ الأطفال يرمون الأزهار أمامه منشدين : « رحماك أنقذنا » • وتعالت الصيحات من كل جانب تقول فى حماسة : « انه هو ، انه هو ، لا يمكن الا أن يكون اياه • » • ووقف فى الساحة أمام كاتدرائية أشبيلية لحظةً كان يؤتى الى المعبد ، بين عبرات الحضور ، بتابوت أبيض صغير مفتوح يرقد فيه جثمان بنيةٍ فى السابعة من عمرها هى البنت الوحيدة لرجل من عيون سكان المدينة • ان الميتة مغطاة بالأزهار • صاح الجمهور يقول للأم المحزونة : « سيحيى لك ابنتك » • وكان كاهن الكنيسة قد تقدم نحو التابوت ، فظهرت عليه الحيرة وقطب حاجبيه • فأجهشت أم البنية الميتة باكيةً وارتمت على قدمى المسيح وضرعت اليه وهى تمد نحوه ذراعيها قائلة : « اذا كنت أنت هو حقاً ، فأحى ابنتى ! » • توقف الموكب ، ووضع التابوت على البلاطات عند قدميه • فألقى على جثمان البنية نظرة تفيض بالعطف ، وتحركت شفتاه فى رفق تقولان مرة أخرى : « قومى أيتها

البنية » * فما ان نطق بهذه الكلمات حتى خرجت الطفلة من التابوت ، وجلست مبتسمةً ، ونظرت حولها بعينين محملقتين مدهوشتين . انها تمسك بيدها باقة من ورود بيضاء كانت قد و ضعت على جثمانها. اضطرب الجمهور وصاح وبكى . وفى تلك اللحظة نفسها ظهر الكاردينال كبير المفتشين فى الساحة أمام الكاتدرائية . انه شيخ فى نحو السنة التسعين من عمره ، طويل الجسم منتصب القامة معروق الوجه غائر العينين ، غير أن فى عينيه شعلةً تسطع. انه لايرتدى الآن ثوب الكاردينالية الأرجوانى الفخم الذى ظهر به للشعب في الليلة البارحة حين كان يُرمى الىالنيران أعداء الكنيسة الرومانية . وانما هو يلبس فى هذه المرة ثوب الكاهن ، المصنوع من خشن الصوف . وعلى مسافة منه يتبعه معاونوه العابسون وخدمه وحرس القداس الاحتفالى . وقف الكاردينال أمام الجمهور وتأمله من بعيد . لقد رأى كل شيء ، رأى التابوت عند قدمى المسيح ، ورأى البنية تُبعث حيةً ، فأظلم وجهه واكفهر . انه يقطب حاجبيه الكثيفين الأبيضين ، وان بريقاً متوحشاً كاسراً يومض فى عينيه . وهذا هو يشير الى المسيح بسبابته آمراً الحرس بأن يعتقلوه . ان هذا الرجل الذى عرف كيف يروّض شعباً مرتجفاً وأن يخضعه لجميع اراداته يبلغ من القوة أن الجمهور سرعان ما أسرع يبتعد أمام الزبانية ، فاذا بهؤلاء ، وسط صمت الموت الذى خيّم على حين فجأة ، يضعون أيديهم على المسيح ويقتادونه . وسجد الجمهور بحركة واحدة أمام المفتش الكبير الذى بارك الجمهور صامتا وانصرف . أُخذ السجين الى المبنى العتيق الذى يقام فيه القداس ، وحُبس فى زنزانة مظلمة ضيقة مقبّبة. انقضى النهار، وهبط الليل . هى ليلة من ليالى اشبيلية تلك الثقيلة الحالكة الخانقة الحارة . « الهواء معطر بعبق أشجار الرّند والليمون* » . وفجأةً ، فى الظلمات ، فُتح الباب الحديدى ، وتقدم المفتش العجوز يسير فى الممر

ببطء حاملا بيده شعلة • وقف لحظة على عتبة الزنزانه وتفرس فى وجه السجين طويلا • ثم اقترب منه آخر الامر بخطى صامتة ، ووضع الشعلة على المنضدة وقال له :

« ــ أهذا أنت اذن ؟ أهذا أنت ؟ (ولكنه حين لم يتلق جوابا أسرع يضيف :) اسكت ! لا تقل شيئاً ! وما عساك تعلمنى على كل حال ؟ اننى أعرف سلفاً كل ما قد تقوله لى • وبأى حق تريد من جهة أخرى أن تضيف أى شىء الى ما سبق أن قلته ؟ لماذا تجىء اليوم تزرع الاضطراب فى حياتنا ؟ ذلك أنك انما جئت لتبث فينا الاضطراب ما فى ذلك ريب ، وأنت لا تجهل ذلك • فهــل تعلم مع هذا ما الذى ســيقع غدا ؟ اننى لا أعرفك ، ولا أريد أن أعرفك • أأنت هو حقا ، أم لست الا طيفه ؟ سيان ••• لأننى سأحكم عليك بالاعــدام وسآمر باحــراقك مثلما آمر باحراق أسوأ الزنادقة • ان ذلك الجمهور نفسه الذى كان يقبل قدميك منذ بضع ساعات ، سيهرع غدا ، باشارة بسيطة منى ، فيورى لهيب النار، هل تعلم ذلك ؟

ألقى عليه الكاردينال هذا السؤال ثم أضاف يقول شارد الفكر نافذ النظرة دون أن يحول بصره عن سجينه لحظة واحدة :

« ــ لا شك أنك تعلم ذلك !

قال أليوشا الذى كان الى ذلك الحين يصغى الى أخيه صامتا ، قال وهو يبتسم :

ــ لست أفهم جيدا يا ايفان • أهذه تهاويل مضطربة أنشأها خيالك المحموم ، أم أنت تريد أن تقول ان الشيخ قد خدعه ظنه ، وان لَبْسةً ما قد أضلّته ؟

قال ايفان ضاحكاً :

SS

ــ لنسلّم بأن هناك لُبْسةً ما ، ما دامت واقعية هــذا العصر قد دمغتك أنت أيضا الى حدٍ لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية غريبة. لنفرض أن هناك لبسةً ما ، اذا كنت تحرص على ذلك .

ثم أردف ايفان يقول وهو يضحك مرة أخرى :

ــ يجب أن لا ننسى أن هذا العجوز هو في التسعين من عمره ، وأن من الجائز أن يكون قد جُنَّ منذ زمن طويل فيعزلته المتكبرة المستعلية. ولعل منظر السجين قد أدهشه . ولعل هذا كله لم يكن أيضا الا هذيان رجل عجوز قد أهاجه احراق المائة زنديق الذين أحرقوا في الليــلة البارحة ، أو أهاجته هلوسة من تلك الهلوسات التي تسبق الموت في بعض الأحيان . وانه ليستوي على كل حال أن يكون الامر أمر تهاويل خيالية أو أمر لُبْسة ، فانهما المهم أن هذا الشيخ سيقول في هذه المرة ، وهــو في التسعين من العمر ، سيقول ما في قلبه وما فكّر فيه صامتا طــوال حياته .

ــ والسجين ؟ أهو صامت ؟ أهو ينظر الى زائره دون أن يفتح فمه بكلمة ؟

قال ايفان شارحا وهو ما يزال يضحك :

ــ على هذا النحو انما يجب أن تجري الأمور . ألم يُفهمه الشيخ العجوز أنه ليس من حقه أن يضيف شيئا الى ما سبق أن قاله في الماضي؟ بل ان هذا في رأيي سمة من السمات الاساسية للكاثوليكية الرومانية : « لقد عهدت برسالتك الى البابا ، ومن اختصاص البابا أن يقرر بعد الآن. فلا تأت الينا لبث القلق والاضطراب في حياتنا بغير طائل ، لا تأت الآن ، لا تأت قبل الساعة المحدّدة على كل حال ! » . فهــذا ما يقوله صانعو الكنيسة الرومانية ، أو هذا ما يقوله اليسوعيون على الأقل . لقــد قرأت

هذا بنفسى فى كتب لاهوتييهم • ان العجوز قد ألقى عليه هذا السؤال : « هل من حقك أن تكشف لنا ولو عن سر واحد من أسرار العالم الذى جئت منه ؟ » ثم لم ينتظر جوابه ، بل أضاف يقول فورا : « لا •• ليس من حقك أن تفعل ••• ليس لك أن تضيف شيئاً الى ما سبق أن قلت فى الماضى ، وذلك حتى لا تحرم البشر من تلك الحرية التى كنت تقدرها قدراً عظيما حين عشت على الأرض • ان كل كشف جديد قد تأتى به سيسىء الى حرية الايمان ، لأنه سوف يبدو معجزة من المعجزات ، وأنت قد رأيت منذ خمسة عشر قرناً أن ضمان حرية الايمان أمر أساسى • ألم تكن تردد على مسامعهم بغير كلال ولا ملال : « لقد جئتكم بالحرية » ؟• وأضاف العجوز يقول وهو يرسم على شفتيه ابتسامة مفكّرة على حين فجأة : ولقد رأيتهم بعينيك ، هؤلاء البشر « الأحـــرار » ••• ان هذه الحرية هى من صنعنا ، وقد كلفتنا جهودا لا نهاية لها (كذلك أضاف العجوز وهو يلقى على المسيح نظرة قاسية) ، ولكننا أتممنا عملنا أخيرا باسمك • لقد اضطررنا خلال خمسة عشر قرنا أن نظل نتحرك جاهدين بهذه الحرية ، ولكن الامر انتهى الآن ، انتهى تماما ! ألا تظن أنه انتهى الى الأبد ؟ انك تنظر الىّ بوداعة ولين ورفق ، فلا شك أنك تقدّر أنك ان أظهرت استياءك كنت تشرفنى تشريفا لا أستحقه ! ألا فاعلم اذن أن البشر هم فى هذا اليوم بعينه أشد اقتناعا منهم فى أى وقت مضى بحريتهم الكاملة ، ومع ذلك فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها فى أيدينا بكثير من المذلة ! ذلك هو عملنا ! أهذه هى الحرية التى كنت تنشدها لهم ؟

قاطعه أليوشا مرة أخرى قائلاً :

ـ مرةً أخرى أصبحت لا أفهم • أهو يسخر ؟ أهو يتهكم ؟

ـ كلا ••• انه لا يسخر ولا يتهكم البتة ! بالعكس : انه يتباهى، لنفسه ولصحبه ، بأنهم أوقفوا نمو الحرية فاستطاعوا أن يجعلوا الناس

بذلك سعداء • « ذلك أننا الآن ، للمرة الأولى، نستطيع أن نحلم للانسانية بالسعادة (انه يتكلم طبعا باسم محاكم التفتيش) • ان الانسان محمول بطبيعته على العصيان والتمرد • ولكن هل يستطيع المتمردون أن يكونوا سعداء ؟ لقد نُبهت الى هذا ولم تعوزك النصائح والتحذيرات ، ولكنك لم تشأ أن تحسب حسابها ، ونبذت الطريق الوحيدة التى كان يمكن أن تقود البشر الى السعادة • ومن حسن الحظ أنك حين بارحت هذه الارض عهدت الينا بمهمة اتمام رسالتك • لقد كلفتنا بأن نوجّه الانسانية وأن نرشدها • بذلت لنا وعدك ، وأقمت سلطتنا على كلمتك ، ووهبت لنا حق العقد والحل ، ولن تستطيع طبعا أن تنتزع منا هذا الحق بعد الآن • فلماذا جئت تعرقل عملنا فى هذا العالم ؟

قال أليوشا سائلاً :

ـ ماذا كان يعنى بقوله ان النصائح والتحذيرات لم تعوزه ؟

وأجاب ايفان :

ـ ذلك هو العنصر الأساسى فى التفكير الذى كان العجوز يريد أن يعرب عنه •

ـ تابع العجوز يقول : ان الروح الرهيب العميق ، روح الدمار والعدم ،قد خاطبك فى الصحراء ؛ وتروى الكتب المقدسة أنه أغواك ، أليس كذلك ؟ هل نستطيع فى الواقع أن نتخيل حقائق اكبر من الحقائق التى عرضها لك فى أسئلته الثلاثة ؟ لقد رفضت أنت تلك الحقائق آنئذ ، والكتب المقدسة تصفها بأنها « غوايات » • ومع ذلك ، لئن وُجدت على هذه الارض فى يوم من الايام معجزة كبرى ، معجزة صادقة ، فان تلك المعجزة انما تحققت فى ذلك اليوم بعينه ، وفى تلك الغوايات الثلاث • لقد كانت تلك الاسئلة معجزةً من المعجزات لمجرد أنها أُلقيت• لنتصور،

على سبيل الافتراض وحده، أن الأسئلة الثلاثة التى ألقاها الروح الرهيب قد تبددت دون أن تترك أثراً فى الكتب المقدسة ، وأن علينا أن نعثر عليها اليوم وأن نعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضمها الى النصوص المقدسة • لنتصور أننا جمعنا لتحقيق هذا الهدف جميع حكماء الارض - رؤساء الدول وأمراء الكنيسة والعلماء والفلاسفة والشعراء - وقلنا لهم : « أوجدوا لنا ، تخيلوا لنا ثلاثة أسئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب ، بل تلخص بالاضافة الى ذلك ، فى ثلاث جمل انسانية بسيطة، كل مستقبل العالم والانسانية» • فهل تظن أن كل حكمة الارض المجتمعة فى هؤلاء الرجال تقدر على أن تتصور ، ولو من بعيد ، شيئاً يشبه بقوته وعمقه ، تلك الأسئلة الثلاثة التى ألقاها عليك فى الصحراء ذلك الروح القوى العميق ؟ ان تلك الأسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المعجزة ، أعنى كون الأسئلة قد ألقيت ، تشهد بأن الأمر لم يكن أمر عقل انسانى عادى، بل أمر فكر خالد مطلق • ذلك أنها تضم فى ذاتها ، تشتمل فى ذاتها على كل التاريخ المقبل للانسانية ، وتقدم رموزاً ثلاثة تنحل فيها جميع تناقضات الطبيعة الانسانية ، التى لا سبيل الى حلها • ان تلك الحقائق لم تكن ظاهرة آنئذ ظهوراً واضحاً ، لأن التطور الذى تطوره العالم بعدئذ لم يكن معروفا ؟ أما الآن ، بعد انقضاء خمسة عشر قرنا ، فاننا نرى أن كل شيء قد تضمنته وتنبأت به تلك الأسئلة الثلاثة ، وأنها قد تحققت تحققاً يبلغ من الكمال والتمام أننا لن نستطيع أن نضيف اليها شيئاً أو أن نحذف منها شيئاً بعد اليوم •

» فاحكم فى الأمر بنفسك : من ذا الذى كان على حق ، أأنت أم سائلك ؟ تذكر السؤال الأول من تلك الأسئلة الثلاثة ، لا نصه بل معناه العام : « تريد أن تمضى الى الناس ، وأنت تمضى اليهم خالى اليدين الا من وعد بحرية لا يستطيعون بحكم ما فطروا عليه من بساطة وحطة أن

يفهموها ، عدا أنهم بالاضافة الى ذلك يخشونها ويخافون منها ، لأنه ليس هناك ولم يكن هناك فى يوم من الأيام حالة لا يطيقها البشر والمجتمع مثلما لا يطيقان الحرية • هل ترى هــذه الحجارة فى الصحراء الوعرة المحرقة ؟ حوّلها الى خبز تهرع اليك الانسانية كقطيع جائع ، وتصبح شـاكرة لك مطيعة" اياك ، ولكنها سـتظل ترتجف خوفاً من ان تسحب يديك وأن تُحرم هى من الخبز » • غير أنك لم تشأ أن تحرم الانسان من الحرية ، فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حرية صادقة حيث تُشترى الطاعة بالخبز • لقد أجبت بقولك : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان • أفكنت تجهل اذن أن روح الأرض سيثور عليك باسم هذا الخبز الأرضى نفسه ، وأنه سـيقاتلك ويغلبك ؟ وأن الجمهور سـيهرع عندئذ نحوه قائلاً : « من ذا الذى يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذى وهب لنا نار السماء ؟ » • لسوف تنقضى قرون ، فيأتى يوم تنادى فيه الحكمة الانسانية وينادى فيه العلم الانسانى بأن الشر لا وجود له ، وأن الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها ، مؤكدين أن هناك جائعين فحسب • « أطعمهم تجعلهم فاضـلين ! » • بهذه الصـيحة انما سيحملون الراية ضدّك وسيقوّضون معبدك • وسيقيمون فى مكانه مبنى آخر ، هو « برج بابل » ثانٍ مهدّد • صحيح أن البناء لن يتم ، كما لم يتم فى المرة الأولى ، ولكن كان فى وسعك مع ذلك أن توفر على الانسانية آلام هذه المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة • ذلك أن البشر انمـا سيتجون الينا نحن بعد أن يجهدوا فى بناء برجهم مدة عشرة قرون ! سيجيئون باحثين عنا كما فعلوا فى الماضى ، وسيجدوننا فى الأقبية التى نكون قد لجأنا اليها (لأننا سنُضطهد وسنعذّب من جديد) ، سيجيئون قائلين لنا : « أطعمونا، لأن الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا » • وسننهى عندئذ بناء البرج، لأن الذين سيُطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتموا هذا العمل حتى

النهاية • وسوف نطعمهم ، سوف نطعمهم نحن ولا أحد سوانا ، وسوف نفعل ذلك باسمك ، كاذبين عليهم مستمدين سلطتنا منك • بدوننا لن يستطيعوا أن يعيشوا فى هذا العالم ، وسيظلون دوماً جائعين ساغبين • لن يهب لهم العلم خبزاً ما ظلوا أحرارا ، ولكنهم سينتهون الى أن يرموا حريتهم على أقدامنا قائلين : « استعبدونا ولكن أطعمونا » • سيدركون هم أنفسهم أن الحريه لا تتفق وخبز الأرض ، ولا تتيح أن يصيب كل منهم من هذا الخبز كفايته ، لأنهم لن يتوصلوا الى اقتسامه بالعدل فى يوم من الأيام • وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا أحرارا ، لأنهم ضعاف فاسدون صغار النفوس سريعون الى التمرد والعصيان • لقد وعدتهم بخبز السماء ، ولكننى أسألك مرةً أخرى : هل يقاس خبز السماء بخبز الأرض فى نظر الكثرة التى ستظل الى الأبد فاسدة عاقة ؟ اذا كانت ألوف من الناس أو كانت عشرات ألوف من الناس مستعدةً لأن تتبعك فى سبيل خبز السماء فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التى لن تحس بأنها قادرة على أن تتنازل عن خبز الأرض فى سبيل خبز السماء ؟ أتراك لا تعطف الا على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القوية ، وهل يجب على ملايين البشر ، هل يجب على الجموع التى لانهاية لعددها ، كرمل البحر ، هل يجب على هؤلاء الذين هم ضعاف ولكنهم يحبونك أيضا ، أن لا يكونوا الا مادةً مسخرة للكبار والأقوياء ؟ اننا نحن نرى غير هذا الرأى ، وان الضعاف أعزة على قلوبنا • انهم شريرون عصاة ، ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذين يصبحون فى آخر الأمر أكثر الناس طاعة وخضوعا • سوف يعجبون بنا ويعدوننا آلهة ، لأننا نكون قد رضينا، حين صرنا قادةً لهم، أن نحمل عنهم عبء حريتهم وأن نسيطر عليهم ، فالى هذا الحد ستكون هذه الحرية قد أصبحت كريهة فى نظرهم بتقدم الزمن ! وسوف نوهمهم مع ذلك بأنهم انما يطيعونك أنت وبأننا

نحكمهم باسمك . سوف نكذب عليهم فى هذه النقطة أيضا ، لأننا لن نسمح لك بعد الآن بأن تتدخل فى شئوننا.وسيكون هذا الكذب الضرورى عذابنا . ذلك ما كان يعنيه السؤال الأول فى الصحراء ، ولقد رفضت نداء الروح الجبار باسم الحرية التى وضعتها فى أعلى منزلة ، وفضلتها على كل شىء . ولقد كان ذلك السؤال يخفى مع ذلك كل سرّ هذا العالم . فلو قد رضيت أن تعطى الخبز ، اذن للبّيت ما تنتظره الانسانية انتظارا أبديا منذ عهود سحيقة ، ولهدّأت القلق الذى يعذب الفرد ويعذب الجماعة كليهما : « من نطيع ؟ » فلا رغبة أقوى ولا همّ أبقى لدى الانسان الذى أصبح حراً من همّ العثور على سيد يحكم بأقصى سرعة . ولكن الانسان يتطلع الى الخضوع لحقيقة مؤكدة لا تُجحد ، حقيقة يحترمها جميع الناس برضى اجماعى . ان حاجة هذه المخلوقات الضعيفة ليست الى اكتشاف قوة يمكن أن يطيعها هذا الفرد أو ذاك من الأفراد ، وانما الى اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بهـا الجميع ، ويمكن أن ينحنى لها « الناس كافة » . فهذه الحاجة الى « الاشتراك » هى بعينها الهمُّ الرئيسى الذى يعذب كل فرد ويعذب الانسانية جملةً ، منذ أقدم عهود التاريخ . فباسم هذا التطلع الى العبادة الجماعية المشتركة انما أفنت الشعوب بعضها بعضا خلال الأحقاب . كانت الشعوب تصنع آلهة ثم تأخذ تتشاتم : « اتركوا آلهتكم وتعالوا اعبدوا آلهتنا . والا فالموت لكم ولآلهتكم ! » . وسيبقى الحال على هذا المنوال الى نهاية العالم ؛ وحتى بعد زوال الآلهة سيظلون يسجدون لمعبودات جديدة . ولقد كنت تعلم هذا السر الأساسى من أسرار الطبيعة الانسانية ، فليس يمكن أن تجهل هذا السر ، ولكنك رفضت الراية الوحيدة التى تملك قوة جذب مطلق والتى قدّمت لك للتأدى بجميع البشر الى الانحناء أمامك بغير تردد — أعنى راية الخبز الأرضى . لقد أقصيت هذه الراية باسم الحرية وباسم

الخبز السماوى • فانظر الآن فيما صنعت ! انظر فيما فعلت باسم الحرية ! أعود فأقول لك انه لا قلق أرسخ فى قلب الانسان من قلق الحاجه الى العثور على من يستطيع أن يضحى له سريعا بالحرية التى وُهبت له ، هو المخلوق التعيس ، منذ ولد • ولكن لا سبيل الى التصرف فى حرية البشر الا بتهدئة ضميرهم • ولقد كان فى وسعك أن تتخذ الخبز رايةً لا تخطىء • اطعم الانسان يُطعْك ، فلا شىء فى هذا العالم أعزّ على الجحود من الحاجة الى الأكل • ولكن اذا استولى غيرك عندئذ على ضمير البشر تركوك وعدلوا حتى عن خبزك ليتبعوا ذلك الذى يكون قد أخضع نفوسهم • فى ذلك كان رأيك صحيحا • ان سرّ الوجود الانسانى ومبرّره ليسا فى ارادة الحياة ، بل فى الحاجة الى معرفة السبب الذى يدعو الانسان الى الحياة • فالانسان ما لم يكن على يقين من هدف حياته، لا يقبل أن يؤثر فى العالم بل يؤثر أن يدمّر نفسه ، ولو ملك الخبز وافراً كل الوفرة • تلك هى الطبيعة الانسانية • ولكن ما الذى حدث ؟ حدث أنك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانسانية أردت لها مزيدا من النمو • فهل نسيت اذن أن الانسان يؤثر هدوء نفسه بل ويؤثر الموت على أن تكون له ملكة حرية الاختيار فى معرفة الخير والشر ؟ لا شىء يخلب اللب فى الوهلة الأولى أكثر من حرية الضمير ، ولكن لا شىء فى الواقع يعذب الانسان أكثر مما تعذبه هذه الحرية • فبدلاً من أن تحمل للانسانية الأسس الراسخة الثابتة الباقية للهدوء النفسى والطمأنينة الروحية ، وبدلاً من أن توفر لها هذه الأسس الى الأبد ، عرضت عليها ما فى هذا العالم من أمور سرية غامضة خارقة تفوق طاقة القوى الانسانية، وكنت فى عملك هذا كأنك لا تحب البشر ، أنت الذى انما جئت مع ذلك لتهب لهم الحياة ! انك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانسانية وسّعتها ، وبذلك ضاعفت ، الى غير نهاية ، الآلام التى تولّدها هذه

SS

الحرية فى نفوس البشر • أردتَ من البشر أن يمنحوك حبهم أحرارا، وأن يتبعوك بارادتهم ، مفتونين بشخصك • ألغيت القانون القديم الذى كان قاسياً ولكنه كان وطيداً راسخاً ، فأصبح على الانسان أن يميّز الخير والشر بنفسه ، مستلهماً حكم قلبه ، غيرَ مسترشد فى تردده الا صورتك أمام عينيه • أفلم تتنبأ اذن بأن البشر سينوءون بهــذا الحمل الرهيب ، حمل حرية الارادة ، فاذا هم آخرَ الأمر ينبـــذون فى يوم من الأيام صورتك ويشكون فى تعاليمك ؟ لسوف ينادون فى النهاية بأن الحقيقة لم تكن فيك ، فمن المستحيل القاؤهم الى اضطراب أشد وعذاب أرهب من الاضطراب والعذاب اللذين ألقيتهم اليهما حين تركت لهم كل هــذه الأنواع من القلق ، وكل هذا العدد من المشكلات التى لاسبيل الى حلّها. لقد زودتهم أنت نفسك بالأسلحة اللازمة لتهديم مملكتك ، فليس لك أن تتهم أحداً بتدميرها • فهل هذا ما عُرض عليك مع ذلك ؟ ليس على الأرض الا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلب على ضمير هؤلاء المتمردين الضعاف قرونا ، وأن تخضعه فى سبيل سعادته نفسها ، ألا وهى: المعجزة، والسر ، والسلطة • ولقد رفضت هذه القوى الثلاث جميعا وعلمت البشر بقدوتك أن يحتقروها • فحين نقلك الروح الرهيب (ابليس) الى سطح المعبد وقال لك : « اذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب فألق بنفسك فى الفضاء ، لأنه كُتب أن الملائكة ستتلقفه وتســنده فلا يقع ولا يتحطم ، وعندئذ تعلم أنك ابن الله وتبرهن على قوة ايمـانك بأبيــك » * ، ولكنك رفضت هذا العرض ولم تلق بنفسك فى الفضاء • صحيح أنك تصرفت فى تلك اللحظة تصرفاً فيه ما فى تصرف اله من عظمة وجلال ، ولكن هل تتصور أن البشر ، وهم جنس ضعيف متمرد ، يملكون من القوة الروحية ما يملكه اله ؟ لقد فهمت فى تلك اللحظة أن حركة بسيطة هى أن تهم بالقاء نفسك فى الفضـاء كان ستعنى اغراء الرب ، فلو قمت بها

SS

لكنت بطلب المعجزة تبرهن على قلة ايمانك ، فاذا حُرمت من الايمان تهشمت أسوأ تهشم على الأرض التى جئت لتخلصها وتنقذها ، وتهلل الروح المحتال جذلا وطرباً • ولكننى أعود فأسألك : هل أمثالك كثير فى هذا العالم ؟ هل وقع فى وهمك لحظة واحدة أن البشر يمكن أن يكونوا هم أيضا فوق اغراءٍ من هذا النوع ؟ هل فى طبيعة البشر أن يتنازلوا عن المعجزة وأن يعتمدوا على حكم القلب وحده فى الساعات العصيبة من الحياة ، أمام المشكلات الخطيرة الأليمة التى تعرض للنفس ؟ لقد كنت تعلم أن موقفك البطولى سينتقل بالكتب المقدسة الى آخر العصور ، وكنت تأمل أن يقتدى البشر بك فيقبلوا أن يظلوا وحيدين مع الله لا يطلبون معجزة من المعجزات • ولكنك لم تقدر أن الانسان متى جحد المعجزة أسرع يجحد الرب ، لأن ظمأه هو الى العجائب لا الى الرب ؛ وأنه لكونه لا يستطيع أن يحيا بغير معجزات ، سيخلق بنفسه معجزات ، فيهوى ، ولو كان متمردا وكافرا وملحداً ، الى خرافات سخيفة ، تنطلى عليه أباطيل السحرة وخزعبلاتهم • انك لم تنزل عن الصليب حين دعاك الجمهور الى ذلك صائحاً من باب الاستهزاء : « انزل عن الصليب فنصدّق أنك أنت » • انك لم تنزل ، لأنك مرةً أخرى لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة ، وانما أردت أن يجيئوا اليك بدافع الايمان لا بتأثير العجائب • كنت تريد أن يهبوا لك محبتهم أحرارا لا أن ينصاعوا لك عبيدا أذهلتهم قوتك • هنا أيضا أسرفت فى تقدير البشر وأنزلتهم منزلة أعلى من منزلتهم ، ذلك أن البشر عبيد ، رغم انهم مفطورون على التمرد • انظر فيما حولك : ماذا أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرنا ؟ ما عدد أولئك الذين رفعتهم الى مستواك ؟ أحلف لك ان الانسان أضعف وأسوأ مما ظننت ! هل يستطيع هو الوضيع أن يحقق ما حققته أنت ؟ انك حين احترمته ذلك الاحترام كله قد تصرفت تصرف من فقد عطفه عليه ،

لأنك سألته فوق ما يطيق ، أنت الذى أحببته أكثر من نفسك ! فلو أنك قدرته أقل مما قدرته اذن لطلبت منه أقل مما طلبت ، ولكان موقفك عندئذ أقرب الى المحبة ، لان العبء عليه يكون عندئذ أقل ثقلاً . ان الانسان ضعيف وجبان . لا يهمنى أن يكون الآن قد ثار فى كل مكان على سلطتنا ، وانه يرى فى عصيانه الآثم هذا مجداً يعتز به . ذلك غرور طفل ، ذلك غرور تلميذ . ان البشر يشبهون تلامذة صغاراً ثاروا فى المدرسة وطردوا معلمهم . ولكن فرحتهم لن تدوم ، وستكلفهم ثمناً باهظاً . سوف يهدمون المعابد ، وسوف يجرى الدم سيولاً على الأرض. وسوف يدركون عندئذ ، سوف يدرك هؤلاء الصبية الأغبياء ، أنهم ان خلقوا عصاة متمردين ، فليس يتيح لهم ضعفهم أن يعيشوا زمناً طويلاً فى التمرد والعصيان . وسيعترفون وهم يسكبون دموعاً باطلة أن الذى وهب لهم روح العصاة قد غرّر بهم وسخر منهم . سيقولون هذا محزونين مكروبين ، وسيكون هذا القول تجديفاً يجعلهم أعظم شقاء أيضا ، لأن الطبيعة الانسانية لا تحتمل التجديف ، ولابد أن تثأر لنفسها منه آخر الأمر . القلق ، الاضطراب ، العذاب ، ذلك هو المصير الذى كتب على البشر الآن ، بعد أن تحملت أنت كل ما تحملته فى الماضى من أجل أن تهب لهم الحرية ! ان رسولك الكبير★ يروى أنه أبصر ، فى رؤيا ، جميع المشتركين فى البعث الاول ، فرأى اثنى عشر ألفا من كل سبط . لقد كانوا ، مهما يكثر عددهم ، أقرب الى آلهة منهم الى بشر : قاسوا ما قاسيت وعاشوا عشرات السنين فى الصحراء القاحلة ، وأضناهم الجوع ، واقتاتوا بالجراد والجذور . صحيح أن فى وسعك أن تعتز بأبناء الحرية هؤلاء الذين وهبوا لك محبتهم أحرارا ، وارتضوا طائعين مختارين أن يضحوا فى سبيلك بأنفسهم فى سورة رائعة . ولكن تذكر أن هؤلاء ليسوا الا بضعة آلاف ، وأنهم أشبه بآلهة منهم ببشر . والآخرون ؟ ما ذنب

الآخرين اذا هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله هؤلاء الأقوياء من محن ؟ هل تأثم النفس الضعيفة حين لاتعرف كيف تسمو الى فضائل مخيفة الى هذا الحد ؟ أتراك جئت من أجل هذه الصفوة وحدها ؟ أأنت لا تفكر الا فيها ولا يخطر ببالك من عداها ؟ اذا كان الأمر كذلك فهو سرٌ يفوق ما نملك من قدرة على الفهم ؛ ومن حقنا فى هذه الحالة نحن أيضا أن نلجأ الى السر ، وأن نعلّم الجماهير أن الأمر الأساسى ليس هو المحبة ولا هو أن يقرر قلبهم تقريرا حراً ، وانما هو الخضوع الأعمى لما لا سبيل الى معرفته ، وأن يطيعونا اذن ولو عارضهم فى ذلك ضميرهم • وهذا بعينه هو ما فعلناه • أصلحنا خطأك الذى ارتكبته حين عدلت ذلك العدول البطولى عن المعجزة ، فبنينا عملك على ما هو « فوق الطبيعة » ، بنيناه على « السر » ، بنيناه على « المعجـــزة » • وابتهج الناس اذ رأوا أنفسهم يُقادون من جديد كما يُقاد قطيع ، ورأوا أنفسهم يتحررون من تلك الهبة المشئومة التى وهبتها لهم فكانت مصدر أنواع من العـذاب قاسوها • قل : هل كنا على صواب حين فعلنا وعلّمنا على هذا النحو ؟ هل يمكن أن يؤخذ علينا حقا أننا لم نحب الانسانية حباً كافياً ، بينما نحن اعترفنا بوهنها فى كثير من الاذعان والتسليم ، وخففنا عنها الحمل فى كثير من الالحاح حتى لقد أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة لعلمنا بضعفها الروحى ، شريطة أن تستأذننا فى ذلك كل مرة ؟ فلماذا تجىء الآن لتبث الفـوضى فى عملنـا ؟ مالك تحـدّق الىّ هكذا صامتاً بعينيـك الرقيقتين النفاذتين ؟ أحرى بك أن تغضب • اننى لا أريد محبتك ، لأننى أنا نفسى لا أحبك • ولست أحاول أن أخفى عنك ذلك ، لأننى أعلم من ذا الذى أخاطب ، أليس كذلك ؟ ثم انك تعرف كل ما قد أقوله لك ، أقرأ ذلك فى عينيك • ففيم المواربة والحالة هـذه ؟ ان سرنا لن يخفى عنـك ، فلعل ما تريده اذن هو أن تسمع هذا السر من فمى ؟ ليكن لك ما تريد

ألا فاعلم أننا لسنا معك ، بل معه « هو » • ذلك هو سرنا • اننا منذ زمان طويل قد كففنا عن أن نكون معك ، وتحيزنا له «هو» • فمنذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته أنت مستاءً ، أعني الهبة الأخيرة التي عرضها عليك وهو يشير لك الى ممالك الأرض* : لقد قبلنا أن نأخذ من يديه روما وأن نأخذ السيف من قيصر ، وأصدرنا قراراً بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين ، رغم أننا لم ننجز الى الآن عملنا • ولكن من المذنب في هذا ؟ ان هذا المشروع ما يزال في أوله ، ولكنه بُديء • ولا بد من الصبر طويلاً قبل أن نصل به الى غايته ، ولا بد من آلام كبيرة في هذه الحياة الدنيا ، ولكننا سنبلغ هدفنا وسنصبح سادة الكون • وسيتاح لنا عندئذ أن نفكر في سعادة مشتركة تنعم بها الانسانية • لقد كان في وسعك أن تقبل السيف من قيصر في الماضي ، فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة ؟ لو اتبعت الوصية الثالثة التي نصحك بها الروح القوي ، اذن لكان في وسعك أن تحقق كل ما تتمناه الانسانية ، وهو أن تعرف : من تطيع ، والى من تعهد بقيادة ضميرها ، وبأي وسيلة توحّد جميع البشر في مجتمع كمجتمع النمل ، واحد كبير منظم • ذلك أن الحاجة الى الوحدة الشاملة هو ثالث هموم النفس الانسانية وهو في الوقت نفسه أقوى هذه الهموم طراً • ان الانسانية قد حاولت في جميع الأزمان أن تنظم نفسها على أساس شامل • ان هناك أمماً كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد ، ولكن شقاءها كان كبيرا على مقدار نبلها ، لأنها أحست أكثر من غيرها من الشعوب بالحاجة الى توحيد النوع البشري • ان الغزاة الكبار ، من أمثال تيمورلنك وجنكيز خان ، الذين مروا على الأرض مرور اعصار مخرب وعاصفة مدمرة ، كانوا يتوقون الى أن يصبحوا سادة العالم بأسره ، ولكن شوقاً عميقاً واحدا الى توحيد جميع الشعوب كان يحركهم دون أن يشعروا بذلك • فلو أنك قبلت قانون القياصرة ومقامهم ، لكان في

وسعك أن تبنى الامبراطورية الشاملة وأن تكفل السلام للانسانية الى الأبد. على من يقع عبء حكم البشر ان لم يقع على أولئك الذين يحكمون النفوس منذ الآن ويملكون الأغذية الأرضية ؟ لقد أخذنا السيف اذن من قيصر ، واذا فعلنا ذلك فقد أنكرناك أنت لنتبعه «هو» . ستنقضى قرون طويلة فى فوضى التحلل الفكرى والعلم الباطل وأكل لحوم البشر ، ذلك أنهم ما داموا قد شرعوا فى بناء برج بابل بدوننا لا بد أن ينحدروا حتماً الى أكل لحوم البشر . ولكن « الوحش » سيجىء بعد ذلك الينا زاحفاً ، وسيلعق أرجلنا التى سيبللها بدموعه الدامية . وسوف نركبه ، ونرفع نحو السماوات كأساً نقشت عليه هذه الكلمة : « السر » . ويومئذ انما ستدق ساعة السلام والسعادة للانسانية . انك فخور بصفوتك المختارة ، ولكن الصفوة وحدها معك ، أما نحن فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة الى جميع النفوس . وحتى بين أبناء هـــذه الصفوة المختارة ، حتى بين هؤلاء الأقوياء ، ما أكثر الذين كانوا يتطلعون الى خدمتك ، فانتظروك عبثاً ، ثم سئموا من هـــذا الصبر الطويل العقيم ، فوقفـــوا قوى فكرهم وحماسة قلبهم على غايات أرضية صرفة ، وانتهى بهم الأمر الى رفع راية حريتهم عليك ! ألست أنت الذى أعطيتهم راية الحرية هذه ؟ أما نحن الذين نهش على البشر بعصانا ، فان البشر سـيكونون سـعداء معنـا ، وسيعزفون عن التمرد علينا . ولن يبيد بعضهم بعضـاً كما يفعلون الآن فى كل مكان بفضل الحرية التى تركتها لهم . وسوف نعرف كيف نقنعهم من جهة أخرى بأنهم لن يكونوا أحراراً الا متى تنازلوا عن اســتعمال حريتهم ، وسنكون قد ألزمناهم بخضوع لا رجعة عنه . هل ما نقوله لهم هو الحقيقــة أم هو كذب ؟ انهم لن يلبثوا أن يدركوا أنه هو الحقيقــة ، لأنهم سيتذكرون العبودية والآلام التى قادتهم اليها حريتك . ان التحلل، وحق حرية النقد ، والعلم ، ان كل ذلك ســيؤدى بهم الى طريق غير

نافذة ، لأنه سيلقيهم فى اضطراب لا مخرج منه ملىء بالألفاظ التى لا سبيل الى حلها ، زاخر بالمعجزات المحيرة • فأما العصاه العنيفون منهم فسيدمرون أنفسهم من شدة الكرب ، وأما العصاة الضعاف فسيقتل بعضهم بعضاً • ولكن الجمهرة الكبرى من الضعاف ، وهم أشقى من أن يتمردوا ويعصوا ، فانهم سيزحفون على أقدامنا قائلين لنا : « أنتم على حق • اننا نعترف بهذا الآن ، لأنكم كنتم وحدكم تملكون أسراره • نحن نعود اليكم • انقذونا من أنفسنا ! » • وحين سيتلقون الخبز من أيدينا ، سيرون حق الرؤية انهم هم الذين أنتجوه بعملهم ، وأننا أخذناه منهم لنوزعه بعد ذلك بدون أية معجزة • سيفهمون أننا لم نقلب حجارة الى خبز ، ولكنهم سيغتبطون بأنهم طعموا ، وسيغتبطون أكثر من ذلك بأنهم طعموا على أيدينا : لن ينسوا قط أن الخبز الذى صنعوه كان ، بدوننا ، يتحول فى أيديهم الى حجارة ، حتى اذا رجعوا الينا تحولت الحجارة خبزاً لهم • سيعرفون كيف يقدّرون بعد الآن قيمة الخضوع النهائى ! لم يكن من الممكن أن تكون حياتهم الا شقاء ، ما ظلوا لا يفهمون ذلك • فمن ذا الذى ساهم أكثر من غيره فى قلة الفهم تلك ؟ من الذى خرّب تلاحم القطيع وبعثره فى طرق مجهولة ؟ ولكن القطيع سيتجمع من جديد ، وسيعود الى طواعيته ، الى الأبد فى هذه المرة • وسوف نهب عندئذ لهذه الكائنات الضعيفة الجبانة سعادة متواضعة وادعة هى السعادة الوحيدة التى تناسبهم • سنعلمهم أخيراً أن لا يزهوا بأنفسهم ، لأنك قد رفعتهم فجعلتهم متكبرين • سنبرهن لهم على أنهم لا قوة لهم ولا شجاعة ، وأنهم أطفال يرثى لحالهم ، ولكن سعادة الأطفال هذه هى أعذب سعادة • سوف يصبحون خجولين ، وسوف ينظرون الينا نظرتهم الى حماة يحمونهم ، وسوف يتراصون حولنا خائفين كما تتراص أفراخ الدجاجة حول أمها • سوف يدهشهم ويرعبهم أن يلاحظوا قوتنا ، فخورين بأن لهم سادة يبلغون

هذا المبلغ من القوة والذكاء ، سادة عرفوا كيف يسيطرون على هــذا القطيع من البشر الذى لا تهدأ حركته ولا يحصى عدده • سوف يرتعشون خوفا أمام غضبنا ••• ســـوف تتخدر عقولهم وتدمع أعينهم كالنســـاء والأطفال • ولكنهم ، باشارة منا ، سوف ينتقلون بمثل هذه السرعة الى الفرح والمرح والغبطة ، ضـــاحكين بهناءة ، مغنين كالصـــبية الصغار • وسنجبرهم على العمل طبعاً ، ولكننا سنهيىء لهم فى ساعات فراغهم حياة أشبه باللعب ، فيها أغانٍ وجوقات وحتى رقصات بريئة • أوه ! وسنسمح لهم أيضا بأن يأثموا ما داموا ضعافاً الى هذا الحد من الضعف ، وسيحبوننا كالأطفال بسبب تسامحنا • سنقول لهم ان كل خطيئة يمكن التكفير عنها اذا هى ارتكبت بموافقتنا • سنبيح لهم أن يأثموا لأننا نحبهم ، أما العقاب فسنأخذه على عاتقنـا ، لا بأس ••• لســوف يحبوننا على أننا مخلّصون لهم ، لأننا سوف نقبـل أن نكون مســـئولين عن خطاياهم وذنوبهم أمام الرب • ولن يكتموا عنا سراً • سنبيح لهم أو نحظر عليهم ، تبعاً لدرجة طاعتهم ، أن يعيشــوا مع نسائهم أو خليـــلاتهم ، وأن ينسلوا أو أن لا ينســلوا ، وسيخضعون لتوجيهاتنا فرحين • سيفضـــون الينا بأخفى ما يعانون من آلام ، وأخفى ما يضطرم فى ضميرهم من أنواع العذاب • وسنفصل فى جميع الحالات ، وسيرتضون حلولنا سعداء، لانها ستحررهم من القلق الذى يعانيه المرء متى كان عليه أن يتخذ قرارا حراً • وسيكون جميع الناس سعداء ، جميع هؤلاء الملايين من البشر ، باستثناء بضع مئات من الألوف الذين ستقودهم : سنكون وحدنا أشقياء ، نحن الذين نملك السر • سيكون فى هذا العالم مئات الملايين من الأطفال السعداء ، لن يكون فيه الا مائة ألف من الأشقياء هم الذين أخذوا على عاتقهم تحمل عذاب المعرفة ، معرفة الخير والشر • وسوف يموت أولئك موتاً غامضاً، ينطفئون باسمك وادعين مســالمين ، فلا يجدون فى الحيــاة الآخرة الا

العدم • ولكننا سنعرف كيف نحتفظ بسر الموت ؟ ومن أجل سـعادتهم سنلألىء أمام أبصارهم جمال المكافآت السماوية والحياة الأبدية • لئن كان بعد القبر حياة أخرى فلا شك أن هؤلاء الضعاف ليسوا من ستوهب لهم تلك الحياة الأخرى • ان النبوءات تزعم أنك ستعود فى يوم من الأيام لتحقق نصراً جديداً على الشر ، وأنك ستظهر محاطاً بمن اصطفيت من أصحاب النفوس القوية المتكبرة الذين أنقذتهم • لسوف نجيب عندئذ بأن هؤلاء انما أنقذوا أنفسهم وحدها ، أما نحن فقد جئنا بالخلاص للناس كافة • يقل ان الزانية الدنيئة التى تركب « الوحش » * وتحمل بيديها « كأس السر » ، سيجللها الخزى والعار ذات يوم وان الضعاف سيثورون من جديد فيمزقون رداءها الدينى الكاذب ويعرُون جسدها « النجس »• ولكننى سأنهض عندئذ فأشير لك الى تلك المليارات من الاطفال السعداء الذين يجهلون كل خطيئة ؟ ونحن الذين نكون قد أخـذنا على عاتقنا أخطاءهم لنحقق سعادتهم ، سوف نمثل أمامك ونقول لك : « احكم علينا اذا كنت تستطيع ، اذا كنت تجرؤ ! » • ألا فاعلم اننى لا أخشاك • ألا فاعلم اننى عشت أنا أيضا فى الصحراء أقتات بالجراد وجذور النبات ، وأننى باركت الحرية التى وهبتها للبشر • وكنت أتهيأ لأن أدخل سلك صفوتك المختارة ، وأن أكون واحدا من الأقوياء المتكبرين الذين يتألف منهم جيش أتباعك الصغير ، وكنت أحترق شوقاً الى أن «أكمل عددهم»• ولكننى رجعت الى صوابى فى الوقت المنـاسب ، فأصبحت لا أريد أن أخدم عقيدة طائشة • لقد عدت عن الخطأ والضلال وانضممت الى صف أولئك الذين يعملون فى « اصلاح ما قمت أنت به » • تركت صـفوف المتكبرين ، وانضممت الى المساكين لأعاون فى تحقيق سـعادتهم • ان ما أعلنه لك اليوم سيتحقق ، وان مملكتنا ستُبنى فى هذا العالم • أعود فأكرر لك : انك سترى غدا هذا الجمهور المطيع ، هذا القطيع الطيّـع

يسرع باشارة منى الى اضرام ألسنة اللهب التى ستُحرق بها مزيدا من الاضرام باضافة فحمٍ متقد الى النار • ذلك أننى سآمر بحرقك لأعاقبك على أنك جئت تدخل البلبلة فيما نقوم به من عمل • لئن وجد زنديق يستحق أن يهلك فى النار ، فهذا الزنديق هو أنت • غداً ستُحرق • انتهى كلامى • • » •

صمت ايفان • كان قد تحمس أثناء الكلام ، فختم قصته بنوع من الاندفاع الجامح • حتى اذا فرغ من حديثه ظهرت فى شفتيه ابتسامة على حين فجأة •

وقد أصغى اليه أليوشا صامتاً ، ولكنه فى أواخر الحديث حاول مراراً ، وقد استبد به اضطراب داخلى عنيف ، أن يقاطع أخاه • ومع ذلك فقد كبح جماح نفسه حتى النهاية • وها هو ذا الآن يدع لاستيائه أن ينفجر ، ويكاد يثب عن مقعده • صاح وقد احمر وجهه احمرارا شديدا :

ــ ولكن ••• ولكن ••• ان قصيدتك تمدح المسيح فى الواقع بدلاً من أن تخزيه كما كنت تريد فيما يبدو • من ذا الذى يقبل تأويلك هذا للحرية ؟ أهكذا يجب أن تُفهم الحرية ؟ ان الكنيسة الأرثوذكسية لا تتصور الحرية أبداً على طريقتك هذه ••• انك تعرض تصور الذين يدينون بالكاثوليكية الرومانية ، بل ان هذا التصور ليس تصور جميع الكاثوليكيين ــ ذلك خطأ ! ــ وانما هو تصور أشرارهم فحسب ، هو تصور أعضاء محاكم التفتيش واليسوعيين ! ••• ثم ان صاحبك كبير المفتشين رجل لا صلة له بالواقع ، وانما هو شخصية خيالية لا يمكن وجودها • ما هى خطايا البشر التى يدعى أنه أخذها على عاتقه ؟ أين رأيت حملة السر هؤلاء الذين يزعم أنهم ارتضوا لا أدرى أى عذاب

في سبيل سعادة الانسانية ؟ أين وُجد هؤلاء ؟ انا نعرف اليسوعيين . لقد قيل فيهم سوء كثير ، ولكن هل هم يشبهون حقا الصورة التى ترسمها لهم ؟ انهم ليسوا كذلك البتة ... كل ما هنالك أنهم يمثلون جيش الكنيسة الرومانية من أجل أن يغزوا فى المستقبل امبراطورية الأرض التى سيرأسها حبر روما برتبة امبراطور ... ذلك هو مثلهم الأعلى ، وهو لا يشتمل على سرٍ ولا على ذلك الحزن النبيل الذى لا يُفهم ... انه الظمأ الى السيطرة والتسلط ؛ انه شهوة الفوز بخيرات الأرض الحقيرة ؛ انه الرغبة فى استعباد الناس ... انهم يحلمون بالعودة الى نوع من نظام الرق يكونون فيه هم المالكين والمنتفعين ... ذلك هو طموحهم كله ! ولعلهم لا يؤمنون حتى بالله ... ليس صاحبك المفتش وليس عذابه النبيل الا خيالاً محضاً ...

قال ايفان ضاحكاً :

ـ لحظة ، لحظه ... لماذا تتحمس ؟ نمرة من ثمرات خيالى ؟ لا أعارض فى هذا . ذلك كله خيال طبعاً . ولكننى أرجو أن تسمح لى بالقاء هذا السؤال : هل تعتقد حقاً بأن الحركة الكاثوليكية فى القرون الأخيرة لم تستلهم الا الظمأ الى السلطة والا شهوة الخيرات المادية الحقيرة؟ لا شك أن الأب بائيسى هو الذى قال لك هذا الكلام !

ـ بالعكس ! ان الأب بائيسى قد قال لى فى يوم من الأيام كلاماً يشبه كلامك تقريبا ...

كذلك قال أليوشا ، ولكنه ما لبث أن أسرع يقول مستدركاً :

ـ أعنى ... انه لم يقل ما قلته أنت بعينه البتة ...

قال ايفان :

ـ اسمع اسمع . هذا اعتراف له شأنه رغم قولك « بالعكس » !

كيف تستطيع أن تصـــدق أن أولئك المفتشين وأولئك اليسوعيين الذين تتكلم عنهم قد اتحدوا وتنظموا لا لشيء الا امتلاك الخيرات المادية الحقيرة ؟ لماذا لا يكون قد وجد بينهم فى يوم من الايام ولو انسان واحد من الصفوة المختارة يعذبه ألم نبيل ويستبد به حب الانسانية ؟ افرض أنه قد وجد ذات يوم ، فى عداد هؤلاء الطامعين الطامئين الى المباهج الارضيه السافله رجل واحد ، رجل واحد شبيه بصاحبى كبير المفتشين عاش فى الصحراء مثله واقتات بالجراد وجذور النبات وأضنى جســـده وأماته فى سبيل الوصول الى الحـــريه والى الكمال • تخيل أن هـــذا الرجل قد أحب الانسانية طوال حياته واقتنع أخيراً بأن السعادة النفســـية التى يقال ان السمو الروحى يحققها انما هى وهم باطل ما دام ملايين البشر الآخرين، وهم مخلوقات الهية مثله ، ما يزالون غارقين فى أقـذار الفحش ، وأن حريتهم المزعومة ليست الا ســـخرية لاذعة مرة ، وأن هؤلاء العصـــاة المساكين لن يكونوا فى يوم من الايام عمالقة قادرة على اكمال بناء البرج ••• أى أنهم لن يصـــلوا فى يوم من الايام الى حـــريتهم ، وأن حلم الانسجام والتناسق الذى حلم به المثالى الكبير لم يخلق لهـذا النوع من الأوز ! ••• تخيل أن هذا الرجل قد أدرك ذلك ، فعاد الى صـــوابه ، وانضم الى الناس الأذكياء ••• أهذا فى رأيك افتراض مستحيل ؟

قال أليوشا فيما يشبه الغضب :

ـ الى من انضم ؟ من هم هؤلاء الناس الأذكياء ؟ انهم لا ذكاء لهم البتة ، وليس عندهم سر ولا ما يشبه السر ! هـــؤلاء زنادقة ••• ذلك سرُّهم كله ! ان صاحبك المفتش لا يؤمن بالله ••• الأمر بسيط !

ـ لنسلم بهذا • لقد فهمتَ أخيرا • صحيح ، انه أصبح لا يؤمن بالله ، ذلك كل سرّه • ولكن أليس هذا عذابا بالنسبة الى رجل مثـله

أفسد مستقبله بحياة التقشف فى الصحراء ثم لم يستطع أن يتحرر من حبه الانسانية ؟ لقد رأى فى أواخر أيامه بوضوح أن النصائح التى أسداها الروح الرهيب الكبير تستطيع وحدها أن تنظم على نحو مقبول بعض الشيء حياة العصاة الضعاف ، حياة هذه « المخلوقات الناقصة التى كانت للخالق تجربة ، وظفرت بالحياة سهواً وغفلة » . فلما اقتنع بهذه الحقيقة أدرك أن من الواجب اتباع الطريق الذى نصح به الروح العميق ، الروح الرهيب ، روح الموت والعدم . واذ كان منطقياً مع نفسه ، فقد أقرّ ضرورة الكذب على الناس وتضليلهم وخداعهم ، بغية السير بهم الى الموت والى العدم سيراً واعياً ، ولكن مع ترك أوهامهم لهم طوال الطريق ، حتى لا يكتشفوا الى أين يُسار بهم . فبهذه الطريقة يستطيع هؤلاء العميان المساكين أن يتوهموا على الأقل أثناء رحلتهم على الأرض أنهم سعداء . لاحظ أنه يرى نفسه مضطرا الى مقارفة هذا الكذب باسم ذلك الذى آمن به ايمانا مشبوبا طوال حياته . أفليس هذا عذاباً ؟ ألا انه لو اتفق أن وجد على مرّ العصور رجل واحد من هذا النوع بين صفوف « الجيش الظامىء الى السيطرة والى اللذات المادية الدنيئة » ، لكان فى هذا ما تُخلق منه مأساة حقة ! أكثر من ذلك : يكفى أن توجد شخصية واحدة من هذا النوع على رأس الكنيسة حتى توهب للكاثوليكية الرومانية روح وحتى تُنفخ فكرة موجِّهة فى فرقها الكثيرة وجماعاتها المتعددة وكهنتها ويسوعييها ، فكرة عليا . أقول لك بصراحة : اننى على يقين من أن رجالاً من هذا النوع قد وُجدوا فى جميع الازمان بين قادة الكاثوليكية الرومانية ، وربما وجد منهم بين البابوات انفسهم ! ومهما يكن من أمر ، فان ذلك العجوز اللعين الذى يصر ذلك الاصرار كله على حب الانسانية على طريقته يمكن أن يوجد فى أيامنا هذه ، مع عدد من أمثاله ، وأن لا يكون وجوده هذا مع أمثاله

نتيجة مصادفة ، بل ثمرة تفاهم واتفاق ، وأن يكون نوعاً من جمعية سرية أنشئت من زمن طويل للمحافظة على السر واخفائه عن أنظار الضعفاء والبؤساء ، وتأمين سعادتهم بذلك . لا بد أن يكون الأمر كذلك حتماً . هذا لا مناص منه .ويبدو لى من جهة أخرى أن الماسونيين الأحرار لا بد أن يكون لهم هم أيضاً سر من هذا النوع يقوم عليه تنظيمهم . ولعل هذا هو السبب فيما يحمله لهم الكاثوليكيون من كره وبغض ، فهم يرون فيهم منافسين لهم يسيئون الى وحدة الفكرة ، بينما يجب أن لا يكون هناك الا قطيع واحد وراعٍ واحد ... ولكننى ألاحظ اننى في دفاعى عن فكرتى أظهر بمظهر مؤلف عاجز عن احتمال نقدك. كفى هذا ...

لم يستطع أليوشا أن يمنع نفسه عن أن يسأله فى تلك اللحظة :

ـ أتراك تنتمى الى الماسونيين الأحرار ؟

ثم أضاف يقول :

ـ أنت لا تؤمن بالله .

ولكنه أضاف هذه العبارة بلهجة تنم عن حزن عميق فى هذه المرة. حتى لقد بدا له أن أخاه ينظر اليه وقد لاح فى وجهه السخر .

وسأله فجأة وهو خافض عينيه :

ـ كيف تنتهى قصيدتك ؟ أهى تقف عند هذا الحد ؟

ـ خطر ببالى أن أختمها على النحو التالى : صمت كبير المفتشين ينتظر من سجينه رداً . ان صمت السجين قد ثقل على نفسه . لقد اقتصر أسيره طوال مدة كلامه على أن يحدّق اليه بنظرة رقيقة نافذة ، عازماً عزماً واضحاً على أن لا يدخل فى مناقشة معه . كان العجوز يؤثر على ذلك أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهيبة . ولكن السجين لم

ينطق بكلمة واحدة • وهذا هو يقترب من العجـــوز فجأة فيطبع قبلة رقيقة على شفتيه الشاحبتين شحوب شفتي من بلغ من عمــره التسعين • كان ذلك كل جوابه • ارتعش العجوز بتأثير هذه القبلة ، واختلج شيء ما في طرفي فمه • واتجه نحو الباب ففتحه وقال لسجينه : « اذهب الآن، ولا تعد بعد اليوم أبدا ، أبدا ! » • وأومأ له بيده الى « الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة » • وانصرف السجين •

ـ والعجوز ؟

ـ حرقت القبلة قلبه ، ولكنه لم يعدل عن فكرته •

ـ التي هي فكرتك أيضا ، أليس كذلك ؟

بهذا صاح أليوشا يقول في مرارة • فأخذ ايفان يضحك • وقال :

ـ ما بك يا أليوشا ؟ ما هذا كله بجد • هي قصيدة سخيفة ألفها طالب غبي لم يكن في يوم من أيام حياته قادراً على أن يسطر بيتين من الشعر • فلماذا تهتم بها هذا الاهتمام كله ، ولماذا توليها هذا الشأن كله ؟ أتراك ستظن أنني ذاهب الى الخارج لأنضم الى هـــؤلاء اليسـوعيين ولأنخرط في صفوف أولئك الذين يدعون « اصلاح ما قام به المسيح » ؟ فيم يعنيني هذا كله ؟ لقد سبق أن قلت لك ان كل ما يعنيني هو أن أديم ابتهاجي الى الثلاثين من العمر ثم أرمي الكأس !

هتف أليوشا يقول ممتلئاً مرارة :

ـ وبراعم الربيع الغضة ، ماذا أنت صانع بها ؟ والقبور العـزيزة عليك ، والسماء الزرقاء ، والمرأة التي تحب ؟ كيف ستعيش اذن ، وأين ستجد القدرة على أن تظل تحب ؟ انك بهذه الأفكار الجهنمية في رأسك وفي قلبك لن تستطيع ذلك ! بلى بلى ••• انك مسافر الى الخارج لتنضم اليهم ، والا فستقتل نفسك ••• انك لن تصمد !

قال ايفان ببطء وهو يبتسم ابتسامة باردة :

ـ في نفسي قوة ستتيح لي أن أصمد مع ذلك .

ـ أية قوة ؟

ـ قـوة آل كارامازوف ... قـوة الحطة والخسة في آل كارامازوف !

ـ ماذا اذن ؟ أتغرق في العهر والفجور والفحش ، أتخنق الروح في حضيض الجسد ؟ أهذا ما تفكر فيه ؟

ـ ربمـا ... ولكنني سأعرف كيف أتحاشاه حتى الثلاثين من العمر . وبعدئذ ...

ـ ستعرف كيف تتحاشاه ؟ كيف ؟ هذا مستبعد ما دامت أفكارك هي هذه الأفكار ...

ـ بل سأعرف كيف أتحاشاه ، وذلك على طريقة آل كارامازوف أيضاً .

ـ على طريقة آل ... أيكون ذلك باستيحائك النظرية القائلة ان « كل شيء مشروع » متى كان متفقاً والمصلحة ؟

قطب ايفان حاجبيه وشحب لونه شحوبا غريبا . وقال :

ـ آه ! أأنت تُلمع الى الفكرة التي عبَّرتُ عنها أمس عند شيخك، فكان أن أثارت استياء ذلك الشهم ميوسوف ... تلك الفكرة التي تلقفها دمتري فصاغها تلك الصياغة الساذجة المفرطة في السذاجة ؟ (أضاف ايفان ذلك وهو يبتسم ابتسامة متكلفة) ... ليكن ! هو كذلك على وجه الاجمال ! كل شيء مباح . قلت ذلك ولن أنقضه . أما صياغة ميتيا فليست رديئة هي الأخرى ...

نظر اليه أليوشا صامتا .

واستأنف ايفان كلامه يقول بانفعال مباغت :

ـ كنت أحدث نفسي يا أخي بأنني سأحتفظ حين أســافر بانسان واحد يحبني على الأقل ، ولكنني ألاحظ الآن أن ليس لي في قلبك مكان يا عزيزي المعتزل . أنا لن أنكر فكرتي القائله بأن « كل شيء مباح » ؛ ولكنك أنت ستنكرني بسبب هــذه الفكرة ، اذا صدق فهمي ، أليس كذلك ؟

نهض أليوشا واقترب من أخيه ، وطبع على فمه قبلة رقيقة دون أن يقول شيئاً .

هتف ايفان يقول في حماسة :

ـ هذا سطو أدبي . لقد سرقت الفكرة من قصيدتي . شكراً شكراً على كل حال . انهض يا أليوشــا . آن أوان الانصراف ، لي ولك على السواء .

خرج الأخوان ولكنهما توقفا على درجات باب الكاباريه .

قال ايفان بصوت جازم :

ـ اسمع يا أليوشا ... اذا بقي في نفسي من الحياة ما يكفي لأن أحب براعم الربيع النضرة ، فسيكون هذا بفضل ذكراك . سوف يكفيني في ساعات الكمد واليأس أن أتذكر أنك ما تزال تحيا في مكانٍ ما حتى أسترد حب الحياة فوراً . هل يرضيك هـذا ؟ عُدَّه تصريح حب ان شئت . والآن ... ان طريقينا يفترقان . ستمضي أنت يمنة ، وسأمضي أنا يسرة . كفى ثرثرات ، هل فهمت ؟ وحتى اذا لم أسافر غداً (وأنا أعتقد انني سأسافر) ، فالتقينا مرة أخرى ، فلا تعد الى هذه المسائل التي ناقشناها اليوم ، أرجوك . حذار من كلمة واحدة في هذا الموضوع ! ولا تكلمني أيضا عن دمتري في المستقبل ، انني أطلب منك هذا جازماً

SS

قاطعاً . والأفضل أن لا تكلمني بعد الآن قط (كذلك أضاف يقول بعصبية مباغتة) . لقد استنفدنا كل ما كان علينا أن نقوله ، أليس هذا صحيحا ؟ وفي مقابل ذلك فانني أقطع لك هذا الوعد : حين سأقرر في الثلاثين من العمر أن « أرمي الكأس » ، فسوف أجيء لأراك مرةً أخرى ، حيثما كنت أعيش في ذلك الحين .. ولو كنت أعيش في أمريكا ... سأجيء اليك فنتناقش من جديد ... في وسعك أن تعوّل على هـذا . سأقوم برحلة خاصة لهذا الغرض . سيشوقني أن أراك عندئذ وأن أعرف ما الذي صرت اليه . ذلك عهد أقطعه على نفسي . وقد لا نلتقي قبل انقضاء سبع سنين أو عشر سنين . اذهب الآن ، أسرع الى صاحبك «الأب سيرافيكوس» ، لأنه يحتضر . فاذا مات في غيابك فقد تحقد عليّ لأنني أخّرتك . الى اللقاء . قبلني أيضا ... هكذا ... والآن فاذهب ...

تركه ايفان وسار في طريقه دون أن يلتفت . ان هذا الانصراف المباغت يذكر بالطريقة التي ترك بها دمتري أخاه أليوشا أمس ، رغم أن الظروف مختلفة بعضها عن بعض كل الاختلاف . مسّ هـذا التشابه الغريب فكر أليوشا مساً خاطفاً جداً ، فشعر فجأة بحزن وارهاق . لبث في مكانه بعض الوقت يتابع ببصره أخاه الذي كان يبتعد. لاحظ ، دون أن يعرف لماذا لاحظ ذلك في تلك اللحظة ، أن مشية ايفان كانت متمايلة بعض التمايل وان كتفه اليمنى تُرى من الظهر أخفض من الكتف الأخرى . انه لم يلاحظ هذا يوماً من قبل . وأخيراً استدار هو أيضاً واتجه نحو الدير مسرعاً يكاد يركض ركضاً. كان الظلام قد هبط. شعر أليوشا بخوف غامض يجتاحه . لقد نبت في نفسه احساس لم يستطع أن يستبين طبيعته . هبّت الريح كما هبت في الليلة البارحة . وغمرته أشجار الصنوبر التي تبلغ السنة المائة من أعمارها ، غمرته

بحفيف شجي حزين حين دخل غابة المنسك . كان يركض . « الأب سيرافيكوس» ، أين تراه وجد هذا الاسم ؟ كذلك تساءل أليوشا .

ـ ايفان ، أخي المسكين ، متى عسى أراك ؟ ... هذا هو المنسك ! آه ... يارب ! نعم نعم ، ســوف ينقذني « الأب سيرافيكوس » * ... سوف ينقذني منه الى الأبد .

سوف يتساءل أليوشا مرارا أثناء حياته ، في دهشة عميقة ، كيف أمكنه في ذلك اليوم ، بعد أن ترك أخاه ايفان ، أن ينسى نسياناً تاماً أخاه دمتري ، مع أنه كان قد عزم عزماً أكيداً قبل ذلك ببضع ساعات على أن يعثر عليه مهما كلف الأمر ، ولو اضطر في ســبيل ذلك أن يعدل عن الذهاب الى الدير في تلك الليلة .

٦

حيث لا سبيل الى الفهم بعد

ايفان فيدوروفتش ، بعد أن ودّع أليوشا ، الى مسكنه أي الى منزل أبيه فيدور بافلوفتش • ولكن الشيء الغريب هو أنه شعر فجأة بقلق لا يطاق ، يغزو نفسه ويزداد على قدر اقترابه من بيته • وليس القلق والحزن اللذان يشعر بهما هما اللذان يدهشانه، وانما يدهشه أنه لا يستطيع أن يحدد لهما سبباً • لقد سبق له كثيرا في الماضي أن أحس بحزن يستولي على نفسه ، ولا غرابة في أن يكون حزيناً في هذه اللحظة التي يتهيأ فيها للسفر بعد أن قطع صلته بكل ما يشده الى هذه المدينة ، والتي يهمّ فيها أن يسير في اتجاه جديد مايزال يجهله • سوف يكون وحيدا من جديد ، وحيداً كل الوحدة كما كان من قبل ، مع آماله العريضة الواسعة ، لأنه ينتظر من الحياة أشياء كثيرة ، لعلها مسرفة في الكثرة ، دون أن يعرف ما هي هذه الأشياء من جهة أخرى • وهو يشعر بأنه عاجز عن أن يرى هذه الآمال وحتى هذه الأشواق رؤية واضحة • غير أن الشيء الذي يعذبه في هذه اللحظة ليس هو تلك الخشية من مستقبل غير محدد ، رغم أن هذه الخشية قائمة في نفسه • تساءل قائلا : « أتراه هو الاشمئزاز الذي يوقظه في نفسي منزل أبي ؟ لكأنني قد بلغت من كره هذا المنزل أنني لا أستطيع التغلب على

التقزز من الذهاب اليه رغم علمي بأنني أجتاز عتبته آخر مرة ••• ولكن لا ••• لا ••• ليس هذا سبب الارهاق الذى أشعر به الآن • أهو اذن وداع أليوشا والحديث الذى جرى بيني وبينه ؟ لقد أصررت على الصمت سنين طويلة ، لا أتنزل أن أفتح فمي بكلمة لانسان ، ثم هأناذا أخرج جميع تلك السخافات دفعةً واحدة • » صحيح أن من الجائز أن يشعر لقلة تجربته وشدة غروره ، غرور المراهق ، بشيء من الحسرة والأسف على أنه لم يستطع أن يعبِّر عن نفسه كما كان يتمنى أن يعبر، ولا سيما أمام انسان كأليوشا ينتظر منه فى قرارة نفسه أشـــياء كثـيرة • لا شك أن فى نفسه الآن شيئاً من الحسرة والأسف ، ذلك لابد منه •• ولكن ليس هذا ما يثقل على صدره الآن ويخنقه خنقاً ••• هناك شيء آخر ••• ولكن ما هو ؟ « ان غماً يملأ جـــوانب نفسي حتى ليكاد يثير غثيانى ، ولست أصل الى معرفة ما يعوزنى ومعرفة ما أريد • لعل الأفضل أن لا أفكر فى هذا الأمر ••• » •

حاول ايفان فيدوروفتش أن « لا يفكر فى هذا الأمر » ، ولكنه لم يفلح • ان الغم الذى يشعر به يتميز بهذا الطابع المثير وهو أن مصدره علة خارجية عرضية طارئة • ان ايفان يحس ذلك احساساً واضحاً • ان الأمر أمر شيء أو شخصٍ ــ لا يدرى ايفان على وجه الدقة ــ لايطاق وجوده فى نظر ايفان • ان ايفان يحس بضيق شبيه بالضيق الذى يثيره فى النفس أحيانا ، أثناء العمل أو أثناء حديث حار ، وجودُ شيء مزعج لم يره المرء رؤية واعيةً بعد ، ولكنه يغتاظ منه غيظاً يحاصره ويسـد عليه الأبواب الى أن يخطر بباله أخيرا أن يزيح سبب هذا الانزعاج الذى كثيرا ما يكون سبباً تافهاً : شيئا ليس فى مكانه ، منديلا ساقطا على الأرض، كتابا نُسى وضعه فى المكتبة ، الخ •

بلغ ايفان منزل أبيه أخيرا ، معتكر المزاج جدا ، مهتاج الأعصاب

اهتياجا شديدا • وحين أصبح على مسافة خمس عشرة خطوة من باب الحديقة الحديدى ألقى نظرة على مدخل المنزل فأدرك على حين فجأة ما كان يحنقه ويعذبه طوال الطريق •

كان الخادم سمردياكوف جالساً على دكة قرب الباب الكبير يتمتع بطراوة الجو • فما ان لمحه ايفان فيدوروفتش حتى أدرك أن صورة هذا الخادم كانت قد لازمت خيـاله على غير علمٍ منه ، فكان يضيق ذرعاً بها ولا يطيقها • لقد اتضح كل شيء• فحين كان أليوشا يحدثه، فى الكاباريه، عن اجتماعه بالخادم ، شعر ايفان بانزعاج شديد ونفور قوى لم يلبثا أن استحالا الى غضب وحنق • ولقد انقطع عن التفكير فى سـمردياكوف أثناء الحديث الذى أعقب ذلك ، غير أن غيظاً ثقيلاً قد بقى فى قلبـه ، فلما ترك أليوشـا واتجه الى منزل أبيه استيقظ فيه ذلك الاحسـاس بالانزعاج دون أن يستطيع الاهتداء الى أصله • تسـاءل ايفان محتداً : « كيف يمكن أن يقلقنى هذا الجرو الغبى مثل هذا الاقلاق ؟ » •

والواقع أن ايفان فيدوروفتش كان قد كره هذا الرجل منذ زمن، ولا سيما فى الأيام الأخيرة • وكان يدرك هو نفسه أن العداوة التى يشعر بها نحو هذا الانسان تشبه أن تكون بغضاً ومقتاً • ولعل عداوته له قـد استفحلت واحتدت لأن موقف ايفان فيدوروفتش من الخادم كان عنـد وصوله الى مدينتنا يختلف عن هذا الموقف كل الاختلاف • لقـد أظهر ايفان فى ذلك الوقت شـيئاً من الاهتمام بالخـادم ، حتى لقد عدَّه امرءاً طريفاً كل الطرافة ، وشجَّعه على أن يتحدث اليه ، دون أن يفوته مع ذلك ما كان فى أحاديث هـذا الرجـل من بعض التفـكك ، أو قل من بعض القلق ، وكان ايفان يتسـاءل : تُرى ما الذى يهزّ فكر هذا «المتأمل» على هذا النحو بغير انقطـاع ؟ لقد عالجا موضوعات فلسفية ، وناقشا ، فيما ناقشا ، مسألة الضياء من أين جاء فى أول يوم من أيام خلق

العالم ما دامت الشمس والنجوم والقمر لم تخلق الا فى اليوم الرابع من أيام الخلق ؟ وتساءلا : كيف يمكن تاويل هذه الآيه من التوراة ؟ ولكن ايفان فيدوروفتش لم يلبث أن لاحظ أن سمردياكوف لا يعبأ بالكواكب كثيرا وأن مسائل علم النجوم لا تعنيه كثيرا وان تكن جذابة. كان واضحا أن ما يشغل باله ويملأ رأسه هو غير هذا تماماً . وشيئاً فشيئاً ظهرت أنانيته وظهر غروره ، يفاقمهما أنه سريع التأذى على ادعاء وتبجح . فهـــذه الخصال لم تعجب ايفان ، وولّدت نفوره منه وكرهه له ، وبعد ذلك ، حين انبثقت المشكلات العائلية المعقدة بظهور جروشنكا وقيام المنازعات بين دمترى وأبيه ، أتيح لايفان أن يتحدث عن هـــذه المصاعب مع الخادم ، فكان يستحيل عليه ، رغم أن سمردياكوف كان يتكلم عن هذه المشكلات دائماً باضطراب شديد ، أن يدرك ماذا كان يريد الخادم أن يقـــول ، وما هو الشيء الذى يتمناه هو نفسه . ان ما يلمحه المرء فى رغباته من بعد عن المنطق والرشاد ، على نحو غامض ، يثير الدهشة والاستغراب . كان سمردياكوف يستوضح كثيراً ، ويلقى بعض الأسئلة مواربا ، لغرض فى نفسه من غير شك ، ولكن دون أن يفصح عن هذا الغرض ، وكان يصمت فجأة فى بعض الأحيان أو ينتقل الى موضوع آخـر فى وسـط الكلام . ولكن ايفان انما أصبح يحنقه خاصة أن سمردياكوف قد أخذ يرفع الكلفة بينه وبينه ، فهو يخاطبه فى غير تحرج ، وهو يمعن فى ذلك مزيداً من الامعان يوماً بعد يوم . وقد ولّد هذا الموقف فى نفس ايفان نفوراً شديداً وعداوة حاسمة وكراهية قاطعـــة . ليس معنى ذلك أن سمردياكوف يجيز لنفسه أن لا يكون مؤدباً مهذباً مع ايفان . بالعكس: لقد كان يصطنع فى مخاطبته كثيراً من الاحترام . ومع ذلك فقد انتهت الأمور بالخادم الى حيث اعتقد ، لا ندرى لماذا ، أنه متضامن مع ايفـان فيدوروفتش . فهو يتحدث اليه بطريقة خاصة ، كأن بين الرجلين تفاهماً

مضمراً سرياً ، وتواطؤاً قائماً منذ زمن طويل ، وروابط لا يعرفها أحد غيرهما ولا يفهمها من يحيط بهما • ولقد لبث ايفان مدة طويلة لا يفهم السبب الحقيقى الذى يثير حنقه المتزايد ، ثم لم يدركه الا منذ بضعة أيام •

أراد ايفان ، وقد استبد به الاشمئزاز والغضب ، أن يجتاز الباب دون أن يبدو عليه أنه رأى سمردياكوف • ولكن سمردياكوف نهض عن دكته ، فسرعان ما أدرك ايفان من وضعه أنه يريد أن يحدثه حديثاً خاصاً • نظر اليه ايفان وتوقف • وما أشد ما أحنقه توقفه هذا ! لقد كان ينوى منذ لحظات قليلة أن يمرّ دون توقف ، فلما رأى نفسه يتوقف شعر بغيظ شديد ! وأخذ ينظر بكراهية حاقدة الى هذا الوجه الممصوص الذى يشبه وجوه الخصيان ، والى هذا الشعر المصفف بكثير من العناية على الصدغين ، والى تلك الذؤابة المنتصبة على الرأس • وكانت عين سمردياكوف اليسرى التى تغضن حاجبها ، تغمز غمزة ماكرة ، فكأنه يقول : « قف ، لن أدعك تمر • ألا ترى أن هناك كلاماً يجب أن نتبادله نحن معشر الأذكياء ؟ » •

ارتعد ايفان غضباً ، وتمنى لو يصيح قائلا : « امض أيها الجرو ! أأنا من يكون صاحباً لرجل أبله من نوعك ؟ » • فما كان أشد دهشته حين رأى نفسه يخاطبه بطريقة تختلف عن هذه الطريقة كل الاختلاف !

ـ أما يزال أبى نائماً أم أنه استيقظ ؟

كذلك سأله برقة فيها اذعان وتسليم أدهشاه ؟ وعلى هذا النحو نفسه الذى لم يكن فى الحسبان أيضا ، رأى نفسه يجلس على الدكة •

وقد تذكر فيما بعد أن ذلك كاد يرعبه فى اللحظة الأولى • كان سمردياكوف واقفاً أمامه ، جاعلاً يديه وراء ظهره ، ينظر اليه نظرة فيها ثقة بل وفيها قسوة • وقال دون تعجل :

ـ انه ما يزال يرتاح .

قال ايفان يخاطب نفسه: «آها ! هو الذى يبادرنى بالكلام الآن !».

وأردف سمردياكوف يقول بعد صمت ، وهو يغض عينيه فى تصنع ، ويقدم رجله اليمنى ، ويهز رأس حذائه الملمّع :

ـ هل تعلم أنك تدهشنى يا سيدى ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش بلهجة خشنة قاسية ، وهو يحاول أن يسيطر على نفسه ، قائلا :

ـ ما الذى يدهشك ؟

ولكن ايفان شعر فى الوقت نفسه ، على اشمئزاز وتقزز ، أن فى نفسه استطلاعاً قوياً لن ينصرف قبل أن يرضيه .

واستأنف سمردياكوف كلامه قائلا وهو يرفع عينيه ، ويبتسم فى ألفة :

ـ لماذا لم تسافر يا سيدى الى تشرماشنيا * ؟

وكانت عينه اليسرى كأنها تقول : « ما دمت ذكياً هذا الذكاء كله فيجب أن تفهم سبب ابتسامتى » .

قال ايفان فيدوروفتش متعجباً :

ـ لأى غرض أذهب الى تشرماشنيا ؟

فأجابه سمردياكوف أخيرا :

ـ لقد رجاك فيدور بافلوفتش أن تسافر اليها فى كثير من الالحاح.

كان سمردياكوف يتكلم ببطء كأنه لا يولى جوابه هذا أى اهتمام. فكأنه يقول له : « اننى أجيبك بأى شىء ، بأول جواب يخطر على بالى ، لا لهدف الا أن أقول شيئاً ما » .

صاح ايفان فيدوروفتش يقول غاضباً ، منتقـــلاً من الاذعان الى الحنق بدون تدرج :

ـ ما هذه الأساليب الغامضة الملتوية ؟ هلاّ تكلمت بوضوح ؟ ماذا تريد ؟

ردّ سمردياكوف قدمه اليمنى نحو قدمه اليسرى ، ونصب قامته ، ولكنه لم يتخلّ عن هدوئه ، وظل يبتسم •

ـ ليس هناك أى شىء هام ••• وانما تكلمت بغير هدف محدد أو غاية معينة •••

وساد صمت • صمت الرجلان كلاهما قرابة دقيقة • أدرك ايفان فيدوروفتش أن عليه أن ينهض وأن يغضب • وكان سمردياكوف واقفاً أمامه وقد بدا على وجهه كأنه يقــول له : « سنرى الآن هل تغضب أو لا تغضب » • ذلك ما شعر به ايفان على الأقل • وهمّ ايفان أخيرا أن ينهض • ففتح سمردياكوف عندئذ فمــه كأنه قد انتظر هـــذه اللحظة ليتكلم •

قال فى بطء ، بصوت جازم ، وهو يقطّع كلامه :

ـ اننى فى وضع رهيب يا ايفان فيدوروفتش ، وأنا أتســاءل كيف يمكننى أن أخرج من المأزق •

ثم تنهد تنهدة كبيرة • عاد ايفان يجلس • واستأنف سمردياكوف كلامه فقال :

ـ لكأنهما فقدا كلاهمـــا العقل • انهمـــا يتصرفان تصرف أطفـــال صغار • اننى أتكلم عن أبيك وعن أخيك دمترى فيدوروفتش • ســـوف يأخذ فيدور بافلوفتش يعذبنى بأسئلته متى نهض من فراشه ، ســـوف يسألنى فى كل لحظة : « هيه ؟ ألم تجىء ؟ لماذا لم تجىء ؟ » • وســـوف

تستمر هذه الأسئلة الى منتصف الليل ، والى ما بعد منتصف الليل . واذا لم تجيء آجرافين الكسندروفنا (وفي رأيي أنها لا تنوى أن تجيء أبدا) ، فسوف يستأنف أسئلته في صباح الغد متهجماً عليّ : « لماذا لم تجيء ؟ متى تجيء ؟ » ، كأنني أنا المذنب . والقصة هي نفسها في الجانب الآخر . فمتى هبـــط الغسق ، بل وقبل هبـــوط الغسق ، يأخذ أخوك دمترى بالاستعداد فيكمن في مكان قريب مسلّحاً ، ويقول لى: «انتبه أيها الوغد! حذار أيها الوغد ! لئن تركتها تدخل دون أن تنبئني ، لأقتلنك أنت أول من أقتل ! » . حتى اذا انقضى الليل عاد يعذبنى بأسئلته كأبيك : « ألم تجيء بعد ؟ هل تجيء قريبا ؟ » . لكأنه يعدنى ، هو أيضا ، مسئولاً عن سلوك هذه السيدة ! الأمور تسير من سيء الى أسوأ ، وغضبهما كلبهما يزداد من ساعة الى ساعة . والخوف يحاصرني حتى لأفكر في قتل نفسي تخلصاً من هذا المأزق . انني لا أتوقع منهما أي خير يا سيدى !

قال ايفان منزعجاً :

ـ ما كان ينبغي لك أن تحشر نفسك في هذا الأمر ! لماذا ارتضيت أن تكون لدمترى فيدوروفتش مُخْبِراً ؟

ـ كيف كان يمكنني أن أبقى بعيـــدا ؟ انني لم أحشر نفسي في الأمر ، اذا شئت أن تعرف ذلك . كنت أصمت ولا أجرؤ أن أرد ، ولكن أخاك ألح وأكرهني على أن أكون له في هذه القضية خادماً . وهو منذ ذلك الحين ما ينفك يكرر على مســـامعى قوله : « لأقتلنك يها الوغد ، لأقتلنك اذا تركتها تمر ! » . أنا على يقين من أنني سأصاب غداً بنوبة طويلة .

ـ أية نوبة ؟

ـ نوبة صرع ، طويلة ، طويلة جدا . ربما دامت بضع ساعات ، وربما استمرت الى الغد . لقد سبق أن أصبت بنوبة امتدت ثلاثة أيام .

سقطت من الشونة • وبقيت ثلاثة أيام لا أفيق من الاغماء • يحدث لى هذا فجأة • وفى تلك المرة استدعى فيدور بافلوفتش الطبيب ، استدعى ذلك الدكتور هرتسنشتوبه ، فوصف لى ثلجاً على الجبين ودواء آخر •• وكدت أموت •

ــ يُقال ان نوبات الصرع لا يمكن التنبؤ بها • فكيف تزعم أنك ستصاب غداً بنوبة ؟

كذلك سأله ايفان باستطلاع يمازجه غيظ • فقال سمردياكوف :

ــ صحيح ••• لا يمكن التنبؤ بها •

ــ ثم انك عند تلك النوبة الطويلة قد سقطت من طابق الشونة •

ــ ذلك أننى أصعد الى ذلك الطابق كل يوم ، ومن الجائز جداً أن أسقط منه فى الغد أيضا • واذا لم أسقط من طابق الشونة ، فقد أسقط فى القبو ، لأننى أذهب الى القبو كل يوم للقيام بالخدمة •

تفرس فيه ايفان فيدوروفتش طويلا •

ثم قال بصوت خافت ولكن مع شىء من التهديد :

ــ يبدو أنك تدبر أمراً • ما الذى تريد أن تصل اليه ؟ أتراك ستتظاهر غداً بنوبة تدوم ثلاثة أيام ، هه ؟

كان سمردياكوف قد غض عينيه ، وعاد يهزّ رأس حذائه • وها هو ذا الآن يرجع رجله اليمنى ويقدم رجله اليسرى ويرفع رأسه ويقول بعد ضحكة صغيرة :

ــ هبنى دبرت لهم « مقلباً » من هذا النوع : ان هناك أسبابا وجيهة تدفعنى الى أن أفعل ذلك • لما كان من السهل على المرء أن يتظاهر بالصرع اذا كان يملك بعض التجربة ، فسيكون من حقى تماما أن ألجأ الى هذه

الوسيلة انقاذاً لحياتي . فاذا حدث أن فررت أجـــرافين الكسندروفنا أن تجيء الى أبيك ، فلن يستطيع أخوك أن يسأل رجلاً مريضا : « لماذا لم تبلغني ؟ » . سوف يستحي هو نفسه أن يفعل ذلك .

هتف ايفان فيدوروفتش يقول وقد تقبض وجهه غضباً :

ـ شيطان يأخذك ! لماذا تخـاف على جلدك أيهـا الجبان ؟ ليست تهديدات دمتري الا كلاماً في الهواء ! انه لن يقتلك . قد يقتل ، ولكنه لن يقتلك أنت على كل حال .

ـ بلى ! سيقتلني كذبابة ، وسيقتلني قبل أن يقتل أي انسان آخر! هناك مع ذلك شيء أخشاه أكثر من هذا أيضا : هو أن أُتهم بالتواطؤ معه اذا هو أقدم على ارتكاب عمل طائش مجنون في حق أبيك .

ـ علام تُتهم في هذه الحالة ؟

ـ سيُظن انني شريك لأنني أطلعته على تلك الاشارات السرية .

ـ أي اشارات تعني ؟ سحقاً لأساليبك المخاتلة هذه! هلاّ قلت كلاماً واضحا آخر الأمر ؟

بدأ سمردياكوف يقول مقطعاً كلامه كانما ليضفي على نفسه قيمة وشأناً :

ـ يجب أن أعترف لك بأن هناك سرا بيني وبين فيدور بافلوفتش . فمنذ بضعة ايام ، كما لعلك تعلم ذلك (وقد لا تعلم على كل حال !) ، تعوّد فيدور بافلوفتش أن يقفل الباب على نفســـه بالمفتاح ، منذ يهبط الليل ، ومنذ يهبط الغسق أحياناً . انك في الآونة الأخـيرة تصـعد الى جناحك في ساعة مبكرة ، وامس مثلا لم تخرج قط ؛ لذلك فلعلك لم تلاحظ شدة اعتصامه بغرفته الآن ، ومدى حرصه على احكام اغلاقها .

انه لايفتح الباب حتى لجريجورى فاسيلفتش اذا هو لم يتعرف صوته على وجه اليقين • ولكن جريجورى فاسيلفتش لا يجيء ، لذلك فأنا وحدى أخدمه في غرفته • هذا ما قرر أن يعمد اليه منذ اندفع فى تلك المغامرة مع أجرافين ألكسندروفنا • وتنفيذاً لأوامره • فاننى أترك المنزل أنا أيضا متى حلّ الظلام ، وأمضى أقضى الليل فى الملحقات ، ملزَماً بالسهر الى منتصف الليل على كل حال ، لأتربص وأخرج الى الفناء من حين الى حين بغية أن أرى ألم تجيء أجرافين الكسندروفنا • ذلك أنه ينتظرها منذ عدة أيام بالحاح هو الجنون • انه يفكر على النحو التالى : لا شك أنها تخاف منه ، من دمترى فيدوروفتش (وهو يسميه ميتكا) ، لذلك ستؤثر أن تجيء فى الليل مارةً من الفناء • وأنا مكلف اذن بانتظارها كل مساء الى منتصف الليل والى ما بعد منتصف الليل • قال لى : « متى ظهرتْ كان عليك أن تسرع الىّ ، فتقرع بابى أو نافذة الحديقة فرعتين أولاً ، قرعتين غير قويتين جـــدا ، هكذا : طق ، طق ؛ ثم ثلاث قرعات أكثر تقارباً : طق ، طق ، طق ؛ فاعلمَ عندئذ أنها جاءت ، فأفتح الباب برفق وهدوء • » • ثم شرح لى بعد ذلك اشارة أخرى استعملها حين يحــدث شيء استثنائى : أقرع فى أول الأمر قرعتين متقاربتين : طق طق ، وبعد برهة أقرع قرعةً ثالثة أقوى ، فيفهم عندئذ أنه وقع حادث مفاجيء وأننى أريد أن أكلمه ، فيفتح لى الباب ، فأروى له ما وقع • هذا اذا لم تجيء أجرافين ألكسندروفنا وانما أوفدت رسولاً برسالة ، أو اذا ظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، فبذلك أستطيع ابلاغه الأمر فوراً • انه يخاف دمترى فيدوروفتش خوفاً رهيباً وقد أمرنى بأن علىّ ، اذا حدث أن كانت أجرافين ايفانوفنا فى المنزل مختليةً به ، فظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، أن أبلغه ذلك فورا بقرع الباب أو النافذة ثلاث قرعات • لقد علمنى اذن اشارتين : الأولى تتألف من خمس

قرعات ، ومعناها أن أجرافين ألكسندروفنا جاءت ، والثانية تتألف من ثلاث قـرعات ومعنـاها أننى أريد أن أكلمه حالاً • وقد جرّب هاتين الاشارتين أمامى مرارا لا تعلمهما • واذ أن أحداً فى العـــالم لا يعرف هاتين الاشارتين ، الا أنا وهو ، فانه متى سمع الاشارة سيفتح الباب فورا بلا تردد ، وبدون أن يلقى أى سؤال (لأنه يخاف أن يُسمِع صوته) • والمشكلة الآن هى أن دمترى فيدوروفتش أصبح يعرف هاتين الاشارتين•

ــ من أين عرفهما ؟ أأنت كشفت له اذن عنهما ؟ فكيف تجرأت أن تفعل ؟

ــ كيف تجرأت ؟ من الخوف طبعاً ! وهل من سبيل الى الصمت معه ؟ كان لا ينفك يكرر على مسامعى فى كل يوم قوله : « أنت تكذب ! أنت تخفى عنى شيئاً • لأحطمن ساقيك ! » وعندئذ أطلعته على هاتين الاشارتين السريتين ليرى على الأقل اننى أطيعه ولا أعصى أمره ، وأن ليس عليه بعد الآن أن يتخيل أننى أخفى عنه الحقيقة ما دمت أبوح له بهذه التفاصيل السرية •

ــ اذا كنت تقدّر أنه ينوى أن يستخدم هاتين الاشارتين ليدخل ، فما عليك الا أن تمنعه من الدخول ••• الأمر بسيط •••

ــ فاذا اتفق أن كنت فى تلك اللحظة بعينها فاقداً وعيى بسبب نوبة صرع ؟ كيف أستطيع عندئذ أن أمنعه من الدخول ، هذا اذا كنت أملك الجرأة على اعتراضه وأنا أعرف ما يكون عليه فى تلك الحالة من ضراوة وعنف !

ــ سحقاً لك ولنوبة الصرع التى تتكلم عنها هذه ! كيف علمت أنه نوبة صرع ستصيبك غداً ؟ أتراك تضحك علىّ ؟

ــ وهل أجرؤ أن أضحك عليك يا سيدى ؟ هل تظن أن بى رغبةً

فى الضحك وأنا فيما أنا فيه من فزع ؟ ان الخوف بعينه هو الذى سيحدث لى هذه النوبة •

ـ طيب ••• اذا كنت أنت مريضاً ، أمكن أن يتــولى الحراسة جريجورى ، وسوف يمنعه هو من الدخول فى جميع الأحوال •

ـ ولكننى ممنـــوع من اطلاع جريجـــورى فاسيلفتش على هاتين الاشارتين الا باذنٍ من السيد • أما عن امكان أن يســمع جريجـورى مجيئه وأن يمنعه من الدخول فيجب أن أقول لك ان جريجورى مريض منذ أمس ، وان مارفا اجناتفنا تنوى أن تداويه فى الغد • على هذا اتفقا اليوم • وان لها فى مداواة زوجها طريقة غريبة جداً : انها تعرف مزيجاً من العقاقير تحتفظ به فى بيتها دائماً لمثل هذه الحالات ، وهو سائل قوى جداً تعرف سرّه فيما يبدو وتصنعه من أعشاب تغليها فى الماء وتداوى به زوجها ثلاث مرات فى العام تقريبا حين يلح عليه مرض اللمباجو ويصبح شبه مشلول • انها تبلل بهذا السائل قطعة من قماش تأخذ تدلك بها ظهره على طوله خـلال نصف سـاعة الى أن ينتفخ الجـلد ويحمر ، حتى اذا فرغت من ذلك جرّعته ما يبقى فى الزجاجة من هذا السائل بعد أن تتلو دعاءً معيناً ؛ ولكنها تبقى لنفسها من السائل مقدارا قليلاً تشربه مع زوجها انتهازاً للفرصة • ويجب أن أقول لك أيضا انهما ، بسبب عدم تعودهما الشراب ، ما يكادان يحسوان هذا الســائل حتى يســـقطا كلاهما حيث يكونان ، فينـــاما نوماً عميقاً خــــلال مدة طويلة • فاذا اســـتيقظا شعر جريجورى فاسيلفتش كل مرة بأنه شُفى من مرضه ، أما مارفا اجناتفنا فلا بد أن يصيبها صداع • فاذا نفذا فى الغد عزمهما على استعمال هــذا الدواء ، فانهما لن يسمعا شيئاً ، لأنهما ســـيناما ، ولن يمنعـــا دمترى فيدوروفتش من دخول المنزل •

صاح ايفان فيدوروفتش يقول :

ـ عجيب ! كل شيء يحـــدث في آن واحـد • أنت تصاب بنوبة الصرع ، وهما ينامان نوما عميقا ! أمر لا يُصدَّق !

ثم أضاف يسأله مقطباً حاجبيه فيما يشبه التهديد :

ـ أتراك رتبت هذا التصادف بالمكر والحيلة ؟

ـ علام أفعل ؟ انني لا شأن لي في كل ما يحدث ! كل شيء رهن بارادة دمتري فيدوروفتش وحده ، وبما يعزم عليه ويقرره • فاذا كان ينوي أن يوقع مصيبة فسيفعل ؛ واذا لم يكن ينوي فلست أنا من سيجره من يده ليدفعه الى ذلك دفعاً ، فيما أتخيل ، أليس كذلك ؟

عاد ايفان فيدروفتش يقول وقد اصفر وجهه غضباً :

ـ لست أرى لماذا يمكن أن يجيء دمتري الى هنا ، وأن يتسلل تسللاً ، اذا كانت أجرافين الكسندروفنا لا تفكر في المجيء الى أبي ، كما قلت هذا بنفسك • لقد أكدتَ لي أنت هذا منذ لحظة ، وكنت أنا على يقين منذ حللت هذا المنزل أن العجوز تراوده أوهام ، لأن هذه المخلوقة لن تجيء اليه في يوم من الأيام • فهلاَّ قلت لي ما هي الغاية التي يمكن أن يتسلل دمتري الى هنا في سبيلها والحالة هذه ؟ تكلم ••• انني أريد أن أعرف حقيقة ما يجول في خاطرك •

ـ انك تعرف هذه الغاية حق المعرفة ، وليس لما يجول في خاطري شأن فيها البتة • سوف يقتحم أخوك منزل أبيه حباً بالشر وحده أو من فرط سوء الظن • سوف يتساءل عما يجـــري في المنزل ، وسيحب من فرط نفاد صبره أن يفتش جميع الغرف كما فعل أمس ليتأكد من أنهـا ليست مختبئة في احـــداها • وهو يعـلم حق العلم من جهة أخرى أن فيدور بافلوفتش قد أعدَّ ظرفاً كبيرا يحوي ثلاثة آلاف روبل ، قد ختمه بثلاثة أختام وربطه بشريط معقود ، وكتب عليه بخط يده : « الى ملاكي

جروشنكا ، اذا هى رضيت أن تجىء » ، وأضـــاف الى هذه العبارة بعد ثلاثة أيام : « الى حمامتى الغالية » •

صرخ ايفان يقول خارجاً عن طوره :

ـ هذا سخف • لن يسرق دمترى مالاً ، ولن يقتل أباه لهـــذا السبب ! لقـــد كان يمكن أن يقتـــله أمس ، كمجنون مهتاج ، بسبب جروشنكا ، ولكنه لن يجىء الى هنا ليسرق •

ـ انه الآن فى حاجة ملحة الى المال ، انه فى ضيق شديد ، صدقنى يا ايفان فيدوروفتش • لا تستطيع أن تتصور مدى رغبتـه فى الحصول على مال (هكذا شرح سمردياكوف بهدوء كبير) • أضف الى ذلك أنه يعد هذه الآلاف الثلاثة حقاً له • لقد أكد لى ذلك أمس • قال : « ان أبى ما يزال مديناً لى بثلاثة آلاف روبل تماما » • ويجب أن لا يغيب عن بالك يا ايفان فيدوروفتش ، لأن هذا هو الحقيقة بعينها ، أن أجـرافين ألكسندروفنا تستطيع أن تحمل فيدور بافلوفتش على زواجها متى رغبت فى ذلك أيسر رغبة • ومن الجائز جدا أن تراودها هذه الرغبة • يجب أن نقول هذا • لقد أسرفتُ أنا فى التعجل حين أكدت أنها لن تجىء الى هنا ، مع أنها قادرة جدا على ان تسدّد الى هدف بعيد وأن تداور فى سبيل أن تصبح سيدة حقة • لقد قال لها صاحبها التاجـر سامسونوف ، وأنا أعرف ذلك من مصدر مطلع موثوق ، قال لها بصراحة تامة ان هذا سيكون لها حلاً ذكياً ، وكان يضحك وهو يقول هـذا الكلام • ليست جروشنكا امرأة غبية ، ثق من ذلك ! لن تبـــلغ من الحماقة أن تتزوج رجلاً فقيراً مثل دمترى فيدوروفتش • فما قولك والحالة هذه يا ايفان فيدوروفتش ؟ ولعـــلك تقدر أن دمترى فـــدوروفتش ، اذا أصبحت أجرافين الكسندروفنا زوجة أبيه ، لن ينال روبلاً واحداً من ميراث أبيه بعد وفاته ، لا هـو ولا أنت ولا أخـــوك ألكسى • ذلك أن أجـرافين

SS

الكسندروفنا لن تقبل هذا الزوج الا فى سبيل أن تنقل الى اسمها جميع ثروة أبيك ، جميع أملاكه العقارية ورءوس أمواله السائلة . أما اذا حدث مكروه لأبيك فمات قبل أن يتم هذا الزواج ، فان كلاً منكم سينال على الفور أربعين ألف روبل ، بالتمام والكمال . ان دمترى سينال هذا المبلغ رغم أن أباه يكرهه ، وذلك لأن فيدور بافلوفتش لم يكتب حتى الآن وصيته ... وهذه التفاصيل كلها يعرفها دمترى فيدوروفتش ...

تقلص وجه ايفان فيدوروفتش ، وألمت به اختلاجة ، واحمر على حين فجأة ؛ وقال مقاطعاً سمردياكوف وهو يتنفس تنفساً ثقيلا :

ـ قل لى : لماذا كنت تريد أن ترانى مسافراً الى تشرماشنيا ؟ ما هى الغاية التى تسعى اليها ؟ لا يعلم الا الله ما سيحدث بعد سفرى فى هذا المنزل !

فأجاب سمردياكوف يقول بلهجة هادئة متروية ، وهو يحدق الى ايفان فيدوروفتش مترقباً آثار كلامه فيه :

ـ هذا صحيح تماما .

قال ايفان يسأله وهو يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه :

ـ صحيح تماما ؟ ما معنى هذا ؟

ـ لئن قلت هذا الكلام ، فلأننى أشفق عليك وأرثى لحالك . اسمح لى أن أقول لك : لو كنت فى مكانك لآثرت أن أسافر على أن أجد نفسى مقحماً فى قضية من هذا النوع ...

كذلك أجاب سمردياكوف بلهجة طلقة ليس فيها شىء من تحرج، دون أ نيحول بصره عن ايفان فيدوروفتش الذى كانت عيناه تقدحان شرراً .

وأعقب ذلك صمت .

ثم قال ايفان بعد لحظة وهو ينهض عن الدكة :

ـ لا بد أنك أبله ••• أضف الى ذلك أنك وغد !

وكان يهمُّ أن يجتاز الباب الحديدى ، ولكنه توقف فجأة والتفت نحو سمردياكوف • وحدث عندئذ شيء غريب : لقد عض ايفـان على شفتيه متشنجاً ، وقبض يديه ، فكأنه يهم أن يهجم على الخادم • فأدرك سمردياكوف ذلك ، فارتجف ، وتراجع خطوة الى وراء• وانقضت ثوانٍ دون أن يصاب سمردياكوف بأذى • واتجه ايفان فيدوروفتش نحو الباب حائر الهيئة دون أن ينطق بكلمة • ثم صاح بعد ذلك يقول بصوت قوى، مقطّعاً ألفاظه ، وقد فاضت نفسه حنقاً :

ـ سأسافر غدا الى موسكو ، اذا كنت تحرص على أن تعرف ذلك• هذا كل شيء !

وقد أدهشه فيما بعد أن يكون قد شعر فى ذلك الظرف بالحـاجة الى أن يخبر سمردياكوف بأنه مسافر •

أجاب سمردياكوف يقول وكأنه كان يتوقع أن يفضى اليه ايفـان بهذا السر :

ـ هذه فكرة عظيمة ! ولكنك تظل معرّضاً للاستدعاء من موسكو ببرقية اذا حدث هنا شيء •

فتوقف ايفان مرة ثانية والتفت نحو سمردياكوف التفـاتة قوية • فاذا بوضع سمردياكوف يتغير فجأة بمثـل لمح البصر سرعةً • تبددت الألفة التى كان يصطنعها وتبدد الاهمال الذى كان يظهـره ، تبددا بمـا يشبه السحر ••• وعبّر وجهه عندئذ عن انتباه شديد ، كما عبّر عن انتظار ذليل خاضع ، وكأن عينيه المحدّقتان الى ايفان فيدوروفتش بالحاح غريب تسألانه : « ألن تقول شيئاً آخر ؟ ألن تضيف كلمة واحدة ؟ » • فوعوع ايفان يقول رافعاً صوته بدون سبب ظاهر :

ـ اذا حدث شيء فيمكن أن أستدعى من تشرماشنيا أيضا •••

فتمتم سمردياكوف يقول بما يشبه الهمس ، وكأنه ضائع الفكر شارد اللب ، ولكنه لا ينقطع عن التحديق الى ايفان فيدوروفتش بالحاح :

ـ طبعاً ••• اذا حدث شيء ••• فستستدعى ••• من تشرماشنيا••

ـ الفرق الوحيد هو أن موسكو بعيدة ، أما تشرماشنيا فهى قريبة من هنا كل القرب • هل النفقات التى لا داعى اليها هى التى تقلقك ، أم أنت تحب أن توفر علىّ رحلة طويلة فتنصحنى بأن أسافر الى تشرماشنيا بدلاً من أن أسافر الى موسكو ؟

ـ هو كذلك تماما !

هكذا تمتم سمردياكوف يقول بصوت مرتعش وهو يبتسم ابتسامةً خبيثة •

وكان يستعد لأن يتقهقر الى وراء • فما كان أشد دهشته حين رأى ايفان فيدوروفتش ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ، ويتجه بسرعة نحو الباب وهو ما يزال يضحك • ولكن لو رآه ملاحظ يقظ منتبه فى تلك اللحظة لأدرك أنه لم يكن يضحك هذا الضحك عن مرح وفرح • ثم انه هو نفسه ما كان ليستطيع أن يقول ما الذى كان يشعر به حينذاك • وكانت مشيته متقطعة ، وكان فى حركاته شيء يشبه أن يكون حركات آلة •

٧

يلذ للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي

إنّ الحالة النفسية الغريبة التي كان فيها ايفان قد ظهرت في أقواله أيضاً • فانه ما ان دخل المنزل فلمح فيدور بافلوفتش في الصالون حتى صاح يقول له من بعيد وهو يلوّح بيده :

ـ أنا صاعد الى غرفتي رأساً • لن آتي اليك •

ومرّ بسرعة محاولاً أن لا ينظر الى أبيه •

لعل مشهد الشيخ كان في نظره عندئذ لا يطاق ، ولكن اظهاره هذه الكراهية بغير تحرج قد أدهش حتى فيدور بافلوفتش نفسه • وكان واضحاً أن هناك شيئاً مستعجلاً يريد الأب أن يفضي به الى ابنه ، لذلك هبّ الى لقائه • ولكنه بعد الكلمات اللطيفة التي سمعها من ايفان فيدوروفتش توقف حيث كان ، دون أن ينطق بكلمة ، وتابعه بنظرة ساخرة بينما كان يصعد السلم ويغيب في الطابق الأعلى •

وظهر سمردياكوف للعجوز في تلك اللحظة ، فسأله العجوز :

ـ ماذا به اليوم ؟

فقال سمردياكوف متهرباً :

ـ انه معتكر المزاج جدا !

ـ شيطان يأخذه اذن ! ألا فليعتكر مزاجه اذا كان ذلك يسره ! أما أنت فهيء السماور ثم انصرف • أسرع ! أما من جديد حتى الآن ؟

قال العجوز ذلك وبدأ الاستجواب الذى كان سمردياكوف قد اشتكى منه لايفان منذ قليل • انه يلقى عليه السؤال تلو السؤال عن المرأة التى ينتظر زيارتها • ولا داعى الى تكرار هذه الأسئلة هنا • وبعد نصف ساعة كان المنزل قد أُحكم اقفاله بالمفتاح ، وخلا العجوز الى جنونه ، فأخذ يسير فى غرفته طولاً وعرضاً ، منتظراً على نار كنار الحمى أن يسمع القرعات الخمس المتفق عليها اشارةً الى أن جروشنكا قد وصلت ، وهو ينظر من خلال النوافذ من حين الى حين ، فلا يرى فى الخارج الا الظلام •

انقضى شطر من الليل ، ولكن ايفان فيدوروفتش لم ينم بعد • كان يفكر ويتأمل• ولم يرقد على فراشه تلك الليلة الا فى نحو الساعة الثانية• لن نحلل مجرى الخواطر التى دارت فى رأسه ، لأن قراءة ما كان يعتمل فى نفسه عندئذ لم يحن حينها ، وسيأتى دورها فيما بعد • ثم ان وصف ما كان يجيش فى قرارة قلبه ليس بالأمر السهل ، لأن خواطره كانت غامضة ، وكانت مضطربة مسرفة فى الاضطراب خاصة • وكان يشعر هو نفسه بأنه قد فقد السيطرة على فكره • هذا عدا رغبات غريبة كانت تعذبه فى بعض اللحظات • من ذلك مثلاً أنه عند منتصف الليل قد شعر فجأة برغبة قوية فى أن ينزل وأن يخرج وأن يذهب الى الملحقات بغية أن يضرب سمردياكوف ضرباً مبرحاً • لماذا ؟ لو سألته هذا السؤال لما عرف بماذا يجيب على وجه الدقة ، ولكنه أصبح يكره هذا الخادم كرهاً شديدا ، كما لو كان قد ناله بأفدح الأذى وأشد الاهانة • ثم انه قد اتفق له فى أثناء تلك الليلة أن وافته نوبات خوف مذل لا تفسير له ، بلغ من ادخال الاضطراب فى نفسه أنه أحس بشلل مفاجىء فى قواه الجسمية•

وكان يشـــعر فى الوقت نفسه بصداع ودوار • واستولى عليـه بغض غامض ، كما استولت عليه حاجة الى الانتقام لم تتضح ولم تتحدد • انه يشعر بعداوة حتى لأليوشا ، حين يتذكر الحديث الذى جرى بينه وبينه فى النهار • وكان يبدو له فى لحظات أخرى أنه يكره ذاته نفسها • أما كاترين ايفانوفنا فكأنه نسيها ، فلم تخطر على باله فى تلك الليلة الا مرة أو مرتين • وقد أدهشته قلة الاكتراث هذه فيما بعد ، لا سيما وأنه كان فى الصباح ، حين أعلن للمرأة الشابة صاخباً أنه مسافر غداً الى موسكو، قد سمع صوتاً يدمدم فى قرارة نفسه (انه يتذكر هذا تذكراً واضحاً) قائلا له : « كذبت ! لن تسافر ! لن تستطيع فراقها بمثل هذه السـهولة التى تتباهى بها الآن ! » • ومن بين ذكريات تلك الليلة ذكرى صـغيرة ستظل تنبجس فى خياله كثيرا أثناء السنوات اللاحقة ، فتملؤه اشـمئزازاً وتقززاً • لقد ظل يتذكر بوضوح كيف أنه نهض عن أريكته مراراً ففتح الباب بدون ضوضاء ، كأنه يخشى أن يُسمع ، وخرج الى فسـحة السلم ، وأصاخ بسمعه يتجسس على حركات فيدور بافلوفتش الذى كان يمشى فى غرف الطابق الأرضى • كان يتنصت على حركاته بفضول غريب منحبسَ الأنفاس خافق القلب ، لا يدرى هـــو نفسه لمـاذا يتصرف هذا التصرف ، ولأى سبب يصيخ بسمعه اليه دقائق طويلة • لقد ظل طوال حياته بعد ذلك يصف سلوكه ذاك فى تلك الليلة بأنه « سلوك حقير » ، معتقداً فى دخيلة نفسه أن ذلك الفضول الغـــريب الذى كان يحـركه حينذاك هو أكبر دناءة انحدر اليها فى حياته كلها • كان لا يشعر فى تلك اللحظات بأية عداوة خاصة نحو فيدور بافلوفتش نفسه ، وانما كان يريد أن يعرف ما يعمله فحسب ، محاولا أن يتصور ، بفضول قوى ، كيف يمشى أبوه فى غرفته محموما من نفاد الصبر ، وكيف يقترب من النوافذ المظلمة لينظر الى الخارج ، وكيف يتوقف بعد ذلك فى وسـط

الحجرة منتظراً على أحر من الجمر أن يسمع الاشارة المتفق عليها • لقد خرج ايفان الى فسحة السلّم على هذا النحو مرتين • فلما عاد الهدوء يخيّم على كل شيء ، فأوى فيدور بافلوفتش الى فراشه ، فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، قرر أن يرقد هو أيضا ، عازماً عزماً قوياً على أن ينام بأقصى سرعة ، لأنه كان يحس بأنه مهدود القوى • وسرعان ما غرق فعلاً فى نوم عميق لم تتخلله أحلام • واستيقظ فى الصباح مبكراً ، فى نحو الساعة السابعة ، وكان النهار قد طلع • فما ان فتح عينيه حتى أحس فى نفسه بسيل خارق من القوة ، فأدهشه ذلك كثيرا • وما هى الا لحظة حتى نهض عن سريره بوثبة واحدة ، ولبس ثيابه ، وأخرج حقيبته ، وأخذ يجمع أمتعته لا يضيع لحظة واحدة • وكانت الغسّالة قد جاءته بغسيله أمس • ابتسم ايفان فيدوروفتش راضيا حين لاحظ أن كل شيء يسير على خير حال ، وأن سفره المفاجىء لا يصطدم بأية عقبة غير متوقعة • ولقد كان هذا السفر مفاجئاً حقاً ؛ فرغم أنه قد أعلنه أمس (لكاترين ايفانوفنا ، ولأليوشا ، ثم لسمردياكوف) ، فانه لم يفكر فيه البتة حين رقد على سريره (انه يتذكر ذلك الآن) ، ولم يكن يتنبأ بأن أول حركة سيقوم بها حين ينهض فى الصباح هى أن يجمع أمتعته تهيؤاً للرحيل • وسرعان ما امتلأت حقيبته وامتلأ كيس السفر • فلما أزفت الساعة التاسعة جاءته مرفا اجناتفنا تلقى عليه سؤالها المألوف : « أين تريد أن تتناول الشاى ، أهنا أم تحت ؟ » • فنزل ايفان فيدوروفتش الى الطابق الأرضى • كان يلوح عليه أنه يكاد يكون فرحاً رغم أن شيئاً من التعجل العصبى كان باديا فى حركاته وفى أقواله • وبعد أن سلّم على أبيه متودداً حتى لقد سأله عن صحته خاصةً ، أعلن ، قبل أن يجيبه أبوه عن سؤاله ، انه مسافر الى موسكو بعد ساعة ، ورجا أن يؤمر باعداد الخيل • لم يظهر العجوز أية دهشة لاعلان ابنه سفره ونسى حتى أن يعبّر عما اصطلح

الناس على التعبير عنه فى مثل هده الأحوال من أسف ، فكان دلك لايخلو من قلة اللباقة • وفى مقابل ذلك لم يفته أن يفلق فجأه على أمر من أموره الخاصه ، ورأى أن ينتهز الفرصه ليكلمه فيه • قال :

ـ أوه ! كان يبغى أن تبلغنى أمس • لا بأس على كل حال ••• سيتسع الوقت لحل هذه المسأله • أرجو أن تقدم لى هذه الخدمة يا بنى الشهم : توقف فى تشرماشنيا عابراً • لن يكون عليك ، حين تصل الى محطة فولفيا ، الا أن تعرج شمالا مسافه اثنى عشر فرسخاً فى أكثر تقدير ، فاذا أنت فى تشرماشنيا •

ـ مستحيل • صدقنى • ان المسافه من هنا الى محطة القطار أربعة وعشرون فرسخاً ، وقطار موسكو يسافر فى الساعة السابعة مساء ، فلا يكاد يتسع وقتى لادراكه •

ـ تسافر فى قطار الغد أو غداة الغد•أما اليوم فاذهب الىتشرماشنيا. أيصعب عليك الى هذا الحد أن تقدم هذه الخدمة الصغيرة لأبيك ؟ لولا اننى مضطر الى البقاء هنا لأسباب قاهرة لذهبت الى تشرماشنيا بنفسى منذ زمن طويل • الأمر مستعجل وهام جدا ، ولكننى لا أستطيع الابتعاد عن المنزل الآن ••• ان لى فى تشرماشنيا غابة من حصتين فى أراضى بيجتشوفو ودياتشيكنيو • والتاجران ماسلوف وابنه لا يعرضان علىّ الا ثمانية آلاف روبل ثمناً لأشجارها المعدة للقطع ، على حين أن مشترياً آخر كان مستعدا فى العام الماضى لأن يدفع لى اثنى عشر ألف روبل بكل سرور • لم يكن ذلك المشترى من هذه المنطقة ، وهذا هو تفسير الأمر، فما من سبيل الى العثور على مشترٍ من أهل المنطقة ، لأن آل ماسلوف الذين يملكون مئات ألوف الروبلات يسيطرون على المقاطعة ويفرضون عليها ارادتهم فرض القانون• انهم «كولاك» ★ ومامن أحد يجرؤ أن يقف فى وجههم وأن يصمد لهم • ولكن القس يلنسكى كتب لى يوم الخميس

الماضى يقول ان رجلاً اسمه جورستكين قد جاء يعرض شراء الاشجار• والرجل تاجر هو أيضا ، وأنا أعرفه • انه من مدينة بوجريبونو ، وهو لا يخشى آل ماسلوف، لأنه ليس من سكان المنطقة• انه يعرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار المعدة للقطع ، فهمت ؟ وقد ذكر لى القس أنه الآن فى تشرماشنيا الى حين ، وأنه سيبارحها بعد أسبوع • عليك أن تذهب اليه لتناقش الأمر معه •

ــ ما عليك الا أن تكتب للقس ، فيتم لك الصفقة !

ــ انه لا يفهم فى هذه الأمور شيئا ، ذلك هو المزعج • ان هذا القس رجل أعمى فى الشئون العملية• ان له قلباً من ذهب ، وانني لمستعد أن أودعه عشرين ألف روبل بدون وصل • ولكنه قصير النظر حتى لقد يخدعه صوص • ما هو من هذه الناحية برجل • وهو مع ذلك عالم كبير، هل تتصور هذا ؟ ان هيئة جورستكين هذا هى هيئة فلاح ، وهو يرتدى قميصاً أزرق ، لكنه وغد كبير من سوء حظنا جميعا ! انه يكذب كما يتنفس • حتى لقد يراكم الكذب بعضه فوق بعض لا لشيء الا لذة الكذب ! لقد روى منذ ثلاث سنين ، مثلاً ، أن امرأته ماتت ، وأنه تزوج أخرى • فهل تتصور أنه كان يكذب ؟ نعم لقد كان يكذب • حتى أن امرأته لم يخطر ببالها أن تموت • وهى ما تزال حية وما تزال تضربه كل يوم • فيجب أن تعرف أولاً أكان صادقاً أم كان كاذباً حين عرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار •

ــ انك لتعلم جيدا أننى أنا أيضا لا أفهم فى هذه الأمور شيئا • ففيم يمكنني أن أنفعك ؟

ــ لحظة • انتظر • يمكنك أن تنفعنى ، لأننى سأطلعك على العلائم التى تستطيع الاعتماد عليها لتعرف حقيقة ما يدور فى نفس جورستكين• اننى أعرفه منذ عهد بعيد • عليك أن تنظر الى لحيته فتنفذ الى خفايا

سريرته . ان له لحية صغيرة حمراء مبعثرة ، فاذا أخذت هـــذه اللحية ترتعش بينما هو غاضب أثناء الكلام ، فاعلم أنه يقول صدقاً ويريد أن يتم الصفقة ؛ أما اذا رأيته يلاعب لحيته بيده اليسرى وهو يبتسم ، فاعلم أنه يراوغ ويمكر ويحاول أن يغش . لا تحاول أن تقرأ فى عينيه . فليس فى وسعك أن تعرف بهذه الوسيلة شيئا . انه وغد لئيم ، وما عيناه الا ماء عكر . وانما يجب عليك أن تنظر الى لحيته . ســـوف أعطيـــك رسالة ، فما يكون عليك الا أن تنـــاوله الرسالة . وليس اسمه الحقيقى جورستكين وانما اســـمه فى الواقع لياجافى * . ولكن اياك أن تخـــاطبه باسم لياجافى ، والا استاء استياء رهيبا . ومتى تم الاتفاق ورأيت الأمور تجرى مجرى حسناً ، فأبلغنى ذلك فورا : يكفى أن تكتب الىّ فى هذه الحالة هذه العبارة : « ليس يكذب » . حاول أن تصر على الثمن الذى ذكرته لك ، وهو أحد عشر ألف روبل . ولا مانع أن تتنازل عن ألف روبل اذا اقتضى الأمر ، ولكن لا تتنازل عن أكثر من ذلك . هذا مال يهبط علىّ من السماء لأن المشترين نادرون فى هذه الأيام . وأنا فى حاجة ماسة الى هذا المبلغ . انك لا تســـتطيع أن تتصور مدى حاجتى الشديدة اليه . فمتى أبلغتنى أن الامر جد" ، وثبت الى هناك لأتم الصفقة بنفسى . سوف أستطيع أن أجد لهذا متسعا من الوقت . أما أن أذهب الى هناك منذ الآن ، فليس ينفعنى هذا فى شىء ، لأن من الجائز أن يكون القس قد استرسل مع خياله . هيه ؟ اتفقنا ؟ أتذهب أم لا ؟

ـ لا يتسع وقتى ، فلا تحرجنى !

ـ أرجوك ، اصنع هذا الجميل لأبيك ! سأذكره لك ما حييت . أأنتم جميعا اذن بغير قلب ؟ ما قيمة يوم أو يومين زيادة ؟ الى أين تنوى أن تسافر ؟ الى البندقية ؟ ان البندقية لن تهوى الى قاع البحر خلال هذين اليومين ! كان يمكن أن أرسل أليوشا ، ولكن أليوشا لا يفهم فى هـــذه

الأمور شيئا • ولئن تجهت اليك فلأنك ذكى ، أنا أعرف ذلك • ما أنت بتاجر ، ولكنك ترى رؤية واضحة • المطلوب هو أن نعرف أهذا الرجل جاد فيما يقول أم غير جاد • أعود فأكرر أنه يكفى النظر الى لحيته ، فاذا ارتعشت كان يقول صدقا •

صاح ايفان يقول وهو يضحك ضحكة خبيثة :

ـ سوف يكون الذنب ذنبك أخيراً اذا أنا ذهبت الى تشرماشنيا هذه اللعينة •

تظاهر فيدور بافلوفتش بأنه لم يلاحظ النبرة المعادية فى كلام ابنه، ولكنه تشبث بهذه الصيحة على الفور فقال :

ـ اذن وافقت ، وافقت على أن تذهب الى تشرماشـــنيا • سأكتب الرسالة الصغيرة حالاً •

ـ لا أدرى بعد أأذهب أم لا أذهب • سأقرر ذلك أثناء الطريق •

ـ لماذا أثناء الطريق ؟ قرر حالا ! بادرةً طيبةً يا عزيزى ! فاذا سُوِّى الأمر وتمت الصفقة ، كتبت الىَّ سطرين تودعهما القس ، فيبادر الى ارسالهما الىَّ بغير ابطاء • ولك بعد ذلك أن تسافر الى البندقية ، فلن أمنعك • وسيعيدك القس الى محطة فولوفيا بعربته •••

تهلل العجوز فرحاً • وأسرع يكتب الى التاجر رسالة قصيرة • ثم أمر باعداد العربة • وجىء للرجلين بوجبة خفيفة باردة ، وجىء لهمــا بكونياك • ان عادة فيدور بافلوفتش أن يصبح فى لحظات السعادة منطلقاً كثير الكلام والحركة، ولكن كان يبدو فى هذه المرة أنه يحاول السيطرة على نفسه • وقد تحاشى أيضا أن يجىء على ذكر دمترى فيدوروفتش • ولم يكن يلوح عليه من جهــة أخـــرى أنه متأثر لفـــراق ابنه ، وكان

صامتا كأنه أصبح لا يجد ما يقوله • فوجيء ايفان بذلك ، وقال يحدث نفسه : « لا شك أن وجودى يضايقه منذ زمن » • ومع ذلك فان العجوز حين شيّع ابنه الى درجات الباب بدا متأثرا بعض التأثر وتظاهر بأنه يريد أن يقبّله • ولكن ايفان أسرع يمد اليه يده ، راغبا فى تحاشى القبلات رغبة واضحة لا تخفى على الناظر • أدرك أبوه ذلك ، فلجم اندفاعته وأمسك عن تقبيله ؟ وأخذ يقول مردداً من على درجات الباب :

ـ كان الله في رعايتك ، كان الله فى رعايتك • سوف تأتى لرؤيتى فى يوم من الأيام ، أليس كذلك ؟ أهلاً وسهلاً بك فى منزلى دائماً • اذهب ، وليكن المسيح معك !

ركب ايفان فيدوروفتش العربة • وصاح أبوه يقول له مرة أخيرة :

ـ فى أمان الله يا ايفان • لا تؤاخذ أباك !

وكان الخدم قد خرجوا للوداع • كان هناك سمردياكوف ومارفا وجريجورى • أعطى ايفان كلاً منهم عشرة روبلات • وحين استقر ايفان فى العربة أسرع سمردياكوف يرتب الأغطية • فقال له ايفان فيدوروفتش وهو يضحك ضحكة عصبية صغيرة :

ـ أرأيت ؟ هأناذا ذاهب الى تشرماشنيا أخيراً !

وكما حدث بالأمس ، تساءل ايفان لماذا شعر بالحاجة الى أن يبلغ سمردياكوف ذلك ، ولقد ظل يتذكر هذا الامر كثيراً فى المستقبل •

ـ صحيح اذن أنه يلذ للمرء أحيانا أن يتحدث مع رجل ذكى ، كما يقول الناس •

هكذا أجاب سمردياكوف بصوت قاطع جازم وهو يغرس فى ايفان فيدوروفتش نظرة نافذة •

تحركت العربة ، وانطلقت تعدو • كان المسافر في البداية في حالة نفسية مضطربة ، وكان ينظـــر الى ما حوله بشراهة ، متـأملاً الحقول والروابى والأشجار • ومرّ سرب من الأوز البرى فوقه ، محلقاً فى السماء الصافية • فاذا بايفان يشعر بسعادة خفيفة على حين فجأة • فخاطب الحوذى ، واهتم اهتماماً قوياً بجواب أجابه الحوذى ، ومع ذلك رأى بعد بضعة لحظات أن الضجة قد حالت بينه وبين سماع كلامه ، وانه لم يدرك ما أراد هذا الموجيك أن يقول له • ولكنه صمت راضياً • الهواء نقى طرى ، نشيط بعض النشاط ، والسماء صافية لا غيوم فيها • وفى لحظة ما خطر بباله أليوشا وكاترين • ولكنه ابتسم ابتسامة رفيقة ، وتنهد على الطيفين العـزيزين اللذين غـابا ، وحدث نفســه قائلاً : « ســـوف أراهما » • ولم يلبث أن وصل الى محطة العربات• فأبدلت خيله ، واستأنف طريقه الى فولوفيا • سأل ايفان نفسه فجأة : « لماذا قال لى انه يلذ للمرء أحيانا ان يتحدث مع رجل ذكى ؟ ماذا كان يعنى بذلك ؟ » • واستغرق هذا السؤال فكره استغراقاً كاملاً • « ثم ما كانت حاجتى الى ابلاغه اننى ذاهب الى تشرماشنيا ؟ » • ووصـــلت العربة أخيراً الى فولوفيا ، فنزل ايفان • أحاط به أصحاب العربات ، فناقشهم وســاومهم ، وانتهى الى تحديد أجر ايصاله بخيول ممتازة الى تشرماشنيا التى تبعد مسافة اثنى عشر فرسخاً فى طريق زراعى • أمر بأن تُقرن الخيل ، ثم دخل الى المحطة ، فألقى نظرة على القاعة ، ثم اذا به يخرج فيقف على درجات الباب ويقول :

ــ لن أذهب الى تشرماشنيا • قولوا لى يا شباب : هل يمكننى أن أدرك قطار الساعة السابعة ؟

ـ ستدركه • هل نقرن الخيل ؟

ـ اقرنوها فوراً • هل منكم أحد يذهب الى المدينه غداً ؟

ـ طبعاً • مترى ذاهب اليها •

ـ هل لى منك بجميل تصنعه لى يا مترى ؟ اذهب الى أبى فيدور بافلوفتش كارامازوف ، وقل له اننى لم أذهب الى تشرماشنيا• هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟

ـ لم لا ؟ اننى أعرف فيدور بافلوفتش منذ زمن طويل •

ـ خذ هذه المكافأة ، لأن من الجائز أن لا يعطيك شيئاً •

قال ايفان ذلك وهو يضحك فرحاً • فأجابه مترى وهو يضحك أيضاً :

ـ طبعا • أنا أعرف أنه لن يعطينى شيئاً • شكراً يا سيدى • سأذهب اليه حتماً •

فى الساعة السابعة من المساء ، استقر ايفان فى حافلة القطار الذى أقله سريعاً الى موسكو • « ألا فليبتعد عنى الماضى ! لقد قطعت صلتى الى الأبد والعالم الذى عشت فيه ، ولا أريد بعد اليوم أن أتذكره ! ألا فليختف هذا الماضى من نفسى ! ألا فلينقطع عن الوصول الى مسمعى أى نداء من الحياة التى أبارحها ! اننى أسافر لا ألوى على شىء ولا النفت الى وراء ! هيّا الى مستقبل جديد ، الى أمكنة مجهولة ! » بهذا كان ايفان يحدث نفسه • ولكنه بدلاً من أن يشعر بالفرح ، أحس بمضض شديد يقبض صدره ، وامتلأ قلبه بحزن أليم لم يشعر بمثله من قبل• ظل طوال الليل يفكر ويتأمل ، وسط قرقعة القطار الذى كان يجرى بسرعة كبيرة• وعند الفجر ، بينما كان القطار يقترب من موسكو ، خرج ايفان من

خدره فجأة ، ودمدم يقول :

ــ أنا انسان تعيس !

أما فيدور بافلوفتش فقد شعر بسعادة كبيرة بعد أن ودّع ابنه ، وظل خلال ساعتين فى حالة قريبة من الهناءة والغبطة ، يفرغ فى جوفه قدحاً من الكونياك بين الفينة والفينة • غير أن حادثاً أليماً قد حدث فى المنزل بعد ذلك ، فاذا هو يبدل الحالة النفسية التى كان عليها العجوز تبديلاً كاملاً ، واذا هو يغرقه فى اضطراب شديد • ان سمردياكوف الذى ذهب الى القبو قد سقط من على أول درجة ، وتدحرج الى أسفل الدرج • ومن حسن الحظ أن مارفا اجناتفنا كانت فى فناء المنزل عندئذ ، فعرفت هذه النازلة التى وقعت • انها لم تدرك ضجة السقوط ، ولكنها سمعت تلك الصرخة الغريبة الخاصة التى تعرفها منذ عهد بعيد ، أعنى الصرخة التى تنطلق من صدر المريض بالصرع عند أول النوبة • لقد كان يستحيل أن يعرف أحد هل وافت النوبة سمردياكوف حين وضع قدمه على السلم فكان لا بد أن يتدحرج الى آخر الدرجات لأنه أغمى عليه ، أم أن السقوط والارتجاج الذى نشأ عن السقوط هما اللذان سببا له نوبة الصرع • المهم على كل حال ان سمردياكوف وُجد فى قاع الكهف تهزه تشنجات قوية ويخرج من فمه زبد • وقد ظُن فى أول الأمر أنه قد جُرح حين سقط ، وأن ساقه أو ذراعه قد كسرت ، ولكن تبيّن أن « الله قد سلّمه » على حد تعبير مارفا اجناتفنا ، فلم يُصب بأى أذى • ومع ذلك كان نقله من القبو الى الهواء الطلق شاقاً • وقد أمكن نقله أخيراً بفضل الجيران الذى هرعوا يساعدون • وحضر فيدور بافلوفتش مهمة النقل بل وساعد فى حمل المريض ، وهو يشعر بقلق شديد واضطراب عظيم •

ظل سمردياكوف غائباً عن وعيه • وكانت التشنجات تنقطع أحياناً

SS

ولكنها ما تلبث أن تعود بعد قليل • وأجمع الرأى على أن الأمور ستجرى فى هذه المرة كما جرت فى السنة الماضية حين سقط سمردياكوف من طابق الشونة • وتذكروا أن الدكتور هرتسنشتوبه قد وصف له حينذاك ثلجاً يوضع على جبينه ، وكان ما يزال فى القبو بعض الثلج ، فتولت مارفا اجناتفنا أمر العناية بالمريض، حتى اذا كان المساء استدعى فيدور بافلوفتش الدكتور هرتسنشتوبه ، فلم يلبث الدكتور أن جاء ، فبعد أن فحص المريض فحصاً دقيقاً (وهو أكثر أطباء المنطقة دقة وأشدهم عناية ، كما أنه من أحق الناس بالاحترام ، وقد طعن فى السن كثيرا) ، أعلن أن النوبة خطيرة يمكن أن « تعرض الحياة للخطر » ، وأضاف الى ذلك أنه لم يفهم الحالة كثيرا بعد ، ولكنه سيرجع من الغد ، فيصف دواءً جديدا اذا اتضح أن الاجراءات السابقة لم تجد المريض نفعاً • وأُرقد سمردياكوف فى ملحقات المنزل، فى غرفة تتاخم غرفة جريجورى ومارفا اجناتفنا • وفى أثناء ذلك النهار عرف فيدور بافلوفتش سلسلة متصلة غير منقطعة من المكدرات والمنغصات ، أولها وجبة الطعام التى أعدتها مارفا اجناتفنا والتى كان حساؤها ، اذا قيس بحساء سمردياكوف ، لا يفضل كثيرا « ماء الغسيل » ، أما لحم طيورها فكان من القسوة بحيث لا يمكن مضغه ؛ وحين لام رب المنزل مارفا اجناتفنا على ذلك لوماً مراً وان يكن مسوّغاً ، أجابت المرأة بأن الدجاجة عجوز ، كما أنها هى مارفا لم توظف فى منزل رب البيت طباخة ! وفى المساء حلّ بفيدور بافلوفتش مكدّر جديد : أُبلغ أن جريجورى ، وهو مريض منذ يومين ، قد لزم سريره وأن مرض اللمباجو الذى يعانى منه قد جمّده تماما • وأسرع فيدور بافلوفتش يحتسى شايه ، وسجن نفسه فى المنزل وحيدا • انه فى حالة ترقب مهموم مغموم ، وانه لمضطرب اضطرابا شديدا • فهو يعتقد أن جروشنكا ستأتى فى هذا المساء نفسه ، وهو يكاد يكون من ذلك على

يقين ، لأن سمرد ياكوف قد أكد له فى ساعة مبكرة من الصباح « أنهــا وعدت بالمجيء هذه المرة » كان قلب العجوز الفاسق يخفق خفقانا يكاد يحطم صدره ، وهو يمشى بلا توقف خلال غرفه المقفرة ، مصيخاً بسمعه الى كل ركن من الأركان ؛ ذلك أن عليه أن يكون يقظاً كل اليقظة ، لأن من الجائز أن يرقب دمترى فيــدوروفتش مرور المرأة الشــابة ، فمتى قرعت النافذة (وكان سمرد ياكوف قد أكَّد لفيدور بافلوفتش ، منــــذ يومين ، أنه قد ذكر لها أين ومتى يجب عليها أن تقرع) كان عليه أن يهرع الى الباب لا يضيّع لحظة واحدة ، ولا يجعلها تنتظر فى غير داع الى انتظار ، لأنها قد تخاف فى الظلام فتهرب لا سمح الله ! كان فيــدور بافلوفتش قلقا اذن ، ولكن نفسه لم يهدهدها فى يوم من الأيام أمل أعذب من هذا الأمل : ألم يكن فى وسعه أن يؤكد بما يشبه اليقين أنها ستأتى أخيراً فى ذلك اليوم ؟!

الباب السادس: الراهب الروسي

١

الشيخ زوسيما وضيوفه

دخل أليوشا غرفة الشيخ قلقاً قد هدّ قلبه الألم ، ولكنه توقف على العتبه وقد استبدت به دهشة قوية : فانه بدلاً من أن يرى المريض المحتضر الذى لعله غاب عن وعيه ، رأى الشيخ جالساً فى مقعد • صحيح أن وجه الشيخ مرهق من التعب ، ولكن هذا الوجه ما يزال يعبر عن الشجاعة والمرح • وقد تحلق حول الشيخ زوار كان الشيخ يحادثهم وديعاً هادئاً رابط الجأش فرحاً • والحق أنه لم ينهض الا قبل وصول أليوشا بربع ساعة • أما الزوار فكانوا قد اجتمعوا فى الحجرة منذ زمن طويل ، منتظرين صحوة الشيخ ، لأن الأب بائيسى كان قد أكد لهم أن «المعلم سينهض حتماً من أجل أن يتحدث آخر مرة الى أحبة قلبه، كما أعلن ذلك هو نفسه ووعد به فى هذا الصباح • » • ان الأب بائيسى يؤمن بهذا الوعد ، ويؤمن بكل ما قد يقوله الشيخ المحتضر ، وقد بلغ من قوة ايمانه أنه لو رأى الشيخ هامداً لا يتحرك ولا يتنفس ، لما صدّق أن الشيخ مات ، ما دام الشيخ قد وعده بأنه سينهض مرة أخرى ليودعه ، أو لتوقع أن يرتد الشيخ الى الحياة براً بوعده • وقد صرّح له الشيخ زوسيما بوضوح كبير فى الصباح ، قبل أن ينام « انه لن يموت الا بعد أن

يسعد مرة أخرى بالتحدث الى أعزته ، وبعد أن يرى من جديد تلك الوجوه التى أحبها، وبعد أن يفتح قلبه لهؤلاء جميعا آخر مرة» • والذين اجتمعوا لسماع ذلك الحديث الذى يغلب على الظن أنه آخر حديث ، انما كانوا أقدم أصدقاء الشيخ وأشدهم اخلاصاً له • انهم أربعة : الراهبان الكاهنان جوزيف وبائيسى ، والأب ميشيل ، رئيس رهبان المنسك ، وهو راهب كاهن أيضاً ، ما يزال شاباً بعض الشباب ، متواضع الأصل ، ليس على جانب كبير من العلم ، ولكنه صلب النفس ، قوى الايمان بسيط ساذج ؛ ولئن كان قاسى المظهر ، فان فى قلبه حساسية عميقة يحاول أن يكبتها حياءً وخجلاً • أما الزائر الرابع فهو الأخ آنتيم ، وهو راهب قصير ، طاعن فى السن شديد التواضع ، قد خرج من بيئة فلاحين فقراء ، لا يكاد يعرف القراءة والكتابة ، رقيق دائماً ، صموت يندر أن يكلم أحداً • وهو خاضع مذعن أكثر من أى انسان آخر ، وكأن عظمة الوجود الرهيبة التى لا يستطيع فكره أن يرقى اليها قد روّعته الى الأبد • لقد كان الأب زوسيما يحب هذا الراهب المرتعد الخائف حباً كثيراً ، وقد أظهر له خلال حياته كلها احتراماً عظيماً ، رغم أنه ليس فى هذا العالم الا قلة من الناس كان يمكن أن يخاطبها أقل مما يخاطب هذا الراهب المتواضع • ولقد عاش فى صحبته مع ذلك سنين كثيرة ، لأنه طاف معه جميع أرجاء روسيا المقدسة • حدث ذلك منذ زمان بعيد ، منذ ما يقرب من أربعين عاماً ، أيام كان زوسيما يبدأ حياة الرهبنة بين جدران دير مظلم فقير فى مقاطعة كوستروما • فبعد أن دخل زوسيما ذلك الدير بزمن كثير ، كُلّف بأن يرافق الأخ آنتيم فى جولاته لجمع الصدقات لهذا الدير الفقير •

كان هؤلاء الزوار جالسين فى حجرة الشيخ الثانية ، أعنى الحجرة التى كان يتخذها مهجعاً له ، والتى كانت كما ذكرنا ضيقة جداً ، تبلغ

من الضـــيق أن الرهبان الأربعة (والراهب المبتدىء بورفير الذى ظل واقفاً) ولم يكادوا يجدون فيها متسعاً لهم. لقد جاءوا بكراسيهم من الغرفة الأخرى وصفوها حول مقعد الشيخ • كان الغسق يهبط ، وكانت تضيء الغرفه مصابيح الزيت والشموع الموقدة أمام الأيقونات • فلما لمح الشيخ أليوشا الذى لبث واقفا على عتبة الباب من شدة اضطرابه ، ابتسم له ابتسامة فرحة ومدّ اليه يده قائلاً له :

ـ طاب يومك يا بنى الطيب ، ياعزيزى أليوشا الوديع • أجئت اذن ؟ لقد كنت أعلم أنك ستجيء!

فاقترب أليوشا منه ، وانحنى له حتى الأرض ، وأجهش باكياً • كان شيء ما يتمزق فى قلبه ، وكانت نفسه منقبضة انقباضاً شديداً ، فهو يتمنى أن ينفجر ناشجاً •

قال الشيخ مبتسما وهو يضع يده اليمنى على رأس أليوشا :

ـ ما بك ؟ لمّا يحن حين البكاء علىّ بعد • هأنت ذا ترانى أتحدث فى هدوء • ومن يدرى ؟ فقد أعيش عشرين عاما أخرى كما تمنت لى ذلك بالأمس تلك المرأة الطيبة العزيزة التى جاءت من فيشيجوريا وكانت تحمل بين ذراعيها صغيرتها اليزابث • اسأل الله أن يحرس الأم والبنية ! (رسم الشيخ اشارة الصليب وهو ينطق بهذه الكلمات) • هل حملت قرشها يا بورفير الى حيث قلت لك أن تحمله ؟

كان الشيخ يشير الى مبلغ الستين كوبك التى تصدقت بها أمس تلك المرأة الفرحة المعجبة بالشيخ من أجل أن يهبها « لمن هو أفقر منها » • ان الصدقات التى من هذا النوع انما يتصدق بها أصحابها فى العادة على أثر نذر ينذرونه أحرارا فلا بد لهم من اقتطاعه من حصيلة عملهم• وقد أمر الشيخ فى ذلك المساء نفسه بأن يحمل بورفير هذا المبلغ الزهيد الى

امرأة فقيرة من ساكنات المدينة ، هى أرملة لها ولدان قد احترق منزلها فى الآونة الأخيرة فأصبحت منـــذ ذلك الحين تستعطى لتعيش • أسرع بروفير يقول انه نفذ الأمر فأعطى المرأة الفقيرة ذلك المبلغ قائلاً انه من « محسنة لم تشأ أن تذكر اسمها » •

تابع الشيخ كلامه يقول لأليوشا :

ـ انهض يا صديقى العزيز لأراك قليلاً • هل ذهبت الى ذويك ، وهل رأيت أخاك ؟

دُهش أليوشا من سؤال الشيخ عن أحد أخويه بمثل هذا الالحاح• ولكن أى الأخوين يقصد ؟ هل يُستنتج من ذلك أن الشيخ انما أرسله الى المدينة أمس واليوم بسبب هذا الأخ ؟

أجاب أليوشا قائلاً :

ـ رأيت أحد أخوى ؟

ـ أقصـد أخاك الأكبر ، أخـاك ذاك الرهيب الذى سجـدتُ له أمس •

ـ ذاك لم أره الا أمس ، ولم أستطع أن ألقاه اليوم •

ـ حاول ن تهتدى اليه بسرعة • عد الى المدينة من الغد لرؤيته • دع كل شيء ، ولكن رتب أمورك لادراكه • ربما كان لا يزال فى الوقت متسع لتجنب مصيبة • لقد انحنيت أمس للآلام الكبرى التى تنتظره •

وصمت الشيخ فجأة ، وشرد فكره كأنه يحلم • لقد كانت أقواله غريبة • وهذا هو الأب جوزيف الذى شهد بالأمس تحية الشيخ لدمترى يبادل الأب بائيسى نظرة • ولم يستطع أليوشا أن يتمالك نفسه ، فصـاح يقول وقد استولى عليه انفعال شديد :

ــ أبي ومعلمي ! ان ما قلته الآن يبدو غامضاً مسرفاً في الغموض ••• ما هي المحن التي تنتظره ؟

ــ لا تحاول أن تعرف ذلك • لقد تراءى لي بالأمس أنني أدرك شيئاً رهيباً ••• لقد قرأت مصيره في نظرته • رأيت في لحظة معينة تعبيراً خاصاً في عينيه ••• تعبيراً أرعشني بسبب المصير الذي يهيء هذا الانسان له نفسه • سبق لي مرةً أو مرتين في الماضي أن لاحظت ذلك التعبير في نظرة الناس انعكاساً لمصيرهم المقبل ، فتحقق ذاك المصير وا أسفاه ! ولقد أرسلتك اليه يا أليوشا آملاً أن تستطيع كلمةً أخوية أن تساعده بعض المساعدة• ولكن مصيرنا جميعا هو بين يدي الرب• « ان لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت تأتي بثمر كثير » * احفظ هذه الحقيقة • أما أنت يا أليوشا فكثيراً ما باركتك في فكري بسبب تعبير وجهك (كذلك أضاف الشيخ يقول وهو يبتسم ابتسامة عذبة وديعة) • اليك رأيي فيك : سوف تترك الدير ، وسوف تعيش في العالم كراهب • سيكون لك أعداء كثيرون ، ولكنهم سيحبونك هم أيضا • ان الحياة تخبيء لك آلاماً كثيرة ، ولكنك بهذه الآلام انما ستسعد وستبارك الوجود • وستحمل الآخرين أيضا على أن يباركوه ، وذلك هو الشيء الأساسي • ذلك هو رأيي فيك وحكمي عليك •

ثم التفت الشيخ الى زواره فقال يخاطبهم وهو يبتسم ابتسامة ودوداً :

ــ يا آبائي ومعلمي ، انني لم أقل الى الآن حتى لهذا الفتى لماذا يستعذب قلبي وجهه • فسأسر اليكم الآن بهذا • كنت أرى في قسماته ذكرى الماضي ونذير المستقبل • ففي فجر حياتي ، حين كنت لا أزال في سن الطفولة ، كان لي أخ أكبر مات أمام عيني في ريعان شبابه ولمَّا يكمل

السنة السابعة عشرة من عمره . ولقد رسخ في اعتقادي أثناء حياتي ، شيئاً بعد شيء ، أن هذا الأخ قد كان له في تحديد مصيري دور حاسم ، وأنه كان لي نذيراً واشارة من الملأ الأعلى ، ويقيني أنني لولاه لما سرت في طريق الرهبنة ولا اخترت الدرب الذي قادني الى السعادة . ان هذا التجلي الأول للعناية الالهية قد حدث في فجر أيامي، وهأنذا أرى تكرره في خاتمة المطاف من طريقي . انه لشيء بارز ، يا آبائي ومعلميَّ ، أن ألكسي الذي لا يشبه أخي ذاك كثيرا بوجهه ـ فانه ليس له منه الا بعض السمات الخارجية ـ قد بدا لي شبيهاً به كل الشبه من الناحية الروحية وياطالما حسبته ذلك الأخ المراهق نفسه الذي كان لي في الماضي وقد آب اليَّ الآن أوبةً سرية في أواخر أيامي ذكرى من الماضي ونداءً الى التأمل ، حتى لقد دُهشت أنا نفسي في بعض الأحيان من غرابة هذه الظاهرة ودهشت من غرابة الحلم الذي كان يغرقني فيه . هل تسمعني يا بروفير ؟ (كذلك قال يخاطب الراهب المبتدىء المكلف بخدمته) . كم من مرةٍ لاحظت فيك تعبيراً عن الحزن لأنني أحب ألكسي أكثر مما أحبك . فهأنت ذا تعرف سبب ذلك الآن . ولكن اعلم أنني أحبك كثيرا أنت أيضا ، وطالما أحزنني حزنك . يا ضيوفي الأعزاء ، اسمحوا لي أن أحدثكم عن أخي الفتى ذاك ، لأنني لم أعرف في حياتي طيفاً أحب من طيفه الى قلبي ، ولا أشد تأثيراً في نفسي ، ولا أصدق نبوءةً في كل شأن من شئوني . ان قلبي ممتلىء به في هذه اللحظة ، لأنني أرى فيه حياتي مرة أخرى رؤية كاملة كأنني أعيشها من جديد ...

يجب أن أنبه القارىء هنا الى أن هذا الحديث الأخير الذي أجراه الشيخ مع أصدقائه الذين تحلقوا حوله في آخر يوم من أيام حياته قد حُفظ بعضه مكتوباً . ذلك أن ألكسي فيدوروفتش كارامازوف قد سجله بعد موت الشيخ بقليل . لا أستطيع أن أقطع على وجه اليقين بأن ما رواه

ألكسى هو نص ذلك الحديث تماما ، وأن ألكسى لم يضف الى النص فقرات استمدها من أحاديث سابقه لمعلمه • ويجب أن نلاحظ من جهه أخرى أن ما سجله الكسى يوهم بأن الشيخ قد ألقى خطابا متصلاً حتى يروى قصة حياته لزواره ، مع أن الشهادات تجمع على أن الأمور جرت فى الواقع مجرى آخر يختلف عن هذا المجرى بعض الاختلاف فى ذلك المساء • فالحديث قد كان عاما ، ورغم أن أصدقاء الشيخ لم يقاطعوه كثيرا ، فقد تدخلوا فى الحديث يضيفون كلمة شخصية وملاحظات شخصية وربما مسارّات عن حياتهم هم • ثم انه لم يكن من الممكن أن يتكلم الشيخ بلا توقف ، لأن أنفاسه كانت تتقطع دائما ، ولأن صوته كان يضعف على حين فجأة ، ولقد اضطر مرارا أن يمضى الى سريره يستريح عليه مفتوح العينين بينما ضيوفه فى أماكنهم لم يبارحوها • ولقد تخللت الحديث ، مرةً أو مرتين ، قراءة آيات فى الأناجيل قرأها الأب بائيسى جهراً • ويجب أن نذكر أن أحداً من الحضور لم يتنبأ بأن الشيخ سيموت فى تلك الليلة نفسها ، لا سيما وأنه قد بدا عليه فى ذلك المساء الأخير أنه قد استرد قوة جديدة على أثر نومه أثناء النهار ؛ وهذه القوى التى استردها على هذا النحو قد شدت أزره وعززت عزيمته طوال الحديث الذى أجراه مع أصدقائه • كان ذلك أشبه بوقدة أخيرة من الحياة أذكت روحه اذكاءً قوياً ، ولكنها أذكتها وقتاً قصيراً جداً ، لأن روحه فاضت دفعةً واحدة على حين فجأة • وعن هذا سأتكلم فيما بعد على كل حال• أما الآن فحسبى أن أقول اننى آثرت أن أسقط التفاصيل من هذا الحديث ، وأن أقتصر على ما رواه الشيخ ، معتمدا على المخطوطة التى خلفها ألكسى فيدوروفتش كارامازوف • فذلك أقرب الى الايجاز وأبعد عن الاملال ، رغم أن أليوشا ، كما سبق أن قلت ذلك ، قد ضمّن مادوّنه فقرات كثيرة استمدها من أحاديث سابقة له مع الشيخ •

٢

حياة الشيخ زوسيما، مستمدة من المسارّات التي جمعها ودونها ألكسي فيدورفتش كارامازوف

(أ) أخو الشيخ زوسيما

آبائي ومعلميّ الأحبة ! ولدت بمـــدينة ف ••• في مقاطعة نائية بشمال روسيا • كان أبي من طبقة النبلاء ، ولكنه من صغار النبلاء ، ولم يكن يحتل رتبة عالية في سلم رتب الدولة • وقد مات ولمّا أتجاوز السنة الثانية من عمري ، فليس في ذهني أية ذكرى عنه • وقد ترك لأمي منزلاً من خشب ، ليس بالكبير ، وترك لها رأس مال متواضعاً، ولكنه كافٍ لأن تعيش مع أولادها في منجى من العوز • كنا ولدين • أخي الأكبر ، مارسيل، وأنا ، زينوفي• كان أخي أكبر مني بثمانية أعوام. وكان جامح الطبع شديد النزق ، ولكنه كان طيب القلب ، لا يسخر من الآخرين قط ، وكان كثير الصمت الى حد غريب ، ولا سيما مع ذويه ، أي معي ومع أمي ومع الخدم • وكان في المدرسة مجداً مجتهداً يبرهن على أنه ينعم بذكاء قوي • ومع ذلك كان لا يألف رفاقه في المدرسة كثيراً، ولكنه لا يشاجرهم أيضا • تلك هي على الأقل الذكرى التي حفظتها أمي عنه • وقبل نهايته بستة أشهر ، بينما كان يدخل السنة الثامنة عشرة من عمره ، توثقت الصلة بينه وبين رجلٍ كان يعيش في مدينتنا حياة اعتزال،

رجل يشبه أن يكون منفياً سياسياً ، لأنه أجبر على أن يغادر موسكو بأمر سام ، وأن يحدد اقامته فى مدينتنا بسبب آرائه اللبرالية • كان هـذا الرجل عالماً كبيراً وفيلسوفا تقدره الأوساط الجامعية قدراً كبيراً • وقد شعر بشعور الصداقه نحو أخى مارسيل ، لا أدرى لماذا ، فكان يستقبله كثيراً فى منزله • فقضى أخى عند هذا الرجل سهرات طويلة ، على مدى فصل الشتاء كله ، الى أن استدعى الرجل الى سان بطرسبرج بطلب منه ، ليعهد اليه بمنصب رسمى ، لأنه كان ذا صلات عالية • كان هذا فى وقت الصيام الكبير ، وقد رفض أخى أن يصوم ، مستهزئاً بالعبادات متهكماً عليهـا مستخفاً بها محقّرا لهـا ، حتى لقـد قال « هذه سخافات وأباطيل وترهات ، لأن الله لا وجود له » ، فما كان أشد رعبنا جميعاً من هـذا الكلام ، أنا وأمى والخدم ! لقـد شعرت حين سمعت قوله ذاك بهول رهيب ، رغم أننى لم أكن قد تجاوزت السنة التاسعة من عمرى فى ذلك الحين • وكان جميع خدمنا ، وهم أربعة فحسب ، أقناناً اشتريناهم من رجل من مالكى الأطيان كنا على صلة به • وما زلت أتذكر اليوم الذى باعت أمى فيه احدى خادماتنا ، وهى الطباخة العجوز العرجاء أوفيميا ، بسبعين روبلاً ورقاً ، واستخدمت بدلاً منها خادماً ليست من الأقنان • وها هو ذا أخى يصاب بمرض أثناء الأسبوع السادس من الصيام الكبير• لقد كان أخى ضعيف البنية كثير المرض ، مستعداً للاصابة بالسل • انه قصير القد نحيل القامة هزيل الجسم ، ولكنه وسيم الطلعة جميل الوجه• ترى هل أصـابه برد ؟ المهم أن الطبيب الذى كان يعالجه قد أسر الى أمى خفية أن مارسيل مصاب بسل يتفاقم تفاقماً سريعا وأنه لن يعيش الى آخر الربيع • فأخذت أمى تبكى وتضرعت الى مارسـيل محاذرة (حتى لا تروعه خاصة) أن يتناول القربان المقدس فى عيد الفصح • ذلك أنه لم يكن قد اضطر بعد الى ملازمة الفراش • فأجابها أخى غاضبا

وحقّر الكنيسة وأهانها وشتمها ثم أطرق يفكر سارد اللب • لقد أدرك خطورة حالته حين رأى الحاج أمى عليه أن يذهب الى الكنيسة لتناول القربان المقدس ما دام لا يزال يملك من القوة ما يسمح له بذلك • ثم انه كان يعرف منذ زمن طويل أنه مريض ، حتى لقد قال لنا منذ مايقرب من عام ، بينما كنا على المائدة أنا وهو وأمى : « اننى لن أعيش زمناً طويلاً ، وقد لا أكون معكم بعد سنة » • وها قد تحقق ما كان يوجسه • انقضت أيام ودخلنا الأسبوع المقدس • فاذا بأخى يذهب الى الكنيسه منذ صباح الثلاثاء قائلاً لأمى : « اننى أذهب الى الكنيسة من أجلك أنت يا أماه ، وذلك حتى تطمئنى بالاً وتهدئى نفساً • » • فبكت أمى ، فرحاً فى أول الأمر ، وحزناً وألماً بعد ذلك • وحدثت نفسها قائلة : « لا شك أن نهايته قريبة ما دام قد حدث هذ التبدل فيه » • ولم يتح له أن يكثر من الذهاب الى الكنيسة ، لأنه اضطر الى ملازمة الفراش ، فصار يعترف ويتناول فى المنزل • لقد جاء الفصح متأخراً فى ذلك العام • الأيام صافية مضيئة ، والهواء عبق معطّر • أذكر أن أخى كان يسعل فى جميع الليالى ، ولا يكاد ينام • حتى اذا طلع الصباح ارتدى ملابسه وحاول أن يجلس على أريكة • وفى هذه الصورة انما أراه الآن : جالساً ، وديعاً ، رقيقا ، مبتسما ، مريضا جدا ولكنه مرح جداً ، سعيد جدا فى الظاهر • لقد تبدلت نفسه تبدلاً كبيرا ، فبدا لى هذا التبدل خارقاً • قالت له الخادم العجوز يوما : « اسمح لى يا بنى العزيز أن أشعل شمعة أمام الأيقونة فى غرفتك » • ما كان لأخى أن يرضى بهذا من قبل ، وربما نفخ على الشمعة فأطفأها • ولكنه قال يومئذ للخادم العجوز : « اشعلى يا عزيزتى ، اشعلى ! ألا ما كان أشد شذوذى حين كنت أمنعك من ذلك ! أنت تصلين أمام الأيقونة ، وأنا أيضا أصلّى لله حين أنظر اليك ، لأن مرآك يبهج قلبى ، ونحن كلانا نصلى اذن لاله واحد • » • بدت لنا تلك الأقوال غريبة

حينذاك • وكانت أمي لا تنفك تبكي خفية ، وتجفف دموعها قبل أن تدنو منه ، محاولة أن تصطنع هيئة فرحة • فكان يقول لها في بعض الأحيان : « لا تبكي يا أماه ، يا ملاكي الصغير ، فلسوف أعيش زمناً طويلاً ، ولسوف أبتهج معكم ، فجميلة هي الحياة ، وزاخرة بالسعادة والفرح ! » وكانت أمي تقول له عندئذ محتجة : « أين السعادة ، وأنت تصاب بالحمى في كل ليلة ، وتسعل حتى ليكاد ينفجر صدرك ؟ » ، فيعود يقول لها : « لا تبكي يا أماه ، فالحياة جنة نحن فيها جميعا ، ولكننا لا نريد أن نعترف بذلك ، فلو ارتضينا أن نسلّم به لأصبحت الحياة جنة منذ اليوم » • كانت هذه الأقوال تدهشنا ، لأنه كان يتكلم مقتنعاً بما يقوله اقتناعاً عجيبا • وكنا نتأثر من هذا الكلام تأثراً قوياً ، فتترقرق في أعيننا الدموع • وكان يزورنا بعض الأصحاب فاذا هو يقول لهم : « يا أعزائي ، يا أصدقائي الطيبين ، ماذا فعلت حتى أستحق حبكم ؟ كيف تستطيعون أن تحبوا شاباً مثلي ؟ ولماذا لم أعرف من قبل كيف أفهم عاطفتكم وكيف أقدرها ؟ » • وكان يكرر للخدم دائما قوله : « لماذا تخدمونني يا أصدقائي الأعزة الطيبين ؟ ما الذي يجعلني أستحق أن تخدموني ؟ اذا منّ عليّ الله فأبقاني حياً ، فلأخدمنّكم أنا ، لأن علينا أن يخدم بعضنا بعضا في هذه الحياة الدنيا • » • فكانت أمي تهز رأسها حين تسمعه يتكلم على هذا النحو ، فتقول له : «ان المرض هو الذي يوحي اليك بهذه الأفكار يابني» ، فيجيبها قائلا : « أماه ، يا فرحة حياتي ! أنا أعلم أن العالم لا يمكن أن يوجد ما لم يكن هناك سادة وخدم ، ولكنني أتمنى أن أكون خادم خدمي ، وأن أخدمهم كما يخدمونني ؟ وأحب أن تعلمي أيضا ، ان كلاً منا مذنب في حق الآخرين ومسئول عن جميع آلامهم • وأنا أكبر ذنباً من سائر الناس ! » • لم تستطع أمي أن تمنع نفسها من الضحك حين قال لها هذا

الكلام . وكانت تبكي وتضحك في آن واحد . سألته : « هلاّ قلت لى كيف تكون أكبر ذنبا من سائر الناس ! ان العالم ملىء باللصوص والقتلة، أما أنت فان وقتك لم يتسع حتى لارتكاب ذنب ومقـارفة اثم ! فكيف يمكنك أن تتهم نفسك هذا الاتهام ؟ » . قال أخى: « أماه! ياحملى الوديع ! (ذلك أنه كان يجد عندئذ ألفاظاً للملاطفة لا تخطر بالبال) ، يا فرحتى الكبيرة ، يا حمامتى اللطيفة ! أؤكد لك أن كل انسان فى هذه الحياة الدنيا مرتكب جميع الذنوب ، فى حق جميع النـاس ! لا أدرى كيف أشرح لك هذا الأمر ، ولكننى أحسه ، أحسه احساسا قويا عنيفا الى حدّ العذاب . كيف رضينا أن نعيش حتى الآن غاضبين بغير انقطاع، لا نفهم من الحياة شيئا ؟ » . وكان يستيقظ كل يوم وقد ازداد قلبه رقة وحنانا ، وطفحت نفسه فرحاً ومحبة . وكان الطبيب العجوز آيسنشمدت، يعوده أحيانا . فسأله أخى ذات يوم ضاحكا : « هيه يا دكتور ! أأعيش الى الغد ؟ » فأجابه الطبيب : « ستعيش لا الى الغد فحسب ، وانما ستعيش أياما وأشهراً بل وسنين . » ، فهتف عندئذ يقول : « ما خير أن يعيش المرء أشهرا وسنين ؟ ان يوما واحدا لكاف من أجل أن يعرف الانسان كل سعادة هذا العالم . يا أصدقائى الأعزاء ! نحن مجانين اذ نتشاجر ونتباهى ويحقد بعضنا على بعض لاساءة نالته . ألا فلنخرج الى الحديقة فنبتهج ويحب بعضنا بعضاً ! ألا فليتغن كل منا بفضائل أخيه ! ألا فلنتعانق ونبارك الحياة ! » . قال الطبيب لأمى حين شيعته الى درج الباب : « لن يعيش ابنك طويلا . لقد اختل من المرض عقله . » . وكانت غرفته تطل على الحديقة الظليلة المليئة بالاشجار الكبيرة التى نبتت على فروعها البراعم؛ وكانت أوائل عصافير الربيع التى وصلت منذ زمن قصير تزقزق وتغرد تحت نوافذه ، فكان يتأملها طويلا ويعجب بها كثيرا ، حتى لقد أخذ فى ذات يوم يستغفرها هى أيضا قائلا لها : «أيتها العصافير التى خلقها الله ،

أيتها الطيور الصغيرة ، اغفرى لى أنت أيضا ، لأننى أذنبت فى حقك ! »• وبدا لنا هذا أمرا لا سبيل الى فهمه قط ، وكان هو يبكى عطفاً وحناناً • وقال شارحا : « نعم ، لقد كانت عظمة الله مبســوطة أمامى : الطيور والأشجار والمراعى والسماوات • كان كل شىء يتغنى بعظمة الله ويسبح بحمده • الا أنا ، فقد كنت أعيش فى الخزى والعار ، مسيئاً الى شرف الخليقة ، لأننى لم أكن أرى جمال الحياة وسناءها • » • فكانت أمى تقول له باكية : « انك تتهم نفسك بخطايا كثيرة » ، فيقول لها : « أماه يا فرحة نفسى ، اننى من سعادة لا من حزن أبكى • وددت لو أكون مذنباً فى حق العصـافير الصغيرة ! لا أسـتطيع أن أشرح لك هذا ، لا أعرف كيف أشرح لك حبى اياها • ألا فلأكن مذنبـاً فى حقكم جميعـا ، فتغفروا لى عندئذ جميعا • تلك هى الجنـة • ألست الآن فى الجنة ؟ » •

وكان يقول أشياء أخرى أصبحت لا أتذكرها • دخلت ذات يوم الى غرفته وكان وحده • كان ذلك فى المساء ،والجو صـاح مضىء ، والشمس الغاربة تغرق الغرفه بأشعتها المائلة • فلما رآنى أشار الىّ أن اقترب ، ثم وضع يديه على كتفى وتأملنى طويلاً متفرساً فى عينى ، وقد بدا فى وجهه حب وحنان• وانقضت على ذلك دقيقة دون أن ينطق بكلمة ثم أسبل يديه وقال لى : « هيّا العب الآن وابتهج ! اننى أريد أن تحيا عنى ! » • خرجت ومضيت ألعب ؛ ولكننى كثيرا ما فكرت أثناء حياتى ، والدموع فى عينى ، فى هذا الامر الذى أصدره الىّ ، وهو أن أحل محلّه فى هذا العالم • وفى مرات كثيرة بعـد ذلك عبّر عن عواطف رائعة سامية رفيعة ، لم نكن نفهمها كثيرا فى ذلك الحين • وانطفأ فى الاسبوع الثالث بعد عيد الفصح ، واعيا كل الوعى ، صاحيا كل الصحو؛ ورغم أنه أصبح لا يتكلم فى أواخر أيامه ، فقد ظل على ما كان عليه حتى

النهاية ، ينتظر الينا سعيدا فرحا مبتسما ، ويبحث عنا وينادينا بعينيه . وقد تكلم الناس عن موته كثيرا فى مدينتنا . وأثر هذا الحادث فى نفسى ولكن بدون افراط ، وان أكن قد ذرفت دموعا سخينةً يوم الجنازة . لقد كنت صغيرا جدا ، كنت طفلا ، ولكن ذكرى هذا الأخ ستظل قائمة فى أعماق قلبى ، لتنتصب أمامى متى آن الأوان ، نداءً من الملأ الأعلى . هكذا جرت الأمور فعلاً .

ب ـ أثر الكتب المقدسة فى حياة الاب زوسيما *

بقيت وحيدا مع أمى . ولم يلبث أصدقاء طيبون أن قالوا لها انها تحسن صنعاً ، بعد أن لم يبق لها الا ابن واحد ، وما هى محرومة من الموارد ، أن ترسل هذا الابن الى سان بطرسبرج للدراسة ، على غرار ما تفعل أسر نبيلة أخرى ؛ وأكد هؤلاء الأصدقاء أنها ، اذا هى احتفظت بابنها الى جانبها فى مدينة صغيرة ، تعرّضه للحرمان من مستقبل لامع . وأقنعوا أمى أخيرا بأن تسجلنى فى « مدرسة المرشحين » ببطرسبرج ، لأكون فى المستقبل ضابطا من ضباط الحرس الامبراطورى. وقد ترددت أمى كثيراً فى العزم على فراق ابنها الاخير ، ولكنها اتخذت قرارها أخيرا وهى تبكى، معتقدةً أنها بذلك تؤمّن سعادتى. وقادتنى الى سان بطرسبرج فألحقتنى بمدرسة الاعداد العسكرى هذه ، ثم لم أرها منذ ذلك الحين ، لأنها ماتت بعد ثلاث سنين ؛ وهى فى أثناء تلك الفترة لم تنقطع عن البكاء حزناً على ابنها الفقيد ، ولا انقطعت عن الارتعاد قلقاً على مصير ابنها الباقى . وقد احتفظ خيالى بذكريات مضيئة عن المنزل الذى عشت فيه مع أمى ، لأن أصفى مشاعر القلب الانسانى هى المشاعر التى يكون قد أحسّها فى سنى طفولته . الأمر كذلك دائماً متى كان الحب والوفاق

مسيطرين على حياة الأسرة • ولكن ذكريات الطفولة يمكن أن تكون ذكريات سعيدة حتى فى الأسر الممزقة متى كانت النفس قادرة على أن ترى وأن تجنى من عناصر الوجود ما هو طيب نبيـــل • ولقد ارتبطت الكتب المقدسة بذكريات طفولتى ، لأننى كنت أهتم بها أثناء طفولتى فى المنزل اهتماما كبيرا • كنت أملك كتابا فيه صور جميلة عنوانه : « مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل » * ، وفى هذا الكتـاب انما تعلمت القراءة • وما يزال هذا الكتاب عندى حتى الآن • هو هنـاك على الرف ، وأنا أحافظ عليه محافظتى على أثر ثمين جدا من آثار الماضى • على اننى أتذكر أن الانفعال الدينى الأول الذى شعرت به * انما كان قبل تعلمى القراءة ، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمرى حينذاك • لقد قادتنى أمى الى الكنيسة للصلاة فى «أسبوع آلام السيد المسيح» (لا أدرى الآن أين كان أخى حينـذاك) ، وكان ذلك فى يوم من أيام الاثنين • النهار صحو ، والشمس ساطعة ، وما زلت أرى حتى هذه اللحظة ، كأن الأمر قد وقع أمس ، ما زلت أرى أدخنـة البخور تتصاعد بطيئة نحـو القبة ؟ وفى أعلى الكنيسة كانت أشعة شمس الاله تنفذ من نافذة ضيقة هابطة نحونا ، فكانت أدخنة البخور كأنها تندفع لاستقبالها أمواجاً متسقة، ثم تنصهر فى الضـــياء الذهبى أخيرا • كنت أتأمل هذا المشهد معجباً ، وأحسست أن بذرة « كلمة الرب » تغرس فى نفسى • وتقدم مراهق الى وسط المعبد • كان يحمل كتـاباً كبيرا يبلغ من الثقـل أن الفتى كان يبدو أنه ينوء بحمله • وضع الفتى الكتاب على منضدة الترتيل ؟ ثم فتحه وأخذ يقرأ • فهمت فى ذلك اليوم ، لأول مرة فى حياتى ، ما يُقرأ فى الكنيسة : كان يعيش فى أرض عوص رجل تقى صالح يملك ثروات طائلة ، ونوقاً لا حصر لعددها ، وقطعان خراف وحمير • وكان أولاده سعداء فرحين ، وكان يحبهم كثيرا ، ويصلى من أجلهم للرب • هـل

SS

ارتكب هؤلاء الأولاد خطيئة ما فى سعادتهم ؟ ذلك أن ابليس مثل يوما أمام الرب وقال له انه طاف الارض كلهـــا وما تحت الارض • فسأله الرب : « هل رأيت عبدى أيوب ؟ » • وتباهى الرب أمام ابليس بقداسة عبده العظيم أيوب • ولكن ابليس ضحك وأجاب : « مكّنّى منه فترى أنه سيعصيـك وسيلعن اسـمك » • فمكّـن الرب ابليس من عبده الأمين الذى كان يحبه الرب كثيراً ؛ فضرب لشيطان قطعانه ، وضرب أولاده ، ودمر ثرواته ، وأرسل اليه جميع المصائب دفعة واحدة ، كأن صاعقة من عند الله قد نزلت على داره • مزّق أيوب ثيابه ، وارتمى على الارض صائحاً : « لقد خرجت من بطن أمى عاريا ، وعاريا سأعود الى الارض • وهب الرب لى كل شيء ، والرب يسترد ما وهب • تبارك اسم الرب ، الآن وفى كل حين » • يا آبائى ومعلمىّ ، سامحونى اذا رأيتمـونى أسكب العبرات فى هذه اللحظة • ان طفولتى تنبثق الآن أمامى ، حتى ليخيل الى أننى أتنفس كما كنت أتنفس فى طفولتى بذلك الصدر الصغير ، صدر الطفل الذى لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره • ان ذلك الانفعال نفسه الذى أحسست به يومذاك يغزونى فى هـــذه اللحظة ، فاذا أنا مدهوش مفتون كما كنت مدهوشا مفتونا فى ذلك اليوم البعيد بالكنيسة • لقد أحدثت تلك النوق تأثيرا قوياً فى خيالى ، وأذهلتنى قصة الشيطان الذى كلم الرب ، وشدهنى قرار الرب أن يمكّن الشيطان من عبـده الأمين ، وكذلك هتاف العبد مخاطباً ربه : « تبارك اسمك ، رغـم أنك تعاقبنى » • ثم تصـاعدت فى الكنيسة أغنية رقيقة جـــدا : « سمع الله لصلاتى » • وارتفعت أدخنة البخور ، وركع المصلون • ومنذ ذلك الحين أصبحت لا أستطيع أن أقرأ تلك القصة المقدسة ــ وقد حدث لى هذا أمس أيضا ــ الا وتنسكب الدموع من عينى • ما أروع العظمة والسرّ الخارقين اللذين ينبعان من هذا النص ! لقد اتفق لى أن سمعت نقـداً

لهذا النص من أناس يقبّحون الدين ويلبونه ، أناس أعماهم غرورهم وصلفهم ، فهم يسخرون مما لا يفهمون ؟ قالوا : « كيف يمكّن الربُ الشيطانَ من قديسه الأثير ، فيستهزيء الشيطان بالقديس ، ويخطف أولاده ، ويرسل اليه الأمراض ، ويغطى جسمه بالجروح ، حتى صار يزاح القيح عن قروحه بشقفه من فخار ؟ أكل هذا من أجل أن يتباهى الرب أمام الشيطان قائلاً : « انظر ماذا يستطيع أن يتحمله واحد من أوليائى الصالحين فى سبيل محبتى ! » ؟ لقد غاب عن هؤلاء الناقدين أن عظمة هذه القصة انما هى فى هذا السرّ الذى يتأكد فيها ! ان المظاهر العرضية للحياة الارضية تلامس فى هذه القصـــة الحقيقة الأبدية التى لا ندركها . فمن خلال ما يبدو لنا على أنه واقع الأرض ، يتجلى فعـل قوة أبدية تفوق هذا الواقع . ان الخالق فى هذه القصـــة يتصرف كما تصرف فى الايام الاولى من الخلق حين قال انه أبدع فيما صنع . انه ينظر الى أيوب فيبهجه أنه خلقه . وأيوب الذى يمجد الرب لا يخدم الرب وحده بل يخدم الخليقة أيضا ، من عصر الى عصر ومن جيل الى جيل ، فذلك هو ما يُسّر له . رباه ما أروعه سفراً ، وما أروعها تعاليم! ما أعظم الكتب المقدسة ، وما أكبر تلك القوة المعجـــزة التى توقظها فى الانسان ! لكأنها صورة الكون والانسان نفسه . كل شيء قد قيل فيها وأعلن لقرون . ما أعظم الأسرار التى تكشف عنها وتحلها ! ان الرب يرد السعادة الى أيوب ، ويهب له ثروات جديدة ؛ وتنقضى أعوام فيولد له أولاد آخرون يحبهم أيضا . رباه ! قد يتساءل متســـائل : « فكيف استطاع أن يحبهم وقد غاب أبناؤه الأول الى غير رجعة ؟ هل يمكن أن يشعر بأنه سعيد حقاً بين أولاده الجدد ، مهما يكونوا أحبةً فى قلبه ، اذا هو تذكر أولئك الذين غابوا الى الأبد ؟ » . الحق أنه كان يستطيع أن يشعر بالسعادة ، لأن الآلام القديمة تهدأ بمرور الزمن ، ويطامنهـا

سرّ الطبيعة الانسانية الكبير ، وتستحيل شيئاً فشيئاً الى افراح ساجية • ان العدم الذى يغلى فى سن الشباب يفسح المجال فى الشيخوخة لهدوء ساكن • اننى أباركك فى جميع الأيام طلوع الشمس ، وان قلبى ليبتهج بشروقها كما كان يبتهج به فى الماضى ، ولكننى أوثر اليوم مجد الكوكب الغارب وأشعته المائلة التى توقظ فى نفسى ذكريات بعيدة عذبة ، وتحيى أطياف الماضى الحبيبة من حياة طويلة سعيدة • ففوق هذه الذكريات تحلق الحقيقة الالهية التى تهدىء وتصالح وتبرىء ! سوف أموت ، أنا أعرف ذلك وأفهمه ، ولكننى أحس فى كل يوم بأن الحياة ما تزال توهب لى ، وأن حياتى الأرضية تندفع نحو حياة جديدة ، أبدية ، مجهولة، هى منذ الآن قريبة يملأ الاحساس بها نفسى فرحاً ، ويهز قلبى هزاً قوياً• يا أصدقائى ومعلمىّ ! لقد سمعت من يقول ، سمعت ذلك مرارا وأسمعه الآن أكثر من أى وقت مضى ، ان الكهنة ، ولا سيما كهنة الأرياف يشكون مرّ الشكوى من أن راتبهم غير كاف ، ومن أن منزلتهم الاجتماعية وضيعة ، قائلين بل كاتبين ـ وقد قرأت ذلك بعينىّ ـ أنهم أصبحوا عاجزين عن شرح الانجيل للشعب ، بسبب قلة رزقهم • « اذا جاء لوثريون أو هراطقة فأضلوا رعايانا ، فليفعلوا ذلك ، لأننا لا نجنى من الرزق ما يكفينا » • هكذا يقولون • يا عدالة السماء ! ألا اننى لأسأل الرب أن يربى راتبهم هذا الذى يحرصون عليه ذلك الحرص كله (لأن شكواهم لا تخلو من حق) ولكننى أقول مخلصاً : من المسئول عن هذا الوضع ان لم نكن نحن المسئولين عنه الى حدٍ ما ؟ اننى أسلم بأن القس فى الريف مثقل بأعباء العمل ، وليس فى وقته من الفراغ ما يمكنه من الاهتمام بالشعب • ولكننى أرى أن وظيفته وعمله لا يشغلانه الى الحد الذى يعجز فيه عن أن يقف على الرب ولو ساعةً من وقته فى الأسبوع• ثم انه لا يعمل طوال السنة بلا انقطاع • ألا فليجمع فى داره ، مرةً فى

الاسبوع ، والأفضل أن يكون ذلك فى المساء ، ألا فليجمع الأطفال فى أول الأمر ، فإذا بآبائهم يعلمون ذلك فيجيئون هم أيضا • لا حاجة الى أن يكون هناك مكان خاص يُعقد فيه هذا الاجتماع • ما على القس الا أن يجمع الناس فى منزله الفقير نفسه • وليس له أن يخاف ، فانهم لن يفسدوا مسكنه ! ما ساعةٌ فى الأسبوع ؟ ألا فليفتح التوراة المقدسة فيقرأ لهم فيها بغير فصاحة مصطنعة أو كلام متفيهق ! فليقرأ قراءةً بسيطة طبيعية ، مبتهجاً بأن الناس يسمعونه ويفهمونه ، ممتلئاً بحب النص المقدس • وفى وسعه أن يتوقف عن القراءة من حين الى حين ليشرح معنى كلمة لا يعرف معناها أبناء الشعب • وليكن على يقين من أنهم سيفهمون بسرعة ، لأن الروح الارثوذكسيه تحس الحقيقة احساسا سريعا • ان القصص التى تروى حياة ابراهيم وسارة ، واسحق وربيكا ، ويعقوب الذى ذهب الى عند لابان ، وقال بعد أن اصطرع مع الرب فى الحلم : « هذا مكان رهيب » ، ان هذه القصص ستمضى قدماً الى القلب النقى ، قلب البسطاء الذين لم تفسدهم الحياة بعد • يجب أن تقص عليهم ، وعلى الأطفال خاصةً ، قصة الفتى الجميل الفتان يوسف ، النبى الكبير ، مفسّر الأحلام ، كيف باعه اخوته ثم زعموا لأبيهم أن وحشاً أكله ، وأظهروا أباهم على ثيابه تدليلاً على صدق قولهم ؟ وكيف سافر اخوته بعد ذلك الى مصر التماسا للخبز ، وكان يوسف قد أصبح فيها عظيماً من عظماء رجال فرعون ، ولكنهم لم يعرفوه ، فاضطهدهم ، واتهمهم وحبس بنيامين الفتى رغم ما يكنه لهم من حب : « اننى أحبكم ، وانى لأعذبكم وأنا أحبكم » • ذلك أنه لم يستطع أن ينسى اليوم الذى باعه فيه اخوته لأناسٍ من تجار العبيد ، فى سهل مقفر ، قربَ بئر ، بينما كان يضرع اليهم باكيا عاقفاً ذراعيه أن لا يتركوه للعبودية فى أرض غريبة • فلما رآهم بعد ذلك العدد الكبير من السنين أحسَّ بحبه لهم ينبعث فى

قلبه ، ولكنه عذبهم بسبب تلك الذكرى المرة ، وتركهم أخيرا وانصرف، لأنه لم يعد قادرا على أن يحتمل الشكاة التي تصدر عن قلبه هو نفسه . وارتمى على سريره وأجهش باكيا ؛ ثم جفف وجهه وعاد اليهم هادىء النفس مشرق المحيا وقال لهم : « يا اخـــوتى ، أنا يوسف أخوكم » . وليقرأ القس للناس تتمة القصة : كيف سُرَّ يعقوب حين عرف أن ابنه لم يمت ، وكيف سافر هو أيضا الى مصر ، هاجراً الارض التى وُلد فيها ، ومات على تراب غير تراب وطنه ، تاركاً فى وصـــيته أكبر وعد سيتحقق للانسانية على مدى العصور ، كاشفاً عن السر الذى كتمه طول حياته فى قلبه المتواضع الوجل ، ألا وهو الوعد الذى يبشر الانسانية بأنه سيولد فى يوم من الأيام انسان هو أمل العالم ، وهو للانسانية مخلّصها وفاديها ! يا آبائى ومعلمىَّ ! اغفروا لى أننى أذكركم ، كتلميذ صغير ، بأشـياء تعرفونها منذ زمان طويل ، ويمكنكم أن تعلّمونيها بأحسن ممـا أفعل فناً وعلماً ! لقد اندفعت مع الحماسة . واغفروا لى دموعى، لأننى أحب هذا السفر . واذا استطاع الكاهن أن يبكى هو أيضا أثنـاء القـراءة ، فلسوف يرى مدى أثر ذلك فى نفوس سامعيه قوة انفعال وعمقَ عاطفة. ألا ان بذرة لتكفى مهما تكن يسيرة . فاذا بُذرت فى قلب البسطاء ، لم تفن بعد ذلك يوماً ، وانما هى تعيش فى نفوســـهم وتظل تثمـر طوال حياتهم ، من أعماق ظلمات ضلالاتهم وخطاياهم ، نبعاً من ضـيـاء ومن حقيقةٍ أبدية ، ذكرى خفية ونداءً مستسراً . لا حاجة الى شروح طويلة واستطرادات متعالمة يتيه فى شعابها الفكر . ان أبنـــاء الشعب يفهمون الأمور ببساطة كبيرة . أتظنون أنهم عاجزون عن ذلك ؟ قوموا اذن بهذه التجربة ، اقرأوا لهم تلك القصة الجميلة المؤثرة ، قصة أستير الرائعـة وفاستى المتكبرة ، أو اقرأوا لهم تلك المغـامرة المعجزة ، مغامرة يونس فى جوف الحوت . ولا تنســـوا كذلك رموز الرب ، ولا سيما رموز

الانجيل كما وردت فى كتاب القديس لوقا (وذلك ماكنت أفعله دائما)، واقرأوا لهم فى كتاب الشهداء حياة ألكسى ولى الله ، وكذلك حياة كبرى الشهيدات مريم القبطية . فلسوف ترون مدى تأثير هذه القصص البسيطه فى قلوبهم ! تكفى ساعة فى الأسبوع ، ساعه واحدة ، رغم قلة الراتب. فاذا ارتضى الكاهن بذل هذا الجهد لم يلبث أن يدرك أن لتعبنا نفساً كريمة تعترف بالجميل . لسوف يرد اليه الفلاح معـروفه مضاعفاً مائة مرة . لسوف يتذكر نشاط الكاهن وقراءاته المؤثرة ، فاذا هو يهب من تلقاء نفسه الى مساعدته فى أعماله فى الحقل أو المنزل . ولسوف يمحضه احتراماً متزايداً ؟ وهذه المزايا ، مجتمعةً ، تساوى زيادة فى الدخل ، ذلك حل يبلغ من السهولة فى الواقع أن المرء يستحى أحيانا أن يقترحه، مخافة أن يُضحَك عليه . ومع ذلك فهذه هى الحقيقة . ان من لا يؤمن بالله لا يؤمن بشعبه أيضاً . ولكن الذى لا يشك فى شعبه ، لن يلبث أن تتجلى له قداسة روح الشعب ، ولو لم تخطر على باله يوما قبل ذلك . ان مثقفينا الملحدين ، الذين أصبحوا غرباء عن الأرض التى أنبتتهم ، لن ينقذهم ولن يردهم الى طريق الرشاد الا شعبنا الذى ستتأكد قوته الروحية فى يوم من الأيام . ما قيمة أقوال المسيح اذا لم تسـندها قوة القـدوة ؟ ألا ان الشعب ليهلك ويفنى ما لم تنجده الكلمة الالهيـة ، لأن الشعب ظامىء الى حقيقة دينية ، والى مثل أعلى أخلاقى رفيع . فى أثناء شبابى ، منذ أكثر من أربعين عاما ، طفت أرجاء روسيا بصحبة الأب آنتيم نجمـع المعونات لديرنا الفقير . ففى ذات يوم ، توقفنا ليلا عند شاطىء نهر كبير من الأنهار الصالحة للملاحة ، بين الصـيادين . فجلس الى جانبنا فتى مليح الوجه هو فلاح فى نحو الثامنة عشرة من عمره كان يتعجل الالتحاق بعمله فى الغد ، لأنه قد استؤجر لجر سفينة تجارية . كان الفتى ينظر أمامه حالماً بعينيه الصـافيتين الحلوتين . الليلة سـاجية حارة ، هى ليلة

مشرفه مضيئة من ليالى سهر تموز • ومن النهر العريض تتصاعد أبخرة تحمل الينا طراوة منعشة • وتنبجس سمكه الى سطح الماء من حين الى حين ، فتتلاطم الأمواج تلاطماً خفيفا • سكتت العصافير ، فكأن الطبيعه كلها تصلى لله صامتة في هذه الهدأة التى ترين من حولنا على الأرض والسماء • ونحن وحدنا لم ننم ، أنا وهذا الفتى • تحدثنا عن جمال خلق الله وعن سره ، عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل ، عن جميع هذه المخلوقات التى تعرف طريقها جميعا فى هذا العالم ، دون أن يكون لها ذكاء ، فاذا هى بهذا العلم المعجز تشهد بعظمه صنع الله وتساهم فى كل لحظة ، بعملها المتواضع ، فى تحقيق الغايات العليا للخالق • فلاحظت أن هذا الشاب اللطيف المحبب قد تأثر تأثراً قوياً وأن نفسه التهبت حماسة وحميّا • وأسرّ الىّ بأنه يحب الغابات وطيورها ، لأنه كان هو نفسه يربى الطيور ويعرف تغريد جميع أنواعها، ويعرف كذلك وسائل اجتذابها • قال لى : « لا شيء أروع من الغابة ، وكل شيء فى الطبيعة جميل على كل حال » فأجبته قائلاً : « هذا صحيح• كل شيء فى خليقة الله رائع ومؤثر ، لأن كل شيء فيها حق • انظر الى الحصان مثلاً ، هذا الحيوان النبيل المتعلق بالانسان ذلك التعلق كله ، أو انظر الى البقرة الخاضعة المطرقة التى تطعمه وتعمل من أجله • ما أعذب هذه الحيوانات الأليفة ، ما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيرا ما يضربونها بغير شفقة ، ما ألطف الوداعة والثقة اللتين تتجليان فى نظراتها ! أليس هذا جميلاً ؟ انه لأمر مؤثر فى النفس أن نتذكر أن هذه الحيوانات هى بلا خطيئة ، لأن كل ما فى الكون برىء كامل الا الانسان • لقد كان المسيح مع الحيوانات ، قبل أن يجىء ليخلصنا » • فسألنى هذا الفتى : « هل تعتقد حقاً أن المسيح معها أيضا ؟ » فأجبته قائلا: « وكيف لا يكون الأمر كذلك ، ما دامت الكلمة للجميع • ان كل

مخلوق ، ان كل من تنفس ، حتى أحقر ورقة من أوراق الأشجار ، يشهد بعظمة الخالق ويسبّح بحمده • ان كل شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح ، ويناديه على غير سعور ، لأنه يملك هذه الفضيلة السرية ، وهي أنه بغير خطيئة • انظر في الغابة الى الدب ، المخيف الضاري دون أن يكون مسئولاً عن ذلك ! ••• » قلت له هذا وقصصت عليه أن دباً اقترب ذات يوم من قديس عظيم كان يعيش معتزلاً في حجرة وسط الغابة • فأشفق الناسك على الوحش الجائع ، فهبّ الى لقائه بغير وجل، ومدّ اليه قطعه من خبز قائلاً له : « كُلْ في سلام ، وليكن المسيح معك » ، فابتعد الوحش الضاري طائعاً دون أن يلحق بالقديس أي أذى• تأثر الفتى تأثراً شديدا من أن الدب انصرف دون أن يهجم على القديس ومن أن المسيح كان معه • وصاح يقول : « ما أروع هذا ! ما أروع كل شيء اذن في خلق الله ! » • وظل مطرقاً مفكراً خلال مدة طويلة ، غارقاً في تأملات لطيفة وأحلام عذبة • رأيت أنه فهمني • ثم استلقى قريبا مني ونام نوما بريئاً هادئاً • بارك الرب في الشباب ! صليت من أجله قبل أن أنام أنا أيضا • ربّ ابعث السلام والأمن والضياء الى جميع مخلوقاتك !

ج ـ ذكريات سني الشباب التي عاشها الشيخ زوسيما في العالم • المبارزة

لبثت في « مدرسة المرشحين » بسان بطرسبرج زمناً طويلاً يقرب من ثماني سنين • ان التربية التي تلقيتها في تلك المدرسة قد كبتت في نفسي كثيرا من مشاعر الطفولة ، ولكنني لم أنس تلك المشاعر حقاً • وفي مقابل ذلك أكسبتني هذه التربية أفكارا وعادات جديدة جعلت مني انسانا يكاد يكون متوحشا ، انساناً قاسيا غبياً • وبتعلم اللغة الفرنسية تزينت بآداب المجتمع وطُليت بطلاء من حضارة • أما الجنود الذين كانوا

يخدموننا فقد كنا جميعا ، وأنا أيضا ، نعدّهم بهائم ؟ ولعلنى كنت أسبق من غيرى فى ذلك ، لأننى كنت فى كل أمر من الأمور أكثر تأثراً بالبيئة من سائر رفاقى . ولما أصبحنا ضباطا كنا مستعدين لأن نبذل دمنا فى سبيل شرف كتيبتنا ، ولكننا كنا نجهل كل الجهل ما هو الشرف حقاً . ما من أحد منا كان يملك أية فكرة عنه ، فلو قيل لنا ما هو الشرف حقاً لرفعنا أكتافنا استخفافا واحتقاراً . وكنا نكاد نعتز بما ننهمك فيه من سكر ومجون ، وما نندفع فيه من وقاحة واستهتار ، ونكاد نعده مجداً من الأمجاد . ليس معنى هذا أننا كنا فى قرارة أنفسنا أشراراً . فلقد كان فى هؤلاء الشباب خير طبيعى فطرى ، ولكنهم كانوا يسلكون سلوكاً سيئاً ، وكنت أنا فى ذلك شراً من سائر رفاقى . وفى تلك الفترة استلمت ثروتى ، فأخذت أعيش على ما يريد لى هواى وخيالى وعلى ما تشاء لى نزواتى وبدواتى ، مندفعاً اندفاع الشباب بغير أى تحفظ أو قصد . لقد مخرت ناشراً جميع أشرعتى . ولكن الشىء الغريب هو أننى كنت أقرأ فى كثير من الأحيان ، حتى لقد كنت أجد فى القراءة لذة ومتعة . ومع ذلك لم أفتح التوراة يوما غير أننى لم أفارقها ، وانما كنت أحتفظ بها قريبةً منى فى تنقلاتى ، كأنما أنا أنوى أن أقرأها « فى يوم من الأيام وساعة من الساعات ، فى شهر من الأشهر وسنة من السنين فى المستقبل » . وبعد أربع سنين من الخدمة ، وجدت نفسى فى مدينة ك ... التى كانت كتيبتنا تعسكر فيها . ان المجتمع فى هذه المدينة كبير العدد متنوع الملأ . وكان أكثر هؤلاء أناساً أغنياء لطافاً يعيشون حياة فرح وبهجة . وقد أحسنوا استقبالى لأننى مرح بطبيعتى . يضاف الى ذلك أنهم كانوا يعدوننى ثرياً ، وذلك أمر يقدره المجتمع قدراً عظيماً . وهنا انما حدث لى حادث كان له أثر حاسم فى مصيرى . فقد تولهت بحب فتاة جميلة ذكية نبيلة الخلق يتمتع أهلها باحترام كبير ، فهم ينعمون بالثراء ، ولهم

صلات عالية • وقد أحسن أهلها وفادتي • وأحسست أن الفتاة ليست غير مكترثة بوجودى ، فالتهب خيالى من ذلك التهابا شديدا • ولقد أدركت فيما بعد أننى لم أكن أحبها فعلاً ، وانما كنت مفتتناً بذكائها وسمو طبعها ورفعة خلقها ، وتلك أمور ما كان لها الا أن تؤثر فى نفسى • وقد منعتنى أنانيتى من خطبتها ، اذ صعب علىّ أن أتنازل فى مثل تلك السن من ريعان الشباب عمّا فى حياة العازب الحرة المتحللة ، من اغراءات • لذلك اقتصرت على بعض التلميحات الخفية ، وأرجأت الخطوة الحاسمة الى ما بعد • وفى أثناء ذلك تلقيت أمرا عسكريا بالسفر مدة شهرين الى مقاطعة أخرى • فلما عدت عرفت أن الفتاة تزوجت فى غيابى • لقد تزوجت رجلاً غنيا من أصحاب الأملاك فى منطقة مجاورة ، وهو أكبر منى سناً ولكنه ما يزال شاباً ، كما أن له صلات فى العاصمة وفى المجتمع الراقى ، وذلك ما لم يكن لى مثله • ثم انه عدا هذا رجل لطيف محبب جدا مثقف جدا ، على حين أن ثقافتى أنا كانت ناقصة نقصاً كبيراً • وقد بلغت من الاضطراب لهذا الحادث ما جعلنى أتصور أننى فاقد بسببه صوابى • وكان أنكى ما آلمنى اننى علمت أن الرجل خطيب الفتاة منذ زمن طويل • ولقد حدث أن قابلته فعلاً فى منزل أهلها مرارا كثيرة دون أن يخطر ببالى شىء ، من شدة ما أعمانى غرورى • وقد أحنقنى هذا الأمر وأغاظنى أكثر من أى شىء عداه • تساءلت : كيف ؟ أيعلم ذلك جميع الناس الا أنا ؟ وشعرت من ذلك بحقد شديد • لقد شعرت بالدم يصعد الى جبهتى حين تذكرت تصريحات الحب التى أوشكت أن أقولها لها مرارا • ان الفتاة لم توقفنى بل تركتنى أتكلم دون أن تنبئنى بأنها مخطوبة • فاستنتجت من ذلك أنها كانت تسخر منى وتضحك علىّ • وقد فهمت فيما بعد أن الأمر لم يكن كذلك قط وتذكرت أنها ، على خلاف ما توهمت ، كانت تقاطعنى فى كل مرة مازحة ، وتغير موضوع

الحديث ، غير أننى عجزت فى ذلك الحين عن أن أحكم فى الأمر حكماً سليماً صحيحا ، فكنت أحترق توقاً الى الانتقام •

وانى لأتذكر الآن ، بغير قليل من الدهشة ، أن ذلك الغضب وذلك التوق الى الانتقام اللذين شعرت بهما كانا شاقين على نفسى ، لأن خفة طبعى كانت لا تتيح لى أن أظل حاقداً على الناس مدة طويلة • فصرت أحرّض استيائى وحنقى تحريضا مصطنعا من أجل أن أصل أخيرا الى اندفاع أحمق غير انسانى• ارتقبت فرصة أنتقم فيها لنفسى ، واستطعت فى ذات مساء ، بينما كنا فى مجتمع غفير ، أن أهين «غريبى» فى أمر لاعلاقة له فى الظاهر بشخصى • سخرت من رأيه فى موضوع حدث كان قد وقع وهزّ أفكار الناس كثيراً فى ذلك العهد* ـ كنا فى عام١٨٢٦ ـ وكانت سخرياتى ـ فى رأى الحضور ـ محكمة حاذقة فكهة ـ ثم طلبت منه أن يصفى حسابه معى بمبارزتى ، وبلغت من الفظاظة والغلظة أثناء ذلك انه لم يملك الا أن يقبل التحدى رغم كل ما بينى وبينه من مسافة ، فأنا أولاً أصغر منه سناً ، وأنا ثانيا ضابط صغير لا قيمة له فى حين أنه يحتل هو مركزا اجتماعيا عالياً جداً • وقد علمت فيما بعد أن شيئا من الغيرة قد دفعه الى قبول التحدى • فمن جهة أولى كان هو قبل ذلك الحين ، أثناء خطوبته ، قد ساءته ملازمتى لخطيبته ؛ وهو من جهة ثانية يخشى الآن ، اذا علمت زوجته بأنه تحمل اهاناتى دون أن يبارزنى ، أن تحتقره على غير ارادة منها ، وأن يتزعزع من ذلك حبها له • ولم ألبث أن عثرت على شاهد لى بغير عناء ، وهو رفيق من رفاقى كان ملازماً فى كتيبتى نفسها• ولقد كانت المبارزات رائجة جدا بين الضباط فى ذلك الزمان ، رغم أنها محظورة محرّمة ، وهذا يدل على مدى ترسخ الأحكام الاجتماعية الباطلة فى النفس الانسانية • كنا فى أواخر شهر حزيران (يونيو) ، وحُدِّد الغد موعدا للقاء ، فى الساعة السابعة من الصباح ، على أرض مهجورة

خارج المدينة • ووقع لى فى ذلك المساء حادث لا أستطيع الا أن أعده تدخلاً من القدر • فحين عدت الى مسكنى فى ساعة متأخرة من الليل مهتاجا اهتياجا شديدا ، ثرت على الجندى الذى يخدمنى ، واسمه آتانازى، ثورة شديدة ، وصفعته بكل قوتى مرتين ، حتى أخذ الدم يسيل من وجهه • ان آتانازى يخدمنى منذ زمن غير طويل ، ولقد سبق أن ضربته من قبل ، ولكننى لم أضربه بوحشيه حيوانية كهذه المرة • صدّقونى يا أصدقائى الأعزاء اذا قلت لكم : اننى ما زلت الى اليوم ، بعد أكثر من أربعين عاما ، لا أستطيع أن أتذكر سلوكى حينذاك الا وأشعر بخزى وعار وألم عميق • وقد رقدت فنمت زهاء ثلاث ساعات • فلما استيقظت كان الصبح قد تنفس • فأسرعت أرتدى ملابسى لأن النوم قد طار من عينى ، واقتربت من النافذة ففتحتها • ان النافذة تطل على الحديقة • وقد أخذت الشمس تطلع فى الأفق • والجو جميل طرى ، والعصافير تغرد • سألت نفسى : « لماذا هذا الاحساس الغريب فى نفسى بالخزى والعار والاشمئزاز ؟ ألأننى سأسفح دم انسان ؟ لا ••• يبدو أن هذا ليس هو السبب • أأكون اذن خائفا من الموت أخشى أن أُقتل ؟ لا ، لا ، ليس هذا هو السبب ، ليس هذا هو السبب أبدا ••• » وفجأة أدركت علة ذلك الضيق الذى كنت أشعر به : لقد كنت أحس بعذاب فى ضميرى لأننى ضربت آتانازى فى الليلة البارحة • تراءى لى المشهد بجميع تفاصيله على حين بغتة : كان آتانازى واقفاً أمامى ، منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، جاعلاً يديه على درزة سرواله ، وأنا أهوى على وجهه بالصفعة تلو الصفعة بكل ما أوتيت من قوة • وكان هو يحدّق أمامه كأنه فى استعراض عسكرى ، ولا يجرؤ أن يرفع ذراعه ليحمى وجهه رغم أنه يرتجف عند كل صفعة • انظروا الى أى حالة يمكن أن يُردّ الكائن الانسانى ! كيف يستطيع انسان أن يرضى ضرب أخيه الانسان ؟ يا لها

من جريمة ! شعرت كأن ابرة تنفذ في جسمي . انني أرى الآن كيف كنت واقفاً أمام النافذة مشدوهاً مصعوقاً . كانت الشمس في الخارج تتلألأ ، وكانت عصافير صغيرة تغرد ببراءة ، مسبحةً بحمد الرب ... وهأنذا أخفي وجهي بيديّ على حين فجأة ، وأرتمي على سريري ناشجاً منتحباً . لقد عاودتني في تلك اللحظة ذكرى أخي مارسيل ، وخطرت ببالي الكلمات التي قالها للخدم قبل موته بقليل : « يا أصدقائي الطيبين ، ماذا فعلت حتى أستحق أن تخدموني ؟ ما الذي يجعلني جديرا بعاطفتكم ؟ » . وقلت لنفسي : « ما الذي يجعلني أنا أيضا جديرا بأن يخدمني قريني الانسان ؟ » . وحاصرت هذه الفكرة عقلي فجأة . فأخذت أتساءل : « لماذا يجب على انسان شبيه بي ، انسانٍ خُلق مثلي على صورة الله ، أن يكون خادمي ؟ ما الذي جعلني جديرا بذلك ؟ » . لقد طرحت على نفسي هذا السؤال لأول مرةٍ في حياتي . « أماه ، يا حَمَلي الوديع ، ان كل انسان مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس ... البشر لا يعرفون هذا ... ولو ارتضوا أن يعترفوا به لأصبحت الأرض جنةً منذ الآن » . تساءلت من خلال دموعي : « أيجوز حقاً يا رب أن أكون مرتكباً جميع الذنوب ، وأن أكون أكبر الناس اثماً ؟ انى اذن لأسوأ الناس طراً ! » . وتراءت لي الحقيقة فجأة في ضياء باهر ! ما الذي كنت أريد أن أفعله ؟ أن أقتل انسانا طيبا ذكيا نبيل الخلق لم يمسسني بسوء ولم يلحق بي أذى ، وأن أحرم زوجته من السعادة الى الأبد في الوقت نفسه ، فأسلمها للعذاب وأدمّر روحها ! وكنت أثناء استسلامي لهذه التأملات راقداً على سريري ، دافناً وجهي في الوسائد ، لا ألاحظ أن الوقت كان ينقضي . وها هو ذا رفيقي الملازم يظهر في غرفتي فجأة حاملاً اليّ المسدسات . قال لي :

SS

ـ أنهضت من نومك ؟ أحسنت ••• ما يزال فى الوقت متسع • هيّا بنا !

اضطربت ، وزاغ لبى ، لكننى تبعته ؛ وفيما كنا نوشك أن نركب العربة التى كانت تنتظر أمام المنزل ، عدلت عن الركوب فجأة ، وقلت لرفيقى شارحاً :

ـ انتظرنى لحظة ، أنا عائد الى البيت لأجيء بمحفظه نقودى التى تركتها فيه •

وأسرعت قدماً الى الغرفة الصغيرة التى يسكنها خادمى الجندى • قلت له :

ـ آتانازى ! لقد صفعتك على وجهك مرتين أمس • سامحنى !

ارتعش حين سمع كلامى كأنه قد خاف • وشعرت عندئذ أن ذلك ليس كافيا ، وأن بادرتى لا تتناسب والأذى الذى ألحقته به ، فاذا أنا أخضع فجأة لاندفاعة مباغتة فأرتمى على قدميه بملابسى الفخمة حتى لامست جبهتى الأرض ، وأقول له صائحاً :

ـ سامحنى يا آتانازى

بدا آتانازى مصعوقاً ، وأخذ يقول :

ـ يا صاحب النباله ••• يا أبتاه ••• يا مولاى ••• كيف يمكنك أن ••• أنا لست جديراً بهذا ! •••

وأخذ يبكى هو نفسه ، كما بكيت أنا منذ قليل ، دافناً وجهه فى يديه • واستدار نحو النافذة ، مرتعشاً من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، غارقاً بدموعه • وهرعت ألحق برفيقى الملازم الذى كان ينتظرنى فى العربة • صحت أقول للحوذى :

ـ سِرْ ...

وأضفت مخاطباً رفيقي :

ـ هل تريد أن ترى الغالب ؟ انه أمامك !

كنت أشعر بحماسة شديدة ، وظللت أضـــحك بغير انقطاع أثناء الطريق ، وأتكلم بلا توقف ، أخبط فى الكلام خبط عشواء ... لا أدرى ماذا قلت ! وكان رفيقى ينظر الىّ راضياً مرتاحاً . قال لى :

ـ أرى انك شجاع ! لسوف تشرّف بزّتنا العسكرية .

ووصلنا الى أرض المعركة ، حيث كنا ننتظر . وضعنا أنا وخصمى على بعد اثنتى عشرة قدماً . وكان عليه هو أن يطلق النار أولاً . وقابلته جذلاً فرحاً ، وأنا أنظر الى عينيه فأشـــعر أن قلبى يفيض حباً له . لم تطرف عينى . كنت واثقاً مما سأفعله . أطلق النار . خدشت الرصاصة خدى خدشاً خفيفاً ، ولامست أذنى ملامسة .

صحت أقول :

ـ الحمد لله ! انك لم تقتل أخاك .

ثم تناولت مسدسى فرميته ورائى فى اتجاه الغابة .

قلت :

ـ هذا ما أفعله بالمسدس .

ثم التفت نحو خصمى وقلت له :

ـ سيدى ! اغفر لى اننى أســأت اليك بغير سبب لطيشى وخفتى ، ثم أجبرتك على أن تطلق علىّ النار . أننى لا أســـاويك ولا أعدلك ،

SS

فأنت خيرٌ مني عشر مرات ، وربما أكثر من ذلك • قل هذا عن لسـاني للانسان الذي تقدره أكثر من أي انسان آخر في هذا العالم •

فما ان نطقت بهذه الكلمات حتى أخذ الثلاثة يصرخون •

قال خصمي وقد بدا عليه حتى شيء من الغضب :

ـ ما معنى هذا ؟ ما كان ينبغي أن تزعجني اذا لم تكن تنوى أن تقاتل •

فأجبته قائلاً بمرح :

ـ لقد كنت حتى الأمس غبياً أحمق ، ولكنني صرت ذكياً عاقلاً بعد ذاك •

فقال :

ـ أما انك كنت بالأمس غبياً أحمق ، فهذا أمر أسلّم به ؛ وأما أنك أصبحت ذكياً عاقلاً ، فهذا ما لا يبدو صحيحاً اذا نحن نظرنا الى سلوكك •

قلت وأنا أصفق بيديّ :

ـ مرحى ! انني أوافقك على ما تقول • لقد استحققت أن أسمع هذا الكلام •

قال ملحاً :

ـ أأنت عازم على أن تطلق النار يا سيدى أم لا ؟

فأجبته :

ـ لن أفعل • ولك أن تطلق مرةً ثانية اذا كنت تحرص على ذلك، ولكنك تحسن صنعاً اذا أنت لم تطلق •

اضطرب الشاهدان ، ولا سيما صاحبي •

ـ كيف تجرؤ على أن تلطخ شرف كتيبتنا بالعار ؟ آتطلب الصفح وأنت على أرض المعركة ؟ آه ... ليتنى تنبأت بهذا ! ...

كففت فى هذه المرة عن الضحك ، وقلت لهم جميعا وأنا أنظر فى أعينهم :

ـ سادتى ! أعجيبٌ الى هذا الحد حقا أن يوجد فى أيامنا هذه رجل يستطيع أن يندم على خطيئة ارتكبها ، وأن يعترف بها أمام الناس ؟

فصاح صاحبى يقول من جديد :

ـ لا ... ولكن هذا لا يكون على أرض القتال .

فاستأنفت كلامى قائلاً :

ـ أهذا ما يدهشكم اذن ؟ لقد كان يجب علىَّ فى الواقع أن أعتذر اليه منذ وصلت ، قبل أن يطلق علىَّ النار ، وذلك لأجنبه ارتكاب خطيئة قاتلة . ولكن من المؤسف أننا قد نظمنا حياتنا على تصورات تبلغ من السخف أنه كان يستحيل علىَّ أن أفعل ذلك ان صح التعبير ، فاننى ما كنت لأستطيع أن أتكلم آملاً أن أُفهم حق فهمى الا بعد أن أطلق علىَّ النار من على بعد اثنتى عشرة قدما ؛ والا لكان يمكن أن تعدونى جبانا غير جدير بأن يُسمع كلامى اذا أنا اعتذرت اليه منذ وصولى قبل أن يطلق .

ثم هتفت فجأة أقول مندفعاً بكل نفسى :

ـ أيها السادة ! تأملوا خلق الله من حولكم : السماء الصافية ، والهواء النقى ، والعشب الطرى ، والطيور المغردة ! ان الطبيعة تنبسط أمامكم رائعة بغير خطيئة . ونحن وحدنا ، معشر الأغبياء الأدنياء ، لا نستطيع أن نرى أن الحياة جنة . يكفى أن نعقد النية على أن نعرف

هذه الحقيقة حتى يبدو لنا العالم فورا بكل سنائه وبهائه وجماله • ألا فلنتعانق ولنبك •••

كنت أوشك أن أبكى ، ولكننى أمسكت وقد انقطعت أنفاسى • شعرت بانفعال شديد لذيذ ، وكان قلبى يفيض سعادةً لا عهد لى بمثلها من قبل •

قال خصمى :

ـ كلامك فيه عقل وشرف ••• لا شك فى أنك انسان طريف جدا •••

فأجبته ضاحكا :

ـ اسخر منى الآن ، ولكنك ستطرينى فى المستقبل •

قال :

ـ بل أنا مستعد لأن أثنى عليك منذ الآن • اسمح لى أن أمد اليك يدى ، لأنك فيما يبدو لى انسان صادق جدا •

قلت :

ـ لا ••• لا تمدد لى يدك الآن ••• وانما تمدها لى فى المستقبل ، بعد أن أصلح نفسى وأستحق تقديرك ••• يومئذ تصافحنى وتكون على حق اذا صافحتنى •

وعدنا الى المنزل • كان شاهدى حانقاً فهو لا ينفك يقرعنى فى العربة • أما أنا فكنت أقبّله • وما أن علم رفاقى بما حدث حتى اجتمعوا ليحكموا علىّ • قال بعضهم :

ـ لقد لطخ شرف بزتنا العسكرية بالعار ، فعليه أن يستقيل •

ودافع بعضهم الآخر عنى قائلاً :

ـ ولكنه صمد أمام اطلاق النار عليه دون أن يختلج •

فقال الآخرون :

ـ غير أنه جبن بعد ذلك ، وخاف استئناف تبادل الرصاص ، فاعتذر على أرض المعركة •

فأجاب المدافعون عنى قائلين :

ـ لو أنه خاف لأطلق النار أولاً قبل أن يعتذر ، أما وأنه رمى مسدسه فى الغابة محشواً بالرصاص فهذا دليل أن الأمر ليس كذلك ، وانما هو شىء آخر جديد طريف •

وكنت أصغى اليهم ، فتملؤنى أقوالهم فرحاً ، ثم قلت لهم آخر الأمر :

ـ يا أصدقائى ورفاقى الأعزة ! لا يقلقنكم أمر استقالتى ، فقد أرسلتها الى المكتب منذ هذا الصباح ، وسأدخل الدير متى قبلت الاستقالة •

فما ان سمعوا هذه الكلمات حتى انفجروا يضحكون ضحكاً صاخباً •

ـ كان ينبغى أن تقول هذا من قبل • الآن اتضح كل شىء • ليس يحاكم راهب •

كان رفاقى يضحكون ولكن بغير خبث ؛ انهم يضحكون وهم يشعرون نحوى بشىء من العطف والحنان • ومنذ تلك اللحظة أصبحوا جميعا يظهرون لى المحبة والمودة ، حتى أعتاهم اتهاماً لى وأقساهم حكماً علىّ • واحتفلوا بى فى الكتيبة طوال الشهر الذى انقضى بين تقديمى

الاستقالة واحالتي على التقاعد • كانوا يقولون :

ـ هذا راهبنا •

وأصبح كل واحد منهم يخاطبني بأقوال فيها محبة وعطف ، محاولا أن يصرفني عما عزمت عليه ، بل ومشفقاً عليّ راثياً لحالي •

ـ لماذا تفسد حياتك هذا الافساد ؟

ـ لا بل انه شجاع • لقد جابه اطلاق النار عليه وكان في وسعه أن يرد ، ولكن لا شك أنه رأى في منامه حلماً أثناء الليلة التي سبقت يوم النزال فقرر أن يدخل الدير •

وكان الامر كذلك في المدينة أيضا • لقد كان الناس في الماضي يحسنون استقبالي وكفى • أما بعد ذلك الحادث فقد أصبحوا يهتمون بي جميعا • انهمرت عليّ دعواتهم الى ولائم يقيمونها لي • صحيح أنهم يسخرون قليلاً من قراري ، ولكنهم يحبونني • ويجب أن أذكر أن السلطات قد أغمضت أعينها عن حادث مبارزتنا ، رغم أن هذه المبارزة أصبحت مدار حديث الناس جميعا ، وذلك لأن خصمي يمت الى جنرالنا بقربى قريبة • ثم انه ما من دمٍ قد سفح ، وقد استقلت ••• لذلك عُدّت المغامرة أشبه بمزاحة • وقد تجرأت فقررت أن أعبّر عن آرائي بغير تحرج ، رغم سخريات أبناء المجتمع الراقي التي لم تكن سخريات خبيثة شريرة والحق يقال ، بل كانت سخريات بريئة طيبة ••• وكانت تجري تلك الأحاديث عادةً في المساء ، بحضور السيدات ، لأن اهتمام النساء بي كان أكبر من اهتمام الرجال ، فكان يحلو لهن أن يصغين الى كلامي ، وكنّ يجبرن رجالهن على أن يصغوا اليّ كما يصغين هنّ •

كنت أُسأل بلهجة ساخرة :

SS

ـ كيف تزعم أننى مرتكب جميع الذنوب فى حق جميع الناس ؟ أأنا الذى اقترف أخطاءك مثلاً ؟

فكنت أجيبهم بقولى :

ـ لا تستطيعون أن تدركوا هذه الحقيقة اليوم ، لأن المجتمع قد سار منذ زمان بعيد فى طريق خطأ ، فرفع الى مصاف الحقائق ضلالات مشئومة ، وطلب من أعضائه أن يتبنوا هذه الأحكام . هذا أنا مثلاً : لقد أردت مرة فى حياتى أن أتصرف تصرفاً صادقاً ، فاذا أنا أصبح فى نظركم رجلاً ملتاث العقل . ومهما تحبونى ، فانكم تظلون تسخرون منى .

قالت سيدة المنزل ضاحكة :

ـ كيف يمكن أن لا يُحَبَّ فتى مثلك ؟

كان الجمع غفيراً جداً فى ذلك المساء ، ولمحت فجأة ، بين السيدات الحاضرات ، تلك المرأة التى أردت بسببها أن أبارز ، والتى كنت أحلم أن تكون خطيبتى قبل ذلك بقليل . لم أكن قد لاحظت وصولها . وها هى ذى تنهض وتدنو منى وتمد الىّ يدها وتقول لى :

ـ اسمح لى أن أقول لك اننى ، أنا ، لا يخطر ببالى لحظة أن أسخر منك . بالعكس : اننى لأحرص على أن أعرب لك عن شكرى متأثرة أصدق التأثر ، أن أعبّر لك عن تقديرى واحترامى للسلوك الذى سلكته فى ذلك الظرف .

وجاء الىّ زوجها أيضا ، وتبعه سائر المدعوين . كادوا يقبلوننى جميعا . اجتاح الفرح نفسى . ولاحظت خاصة ، بين الأشخاص الذين أظهروا لى مودتهم وعاطفتهم ، سيداً متقدما فى السن بعض الشىء ، كنت أعرف اسمه منذ زمن ، ولكننى لم أُقدَّم اليه ، فلم أخاطبه قبل ذلك المساء بكلمة واحدة .

SS

د ــ الزائر العجيب

كان يشغل منصبا هاما في مدينتنا منذ سنين كثيرة • انه شخص مرموق ، غني ، يتمتع باحترام عام ، اشتهر ببره واحسانه ، فقد وهب لملجأ الفقراء ولمأوى الأيتام مبالغ ضخمة • وكان عدا ذلك يساعد عددا كبيراً من الفقراء ، متخفيا متكتماً ، حتى أن ذلك لم يُعرف الا بعد موته• انه في نحو الخمسين من عمره ، وهو قليل الكلام ويوشك مظهره أن يكون قاسيا • وقد تزوج منذ عشر سنين فحسب ، وامرأته ماتزال شابه ، وله منها ثلاثة أولاد كانوا صغارا في ذلك الحين •

في غد ذلك المساء الذي جرى فيه الحديث ، كنت في منزلي ، فاذا بالباب يُفتح فجأة ، واذ بي أرى هذا السيد يدخل عليّ •

يحسن أن أذكر هنا أنني كنت قد غيّرت مسكني • فانني بعد احالتي على التقاعد قد استأجرت غرفة في دار امرأة عجوز هي أرملة موظف من الموظفين ، فكانت خادمة هذه العجوز تقوم على خدمتي • والحق انني تركت منزلي القديم في يوم المبارزة نفسه ، فما ان رجعت الى منزلي في ذلك الصباح حتى صرفت آتانازي وأرسلته الى الثكنة ، لأنني أصبحت لا أجرؤ أن أنظر اليه بعد الذي حدث بيننا • انظروا الى مدى هيمنة الأفكار السائدة على انسان من أبناء المجتمع لم يتهيأ للحياة الروحية الأخلاقية ! ان هذا الانسان يمكن أن يحمر خجلاً حتى من أنبل الأفعال وأجدرها بالاحترام •

قال لي هذا السيد :

ــ لقد أتيح لي أن أسمعك عدة مرات في منازل صديقة كثيرة ، فكنت أصغي الى كلامك باهتمام عظيم في كل مرة • وانني لأحب أن

أحظى بمعرفتك لأتحدث معك بمزيد من التفصيل • فهل تمنّ عليّ بهذا الفضل ؟

أجبته قائلاً :

ـ ذلك يسرني أعظم السرور ، وهو لي شرف كبير •

ومع ذلك فقد شعرت بشيء من الخوف • لقد أوحى اليّ هذا الرجل خوفاً عميقا • صحيح أنني كنت قد ألفت أن يكون لي مستمعون كثيرون ، وأن هؤلاء المستمعين كانوا في كثير من الأحيان يصغون الى كلامي باستطلاع واهتمام ، ولكن ما من أحد منهم قد واجهني حتى ذلك الحين بهيئة فيها هذا الجد كله وهذا النفاذ كله • أضف الى ذلك أن الرجل قد جاء الى بيتي بنفسه •

قال لي بعد أن جلس :

ـ لقد تبينت فيك قوة خلقية كبيرة ، لأنك لم تخش أن تخدم الحقيقة في ظروف تعرّضك لاحتقار الجميع •

فأجبته :

ـ لعلك تقدرني فوق قدري في هذه القضية •

فقال :

ـ لا ••• فان القيام بعمل كهذا العمل أصعب مما تظن •

وتابع يقول :

ـ لقد أثر سلوكك في نفسي تأثيرا قويا ، وهذا هو السبب الوحيد الذي دفعني الى زيارتك • أحب لو أسألك أن تصف لي ـ ما لم تر ذلك فضولاً مني في غير محله ـ ما شعرتَ به لحظةَ قررت أن تعتذر اليه على أرض القتال ، اذا كنت تتذكر مشاعرك • أرجو أن لا تعزو سؤالي هذا الى طيش مني ، فهناك أسباب خفية تدفعني الى القاء هذا السؤال عليك ، وسأشرح لك هذه الأسباب اذا شاء الله أن يقرب بيننا •

كانت أثناء استرساله فى هـذا الكلام أنظر اليه بانتباه ، فشعرت فجأة باطمئنان اليه وثقة به ؛ حتى لقـد أحسست أنا أيضا باستطلاع قوى ، لأننى قدرت أن فى حياته سراً . قلت له :

ـ قبل أن أذكر لك ما شعرت به أثناء اعتذارى الى خصمى على أرض المعـركة ، أحسب أن من المفيـد أن أروى لك كيف تسلسلت الأحداث منذ البداية تسللاً لا يعرفه أحد الى الآن .

وأطلعته على ما وقع لى مع آتانازى ، ورويت له كيف أننى سجدت أمامه ، وقلت أختم كلامى :

ـ تستطيع أن تفهم بعد هذا أن موقفى فى لحظة المبارزة كان سهلاً ، لأننى كنت قد رجعت الى الاحساس بالحقيقة وأنا فى منزلى ، فلما سرت فى هذا الطريق لم يكن علىّ الا أن أتابع المضىّ فيه ؛ وسلوكى بعد ذلك لا يتصف بأنه لم يكلفنى أى عنـاء فحسب ، بل كان الى ذلك مصحوبا باحساس بالسعادة والفرح .

أصغى الرجل الى كلامى بانتباه ، وكان فى نظرته الىّ مودة كبيرة وحب عظيم . قال :

ـ هذا كله شائق جدا ، وسأعود اليك لأتحدث معك مرارا .

وأصبح يجىء الىّ كل مساء تقريبا . وكان يمكن أن تتوثق بيننا عرى الصداقة ، لو أنه حدثنى عن نفسه أيضا . ولكنه لم يكد يفضى الىّ بشىء عن حياته ، وكان لا يزيد على أن يسألنى عن حياتى أنا . ومع ذلك فقد أحببته كثيرا ، وفتحت له قلبى كله ، قائلاً لنفسى اننى فى غير حاجة البتة الى معرفة سرّه ، وحسبى أن أعلم أنه رجل صادق مستقيم . وأرضانى أن أرى رجلاً أكبر منى سناً ، رجلا يبلغ هذا المبلغ من الجد ،

ثم هو لا يحتقر صحبة شاب مثلي ، بل يجيء اليه فى منزله ••• وقد تعلمت منه أشياء هامة كثيرة ، لأنه كان على جانب كبير من الذكاء •

قال لى فجأة ذات يوم :

ــ أما أن الحياة جنة ، فذلك ما أفكّر فيه منذ زمان طويل •

وسرعان ما أضاف قوله :

ــ بل اننى لا أفكر الا فى هذا •

ونظر الىّ مبتسماً •

ــ حتى اننى أشد اقتناعا بذلك منك ، لأسباب ستعرفها فيما بعد •

كذلك أضاف يقول بعد قليل •

وقدّرت وأنا أصغى اليه انه ربما كان يريد أن يفضى الىّ ببعض أسراره •

واستأنف كلامه قائلاً :

ــ ان كلاً منا يحمل فى نفسه جنةً مدفونةً • ان هذه الجنة قائمة فى نفسى وان تكن مختبئة • وحسبى أن أريد ، حتى أجعلها تنبجس منذ اليوم فأحتفظ بها طوال حياتى •

كان يتكلم بشىء من الحماسة ؛ وفى نظـــرته المنصبة علىّ رأيت ما يشبه أن يكون سؤالاً مستسراً عجيبا • وتابع كلامه يقول :

ــ انه لصحيح كل الصحة أن كل انسان مرتكب كل الذنوب فى حق كل الناس ، هذا عدا خطاياه الخاصة • تلك حقيقة كبرى عبّرت عنها ، ولا يسعنى الا أن يدهشنى أنك استطعت أن تكتشـــفها كاملةً ،

دفعةً واحدة • ومن المحقق أن ملكوت السموات سيكون واقعا لا حلماً فحسب ، فى اليوم الذى تفهم الانسانية فيه هذه الحقيقة •

فهتفت أقول بمرارة :

ـ متى يحدث هذا ؟ هل يجيء ذلك اليوم حقا ؟ أليس ذلك أملاً لا أكثر ؟

ـ أأنت لا تؤمن بهذا اذن ؟ أتبشر بالحقيقة ثم تستسلم للشك ؟ ألا فاعلم أن ما تسميه أملاً سيتحقق لا محالة • كن من ذلك على ثقة ! على أن هذا لن يتحقق اليوم ، لأن لكل فعل ميقاته فى الزمان بحكم قوانين صارمة • لا بد أن تتغير الانسانية تغيراً نفسيا وأخلاقيا • لن يكون من الممكن أن يتبدل العالم ما لم يكتسب البشر روحا جديدة ، وما لم يتجهوا فى طريق جديد • لن يكون على الارض أخوة ما لم يشعر البشر بأنهم اخوة حقاً • لن يستطيع البشر فى يوم من الايام أن يقتسموا ثرواتهم بالعدل اذا هم لم يستوحوا الا العلم ومصالحهم • ان كل واحد سيجد نصيبه أصغر مما يستحق أن يكون له من نصيب ؟ وان الحسد والحقد سيسودان فيدفعان البشر الى أن يفنى بعضهم بعضا • تسألنى متى يتحقق ملكوت السموات على الأرض • فاعلم أن ملكوت السموات سيتحقق على الارض فى يوم من الايام ، ولكن ذلك لن يكون قبل انتهاء « عهد العزلة » •

ـ أية عزلة تعنى ؟

ـ العزلة التى يعيش فيها البشر ، وتتجلى فى جميع الميادين ، ولا سيما فى عصرنا هذا • ان عهد العزلة هذا لم ينته ، حتى انه لم يصل الى ذروته • ان كل انسان فى هذا العصر يجهد فى سبيل أن يتذوق الحياة كاملةً ، مبتعداً عن أقرانه ، ساعياً الى السعادة الفردية • ولكن هيهات

أن تؤدى هذه الجهود الى تذوق الحياة كاملة ، فهى لا تقود الا الى فناء النفس فناء كاملا ، ولا تقود الا الى نوع من الانتحار الروحى بعــزله خانقــة • لقــد انحــل المجتمع فى عصرنا الى أفراد يعيش كل منهم فى جحره كوحش ، ويهرب بعضهم من بعض ، ولا يفكرون الا فى أن يخفوا ثرواتهم بعضهم عن بعض • وهم يصلون من ذلك الى أن يكره بعضهم بعضا ، والى أن يصبحوا جديرين بالكره هم أيضا • ان الانسان يكدّس الخيرات فوق الخيرات فى العــزلة ، وتسره القــوة التى يحسب أنه يملكهــا بذلك ، قائلاً لنفســـه ان أيامه قد أصبحت بذلك مؤمّنــة مضمونة ؛ انه لا يرى ، لحمــاقته ، أنه كلما أوغل فى التــكديس كان يغوص فى عجز قاتل • ذلك أنه يتعود أن لا يعتمد الا على نفسه ، ويفقد ايمانه بالتعاون ، وينسى فى عزلته القوانين التى تحكم الانسانيه حقــا ، وينتهى من ذلك الى أن يرتعد فى كل يوم خوفا على ماله الذى أصبح فقدانه يحرمه من كل شيء • لقد غاب عن البشر تماما فى أيامنا هــذه أن الأمن الحقيقى فى الحياة لا يتحقق بالعزلة ، وانما يتحقق باتحــاد الجهود وتناسق الأعمال الفردية • ان عهد العزلة الرهيب هذا سينتهى حتما فى يوم من الايام ، وسيفهم البشر فجــأة مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية ، وستهب على الانسانية يومئذ نفحة جديدة ، وستتساءل الانسانية مدهوشــة يومئذ : كيف أمكنها أن تعيش طوال هــذه المدة فى ظلمات الضلالة لا ترى النور ؟ وعندئذ سوف تظهر علامه ابن الانسان فى السموات ••• وانما المهم أن نحافظ على عَـلَـمه الى أن يجيء ذلك الحين ، وأن نحاول ، ولو بالقدوة الفــردية ، أن نخلّص النفس من عزلتها بزرع المحبة الأخوية دون أن نخشى اتهامنا بالغباء • ما ينبغى أن ندع لهذا الأمل العظيم أن يموت •••

هكذا كانت تنقضى ليالينا فى أحاديث مشبوبة متحمسة • وأصبحت

أهمل مجتمع المدينة شيئاً بعد شيء ، وأصبحت لا ألبي دعوات الناس الا لماماً . ثم أن الحماسة لشخصي كانت قد بدأت تزول . لقد عمت « موضتي » . ولست أقول ذلك لائما ولا عاتبا ، لأن الناس ظلوا يحبونني ويحسنون وفادتي . ولكن يجب أن نعترف بأن « الموضة » تلعب في المجتمع دورا كبيرا . أما زائري العجيب فقد أصبحت أحمل له مع مرور الزمن اعجابا شديدا . كنت أشعر أمام ذكائه بنشوة قوية ووجد عظيم، وكنت أحس أنه ينضج مشروعا سرياً أو يتهيأ لعمل كبير . ولعله قدّر فيّ أنني لا أتدخل فيما لا يعنيني فضولا ، فانني لم أحاول ، لا على نحو مباشر ولا على نحو غير مباشر ، أن أستدرجه الى حيث يُسرُّ اليّ بشيء من أمره. ولكنني لاحظت أخيرا أن سره يثقل على صدره ، وأنه يحترق شوقاً الى أن يفتح لي قلبه ، أو ذلك هو على الأقل ما شعرت به شعوراً واضحا كل الوضوح بعد شهر . قال لي يوما :

ـ هل تعلم أن الناس في المدينة يثرثرون كثيرا عنا ، وأنهم يدهشون لزياراتي المتكررة لك ؟ لا ضير على كل حال ، فان كل شيء سيتضح قريبا .

وكان يتفق له في بعض الأحيان أن ينتابه اضطراب شديد ، وكان في مثل تلك اللحظات ينهض في الغالب لينصرف . وكان في مناسبات أخرى يطيل التحديق اليّ ، ويلقي عليّ نظرات نافذة ، فأقول لنفسي عندئذ : « ها ... سيتكلم » ، ولكنه ما يلبث أن يغير الحديث ، ويتطرق الى موضوعات لا قيمة لها ، أو يقول أشياء معادة مكرورة . وكان يشكو من صداع في كثير من الاحيان . وفي يوم من الايام ، بعد أن تكلم بكثير من الحرارة ، رأيته يصفرُّ على حين فجأة ، ورأيت وجهه يتقلص ، ورأيته يتفرس فيّ تفرساً غريباً . قلت له قلقاً :

ـ ماذا بك ؟ أأنت مريض ؟

ذلك أنه كان قد شكا من صداع منذ قليل •

فقال :

ـ أنا ••• هل تعلم ؟ أنا ••• أنا قاتل ! •••

وابتسم بعد أن أفلتت منه هذه الكلمة ولكن وجهه كان قد اصطبغ بزرقة ضاربة الى سواد • « ما هذه الابتسامة ؟ » • برق هذا السؤال فى ذهنى ونفذ الى قلبى ، قبل أن يتسع وقتى لأن أرد بشىء • ولكننى شحبت أنا أيضا •

صحت أسأله :

ـ ماذا تعنى ؟

فاستأنف كلامه يقول وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـ هأنت ذا ترى كم كلفنى هذا الاعتراف الاول من عناء ! ولقد تم الاعتراف الآن ، وستكون متابعته أسهل وأيسر ••• فهيًا أتابع •••

لبثت زمناً طويلا لا أصدق ما كان يقوله لى ؛ ولم أستطع أن أصل الى التصديق الا شيئا فشيئاً ، بعد أن رجع الىّ ثلاث أمسيات متتاليات، فروى لى القصة بجميع تفاصيلها • ظننته فى أول الامر مجنونا ، ثم أدركت الحقيقة أخيرا بمرارة قوية ودهشة عميقه • لقد ارتكب هذا الرجل فعلا جريمة قتل رهيبة منذ أربعة عشر عاما : قتل امرأة شابة غنية ، جميلة جدا ، كانت أرملة رجل من مالكى الاطيان ، وكان لها فى مدينتنا قصر تقيم فيه من حين الى حين • لقد افتتن هذا الرجل بها افتتاناً شديدا ، وتوله بها تولهاً مشبوبا ، وصارحها ذات يوم بحبه ، وحاول أن يقنعها بزواجه • ولكنها كانت تحب رجلا آخر هو ضابط فى الجيش عالى الرتبة واسع الشهرة كان عندئذ فى الريف وكان عليها أن تلحق

به قريبا • لذلك رفضت عرض صاحبى ، ورجته أن لا يجيء اليها بعد ذلك اليوم أبدا • فلما صرفته بهذه الخشونة ، وأصبح لا يستطيع أن يزورها ، تسلل ذات ليله الى منزلهـا الذى كان يعـرف ترتيبه ، مارا بالحديقة والسطح ، متهورا أشد التهور ، معرضا نفسه لأن يُكتشف • ولكن الحظ واتاه ، كما يحدث هذا كثيرا فى الجرائم الجريئة ، فنفـذ الى دارها من كوة فى السطح ، ثم هبط السلم المؤدى من طابق السقف الى شقة السيدة • كان يعلم أن الباب الذى يوجد فى أسفل هذا السلم يظل مفتوحا فى كثير من الأحيان بسبب اهمال الخدم • وعلى هذا انمـا كان يعوّل صاحبى ، فصدق حسابه • فلما صار فى الشقة اتجه فى الظلام الى غرفة نوم السيدة ، التى كان يشتعل فيها سراج • وشاءت المصادفة أن تكون وصيفتا السيدة قد خرجتا فى ذلك المساء ، دون أن تستأذناها ، وذلك لحضور حفله صغيرة تقيمها صـــديقة لهما تحتفل بعيـد ميلادها وتسكن غير بعيد • أما الخدم والخادمات فقد كانوا ينامون فى الملحقات بالحديقة ، أو فى المطبخ بالطابق الأدنى • فلما رأى المرأة الشابة نائمة اضطرم هـــواه واستعر ، فاذا بغيرة حانقة ظامئـة الى الانتقام تشب فى قلبه ، واذا هو يقترب من السيدة كالسكران ، ويغمـــد فى قلبها سكيناً وهو لا يدرك ماذا يفعل • لم يتسع وقت السيدة حتى لاطلاق صرخة • ورتب الرجل أموره بمكر شيطانى وحيل رهيبة من أجل أن تقع الشبهات كلها على ساكنى المنزل • لم يرض أن يستولى على محفظة القتيل ، وانما فتح أدراج صندوقها مستعينا بمفاتيح وجدها تحت وسادتها ، فاختـار من محتويات هذه الأدراج أشياء هى ما يمكن أن يسرقه خادم جاهل • لم يمد يده الى السندات والصكوك والاوراق التى لها قيمة كبيرة ، وانمـا سرق الأموال النقدية ، وسرق الحلى الذهبية مسترشدا بحجمها ووزنها ، محتقراً التحف التى يفوق ثمنها ثمن الحلى الذهبية كثيرا • وسرق كذلك

بعض الاشياء التذكاريه التى سنتحدث عنها فيما بعـــد • حتى اذا أتم جريمته على هذا النحو ، خرج من الدار متبعاً نفس الطريق الذى اتبعه فى الدخول • ولم يخطر ببـال أحـد على الاطلاق ، لا فى الغـد حين اكتشفت الجريمة ، ولا فى أية لحظة من لحظات حياته ، أن يكون هـو الجانى • وكان الناس يجهلون حبه للمرأة القتيل على كل حال ، لأنه كان شديد الصمت قليل الكلام ، ولم يكن له أصدقاء يمكن أن يُسرّ اليهم بشئونه • كان الناس يعدونه أحد أصدقاء القتيل لا أكثر ، حتى أنهم كانوا لا يعدونه من أصدقائها الحميمين ، لأنهم لم يروه فى منزلها خلال الأسابيع التى سبقت المأساة • وانصبت الشبهات رأساً على خادم قن اسمه بطرس ، وكانت جميع الظروف تشير اليه وتتهمه • كان هـذا الخادم لا يجهل أن المتوفاة ــ التى لم تكن تخفى ما عقدت نيتها عليه ــ تريد أن تدخله فى قائمة الفلاحين الذين ستقدمهم للخدمة العسكرية ، أولا لأنه عازب ، وثانيا لأنه سيء السلوك • وقد سمعه الناس فى احدى الخمارات يطلق أقوالاً يهدد فيها مولاته بالقتل وهو فى حالة سكر شديد وحنـق قوى • وفى غداة الجريمة ، وُجد على الطريق ، غيرَ بعيد عن الضيعة، فاقدَ الوعى من شدة السكر ، فى جيبه سكين ويده اليمنى ملطخة بدم• وقد فسّـر هو ذلك بأن أنفـه رعف ، ولكنه لم يُصدَّق • واعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً ، وأقرّتا بأنهما تركتا باب الدار مفتوحاً عن سهو وغفلة • وجاءت تفاصيل أخرى مؤيدة لقرائن الاتهام هذه ، فاعتقل الخادم البرىء ، وأودع السجن ، وكان سيمثل أمام القضاء لولا أنه أصيب بحمى حارة بعد أسبوع ، ثم مات فى المستشفى قبل أن يفيق من غيبوبته • وأغلق التحقيق ، ولم يبق الا تسليم الأمر لله ••• وظل جميع الناس ، القضاة ورجال السلطة وأبناء المجتمع فى المدينة ، مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها أحـــد غير الخادم المتوفى • وعندئذ انما بدأ العقاب •

وقد أسر الى الزائر العجيب ، بعد أن أصبح صديقى ، أنه لم يعرف عذاب الضمير فى الاونه الاولى • صحيح أنه تألم زمنا طويلاً ، ولكن ألمه كان حسرةً على أنه قتل المرأة التى يحبها وعلى أنه فقد الى الأبد كل أمل فى أن يسعد بقربها ، وكانت نار الحب ما تزال تكوى عروقه • أما أنه سفح دماً وقتل انسانا فذلك أمر لم يزعجه كثيراً ، ولم يكن يفكر هو فيه الا نادرا • كان اذا تصور أن تلك المرأة كان يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره لا يطيق أن يحتمل هذا التصور؛ وكان لهذا السبب موقناً بأنه كان يستحيل عليه أن يتصرف الا كما تصرف • وقد هزّه اعتقال الخادم فيأول الأمر ، ولكن مرض المتهم ووفاته لم يلبثا أن ردّا اليه هدوءه وطمأنينته ، اذ كان واضحاً (هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم لم يمت بسبب اعتقاله أو بسبب صدمة نفسية ، وانما مات بسبب البرد الذى أصابه أثناء هروبه ، حين بات ليلةً بكاملها على الأرض الرطبة فاقدَ الوعى من السكر • أما المال والأشياء المسروقة فانه لم يأبه لها قط ، لأنه (هذا ما كان يقوله لنفسه أيضا) لم يسرقها طمعاً بل تمويهاً • ثم ان قيمة هذه الأشياء المسروقة لم تكن كبيرة جدا ، وسرعان ما وهب لمأوى الفقراء الذى أنشىء فى المدينة فى الآونة الأخيرة مبلغاً يساوى قيمة الأشياء المسروقة بل يفوقه كثيراً • وقد فعل ذلك ليهدىء ضميره فى موضوع السرقة ، ومن الغريب أنه استطاع أن يهدئه فعلاً خلال مدة طويلة من الزمن كما أسرّ هو الىّ بذلك • واندفع يزاول نشاط مهنته اندفاعاً قوياً فغرق فى هذا النشاط ، واستطاع أن يحصل على أن يُعهد اليه بمهمة صعبة متعبة مضنية شغلته خلال سنتين ؛ واذ كان رجلا جمّ النشاط فائض القوة فقد أمكنه أن ينسى الجريمة التى ارتكبها نسيانا يشبه أن يكون كاملا • وكان اذا راودته ذكراها يبادر الى طرد هذه الذكرى • وقد انصرف أيضا الى البر والاحسان فدعم

وأنشأ أعمالا خيرية فى مدينتنا ، وذاع صيته فى العواصم ، فانتخب عضوا فى الجمعيات الخيرية بموسكو وسان بطرسبرج • غير أن قلقا أليما قد استيقظ فى نفسه بمرور الزمن ، وأخذت ذكرى الماضى تحاصره محاصرة ما تنفك تزداد الحاحاً وما تنفك تنقص اندفاعه فى العمل • وتعرف فى تلك الفترة الى امرأة شابة جميلة ذكية ، أعجبته كثيراً فقرر أن يتزوجها، آملاً أن يستطيع هذا الزواج أن يطرد كآبته ويبدد قلقه • كان يقول لنفسه انه اذا دخل حياة جديدة وأصبح ينهض، فى همة ونشاط ، بواجباته نحو امرأته وأولاده الذين سينجبهم منها ، فانه سيستطيع أن يتخلص من شبح الماضى الذى يحاصره تخلصا تاما • ولكن ما كان يتوقعه لم يتحقق، وانما تحقق نقيضه • فانه منذ الشهر الاول من حياته الزوجية شعر بهذه الفكرة تعذبه وتقض مضجعه : « صحيح أن زوجتى تحبنى • ولكن كيف عساها تتصرف اذا هى عرفت الحقيقة ؟ » • وحين أسرّت اليه أول مرة أنها ستصبح أماً اضطرب وقال لنفسه : « أأهب الحياة أنا الذى قتلت ؟ » • ثم لما كبر أولاده ، أصبحت تهاجمه وتلازمه أسئلة أخرى : « كيف أجرؤ أن أحبهم وأن أربيهم وأنشئهم كأننى أستاذ يعلم الفضيلة، فى حين اننى ارتكبت جريمة قتل ؟ » • وكان أولاده على غاية من الظرف والجمال ، ولكنه كان اذا اشتهى أن يلاعبهم يقول لنفسه : « لست جديرا بأن أتأمل وجوههم الحلوة الطاهرة التى تتلألأ فيها براءة نفوسهم • • » • وأخيرا انبجس أمام ضميره طيف المرأة التى قتلها ، انبجس وعيداً غامضاً كأنه نداء الدم المسفوح يهيب الى الانتقام ! وأصبحت توافيه فى الليل أحلام ثقيلة وكوابيس مرهقة • ومع ذلك استطاع بفضل قوة قلبه وثبات جنانه أن يحتمل هذا العذاب زمناً طويلاً ، واستطاع أن يقبله قائلاً لنفسه انه سيكفّر بآلامه الخفية عن خطيئته • ولكن أمله هذا قد خاب• فان القلق الداخلى ما انفك يزداد ويتفاقم • والناس فى المجتمع يحترمونه

تقديرا لبره واحسانه ، مع بهيبهم قسوة طبعه وانغلاق نفسه • ولكنه كان يزداد شعورا بالارهاق كلما ازداد شعورا باحترام الناس له• وقد اعترف لى بأنه فكر فى الانتحار غير مرة • غير ان قرارا اخر قد أخذ ينضج فى نفسه ، قرارا بدا فى أول الأمر حلماً طائشاً مجنوناً ولكنه ما زال يستولى على وجدانه ويترسخ فى ضميره حتى اصبح لا يستطيع أن يصرف عنه فكره • كان يقول لنفسه : « يجب أن أسلم نفسى للقضاء ، يجب أن أعترف بجريمتى ، يجب أن أتهم نفسى أمام جميع الناس بأننى قاتل • » • وظل ثلاث سنين يحمل فى خياله هذا الحلم الذى يعاوده فى صور جديدة بغير انقطاع • وانتهى الى الاقتناع بأنه سيشفى روحه وسيسترد أمنه الداخلى الى الأبد ، اذا هو اعترف بجريمته • ولكن ما ان تأصل هذا الاقتناع فيه حتى غزا الرعب قلبه ، فأصبح يقول لنفسه : «كيف أفعل مثل هذا ؟ » • وفى ذلك الحين انما وقعت المبارزة بينى وبين ذلك الرجل •

قال لى الزائر العجيب :

ـ حين نظرت اليك وجدت فى نفسى القوة على أن أعزم أمرى وأتخذ قرارى •

فهتفت أسأله وأنا أضمُ يديّ احداهما الى الأخرى :

ـ هل يمكن حقاً أن يكون حادث تافه كهذا الحادث قد ولّد فى نفسك عزيمة كهذه العزيمة ؟

فأجابنى قائلا :

ـ ان هذا القرار قد نضج فى نفسى خلال ثلاث سنين ، ولم تزد مبارزتك على أن أخرجته الى النور • اننى ازاء المثل الذى ضربته أنت قد استحييت من ضعفى وحسدتك •

SS

كذلك قال بلهجة تشبه أن تكون قاسية . قلت :

ـ لن يصدّقوك ، فبعد أربعة عشر عاماً ...

ـ عندى براهين ، براهين رهيبة ، لا يمكن دحضها ... سأقدم هذه البراهين .

بكيت وعانقته .

وقال لى بعد ذلك كأنه يخاطب انسانا يتعلق به مصيره :

ـ أجبنى مع ذلك عن سؤال ، سؤال واحد : ما الذى سيحدث فى هذه الحالة لزوجتى وأولادى ؟ قد تموت زوجتى حزنا . أما أولادى فانهم لن تسقط عنهم نبالتهم ولن يحرموا من أموالهم ، ولكنهم سيظلون الى الأبد أولاد سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة . وأية ذكرى سيحفظونها عنى ؟

صمت فلم أقل شيئاً .

وأردف يقول :

ـ سيكون علىّ أن أنفصل عنهم وأن أتركهم الى الأبد !

لم أجب بشىء ، وكنت أتلو صلاةً بصوت خافت . ونهضت أخيراً وقد امتلأت نفسى رعباً وفزعا . سألنى وهو ينظر الىّ :

ـ هيه ؟

قلت :

ـ سلّم نفسك للقضاء ! كل شىء سينقضى وتبقى الحقيقة وحدها . وسيفهم أولادك حين يكبرون مدى ما احتجت اليه من نبل وسموِ روحى فى سبيل اتخاذ هذا القرار .

SS

تركني في ذلك المساء وقد بدا عليه واضحا أنه قرر أن يعترف بجريمته • ولكنه ظل خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك ، يجيء الىّ كلّ مساء تقريبا ، ويستعد كل يوم لتحقيق ما عقد النية عليه ، حتى اذا جاء الغد جبن في آخـــر لحظة عن تحقيق عزمه • وكان تردده يقلقني ويعذبني • انه يبدو في بعض الأحيان ثابت الجنان صـــلب العزيمة ، فها هو ذا يقول في رقة وحنان :

ـ أنا أدري أنني سأعرف الجنة متى اعترفت بجريمتي • لقد عشت أربعة عشر عاماً في الجحيم • أريد أن أتألم • سأقبل المحنة وسأستأنف الحياة • الكذب لا يؤدي الا الى الظلمات ، وهو يسد الطريق نحو الضياء الى الأبد ! أنا الآن لا أجـــرؤ أن أحب حتى أولادي فكيف بالناس ! سيفهم أولادي ••• آه يا رب ! سيفهمون ما قاسيت ولن يدينوني !

ـ سيفهمون القرار الذي اتخذته ، وسيستحسنونه جميعا ، ان لم يكن فورا ففي المستقبل حتما • انك بهذا العمل تخدم الحقيقة ، تخدم حقيقة أعلى من الواقع الأرضي •

انصرف بعد ذلك وقد رضيت نفسه واشتد أزره ، ولكنني رأيتـــه في الغد عائدا الىّ وقد شحب وجهه وتشعثت هيئته ، فقال لي بلهجة فيها سخرية :

ـ كلما دخلت عليك أحسست أنك تتفرس فيّ كمن يقول لنفسه: « لم يقرر بعد ! » • صبرك ولا تتسرع في احتقاري : ان انفاذ هـــذا الأمر أصعب مما تظن • ومن يدري ؟ فقد أعدل عنه أخيراً ! أحسب أنك لن تمضي تشي بي !

والحق أنني لم أكن أتفرس فيه مستطلعا ، فلقـــد كنت لا أكاد

أجرؤ أن أنظر اليه • كانت هذه المأساة الداخلية تُمرضنى ، وكت أهم أن أبكى فى كل حين ، حتى لأوشك أن أُحرم النوم •

قال يوما حين وصل الىّ :

ــ تركت امرأتى منذ هنيهة • هل تستطيع أن تفهم ما معنى هذه الكلمة : امرأتى ؟ ••• لقد صاح أولادى يقولون لى حين خرجت من المنزل : « عد بسرعة يا بابا لتقرأ معنا فى كتاب الحكايات » • لا ••• انك لا تستطيع أن تفهم هذا • ان شقاء غيرنا يبدو لنا خفيفا •

وسطعت عيناه واختلجت شفتاه • وضرب المائدة فجأة بقبضة يده ضربةً بلغت من القوة أن الأشياء التى كانت عليها أخذت تهتز • أن هذه البادرة تبدو أمرا خارقا من رجل يبلغ ما يبلغه هو من وداعة ورقة فى العادة •

هتف يقول :

ــ أهذا ضرورى فعلا ؟ أهو مفيد حقا أن أشى بنفسى ؟ ما الداعى الى هذا الاعتراف ولم يُحكم على أحدٍ بسبب جريمتى ، ولم يرسل برىء الى السجن بدلا عنى ، وقد مات ذلك الخادم من مرض ؟ أما الدم المسفوح فاننى أكفر عنه بآلامى وعذابى • ثم انهم لن يصدّقونى ، وسيبعدون الأدلة التى يمكن أن أقدمها • ففيم أشى بنفسى ؟ هلاّ قلت لى فيم أشى بنفسى ! اننى مستعد لأن أتألم طوال حياتى من تلك الجريمة فى نفسى ، شريطة أن لا أجر زوجتى وأولادى معى الى الشقاء • هل من العدل أن أجبرهم على مشاركتى فى العقاب ؟ ألا ترى أننا قد ضللنا طريق الرشاد ؟ أين الحقيقة ؟ وهل هؤلاء الناس جميعا قادرون حقا على أن يدركوا الحقيقة ، وعلى أن يقدروها ويحترموها كما يجب أن تقدّر وأن تحترم ؟

قلت أخاطب نفسى : « رباه ! انه يهتم بتقدير الناس فى مثل هذه هذه اللحظة ! » • واجتاحت نفسى عندئذ شفقة شديدة عليه حتى بدا لى أننى مستعد لأن أشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف عذابه • لقد انقلبت سحنته انقلابا رهيبا • وما كان أشد انصعاقى حين أدركت لا بعقلى فى هذه المرة ، بل بروحى وقلبى ، مدى ما يكلفه مثل هذا القرار من ثمن باهظ !

هتف يقول :

ـ قرِّرْ مصيرى •

فأجبته هامساً :

ـ سلِّم نفسك للقضاء !

كان صوتى واهناً ضعيفا ، غير أن فيه حزماً وصلابة • ثم تناولت الكتاب المقدس من على المائدة ـ فى ترجمته الروسية ـ ودللته على هذه الفقرة من انجيل يوحنا ، الاصحاح ١٢ ، الآية ٢٤ : « الحقَّ الحقَّ أقول لكم : ان لم تقع حبة القمح فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها • ولكن ان ماتت فهى تأتى بثمر كثير » • وكنت قد وقعت على هذه الآية قبل زيارته بلحظات • قرأ الآية وقال :

ـ هذه هى الحقيقة •

ولكنه ابتسم بعد ذلك بمرارة ، وصمت لحظة ثم قال :

ـ ما أكثر ما يجد المرء فى هذه الكتب ! ما أسهل ما يوضع تحت أنفك كلام كهذا الكلام ! فمن ذا الذى كتب هذا كله ؟ هل يمكن أن يكون الذين كتبوه بشراً ؟

قلت :

ــ نعم • ولكنهم كتبوه بوحى من الروح القدس •

عاد يقول مبتسما مرةً أخرى ، ولكن ابتسامته فى هذه المرة يكاد يكون فيها كره :

ــ مهما تتكلم !

فتحت الانجيل على موضع آخر ، وأريته الآية ٣١ من الاصحاح ١٠ ، « الرسالة الى العبرانيين » • فقرأ : « مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » •

فرمى الكتاب وأخذ جسمه كله يرتعد • قال :

ــ هذه آية رهيبة • يجب أن أعترف لك بأنك أحسنت اختيارها للمناسبة •

ونهض قائلا :

ــ الوداع • أغلب الظن أننى لن أجىء اليك بعد اليوم • سنلتقى فى الجنة • لقد « وقعت اذن فى يدى الرب الحى » مدة أربعة عشر عاما• يظهر أن علىّ أن أسمّى هذه الفترة من حياتى هكذا • غدا سأضرع الى تينك اليدين أن تتركانى •••

وددت لو أقبله ، ولكننى لم أجرؤ • كانت قسمات وجهه متقبضة وكانت نظرته ثقيلة • خرج • تساءلت : « الى أين يمضى هذا الانسان الآن يا رب ! » ، وارتميت جاثيا على ركبتى أمام أيقونة العذراء • صليت باكيا لأم الرب التى تخف الى الشفاعة والحماية • انقضى نصف ساعة دون أن أكف عن الدعاء والبكاء • أوشك الليل أن ينتصف • هذا باب الغرفة يُفتح فجأة ، وهذا صاحبى يظهر من جديد • أذهلتنى رؤيته •

سألته :

ـ من أين جئت ؟

ـ نسيت ••• أظن أننى نسيت عنـــدك شيئا ••• هو منديل فى أغلب الظن • وهبنى لم أنس شيئا ، فان هذا لا يمنعنا من أن نتحدث •••

جلس • بقيت واقفا أمامه • قال لى :

ـ اجلس أنت أيضا •

أطعته • لبثنا على هذه الحال بضع دقائق لا نتكلم • كان يحدّق الىّ • وفجأة ، ضحك ضحكة صغيرة ••• أتذكر ذلك ••• ثم نهض ، واقترب منى ، وعانقنى بحرارة ••• وقال يخاطبنى فى هذه المرة بصيغة المفرد :

ـ تذكّر أننى جئت اليك هذه الليلة • لا تنس ذالك • فهمت ؟

تلك أوّل مرة يخاطبنى فيها بصيغة المفرد• ثم خرج • قلت لنفسى: « انه فاعل غدا » •

لم يخطىء ظنى • كنت أجهل فى ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد ميلاده • اننى لا أخرج منذ حين الا لماماً ، فلم يذكر لى أحد ذلك • كان يقيم فى كل سنة حفلة كبيرة فى منزله يدعو اليها كل أبناء المجتمع الراقى من أهل المدينة • وكذلك فعل فى هذه السنة • حتى اذا انتهى العشاء تقدم الى وسط الصالة ، ممسكاً بيده ورقةً كتب عليها اعترافاته موجهةً الى رؤسائه • كان رؤساؤه حاضرين الحفلة • قرأ تصريحه بصوت عالٍ ، ذاكراً جميع تفاصيل الجريمة التى ارتكبها منذ أربعة عشر عاما • وختم قراءته قائلا :

ـ أنا شيطان رجيم • وقد قررت أن أبعد نفسى عن المجتمع • لقد مستنى النعمة الالهية • أريد أن أتألم •

ثم وضع على المنضدة جميع الأدلة التى احتفظ بها خـلال تلك السنين ، والتى يأمل أن يبرهن بها الآن على قيامه بجريمته : حلى المرأة القتيل ، التى سرقها تمويهاً ودفعاً للشبهات ، والصليب والنيشان (الذى يضم صورة خطيب المرأة القتيل) ودفترا ورسالتين ؟ فأما الرسالة الأولى فهى من الخطيب يبلغ فيها خطيبته أنه آت قريبا ، وأما الثانية فهى جواب لم تتم كتابته وقد تركته على منضدتها لترسله الى خطيبها فى الغد . ماذا كان هدفه من أخذ هاتين الرسالتين ؟ وماذا كان الدافع الذى دفعه بعد ذلك الى أن يحتفظ خـلال تلك السنين كلها بهـذه الأدلة التى تتهمه وتعرّضه للخطر بدلا من أن يتلفها ؟ مهما يكن من أمر ، فاليكم ماحدث: ذُهل الحضور من اعترافاته ، وانتابهم جزع ، ولكنهم رفضوا أن يصدقوا هذه الاعترافات . صحيح انهم أصغوا اليه بكثير من الانتباه والاستطلاع، ولكنهم انما أصغوا اليه اصغاءهم الى انسان مريض . وبعـد بضعة أيام كانت المدينة كلها مجمعة على أن المسكين قد فقد عقله . ولئن لم يكن فى وسع رؤسائه ورجال السلطة أن لا يتابعوا الأمر ، فقد ارتأوا أخيراً أنه لا مجال لتحريك القضاء . ذلك أن الرسالتين والأشياء التى قدمها ان كانت تبعث على التفكير ، فلا يمكن أن يُبنى عليها وحدها اتهام ، حتى ولو ثبت أنها للقتيل ، فمن الممكن أن تكون القتيل قد عهدت اليـه بها كصديق . وقد علمتُ فيما بعد أن أصدقاء الضحية وأقرباءها قد تعرفوا هذه الأشياء ، فلم يبق حول ذلك شك . ولكن القضية لم تُحرّك رغم هذا ، فقد عُلم بعد خمسة أيام أن المسكين قـد مرض وأن حياته فى خطر . لا أستطيع أن أقول ماذا كان مرضه . وقد تحدث النـاس عن اضطرابات قلبية . ومهما يكن من أمر ، فان الأطباء قد فحصوا حالتـه العقلية أيضا ، وذلك بالحاح من امرأته ، فانتهوا الى أنه مصاب ببداية جنون . ولم أكشف عن اعترافاته لى طبعا ، رغم أن جميع الناس قـد

حاصرونى بالأسـئله • وحين أردت أن أزوره مع ذلك أُغلق دونى بابه ، وكانت امرانه خاصة هى التى حالت بينى وبينه • قالت لى : «أنت الذى أدخلت الاضطراب والاختـلال الى عقله ! لقـد كان دائماً قاتم المزاج ؛ وأصبح ضطرابه النفسى وسلوكه الغريب يقلقاننا منذ عام ، فجئت أنت فأجهزت على عفله ! أنت الذى حشوت رأسه بهذه الأفكار ! انه منذ شهر لا يكاد يخرج من عندك !

ولم يكن هذا شأن امرأته وحدها ••• هل تصدقون هذا ؟ لقـد هاجمتنى المدينة كلها عندئذ وأغرقتنى لوماً وتقريعاً •

ـ هذه خطيئتك !

هذا ما كان يقوله لى الناس فى كل مكان •

وكنت أصمت فلا أجيب ، وكنت فى قرارة نفسى سعيداً • ذلك أننى أدركت أن الرب قد أشفق على الرجل الذى أدان نفسه وأراد أن يلقى جزاءه • أما جنونه المزعوم ، فما كان لى أن أصدقه • وسُمح لى أخيرا بأن أراه ، لأنه أعـرب هو نفسه عن هـذه الرغبة ملحاً من أجل أن يودّعنى • فحين دخلت عليه أدركت منـذ اللحظة الأولى أن ساعاته لا أيامه وحدها ، معدودات • كان واهناً ضعيفا أصفر الوجه مرتعش اليدين يتنفس بكثير من العناء • ولكن نظرته تعبّر عن الفرح والهدوء وثبات الجنان • قال لى :

ـ انتصرت الحقيقة ! اننى انتظرك منذ مدة طويلة ، لماذا تأخرت فى المجىء ؟

أخفيت عنه أننى مُنعت من مقاربته •

ـ لقد أشفق علىّ الرب فنادانى اليه • أنا أعـلم أننى سأموت ، ولكن روحى قد عرفت السعادة والسلام والطمأنينة أخيرا ، لأول مرة

بعد تلك السنين الطويلة كلها • لقد وجدت الجنة فى نفسى منذ تكلمت مستوحياً ضميرى • أصبحت لا أخشى أن أحب أولادى وأن ألاطفهم وألاعبهم • ان الناس ترفض أن تصدقنى ؟ ما من احد يريد أن يسلم بأننى قاتل ، لا زوجتى ولا قضاتى • وأولادى لن يصدقوا هــذا ، هم أيضا • سوف أموت ، ولكن اسمى سيظل فى نظرهم طاهرا لم يدنّس ولم يُلطّخ • أوه ؟ اننى أشعر بالله الآن ، وان قلبى لمبتهج كأننى فى الجنة ••• لقد قمت بواجبى •••

لم يستطع أن يكمل كلامه ، فقد انتابه اختناق ، غير أنه شدّ على يدى بحرارة ، ونظر الىّ صامتا ، وقد سطعت عيناه بلهيب • لم نتمكن من اطالة حديثنا ، لأن امرأته قد نفــد صبرها ، فهى تشق البــاب بغير انقطاع • واتسع وقته مع ذلك لأن يدمدم قائلا :

ــ هل تتذكر أننى جئت اليك فى ذلك المساء ، عند منتصف الليل؟ لقد أوصيتك عندئذ بأن لا تنسى ذلك ••• فهل تعلم ماذا كان هدفى حين جئت اليك فى تلك الساعة ؟ كان هدفى أن أقتلك !

ارتعشت •

ــ فبعد أن تركتك ، لبثت أطوف فى الشوارع على غير هدى زمناً طويلا أصارع نفسى ، فاذا أنا أشعر فجأة بكرهٍ لك بلغ من القوة أننى أحسست أن قلبى يوشك أن ينفجر • قلت لنفسى : « بسببه وحده انما أنا مضطر الى الاعتراف الآن • لقــد أصبح قاضىّ ، ولن أستطيع أن أفلت من العقاب غدا لأنه يعلم كل شىء » • ليس معنى هذا أننى كنت أخشى أن تشى بى (ان هذه الفكرة لم تخطر ببالى فى لحظة من اللحظات) ولكننى كنت أقول لنفسى اننى لن أستطيع أن أنظر اليك بعد ذلك اذا أنا لم أسلم نفسى للسلطات • وسيان أن تكون فى هذه المدينة وأن تكون فى أقصى الأرض • أصبحت لا أطيق أن أتصور أنك تعيش فى مكانٍ ما

عالماً بأمرى حاكما علىّ مُدينا اياى. فأخذت أكرهك ، كما لو كنتَ علة شقائى ، كما لو كنت مسئولاً عما أنا فيه . ورجعت اليك متذكراً أن عندك على المائدة خنجرا . وجلست ، ودعوتك أن تجلس أنت أيضا ، ولبثت دقيقة طويله أفكر وأنا أحدّق اليك . بديهى أن حيـــاتى كانت ستتحطم على أى حال لو قتلتك ، وأننى كنت سأنتهى نهاية شقية ، سواء اعترفت بالجريمة الأخرى أم لم أعترف. ولكن ذلك لم يخطر ببالى فى تلك اللحظة ، لأننى لم أكن أهتم بالعـــواقب . كنت أكرهك ، وكانت تحرقنى رغبة قوية فى أن أثأر منك لكل ما كنت قد قاسيته من عـذاب . أما ما عـــدا ذلك فكان لا يعنينى . ثم انتصر الرب فى تلك الدقيقة على الشيطان فى قلبى . ولكن اعلم أن الموت لم يقترب منـــك فى يوم من الأيام كما اقترب منك فى تلك الليلة .

مات الرجل بعد أسبوع . وشيعت المدينة كلها جثمانه الى المقبرة. وألقى الكاهن كلمات مؤثرة . وانتحب المنتحبون حزناً عليه ، واشـتكوا مرّ الشكوى من المــرض الذى أماته . وبعـــد الجنـازة قاموا علىّ . وأصبحوا منذ ذلك الحين لا يدعوننى الى منازلهم . غــير أن عددا من الأشخاص ، كانوا قلةً فى أول الأمر ثم تكاثروا بسرعة بعد ذلك ، قد انتهوا الى الاقتناع بصــدق اعترافاته ، فكانوا يجيئـون الىّ فى كثير من الأحيان يزعجوننى بأسئلتهم عنه ، وقد امتلأت نفوســهم فضولا شديدا وخبثاً خفياً . ان الانسان يحلو له يرى رجلاً صالحا يسـقط ويتلطخ شرفه . أبيت أن أتكلم مع ذلك ، ثم لم ألبث أن بارحت تلك المــدينة مبارحة تامة . وبعد خمسة أشهر منّ علىّ الرب فوجهنى فى طـــريق اليقين والنور ؛ بوركت اليد الخفية التى قادت خطاى نحو الهدف . أما صاحبى ذاك ميشــيل ، خادم الرب ، الذى كان عاثر الحظ ، فقد ذكرته فى صلواتى كل يوم منذ ذلك الحين ، وما زلت أذكره فيها حتى هـذه الساعة .

٣

بعض التعاليم التي عبر عنها الأب زوسيما في أحاديثه

هـ ــ حديث عن الراهب الروسي والدور الذي يمكن أن يقوم به .

ما الراهب يا اخوتي ومعلميّ ؟ ان بعض النـــاس في الأوساط المثقفة ينطقون بهـــذه الكلمة في أيامنا هذه ساخرين ، وان بعضهم لآخر يعدها مسبة واهانة . وسوء الفهم هذا ما ينفك يتفاقم بمرور الزمن . صحيح أن بين الرهبان ــ يجب عليّ أن أعترف بهـذه الحقيقة وا أسفاه ! ــ كسالى وفجرةً وفاســقين . فأولئك أناس أفاقون أشقياء ارتموا في الأديرة . والمتنورون من أبناء المجتمع يدلّون علينـا بهذا ليعدونا رجالاً وانين ، لا خير فيهم ولا نفع منهم ، وليعاملونا كما يعامَل طفيليون ومتســـولون لا شرف لهم . ولكن ما أكثر المتواضعين الوادعين بيننا مع ذلك ! ما أكثر الذين لايطمحون الا الى أن يصلوا للرب صلاة حارة في عزلتهم الهادئة ! ان الناس لايلقون بالاً الى هؤلاء كما يلقون بالاً الى أولئك ، حتى أنهم لايأتون على ذكرهم ولا يتكلمون عنهم البتة . ألا ما أشد الدهشة التي سيشعر بها أولئك الثالبـــون المشنّعون اذا هم

علموا أن روسيا المقدسة انما سينقذها مرةً أخـــرى فى يوم من الأيام هؤلاء الرهبان المتواضعون الظامئون الى العزله والصلاة! ان هؤلاء الرهبان يستعدون صامتين « لليوم والساعة ، للشهر والسنة » التى سيحين حينها. هم الآن يسهرون على صورة المسيح ، محاولين بكثير من التقى والخشوع فى حياتهم المغمورة ، أن يحافظوا على ما لهذه الصورة من سناء ونقاء ، فهم يعيشـــون فى الحقيقة الالهية وفقاً لتعـــاليم آباء الكنيسة والرسل والشهداء • حتى اذا دقت الساعة ذكروا البشر برسالته الى الانســانية المترنحة • ان هناك فكرة عظيمة هى قاعدة حياتهم • انها النجمه التى ستطلع يوما من المشرق •

ذلكم هو رأيى فى الرهبان • أأكون على ضلال ، أيكون حكمى قائما على عجب وغرور ؟ انظروا الى العلمانيين ، هؤلاء الذين يعيشون فى المجتمع ويعدون أنفسهم أعلى من رجال الدين : ألم يدنسوا نفوسهم ويخونوا الحقيقة الالهيـــة ، هم الذين خلقوا على صورة الرب ؟ انهم يملكون العلم ، ولكن العلم لا يعرف الا ما تدركه الحواس • أما الكون الروحى ، أما العنصر الأسمى فى الطبيعة الانسانية ، فقد رفضوه ونبذوه، واطرحوه وأدانوه ، شاعرين بنوع من فرح الانتصار ، بل وبنوع من الكره والبغض • ان العالم يعتز بالحرية ، ولا سيما فى أيامنا هـــذه ، ولكن ما الذى تؤدى اليه هذه الحرية ، وما الذى نراه يتأكد باسمها ؟ عبودية النفوس والانتحار الأخـــلاقى ••• يقول النـــاس : « ان لك حاجات ، فعليك أن تسعى الى ارضائها ، لأن حقوقك لا تقل عن حقوق الأغنياء والكبار • لا تخش رغباتك ، بل أكثر عددها • » • تلكم هى عقيدة هذه الأيام • هكذا يتصور الناس الحرية فى هـــذا العصر • فما الذى يؤدى اليه هذا الحق المزعوم فى اكثار المرء رغباته ؟ انه يؤدى لدى الأغنياء الى العزلة والموت النفسى ، ويؤدى لدى الفقراء الى الحسد

والقتل • ذلك أن الناس قد أعطوا حقوقا ، ولكنهم لم يُعلَّموا بعدُ وسائل تحقيق الغلبة لها ووسائل ارضاء حاجاتهم • يزعم بعضهم أن التطور الطبيعي يقود الانسانية نحو مزيد من الاتحاد ، فازالة المسافات بالمكتشفات الحديثة ، وانتشار الفكر في الهواء ينميان الاحساس بالأخوة والتضامن • واحسرتاه ! لا تدعوا لهذه الأوهام أن تخدعكم ! ما من وفاق يمكن أن يقوم على أسس من هذا النوع • اننا اذا تصورنا الحرية على أنها قدرة الفرد على اكثار حاجاته وارضائها بسرعة ، كنا نشوّه طبيعة الانسان ، ونثير فيه حاجات باطلة لا سبيل الى تحقيقها ، ونخلق له عادات حمقاء وأحلاماً مجنونة • ان الناس لا يعيشون اليوم الا في الحسد اشباعا لشهواتهم أو ارضاء لغرورهم • ان اقامة الحفلات ، والخروج في النزهات ، والتمتع بالمآدب، واقتناء العربات الفاخرة ، والظهور بالمظاهر الخلابة وامتلاك الخدم الأقنان ، ان ذلك كله يبدو لأبناء المجتمع ضرورة لا غنى لهم عنها ، وحاجةً لا يبالون في سبيلها أن يضحوا بحياتهم وشرفهم ، وأن يتخلوا عن حب الانسان أخاه الانسان ، حتى ليؤثرون أن ينتحروا على أن يتنازلوا عنها • وهذا يصدق أيضا على من لا يملكون ثراءً طائلاً • أما الفقراء فانهم يخنقون بالسكر ، الى حين ، ما يشعرون به من حسد ، وما يدركونه من استحالة ارضاء رغباتهم • ولكن سيأتي يومٌ يسكرون فيه بدمٍ لا بخمر • فالى هذا انما يُدفعون • اني لألقي عليكم هذا السؤال : هل هؤلاء الرجال أحرار ؟ لقد عرفت في الماضي مثقفاً كان « يناضل في سبيل فكرة » • وقد أسرّ اليّ هذا الرجل في ذات يوم أنه حين حُرم من التدخين في السجن بلغ ألمه من هذا الحرمان أنه أوشك أن يخون « فكرته » في سبيل التدخين • وكان يزعم أنه يريد أن « يناضل في سبيل الانسانية » • هل نصدق أن رجلاً كهذا الرجل يمكن أن يمضي بعيدا في بذل الجهد ؟ انه عاجز الا عن اندفاعات

مؤقتة وعمل مباشر ، أما الثبات والاستمرار فلا طاقة له بهما • فهل غريب بعد هذا أن البشر لم يجدوا الحرية بل العبوديه ، وأنهم بدلاً من أن يخدموا الانسانيه وأن يوحدوها فد سفطوا الى « العزلة » ، كما قال لى فى شبابى زائرى العجيب ومعلمى ذاك ؟ لهذا نرى العالم الآن بسبيل أن يفقد اليوم حس الاخلاص للانسانية ، حس الوحدة الانسانية والأخوة الانسانية ، ويبلغ من ذلك أن هذه الأشواق الكبرى أصبحت لا تثير الا ابتسامات هى ابتسامات من أصبح لا يؤمن بالأوهام ••• وأنّى للانسان فعلاً أن يتحرر من عاداته المكتسبة ، وماذا يمكن أن يصير اليه الانسان الذى استعبدته حاجاته ، اذا كنا قد علمناه أن يرضى الشهوات الكثيرة التى يخلقها هو نفسه ؟ ان انسانا هذا شأنه انما يعيش فى عزلة روحية • وهل تعنيه الجماعه فى هذه الحالة ؟ ذلك ما وصل اليه البشر: جمعوا ثروات فوق ثروات ، أما الفرح فقد تناقص فى قلوبهم •

ولا كذلك الطريق التى يسير فيها الراهب • كثيرا ما يسخر الناس من الطاعة والصيام والصلاة ، مع أن الطاعة والصيام والصلاة هى فى الواقع السبيل الوحيدة الى بلوغ الحرية الحقيقيه : اننى حين أضحى بحاجاتى الزائدة ، وحين أسيطر بالطاعة على ارادتى المزهوة الأنانية ، انما أرتفع بعون الله الى الحريه الروحيه التى تهب لى الفرح النفسى • أيّهما أكثر تأهباً للنضال فى سبيل فكرة عظيمة ، ألغنى الذى يعيش فى عزلته الروحية أم الراهب الذى تحرر من استبداد العادات والحاجات المادية ؟ ان بعض الناس يأخذون على الرهبان أنهم معتكفون ، فهم يقولون لهم : « لقد اعتزلتم العالم لتضمنوا سلامتكم وراء جدران دير ، ونسيتم تضامنكم مع البشر اخوتكم ، ونسيتم واجب خدمة الانسانية » • لسوف نرى من الذى سيخدم قضية الأخوة الانسانية خيرا من غيره • ألا انهم هم الذين يعيشون فى العزلة ، لا نحن ، ولكنهم لا يدركون ذلك • ومن

بيننا انما خرج ، منذ أقدم العصور ، أولئك الرجال الذين ناضلوا فى سبيل سعادة الشعب . فلماذا لا يكون الامر على هذا النحو اليوم ؟ لسوف يُرى هؤلاء الرهبان المتواضعون الذين يلتزمون قواعد الصيام والصمت، لسوف يُرون فى يوم من الايام يهبون للقيام بعظائم الأعمال . ان الشعب هو الذى سينقذ روسيا ، وان الرهبان الروس قد ظلوا متحدين بشعبنا اتحادا قوياً فى جميع الأزمان . اذا كان الشعب فى العزلة فنحن فى العزلة أيضا . ان ابن الشعب يؤمن بما نؤمن به نحن . أما مثقفونا الملحدون ، فانهم لن يصلوا الى شىء فى روسيا ، ولو صدقت قلوبهم وكانوا ينعمون بذكاء عبقرى . تذكروا هذا : ان الشعب سيقوم أخيرا على الملحدين وسيغلبهم . سوف تسترد روسيا العظيمة وحدتها الروحية فى الأرثوذكسية . اسهروا على الشعب ، وصونوا طهارة روحه . ربوه فى صمت . تلكم هى رسالتنا أيها الرهبان ، لأن هذا الشعب يحمل فى نفسه الله .

و ــ حديث عن السادة والخدم
هل يمكن أن يصبحوا اخوة فى الروح ؟

انه لصحيح ، وا أسفاه ، أن الشعب يعيش فى الخطيئة هو أيضا . ان عوامل الانحلال والتفسخ تتابع عملها ، وان الشر ينتشر ساعة بعد ساعة ، لأن عدواه تأتى من الطبقات العليا ، فاذا بالصغار والفقراء يقعون فى العزلة هم أيضا . اننا نرى ظهور المحتكرين والمستغلين . والتجار يزدادون ظمأً الى مظاهر المجد . انهم يريدون أن يُعدّوا مثقفين ، مع أنهم لا يملكون أية ثقافة فى الواقع . وهم يحسبون أنهم يصلون الى ذلك باظهار احتقارهم للعادات القديمة ، ويبلغون فى هذا حد الشعور بالخجل والعار من ايمان آبائهم . انهم يختلفون الى مجتمع الأمراء ،

مع أنهم ليسوا الا فلاحين متدهورين • ان الادمان على الخمر يهلك روح شعبنا الذى لا يستطيع التحرر منه • ما أشد قسوة حياة المرأة وحتى حياة الاطفال فى الاسر الفقيرة ! ان الاسراف فى شرب الخمرة هو سبب ذلك • لقد رأيت أطفالا يعملون فى المصانع وهم لمّا يكادوا يبلغون العاشرة من أعمارهم : انهم ضعاف هزيلون مقوّسو الظهور قد فسدت أخلاقهم منذ الآن • القاعات الخانقة الموبوء هواؤها ، ضجة الآلات ، العمل الذى لا تتخلله راحة كافية ، الأحاديث البذيئة التى يسمعها الطفل فى هذه البيئة ، المشروبات الكحولية ، ذلك كله لا يخلق مناخا صالحا لنفس الطفل• ان الأطفال فى حاجة الى الشمس ، والألعاب، والقدوة الحسنة ، وحد أدنى من العاطفة والحنان ! يجب أن تنتهى هذه الحالة أيها الرهبان ، وأن يتخلص الاطفال من العذاب ! امضوا الى الناس وعظوهم حتى تزول هذه الشرور بأقصى سرعة • ولكن الله سينقذ روسيا رغم كل شيء • ذلك أن ابن الشعب ان تدهور وأصبح لا يشعر بالقدرة على العدول عن هذه الخطايا الرهيبة ، فانه يعلم على الأقل أن سوء سلوكه هذا لا يرضى الرب ، وأنه يخطىء اذ ينقاد للشر• ان شعبنا لم يفقد ايمانه بالخير • انه مؤمن بالله ، وهو يبكى ندماً على خطاياه بدموع صادقة • وليس هذا حال أبناء المجتمع الراقى وا أسفاه ! فهؤلاء يدعون اقامة العدالة بمعونة عقلهم وحده ، مستلهمين تعاليم العلم مستغنين عن المسيح بعد اليوم • حتى لقد نادوا منذ الآن بأنه لا خطيئة ، بأنه لا جريمة • ولا شك أنهم من وجهة نظرهم على حق : فاذا لم يكن هنالك اله ، لم يكن هنالك خطيئة ! فى أوروبا تثور الشعوب على الأغنياء وتريد أن تقاتلهم بالقوة ؟ وقادتها تقودها فى كل مكان الى اراقة الدماء قائلةً لها ان غضبها حق وعدل • ألا ان « الغضب ملعون لأنه قاس » • ان روسيا سيخلّصها الرب ، كما سبق أن خلّصها الرب مرارا فى

الماضى • وسيأتى الخلاص من الشعب ، سيأتى الخـــلاص مما يملكه الشعب من روح الاذعان لمشيئه الله ، ومن ايمان بوجود الله • فيا أبائى ومعلمى ، صونوا ايمان شعبنا ، لان ما ابشركم به الآن ليس حلماً من الاحلام • لطالما شدهت أثناء حياتى كلها مما يتمتع به شعبنا الروسى العظيم من كرامة صادقة ونبل كبــير • لقد رأيت هذا بنفسى ، وكنت شاهدا عليه ، وفى وسعى أن أؤكده لكم ، رغم الخطايا الكثيرة والمبائس الشديدة التى يعيش فيها • ان الفقراء والصـــغار لم يصبحوا عبيدا فى بلادنا ، بعد قرنين من الرق ، بل حافظوا على مسلك الحرية ، دون أية غطرسة مع ذلك ؟ ولم تعصف بنفوسهم روح الحسد والانتقام • لسان حالهم يقول : « أنت غنى ، وأنت فى مرتبه عاليه ، وأنت ذكى ، وأنت صاحب موهبة • اننى أعلم ذلك ، وأسأل الله أن يحميك ! اننى أحترمك، ولكننى لا أنسى أننى أنا أيضا انسان • واذا احترمتك دون أن أحسدك، فاننى أؤكد أمامك كرامتى الانسانية » • لئن كانوا لا يقولون هذا الكلام صراحة (لأنهم لا يحسنون التعبير عما بأنفسهم) ، فان هـــذا الموقف النفسى يتجلى فى سلوكهم • رأيت ذلك ، وكنت شاهداً عليه • صدقونى اذا قلت لكم : ان الروس تزخر نفوســـهم بالحقيقة النبيلة على قـــدر ما يكونون فقــراء صــغارا • ذلك أن الذين اغتنــوا منهم قد أصــبحوا محتكرين ومستغلين وفسدت أخلاق أكثرهم منذ الآن، وهذا أمر نُسأل عنه نحن انفسنا بعض الشىء بسبب اهمالنا وضعف نشاطنا وهمتنا• ولكن الرب سينقذ ذويه ، لأن روسيا عظيمة باذعانها لمشيئة الله • اننى أحــلم بمستقبلنا ، فيبـــدو لى أحيانا أننى أراه : ســيأتى يوم يشعر فيه أفســد أغنيائنا أخيرا بالخجل والعار من ثرواته أمام الفقير ؟ وسيبرهن الفقــير يومذاك ، بعد أن يرى ندم الغنى ومذلته ، على حسن الفهم هو أيضا ، فيترك له خيراته فرحا ، مستجيبا بالحب للتوبة النبيلة يتوبها ذاك الذى

أنعم عليه القدر . صدقوني أن هذا ما سيكون ، لأن هذا هو ما يقودنا اليه التطور . لن يكون هناك مساواة الا في الشعور بكرامة الانسان الروحية ، وهذه حقيقة غير مفهومة الا في بلادنا . لسوف تسود الأخوه متى أصبح البشر اخوة بالقلب ، وبدون هذه الأخوه لا يمكن أن يكون هناك قسمة عادلة . ألا فلنحتفظ في أنفسنا بصورة المسيح ، حتى تشرق على العالم في يوم من الأيام درةً تشع ضياء . آمين ، آمين !

يا آبائي ومعلميّ ، لقد اتفق لي في الماضي أن عانيت تجربةً تهز النفس هزاً قوياً . حينما كنت أجوب روسيا ، التقيت في مدينة ك ... ، وهي مركز مقاطعة ، بخادمي الجندي آتانازي الذي لم أكن قد رأيته منذ ثماني سنين ، أي منذ اليوم الذي صرفته فيه الى الثكنة . لقد لمحني مصادفةً في السوق فعرفني فهرع اليّ وقد استخفه الفرح :

ـ أهذا أنت يا مولاي ، أنت ، أنت ؟ هل يمكن حقاً أن تكون أنت ؟

وقادني الى منزله . كان قد تحرر من الجندية وتزوج وأنجب طفلين ، وهو يعيش مع أسرته من تجارة صغيرة على بسطة . ان مسكنه ضيق ولكنه نظيف مضيء . فلما أجلسني ، سخّن السماور واستدعى امرأته ، كأن زيارتي عيد له . وقدم اليّ ولديه قائلا :

ـ باركهما يا أبانا .

فأجبته :

ـ أأنا من يباركهما ؟ ما أنا الا راهب متواضع . سأدعو الله لهما. أما أنت يا آتانازي بافلوفتش ، فاني ما كففت عن الدعاء لك كل يوم ، منذ ذلك الحادث الذي وقع بيننا ، لأن كل شيء قد بدأ يومذاك .

شرحت له ما وسعني أن أشرح . فكان ينظر اليّ مدهوشاً ،

SS

لا يستطيع أن يفهم أن مولاه القديم ، الضابط ، موجود الآن أمامه بمسوح راهب بسيط • حتى لقد أخذ يبكى • سألته :

ـ لماذا تبكى يا من لم أنسه قط ؟ ألا ان الأفضل أن تُسر وتفرح يا عزيزى لأن الطريق الذى اخترته لنفسى طريق جميل مضىء •

كان لا يتكلم وانما هو يتنهد تنهداً ويهز رأسه بعطف قوى وتأثر شديد • وسألنى :

ـ ماذا صنعت بثروتك ؟

فأجبته :

ـ وهبتها للدير الذى نعيش فيه حياة مشتركة •

وودعتهم بعد أن شربنا الشاى ، فاذا هو يعطينى خمسين كوبكا للدير ؛ واذا هو يدسُّ فى يدى خمسين كوبكا أخرى ، خلسةً ، وهو يقول :

ـ هذه لك أنت • فما دمت راهبا تضرب فى الأرض فقد تنفعك فى الطريق •

قبلت صدقته ، وحييته وحييت امرأته ، وانصرفت مبتهج القلب ، أحدث نفسى قائلاً : « لا شك أنه مثلى فى هذه اللحظة ، يتنهد تارة ويبتسم تارة أخرى ، هازاً رأسه متسائلاً كيف جمع الرب بيننا من جديد » • ولم أره منذ ذلك الحين • لقد كنت سيده وكان خادمى ، ولكننا حين تعانقنا أثناء لقائنا بمحبة وحنان قد أعدنا اقامة الاخوة الانسانية الكبرى بيننا • لطالما فكرت فى هذا الأمر بعد ذلك ، وانى لأتساءل اليوم : « لماذا لا يكون من الممكن أن يتحقق الاتحاد بين الروس على هذه الطريقة البسيطة الصادقة نفسها فى يوم من الايام متى آن الأوان؟» • اننى أعتقد بأن هذا الاتحاد العظيم سيتم وأن ساعته اقتربت •

وانى لأضيف ما يلى فى موضوع الخدم : كان يتفق لى فى السنين

الأولى من شبابى أن أغضب على الخدم : « سكبت الطباخه الحساء ساخناً مفرطا فى السخونه ؟ الخادم لم ينطف ثيابى بالفرشاة » • ولكن ذكرى أخى العزيز قد بعث فى نفسى نورا ، لان اقواله كانت تعاودنى دائما : « أأنا جدير بأن يخدمنى الانسان ؟ هل يحق لى أن أعده أدنى منى لانه فقير جاهل ؟ » • وقد أدهشنى بعد ذلك أن معانى بسيطة هذه البساطة واضحة هذا الوضوح لا تعرض لعقولنا الا متاخرة • ان الحياة تصبح اليوم مستحيلة ما لم يكن هناك سادة وخدم • فلا أقلّ من أن نجعل سلوكنا يُشعر خدمنا بأن خدمتهم ايانا لا تُنقص حريتهم • لماذا لا نصبح خدماً لخدمنا ؟ انهم اذا لاحظوا أننا لا نتكبر عليهم أى تكبر ، سيتحررون من الشك فينا ومن محاذرتنا• لماذا لا نعدهم أقرباء ولا نستقبلهم فى أسرنا مبتهجين بوجودهم بيننا ؟ ان هذا الموقف يمكن اتخاذه منذ الآن ، ويمكن أن يكون قاعدةً للاتحاد العظيم الذى سيتحقق للانسانية فى المستقبل ، يومَ يشعر الانسان أنه ليس فى حاجة الى أن يكون له خدم ، ويوم يحاول أن لا يرد أقرانه البشر الى العبودية كما يفعل الآن ، وانما يتطلع بكل نفسه الى أن يصبح خادماً لجميع الناس عملاً بروح الانجيل • أتظنون أنه حلم باطل أن يراودنا الأمل فى أن نرى البشر أخيرا ينشدون السعادة فى السمو النفسى وممارسة المحبة ، بدلا من السعى الى الملذات المتوحشة فى النهم والفجور وحب الظهور وفى ذلك الظمأ الحاسد الى الارتفاع فوق الآخرين ؟ أما أنا فاننى أؤمن ايمانا راسخا بأن هذا ليس أملاً باطلاً ، وأن الزمان الذى سيتحقق فيه هذا الأمل قد اقترب • ان الناس يرفعون أكتافهم ويسألونكم ساخرين : « متى يأتى هذا الزمان ، وهل ما نراه الآن فى العالم يسمح بمثل هذه التنبؤات ؟ » • اننى أعتقد بأننا سنحقق هذا العمل العظيم بمعونة المسيح • ما أكثر الأفكار التى بدت فى الماضى مستحيلة التحقيق ، والتى عُدت قبل عشر سنين أفكارا

حمقاء طائشة ، ثم اذا هي تنتصر فجاة على الارض وتنتشر في كل مكان، لأن ساعة تحققها قد دقت وكانت خافية مستسرة ! ذلكم ما سيكون في بلادنا ، وسيشرق نور شعبنا على الانسانية ، وسيهتف جميع البشر عندئذ قائلين : « ان الحجر الذى رماه البناءون ورفضوه قد أصبح حجر الزاوية في البناء » • أما الساخرون المستهزئون فاننا نستطيع أن نلقي عليهم بدورنا هذا السؤال : « اذا كانت جميع أشواقنا أضغاث أحلام ، فهلاّ قلتم لنا متى تقدرون أن تشيدوا بناءكم وأن تنظموا أنفسكم على العدل بمعونة العقل وحده مع رفض المسيح ؟ » • قد يجيبون بأنهم هم الذين سيقيمون الوحدة الانسانية ، ولكن السذج منهم هم الذين يؤمنون بهذا الكلام ، حتى ليمكن أن يدهش المرء من بساطة هؤلاء • الحق أن في أفكارهم من الخيال الباطل ما ليس في أفكارنا نحن • انهم يأملون أن يقيموا العدل في هذا العالم ، لكنهم وقد رفضوا المسيح سوف ينتهي بهم الأمر الى اشعال الحريق وسفك الدم في كل مكان ، لأن العنف يستدعي العنف ؛ ومن يشهر السيف يهلك بالسيف • ما لم نؤمن بوعد المسيح ، فان البشر سيبيد بعضهم بعضاً ، الى أن لايبقى منهم على قيد الحياة الا اثنان وهذان الاثنان سيكونان عاجزين من غطرستهما عن التفاهم ، فاذا بأحدهم يقتل الثاني آخر الأمر ثم يقتل نفسه • ذلكم ما سيحدث اذا لم يتحقق وعد يسوع بوقف المذبحة حباً بالضعفاء والمسالمين الوديعين • حين كنت ما أزال أرتدي البزة العسكرية بعد المبارزة ، تحدثت في المجتمع كثيراً عن الخدم ، فكان السامعون يُدهشون من كلامي ويسألون :

ـ هل علينا أن ندعوا خدمنا الى الجلوس على أريكة ، وأن نقدم اليهم الشاى •

وقد أجبت عن هذا السؤال مرة بقولي (نني أتذكر هذا) :

ـ لم لا ، ولو من حين الى حين ؟

فسخر الحضور منى . الا أن سؤالهم يدل على خفه عقـــولهم . ان اجابتى لم تكن واضحة جداً ... أنا أسلّم بهذا ... ولكن يخيل الىّ اليوم أن قد كان فيها شيء من حقيقة .

ز ـ حديث عن المحبة والصلاة ، ومعرفة الحياة الآخرة

لا تنس أن تصلى أيها الشاب . فاذا كانت صلاتك صادقة صاحبها فى كل مرة شعور جديد ، وولّد هذا الشعور الجديد فكرةً جديدة كنت تجهلها الى ذلك الحين ، فكرةً ستشد أزرك وتقوى عزيمتك بعد ذلك . وستدرك عندئذ أن الصلاة تربية للنفس . تذكر أيضاً أن تردد كلّ مساء وكلما استطعت الى ذلك سبيلاً : « هب رحمتك يا رب لكل الذين يمثلون أمامك الآن » . ذلك أن ألوفاً من البشر يبارحون الأرض فى كل ساعة ، فى كل دقيقة ، وتمضى أرواحهم تمثل أمام الخالق . ما أكثر الذين قضوا منهم نحبهم فى العزلة ، بعيدين عن نظر أى صديق، ممتلئى القلب مرارة وحزناً ، لأن أحداً لن يأسف على رحيلهم ، حتى أن حياتهم ستكون قد انقضت دون أن يراها أحد . لن يعلم أحد غـداً أنهم عاشوا . فاذا بصلاتك تصعد فجأة الى الرب من الطرف الأقصى من الأرض تدعو لروح من الأرواح ، رغم انك لم تعرف هذه الروح ، ولا هى تعرف من أنت . لسوف تتأثر هذه الروح من ذلك تأثراً عظيماً حين تمثُل جزعةً أمام الاله العلى القدير . سوف تعلم أن أحداً يصلى لله من أجلها هى أيضاً ، سوف تعلم أن على الأرض انساناً واحـــداً على الأقل يتشفع لها ويحبها . وسينظر الرب عندئذ اليكما بمزيد من التسامح ، لأنك قد أشفقت على ذلك الميت ، وسيكون الرب أكثر رحمةً به ، لأن

حبه أوسع من حبك ، واحسانه أعظم من احسانك • وسيعفو الله عنه بسببك •

يا اخوتى ، لا تحتقروا البشر لخطاياهم ، أحبوهم رغم خطاياهم ، فبذلك تعرفون المحبة العظمى التى هى على صورة محبة الرب • أحبوا خلق الله جملةً ، وأحبوا كل ذرة من الرمل على حدة ، وكل ورقة شجرة ، وكل شعاع ضوء ! أحبوا الحيوانات ، أحبوا النباتات ، أحبوا كل موجود • انكم حين تحبون الخليقة تنفذون الى السر الالهى الذى تضمه ، والمعرفة التى تحصلون عليها بهذا ستنمو بعد ذلك ، ثم ما تنفك تكبر فى كل يوم ، فاذا حبكم يعم الكون بأسره ، ويصبح شاملا • أحبوا البهائم لأن الرب قد وهب لها بذرة فكر وأودع فى قلبها فرحا بريئاً • لا تعكروا هناءها ، لا تعذبوها ، لا تبئسوها ، لا تخالفوا ارادة الخالق • أيها الانسان ، لا تحملنك كبرياؤك على التعالى على الحيوانات ، فهى بلا خطيئة ، أما أنت فانك مع عظمتك تدنس الأرض بوجودك وتخلف أثراً نجساً حيث تمر • ذلك شأننا جميعا وا أسفاه ! ذلك شأننا جميعا ، بغير استثناء تقريبا ــ أحبوا الأطفال خاصة ، لأنهم بلا خطيئة ، لأنهم أشبه بالملائكة ؛ انهم يعيشون لفرحة قلوبنا وتطهير نفوسنا ، كقدوة مضيئة الى جانبنا • ويل للذين يسيئون الى الأطفال ! لقد علمنى الأب آنتيم أن أحبهم : كان هذا الراهب المتواضع ، يشترى بالكوبكات التى توهب لنا أثناء طوافنا ، يشترى حلوى يوزعها على الأطفال • كان لا يستطيع أن يراهم دون أن تهتز نفسه اهتزازا عميقا • كذلك كان هذا الانسان •

ان شكاً يراودنا فى بعض الأحيان ، ولا سيما حين نرى الخطيئة فنتساءل عندئذ : « أنرد بالقوة أم بالحب المتواضع ؟ » • عليك دائماً بالرفق واللين • فمتى اخترت الرفق واللين الى الأبد ، استطعت أن تستولى على

الأرض بأسرها • ان الحب المتواضع قوة هائلة ، أقوى من سائر القوى، ليس لها مثيل في العالم • راقب سلوكك في كل ساعة وفي كل دقيقة من اليوم ، حتى تشع الطهارة منك • قد تمر قرب طفل وقد عصف بك الغضب ، فتفلت من لسانك كلمة سيئة : لعلك لم تلاحظ وجود الطفل ، ولكن الطفل رآك ، والصورة النجسة الخبيثة التي تركتها له ستبقى في قرارة قلبه البريء • أنت لم يخطر ببالك شيء ، ولكنك قد بذرت بذور الشر في هذا الكائن الصغير ، ولا شك أن البذرة السيئة ستطلع يوما فتجلب له الشقاء • كل ذلك لأنك لم تراقب نفسك بحضور الطفل ، ولأنك توانيت عن تعهد الحب اليقظ الفعال في نفسك • الحب يا اخوتي معلم كبير ، ولكن يجب أن نعرف كيف نملكه • انه لا يكتسب بسهولة ؛ وانما يحصل عليه الانسان بثمن باهظ ، بجهد متصل طويل • ذلك أن المقصود ليس هو أن تحب موقتاً ومصادفةً ، بل أن تحب حباً مستمراً مطّرداً • ان أي انسان ، حتى المجرم ، يمكن أن يشعر بحب طارىء عابر • لقد كان أخي يستغفر العصافير ، وقد يبدو هذا سخيفا من أول نظرة ، ومع ذلك كان أخي على حق ، لأن الحياة أشبه ببحر محيط تختلط فيه وتتمازج فيه جميع الأمواج • ان ضربة تقع على مكان من الأمكنة تترجع آثارها في أقصى الطرف الآخر من الأرض • هل استغفار العصافير أحمق الى هذا الحد ؟ لو كنتَ خيراً مما أنت الآن ، لشعر العصفور بمزيد من الأمن والطمأنينة في قربك • ان الطفل وكل كائن حي آخر سيكون أسعد حالاً وأهدأ بالاً قربك اذا توافرت في قلبك ولو قطرة واحدة أخرى من الطيبة • أعود فأقول : ان الكون أشبه بأوقيانوسٍ جميعُ أجزائه متواصلة • فمتى أدركتَ هذه الحقيقة استغفرتَ العصافير أنت أيضا • اذا أدركت هذه الحقيقة تملكك حب واسع يملأ قلبك سعادة ووجداً فاذا أنت تسألها ، تسأل العصافير ، أن

تغفر لك خطاياك • فتعهد بالتنميه والاذكاء هده الحماسة الروحية وهذا الوجد ، دون أن تخشى أن تعد مجنوناً فى نظر الناس •

يا أصدقائى اسألوا الرب آن يهب لكم الفـــرح • كونوا فرحين كالأطفال ، كالعصافير الصـــغيرة فى السماء • لا تدعوا للاضـطراب أن يستولى عليكم ، ولا لخطايا البشر أن تصرفكم رؤيتهـا عن جهودكم ؛ لا تخشوا من ضلالاتهم أن تجعـــل عملكم عقيماً أو أن لا تســـمح له بالظهور • لا تقـولوا قط « ان الشر فى هذا العـالم قوى ، وان الظلم منتصر ، وان الأشرار مسيطرون ، على حين أننا نحن معزولون لا حول لنا ولا قوة ولا سلطان ، وان القوة الشريرة ستدمرنا قبـل أن نسـتطيع القيام بعمل صالح » • لا تدعوا لهذا اليأس يا أبنائى أن يستولى عليكم • وليس هنالك الا سبيل واحدة تنفع المرء فى حماية نفسه منه ، ألا وهى أن يعـــد نفسه مســئولاً عن جميع خطايا البشر • وتلك هى الحقيقة يا أصدقائى • فمتى اعترفتم بأنكم مســئولون عن كل شىء تجـاه جميع الناس ، أدركتم أن الأمر هو كذلك حقا ، وأن ذنبكم ليس وهماً صوّره لكم الخيال • أما اذا ألقيتم على عاتق غيركم ما هو فى الواقع نتيجة كسلكم وتوانيكم وضعفكم ، انتهيتم الى الســقوط فى هوة التكبر الشـيطانى ، وأخذتم تدمدمون متمردين على ارادة الله • سأقول لكم رأيى فى التكبر الشيطانى : انه لعسير علينا أن ننفذ الى دلالته الحقيقية أثناء حياتنا الأرضية، ونحن لهذا ميالون بطبيعتنا الى الوقوع فى الخطأ ، فاذا نحن نتكبر تكبر الشيطان ظانّين أننا بذلك نكبر ونحقق عملاً رائعاً جديراً بالاعجاب • ان المعنى الحقيقى لكثيرٍ من عواطفنا القوية واندفاعات قلبنا يفوتنا أثناء حياتنا الأرضية على كل حال • فلا تستسلموا للاغراء ولا تظنوا أن الجهل يمكن أن يكون لكم مسوّغاً • على ان « القاضى الأعلى » سيحاسبكم عما كان فى وسعكم أن تعرفوه ، لا عمّا يفوق عقولكم • ستدركون هذا فى حينه ،

SS

وستكفون عندئذ عن المناقشة بحضور الحقيقة التى ستعرفونها • لقد كتب علينا أن نضرب فى الأرض ، وما لم لكن صورة المسيح الغالية نصب أعيننا، فسنهلك بسبب أخطائنا كما هلك لنوع الانسانى قبل الطوفان • هنـاك أشياء كثيرة تبقى خافية عنا فى هـــذا العالم ، ولكننا فى مقابل ذلك قـد أوتينا معرفة الحياة الآخرة والصـــلات التى تربطنا بعالم أعلى وأفضل ؛ والجذور العميقة لعواطفنا وأفكارنا انما تمتد فى السماء لا فى الأرض على كل حال • لذلك يعلّم الفلاسفة أن ماهية الأشياء لا يمكن ادراكهـا فى هذه الحياة الدنيا • لقد أخذ الرب بذوراً من عالم الغيب فنثرها على الأرض ليزرع حـــديقته ، فنبت كل ما كان يمكن أن ينبت ، ولـكن الموجودات التى نبتت على هذه الأرض لا تحيا ولا تبقى حية الا بوعى الصلة التى تربطها بالعالم الآخر السرى • حتى اذا ضعف هذا الوعى أو زال ، مات عندئذ ما يكون قد طلع فيها ، فلا تكترث بعد ذلك بالحياة ، أو هى تكره الحياة • ذلكم هو رأيى على الأقل •

ح ـ هل يجوز للمرء أن يحكم على أقرانه ؟

الايمان الذى لا يتزعزع

تذكر خاصة أنه ليس من حقـك أن تحكم على قرينك كائناً من كان • ما من أحد يستطيع أن يجعل نفسه قاضيا على مجرم قبل أن يدرك أنه ، وهو القاضى ، لا يقل اجراما عن الجانى الماثل أمامه ، وأنه ربما كان هو المسئول الأول عن الخطأ الذى ارتكبه هذا الرجل • حتى اذا أدرك ذلك استطاع أن يحكم • قد يبدو هذا الرأى باطلا ، ومع ذلك فهذه هى الحقيقة • فلو قد استطعت أن أكون عادلا على الدوام ، لكان من الجائز

أن لا يرتكب هذا الرجل جريمته • فاذا أمكنك أن تلقى على عاتقك جنايه الجانى الماثل أمامك ، وأن تجعل حكمك فى قلبك ، فافعل ذلك بغير تردد واقبل أن تتألم نيابة عنه • أما الجانى فدعه ينصرف دون أن توجه اليه لوماً • استلهم هذه القاعدة فى السلوك ما وسعك ذلك ، ولو نصبك القانون قاضيا له ، لأن المذنب سينصرف بعد ذلك ليدين نفسه ادانة أقسى من ادانتك اياه • واذا ظهر لك أنه لم يحس رفقك به ، واذا ردّ على حبك بالسخرية ، فلا تدع لموقفه هذا أن يغضبك : فانما يدل هذا الموقف على أن ساعته لم تدق بعد ، وأنها ستحين فى المستقبل • وهبها لن تحين أبدا، فلا تهتم كثيرا بذلك ، لأن شخصا آخر سيعترف يوما بذنبه وسيتألم منه ، وسيدركه ، وسيدين نفسه بنفسه ، فاذا بالحقيقة تتأكد رغم كل شيء • صدّق ما أقوله لك ، صدّقه تصديقا جازما قاطعا ، لأن هذا هو الأساس الحق الذى يقوم عليه الأمل ويقوم عليه ايمان القديسين •

لا تقعد عن العمل ولا تدع لهمتك أن تفتر • فاذا تذكرت ، بعد أن رقدت فى سريرك لتنام ، أنك أغفلت القيام بوجب من الواجبات ، فانهض فورا لتدارك هذا النسيان • واذا رأيت نفسك محاطا بأناس أشرار لا يحسون ، ويرفضون أن يسمعوا لك ، فارتم على أقدامهم واستغفرهم، لأنك أنت الذى تحمل ذنب عنادهم فى الحقيقة • واذا شعرت بأنك عاجز عن أن تخاطب الأشرار بالحسنى ، فاخدمهم صامتا متواضعا دون أن تيأس قط • واذا هجرك جميع الناس وطردوك شر طردة ، فاسجد على الارض حين تصبح وحيدا واغمرها بقبلاتك • اسق الارض بدموعك ، فتحمل هذه الدموع ثمارا ، ولو لم يرك أو يسمعك فى عزلتك أحد • حافظ على ايمانك حتى النهاية ، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذى يحافظ عليه • اذا تنكر سائر الناس لعقيدتهم ، فثابر أنت على المضى فى طريق التضحية واستمرّ فى تمجيد الله يا آخر مؤمن ، فقد يلقاك مؤمن

آخر ، فتصبحا اثنين ، وهذا كافٍ لعودة الكون حياً بالحب : سوف تتعانقان عندئذ وقد امتلأت نفساكما عاطفة ، وسوف تسبحان بحمد الله فاذا الحقيقة تتأكد بكما رغم أنكما لستما الا اثنين •

اذا اتفق أن أثمت فأخذ الندم على ارتكابك الأخطاء يعذبك ويرهقك ارهاقا شديدا ، فليبهجك أن تتذكر أن هناك انسانا صالحا لم يرتكب اثماً، وقل لنفسك مغتبطاً سعيدا : لئن وقعت أنا فى الشر ، ان ثمة انسانا غيرى قد ظل طاهرا لم يتلوث •

واذا ملأك خبث البشر استياء وألما عنيفاً رغم ذلك ، حتى صرت تتمنى معاقبة المجرمين انتقاما ، فصن نفسك من هذه العاطفة بكل ما تملك من قوة ، وابحث لنفسك عن آلام مباشرة كأنك مسئول عن جرائم هؤلاء الناس • اقبل هذه الآلام وتحملها • فذلك يهدىء قلبك ويطمئن نفسك • سوف تدرك أنك آثم فعلا ، لأنك كنت تستطيع أن تهدىء هؤلاء الناس بالقدوة ، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذى يعيش بلا خطيئة، ثم لم تفعل ••• فلو أنك اتبعت طريق النور هذا فى حياتك ، لاستطاع الآخرون أن يروا طريقهم بنور طهارتك ، ولأمكن الانسانَ الذى تتهمه اليوم بالجريمة أن يبقى شريفا طاهرا • قد يحدث مع ذلك أن تكون أنت قدوة حسنة ثم يرفض الآخرون الخلاص الذى يأتيهم من نورك ، فلا يتزعزعن ايمانك حينذاك ، ولا يراودنك شك فى أن الحقيقة السماوية منتصرة آخر الأمر • اعلم أن البشر سيُنقَذون غدا ان لم يمكن انقاذهم اليوم • واذا لم يمكن انقاذهم أثناء حياتهم ، فسيُنقَذ أبناؤهم من بعدهم، لأن نورك لن يزول وسيبقى بعد مبارحتك هذا العالم • قد يزول الرجل الصالح ، ولكن نوره باق لا يزول • ثم ان الناس لا يقبلون الخلاص الا بعد موت ذلك الذى أراد أن يخلصهم • ان البشر لا يعترفون بأنبيائهم

بل يقلتونهم ، ولكن البشر فى مقابل ذلك يحبون شهداءهم ويقدسون أولئك الذين استشهدوا بأيديهم • ففى المستقبل وفى الانسانية بمجموعها انما يجب عليك آن تفكر حين تبذل ما تبذل من جهودك لا تنتظر ثواباً على الخير الذى تعمل ، لأن نصيبك فى هذا العالم كبير حتى بدون هـذا الثواب : لسوف تعرف نفسُك الفرحَ الحق الذى لا يوهب الا للصالحين• لا تخش العظماء ولا الأقوياء • كن عاقلا حكيما كريما على نفسك فى كل ظرف • التزم القصد والاعتدال • اعلم أن هناك آجالاً تفرض نفسها على تشوقنا الى العمل ، وتقيد بهذه الآجال • لُذْ بالصلاة فى العزلة • تعلم كيف تحب الارتماء على الارض وتقبيلها • قبِّـــل الأرض بغير كلال • وأحبَّها بكل نفسك • انشر حبك على كل ما يوجـــد • اندفع فى الحب واسعَ الى حماسة القلب • اسق الأرض بدموع فرحك ، واحبَّ هذه الدموع • لا يخجلنك وجدك • قدِّر هذا الوجد ، لأن الله مصدره ، فهو هبة كبرى لا توهب فى هذه الحياة الدنيا الا للمصطفين •

ط ـ حديث عن الجحيم والنار الابدية

تامل صوفى

يا آبائى ومعلمىَّ ، لقد تساءلت : « ما الجحيم » ، فأجبت : « هــو عذاب الانسان من أنه أصبح لا يستطيع أن يحب » • ففى المكان والزمان اللانهائيين ، تتاح للكائن الروحى الذى يظهر على الارض ، لحظةٌ وحيدة يمكنه فيها أن يقول : « أنا موجود وأنا أحب » • مرةً واحدة ، مرةً واحدة توهب لهذا الكائن الحى القدرة على أن يختار طريق الحب الفعال الحى ، وقد وهبت له الحياة لهذه الغاية مع ما تشتمل عليه الحياة من زمان

وآجال . وهذا الكائن الذى أُغدقت عليه هذه النعمة قد رفض النعمة التى لا توصف ، ولم يقدرها حق قدرها ، ولم يتمتع بها ، بل استخف بها وآثر أن تخلو نفسه من الحس . ان هذا الكائن يرى ابراهيم بعد أن يبارح الارض ، ويتحدث مع رب العائلة ، كما ورد فى رمز لازار والفتى الشرير . انه يرى الجنة ويعلم أنه سيمثل أمام الرب ؟ واذا كان يعذبه شيء فانما يعذبه أنه سيمثل أمام الخالق دون أن يكون قد أحب ، وأنه سيسير الى جانب مخلوقات مُحبة احتقر هو حبها . ذلك أنه الآن يرى ويدرك ، فيقول لنفسه : « أنا الآن أعلم ، ورغم اننى اليوم ظامىء الى الحب فلن يكون لحبى قيمة ولن تكون فيه تضحية، لأن حياتى الأرضيه قد انتهت ، ولن يأتى ابراهيم فيهدىء بقطرة من ماء الحياة (أى باعطائى حياةً أرضية جديدة فعالة شبيهه بالسابقة) ظمئى الى الحب الروحى لذى يحرق الآن نفسى بعد أن ازدريته على الارض : لن تكون بعد اليوم حياة، لن يكون بعد اليوم وقت ! اننى أتمنى الآن أن أضحى بوجودى فى سبيل غيرى ، ولكن فات الأوان ، لأن الحياة التى كان يمكن أن أضحى بها قد انقضت الى غير رجعة ، فالهوة تفصل بينى وبينها الى الأبد » . كثيرا ما يتكلم الناس عن نار الجحيم وهم يفهمونها بالمعنى المادى . اننى لا أريد أن أبحث هذا السرّ الذى يملأ نفسى رعباً وهولاً ، ولكننى أتصور أن هذه النيران لو كانت محسوسة مادية اذن لابتهج بها المعذبون ، لأن الألم الجسمى يتيح لهم عندئذ أن ينسوا ، ولو لحظةً قصيرة ، العذاب الروحى الرهيب . ثم ان تخليصهم من عذاب نفوسهم مستحيل ، لأنه عذاب داخلى لا خارجى ، فلا يمكن أن يناله تأثير الآخرين. وهبنا استطعنا أن نجرّدهم من هذا العذاب ، فان شقاءهم سيزداد من ذلك فيما يخيل الىّ . هب العادلين فى السماء غفروا لهم حين رأوا آلامهم ، وهبهم نادوهم اليهم بحب لا نهاية له ؟ انهم سيضاعفون بذلك آلامهم ، لأنهم سيوقظون فيهم

مزيدا من الظمأ الحار الى الحب المتبـــادل والعرفان والنبـل ، في وقت أصبحوا فيه عاجزين عن ذلك الى الأبد . على أنني أتصور ، خاشع النفس ذليلا ، أن شعورهم بهذا العجز سيخفف عنهم آخر الأمر بعض التخفيف ، واليكم كيف يكون ذلك : انهم حين يقبـــلون حب الصـــالحين دون أن يكونوا قادرين على أن يردوه بمثله ، سيجدون في التسليم بهذا التفاوت بينهم وبينهم وفي الوضع الذي سيمليه عليهم الشعور الصادق بأنهم دونهم ، سيجدون في ذلك معـادلاً أو صـورة للحب الفعـال الذي ازدروه على الأرض ، وسيصبحون قادرين عندئذ على فعل يذكّر بفعل النفس المحبة .. يؤسفني ، يا آبائي ومعلميّ ، أن لا أستطيع التعبير عما بنفسي بمزيد من الوضوح . ولكن ويل للذين أنهوا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم ، ويل للمنتحرين ! أحسب أنه ليس هناك من يفوق هؤلاء شقاءً ! يقـال انه اثم أن ندعو الله لمن قتل نفسه بارادته ، وواضح أن الكنيسة تطرد من حضنها ذلك الذي قتل نفسه بارادته . ولكنني أشعر مع ذلك ، في سريرة نفسي ، أنه يجوز الدعاء للمنتحرين ، لأن المسيح لن يسـوءه افراط في الحب . لقد دعوت طـــوال حياتي للمنتحرين ، أعترف لكم بهـذا الآن يا آبائي ومعلميّ ، وما زلت أدعو لهم كل يوم .

لا شك أن في الجحيم أيضا معذَّبين أصروا على صلفهم وضراوتهم وظلوا لا يتأثرون بالحقيقة رغم أنهم أصبحوا يعرفونها ويرونها ساطعة كل السطوع . ان بينهم أناساً رهيبين قد اتحـــدوا بالشيطان وانضـــموا الى عصـيانه . انهم يقبلون الجحيم بفرح مظلم ولا يسـتطيعون أن يشـــبعوا منه . أولئك يتعذبون ويريدون أن يتعذبوا . فقد لعنوا أنفسهم بأنفسهم اذ لعنوا الله والحياة . انهم يقتاتون بكرههم المتكبر الصلف اقتيات الجائعين في الصحراء بدمائهم يمتصونها . ان غليلهم لن يشفى يوما ، وهم يرفضون المغفرة الى الأبد ، لاعنين الرب الذي يناديهم . انهم لا يستطيعون الا أن

يشعروا بحنق مسعور حين يتأملون الاله الحى ، ويتمنون أن لا يوجد ، ويودون لو يفنى الخالق نفسه مع الخليقة كلها • هؤلاء سيظلون يحترقون الى الأبد بنيران كرههم منادين الموت والعدم فى غير طائل • ولكن لن يوهب لهم أن يموتوا •••

هنا تنتهى مخطوطة ألكسى فيدوروفتش كارامازوف• وأعود فأقول: هذا عمل غير مكتمل ، هذه أجزاء متفرقة • فالاشارات التى تتصل بحياة الشيخ زوسيما مثلاً لا تتناول الا الفترة الأولى من شباب الشيخ • وان شذرات من تعاليمه ومن الآراء التى أطلقها فى عهود مختلفة وبتأثير مناسبات شتى ، قد جُمعت هنا وصُهرت كما يرى القارىء ذلك واضحا • والأقوال التى نطق بها الشيخ فى الساعات الأخيرة من حياته لم تُنقل نقلاً كاملاً وانما عُرضت عرضا موجزا فيما يظهر ، بحيث تؤدى روح ذلك الحديث الأخير وتبرز عناصره الأساسية مزيدا من الابراز بمعونة أقوال أخرى استمدها الكسى فيدوروفتش من تعاليم شيخه السابقة • وقد وافت الشيخَ منيته على نحو لم يكن فى الحسبان حقاً • فرغم أن جميع الأشخاص الذين اجتمعوا حوله فى ذلك المساء قد أدركوا أن وفاته قريبة، فان أحداً منهم لم يتنبأ بأنها ستوافيه على هذا النحو المباغت • وكما سبق أن قلت فان أصدقاءه قد اعتقدوا حين رأوا ما رأوا من شجاعته وميله الى الكلام طوال تلك الليلة أن صحته ستتحسن تحسناً ملحوظاً وان يكن عابراً موقتاً ؛ ولا شيء كان يسمح لأحد ، الى ما قبل موته بخمس دقائق (كما رُوى هذا بدهشة فيما بعد) ، أن يتنبأ بأن وفاته وشيكة • ولكن بدا عليه فجأة أنه يحس بألم شديد فى صدره ، واصفر وجهه ، وشد

يده شداً قوياً على قلبه • نهض جميع الحضور وهرعوا اليه • وظل هو رغم الألم ينظر الى أصدقائه مبتسما • وترك نفسه ينزلق برفقٍ عن كرسيه ، فجثا على ركبتيه ، ثم سجد جاعلاً وجهه على الأرض ، وبسط ذراعيه بنوعٍ من الوجد الجذل• وقبّل الأرض بعدئذ ، ولفظ روحه على نحو ما أورد هو نفسه فى تعاليمه ، مصلياً فى اندفاعة عظمى من فرح هادىء مطمئن • انتشر نبأ وفاته فورا فى الصومعة والدير • وقام أصدقاؤه والأشخاص المختصون بتكفينه على ما توجبه الطقوس القديمة ، ثم اجتمع أعضاء الرهبنة فى الكنيسة • وقد عُرف موت الشيخ فى المدينة قبل أن يطلع الفجر ، كما أكد الناس ذلك فيما بعد • ومهما يكن من أمر، فقد تحدث الملأ عن موته فى كل مكان منذ الساعات الأولى من الصباح، وازدحم فى الدير جمع غفير من المواطنين • سنعود الى الكلام عن هذا فى الباب التالى ، وحسبنا أن نشير هنا ، مستبقين تتمة هذه القصة ، أن حادثاً غير منتظر قد وقع قبل نهاية النهار ، فأحدث فى نفوس سكان الدير وفى نفوس سكان المدينة على السواء أثراً يبلغ من الغرابة ومن الاقلاق ومن العنف أن ذكراه ما تزال حتى يومنا هذا ، بعد انقضاء ذلك العدد الكبير كله من السنين ، ما تزال حية فى أذهان جميع الذين عاشوا تلك الساعات المضطربة القلقة •••

الجزء الثالث

الباب السابع: اليوشا

١

رائحة الجثة

أُعِدَّ جثمان الأب زوسيما للدفن وفقاً للطقوس المقررة. وقد جرت العادة، كما تعلمون، بأن لا يُغسل رفات الرهبان والنساك. يقول كتاب الطقوس في هذا الصدد: «اذا نادى الرب راهبا اليه، فعلى الأخ المكلف بزينة المتوفى أن يدلكه بماء فاتر، بعد أن يرسم اشارة الصليب باسفنجه على جبينه وصدره ويديه وقدميه وركبتيه، وهذا كل شيء.». وقد تولى الأب بائيسى القيام بهذه المهمة بنفسه وفقاً للطقوس. فلما فرغ من تدليك جسمه ألبسه مسوح الرهبنة، وكفنه بالجبة بعد أن شقها قليلاً بحيث يجعلها فى صورة صليب، كما تأمر الطقوس بذلك. ووضع على رأسه بعدئذ طاقية مزينة بصليب ذى ثمانية أفرعٍ، تاركاً الطاقية تسفر عن الوجه، مغطياً الوجه ببرقع أسود؛ ووضع صورة المخلِّص بين يدى المتوفى. حتى اذا انتهى تكفينُ الجثمان على هذا النحو سُجِّى عند الصباح فى تابوت سبق اعداده منذ زمن طويل. وأريد أن يُترك التابوت طوال النهار فى حجرة الشيخ (الحجرة الكبيرة التى اعتاد الشيخ أن يستقبل فيها الرهبان والزوار العلمانيين). واذ أن المتوفى فى رتبة «هيروشيمونا كوس»، فقد كان على الرهبان الكهنة وعلى الشمامسة أن يقرأوا أمام رفاته الانجيل لا المزامير. فشرع الأب

جوزيف فى القراءة بعد قداس الجنازة فورا • أما الأب بائيسى الذى حل محلّه ، باصرار منه ، أثناء بقية النهار وأثناء الليلة التالية ، فقد كان فى تلك الآونة مهموما جدا (مثلما كان كبير النساك) من ذلك الاضطراب الشديد ، الخارق ، « غير اللائق » ، المشوب بنوع من انتظار محموم ، الذى استولى على الرهبان وعلى جموع الناس الغفيرة التى هرعت من المدينة ومن الفنادق المجاورة للدير • كان ذلك الاضطراب ما ينفك يزداد قوة وظهوراً ، فاضطر الأب بائيسى وكبير النساك الى بذل جميع جهودهما فى سبيل أن يهدئا النفوس المهتاجة ما أمكنت التهدئة • وما ان طلع النهار تماماً حتى أخذ يفد من المدينة أشخاص يصطحبون مرضى ، مرضى من الأطفال خاصة ، كأن جميع الناس كانوا ينتظرون هذه اللحظة آملين أن يروا ظهور معجزة الشفاء التى لا بد فى اعتقادهم من أن تصدر عن جثمان الشيخ • فى تلك اللحظة انما تجلى مدى تعود الناس على اعتبار الشيخ ، حتى أثناء حياته ، قديساً صادقاً عظيماً • ولم يكن جميع المؤمنين الوافدين من المدينة ينتمون الى الأوساط الشعبية • وبدا للأب بائيسى أن هذا التوقع العظيم الذى يتوقعه المؤمنون والذى يتجلى بهذا القدر من التسرع ونفاد الصبر وهذا القدر من الصراحة حتى لكأنه مطلب من المطالب ، بدا للأب بائيسى أن هذا التوقع فيه شىء من مجافاة الأدب والحشمة ؛ ورغم أن الأب بائيسى قد تنبأ بهذا التوقع منذ زمن طويل ، فان القوة التى يتجلى بها هذا التوقع الآن قد تجاوزت جميع تنبؤات الأب بائيسى • فكان يتجه الى الرهبان المتحمسين فيقول لهم « ان انتظار معجزة كبيرة مباشرة دليل على عواطف طائشة يُفهم صدورها عن علمانيين ولكنها لا تلبق برهبان » • وكان هؤلاء لايسمعون له كثيرا ، وذلك أمر لاحظه الأب بائيسى قلقاً • ومع هذا كان الأب بائيسى هو نفسه (تلك حقيقة يجب أن نعترف بها اذا أردنا الصدق) ،

رغم استيائه الشديد من مظاهر نفاد الصبر هـــذه التي يرى فيها خفة وطيشاً ، كان هو نفسه يحس في قرارة ضميره بهذا الانتظار نفسه الذي يشعر به المضطربون المهتاجون ، وكان لا بد له أن يعترف لنفسه بذلك. على أن رؤية بعض الأشخاص قد ساءته كثيرا ، لأن وجودهم قد أيقظ في نفسه شكوكا غامضة لم تنشأ والحق يقال الا من احساسات مبهمة . من ذلك أنه شعر بنفور داخلي شديد (سرعان ما لام نفسه عليه) حين لمح بين الجمهور المحتشد في حجرة الشيخ ، حين لمح راكيتين وراهب أوبدورسك الذي طالت اقامته في الدير . لقـد بدا الرجلان كلاهما مشبوهين في نظر الأب بائيسى ، رغم أن هنـاك أشخاصا آخرين كانوا مشبوهين مثلهم أيضـا . وكان راهب أوبدورسك يتميز بكثرة ذهابه وايابه . فهو يُرى في كل مكان مستطلعاً سائلاً أو مصغياً أو مدمدماً على نحو سرى . وكان وجهه يعبر عن نفاد الصبر نفاداً شديداً يوشك أن يستحيل في بعض اللحظات الى اهتياج وحنق ، لأن الحادث الذي يتوقع الناس في كثير من الاندفاع والحماسة والحميّا أن يحدث قـد تأخر حدوثه . أما راكيتين فقـد عُلم فيما بعد أنه ان جاء الى الصومعة في ساعة مبكرة هذا التبكير من الصباح ، فلأن السيدة هوخلاكوفا هي التي طلبت منه ذلك صراحة . ان هذه المرأة التي تتصف بالطيبة ولكن تعوزها قوة الطبع ، قد أحست بفضول شديد يقرصها قرصاً حين علمت بموت الشيخ عند استيقاظها من النوم ، وبلغت من شدة الفضول أنهـا لمعرفتها بأن مجيئهـا الى الصـــومعة لن يكون مقبولاً قد أسرعت توفد راكيتين موصيةً اياه بأن يلاحظ كل شيء وأن ينبئهـا حالاً ، في رسالة يبعث بها اليها كلّ نصف ساعة ، بكلّ ما قد يحدث . كانت السـيدة هوخلاكوفا تعد راكيتين شابا شديد التقى قوى الايمان ، فالى هذا الحد

كان راكيتين بارعا فى الحظوة برضى الناس حاذقا فى اتخاذ المظاهر التى تطابق رغباتهم متى وجد فى ذلك مصلحةً له •

بدأ النهار صاحيا مضيئا مشمسا • والحجاج الذين وصلوا الى الدير يزدحمون حول القبور ، ولكن بعضهم قد تفرقوا فى جوار الدير • وحين طاف الأب بائيسى فى الصومعه ، تذكر أليوشا فجأة ، وتذكر أنه لم يره منذ مدة طويلة ، منذ الليل على كل حال • فما ان خطر بباله هذا حتى لمحه فى ركن ناء قرب السياج جالساً على الحجر من قبر راهب مات منذ سنين وعُرف أثناء حياته بشدة تعبده وقسوة كفاراته • كان أليوشا قد أدار ظهره للصومعة واتجه برأسه نحو السياج، وكأنه يختبىء وراء شاهدة القبر • فلما اقترب الأب بائيسى رأى أليوشا قد وضع وجهه فى يديه وأخذ يبكى بكاءً مراً وان يكن صامتاً ، وأن جسمه كان يهزه الانتحاب • لبث الأب بائيسى واقفاً قربه بضع لحظات • وقال له أخيرا بصوت متأثر :

ــ هدىء روعك يا بنى • ما بك ؟ عليك أن تبتهج لا أن تبكى • أفتجهل أن هذا اليوم هو أجمل وأعظم من جميع الأيام التى وُهب له أن يعرفها ؟ أنسيت أين هو فى هذه اللحظة ؟ هلاّ فكرت فى هذا !

رفع أليوشا عينيه فرأى الأب بائيسى وجهه محتقناً بالدموع كوجه طفل ؛ ثم تحول أليوشا دون أن ينطق بكلمة وأخفى وجهه فى يديه من جديد • قال الأب بائيسى مطرقاً مفكراً :

ــ قد تكون على حق مع ذلك ! ابك فى سلام يا بنى لأن المسيح هو الذى يرسل اليك هذه الدموع •

ثم أضاف يقول بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه :

ــ ستساهم انتحاباتك المؤثرة فى تهدئة روعك ، وستبعث الفرح فى قلبك النبيل •

ثم ابتعد ممتلىء النفس عطفاً على أليوشا وحبا له • والحق أنه سارع ينصرف لأنه أحس أنه يوشك هو نفسه أن ينفجر ناشجاً وهو ينظر الى الفتى •

كان الوقت ينقضى ، وكانت صلوات الجنازة وقداساتها تتعاقب وفقاً للنظام المقرر • ولمح الأب بائيسى الأب جوزيف قرب التابوت ، فحل محله فى قراءة الانجيل • ولكن ما ان دقت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى وقع الحادث الذى أشرت اليه فى ختام الباب السابق • وقد جاء هذا الحادث على غير ما يتوقع جميع الناس ، وجاء مخالفا مخالفة مذهلة لما كانوا يأملونه ، وبلغ من ذلك أن ذكراه وذكرى جميع التفاصيل التافهة التى رافقته قد ظلت حية الى أيامنا هذه فى أذهان سكان مدينتنا وسكان المنطقة المجاورة كما سبق أن قلت • وأحب أن أسوق هنا ملاحظة خاصة بى : انه ليشق على نفسى أن أتكلم عن هذا الحادث المقلق الذى لا بد أن يهز النفوس رغم أنه فى حقيقة الامر طبيعى ويمكن فهمه جدا ؟ وكان فى وسعى أن أسكت عنه حتما لولا أنه قد أحدث تأثيرا قوياً جدا — فى اتجاه محدد تحديدا واضحا — فى نفس وقلب البطل الرئيسى (وان يكن البطل المقبل) الذى تدور عليه أحداث هذه القصة، أعنى أليوشا • لقد اضطرب أليوشا من هذا الحادث اضطرابا رهيبا ، والى هذا العهد انما يرجع انعطاف حياته النفسية ، لأن عقله الذى أوشك أن يهزه الحادث ، قد خرج من الأزمة منتصرا ، ثابتا منذ ذلك الحين الى الأبد ، متجهاً نحو هدف معين محدد •

وهأناذا أصل الى الوقائع : حين أُرقد جثمان الشيخ فى تابوت بعد تكفينه قبيل الفجر ، ووضع التابوت فى الغرفة الأولى من بيت الشيخ — وهى حجرة الاستقبال — فان أحد الأشخاص الحاضرين سأل ألا يُستحسن فتح النوافذ • ان هذا السؤال الذى ألقاه صاحبه كسؤال

عابر وهو يشعر بما يشبه الخجل ، فد ظل بغير جواب ولم يكد ينتبه اليه أحد • والذين سمعوه رأوا أن فكرة صدور رائحة تفسخ من جثمان ميت كهذا الميت تبلغ من السخف أنها لا تستحق فى أبعد تقدير أكثر من أن يرفعوا أكتافهم مشفقين (أو أن يبتسموا محتقرين) ازاء مايتصف به الذهن الذى أمكن أن تخطر له من قلة الايمان وشدة الطيش وفرط الغباوة • أليس ما يُنتظر من قداسة الشيخ هو نقيض هذا تماما ؟ ولكن الذى حدث هو أن الأشخاص الذين دخلوا الحجرة ابتداءً من الظهر قد أخذوا يلاحظون ملاحظات كتموها فىأول الأمر عن غيرهم واحتفظوا بها لأنفسهم ، خشية أن ينقلوا الى الآخرين شعورا لا يكادون يصدقونه؛ غير أن الظاهرة التى أُدركت ادراكا غامضا فى البداية قد تأكدت فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر تأكداً بلغ من الوضـــوح أنه أصبح يستحيل الشك فيها ، فاذا الخبر ينتشر فى الصومعة على الفور ، واذا هو يشيع بين المتدفقين من أنواع الحجاج ، واذا هو يصل الى الدير فى الوقت نفسه تقريبا فيغرق الرهبان فى دهشة شديدة وحزن مبرّح • وانتقل النبأ من الدير الى المدينة فأحدث اضـطرابا فى النـــاس ، المؤمنين منهم والملحدين على السواء • لقد انتصر الملحدون • وأما المؤمنون فمنهم من كان ابتهاجه أشد من ابتهاج غير المؤمنين أيضا ، لأن الانسان « يحلو له أن يرى سقوط الرجل الصالح وتلطخ شرفه بالعار » كما قال المتوفى فى أحد أحاديثه • وما وقع هو أن رائحة تفسخ قد صدرت عن التابوت خفيفةً فى أول الأمر ، ثم ما زالت تشتد وتشتد ساعة بعد ساعة ؛ فما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى أصبحت واضحة كل الوضوح ، وما فتئت تشتد بعد ذلك • عبثاً تحاولون أن تجدوا فى حوليات ديرنا ذكرى اضطراب فاضح عنيف كالاضطراب الذى استولى على الرهبان منذ أن عُرف الحادث ، والذى ما كان يمكن تصوره فى أى ظرف آخر من

الظروف • وبعد انقضاء عدد كبير من السنين ظل حتى أعقل الرهبان وأحصفهم يشعرون بدهشة شديدة وروع هائل حين يتذكرون تفاصيل وقائع ذلك النهار ، والفوضى التى أطاشت العقول ، وما نشأ عن ذلك لدى رهبان الدير من موقف غير لائق • كثيرا ما حدث فى الماضى أن رهباناً عُرفوا باستقامة الحياة وطهارتها ، أن رجالاً يعظمهم جميع الناس ويخافون الله ، قد ماتوا أتقياء أنقياء ، ثم لوحظت مع ذلك حول جثمانهم المسكين بعض الافرازات ، كما يحدث هذا لجميع الموتى فى هذه الحياة الدنيا ، ولكن الأمر لم يصدم عندئذ أحداً بل ولا أدهش أحداً • صحيح أن الأذهان تحتفظ عندنا أيضا بذكرى رهبان متوفين منذ زمان طويل ، يتناقل الناس عنهم أن بقاياهم لم تظهر عليها أية علامة من علامات التفسخ ؛ وقد أحدث ذلك فى نفوس الرهبان أثرا عظيما ، فكانوا يتحدثون عنه معجبين ، وكانوا يحرصون أشد الحرص على حفظ ذكرى هذه الوقائع المعجزة التى تشهد بالقداسة ؛ وكانوا يقدّرون أن مزيدا من المجد سيتحقق فى المستقبل لقبور هؤلاء الأخيار المختارين فى الساعة التى يشاء فيها الله ذلك • فهكذا كان شأن القديس يعقوب مثلاً ، الذى عاش مائة وخمس سنين والذى بقيت ذكراه حيةً فى ديرنا • لقد كان يعقوب ناسكاً كبيراً ، اشتهر بفرائض الصمت والصيام التى كان يلزم بها نفسه ؛ وقد مات منذ زمن بعيد ، فى السنين الأولى من القرن التاسع عشر ؛ وأصبح قبره الآن محل تعظيم خاص ، فسكان الدير يقودون الحجاج الى زيارته قبل سائر القبور ، مشيرين بكلام يحمل معانى السر والاعجاب الى الآمال الكبيرة المعقودة على مثوى ذلك الرجل الصالح (على ذلك القبر انما لمح الأب بائيسى ، فى الصباح ، أليوشا) • وعدا ذلك الراهب الذى توفى منذ سنين كثيرة ، هناك راهب آخر مات منذ عهد غير بعيد كثيرا ، وخلّف فى الدير ذكرى كهذه الذكرى • انه الشيخ العظيم

فارسونوف الذى خلفه الأب زوسيما ، والذى كان يعده جميع الحجاج الذين يزورون الدير « يورودیفوی » • ان الناس يروون عن كل من هذين الراهبين أن الناظر اليه فى تابوته كان لا يشعر الا بأنه نائم نوماً ، وأنه دُفن دون أن يفسد جثمانه ؛ بل وأن نوراً كان يشع من وجهه • حتى أن بعض الناس ذهبوا الى حد القول فى الحاح واصرار ان رفاته كان ينشر روائح عطرة • ومع ذلك ، رغم هذه الذكريات الموحيه ، فان من العسير على المرء أن يدرك السبب الذى دفع الرهبان فى ذلك اليوم الى أن يقفوا موقفا يبلغ هذا المبلغ من الخفة والطيش والسخف والعداوة ازاء تابوت الشيخ زوسيما • أما أنا فأعتقد أن الأسباب كثيرة متنوعة ، ولكنها تعمل جميعا فى اتجاه واحد • ويحسن أن نذكر ، من بين هذه الأسباب ، المعاداة الشديدة لنظام المشايخ هذا الذى كان يعد بدعة مشئومة ، وهى عداوة قد ترسخت عميقةً فى نفوس عدد كبير من الرهبان • وهناك سبب آخر لعله أهم الأسباب ، هو الحسد الذى كانت تثيره قداسة الشيخ التى بلغت أثناء حياته من الرسوخ أنه كان يبدو من غير الجائز أن يناقش أحد فيها • فلئن أيقظ الشيخ تعلقا عميقا به ، ولئن عرف كيف يكسب محبة عدد كبير من الرهبان برقة روحه لا بمعجزاته، ولئن أحاط به أناس أخلصوا له كل الاخلاص ، فلقد خلق من حوله ، رغم ذلك وربما بسبب ذلك ، حُسَّاداً كثيرين أصبحوا أعداء ألدّاء شيئاً بعد شيء ، فبعضهم يخفى هذه العداوة وبعضهم يعلنها • ولقد كان له أعداء من هذا النوع لا فى صفوف رهبان الدير فحسب ، بل بين غير رجال الدين أيضا • انه لم يسىء يوما الى أحد ، ولكن الناس كانوا يتساءلون : « لماذا يُعدُّ قديساً عظيماً ؟ » • وكان هذا السؤال كافياً بتردده المستمر الى أن يخلق من حوله بغضاً لا تنطفىء جذوته • ذلكم فى رأيى هو السبب الذى جعل كثيرا من الرهبان يبتهجون ابتهاجا

شديدا حين علموا أن جسمه يصدر رائحة تفسخ ، وأن هـذه الرائحة قد بدأت تصدر عن الجسم بعد برهة قصيرة ، لأنه لم ينقض على موته يوم. أما الرهبان المؤمنون بالشيخ المخلصون له ، الذين ظلوا يقدسونه الىذلك الحين ، فقد أحسوا بحادثة التفسخ هذه نوعاً من اساءة نالتهم هم أنفسهم، واهانة لحقت بهم شخصيا . اليكم كيف جرت الأمور على وجه الدقة : منذ اللحظة التى ظهرت فيها أولى علائم التفسخ ، أصبح من اليسـير على المرء أن يحزر ، من هيئة الرهبان الذين كانوا يدخلون حجرة المتوفى ، الهدفَ الذى دخلوا من أجله . كانوا يدخلون فيمكثون بضع لحظات ثم يسرعون خارجين ليؤكدوا النبأ لمن كانوا يزدحمون أمام الباب ؟ فبعض هؤلاء يهزون رءوسهم بحزن وأسى ، وبعضهم لا يكلفون نفسهم حتى عناء اخفاء الفرح الخبيث الذى يسطع فى نظراتهم الكارهة . ولم يخطر ببال أحد أن يؤاخذهم ، وما من صوت ارتفع يدافع عن الشيخ ، وذلك أمر يثير الدهشة فى الواقع ، لأن المعجبين بالشيخ كانوا أكثرية الدير رغم كل شىء . ولكن يظهر أن الرب كان قد قرر فى هـــذه المرة أن يسمح للأقلية بالانتصار الى حين . ولم يلبث أن تدفق الى الحجرة رجال علمانيون ينتمى أكثرهم الى الأوساط المثقفة ، فاما أن الفضول هو الذى يدفعهم الى ذلك ، واما أن أصـــدقاءهم قد أرسلوهم يستطلعون الخبر اليقين . أما أبناء الشعب فقد كانوا أميل الى النأى والابتعاد ، رغم أن عددا كبيرا منهم قد تجمهر على أبواب المنسك . ومهما يكن من أمر فممـا لا شك فيه أن سيل الزوار العلمانيين قد ازداد ازديادا ضخما بعد الساعة الثالثة على أثر شيوع النبأ الفاضح . وهنـــاك أشخاص ما كان لهـم أن يجيئوا بمناسبة وفاة الشيخ ، ولكنهم هرعوا الى الدير مع ذلك وليس لهم من هدف الا أن يتحققوا من صدق النبأ بأنفسهم ، وكان بينهم رجال من كبار موظفى الدولة ، يجب أن نذكر مع ذلك أن سلوك المســتطلعين

الفضوليين لمّا يعكر جو الحشمة صراحة حتى ذلك الحـــين ، فما زال الأب بائيسي يستطيع أن يتلو آيات الانجيل جهراً بلهجة ثابتة وهيئـة قاسية دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ شيئا ، رغم أنه قد لاحظ منذ بعض الوقت أن شيئا خارقا يحدث • ولكن ها هي ذي ملاحظات قد أخذت تصل الى مسامعه • ان أصحابها يبدونها خجلة وجلة أول الأمر ، فهم يهمسون بها همساً ، غير أنها ما تنفك تلح وتتجرأ فاذا هو يسمع هـذه الملاحظة بوضوح : « يبدو أن حكم الله لا يؤيد دائما حكم البشر » • ان الذي جازف فقال هذه الكلمات أول القائلين هو رجل علماني متقدم فى السن موظف فى البلدية يعد على جانب كبير من التقى والورع • على أن هذا الرجل لم يزد على أن كرر جهراً ما كان الرهبان يسر به بعضهم الى بعض همساً فى الآذان منذ وهلة طويلة • ان هؤلاء الرهبان لم ينتظروا طويلا من أجل أن يفصحوا عن هذه الفكرة التى تعبر عن تبدد الأوهام ، والأنكى من ذلك أنهم كانوا يفصحون عن هذه الفكرة وقـد بدت فى وجوههم امارات النصر والظفر التى كانت تزداد قوة ووضوحا من دقيقة الى دقيقة • وما لبثت مراعاة اللباقة أن زالت فكأن الجميع أصبحوا يحسون أن من حقهم أن لا يقيموا لها وزناً بعد الآن • « كيف أمكن أن يحدث هذا ؟ » كذلك كان يتساءل بعض الرهبان وهم يصطنعون فى أول الأمر هيئة الحزن فكان رهبان آخرون يسارعون الى الجواب قائلين : « لقـد كان جسمه نحيلا هزيلا معروقا ، كله عظام ، فمن أين يمكن أن تأتى هذه الرائحة ؟ » ـ « معنى ذلك أن الرب قد أراد أن يدل على عـــدم رضاه » • وكانت آراؤهم هذه تُقبل فوراً بغـــير نقاش ، لأنه اذا كان التفسخ ظاهرة طبيعية تحدث دائما بعد وفاة خاطىء فانها لا تحدث فى العـادة الا بعد أربع وعشرين ســـاعة على الأقل ، ولا تظهر بمثل هذه السرعة •

أما وأن تفسخ الشيخ قد سبق الطبيعه فلا بد أن نرى فى ذلك عملاً من أعمال الله واشارة آتيه من السماء • ذلك برهان كان يبدو مفحماً • ولقد حاول الراهب الكاهن جوزيف ، أمين مكتبة الدير الذى كان صفى الشيخ وأثيره وكان رجلا دمثاً لطيفا رقيق الحاشية ، حاول أن يسوق بعض الحجج والأدلة جوابا على تلك الأقوال المسيئة • قال فيما قال : « ان هذه الآراء لا يؤخذ بها فى كل مكان وان ما يقال من أن أجساد الصالحين لا تتفسخ ليس من صلب العقيدة الأورثوذكسية وانما هو مجرد ظن • ففى مراكز الاورثوذكسية الصافية النقية مثل مونت آثوس لا يقام كبير وزن لرائحة الجثة ولا يعد عدم التفسخ علامة نهائيه على مجد القديس وانما يعتمد هنالك على لون العظام بعد أن تثوى الأجساد زمنا طويلا فى الارض وبعد أن تكون قد تفسخت فى التراب تفسخاً تاماً فاذا صارت العظام بمضى الزمن الى صفرة كصفرة الشمع كان ذلك دليلا قاطعا على أن الرب قد مجد المتوفى أما اذا أصبحت العظام سوداء استُدل من ذلك على أن الرب قد حكم على المتوفى بأنه لا يستحق ذلك الشرف ، ذلكم هو الأساس الذى يُبنى عليه الرأى فى مونت آثوس وهو مكان مقدس جدا حافظت فيه الأورثوذكسية فى كل الأزمان على صفائها ونقائها » • بذلك ختم الأب جوزيف كلامه ولكن أقوال هذا الراهب المتواضع لم تحدث أى صدى ولم تزد على أن أثارت فى أكثر تقدير ملاحظات ساخرة فقال بعض الرهبان : « تلك بدع العلماء لا نريد أن نسمعها » • وأضاف آخرون : « سوف نبقى أوفياء للتقاليد أمناء عليها والبدع كثيرة فى زماننا هذه أفينبغى لنا أن نقلدها جميعا » • وقالت طائفة ثالثة فى استهزاء : لا يقل ما كان عندنا من قديسين عما كان عند رهبان مونت آثوس وقد نسى هؤلاء كل شىء ابان الحكم التركى وفسدت الاورثوذكسية عندهم منذ زمن طويل • يضاف الى ذلك أنهم

لا يملكون حتى نواقيس » • انصرف الأب جوزيف حزينا • ثم انه لم يعبر عن رأيه بكثير من الجزم والقطع بل عبر عنه مترددا كأنه ليس مقتنعا به كل الاقتناع هو نفسه • وما كان أشد اضطرابه اذ ثبت له أن ريح عداوة قد هبت على الرهبان وأن روح التمرد على نظام المشايخ قد عاد الى الظهور • وصمتت جميع الاصوات الرزينة المعتدلة شيئا بعد شيء على أثر هزيمة الأب جوزيف حتى لقد حدث أن أولئك الذين كانوا قد أحبوا زوسيما وكانوا قد خضعوا لنظام المشايخ بحماسة شديدة ، ذعروا على حين فجأة وأصبحوا لا يكادون يجرؤون حين يلتقون على أن يتبادلوا نظرة خجلى• أما خصوم هذا النظام الذين يصفونه بأنه بدعة مفسدة فقد شعروا بانتصار وراحوا يختالون تباهيا وها هم يقولون فرحين فرحاً خبيثاً : « عند موت الأب فارسونوف لم تلاحَظ علائمُ تفسخ بل كانت جثته تنشر روائح عطرة • على أنه لم يستحق نعم الرب بصفته شيخا وانما استحقها بفضل طهارة حياته لأنه كان رجلا صالحاً » • وانطلقت الألسن من عقالها فهي لا تتردد الآن عن انتقاد الشيخ المتوفى بل وعن اتهامه فهؤلاء بعض الرهبان الأغبياء يقولون : « كانت تعاليمه خطأً • كان يزعم أن الحياة فرح عظيم لا مصدر حزن وينبوع دموع » • وهؤلاء رهبان آخرون يقولون بمزيد من الغباء : « كان رجلا عصريا • كان لا يؤمن بنار جهنم » وهؤلاء حساد يقولون : « لم يكن يتقيد بالصيام تقيداً شديداً • كان يسمح لنفسه بأكل الحلوى وكان يتناول مع الشاى مربب الكرز • كان يتلذذ بذلك • كثيرا ما كانت سيدات ترسل اليه حلوى ومربباً • أيليق بناسك أن يشرب شاياً ؟ وهؤلاء أسوأ الرهبان قصداً يقولون حانقين : « كان متكبراً • كان يظن نفسه قديسا • كان الناس يجثون أمامه وكان هو يقبل آيات الاحترام هذه ويعدها واجبا له على الآخرين » • وهؤلاء ألد أعداء نظام المشايخ يضيفون بصوت خافت ولهجة

شرسة : كان يمتهن حرمة سر الاعتراف» ان أكثر هؤلاء الأعداء الألداء لنظام المشايخ هم بين الرهبان أكبرهم سناً وأشدهم تقشفاً وأعظمهم تقيداً بكفارات الصيام والصمت • كانوا أثناء حياة الشيخ قد انتهوا الى الاذعان والرضوخ ولكنهم يطلقون الآن لأحقادهم أعنتها وذلك يثير القلق كثيرا لأن لآراءهم تأثيرا قوياً فى الرهبان الشبان الذين ظلت أفكارهم فى هذا المجال رجراجة • كان راهب أوبدورسك ، الراهب الصغير الوافد من سان سيلفستر ، يصيخ بسمعه الى هذه الأقوال كلها منتبهاً انتباهاً سديداً متنهدا تنهدا عميقا ، هازاً رأسه ، قائلا لنفسه : « يبدو أن الأب تيرابونت كان على حق أمس » • وهذا هو الأب تيرابونت يظهر هو نفسه على حين فجأة كأنما ليكمل اضطراب النفوس وبلبلة الأفكار •

سبق أن قلت انه كان لا يترك الا نادراً حجرته الخشبية الواقعة قرب خلية النحل وانه كان يغيب عن الكنيسه فترات طويلة • ولكن سكان الدير كانوا يغضون البصر عن اخلاله هذا بالنظام ، بحجه أنه انسان ساذج برىء والحق أنهم كانوا يعدون أنفسهم مضطرين أخلاقيا ان صح التعبير الى غض الطرف عن شذوذ سلوكه فانه ليكاد يبدو غير لائق أن يطالب ناسك كبير مثله يلزم نفسه بالصيام والصمت مدداً طويلة ذلك الطول كله ويقضى أياما كامله وليالى طويلة فى الصلاة والتهجد (لقد كان يتفق له أن ينام على ركبتيه) ، أن يطالب بالخضوع للطقوس العامة والشعائر المتبعة اذا هو أراد أن يتحلل منها فلو أراد أحد أن يزعجه لقال الرهبان : « انه أقدس منا جميعا وهو يفرض على نفسه كفارات أقوى كثيرا مما نلزم به أنفسنا من فرائض فاذا لم يأت الى الكنيسة فلا شك أن هنالك أسباباً تدفعه الى ذلك• ان له فرائضه الخاصة التى يوجبها على نفسه•لذلك كان يُترك هذا المعتزل العجوز وشأنه تحاشيا لاحتجاجات الرهبان ودمدماتهم وكان معروفا لدى الناس أن الأب

تيرابونت يكره الشيخ زوسيما • ولم تلبث الشائعة التي تقول : « ان حكم الله لا يؤيد حكم البشر دائما وانه قد سبق الطبيعه في تفسخ جثمان الشيخ » ، لم تلبث هذه الشائعة أن وصلت الى حجرته النائية المنعزلة وأغلب الظن أن راهب أوبدورسك الذي زاره البارحه وخرج من عنده مذعورا كان من أوائل الذين نقلوا اليه النبأ • وقد ذكرت أيضا أن الأب بائيسي الذي ظل يتابع قراءة الانجيـــل أمام التابوت ثابت الجنان بغير اضطراب والذي كان لا يمكن أن يرى وأن يسمع من مكانه هذا ماكان يجري خارج الغرفة ، قد حزر مع ذلك في قرارة نفسه الشيء الأساسي مما كان يجري خارج الغرفة لأنه يعرف الروح المسيطرة على بيئته حق معرفتها • لم يدع الأب بائيسي لنفسه أن يضطرب وانتظر ما سيحدث دون أن يرتاع متنبئاً بعواقب هذه الحركة بما أوتي من بصيرة نافذة وفكر سديد غير أن ضجه خارقة آتية من الممر قد شدت انتباهه على حين فجأة ، وهي ضجة لا يخفى في هذه المرة أنها تنافي اللياقة • انفتح الباب على مصراعيه وظهر الأب تيرابونت في العتبـة • ان عددا كبيرا من الرهبـان بينهم بعض العلمانيين كانوا يسيرون وراء الأب تيرابونت ولكنهم آثروا أن يتوقفوا في أسفل درجات المدخل فهم يرون من الغرفة • لقد قرروا أن لا يدخلوا الغرفة وفضلوا أن يشهدوا من بعد ما سيقوله الأب تيرابونت وما سيفعله • ذلك أنهم كانوا يتنبأون بأن الأب تيرابونت لم يجيء عبثاً وانهم ليشعرون بشيء من الارتياع رغم جرأتهم وجسارتهم • توقف الأب تيرابونت في العتبة ورفع ذراعيه فرئيت عندئذ العينان الحادتان المستطلعتان عينا راهب أوبدورسك الصغير الذي لم يستطع مقاومة الاغراء وجازف وحده فاجتاز درجات المدخل وراء الاب تيرابونت ليرى ما سيحدث من كثب ولا كذلك الآخرون فقد تراجعوا قليلا وهم يشعرون بخوف مفاجيء حين انفتح الباب مقرقعاً • صرخ الأب تيرابونت بقوة وهو رافع ذراعه قائلاً :

ـ اخرجوا من هنا يا شياطين •

وأسرع يرسم اشارات الصليب كبيرة وهو يتجه الى جدران الغرفة الأربعة جداراً بعد جدار • ورسم اشارة الصليب كذلك أمام كل زاوية من زوايا الغرفة وسرعان ما أدرك جميع الذين تبعوا الأب تيرابونت دلالة هذه الحركة فلقد كانوا يعرفون أنه يفعل هذا دائماً فى أى مكان يذهب اليه ولا يرضى أن يقـــول كلمة أو أن يجلس فى قاعة قبـــل أن يطرد الشيطان وكان يردد كلما رسم اشارة الصليب :

ـ ابتعد أيها الشيطان ! أخرج من هنا ! غوروا أيها الأبالسة لأننى أطردكم •

هكذا كان يزأر الشيخ تيرابونت •

وكان يرتدى ثوباً خشناً يزنره حبل وكان صدره الأشيب الشـــعر يظهر من شق قميصه المصنوع من الخيش أما قدمـــاه فكانتا حافيتين تماماً واذا حرك ذراعيه سُمع صليل السلاسل الحديدية الثقيلة التى كان يحملها على جسمه • توقف الأب بائيسى عن القراءة وتقدم نحو الأب تيرابونت هادئاً على وضع انتظار وسأله أخيرا وهو يلقى عليه نظرة قاسية :

ـ ماذا جئت تصنع هنا أيها الأب المحترم ؟ لماذا تشوش النظام ؟ فيم بث الفوضى فى الرعية المسكينة ؟

صرخ الأب تيرابونت يقول منقلب السحنة :

ـ لماذا جئت ؟ تريد أن تعرف لماذا جئت ؟ فماذا تظن اذن ؟ لقد جئت لأطرد ضيوفكم ، لأطرد الشياطين النجسة ! أردت أن أرى هل استضفتم شياطين كثيرة فى غيابى • سأطردهم جميعا بالسياط •

أجابه الأب بائيسى هادئاً دون انفعال :

ـ تحسب أنك تطرد الشيطان مع أنك ربما كنت تخدمه !من ذا الذى يستطيع أن يقول عن نفسه انه قديس ؟ أتراك أنت أيها الأب المحترم ؟

قال الأب تيرابونت مرعداً :

ـ أنا لست بقديس قط ! أنا رجل دنس ! ولكننى أنا لا أستريح على مقاعد وثيرة ولا أحاول أن أحمل الناس على عبادتى كاله . ان الناس فى أيامنا هذه يستهزئون بالدين المقدس ويجحدونه . ان صاحبكم المتوفى ، هذا القديس (كذلك أضاف يقول ملتفتاً نحو الرهبان المحتشدين عند المدخل مشيراً باصبعه الى تابوت الشيخ) كان لا يؤمن بوجود الشياطين لقد كان يصف لمن مستهم الشياطين أدوية تنظف الأمعاء فهل عجب بعد هذا أن تتكاثر الشياطين عندكم تكاثر العنكبوت فى زوايا الجدران ؟ أما قديسك فانه يتفسخ الآن وتلك فى نظرنا اشارة من السماء .

والحق أن فى حياة الأب زوسيما حادثة من هذا النوع فان راهباً من الرهبان قد رأى الشيطان فى منامه عدة مرات ثم أخذت هذه الرؤى تحاصره فى اليقظة أيضا ففاتح الشيخ بذلك فنصحه الشيخ بأن يكثر من الصلاة والصيام . فلما لم تنفعه هذه الوسيلة وصف له دواء" ونصحه فى الوقت نفسه بأن لا ينقطع عن الاكثار من التعبد . وقد شُده من هذا عدد كبير من الرهبان وأخذوا يتحـــدثون فيه هازين رءوسهم استياء" واستنكاراً . وكان الأب تيرابونت أشدهم ثورة حين أسرع الوشاة يبلغونه بما فعله الشيخ من أمر يعد « خارقا » فى حالة من هذا النوع .

قال الشيخ بائيسى بلهجة صارمة :

ـ ابتعد أيها الأب ! ان الحكم لله لا للبشر وان « الاشارة الآتية الينا من السماء » يمكن أن يكون لها معنى يفوق عقلنا فلا تستطيع أنت ولا أستطيع أنا ولا يستطيع أحد هنا أن يجازف فيؤولها . ابتعـــد أيها الأب وكفاك تشويشاً للرعية !

كذلك ردد الأب بائيسى ملحاً •

واستأنف الراهب المندفع يقـــول وكأنه فقد كل سـيطرة له على نفسه :

ــ كان لا يعتقد بفرائض الصيام كما يليق براهب من رتبته • ذلك هو معنى الاشارة السماويه ، هذا واضح وضوح النهـار ومن الاثم أن نحاول انكاره • كان يتنعم بالحلوى التى كانت تمتلىء بها جيوب السيدات اللواتى يزرنه • كان يملأ بطنه بالشاى ويحشوه بالعصائد• أما روحه فقد كانت تفيض كبرياءً وزهوا • ذلك هو السبب فى أن الرب قد أرسل اليه هذا العار •

أجاب الأب بائيسى رافعاً صوته هو أيضا :

ــ أقوالك طائشة يا أب ! اننى لأعجب بقسوة صيامك وشدة تقـاك ولكنك ترسل الكلام جـزافا بغير روية كشاب علمـــانى يعوزه النضج والتأمل والتدبر •

وختم الأب بائيسى كلامه قائلاً بصوت مجلجل :

ــ اخرج من هنا •

قال الأب تيرابونت مرتبكاً بعض الارتباك ولكن دون أن يهـــدأ غضبه :

ــ سأمضى ! طيب ••• أنتم رجال علماء • أنتم بكبرياء عقلـكم المسعورة ترتفعون فوق بساطتى • لقد جئت الى الديرأمياً • والقليل الذى كنت أعرفه فى الماضى نسيته منذ ذلك الحين • لقد شاءت رحمة الرب نفسه أن تصوننى أنا الضعيف من دنس عقلكم •••

ظل الأب بائيسى هادئا ينتظر التتمة بصلابة وثبات •

صمت الأب تيرابونت لحظة ثم اذا بوجهه يظلم على حين فجأة و ذا به يحمل يده اليمنى الى خده ويقول بصوت ضعيف وهو ينظر الى تابوت الشيخ :

ـ غداً ينشدون له النشـــيد العظيم « ربنا هب انا من لدنك عونا وارحمنا » أما حين سأفطس أنا فسيكتفون بتلاوة آيات بسيطة قائلين كانت حياته هادئة وادعة * •

كذلك قال بصوت تخالطه الدموع وتستثير الشفقة • ثم صرخ يقول كمن جن جنونه :

ـ ضيَّعتكم الكبرياء والثقة ! ما هذا المكان الا عدم !

واستدار على عقبيه فجأة وهو يحرك ذراعيه وهرول يهبط درجات السلم الصغير • ظهر التردد على الجمهـــور الذى كان ينتظره تحت ثم تبعه بعضهم فورا وتوقف آخرون اذ رأوا أن باب الغرفة قد ظل مفتوحا وأن الأب بائيسى الذى شـــيع الأب تيرابونت الى درجات المدخل كان يلاحظهم صامتا ولكن العجوز المنـــدفع المتحمس لم يكن قد أفرغ كل ما فى جعبته فها هو ذا يتوقف بعد أن سار عشرين خطوة ويلتفت نحو الشمس الغاربة رامياً ذراعيه فى الهواء ثم يتهاوى على الأرض كأن قوة خفية قد حصدته :

ـ انتصر ربى ! تغلب المسيح عند غياب الشمس •

كذلك زأر يقول بصوت مسعور وهو يمد ذراعيه نحو الكوكب •

ثم جعل وجهه الى الأرض وأخذ يبكى بكاء طفـــل مهتز الجسم محركاً ذراعيه كأنما ليعانق الأرض • هرع الجميع اليه وسُمع صراخ وسمع بكاء عطف فكأن حمياه قد انتقلت الى الجمهور • وهتفوا يقولون من كل جهة من الجهات بغير تحفظ ولا اعتدال :

ـ هذا هو القديس الحق . هذا هو الصالح الحق .

وأضاف آخرون يقولون بغضب شديد :

ـ اليه انما يجب أن تسند المشيخة .

فبادرت أصوات أخرى تقول على الفور :

ـ لن يقبل أن يصبح شيخا . سيرفض هو نفسه . لن يرضى أن ينضم الى هذه البدعة اللعينة . ما هو بمن سيقلد هذا الجنون .

لا يدرى أحد بماذا كان يمكن أن ينتهى هذا كله لو أن الناقوس لم تدوّ أصواته فى تلك اللحظة منادية الرهبان الى القداس . رسم الجميع اشارة الصليب ونهض الأب تيرابونت ورسم اشارة الصليب كبيرةً عريضة ليحمى نفسه من الشر الخفى واتجه نحو غرفته دون أن يلتفت وهو يطلق صرخات مضطربة لا اتساق فيها . تبعته قلة قليلة من الرهبان ولكن أكثر الرهبان تفرقوا مسرعين الى العبادة . وعهد الأب بائيسى الى الأب جوزيف باتمام القراءة وابتعد هو أيضاً . ان الصرخات المحمومة التى أطلقها المتعصبون لم تستطع أن تهزه كثيرا ومع ذلك شعر بحزن خاص يغزو قلبه فجأة فدهش من هذا ووقف يتساءل : « ما مصدر هذا العناء الذى يرهقنى » . فما كان أشدّ استغرابه حين أدرك فورا أن سبب ذلك انما هو حادث يبدو فى الظاهر تافهاً لا قيمة له : فبين صفوف الجمهور الذى كان يضطرب منذ هنيهة عند مدخل الغرفة لاحظ الأب بائيسى وجود أليوشا الذى كان يبدو مضطربا اضطرابا شديدا منفعلا انفعالا قويا (انه يتذكر هذا الآن) فشعر من ذلك بما يشبه ألماً يطعن قلبه . تساءل الأب بائيسى مدهوشا دهشة قوية : « هل يمكن حقا أن يكون هذا الشاب قد احتل كل هذا المكان فى نفسى ؟ » . وفيما هو يتساءل هذا التساؤل مر أليوشا غير بعيد عنه . كان يغذ الخطى ولكنه لم يكن متجهاً نحو الكنيسة .

SS

التقت نظراتهما فسرعان ما أشاح أليوشا عينيه وخفضهما نحو الأرض وأدرك الراهب العجوز من النظر الى هيئة الفتى وحدها ما كان يجرى فى نفسه من تبدل •

هتف الأب بائيسى يسأله :

ـ أتراك تركت لنفسك أن تهتز وتضطرب أنت أيضا ؟

ثم أضاف يقول بمرارة :

ـ أتراك انضممت الى صف الذين يشكون ؟

توقف أليوشا وألقى على الأب بائيسى نظرة مترددة ثم أشاح عينيه وأطرق الى الأرض من جديد • لقد وقف مواربا ليتحاشى نظرة محدثه وجهاً لوجه • وكان الأب بائيسى يرقبه بانتباه •

قال الأب بائيسى :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟ هذه ساعة القداس •

ولكن أليوشا ظل لا يجيب • وتابع الأب بائيسى أسئلته :

ـ ألعلك تترك الدير ؟ أبدون أن تنبئنا ! أبدون أن تتلقى المباركة ؟

فاذا بأليوشا يطلق على حين فجأة ضحكة صغيرة مصنوعة ، ويشخص ببصره الى الراهب الذى كان يسأله • ان هناك شيئاً غريبا بل غريبا جدا فى النظرة التى ألقاها فى تلك اللحظة على الرجل الذى عهد به اليه أثناء موته مرشده الروحى المتوفى ، معلم قلبه وفكره ، شيخه المحبوب • ها هو ذا يحرك يده فجأة ، دون أن يجيب ، باشارة تنم عن أنه أصبح لا يهمه أن يرعاه أحد • ثم اتجه نحو مخرج المنسك بخطى سريعة •

دمدم الأب بائيسى يقول بصوت خافت وهو يتابعه بنظره مدهوشاً دهشة أليمة :

ـ ستعود •

٢

دقيقة كهذه الدقيقة

لاشكّ في أن الأب بائيسى لم يخطىء حين قدر أن « ابنه العزيز » سيعود ؛ حتى لقد فهم فيما يبدو (لا فهماً كاملاً والحق يقال ، لكنه فهم فيه كثير من نفاذ البصيرة) الحالة النفسية التى كان عليها أليوشا . ولكن يجب علىّ أن أعترف مع ذلك بأننى لو أردت أن أشرح على وجه الدقة معنى تلك الدقيقة الغريبة المبهمة من الحياة الداخلية التى عاشها بطلى الذى أحبه كثيرا والذى ما يزال فى ريعان الشباب ، لكان ذلك صعبا علىّ كل الصعوبة . اننى أستطيع طبعا أن أجيب عن ذلك السؤال المرير الذى ألقاه عليه الأب بائيسى «أتراك أصبحت فى صف من يشكون؟»، أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال واثقاً : « لا ، انه لم يكن يشك ! » . وأكثر من ذلك أن اضطرابه كان يعبر عن نقيض هذا تماما : لئن شعر بقلق فذلك لأن ايمانه كان كبيرا . لقد قلق أليوشا قلقا شديدا ، وبلغ قلقه من الايلام أنه ظل بعد سنين طويلة يعدُّ ذلك اليوم المشئوم أزخر أيام حياته بالألم والحزن . ولو سئلت : « هل يمكن حقا أن يشعر بكل ذلك الحزن والقلق لا لشىء الا لأن جثمان شيخه قد فسد قبل الأوان بدلا من أن يحقق معجزات شفاء ؟ » ، لأجبت بغير تردد : « نعم ، ذلك بعينه هو سبب حزنه » . ولكننى أرجو القارىء مع ذلك أن لا يتسرع

كثيرا فيستهزىء بصفاء قلب بطلى • لست أميل من جهتى الى أن ألتمس له سماحة القارىء ، أو أن أنتحل لايمانه الساذج عذرا من شبابه أو نقص دراسته أو قلة ما حصّل من تقدم فى العلوم فى المدرسه ، بل أقف الموقف المضاد بغير تردد فأقول : اننى أشعر نحو بساطته باحترام كبير• صحيح أن شبابا غيره ، شبابا أكثر تعقلاً وأشد حذرا فى اندفاعات روحهم ، شبابا يحبون حبا حاراً ولا شك ، غير أنهم يحبون بغير هوى شديد ، شبابا يحسنون التحكم بحركات قلبهم فى ذكاء واثق مستقيم لكنه مع ذلك مسرف فى التعقل اذا قيس بأعمارهم (وهو تبعا لذلك ضئيل القيمة) ، واضح أن شبابا كهؤلاء كان يمكن أن يتقوا الاضطراب الذى وقع فيه بطلى • ولكن لأن ينساق المرء أحيانا مع اندفاع قد يكون طائشا ولكنه مستلهم من حب كبير ، فذلك فى رأيى أنبل وأكرم من أن يكون عاجزا عن الشعور بمثل هذه العواطف • وهذا يصدق خاصةً على الشباب ، لأن الشاب الذى يفرط فى التروى لا يوحى بثقة عميقة وليس له قيمة كبيرة • ذلك رأيى أنا على الأقل • رب أناس رصينين يعترضون قائلين : « فالى أين نصير اذا آمن جميع الشباب بمثل هذه الآراء ؟ ليس صاحبك أليوشا بمن تضرب به مثلاً أو تقدمه قدوة » • وانى لأجيب هؤلاء قائلاً : « لقد كان أليوشا يؤمن بحرارة وحماسة ، كان يؤمن ايمانا مقدسا لا يتزعزع ، ولكن ليس يخطر ببالى أن ألتمس له بسبب ذلك أعذارا • » •

ومع ذلك ••• مهما أؤكد (وربما كنت فى هذا التأكيد مفرطاً فى التسرع) اننى لن أحاول أن أسوّغ سلوك بطلى أو أن ألتمس له الأعذار ، فاننى أرانى مضطرا ، رغم كل شىء ، الى أن أقدم بعض الايضاحات تسهيلاً لفهم قصتى • اليكم ما أريد أن أقوله : ليس غياب المعجزة هو ما أسلم أليوشا للاضطراب • ان أليوشا لم ينتظر ، نافد

الصبر ، ظهورَ ظاهرة فوق الطبيعة ، عن خفة وطيش • انه لم يكن فى حاجة الى ذلك لثبوت صدق اعتقاده ثبوتا مظفرا (لا هذا على كل حال)، ولا ليتاح لفكرة قائمة فى ذهنه أن تنتصر بمزيد من السهولة على رأى يعارضها • أبدا ! ان ما كان يعنيه فى هذا الأمر قبل كل شىء آخر ، بل ودون كل شىء آخر ، انما هو مصير انسان ، مصير هذا الانسان وحده، أعنى شخص الشيخ الذى كان أليوشا يحبه ، شخص الرجل الصالح الذى كان أليوشا يعجب به ويبجله • ان ما فى قلبه الفتى من قدرة على الحب ، وان ما كان يشعر به نحو « جميع الأشياء وجميع الناس » من مودة وعاطفة وحنان ، قد تركز فى تلك الفترة ، أعنى أثناء تلك السنة ، على انسان واحد هو شيخه الحبيب الذى مات الآن ولكنه كان قد أصبح ـ ربما بشىء من الافراط ـ القطب الوحيد الذى يجتذب أعمق عواطفه• صحيح أن هذا الشيخ ظل يجسِّد فى نظره أرفع مثل أعلى انسانى ، خلال مدة بلغت من الطول أن قوى طبيعته الشابة وأشــواق نفسه كان لابد أن تتجه الى الشيخ وحده حتى لتنسيه فى بعض الأحيان « جميــع الأشياء وجميع الناس » (سوف يتذكر فيما بعد أنه فى ذلك اليوم الحزين قد نسى نسيانا تاما أخاه دمترى الذى كان يرغب أمس فى رؤيته ، رغبة حارة قوية ؛ كما أن القرار الذى اتخذه أمس والذى يحرص عليه أشد الحرص ، وهو أن يرد المائتى روبل الى والد ايليــوشا ، قد غاب عن ذهنه تماما) • ولكننى أعود فأقول مرة أخرى : ليست المعجزات هى ما كان أليوشا فى حاجة اليه ، وانما كان أليوشا فى حاجة الى « عـدالة عليا » ، وهذه العدالة العليا قد أوذيت فى نظره ايذاءً شديدا • فهـذا لا غيره هو ما كان يؤلم قلب أليوشا ايلاما قاسيا • لقد كان هـذا طعنةً موجعة رهيبة • ليس بالأمر المهم أن تكون هذه « العدالة » قد ترجمت فى ذهنه ، بتأثير البيئة الطبيعى ، توقعاً لمعجــزة لا بد أن تتحقق قرب

جنمان القـائد الروحى الذى كان يبكيه • ألم تكن هـذه المعجزة هى ما يأمله جميع الناس فى الدير ، وفى طليعتهم أولئك الذين كان أليوشا يعترف بتفوقهم العقلى عليه ، كالأب بائيسى مثلاً ؟ لذلك لم يتردد أليوشا فى أن يعبّر عن أمله على نحـو ما كانوا يعبرون ، دون أن تشـوشه شكوك أو تأملات • وقد نضج هذا التوقع فى نفسه خـلال سنة كاملة عاشها فى الدير حتى أصبحت طبيعية كعادة • ولكن ظمأه كان الى عدالة لا الى معجزات ! وهذا هو الانسان الذى كان فى عاطفة أليوشا فـوق جميع البشر فى العالم بأسره يتجلل بالعـار فجأة ويسقط فى الخزى بدلاً من أن ينال المجد الذى يستحقه ! لماذا ؟ من هو القاضى الذى اتخذ هذا القرار وأصدر هذا الحكم ؟ من الذى يمكن أن يكون قد اتخذ هذا القرار حقا ؟ تلكم هى الأسئلة التى داهمت نفسه البريئة التى تعـوزها الخبرة والتجربة وأخذت تسومها سوء العذاب • كان لا يطيق ، دون أن يشعر بالمذلة ودون أن يعصف به الغضب ، أن يرى أصلح الصالحين فريسة استهزاء شرير وتهكم خبيث يصبه عليه جمهور طائش هو دونه كثيرا • كان يمكن أن يقبل أن لا تحدث أية معجزة وأن لا يقع أى شىء خارق للطبيعة ، تلبيةً لما يتوقعه جميع الناس • ولكن لماذا يجلّل الشيخ بالخزى والعار ، لماذا هذا التفسخ الذى يحدث قبل الأوان ، و « يسبق الطبيعة » كما كان يقول الرهبان الأشرار ؟ هل كان ضروريا أن تُهيأ لهؤلاء الأشرار فرصة أن يروا فى هذا التفسخ « اشارة » يسارعون الآن الى تأويلها كما يحبون ويشتهون وراء الأب تيرابونت ؟ ومن ذا الذى خوّلهم الحق فى أن يعمدوا الى استدلالات من هذا النوع ؟ أين العناية الالهية فى هذا كله وأين يد الله ؟ لماذا امتنع الرب عن التدخل فى اللحظة التى كان فيها تدخله ألزم ما يكون وأوجب ما يكون (فى رأى أليوشا)

حتى لكأنه استسلم هو نفسه أمام قوى الطبيعة المادية العمياء التى لا ترحم ؟

ذلكم ما كان ينزف منه قلب أليوشا • كان فى تلك الساعة ، كما سبق أن قلت ، لا يفكر الا فى ذلك الانسان الذى هو أحب انسان الى قلبه في العالم ، وهذا الانسان هو من جُلِّل بالخزى والعار الآن ، وغُضَّت قيمته وأُنزل الى الدرك الأسفل • اننى أسلم بأن هذا الفتى قد برهن ، حين كان يدمدم هذه الدمدمة ، على أنه طائش العقل مخطىء الرأى ، ولكننى أعود فأقول مرة ثالثة (ولتتهمونى بخفة العقل أيضا اذا شئتم) : اننى ليسعدنى أن أليوشا قد أعوزه القصد والاعتدال فى تلك الساعة من حياته ، لأن العقل يستيقظ دائماً فى وقت مبكر لدى الانسان الذى لم يُحرم من الذكاء ، فاذا لم يتغلب عليه الحب فى مثل هذه اللحظة فى قلب فتىً مراهق ، فمتى عساه ينتصر فى هذا لعالم ؟ على أننى لا أستطيع أن أصمت عن عاطفة أخرى غامضة مضطربة قد مست نفس أليوشا مساً عابرا فى تلك الدقيقة القلقة الأليمة من حياته • ولعل كلمة « عاطفة » ليست هى الكلمة المناسبة • هو « شىء » كان يندبه ، هو شعور شاق مرتبط بذكرى الحديث الذى قام أمس بينه وبين ايفان والذى يعاود فكره فى هذه اللحظة الحرجة بالحاح محاصر • لست أعنى قط أن عناصر ايمانه الأساسية ، الفطرية ان صح التعبير ، قد أصابها أى تزعزع ••• لا ••• انه يحب الهه الآن كما كان يحبه من قبل ، وانه ما يزال يؤمن بالهه وان كان يدمدم متذمراً فى بعض اللحظات • ولكن ذلك الاحساس المقلق السىء الذى شعر به بعد ذلك الحديث رأساً قد استيقظ الآن فى نفسه من جديد ، وأخذ يحاول الخروج الى سطح شعوره بقوة ما تنفك تتزايد •

هبط المساء أثناء ذلك ، وخيّم الظلام • وهذا راكيتين الذى كان

يجتاز غابة الصنوبر ليذهب من الصومعة الى الدير يلمح أليوشا على فجأة ، مستلقيا تحت شجرة ، جاعلاً وجهه الى الأرض ، ساكناً لا يـ فكأنه نائم • اقترب ر كيتين منه وناداه :

ـ أهذا أنت يا ألكسى ؟ أيمكن حقا أن •••

كذلك قال راكيتين مدهوشا ؛ ولكنه أمسك فجأة عن الكلا أن يتم جملته •

كان يريد أن يقول : « أيمكن حقا أن تصير من ذلك الى هـ الحال ؟ » •

لم يرفع أليوشا عينيه نحو راكيتين، ولكن راكيتين أدرك من يسيرة تحركها جسم أليوشا ، أن أليوشا قد سمعه • استأنف يـ يقول وقد أخذت الدهشة التى يعبر عنها وجهه تستحيل شيئا فشـ ابتسامة ساخرة :

ـ ماذا بك ؟ ماذ دهاك ؟ اسمع يا أليوشا ! اننى أبحث عنـك ساعتين فى كل مكان • لقد اختفيت من هناك بغتةً • فماذا تصنع أهى سخافة جديدة ؟ أنظر الىّ على الأقل •••

رفع أليوشا رأسه ، وجلس مسنداً ظهره الى الشجرة • لم يبكى ، ولكن الألم كان يُقرأ فى قسمات وجهه ، وكان فى عينيه على أنه لم يكن ينظر الى راكيتين وانما هو يحدّق الى شىء فى - قال راكيتين :

ـ هل تعلم أن وجهك قد تغير تمـــاما ؟ لم يبق فيه أثر من الودعة التى كنت توصف بها ؟ أتراك غاضبا من أحد ؟ هل أساء أحد ؟

قال أليوشا دون أن ينظر اليه أيضا ، قال وهو يحرك يده باشارة تعبر عن التململ والتبرم :

ـ انصرف !

قال راكيتين :

ـ أوه ! أوه ! أهكذا أصبحنا الآن اذن ؟ نغضب ونصرخ كسائر الناس ! عجيب ! من ذا الذى يمكن أن يصدق صدور هذا عن مثل هذا الملاك ؟ طيب يا أليوشا ... فى وسعك أن تعتز بأنك أدهشتنى ... أقول لك هذا صادقا كل الصدق . لقد أصبحت منذ زمن طويل لا أدهش من شىء هنا . على أننى كنت أظنك انسانا متقفا ...

أخيرا رفع أليوشا اليه عينيه ، غير أن فى هيئته الآن ذهولا فكأنه لم يفهم جيدا ما قاله صاحبه . وعاد راكيتين يهتف قائلا وقد استبدت به دهشة شديدة من جديد :

ـ أكل هذا لأن صاحبك العجوز قد مات ؟ أكنت تظن حقاً اذن أنه كان سيحقق معجزات ؟

فصرخ أليوشا يقول بصوت حانق :

ـ كنت أظن ، وما زلت أظن ، وأريد أن أظن ، وسأظل أظن ! ... أيكفيك هذا الآن ؟

ـ ولكننى لا أريد شيئا يا عزيزى ! عجيب ! ان صبياً فى الثالثة عشرة من عمره لا يؤمن بهذه الأمور فى أيامنا هذه . لك ما تشاء على كل حال ... هأنت ذا اذن غاضب من الله ، ثائر عليه ثورة معلنة ! كموظف مستاء من أنه نسى عند ترفيع ، أو حرم من وسام فى احتفال! هذا أنتم ! ...

SS

تفرس أليوشا فى راكيتين طـــويلاً ، وهو مغمض عينيـه نصف اغماض ، وومض فى عينيه برق ••• غير أن هذا ليس الآن حنقاً وغيظا من راكيتين • ثم قال وهو يحمل نفسه على الابتسام :

ــ لست ثائرا على الهى ، ولكننى « أرفض قبول الخليقة » • ذلك كل شيء •

فكر راكيتين لحظة فى هذا الجواب ثم سأله :

ــ ترفض ؟ ماذا تعنى ؟ ما هذا الكلام المضحك أيضا !

لم يجب أليوشا • قال راكيتين :

ــ كفانا كلاما فى ترهات • لنفكر فى الأمور الهامة : هـل أكلت اليوم ؟

ــ لا أتذكر ••• يبدو أننى أكلت •••

ــ تدل هيئتك على أنك فى حاجة الى استرداد قواك • ان منظـرك يثير الشفقة عليك • قيل لى انك لم تنم طول الليل • يظهر أنكم قد عقدتم اجتماعا كبيرا • ثم حـــدث ذلك الهرج كله ، وقامت تلك الاحتفالات والطقوس كلها ••• ان فى جيبى بعض المقـــانق ، حملته احتياطا حين جئت الى هنا • ولكن أظن أنك لا تأكل المقانق ، أليس كذلك ؟

ــ هات المقانق •

ــ هيه هيه ••• هذا أمر جديد ••• هذه ثورة أصولية ، ثورة بمتاريس ! هيم ••• ما هذا بقليل أيها الأخ ، هل تعلم ؟ طيب ••• تعال معى الى بيتى ••• أنا أيضا فى حاجة الى قليل من الخمرة ••• اننى مرهق ••• أنت لا تشرب خمرة ، أليس كذلك ؟ اللهم الا أن ••

ـ سأشرب خمرة ٠

قال راكيتين وهو ينظر الى صاحبه مدهوشا :

ـ هه ؟ ••• هذا كثير ••• المقانق سلمنا بها ••• ولكن آخمرة أيضا ؟ هذه أمور عظيمه حقا ٠ يجب أن لا تفوت الفرصة ٠ هيا بنا !

نهض أليوشا دون أن ينطق بكلمة ، وتبع راكيتين ٠

ـ لو علم أخوك ايفان بهذا لدهش هو ٠ بالمناسبة : لقد سافر ايفان فيدوروفتش الى موسكو هذا الصباح ، هل كنت تعرف ذلك ؟

قال أليوشا بغير اكتراث :

ـ أعرفه ٠

وانبثقت صورة دمترى فجأة فى خياله ، ولكنها لم تلبث فيه الا لحظة قصيرة ٠ لقد أحس احساسا غامضا بوجود أمر مستعجل لا يحتمل أى ابطاء ، هو الزام أخلاقى ، هو واجب رهيب يجب أن يقوم به ، ولكن هذه الذكرى لم تُخرجه من خدره ؛ لقد اجتازت فكره دون أن تبلغ قلبه ثم لم تلبث أن بارحته ٠ ومع ذلك فان هذه الواقعة التفصيلية ستعاود ذاكرته كثيرا فيما بعد ٠

ـ لقد نعتنى أخوك المهذب اللطيف ايفان ذات مرة بقوله « تافه ليبرالى لا موهبة له » ٠ أما أنت فقد أسمعتنى فى يوم من الأيام أننى أفتقر الى « الاستقامة » ٠ طيب ! سنرى قريبا ما قيمة مواهبكم واستقامتكم أنتم (أضاف راكيتين قوله هذا هامسا كأنه يخاطب نفسه) ٠

ثم أردف يقول بصوت عالٍ :

ـ لنتحاش المرور بالدير ولنتجه رأسا الى المدينة مجتازين الممر

الضيق ... هيم ! وسأثب لحظة الى منزل السيدة هوخلاكوفا أثناء الطريق . تصور أنني قصصت عليها تفصيلا كل ما جرى هنا ، فاذا هي تجيبني منذ قليل في بطاقة كتبت عليها بالقلم الرصاص (هذه السيدة تعشق كتابة البطاقات) : « انها ما كان لها أن تتوقع من عجوز مبجّل كالشيخ زوسيما ... أن يصدر عنه ... مثل هذا السلوك ! ... » . هذا ما كتبته بالحرف : « السلوك » ! هي أيضا حاقدة عليه شخصيا بسبب ما وقع . هذا أنتم !

قال راكيتين ذلك ثم صاح فجأة يقول وقد توقف عن السير ، وامسك أليوشا من كتفه ، وحدّق اليه بعينين متفرستين :

ــ هل تعلم يا أليوشا ؟

لقد استبدت براكيتين في تلك اللحظة فكرة جديدة انبثقت في ذهنه ؛ وكان واضحا رغم هيئته الضاحكة أنه ما زال لا يجرؤ أن يعبر عنها من فرط ما يصعب عليه أن يصدق ما كان عليه أليوشا من حالة نفسية هي في نظر راكيتين خارقة غير متوقعة .

وعزم أمره أخيرا فقال بصوت متردد غير مطمئن :

ــ أليوشا ، عزيزي ! هل تعلم أين يجب علينا أن نذهب كلانا أولاً ؟

ــ نذهب الى حيث تشاء . يستوى عندى كل شيء .

فقال راكيتين وهو يرتجف لهفه وخشية :

ــ لنذهب الى جروشنكا ! هل توافق ؟

فأجاب أليوشا هادئاً بغير تردد :

ــ لنذهب الى جروشنكا اذا أردت !

كاد راكيتين أن يثب الى وراء من فرط ما بدت له هـــذه الموافقة السريعة مستغربة • وصاح يقول مذهولا :

ـ هكذا ؟ عظيم ! •••

ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفســـه ، فأمسك أليوشا من ذراعه ، وأسرع يجره نحو الممر الضيق ، خشية أن يتراجع أليوشا عن قراره• وسارا صامتين ، لأن راكيتين يتحاشى الآن أن يفتح فمه مخافة أن يعكّر ما كان عليه أليوشا من حسن الاستعداد والقبول • غير أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يدمدم بعد لحظة قائلا :

ـ ما أعظم ما ستشعر به جـــروشنكا من سرور برؤيتك ! أوه ! لسوف تكون سعيدة !

ولكنه سرعان ما صمت •

على أن راكيتين لم يحاول أن يجذب أليوشا الى منزل جروشنكا ليسر جروشنكا • ان راكيتين رجل جاد ، فهو لا يحاول أمراً من الأمور دون أن يرى فيه نفعاً له • ولقد كان فى تلك اللحظه يخضع لباعثين اثنين • فأما الباعث الأول فهو أنه يحب أن ينتقم : انه يريد أن يشـــهد « تدنس الرجل الصالح » ، انه يريد أن يرى « سقوط » أليوشا من « القداسة الى الاثم » ، وذلك أمر كان راكيتين يتلذذ به منذ الآن • وأما الباعث الثانى فهو هدف مادى سيحقق له ربحاً كبيراً ، وسنأتى على ذكره فيما بعد •

قال راكيتين فى سره وهو يشعر بفرح خفى خبيث : « اذن لقـد جاءت دقيقة كهذه الدقيقة فى حياته • ويجب أن لا نفوت هذه الدقيقة ، لأنها تعدنا بمنافع كثيرة وفوائد جمة » •

٣

البصلة

تقيم جروشنكا في قلب المدينة قرب «ميدان الكنيسة» في منزل المرأة موروسوفا ، وهي أرملة تاجر أجّرت جروشنكا جناحا مبنيا من خشب في فناء منزلها ؛ والمنزل من حجر ، وهو واسع له طابق فوق الطابق الأرضي ، لكنه متسخ ليس في مظهره كثير من رواء . وصاحبته العجوز تعيش فيه وحيدة مع قريبتين لها طاعنتين في السن هما أيضا ؛ وهي تملك من الثراء ما كان يمكن أن يعفيها من تأجير جناح الفناء ، والناس في المدينة يعلمون جميعا أنها لم تقبل سكنى جروشنكا في منزلها (منذ أربع سنين) الا ارضاء لقريبها التاجر سامسونوف الذى يميل الى الشابة ويرعاها ويحميها . والناس في المدينه يؤكدون أن العجوز الغيور على الشابة ، انما أراد في أول الأمر حين أسكن أثيرته في منزل موروسوفا ، أن يجعلها تحت اشراف العجوز اليقظة التي كلفها بأن تراقب سلوكها . ولكن سرعان ما ظهر أن هذا السلوك ليس في حاجة الى أن يراقَب ، وقد أصبحت العجوز آخر الأمر لا تهتم بجروشنكا ، ولا تراها الا نادرا ، ولا تزعجها بالسؤال تلو السؤال من باب البحث والتقصي والتفتيش . ولقد انقضت الآن أربع سنين على اليوم الذى جاء فيه التاجر العجوز الى هذا المنزل بالصبية الخجول التي لا يزيد عمرها على ثمانية عشر عاما ، والتي لقيها في مركز الاقليم وكانت عندئذ نحيلة الجسم ضعيفة البنية

كثيرة الوجوم حزينه النفس • ان مياهاً كثيرة قد جرت تحت الجسور منذ ذلك اليوم • وكان الناس في مدينتنا لا يعرفون الا أشياء قليلة عن ماضي الفتاة ، وكان ما يرددونه من معلومات عنها تعوزه الدقة ويعوزه الوضوح ، ولم تزدد هذه المعلومات بعد ذلك كثيرا ، حتى في العهد الذي أصبح فيه أمر « الحسناء الرائعة » ، أجرافين ألكسندروفنا ، يهم عدداً كبيراً من الاشخاص عندنا • كان يقال ان ضابطا مجهولاً قد أغراها وأغواها في السنة السابعة عشرة من عمرها ، ثم لم يلبث أن هجرها وسافر وتزوج غيرها ، فتركت الصبية الشقية للعار والبؤس • وكان يزعم أيضا أن جروشنكا ، رغم أن التاجر العجوز يعيلها ، انما تنتمي الى أسرة محترمة من رجال الدين ، وانها بنت قسيس كان محالاً على الاستيداع ، أو كانت تقال أشياء من هذا القبيل • المهم ان اليتيمة الحساسة المذلة المسكينة قد استحالت في غضون أربع سنين الى حسناء روسيه بضه الجسم ، زاهيه الألوان ، جمة النشاط ، جريئة جسور ، لا تخلو من وقاحه ، حاذقة في شئون الأعمال ، شرهة الى المال، بخيلة حذرة في آن واحد • وكان يقال أيضا انها استطاعت خلال هذه المدة القصيرة أن تجمع رأس مال صغيرا ، بوسائل ليست شريفة أمينة دائما • على أن هناك أمرا يجمع الناس عليه : هو أن جروشنكا امرأة يستحيل نيلها ، فما من رجل واحد باستثناء حاميها العجوز ، استطاع أن يتباهى بأنه حظى منها بشيء خلال تلك السنين الأربع • والأمر محقق لا ريب فيه ، ذلك أن رجالاً كثيرين قد سعوا الى الحظوة بنعمها ، ولا سيما في السنتين الأخيرتين ، فلم يظفر أحد منهم بطائل ، وباءت جميع محاولاتهم بالاخفاق ، حتى أن بعضهم قد اضطر الى الانسحاب وهو موضع هزء وتهكم بسبب ما تتصف به السيدة من عزيمة صلبة وروح ساخرة • وقد عرف أيضا أنها أصبحت تهتم بالأعمال ، ولا سيما منذ

سنة ، وأنها تبذل فيها مقدرات كبيرة وتبرهن فيها على كفاءات عظيمة ، حتى أن كثيرا من الناس أصبحوا يصفونها بقولهم «يهودية» • ليس معنى هذا أنها كانت تقرض بالربا ، ولكن عُرف مثلاً أنها كانت تشترى بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش كارامازوف سندات قديمة بعشر قيمتها ثم تتوصل بعد ذلك الى تحصيل قيمتها كاملةً ، أي تتقاضى مبالغ تساوى عشرة أضعاف ما دفعت • وكان العجوز سامسونوف الذى تورمت ساقاه وأصبحتا عاجزتين عن الحركة منذ عام ، رجلاً أرمل يضطهد أبناءه ويسومهم سوء العذاب ، ولكنه يملك عدة مئات من ألوف الروبلات ؛ ومع ما يتصف به من بخل وقسوة لا ترحم ، فقد وقع تحت تأثير الفتاة التى كان لا يمن عليها فى أول الأمر الا بما « يسد الرمق » أو بما يوجبه « الصيام الكبير » على حد تعبير الساخرين المستهزئين ، الى أن استطاعت جروشنكا أن تتحرر ، ولا سيما بفضل ما أوحته اليه من ثقة عظيمة بوفائها له • ان هذا العجوز ، وهو رجل من كبار رجال الاعمال (ولقد توفى منذ زمن طويل) كان له طبع خاص أهمُّ ملامحه البخل والقسوة الشديدة • فرغم ما كان لجروشنكا من تأثير كبير عليه — حتى أصبح لا يستطيع الاستغناء عنها — فانه لم يترك لها مالاً كثيرا ؛ ولو قد هددته جروشنكا بالقطيعة لما تزحزح عن موقفه فى هذا المجال • على أنه قد أعطاها أثناء حياته مبلغا غير كبير من المال ، فلما علم الناس فى المدينة بذلك دُهشوا جميعا • قال لها وهو يعطيها ثمانية آلاف روبل « أنت امرأة ذكية ، فسوف تعرفين كيف تربين هذا المبلغ باستثماره • ولكن اعلمى اننى ، عدا ما أنفقه عليك لا عالتك التى سأستمر فى تأمينها ، لن أعطيك شيئا أثناء حياتى ، ولن أوصى لك بشىء فى وصيتى بعد مماتى »• وقد تمسك الرجل بقوله : مات تاركا كل ثروته لأبنائه الذين عاملهم أثناء حياته ، هم وزوجاتهم ، معاملة الخدم • أما جروشنكا فقد أبى حتى

SS

أن يأتي على ذكرها في وصيته • هذه التفاصيل كلها قد عُرفت فيما بعد• ولكن الرجل قد ساعد جروشنكا في مقابل ذلك بنصائحه في استثمار رأس مالها الشخصي الصغير » ، ودلَّها مراراً على أعمال رابحة وصفقات نافعة • فلما تولَّه فيدور بافلوفتش بحب جروشنكا التي عرفها بمناسبة صفقة طارئة ، ولما انتهى به الأمر على نحو لم يكن في حسبانه هو نفسه الى الهيام بها هياماً أفقده كل عقله تقريباً ، فان العجوز سامسونوف الذي كان مريضاً جداً وكان يشارف على نهايته ، لم يزد على أن ضحك من ذلك • ان من الأمور البارزة أن جروشنكا كانت صريحة مع العجوز صراحة تامة طوال مدة العلاقة بينهما ؛ ويبدو أن العجوز كان هو الانسان الوحيد الذي تعامله جروشنكا هذه المعاملة وتصارحه هذه المصارحة • ولكن حين توله دمتري فيدوروفتش آخر الأمر هو أيضاً بجروشنكا ، انقطع حاميها العجوز عن الضحك ؛ بل لقد اعتقد أن من واجبه أن ينبه المرأة الشابة ناصحاً محذرا ، فقال لها بلهجة جادة قاسية : « اذا كان عليك أن تختاري بين الاثنين ، الأب وابنه ، فاختاري الأب ، ولكن على شرط أن يتعهد الوغد بزواجك وأن يهب لك مبلغاً مناسبا منذ البداية • أما الكابتن ، فدعيه ، لأنه لا يناسبك • » • بهذا خاطب العجوز المحب لملذات الحياة صاحبته جروشنكا بينما كان يحس بوشك نهايته ، ولقد مات فعلاً بعد ذلك بخمسة أشهر • ولنذكر عابرين أن أحداً من الناس لم يكن يعرف على وجه الدقة ماذا كان موقف جروشنكا من كارامازوف الأب وكارامازوف الابن ، رغم أن أشخاصا كثيرين كانوا في ذلك الوقت على علم بالمنافسة الفظيعة بين الأب وابنه على الفوز بحظوة المرأة الشابة • أما خادمتا جروشنكا فقد شهدتا في الدعوى (بعد الكارثة التي سنتحدث عنها فيما بعد) أن آجرافين ألكسندروفنا لم تكن تستقبل دمتري فيدوروفتش الا خوفاً ، لأنه كان قد « هدّد بقتلها » • ان لجروشنكا خادمتين : احداهما

طباخة هرمة جدا كانت فى الماضى تخدم أسرتها وهى الآن مريضة وتكاد تكون صماء ، والثانية فتاة لطيفة فى العشرين من عمرها كانت بمثابة وصيفة لها ، وهى حفيدة الطباخة العجوز • وكانت جروشنكا تعيش حياة فقيرة فى مسكن داخله بسيط متواضع جدا • انها تشغل فى الجناح ثلاث غرف أثاثها من خشب الأكاجو ، استأجرته جروشنكا من مالكة المنزل أيضا ، وهو من طراز أثاث عام ١٨٢٠ •

حين وصل راكيتين وأليوشا الى مسكن جروشنكا كان الظلام قد خيم ، ولكن الغرف لم تُشعل فيها الأضواء بعد • كانت جروشنكا مضطجعة فى الصالون على أريكة طويلة ثقيلة لها مسند من خشب الأكاجو ، قد غُطيت بجلد صلب ، ونال منها الزمن فاهترأت وتقبت فى عدة مواضع • ان المرأة الشابة مسندة رأسها على وسادتين أخذتهما من سريرها ؛ مستلقية على ظهرها ، ساكنة ، جاعلة ذراعيها تحت شعرها ، مرتدية ثوبا من حرير أسود ـ كأنها تنتظر زيارة أحد ـ ملفعة شعرها بقبعة رائعة من تخريم ، ملقية على كتفيها وشاحاً من تخريم أيضا قد ثبتته بدبوس حلية كبيرة من ذهب • واضح أنها كانت تنتظر أحداً ، لأن وضعها كان يدل على نفاد الصبر نفاداً محموما • وكان وجهها يبدو شاحبا ، وكانت عيناها تسطعان ، وكانت شفتاها تحترقان ، بينما كان طرف قدمها يلطم ذراع الأريكة لطماً موقعاً ينم عن تململ الانتظار • فما ان دخل أليوشا وراكيتين مسكنها حتى استولى عليها اضطراب شديد • لقد سمعاها ، وهما فى الممشى ، تثب عن أريكتها وتقف على قدميها وتصيح بلهجة فيها ذعر وهلع :

ــ من هنا ؟

وها هى ذى الخادمة الشابة التى فتحت لهما الباب تهرع الى سيدتها على الفور لتقول لها :

ـ ليس هو • هما شخصان آخران •

دمدم راكيتين يقـــول وهو يمسك أليوشـا من ذراعيه ليقوده الى الصالون :

ـ ماذا دهاها ؟

كانت جروشنكا واقفه قرب الأريكة وهى ما تزال مذعورة بعض الشىء • ن ضفيرة كثيفة من شعرها الكستناوى قـــد خرجت من تحت قبعتها وتهدلت على كتفها اليمنى ، ولكن جروشنكا لم تنتبه اليها أول الأمر ولم نرفعها الا بعد أن تفرست فى القادمين وعرفتهما •

قالت جروشنكا :

ـ هه ! أهذا أنت يا راكيتا ؟ لقد روّعتنى ! ومن هذا الذى جئتنى به ؟ يا لها من مفاجأة !

كذلك صاحت جروشنكا حين رأت أليوشا •

قال راكيتين وهو يصطنع هيئة منطلقة حرة ، هيئة رجل يشعر أن بينه وبين ربة المنزل من المعرفة الحميمة ما يجيز له أن يصـــدر الأوامر نيابةً عنها :

ـ هلا أمرت باشعال الشموع •

ـ طبعا طبعا ••• الشموع ••• الشموع ! فينيا * ، ائته بشمعة !•• لقد أخترتَ اللحظة المناسبة لتجيئنى به !

كذلك هتفت تقول جروشنكا مرةً أخرى وهى تومىء برأسها الى أليوشا •

ثم التفتت نحو المـرآة ، فتناولت الضـــفيرة المتهدلة بكلتا يديها ،

وأسرعت تنبتها على رأسها • كان يبدو عليها أنها غير راضية • قال راكيتين مستاءً :

ـ لعلني جئت في غير الأوان المناسب ؟

فقالت جروشنكا وهي تبتسم لأليوشا :

ـ كلا ••• ولكنك روّعتني يا راكيتا ، هذا كل شيء • لا تخف مني يا عزيزي الطيب أليوشا • ليتك تعرف مدى سعادتي برؤيتك ، أنا التي لم أكن أتوقع مجيئك • أما أنت يا راكيتا فقد روعتني منذ هنيهة ، لأنني ظننت أن ميتيا هو الذي كان يريد أن يقتحم بابي • لقد خدعته في هذا المساء ، وأجبرته على أن يحلف لي بأنه يصدقني ، بينما كنت أكذب عليه • ذلك أنني زعمت له أنني سأقضي السهرة كلها عند عجوزي كوزمتش أساعده في اجراء حساباته الى ساعة متأخرة من الليل • انه يعلم أنني أذهب الى كوزما كوزمتش مرةً كل أسبوع لتنظيم دفاتره ، نغلق علينا باب الغرفة ، فيأخذ هو باجراء عمليات الجمع مستعينا بعداد ، وآخذ أنا بتسجيل ما يمليه عليّ من أرقام ، لأنني الانسان الوحيد الذي يوليه ثقته• ان ميتيا يعتقد بأنني الآن عند العجوز، على حين أنني مضطجعة هنا في انتظار رسالة • انني لأتساءل لماذا سمحت لكم فينيا بالدخول • فينيا ! فينيا ! أسرعي الى الباب الكبير ، وألقي نظرة على الخارج لتتأكدي من أن الكابتن لا يحوم حول المنزل • جائز أن يكون قد اختبأ ليتجسس عليّ • انني أخاف منه خوفا قاتلاً !

ـ ليس هناك أحد يا أجرافين ألكسندروفنا ، فلقد درت حول المنزل منذ لحظة ، وأنا أنظر من شق الباب من حين الى حين ، لأنني أرتعد من الخوف أنا أيضا •

ـ هل خشب النوافذ مغلق يا فينيا ؟ يجب اسدال الستائر هكذا

(قالت هذا وأسدلت الستائر الكثيفة بنفسها الى النصف) حتى لا يلاحظ نوراً فى النوافذ . اننى خائفة من أخيك خوفاً رهيباً فى هذا اليوم يا أليوشا .

كانت جروشنكا تتكلم بصوت عالٍ رغم قلقها وخوفها ، وكان يُلاحظ فيها شىء من حماسة .

سألها راكيتين :

ـ لماذا تخافين ميتيا كل هذا الخوف فى هذا المساء ؟ ما عهدتك وجلةً معه ، فانما أنت تسيِّرينه بعصا فى العادة .

ـ قلت لك اننى أنتظر رسالة ، رسالة ثمينة ، فما ينبغى أن يجىء ميتيا الآن . ثم انه لم يصدقنى حين زعمت له اننى ذاهبة الى كوزما كوزمتش ، لقد أحسست بذلك . لا بد أنه أختبأ فى مكان ما وراء حديقة فيدور بافلوفتش ليترصدنى . هذا أفضل . فهو فى هذه الحالة لن يجىء الى هنا . أما كوزما كوزمتش فقد ذهبت اليه فعلاً ، وقد رافقنى ميتيا حتى باب منزله ، وزعمت له أننى سأبقى هناك الى نصف الليل ، ورجوته ملحةً أن يجىء ليصحبنى فى العودة الى بيتى . عندئذ تركنى ، فمكثت عند العجوز عشر دقائق ، ثم رجعت الى البيت راكضة . أوف ! ما أشد ما كنت أخشى أن ألقاه فى الطريق !

ـ لأى مناسبة تزينت هذه الزينة كلها ! انها لقبعة رائعة هذه القبعة التى أرى ...

ـ غريب أمرك يا راكيتا ! قلت لك اننى أنتظر رسالة ، فمتى وصلت الرسالة أسرعت أخرج لا يؤخرنى أن أتحدث معكم . لقد تزينت استعدادا للحظة المناسبة .

– الى أين تذهبين ؟

– تحب أن تعلم ذلك ؟ الاكثار من العلم ضرر يا عزيزى !

– ياه ! أنت فرحة جدا . ما رأيتك على هذه الحال فى يوم من الأيام . لقد تجملت وتزينت كأنها ذاهبة الى حفلة رقص !

كذلك قال راكيتين وهو يفحص بنظره جروشنكا .

قالت له :

– ماذا تعرف أنت عن حفلات الرقص ؟

– وأنت ؟ هل تعرفين عنها أكثر مما أعرف ؟

– أنا ؟ شهدت حفلة رقصٍ مرةً واحدة فى حياتى . حدث ذلك منذ ثلاث سنين ، حين زوَّج كوزما كوزمنش ابنه . كنت أشاهد الحفلة من أعلى الشرفة . على أننى لن ألهو بمناقشتك يا راكيتا بينما عندى ضيف نادر هذه الندرة ، ضيف هو أمير حقا ! يا أليوشا ، يا ملاكى الصغير ، اننى لا أصدق عينىّ ! كيف أمكن أن يجىء الى بيتى ؟ الحق اننى لم أتوقع ولا كنت أحلم أن أراك فى منزلى ! لم أصدّق فى يوم من الأيام أن من الممكن أن تجيئنى ، أعترف لك بذلك ! انك لم تختر اللحظة المناسبة ، ومع ذلك فأنا سعيدة كل السعادة برؤيتك ! اجلس على هذه الأريكة .. يا عزيزى ، يا شمس مضيئة ! اننى مذهولة ... ليتك قد خطر ببالك يا راكيتا أن تجيئنى به أمس ، أو أمس الأول ... لا بأس على كل حال ... أنا سعيدة رغم كل شىء ! ... بل ربما كان مجيئه اليوم ، فى مثل هذه اللحظة ، خيراً من المجىء بالأمس ...

جلست جروشنكا على الأريكة قرب أليوشا بخفة ونشاط وحرارة، وأخذت تنظر اليه فى نشوة ووجد . كانت تشعر حقا بسعادة لرؤيته ، ولم تكذب حين أكدت له ذلك . كانت عيناها تسطعان ، وكانت تضحك،

ولكن بمرح فيه كثير من اللطف والكياسة • لم يكن أليوشا يتوقع أن يرى فى وجهها مثل هذا التعبير عن الطيبه ••• انه لم يرها حتى الآن الا نادراً ، وكان رأيها فيهـا رأياً فظيعاً • كانت ثورتها المتوحشة على كاترين ايفانوفنا بالأمس قد قلبت نفسه رأساً على عقب ، لذلك أدهشه الآن أشد الدهشه أن يرى فيها انسانا مختلفا كل الاختلاف • انه رغم الحزن الشديد الذى يرهقه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التحديق الى المرأة الشابة والتفرس فيها • كانت حركاتها وآدابها قد تغيرت عما كانت عليه بالأمس وتحسنت تحسنا ملحـوظا : ليس فى صـوتها الآن تلك النبرات الرخوة التى أصبحت الآن سريعة بسيطة مباشرة واثقة • هى الآن تشع طيبة وتنطلق على سجيتها طبيعية بلا تعمل ، رغم ما يبدو من أنها مضطربة اضطرابا شديدا •

قالت مدمدمة :

ـ رباه ! يا لها من مغامرات كثيرة فى يوم واحد ! اننى أتساءل يا أليوشا لماذا أنا سعيدة برؤيتك هـذه السعادة كلها ؟ أؤكد لك اننى أجهل أنا نفسى سبب هذه السعادة •

قال راكيتين متدخلاً وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :

ـ أأنت تجهلينه الى هـذا الحد من الجهل ؟ لا شك فى أنك لم تلحّى طوال هذه المدة فى طلب الاتيان به ، دون باعث يدفعك الى ذلك• لقد نقرت أذنىّ من طول ما سألتنى أن آتى به اليك ، فلا بد أن يكون لك فى ذلك هدف •

ـ كان لى هدف حقا ، ولكن لم يبق لى هدف الآن • فات الأوان• ماذا أقدم اليكما من طعام أو شراب ؟ لقد أصبحت طيبة يا راكيتا ، هل تعلم ذلك ؟ هلاّ جلست يا راكيتا ؟ لماذا تظل واقفا ؟ ها •• أأنت جلست

اذن ؟ لا خوف على راكيتا من أن ينسى نفســـه ! ها هو ذا قد اتخذ له مكانا فى قبالتنا يا أليوشا ، مستاءً من أننى لم أدعه الى الجلوس قبل أن أدعوك أنت • انه سريع التأذى ، هل تعرف هذا ؟ انه رهيب فى سرعة تأذيه ! (هذا ما أضافته ضاحكة) • لا تزعل يا راكيتا ! أنا اليـوم طيبة جدا ! ولكن أنت يا صغيرى أليوشا ، لماذا تبدو حزينا هذا الحزن كله ؟ ألعلنى أخيفك ؟

قالت له ذلك ونظرت فى عينيه وهى تبتسم ابتسامة لاهية •

قال راكيتين :

ـ هو حزين لأنه أُغفل فى الترقيات •

ـ أية ترقيات ؟

ـ انتشرت من شيخه رائحة تفسخ •

ـ انتشرت ؟ ما هذه السخافات التى تقولها ؟ لا شك أنك تريد أن تغمز وتلمز ••• أنا أعرفك ! اسكت أيها الأبله •

ثم قالت لأليوشا :

ـ هل تسمح لى يا أليوشا بأن أقعد على ركبتيك •• هكذا ؟

قالت ذلك ثم قعدت على ركبتيه بوثبة واحدة وهى تضحك وتلامسه ملامسة رقيقة كقطة صغيرة •

ثم أحاطت عنقه بذراعهـــا اليمنى فى عطف وحنـــان • وأردفت تقول :

ـ سأعرف كيف أدخل البهجة الى قلبك يا فتاى الصغير التقى • حقاً ••• هل تسمح لى بأن أبقى على ركبتيك ؟ ألا تغضب ؟ اذا شــئتَ قمتُ •

صمت أليوشا ولم يجرؤ أن يتحـــرك • لقد سمع قولها : « اذا شئتَ قمتُ » ، ولكنه لم يجب وشعر كأنه مشلول • ومع ذلك لم يحس بما يمكن أن يتخيله رجل مثـــل راكيتين الذى كان يتأمله بطرآ • ان الألم العميق الذى يملأ قلبه قد جمَّد أحاسيسه ، ولو كان يستطيع أن يرى ما بنفسه رؤية واضـــحة لأدرك أنه كان فى تلك اللحظة محصنا تحصينا قويا من جميع الفتن وجميع الاغراءات الممكنة • ومع ذلك ، رغم ذهوله عن حاله ورغم الألم الذى كان يرهقه ، فقد أدهشه شعور جديد غريب نبت فى نفسه : وهو أن هذه المرأة ، هذه المرأة «الرهيبة» لاتخيفه الآن كما كانت تخيفه من قبل ، ولا تبعث فى نفسه ذلك الذعر الذى كان يحسه حتى ذلك الحين متى خطرت بباله المرأة فى المناسبات النادرة التى كان يمكن أن تخطر بباله المرأة ! بل ان ما يحدث الآن هو عكس ذلك تماما : ان هذه المرأة الشابة التى كان يخشاها أكثر مما يخشى سائر النساء ، والتى تحيطه بذراعيها جالسةً على ركبتيه ، توقظ فى نفســـه شعورا مختلفا عن ذلك الشـــعور كل الاختـلاف ، شعورا فريدا غير متوقع ، شعورا هو استطلاع قوى يُحسن الى حالته الروحية حقاء انه ، خاصةً ، لا يشعر بأى خوف ، لا يشعر بأى أثر من آثار جزعه الماضى، وهذا ما كان يدهشه بالرغم منه •

هتف راكيتين يقول :

ـ كفاكِ كلاماً فى ترهات • خير من هـــذا أن تسقينا شيئا من الشمبانيا • لقدَ وعدتنى بذلك ، هل تتذكرين ؟

ـ صحيح • وعدتك بذلك• لقد قطعت له على نفسى عهداً يا أليوشا لأسقينَّه شمبانيا يومَ يجيئنى بك ، هل تفهم ؟ هلموا بنا ، سأشرب أنا نفسى شمبانيا • فينيا ، فينيا ، هاتينا بتلك الزجاجة التى تركهـــا ميتيا ،

اسرعى ! سأسقيكم شمبانيا مهما أكن بخيلة ! ما هذا من أجلك يا راكيتا ، فما أنت الا خيارة فاسدة ، بل من أجله هو ، من أجل أميرى ! سأشرب معكما ، رغم أن فكرى فى مكان آخر • أريد أن أقصف !

عاد راكيتين يسألها مستطلعاً ملحاً ، وهو يبذل جهــدا كبيرا فى سبيل أن يظهر بمظهر من لا يلاحظ السخريات التى تصبها عليه :

ــ ماذا حدث لك اليوم ؟ ما هذه الرسالة التى تنتظرنيها ؟ هل الأمر سر ؟

فقالت جروشنكا وقد عاودها قلقها فجأة :

ــ ليس الأمر سراً ، ثم انك على علم به •

وأدارت رأسها نحو راكيتين وابتعدت قليلا عن أليوشا مع بقـائها قاعدةً على ركبتيه محيطةً بذراعها عنقه ، وقالت :

ــ سيصل ضابطى يا راكيتين ، ضابطى الجميل !

ــ أعرف أنه سيصل ، ولكننى كنت أظن أنه ما يزال بعيدا •

ــ هو الآن فى موكرويه ، وسيبعث الىّ من هناك رسـولاً • ذكر لى ذلك فى رسالة تلقيتها أمس • فأنا أنتظر الآن هذا الرسول •

ــ غريب ! لماذا فى موكرويه ؟

ــ شرح هذا يطول • يكفيك الآن ما علمت •

ــ وذلك الشجاع ميتيا ؟ هل يعلم بالامر ؟

ــ لا يعلمه طبعا • وهو لا يشتبه فى شىء • لو علم لقتلنى • ولكننى أصبحت لا أخاف منه • اننى لا أعبأ بخنجـــره • اسكت يا راكيتا •

لا تحدثني بعد الآن عن دمتري فيدوروفتش • لقـــد أساء الىّ كثيرا • لا أحب أن أفكر في هذه الأشياء بعد اليوم • أوثر أن أهتم بأليوشا • أنني أنظر اليه ، فيبتهج بذلك قلبي ••• هلاّ ضحكت قليلاً يا ملاكي • كن أكثر فرحاً ، شاركني سعادتي ، اهزأ بحماقتي ••• آ ••• ها هو ذا يبتسم أخير ••• لقد ابتسم لي ! ما أجمل هذه الوداعة في نظرته • هل تعلم يا أليوشا ؟ لقد كنت أخشى أن تزعل مني بسبب تلك القصة التي حدثت في ذلك اليوم عند الآنسة • لقد تصرفت نحوها تصرف وحش خبيث ! هذا صحيح • ولكنني مسرورة رغم كل شيء بما حدث • كان هذا سيئاً من جهة حسناً من جهة ثانية • (أضافت ذلك ضاحكة ثم وجمت على حين فجأة وطاف بابتسامتها شيء من القسوة) • روى لي ميتيا كيف صرخت تقول بعد انصرافي : « هذه البنت تستحق أن تجلد على مرأى من الناس » • لقد أرادت أن تعرفني أملاً في أن تسيطر عليّ • كانت تظن أنها ستغريني وستفتنني بفنجان من الشوكولاته ••• لا ••• لا ••• لقد أحسنتُ صنعاً اذ تصرفت كما تصرفت • كل ما أخشاه هو أن تكون أنت قد زعلت مني •••

بهذا ختمت كلامها وهي تضحك ضحكة خفيفة •

قال راكيتين مدهوشا دهشة عميقة :

ـ يبدو أنها تخشى رأيك حقا يا أليوشا ! انها تخاف منك ، من دجاجة مثلك !

ـ هو في نظرك دجاجة لأنك ••• لا ضمير لك ! هذا كل شيء • أما أنا فأحبه بكل نفسي ، هل فهمت ؟ هل تصدقني يا أليوشا اذا قلت لك انني أحبك صادقة مخلصة ؟

ـ يا لخالعة العذار ! هذا تصريح بحبٍ يا أليوشا ، تصريح بحبٍ لك أنت !

ـ لم لا يكون كذلك ما دمت أحبه ؟

ـ وصاحبك الضابط ؟ والرسول الآتى من موكرويه ؟

ـ هذان أمران مختلفان .

ـ ذلك ما تقوله النساء دائما فى مثل هذه الحالة .

أجابته جروشنكا بقوة وحرارة :

ـ لا تحنقنى يا راكيتا . هذان أمران مختلفان . أنا أحب أليوشا حباً آخر . صحيح أننى قد رسمت خططاً شريرة بشأنك يا أليوشا ، لأننى منحطة عنيفة قاسية . ولكننى كنت فى لحظات أخرى أعدك بمثابة ضميرٍ لى ، وكثيرا ما كنت أحدث نفسى قائلة : « لا بد أنه يحتقرنى بسبب سلوكى . » ، وقد قلت لنفسى هذا الكلام أمس الأول حين رجعت من عند الآنسة . لقد لاحظتك منذ زمن طويل يا أليوشا . ان ميتيا يعلم هذا . لقد ذكرته له . وهو يفهمنى . هل تصدق يا أليوشا أنه يتفق لى أحيانا حين أنظر اليك أن أشعر بالخجل فجأة ، بالخجل من نفسى ... كيف استطعت أن تدخل الى قلبى على هذا النحو ؟ لقد نفذت الى قلبى . أما منذ متى ، فلا أدرى فى الواقع ...

دخلت فينيا فى تلك اللحظة ، ووضعت على المائدة صينية عليها زجاجة شمبانيا مفتوحة وثلاث كئوس ملأى .

هتف راكيتين يقول :

ـ وصلت الشمبانيا ! أنت مهتاجة كثيرا فى هذا المساء يا أجرافين ألكسندروفنا ، حتى أصبحت لا تسيطرين على نفسك . ومتى أفرغت

هذه الكأس فسوف ترقصين ، ترالالا ! ••• ولكننى آلاحظ أن الشمبانيا لم تقدم وفقا للأصول • ان الزجاجة فاترة ، والسدادة منزوعة ، والخادم قد ملأت الكئوس فى المطبخ • لا بأس ••• سنشربها على كل حال •

واقترب راكيتين من المائدة ، فتناول كأساً ، وأفرغها فى جوفه دفعةً واحدة ثم ملأها من جديد ، وقال وهو يمر على شفتيه بلسانه :

ــ لا يتمتع المرء بالشمبانيا كل يوم • جاء دورك يا أليوشا • ألا فلنر مقدرتك ! أى نخب نشرب ؟ ربما نخب أبواب الجنة ؟ تناولى هذه الكأس يا جروشا واشربى معنا نخب أبواب الجنة !

ــ أبواب الجنة ؟ ماذا تعنى ؟

وتناولت جروشنكا كأسا ؛ وكذلك فعل أليوشا فجرع جرعة ووضع الكأس على المائدة وقال مبتسما ابتسامةً عذبة :

ــ أوثر أن لا أشرب •

فصاح راكيتين قائلاً :

ــ فماذا كان تباهيك اذن ؟

وقالت جروشنكا :

ــ لن أشرب أنا اذن • ثم اننى ليست بى رغبة فى الشراب • تستطيع أن تفرغ الزجاجة وحدك اذا شئت يا راكيتا • واذا قرر أليوشا أن يشرب شربت أنا أيضا •

قال راكيتين ساخرا :

ــ يا للعواطف الرقيقة ! انها بهذا تجثو على ركبتيها • ان له هو عذراً على الاقل ، فهو حزين النفس ، أما أنت فأى عذر يمكن أن تنتحلى؟ لقد تمرد هو على الهه وأراد أن يأكل مقانق •

SS

ــ ماذا وقع له ؟

ــ مات شيخه هذه الليلة ... الأب زوسيما ... ذلك القديس .

ــ ماذا ؟ الشيخ زوسيما مات ؟ لم أكن أعرف ذلك .

قالت جروشنكا هذا صائحة ، ورسمت على نفسها اشارة الصليب بتقى وورع . وأردفت تقول منفعلةً على حين فجأة كالمذعورة :

ــ آه ... يا رب ! وأجلس على ركبتيه فى مثل هذا اليوم ؟

ثم أسرعت تنهض ، ومضت تجلس على الأريكة . حدّق اليها أليوشا بنظرة طويلة دهشة ، وانبسطت أسارير وجهه قليلاً ، وقال يخاطب راكيتين بصوت قوى حازم :

ــ لا يضايقنى بموضوع ثورتى المزعومة على الله يا راكيتين . اننى لا أحب أن أغضب منك ، ومن أجل هذا أرجوك أن تبرهن على نبل النفس أنت أيضا . لقد فقدتُ كنزاً لم تملكه أنت فى يوم من الايام ، لذلك لن تستطيع أن تفهمنى . خير لك أن تقتدى بها : هل رأيت كم دارتنى ورعتنى ؟ لقد جئتُ الى هنا لأقابل انسانة شريرة ، لألقى روحاً خبيثة ، وكنت أتمنى ذلك أنا نفسى ، لأننى كنت فى تلك اللحظة جبانا شريرا . ثم اذا أنا ألقى أختاً صادقة ، جوهرة ثمينة ، نفساً صافية محبة ... دارت مشاعرى ، وأحاطتنى بالرعاية . عنك أتكلم يا أجرافين ألكسندروفنا . لقد وهبتِ لى الجرأة على أن أحيا .

أخذت شفتا أليوشا تختلج وصمت مختنقا .

قال راكيتين وهو يضحك ساخرا :

ــ لكأنها أنقذتك ! ألا فاعلم اذن أنها كانت تنوى أن تبلعك !

قالت جروشنكا مندفعة :

ـ كفى يا راكيتين • واسكتا كلاكما الآن • لا تقل شيئا يا أليوشا ، لأن أقوالك تشعرنى بالخزى والعار • أنا فى الحق خبيثة لا طيبة كما تظن • أما أنت يا راكيتا فأريد أن تسكت لأنك تكذب • جائز أننى نويت فى السابق تلك النية الجبانة وهى أن أبلعه لقمةً واحدة ، ولكنك مع ذلك تكذب ، لأن هذا قد مضى الآن ••• لا أريد أن أسمع صوتك يا راكيتا !

كانت جروشنكا تتكلم مضطربةً اضطرابا شديدا •

قال راكيتين بصوت صافر وهو ينظر اليهما مدهوشا :

ـ لقد فقدا كلاهما العقل • لكأنهما مجنونان ! أترانى وقعت فى مستشفى للمجانين ؟ أصبحا عاطفيين ، وما هى الا لحظة حتى يطفقا باكيين •

قاطعته جروشنكا تقول :

ـ سوف أبكى ، نعم سوف أبكى • لقد دعانى أخته ، لن أنسى هذا ما حييت ! اعلم يا راكيتا أننى مهما أكن شريرة ، فقد وهبت بصلة * •

ـ أية بصلة ؟ حقا لقد فقدا العقل •

كان راكيتين يستغرب اندفاعاتهما الحماسية ، ويحس بالاهانة ، رغم أنه كان يمكن أن يدرك أن الظروف قد جمعت هذين الانسانين على نحو من شأنه أن يبث فى نفسيهما الاضطراب • ولكن راكيتين ، السريع جدا الى ادراك كل ما يمسه ، يجد عناءً فى فهم عواطف الآخرين واحساساتهم أولا لأنه قليل الخبرة بحكم شبابه ، وثانيا لأنه على جانب عظيم من الأنانية •

التفتت جروشنكا نحـــو أليوشا وهى تضـــحك ضحكة عصـبية وقالت له :

ـ ها قد رأيت يا أليوشا أننى تباهيت أمام راكيتا بأننى قدمت بصلة. ولكننى سأتكلم معك صادقة مخلصة بغير تفاخر . الأمر أمر أسطورة : هى قصة جميلة قصتها علىّ فى طفولتى ماترين التى تعمل عندى اليـوم طباخة . اليك القصة : كان هناك فى الماضى امرأة عجوز شريرة جداً ؛ فلما ماتت هذه العجوز وكانت لا تملك أية فضيلة يمكن أن تشفع لها فى يوم الحساب ، فقد أمسكتها الشياطين وألقتها فى بحيرة من نار . وعندئذ أخذ حارسها الملاك يفكر . تساءل : « ما الذى يستطيع أن أفعله لانقاذها ؟ ألا يمكننى أن أكتشف فضيلةً أذكرها عنها للرب ! » ، فاذا هو يتذكر حادثة جرت لهذه المرأة فى حياتها ، فقال للرب : « لقـــد انتزعت من حديقتها بصلة فى ذات يوم ووهبتها لشحاذ . » فقال الرب للملاك الحارس : « خذ هذه البصلة ، ومدّها الى هذه المرأة فى بحـيرة النار ، ومرها أن تتشبث بها ، ثم شدها لتخرجها من اللهب . فاذا استطعت أن تخرجها ذهبت الى الجنة ، أما اذا تقطعت البصلة فستبقى المرأة حيث هى » . أسرع الملاك الى المرأة ومد اليها البصلة وقال لها : « تمسكى بهذه البصلة فأخرجك من النار » . وأخذ يشد بكل ما أوتى من قوة ، وكاد يخرج المرأة من بحيرة النيران حين لاحظ المذنبون الآخرون أنه كان بسبيل انقاذها ، فتمسكوا بها بغية أن يخرجوا من البحيرة معها . ولكن العجوز كانت شريرة جدا ، فركلتهم بقدميها وهى تصرخ : « انما يراد انقاذى أنا لا انقاذكم أنتم . هذه البصلة بصلتى أنا لا بصلتكم أنتم » . فما ان نطقت العجوز بهذه الكلمات حتى تقطعت البصلة ، فسقطت المرأة العجوز فى البحيرة من جديد . وما تزال تحترق فى النار حتى الآن . أما الملاك فقد انصرف باكيا . اننى أحفظ هذه الاسطورة على ظهر القلب؛

احتفظت بها لأننى شبيهة بتلك المرأة العجوز الشريرة • لقد تباهيت أمام راكيتا بأننى وهبت بصلة • أما لك أنت فأقول متواضعة اننى ان كنت قد وهبت بصلة مرةً فى حياتى فذلك كل ما فعلته ، وليست تتعدى طيبتى هذه الحدود • فلا تمدحنى اذن يا أليوشا ، ولا تظن أننى طيبة • أنا شريرة ، شريرة جدا ، واننى لأمتلىء بشعور الخزى والعار حين أسمعك تكيل لى المديح • وهأناذا أعترف لك بكل شىء يا أليوشا : لقد بلغت من فرط الرغبة فى أن أراك عندى أننى كنت لا أعرف ما عساى فاعلة لأحض راكيتين على أن يجيئنى بك • ووعدته أخيرا بأن أعطيه خمسة وعشرين روبلا اذا هو اصطحبك الى منزلى • لحظةً يا راكيتا !

أسرعت جروشنكا تقترب من المنضدة ، ففتحت درجاً ، وتناولت محفظة نقودها ، وأخرجت منها ورقة بخمسة وعشرين روبلاً •

هتف راكيتين يقول مرتبكا ارتباكا شديدا :

ـ ما هذا السخف ؟ كان ذلك هزلاً لا جداً •

ـ خذ المال يا راكيتا ! أنا مدينة لك به ! لن ترفضه ! لقد ألححت علىَّ لأعطيك هذا المبلغ •

ورمت اليه الورقة •

قال راكيتين بصوت أجش وهو يحاول أن يسيطر على اضطرابه وارتباكه وخجله :

ـ لأكوننَّ حماراً اذا أنا رفضت • انما وجد الأغبياء فى هذا العالم لمصلحة الأذكياء •

قالت جروشنكا :

ـ والآن أسعدْنى بسكوتك يا راكيتا • ان ما سأقوله الآن لا يصلح

لأذنيك • اجلس هناك ، فى الركن ، ولا تقل بعد هذه اللحظة شيئاً • أنت لا تحبنا فما عليك الا أن تلزم الصمت •

قال راكيتين بلهجة معاديه دون أن يحاول اخفاء غضبه :

ــ وفيم أحبكما ؟

ودسّ الورقة النقدية فى جيبه ، ولكنه شعر بحرج شديد أمام أليوشا • كان يقدّر أن يتقاضى مكافأته فيما بعد ، على غير علمٍ من أليوشا ، فاذا بالعار الذى يشعر به الآن يجعله خبيثاً شرساً • كان قد رأى أن من الحذق حتى ذلك الحين أن لا يستفز جروشنكا ، ولكنه بدأ يغضب الآن • قال :

ــ لا يحب المرء بغير باعث على الحب ، فما الذى يجعلكما تستحقان حبى ؟

ــ أحبّ بغير سبب ، مثل أليوشا !

ــ من قال لك ان أليوشا يحبك ؟ ماذا صنع من أجلك ؟ قليلاً من الفهم على الأقل ! •••

كانت جروشنكا فى وسط الغرفة ، وكانت تتكلم متحمسةً بصوت تداخله فى بعض اللحظات نبرات هسترية •

ــ اسكت يا راكيتا ! انك لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً • ثم اننى لا أريد بعد الآن أن ترفع الكلفة بينى وبينك وأن تخاطبنى بصيغة المفرد• اننى أمنعك أن تفعل هذا فى المستقبل • من أجاز لك أن ترفع الكلفة الى هذه الدرجة ؟ ابق فى ركنك واسكت ، لأننى أعدك بمثابة خادم لى• والآن يا أليوشا ، سأقول لك الحقيقة كاملةً ، لتعلم اننى انسانة شريرة سيئة ! لك انما أعترف هذا الاعتراف ، لا لراكيتا ! لقد أردتُ ضياعك

يا أليوشا ، أقول لك هذا لأنه هو الحقيقة بعينها ! ولقد تصورت لهذا الأمر خطة راسخة ، وكنت أبلغ من شدة الحرص عليه أنني حرضت راكيتا بالمال على أن يجيئني بك • ما هو السبب الذى دفعنى الى أن أريد ضياعك ؟ انك لم تلاحظ شيئا ، ولم يخطر ببالك شيء ، وكنت تشيح بوجهك عنى • كنت اذا لقيتنى تغض طرفك • أما أنا فقد نظرت اليك أكثر من مائة مرة ، وسألت جميع أصدقائى عنك • انطبعت ملامح وجهك فى قلبى • كنت أقول لنفسى : « انه يحتقرنى • انه يأبى حتى أن يرفع عينيه الىّ » • وشعرت من ذلك بغيظ بلغ من فرط القوة أننى دُهشت أنا نفسى • قلت : « لماذا الخوف من هذا الصبى الغر ؟ لآكلنه لقمة واحدة ، ولأضحكن بعد ذلك كثيرا • » • ان نوعا من الحنق المسعور قد اضطرم فى نفسى غضبا منك وحقدا عليك • هل تصدق هذا ؟ لا يستطيع أحد أن يأخذ علىّ شيئاً فى هذه المدينة ، لن يجرؤ أحد أن يشتبه فىأجرافين ألكسندروفنا فيسيء فيها الظن اذا هى استقبلت رجلا فى بيتها • ليس فى حياتى الا ذلك العجوز الذى ارتبطت به وبعته نفسى • لقد جمع الشيطان بيننا • غير أن ذلك العجوز هو الرجل الوحيد الذى حظى بى • ومع ذلك كنت مستعدة لأن أشذ عن هذه القاعدة من أجلك • كنت أتهيأ لأن أبلعك ، لأستطيع أن أضحك ما شئت أن أضحك بعد ذلك • فانظر مدى ما أتصف به من خبث وشر أنا التى دعوتنى أختك • وهذا صاحبى الذى غشنى وأغوانى يبلغنى أنه قادم ، وأنا أنتظر رسالةً منه • هل تعلم ماذا كان هذا الرجل فى حياتى ؟ لقد جاء بى كوزما الى هنا منذ خمس سنين • كنت أعيش فى أول الأمر هاربةً من الناس أخشى أن يرانى أحد وأن يسمعنى أحد • كنت هزيلة الجسم غبية العقل ، وكنت لا أكف عن البكاء فى ليل ولا نهار • كنت أبقى مؤرقة مسهدة ليالى برمتها أحدث نفسى قائلة : « أين هو فى هذه الساعة ،

الرجل الذى أغوانى ؟ لا شك أنه يضحك علىّ ويسخر منى مع امرأة أخرى • آه ••• ليتنى أستطيع أن ألقـــاه يوما ! ليدفعنّ عندئذ ثمـــن ما جنت يداه ! » • وكنت أبكى على وسادتى فى الظلمات وأحلم بالثأر والانتقام • كنت أستـــثير ألمى عامدةً لأملأ نفسى كرهاً وحقداً • كنت أخرج فى الليل قائلة : « لســوف يرى ! لســوف يرى ! ليندمنّ على ما فعل ! » • ثم أدركت فجأة عجزى • وأصبحت اذا تصورت أنه يسخر منى ويضحك علىّ ، أو اذا تصورت أنه قد نسينى نسيانا تاما ــ وهــذا أنكى ــ أسقط عن سريرى على الارض وأظل أتدحرج منتحبةً مرتجفة بكل جسمى حتى مطلع الفجر • فاذا أشرق الصباح نهضت وأنا أشــد ضراوة من كلب ، نهضت وأنا مستعدة لأن أوذى أول انسان يقــع عليه بصرى • وانقضت السنون ، وأخذت أجمع المال ، وأصبحت بلا رحمة، وسمنت • ماذا تظن ؟ هل تظن أننى غـــدوت بذلك أهدأ بالاً وأكثر تعقلاً ؟ لا ••• ما من أحد يرى ما أعانى ، ما من أحد فى الكون بأسره يتصور ما أقاسى : ما يزال يحدث لى حتى اليوم ، كما كان يحــدث لى منذ خمس ســـنين ، حين كنت صـــبية يافعة ، أن أشد على أسنانى فى سريرى ليلاً ، وأن أستمر فى البكاء الى الصباح ، مرددة قولى : «ليدفعنّ ثمن ما جنت يداه ! » • هل تسمعنى ؟ فاحكم علىّ الآن : لقد وصلتنى منه منذ شهر رسالة أولى يبلغنى فيها أنه ترمل ، وانه يريد أن يرانى ، وانه يأمل أن يصل قريبا • صُعقت فى الوهلة الأولى وحطمنى الانفعال • ثم قلت لنفسى فجأة : « سيعود ، ولن يكون عليه الا أن يصـــفر حتى أهرول اليه ككلب ، مجلّلة بالخزى ، مطعونة القلب ، طالبةً الصفح والغفران ! » •وتســـاءلت عندئذ : « أأكون جبانة وضـــيعة الى هذه الدرجة ؟ أأرضى أن أذل نفسى هـــذا الاذلال ؟ » • وقد اســـتبد بى من الغضب على نفسى طوال هذا الشهر ، خشية أن أسقط فى مثل ذلك

الجبن ومثل تلك الحطه ، ما جعلنى أصبح أخبث نفساً وأميل الى الشر مما كنت كذلك خلال السنوات الخمس الماضيات. هل أدركت يا أليوشا مدى ما تتصف به نفسى من سوء وشر وعنف ؟ اننى أذكر لك الحقيقة كلها . لقد اتخذت دمترى سلوى لنفسى حتى لا أركض الى لقاء الآخر. اسكت يا راكيتا ! ما أنت من يحكم عليّ ! وما أنت من أكلم ! كنت قبل وصولك يا أليوشا راقدة على الأريكة أتهيأ لمواجهة قدرى ، ولن تعرف قط ما كان يجرى فى قلبى . قل للآنسة يا أليوشا أن لا تأخذ عليّ المشهد الذى وقع أمس الأول ... ما من أحد فى العالم يستطيع أن يفهم الحالة النفسية التى أعانيها منذ شهر ، ما من أحد يستطيع أن يتصور هذه الحالة النفسية ... ذلك أن من الممكن أن أحمل خنجرى فى هذا المساء لأذهب الى الموعد ... اننى لم أعزم أمرى بعد ...

بعد أن أفضت جروشنكا بهذا الاعتراف الذى « يُرثى له » ، لم تستطع أن تتمالك نفسها ، فاذا هى تنقطع عن الكلام ، وتغطى وجهها بيديها ، وتتهالك على الأريكة ، وتأخذ تنتحب على الوسادة كطفل صغير.

نهض أليوشا واقترب من راكيتين ، وقال له :

ـ لا تزعل يا ميشا ! لقد أهانتك ولكن ما ينبغى لك أن تغضب منها. على المرء أن يعامل الطبيعة الانسانية بالتسامح والرحمة ، وأن يشارك الناس عذابهم وآلامهم ...

قال أليوشا هذا الكلام باندفاعة من قلبه لا سبيل الى مقاومتها . كان يشعر بحاجته الى اطلاق انفعاله حراً لا يعوقه عائق ؛ ولئن خاطب بهذا الكلام راكيتين ، فلقد كان يمكن أن يتحدث وحيدا لو لم يكن راكيتين هناك . ولكن راكيتين ألقى عليه نظرة باردة ساخرة ، فتوقف أليوشا عن الكلام . قال راكيتين وهو يبتسم ابتسامة كارهة حاقدة :

ـ شيخك هو الذى حشا رأسك بهذه الأفكار ، فتريد أن تقدمها الىّ بدورك الآن يا أليوشا ، يا راهباً صغيراً !

ـ لا تستهزىء يا راكيتين ، دع السخريات ، ولا تقل سوءاً فى الشيخ الراحل ! انه خير من جميع البشر الذين عاشوا على هذه الارض .

كذلك قال أليوشا والدموع فى صوته . ثم تابع كلامه يقول :

ـ لا أقول لك هذا الكلام قاضيا بل متّهَماً هو شر المتهمين طراً . ما أنا أمام هذه المرأة ؟ لقد جئت الى بيتها عاقداً نيتى على الضياع ، قائلاً لنفسى فى جبن وصغار وحطة « لا ضير ... لا ضير ... » ، فاذا هى، هى التى تألمت خلال خمس سنين ، تغفر كل شىء ، وتنسى كل شىء ، وتبكى بعد أقل من خمس دقائق ، لا لشىء الا لأن رجلاً مجهولاً قال لها كلمة مودة صادقة ! ان الرجل الذى أساء اليها كل تلك الاساءة ، وألحق بها كل ذلك الأذى ، قد عاد وأومأ اليها ، فاذا هى تغفر له على الفور ، فرحةً سعيدةً مستعجلةً لقاءه . أما الخنجر فثق أنها لن تحمله! لا ... لا ... أنا لا أساويها ، أنا لا أعدلها . لا أدرى يا ميشا هل أنت طيب نبيل كطيبها ونبلها ، أما أنا فلست كذلك بحال من الاحوال . هذا درس تلقنته اليوم ... ان هذه المرأة أعظم منا بالحب ... هل كنت تعرف ما روته لنا الآن ؟ انك لم تكن تعرفه حتماً . والا لأدركت كل شىء منذ زمن طويل ... وتلك الأخرى التى آذتها هى أمس الأول ، يجب عليها أن تغفر لها هى أيضا ! سوف تغفر لها متى علمت ، وستعلم ... ان هذه النفس لمّا تستردّ هدوءها وطمأنينتها بعد ، فينبغى أن تدارى وأن تراعى ... لعل فيها كنوزاً لا تخطر ببال ...

صمت أليوشا منقطع الأنفاس . وكان راكيتين ينظر اليه مدهوشا

رغم حنقه • ما كان ليتوقع مثل هذا الكلام الطويل من الراهب المبتدىء البسيط !

قال راكيتين صائحاً وهو يضحك ضحكة وقحة :

ـ يا للمحامى البــــارع ! أتراك وقعت فى حبهـــا ؟ يا أجرافين ألكسندروفنا ، ان صاحبنا الصائم قد توله بحبك ، وهام غراما بك • هنيئاً لك بالنصر !

أنهضت جروشنكا رأسها عن الوسادة ، وألقت على أليوشا نظـرة حنوناً أشرق بها وجهها المحتقن بالدموع على حين فجأة •

ـ لا تكترث له يا أليوشا ، يا ملاكى • أنت ترى ما هو ، فلا داعى الى مناقشته •

كذلك قالت جروشنكا ، ثم التفتت نحو راكيتين وقالت له :

ـ كنت أنوى يا ميشيل أوسيبوفتش أن أعتذر اليك عن الكلمــات الجارحة التى قلتها لك ، ولكننى أعدل عن ذلك الآن •

وعادت تخاطب أليوشا فقالت له وفى وجهها فرح :

ـ أليوشا ، اجلس هنـــا ، بجانبى ، هكذا ، قريبا منى • قل لى يا أليوشا (تناولت يده ونظرت فى عينيه مبتسمة) ، قل لى : أما زلت أحبه ؟ أما زلت أحب الآخر ؟ أقصد الرجل الذى أغوانى ••• لقد كنت قبل مجيئك ألقى على نفسى هذا السؤال فى الظلام ، محاولةً أن أقـــرأ فى أعماق قلبى : أمازلت أحبه ؟ أضىء طريقى يا أليوشا • هذه ساعة اتخاذ القرار • اننى أكل أمرى اليك • هل يجب علىّ أن أغفر له ؟

قال أليوشا مبتسماً :

ـ ولكنك غفرت له وانتهى الأمر !

فدمدمت جروشنكا تقول واجمة مفكرة :

ـ صحيح . لقد غفرت له . ما أجبن قلبى !

ثم هتفت تقول :

ـ اننى أشرب نخب هذا الجبان الكبير ، قلبى !

وتناولت من المائدة كأس شمبانيا ، وأفرغته فى جوفها دفعةً واحدة، ثم ألقته طائراً على الأرض . تحطم الكرستال ، ورنت شظاياه . ومرةً أخرى ظهر فى طرفى فمها شىء من قسوة . قالت بصوت أُجش متقل بتهديدات غامضة ، قالت وهى تخفض عينيها كأنها تخاطب نفسها :

ـ لعلنى لم أغفر له بعد . ان قلبى يتهيأ للمغفرة ، وسأحاول أن أقاومه . آه يا أليوشا ! ما كان أعظم تلذذى بالدموع التى سكبتها طوال خمس سنين . ان عذابى هـو ما أحب . اننى أحب ألمى ، ولا أحبـه هو !

قال راكيتين متهكماً :

ـ لست أتمنى أن أكون اياه !

ـ لن تكون اياه أبداً يا راكيتا ، أبدا ... اعلم هذا . أنت ستنظف لى حذاءى . ذلك ما تصلح له أنت فى أكثر تقدير . النساء اللواتى هنّ من نوعى لم يخلقن لك ، ولا له أيضا على كل حال ...

ـ ولا له أيضا ؟ فلمن تزينت اذن ؟

ـ لا تأخذ علىّ تزينى يا راكيتا ! أنت لا تعرفنى ! سأنزع ثوبى وزينتى اذا عنّ لى هذا ، سأرميهما فورا ، هل تفهمنى ؟ (كذلك صرخت بصوت حاد) . أنت لا تعرف يا راكيتا الهدف الذى من أجله تزينت .

من يدرى ؟ ربما ذهبت اليه فقلت له : « انظر ! انظر ماذا أصبحت ! » . لقد تركنى وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ناحلةً مصدورةً بكاءة . سأجلس قربه ، أغريه وأغويه ، وأضرم نار الهوى فى قلبه ، أقول له : « هيه ! ألست اليوم جميلة ؟ أأنت تعجب بى الآن ؟ اكتف اذن بالاعجاب، لأن المسافة بعيدة بين الكأس والشفتين ! » . ربما كان هذا هو السبب فى أننى تزينت يا راكيتا (بهذا ختمت جروشنكا كلامها لراكيتين وهى تضحك ضحكة خبيثة) . أنا عنيفة يا أليوشا ، أنا شريرة . سوف أنزع ثوبى ، وأشوه نفسى ، وأحرق وجهى وأخدده بطعنات موسى لأدمر جمالى ثم أمضى أتسول . ليس يتوقف الا علىّ أنا أن أبقى هنا فى هذا المساء، فلا أذهب لا الى هذا ولا الى ذاك . واذا شئت رددتُ منذ الغد الى كوزما كوزمتش جميع الهدايا التى أهداها الىّ ، والمال الذى أعطانيه ، ثم أمضى أعمل طوالى حياتى لأجنى رزقى عاملةً بسيطة . هل تظن أننى لن أفعل شيئاً من هذا يا راكيتا ؟ هل تظن أننى لا أجرؤ على ذلك ؟ بل سأفعله ، سأفعله ؛ لا تُهجنى والا فعلته فورا ! ... أما الآخر ، فسأطرده ، سأمد له لسانى استهزاءً ، سأنسل من بين أصابعه !

قالت هذه الكلمات الأخيرة بصوت ثاقب ، يوشك أن يكون هستريًا، ثم لم تتمالك نفسها فاذا هى تدفن وجهها فى يديها من جديد ، وتتهالك على الوسادة ناشجة منتحبة . فنهض راكيتين من مكانه فجأة وقال :

ـ آن أوان الانصراف . لقد تأخرنا ، وسوف تغلق أبواب الدير .

فانتفضت جروشنكا وصاحت تسأل أليوشا بدهشة أليمة :

ـ أتمضى الآن يا أليوشا ؟ أتعبث بى اذن هذا العبث ؟ لقد بثثت الاضطراب فى نفسى ، وعريت أعصابى ، ثم تتركنى لأبقى وحيدة ، وحيدة كما كنت من قبل ، فى هذه الظلمات !

قال راكيتين بصوت ساخر :

ـ لن يقضى الليلة عندك على كل حال ! اللهم الا أن يكون راغبا فى ذلك حريصا عليه ! وفى هذه الحالة سأعرف كيف أعود وحدى •

فصرخت جروشنكا تقول فى غضب :

ـ اسكت أنت أيها النفس الخبيثة ! انك لم تعـــرف فى يوم من الأيام كيف تكلمنى كما كلمنى هو اليوم •

فقال راكيتين يسألها حانقاً :

ـ فما هى الأشياء الخارقة التى قالها لك ؟

ـ نسيت ، لا أعرف ، لا أتذكر كلماته ، ولكن كلماته مضت الى قلبى رأساً ، وهزت نفسى هزاً قوياً ••• لقد أخذته بى شفقة ورحمة ، فكان أول انسان يرثى لحالى ، كان الانسان الوحيد الذى رثى لحالى ! لماذا لم تأت من قبل يا ملاكى ؟ (كذلك سألت أليوشا وهى تجثو على ركبتيها أمامه فيما يشبه الوجد) • لقد انتظرتك طوال حياتى • كنت أعلم ، كنت أحس أننى سألتقى فى يوم من ايام بانسان مثلك يعرف كيف يغفر لى • كنت واثقة من أن أحدا سيحبنى آخر الامر أنا أيضا ، لغرضٍ آخر غير عارى •••

سألها أليوشا وهو يبتسم ابتسامة فيها حنان ورقة ، ويميـــل عليها ويتناول يدها :

ـ ماذا فعلت حتى أستحق هذا كله ؟ أنا انما قدمت اليك بصلة ، بصلة حقيرة ، هذا كل شىء ، هذا كل شىء •••

وتوقف أليوشا عن الكلام وطفق يبكى •

وفى تلك اللحظة سُمعت ضجة فى الممر • ان أحداً قد دخل الى

البيت • نهضت جروشنكا مذعورة ذعراً شــديداً • وأسرعت فينيا الى الغرفة تهتف فرحة" لاهثة :

ـ آنستى ، عزيزتى ، آنستى الطيبة، وصل الرسول ! لقد أُرسلت من موكرويه عربة تستقلينها ، ومضى الحوذى تيمــوتى يبدل الخيل • هناك رسالة لك يا آنستى ، رسالة ، رسالة ••• هذه هى !

كانت فينيا تمسك الرسالة بيدها وتلوح بها فى الهواء وهى تتكلم• انتزعت جروشنكا الرسالة منها وأدنتها من الشمعة • هى بطاقة قصيرة جدا لا تضم الا بضعة أسطر قرأتها جروشنكا بلمحة عين • ثم صــاحت تقول وقد شحب وجهها شحوبا شديدا وتقبض وجهها بابتسامة أليمة :

ـ لقد صفر لى • لقد صفر لى • ازحف أيها الكلب الصغير !

وظلت مترددة خلال هنيهة قصيرة ، ثم ازدحم الدم فى وجنتيهــا فاحمرتا حتى صارتا بلون الأرجوان ، وهتفت تقول :

ـ سأذهب ! انتهت تلك السنون الخمس من حياتى • وداعاً وداعاً ! وداعاً لك أنت أيضا يا أليوشا • لقد تقرر مصيرى • اذهبوا ، انصرفوا الآن جميعا ، ولتغيبوا عن عينى الى الأبد ! ••• ان جروشنكا تبدأ حياة جديدة • لا تحمل لى حقداً ، أنت أيضا يا راكيتا • من يدرى ؟ قد أكون ذاهبة الى الموت ! آه ••• أحس بأننى سكرى على حين فجأة •••

ثم لم تحفل بهما وركضت الى غرفة نومها •

جمجم راكيتين يقول :

ـ لقد طردتنا ••• فلننصرف ••• ضقت ذرعا بهذا الصراخ تطلقه امرأة هسترية • فلنمض قبل أن يُستأنف الصراخ •••

انقاد أليوشا انقياداً آلياً • كانت العربة فى فناء المنزل • خيــول

تُحلّ ، وأناس منهمكون على ضـــوء مصباح • وأمام البـاب أفراس جديدة • وما ان هبط أليوشا وراكيتين درجات المدخـــل حتى فُتحت نافذة غرفة النوم ، فاذا جروشنكا تصيح قائلة بصوت رنان :

ـ عزيزى أليوشا ، أبلغ أخاك دمترى تحيتى ، وقل له أن لا يحقد على هذه الوغدة ، أنا • كرر على مسامعه هـــذه الكلمات عن لسانى : « وهبت جروشنكا نفسها لرجل بائس ، لا لك أنت النبيل » ؛ قل له أيضا اننى أحببته ساعة ، ساعة واحدة ، فليتذكر تلك الساعة مدى الحياة ، ان جروشنكا هى التى تأمره بذلك •

ختمت جروشنكا كلامها شبهَ باكية وأسرعت تغلق النافذة •

غمغم راكيتين وهو يضحك ساخراً :

ـ هم ••• هم ••• تغمد سكينا فى قلبه ، فى قلب أخيك ميتيا ثم هى تريد أن يتذكرها مدى الحياة • يا للسادية !

لم يجب أليوشا • وكان يبدو عليه أنه لم يسمع •انه يســير الى جانب رفيقه بخطى حثيثة • ولقد كان فى الواقع ذاهلاً يمشى كآلة • شعر راكيتين بألم شديد كأن أحدا قد غرز اصبعه فى جرح له لم يلتئم • ليست هذه هى الخاتمة التى كان يأملها للقاء بين أليــوشا وجروشنكا • لقد جرى كل شىء على غير ما كان يتنبأ ؛ ولم يتحقق ما تمنى بكثير من الحرارة أن يتحقق • قال وهو يحاول أن يسيطر على اعتكار مزاجه :

ـ صاحبها الضابط بولندى • على أنه ليس الآن بضابط • لقــد عمل زمناً فى ادارة الجمارك على الحدود الصينية • هو طرِحٌ حقير ما فى ذلك ريب • يُقال انه طرد من وظيفته • وأغلب الظن أنه علم أن جروشنكا قد جمعت بعض المال ، فها هو ذا يعود ••• هــذه هى المعجزة كلها !

ما يزال أليوشا صامتا • ولم يطق راكيتين صبراً ، فقال وهو يضحك ضحكا ساخرا خبيثا :

ـ هيه ! هل هديتها الى الحق ، هذه الخاطئة ؟ هل رددت المرأة الضالة الى سبيل الرشاد ؟ هل طردت الشياطين السبعة من روحها ، هه ؟ هذه هى المعجزة التى انتظرها الناس طويلاً منذ هذا الصباح ••• لقد تحققت !

قال أليوشا متألماً :

ـ اسكت يا راكيتين !

ـ أبسبب هذه الروبلات الخمسة والعشرين انما تحتقرنى الآن ؟ أتراني بعت صديقا ؟ ما أنت بيسوع المسيح فيما أعلم ولا أنا بيهوذا الأسخريوطى !

ـ أؤكد لك اننى لم أكن أفكر فى هذا الامر • أنت الذى تذكرنى به الآن •

كذلك قال أليوشا ، فغضب راكيتين فى هذه المرة غضبا كاملا ، وأعول يقول :

ـ شيطان يأخذكم جميعا ! انى لأتساءل ما كانت حاجتى الى الارتباط بك ! لا أريد أن أعرفك بعد الآن • امض فى سبيلك وحدك !

ومال فجأة فسار فى شارع آخر وترك أليوشا وحيدا فى الليل •

خرج أليوشا من المدينة واتجه الى الدير خلال الحقول •

SS

٤

عرس قانا

حين وصل أليوشا الى الصومعة كان الوقت متأخراً جدا بالنسبة الى الأنظمة المتبعة فى الدير • وسمح له الراهب البواب أن يدخل من ممر خفى • كانت الساعة التاسعة قد دقت ، وكان كل شىء يستريح بعد نهار مضطرب ذلك الاضطراب كله • تسلل أليوشا وجلاً الى الغرفة التى سُجِّى فيها تابوت الشيخ • كان الأب بائيسى وحيدا فى الغرفة ما يزال يقرأ الانجيل • وكان الراهب المبتدىء بروفير الذى أتعبه الحديث الطويل فى الليلة البارحة وأتعبته انفعالات النهار ، ينام فى الغرفة المجاورة على الارض نوما عميقا يتيحه له شبابه• ولم يلفت الأب بائيسى رأسه رغم أنه سمع دخول أليوشا • اتجه أليوشا الى الركن الذى يقع على يمين الباب ، وجثا على ركبتيه ، وأخذ يصلى• كانت نفسه طافحة ، غير أن المشاعر المختلفة التى عاناها أثناء النهار تختلط الآن فى نفسه اختلاطا مبهما دون أن تكون لأحدها غلبة ، وانما هى تتعاقب ويطرد بعضها بعضا فى حركة مطردة هادئة • وشعر أليوشا بانفعال رفيق عذب يجتاح نفسه ، فكان العجيب فى الامر أنه لم يستغرب ذلك الانفعال • انه يرى أمامه التابوت الذى يضم جثمان الراحل

المحبوب ، يراه من جديد ، ولكن الألم الثقيل الذى كان يجثم على صدره طوال الصباح قد حلت محله الآن عاطفة هادئة وادعة • انه حين وصل قد ركع أمام التابوت ركوعه أمام هيكل ، غير أن فرحاً عذباً يملأ الآن روحه ويفيض من قلبه • كانت احدى نوافذ الغرفة قد تُركت مفتوحة، فمنها يدخل الى الغرفة هواء طرى منعش • قال أليوشا يحدث نفسه : « لا بد أن الرائحة قد اشتدت ما داموا قد قرروا فتح النافذة • » • غير أن فكرة رائحة التفسخ التى أثارت فى نفسه عند الصباح ذلك الاضطراب كله وذلك التمرد كله ، والتى كانت تبدو له رهيبة فظيعة مهينة للقدّر مخلة بالكرامة ، أصبحت الآن لا تزعجه ولا تشعره بشىء من الحرج • أخذ أليوشا يصلى صامتا • ولكنه لاحظ بعد برهة أنه يصلى صلاة آلية• ان نتفاً متناثرة من أفكار تلامس ذهنه ملامسة وتومض فى خياله كشرارات ثم ما تلبث أن تنطفىء ليحل محلها غيرها • وقد أخذ فى بعض اللحظات يصلى بحرارة وحماسة ، شاعرا بحاجة قوية عنيفة الى أن يشكر وأن يحب ••• ولكن فكره ما يلبث أن ينصرف الى شىء آخر ، فاذا هو يغرق فى أحلام غامضة مبهمة تنسيه الصلاة وتنسيه التأمل الذى قطع الصلاة• أصاخ بسمعه فى لحظة من اللحظات الى قراءة الأب بائيسى ، ثم أدركه التعب ، فاذا هو ينحدر شيئا فشيئا الى وسنٍ هادىء رفيق •

« وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليـــل وكانت أم يسوع هناك •• » *

« عرس ؟ ما العرس ؟ وثارت فى فكره زوبعة من الخواطر • هى أيضا سعيدة ••• ذهبت الى احتفال ••• لم تحمل الخنجر ••• ما كان ذلك منها الا قولاً طائشاً ••• يجب أن نغفر الأقوال الطائشة ، لأنهـا تهدىء النفس ••• وبدونها يصبح ألم الانسان أشد من أن يطاق •••

غاب راكيتين فى شارع صغير ••• لسوف يغيب فى شوارع صغيرة ما ظل لا يفكر الا فى الاهانات التى تناله هو ••• أما الطـــريق فهى عريضة لاحبة مشرقة مضيئة ••• مستقيمة طاهرة ••• نقية نقـــاء البلور ••• والشمس هى التى تسطع فى نهايتها ••• ماذا يقرأ الآن ؟ » •

« ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر ••• »

« ها ••• نعم ، لم أتابع القراءة ، مع أننى كنت لا أحب أن تفوتنى هذه الفقرة ، اننى أحبها كثيرا : عرس قانا ، المعجزة الأولى ••• كانت تلك معجزة ، معجزة الهية ••• لم يجىء يسوع للحزن ، بل للفرح ••• أفرح قلب الناس بتلك المعجزة الاولى ••• « الذى يحب البشر ، يحب فرحهم أيضا • » ••• ذلك ما كان يردده الشيخ الراحل بغـير انقطاع ••• ذلك تعليم من تعاليمه الرئيسية ••• لا يستطيع الانسان أن يحيا بغير فرح ، كذلك يقول ميتيا ••• نعم يا ميتيا ••• كل ما هو عظيم وجميل يشيع منه الغفران الشامل ••• انه هو الذى كان يقول هذا أيضا ••• »

« ••• قال يسوع :

« قال لها يســـوع : مالى ولك يا امرأة ! لم تأت ســـاعتى بعد • قالت أمه للخدام : مهما قال لكم فافعلوه ! »

« افعلوا ••• كان ذلك لفرح أناس فقراء ، فقراء مغمورين ، فقرا جدا ، جدا ••• لا شك أنهم كانوا فى فقر مدقع ما دام الخمـــر قد أعوزهم حتى لعـــرس ••• يؤكد المؤرخـــون أن الأهالى الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر على ضفاف بحيرة طبرية وفى المناطق المجاورة

لها كانوا أفقر الناس فى هذا العالم ••• هــذه امرأة عليـا كانت فى العرس ، هى أم يسوع، تشعر فى قلبها بأنه لم ينزل الى الارض الا لهدف واحد هو أن يقوم بنضحيته الهائلة ، وأن نفسه قادرة على أن تشارك فى الفرح البسيط الساذج الذى يحسه هؤلاء الناس المتواضعون المبرأون من المكر ، الذين دعوه بمحبة الى حضور عرسهم الذى لا تألق فيه • قال لها يسوع وهو يبتسم ابتسامة رقيقة : « لم تأت ساعتى بعد » (لا شـك أنه ابتسم فى تلك اللحظة ابتسامة لا نهاية لرقتها وعذوبتها) ••• أجاء اذن الى الارض ليزيد الخمر فى أعراس الفقراء ؟ ومع ذلك لم يتردد، ولبى رجاءها ••• »

« قال لهم يسوع املأوا الأجران ماء ، فملأوها الى فوق • ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا الى رئيس السقاة فقدموا ، فلما ذاق رئيس السقاة الماء المتحول خمرا ولم يكن يعلم من اين هى بينما الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا ، دعا العريس وقال له : كل انسان يضع الخمر الجيدة أولا فمتى سكروا وضـع الرديئة ، أما أنت فقـد ابقيت الخمر الجيـدة الى الآن • » •

« ولكن ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ لماذا تتسع الغرفة فجأة ؟ ••• آه•• حقاً ••• هو الزواج ••• هذا عرس ••• طبعا •• هؤلاء هم المدعوون ••• وهذان هما العريسان ، والجمهور الفرح •• ولكن أين هو اذن ذلك السـاقى الحكيم جداً ؟ وهذا ، من هذا ؟ من هذا ؟ الغـرفة تتسع مزيدا من الاتساع ••• من ذا الذى ينهض على المائدة الكبرى هناك ؟ كيف هو ؟ أيكون هو أيضا هنا ؟••• كنت أحسب أنه فى تابوته •• بلى ! انه هو بعينه ••• نهض ••• رآنى ••• ها هو ذا يقبل علىّ ••• رباه ! » •

واقترب فعلاً من أليوشا ، الشيخ الناحل المخدّد وجهـه بغضون

صغيرة • كان فرحاً ، وكان يضحك ضحكا رقيقا حلواً • لقد اختفى التابوت • والشيخ يرتدى الملابس التى كان يرتديها أمس أثناء ذلك الحديث الاخير مع أصدقائه • ان وجهه يشرق مودة ومحبة ، وان عينيه تلتمعان • « كيف أمكن أن يكون هنا ، فى هذه الحفلة ؟ أدعى اذن الى عرس قانا ؟ » • كذلك تساءل أليوشا • فسمع صوتا لطيفا يقول له من فوقه ، صوتا ألف أليوشا أن يسمعه :

ـ نعم يا بنى ، لقد دُعيت أنا أيضا ، دُعيت ونوديت • لماذا تختبىء فى ذلك الركن ؟ لا يكاد يراك أحد • تعال ، وكن منا •••

هو صوته ، صوت الشيخ زوسيما ••• لا شك أنه الشيخ ، مادام يناديه • ومدّ الشيخ يده الى أليوشا الراكع ، فنهض أليوشا • وتابع الشيخ المعروق كلامه قائلا :

ـ ألا فلنبتهج ! لنشرب الخمر الجديد ••• انه خمر فرح جديد، فرح عظيم جدا ••• هل ترى جميع هؤلاء المدعوين ؟ هذا هو الخطيب، وهذه هى الخطيبة ، وهذا هو الساقى الحكيم جدا ، يذوق الخمر المدهشة • لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ لقد وهبت بصلة فقُبلت فى هذه الحفلة• كثيرون هنا هم الذين لم يهبوا الا بصلة ، بصلة صغيرة جدا ••• كيف الأحوال عندنا ؟ أنت أيضا ، يا بنى الطيب الوادع ، لا بد أنك وهبت اليوم بصلة لجائعة مسكينة • ابدأ مهمتك ، واجه عملك ، يا صغيرى اللطيف ! هل تراه هو ؟ هل ترى يسوع ، شمسنا ؟

دمدم أليوشا يقول :

ـ أنا خائف ••• لا أجرؤ أن أنظر اليه •

ـ لا تخف منه • هو مخيف بعظمته التى ترفعه فوقنا ، هو مخيف

بالعلو الذى هبط منه الينا ، ولكن لطفه لا نهايه له • لقد جعل نفسه شبيهاً بنا ، وارتضى بالمحبة أن يشاركنا فرحتنا ، وأحال الماء خمراً حتى لا تنقطع سعادة الضيوف • وهو ينتظر مدعوين آخرين ، وما ينفك يدعو منهم المزيد الى الأبد • انظر • ها هم يجيئون بالخمر الجديد ، ها هم يحملون الأوانى •••

كان قلب أليوشا يحترق احتراقا وقد امتلأ بفرح شديد يصاقب الألم ، وانبجست من عينيه دموع حماسة ••• ومدّ ذراعيه ، وأطلق صرخة ، واستيقظ من نومه •••

التابوت ما يزال فى مكانه ، والنافذة ما تزال مفتوحة ؛ وصوت الأب بائيسى ما يزال يُسمع وقورا هادئا وهو يقرأ الانجيل ببطء • ولكن أليوشا لم يصغ اليه • كان قد نام على ركبتيه • والغريب أنه الآن واقف على قدميه • وها هو ذا يتقدم فجأة ، كأن قوة خفية تدفعه دفعاً ، فاذا هو يصبح قرب التابوت بعد ثلاث خطوات سريعة ، حتى لقد لامس كتف الأب بائيسى دون أن يلحظ ذلك • رفع الأب بائيسى عينيه وألقى على أليوشا نظرة قصيرة ، ولكنه سرعان ما استأنف قراءته ، اذ أدرك أن الفتى كان فى حالة غريبة • وقف أليوشا أمام التابوت نصف دقيقة : تأمل التابوت ، تأمل المتوفى الساكن الذى غُطى وجهه ببرقع، ووُضعت بين يديه أيقونة ، ولُفّع رأسه بقبعة يزينها صليب ذو ثمانية أفرع • لقد سمع أليوشا صوته قبل بضع لحظات ، وما يزال هذا الصوت يترجع فى أذنيه • ان أليوشا يصغى وينتظر ••• أتراه يسمعه من جديد ؟ وفجأة ، استدار أليوشا وخرج من الغرفة •

لم يتوقف عند درجات الباب بل هبطها مسرعا • كانت نفسه التى تطفح حماسة ، فى حاجة الى فضاء وحرية • هذه قبة السماء تعلوه ممتدة

في جميع الجهات الى غير نهاية ، مزدحمة بنجوم تسطع أشعتها سطوعاً هادئاً . ان المجرة ، التي لا تكاد تُرى بعد ، تمتد من السمت الى الأفق. وان ليلة طرية هادئة صامتة ساجية ، يبدو أنها تلف الأرض بأكملها . والأبراج البيضاء والقبب المذهبة من الكنائس تبرز على قاع لازوردي. وأزهار الخريف الغنية تبدو نائمة في أحواضها التي تحف بالمنزل . ان سكينة الارض تتحد بسكينة السماء ، وان سر الحياة والنجوم يرفرف على العالم ... تأمل أليوشا هذا المنظر ، فاذا هو يتهالك على الأرض فجأة كمن خارت قواه .

لم يعرف أليوشا لماذا عانق الارض ، ولماذا شعر بمثل هذه الحاجة الى أن يغمرها بالقبل . كان يقبلها باكياً ، فيرويها بدموعه ، حالفاً بكثير من الحماسة ليحبنّها على الدوام ، ليحبنها أبد الدهر ... « اسق الأرض دموعَ الفرح ، وأحبب دموعك » ، كذلك قال له صوت في أعماق نفسه. لماذا هذه العبرات ؟ كان أليوشا يبكي من الحماسة ، حتى لقد كان يبكي لهذه النجوم التي تنظر اليه من قرارة اللانهاية ، ولم « يكن يشعر بخجل من هذا الوجد الذي ملأ نفسه » . ان الصلات الخفية التي تشده الى هذه العوالم البعيدة ، كانت تهتز عندئذ في قلبه ، وكان يطير فرحاً من شعوره بنشوء « هذا الاتصال بينه وبين الملأ الأعلى » في نفسه . كان يشتهي أن يغفر كل شيء لجميع الناس ، وأن يستغفر أيضا لا لنفسه وحدها بل لجميع الناس ، وعن كل شيء . ومرة أخرى قال صوت في أعماق نفسه : « ان آخرين سيسألون لي اللطف » . وشعر في الوقت نفسه باحساس واضح جدا ، احساس يشبه أن يكون جسميا ، أن نفحةً قوية خالدة كانت تهبط من قبة السماء ، وتجتاح كيانه كله شيئاً بعد ، شيء ، كفكرة تبزغ في روحه لتحكمها الى الأبد . كان أليوشا قد سقط على الأرض فتى واهناً ضعيفاً ، ولكنه حين نهض الآن أحس بأنه

مناضل جسور على مدى ما بقى له من أيام فى هذه الحياة . واختلط وعيه لهذا التبدل المفاجىء الذى وقع له ، اختلط بحماسته ، فاذا هو فى حالة نفسية جعلته لا ينسى تلك الدقيقة فى يوم من الايام . وقد ظل يؤكد بعد ذلك باقتناع عميق « أن أحداً قد زار نفسه فى تلك اللحظة» .

وبعد ثلاثة أيام ترك الدير متبعاً وصية الشيخ الراحل الذى « أرسله الى العالم » .

الباب الثامن : ميتيا

١

كوزما سامسونوف

إنّ دمتري فيدوروفتش الذى « أمرت » جروشنكا ، وهى تطير نحو حيـــاة جديدة ، بأن يُبلَغ سلاماً أخيراً ، مع المطالبة بأن يحفظ الى الأبد ذكرى ساعة قصيرة من حبٍ وهبته له ، كان يجتاز هو أيضا ، رغم جهله بما كان يحدث للمرأة الشابة ، كان يجتاز فترة عصيبة من الاضطراب الشديد والقلق الرهيب • انه يعيش منـــذ يومين فى حالة نفسية لا سبيل الى وصفها ، حتى ليكاد يصاب باحتقان فى الدماغ على حد التعبير لذى استعمله هو فيما بعد • لم يستطع أليوشا أن يهتدى اليه وأن يعثر عليه حين بحث عنه فى الصباح ؛ ولا هو جاء بعد ذلك بقليل الى الموعد الذى كان قد ضربه لأخيه ايفان فى الكاباريه • وقد صمت أصحاب الدار التى كان يقيم فيها ، نزولاً على ارادته وتنفيذا لأوامره • وظل هو خلال يومين يضرب فى الارض على غير هدى وبغير راحة « مصارعاً قدره ساعيا الى خلاصه » ، كما صرّح بذلك فيما بعد • حتى لقد غاب عن المدينة بضع ساعات بسبب أمر مستعجل ، رغم أنه كان يرى أن الابتعاد فى مثل هذه اللحظة وترك جروشنكا بلا رقابة أمر

رهيب • سوف نذكر هذه الظروف المختلفة بتفاصيلها بعد قليل ، وحسبي الآن أن أسرد أهم وقائع هـــذين اليومين الرهيبين ، هـــذين اليومين الأخيرين اللذين سبقا سقوط الكارثة على حياته ذلك السقوط القـاسى المفاجىء •

صحيح أن جروشنكا قد أحبته خلال ساعة من الزمان حباً صادقاً، ولكنها في مقابل ذلك قد عذبته مرارا بقسوة لا رحمة فيها • وأنكى ما في الامر أنه لم يستطع أن يفهم عواطفها الحقيقية فهماً واضحا • ولم يكن له أي أمل في أن يكتشف هذه العواطف لا بالملاطفات ولا بالقوة• ولو قد حاول ذلك لعاندته في جميع الاحوال ولتركته غاضبة حانقة • كان هو يشعر بذلك شعورا كاملا • وكان يدرك أنها تجتاز هي نفسها في تلك الساعة أزمة عصبية وأنها تتخبط في حيرة شديدة ، فهي توشك أن تعزم أمرها دائما ثم تتردد كلّ مرة في آخر لحظة ؛ وكان يقدّر — وليس يخلو تقديره هذا من حق — أنها كانت في بعض الأحيان تكرهه وتكره غرامه بها • لعله لم يكن مخطئاً في هذا ، ولكن السبب الحقيقي للقلق الذي تعانيه جروشنكا كان يفوته• وكانت المسألة التي تعذبه انما ترتد في الواقع الى هذا الاختيار بين شخصين لا ثالث لهما : « اما هو ميتيا ، واما فيدور بافلوفتش » • وهنا يحسن أن نوضح النقطة التفصيلية التالية: كان ميتيا مقتنعا اقتناعا مطلقا بأن فيدور بافلوفتش مســتعد لأن يتزوج جروشنكا (ولعله عرض عليها ذلك) ، وكان لا يتخيــل في لحظة من اللحظات أن العجوز الفاسق قد خطر بباله أن يصل الى تحقيق أغراضه دون أن يضحي بشيء الا ثلاثة آلاف روبل • هكذا كان يفكر دمتري على أساس ما يظن أنه يعرفه من طبع جروشنكا • لذلك كان من الممكن أن يقدر أن ما تعانيه المرأة الشابة من قلق وتردد انما يرجع الى أنهـا لا تدري من تختار منهما ، جاهلةً أيهما أنفع لها وأجدى عليها • أما

أن يعود في القريب ذلك « الضابط » ، ذلك الرجل المشئوم الذى احتل هذا المكان كله فى حياة جروشنكا والذى كانت جروشنكا تنتظر وصوله بذلك القدر كله من نفاد الصبر وشدة الخوف ، فان دمترى لم يخطر بباله هذا الامر مرة واحدة خلال تلك الأيام ، مهما يبد ذلك غريبا • صحيح أن جروشنكا أصبحت منذ زمن طويل لا تكلمه فى هذا الامر، ولكن دمترى كان يعلم أن صاحب جروشنكا قد كتب اليها ، لأنها أطلعته على الرسالة التى تلقتها منه منذ شهر، وكان يعرف بعض ما تضمنته هذه الرسالة • لقد أطلعته جروشنكا على الرسالة بدافع القسوة ، فما كان أشد دهشتها حين رأت أنه لم يول الرسالة أى اهتمام فى أول الامر ، ولا اكترث لها • انه لمن العسير أن نشرح السبب الذى جعل دمترى لا يحفل بالرسالة ولا يقيم لها وزناً كبيرا • لعل ذلك يرجع ، ببساطة ، الى أنه قد بلغ من شدة رزوحه تحت وطأة هول تنافسه مع أبيه على هذه المرأة أنه كان يستحيل عليه أن يتخيل مصيبة أكبر من تلك المصيبة وشقاء أعظم من ذلك الشقاء ، فى تلك الفترة على الأقل • أضف الى ذلك أنه كان لا يتصور أن من الممكن أن يعود خطيب بعد غياب خمس سنين ، وأنه كان لا يصدق خاصة أن يعود قريبا • هذا الى أن رسالة « الضابط » لم تتضمن اشارة الى مجيئه الا بكلمات غامضة : لقد كانت الرسالة لا تحتوى الا أمورا عامة ومناجيات غائمة وتصريحات عاطفية • يجب أن نذكر أن جروشنكا قد أخفت عنه الأسطر الأخيرة التى يشير فيها كاتب الرسالة الى عودته القريبة بشىء من الوضوح • وكان دمترى يتذكر عدا هذا أنه لاحظ أن المرأة الشابة ، حين أطلعته على الرسالة ، قد أظهرت على غير ارادة منها احتقارها للرجل الذى كتب اليها الرسالة من أقاصى سيبريا • ولم تفض جروشنكا الى دمترى بعد ذلك بأى شىء عن الاتصالات التى تمت بينها وبين ذلك الرجل ، الى أن نسى دمترى

وجوده شيئاً بعد شيء • فكان لا يشغله الا اعتقاده بان الصراع الحاسم بينه وبين فيدور بافلوفتش يبدو وشيكاً مهما يحدث من أمر ، فلا بد أن تحل هذه المسألة على أى حال من الأحوال قبل سائر المسائل • وكان ينتظر على أحر من الجمر قلقاً ، أن تتخذ جروشنكا قرارها من دقيقة الى دقيقة ، وكان يقدر انها ستتخذ هذا القرار فجأة بما يشبه الوحي أو الالهام ، فتقول له ذات يوم : « خذني ، أنا لك الى الأبد » ، وينتهي كل شيء ، فيقبض عندئذ عليها ، ويمضى بها الى آخر العالم • نعم ••• ليأخذنّها عندئذ فوراً الى أبعد مكان ممكن ، ليأخذنها الى أقصى روسيا ان لم يأخذها الى أقصى الأرض ؟ وسوف يتزوجان ويستقران مجهولين لا يعرفهما أحد ، ولا يمكن أن يهتم بهما أحد بعد ذلك لا هنا ولا هناك • ولسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة ! كذلك كان دمترى لاينى يحلم متحمساً بالحياة الجديدة ، الحياة « الفاضلة » (الفاضلة خاصة) • لقد كان فى ظمأ شديد الى هذا التجديد ، الى هذا الانبعاث ، لأنه كان يتألم تألماً قوياً من الحمأة الحقيرة التى تردى اليها وغاص فيها بارادته ؟ وكان ، ككثير من الرجال فى مثل هذه الحالة ، يؤمن بالخلاص عن طريق تغيير البيئة : فلا يرى هؤلاء الناس ولا يعيش فى هذا الوسط بعد الآن • كان يتصور أنه متى ترك هذا المحيط تغير كل شيء بين عشية وضحاها ، وبدأت حياة جديدة على أسس جديدة • ذلك كان أمله ، والى هذه الغاية انما كانت تتجه أحلامه نافدَ الصبر •

غير أن هذا الحل لا يمكن أن يتحقق الا اذا اتخذت جروشنكا القرار الأول ، القرار السعيد التى تختاره فيه من دون أبيه • وهناك قرار ثانٍ ما يزال من الممكن أن تتخذه جروشنكا ، هناك حل آخر رهيب يمكن أن يتحقق ، هو أن تقول له مثلاً على حين فجأة : « اغرب عنى الآن ، فلقد اتفقت مع فيدور بافلوفتش اتفاقا نهائيا وقررت أن أتزوجه،

فلا حاجة بى اليك بعد اليوم • » • ففى هذه الحالة ••• فى هذه الحالة ••• لقد كان ميتيا لا يعرف هو نفسه ما قد يحدث عندئذ ، ولقد ظل لا يعرف ذلك الى آخر دقيقة ••• علينا أن نذكر هذه الحقيقة تبرئةً له • انه لم يعقد نيته على شيء ، ولم يفكر فى ارتكاب جريمة • كان لا يزيد على أن يراقب ويترصد ويتربص ويتجسس ، ويتعذب بغير انقطاع ، ولكنه لا يتصور الا الحل الأول ، ولا يتنبأ الا بالخاتمة السعيدة، ويطرد من ذهنه كل فكرة أخرى • على أن هناك صعوبة أخرى كانت تنبجس عندئذ وتجعله قلقاً مهموما مغموما ؛ ذلك أن عقبة جديدة تقف عثرة فى طريقه حتى حين يتحقق الحل الأول السعيد ، عقبةً خارجية طبعا ، ولكنها عقبة رهيبة يستحيل تذليلها على كل حال •

هب جروشنكا قالت له : « أنا لك ، خذنى » ، فما عساه يفعل من أجل أن يرحل معها ؟ أين يجد المال اللازم للسفر ؟ ان الأموال التى هيأتها له دفعات فيدور بافلوفتش قد نفدت نفاداً تاما • صحيح أن جروشنكا تملك مالاً ، ولكن ميتيا كان يشعر عندئذ على حين فجأة بكبرياء شديدة تستيقظ فى نفسه ، كبرياء عنيفة لا تنثنى ولا تلين • لقد كان يحرص أشد الحرص على أن يتحمل هو نفقات الرحيل ، وأن يبدأ معها حياة جديدة بماله ، ويرفض أن يعيش عالةً عليها • كان لا يطيق أن يتصور أن يأخذ من مالها شيئاً ، وكان اذا تصور ذلك يبلغ من شدة الألم حدَّ الاشمئزاز من نفسه • لن أحاول أن أشرح هنا هذه الحالة النفسية ولا أن أحلّلها ، وحسبى أن أقرر ان هذه كانت عاطفته ، وان هذا كان شعوره • جائز جدا ن يكون هذا الموقف قد أملاه عليه ، على غير شعور منه ، ما قاساه ضميره من عذاب خفى منذ أن استولى على المبلغ الذى ائتمنته عليه كاترين ايفانوفنا • لقد كان دمترى يقول لنفسه فى بعض الأحيان ، كما اعترف بهذا فيما بعد : « أنا وغد حقير فى نظر

الأولى ، وسأصبح وغداً حقيرا في نظر الثانية . اذا علمت جروشنكا بالأمر ، فلن ترضى بنذل مثلي » . ولكن أين عساه يجد المال اللازم والحالة هذه ؟ أين عساه يجد المال الذى يحتاج اليه هذا الاحتياج الفاجع كله ، والذى بدونه سيتعرض كل شيء للخطر ، وبدونه لن يمكن أن يتحقق أى هدف ؟ « أكل هذا بسبب مسألة مالية حقيرة ؟ آه ... يا للشقاء ! » .

سأستبق الآن القصة فأشير الى أن مترى ربما كان يعلم أين يمكنه أن يجد هذا المبلغ ، وربما كان لا يجهل في أى مكان يوجد هذا المبلغ. ولن أدخل الآن في سرد التفاصيل التى ستعرض في حينها . غير أننى سأبين ، على نحو قد لا يكون واضحاً وضوحاً كافيا (ولكن لا ضير !) ، ماذا كانت الصعوبة الكبرى في نظره : لقد كان يرى أن عليه ، حتى يستطيع أن يأخذ المبلغ المخبأ في مكان ما ، حتى يكون « من حقه » أن يستولى على هذا المبلغ ، كان يرى أن عليه أولا أن يردّ الثلاثة آلاف روبل التى يدين بها لكاترين ايفانوفنا . « والا لم أكن الا سارقا صغيراء الا لصاً حقيراً ، وسيستحيل عليّ عندئذ أن أبدأ حياة جديدة » . كذلك كان يقول ميتيا لنفسه ، ولهذا قرر أن يقلب العالم رأساً على عقب اذا لزم الأمر ، من أجل أن يستطيع ردّ المبلغ الى كاترين ايفانوفنا . وقد اختمر هذا القرار في نفسه في الأيام الأخيرة ، أثناء الساعات التى أعقبت لقاءه أليوشا في الطريق ، بعد أن علم من أخيه بأمر الاهانة التى ألحقتها جروشنكا بكاترين ايفانوفنا ، فهتف يقول : «قل هذا عن لسانى لكاترين ايفانوفنا اذا كان ذلك يمكن أن يهدىء روعها » . ولقد شعر أثناء تلك الليلة ، وهو على ما هو عليه من اضطراب شديد ، « بأنه يحسن صنعاً اذا هو قتل أحداً وسلبه ما معه في سبيل أن يرد الى كاتيا مالها » . قال يخاطب عندئذ نفسه : « ألا فلأصبح قاتلاً ولصاً في نظر ضحيتى وفى

نظر جميع الناس ، ألا فلأُرسَل الى سجون الأشغال الشاقة بسيبريا ، في سبيل أن لا تستطيع كاتيا أن تقول عني انني لم أخنها فحسب ، وانما سرقتها أيضا وسطوت على مالها لأهرب مع جروشنكا وأبدأ بذلك حياة حديدة . لا أطيق أن تقول عنيّ كاتيا هـــذا الكلام ! » . ذلك ما كان يحدث به ميتيا نفسه وهو يكز أسنانه ، وكان من حقه فعلاً أن يخشى أن يصاب باحتقان في دماغه . ولكنه كان ، حتى تلك اللحظة على الأقل، ما يزال يكافح ...

والامر الغريب أنه كان من الممكن أن يبدو له أن الهـدف الذي يسعى اليه لا يمكن تحققه وانه لم يبق له الا أن ييأس ، فمن أين يمكنه الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير من المال بينما هو يتخبط منذ الان في فقر مدقع وبؤس أسود . ومع ذلك ظل يأمل حتى النهاية ، واثقاً من أنه سعيثر على مبلغ الثلاثة آلاف روبل هذا ، وأن هذا المبلغ سيهبط عليه من السماء عند الحاجة . فكذلك يفكر على وجه العموم أولئك الذين لم يعرفوا في حياتهم الا تبديد ما ورثوا ، مثل دمتري ، والذين يجهلون كل شيء عن طريقه جني الرزق وتحصـــيل المال . ان مشاريع خيالية عجيبة تغلي وتفور في ذهنه منذ أن ترك أليوشا قبل يومين ، وقد اختلطت في عقله أبسط المعاني واضطربت أيسر الأفكار ، فبدأ مساعيه بمشروع هو أسخف ما يمكن أن يتخيله الخيال من مشاريع . ومن الجائز على كل حال أن تكون أشد الأفكار شذوذا وأكثرها اغرابا وأعمقها ايغالاً في عالم الأوهام هي التي تفرض نفسها أكثر من غيرها على أناس من نوعه في ظروف كظروفه ، وتبدو لهم سهلة التحقيق . لقد قرر دمتري أن يذهب الى التاجر سامسونوف ، حامي جروشنكا ، ليعـــرض عليه « صفقةً » ويحصل منه فورا على الثلاثة آلاف روبل سلفةً على الربح. كان دمتري لا يخامره شك في قيمة مشروعه من الناحيـــة التجارية ،

وانما كان يتساءل كيف عسى يستقبله العجوز • وكان دمترى يعرف العجوز وجهاً ، ولكنه لم يكلمه يوما حتى ذلك الحين • وكان مقتنعا منذ زمن طويل ، على كل حال ، سواء أكان اقتناعه هذا خطأ أم صوابا ، بأن هذا العجوز الفاسق الذى وضع احدى قدميه فى القبر منذ الآن ، لن يعارض فى أن تبنى جروشنكا لنفسها حياة شريفة بتزوج رجل «يستحق الثقة» • كان يقول لنفسه : « أغلب الظن أن العجوز لن يرى أى ضير فى هذا ، بل لعله يتمناه ويساعد فى تحقيقه اذا عرضت الفرصة • » • وكان يعتقد أيضا ، على أساس شائعات غامضة وعلى أساس أقوال أفلتت من جروشنكا ، أن سامسونوف يؤثره على فيدور بافلوفتش زوجاً للمرأة الشابة فى المستقبل • ربمـــا كان بعض قــرائى يرون أن حسابا كهذا الحساب من جانب دمترى ، وما عقد عليه النية من استلام خطيبته من يدى حاميها ان صح التعبير ، يدلان على أن دمترى فيدوروفتش يفتقر الى رقة الشعور وأناقة السلوك افتقارا شديدا ، وأنه امرؤ تخلو نفسه من وساوس الضمير خلواً عجيباً • ولكننى أجيب على هذا بقولى ان ميتيا كان يرى أن ماضى جروشنكا قد دُفن الى الأبد • لقد كان شقاؤه وسـقوطه يوقظان فى نفسه شفقة عظيمة ورحمة لا حدود لها • لقد دفعته حرارة الهوى الى الاعتقاد بأن جروشنكا ستبعث بعثاً جديدا وتصبح امرأة جديدة متى صارحته بحبها وقررت أن تتزوجه ، وأنه سيُبعث هـو نفسه بعثاً جديدا ، فيكون فى وسعهما كليهما أن يبدءا حياة مبرأة من كل اثم ، حياةً كلُّها فضيلة : لسوف يغفر كل منهما لصاحبه أخطاءه ، ويعيشان حياة جديدة كل الجدة • أما كوزما سامسونوف فكان دمترى يرى أنه قد لعب فى حياة جروشنكا ابان صباها دوراً مشئوماً و لاشك ، وأنه لم يحبها على كل حال ، ولكن دمترى كان يرى أيضا أن كوزما ــ وهذا هو الأمر الأساسى ــ قد « انقضى » هو أيضا ، فلا يُحسب بعد الآن •

أضف الى ذلك أنه لم يكن يستطيع كثيراً فى اللحظة الراهنة أن يرى فى هذا العجوز رجلاً ، فلقد كان معلوما فى المدينة أن كوزما ليس اليوم الا خرقة بالية ، وكان الناس لا يجهلون أنه لم تبق له بجروشنكا الا علاقات أبوية ان صح التعبير ، وذلك منذ زمن غير قصير ، منذ ما يقرب من عام • صحيح أن موقف ميتيا هذا فيه كثير من السذاجة ، ولكن ميتيا كان على جانب عظيم من السذاجة حقاً رغم جميع عيوبه • فكذلك كان يظن لبساطته أن العجوز كوزما الذى يشعر بأنه يوشك أن يبارح هذا العالم كان يحس بندامة صادقة على سلوكه مع جروشنكا؟ وأن جروشنكا ليس لها فى هذا العالم فى هذه اللحظة صديق أشد اخلاصاً وأكثر تنزها من هذا العجوز الذى أصبح الآن لا يُخشى منه أذى •

ففى غداة الحديث الذى جرى بين ميتيا وأليوشا على الطريق ، ذهب ميتيا الذى لم يغمض له جفن طوال الليل ، ذهب الى منزل سامسونوف فى الساعة العاشرة من الصباح ، وأعلن عن نفسه • المنزل مبنى حزين المظهر ، عظيم الاتساع ، له طابق فوق الطابق الأرضى ، وله ملحقات كثيرة وجناح فى الفناء • ان الطابق الأرضى يسكنه ابنا التاجر المتزوجان ، وأخته الطاعنة فى السن ، وابنته التى لم تتزوج • أما الجناح الذى فى الفناء فيسكنه اثنان من مستخدميه فى تجارته ، أحدهما ذو عائلة كبيرة • ان أولاد سامسونوف ومستخدميه تضيق بهم مساكنهم ، بينما الطابق الأعلى وقف على سامسونوف وحده ، الذى كان يرفض حتى أن تشاركه فيه ابنته • ومع ذلك كانت ابنته هذه تعتنى به وترعاه ، وكان عليها ، فى ساعة محددة ، وكلما ناداها ، أن تذهب اليه وأن تصعد السلم رغم مرض الربو الذى تشكو منه منذ زمن طويل • ان الطابق الأعلى الذى يسكنه العجوز يتألف من حجرات واسعة متتابعة ، مؤثثة على الطراز الذى كان يحبه التجار فى الماضى ، قد اصطفت على طول جدرانها مقاعد

متشابهة ثقيلة من خشب الأكاجو ، وعُلّقت في سقوفها ثريات من الكرستال مجللة بأغطية ، ووضعت في زواياها مرايا قاتمه • ان هذه الحجرات خاليه من السكان الآن ، لأن العجوز المريض أصبح لايغادر غرفة نومه الصغيرة التي تقع في آخر البيت والتي تخدمه فيها خادم عجوز تقمط رأسها دائماً بمنديل ، و « صبي » ينام على دكة في الدهليز • وقد أصبحت ساقاه المتورمتان لا تكادان تتيحان له أن يمشي ، فهو يكتفي بأن ينهض عن كرسيه بمساعدة الخادم العجوز من حين الى حين ليسير بضع خطوات في الغرفه • وهو قاسي الطبع متجهم المزاج لا يتكلم الا قليلاً حتى مع هذه الخادم •

فلما أُبلغ زيارة « الكابتن » ، رفض أن يستقبله في أول الأمر ؛ ولكن ميتيا ألحّ أن يراه ، فسأل العجوزُ الصبيَّ هل يبدو على الزائر أنه سكران أو هل يظهر عليه أنه يسعى الى فضيحة • فقال الغلام :

ـ لا ••• ما هو بسكران ، ولكنه لا يريد أن ينصرف •

فرفض العجوز مرة أخرى أن يُفتح بابه • ولكن ميتيا لم يفقد سيطرته على نفسه ولم يذهب صبره ، لأنه كان قد تنبأ بالأمر ، وتزود سلفاً بقلم وورقة • فها هو ذا يكتب على الورقة « أن القضية قضية مستعجلة تتصل بأجرافين ألكسندروفنا من كتب » ، ويرسل الورقة الى التاجر العجوز • فكّر سامسونوف بضع لحظات ، ثم أمر الصبي بادخال الزائر الى الصالون ، وأسرع يرسل الخادم العجوز في الوقت نفسه الى ابنه الأصغر آمراً اياه أن يصعد اليه فورا ، فسرعان ما حضر الابن دون أن ينطق بكلمة • انه رجل طويل القامة عريض الجسم قوي قوة هرقلية ، حليق اللحية يرتدي الزي الألماني (أما سامسونوف نفسه فكان يرتدي قفطانا وكانت له لحية) • ان جميع أفراد الأسرة يرتعدون

خوفا أمام الأب • ولقد استدعى العجوز ابنه القوى هـــذا لا خوفاً من الكابتن ، فانه لا تعوزه الشجاعه ، ولكن ليكون هنالك شاهد ذا لزم أن يكون هناك شاهد • وها هو ذا يتسند على ابنه وعلى الصبى فيظهر أخيرا فى عتبة الصالون كتلة مائجه • وربما كان ينبغى أن نســلّم بأنه كان يشعر بكثير من الاستطلاع والفضول •

ان الصالون الذى كان ميتيا ينتظر فيه هو غرفة واسعة كالحه ، من شأن مظهرها وحده أن يقبض الصـــدر ويهىء النفس للحزن ، وهى مزدانة بثلاث ثريات كبيرة مجلله بأغطية ، وسماط من اللوحات تصطف فى القسم الأعلى من الجدران المصنوعة من مقلّد المـــرمر • كان ميتيا جالساً على كرسى قرب الباب ينتظـــر أن ينقرر مصيره وهـــو فى حالة عصبية شديدة• فلما ظهر العجوز فى الباب المقابل له على مسافة عشرين مترا ، نهض فجأة وتقدم نحوه بخطى واسعة حازمة هى خطى جندى • لقد كان حسن الهندام ، يرتدى ردنجوتاً معقود الأزرار ، ويحمل بيديه قبعة مدوّرة ، ويلبس قفازين سوداوين ، تماما كما كان قبل ثلاثة أيام فى الدير عنـــد الشيخ أثناء لقائه بفيـــدور بافلوفتش وأخويه • انتظره العجوز واقفاً ، رصين المظهر وقور الهيئة ، وشعر ميتيا حين اقترب منه أنه كان يتفرس فيه ويفحصه بانتباه • وقد خطف بصره ما كان قد أصاب وجه كوزما كوزمتش من تورم شديد منذ زمن • ان شفة كوزما السفلى، وهى شفة سميكة ، تتدلى الآن تدلبــاً • انحنى سامسونوف أمام ضيفه صامتا رصينا ، وأشار له الى مقعد أمام كنبة جلس عليها هو بتهالك بطىء مستندا الى ابنه مطلقا من صدره بعض الأنين • فسرعان ما شعر ميتيا أمام هذه الجهود الأليمة التى يبذلها العجوز ، بعذاب الضمير من أنه ، وهو الشاب التافه ، قد أجاز لنفسه أن يزعج شخصية مرموقة كهذه الشخصية الكبيرة •

قال العجوز أخيرا بعد أن استقر على الكنبة :

ـ ماذا تريد يا سيدى ؟

وقد ألقى هذا السؤال بصوت بطىء قاس ، مجزئاً مقاطع كلماته، ولكنه ألقاه بلهجة مؤدبة مهذبة .

ارتعش ميتيا ، وأراد أن ينهض ، ولكنه عاد يجلس فورا ، وبدأ شروحه متكلما بسرعة كبيرة وعصبية سديدة ، مكثرا من الحركات والاشارات ، لأنه كان فى حالة اهتياج عظيم . فمن رآه أحس أنه أمام رجل اندفع الى آخر مدى يحاول أن يجد مخرجاً من مأزقه وأنه مستعد لأن يلقى نفسه فى الماء اذا أخفق . ولا شك أن العجوز سامسونوف قد لاحظ ذلك من أول نظرة ، ولكن وجهه ظل باردا هادئا رصينا مغلقا كأنه وجه تمثال .

ـ لا شك أن كوزما كوزمتش المحترم جدا قد سمع عن منازعاتى مع أبى فيدور بافلوفتش كارامازوف الذى سلبنى ميراثى من أمى المرحومة ... ان المدينة كلها تلغط فى هذا الأمر منذ زمن طويل ، لأن الناس هنا قد تعودوا هذه العادة البشعة وهى أن يهتموا بما لا يعنيهم .. ولا شك أنك علمت من جروشنكا ـ معذرة ، أردت أن أقول أجرافين ألكسندروفنا التى أحترمها وأبجلها الى غير حد ...

بهذه الكلمات بدأ ميتيا حديثه ، ثم لم يلبث أن اضطرب . على أننى لن أنقل هنا أقواله كلمة كلمة ، وحسبى أن ألخص مضمونها الأساسى . اليكم ما ذكره دمترى : لقد ذكر أنه استشار منذ ثلاثة أشهر محاميا من البندر (كان ميتيا يتعمد أن يستعمل فى شروحه تعابير رائجة فى البيئة التى ينتمى اليها سامسونوف) . قال :

ـ ذهبت الى بافل بافلوفتش كورنيبلودوف الشهير الذى لعلك

تعرفه يا كوزما كوزمتش ••• هو انسان عريض الجبهة ••• له ذكاء يشبه أن يكون ذكاء رجل دولة ••• انه يعرفك أيضا ••• وقد أثنى عليه ثناءً عظيما •••

هنا اضطرب ميتيا من جديد وأرتج عليه • ولكنه كان يثوب الى نفسه في كل مرة ، منتقلاً الى فكرة جديدة بدون تدرج • عاد يقول ان كورنيبلودوف هذا ، بعد أن أصغى الى شروح ميتيا ، ونظر في الأوراق التي وضعها بين يديه (لم تكن شروح ميتيا بصدد هذه الأوراق واضحة ، وانما هو مرّ على هذا الجزء من حديثه مروراً سريعاً ، رأى ، فيما يتعلق بقرية تشرماشنيا ، وهي القرية التي كان يجب أن تئول اليه مع انني لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسي الا سبعة عشر ألف على العجوز النذل ،وأن هذه الدعوى يمكن أن تضع العجوز في مأزق صعب ••• « لأن جميع الطرق ليست مسدودة ، ولأن القضاء يعرف كيف يجد الطريق التي تؤدي الى الهدف » ؛ أي أن من الممكن الحصول بهذه الوسيلة من فيدور بافلوفتش على مبلغ يصل الى عشرة آلاف روبل من قبيل التعويض ، لأن تشرماشنيا تساوي في الواقع خمسة وعشرين ألف روبل ، وحتى ثمانية وعشرين ألف روبل حتماً •

ـ ثلاثون ألف روبل ، ثلاثون ألف روبل يا كوزما كوزمتش ، مع انني لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسي الا سبعة عشر ألف روبل ، تصور ! ولكنني آثرت أن لا أرفع دعوى، لأنني لا أفهم في شئون المخاصمات شيئاً ••• فلما وصلتُ الى هذه المدينة رأيتني ألاحَق وأطارَد (هنا اضطرب ميتيا أيضاً وأسرع يقفز الى موضوع آخر) ••• هل تقبل ، في هذه الشروط ، يا كوزما كوزمتش المحترم ، أن أتنازل لك عن جميع حقوقي عند هذا الشيطان الرجيم ، على أن تدفع لي في مقابل ذلك ثلاثة آلاف روبل فحسب ؟ ••• انك لا تجازف بشيء على

الاطـــلاق ، أؤكد لك ذلك صـــادقاً ، وأحلف لك عليه بشرفي ... بالعكس : لسوف تُردُّ اليك هذه الثلاثة آلاف ستة أو سبعه ... وانما المهم أن تتم هذه الصفقة كلهـا « اليوم » . انني مســتعد لأن أوقع عقداً مسجلاً لدى الكاتب بالعدل ، أو شيئاً من هذا القبيل ... أي انني مستعد لكل شيء ... أعطيك الأوراق التي ستحتاج اليها ، وأتنازل لك عن جميع الحقوق التي تريدها ... نبرم العقـد فوراً ، في هذا الصـباح ان أمكن ، اذا كنت تستطيع ذلك ... ثم تعطيني الثلاثة آلاف روبل ... أنت الذي تعد أغنى رجـــل في هذه المدينة ... وبذلك تنقذني وتهب لي فرصة تحقيق مشروع سامٍ جداً نبيل جـــداً في الواقع ... فانني أضمر عواطف رقيقة لانسانة تعرفها أنت وتسهر عليها وترعاها رعاية الأب ابنته ؛ وما كان لي أن أجيء اليك لولا علمي بأنك قد أصبحت لها بمثابة الأب حقاً . واذا شئنا الدقة في التعبير وجب أن نقول ان رجالاً ثلاثة يتصادمون هنا ، لأن القدر قوة هائلة رهيبة يا كوزما كوزمتش . فلنكن واقعيين يا كوزما كوزمتش ، لنكن واقعيين ! واذ انك أصبحت منذ زمن طويل لا تُحسب في عداد المتصادمين ، فلم يبق هنا لك الا خصمان يتنازعان . انني أعبر عما بنفسي تعبيراً أخرق ، أنا أعرف ذلك ، ولكنني لست بأديب . المهم أنه لم يبق هنالك الا أنا من جهة ، وذلك الشيطان الرجيم من جهة أخرى . فاختر الآن : أتختـــارني أنا أم تختار ذلك الشيطان ؟ كل شيء متـوقف عليك منـــذ الآن . انك تملك في يديك مصائر ثلاثة أشخاص ، وعليك أنت أن ترمي النرد فتفصل في الأمر.. اعذرني اذا رأيتني أرتبك ولا أحسن التعبير : ولكنك ستفهمني ولا شك. انني أرى من نظرات عينيك المحترمتين أنك ستفهمني ، فان لم تفهمني فلن يبقى لي الا أن ألقي نفسي في الماء ، هذا هو الأمر ...

قطع ميتيا حديثه الغـــريب المدهش فجأة بعـــد أن نطق بجملته

السخيفة تلك : « هذا هو الأمر » ، ونهض عن مكانه بوثبة واحدة ينتظر الردّ على عرضه المضحك • لقد أحس على حين بغتة وهو يختم تلك الجملة ، أن كل شيء قد ضاع الى غير رجعة ، وأنه قد ارتكب على وجه الخصوص حماقة كبرى • قال يحدث نفسه مضطرباً مرتبكاً متحيراً « غريب ! كنت حين وصولى أحسُّ أن الفكرة رائعة ، فاذا هى لا تسفر فى النهاية الا عن غباء » وكان العجوز أثناء تدفق ميتيا فى الكلام ، يحافظ على هدوء وضعه ، ويلاحظ محدثه وقد لاح فى عينيه تعبير بارد برودة الثلج • فلما أنهى ميتيا كلامه ، جعله العجوز ينتظر الجواب دقيقة ، ثم قال له بلهجة حازمة موئسة :

ـ متأسف يا سيدى ! اننى لا أتعاطى أعمالا من هذا النوع •

أحس ميتيا بساقيه تنثنيان ! وتمتم يقول وهو يبتسم ابتسامة يرثى لها :

ـ ولكن يا كوزما كوزمتش ، ما عسى أصير اليه فى مثل هذه الحالة ؟ لقد هلكتُ اذن ، ألا تصدق ذلك ؟

ـ آسف •••

لبث ميتيا جامداً ساكن النظرة ، ولكنه لاحظ عندئذ شيئا من الانفراج فى عضلات وجه سامسونوف ، فارتعش وعاوده الأمل فجأة • قال العجوز :

ـ أنا يا سيدى لم أتعود تعاطى أعمال كهذه ، فاننى أكره الدعاوى وأمقت المحامين ••• ومع ذلك فى وسعى أن أدلك ، اذا شئت ، على شخص يمكنك أن تتجه اليه وتتكل عليه •••

فدمدم ميتيا يقول :

ـ من هو ؟ آه ••• يا رب ! انك تردُّ الىَّ الحياة يا كوزما كوزمتش !

ـ ليس هذا الرجل من هنا ، وليس يقيم الآن فى هده المدينة أيضا. انه فلاح يتعاطى تجارة الخشب • اسمه لياجافى • وهو يتفاوض منذ سنة مع فيدور بافلوفتش على ثمن الأشجار التى آن قطعها فى قريتك تلك نفسها تشرماشنيا ، ولكنهما لم يتفقا على الثمن كما لعلك تعلم ذلك • وقد جاء الى المنطقة من جديد ، وهو يسكن الآن عند القس ايلنسكى فى قرية ايلنسكى التى تبعد اثنى عشر فرسخا عن محطة فولوفيا • وقد كتب الىّ فى موضوع الأشجار هذه مستنصحاً • وأحسب من جهة أخرى أن فيدور بافلوفتش يعتزم الذهاب اليه • فاذا أنذرت فيدور بافلوفتش وعرضت على لياجافى ما عرضته علىّ الآن ، فمن الجائز أن •••

فقاطعه ميتيا قائلاً بحماسة :

ـ ولكن هذه فكرة عبقرية ! ذلك هو الرجل الذى أنا فى حاجة اليه ؛ هذه الصفقة صفقته ! انه يساوم على السعر ، ويُطلب منه مبلغ باهظ ثمناً لأشجار يقطعها ، فاذا هو يجد بين يديه أوراقا تجعله مالكاً للمنطقة بأسرها ! هاهاها ! •••

انفجر ميتيا يضحك ضحكته الصغيرة الجافة على نحو لم يكن فى حسبان العجوز ، فلم يملك العجوز الا أن يرتعش قليلا •

واستأنف ميتيا كلامه قائلا وهو يغلى ويفور أملاً :

ـ كيف أشكر لك جميلك يا كوزما كوزمتش ؟

فقال سامسونوف وهو يحنى رأسه :

ـ لا داعى الى الشكر •

ـ أوه ! انك لا تعلم ••• لقد أنقذتنى من اليأس ••• قلبى هو الذى هدانى اليك ••• والآن ، الى ذلك القس !

ـ لا داعى الى الشكر •

ـ اننى ذاهب الى هناك ! سأركض الى هناك ركضاً ! لقد أسرفت فى الاستفادة من لطفك وذوقك وكياستك ، بينما أنت مريض موجع•• أوه ! لن أنسى جميلك ما حييت • ان روسياً هـــو الذى يعدك بذلك ، رو •• سياً •••

ـ طيب •

أراد ميتيا أن يمسك يد العجوز ليصافحها شـاكراً ممتناً ، ولكنه لاحظ وميضا خبيثا فى عينى العجوز فى تلك اللحظة ، فأمسك فـورا ، وأرخى يده ، غير أنه سرعان ما لام نفسه على سوء ظنه ، وقال لنفسه : « لا بد أن يكون متعبا ••• » ، وهتف يقول بصوت مدوٍ :

ـ هذا من أجلها يا كوزما كوزمتش ، هذا فى سبيلها !

ثم حيَّا العجوزَ بانحناء ، واستدار ، واتجه نحـــو الباب بخطى واسعة دون أن يلتفت بعد ذلك • كان ينبض حماسة • قال لنفســـه : « ظننت أن كل شيء قد ضاع • ولكن ملاكى الحارس أنقذنى • فحين يدلنى رجل خبير من رجال الأعمال على هذا الطريق (ما أنبل نفسه ، وما أعظم مهابته !) ، فمعنى ذلك أننى ربحت القضية ••• ما ينبغى أن أضيع دقيقة واحدة • سأذهب الى هناك حالاً • ثم أعود قبل الليل ••• نعم قبل الليل • آه ••• أصبح الأمر فى جيبى ! ذلك أن العجوز لايمكن أن يكون قد سخر منى على كل حال ! » • بذلك كان ميتيا يحدث نفسه وهو يتجه الى بيته • ولم يكن يمكنه فى الواقع أن يتصـــور الا أحـد أمرين لا ثالث لهما : فاما أن المسألة مسألة حل مضمون يوصى به رجل

له خبرة سامسونوف الذى كان على علم بالموقف وكان عدا ذلك يعرف لياجافى هذا ـ يا له من اسم غريب ! ـ واما أن العجوز قد سخر منه وضحك عليه ! والحق أن هذا الافتراض الثانى كان هو الصحيح • لقد ظل العجوز سامسونوف زمناً طويلا بعد وقوع الكارثة يضحك كلما تذكر أنه دبّر مكيدة لهذا « الكابتن » • ان سامسونوف انسان سيء الطوية قاسي القلب ساخر النفس ، كثيرا ما يخالط الكره في نفسه مرض • ترى هل فعل ذلك بسبب ما رآه عند ميتيا من حماسة شديدة وحميا عظيمة واعتقاد ساذج بأنه ، هو سامسونوف ، يمكن أن تنطلى عليه هذه العروض الخداعة تصدر عن رأس محموم و « سلة مثقوبة » من هذا النوع ؟ أم أنه فعل ذلك بسبب ما شعر به من غيرة على جروشنكا التى جاء هذا « الولد الطائش الفاجر » يسأله المال باسمها من أجل مشروع سخيف مضحك ؟ لا أدرى أى الدافعين فعل فى نفس الشيخ حين كان ميتيا يقف أمامه شاعرا بانثناء ساقيه هاتفا فى غباء أنه هلك ! المهم أن سامسونوف انما ألقى عليه في تلك اللحظه نظرات خبيثة وقرر أن يضحك عليه ويسخر منه •

وما ان انصرف ميتيا حتى التفت كوزما كوزمتش الى ابنه ، وقد شحب لونه من شدة الغضب ، فأمره بأن يفعل كل ما يجب فعله حتى لا يستطيع هذا الشاب الرث أن يظهر فى منزله مرةً أخرى فى المستقبل وأن لا يُسمح له بدخول الفناء ، والا •••

ولم يكمل كوزما كوزمتش تهديده ، ولكن ابنه ارتعد خوفا ، رغم أنه سبق أن رآه غاضبا مرات كثيرة • وظل العجوز بعد ذلك ساعةً كاملة فريسةَ حنق شديد يرتعش منه جسمه كله • حتى اذا جاء المساء أحسَّ بألم ووهن ، فنادى الممرِّض الذى يجرعه أدويته •

٢

لياجافي

كذلك كان يردد ميتيا على نفسه • ولكنه لم يكن قد بقى معه مال لاستئجار خيول • ان فى جيبه بضعة قروش ، فذلك كل ما بقى له من سنى الثراء التى عاشها ! لكنه تذكر أن عنده فى البيت ساعة قديمة من فضه ، متعطلة منذ زمن طويل • فحملها الى تاجر ساعات يهودى ، له دكان قرب السوق ، فاشتراها منه هذا التاجر بستة روبلات • هتف ميتيا يقول لنفسه متحمسا : «لم أكن آمل أن أحصل على هذا المبلغ كله ! » (أصبحت حماسة ميتيا لا تفتر !) ، وعاد الى مسكنه بالمبلغ مسرعاً ، وأكمله باقتراض ثلاثة روبلات من أصحاب الدار التى يقيم فيها • ولقد قبل أصحاب الدار أن يقرضوه راضين مسرورين ، رغم أنهم كانوا هم أنفسهم في عسر، وذلك لأنهم يحبونه كثيراء وأبلغهم ميتيا ، وهو على ما هو عليه من فرح طافح ، أن مصيره سيتقرر ، وشرح لهم ، ببضع كلمات سريعة جداً ، « الخطة » التى عرضها على سامسونوف والقرار الذى اتخذه سامسونوف ، والآمال التى أشرقت فى نفسه ، الخ • وكان هؤلاء الناس الطيبون على علم سابق ببعض أسراره ، وهذا هو السبب فى أنهم كانوا يعدونه واحدا منهم ، فهو « سيد » لا يتكبر ولا يتعالى • فلما أن جمع ميتيا تسعة روبلات على هذا النحو ، أمر بخيول

للسفر الى فولوفيا • ولكن هذا ألّف واقعة ثابتة ستُذكر فيما بعد : « في عشية الحادثة ، لم يكن ميتيا يملك قرشاً واحداً ، حتى لقد اضطر ، من أجل الحصول على شيء من المال ، أن يبيع ساعته وأن يستدين ثلاثة روبلات من أصحاب الدار ، وذلك كله تشهد به شهود • » •

انني أذكر هنا هذا الظرف الذي لن تظهر خطورة شأنه الا فيما بعد •

كان ميتيا ، أثناء انطلاق الخيول به الى فولوفيا بسرعة ، مشرق الآمال متهلل النفس • كان يتنبأ فرحاً بأن « جميع هذه الشئون » ستسوّى أخيرا • ومع ذلك كان يقلق ويرتعش خوفا في بعض اللحظات حين يتساءل ما عسى تصير اليه جروشنكا أثناء غيابه • هبها قررت في ذلك المساء نفسه أن تذهب الى فيدور بافلوفتش ؟ انه بسبب هذا الافتراض انما قرر أن لا ينبئها بأمر سفره ، كما أنه أمر أصحاب داره أن لا يكشفوا لأحد عن المكان الذي سافر اليه اذا هم سئلوا عن ذلك • «يجب أن أعود قبل هبوط الليل ، مهما كلف الأمر ، مهما كلف الأمر » • كذلك كان يكرر لنفسه بينما كانت العربة تنطلق به الى فولوفيا مسرعة وتهزه هزاً قوياً • وكان يحدث نفسه أثناء تعجله المحموم هذا قائلاً : « أما لياجافي هذا ، فسوف أعود به معي ، لابرام العقد » • ولكن حلمه لن يتحقق على ما رسم له من « خطط » وا أسفاه !

فهو أولاً قد وصل متأخراً ، لأنه سلك ، ابتداء من فولوفيا ، طريقا من الطرق التي تصل بين القرى الصغيرة ، فلم يقطع اثني عشر فرسخاً بل ثمانية عشر • ثم ان القس ايلنسكي لم يكن في بيته لأنه كان قد ذهب الى ضيعة مجاورة • فلما عثر عليه ميتيا أخيرا في تلك الضيعة التي تابع طريقه اليها بخيوله المكدودة المنهوكة ، كان الليل قد أوشك أن يهبط • وسرعان ما ذكر له هذا الكاهن ، وهو رجل لطيف خجول

المظهر ، أن لياجافى قد نزل عنده فعلاً فى أول الأمر ، ولكنه يقيم الآن فى سوخوى بوزيبولوك ، وأنه سيبيت هذه الليلة فى عزبة حارس الحراج لأن له أعمالاً يجب أن ينجزها هناك . فتوسل اليه ميتيا أن يصحبه فورا الى لياجافى وأن « ينقذه » بذلك ، فتردد القس فى أول الأمر ، لكنه وافق أخيرا على أن يرافقه حتى سوخوى بوزيبولوك ، وكان واضحا أن الفضول هو الذى دفعه الى هذه الموافقة . ومن سوء الحظ أنه نصح بقطع الطريق سيراً على الأقدام ، لأن المسافة لا تزيد على فرسخ واحد أو « أكثر قليلاً » . وكان طبيعيا أن يقبل ميتيا هذا الاقتراح ، فأخذ يسير بخطى مديدة على عادته فى السير ، فكان الكاهن العاثر الحظ مضطراً الى أن يماشيه راكضاً أو شبه راكض . ان هذا الكاهن رجل ما يزال غض الاهاب ، وهو فى أحاديثه شديد التروى والتعقل والحذر . وسرعان ما أطلعه ميتيا على مشاريعه ، عرضها له بحرارة وسأله بعض النصائح فى أمر لياجافى ، بالحاح عصبى ، وظل يتكلم على هذا النحو طول الطريق . فكان القس يصغى الى كلامه بانتباه ، ولكنه كان ضنيناً بالأجوبة ، يقتصر على أن يكرر فى الجواب على أسئلة ميتيا الملحة : « لا أعلم ، مع لأسف . أنَّى لى أن أعلم ! » . ولما حدثه ميتيا عن نزاعه مع أبيه فى موضوع الميراث ، ذعر القس ، لأنه كان مرتبطاً بفيدور بافلوفتش من بعض النواحى فيما يبدو ؟ ومع ذلك سأل ميتيا عن سبب اطلاقه اسم لياجافى على هذا الفلاح جور سكين ، وذكر له أن هذا الفلاح لا يسميه أحد بهذا الاسم رغم انه اسمه فعلاً ، لأنه يستاء استياءً شديداً من مناداته بهذا الاسم ، وانه لا غنى عن مخاطبته باسم جورسكين « والا فلن تفلح معه فى شىء ، بل ولن يسمع لك » . بهذه العبارة ختم القس كلامه ، فدهش ميتيا قليلاً ، وأجاب بأن هذا الاسم هو الاسم الذى ذكره له سامسونوف نفسه. فلما سمع الكاهن ذلك أسرع يغيِّر الحديث.

ولعله كان يحسن صنعاً لو أفصح لميتيا عن الشك الذى راوده والشبهة التى خطرت بباله : لئن أرسله سامسونوف الى هذا الفلاح مطلقاً عليه اسم لياجافى ، فمن الجائز جدا أن يكون قد فعل ذلك سخراً به وضحكاً عليه ؛ ولا بد أن يكون فى الأمر شيء « يعرج » على كل حال • ولكن ميتيا لم يكن فى وقته متسع للتلبث على « مثل هذه السفاسف » •فهو يغذ السير ويمشى بخطى مديدة ، ولم يدرك أن المسافة التى قطعها ليست فرسخاً ولا فرسخاً ونصف فرسخ ، بل ثلاثة فراسخ على الأقل ، لم يدرك ذلك الا حين وصل الى سوخوى بوزيولوك • ومع ذلك كبح جماح غضبه وسيطر على حنقه • ودخل الرجلان العزبة التى كان حارس الحراج ، وهو رجل يعرفه القس ، يشغل نصفها ، بينما كان نصفها الثانى الذى يفضل لأول عناية ّ وصيانة ّ والذى يفصله عن النصف الأول دهليز ، موضوعاً تحت تصرف جورسكين ؛ ومضى الرجلان الى جورسكين رأساً بعد أن أشعلا شمعة ّ • كانت الغرفة مدفّأة ّ تدفئة شديدة ، وعلى مائدة من خشب السنديان يُرى سماور منطفيء وصينية وفناجين وزجاجة « روم » فارغة وابريق ما يزال فيه بقايا خمر ، وكسرات خبز • أما لياجافى فكان مستلقيا على دكة ، قد لف سترته واتخذها وسادة ، وكان يشخر شخيراً ثقيلاً • نظر اليه ميتيا متحيراً ، ثم قال فى قلق :

ـ يجب ايقاظه طبعا ! ان القضية التى جئت من أجلها ملحة ، وأنا فى عجلة من أمرى ، لأن علىّ أن أرجع فى هذا اليوم نفسه •

صمت القس والحارس ولم يقولا رأيهما • واقترب ميتيا من النائم وأخذ يحاول ايقاظه ، فكان يهزه هزاً قوياً ، ولكنه لم يظفر بشيء ؛ ولاحظ بعد برهة أن الرجل سكران ، فقال :

ـ هو سكران ، فماذا عساى أصنع ؟ ما عساى أصير ؟ يا رب !

واذ بلغ الذروة من نفاد الصبر ، شد الشاخر من ذراعيه ، ثم شده

من ساقيه ، ثم انهض رأسه ، ثم أجلسه على الدكة ، فلم يستطع أن يستطع أن ينتزع منه بعد جهود طويلة الا بضع دمدمات تتخللها شتائم مقذعة رغم اضطرابها •

قال القس أخيراً :

ـ خير لك أن تنتظر ، فما هو فى حالة تمكنه من المناقشة •

وقال الحارس :

ـ لقد ظل يشرب طول النهار •

فصاح ميتيا يقول :

ـ آه ! يا رب ! لو علمتما مدى حاجتى اليه ، وفى أى ظرف أنا ! •••

قال القس :

ـ لا حيلة فى الأمر ، لا بد من الانتظار الى صباح غد •

ـ الى غد ؟ انك لا تفكر فى الأمر ! هذا مستحيل !

واشتد به الكرب فأراد أن يهز السكران من جديد ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك ، لأنه أدرك أن جهوده عبث لا فائدة منه • وقد صمت القس فأصبح لا يقول شيئاً ؛ أما الحارس فكان شديد النعاس فسكت كذلك كالح الوجه عابس الهيئة •

قال ميتيا وقد بلغ أوج الحيرة والاضطراب :

ـ الحياة تهيىء للانسان فى بعض الأحيان مهازل فاجعة مبكية من هذا النوع !

وكانت قطرات من العرق تسيل على جبينه • وانتهز القس لحظة هدنة وهدوء فأوضح كيف أن ايقاظ النائم لن ينفع فى شىء ، لأنه لن يكون قادرا على المناقشة وهو فيما هو فيه من سكر شديد • وختم القس كلامه قائلا :

ـ وما دام الأمر الذى جئت من أجله هاماً ، فالأفضل أن ترجئه الى الصباح •

فوافق ميتيا على هذا الاقتراح وهو يحرك ذراعيه معبراً عن العجز• قال :

ـ طيب يا أبى • سأبقى هنا مع الشمعة أرقب اللحظة المواتية ، فمتى استيقظ كلمته •

وأضاف يقول ملتفتاً نحو الحارس :

ـ وسأدفع لك ثمن الشمعة ، وسأدفع لك أيضا أجر قضاء الليلة هنا • سوف تتذكر دمترى كارامازوف •

ثم عاد يخاطب القس فسأله :

ـ ولكن أين تنام أنت يا أبى ؟

فأجابه القس بقوله :

ـ الأمر بسيط • أعود الى بيتى •

وأضاف يقول مومئاً الى الحارس :

ـ سيعيرنى فرسه • والآن نعمت مساءً • أرجو لك التوفيق كله•

وذلك ما كان • عاد القس الى بيته على الفرس ، سعيدا بخلاصه من ميتيا • وكان فى أثناء الطريق يحرك رأسه قلقاً بعض القلق ، متسائلا

ألا يحسن به أن يبلغ فيدور بافلوفتش أمر هذه القضية العجيبة منذ الغد، قائلاً لنفسه : « انه اذا علم بالأمر لسوء الحظ ، فقد يغضب منى فيمنع عنى خيراته . » . أما الحارس فقد حكّ رأسه وعاد الى غرفته دون أن ينطق بكلمة .

جلس ميتيا على الدكة مترقباً اللحظة المواتية كما قال ، وقد هبط عليه حزن عميق شمله كضباب كثيف . وأراد أن يفكر وهو على ماهو عليه من ارهاق شديد وكرب لا حدود له ، ولكن أفكاره كانت تتهرب.

ان الشمعة تذوب ببطء ؛ وهذا جدجد يغنى فى مكانٍ ما ؛ والهواء قد أصبح خانقاً فى الغرفة المدفأة تدفئة زائدة . وفجأة تراءت لخيال ميتيا حديقة أبيه ، والممر الذى يقع خلف الحديقة ، وتراءى له باب يُفتح خلسةً فى المنزل ، وتراءت له جروشنكا تتسلل من الباب ... فاذا هو يثب عن الدكة واقفاً ! ...

دمدم يقول وهو يصرف بأسنانه :

ـ يا للمأساة !

ثم دنا من النائم بخطوات آلية ، وأخذ يتفرس فى وجهه . انه فلاح نحيل ما يزال شابا ، شديد استطالة الوجه ، مضفور الشعر ، لذقنه لحية طويلة رقيقة ، يرتدى قميصا هنديا وصديرة سوداء تتدلى من جيبها سلسلة ساعة من فضة . تأمل ميتيا وجهه ، فشعر بكره شديد لهذا الرجل ، وأحنقته ضفائره خاصةً ، لا يدرى لماذا ! وبدا له أنه أمر لا يطاق ، أمر مذل مهين أن يكون عليه ، هو ميتيا الذى جاء لأمر مستعجل هام ضحى فى سبيله بكل شىء ، أن يكون عليه أن ينتظر هنا ممزّق القلب هماً ، بينما هذا الكسلان « الذى يتوقف عليه مصيرى فى هذه الساعة يغط فى النوم كأن شيئا لم يكن ، وكأنه على كوكب آخر . »

صاح ميتيا يقول فجأة :

ـ آه ••• يا لسخريه القدر !

وطاس صوابه فهجم على الفلاح السكران مرة أخرى يريد أن يوقظه • انه الآن حاقد عليه فها هـــو ذا يهزه بكل ما أوتى من قوة ، وها هو ذا يصدمه ، بل ها هو ذا يضربه • ولكن جميع جهوده ذهبت سدى ! فلما رأى بعد خمس دقائق من الجهود الضائعة أنه لا سبيل الى ايقاظه ، عاد الى مكانه وجلس شاعراً باضطراب عاجز وهو يكرر قوله :

ـ يا للسخف ! يا للغباء !

ثم اذا هو يضيف الى ذلك فجأة دون أن يعرف لماذا :

ـ يا للذل أيضا ! يا للعار !

وأخذ يشعر بصداع رهيب فى رأسه • وتساءل لحظة : « أأعدل ؟ أأرجع ؟ » ولكنه أجاب يقـــول : « بل سأنتظر الى الصـــباح • سأبقى خصيصا ، خصيصا ! سيستحق الأمر أن أكون قد جئت الى هنا ••• ثم ما عساى أفعل لأرحل بغير خيل ؟ أوه ! ما أسخف هذا كله ! ••• » •

وكان صُداع رأسه ما ينفك يشتد أثناء ذلك • وظل ساكناً جامداً دون أن يلاحظ النعاس الذى كان يستولى عليه شيئا بعد شىء ، ونام آخر الأمر جالساً • لا بد أنه نام على هذه الحال ساعة أو ساعتين ، فلما استيقظ كان يشعر بألم فظيع فى الرأس ، ألم لا يطاق ، حتى ليوشك ميتيا من فرط شدته أن يصرخ • كان صدغاه يطنان طنينا ، وكان يحس بوجع فى القذال • فلما فتح عينيه لم يستطع أن يسترد حواسه ، وانقضت برهة طويلة قبل أن يفهم ما به ، ثم أدرك على حين فجأة أن الغرفة المـــدفأة تدفئة زائدة تمتلىء برائحة قوية هى رائحة فحـــم محترق ، وأنه كاد يموت اختنـــاقا • وكان السكران ما يزال يغـــط فى نومه على الدكة •

وكانت الشمعة التى انصهرت انصهارا تاما تهم أن تنطفىء • صرخ ميتيا وأسرع الى غرفة الحارس مترنح الخطى • فسرعان ما استيقظ الحارس، ولكن لم يبد عليه أنه انفعل كثيرا حين علم بما حدث ، وانما مضى يتخذ الاجراءات اللازمة ببرودة وقلة اكتراث ، فدهش ميتيا من ذلك حتى كاد ينفجر غضبا • وصاح يقول مضطربا اضطرابا شديدا :

ـ لقد مات ، مات •••

فتُح الباب ، وفتحت نافذة ، ودخل الهـواء الى الغرفة ،ونظفت مدخنة المدفأة المسدودة • ومضى ميتيا فجـاء بقادوس ماء فأغطس فيه رأسه ، ثم تناول خرقة فبللها بالماء ووضعها على جبين لياجافى • فكان الحارس ينظر اليه أثناء ذلك هادئاً هدوءاً يوشك أن يشتمل على احتقار ؛ وقال بلهجة متجهمة بعد أن اكتفى بفتح نافذة :

ـ هذا كافٍ •

ثم رجع الى غرفته ينام ، تاركاً لميتيا سراجاً مشتعلاً • ظل ميتيا يتحرك قرابة نصف ساعة الى جانب السكران الذى يوشك أن يكون مختنقاً ، وظل يجدّد له الكمادات المبتلة مرة بعد مرة ، وقرر أن يستمر على هذه الحال حتى الصباح • ولكنه جلس ليستريح لحظه قصيرة ، فسرعان ما أغمض عينيه ، واضطجع على الدكة دون أن يلاحظ ذلك ، ولم يلبث أن نام على الفور نوماً ثقيلاً •

فلما استيقظ كان الوقت ضحى • لقد دقت الساعة التاسعة ، والشمس تسطع من خلال نافذتى الغرفة الصغيرتين ؛ والفلاح المضفور الشعر قد ارتدى ثيابه كاملة ، وجلس الى المائدة التى كان عليها سماور جديد وابريق خمر جـديد قد أُفرغ نصفه منذ الآن (كان الابريق الأول فارغاً ليس فيه قطرة واحدة) ، فنهض ميتيا بوثبة واحدة ، وأدرك

منذ النظرة الأولى أن الفلاح اللعين قد سكر من جـــديد ، وأن سكره سيكون في هذه المرة عميقا لا برء منه ولا علاج له . ظل ميتيا يحدّق الى الفلاح دقيقةً محملق العينين . أما الفلاح فكان يلاحظ ميتيا صامتاً، بشيء من الخبث والمكر ، الى هدوء مهين ، بل والى ثقة مستخفة محتقرة، فيما بدا لميتيا . قال له ميتيا :

ـ معذرة .. أعتقد .. لا بد أن حارس الحراج قد أخبرك ... أنا الليوتنان دمترى كارامازوف ، ابن العجوز كارامازوف الذى تفاوضه في أمر ثمن أشجار الغابة ...

فأجابه الفلاح يقول بيقين هادىء وثقة كاملة مقطعا كلامه :

ـ أنت تكذب ! هذا غير صحيح !

ـ كيف ؟ أنا أكذب ؟ انك تعرف فيدور بافلوفتش مع ذلك !

فقال الفلاح رخوَ الفم :

ـ أنا أجهل من هو فيدور بافلوفتش !

ـ كيف هذا ؟ لقد ساومته على ثمن أشجار الغابة التى ستقطع . هلاّ استيقظت أخيراً ؟ هل ثبت الى رشـدك ! ان الأب بولس ايلنسـكى هو الذى جاء بى الى هنا . تذكر ... ولقد كتبت أنت الى سامسونوف، فأرسلنى سامسونوف اليك .

كذلك قال ميتيا لاهثاً مختنقاً . فعاد لياجافى يقول له :

ـ أنت ... تكـ ... ذب .

فأحس ميتيا بقشعريرة باردة فى ظهره .

ـ أرجوك ! ليس الأمر مزاحاً . لعلك سكران قليلا . حاول أن تتكلم جاداً ... افهمنى .. أو .. أو .. أصبحت لا أفهم !

ـ أنت صبّاغ ! هذه هى مهنتك !

ـ أرجوك ، أتوسل اليك ! أنا كارامازوف ، دمترى كارامازوف ، وقد جئت أعرض عليك صفقة ••• صفقة رابحة ••• رابحة جدا لك ••• صفقة تتعلق بهذه الأشجار نفسها التى ستقطع •••

أخذ الفلاح يلاعب لحيته بوقار ورصانة • ثم قال :

ـ هـــذا كذب ! لا شك أنك قد تواطأت على جـريمة وتريد أن تدحرجنى • أنت نذل ، نعم نذل •

قال ميتيا محتجاً وهو يعقف ذراعيه كمداً ويأساً :

ـ أؤكد لك أنك مخطىء !

عندئذ أغمض الفلاح عينيه نصف اغماض ماكرا ، وهو ما يزال يلاعب لحيته • ثم قال :

ـ تاتاتا ••• انى لأوثر أن تقول لى ما هــو القــانون الذى يجيز للناس أن يقترفوا النذالات • هل تسمعنى يا نذل ؟ أنت نذل ، هــل تفهم ؟

تقهقر ميتيا وقد أظلمت نفســه اظلاماً شــديدا • وعندئذ برقت فى ذهنه فكرة مفاجئة ، « كأن أحداً ضربه على جبينه » ، كما روى هــو ذلك فيما بعد • لقد اتضح كل شىء فى فكره الآن • « كان ذلك الهاماً مباغتاً ، فأدركت كل شىء » • تساءل ميتيا ، مذهولاً ، كيف أمكن أن يُساق ، هو الرجل الذكى رغم كل شىء ، كيف أمكن أن يُساق الى وضع سخيف هذا السخف ، وكيف أمكن أن يندفع فى مغامرة كهذه المغامرة ، وأن يستمر فيها قرابة أربع وعشرين ساعة ، وأن يشغل نفسه بلياجافى هذا واضعاً على جبينه كمادات مبللة ••• « انه سكران ، سكران

سكراً فظيعاً ، وسيظل يشرب على هذا النحو أسبوعاً بكامله ••• فعلام أنتظر مزيدا من الانتظار ؟ وماذا اذا كان سامسونوف قد سخر مني وضحك عليّ بارسالي الى هنا ؟ وماذا اذا هي ••• أثناء هذه المدة ••• قد •• آه •• يا رب ! ماذا صنعت بنفسي ؟! •• » •

كان الفلاح ينظر اليه هادئا ضاحكا • فلو قد كان ميتيا في ظرف غير هذا الظرف اذن لانقض على هذا الأبله خانقاً فصرعه ، ولكنه كان يشعر في تلك اللحظة أنه ضعيف كطفل • فها هو ذا يتجه نحو الدكة بخطى بطيئة ، فيرتدي معطفه ، ويخرج من الغرفة دون أن يقول كلمة واحدة • ولم يجد حارس الحراج في الغرفة الأخرى ، فتناول من جيبه خمسين كوبكا فوضعها على المنضدة ثمناً للشمعة وأجراً للمبيت وتعويضا عن الازعاج • وخرج من العزبة ، فوجد نفسه في قلب الغابة دون أن يكون هناك شيء يمكن أن يستهديه في معرفه طريقه ؛ فسار على غير هدى ، لأنه لم يتذكر حتى الجهة التي جاء منها ، فلم يعرف أيتجه يمنةً أم يتجه يسرة حين يخرج من منزل الحارس • انه لم يلاحظ الطريق في الليلة البارحة من شدة تعجله • وهو الآن لا يشعر بأية رغبة في الانتقام ، حتى ولا من سامسونوف • انه يسير في ممر الغابة الضيق ، خاوي الرأس زائغ النظرة ، كأنه يبحث عن « فكرة ضائعة » ، ولا يهمه أن يعرف الى أين كان ذاهبا ! ان في وسع طفل صغير أن يقلبه على الأرض في تلك اللحظة بسهولة ، من فرط ما كان يعاني من ارهاق جسمي ونفسي معاً • ومع ذلك خرج أخيرا من الغابة ، فوجد نفسه فجأة أمام حقول محصودة عارية تنبسط على مدى البصر • قال في نفسه وهو مايزال يسير قدماً دون أن يلوي على شيء : « كأن اليأس والموت قد مرّا بهذا المكان ! » •

وأنقذه فلاحون • ان عربة تنقل تاجراً عجوزاً كانت تسير على

طول الطريق الذى يصل بين قرى صغيرة • فلما بلغتـه العربة سأل حوذيّها عن الدرب ، فاتفق أن كان الحوذى ذاهبا الى فولوفيا أيضا • وسرعان ما تم الاتفاق بينه وبين الحوذى ، فركب ميتيا الى جانب المسافر العجوز • وبعد ثلاث ساعات وصلت العربة الى محطة فولوفيا ، فلاحظ ميتيا على حين فجأة ، بعد أن أمر بخيلٍ تقله الى المدينة ، أنه يكاد يموت جوعاً ؛ فبينما كانت الخيل تقرن ، أمر لنفسه بطبق من عجة التهمه التهاماً مع قطعة كبيرة من الخبز ، ثم انقض على سجق وجده جاهزاً ، وشرب ثلاث أقداح صغيرة من الفودكا • حتى اذا استرد بذلك قواه ، شعر بتجدد شجاعته ، واستعاد صحو ذهنه •

الخيل تجرى ، وميتيا يحض الحوذى على مزيد من السرعة ، ويهىء فى الوقت نفسه « خطة » جديدة ، خطةً « لا تخطىء » فى هذه المرة ، من أجل الحصول على « هذا المبلغ اللعين » قبل نهاية ذلك اليوم. هتف يقول مشمئزاً اشمئزازاً عميقا : « كيف يمكن أن يهوى مصير انسان بسبب هذه الثلاث آلاف روبل الحقيرة ؟ • لأجدنّها فى هذا اليوم نفسه ! » • وكان يمكن أن يجعله هذا التصميم سعيدا ، لولا أن التفكير فى جروشنكا كان يحاصره • « ما الذى صارت اليه ؟ ماذا حدث لها ؟ »• كان هذا السؤال يطعنه فى كل لحظة كشفرة مسنونة • ووصلت العربة أخيرا ، فأسرع ميتيا الى جروشنكا رأساً •

٣

مناجم الذهب

هذه الزيارة انما تحدثت جروشنكا الى راكيتين مذعورة • كان قد سرّها ، وهى تنتظر الرسالة التى يعرف القارىء أمرها ، أن ميتيا لم يظهر منذ يومين ، وكانت تقول لنفسها انه قد لايجىء قبل رحيلها باذن الله • ولكنه ظهر على حين فجأة • والقارىء يعرف التتمة، يعرف كيف تعللت له بضرورة ذهابها الى كوزما كوزمتش حالاً، «لاجراء بعض الحسابات» ، وكيف رجته أن يرافقها ، وكيف استقطعته على نفسه وعداً ، حين تركته أمام منزل التاجر العجوز ، بأن يجىء فى منتصف الليل لاصطحابها الى منزلها • وقد سعد ميتيا بهذه التسوية ، قال لنفسه : « ما دامت ستقضى السهرة عند كوزما كوزمتش ، فلن تذهب الى فيدور بافلوفتش » ، ولم يلبث أن أضاف يحدث نفسه قائلاً : « اللهم الا أن تكون كاذبة • » ولكنه كان يعتقد بأنها صادقة • انه ينتمى الى تلك الفئة من الغيورين الذين يتخيلون أفظع الأشياء متى ابتعدوا عن المرأة المحبوبة ، ويعانون عذاباً رهيباً من تصور « خيانتها » لهم أثناء غيابهم • ولكن ميتيا كان متى التقى بجروشنكا مرة أخرى مضطرباً قلقاً يائساً معذب النفس من يقينه بأنها خانته ، لا يلبث أن يسترد شجاعته حين يرى

وجهها الضــاحك الرقيق المرح ، فاذا هو يطرد من فكره كل شيء ، ويشعر بالخجل من غيرته ، ويلوم نفسه على قلة الثقة .

بعد أن قام ميتيا بمرافقه جروســكا الى منزل سامســوبوف أسرع يعود الى بيته . ان هناك مسائل كثيرة بقي عليه أن يحلها قبل حلول الغد ! وكان يشعر على الأقل بأن حملاً ثقيلاً قد انزاح الآن عن صدره. غير أنه لم يلبث أن قال لنفســه : « ينبغي لي أن أسأل سمردياكوف ، بأقصى سرعه ممكنة ، هل حدث شيء في الليلة البــارحة ، هل ذهبت جروشنكا الى فيدور بافلوفتش أمس ؟ » . هكذا اشتعلت الغــيرة في قلبه المعذب من جديد ،قبل أن يتسع وقته للعودة الى بيته .

الغيرة ! « ليس عطيل غيوراً ، انه واثق » ، كذلك قال بوشكين . ان هذه الملاحظة البسيطة تشهد بعمق عبقرية شاعرنا القومي . ان ما عاناه عطيل من قلق النفس واضطراب الأفكار ناشيء عن انه « فقد ايمانه بمثله الأعلى » . ولكن عطيل ما كان له أبداً أن يرضى لنفسه هوان المرابطة في مكان ما من أجل أن يتجسس ويترصد ويترقب : انه أكثر ثقة من أن يفعل ذلك . بالعكس : كان لا بد من دفعه ومن تقديم البراهين له ، ومن تحريضه بالأدلة الدامغة لحمله على تصــور الخيانة . ولا كــذلك الغيور الحق . لا يستطيع المرء أن يتخيل مدى ما يمكن أن يهوى اليه الغيور من درك الدناءة والحطة دون أن يشعر بأي خجل من ذلك . وليس معنى هذا أن الغيــورين أناس يتصفون بحقــارة النفس حتماً . لا ... رب رجل نبيل القلب نقيّ الحب مخلص العاطفة ، يرتضي مع ذلك أن يختبيء تحت السرر ، وأن يرشي أناساً قذرين ، وأن يســتخدم أحط أنواع التجسس ! وما كان لعطيل أبداً أن يذعن للخيانة ـــ أقول يذعن للخيانة ولا أقول يغفرها ـــ رغم أن له نفساً رقيقة بريئة كنفس طفل صغير . ولا كذلك الغيور الحق ! ما من شيء الا ويمكن أن يذعن له

الغيور وما من شيء الا ويمكن أن يغفره عنـــد الحاجه • ان الغيورين أسرع الناس الى الغفران ، والنساء يعرفن هذا ! هم قادرون ملاً على أن يمسحوا خيانة مشهودة (بعد أن يثوروا ثورة عنيفة في البدايه طبعاً) ، وقبلات وعناقات رأوها بأعينهم ، شريطة أن يستطيعوا أن يقولوا لأنفسهم ان « هذه آخر مرة » وان الغريم سيغيب وانه سيرحل الى بلد في آخـــر العالم ، أو انهم سيمضون هم أنفسهم بحبيبتهم الى منطقه نائيه لا يستطيع الخصم الكريه أن يدركها فيها يوما • ثم لا تدوم المصـــالحة أكثر من ساعة طبعاً ، ذلك أنهم ، ولو اختفى الخصم ، ما يلبثـــون أن يكتشــفوا خصما جديدا منذ الغد ، فاذا هم يستأنفون عذاب أنفسهم بسبب هـــذه « الخيانة » الجديدة • رب متسائل يتساءل : ما هي في نظرهم قيمـــة حب يقتضي هذه الاحتياطات كلها، ويتطلب هذه المراقبة الدائمة المتصلة، وهل المرأة التي يتصورون خيانتها تستحق منهم هذا الحب كله • ألا ان هذا السؤال بعينه هو مالا يلقيه الغيورون الحقيقيون على أنفسهم ، مع أن منهم أناساً لهم نفوس ساميه رفيعة • وهناك أمر جدير بالملاحظة أيضا : ان ذوي العواطف النبيلة من هؤلاء الغيورين يستطيعون ، وهم مختبئون في ركن من الأركان للتجسس والمباغتة ، يستطيعون أن يفهموا تماما ، « لنبل قلوبهم » ، أنهم ينحدرون الى الخزي والعار ، ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بشيء من عذاب الضمير ، ما ظلوا مختبئين في أوكارهم على الأقل •

ما ان رأى متيا صاحبته جروشنكا حتى شعر بغيرته تتبدد وتزول، وحتى أصبح واثقا كريما سمحا خلال بضع لحظات ، بل لقد مضى في هذا الى حد احتقار نفسه بسبب تلك الشكوك الأثيمة التي ساورته وذلك يدل على أن حبه لتلك المرأة كان فيه عنصر أسمى كثيرا مما كان يظن هو نفسه ، وأن الشهوانية والتعلق الجسدي اللذين حدث عنهما أخاه

أليوشا ، ليسا جوهر ذلك الحب • ولكن ما ان غابت جروشنكا عن عينيه حتى عاد يتصور فيها جميع حقارات الخيانة ودناءاتها ، دون أن يشعر أثناء ذلك بأى ندم أو عذاب ضمير •

استبدت به الغيرة اذن من جديد • وكان عليه أن يستعجل على كل حال • كان عليه قبل كل شيء أن يجد قليلا من المال لسدّ حاجاته المباشرة : ان الروبلات التسعة التى جمعها فى الليلة البارحة كانت قد نفدت فى تلك الرحلة ؛ والمرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً حين لايكون فى جيبه قرش واحد كما يعلم ذلك جميع الناس • ولقد فكّر ميتيا ، أثناء وضعه خطته الجديدة فى العربة ، فكّر فى الوسيلة التى تمكنه من الحصول على بضعة روبلات بلا ابطاء • انه يملك مسدسين رائعين من المسدسات التى تستعمل فى المبارزات ، ولم يكن قد رهنهما حتى الآن ، لأنه يحرص عليهما حرصا شديدا • وكان قد تعرف منذ زمن ، فى كاباريه «العاصمة الكبرى » ، بموظف شاب عازب غنى كان فيما يقال يهوى جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها هوى شديدا ، فهـو يشترى مسدسات وبنـدقيات وخناجر يعلقها فى جدران غرفته ، ويدعو ضيوفه الى مشاهدتها والاعجاب بها ، معتزاً بأن يشرح لهم نظام كل مسدس وطريقة حشوه بالرصاص ، وطريقة التصويب به ، الخ • ذهب ميتيا الى هـذا الموظف الشاب دون تفكير كثير ، وعرض عليه أن يستودعه مسدسيه رهناً على قرض قـدره عشرة روبلات ، فسرّ الموظف سرورا عظيما ، وحاول اقناع ميتيا بأن يبيعه هذين السلاحين ، ولكن ميتيا رفض التخلى عنهما ، فدفع له الموظف عندئذ عشرة روبلات قائلاً انه لن يتقاضى فوائد عن هذا القرض بحـال من الأحوال • وافترق الرجلان صـديقين • وأسرع ميتيا الى جناحه الذى يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش بغية أن يلقى سـمردياكوف • وبهذا أثبت ميتيا واقعة جـديدة هى أنه « قبـل حدوث الحادث الذى

سنتحدث عنه طويلاً فيما بعد ، قبل حدوث ذلك الحادث بثلاث ساعات أو أربع لم يكن فى جيبه كوبك واحـــد ، فقرر أن يرهن فى سبيل الحصول على عشر روبلات مسدسين كان يحرص عليهما أشد الحرص، ثم اذا هو بعد ذلك ببضع ساعات يملك ألوف الروبلات ••• » ولكننى أسبق بهذا تتمة القصة ، فلأعد الى حيث وصلت منها •

علم ميتيا فى منزل ماريا كوندراتيفنا (جارة فيـدور بافلوفتش) بنبأ مرض سمردياكوف فاضطرب اضطرابا شديدا وقلق قلقـا عظيما • أصغى الى قصة سقوطه فى القبو ، ونوبة الصرع ، ووصول الطبيب ، ومبادرة فيدور بافلوفتش • وأُبلغ أيضا نبأ سفر ايفان فيدوروفتش الى موسكو فى مطلع الصباح ، فبدا عليه اهتمام شديد بهذه الواقعة التفصيلية. قال يحدث نفسه : « لا بد أن ايفـــان قد مرّ بفولوفيا قبلى » • غـير أن مرض سمردياكوف قد أحدث فى نفسه قلقاً كبيرا ومخاوف خطيرة • فأخذ يسائل المرأتين قائلا : « فما العمل الآن ؟ من عساى أكلف بمراقبة المنزل واطلاعى على ما يجرى ؟ ألم تلاحظا شيئا فى مســـاء أمس ؟ » • وأدركت المرأتان فوراً ما الذى يحـاول أن يعرفه فطمأنتاه ما وسعهما أن تطمئنـاه • قالتـا له مؤكدتين : « لم يجىء أحـد • وقد أمضى ايفـان فيدوروفتش الليلة كما اعتاد أن يمضيها ، وجرى كل شىء على ما يجب ». وجم ميتيا مفكرا • لا بد من حراسة فى هذه الليلة أيضا • الأمر واضح• ولكن أين يرابط ؟ أيرابط هنـا فى الحـــديقة ، أم يرابط أمام منزل سامســـونوف ؟ وقرر أخيراً أن يراقب المكانين كليهمـا ، وفقاً لما توجبه الظروف ، ولكن المهم قبل كل شىء ، قبل كل شىء ، هو أن •••

وقد آن فعلاً أوان تنفيذ « الخطه » الجديدة ، الجدية فى هـــذه المرة ، التى رسمها فى العربة • ان هذا المشروع لا يمكن تأجيله • فقرر ميتيا أن يقف على هذا المشروع ساعة من الزمن و قال يحدث نفسـه :

« بعد ساعة واحـــدة أكون قـد سوّيت كل شيء ، ثم أذهب الى منزل سامسونوف أسأل أما تزال جروشنكا عنده ، ثم أعود الى هنا فورا لأبقى حتى الساعة الحادية عشرة ، وبعـــد ذلك أذهب الى منزل سامسونوف ثانية لأصحبها الى بيتها » • على هذا النحو حل ميتيا الصعوبة •

وأسرع الى بيته فاغتسل ونظف ثيابه بالفرشاة ، وارتدى ملابســه وذهب الى السيدة هوخلاكوفا • فهناك كانت « خطته » ، واحزناه ! كان ميتيا قد قرر أن يقترض الثلاثة آلاف روبل من تلك السيدة • حتى لقد راوده على حين فجأة يقين عجيب خارق من أنها لن تمنع عنه هذا المبلغ• رب متسائل يتساءل : اذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يخطر بباله أن يتجه قبل هذا الوقت الى هذه المرأة التى تنتمى الى بيئته على الأقل ، ولماذا آثر أن يتجه الى سامسونوف الذى يجهل ميتيا طبيعة تفكيره ولا يعرف بأى لغة يخاطبه ! يحسن أن نذكر هنا أن ميتيا كان قد انقطع منذ شهر عن التردد الى منزل هذه السيدة التى كان لا يعرفها كثيرا على كل حال • وكان يعلم عدا ذلك أنها لا تطيقه ، ذلك أنها قد ناصبته العداء منذ البداية فى الواقع ، لسبب بسيط هو أنه كان خطيب كاترين ايفانوفنا • لقـــد كانت تتمنى أن تقطع كاترين صـلتها به لتتزوج ايفـــان فيدوروفتش «الشاب المثقف ، اللطيف ، المحبب ، الذى يملك روح الفروسية ويتمتع بآداب راقية » ، على حين أن آداب ميتيا كريهة مقيتة • ثم ان ميتيا قـد سخر منها مرارا كثيرة وقال عنها « انها كثيرة الحركة والحماسة والكلام بمقدار ما هى قليلة الثقافة » • ولكن فكرة قد ومضت فى ذهنه وميض البرق فى الصباح ، فقـال لنفســه : « ما دامت تكره أن أتزوج كاترين ايفانوفنـا وما دام هذا الزواج يثير حنقها الى هذا الحد (كان لا يجهل أن استياء السيدة هوخلاكوفا من هذا الزواج يبلغ حد الهستريا) ، فلا يمكن أن ترفض اقراضى هذه الثلاثة آلاف روبل التى ستتيح لى ان

أفصم علاقتى بكاتيا ، وأن أرحل من هنا الى الأبد • » • وكان ميتيا يقول لنفسه أيضا : « ان نساء المجتمع هاته ، وهن صاحبات نزوات دلّلتهن الأقدار ، لا يرفضن بذل جميع التضحيات المالية فى سبيل هوى غريب من أهوائهن العجيبة ! » • ان « الخطة » التى وضعها لاقتراض هـذا المبلغ من السيدة هوخلاكوفا لا تختلف عن خطة البارحة : سوف يعرض عليها أن يتنازل لها عن حقوقه فى قرية تشرماشنيا ، ولكنه لا ينوى فى هذه المرة أن يبسط الأمر على أنه صفقة تجارية ، ولا يهدف الى اغراء هذه السيدة ، كما حاول اغراء سامسونوف ، بأنها ستربح ستة آلاف أو سبعة آلاف روبل ؛ وانما يكون التنازل عن الحقوق ، فى هذه الخطـة الجديدة ، بمثابة ضمانة سخية للقرض الذى سيُتفق عليه • وكان كلما ازداد تفكيرا فى هذا المشروع ازداد حماسةً له ، وذلك ما يحدث له دائما حين يتخذ قرارا جديدا • انه يتحمس فى البداية لكل مشروع من مشاريعه • ومع ذلك شعر ، وهو يصعد درجات الباب من منزل آل هوخلاكوف ، بقشعريرة فى ظهره ، واجتاحت نفسه عندئذ عاطفة قلق رهيب وخوف شديد : لقد أدرك فى تلك اللحظة ، بيقين رياضى ، أنه يقامر بآخر ورقة يملكها ، فاذا لم تفلح هذه المحاولة ، فلا أمل بعد ذلك، « اللهم الا أن أذبح أحداً وأسلبه ثلاث آلاف روبل ، وبدون ذلك فلا مخرج لى ••• » • كذلك قال ميتيا لنفسه • وكانت الساعة هى السابعة والنصف حين شدّ الجرس •

بدا كل شىء يجرى على ما يحب ويشتهى فى أول الأمر : فما ان أُبلغت السيدة هوخلاكوفا وصوله حتى أمرت بادخاله • فدُهش ميتيا من سرعة استقباله ، وقال لنفسه : « لكأنها كانت تنتظرنى » • وما كاد يدخل الصالون حتى هرعت اليه وأعلنت له فجأة أنها كانت تنتظره •••

ــ كنت أنتظرك ، كنت أنتظرك ! لا شىء كان يسمح لى بأن أتنبأ

بزيارتك ، أعتقد أنك تقدر ذلك بسهولة • ومع هـــذا كنت أنتظرك • فاعجب بما أملك من صدق غريزة المرأة يا دمترى فيدوروفتش ، لأننى كنت واثقة ، منذ هذا الصباح ، بأنك ستزورنى •

قال ميتيا وهو يجلس بخراقة :

ـ حقاً ان هذا يثير الدهشة ، يثير أكبر الدهشة ••• ولكننى جئت من أجل قضـــية خطيرة ، خطـيرة خطـورة رهيبة ••• بالنسبة الىّ •• طبعا •• يا سيدتى ••• بالنسبة الىّ وحدى ••• لذلك أسارع ف •••

ـ أعرف أن السبب الذى دفعك الى المجىء سبب خطير يا دمترى فيدوروفتش • وليست المسألة هنا مسألة تنبؤات أتنبـؤها ، لأننى أكره ذلك الايمـان الرجعى بما هو فوق الطبيعـة (لعلك على علمٍ بمغـامرة الشيخ زوسيما) ••• وانما الأمر حساب رياضى : كان لا بد أن تجىء الىّ حتما بعد كل ما جرى مع كاترين ايفانوفنا ، لم يكن فى وسعك أن لا تجىء • هذه رياضيات •••

ـ أو فلنقل هذا واقعية يا سيدتى • لكن واقعيين ••• اسمحى لى أن أبسط لك بايجاز •••

ـ الواقعيـــة ••• قلتها يا دمترى فيـــدوروفتش ! أنا من أنصار الواقعية بعد اليوم ! آه ••• لقد شُفيت من مرض الايمان بالمعجـزات ، صدقنى ! أنت لا تجهل طبعا أن الشيخ زوسيما قد مات !

قال ميتيا بشىء من الدهشة :

ـ لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك •

وطافت بخياله صورة أليوشا • قالت السيدة هوخلاكوفا :

ـ مات هذه الليلة ••• تصور أن •••

قاطعها ميتيا قائلاً :

ـ سيدتي ، أنا لا أعرف الا شيئاً واحدا : هو أنني في وضع عصيب وأن كل شيء سينهار اذا أنت لم تساعديني ، وسأكون أنا أول من ينهار. اغفري لي خشونة لغتي ، ولكنني في قلق محموم ؟ ان بي حمى حقا ..

ـ أعرف ذلك ، أعرف ذلك ، أعرف أن بك حمى . أنا مطلعة على كل شيء ، وما كان يمكن أن تكون حالتك النفسية غير ما هي اليوم. كل ما قد تقوله لي الآن ، أنا أعرفه سلفاً . انني أفكر في مصيرك منذ زمن طويل يا دمتري فيدوروفتش . كنت ألاحظ حياتك ، وأدرسها.. هه ! أنا طبيبة نفوس ، خبيرةٌ جدا ... صدقني يا دمتري فيدوروفتش!

عاد ميتيا يقول وهو يبذل جهدا من أجل أن يبدو لطيفا محببا :

ـ سيدتي ، لا شك عندي في أنك طبيبة خبيرة . ولكنني أنا أيضا مريض خبير . انني مقتنع اقتناعا قويا بأنك ستساعدينني في اتقاء هلاك كبير ، ما دمت قد قد اهتممت بمصيري ذلك الاهتمام كله . فاسمحي لي لهذا أن أبسط لك أخيراً الخطة التي تجرأت أن أجيء لأبسطها لك .. وأن أقول لك بهذه المناسبة نفسها انني آمل منك ... لقد جئت ياسيدتي من أجل أن ...

ـ لا تشرح ... هذا أمر ثانوي ! لن تكون أول شخص أساعده يا دمتري فيدوروفتش ! لا شك أنك سمعت عن ابنة عمي بلمسوفا. كان زوجها الذي تدمرت حالته المالية قد انهار انهيارا على حد التعبير الصادق الذي استعملته أنت منذ هنيهة. فنصحتها بتعاطي تربية الخيول، فأصبحت حالتها اليوم مزدهرة ازدهارا عظيما . هل تفهم في شئون تربية الخيول يا دمتري فيدوروفتش ؟

صاح ميتيا يقول نافد الصبر ثائر الأعصاب ، حتى لقد همّ أن ينهض :

ـ لا يا سيدتى ، أبدا ... لا أفهم فى هذا المجال شيئا ! أتوسل اليك يا سيدتى أن تصغى الىّ لحظة . دعينى أتكلم دقيقتين فحسب ، لأعرض لك مشروعى . ثم اننى لا أملك الا وقتا قصيرا جدا ، أنا مستعجل غاية الاستعجال (كذلك أعول ميتيا يقول بصوت هسترى ، اذ حزر أنها ستقاطعه ، وأمّل أن يستطيع منعها من مقاطعته برفع صوته). لقد جئت اليك لأننى قد بلغت ذروة الكرب واليأس ، وأردت أن أرجوك أن تسلفينى ثلاثة آلاف روبل ، ولكن بضمانة قوية وطيدة يا سيدتى ، بشروط موثوقة تماما . وهأنذا أشرح لك الموضوع ...

قالت السيدة هوخلاكوفا وهى تحرك ذراعيها كأنما تطرد الشروح التى همّ بها ميتيا :

ـ تشرح فيما بعد ، فيما بعد ... ستقول لى هذا كله فيما بعد . ثم اننى أعرف سلفاً كل ما قد تذكره لى ، سبق أن قلت لك هذا . أنت فى حاجة الى مال ، أنت تطلب ثلاثة آلاف روبل ، ولكننى سأعطيك أكثر من ذلك ، أكثر كثيرا ، لأننى أريد أن أنقذك يا دمترى فيدوروفتش . ولكننى أطالبك فى مقابل ذلك بأن تطيعنى .

وثب ميتيا من مقعده من جديد ، قائلاً بانفعال شديد :

ـ آه ! سيدتى ! هل يمكن أن تكونى طيبة الى هذا الحد ؟ آه ! لقد أنقذتنى ! يا رب ! لقد انتزعت انسانا من ميتة عنيفة يا سيدتى ، من ميتة انتحار بطلقة مسدس ... لسوف أظل شاكراً لك الى الأبد ...

عادت السيدة هوخلاكوفا تقول ، وهى تنظر بابتسامة مشرقة الى وجه ميتيا المتحمس :

ـ لأعطينك أكثر كثيرا من ثلاثة آلاف روبل ؟

ـ أكثر كثيرا ؟ لست فى حاجة الى كل هذا . ليس بى حاجة الا

الى هذه الثلاثة آلاف الشقية ! وأريد من جهتى أن أعطيك ضمانة لهـذا القرض ، وأن أعبر لك عن شكر لا حدود له • ان المشروع الذى أحب أن أبسطه لك هو •••

فقاطعته السيدة هوخـــلاكوفا التى كان وجههـــا يشرق بفرحة الاحسان المتواضعة :

ـ كفى ! أنا لا أنكث عهداً • لقد وعدتك بأن أنقذك ، وسأفعل • سأخرجك من مأزقك كما أخرجت بلمسوفا • ما رأيك فى مناجم الذهب يا دمترى فيدوروفتش ؟

ـ مناجم الذهب يا ســـيدتى ؟ لم أفكر فى هذا الأمر يوماً حتى الآن •••

ـ أما أنا فقد فكرت فيـه من أجلك ! لقـد وزنت جميع جوانب المسألة • اننى ألاحظك منذ شهر لهذا الغرض • ظللت أفحصك أكثر من مائة مرة عابراً ، فكنت أقول لنفسى فى كل مرة : « هذا رجل نشيط فعّال يمكن أن ينجح فى مناجم الذهب » ، حتى لقد أنعمت النظر فى مشيتك ، فاستنتجت أنك ستكتشف مناجم كثيرة •

لم يملك ميتيا الا أن يسأل السيدة هوخلاكوفا مبتسماً :

ـ استنتجت ذلك من مشيتى يا سيدتى ؟

فأجابت السيدة هوخلاكوفا :

ـ نعم ، من مشـــيتك أيضا • هل تســـتطيع أن تنكر يا دمترى فيدوروفتش أن فى الامكان معرفة طبع الشخص من مشيته ؟ ان العلوم الطبيعية تعلمنا هذا • آه ••• ما أكثر ما أصبحت وافعيه الآن ! فمنذ ذلك اليوم ، منذ تلك القصة التى حدثت فى الدير والتى هزتنا هزاً قوياً ،

أصبحت لا أؤمن الا بالواقعيه ، بالوا •• قعيه ، وأصبحت أريد أن أقف حياتي على نشاط عملي • لقد شفيت من الغيبية الى الأبد • « كفى ! » ، كما قال تورجنيف * •

ـ ولكن ماذا عن تلك الثلاثة آلاف روبل التي تفضلت فوعدتني بها كريمة سخية !

قالت السيدة خلاكوفا بقوة وحرارة :

ـ ستحصل عليها ، تستطيع أن تعدها في جيبك منذ الآن • لا ثلاثة آلاف ، بل ثلاثة ملايين ، وخلال فترة وجيزة يا دمترى فيدوروفتش ! اليك المشروع الذى أقترحه عليك : تكتشف مناجم ذهب فتثرى ثراء عظيماً وتصبح من أصحاب الملايين ؟ ثم تعود الينا رجلاً كبيراً من رجال العمل والفعل ، تصبح رجلاً محركاً لغيرك من الناس ، تنقذنا من خدرنا وكسلنا ، وتقودنا نحو الخير • هل يجب أن نترك جميع هذه المبادرات لهؤلاء اليهود ؟ ستبنى عمارات ، وستخلق صناعات ، وستساعد الفقراء ، وسيغمرك هؤلاء الفقراء بالدعوات والبركات ••• اننا نعيش في عصر السكك الحديدية يا دمترى فيدوروفتش • وستعلم وزارة الخزانة ، التي تتخبط في مصاعب ضخمة ، ستعلم بوجودك فتناديك وتعتمد عليك • ان سقوط عملتنا الورقية قد حرمني من النوم ! ذلك جانب من طبيعتي لا يعرفه الناس كثيراً •••

قاطعها ميتيا قائلاً وهو يوجس قلقاً شديداً :

ـ سيدتي ! سيدتي ! من الممكن جداً أن أتبع نصيحتك ، وهي نصيحة سديدة جدا في الواقع ••• سأتبع هذه النصيحة حتما فيما بعد ••• سأذهب الى مناجم الذهب هذه ••• وسأعود مرة أخرى لنتحدث في أمرها ••• أما الآن ••• فلنتكلم في تلك الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت ف ••• آه ! ان هذا المبلغ سيخرجني من جميع المصاعب !

ليتنى أستطيع الحصول عليه فى هذا اليوم ••• ذلك أننى ، كما ترين ، لا أملك وقتاً أضيّعه ••• لا يوما ، ولا ساعة •••

قاطعته السيدة هوخلاكوفا تأمره بلهجة قاطعة :

ـ كفى ، كفى ! أجبنى : أتذهب الى مناجم الذهب أم لا ؟ هل عزمت أمرك ؟ أريد جوابا واضحا دقيقا !

ـ سأذهب يا سيدتى فيما بعد • سأذهب الى حيث تريدين ياسيدتى ! أما الآن •••

صاحت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ انتظر !

وهرعت نحو مكتبها الأنيق ذى الأدراج الكبيرة ، فأخذت تفتحها درجاً درجاً بسرعة ، باحثة فيها عن شىء ما •

قال ميتيا محدثا نفسه وقد كاد ينشق قلبه : « التلاثة آلاف ! وبدون ضمانة ، بدون رهن ، بدون وصل ، ما أنبلها امرأة ! ولكن ليتها كانت أقل ثرثرة ••• » •

وهتفت السيدة هوخلاكوفا تقول عائدة اليه :

ـ هاك ••• هاك ما كنت أبحث عنه •

هو أيقونة صغيرة جدا من فضة ، ذات حبل ، كالأيقونات التى تحمل أحيانا تحت القميص مع الصليب •

وشرحت السيدة هوخلاكوفا قائلة برصانة :

ـ هذه الأيقونة من كييف • لقد لمست هذه الصورة رفات القديسة بارب ، الشهيدة العظيمة • فاسمح لى أن أعلّقها لك بنفسى ، لتباركك فى حياتك الجديدة ، ومشاريعك المقبلة •

قالت له ذلك ، ووضعت الأيفونه حول عنقه ، وجهدت أن تعدلها. أحنى ميتيا رأسه متحيراً ، وأخذ يساعدها ، وأفلح أخيرا فى أن يدس الصورة تحت الياقة ورباط العنق وأن يضعها على صدره .

عندئذ قالت السيدة هوخلاكوفا بلهجة فيها أبهة :

ـ والآن هلمّ الى مناجم الذهب .

وعادت تجلس .

قال ميتيا :

ـ سيدتى ! أنا متأثر جدا ... لا أدرى كيف أشكر لك هذه العواطف الكريمة وهذه المشاعر النبيلة ... ولكن ليتك تعلمين مدى استعجالى ! ... ان ذلك المبلغ الذى انتظره من كرمك وأنا ممتلىء القلب بالأمل يا سيدتى ... آه ... ما أطيبك ، ما أعظم عطفك علىّ ! (بهذا هتف ميتيا فى سورة صادقة) ... اسمحى لى أن أعترف لك .. بأمر تعرفينه منذ زمن طويل على كل حال ... اننى أحب امرأة فى هذه المدينة ... لقد خنت كاتيا .. أقصد كاترين ايفانوفنا . وا أسفاه ! كان سلوكى معها خالياً من الخلق والشرف ... تولهت هنا بامرأة أخرى ... امرأة لعلك تحتقرينها ، فأنت على علم بالأمر ، أعرف ذلك ... ولكن يستحيل علىّ أن أتركها ، يستحيل ! لذلك كانت هذه الثلاثة آلاف روبل ...

قاطعته السيدة هوخلاكوفا قائلة بلهجة قاطعة :

ـ دعك من هذا . دع النساء خاصةً ! مناجم لذهب ، ذلك هو هدفك بعد اليوم ، ولا شأن للنساء هناك ! فيما بعد ، حين ترجع غنياً مجللاً بالمجد ، تختار حليلةً من بنات أرقى مجتمع : فتاةً عصرية ،

منقفة ، متحررة من الآراء الشائعة • وفى ذلك الحين ستكون مشكلة المرأة ، هذه المشكلة التى يتحدث الناس عنها كثيراً فى هذه الأيام ، ستكون قد حُلَّت ، وستظهر فى روسيا امرأة جديدة •••

قال ميتيا وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى فى هيئة المتوسل :

ـ ولكن ليس هذا ، ليس هذا ما •••

ـ بل هو هذا ، هو هذا يا دمترى فيدوروفتش ! هو هذا ولا شىء سواه ! هنالك السعادة التى تنشدها دون أن تعرف أنت نفسك ذلك • اننى مطلعة اطلاعاً واسعاً على مشكلة المرأة •ان تحرر المرأة ، وحتى وصولها الى الحياة السياسية ، هو مثلى الأعلى • ان لى ابنة يا دمترى فيدوروفتش ، والناس لا يعرفوننى كثيراً فى هذا المجال • لقد كتبت فى هذا الى شتيدرين★ • ان هذا الكاتب قد كشف لى أموراً كثيرة ، كثيرة جداً ، أموراً لا تخطر على البال ، عن رسالة المرأة ، فوجهت اليه فى العام الماضى كتاباً لم أذكر فيه اسمى ، كتاباً من سطرين : « أقبلك بحرارة ، يا عزيزى المفكر الكبير ، باسم المرأة العصرية • استمر ! » وذيلت الكتاب بهذا التوقيع : «أم» • خطر ببالى أن أوقّع : «أم عصرية» ، ولكننى اكتفيت ، بعد تردد ، بكلمة الأم ، لأن فيها جمالاً روحياً أعظم يادمترى فيدوروفتش ؟ هذا عدا أن كلمة « عصرية » كان يمكن أن تذكره بمجلته « المعاصر » ، وأن توقظ فى نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التى تسود الآن ••• ولكن ماذا بك ؟ ماذا جرى لك ؟

كان ميتيا قد وثب عن مقعده • وها هو ذا يضم يديه احداهما الى الأخرى أمامها صائحاً بضراعة طائشة :

ـ سيدتى ! لسوف تبكيننى اذا تأخرت مزيداً من التأخر عن تنفيذ ما تكرمت فوعدتنى به •••

ـ ابك يا دمترى فيدوروفتش ، لا تخش أن تبكى ! ان هـذه العواطف تشرفك ... ما يزال طريقك طويلاً ! ستحسن الدموع اليك . سوف تعود يوماً وسوف تكون سعيدا . ستجيئنى من أعماق سيبريا خصيصا لأشاركك فرحتك ...

أعول ميتيا فى هذه المرة يقول :

ـ اسمحى لى أخيراً أن أقول كلمة . أرجوك مرةً أخيرة أن تجيبينى : هل يمكننى أن أتلقى هذا المبلغ منك اليوم ؟ والا ففى أى يوم تأمرين أن أجىء لأخذه ؟

ـ عن أى مبلغ تتكلم يا دمترى فيدوروفتش ؟

ـ عن الثلاثة آلاف روبل التى تكرمت فوعدتنى بها ... منذ قليل ...

ـ ماذا ؟ ثلاثة آلاف روبل ؟ آه ... لا ... أنا لا أملك هذا المبلغ .

كذلك قالت السيدة هوخلاكوفا بدهشة هادئة .

صعق ميتيا . وقال :

ـ كيف هذا ؟ لقد وعدتنى منذ برهة ... منذ هنيهة قصيرة ... حتى لقد قلت اننى أستطيع أن أعد هذا المبلغ موجودا فى جيبى .

ـ آه .. لا ... لا شك أنك أسأت فهمى يا دمترى فيدوروفتش. لا ، لا ، انك لم تفهمنى . لقد قلت ذلك الكلام بصدد مناجم الذهب . صحيح أننى وعدتك بأكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل ، تذكرت هذا الآن ، ولكننى كنت لا أفكر عندئذ الا فى مناجم الذهب .

صاح ميتيا يقول بغباء :

ـ والمبلغ ؟ والثلاثة آلاف روبل ؟

ـ اذا كنت قد جئت من أجل اقتراض مال ، فيجب أن أذكر لك انني لا أملك مالاً • انني الآن خالية الوفاض تماما يا دمترى فيدوروفتش. حتى انني فى شجار مع وكيلى ، وقد اضطررت أن أقترض خمسمائة روبل من ميوسوف منذ بضعة أيام • لا ، لا ، لا أستطيع أن أسلفك شيئاً • واعلم عدا ذلك يا دمترى فيدوروفتش أننى لو كنت أملك مالاً لما أسلفتك أيضا ، أولا لأننى لا أقرض أحداً قط ، فالدين خصام دائماً ؛ واذا أقرضت غيرك ، فلا أقرضك أنت ، لأننى أريد لك الخير ، وأريد أن أنقذك ، وما أنت فى حاجة الا الى شىء واحد : المناجم ، المناجم ، المناجم !

زأر ميتيا يقول :

ـ شيطان يأخذ المناجم !

وهوى بقبضة يده على المنضدة يضربها بكل ما أوتى من قوة •

ـ آى ••• آى •••

كذلك أنّت السيدة هوخلاكوفا مرتاعة وهى تهرب الى آخر الصالون •

بصق ميتيا من فرط حنقه • وبخطى سريعة ، اجتاز الغرفة ، وخرج من المنزل ، وأوغل فى الشارع المظلم • انه يسير الآن كمجنون ، ويلطم صدره بقبضة يده ، على ذلك الموضع نفسه الذى لطمه منذ يومين بحضور أليوشا حين لقيه فى الشارع ساعة الغسق • لماذا يلطم صدره هذا اللطم ، « على هذا الموضع نفسه » ، وماذا كان معنى هذه الحركة ؟

ذلك أمر لم يفصح عنه لأحد ، حتى ولا لأليوشا • هـذا سره فى تلك الساعة ، ولكنه كان يعلم أنه ، لأسباب يكتمها ، انما يســير الى هاوية العار ، الى انهيار حياته ، الى الانتحار • ذلك ما سيحدث حتماً اذا هـو لم يحصل على هذه الثلاثة آلاف روبل ليرد الى كاترين ايفانوفنا مالها ، ولينزع عن صدره ، « عن هذا الموضع بعينه من صدره » ، الخزى الذى يخنقه ، الحمل الذى يبهظه ، والذى يرهق ضميره أشد الارهاق • ان هذا كله سيتضح مزيدا من الاتضاح فيما بعد • والآن وقد انهار آخر أمل من آمال هذا الرجل القوى الجسم ، فانه ما ان ابتعد بضع خطوات عن منزل السيدة هوخلاكوفا ، حتى انفجر يبكى على حين فجأة ناشجاً كطفل صغير • وها هو ذا يمسح دموعه بقبضتى يديه وهو فيما هو فيه من اضطراب • وعلى هذه الحال انما وصل الى الميدان ، حيث أحس بغتةً أنه قد صدم شيئاً ما ، وسرعان ما سمع أناتٍ شاكية صادرة عن عجوز كاد يقلبها •

ـ يا رب ! كاد يقتلنى ! هلاَّ نظرت أين تسير أيها الوغد !

صاح ميتيا يقول وهو يتفرس وجه المرأة العجوز فى الظلام ؟

ـ كيف ؟ أهذا أنت ؟

لقد عرف ميتيا فى هذه المرأة العجوز ، خادمةَ كوزما كوزمتش الطاعنة فى السن التى لاحظها فى منزله الليلة البارحة •

سألته العجوز بصوت أصبح لطيفا على حين فجأة :

ـ ومن أنت يا بنى ؟

ـ أنت فى خدمة كوزما كوزمتش ، أليس كذلك ؟

ـ هـــذا صحيح يابنى ، وأنا ذاهبة الآن الى بروخـورتش ••• لا أستطيع أن أميِّزك فى هذا الظلام •••

قال ميتيا وهو يرتجف قلقاً وخوفاً :

ــ قولى لى يا أماه : هل أجرافين الكسندروفنا عندكم الآن • لقد أوصلتها الى منزلكم منذ قليل •

ــ لقد جاءت يا بنى فمكثت لحظة ثم انصرفت •

فصرخ ميتيا :

ــ انصرفت ؟ كيف هذا ؟ الى أين ذهبت ؟

ــ لم تمكث عندنا الا دقيقة ، قصّت خلالها على كوزما كوزمتش قصة مضحكة ثم لم تلبث أن انصرفت •

زأر ميتيا يقول :

ــ أنت تكذبين أيتها العجوز اللعينة •

فصاحت المرأة تقول مذعورة :

ــ آى ••• آى •••

ولكن ميتيا كان قد غاب •

أسرع ميتيا يركض بخطى كبيرة نحو منزل آل موروسوف• كانت جروشنكا قد سافرت منذ ربع ســـاعة الى موكرويه ، وكانت فينيا فى المطبخ مع جدتها ماترين الطباخة ، حين ظهر « الكابتن » فجأة فى المنزل• فلما رأته أطلقت صرخات ارتياع وجزع •

أعول ميتيا يسألها :

ــ ها ••• تصرخين ؟ أين هى ؟

ولكن قبل أن يتسع وقت فينيا ، التى شحب لونها شحوبا شديدا من الذعر ، لأن تنطق بكلمة واحدة ، ارتمى ميتيا على قدميها قائلاً لها :

ـ فينيا ، قولى لى ، أناشدك يسوع المسيح ، الى أين ذهبت ؟

ـ لا أدرى يا سيدى ، لست على علم بشىء أيهـــا العزيز دمترى فيدوروفتش • ولو قتلتنى لما استطعت أن أقول لك أكثر من هذا • ثم انك قد خرجت معها منذ قليل •

كذلك أكدت فينيا متدفقة فى كلامها •

قال ميتيا :

ـ ولكنها عادت •

ـ لا ، لا ، يا عزيزى دمترى فيدوروفتش ، لم تعد ، أحلف لك بالله انها لم تعد !

صرخ ميتيا يقول :

ـ تكذبين ! وانى لأحزر من ذعرك وحده الى أن ذهبت ؟

وأسرع يركض فى الشارع من جديد • فما كان أسعد فينيا بأنها تخلصت منه بمثل هذه الســهولة ! فلقد أدركت حق الادراك أنه كان سيسومها سوء العذاب خلال ربع ســاعة ، لولا استعجاله الشــديد • على أنه قد فاجأ فينيا وماترين العجوز ، حين انصرافه ، بحــركة لم تكن فى الحسبان : كان هناك على المائدة هاون ومدق من نحاس ، ولكن المدق ليس كبيراً • فبينما كان ميتيا يضع يده على قبضة الباب راكضا ليخرج ، مد يده الأخرى فتناول المدق اختطافا ودسّه فى جيب سترته •

هتفت فينيا تقول وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ رباه ! سيقتل أحدا •

٤

في الظلام

إلى اين كان يركض ؟ ذلك سؤال يحزر جوابه: « أين عساها تكون ان لم تكن عند فيدور بافلوفتش ؟ لا شك أنها ذهبت اليه رأساً بعد أن غادرت منزل سامسونوف • الحيلة واضحة ، والكذب مفضوح ! » • كانت هذه الأفكار تغلى فى رأس ميتيا •

تحاشى ميتيا أن يمر بحديقة ماريا كوندراتيفنا • قال لنفسه : « يجب أن لا ترانى ماريا بحال من الأحوال !••• يجب أن لا أنبهها••• والا وشت بى فوراً ، وأبلغت أننى هنا ••• لسوف تخوننى حتماً • لا شك فى أنها متواطئة معهم • وكذلك سمردياكوف • لقد اشتُروا جميعاً ! » • لذلك سلك طريقاً آخر : دار دورة طويلة ، فمرّ بالشارع الصغير الذى يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش ، واجتاز شارع دمتريفسكا ، وعبر الجسر الضيق الصغير ، فوصل بذلك الى مكان خال غير مأهول يقع وراء الفناء • ان هذا المكان يحدُّه سياج بستان مجاور من جهة ، ويحده من الجهة الأخرى السور العالى الذى يحيط بمنزل فيدور بافلوفتش • واختار ميتيا لتخطى ذلك السور الموضع الذى يُروى أن البزابث سمردياشتايا قد تخطت السور منه فى الماضى• قال ميتيا لنفسه :

« اذا استطاعت تلك أن تتخطاه ــ لا يدرى الا الله لماذا ــ فكيف لا أفلح أنا فى تخطيه ؟ » • واستطاع فعلاً من أول وثبة ، أن يتشبث بذروة السور بيده ، وأن يرتفع بعد ذلك باندفاعة قوية ، فاذا هو يصبح فى أعلى السور ، فيركب عليه ركوبه على حصان • ان حمامات المنزل قريبة جدا من ذلك المكان ، ومنه تُرى نوافذ الدار المضاءة • قال ميتيا يحدث نفسه : « طبعا !••• ان فى غرفة نوم العجوز نوراً • معنى هذا أنها عنده ! » • ووثب بعد ذلك الى الحديقة • ورغم علمه بأن جريجورى مريض ، وبأن مرض سمردياكوف قد لا يكون تمارضا ، وأن أحداً من المنزل لا يمكن اذن أن يسمعه فى هذه اللحظة ، فقد لطا متجمعا على نفسه بدافع الغريزة ، وجمد لا يتحرك ، وأصاخ بسمعه • ان صمتا كصمت الموت يخيم على المكان وما حوله • لا نأمة ، ولا نسمة ••• هدوء مطلق، كأنما عن قصد وعمد •••

« الصمت وحده يهمهم » • خطر هذا البيت من الشعر ببال ميتيا• وقال يحدث نفسه : « آمل أن لا أكون قد سُمعتُ لحظةَ قفزت ! ولكن يظهر أننى لم أُسمع » • وبعد أن لبث على هذه الحال دقيقة لا يتحرك ، تسلل بخطى وئيدة خلال الحديقة ، سائرا على العشب حتى يخنق كل ضجة • كان يتحاشى الأشجار والأدغال ، ويتقدم بطيئا ،ولا يضع قدمه الا محاذراً ، ويصيخ بسمعه الى أيسر صوت • فلم يصل الى النافذة المضاءة الا بعد خمس دقائق • وتذكر أن تحت النوافذ أشجار بيلسان ورباطٍ كثيفة تمتد أغصانها الى علو كافٍ • وكان الباب الذى يفضى من الحديقةَ الى داخل المنزل على الجهة اليسرى من الواجهة مغلقاً ، فانتبه ميتيا الى ذلك انتباهاً خاصاً وسجله فى ذهنه عند مروره • ووصل أخيرا الى الشجيرات فاختبأ وراءها حابساً أنفاسه • قال لنفسه : « يجب أن أتلبث هنا بضع لحظات ، فلعلهم قد سمعوا صوت وقع خطواتى ، فأخذوا

يصيخون بأسماعهم للتأكد ••• أرجو أن لا أسعل أو أعطس ••• » •

واننظر دقيقتين ، خافق القلب خفقاناً شـديداً ، حتى لتكاد تنقطع من ذلك أنفاسه • ثم قال لنفسه : « لا ••• لا أستطيع أن أبقى هنا • ان دقات قلبي لن تهدأ ، فلا يمكنني أن أنتظر مزيداً من الانتظار » • كان ميتيـا مختبئاً فى ظل مجمـوعة الأشجار التى ينير الضـوء لآتى من النافذة جانبها الخلفي • ورأى نفسـه يدمدم قائلاً دون أن يعرف لماذا : « ما أشد الاحمرار فى أثمار أشجار الرباط هذه ! » • ثم أخذ يدنو من النـافذة بخطى كخطى الذئب ، حتى اذا بلغها انتصب واقفاً على رءوس الأصابع • بدت له غرفة نوم فيدور بافلوفتش كلها • انها غرفة صغيرة ، تنقسم قسـمين بحاجزين أحمرين ، كان فيدور بافلوفتش يسميهما « الصينيين » • قال ميتيـا لنفسـه : « الحاجزان الصينيان •• لا شك أن جروشنكا تختبيء وراءهما » • وأخذ ميتيا ينعم النظر فى أبيه • كان الأب يلبس ثوباً جديداً للمنزل من حرير مخطط ما رآه عليه ميتيا من قبل ، ويشد على خصره حزاماً من حرير أيضاً ينتهى بعقد ؛ وتحت ياقة الثوب يُرى قميص أنيق نظيف جداً مصنوع من نسيج رقيق ناعم وله أزرار من ذهب ؛ وكان فيدور بافلوفتش يضع على رأسه الضماد المصنوع من قماش أحمر الذى سبق أن رآه أليوشا • قال ميتيا لنفسه : « لقد تجمل وتزين » • وكان أبوه واقفاً قرب النافذة واجماً شارد اللب • وها هو ذا يرفع رأسه على حين فجأة مصيخاً بسمعه كأنما لينصت ؛ فلما لم يسمع شيئاً اقترب من المائدة فصبَّ نصفَ قدح من الكونياك وأفرغه فى جوفه ، ثم تنفس تنفساً عميقاً ملء رئتيه • وفكّر بضع لحظات ، ثم اتجه نحو المرآة بخطى ذاهلة ، فأزاح بيده اليمنى المنديل الذى يخفى جبينـه ، وأخـذ ينعم النظر فى النـدبات والبقع الزرق التى لم تختف بعـد • قال ميتيـا لنفسه : « أغلب الظن أنه وحيـد ليس عنده أحـد » • وفى تلك اللحظة

SS

ابتعد فيدور بافلوفتش عن المرآة ، والتفت فجأة نحـــو النافذة ، وأخذ ينظر الى الخـارج • فما كان من ميتيا الا أن ارتمى فى الظـلام بوثبة واحدة •

وقال ميتيا لنفســه : « من الجـائز أيضـاً أن تكون مختبئـة وراء الحاجزين ،وربما كانت نائمة • » • فما ان تراءى له هـــذا الافتراض حتى شعر بطعنة تنفذ فى قلبه • وابتعد فيدور بافلوفتش عن النافذة • « لا شك انه يترقبها هى اذ ينظر من النافذة الى الخـارج • فليست اذن عنده ! والا فما له وللظلمات يمعن النظر فيها متفرساً مستطلعاً ! واضح أن نفاد الصبر يحرقه حرقاً » • وعاد ميتيا يقترب ، وأخذ يرصد أباه • كان العجوز قد جلس الى المائدة ، وكان واضحاً عليه أنه خائب الرجاء يائس النفس • ووضع كوعيه أخيراً على المائدة ، وأسند خده الى راحة يده اليمنى • فكان ميتيا يفحصه بنوع من النهم !

وقال بصوت خافت جداً : « وحيد ! انه وحيد ! فلو كانت معه ، لكان وجهه وجهاً آخر » • ومن عجائب قلب الانســان ما شـعر به ميتيا حينذاك : لقد أحسّ فجأة حين أدرك أن جروشنكا ليســـت هناك ، نوع من خيبة الأمل عجيب لا يُفهم ! فقال يشرح لنفسه : « لا ••• ان ما أحسه من اهتياج لا يرجع الى اننى لا أراها ، وانما يرجع الى أننى لا أملك أية وســيلة للتأكد على وجه اليقين من أنها مع العجوز أو أنهـا ليست معه » • وقد تذكر ميتيا فيما بعد أن فكره فى تلك اللحظة كان على جانب عظيم من الصحو والصـفاء ، فلا تفوته شـاردة ولا واردة ، حتى ليدرك أدق تفاصيل الموقف • ولكن القلق كان يجتاح نفسه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء ، لأنه ليس من أمره على يقين ، حتى أصبح لا يطيق هذا الوضع •

تساءل : « أهى هنا أم لا ؟ » • واشتعل حنقه • وها هو ذا يعزم أمره على حين فجأة ، فيمد ذراعه ، وينقر على الزجاج نقرات الاشارة المتفق عليها مع سمردياكوف وهى : نقرتان متباعدتان ، فثلاث نقرات متقاربة ، دلالةً على أن « جروشنكا قد وصلت » • فانتفض العجوز ، ورفع رأسه ، ووثب من مكانه ، واندفع نحو النافذة • فارتمى ميتيا فى الظلام •

دمدم فيدور بافلوفتش يسأل بصوت مرتجف :

ــ أهذا أنت يا جروشنكا ؟ أنت ؟ أين أنت يا ملاكى ؟ أين أنت يا حبى ؟ أين أنت ؟

وكان يختنق من فرط الانفعال •

قال ميتيا لنفسه : « انه وحيد » •

واستأنف العجوز يسأل :

ــ أين أنت اذن ؟

وكان الأب وهو يرسل هذا السؤال يميل برأسه من النافذة حتى الكتفين ناظراً الى جميع الجهات • وها هو ذا يضيف قوله :

ــ تعالى ! لقد أعددت لك مفاجأة حلوة • تعالى فأريك المفاجأة •

قال ميتيا فى سره : « هى الظرف الذى يضم الثلاثة آلاف روبل » •

ــ ولكن أين أنت اذن ؟ لعلك قرب الباب ؟ سأفتح لك الباب •

وكاد يسقط من النافذة من شدة ميله عليها ليرى المرأة الشابة فى الظلام من جهة الباب الذى يفضى الى الحديقة على اليمين • ولو قد اتسع الوقت لحظة أخرى اذن لأسرع الى الباب حتماً دون أن ينتظر جواب

SS

جروشنكا . كان ميتيا يرقبه من قرارة مخبئه بغير حركة . كان يراه من جانب . فكان وجهــه الكريه المقيت ، وكانت جوزة عنقــه ، وكان أنفه الأقنى ، وكانت شفتاه اللتان تبتسمان بانتظارٍ شبق ، كان ذلك كله يبرز فى ضوء ساطعٍ يسقط عليه مواربا من المصباح الموجود فى الجهة اليسرى من الغرفة . فاذا بكره عنيف فظيع يغلى فى قلب ميتيا فجأة ، فيقول فى نفسه : « هذا هو ، هذا هو غريمى ، هذا هو خصمى ، هذا هو جلاّدى، هذا هو عدو حياتى ! » . انها سورة الحنق المباغت المسعور الحاقد الظامىء الى الانتقام ، الذى تحدث عنه الى أليوشا بما يشبه التنبؤ أثناء حديثهما فى الجناح قبل أربعة أيام جوابا على سـؤال أليوشـا له : « كيف يمكن أن يخطر ببالك أن تقتــل أباك ؟ » . لقد أجابه يومئذ قائلا : « لا أدرى ، أصبحت لا أدرى . قد لا أقتل ، ولكن من الممكن أن أقتل . أخشى أن يصبح فى نظرى كريها على حين فجأة بوجهه المقيت فى تلك اللحظة . اننى أكره جوزة عنقه ، وأنفه ، وعينيه ، وضحكته الصغيرة المستهترة . انه يثير فىّ تقززاً جسميا . ذلك هو ما أخشاه خاصة . قد لا أستطيع أن أكبح جماح نفسى » .

وكان التقزز الجسمى الذى يحس به ميتيا لا حدود له . فاذا هو ، دون أن يدرك ماذا يفعل ، يخرج من جيبــه مِدقّ الهـــاون على حين فجأة ...

سوف يقول فيما بعد ان الله كان ســاهراً عليه فى تلك الدقيقة . ففى تلك اللحظة نفسها استيقظ جريجورى فاسيلفتش فى سريره الذى كان قد اضطجع عليــه مريضــا . كان جريجورى قد لجأ فى المســاء الى استعمال الدواء الذى ذكره سمردياكوف فى حديثه مع ايفان فيدوروفتش، أى دلّك جسمه بمعاونة امرأته بخليط من الخمر ومغلىّ أعشاب قوى

ثم شرب ما تبقى من هذا الخليط ، بينما كانت مارفا اجناتيفنا تقرأ عليه دعاءً سرياً بصوت خافت • ثم رقد وذاقت مارفا اجناتيفنا الدواء أيضاً ، ولكنها لم تلبث أن نامت الى جانب زوجها نوماً عميقاً على الفور ، لأنها لم تألف شرب الكحول ، ولم تتعوده • أما جريجوري فقد استيقظ من نومه في وسط الليل على غير توقع ، وفكّر لحظة ، ثم اذا هو يجلس على سريره رغم أنه أحس بألم شديد فى المنطقة الحقوية • فلما فكر من جديد ، نهض وأسرع يرتدى ثيابه • من الجائز أن يكون قد شعر بعذاب الضمير لأنه نام بينما بقى البيت بغير حارس يحرسه « فى فترة خطرة الى هذا الحد » • وكان سمردياكوف الذى صرعته النوبة ، راقداً بلا حراك فى الغرفة الصغيرة المجاورة • ولم تتحرك مارفا اجناتيفنا ، فقال جريجورى لنفسه وهو يلقى نظرةً عليها : « انها لم تتحمل الدواء » ثم خرج الى درجات الباب وهو يئن• كان لايستهدف الا أن يلقى نظرة على الخارج، لأنه كان لا يحس أنه قادر على المشى ، بسبب الألم الشديد الذى كان يشعر به فى الكليتين والساق اليمنى • ولكنه تذكر فى تلك اللحظة نفسها أنه لم يقفل باب الحديقة الحديدى فى المساء • ان جريجورى رجل دقيق المواعيد منظم السلوك ، لا ينحرف أبداً عن القواعد التى فرضها على نفسه الى الأبد ولا عن العادات التى أخذ نفسه بها خلال سنين • وها هو ذا يهبط درجات الباب عارجاً متلوياً من الألم ، ويتجه الى الحديقة• وكان باب الحديقة الحديدى مفتوحاً حقاً • أتراه لاحظ شيئاً يثير الانتباه أو سمع صوتاً لا يُتوقع ؟ فلما لفت رأسه فجأة نحو اليسار ، رأى النافذة فى غرفة نوم مولاه مفتوحة ، ولم ير أحداً عليها ؟ فتساءل : « كيف تكون النافذة مفتوحة ولسنا فى فصل الصيف ؟ » ، ولمح فى تلك اللحظة نفسها ظلاً يتحرك فى الحديقة على مسافة أربعين خطوةً منه • كان هناك رجل يهرب فى الظلام • صاح جريجورى يقول : « رباه ! » ، ثم نسى فجأة

ألمه ، واندفع يركض ليقطع على الهارب طريق الفرار ، فسلك أقصر طريق ، لأنه يعرف الحديقة أكثر مما يعرفها الرجل الذى يطارده • لقد اتجه الهارب نحو الحمامات ، فدار حولها ، ثم اندفع صوب الحائط • وكان جريجورى يركض بأقصى سرعة دون أن يغيب الرجل عن بصره، فوصل الى السور فى اللحظة التى كان فيها الرجل المجهول يتسلق السور ؛ وها هو ذا يطلق صرخة قوية وقد خرج عن طوره ،ويمسك احدى ساقى الرجل بكلتا يديه •

لم يخطئه حدسه ؛ عرف الرجل : انه ذلك الشيطان الرجيم « قاتل أبيه » •

زأر العجوز يقول :

ـ يا قاتل أبيه ! •

ولكنه لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك : فها هو ذا يهوى على الأرض مجندلاً •

قفز ميتيا الى الحديقة من جديد ومال على الخادم الذى جند له • وكان ميتيا يمسك المدق النحاسى بيده ، فرماه على العشب ذاهلاً • سقط المدق على مسافة خطوتين من جريجورى ، لا بين الحشائش ، بل فى الممر، أى فى أبرز موضع يُرى • ولبث ميتيا بضع لحظات يتأمل جسم الخادم العجوز الدامى رأسه ، ومدّ يده يجس الرأس • لقد تذكر ميتيا فيما بعد ، تذكراً واضحاً ، أنه شعر فى تلك اللحظة بحاجة قوية لا تقاوم ، الى « التأكد تأكداً كاملاً » : هل كُسرت جمجمة جريجورى أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد أُغمى عليه بسبب الضربة التى أصابت صدغه • ولكن الدم الحار كان يتدفق فيغرق أصابع ميتيا المرتجفة • وتذكر ميتيا فيما بعد أنه أخرج من جيبه منديلاً نظيفاً كان قد تزود به

حين ذهب الى السيدة هوخلاكوفا ، فوضعه على وجه جريجورى ، محاولاً بغباء أن يقطع سيلان الدم على جبينه وخديه • فسرعان ما ابتل المنديل بالدم خلال بضع ثوان • فأسرع ميتيا يتساءل فجأة وقد ثاب الى رشده : « ما بقائى هنا ؟ » ثم أضاف يقول يائساً : « وكيف يمكننى أن أعرف الآن هل كُسرت الجمجمة أم لا ؟ وما جدوى هذا على كل حال ؟ ما وقع فقد وقع ••• ولقد كان العجوز متهوراً فنال ما يستحق ! » • بهذا ختم ميتيا كلامه بصوت عال ، ثم اندفع نحو السور ، فتسلقه ، وقفز الى الشارع الضيق ، وانصرف راكضاً • وكان لا يزال يمسك بيده اليمنى منديله المبلل بالدم ، فدسَّه فى جيب سترته دون أن يهدىء سرعة ركضه • كان يعدو عدوا شديداً يوشك أن يقطع أنفاسه ؛ ولسوف يتذكر عدة مارة صادفوه فى الشوارع أنهم رأوا فى تلك الليلة رجلا يهرب فى الظلام طائش العقل •

اتجه ميتيا من جديد الى منزل آل موروسوف • كانت فينيا قد أسرعت ، بعد انصرافه ، الى بيت البواب نازير ايفانوفتش فتوسلت اليه «باسم يسوع المسيح أن لايدع «للكابتن» أن يدخل المنزل مرة أخرى ، لا فى هذا المساء ولا فى الغد » ، فوعدها نازير ايفانوفتش بأن يلبى رجاءها ، ولكنه اذ اضطر أن يذهب الى مالكة المنزل فى الطابق الأعلى ، عهد بمراقبة الفناء الى ابن أخيه ، وهو فتى فى العشرين من عمره كان قد وصل من الريف مؤخراً ، ونسى أن يوصيه بما كان يجب أن يوصيه به بشأن الكابتن ، فلما وصل دمترى طرق الباب ، ففتح له الشاب الفلاح فعرفه ، لأن ميتيا كان قد أعطاه « بقاشيش » كبيرة مرات كثيرة ، وتركه يدخل ، حتى لقد أسرع يبلغه ، وهو يبتسم ابتسامة تودد ، أن « أجرافين الكسندروفنا ليست فى بيتها » • فسأله ميتيا بحرارة :

ـ فاين هى يا بروخور ؟

فقال له الشاب :

ـ سافرت الى موكرويه منذ أكثر من ساعتين ، وتولى تيموتى قيادة الخيل .

صاح ميتيا يسأله :

ـ ماذا ذهبت تصنع هناك ؟

ـ لا أدرى يا سيدى ! ضابط استدعاها وأرسل اليها عربة تقلها .

كان ميتيا قد انقطع عن الاصغاء اليه . فلقد أسرع يدخل البيت كالمجنون باحثاً عن فينيا .

٥

قدر مفاجئ

كانت فينيا في المطبخ مع جدتها ، وكانت المرأتان تستعدان للنوم . وقد اعتمدتا على يقظة نازير ايفانوفتش ، فأهملتا مرة أخرى اقفال الباب بالمفتاح . اقتحم ميتيا الغرفة ، وارتمى على فينيا ، فقبض على عنقها ، وزأر يسألها خارجاً عن طوره :

ــ قولي لي حالاً ، مع من هي في موكرويه الآن ؟

فأطلقت المرأتان صرخة حادة . وجمجمت فينيا تقول بسرعة وقد استحوذ عليها هلع رهيب :

ــ سأقول كل شيء يا دمتري فيدوروفتش العزيز ، سأتكلم ، لن أخفي شيئاً . لقد ذهبت جروشنكا الى لقاء ضابطها في موكرويه .

صرخ ميتيا يسألها :

ــ أي ضابط ؟

فأسرعت تجيبه :

ــ الضابط الذي عرفته في الماضي ، منذ خمس سنين ... الضابط الذي تركها وسافر .

أعتق ميتيا عنق فينيا • ولبث أمامهــا لحظة لا ينطق بكلمة ، وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموت، وعبّرت نظرته عن أنه أدرك الحقيقة الآن على حين فجأة ، وأنه فهم كل شيء وحزر كل شيء دفعة واحدة. ولكن فينيا المسكينة لم يخطر ببالها في تلك اللحظة أن تلاحظه لتعلم هل أدرك الحقيقة فعلاً أم هو لم يدركهــا • لقد ظلت جالســة على صــندوق كما كانت حين وصول ميتيا ، ولبثت ترتعش جامدة على ذلك الوضع نفســه مادّة ذراعيها كأنما لتحمي نفسها • وكانت عيناها اللتان اتسعت حدقتاهما من الجزع تحدقان الى ميتيا الذي كانت يداه حمراوين من الدم ، وكان ميتيا أثنــاء الطريق قد اضطر أن يمسح بيديه العــرق الذي كان يتصبب من وجهه ، فكانت بقع الدم تُرى كذلك على جبينه وعلى خده اليمنى • وشعرت فينيا أنها توشك أن تصــاب بنوبة عصـــبية • وكانت العجوز الطباخة التي وثبت عن مكانها تنظر الى المشهد مذعورة النظرات ، نصف مجنونة من شدة الهلع • وبعد دقيقة من صمت تهالك ميتيا على كرسي قرب فينيا •

كان ميتيا لا يفكر • انه الآن أقرب الى أن يكون خائفا مذهولاً • كان كل شيء قد اتضح : انه ذلك الضابط • وكان ميتيا على علم بوجود هذا الضابط مع ذلك وكان لا يجهل أنه كتب الى جروشنكا منذ شهر ، وقد عرف ذلك من جروشنكا نفسها • فخلال شهر اذن ، خلال شـــهر كامل ، ظلت هذه المؤامرة تدبر من وراء ظهره ، الى أن وصل الخصم الجديد ، دون أن يكون ميتيا قد اهتم بهذا الأمر أو اكترث له أو قلق منه • كيف أمكنه أن لا يفكر في هذا الضابط يوماً ، ولماذا نسيه نسياناً تاماً بعد أن رأى رسالته ؟ كان هذا الســـؤال يعذب ميتيا كأمر عجيب غريب ، ويبعث في نفسه خوفاً ورعباً •

وهاهوذا ميتيا يخاطب فينيا على حين فجأة برقة ولطف وكياسة ،

كطفل طيب خجول ، دون أن يتذكر كيف داهمها وقسا عليها منذ لحظات . أخذ يلقى عليها أسئلة واضحة دقيقة يُستغرب صدورها عن رجل فى مثل حالته فكانت فينيا تجيبه عن كل سؤال بلطف عظيم وبشاشة كبيرة ، رغم أنها لم تستطع أن تحوّل بصرها المذعور عن يديه الداميتين، حتى لقد بدا عليها أنها تحرص على أن لا تكتمه شيئاً وأن لا تخفى عنه شيئاً . ولاح شيئاً فشيئاً أنها تجد مسرة فى أن تكشف له عن جميع التفاصيل ، لا بقصد ايلامه ، بل عن رغبة صادقة منها فى أن تكون نافعةً له . قصت عليه أحداث النهار تفصيلاً ، وذكرت له زيارة راكيتين وأليوشا ، وحكت له كيف أنها كُلّفت بالترقب والترصد ، وروت له سفر جروشنكا ، وردّدت على مسامعه التحيات التى حرصت المرأة الشابة على أن تكلف أليوشا من النافذة بأن ينقلها اليه ، بغية « أن يتذكر على مدى حياته الساعة التى أحبته فيها » . فلما وصلت فينيا الى هذه النقطة من حديثها ابتسم دمترى ، واحمر خداه الشاحبان بضع ثوان. وتجرأت فينيا عندئذ فسألته دون خوف فى هذه المرة :

ـ لماذا أرى يديك ملوثتين بالدم يا دمترى فيدوروفتش ؟

فأجابها ميتيا ذاهلاً :

ـ آ ... نعم ... صحيح .

وألقى على يديه نظرة ذاهلة .

ولكنه سرعان ما نسى السؤال الذى أُلقى عليه ، وغرق فى الصمت . لقد انقضى نصف ساعة على وجوده هنا . ان الرعب الذى اجتاحه قبل بضع لحظات قد تبدد الآن ، وبدا على ميتيا أن قراراً حازماً لا رجعة عنه قد استولى عليه وحلّ محل ذلك الرعب . وها هوذا ينهض فجأة ويبتسم حالمَ النظرة ذاهل اللب شارد الفكر .

سألته فينيا وهى تشير الى يديه :

ـ ماذا وقع لك يا سيدى ؟

وكانت فينيا تتكلم بلهجة فيها عطف وشفقه ، كأن ميتيـــا ليس له أحد أقرب منها اليه فى لحظة الشقاء هذه التى يمر بها •

نظر ميتيا مرة أخــرى الى يديه • ثم أجابها وهو ينظر اليها نظرة غريبة :

ـ هو دمٌ يا فينيــا ••• دم انســـانى ••• الله وحده يعــرف لماذا سُفح هذا الدم ••• ولكن اعلمى يا فينيا أنه يوجد هنالك سور عالٍ (وكان ميتيا ينظر اليها فى تلك اللحظه نظرة من يلقى عليها «فزورة»)، سور رهيب ••• وغداً ، عند الفجر ، حين تبدأ الشمس مسيرتهـــا ، سيقفز ميتيا ذلك السور ••• انك لا تفهمين يا ميتيا أى سور أعنى ••• لا ضير ••• ســـتعرفين ذلك غداً ، وســـتفهمين عندئذ كل شىء ••• أما الآن ، فوداعاً ! لن أكون عقبةً فى طريق سعادتها ، ســأعرف كيف أمحى ••• عيشى واسعدى يا فرحتى ، يا ضـــيائى ••• لقد أحببتنى ساعة ، ولسوف تتذكرين ميتكا كارامازوف طوال حياتك ••• تعلمين أنها كانت تنادينى ميتكا !

قال ميتيا هذه الكلمات وخرج من المطبخ فظهر على فينيا أن انصرافه هذا قد أرعبها أكثر مما أرعبها وصوله حين اقتحم الغرفة وهجم عليها •

وبعد عشر دقائق تماماً كان دمترى فيدوروفتش يمثل أمام بطرس ايلتش برخوتين ، الموظف الشاب الذى استودعه المسدسين رهنـــاً • كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف ، وكان بطرس ايلتش قد احتسى الشاى ، وارتدى ردنجوته ليمضى يلعب البليـــاردو قليلاً فى كاباريه

« العاصمه الكبرى » ••• وصل اليه ميتيا فى اللحظة التى كان يهم فيها أن يخرج • فما ان رأى الشاب يديه الداميتين حتى صرخ مدهوشاً •

ـ ماذا وقع لك ؟

ـ لا شيء ! جئت أردُّ اليك مالك واسترد المسدسين • لقد قدمت لى خدمة كبيرة أنا مستعجل جداً يا بطرس ايلتش ، فلا نضيعن الوقت•

كانت دهشة بطرس ايلتش ما تنفك تزداد : ذلك أنه رأى فى يدى ميتيا كدسة أوراق نقدية ، وأغرب ما فى الأمر أن ميتيا كان يمسك كدسة الأوراق النقدية كما لا يمسكها أحد : كان قابضاً عليها بيده اليمنى التى يقدمها الى أمام كأنما ليعرضها • وقد صرّح الخادم الشاب الذى يعمل فى منزل الموظف ، صرّح فيما بعد أن دمترى فيدوروفتش قد دخل المنزل وهو على هذه الحال ، وأن أغلب الظن اذن أنه كان فى الشارع أيضاً يحمل حزمة الأوراق النقدية (وهى أوراق من فئة المائة روبل) بيده على هذه الصورة بحيث يراها الناس بسهولة •

كان ميتيا يشد على الأوراق النقدية بأصابعه المدماة • وقد ذكر بطرس ايلتش للأشخاص الذين سألوه فيما بعد عن المبلغ هل هو ضخم، ذكر أن من الصعب تقديره بالنظر وحده ، وأن من الجائز أن يبلغ ألفى روبل وربما ثلاثة آلاف روبل ، غير أن الكدسة كانت كبيرة على كل حال ، كانت سميكة جداً • أما دمترى فيدوروفتش فلقد كان ، كما ورد فى الشهادة التى أدلى بها هذا الموظف الشاب فيما بعد ، « فى حالة غير طبيعية ، ولكنه لم يكن ثملاً ، وانما كان شديد الاندفاع ، عميق الذهول، رغم أن منظره يُشعر فى الوقت نفسه بأنه كان يركز ذهنه على فكرة تشغله ، فهو يبدو مفكراً باحثاً عن حل لا يفلح فى الوصول اليه • وكان عدا ذلك مستعجلاً جداً ، وكان يجيب بأجوبة مباغتة ، وجمل قصيرة ، غريبة • وكان يمكن أن يُظن فى بعض اللحظات أنه فرح لا حزين » •

صاح بطرس ايلتش يسـأل من جديد وهو يتفرس فى زائره مذهولاً :

ــ ولكن ماذا بك ؟ ماذا فعلت حتى تلطخت بالدم هذا التلطخ كله ؟ أتراك سقطت على الأرض ؟ أنظر الى نفسك فى المرآة •

قال له ذلك وأمسكه من كوعه ودفعه نحو مرآة •فلما رأى ميتيا وجهه دامياً ارتعش وقطب حاجبيه • ودمدم يقول حانقاً :

ــ هه ! لم يكن ينقص الا هذا •••

وأسرع ينقـل الأوراق الماليـة من يدها اليمنى الى يده اليسرى ، وأخرج منديله من جيبه بحـركة متشنجة • كان هذا المنديل (الذى استعمله ميتيا فى مسح وجه جريجورى) ملطخاً بالدم ، وكانت طياته قد التصقت بعضها ببعض التصاقاً قوياً فلم يفلح ميتيا فى فضها ، فرمى المنديل على الأرض غاضباً وهو يسأل بطرس ايلتش قائلاً :

ــ أليس عندك خرقة ••• أمسح بها ؟

ــ تمسح ؟ أأنت تلوثت بالدم تلوثاً فحسب ؟ ألست جريحاً اذن ؟ اذا كان الأمر كذلك فتعال اغتسل • سأعطيك طشت ماء •

ــ شكراً •• ولكن أين أضع هذا ؟

قال ذلك وهو يشير الى حزمة الأوراق المالية ، سـائلاً بطرس ايلتش بنظراته كأن بطرس ايلتش هو الذى يقع على عاتقه أن يقرر ماذا يفعل ميتيا بماله • قال بطرس ايلتش :

ــ ضع المال فى جيبك ••• أو ضـعه على المائدة هنا ••• فلن يأخذه أحد •

ــ فى جيبى ؟ طبعا فى جيبى ••• عظيم •••

ثم صاح يقول فجأة كأنه يخرج من ذهوله :

ـ هذا كله سخيف ! ••• لا ••• يجب أن نسوّى تلك المسألة أولاً ••• هات المسدسين ••• اليك المال ••• اننى فى حاجة ماسة الى المسدسين ••• وأنا مستعجل جداً ••• ليس هناك لحظة أستطيع أن أضيعها •

قال ذلك ومدّ الى الموظف ورقةً بمائة روبل كانت أولى أوراق الحزمة • فقال له بطرس ايلتش :

ـ لا أستطيع أن أبدلّها لك ••• أليس معك نقود صغيرة ؟

فأجابه ميتيا :

ـ لا •••

ولكنه جس ورقتين أخريين أو ثلاث ورقات أخرى كأنه غير متأكد من صحة جوابه ، ثم أضاف :

ـ لا ••• ليس عندى أوراق صغيرة ••• هى جميعاً واحدة •

قال ذلك ونظر الى بطرس ايلتش مرتبكاً •

سأله الموظف الشاب :

ـ من أين جاءتك هذه الثروة كلها ؟

ثم أضاف يقول :

ـ انتظر ! سأرسل الصبى الى مخزن آل بلوتنيكوف • انهم يغلقون متجرهم فى ساعة متأخرة ، وسيبدلون لنا هذه الورقة • هيه ! ميشا !

كذلك نادى الصبىّ وهو يفتح الباب •

هتف ميتيا يقول فيما يشبه الالهام المباغت :

ـ مخزن آل بلوتنيكوف ؟ فكرة رائعة •••

ثم قال يخاطب الصبي الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة :

ـ ميشا ؟ أركض الى متجر آل بلوتنيكوف * ، وقل لهم ان دمتري فيدوروفتش يبلغكم تحياته ، وانه سيجيء اليكم بنفسه بعد قليل ••• وقل لهم أيضاً هذا : أن يحضروا شمبانيا بانتظار وصولي اليهم • نعم ••• ثلاث دستات شمبانيا ••• وليحزموها كما فعلوا في المرة الأخيرة حين سافرت الى موكرويه ••• لقد طلبت يومئـذ أربع دستات (كـذلك أضاف يقول فجأة وهو يلتفت الى بطرس ايلتش) • وهم يعلمون على كل حال ، يا ميشا ••• لا تهتم بشيء (هكذا استأنف كلامه مخاطبـاً الصبي) ••• ها نعم ! قل لهم أيضاً أن يضـيفوا جبنـاً ، وفطائر من ستراسبورج ، وأسماكاً مدخنة ، وشرائح من فخذ الخنزير ، وكافياراً ، أي شيئاً من كل ما عندهم في مخزنهم ، بحيث يكون ثمن المجموع مائة أو مائة وعشرين روبلاً كما في المرة السـابقة ••• وقل لهم كذلك أن لا ينسوا الملبس والسكاكر الذوابة والكمثرى ، وبطيختين أو ثلاثاً ••• لا بل تكفي بطيخة واحدة ••• ولكن لا بد في مقابل ذلك من شوكولاتة وسكر شعير ، وفاكهة مربية وكارامل لين ، تماماً كالمرة الماضية ؟ فيكون الثمن مع الشمبانيا حوالى ثلاثمائة روبل ••• تماماً كالمرة السابقة ••• هل ستتذكر ياميشا ؟ أليس اسمه ميشا ؟ (وجـّه هذا السؤال الى بطرس ايلتش) •

قال بطرس ايلتش الذي كان يصغي اليه ويلاحظه قلقاً :

ـ لحظة ! ••• أليس الأفضل أن تأمرهم أنت باعداد الأشـياء ؟ لا شك أن الصبي سيخطيء •

ـ سيخطيء ، سيرتبك ! أوه ! ميشا ! كنت أريد أن أقبّلك منـذ

الآن شكراً لك ••• اسمع : اذا لم تخطىء فى تنفيذ المهمة ، فلك منى عشر روبلات • هيا أسرع ••• لا تنس الشمبانيا خاصـــةً ، يجب أن يحضّروا كثيراً من الشـــمبانيا ••• وكذلك من الكونيـاك ••• أبيض وأحمر ••• تماماً كالمرة الســـابقة • هم يعرفون ما طلبته فى المرة السابقة •

قاطعه بطرس ايلتش قائلاً وقد نفد صبره :

ــ هلاّ تركتنى أتكلم آخر الأمر ؟ أعود فأقول لك : حسبُ الصبى أن يجيئنا بالنقود ، وأن يوصيهم بأن لا يغلقوا متجرهم قبل وصولك • وستذهب اليهم فوراً ، فتعمل ما يجب بنفسك • اعطنى هذه الورقة ••• والآن هيّا يا ميشا ، وأسرع ••• فهمت ؟

يبدو أن الموظف كان حريصاً على أن يسرع فى صرف ميشا الذى كان ينظر محملق العينين الى الزائر الذى تلطخت يداه وتلطخ وجهه بالدم وحملت أصابعه المرتعشة حزمة من الأوراق المالية • كان الغلام واقفاً أمام ميتيا فاغر الفم ، ولعله لم يفهم شيئاً مما كان يقال له •

فلما انصرف الغلام قال بطرس ايلتش بلهجة جافة :

ــ والآن تعال اغتسل • ضع المال على المائدة أو ضعه فى جيبك ••• هكذا ••• اقترب ••• اخلع عنك هذا الردنجوت !

وســاعده فى خلع الردنجوت ، فاذا هو يصيح فجـأة من جديد قائلا :

ــ أنظر ••• الردنجوت أيضاً ملوث بالدم •

ــ ليس هو ••• ليس هو الردنجوت ••• الكمّ وحده اتســـخ قليلاً فى هذا الموضع ••• وهنا أيضاً ••• ذلك لأننى هنا انما دسست

المنديل ، فنضح الدم ••• ولا بد أننى قعدت عليه عند فينيا ، فرشح الدم من الجيب •

كذلك راح ميتيا يشرح الأمر فى سورة من ثقة عجيبة • فقطب بطرس ايلتش حاجبيه • وقال متذمراً :

ـ هأنت ذا دبرت أمرك ! أتراك اقتتلت مع أحد ؟

وابتدأ التنظيف • تناول بطرس ايلتش جرةً وأخذ يسكب الماء• فكان ميتيـــــا من فرط تعجله لا يحسن « تصبين » يديه (كانت يداه ترتعشان ؛ تذكر بطرس ايلتش ذلك فيما بعد) ، فأمره الموظف الشاب بأن يعيد الكرة فيصبّن يديه من جديد • كان الموظف فى تلك اللحظـة يسيطر على ميتيا ، وكان سلطانه عليه يقوى شيئا بعد شىء • يحسن أن نشير هنا الى أن هذا الشاب لم يكن خجول الطبع •

ـ أنظر : لقد نسيت أن تنظف ما تحت الأظافر • وادلك وجهك الآن • أكثر من هذا ! هنا على الصدغين ، وقرب الأذن أيضاً ••• هل تنوى أن تنصرف لابساً هذا القميص ؟ والى اين تريد أن تذهب ؟ ألا ترى أن الكم اليمنى ملأى بالدم ؟

فقال ميتيا وهو يفحص الكم :

ـ حقا ! انها ملطخة •

ـ بدّل اذن ملابسك الداخلية •

ـ لا يتسع وقتى • ســـأدبر هذا الأمر : أثنى طرف الكم نحو الداخل ، فلا يرى الدم ••• هكذا •••

كذلك أجاب ميتيا بتلك الثقة نفســها ، وهو يجفف وجهـه ويديه ويرتدى ردنجوته •

ـ قل لى الآن ما وقع لك ؟ هل اقتتلت مع أحد ؟ مع من اقتتلت ؟ أفى الكاباريه ، كما حدث هذا من قبل ؟ أتراك اقتتلت مرة أخرى مع ذلك الكابتن نفسه الذى جررته الى الشارع وأخذت تضربه ضرباً مبرحاً؟ (ذكر بطرس ايلتش ذلك المشهد بلهجة لائمه) • من ذا ضربت اليوم ••• أم تراك قتلت أحداً ؟

ـ سخافات !

ـ سخافات ؟ ماذا تعنى ؟

قال ميتيا :

ـ دعك من هذا الأمر •

ثم استدرك يقول مبتسماً وقد ثاب الى نفسه :

ـ دست امرأة عجوزاً فى الميدان •

ـ دست امرأة عجوزاً •

ـ بل رجلاً عجوزاً •

كذلك صحّح ميتيا أجابته ضـــاحكاً ، وصارخاً كأنه يكلم رجلاً أطرش • وكان يسدد نظراته الى عينى بطرس ايلتش •

ـ رجل عجوز ••• امرأة عجوز ! ••• أصبحت لا أفهم ! ••• أتراك قتلت أحداً ؟

ـ لا بل تصالحنا • تضاربنا في أول الأمر ثم تصالحنا بعد ذلك • حدث ذلك هناك • وافترقنا صديقين • ثم انه غبى أبله ••• أوه ! لقد غفر لى وعفا عنى ••• لابد أن يكون قد صفح عنى فى هذه الساعة ••• ولو قد نهض ، لما أمكن أن يغفر لى ••• هه ••• فليذهب الأبله الى

الشيطان ! هل تسمعنى يا بطرس ايلتش ؟ فليذهب الى الشيطان ! لا أريد أن أهتم به بعد الآن ، لا أريد أن يخطر ببالى فى هذه اللحظة !

كذلك صاح ميتيا يقول بلهجة قاطعة • قال بطرس ايلتش :

ـ لا أحب أن أكون كثير الفضول ••• ولكن أية لذة تجد فى التشاجر مع أول قادم ؟ ••• وفى سبيل ترهات وسفاسف ، كما حدث مع ذلك الكابتن ؟ تقتتل ثم تمضى تلهو وتقصف ، ذلك طبعك حقاً ! ثلاث دستات شمبانيا ! أين تقدر أن تشرب هذا كله ؟

ـ أعطنى المسدسين بسرعة • أنا مستعجل جداً ، أحلف لك ! كنت أود لو أثرثر معك يا عزيزى ، ولكن ليس فى وقتى متسع • ثم فيم الثرثرة ؟ لقد فات أوان الكلام الآن • آه !••• ولكن ! أموالى ، أين أين وضعتها ؟

كذلك هتف يقول وهو يفتش جيوبه واحداً بعد آخر •

ـ أموالك على المائدة ••• هناك ••• وضعتها على المائدة بنفسك• هل نسيت ؟ لكأن المال ليس له أى شأن عندك حقاً ! أما مسدساك فهاكهما • انى لأستغرب أن تكون قد رهنتهما لاقتراض عشر روبلات عند العصر ، ثم اذا بك تقبض بيديك الآن على ألوف • كم معك على وجه الدقة ؟ ألفان ، ربما ثلاثة آلاف ؟

أجاب ميتيا ضاحكاً :

ـ ثلاثة آلاف •

ودس الحزمة فى جيب سرواله •

ـ سوف تضيعها هكذا ؟ أتراك اكتشفت منجم ذهب ؟

صـــــاح ميتيـــا يقول بصوت قوى وهو ينفجر بضحك صاخب مجلجل :

ـ مناجم ، مناجم ذهب ! هل تهمك المنـــاجم يا عزيزى الشهم برخوتين ؟ اننى أعرف هنا سيدة تعطيك ثلاثة آلاف روبل على الفور اذا أنت مضيت باحثاً عن المناجم • لقد أعطتنى أنا ثلاثة آلاف روبل ، فالى هذا المدى يذهب جنونها بالمناجم ! هل تعرف السيدة هوخلاكوفا ؟

ـ أعرفها بالنظر ، وبالسمعة أيضاً • أهى التى أعطتك الثلاثة آلاف روبل ؟ أعطتكها هكذا ؟

كذلك سأله بطرس ايلتش وقد بدا فى وجهه أنه لم يصدق زعم صاحبه •

ـ اذا كنت لا تصدق ما أقول فاذهب اليها غداً منذ الفجر ، ساعة يرتقى فيبوس قبة السماء مسبحاً بحمد الرب ممجداً عظمته بشـــبابه الخالد • اذهب اليها فاسألها ألم تعطنى ثلاثة آلاف روبل ، وســـوف تعلم •

ـ لا أتدخل فى علاقاتك • وما دمت تؤكد ذلك جازماً فلا بد أن يـكون صحيحاً ••• ولكنـك ما ان استلمت المبلغ حتى أخـذت تلهو وتقصف وتبدد ، بدلاً من أن تذهب الى سيبيريا ! ••• الى أين تنوى أن تذهب فى هذه الساعة ؟

ـ الى موكرويه •

ـ الى موكرويه ؟ ايلاً ؟
قال ميتيا فجأة :

ـ كان العالم ملك يمينى ، فأصبحت لا أملك الآن شيئاً !

ـ لا تملك شيئاً ؟ وهذه الثلاثه آلاف روبل ؟

ـ لا قيمة لها عندى ! ألا فليذهب المال الى الشيطان ••• وانما أنا أتكلم عن طبع النساء •••

فكر النساء سريع التصديق *
وقلبهن كثير التقلب فاسد

ان أوليس هو الذى قال هذا ، وأنا أوافقه فى الرأى كل الموافقة•

ـ لا أفهمك •

ـ أظن أنك تحسبنى ثملاً ؟

ـ لا ثملاً ، ولكن ربما أسوأ من ذلك •

ـ أنا ثمل بالمعنى المجازى يا بطرس ايلتش ، لأن روحى هى السكرى • ولكن كفى هذا الآن •••

ـ ماذا تفعل ؟ أتحشو مسدسك ؟

ـ نعم أحشوه •

كان مينيا قد فتح علبة المسدسين فعلاً ، فبعد أن سكب بارودا فى خرطوشة ، دس الخرطوشة فى المسدس ؛ وقبل أن يضع الرصاصة فى السبطانة ، أمسكها بين اصبعين وأخذ ينعم النظر اليها فى ضوء الشمعة •

سأله بطرس ايلتش الذى كان يراقبه بفضول قلق :

ـ لماذا تنظر الى الرصاصة ؟

ـ هى نزوة لا أكثر ••• لو كنت تنوى أن تُسكن هذه الرصاصة فى دماغك ، أفما كنت تنظر اليها حين تحشو المسدس ؟

ــ أنظر اليها ؟ لماذا ؟

ــ ما دامت ستنفذ في جمجمتي أنا ، فانه ليهمني أن أرى هيئتهـا قليلاً ! ... هذه سخافات أقولها على كل حال ، لا أدري ماذا أصابني.

ثم أضـــاف يقول بحرارة وهو يدخل الرصـــاصة ويرسخّها بالمشاقة :

ــ انتهى ! ما هذا كله الا ســــخافات يا عزيزي بطرس ايلتش ، سخافات لا أكثر ... ليتك تعلم مدى ما في هذا كله من غباء . أعطني ورقة بسرعة !

ــ هذه ورقة .

ــ بل أريد ورقاً نظيفاً أكتب عليه . هذا يصلح على كل حال .

وتناول ميتيا ريشةً من على المنضـدة ، فكتب على الورقة سطرين بسرعة ، وطوى الورقة أربعة أرباع ، ودسَّها في أحد جيوب صديرته . وبعد ذلك أعاد المسدسين الى العلبة ، وأقفلها بالمفتاح واحتفظ بهـــا في يده . ثم راح ينظر الى بطرس ايلتش ملياً ، وهو يبتسم ابتسامة حالمة . وقال :

ــ والآن أمضي ؟

ــ الى أين ؟ قف ! ألعلك تفكر فعلاً في ارسال هذه الرصاصة الى رأسك ؟

كذلك سأله بطرس ايلتش متدخلاً ، وقد اشتد قلقه .

ــ هذه الرصاصة ؟ يا للغباء ! ألا فاعلم أنني أريد أن أحيا ، لأنني أحب الحياة ! انني أعظم حباً لفيبوس وضفائره الذهبية وحرارته من أن

يخطر ببالى الانتحار ••• قل لى يا عزيزى بطرس ايلتش : هل تستطيع أنت أن تمّحى ؟

ــ أن أمحى ؟ ماذا تعنى ؟

ــ نعم أن تمّحى ، أن تزول من الدرب • أن تخلى الساحة للانسان الذى تحبه والانسان الذى تكرهه ؟ وأن تحب حتى ذلك الذى كان عليك أن تكرهه ••• أن تبتعد عن طريقهما قائلاً : « هنيئا اسعدا ، وليحرسكما الله ، أما أنا فسوف •••

ــ سوف •• ماذا ؟

ــ لا شىء ! فلأمض •••

ــ أحسب أننى سأبلغ أقرباءك ليمنعوك من السفر • ماذا عساك فاعلاً فى موكرويه ؟

كذلك قال بطرس ايلتش وهو يتفرس فى ميتيا • فأجابه ميتيا :

ــ فى موكرويه امرأة ••• امرأة ••• هأنت ذا عرفت الآن مافيه الكفاية يا بطرس ايلتش ! حسبك هذا !

ــ اسمع لى : أنت انسان متوحش ، ولكنك كنت دائماً محبباً الى قلبى • فأنا الآن شديد القلق عليك •••

ــ شكراً يا أخى ! أتقول اننى متوحش ؟ هذا صحيح ! ذلك ما كنت أدعيه دائماً : متوحشون ، متوحشون ••• آ ••• هذا ميشا قد عاد • كنت قد نسيته •

وصل ميشا لاهثاً يحمل النقود • فذكر أن آل بلوتنيكوف قد «هبوا يتحركون ويعملون » ، فهم يحملون الزجاجات ويهيئون السمك ويجلبون الشاى ، وأن كل شىء سيكون قد تم اعداده بعد بضع دقائق •

تناول ميتيا ورقة ماليه بعشرة روبلات ، ومدّها الى بطرس ايلتش ، ورمى للصبى ورقة أخرى بتلك القيمه نفسها •

ـ مستحيل ! لا أسمح لك بأن تعطيه « بقاسيش » فى دارى • فان ذلك سيفسده • أعد هذا المال الى جيبك ولا تبدده • قد تحتاج اليه فى القريب • اننى لأتنبأ بأن تعود الىّ منذ الغد لتستدين عشرة روبلات ••• ولكن لا ••• لا تدسّ جميع هـــذه الأوراق فى جيب السروال ، والا ضاعت منك !

ـ هيه يا صديقى ! ليتنا نذهب الى موكرويه معاً • ما رأيك ؟

ـ ما ذهابى أنا الى هناك ؟

ـ اسمع ! سنفتح احدى الزجاجات لنشرب تمجيـداً للحيـاة • اننى فى حاجه الى شرب شىء من السمبانيا • فلنشرب معاً ! أظن أننا لم نشرب معاً فى يوم من الأيام ! وأنا أحرص على هذا وأصر عليه !

ـ لك ما تشاء ! فلنذهب اذن الى الكاباريه • لقد كنت أنوى أن أذهب الى هناك •

ـ لا الى الكاباريه ! ليس فى وقتى متســـع • سنشرب عند آل بلوتنيكوف ، فى الحجرة التى وراء الدكان • سألقى عليك « فزورة » ، هل توافق ؟

ـ ألقها •

أخرج ميتيا من جيب صديرته الورقة التى كان قد طواها ووضعها فيها ، ففض الورقة وأطلع عليها الموظف الشاب • فقرأ هذا الجملة التالية التى كتبها عليها ميتيـــا بأحرف كبيرة : « اننى أعاقب نفسى مكفّراً عن حياتى كلها ، وأقبل هذا العقاب » •

قال بطرس ايلتش بعد أن قرأ الجملة :

ـ أحسب حقاً أن عليّ أن أبلغ أقاربك ! سأقوم بهذا !

ـ لن يتسع وقتك يا عزيزى ! هلمّ نشرب ! ذلك أفضل !

يقع متجر آل بلوتنيكوف فى ناصية الشارع قريباً جداً من دار بطرس ايلتش • انه أكبر « بقالية » فى المدينة ، وهو مشروع تجارى مزدهر ناجح يحسن أصحابه ادارته ؛ وفى هذا المتجر يباع كل شىء ، كما فى المخازن الكبرى بالعاصمة : خمور من « أقبية الاخوة السيف » ، فاكهة ، سيجار ، شاى ، سكر ، بن ، الخ • وفيه يعمل ثلاثة مستخدمون مقيمون ، وغلامان متجولان يحملان السلع الى منازل الزبائن • لقد أصيب اقليمنا بفقر شديد ، وغادره أثرياء المالكين ، وبارت التجارة فيه ، ولكن مخازن البقالة ظلت مزدهرة ، حتى ليمكن القول انها تزداد ازدهاراً سنةً بعد سنة : ان السلع التى من هذا النوع لا تعدم من يشتريها فى كل زمان •

كان آل بلوتنيكوف ينتظرون وصول ميتيا الى مخزنهم نافدى الصبر ، لأنهم يتذكرون ما اشتراه منذ بضعة أسابيع من سلع كثيرة ، اذ ابتاع ، دفعةً واحدة ، من الخمور والبضائع ما بلغت قيمته بضع مئات من الروبلات عداً ونقداً (وما كان لهم بطبيعة الحال أن يبيعوه شيئاً بالدين) ؛ وهم لم ينسوا أيضاً أنه كان يحمل بيده ، كما فى هذه المرة ، حزمة أوراق مالية ضخمة ، وأنه كان يرميها لهم دون أن يساوم ودون أن يفكر فى فائدة تلك السلع الكثيرة التى اشتراها • وقد رُوى بعد ذلك فى المدينة كلها أنه « حين ذهب الى موكرويه بصحبة جروشنكا ، قد أنفق فى ليلة واحدة وفى النهار الذى أعقب تلك الليلة مبلغ الثلاثة آلاف روبل كله ، ثم عاد من ذلك القصف بغير قرش واحد فى جيبه ، كما ولدته أمه

تماماً » • ذلك أنه قد استأجر فرقة من الغجر (كانوا يعسكرون أيامئذ على مقربة من بلدتنا) ، فرتب هؤلاء أمرهم بحيث يسلبونه مئات ومئات من الروبلات ، ومن أجل أن يمتحوا أعداداً كبيرة من الزجاجات ، مستغلين سكره • وقد روى الناس أيضاً ، في معرض السخر من ميتيا ، أنه قدم شمبانيا لفلاحي موكرويه ، وأنه أشبع بنات الحي فطائر ستراسبورجية وأنواعاً من الحلوى • وكان الناس يتندرون أيضاً ، ولا سيما في الكاباريه (ولكن لا بحضور ميتيا ، والا تعرضوا للمخاطر) ، كانوا يتندرون بتلك الواقعة التي ذكرها هو نفسه على رءوس الأشهاد ، وهي أنه لم يحظ من جروشنكا ، من قبيل المكافأة له على تلك الرحلة ، الا بقبلة من قدمها ، ولا شيء غير ذلك » •

حين اقترب ميتيا وبطرس ايلتش من البقاليه وجدا على بابها مركبة ترويكا مجهزة تماماً ، مزينه العدة بأجراس ومفارش ، وعربة مزودة بغطاء مريح • وكان الحوذي آندره ينتظر ميتيا متربعاً على مقعده وكان في الدكان منذ ذلك الحين صندوق خشبي كبير قد ملئ تقريباً بالسلع التي أمر بها ميتيا ، وكان أصحاب المتجر لا ينتظرون الا وصول ميتيا لتسمير الصندوق ووضعه في العربة •

دهش بطرس ايلتش ، فسأل ميتيا :

ــ من أين جاءت مركبة الترويكا هذه ؟

فأجابه ميتيا :

ــ لقد التقيت بآندره حين كنت آتياً اليك ، فأمرته بأن ينتظرني مع الخيول أمام البقالية • فلقد كان علي أن لا أضيع وقتاً • ان تيمودي هو الذي قادني في المرة السابقة ، ولكنه سافر في هذا المساء مع ساحرة ، دون أن يحفل بي ••• ترالالا ••• هل سنتأخر كثيراً يا آندره ؟

أسرع آندره يجيب :

ـ لن يسبقونا الا ساعة واحدة فى أكثر تقدير •• بل أقل من ذلك ! ••• ساعة قصيرة ! لقد قرنت خيول تيمودى بنفسى ، وأنا أعرف سرعتها • لأقودنَّك بسرعة غير تلك السرعة يا دمترى فيدوروفتش ! هل تظن أنهم يمكن أن يقاسوا بنا ؟ لن يصلوا قبلنا بساعة كاملة •

كذلك قال آندره مؤكداً بحرارة ، وهو وجل ما يزال شاباً ، أحمر الشعر ، جاف الجلد ، يرتدى قميصاً ويحمل قفطانه على ذراعه •

ـ لك منى خمسون روبلاً « بقشيشاً » اذا لم تتأخر أكثر من ساعة !

ـ اعتمد علىَّ يا دمترى فيدوروفتش• ساعة ؟ سيكون من حقهم أن يعتزوا ويفتخروا اذا هم سبقونا بنصف ساعة ؟

أخذ ميتيا يتحرك فى المتجر فى فوضى مضطربة ، متنقلاً من طلب الى طلب آخر قبل انهاء الطلب الأول • فرأى بطرس ايلتش أن من واجبه أن يتدخل محاولاً تخفيف اندفاعه والحدّ من جنونه •

قال ميتيا آمراً :

ـ أريد أن يكون الثمن اربعمائة روبل على الأقل ، تماماً كالمرة السابقة • أربع دستات شمبانيا ، هل تسمعون ؟ لا أريد أن تنقص زجاجة واحدة !

ـ صرخ بطرس ايلتش :

ـ قف ! ما عساك صانعاً بكل هذا العدد من زجاجات الشمبانيا ؟ ماذا يحتوى هذا الصندوق الخشبى ؟ لا يمكن أن يكون فيه ما يساوى ثمنه اربعمائة روبل •

أسرع المستخدمون يشرحون له ، بلهجه متلطفة ، أن هذا الصندوق الأول لا يحتوى الا ست زجاجات من الشمبانيا ، وانه يحتوى كذلك « الأشياء الضرورية جداً » كالمقبلات ، والملبس ، والحلوى ، الخ ... أما « الغلات » الأساسية فستحزم على حدة ، ثم ترسل كالمرة السابقة على ترويكا أخرى تصل بعد « دمترى فيدوروفتش بأقل من ساعة » .

قال ميتيا ملحاً :

ـ بعد ساعة واحدة ، لا أكثر من ذلك . وستضعون فيها أكبر قدر ممكن من الجاتو والكارامل . ان البنات هناك يعشقن الجاتو والكارامل .

كذلك أضاف يقول بحرارة :

قاطعه بطرس ايلتش يقول شبه غاضب :

ـ أوافق على الكارامل ! ولكن ما عساك صانعاً بأربع دستات من زجاجات الشمبانيا ؟ تكفيك دستة واحدة وتزيد !

وأخذ بطرس ايلتش يساوم ،وطلب أن يرى الفاتورة ، وتحرك كثيراً ، ثم لم يستطع آخر الأمر أن ينقذ الا مائة روبل ، فتقرر أن لايزيد ثمن البضائع المشتراة على ثلاثمائة روبل .

ثم صاح بطرس ايلتش يقول وقد نفد صبره وضاق ذرعاً :

ـ شيطان يأخذكم ! ما أغبانى اذ أتدخل فى هذه الأمور ، وأقحم نفسى فيها ! بدّد مالك كما تشاء ، وارمه من النافذة اذا حلا لك ذلك ، ما دمت قد كسبته بغير جهد !

فقال له ميتيا وهو يجره الى الغرفة التى تقع خلف الدكان :

ـ هدىء روعك يا معلمى ! سيأتوننا الآن بزجاجة ترطب حلقينا !

ل لى يا بطرس ايلتش : لماذا لا تسافر معى ؟ أنت شاب شهم ، وانني أحب أمثالك من الرجال •

جلس ميتيا على مقعد أمام مائدة مغطاة بمفرش غير نظيف • وجلس بطرس ايلتش قبالته ، وجيئا بالشمبانيا • واقترحت عليهما محارات « من نوع فاخر وصلت مؤخراً » ، فقال بطرس ايلتش رافضاً الاقتراح فى غضب :

ـ دعونى من محاراتكم ، فاننى لا أحب المحار •

وقال ميتيا :

ـ لا يتسع وقتنا لأكل المحار ، ثم اننى لا أشتهى أن آكل الآن محاراً •

ثم التفت يقول لبطرس ايلتش وقد تحمس على حين فجأة :

ـ اسمع يا صديقى ، اننى اكره كل هذه الفوضى •

ـ ومن ذا الذى لا يشمئز منها ؟ ثلاث دستات من زجاجات الشمبانيا ••• ولمن ؟ لفلاحين ؟ ألا ان هذا ليثير التقزز ويبعث الغثيان !

ـ ليس هذا ما أعنيه • فانما أنا أقصد الفوضى التى تشوش النظام الأعلى ، نظام النفس ، نظام الروح ! لقد أعوزنى دائما ذلك النظام ••• ليس فى نفسى انسجام ••• ولكن انتهى الآن كل شىء ، فعلام الندم والأسف ؟ فات الأوان ! لا بأس ! ••• لم تكن حياتى كلها الا فوضى طويلة ، وقد آن لى أن أدخل عليها شيئاً من النظام • اننى أستعمل استعارات وكنايات رديئة ، هه ؟

ـ بل قل انك تخرف ! •••

قال ميتيا :

SS

المجد للخالق فى الخلق

المجد للخالق فى نفسى *

لقد نظمت هذا البيت من الشعر فى الماضى ، انبجس منى فى ذات يوم انبجاس دمعة ••• أوه ! لم يكن هو اليوم الذى جررت فيه الكابتن من لحيته !

ـ لماذا تتكلم عن ذلك الكابتن ؟ انه ! •••

ـ لماذا ؟ لماذا ؟ آه ••• ما كل شىء الا دخان ! كل شىء يتبدد ! كل شىء يزول آخر الأمر !

ـ اسمع ! ان مسدسيك يقلقانى •••

ـ ما المسدسات الا دخان ! اشرب ، وكفّ عن قول هذه السخافات! اننى أحب الحياة ••• اننى أسرف فى حب الحياة ، حتى لأخجل من ذلك! كفى ! فلنشرب يا عزيزى ، فلنشرب نخب الحياة ، نخب الحياة ! لماذا أنا معجب بنفسى ! اننى شرير ، ولكننى راض عن نفسى ! ومع ذلك يعذبنى أن أحب نفسى هذا الحب رغم صغارى ودناءتى ! اننى أبارك الخليقة ، واننى مستعد لأن أسبح بحمد الخالق ، وأن أتغنى بعظمته ، ولكن ••• يجب أولاً سحق حشرة خبيثة حتى لا تسمم حياة الآخرين ••• هيه يا أخى ! فلنشرب نخب الحياة ! أى شىء أفضل من الحياة ؟ لا شىء أفضل من الحياة ، لا شىء ! المجد للحياة ، والمجد المكتنى ، ملكة الملكات !

ـ لك ما تشاء ! فلنشرب نخب الحياة ، ولنشرب نخب ملكة قلبك •

وأفرغ كل من الرجلين كأساً • كان ميتيا ، الحذر المهذار فى آن واحد ، يبدو حزيناً ، كأن هماً ثقيلاً يجثم على صدره وليس يستطيع طرده •

ـ ها ... هاهوذا ميشا ، ها هوذا غلامك ميشا قد دخل ! تعال الى هنا أيها الصبى الطيب ! اشرب كأساً معنا ، تمجيداً لفيبوس وضفائره الشقراء ، تمجيداً للشمس التى ستطلع غداً ...

قال بطرس ايلتش محتجاً حانقاً :

ـ أأنت مجنون ؟ أتسقيه هو شمبانيا ؟

فقال ميتيا :

ـ اسمح له بأن يشرب مرةً واحدة ! لسوف يسرنى هذا .

ـ ولكن ... الخلاصة ... ما دمت تصر ! ...

أفرغ ميشا قدحاً ، وسلَّم ثم انصرف .

قال ميتيا :

ـ هكذا سيتذكرنى مدة أطول على الأقل ... اننى أحب المرأة ، أحب المرأة ! ما المرأة ؟ هى ملكة الأرض .. أوه ! اننى أحس بحزن يا بطرس ايلتش ، أحس بحزن رهيب . هل تتذكر ذلك المقطع من مسرحية هملت : « أشعر بحزن يا هوراسيو ، أشعر بحزن شديد ... وا أسفاه ! مسكين يوريك ذاك ! » . لعلنى أنا يوريك ! اننى فى هذه اللحظة بعينها يوريك . وبعد ذلك سأكون الجمجمة .

كان بطرس ايلتش يصغى اليه صامتاً . وصمت ميتيا أيضاً .

ثم اتجه بالكلام فجأة الى المستخدم يسأله شارد اللب وقد رأى فى الركن كلباً صغيراً طويل الشعر متدلى الأذنين أسود العينين :

ـ لمن هذا الكلب ؟

أجاب المستخدم :

SS

ــ هو لفارفارا ألكسييفنا ، صاحبه المتجر • نسيته هنا منذ قليل • سيكون علينا أن نذهب به اليها •

قال ميتيا حالماً :

ــ رأيت فى الماضى كلباً يشبهه كل الشبه ••• كان ذلك فى الكتيبة ••• ولكن ذلك الكلب كان مكسور الساق ••• بالمناسبة يا بطرس ايلتش ، كنت أريد أن أطرح عليك سؤالاً : هل اتفق لك أن سرقت فى حياتك ؟

ــ يالها من فكرة !

ــ افهمنى ! أقصد السرقة الحقيقية ••• أن تأخذ مالاً من جيب شخص آخر ، لا من الدولة ، فجميع الناس يسرقون الدولة ••• هذا شيء معروف ، وأنت أيضاً تسرق الدولة ، لاشك عندى فى ذلك •••

ــ سحقاً لك •••

ــ هل سرقت مع ذلك ؟ من جيب ، أو من محفظة ؟ •••

ــ سرقت فى طفولتى قطعة نقدية بعشرين كوبكاً من أمى • كان عمرى تسع سنين • أخذت القطعة النقدية من على المائدة ، دون أن يرانى أحد ، وأخفيتها فى قبضة يدى •

ــ وبعد ذلك ؟

ــ لا شيء • احتفظت بها ثلاثة أيام ، ثم شعرت بالخجل والعار ، فرددتها معترفاً بالسرقة •

ــ ثم ؟

ــ جُلدت كما أستحق • ولكن لماذا هذه الأسئلة ؟ أتراك سرقت ؟

قال ميتيا وهو يغمز غمزة ماكرة :

ـ سرقت !

فسأله بطرس ايلتش قلقاً :

ـ ماذا سرقت ؟

ـ سرقت عشرين كوبكاً من أبى • كان عمرى تسع سنين • ثم رددتها •

قال ميتيا ذلك ثم نهض فجأة •

صرخ الحوذى آندره يقول من باب المتجر :

ـ آن أوان السفر يا دمترى فيدوروفتش •

ـ هل كل شىء جاهز ؟ هيَّا بنا !

قال ميتيا ذلك ، وأخذ يتحرك هنا وهناك • وأضاف يقول :

ـ بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة ! كأساً من الخمر لأندره ! بسرعة ! واعطوه أيضاً كأس كونياك ! ••• أما العلبة (علبة المسدسات) ، فضعوها تحت المخدات • استودعك الله يا بطرس ايلتش ، ما ينبغى لك أن تؤاخذنى •

ـ ولكنك ستعود غداً ؟

ـ نعم نعم ، سأعود •

قال مستخدم وهو يهرع الى ميتيا :

ـ اسمح لى أن أقدم اليك الحساب •

ـ آ ••• نعم ••• الحساب ••• طبعاً !

أخرج ميتيا من جيبه حزمة الأوراق المالية ، فسلّ منها ثلاث ورقات من فئه المائه روبل ، ورماها على البسطة باهمال ، ثم اتجه مسرعاً نحو الباب ، فرافقه جميع مستخدمى المتجر ، وشيعوه متمنين له رحلة سعيدة وهم ينحنون لها انحناءً كبيراً . وكان آندره قد أفرغ كأساً من الكونياك، فهاهوذا يسعل لينظف حلقه ، ثم يصعد الى مكانه من العربة . ولكن بينما كان ميتيا يهم أن يستقر فى العربة ، انبجست فينيا راكضة لاهثة ، فضمت يديها احداهما الى الأخرى ، وجثت على ركبتيها أمامه ، وهتفت تتوسل اليه قائلة :

ـ سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، ملاكى ، لا تصب الآنسة بسوء ، لا تنلها بأذى ! ألا ما كان أغبانى حين قصصت عليك كل شيء ! ولا تسيء اليه هو أيضاً ، القديم ... لأنه عرفها قبلك . وهو ينوى أن يتزوج أجرافين ألكسندروفنا ، لقد جاء من سيبريا لهذا الغرض ... سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، لا تحطم حياتهما ، لا تسفح دم أخيك الانسان !

قال بطرس ايلتش يخاطب نفسه : « آ ... هذا بيت القصيد فى الحكاية كلها ... ستحدث مشاجرة هناك . استبان الآن كل شيء . أصبح كل شيء واضحاً . » . ثم هتف يقول بصوت عالٍ :

ـ دمترى فيدوروفتش ! أعد الىّ هذين المسدسين فى الحال اذا كنت رجلاً . هل تسمح يا دمترى ؟

فأجابه ميتيا :

ـ المسدسين ؟ لحظة يا عزيزى ... سأرميهما أثناء الطريق فى غدير . وانهضى أنت يا فينيا . لا تركعى أمامى . ان ميتيا لن يقتل ، ان ميتيا ، هذا الصبى الغبى ، لن يحطم حياة أحد بعد الآن .

ثم أردف يقول بعد أن استقر فى المركبة :

ـ اسمعى يا فينيا ، لقد أهنتك منذ قليل ، فأرجو أن تغفرى لى . اغفرى لهذا الشقى البائس ... على أنه يستوى أن تغفرى وأن لا تغفرى ... لم يبق لهـــذا قيمة ... هيًّا يا آندره ، ولتجـر المركبة بأقصى سرعة .

رفع آندره سوطه ، فجلجلت الأجراس .

ـ استودعك الله يا بطرس ايلتش ، لك منى آخر دمعة ! ...

قال بطرس ايلتش يخاطب نفسه وهو يتابع بنظره مركبة الترويكا التى أخذت تبتعد : « ليس بسكران ، ولكن ما أشـــد الاضـطراب فى أقواله » . وقد أراد بطرس ايلتش أن يبقى فى المتجر ليراقب شـــحن الخمور والمئونات على عربة أخرى ، لأنه كان يحس أنهم سيغشـــون ميتيا . ولكنه شعر بحنق على نفسه فجأةً ، لاهتمامه بهذه التفـــاصيل ، وبصق من شدة غضبه ، واتجه نحو الكاباريه ليلعب البلياردو قليلاً كما كان ينوى ذلك .

وقال فى نفسه أثناء الطريق : « انه رجل أبله ، ولكنه طيب » . أما ذلك الضابط ، أما صاحب جروشنكا « القديم » ذاك ، فقد سـبق أن سمعت عنه . هل عاد اذن ؟ ... ولكن ما القول فى المسدسين ، المسدسين ... ألا فليحل الرجلان نزاعهما ... ولن يحدث شىء على كل حال . سيصرخان كثيراً ، وسيسكران ، وسيقتتلان ، ثم يتصالحان . ليســـوا جادين ، لا هؤلاء ولا أولئك ... كلمات جوفاء ! « سوف أتنحى عن طريقهما ... » « اننى أُعاقب نفسى ... » ... دعنا من هذا ! لن يفعل من ذلك شيئاً . لقد ردَّد أقوالاً من هذا النوع مائة مرة فى الـكاباريه حين كان ثملاً . وهو فى هذه المرة لم يشرب « نفسى سكرى ... » ؟

ان جميع أمثاله من القاصمين يحبون العبارات الرنانة الطنانه • أأنا مربيه أخيراً ؟ لقد تشاجر على عادته ، فدمي وجهه • ولكن من ذا الذى تشاجر معه ؟ سأعرف هذا فى الكاباريه حتماً • وذلك المنديل المدمَّى ؟ ••• لقد تركه فى غرفتى ••• ولكن لا قيمة لهذا كله على كل حال ! ما لى ولهذا كله ! » •

وصـل بطرس ايلتش الى الكاباريه معتكر المزاج جـداً ، وأخذ يلعب البلياردو فوراً • وأشرق مزاجه أثناء اللعب شيئاً بعد شيء ، وشرع فى اللعب مرة أخـرى ، وأخذ يقص على أحد ملاعبيـــه أن دمترى كارامازوف أصبح يملك مبلغاً كبيراً من المال مرة أخرى ، وأنه رأى فى يديه بأم عينه ثلاثة آلاف روبل • وأضاف أن ميتيا قد سافر فى هذه المرة أيضاً الى موكرويه ليقصف فيها مع جروشنكا • أصغى السامعون الى هذه الأنباء بفضول شديد ، وسرعان ما أخذوا يتناقشون بحرارة ، دون مزاح، ويتكلمون بلهجة فيها جد عجيب • حتى لقد انقطع لعب البلياردو •

ــ ثلاثة آلاف روبل ؟ من أين جاء بها ؟

أخذ الحضور يمطرون بطرس ايلتش بوابل من الأسـئله • ولم يصدقوا حكاية مناجم الذهب التى اقترحتها السيدة هوخلاكوفا •

ــ أليس من الممكن أن يكون قد سرق أباه العجوز ؟

ــ ثلاثة آلاف روبل ! هذا أمر يثير الاشتباه !

ــ لقد تباهى فى هذا المكان نفسه بأنه سيقتل العجوز ، وسمعه جميع الناس ، حتى لقد تحدث فى تلك المناسبة نفسها عن ثلاثة آلاف روبل ••

كان بطرس ايلتش يصغى ، وأصبحت أجوبته موجزة مقتضبة على حين فجأة ، حتى لكأنه يتهرب من الكلام • ولم ينطق بكلمة واحدة عن الدم الذى رآه على وجه ميتيا ويديه ، رغم أنه كان ينوى أن يتحدث عن

ذلك حين ذهب الى الكاباريه • وبدىء لعب البلياردو مرة ثالثة ، وانصرف الحديث عن ميتيا •

حتى اذا انهت اللعبة الثالثة ، أعلن بطرس ايلتش أنه لا يحب أن يلعب مزيداً من اللعب • ثم وضع عصا البلياردو ، وخرج حتى دون أن يتعشى ، خلافاً لما كان ينتويه • فلما وصل الى الميـــدان توقف لحظة ، وتساءل مدهوشاً منزعجاً كيف أمكن أن يخطر بباله أن يذهب الى دار فيدور بافلوفتش ليعرف هل وقع له شيء • « يا للحماقة ! سأوقظ جميع الناس ، وأحدث فضيحة ، مع أن هذا كله ليس الا تخيلاً ! وما شأني أنا ؟ أأنا خادمهم ؟ » •

وعاد الى منزله حانقاً مزيداً من الحنق • وفجأة خطرت بباله فينيا• قال لنفسه في حسرة : « ما أغباني ! ان فينيا هي الشخص الذي كان يجب أن أسأله ، ولو فعلتُ لقالت لي كل شيء ! »• وشعر عندئذ برغبة قوية في أن يكلمها ، وبلغت هذه الرغبة من القوة انه انعطف فجأة ، وهو في منتصف الطريق الى داره ، فاتجه نحو منزل آل موروسوف الذي تقيم فيه جروشنكا • فلما وصل الى الباب طرقه ، فاذا بالطرقات التي ترجَّعت في صمت الليل ترده فجأة الى الواقع ، واذا بحنقه يشتد لأنه يقوم بمسعى غير لائق• قال في نفسه وهو يشعر بحرج يوشك أن يكون أليماً: «سوف أحدث فضيحة » • ولكنه لم ينصرف ، بل استأنف طرق الباب ، بكل ما أوتي من قوة في هذه المرة • دوَّت طرقات الباب في الشارع كله • فردَّد يقول : « لا ضير ! لسوف أظل أطرق الباب الى أن يفتحوا ! » ، بينما كان سخطه على نفســـه يزداد لدى كل طرقة جديدة • لكنه كان يستأنف الطرق بمزيد من القوة •

٦

هاأنا ذا

كان دمترى فيـدوروفتش يتجـه نحـو موك بسرعة عظيمة • ان المسـافة تزيد قليـلا عشرين فرسخاً • ومن الممكن ، بفضـل عدو خيول آندره ، قطع هذه المسـافة وربع ساعة • وأنعشت سرعة الجرى فكر ميتيا • كان الهواء قوياً ، و نجوم كبيرة تتلألأ فى سماء بلا سحب • فى تلك الليلة ، وربما فى الساعة ، انما تهالك اليوشا على الأرض ، « حالفاً بحـرارة ليحبنَّـ الأبد » • كان ميتيا يشعر بضيق شديد ، ولكن نفسه ، رغم ثقل ال التى تعذبها ، كانت لا تنصرف فى تلك اللحظة الا الى المرأة الحبيبة ملكته التى يتعجل لقاءها ليتأملها مرةً أخيرة • حسبى أن أقرر ما كان لا يخطر ببال ميتيا أن يناضل للاحتفاظ بهذه المرأة • وسواء أص كلامى أم كذبتموه ، فان الحقيقة تجبرنى أن أقول ان هذا الغيور لم يشعر بأية عاطفة من عواطف العداوة نحو القادم الجـديد ، نحو الخصم الذى لم يكن فى حسـبانه ، نحو هذا « الضـابط » الذى حيـاته بهذه القسوة الشـديدة • لو حاول أى انسان آخـر أن محل ميتيا لدى جروشنكا ، لأسرع ميتيا يرد بحنق غيـور مسعر ولتلطخت يداه بالدم من جديد • أما تجاه هذا الانسان الذى هو «

SS

رجل » في حياة جروسنكا فان ميتيا كان لا يشعر بأية غيرة ، ولا بأية عداوة ، أثناء ما كانت مركبه الترويكا تقله الى موكرويه • ولم يكن قد رأى ذلك الرجل بعد • « الأمر واضح • انها على حق • هو أول حب في حياتها ، هو الرجل الذى لم تستطع أن تنســـــاه يوماً خلال خمس سنين • معنى هذا أنها لم تنقطع عن حبه طوال تلك المدة • أما أنا ، فماذا جئت أعمل في حياتها ؟ ما أنا عندها ؟ ابتعد يا ميتيا ! تنحّ عن طريقها ! ثم ما قيمة هذا كله اليـــــوم ، ما دام مصيرى قد تقرر ، ما دام كل شيء سينتهى بالنسبة الى ، حتى ولو يكن هو هناك ، حتى ولو لم يجىء ذلك الضابط ؟ •• » •

بهذه العبارات تقريباً انما كان يمكن أن يعبّر ميتيا عن المشاعر التى كانت تجيش في نفسه ، لو كان قادراً على التفكير في تلك الآونة• ولكن ميتيـا لم يكن يفكر • ان القـرار الذى اتخذه انما وافاه على حين فجأة ، دون أى تفكير ، فاذا هو يقبله دفعةً واحدة مع جميع النتـــائج التى تترتب عليه ، أثناء انفعاله ذاك الذى أيقظه في نفسه ما كشفت له عنه فينيا من أمور • ومع ذلك ما يزال ميتيا يشعر بضيق واختناق ، وما يزال يشعر باضطراب أليم : ان قراره لم يردّ السكينة والطمأنينة والسلام الى نفسه • ان أشياء كثيرة تربطه بذلك الماضى •

كان يقول لنفسه في بعض اللحظات : « ما أغرب هذا ! »

كان ميتيا قد نطق بحكم نهائى على مصيره ، كان قد كتب على ورقة قـوله : « انني أعـاقب نفسى ، وأنا أقبـل هـذا العقاب » ، وان هـذه الورقة موجودة الآن في جيبه ، معدّة لأن تستعمل ؛ وان مسدسه محشو، وهو يعلم حق العلم ما الذى سيفعله في صباح الغد ، حين يطلع «فيبوس ذو الضفائر الذهبية » فيدفىء الأرض من جديد بأولى أشعته • ومع ذلك ••• لم يكن ميتيا يستطيع أن ينفصل عن ذكرياته التى تلازمه وتحاصره

وتعذبه . فكان يقول متألماً : لا سبيل الى النسيان ؟ وكان الشعور بهذه الاستحالة يملؤه كمداً ويأساً . ولقد أوشك في لحظة من اللحظات ، أثناء هذه الرحلة ، أن يأمر آندره بالتوقف ، وأن يفرغ من الأمر كله ؟ يخرج من العربة ، ويطلق على نفسه رصاصة دون أن ينتظر الغد . ولكن هذه النية لم تلبث أن تبددت ، كما تنطفيء شرارة طائرة . وكانت مركبة الترويكا « تنهب به الأرض نهباً » ، فكلما اقتربت به من غايته ، كانت صورة تلك المرأة تنفذ فيه مزيداً من النفاذ بقوة طاغية مستبدة مستأثرة ، طاردة جميع أشباح الرعب التي تملأ قلبه . « أوه ! أريد أن ألمحها مرة أخيرة ، ولو من بعيد ، عابرة ... انها في هذه الساعة معه ، وسأراهما كليهما ، هي وحبيبها الأول ، وسأتأملهما ، ذلك هو كل ما أتمناه الآن ! » لم يشعر نحو هذه المرأة في يوم من الأيام بمثـــل الحب الذي يشعر به الآن ، لم يشعر نحوها في يوم من الأيام بمثل ما يشعر به الآن من عاطفة رقيقة حنون لا حدود لها ، من عاطفة الخضوع والمذلة التي تدفعه الى أن يريد نسيان ذاته ، والتضحية بنفسه في سبيلها .

هتف يقول فجأة وقد استبدت به حماسة تشبه أن تكون هذياناً :

ـ سأتنحى من طريقهما .

العربة تعدو منذ قرابة ساعة . ميتيا صامت . وآندره ، وهو فلاح مهذار في العادة ، لا يتكلم أيضاً ، كأنه يخاف خوفاً غامضاً من أن يقطع الصمت . فهو لا يزيد على أن يحرّض بصوته أحصنته الكمت النحاف على عصبية . وفجأة هتف ميتيا يقول بقلق شديد :

ـ آندره ! ماذا لو وجدناهم نائمين ؟

في تلك اللحظة انما خطر بباله هذا الاحتمـــال الذي لم يكن قد ساوره قبل ذلك .

ـ جائز جداً أن يكونوا فى هذه الســــــاعه راقدين يا دمترى فيدوروفتش ٠

قطب ميتيا حاجبيه مغتاظاً حانقاً ٠ ماذا ؟ أيجيء حاملاً هذه العواطف ٠٠٠ ثم يكونون نائمين نوماً هادئاً ٠٠٠ هى أيضاً ٠٠٠ ربما الى جانبه ! وغلى الغضب فى قلب ميتيا ٠

صرخ يقول خارجاً عن طوره :

ـ اجلد يا آندره ! مزيداً من الاسراع ، مزيداً من الاسراع أيضاً٠
قال آندره بعد صمت :

ـ ما أحسب أنهم ناموا ٠ لقد أسرّ لى تيموتى أن جمعاً غفيراً قد اجتمع هذا المساء فى موكرويه ؟

ـ فى محطة العربات ؟

ـ بل فى نزل آل بلاسنونوف ، وهو محطة عربات أيضاً ٠

ـ أعرف ٠ أتقول انهم جمع غفير ؟ كيف هذا ؟ من أين جاءوا ؟

كذلك هتف ميتيا يسأل الحوذى وقد شدهه هذا النبأ الذى لم يكن يتوقعه ٠

ـ يبدو أنهم جميعاً أناس محترمون على ما قال تيموتى : اثنان منهم جاءا من المدينـــــه ولا أدرى من هما ، فان تيموتى لم يذكر لى ذلك ؛ واثنان من هنا ، ثم اثنان آخران هما مســـافران عابران فيما يظهر ، ثم شخص آخر أيضاً اذا صح فهمى ٠ وهم يلعبون بالورق ، على ما يدعى تيموتى ٠

ـ بالورق ؟

ـ نعم • وما داموا قد أخذوا يلعبون بالورق ، فلا يعقل أن يكونوا قد ناموا • ان الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة الآن •

صرخ ميتيا يقول من جديد بعصبية :

ـ اسرع ، أسرع مزيداً من الاسراع •

واستأنف آندره كلامه بعد صمت فقال :

ـ قل لى يا سيدى • هناك أمر أحب أن أسألك عنه ، ولكنى أخشى أن أغضبك •

ـ ما هو هذا الأمر ؟

ـ ان فيدوسيا ماركوفنا قد ارتمت على قدميك منذ قليل متوسلة اليك أن لا تلحق أذى بمولاتها وبشخص آخر ••• فياسيدى ، ما دمت أنا أقودك الى هناك ، فان ضميرى ••• لا تؤاخذنى يا سيدى ••• اذا كنت غبياً فيما أقول •••

فأمسكه ميتيا من كتفيه فجأة ، وسأله وهو فريسة اضطراب نفسى شديد :

ـ أنت حوذى ، أليس كذلك ؟ أنت حوذى •

ـ نعم ، حوذى •••

ـ فأنت تعلم اذن ما معنى التنحى عن الطريق ، واخلائه • هل يستطيع حوذى أن يمضى الى أمام ، رافضاً أن يمر الآخرون ؟ هل يستطيع أن يقول لغيره : لسوف أدوسك ولا أتخلى لك عن الطريق ؟ انه لا يستطيع ذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ ليس لحوذى أن يدوس المارة ••• لا يجوز للمرء أن يدوس أحداً ، لا يحق لأحد أن يحطم حياة غيره• ومن يدمّر حياة شخص آخر ، فانه لا يبقى عليه الا أن يعاقب نفسه

بنفسه بعد ذلك ... اذا هو دمَّر خيـــاة أحد ، فلسمض ... فلينل العقاب !

تكلم ميتيا جيّاش النفس ، شديد الاندفاع ، ورغم أن آندره دُهش من أقواله ، فانه لم يقطع الحديث قال :

ــ صحيح جداً ما تقوله يا سيدى دمترى فيدوروفتش . أنت على حق ، ما ينبغى لأحد أن يدوس البشر ، ولا أن يعذبهم ؛ وما ينبغى له أن يدوس الحيوانات أيضاً ولا أن يعذبها ، فالحيوانات مخلوقات كسائر مخلوقات الله التى تتنفس ! أنظر الى الخيول مثلاً : ان من الناس من يضربونها بغير طائل ، ويستحثونها أكثر مما يجب . ان بعض الحوذيين فى بلادنا لا يعرفون القصد والاعتدال ، وهم بذلك يسيرون كالمسعورين لا أدرى الى أين وكيف ؟

قاطعه ميتيا قائلاً وهو يضحك ضحكته الصغيرة الجافة :

ــ لعلهم يفعلون هذا ليصـــلوا الى جهنم بسرعة أكبر . قل لى يا آندره : انك انسان طيب القلب بسيط النفس (وأمسكه من كتفيه مرة أخرى) هل تعتقد أن دمترى فيدوروفتش كارامازوف ســـيذهب الى جهنم ؟

ــ لا أدرى يا سيدى الطيب ، ذلك متوقف عليك أنت ... اسمع يا سيدى : حين مات ابن الله على الصليب ، نزل رأساً الى جهنم فخلّص جميع الخاطئين الذين كانوا يقاسون فيها عذاب السعير . وقد تشـــكى الجحيم عندئذ ، مخافة أن لا يســـتقبل خاطئين بعد ذلك . فقـــال الرب للجحيم : « اطمئنى يا جهنم ، فانك ستستقبلين بعد الآن شخصيات كبيرة : ستستقبلين أمراء وقضاة عظاماً وأغنياء ، وستمتلئين من جديد كما كنت ممتلئة فى الماضى ، الى اليوم الذى أرجع فيه الى هذا العالم » . ان هذا الكلام هو الحقيقة ، لأن الرب قاله ...

ـ هذه اسطورة شعبية جميلة • أجلد الحصان الأيسر يا آندره !

استأنف آندره كلامه وهو يصفق بسوطه فوق الحصان الأيسر ؛ قال :

ـ أولئك هم الناس الذين أعدت لهم جهنم • أما أنت يا سـيدى فنحن نعدك طفلاً ••• ذلك هو رأينا نحن ••• مهما تكن عنيفاً غضوبا ••• وانك لعنيف غضوب ما فى ذلك ريب ••• فان الرب سيغفر لك لأنك انسان بسيط •

ـ وأنت يا آندره ، هل تغفر لى ؟

ـ ليس هناك ما أغفره لك يا سيدى ، فانك لم تسىء الىّ •

ـ اننى أسألك هل تستطيع أن تغفر لى نيابةً عن الجميع ، أن تغفر لى أنت ، فى هذه اللحظة ، على هذا الطريق ؟ هل تغفر لى باسم الجميع ؟ أجبنى يا ابن الشعب !

ـ سيدى ! لقد بدأت أخاف ••• انك تتكلم كلاماً غريباً جداً •••

كان ميتيا قد أصبح لا يصغى اليه ، فهو الآن يصلى صلاة حارة ، مدمدماً بنوع من حماسة عنيفة وحشية :

ـ يارب ! اقبلنى رغم حطتى ، ولكن لا تحكم علىّ • اللهم اسمح لى أن أجىء اليك دون أن أمثل أمام محكمتك ••• لا تحكم علىّ ، مادمت قد حكمت على نفسى بنفسى ••• لا تحكم علىّ ، لأننى أحبك يا رب ! اللهم اننى خبيث دنىء ، ولـكننى أحبك • وحتى فى الجحيم ، اذا أنت أرسلتنى الى الجحيم ، سأظل أحبك ، وسأظل أهتف لك بحبى الى الأبد، ولكن دع لى أن أحب حبى الأرضى حتى النهاية •••• اسمح لى أن أظل أحب ، فى هذه الحياة الدنيا ، خمس سـاعات أخرى ، الى أن تطلع

شمسك الدافئه ... انني أحب ملكة قلبي ، ولا أملك أن امتنع عن حبها اللهم انك تراني كلي في هذه اللحظة . سوف أهرع اليها ، فأرتمي عند قدميها ، وأقول لها : لقد كنت على حق حين نبذتني ، وداعاً ... انسى ضحيتك ، ولا تدعي لذكراي أن تعذبك يوماً ! » .

صاح آندره يقول وهو يومئ الى القرية بسوطه الممدود في آخر ذراعه :

ـ هذه موكرويه !

فمن خلال ليل شاحب ، كانت تُرى رؤية ضعيفة ، كتلة مظلمة ، هي كتلة منازل القرية المبعثرة على رقعة واسعة . ان سكان قرية موكرويه يبلغ عددهم ألفي نسمة . ولكن كل شيء كان غارقاً في النوم . وليس يرى الناظر الا بضعة أنوار تخترق الظلام هنا وهناك .

صرخ ميتيا يقول محموماً :

ـ أسرع ، أسرع مزيداً من الاسراع .

فقال آندره وهو يشير بسوطه الى نزل آل بلاستونوف ، الذي يقع عند مدخل القرية ، والذي كانت نوافذه الست المطلة على الشارع مضاءة اضاءة قوية :

ـ لم يناموا بعد .

فكرر ميتيا كلام الحوذي فرحاً :

ـ لم يناموا بعد ! اجر بالعربة جرياً سريعاً يا آندره ، حتى ترن جلاجلها فيكون لدخولي ضجة وجلبة . ألا فليعلم الجميع من الواصل ! هو أنا ... هأنذا وصلت !

كذلك صرخ ميتيا وقد بلغ ذروة الاهتياج .

استحث آندره حصانيه المكدودين ، فوصلت العربة الى باب النزل مفرقعة فرقعة قوية ، وهنالك استوقف الحوذى الحصانين الهزيلين وقد أوشكا أن يموتا تعباً • وثب ميتيا من العربة فى اللحظة التى كان فيها صاحب النزل يهم أن يرقد فى فراشه فلما سمع فرقعة العربة ظهر على عتبة الباب يريد أن يرى من عسى يصل فى مثل هذه الساعة بمثل هذه السرعة • هتف ميتيا يسأله :

ــ أهذا أنت يا تريفون بوريستش ؟

مال صاحب النزل الى أمام ليستطيع أن يميز فى الظلام ملامح وجه القادم ، ثم نزل درجات المدخل راكضاً ، وهرع الى الزائر بحماسة مجاملة ، وهو يقول :

ــ ماذا ؟ أهذا أنت يا عزيزى دمترى فيدوروفتش ؟ ما أعظم فرحى برؤيتك من جديد !

ان تريفون بوريستش هذا فلاح قوى البنية مربوع الجسم متوسط طول القامة ضخم الوجه ، تعبر قسماته فى العادة عن قسوة وغيظ ، ولا سيما حين يكلم فلاحى موكرويه ، ولكنه يملك قدرة فذة على تغيير سحنته فوراً ، وعلى اصطناع هيئة المجاملة الشديدة والملاطفة المفرطة متى آنس منفعة وربحاً • انه يرتدى ثياباً على الزى الروسى ، فقميصه مقلوب الياقة ، وصديرته مطرزة • ورغم أنه قد جمع كثيراً من المال ، فلقد كان لا يحيا الا لجمع المزيد من الثراء ، وتحقيق المزيد من الارتفاع • ان أكثر من نصف فلاحى موكرويه مدينون له ، واقعون فى شباكه ، خاضعون لتسلطه • كان يستأجر الأراضى من ملاكى المنطقة ، وكان يشترى بعض هذه الأراضى أيضاً ، فيجبر الفلاحين على العمل فيها سداداً لما له عليهم من ديون لا يصلون الى التخلص منها أبداً • وهو أرمل له أربع بنات

كبيرات ، احداهن مات عنهـا زوجها فهى تعيش عنـــد أبيها مع طفلين صـــغيرين ، ويعاملها أبوها معامله خادمه ؛ والثـــانيه زوجة موظف من الموظفين ، فالداخل الى المنزل يستطيع أن يرى على جدار احدى غرفه صورة فونوغرافية صغيرة لهذا الخادم من خدم الدولة بلباسه الرسمى الذى يزدان كتفاه بشارات القصب ★ • أما البنتان الأخريان ، فهما فى أيام أعياد المنطقة أو أثناء الزيارات تختالان بأثواب زرقاء أو خضراء ذات أذيال طويلة على آخر « موضه » ، ولكنهما تنهضان فى الغداة منذ الفجر كسائر الأيام ، لتكنسا الغرف وتصبا الماء أو تنظفا الغرف بعد رحيل النزلاء الذين شغلوها • وكان تريفون بوريستش ، رغم المال المخبأ الكثير الذى جمعه ، يبتهج كثيراً لكل فرصه تمكنه من استلاب أموال مبذر من المبذرين • وهو يتذكر انه سلب دمترى فيدوروفتش ، منذ أقل من شـــهر ، مائتى روبل ان لم يكن ثلاثمائة روبل ، فى يوم واحد ، حين تلبث هذا فى نزله ليقصف ويتلف ماله مع جروشنكا • لذلك استـــقبله هذه المرة بفرح فائض ، مدركاً من طريقـــة وصـــول المركبة الى البـــاب على هذا النحو الصاخب ، أن الفريسة ستكون سهلة •

ـ عزيزى دمترى فيدوروفتش ، هأنت ذا عندنا من جديد !

فقاطعه ميتيا يسأله :

ـ لحظة يا تريفون بوريستش • قل لى الأمر الأساسى أولاً : أهى هنا ؟

فسأله صاحب المنزل الذى فهم ما يعنيه ميتيا حق الفهم وكان يحدق اليه بنظرة نافذة :

ـ أجرافين الكسندروفنا ؟ هى هنا ••• أيضاً !

ـ مع من ؟ مع من ؟

ــ مع نزلاء عابرين ••• موظف لا شك أنه من أصل بولندى ••• يظهر هذا من لهجته ••• انه هو الذى أرسل خيلاً لتجيء بها الى هنا ••• وشخص آخر هو صاحب البولنـــدى ، أو رفيق رحلته فحسب ، لا أدرى ••• وهما كلاهما يرتديان ملابس مدنية •••

ــ هل يقصفون ؟ هل يملكون مالاً ؟

ــ يقصفون ؟ دعك من هذا الكلام ! هم أناس عاديون •••

ــ عاديون ؟ والآخرون ؟

ــ هناك سيدان من المدينــة ••• كانا عائدين من تشرنايا ، فتلبثـا هنا لقضاء الليل • أحدهما شاب هو قريب ميوسوف فيما يبدو ، ولكننى نسيت اسمه ••• أما الثانى فأحسب أنك تعرفه أيضـــــاً : انه الملاّك ماكسيموف الذى ذهب يحج الى دير كنيستكم فيما يدعى ، وهو الآن يرافق ذلك الفتى قريب السيد ميوسوف فى الطريق •••

ــ أهذا كل شيء ؟

ــ نعم ، ليس هناك أحد عدا هؤلاء •

ــ اسكت يا تريفــون بوريستش • شيء واحــد يهمنى : ماذا تفعل هى الآن ؟

ــ وصلت منذ وقت غير طويل ، وهى الآن معهم •

ــ أهى مرحة ؟ أهى تضحك ؟

ــ لا ••• انها لا تضحك كثيراً فيما لاحظت • حتى لقد بدا لى أنها حزينة • وكانت تلاعب شعر الشاب •

ــ شعر الضابط ، ذلك البولندى ؟

ــ دعك من هذا الكلام ! ليس البولندى شاباً ولا هو ضابط • أنا لم أقصد البولندى ، بل الشاب ••• قريب ميوسوف ؟ مالى نسيت اسمه ؟

ــ لعل اسمه كالجانوف ؟

ــ تماماً ، كالجانوف •

ــ طيب ، سوف أرى • قلت أنهم يلعبون بالورق ، أليس كذلك ؟

ــ كفوا عن اللعب • لقد تناولوا الشاى ، وأمر الضابط بخمور •

ــ لحظة يا تريفون بوريستش ! هذه كلها أمور ثانوية ، وسأحكم على الموقف بنفسى • أجبنى الآن عن الشىء الأساسى : هل فى القرية غجر ؟

ــ لم يبق غجر يا دمترى فيدوروفتش ! لقد طردتهم السلطات • غير أن عندنا فى مقابل ذلك يهــوداً يعزفون على الرباب والكمان • هم الآن فى رودجستفنسكا ، ولكن يمكن استدعاؤهم فيجيئون حتماً •

ــ استدعهم حالاً • ويجب كذلك ايقاظ البنــات ، كما فى المرة السابقة ، ولا سيما ماريا تلك ، ثم ستيبانيد وايرين • سأدفع للجوقة مائتى روبل •

ــ بهذا المبلغ أوقظ لك أهل القرية بكاملهــا ، ولو كانوا نائمين كالأموات • ولكن هل يستحق هؤلاء الفلاحون وهاته البنات أن يُدفع لهم مبــلغ ضخم كهذا المبــلغ ؟ هؤلاء رعاع لا يســتحقون هــذه الملاطفات ! لم يخلق فلاحونا لتدخين السيجار وقد قدمتَ لهم سيجاراً• هؤلاء أناس نتنون • أما النساء فهن جميعاً قذرات وسخات • انى لأوثر أن أرسل اليك بناتى ، ولو بالمجان ، على أن أدعك تبعثر هذا المال كله•ان بناتى نائمات الآن ، ولكنى سأوقظهن ، سأوقظهن ركلاً بقدمى اذا اقتضى

الأمر ، وسأجبرهن على أن يغنين لك • لا أستطيع أن أتصور كيف قدمت شمبانيا لأولئك الفلاحين ! ذلك أمر يبعث على الشفقة !

ـ تريفون بوريستش ! ألا تتذكر أنني انفقت هنا أكثر من ألف روبل في المرة الماضية ؟

ـ كيف لا أتذكر ؟ بل لقد أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل يا ضيفي العزيز •

ـ اذن فاعلم أنني أملك الآن مثل ذلك المبلغ نفسه • أنظر !

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية وأدناها من أنف صاحب المنزل • ثم أضاف قوله :

ـ اسمع الآن وحاول أن تفهم : بعد ساعة سيصل خمر ومقبلات وفطائر وسكاكر • فاحمل هذا كله فوراً الى فوق • أما ذلك الصندوق الخشبي الموجود تحت مقعد آندره فيجب أن تنقله الى هناك أيضاً ، فتفتحه وتقدم الشمبانيا حالاً • ولكن لا تنس أن الأمر الأساسي هو البنات ، البنات ! وأريد حتماً أن تجيء ماري تلك ! •••

واتجه ميتيا الى العربة فأخرج من تحت المخدات علبة المسدسين •

ـ سأدفع لك دينك عليّ يا آندره • اليك خمسة عشر روبلاً ، أجرَ العربة ، واليك خمسين أخرى « بقشيشاً » ••• مكافأة لك على اخلاصك ، وتقديراً لصداقتك ••• تذكر البارين كارامازوف !

قال آندره بلهجة مترددة :

ـ لا أجرؤ يا بارين * ••• انني أقبل خمسة روبلات مكافأة ، لا أكثر من ذلك • مستحيل ••• هذا تريفون بوريستش شاهد عليّ •• اغفر لي حماقتي •••

سأله ميتيا وهو يشقله بنظره :

ـ ممّ تخاف !

ثم صرخ يقول متذمراً وهو يلقى اليه خمسة روبلات :

ـ أنت وشأنك ! اذهب الى الشيطان ! والآن يا تريفون بوريسنش خذنى برفق وهدوء الى موضع أستطيع منه أولاً أن أتفحصهم جميعاً على مهل دون أن يرونى • أين هم الآن ؟ أظن أنهم فى الغرفة الزرقاء ، أليس كذلك ؟

ألقى تريفون بوريستش على ميتيا نظرة فلقة ، ولكنه أطاعه صاغراً فقاده فى حذر خلال دهليز ، ودخل غرفة كبيرة تتاخم الغرفة التى كان فيها النزلاء ، فأبعد الشمعة التى كانت تضىء تلك الغرفة ؛ ثم أدخل ميتيا الى الغرفة المظلمة بغير ضجة ، وأجلسه فى ركن معتم جداً يسهل عليه منه أن يتفحص المتحادثين دون أن يُرى • غير أن ميتيا لم يمكث مدة طويلة ليتأملهم : فما ان رآها حتى أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً يكاد ينفجر منه صدره ، وحتى اضطرب بصره فلا يكاد يرى • كانت جالسة على مقعد قرب المائدة ، وكان الشاب كالجانوف يجلس قريبـــاً منها على الكنبة ، وهو فتى حسن الهيئة وسيم الطلعة • كانت جروشنكا ممسكة يده وكأنها تضحك ، بينما كان هو ينافس ماكسيموف ممتعض الوجه ، وكان ماكسيموف هذا يجلس الى الطرف الآخر من المائدة قبالة جروشنكا أما « هو » فقد كان جالساً على الـــكنبة نصف مضطجع ، وكان يدخّن غليوناً • وفى جانب ، على كرسى مستند الى الجدار ، لاحظ ميتيا رجلاً آخر لا يعرفه • ان الشخص المسترخى على الكنبة يبدو رجلاً بدين

الجسم عريض الوجه ، قصير القامة فى أغلب الظن ، أما الثانى فهو طويل جداً . على أن ميتيا لم يتسع وقته لأن يرى أكثر من ذلك . لقد انقطعت أنفاسه ، ولم يستطع أن يمكث زمناً أطول ، فوضع العلبة على المنضدة ، ودخل الغرفة الزرقاء التى كان يجلس فيها المتحادثون وهو يشعر ببرودة فى ظهره . رأته جروشنكا أول من رآه ، فصاحت تقول :

ــ آى ...

٧

الصديق القديم الذى لا يمكن جحوده

تقدم ميتيا من المائدة بخطى كبيرة سريعة لا يلوى على شيء • وبدأ كلامه يقول بصوت قوى جداً ، بصوت يكاد يكون صراخاً ، ولـكنه يتلعثم عند كل كلمة :

ــ أنا ••• لا ••• لا شيء ••• لا تخافوا ، لن أفعل شيئاً ••• (ثم قال ملتفتاً نحو جروشنكا التى مالت على كالجانوف مذعورة وتشبثت بذراعه) ••• لا شيء ••• أنا ••• أنا هنا عابر كذلك ••• سأمكث حتى الصباح فقط ••• يا سادتى ، هل تأذنون لمسافر ضلّ طريقه فى هذا المكان ••• ان يجالسكم ، حتى الصباح فحسب ، ولآخر مرة ••• فى هذه الغرفة نفسها •••

وجّه ميتيا هذا السؤال الى الرجل القصير السمين الذى كان يدخّن على الكنبة • فما كان من هذا الا أن أقصى الغليون عن شفتيه بوقار ، وأجاب بصوت قاس :

ــ « يا سيد » ، هذا اجتماع خاص ، وفى النزل حجرات أخرى•

فتدخل كالجانوف فجأة يقول :

ــ أهذا أنت يا دمترى فيدورفتش ؟ فلماذا هذه الكلفة كلها ••• اجلس ••• أهلاً بك !

فأجابه ميتيا مسرعاً فرحاً :

ــ يومك سعيد أيها الصديق العزيز ، أيها الصديق الذى لا نظير له • لقد شعرت نحوك دائماً بكثير من الاحترام •

ومدّ اليه يده من فوق المائدة •

قال كالجانوف ضاحكاً :

ــ أوه ! يالها من قبضة قويه ! لقد أوشك أن يحطّم أصابعى •

فقالت جروشنكا مرحةً وهى تبتسم خجلى :

ــ هذه طريقته فى المصافحة دائماً •••

لقد أدركت جروشنكا من النظر فى هيئته أنه لن يعمد الى شىء من العنف • وكانت تتفحصه باستطلاع قوى تداخله بقية من قلق • ان شيئا ما فى تعبير وجه ميتيا قد خطف بصرها وأسر انتباهها ، لا سيما وأن دخوله على هذا النحو قد بدا لها غريباً جداً •

وانبرى الملاّك ماكسيموف بدوره ، فقال بصوته المتعاذب :

ــ يومك سعيد يا دمترى فيدوروفتش !

وبدا على ميتيا أنه سعيد بمصافحته أيضاً • قال له متدفقاً فى كلامه:

ــ أهذا أنت ؟ ما أسعدنى برؤيتك ! أيها السادة ! أيها السـادة ! أنا ••• (وقد توجه بكلامه من جديد الى السيد الذى يدخن الغليون ، وكان واضحاً أنه يعده أهم شخص فى هذا الجمع) ••• أنا قد أسرعت الى هنا ، لأقضى ليلتى الأخيرة ، لأقضى ساعاتى الأخيرة فى هذه الحجرة،

في هذه الغرفه نفسها ••• التى أتيح لى فيها ، أنا أيضاً ، أن أعبد ملكتى! (ثم هتف يقول بحماسه) اغفر لى يا سيدى • لقد آليت حين جئت الى هنا ••• أوه ! لا تخش شيئا ، لأن هذه الليلة هى ليلتى الأخيرة ! فلنشرب أيها السيد ، فلنشرب نخب صداقتنا ! سوف يجيئوننا بخمر • ولقد حملت معى هذا (قال ذلك وهو يخرج من جيبه كدسة الأوراق الماليه ، لا يدرى أحد لماذا !) ••• اسمح لى أيها السيد ••• اننى أريد موسيقى ، أريد صخباً ، أريد حركة ، تماماً كالمرة الماضية • ان دودة الأرض ، ان دودة الأرض التى لا نفع لها ولا فائدة منها ستكف قريباً عن الزحف على الأرض ••• لسوف تختفى وتزول ••• أريد أن استحضر فى ليلتى الأخيرة هذه ذكرى أجمل يوم من أيام حياتى ! •••

كان ميتيا يختنق اختناقا • أراد أن يقول أشياء أخرى كثيرة ، ولكنه لم يستطع أن يفصح عن ذات نفسه الا بصيحات غريبة عجيبة • لبث البولندى جامداً لا يتحرك ، متنقلا بصره بين ميتيا وكدسة الأوراق وجروشنكا ، وقد ظهرت عليه حيرة شديدة وبلبلة كبيرة • قال :

ــ اذا وافقت ملكتى •••

قالت جروشنكا مقاطعة :

ــ ما أسخفكما كليكما بهذه الطريقة فى الكلام ! أ أنا ملكة ؟ انكما لتضحكانى ! اجلس هنا يا ميتيا • ماذا كنت تعنى حين قلت ان هذه الليلة هى آخر لياليك ؟ لا تروّعنى ، أرجوك • لن تروّعنى ، أليس كذلك ؟ اذا كففت عن تخويفى فسوف أكون سعيدة بمجيئك •••

هتف ميتيا يقول رافعاً ذراعيه فى الهواء :

ــ أنا ؟ أنا أروّعك ؟ أوه ••• اعبرى ••• اعبرى ••• لن أكون عقبةً فى طريقك •••

SS

وما ان قال ذلك حتى ارتمى فجأة على كرسي وأجهش يبكي ، محولاً رأسه ، شاداً بيديه ظهر الكرسي كأنه يعانقه . ذلك ما فعله ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد ، ولا كان يتوقعه هو نفسه .

سألته جروشنكا بلهجة العتب :

ـ ما هذا ؟ ما هذا؟ ماذا تفعل ؟ ذلك هو سلوكه حين يأتي الى . يأخذ يقول أشياء لاتُفهم على حين فجأة ، حتى لقد انفجر ناشجاً منتحباً في ذات مرة ... وها هو ذا يعيد الآن الكرة . ألا تستحي ؟ لماذا البكاء؟

ثم أضافت تقول بلهجة ملغزة ، وهي تشدد كلماتها بشيء من الحنق :

ـ لو كان هنالك ما يدعوك الى البكاء على الأقل ...

قال ميتيا :

ـ أنا ... أنا لا أبكي ... هيه ! يومكم سعيد جميعاً !

واستدار فجأة على كرسيه وانفجر ضاحكاً . ليست ضحكته الآن تلك الضحكة الجافة المعهودة فيه ، ولكنها ضحكة تشبه أن تكون صامتة، ضحكة عصبية ، ممتدة ، مشدودة ، متوترة ، كانت تهز جسمه كله .

قالت جروشنكا ملحة :

ـ أيضاً ؟ هلا كنت أكثر مرحاً ، أكثر مرحاً ! انني سعيدة جداً بمجيئك يا ميتيا ، سعيدة جداً جداً ، هل تسمعني ؟

ثم قالت بلهجة آمرة وهي تتجه بكلامها الى جميع الحضور في ظاهر الأمر ، وان كان كلامها منصرفاً الى الشخص المضطجع على الكنبة في الواقع :

ـ أريد أن يبقى معنا ! أريد ذلك ، أريد ذلك ! فاذا كان عليه أن ننصرف ، انصرفت أنا أيضاً ٠

أضافت جروشنكا هذه العبارة الأخيرة وقدحت عيناها شرراً ٠

قال « السيد » وهو يلثم يد جروشنكا بلطف ورقة :

ـ رغبات ملكتى هى عندى قوانين ٠

ثم التفت الى ميتيا متحبباً متودداً وقال :

ـ تفضل فاجلس معنا يا سيدى !

وهمّ ميتيا أن يثب عن مكانه ليلقى خطاباً جديداً كما ظهر ذلك فى هيئته ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا ، واكتفى بأن قال :

ـ لنشرب أيها السيد !

وأخذ الجميع يضحكون ٠

هتفت جروشنكا تقول بعصبية :

ـ يارب السماء ! ما كان أضلنى حين تصورت أنه سيلقى علينا خطاباً آخر ٠٠٠

ثم أضافت تخاطب ميتيا بلهجة الاستبداد :

ـ اسمع يا ميتيا ، كفَّ عن الوثوب عن كرسيك ، والزم مكانك هادئاً ٠ أما الشمبانيا فقد أحسنت اذ جئت بها ٠ سيحلو لى أن أشرب شمبانيا ، لأننى أكره الخمور الأخرى ٠ واننى ليهمنى خاصةً أنك قد خطر ببالك أن تأتى ، فلقد كنا هنا فى ضجر رهيب خانق ٠٠٠ أرى أنك تنوى أن تقصف وأن تبدد ٠٠٠ خبىء أوراقك المالية هذه فى جيبك ٠ من أين جئت بكل هذا المال ؟

SS

وها هو ذا مينيا الذى كان لا يزال يشد بين أصابعه الأوراق المالية التى تجعدت والتى كان حجمها الكبير قد خطف أبصار الحضور ولا سيما « السيدين » البولنديين ، ها هو ذا مينيا يسرع فيدس الكدسة فى جيبه وقد اضطرب واحمر وجهه • وظهر عندئذ صاحب النزل حاملاً على صينية زجاجةً شمبانيا مفتوحة وأقداحاً • فأمسك ميتيا الزجاجة ، ولكنه من فرط ارتباكه كان يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يصنع بها ، فهبّ كالجانوف الى نجدته ، فتناول الزجاجة بيديه وملأ الأقداح •

قال ميتيا يأمر صاحب النزل :

ــ هات زجاجةً أخرى ، هات زجاجةً أخرى !

ونسى أن يقرع كأســـه بكأس « السيد » بعد أن دعاه إلى شرب الكأس نخبَ الصداقة ، فها هو ذا يفرغ كأسه فى جوفه دون أن ينتظر أن يرفع الآخرون كئوسهم •

وسرعان ما تغير تعبير وجهه • ان الهيئة التراجيدية الفخمة التى كانت له عند دخوله قد استحالت الآن ابتسامةً تشبه أن تكون ابتســامة طفل • فهو ينظر الى الحضور بفرح خجول تتخلله فى كل لحظة ضحكات صغيرة عصبية تذكرّ بالكلب الصغير المذنب الذى يحس بسعادة وامتنان حين يرى أصحابه قد غفروا له وأخذوا يلاعبونه من جديد • لكأنه نسى كل شيء عن الماضى ، فهو يتفحص المتحادثين واحداً بعد واحد ، بنوع من الحماسة ، ويبتسم ابتساماً بريئاً ساذجاً • أما جروشنكا فكان يتفرس فيها بغير انقطاع ضاحكاً ، حتى لقد قرّب كرسيّه من مقعدها • وشيئاً فشيئاً أخذ يلاحظ الرجلين البولنديين أيضاً ، فأما « السيد » الأول فقد أدهشه بمظهره الرزين الرصين ، ولهجته البولندية ، وغليونه خاصة • قال ميتيا لنفسه : « هل من ضير فى أن يدخن ؟ ان من حقه تماماً أن يحب

الغليون ! » • ولم يصدمه فى أول الامر ما لاحظه فى وجه هذا «السيد» الذى يقارب عمره الاربعين ، من غضون واخاديد ، ولا ضـــايقه انفه الصغير الدى يمتد تحته شــاربان رفيقــان نحيلان مشمّعان يضفيان على وجهه لا أدرى أى نوع من الاســـتخفاف والوقاحة ؛ لا ولا أزعجته الباروكة البشعة المصنوعة فى سيبريا والممشوطة مشطاً غبياً من خلف الى أمام على الصدغين • قال ميتيا لنفسه وهو فيما هو فيه من غبطة وهنــاءة : « باروكة ؟ لِمَ لا ؟ » • وأما البولندى الآخر الذى يجلس قرب الجدار ويبدو أصغر سناً من « السيد » ذى الغليون ، فقد كان ينظر الى الجمع بوقاحة مستفِزّة ، ويتابع حديثهم محتفظاً لنفســـــه بصمت فيه ازدراء واحتقار • ان الشىء الوحيد الذى خطف بصرَ ميتيا فيه انما هو فرط طوله الذى يؤلف مع قصر رفيقه ابن وطنه تناقضاً واضحاً وتضاداً بارزاً قال ميتيا لنفسه : « لو نهض لكان طوله قريباً من مترين ! » • وقد اعتقد ميتيا أيضاً أن « السيد » الطويل لابد أن يكون مرتبطاً بصاحب الغليون ارتباط حارس بسيده ، فالقصير هو الذى يأمر العملاق فى أغلب الظن• وبدا ذلك كله لميتيا طبيعياً سعيداً كل السعادة • لم يبق فى قلبه الصــغير أثر من خصومة أو تنــــافس • ولم يكن قد أدرك بعدُ المعنى الحقيقى لموقف جروشنكا ، وللهجة الملغزة التى كانت تقول بها بعض عباراتها • فكل ما عرفه متأثراً فى قرارة قلبه أشد التأثر ، هو أنها لطيفة معه وأنها «عفت» عنه وأنها أذنت له أن يجلس الى جانبها • وقد أصبح لا يملك نفسه اعجاباً بها وهى تحسو بضع جرعات من الشمبانيا • ولكن الصمت الذى كان يخيِّم على النزلاء لم يلبث أن لفت انتباهه فجأة ، فأجال على الحضور نظرة سائلة ، فكأن عينيه تقولان : « ما بالنا لا نفعل شيئاً ؟ ما الذى يمنعنا من أن نلهو ونتسلى ؟ »

SS

قال كالجانوف فى تلك اللحظة ، وكأنه قد حزر ما جال فى خاطره، قال مشيراً الى ماكسيموف :

ـ انظروا الى هذا ! انه لا ينى يكذب ، وقد أضحكنا كثيراً .

فحدق ميتيا الى الرجلين واحداً بعد آخر . وسأل وهو يضحك ضحكته الصغيرة ، كأن ذلك قد أبهجه كثيراً :

ـ يكذب ؟ هأ هأ ...

ـ نعم . تصور أنه يدعى أن جميع ضباطنا فى سلاح الفرسان قد تزوجوا نساءً بولنديات بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ؛ هذا سخف ، أليس كذلك ؟

قال ميتيا بالغاً أوج السرور :

ـ بولنديات ؟

كان كالجانوف يدرك حق الادراك نوع العلاقات القائمة بين ميتيا وجروشنكا ، وكان يحزر أيضاً دور « السيد » البولندى ، ولكن لم يكن يبدو عليه أنه مهتم بذلك كثيراً ، لاستغراقه فى جداله مع ماكسيموف خاصة ، أو قل لانشغاله بهذا الجدال وحده دون ما عداه . لقد قادته المصادفة الى صحبة ماكسيموف فى هذا النزل الذى التقى فيه بالرجلين البولنديين اللذين لا يعرفهما حتى الآن . أما جروشنكا فقد سبق أن رآها بل لقد ذهب الى بيتها فى ذات يوم مع أحد أصدقائه ، ولم تعجبه حينذاك؛ ولكنها تنظر اليه هنا بعينين تفيضان رقة وحناناً . وقد ظل لا يبالى بها فى ظاهر الأمر رغم أنها قد أخذت تلاطفه وتلامسه قبل وصول ميتيا . انه فتى فى العشرين من عمره على أكثر تقدير ، شديد الأناقة ، جميل الوجه ، شاحب اللون ، له شعر أشقر رائع ، وعينان زرقاوان أخاذتان

تعبران عن ذكاء ، وتعبران في بعض اللحظات عن عمق ، فلا يتمق ذلك مع سنه الغضه ، لا سيما وأن مظهره وحركاته وحتى أفواله تُشعر في كتير من الأحيان بأنه طفل • على أن هذا لم يكن يضايقه قط ، رغم شعوره القوى به • كان يبدو على وجه العموم انساناً متفرداً ، وربما بدا في بعض الأحوال صاحب نزوات وبدوات ، ولكن ذلك لا يخرجه أبداً عن لطفه وعذوبته • وكان تعبير وجهه يتجمد في بعض الأحيان فيكتسى شيئا يشبه العناد : فهو عندئذ ينظر الى محدثه ويصغى اليه ، ولكنه يكون غارقاً في أفكاره هو ، يتابعها في اصرار لا يحيد عنه • وهو تارة رخو متوانٍ ، وهو تارة أخرى حاد مندفع الى أقصى الحدود ، يضطرب لأيسر الأمور ويهتاج لأتفه الأسباب •

تابع كالجانوف كلامه قائلاً وهو يجر كلماته جراً كسولاً يظل طبيعياً لا اختيال فيه ولا غطرسة :

ـ تصور أننى أطوّف هذا الرجل معى منذ أربعة أيام ، منذ اللحظة التى دفعه فيها أخوك الى خارج العربة فسقط ، كما تتذكر ذلك حتماً • لقد اهتممت بأمره عندئذ ، وأخذته معى الى الريف • ولكنه لا ينقطع عن الكذب • انه يكذب بلا توقف ، حتى أخذ كذبه يضايقنى ويزعجنى • وانى أنوى أن أعيده الى داره •••

قال البولندى ذو الغليون مخاطباً ماكسيموف باللغة البولندية :

ـ ان هذا الرجل لم يعرف في حياته نساءً بولنديات ، وهو يروى أشياء كاذبة •

كان البولندى ذو الغليون يجيد اللغة الروسية اجادة تامة ، وكان على كل حال يجيدها أكثر مما يتراءى لمن يسمعه • ولكنه يصرُّ على أن

ينطق بها نطقاً رديئاً ، فهو يشوّه الألفاظ ، ويدس فى جمله كلمات بولندية •

أجاب ماكسيموف يقول بلهجة ساخرة :

ـ ولكننى تزوجت أنا نفسى امرأة بولندية •

فسرعان ما تدخل كالجانوف قائلاً :

ـ ليست هذه هى المسألة • هل خدمت فى سلاح الفرسان ؟ ذلك أنك عن سلاح الفرسان انما تتكلم ! هل له هيئة ضابط من سلاح الفرسان ؟

هتف ميتيا يقول مرحاً ، وكان يصغى الى الحديث بنهم وشراهة :

ـ هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! يا للفارس الجميل الذى كان يمكن أن يُرى فى سلاح الفرسان ! •••

وكانت عينا ميتيا السائلتان تتنقلان بين المتحادثين واحداً بعد آخر ، كأنه ينتظر منهم أن يكشفوا عن حقائق مدهشة لا يدرى الا الله ما هى !

قال ماكسيموف وهو يلتفت الى ميتيا :

ـ لا ••• لقد أسأت فهمى • فانما أنا أقصد أولئك الفتيات البولنديات ••• وهنّ فتانات فى الواقع ••• ولكنهن يفقدن صوابهن متى رقصن رقصة بازوركا مع أحد فرساننا الرمّاحين ••• يكفى أن ترقص احداهن مع الفارس رقصة مازوركا ، حتى تثب بعد ذلك فوراً على ركبتيه ، كقطة صغيرة بيضاء ••• ويكون السيد أبوها والسيدة أمها حاضرين ، فلا يجدان فى ذلك بأساً ولا يحتجان ••• بل هما يأذنان ويستحسنان ويشجعان ••• وفى الغد يمضى الفارس يطلب يد الفتاة ••• هل فهمتم ؟ يمضى يخطب الحسناء ••• أليس هذا صحيحاً ؟ هأ هأ •••

كذلك ختم ماكسيموف كلامه ضاحكاً •

ـ سيد مسكين !

هكذا جمجم يقول البـــولندى الطويل ، الجالس على كرسى قرب الحائط ، وأنزل احدى ســـاقيه المتصالبتين عن الأخرى ، ليصالبهما فى الاتجاه المعاكس من جديد •

لاحظ ميتيا عندئذ جزمته الضخمة المشمعة التى كان نعلها السميك وسخاً جداً • يجب أن نذكر على كل حال أن الرجلين البولنديين كان مظهرهما مهملاً ، ولم تكن ثيابهما نظيفة نظافة لا مأخذ عليها •

تدخلت جروشنكا تقول بلهجة حانقة :

ـ لماذا يكون مسكيناً ؟ أنا لا أحب الاهانات !

فقال البولندى ذو الغليون وهو يلتفت نحو جروشنكا :

ـ سيدتى أجريبينا ! لابد أن هذا السيد قد عاشر فى بولنده بناتٍ وضيعات لا سيدات من الطبقة النبيلة !

فأمّن الرجل العملاق على كلامها صاحبه قائلاً :

ـ تستطيعين أن تكونى من ذلك على يقين •

قالت جروشنكا متجهمة الأسارير :

ـ كفى ! دعوه يتكلم ! بماذا أساء اليكم ؟ ان المرء ليتسلى مع أمثاله على الأقل !

فأجاب « السيد » البولندى ذو الباروكة ، أجاب يقول بوقار :

ـ لست أمنعه من الكلام يا سيدتى •

وألقى نظرة طويلة على جروشنكا ، ثم صمت ، ونشق نفساً من غليونه برصانة ورزانة .

قال كالجانوف متحمساً وكأن الأمر أمر مناقشة هامة جداً :

ـ معذرة ! أحسب أن « السيد » على حق . مادام ماكسيموف لم يعش فى بولنده فبأى حق يقول هذا الكلام عن تلك البلاد ؟ انك لم تتزوج فى بولنده مع ذلك ، هه ؟

قال ماكسيموف شارحاً :

ـ لا ... وانما تزوجت فى اقليم سمولنسك . ان أحد الفرسان هو الذى جاء الى ذلك الاقليم بزوجتى ... أعنى بمن أصبحت زوجتى فيما بعد ... جاء بها الى ذلك الاقليم تصحبها السيدة أمها ، وخالة من خالاتها ، وقريبة أخرى لها ابن كبير . لقد جاءت هذه السيدات من بولنده ، فهنّ بولنديات حقاً ... وقد تنازل لى الفارس عنها . كان هذا الفارس فتى أخاذاً ... كان فى نيته أن يتزوجها هو نفسه فى أول الأمر ، ولكنه تركها أخيراً لأنها كانت عرجاء .

هتف كالجانوف يسأله :

ـ كيف ؟ تزوجت عرجاء ؟

ـ نعم ، كانت تعرج . وقد تآمرا كلاهما على خداعى . كنت أنا أظن أنها تتواثب تواثباً جميلاً ، وكنت أعزو ذلك الى فرحتها ...

ـ الى فرحتها بتزوجك ؟

كذلك سأله كالجانوف بصوت رنان طفولى .

ـ نعم ، الى فرحتها بتزوجى . ولكن اتضح لى أن الأمر لم يكن

كذلك البتة . فبعد زواجنا ، بل في مســاء الحفلة نفسـه ، اعترفت لى بالحقيقة ، واعتذرت اعتذاراً مؤثراً : يظهر أنها قد أرادت أثناء طفولتها أن تقفز فوق غدير ، فانكسرت عندئذ ساقها ! هأ هأ !

انطلق كالجانوف عندئذ في ضحك كضحك الأطفال تماماً ، وكاد ينقلب على الكنبة . وضحكت جروشنكا أيضاً . أما ميتيا فقد شعر أنه في ذروة الغبطة والهناءة والسعادة .

صاح كالجانوف يقول مخاطباً ميتيا :

ـ هل تدرى أنه ذكر الآن الحقيقة ؟ انه لم يكذب في هذه المرة ! اعلموا أنه تزوج مرتين ... وهو عن زوجته الأولى انما تحدث الآن ، أما الثانية فقد هربت ... هل تعلمون هذا ؟ وهى ما تزال حية . أكنتم تجهلون ذلك ؟

قال ميتيا مندهشاً وهو يلتفت بقوة الى ماكسيموف :

ـ غير معقول !

فقال ماكسيموف مؤكداً بتواضع :

ـ بل لقد هربت فعلاً . نعم ... حدث لى هذا المكروه ! سافرت مع رجل فرنسى . وأسوأ ما في الأمر أنها كانت قد سجلت على اسمه قريتنا والأراضى التى تتبعها . قالت لى : « أنت رجل مثقف ، وســوف تستطيع تدبير أمرك وحدك » . على هذا النحو انما تركتنى . وقد نبهنى أسقف محترم جداً فى ذات يوم الى أن احدى زوجتىّ كانت ساقهـا عرجاء ، وأن الثانية كانت ساقها خفيفة ... هأ هأ ! ...

صاح كالجانوف يقول فى حماسة :

ـ هل تسمعون ؟ هل تسمعون ؟ اذا كذب ـ وهذا ما يحدث له

أحياناً كثيرة ـ فهو لا يكذب الا ليسلينا • ليس فى هذا شيء من حطـة ، ليس فيه شيء من حطه ! انه يعجبنى أحياناً ، هل تعلمون ؟ هو دنيء جداً، ولكن دناءته طبيعية ، أليس كذلك ؟ ما رأيكم ؟ غيره ينحطون طمعاً فى منفعة ، أو سـعياً الى ربح ، أما هو فيفعل ذلك مجاناً ، يفعل ذلك مدفوعاً اليه بطبيعته المنزهة عن الغرض • تصوروا مثلاً أنه يدعى أن جوجول انما وصفه هو فى كتابه « النفوس الميتة » *• لقد تشاجرنا أمس حول هذا الموضوع طوال الطريق • انكم تذكرون أن كتاب جوجول هذا يحدثنا عن ملاك اسمه ماكسيموف ، جلده رجل اسمه نوزدريف ، فحوكم هذا الرجل « بتهمة توجيه اساءة شخصية بالسياط ، فى حالة سـكر ، الى الملاك ماكسيموف • » • ان صاحبنا ماكسيموف لا يتورع أن يؤكد الآن أنه هو الذى جلد بالسياط ذلك الجلد الذى يحدثنا عنه كتاب جوجول، فهل هذا ممكن ؟ فكروا قليلاً ! ان تشتشيكوف قد سـافر سنة ١٨٢٠ ، فالتاريخ اذن غير مطابق أبداً • انه ليستحيل اسـتحالة مادية أن يكون ماكسيموفنا نحن قد جُلد منذ زمن بعيد كل ذلك البعد • يسـتحيل ، أليس كذلك ؟

لقد تحمس كالجانوف تحمساً صادقاً ، رغم أن من الصعب على المرء أن يفهم لماذا يولى هذه المسألة كل هذا الاهتمام ، ولماذا يقيم لها كل هذا الوزن ! وتحيز له ميتيا باقتناع تام ، ثم صاح يقول وهو يضـحك ضحكاً مدوياً :

ـ ولكن ما دام يعترف بأنه جُلد •••

فقاطعه ماكسيموف مصححاً :

ـ الحق أن ما وقع لى لم يكن هو الجلد تماماً ، بل كان شيئاً من هذا القبيل •

ـ كيف هذا ؟ شيء من هذا القبيل ؟ اما أنك جُلدت واما أنك لم تُجلد ، ولا وسط بين الأمرين !

سأل « السيد » البولندى ذو الغليون ، سأل صاحبه البولندى الطويل ، متململاً متذمراً :

ـ كم الساعة الآن ؟

فرفع البولندى الطويل كتفيه • لم يكن مع أحد من الرجلين البولنديين ساعة •

تدخلت جروشنكا تقول بلهجة هجومية :

ـ هل أضجركم هذا الحديث ؟ دعوا الآخرين يتكلمون ! لماذا تمنعونهم من أن يتسلوا ويسروا عن أنفسهم ؟

كان يبدو على جروشنكا أن مزاجها متأهب للمشاجرة ، فدُهش ميتيا من هذا لأول مرة • أجاب « السيد » البولندى بشيء من العصبية ، أجاب يقول باللغة البولندية :

ـ سيدتى ! أنا لم أقل شيئاً ، ولا أنوى أن أزعج أحداً •

فهتفت جروشنكا متجهة بالكلام الى ماكسيموف :

ـ طيب • اقصص الآن • مالى أراكم تسكتون جميعاً على حين فجأة !

استأنف ماكسيموف كلامه يقول وقد سرّه الاهتمام به ، وأخذ يصطنع اللطف :

ـ ليس هناك ما أقصه ! ما هذا كله الا هراء ! ثم ان جوجول قد موّه أكثر الأسماء فى هذه القصة ، وأبدلها بتسميات رمزية • من ذلك

أن نوزدريوف قد كان اسمه الحقيقى نوسوف*، كما ان كوفشينيكوف كان اسمه الحقيقى شكفورنيف ، والاسمان مختلفان كل الاختـــلاف • أما فيناردى فكان اسمه فعلاً فيناردى ، ولكنه كان روسياً لا ايطالياً : فيناردى بتروف • وكانت الآنسة فيناردى فتاة أخاذة فتانة ••• ليتكم رأيتموها ! ليتكم رأيتم ساقيها المغمدين فى سروالها الضيق تحت تنورتهـا القصيرة ذات الأسلاك المشدودة ! ••• وما كان أروع دورانها ! ••• ولكنها لم تدر الا خلال أربع دقائق ، لا خلال أربع ساعات • لقد فتنت ألبابنـا جميعاً يومئذ •••

زأر كالجانوف يسأله :

ــ ولكن لماذا جلدوك ؟ هلاّ قلت لنا لماذا جلدوك ؟ ذلك هو الأمر الذى يعنينا !

أجاب ماكسيموف :

ــ جلدونى بسبب بيرون •

فسأله ميتيا :

ــ اى بيرون ؟

ــ الكاتب الفرنسى الشـــهير بيرون • كنا جماعةً كبيرة فى كاباريه وكنا قد شربنا قدراً لا بأس به من الخمر • حدث ذلك فى أثنـــاء تلك السوق نفسها • دعوْنى ، فما لبثت أن كِلْتُ لهم أبياتاً شعرية لاذعة • قالوا لى : « أهذا أنت ••• الشاعر بوالو ؟ يا للزى الغريب المضحك! »* فأجابهم بوالو بأنه ذاهب الى حفـلة تنكرية ، وكان بوالو يقصـــد بذلك الحمامات ••• هأ هأ ! ••• ولكنهم عدوا هذا تعريضاً بهم • وعندئذ

أسرعت أكيل لهم أبياتاً جديدة معروفة فى الأوساط المثقفة ، وكانت فى الحق كاوية :

أنت سافو وأنا فاوون ـ ذلك أمر مر
ولكن أكبر مصائبى
انك تجهلين طريق البحر * .

فازداد اســتياؤهم وأخذوا يهينوننى اهانات ليست لائقة . فاردت عندئذ ، لسوء حظى ، أن أصلح ما بدر منى من خراقة ؛ ومن أجل أن أسوّى الأمر قصصت عليهم حكاية عن الشاعر بيرون التى لا يعرفها الا المثقفون جداً . فذكرت لهم كيف أن هذا الشاعر ، حين لم ينتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية ، أراد أن ينتقم لنفسه ، فنظم بيتين لشاهدة قبره ، فقال :

هنا يرقد بيرون ، الذى لم يكن شيئا ذا بال
حتى ولا عضوا فى الاكاديمية

فما كان منهم الا أن هجموا علىّ فجلدونى .

ـ عجيب ! لماذا ؟ لأى سبب ؟

ـ ليعاقبونى على سعة اطلاعى .

وأضاف ماكسيموف يختم كلامه ، مصطنعاً هيئة التعمق والحكمة، قائلاً :

ـ ما أكثر الأسباب التى يُجلد من أجلها انسان !

قاطعته جروشنكا قائلة :

ـ كفى ! لقد ضقت ذرعاً بهذه الحكايات المضجرة ! لا أريد أن أسمعها بعد الآن • لقد توقعت شيئاً أدعى الى البهجة وأبعث على الضحك!

فسرعان ما وجم ميتيا وكفّ عن الضحك • ونهض « السيد » البولندى الطويل ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً واضعاً يديه وراء ظهره ، وقد بدا عليه الكبر والتعالى ، كرجل أوقعته المقادير فى صحبة أناس يزدريهم فهو يشعر بملل وسأم •

قالت جروشنكا وهى تنظر اليه باحتقار :

ـ ما أبلد مشيته هذه !

فازداد انفعال ميتيا ، لا سيما وأن « السيد » الجالس على السكنبة كان يتفرس فيه بغير لطف أو وداعة فيما خيل اليه • فصاح ميتيا يقول :

ـ فلنشرب أيها السيد • (ثم التفت الى البولندى الآخر وتابع كلامه) • وأنت أيضاً ••• فلنشرب ، فلنشرب أيها السادة !

وتناول ثلاث كئوس وملأها شمبانيا • وهتف يقول :

ـ فلنشرب نخب بولنده ! فلنشرب نخب بلادكم بولنده ! فلنشرب نخب الأرض البولندية !

فأجابه « السيد » ذو الغليون قائلاً بوقار متلطف وهو يرفع كأسه :

ـ بكل سرور يا سيدى ! فلنشرب !

فقال ميتيا مهتماً :

ـ والسيد الآخر أيضاً • هلاّ قلتم لى اسمه ! خذ كأساً يا سيدى •

قال السيد ذو الغليون :

ـ اسمه السيد فروبلفسكى •

واقترب السيد فروبلفسكى من المائدة متمايلاً ، وتناول كأساً ، ولكنه ظل واقفاً •

هتف ميتيا وهو يرفع كأسه :

ـ فلنشرب نخب بولنده يا سادتى !

وقرع الثلاثة كئوسهم بعضها ببعض • ولم يلبث ميتيا أن تناول الزجاجة فملأ الكئوس الثلاث من جديد • وقال :

ـ والآن فلنشرب نخب روسيا أيها السادة ! علينا أن نتآخى !

قالت جروشنكا :

ـ املأ لى أنا أيضاً كأساً • أريد أن أشرب كأس روسيا •

وقال كالجانوف :

ـ وأنا كذلك !

وزاد ماكسيموف فقال :

ـ وأنا أيضاً ! اننى احرص على أن أشرب نخب جدتنا العجوز روسيا • هيء هيء ! •••

هتف ميتيا يقول :

ـ فلنشرب جميعاً ! فلنشرب جميعاً ! هات زجاجات أخرى يا رئيس !

جيء بالزجاجات الثلاث الباقية • وملأ ميتيا الكئوس • وصاح يقول من جديد :

ـ نخب روسيا !

فشرب الجميع الا البولنديين • أفـرغت جروشنكا كأسـها دفعة ً واحدة • أما البولنديان فلم يمسّا كاسيهما •

قال ميتيا فى دهشة :

ـ ماذا ؟ أهكذا أنتم ؟

فتناول « السيد » فروبلفسكى كأسه ، ورفعه ، وقال بصـوت أخف :

ـ اننى اشرب نخب روسيا بحدودها السابقة على سنة **١٧٧٢** ! *

فهتف « السيد » الآخر قائلاً باللغة البولندية :

ـ عظيم !

وأفرغ الاثنان كأسيهما • فلم يملك ميتيا الا أن يقول :

ـ ما أغباكما !

فانتصب « السيدان » أمام ميتيا كديكين ، وقالا له بلهجة التهديد :

ـ أيها ••• السيد !

وكان يبدو على فروبلفسكى أنه خارج عن طوره؛ وها هو ذا يصرخ قائلاً فى استياء (باللغة البولندية) :

ـ هل محظور على المرء أن يحب بلاده ؟

وهنا انفجرت جروشنكا تقول بصوت صـارم وهى تقرع الأرض بقدمها :

ـ سكوت ! كفاكم شجاراً ! لا أريد هذه المناقشات !

قالت جروشنكا ذلك وقد التهب وجهها وسطعت عيناها • كانت الشمبانيا قد فعلت فعلها • خاف ميتيا • وأسرع يقول :

ـ معذرة أيها السيدان ! أنا المذنب • لن أكرر • يا فروبلفسكى ، يا سيد فروبلفسكى ، سأجلس ساكناً هادئاً بعد الآن •

فقاطعته جروشنكا قائلة بانزعاج :

ـ ليتك تسكت أنت على الأقل ؟ أبله !

جلس جميع الحضور ، وخيمّ الصمت ، وأخذوا ينظرون بعضهم الى بعض فى حرج •

لم يدرك ميتيا شيئاً عن اندفاع جروشنكا ، فاستأنف يقول :

ـ أنا سبب هذا كله أيها السادة ! يجب أن لا نبقى عاطلين هكذا •• ألا نستطيع أن نتخيل شيئاً ••• فنسترد مرحنا وانطلاقنا ؟ •••

قال كالجانوف باهمال ودون اكتراث :

ـ حقاً ان المرء ليضجر هنا ضجراً رهيباً •

فقال ماكسيموف مقترحاً :

ـ ما رأيكم فى لعبة بالورق كما فعلنا منذ قليل ؟ هىء هىء !

فقال ميتيا مؤيداً مستحسناً :

ـ لعبة بالورق ؟ فكرة عظيمة ! هذا اذا وافق هذان السيدان •••

فقال السيد ذو الغليون بلهجة تنم عن اعتكار المزاج ، قال باللغة البولندية :

ـ بوزنو (الوقت متأخر) •

فقال فروبلفسكى مؤمنا :

ـ هو على حق •

فسألت جروشنكا :

ـ بوزنو ؟ ما معنى هذه الكلمة ؟

فأجابها السيد الجالس على الكنبة :

ـ معناها : الوقت متأخر •

فقالت جروشنكا بصوت حاد وقد نفد صبرها :

ـ الوقت دائماً متأخر فى نظر هذين السيدين ، وكل شيء مستحيل فى نظر هذين السيدين • انهما لا يجيدان الا الضجر والسأم ، ويريدان أن يحرما الآخرين من البهجة والمسرة • انهما ، الى أن جئت يا ميتيا ، لم يفعلا طوال الوقت شيئاً غير الصمت ، متخذين هيئة التعالى تجاهى •

فهتف « السيد » الجالس على الكنبة يقول باللغة البولندية :

ـ الهتى ! ما قلته صحيح تماماً • لقد أصبحت حزيناً منذ لاحظت أنك مستاءة غير راضية •

وأضاف يقول لميتيا بغير تمهل :

ـ أنا مستعد •

فأجابه ميتيا :

ـ افتح اللعب يا سيدى •

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية من جيبه فسلّ منهـا ورقتين بمائتى روبل ووضعهما على المائدة • وقال :

ـ أريد يا سيدى أن أخسر مالاً كثيراً معك • خذ الورق ، وكن أنت الخازن •

قال « السيد » القصير بلهجة جادة مشدداً كلماته :

ـ يجب أن نلعب بورق صاحب النزل •

فقال السيد فروبلفسكى مؤيداً :

ـ ذلك أفضل حقاً !

قال ميتيا وقد أدرك ريبتهما :

ـ تفضلون ورق صاحب النزل ؟ طيب أيها السادة ! سنأخذ ورق صاحب النزل • أنتم على حق •

وقال يأمر صاحب النزل :

ـ هات ورقاً •

فجاء صاحب النزل برزمة ورق مختومة ، وأعلن لميتيا أن البنات قد تجمعّن ، وأن اليهود الذين يعزفون على الرباب والكمان سيصـــلون بعد هنيهة ، ولكن العربة التى تحمل المؤن قد تأخرت • فنهض ميتيـا فجأة ، وأسرع الى الغرفة المجاورة ليتخذ الاجراءات اللازمة • لم يكن فى الغرفة الا ثلاث بنات • ولم تكن ماريا قد ظهرت بعد • وكان ميتيـا لا يعرف فى الواقع ما هى الاجراءات التى كان عليه أن يتخذها ، حتى لقد تساءل ماذا جاء يعمل فى هـــذه الغرفة • ومن أجل أن يخرج من ارتباكه أمر بأن يؤتى بالصندوق الذى يحتوى السكاكر ، وأن يوزّع

على البنات كارامل • وأضاف يقول متعجلاً : « وقدّموا فودكا لآندره لأنني جرحت شعوره منذ قليل » •وشعر ميتيا في تلك اللحظة بأن أحداً يضـــع يده على كتفه ، فالتفت فرأى ماكسيموف الذى كان قد تبعه الى الغرفة •

همس الملاّك يقول له :

ـ هل تستطيع أن تسلفنى خمسة روبلات ؟ اننى أحب أن ألعب أيضاً ! هيء هيء •••

ـ عظيم ! عظيم ! خذ هذه الروبلات العشرة ! اليك عشرة روبلات !

وأخرج ميتيا حزمة الأوراق المالية من جيبه مرة أخرى ، فتناول منها ورقة بعشرة روبلات ، وقال له :

ـ وما عليك اذا خسرتها الا أن تطلب المزيد • ســـأعطيك غيرها أيضاً •••

همس ماكسيموف يقول فرحاً كل الفرح :

ـ هذا يدبر أمرى !

وأسرع يعود الى القاعة الأخرى •

ولم يتأخر ميتيا عن اللحاق به ، واعتذر للجمع عن تغيبه • وكان البولنديان ، الجالسان الآن الى المائدة ، قد فضا الورق قبل وصوله • وقد أصبح وجهاهما أقل جهامة وأكثر بشاشة حتى ليمكن أن يوصفا باللطف والدماثة • وها هوذا « السيد » القصـير ، الذى أشعل غليوناً جديداً ، يستعد لخلط الورق بوقار • هتف فروبلفسكى يقول :

ـ مكانكم يا سادتى !

فقال كالجانوف :

ـ أنا لن ألعب • فقد سبق أن خسرت معهما خمسين روبلا •

فقال السيد ذو الغليون :

ـ ان سيدى لم يحالفه الحظ فى المرة السابقة ، ولكن قد يتدارك الآن ما فاته •••

سأل ميتيا متحمساً :

ـ كم الخزنة ؟

ـ يمكن أن تكون مائة روبل ، ويمكن أن تكون مائتين ، فذلك متوقف على المبلغ الذى تحطه •

فقال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً :

ـ مليون !

ـ لا شك أن الكابتن يعرف قصة السيد بودفيزوكى * ؟

ـ أى بودفيزوكى ؟

ـ حدث فى ذات مســـاء فى فارصوفيا أن تكدست جميع الأموال المحطوطة عند الخازن • فأقبل بودفيزوكى ، فرأى ألوف القطع الذهبية، فحطّ مبلغاً • سأله الخازن عندئذ أهو يريد أن يلعب بذهب أم هو يريد أن يلعب اعتماداً على عهد الشرف • فقال بودفيزوكى : « بل اعتماداً على عهد الشرف » ، فقال الخـازن « حسناً » ، وقطـــع ، فلمّ بودفيزوكى القطع الذهبية • فاذا بالخازن يقول له : « لحظة أيهـا السيد » • وفتح الدرج وناول بودفيزوكى مليوناً وهو يقول له : « خذ • هذا ما ربحته• لقد كانت الخزنة مليوناً • قال بودفيزوكى متردداً : « **كنت أجهل هذا** »، فقال له الخازن : « يا سيد بودفيزوكى ، أنت لعبت بالاعتماد على عهـد

الشرف ... وأنا كذلك . فأخذ بودفيزوكى المليون ودسّه فى جيبه .

هتف كالجانوف يقول :

ـ هذا غير صحيح !

فقال السيد ذو الغليون ، يخاطبه باللغة البولنديه :

ـ يا سيد كالجانوف ، ما هكذا يتكلم المرء فى صحبة أناس محترمين !

فصاح ميتيا قائلاً :

ـ لا تحاول أن تقنعنا بأن بولندياً قد أعطى مليوناً على هذا النحو !

ولكن ميتيا لم يلبث أن ثاب الى نفسه فاستدرك يقول :

ـ معذرة يا سيدى ! ها أنا ذا أخطىء من جديد ! ان البولنديين يمكن أن يعطوا مليوناً بسهولة ، تنفيذاً لعهد الشرف ، صوناً للشرف البولندى ... أنا أسلم بهذا ! ... أرى أننى سأتكلم أنا أيضاً باللغة البولندية آخر الأمر ! هأ هأ هأ ! أحط عشرة روبلات على الأعرج (الفاليه) .

فقال ماكسيموف وهو يقدم ورقة البنت (الدام) :

ـ وأنا أقامر بروبل صغير على البنت ، البنت الجميلة ، البنت البستونية ، على « الست » ، هىء هىء ...

قال ماكسيموف ذلك واقترب من المائدة اقتراباً شديداً ، كأنه يريد أن يخفى ما سيفعله ، ورسم تحت المائدة اشارة الصليب .

ربح ميتيا ، وربح الروبل الصغير أيضاً .

قال ميتيا :

ــ أضاعف .

وتمتم ماكسيموف يقول بسعادة كبيرة وقد طار لبه فرحاً بربحه الروبل :

ــ وأنا ألعب مرة أخرى بروبل ، روبل فقط ، روبل طيب ، روبل شهم صغير !

صرخ ميتيا :

ــ خسرت ! أضاعف حطتي على السبعة .

وخسرت السبعة أيضاً .

قال كالجانوف فجأة :

ــ كفوا عن اللعب .

فعاد ميتيا يقول دون أن يضطرب :

ــ أضاعف .

وظل ميتيا يضاعف ، وظل يخسر في كل مرة ، ولكن الروبلات الصغيرة التي كان يحطها ماكسيموف ظلت تربح .

صرخ ميتيا حانقاً :

ــ أضاعف أيضاً .

ــ فقال له « السيد » ذو الغليون :

ــ خسرت حتى الآن مائتي روبل . فهل تريد أن تقـــامر بمائتي روبل دفعةً واحدة ؟

ـ كيف ؟ خسرت مائتي روبل ؟ لا بأس ! أضاعف مع ذلك ! ألعب بمائتي روبل دفعةً واحدة !

قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه ورقتين بمائتي روبل ، وهمّ أن يلقيهما على البنت (الدام) ، فاذا بكالجانوف يضع يده عليهما فيغطيها • قال كالجانوف صائحاً بصوت رنان :

ـ يكفي هذا !

فسأله ميتيا وهو ينظر اليه مندهشاً :

ـ ماذا بك ؟

ـ يكفي هذا • لن أدعك تستمر •

ـ لماذا ؟

ـ هكذا ! دعهما وامض • هذا أفضل • صدقني • سوف أمنعك من متابعة هذا اللعب •

كان ميتيا يتفرس فيه دون أن يفهم •

وتدخلت جروشنكا قائلة بنبرة غريبة في صوتها :

ـ دع اللعب يا ميتيا • ربمـــا كان على حق • ثم انك قد خسرت ما فيه الكفاية •

قلق « السيد » القصير فقال يخاطب كالجانوف بالبولندية وهو يحدق اليه تحديقاً قاسياً :

ـ أتراك تمزح ؟

وصرخ « السيد » الطويل يقول لكالجانوف بصوت راعد !

ـ كيف تجرؤ أن •••

فغضبت جروشنكا وقالت :

ـ لا أسمح بالصراخ هنا • لكأنكم ديكة حانقه !

كان ميتيا ينقل بصره عليهم واحداً بعد واحد • وفجأة لفت انتباهه في هيئة جروشنكا تعبير غريب • وفي تلك اللحظة نفسها ومضت في ذهنه فكرة عجيبة •

بدأ « السيد » القصير يتكلم فقال وقد احمر وجهه غضباً :

ـ سيدتي أجريبينا •••

ولكن ميتيا لم يدعه يكمل كلامه • فقد اقترب منه ، ووضع يده على كتفه وقال له :

ـ كلمتين أيها السيد النبيل !

فسأله هذا بالبولندية :

ـ ماذا تريد ؟

فأجابه ميتيا :

ـ تعال معي الى الغرفة المجاورة • أريد أن أكلمك على انفراد، وما سأقوله لك سيسرك كثيراً • سترى أن ما سأقوله لك يرضيك •

بدت الدهشه على « السيد » القصير ، ونظر الى ميتيا في خشيه • ومع ذلك رضي أن يتبعه ، ولكنه اشترط أن يصحبه « السيد » فروبلفسكي •

هتف ميتيا قائلاً :

ـ حارسك ؟ فليأت هو أيضاً ••• ثم ان حضوره ضروري • هيا بنا أيها السيدان !

سألته جروشنكا قلقة :

ـ الى أين تذهبون ؟

فأجابها ميتيا :

ـ سنعود بعد لحظة .

من رأى ميتيا فى تلك اللحظة أحس أن فيه عزماً وتصميماً وجرأة، وأحس أنه واثق من نفسه ثقة لا تُنتظر منه . ان تعبير وجهه الآن يختلف كل الاختلاف عن تعبير وجهه ساعة وصوله .

قاد ميتيا الرجلين البولنديين الى غرفة تقع على اليمين ، ليست هى الغرفة التى كانت تتجمع فيها جوقة البنات وتُهيأ فيها المائدة للقاصفين ، ولكنها غرفة نوم ملأى بالحقائب والصناديق ، وفيها سريران كبيران على كل منهما جبل من وسائد . وكان فى الغرفة شمعة مشتعلة فوق منضدة . جلس « السيد » ذو الغليون وميتيا متقابلين ، ووقف « السيد » العملاق فروبلفسكى فى جانب ، واضعاً يديه وراء ظهره . ان الرجلين البولنديين يرقبان ميتيا عابسين ، ولكن كان واضحاً أنهما يشعران برغبة قوية فى معرفة ما يريد أن يقوله .

تمتم « السيد » ذو الغليون يقول بالبولندية :

ـ ما الخدمة التى يمكننى أن أقدمها لك ؟

ـ اسمع أيها السيد . لن أراوغ وأخاتل . خذ المال (قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية) ، خذ المال ... هل تريد ثلاثة آلاف روبل ؟ خذها وانصرف !

حدق « السيد » الى ميتيا بنظرة فاحصة ، مغرقا عينيه فى عينيه . وسأله بالبولندية :

ـ ثلاثة آلاف روبل أيها السيد ؟

وتبادل وصاحبه فروبلفسكى نظرة خاطفة •

قال له ميتيا :

ـ نعم ، ثلاثة آلاف ! اسـمع أيها السيد : اننى ألاحظ أنك رجل عاقل • خذ هذه الثلاثة آلاف روبل واذهب من هنا ، ولكن لا تنس أن تصطحب صاحبك فروبلفسكى ، هل فهمت ؟ على أننى اشترط أن تذهب فوراً ، فى هذه الدقيقة نفسها ، والى الأبد • الى الأبد ، فهمت ؟ تخرج من هذا الباب ، هل ترى ؟ ماذا تركت فى الغرفة الأخرى ؟ معطفاً ؟ فراء؟ سأجيئك به • وسآمر باعداد عربة ترويكا لك فوراً ••• وأتمنى لك سفراً سعيداً أيها السيد • هيه ، ما رأيك ؟

كان ميتيا ينتظر الجواب وهو ممتلىء ثقة • كان لا يراوده شك فى أن الرجل سيقبل هذا العرض • واتخذ وجه « السـيد » ذى الغليون هيئة تنم عن غاية العزم والتصميم • وقال يسأل ميتيا :

ـ أين المال يا سيدى ؟

ـ اليك تفصيل الأمر فيما يتعلق بالمال : أدفع لك الآن خمسمائة روبل سلفة ونفقات سفر • أما الباقى ، وهو ألفان وخمسمائة ، فسأدفعه لك غداً فى المدينة ، أحلف لك بشرفى • سأجيئك بهذا المبلغ من تحت الأرض اذا لزم ذلك ! (هكذا صاح ميتيا) •

تبادل البولنديان نظرة • وأصبح وجه « السيد » ذى الغليون أقل تشجيعاً مما كان منذ قليل • قال ميتيا :

ـ بل أعطيك سبعمائة، سبعمائة روبل ، لاخمسمائة، كدفعة أولى•• أعطيكها حالاً ، فى هذه اللحظة نفسها (كذلك أسرع يقول ميتيا الذى

لاحظ أن الأمور أخذت تجرى مجرى لا يبعث على الامل) • ما بك أيها السيد ؟ ألا تصدقنى ؟ لست أستطيع أن أنقدك ثلاثة آلاف دفعةً واحدة على كل حال • ذلك أنك قد تأخذ المبلغ الآن ثم تعود اليها غداً ••• ثم اننى لا أحمل الآن هذا المبلغ ، وانما هو مخبأ فى مسكنى بالمدينة ، (كذلك تمتم يقول أليوشا الذى كانت شجاعته تهبط عند كل كلمة جديدة ، والذى أصبح يرتعش منذ ذلك الحين خوفاً من الاخفاق) أحلف لك أن هذا المال فى بيتى ، مخبأ •••

وفى مدى لحظة قصيرة ، اجتاح وجهَ « السيد » ذى الغليون تعبيرٌ عن أنفة خارقة وشمم هائل ، فسأل ميتيا فى سخرية (باللغة البولندية) :

ــ أهذا كل ما تريده ؟

ثم بصق للتعبير عن اشمئزازه بمزيد من القوة •

وبصق فروبلفسكى أيضاً •

قال ميتيا وقد شعر باليأس يغزوه ، وأدرك أن كل شىء قد ضاع ، قال :

ــ أنت تبصق أيها السيد لأنك تأمل أن تسلب جروشنكا مبلغاً أكبر! ألا انكما كليكما لمضحكان !

فقال « السيد » ذو الغليون ، وقد احمر احمراراً شـــديداً (قال باللغة البولندية أيضاً) :

ــ انك تهيننى الى أقصى حدود الاهانة •

ثم أسرع يتجه نحو الباب ، فى هيئة رجل مستاء لا يريد أن يسمع المزيد من الكلام • وسار فروبلفسكى وراءه متمايلاً • وتبعهما ميتيـــا مضطرباً حائراً وقد أسقط فى يده • كان يخشى غضب جروشنكا ، لأنه

أوجس أن البولندى سيفضح الأمر • وذلك ما حدث فعلاً • فقد دخل « السيد » ذو الغليون القاعة ، فوقف أمام جروشنكا وقفة مسرحيـــة ، وهتف يقول لها باللغة البولندية :

ـ لقد أُهنت الى أقصى حدود الاهانة •

فاذا بجروشنكا تصيح فى وجهه حانقة مسعورة :

ـ باللغة الروسية ، تكلم باللغة الروســـية ! لا أريد بعد الآن أن أسمع كلمة بولندية واحدة ! لقد كنت تعرف الروســـية فى الماضى ، ولا يمكن أن تكون قد نسيتها فى خمس سنين !

وكانت جروشنكا محمرّة الوجه غضباً •

ـ سيدتى أجريبينا •••

ـ اسمى أجرافين ••• أنا جروشنكا ••• تكلم بالروسية اذا كنت تريد أن أسمع لك !

جُرحت كبرياء «السيد» ، فاحمر وجهه ، وأسرع يقول فى تنفخ وفخفخة ، متعمداً تشويه الكلمات :

ـ أيها السيدة أجرافين ! لقد جئت وأنا أنوى أن أنسى الماضى وأن أغفر ، جئت وأنا أنوى مسح ما حدث حتى هذا اليوم •••

فقاطعته جروشنكا قائلة وهى تثب من مكانها :

ـ جئت لماذا ؟ لتغفر ؟ أتريد أن تغفر لى أنا ؟

ـ نعم يا سيدتى ، كنت أريد أن أغفر لك • ان لى نفساً رحبة وقلباً سمحاً • ولكن سلوك خلاّنك قد أدهشنى • فمنذ هنيهة ، فى الغـــرفة المجاورة ، أراد « السيد » ميتيا أن يعطينى ثلاثه آلاف روبل لأسافر • فبصقت فى وجهه •

صرخت جروشنكا تسأله بصوت حاد :

ـ ماذا ؟ هل تجرأ أن يقدم لك مالاً من أجلي ؟ أصحيح هذا يا ميتيا ؟ كيف جرؤت ؟ أأنا امرأة تباع وتُشترى ؟

قال ميتيا في أنين :

ـ أيها السيد ، أيها السيد ، انها طاهرة كملاك ، ولم أكن خليلها في يوم من الأيام . لقد كذبتَ في هذا الأمر ...

زأرت جروشنكا تقول :

ـ كيف تجرؤ أن تدافع عني أمامه ؟ لئن حافظتُ على طهارتي ، فانني لم أفعل ذلك تمسكاً بالفضيلة ، بل ليكون من حقي أن أصرخ في وجه هذا الرجل حين ألقاه : أنت شقي تعس ! هل يمكن حقاً أن يكون قد رفض المال الذي عرضته عليه ؟

فصاح ميتيا يقول :

ـ رفض ؟ انه لم يرفض ... لقد رضي ... ولكنه أراد أن أنقده الثلاثة آلاف روبل دفعةً واحدة ، أما أنا فقد عرضت عليه قسطاً أول هو سبعمائة روبل .

قالت جروشنكا :

ـ اتضح الآن كل شيء : لقد علم انني أملك مالاً ، فأراد أن يتزوجني !

صرخ « السيد » يقول :

ـ يا سيدة أجريبينا ، أنا فارس ، أنا بولندي نبيل ، لا شقي تعيس. لقد كنت أريد أن أتخذك حليلةً لي ، ولكنني أرى الآن أمامي امرأة

تختلف كل الاختلاف عن المرأة التى عرفتهـــا ، أرى أمامى الآن امرأة راكبة رأسها خالعة عذارها •••

صرخت جروشنكا تقول وقد خرجت عن طورها :

ـ اذهب ! عد من حيث جئت ! لآمرن بطردك ، فيضـــعوك على الباب ! ألا ما كان أشـــد بلاهتى حين عذبت نفسى خـلال هذه السنين الخمس بسببه ! ••• لا ••• اننى لم اعذب نفسى هذا التعذيب بسببه ، وانما عذبت نفسى غضباً وحنقاً ! ليس هذا هو الرجل الذى أحببتـه ! أوه ! انه لم يكن هكذا ! ليس هذا الرجل هو من أحببت ! أغلب الظن أنه أبوه ! أين صنعت لنفسك هذه الباروكة المضـــحكة ؟ لقد كان ذاك صقراً ، أما هذا فدجاجة مبتلة ! كان ذاك يضحكنى وينشدنى الأغانى •• الا ما كان أغبانى اذ لبثت أبكى طوال خمس سنين ، وما كان أحطنى ، وما كان أجبننى !

قالت جروشنكا ذلك وتهالكت على مقعدها من جديد ، وغطت وجهها بيديها • وفى تلك اللحظـــة ، ترجعت فى الغرفة التى تقع على الشمال أصوات جوقة بنات موكرويه اللواتى اجتمع شملهن أخيراً • لقد أخذن يغنين رقصة شيطانية •

فصاح فروبلفسكى على حين فجأة يقول :

ـ هذا محل دعارة ! يا ريس ، اطرد هاته النساء الخليعات !

كان صاحب النزل يلقى على القاعة نظـرات استطلاع من حين الى حين ، فلما سمع الصراخ وأدرك أن نزلاءه قد أخذوا يتشاجرون أسرع اليهم • وقال يسأل فروبلفسكى بلهجة فظة :

ـ هيه ! أنت ! مالك تصيح هذا الصياح بحلقك العريض كله ؟

فزأر « السيد » فروبلفسكى يقول له :

ــ وغد !

ــ وغد ؟ أنا وغد ؟ هلاّ قلت لى بأى ورق لعبت منذ قليل ؟ لقد جئتك بحزمة مختومة ، فأخفيتها ، ولعبت بورق مغشوش ! هل تعلم أننى أستطيع أن أرسلك الى سيبريا بسبب هذا الغش ؟ ان اللعب بورق مزيف يشبه صنع نقود مزيفة ...

واقترب صاحب النزل من الكنبة ، فأغطس يده بين الوسادة والظهر ، فسحب حزمة الورق المختومة ، وقال :

ــ هذا ورقى ، لم يمسّ !

ورفع حزمة الورق بين أصابعه يُظهر عليها جميع الحضور ، وهو يقول :

ــ لقد رأيته من ركنى لحظة دسّ هذه الحزمة فى الشق ، وأحل محلها ورقاً من عنده ! أنت وبش لا « سيد » ...

وقال عندئذ كالجانوف :

ــ وأنا فاجأت « السيد » يغش مرتين .

صاحت جروشنكا تقول وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ــ يا للعار ! آه ... يا للعار ! ... رباه ! كيف أمكن أن يتغير هذا الرجل الى هذا الحد ؟...

وكانت جروشنكا قد تخضب وجهها بحمرة شديدة من فرط شعورها بالذل والخجل .

قال ميتيا :

ــ لقد اشتبهت فى أنهما يغشان !

فما ان نطق ميتيا بهذه الكلمات حتى التفت « السيد » فروبلفسكى الى جروشنكا مغتاظاً مضطرباً ، وصرخ يقول لها وهو يمد قبضة ذراعه نحوها :

ــ مومس !

ولكن ميتيا انقض عليه فى تلك اللحظة نفسها ، فأمسك بجسمه كله ، ورفعه ، ونقله بلمحة طرف الى الغرفة التى تقع على اليمين ، الغرفة التى قادهما اليها منذ لحظات . وسرعان ما عاد الى القاعة لاهثاً من الجهد والانفعال ، فقال للقوم :

ــ رميته على الأرض ! المسكين يتخبط ، ولكنه لن يسارع الى الرجوع .

وأغلق ميتيا أحد مصراعى الباب ، وترك المصراع الثانى مفتوحاً ، واتجه الى « السيد » ذى الغلبون يسأله :

ــ هل تتنازل ، أيها السيد النبيل ، فتلحق بصاحبك ؟ برزبرازنام ! (معذرة !) .

فهتف تريفون بوريستش يقول :

ــ ولكن يا دمترى فيدوروفتش ، استردّ منه المال الذى خسرته فى اللعب ، على الأقل ... لقد سرقاك !

قال كالجانوف :

ــ أنا أترك لهما روبلاتى الخمسين !

فصاح ميتيا :

ـ وأنا أتنازل عن روبلاتى المائتين ! لن استردها بحال من الأحوال فليحتفظا بها عزاءً لهما !

ـ مرحى ميتيا •

كذلك صاحت تقول جروشنكا بصوت فيه شيء من الشر •

فاتجه « السيد » ذو الغليون نحو الباب ، وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من فرط الحنق ، ولكنه لم يفقد شيئاً من رصانته • ومع ذلك فانه قبل أن يخرج من القاعة ، التفت نحو جروشنكا وقال لها (بالبولندية) :

ـ سيدتى ، اذا كنت تريدين أن تتبعينى ، فتعـــالى ! والا ••• فوداعاً •••

ثم اجتاز الباب عابس الوجه مختنق الصدر غضباً وخزياً •

ذلك انسان لا يهزه شيء • فانه بعد كل ما حدث ظل يأمل أن تتبعه « السيدة » ، لأنه يقدر نفسه قدراً عظيماً •

أغلقت جروشنكا الباب عليهما •

وقال لها كالجانوف ناصحاً :

ـ أقفلى الباب عليهما بالمفتاح •

ولكن القفل صرّ من داخل الغرفة • لقد سارعا هما الى اقفال الباب المفتاح •

هتفت جروشنكا تقول بلهجة حاقدة :

ـ عظيم ! ذلك كل ما كانا يستحقانه !

٨

هذيان

ما ان مضى البولنديان حتى سمل القاعة مرحٌ عام، وحتى بدأ احتفال سببه أن يكون مجوناً وكانت جروشنكا أول المطالبين بخمر • قالت :

ـ أريد أن أشرب ، أريد أن أسكر تماماً، كالمرة السابقة ، هل تتذكر ياميتيا ، يومَ تعارفنا ؟

وكانت حالة ميتيا النفسية أشبه بهذيان ، لأنه كان يتنبأ « بسعادته ». وكانت جروشنكا ، مع ذلك ، ما تنفك تصرفه فى كل لحظة ، قائلةً له :

ـ اذهب اليهم ، سرِّ عن نفسك ، مرهم بأن يرقصوا ، حتى يكون هنالك انطلاق ومرح • أريد قصفاً عنيفاً حاراً ، كالمرة السابقة ، كالمرة السابقة تماماً •

كانت جروشنكا مهتاجة جائشة النفس • وكان ميتيا يتحرك هنا وهناك ليطيعها وينفذ أوامرها • تجمع أفراد الجوقة فى الغرفة المجاورة• ان هذه القاعة التى تجمعوا فيها صغيرة مسرفة فى الصغر ، تقسمها الى قسمين ستارةٌ من نسيج هندى تخفى وراءها سريراً ضخماً مغطى بلحاف كبير فوقه كدسة من وسائد • وان فى سائر الغرف الأربع الأخرى « النظيفة » سرراً على كل حال • استقرت جروشنكا أمام الباب ، حيث

أتاها ميتيا بمقعد تجلس عليه • ذلك هو المكان الذى شغلته « فى ذلك اليوم» ، أثناء احتفالها الأول فى الليل ، تتأمل منه الرقصات وتسمع الغناء• ان البنات اللواتى اشتركن فى ذلك الاحتفال قد جئن اليوم هن أنفسهن• ولم يلبث اليهود أن وصلوا مع آلات الرباب والكمان • وأُعلن أخيراً أن عربة الترويكا التى طال انتظارها قد وصلت هى أيضاً تحمل المؤن •

شُغل ميتيا كثيراً ، وراح يتحرك هنا وهناك • كان أناس من أهل القرية يقفون أمام العتبة من حين الى حين ليلقوا نظرةً على الغرفة • لقد أوقظ الفلاحون والفلاحات فى وسط الليل ، وأسرعوا يرتدون ثيابهم ، متوقعين وليمة عجيبة كوليمة الشهر الماضى • ان ميتيا يحيى الوافدين الجدد ، ويعانق الأصحاب القدامى ، ويبير ذكريات سابقة ، ويفتح الزجاجات ، ويقدم الشراب لكل قادم • والبنات وحدهن يقدرن الشمبانيا ، أما الفلاحون فيؤثرون خمر الروم والكونياك ، ويفضلون « البنش » خاصة • أصدر ميتيا أوامره باعداد شوكولاتة للبنات ، وبأن تظل ثلاثة سماورات يغلى ماؤها بدون انقطاع لتحضير الشاى والبنش • يجب أن يكون هنالك شراب للجميع • يجب أن يستطيع كل قادم أن يسكر ما شاء له هواه أن يسكر • الخلاصة : قامت الدنيا وقعدت ، وأخذ الناس يشربون فوضى لا يلجمهم شىء • ولكن ميتيا كان يحس فى هذا السديم المضطرب بارتياح ، ويزداد انتعاشاً ونشاطاً على قدر ازدياد الفوضى والسخف فى هذه السهرة • فلو خطر ببال أول فلاح واصل أن يسأله مالاً فى تلك اللحظة ، اذن لأخرج الحزمة من جيبه ووزّع الأوراق المالية على حلقة الراقصين دون عد • ولعل هذا هو السبب الذى جعل صاحب النزل لا يكف عن الحوم حوله لحمايته فى أغلب الظن • وقد عزم تريفون بوريستش على أن لا ينام فى هذه الليلة، لذلك لم يشرب هو نفسه الا قليلا جداً (اكتفى بكأس بنش واحد) ،

ولكنه كان يسهر على مصالح ميتيا بمزيد من الانتباه ، ولو على طريقته الخاصـــة ؛ فهو يتدخل متى وجب أن يتدخل ، بلهجة متعاذبة لينة ، ليوقف ميتيا عند حدود لا يتعداها ، محاولاً أن يحول بينه وبين أن يقدم للفلاحين الجفاة سيجاراً وملبساً «كما فعل فى المرة الماضية» ، أو أن يوزع عليهم شيئاً من المال خاصة ،لا سمح الله ! كان يسوءه أن يرى البنات تشرب خموراً وتقضم ملبساً ، فيقول : « وسخات ! وسخات ! لأطردهن ركلاً بالقدمين ، ولأحملهن على أن يشكرن لى هـــذا الشرف ، ذلك ما هن به جديرات ! » . وتذكر ميتيا الحوذى آندره من جديد ،فأرسل اليه شيئاً من البنش . وكان يردد قائلاً بصوت ضعيف دامع : « لقـــد أسأت اليه منـــذ قليل » . ورفض كالجانوف فى أول الأمر أن يشرب ، ولم ترضه جوقة البنات .ولكن مرحه اشتد اشتداداً جنونياً بعد أن شرب الكأس الثانية من الشمبانيا ، فكان يسـير فى خلال الغرفة ضاحكاً مطرياً كل شىء ، الأغانى والموسيقى . وكان ماكسيموف الذى بلغ أوج السكر والغبطة منذ ذلك الحين ، لا يتركه لحظة واحدة . وكانت جروشنكا ، التى ثملت قليلاً هى أيضاً ، ما تنفك تقول لميتيا وهى تومىء الى كالجانوف « ما ألطفه فتى ! ما أحلاه وما أعذبه ! » ، فكان ميتيـــا يسرع عندئذ الى كالجانوف فيعانقه ويقبله بحماسة ؛ وكان يقبّل ماكسيموف فى هذه المناسبة. آه .. ماكان أعظم السعادة التى يوجس ميتيا أنه سينالها ! صحيح أن جروشنكا لم تكن قد وعدته بشىء بعد ، وأنها كانت تبدو راغبـــة فى تجنب أى شرح الآن ، ولكنها كانت تنظر اليه خلسة من حين الى حين وقد فاضت عيناها رقة وحناناً . وها هى ذى تمسك يده على حين فجأة ، فتجذبه اليها بقوة ، وتقول له وهى جالسة على مقعد أمام الباب كما كانت فى أول الاحتفال :

ــ ما كان أغرب هيئتك حين دخلت علينا منذ قليل ! أوه ! لقد خفت

عندئذ خوفاً شديداً • كيف خطر ببالك أن تتنازل عنى لذلك الرجل ؟ هل يمكن أن يكون ذلك قد خطر ببالك حقاً ؟

دمدم ميتيا يقول وقد طاش عقله من فرط السعادة :

ـ لم أشأ أن أفسد سعادتك •

ولكن جروشنكا لم تصغ الى جوابه • وصرفته عنهـــا من جديد قائلة له :

ـ اذهب ، اذهب ، سرّ عن نفسك لاهيـــاً معهم • وليس لك أن تتشكى ، فسأناديك بعد قليل •

انصرف ميتيا ، واستأنفت جروشنكا تأمل الرقصات والاصـــغاء الى الأغنيات • فلما انقضى على ذلك ربع ساعة أومأت له فهرع اليها • قالت :

ـ اجلس بجانبى الآن ، واقصص علىّ كيف علمت أمس اننى هنا• من أولُ من قال لك ذلك ؟

أخذ ميتيا يقص عليها بحرارة ، ولكن بفوضى ، فليس فى سرده تسلسل كثير • والشىء الغريب أنه كان فى بعض الأحيـــان يتوقف عن الكلام ويقطب حاجبيه • قالت اه جروشنكا :

ـ ما بك ؟

فأجابها :

ـ لا شىء ••• لقد تركت فى المدينة مريضاً • أرجو أن يشفى••• انى لأهب من عمرى عشرة أعوام فى سبيل أن يشفى !

ـ لا تفكر بعد الآن فى ذلك المريض • قل لى : هل صحيح أنك كنت تريد أن تنتحر فى غد أيها الأحمق ؟ لماذا ؟

ثم دمدمت تقول له بلغة منتفخة قليلاً :

ـ أحب أمثالك ، المجانين قليلاً . أأنت مستعد اذن لأن تجازف بكل شيء في سبيلي ؟ أكان في نيتك اذن أن تنتحر من أجلي غداً يا عزيزى الطبيب الأبله ؟ ألا فاعلم اذن أن من الأفضل لك أن تنتظر ... قد أقول لك في الغد كلمه صغيرة ... لا اليوم ... بل غداً ! آ ... لا شك أنك تؤثر أن أقولها لك اليوم ؟ لا ... لا أريد أن أقولها اليوم ... اذهب ، اذهب الآن ، سلّ نفسك !

ولكنها نادته في لحظة من اللحظات مندهشة قلقة ، وسألته :

ـ مالى أراك حزيناً هذا الحزن كله ؟ انني ألاحظ أنك مهموم .

وسدّدت اليه نظرة نافذة ، وأردفت تقول :

ـ نعم ، ألاحظ ذلك واضحاً . مهما تضحك وتمزح مع الفلاحين، فانني أدرك أن هناك شيئاً يعذبك . كن فرحاً ! أريد ذلك ! أنا فرحة ، فعليك أن تفرح أنت أيضاً ... تصور أنني أحب أحداً هنا ... أوه ! انظر اليه ! لقد غفا فتاى الصغير ... انه ثمل ، عزيزى !

كانت تعنى كالجانوف . لقد غفا كالجانوف بضع لحظات على الكنبة بتأثير الكحول . على أن الخمر وحدها ما كانت لتكفى أن تغرقه في النوم. وانما الحقيقة أنه شعر فجأة بحزن ثقيل في وسط هذا الاحتفال ، دون سبب معيّن واضح ، وذلك ما عبّر عنه بقوله انه « ضجر » . وكانت أغاني البنات قد أصبحت تثير فيه الاشمئزاز ، لأنها كانت تزداد فسقاً ودعارة بتأثير الخمر شيئاً بعد شيء ، وكذلك كان شأن الرقصات : لقد خطر ببال بنتين من البنات أن تتنكرا دُبَّيْن ، وأخذت ستيبانيد ، وهي امرأة قوية الجسم خلبة البال ، « تعرضهما » وفي يدها هراوة ، قائلةً في صراخ :

ـ بعنف يا مارى ، والا هويت عليك بالهراوة !

وأخذ الدبان يتدحرجان أخيراً على أرض الغرفة تدحرجاً خالياً من الحشمة كل الخلو حقاً ، فكان جمهـــور الفلاحين والفلاحات الذى يشاهد المنظر ينفجر ضحكه المجلجل !

قالت جروشنكا بلهجة الحكمة وهيئة الغبطة :

ـ دعوهم يلهون على ما يشاء لهم هواهم ، ذلك من حقهم مرة • ان هذه الفرصة لا تعرض لهم كثيراً ، فلينتهزوها !

وكان كالجانوف ينظر الى المشهد شاعراً بأنه اتسخ ؛ وابتعد وهو يقول :

ـ ما أكثر الابتذال في هذا الفرح الشعبى ! أهكذا يتسلون اذن هم الذين يعيشون فى قلب الطبيعة ؟

وكانت قد آذته أغنية « جديدة » ايذاء خاصاً • هى أغنية تتردد فيها لازمة تُمثَّل بايماء وتُرقص على ايقاع جرىء ؛ وهى تروى قصة بارين (سيد) مسافر يسبى قلوب البنات •

سأل البارين البنات : *
اتحبيننى ؟ اتحبيننى ؟

ولكن البنات رأين أنه لن يكون زوجاً صالحاً •

سيضربنى البارين
ولن أحبه

واتفق ان مرّ عندئذ غجرى :

سأل الغجرى البنات :
اتحبيننى ؟ اتحبيننى ؟

ولكنه لم يعجب البنات أكثر من البارين :

سيكون الغجرى لصا
ولن تكون هذه هى السعادة

ومرّ رجال آخرون كثيرون ، حتى لقد مرّ جندى :

سأل الجندى البنات :
أتحببننى ؟ أتحببننى ؟

ولكن البنات نبذنه باحتقار :

سيحمل الجندى الكيس
اما أنا فسوف ...

وكان البيت الثانى بذيئاً بذاءة صريحة ، وكانت البنات تغنيه دون أن تحمر خجلاً ، فتثير فى الجمهور حماسة عظيمة . وتقدم أخيراً تاجر :

سأل التاجر البنات :
أتحببننى ؟ أتحببننى ؟

فأحبته البنات ، لأن :

التاجر سيجنى ثروة كبيرة
ويجعلنى أميرة ...

نفذ صبر كالجانوف فصاح يقول بصوت عالٍ :

ـ هذه أغنية حديثة جداً . ترى من مؤلفها ؟ ليس ينقصها فى الواقع الا متعهدو سكك حديدية ويهود . فلو وجدوا لأحرزوا النصر !

كان كالجانوف كمن أُهين تقريباً ، وقال فجأة انه ضجر ، واضطجع على الكنبة فسرعان ما غفا . وهذا وجهه الجميل ، الشاحب شحوباً خفيفاً، ينزلق على الوسادة قليلاً .

قالت جروشنكا وهى تجذب ميتيا اليها :

ـ أنظر ما ألطفه ! كنت منذ قليل أسلّى نفسى بملاعبة شعره . ان شعره غزير كثيف ، وهو أشبه بخيوط الحرير نعومة ...

ومالت جروشنكا على كالجانوف فى حنان ، وقبلت جبينه . ففتح كالجانوف عينيه فجأة ، ونظر اليها ، ثم نهض نصف نهوض ، وسألها وقد بدا عليه انشغال البال :

ـ أين ذهب ماكسيموف ؟

فقالت جروشنكا ضاحكة :

ـ انظروا عمن يسأل . ماكسيموف هو الذى يعوزه ! هلاّ بقيت معى بضع لحظات ! يا ميتيا ، ابحث له عن ماكسيموف وجئه به .

كان ماكسيموف قد أصبح لا يترك البنات ، ولا يبتعد عنهن من حين الى حين الا ليصب قدحاً من الخمر . وقد شرب أيضاً فنجانين من الشوكولاتة . وتلوّن خداه ، واصطبغ أنفه بحمرة قانية ، بينما عيناه المخضلتان الرطبتان تنظران حوله فى عاطفة وحنان . وسرعان ما هرع ماكسيموف يعلن أنه سيرقص رقصة «صانعة القباقيب» على « لحنٍ موسيقى معروف » . وقال شارحاً :

ـ لقد علمونى فى طفولتى هذه الرقصات الراقية الرفيعة .

فهتف كالجانوف يقول ، مبعداً الفرصة التى عرضتها له جروشنكا وهى أن ينفرد بها :

ـ سأمضى أنا أيضاً . اننى أريد أن اراه عن كثب حتماً .

وتبعوا ماكسيموف . وعرض ماكسيموف رقصته ، فلم تثر حماسة

أحد الا مينيا • هي رقصه قوامها قفزات وتلويات ، ورفع السيقان الى فوق وجعل النعال عاليةً في الهواء ، فكان ماكسيموف يقرع نعله بيده في كل مرة •

مطَّ كالجانوف سفتيه استياءً ، ولكن ميتيا وثب الى عنق الراقص قائلاً له :

ـ شكراً لك ياصاحبي الطيب الشهم • يخيَّل الىَّ أنك تعبت • أأنت تنظر الى السكاكر ؟ أتريد واحدة ؟ أم لعلك تحب أن تدخن سيجاراً ؟

ـ بل سيجارة •

ـ ألا تريد أن تشرب شيئاً ؟

ـ شربت خموراً • أليس عندكم سكاكر بالشوكولاتة ؟

ـ ما أكثر ما عندنا منها على المائدة • اختر ما يحلو لك يا حمامتي !

ـ لا هذه ، أريدها سكاكر بالونيلة ••• أريد سكاكر الشيوخ العجائز تلك ! هيء هيء ! •••

ـ ليس عندنا منها يا أخي !

ومال العجوز القصير فجأة على أذن ميتيا فسأله موشوشاً :

ـ قل لي : أما من سبيل ••• أليس هناك وسيلة ••• أنظر الى هذه البنية ، الى ماري اللطيفة هذه ، هيء هيء ، كم أود لو أتعرف عليها •• اذا كنت ترى ، بما لك من شهامة وأريحية ، أن الأمر ممكن •••

ـ أوه ! أوه ! أرجو أن تكون هازلاً لا جاداً !

ـ لا أريد بها شراً

كذلك دمدم يقول ماكسيموف مفحّماً . فقال له ميتيا :

ـ طيب ... طيب ... هنا يا أخي غنـاء ورقص ، ولـكن ذلك هو كل شيء . على كل حال ... اذا كنت تحرص هذا الحرص كله... عجيب ! عليك قبل كل شيء أن تأكل وتشرب وتمرح . ألعلك في حاجة الى مال ؟

أجابه ماكسيموف مبتسماً :

ـ ربما احتاج الى شيء من المال . فيما بعد .

ـ طيب ...

كان رأس ميتيا ناراً مشتعلة . خرج الى الدهليز وصعد الى الرواق الذي يمتد على جزء من المبنى من جهة الفناء . أحسن اليه الهواء الطري . توقف في ركن مظلم ، واذ أحس أنه وحيد ، أخذ يفكر . فمـا هي الا بضع لحظات ، حتى وضع رأسه بين يديه فجأة . ان خواطره المتفرقة المتبعثرة ، وان احساسـاته الغامضة المبهمة ، قد اتحدت الآن وترتبت وتوضحت ، فخرج منها على حين فجأة ضياء رهيب ! تساءل : « اذا كنت أريد أن أطلق رصاصة في رأسي ، فلماذا لا أفعل ذلك حالاً ؟ أمضي فأجيء بمسدسي وأنهي الأمر في هذا المكان نفسه ، في هذا الركن المظلم القذر ذاته ؟ » ولبث يتردد دقيقة طويلة . انه منـذ ساعات قليلة ، حين كانت عربة الترويكا تقله الى موكرويه ، كان قد خلف وراءه عاراً هو عار السرقة وسفك الدم ... ولكن ما كان أسهل اتخاذ القرار الوحيـد الممكن حينذاك ! لقد كان اتخاذ هذا القرار اسهل منه الآن ، أسـهل كثيراً ! كل شيء كان يبدو عندئذ ضائعاً : كان قد فقد تلك المرأة ، قـد تنازل عنها ... أصبحت لا وجود لها .. وكان تنفيذ الحكم الذي أصدره على نفسه هيناً يسيراً . لقد خضع لذلك الحكم خضوعه لقدر لا رادّ له ،

لقضاء أعلى لا اعتراض عليه . ماكان حاجته الى البقاء حياً بعد أن وقع ما وقع ؟ لم يكن قد بقى شيء يشده الى هذا العالم ويربطه به . أما الآن فقد اختلفت الحال . ان احدى حلقات القدر ، ان أحد أشباح الخوف ، قد تبدد الآن دخاناً !ان صديقها القديم الذى لا يمكن جحوده أو التنكر له ، قد اختفى دون أن يخلف أثراً ! ان ذلك الشبح المرعب قد استحال ظلاً تافهاً مضحكا . لقد أخرج من الغرفة كطفل ، وأقفل عليه الباب بالمفتاح ! انها تشعر بالعار من هذا الرجل ؟ وقد استطاع ميتيا أن يقرأ فى عينيها من ذا تحب فى الواقع . الآن انما يمكن أن تكون الحياة جميلة ، جميلة جداً ... ولكن الحياة مستحيلة بعد أن وقع ما وقع ، مستحيلة ! يا لها من لعنة ! « اللهم ردّ الحياة الى ذلك الذى صرعتُه قرب السور ! اللهم اجعل الكارثة تمر قربى دون أن تمسنى ! اللهم انك قد صنعت معجزات لأناس غيرى كانوا مذنبين مثلى ، فهب لى من لدنك معجزة من تلك المعجزات ! ... ولكن ماذا اذا كان العجوز لم يمت ! لأمحونّ عندئذ عار الاثم الآخر ، فأرد المال المسروق ، أعيده الى صاحبه ، ولو اضطررت أن أمضى باحثاً عن المال تحت الأرض ... لن يبقى عندئذ أثر من آثار ذلك العار ... الا فى قرارة قلبى حيث سيعيش الى الأبد . لا ، لا ، هذا مستحيل . هذه أحلام جبان ، أحلام لا سبيل الى تحقيقها.. يا للعذاب ! » .

ومع ذلك ساوره شعاع من أمل بعد هذه الأفكار ، شعاع ضعيف فى ظلام الليل . انتزع نفسه من تأمله القاتم ، وأسرع ينزل الى غرف الطابق الأرضى ، اسرع اليها من جديد ، الى تلك التى تحكم قلبه الى الأبد . تساءل : « ألا تساوى ساعة واحدة من حبها ، ألا تساوى دقيقة واحدة من حبها حياةً بأكملها ، ولو كان ثمنها عذاباً وعاراً . » استولت هذه الفكرة على ميتيا ، وطردت من نفسه سائر الهموم والمشاغل . قال

يحدث نفسه : « أراها ، أراها أيضاً ، أسمعها ، أنقطع عن التفكير فى أى شىء ، أنسى كل ماعداها ، ولو ليلةً واحدة ، دقيقة واحدة ! » • وفيما كان ينزل من الشرفة لمح تريفون بوربستش عند مدخل الدهليز • كان تريفون بوريستش حزين الهيئة منزعجاً ، وبدا لميتيا أنه كان يبحث عنه•

ـ أتبحث عنى أنا يا تريفون بوريستش ؟

فأسرع صاحب النزل يجيبه :

ـ لا ••• لا أنت ••• ثم علام أبحث عنك ؟ ولـــكن ••• أين كنت ؟

ـ مالى أراك مظلم الوجه ؟ أتراك غاضـــباً ؟ اصبر علينا قليلاً ، وسندعك تنام هادىء البال • كم الساعة الآن ؟

ـ هى الثالثة أو تزيد •

ـ سننصرف •

ـلا ، لا ••• فى وسعكم أن تبقوا ما شئتم أن تبقوا •••

تساءل ميتيا وهو يسرع الى القاعة التى كانت ترقص فيها البنات : « ما ذا حدث له ؟ » • ولكن جروشنكا لم تكن هنـــاك • لا ولا كانت فى الغرفة الزرقاء • وكان كالجانوف ينام على الكنبة نوماً هادئاً • ألقى ميتيا عندئذ نظرة خلف الستائر ، فاذا هو يجدها هناك • كانت جالسةً فى ركن ، على صـــندوق ، مسـندةً رأسها ويديها الى حافة السرير ، تبكى بكاءً مراً ، محاولة أن تخنق نشـــيجها ، جاهدةً أن لا ينفجر انتحابها وأن لا تلفت الانتباه اليها • لمحت ميتيا ، فأومأت اليه أن يقترب ، وأمسكت يده ، فضغطتها بيدها ضغطاً قوياً • وقالت هامسة :

ــ أوه ! ميتيا ، ميتيا ، لقد أحببت هذا الرجل مع ذلك ! أحببته كثيراً خلال هذه السنين الخمس ! ترى أأحببته أم كنت أحب حقدي ؟ لا بل أحببته هو ! أوه ! نعم ، هو ، هو ! أكذب اذا زعمت انني ما أحببت الا حقدي ! أواه يا ميتيا ! لم يكن عمري حينذاك الا سبعه عشر عاما ، وكان يُظهر لي كبيرا من اللطف والأنس والوداعه ، وكان يغني لي أغنيات ••• أم تراه لم يظهر لي فتاناً الى ذلك الحد الا لأنني كنت غبية ، لا لأنني كنت طفلة غرة ؟ ••• أما اليوم ••• رباه ! انه ليس هو ، انه ليس ذلك الرجل نفسه ! لقد تغير وجهه أيضا ، فهو لا يشبهه البته • أنكرته حين رأيته أول وهلة • لقد كنت أتساءل طوال الطريق ، وأنا آتيه الى هنا مع تيموتي : « كيف أتصرف حين ألقاه ؟ ماذا أقول له ؟ كيف ينظر كل منا الى الآخر ؟ ••• » • وانهارت نفسي ••• لقد صب على رأسي سطلاً من قاذورات • تكلم كما يتكلم معلم مدرسة• اتخذ أوضاع التعالم ، واصطنع هيئة لوفار ، فأرتج عليّ وخرست ! لم يتح لي أن أقول كلمة واحدة • حسبت في البداية أن وجود ذلك البولندي الطويل يحرجه • كنت جالسة هناك ، أمامه ، أتساءل لماذا أصبحت على حين فجأة لا أجد كلمة أقولها له • ان زوجته ، ان تلك المرأة الأخرى هي التي أثرت فيه تأثيراً سيئاً ••• تلك المرأة التي من أجلها تركني ثم تزوجها بعد ذلك ••• لقد بدلته تبديلاً كاملاً ••• يا للعار يا ميتيا ! اني لأشعر الآن بالعار من حياتي كلها ! لُعنت تلك السنون الخمس ، الى الأبد •

وتدفقت دموعها من جديد ، ولكنها لم تترك يد ميتيا ، بل ضغطتها في يدها مزيدا من الضغط •

ــ ميتيا ، حمامتي ، لا تذهب ، انتظر لحظة (ثم دمدمت تقول وهي ترفع اليه بصرها) سأقول لك كلمة صغيرة • اسمع • قل لي أنت : من

هو الرجل الذى أحبه ؟ أننى أحب رجلاً هنا • فمن هو ذلك الرجل ؟ قل لى هذا أنت !

وأضاءت ابتسامة في وجهها المحتقن من الدموع ، والتمعت عيناها فى الظلام • وتابعت تقول :

ـ منذ قليل دخل صقر ، فتوقف قلبى عن الخفقان • وقال لى قلبى : « أيتها الغبية ، هذا هو ، هذا هو الرجل الذى تحبين ! » لقد دخلت أنت فاتضح لى كل شيء على حين فجأة • تساءلت : « ولكن ممّ هو خائف ؟ » • ذلك أنك كنت خائفاً ، وقد بلغت من الخوف أنك لم تستطع حتى أن تتكلم • قلت فى سرى : « ليس خائفاً منهم مع ذلك » • أنت لا يمكن أن ترتجف أمام شخص آخر ، اننى أعرف ذلك حق المعرفة • وقلت لنفسى عندئذ : « انه خائف منى ، منى أنا وحدى » : اذ لا شك أن فينيا قد روت لك ـ أليس كذلك أيها الأحمق ؟ ـ كيف أننى هتفت أقول لأليوشا ، من النافذة ، اننى قد أحببت ميتنكا مدة ساعة، واننى ذاهبة الآن ••• لأحب رجلاً آخر ! أوه ! ميتيا ، ميتيا ، كيف أمكننى أن أصدق أننى أستطيع أن أحب رجلاً آخر بعدك ؟ ما كان أغبانى ! اغفر لى يا ميتيا ؟ هل ستغفر لى ؟ هل تحبنى ؟ هل تحبنى ؟

نهضت جروشنكا بهمة وقوة ، ووضعت يديها على كتفيه • أصبح ميتيا أخرس من فرط السعادة ، فكان لا يزيد على أن ينظر الى عينيها ، ووجهها ، وابتسامتها ••• ثم عانقها فجأة وغمرها بالقبلات •

ـ هل ستغفر لى أننى عذبتك ؟ لقد عذبتكم جميعا ، من فرط غضبى وحسرتى ! وبدافع الشر وحده جعلت العجوز مجنوناً بحبى••• هل تتذكر كيف حطمت فى بيتى قدحاً ، فى ذات يوم ، بعد أن شربت؟ لقد تعلمت أنا هذه الحركة ، فحطمت اليوم قدحاً وأنا أشرب « نخب

قلبي الجبان ! » • ميتيا ، صقرى ، لماذا لا تقبّلني ؟ لقد قبلتني مرةً ثم أمسكت • انك تنظر الىّ ، وتصغى الىّ ••• ما قيمة الاصغاء الىّ ؟ قبلني ، بمزيد من القوة ، بمزيد من القوة ، هكذا ، ما دمت تحبني ! ••• لأكونن بعد اليوم عبدة لك ، مدى الحياة ! ما أحلى أن أكون عبدة ••• قبلني أيضا ! اضربني ! عذبني ! افعل بي ما شئت ••• لأنني أستحق أن تعذبني ••• لا ••• انتظر ! نؤجل هذا ! لا أريد الآن •

قالت له ذلك ودفعته عنها فجأة • وأردفت تقول :

ـ اذهب يا ميتيا ، سأشرب الآن خمراً ، أريد أن أسكر ، وسأرقص بعد ذلك ، أريد هذا ، أريد هذا !

وتخلصت من عناقه وغابت وراء الستائر • تبعها ميتيا • كان كالسكران • « ما قيمة ما سيحدث فيما بعد ، ما قيمة ما سيحدث فيما بعد؟ لدقيقة كهذه الدقيقة خير من الكون كله » • بهذا حدّث ميتيا نفسه • شربت جروشنكا كأساً أخرى من الشمبانيا سرعان ما صعدت الى رأسها• جلست على المقعد ، في مكانها السابق ، وهي تبتسم ابتسامة غبطة وهناءة وسعادة • احمرّت خداها ، احترقت شفتاها ، اضطرب نظرها • وفي عينيها الساطعتين ، كان يُقرأ نداء محموم جامح • كالجانوف نفسه اضطرب من ذلك ، كأن شيئاً قد لسع قلبه ، فاقترب منها • سألته :

ـ هل أحسست بالقبلة التي وهبتها لك حين كنت نائماً • أوه ! أحس أني سكرى ••• وأنت ؟ ألم تسكر ؟ لماذا لا يشرب ميتيا ؟ ميتيا ، يجب أن تشرب ! أنا شربت وأنت لا تشرب •

ـ أنا ؟ أنا سكران بغير شراب • سكران بك ••• ولكنني أريد أن أسكر بالخمر أيضا •

وأفرغ ميتيا فى جوفه كأساً آخر ، فاذا بهذه الكأس الأخيرة تفجّر السكر فيه دفعةً واحدة ، على حين أن الكئوس السابقه لم تحدث أثراً ••• شيء غريب ! أخذ كل شيء يدور فى رأســـه منذ تلك اللحظة ، فكأنه فى حالة هذيان • انه الآن يمشى ، ويضحك ، ويكلم كل من يلقاه، خارجاً عن طوره • وفى بعض اللحظات، كانت تستيقظ فى قلبه عاطفـة حارة ثابتة « تحرقه حرقاً كجمرة » كما قال فيما بعد • وكان يقترب من جروشنكا ، ويجلس الى جانبها ، وينظر اليها ، ويسمع لكلامهـــا ••• أما جروشنكا فقد أصبحت تتدفق فى هذرها تدفقاً رهيباً ؛ وهى تنـــادى الناس اليها ، وتستدعى بنتاً من بنات الجوقة ، حتى اذا دنت البنت منهــا أخذت تقبلها أو رسمت عليها اشارة الصليب ، حتى لتوشك أن تجهش باكية • وكان يفرحها ويضحكها « العجوز الصغير » خاصـــةً (هكذا كانت تسمى ماكسيموف) • انه يهرع اليها فى كل لحظة ليقبّل يدها ، لاثماً كل اصبع من « أصابعها الصغيرة العزيزة » ، واحدةً بعد أخرى • وانتهى به الأمر الى أن أخذ يرقص منجديد على لحن قديم دندنه بصوته• وقد رقص بحماسة خاصة على اللازمة التى كانت تتكرر :

الخنزير الصغير ، كريو ـ كريو
العجل الصغير ، مو ـ مو
البطة الصغيرة ، قوا ـ قوا
الأوزة الصغيرة ، جا ـ جا
والدجاجة الصغيرة تركن فى الغرفة
منادية صغارها : تيوريو ـ ريو ـ ريو

قالت جروشنكا :

ـ هلاّ أعطته شيئًا يا ميتيا ! اهد اليه هدية • انه فقير •أوه ! رباه!

يا لهؤلاء الأشقياء جميعاً ، ياالهؤلاء المذلّين جميعاً ! ••• هل تعلم يا ميتيا؟ أريد أن أدخل الدير ! بلى ! بلى ! سأدخل الدير ذات يوم • لقد كلمنى اليوم أليوشا بطريقة لن أنساها ما حييت ، لن أنساها ماحييت • أما الآن فلنمرح ! اليوم سرور وغداً دير ! أود أن أقوم بأعمال جنونية ! ولسوف يغفر لى الرب • أى ضير فى أن نتسلى أيها الناس الطيبون ؟ لو كنت أنا الله ، اذن لغفرت لجميع الناس ، ولقلت لهم : « يا أعزائى الخاطئين ، قد عفوت عنكم منذ اليوم • » • ولسوف أمضى أطلب الغفران من الجميع قائلة لهم : « أيها الناس الطيبون ، اغفروا لامرأة مسكينة حمقاء غبية ! »• ذلك ما سأقوله لهم • أنا وحش مفترس نعم • ولكننى أريد أن أصلّى • لقد وهبت بصلة أنا أيضاً • اننى ، أنا الشقية ، أريد أن أصلّى ! دعهم يرقصون يا ميتيا ، لا تعكر سعادتهم ! جميع الناس طيبون ، جميعهم بغير استثناء ! آه ! ما أحلى أن يحيا المرء فى هذا العالم ! نحن شريرون ، ولكن الحياة جميلة جداً ••• فينا الخير والشر ، الخير والشر فى آن واحد••• قولوا لى أنتم جميعاً ! يجب أن أسألكم هذا السؤال ! اقتربوا وقولوا لى : لماذا أناطيبة الى هذه الدرجة ؟ اننى طيبة فعلاً ، فقولوا لى ، اشرحوا لى : لماذا أنا طيبة الى هذه الدرجة ؟

بهذا الكلام كانت تدمدم جروشنكا ، مغرقة فى الهذر المضطرب مزيداً من الاغراق سيئا بعد سىء ، الى أن أعلنت أخيراً أنها تريد أن ترقص هى نفسها ، ونهضت عن كرسيها مترنحة •

ـ ميتيا ، امنعنى من أن أشرب أكثر مما شربت • اذا طلبت خمراً فلا تعطنى ! يحمل الكحول الى النفس السكينة والهدوء • ان كل شىء يدور الآن أمامى ، الغرفة والمدفأة ! أريد أن أرقص ••• فلينظر الىّ الجميع ، وليعجبوا برقصى •••

كان هذا من جروشنكا عزماً أكيداً وقراراً حاسماً • أخرجت

منديلاً أبيض من نسيج ناعم رقيق ، وأمسكته من أحد أطرافه بيـــدها اليمنى لتلوّح به أثناء الرقص . تحرك ميتيا هنا وهناك . صمتت البنات، وتهيأن لأن يصدحن بلحنٍ يرافق الرقص جوقةً واحدة عند أول اشارة. وحين علم ماكسيموف بأن جروشـــنكا سترقص ، راح يطلق صرخات متتابعة من فرط حماسته ، وأخذ يتواثب أمامها ، وطفق يدندن :

ساقاها دقيقتان ووركاها مدوران
ولكن ذيلها كالبوق

أبعدته جروشنكا عنها بحركة من منديلها ، قائلة :

ـ شت ! لماذا لا يجيئون يا ميتيا ؟ فليهرعوا جميعاً .. لرؤيتي ... ونادهما هما أيضاً ، ناد المحبوسين ... لمـــاذا حبستهما ؟ قل لهما انني أريد أن أرقص . فليجيئا هما أيضاً ، ليعجبا لى !

اتجه ميتيا نحو الباب المقفل بالمفتاح ، مترنح الخطى من السكر ، وأخذ يقرع الباب بقبضة يده ليلفت انتباه البولنديين .

ـ هيه ! أنتما ... اخرجا ... انها سترقص وهى تناديكما .

فصاح أحد « السيدين » البولنديين يجيبه بالبولندية :

ـ لا جداك (شقى) !

فأجابه ميتيا :

ـ وما أنت الا « لا جداك » حقير صغير ... ذلك أنت !

قال كالجانوف وقد ثمل هو أيضاً ، قال بلهجة تتكلف الوقار :

ـ هلا كففتم عن اهانة بولندة ؟

ـ اسكت ايها الفتى الصغير ! انني اذ وصفته بأنه شقى ، لم أهن

بولندة كلها • ليس مختال" تافه كل" بولندة • صمتاً أيها الطفل اللطيف، لسوف أعطيك ملبسة •

قالت جروشنكا مدهوشة وهى تتقدم الى أمام لترقص :

ـ يا للأشرار ! أليس فيهم شىء من انســانية ؟ لماذا يرفضون أن يتصالحوا ؟

غنت الجوقة لحناً شعبياً • رفعت جروشنكا رأسها ، وفتحت شفتيها، وابتسمت ، ولوّحت بمنديلها ، ثم توقفت فجأة وهى تتمايل تمايلاً قوياً فى وسط الغرفه ، وتشعر بارتباك شديد • وأنّت تقول بصــوت أليم :

ـ أحس بوهن • معذرة • اننى ضعيفة جداً ••• لا أستطيع ••• أوه ••• هى غلطتى •

وحيّت الجوقة ، ثم حيّت جميع الحضور وهى تلتفت الى جهات الغرفة الأربع جهة بعد جهة ، وتردد قولها :

ـ لا تؤاخذونى ••• لا تؤاخذونى !

قالت بعض الأصوات فى الجمهور :

ـ أسرفت فى الشراب ، السيدة الشابة ! •• هى سكرى ، السيدة اللطيفة •••

وقال ماكسيموف يشرح للبنات ضاحكاً :

ـ السيدة ثملة قليلاً •

ودمدمت جروشنكا تقول بصوت منطفىء :

ـ ميتيا ••• خذنى من هنا ••• انقلنى من هنا •

فهرع ميتيا اليها ، فتناولها بذراعيه ، وأسرع يركض بحمله الثمين الى ما وراء الستائر • قال كالجانوف لنفسه : « فى هذه المرة ، آن أوان الانصراف » ، وغادر الغرفة الزرفاء مغلقاً الباب وراءه • وتتابع الاحتفال بصخب ما ينفك يشتد • وضع ميتيا صاحبته جروشنكا على السرير ، وقبلّها قبلة محمومة على الفم • دمدمت تقول بصوت ضارع :

ـ لا تلمسنى ، لا تلمسنى ، أنا لست لك بعـــد ••• قلتُ اننى سأكون لك ، ولكن لا تلمسنى ••• ارحمنى ، اشفق علىّ ••• لا تفعل شيئا الآن ، بينما هم لا يزالون هنا • ما ينبغى هذا ••• انه هناك ، على بعد خطوتين ••• أوه ! هذا فظيع هنا ••

قال ميتيا متعثراً فى كلامه :

ـ اننى أطيعك ••• لم يخطر ببالى هذا ••• أنا أمامك فى نشوة ووجد • نعم ، هذا فظيع هنا • يا للمكان الموبوء !

ودون أن يدع عناقها ، تهالك على قدميه ، قرب السرير •

قالت جروشنكا بصوت رخو :

ـ أنا واثقة بك • أعرف أنك متوحش ، ولكن نفسك نبيلة • يجب أن يجرى كل شيء بشرف بعد الآن ••• أريد أن يكون كل شيء طاهراً ••• وأن نكون شرفاء أيضاً ••• لا بهائم ، بل بشراً طيبين انقياء طاهرين ••• خذنى الى مكان بعيد ، بعيد جداً عن هنا ، هل تسمع ؟ لا أريد بعد الآن أن أعيش هنا ••• أريد أن أسافر الى مكان بعيد ••• بعيد جداً •

قال ميتيا مؤيداً وهو يشدها الى قلبه :

ـ نعم ، سنسافر ••• سآخذك ••• سأطير بك ! ••• اننى مستعد

لأن أهب حياتى كلها فى سبيل سنة واحدة من سعادة ، شريطة أن أعلم ماذا جرى لذلك الدم ...

سألته جروشنكا مندهشة :

ـ أى دم ؟

فأجابها ميتيا وهو يصرف بأسنانه :

ـ لا شىء ... انك تريدين يا جروشنكا أن نكون شرفاء ، ولكننى أنا لص . لقد سرقت مال كاتنكا ! ... يا للعار ! ... يا للعار !

ـ كاتنكا ؟ الآنسه ؟ لا ... لم تسرق شيئاً ! ردّ اليها مالها . خذ مالى أنا ... ما بك ؟ ان كل ما أملكه أنا هو الآن لك . ما حاجتنا الى المال ؟ سوف نبدده على كل حال فى القصف واللهو . ان أمثالنا لا يحسنون الاحتفاظ بالمال . اننى لأوثر أن نحرث الأرض معاً . أريد أنا أن أعمل فى الأرض بهاتين اليدين اللتين تراهما . ان من واجبنا أن نعمل ، هل تسمع ؟ أليوشا هو الذى شرح لى ذلك . لن أكون خليلتك ، بل حليلتك ، زوجتك الوفية ، عبدتك المخلصة ... سأتعب وأجهد فى سبيلك ... سوف نذهب الى الآنسة ، فننحنى لها بتحية عظيمة حتى تغفر لنا قبل رحيلنا . واذا لم تغفر ، فسنرحل مع ذلك . أما المال فسترده اليها . ان عليك أن تحبنى أنا ... لا أريد أن تحبها هى ! ... اننى أمنعك من أن تحبها ... والا فلأخنقنّها ... لأفقأنّ عينيها بابرة طويلة ...

ـ أنت من أحب ، أنت وحدك ، وسأظل أحبك من آخر سيبريا . *

ـ لماذا تتكلم عن سيبريا ؟ لا بأس ! سنسافر الى سيبريا اذا كنت ترغب فى ذلك ... ان فى وسعنا أن نعمل هناك كما فى أى مكان آخر

... ان فى تلك البلاد ثلجاً كثيراً ... وأنا أعشــــق الثلج ، وأعشق الزلاجات التى تنزلق عليه سريعه مجلجلة أجراسها . هل تسمع ؟ لكأن جرساً يرن فى مكان ما . من أين يأتى رنين هذا الجرس ... لا شك أنهم مسافرون قد وصلوا الى النزل ... انقطع الصوت الآن .

وأغمضت جروشنكا عينيها ، متعبة الى أقصى حدود التعب ، وغفت بضع لحظات . كان جرس قد رن فعلاً فى بعيد ثم صمت . مال ميتيـا برأسه على صدر جروشنكا . لم يكن قد انتبه الى صوت الجرس والى انقطـــاع رنينه فجأة ؟ لا ولا لاحظ أن الأغانى قد توقفت وأن الصخب الذى كان يسيطر على النزل حتى ذلك الحين قد حل محله فجأة صمت كصمت الموت . وفتحت جروشنكا عينيها بعد دقيقة . قالت :

ـ ماذا يجرى ؟ أأنا نمت ؟ نعم ... ذلك الجرس ... لقد نمت وحلمت بأننى محمولة على زلاجة فوق الثلج ... كان الجرس يرن ، وكنت أنا نائمة . كنت راكبة عربة ترويكا ، مع رجل عزيز فى قلبى ، معك أنت .وكنا ذاهبين الى مكان بعيد ، بعيد جداً ... وكنت أقبلك ، وأشد جسمى الى جسمك ، لأننى كنت أحس ببرد فيما يبدو ... وكان الثلج يسطع ... ما كان أعجبه من احســـاس ! الثلج الباهر ، وضـياء القمر ... لكأن ذلك لم يكن على الأرض ... واســـتيقظت ، فاذا أنا أراك ، يا حبيبى ، قريباً منى ... ما أحلى هذا ! ...

ردد ميتيا كلامها قائلاً وهو يلثم ثوبها ، وعنقها :

ـ نعم ، قريباً منك كل القرب .

وأحس فجأة باحســـاس غريب : خيل اليه أنها تنظر الى أمام ، ولكن عينيها بدلاً من أن تستريحا على وجهه ، تتطلعان الى ما وراء رأسه،

SS

في جمود عجيب . عبرّت قسمات جروشنكا عن الدهشة أولاً ، ثم عن الخوف .

ودمدمت تقول :

ـ ميتيا ! من ذا يرقبنا من وراء الستائر ؟

التفت ميتيا فاذا هو يلمح شخصاً يبدو أنه يرصدهما مبعداً الستائر ؛ حتى لقد أحسّ أن هناك عدة أشخاص يقفون هناك . فنهض من مكانه بسرعة وقوة ، واتجه نحو ذلك الشخص الفضولى . فاذا هو يسمع صوتاً يقول :

ـ هل تتفضل فتجيء الى هنا يا سيد .

كان المنادى المجهول يتكلم بصوت مخفوض ولكنه جازم قاطع .

خرج ميتيا من وراء الستائر ، فاذا هو يتجمد فى مكانه . كانت القاعة ملأى بالناس ، ولكن هؤلاء الناس ليسوا أولئك الذين كانوا يلهون ويقصفون منذ قليل . لقد احتل الغرفة أشخاص جدد . شعر ميتيا برعدة تسرى فى ظهره كله . ان ميتيا يعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً ، وها هو ذا يتعرفهم الآن دفعة واحدة . ان الرجل العجوز السمين الطويل الذى يرتدى معطفاً ويضع على رأسه قبعة ذات ترس وشارات ، هو رئيس الشرطة ميشيل ماكاروفتش . وهذا الشاب الذى يوحى مظهره بأنه مصدور والذى يتأنق فى ملبسه تأنقاً عظيماً ويلتمع حذاؤه دائماً انما هو وكيل النيابة . « انه يملك ساعةً من ذهب قيمتها أربعمائة روبل . لقد أرانيها فى ذات يوم لأعجب بها » . أما ذلك الشاب الآخر القصير القامة الذى يضع على عينيه نظارتين ... فلم يتذكر ميتيا اسمه ، ولكنه يعرفه أيضاً وقد سبق أن رآه : انه قاضى التحقيق الذى تخرج من « مدرسة الحقوق » منذ مدة غير طويلة . وهذا موظف الشرطة موريس ماكريفتش

الذى يعرفه ميتيا منذ زمن بعيد • ولكن ماذا جاء يفعل هنا هؤلاء الرجال الآخرون الذين يحملون على صدورهم صفائح معدنية * ؟ وهذان الفلاحان ؟ •• وبعد هؤلاء جميعاً ، لمح ميتيا ، عند فرجة باب المدخل ، كالجانوف وتريفون بوريستش •••

قال ميتيا :

ـ ماذا أيها السادة ؟ ماذا جرى ؟

ولكنه لم يلبث أن هتف يقول فجأة بملء صوته ، كأنماتدفعه الى ذلك قوة سبيل الى مقاومتها :

ـ ف •••همت !

تقدم الشاب ذو النظارتين من ميتيا وقال له بصوت وقور وبشيء من السرعة :

ـ كنا نريد ••• الخلاصة ••• أرجوك أن تجلس هنا ، على الكنبة ••• ان علينا أن نلقى عليك بعض الأسئلة •

قال ميتيا خارجاً عن طوره :

ـ العجوز ••• والدم المسفوح ••• ف ••• همت !

وكأنما انهارت قواه على حين فجأة ، فتهالك على كرسى كان هناك •

فاذا برئيس الشرطة العجوز يزأر فجأة وهو يقترب من ميتيا :

ـ آ ••• فهمت ؟ فهمت ؟ يا قاتل أبيه ! أيها الشيطان ! ان دم أبيك يتهمك !

كان رئيس الشرطة أحمر الوجه من شدة الغضب ، وكان جسمه كله يرتجف •

فصاح الشاب القصير القامة :

ــ ولكن هذا طيش يا ميشيل ماكاروفتش • يجب أن أكون أنا أول المتكلمين ••• ما كنت أتوقع منك سلوكا كهذا السلوك •

فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً :

ــ هذا هذيان ••• هذا مشهد هديان • انظروا اليه ••• تضرج بدم أبيه ثم هو يقضى السهرة لاهياً عابثاً ماجناً فى صحبة بنت من بنات الهوى ••• هذا هذيان ، هذا هذيان •••

أسرع وكيل النيابة يهمس فى أذن رجل الشرطة العجوز قائلا :

ــ أرجوك وألح فى الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزى ميشيل ماكاروفتش ، والا اضطررت أن أتخذ اجراءات من أجل أن ••

ولكن قاضى التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملته ، فها هو ذا يتجه الى ميتيا ، ويعلن له بوقار ، وبصوت عال صارم :

ــ أيها السيد الملازم المتقاعد كارامازوف ، ان من واجبى أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف ، الذى قُتل فى هذه الليلة •••

وأضاف قاضى التحقيق بضع كلمات أيضاً واستأنف وكيل النيابة كلامه بعد ذلك ، فيما تراءى لميتيا ••• ذلك أن ميتيا ، رغم أنه قد جهد أن يصغى ، أصبح لا يفهم شيئا ، وانما هو يتفرس وجوههم مجنون العينين •••

فصاح الشاب القصير القامة :

ـ ولكن هذا طيش يا ميشيل ماكاروفتش • يجب أن أكون أنا أول المتكلمين ••• ما كنت أتوقع منك سلوكا كهذا السلوك •

فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً :

ـ هذا هذيان ••• هذا مشهد هذيان • انظروا اليه ••• تضرج بدم أبيه ثم هو يقضى السهرة لاهياً عابثاً ماجناً فى صحبة بنت من بنات الهوى ••• هذا هذيان ، هذا هذيان •••

أسرع وكيل النيابة يهمس فى أذن رجل الشرطة العجوز قائلا :

ـ أرجوك وألح فى الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزى ميشيل ماكاروفتش ، والا اضطررت أن أتخذ اجراءات من أجل أن ••

ولكن قاضى التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملته ، فها هو ذا يتجه الى ميتيا ، ويعلن له بوقار ، وبصوت عال صارم :

ـ أيها السيد الملازم المتقاعد كارامازوف ، ان من واجبى أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف ، الذى قُتل فى هذه الليلة •••

وأضاف قاضى التحقيق بضع كلمات أيضاء واستأنف وكيل النيابة كلامه بعد ذلك ، فيما تراءى لميتيا ••• ذلك أن ميتيا ، رغم أنه قد جهد أن يصغى ، أصبح لا يفهم شيئا ، وانما هو يتفرس وجوههم مجنون العينين •••

الباب التاسع: التحقيق التمهيدي

١

البدايات الموفقة للموظف برخوتين

إن بطرس ايلتش برخوتين الذى تركناه بطرق طرقات ما تنفك تزداد وتقوى ، على الباب السميك من منزل آل موروسوف ، قد توصل طبعا الى أن يحملهم على أن يفتحوا له . وحين سمعت فينيا هذا الصخب أمام باب الدخول ، وكانت لما تفق بعد من الذعر الذى أصابها قبل ساعتين ، ولا عزمت أمرها على أن تنام ، من شدة اضطرابها ، حين سمعت فينيا هذا الصخب استبد بها هلع قاتل مرة أخرى : ذلك أنها ظنت أن دمترى فيدوروفتش قد عاد (رغم أنها رأته يسافر على عربة ترويكا) . لقد قالت فينيا لنفسها : « أى انسان غيره يمكن أن يطرق الباب بمثل هذا العنف ؟ » . وهرعت الى البواب الذى أيقظته الضجة وهم أن يفتح الباب ، فتوسلت اليه أن لا يسمح لأحد بالدخول . ومع ذلك سأل البوابُ الطارقَ عن اسمه من خلال الباب، فلما عرف صفته ، وعرف أنه يريد أن يكلم فيدوسيا ماركوفنا فى أمر هام جدا ، قرر أن يفتح له .

مضى بطرس ايلتش رأساً الى المطبخ ليرى فينيا التى أصرّت ، من باب الحفاظ على الشكل ، أن يحضر البواب المقابلة . أخذ الموظف يلقى الأسئلة على المرأة ، فسرعان ما وقع على أمرٍ أساسى : هو أن دمترى

فيدوروفتش حين مضى يسعى الى جروشنكا قد أخذ مدقّ الهاون ، وأنه رجع بعد ذلك دامى اليدين ولم يكن المدق معه •

ـ كان الدم يسيل ويتساقط قطرات كبيرة على الأرض •

كذلك هتفت تقول فينيا التى اخترع خيالها المضطرب هذا الوصف التفصيلى الرهيب اختراعا على غير شعور منها • وكان بطرس ايلتش قد رأى الدم فى يدى ميتيا بنفسه على كل حال ، وان لم يكن يسيل ، وقد ساعده على غسل يديه • ولم يكن يهمُّ بطرس ايلتش أن يتساءل على كل حال : أجفّ الدم بسرعة أم لا ، وانما كان يهمه أن يعرف : ماذا فعل دمترى فيدوروفتش بمدق الهاون هذا ، والى عند من ذهب ؟ هل يمكن أن يُستدل من ذلك على وجه اليقين أنه ذهب الى منزل أبيه، وعلى أى شىء يستند هذا الاستدلال ؟ لذلك ألحّ بطرس ايلتش على هذه النقطة الحاحاً خاصاً ؛ ثم انتهى الى الاقتناع التام ، رغم أن فينيا لم تقدم اليه أية قرينة واضحة دقيقة ، بأن دمترى فيدوروفتش لا يمكن أن يكون قد ذهب الا الى منزل أبيه وأن « شيئاً ما » لا بد أن يكون قد حدث هنالك حتماً •

أضافت فينيا تقول متأثرةً أشد التأثر :

ـ حين رجع ، قصصت عليه كل شىء ، ثم سألته بعد ذلك لماذا أرى يديه داميتين ، فأجاب بأن هذا دم انسانى ، وبأنه قد قتل انسانا منذ برهة• اعترف لى بذلك فى هذا المكان نفسه ، فى هذا المطبخ ، ثم ولّى هارباً كمجنون• وأخذت أفكر بعد انصرافه : « الى أين يركض هذا الركض؟ لا شك أنه ينوى أن يسافر الى موكرويه ليقتل مولاتى » ، فاندفعت ألاحقه ، لأتوسل اليه أن لا يسىء الى الآنسة المسكينة ؛ وكنت آمل أن أجده فى مسكنه ، ولكننى لمحته أمام متجر آل بلوتنيكوف وهو يهم أن

يسافر ، وكانت يداه عندئذ نظيفتين (لقد لاحظت فينيا هذا الأمر التفصيلي وحفظته) •

وقد أكدت جدة فينيا العجوز أقوال حفيدتها على نحو ما استطاعت أن تفعل • وبعد أن ألقى بطرس ايلتش بضعة أسئلة أخرى خرج من المنزل وهو أشد اضطرابا وقلقا مما كان عند وصوله اليه •

ربما بدا أن أبسط شيء الآن هو أن يذهب بطرس ايلتش الى منزل فيدور بافلوفتش مستطلعا هل حدث له شيء ، وأن لا يبلغ رئيس الشرطه الا بعد ذلك ، مستنداً الى معلومات ثابتة • وهـــذا ما خطر ببال بطرس ايلتش فى أول الأمر فعلاً • ولكن الليل حالك الظلام ، وأبواب منزل كارامازوف لا بد أن تكون سميكة ، فسيكون عليه اذن أن يطرق من جديد ، وأن يحدث ضجة وصخباً ، وهو لا يعرف فيدور بافلوفتش الا قليلا جدا • فما عسى يحدث اذا قيل له ، بعد أن يفتح له الباب ، ان شيئاً لم يقع ؟ ان فيدور بافلوفتش الساخر لن يفوته أن يروى للمدينة كلهـا فى الغد ، من باب التندر ، أن الموظف برخوتين ، الذى ليس بينه وبينه صلة ولا معرفة ، قد اقتحم منزله عند منتصف الليل ليسأله هل قتله أحد• ليكونن هذا فضيحة ! وبطرس ايلتش لا يرهب شيئاً فى هذا العالم كما يرهب الفضيحة ! غـــير أن العاطفة التى كانت تدفعه الى العمل والحركة قد بلغت من القـــوة أنه بعـــد أن قرع الأرض بقـــدمه غاضـــبا وشـــتم نفســـه ، أسرع يتخذ قراراً جـــديدا : هو أن يذهب لا الى دار فيـــدور بافلوفتش بل الى الســـيدة هوخلاكوفا • ســـوف يسألها هل صـــحيح أنها أعطت دمترى فيدوروفتش ثلاثة آلاف روبل منذ بضع ساعات ، فاذا أجابته بالنفى ذهب الى رئيس الشرطة لا يلوى على شيء ولا يمر بمنزل فيدور بافلوفتش ؛ والا أرجأ مساعيه الى الغد ورجع الى بيته • واضـــح أن بطرس ايلتش حين يذهب فى الساعة الحادية عشرة من الليل الى

سيدة من سيدات المجتمع لا يعرفها ، وقد يحملها على النهـــوض من سريرها ليلقى عليها سؤالا قد يبدو فى مثل هذه الظروف سخيفا مضحكا انما يتعرض لاحداث فضيحة أكبر من فضيحه ذهابه الى فيدور بافلوفتش. غير أن تناقضات من هذا النوع قد يرتكبها ، فى ظروف كهذا الظرف ، أشخاص هم أكثر الناس برودة نفس وروية تفكير . فما بالك وقد فقد بطرس ايلتش فى تلك اللحظة كل برودته وكل رويته ! لسوف يظــل يتذكر طوال حياته كيف أن قلقاً لا سبيل الى التغلب عليه قد اجتاح نفسه شيئاً بعد شيء ، ثم استحال أخيراً الى عذاب حاد دفعه فى تلك الليلة الى أن يتحرك ويتدخل ، على غير ارادة منه تقريبا . والحق أنه قد اســتاء وغضب أثناء الطريق ، وقرّع نفسه على أنه سيزعج هذه السيدة ، ولكنه حلف « ليسيرنّ الى آخر الشوط ، مهما كلف الأمر » ، وردد ذلك عشر مرات وهو يصرف بأسنانه . وقد برّ بيمينه ، فمضى الى آخــر الشــوط فعلاً .

كانت الساعة هى الحـــادية عشرة تماما حين دخــل منزل السيدة هوخلاكوفا . لقد فُتح له الباب بغير مشقة ، ولكن البواب لم يستطع أن يقول له على وجه اليقين أرقدت السيدة أم لا ، واكتفى بأن ذكر له أنها تنام عادةً فى مثل هذه الساعة . وأضاف يقول له :

ـ اصعد الى فوق ، وأعلن عن نفسك ، فاذا شاءت استقبلتك ، فكل شيء رهن بارادتها .

صعد بطرس ايلتش الى الطابق الأول . وهنـــالك أخــذت تتعقد الأمور . رفض الخادم أن يبــلغ السيدة هوخـــلاكوفا وصوله ، ونادى الخادمة . فرجاها بطرس ايلتش ، بأدب ولكن بالحاح ، أن تبلغ السيدة هوخلاكوفا أن الموظف برخوتين يريد أن يكلمها حالاً ، وأنه ما كان له

أن يزعجها لولا أن الأمر الذى يريد أن يكلمها فيه هو على جانب عظيم من الخطورة حقا !

ـ انقلى اليها هذه الكلمات نقلاً دقيقا !

بذلك أوصى برخوتين الخادمة حين مضت تبلغ مولاتها .

انتظرَ بطرس ايلتش فى الدهليز . وكانت السيدة هوخلاكوفا فى غرفة نومها ، ولكنها لم تكن قد نامت بعد . لقد هزتها زيارة ميتيا ، وهى تتنبأ بأنها لن تنجو فى هذه الليلة من الصداع الشديد الذى يلم بها عادة فى أعقاب انفعالات من هـذا النوع . فلما سمعت ما قالته لها خادمتها دُهشت ، ومع ذلك أمرت خادمتها ، بلهجة حانقة ، أن تصرف هـذا الزائر الذى يجىء فى غير أوان الزيارة ، أمرت خادمتها بذلك رغم أن مجىء « الموظف برخوتين » اليها فى مثل هذه الساعة ، على غير توقع ، قد أثار فيها فضولاً قوياً . ولكن بطرس ايلتش عَنَدَ فى هذه المرة عناد بغل . فلما علم أن السيدة هوخلاكوفا ترفض استقباله ، طفق يلحُّ من جديد الحاحاً شديدا على أن تنقل الخادمة الى مولاتها أقواله حرفاً حرفاً : وهى أنه جاء « لأمر يبلغ من خطورة الشأن أن السيدة قد تندم اذا هى لم تستقبله . . » . وقد روى فيما بعـد أنه أحسَّ فى تلك الدقيقـة أنه « يسقط فى هاوية » . تفرست فيه الخادمة مندهشة ، وأسرعت تقـوم بالواجب الذى عهد اليها أن تقـوم به . ذُهلت السيدة هوخـلاكوفا ، وفكرت بضع لحظات ، وسألت عن مظهر الزائر ، فقيل لها انه « حسن الهندام ، شاب ، مهذب جدا » . يجب أن نذكر هنا عابرين أن بطرس ايلتش فتى جميل جدا ، وانه كان شاعراً بذلك . عندئذ قررت السيدة هوخلاكوفا أن تسمع له . واذ كانت بثوب المنزل والخفين ، فقـد ألقت على كتفيها شالاً أسود . وأُدخل الموظف الى الصالون ، حيث استُقبل

دمترى فيدوروفتش قبل بضع ساعات • تقدمت ربة المنزل نحو الزائر بوجه متجهم مستجوب ، وسألته دون أن تدعوه الى الجلوس :

ـ ماذا تريد منى أيها السيد ؟

فبدأ برخوتين كلامه قائلاً :

ـ لقد جازفت فجئت أزعجك فى أمر يتعلق بصديقنا المشترك دمترى فيدوروفتش •••

ولكن ما ان نطق بهذا الاسم حتى ارتسم على وجه السيدة هوخلاكوفا حنق شديد ، فهمّت أن تصرخ ، ولكنها أمسكت ، وقاطعت محدثها قائلة له بلهجة عنيفة هائجة :

ـ الى متى ، الى متى أظل أُعذّب بسبب هذا الانسان الفظيع ؟ كيف تجرأت أيها السيد ، كيف سمحت لنفسك أن تزعج سيدة لا تعرفها ، أن تجىء تضايقها فى منزلها ، فى مثل هذه الساعة ••• متحدثا اليها عن شخص أراد منذ ثلاث ساعات ، فى هذا الصالون نفسه ، فى هذا المكان نفسه ، أن يقتلها ••• وقرع الأرض بقدمه ، ثم خرج بطريقة ما كان لأحد أن يسمح لنفسه بمثلها فى منزل محترم ! اعلم أيها السيد أننى سأشكوك الى رؤسائك ••• أننى لن أسكت لك عن هذه الوقاحة ••• وأرجوك أن تخرج من مسكنى فورا •• أنا أم •• وأنا •• أنا •••

ـ أراد أن يقتلك ؟ أأراد أن يقتلك أنت أيضا ؟

ـ هل قتل اذن أحداً ؟

كذلك سألت السيدة هوخلاكوفا بحرارة • فأجابها برخوتين بصلابة :

ـ اذا وافقت على أن تسمعى لى ، ولو نصف دقيقة ، يا سيدتى ،

شرحت لك كل شيء في بضـــع كلمات • في هـــذا اليوم ، في الساعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم ، جاء الى السيد كارامازوف ورجاني رجاء الصديق أن أقرضه عشر روبلات • وأنا أعلم علم اليقين أنه كان في تلك اللحظة خالي الوفاض ؟ وفي هذا اليوم نفسه ، في الساعة التاسعة ، رجع الى ممسكا بيديه حزمة من أوراق مالية تقـــدر بألفي روبل أو بثلاثة آلاف روبل • وكانت يداه ووجهه ملطخة بالدماء ، وكان يتصرف تصرف مجنون • فلما سألته من أين أتى بهذا المال كله ، أجابني اجابة واضحة دقيقة بأنه قد استلمه منك قبل لحظات ، وبأنك قد أعطيته ثلاثة آلاف روبل من أجل أن يسافر باحثا عن مناجم الذهب فيما زعم •••

ظهرت على وجه السيدة هوخلاكوفا علائم انفعال شديد عنيف أليم • وصاحت تقول وهي تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ يا رب السماء ! لقد قتل أباه العجوز ••• أنا لم أعطه مالا قط ، لم أعطه مالا قط ••• آه ••• أركض ، اركض بسرعة ، لا تقل كلمة واحدة أخرى ، لا تضيع الوقت ! انقذ أباه ، أسرع الى نجدته ، أنقذه !

ـ اغفري لي الحاحي يا سيدتي • أنت تؤكدين أنك لم تعطيه مالا ، فهل ذكرياتك واضحة في هذه النقطة ؟

ـ لم أعطه شيئا ، لم أعطه كوبكا واحدا • رفضت أن أقرضه ، لأنه لم يقدر نواياي حق قدرها • وانصرف كمجنون مسعور قارعا الأرض بقدمه • وقد هجم علي ، فلم يكد يتسع وقتي للاحتماء منه ••• واني لأسر اليك أيضا ، لأنني قررت أن لا أكتمك شيئا بعد الآن ، أنه قد بصق علي ، هل تستطيع أن تتخيـــل هذا ؟ اجلس ••• أرجـــوك ••• معذرة ••• أنا ••• لا بل اركض ، اركض بسرعـــة • واجبك أن تنقذ العجوز المسكين من ميتة فظيعة •

ـ ولكن ما دام قد قتله وانتهى الأمر •••

ـ آ ••• نعم ••• رباه ! هذا صحيح ••• نسيت ••• فماذا نفعل الآن ؟ هل فى ذهنك فكرة عما يجب أن نفعله ؟

ومع ذلك أجلست بطرس ايلتش وجلست أمامه • بسط لها بطرس ايلتش ، بايجاز ولكن بوضوح ، لبّ القضية ، فى حدود ما شهده بنفسه فى ذلك اليوم على الأقل• وروى لها أيضا أنه زار فينيا، وما ذكرته له عن مدق الهاون • فكان من شأن هذه التفاصيل أن هزّت السيدة الطيبة هزاً عنيفا فلم تستطع أن تحبس ، أثناء هذه القصة ، صرخات الارتياع والهول حتى أنها وضعت يديها أمام عينيها عدة مرات •••

ـ فظيع ••• رهيب ! تصور مع ذلك أننى أوجست بالنبوءة كلّ شىء • لقد أُوتيت موهبة عجيبة فى التنبؤ • وما أتنبأ به يتحقق لا محاله• كم من مرة قلت لنفسى وأنا أنظر الى هذا الرجل الكريه : « سيقتلنى هذا الرجل أخيرا فى ذات يوم•»• وذلك ما وقع ••• أقصد أنه اذا كان لم يقتلنى بل قتل أباه ، فانما يرجع الفضل فى ذلك الى تدخل العناية الالهية • لا شك أن الله قد حمانى ونجانى فى ذلك الحين • أضف الى ذلك أنه لم يجرؤ أن يقتلنى لأننى كنت قد علقت فى عنقه ، هنا فى هذا المكان نفسه ، الأيقونة المقدسة الشهيدة عظيمة ••• ولم يكن يخطر ببالى عندئذ أننى ألامس الموت ملامسة قريبة فى تلك اللحظة • اقتربت منه ، ومسسته تقريبا ، فمدّ لى عنقه ••• يجب أن أقول لك يا بطرس ايلتش (معذرة ، أليس اسمك بطرس ايلتش ؟) ، يجب أن أقول لك اننى كنت لا أومن بالمعجزات حتى الآن ، ولكننى أشعر باضطراب شديد حين أتذكر أن تلك الأيقونة التى علقتها فى عنقه قد أنقذتنى بمعجزة من ميتة فظيعة ! آه ••• رباه ! ••• اننى أحس بأننى متأهبة للايمان من جديد بكل شىء ••• لا شك أنك تعرف قصة الأب زوسيما تلك ، أليس

كذلك ؟ أرانى أتيه ، فلا أعرف ماذا أقول ••• تصور أنه ، رغم تلك الأيقونة ، قد بصق علىّ ••• بصق فحسب ، صحيح هذا ، ولم يقتلنى ••• أهـذا اذن ما مضى يفعله بعد ذلك ؟ ماذا يجب أن نقرر الآن ، ما الذى يجب أن نعمله ، قل لى ؟

نهض بطرس ايلتش معلناً أنه سيذهب حالاً الى رئيس الشرطة ليطلعه على الأمر ، فيتولى رئيس الشرطة عمل ما يجب عمله •

ـ تذهب الى ميشيل ماكاروفتش ؟ انه رجل ممتاز ، ممتاز ، أنا أعرفه • اننى أثق بسداد رأيه وصواب حكمه • ميشيل ماكاروفتش : ذلك هو بعينه الرجل الذى يجب ابلاغه الأمر • فكرتك رائعة ، وما كان لها أن تخطر ببالى أنا ، لو كنت فى مكانك •

قال بطرس ايلتش ، وهو ما يزال واقفا ، محاولا أن يضع حداً لثرثرات هذه المرأة المهذار التى لا تدع له فرصة التفوه بكلمة واحدة ليستأذن بالانصراف ، قال :

ـ لا سيما وأننى أعرفه أنا أيضا معرفة شخصية •

تابعت السيدة هوخلاكوفا تقول دون أن تيأس :

ـ اسمع ، اسمع ، يجب أن تجىء الىّ حتماً لتطلعنى على ما تكون قد علمته ••• على الوقائع التى أمكن أن تعرف ••• وكذلك على العقوبة التى سيُحكم بها • أظن أن الحكم بالاعدام لا وجود له عندنا ، أليس كذلك ؟ تعال الىّ حتما ، ولو فى الساعة الثالثة من الصباح ، أو فى الساعة الرابعة ، أو حتى فى الساعة الرابعة والنصف • اطلب ايقاظى ، وليجرونى من السرير جراً عند الحاجة ، اذا أنا أصررت على النوم ••• اننى أقول سخافات على كل حال • أنّى لى أن أرقد بعد كل هذا ؟ تراودنى فكرة : ما رأيك فى أن أرافقك الى عند رئيس الشرطة ؟

ـ لا ••• لا داعى الى هذا يا سيدتى • ولكن اذا وافقت ، فى مقابل ذلك ، أن تكتبى لى ، بخط يدك ، تصريحا فى ثلاثة أسطر تشهدين فيه بأنك لم تعطى دمترى فيدوروفتش مالاً قط ، فأعتقد أن هذا يمكن أن يفيدنا ••• عند الاقتضاء •

صاحت السيدة هوخلاكوفا تقول واثبةً عن مكانها بحماسة ، متجهة الى مكتبها الصغير :

ـ طبعا ! طبعا ! هل تعلم أنك تدهشنى بسداد رأيك ، ونفاذ بصيرتك ؟ صدّقنى اذا قلت لك اننى معجبة أشد الاعجاب بما تبرهن عليه فى هذا المجال من حذق ومهارة ! أأنت تعمل موظفاً فى ادارة مدينتنا ؟ ما أسعدنى اذ أعرف أن سلطاتنا تملك معاونين أفذاذاً لهم مثل قيمتك !

وفيما كانت السيدة هوخلاكوفا تتكلم ، خطّت بسرعة ، على ورقة ، الأسطر التالية ، بأحرف كبيرة :

« لم أقرض دمترى فيدوروفتش ، العاثر الحظ ، ثلاثة آلاف روبل أبداً (ذلك أنه الآن شقى عاثر الحظ) • لم أقرضه كوبكا واحدا ، لا اليوم ، ولا فى أية لحظة أخرى ، أبدا أبدا • أحلف على هذا بكل ما هو عندى مقدس فى هذا العالم » •

هوخلاكوفا

ثم التفتت بقوة نحو بطرس ايلتش فقالت له :

ـ اليك تصريحى • فاسرع الآن • يجب انقاذ هذا الرجل • هذا عمل نبيل تقوم به •

ورسمت عليه اشارة الصليب ثلاث مرات ، ثم شيعته الى الدهليز •

ـ ما أعظم شكرى لك ! لا تستطيع أن تتصور مدى امتنانى منك لأنك جئت الىّ أولاً ! خسارة أننى لم أعرفك قبل الآن ! لسوف يسعدنى فى المستقبل أن أستقبلك فى منزلى • انه لمما يعزى النفس ويشد الأزر أن تملك مدينتنا فى شخصك موظفا له مثل كفاءتك وقيمتك ••• موظف دقيق هذه الدقة ، حصيف هذه الحصافة خاصةً ••• أنا على يقين من أن رؤساءك يقدرونك حق قدرك • صدّقنى اذا قلت لك انهم سيفهمونك آخر الأمر ••• واعلم على كل حال أننى مستعدة من جهتى لأن أقول كلمة طيبة فى حقك كلما لزم ذلك ••• أوه ! اننى أحب الشباب ، اننى مغرمة بالشباب حقا ! الشبيبه فى أيامنا هذه هم قوة بلدنا العظيمه الشقية روسيا ! أنتم أملنا ••• أنتم معقد رجائنا ••• هيًّا ، هيَّ ، أسرع •••

ولكن بطرس ايلتش كان قد نزل الى الشارع ، والا لحبسته زمناً آخر • يجب أن نقول من جهة أخرى ان السيدة هو خلاكوفا قد أحدثت فى نفسه أثراً ممتعاً خفّف عنه ما كان يشعر به من قلق لتدخله فى قضية مزعجة • انكم تعلمون ان الأذواق فى هذا العالم مختلفة متنوعة • قال بطرس ايلتش لنفسه راضياً مسروراً : « ليست متقدمة فى السن كثيراً • كان بمكن بسهولة أن أحسبها ابنتها » •

أما السيده هوخلاكوفا فقد افتتنت به افتتانا • « ما أروع هذا الحذق وهذه الدقة فى شاب ، ذلك عدا آدابه الكيّسة ومظهره اللطيف الجذاب ! تلك مزايا نادرة فى هذه الأيام ! يدعون أن شبابنا اليوم لا قيمة له • فهذا مثال يبرهن على نقيض ما يدعون ، الخ ، الخ » • وقد انتهت السيدة هوخلاكوفا من ذلك الى نسيان « الحادث الفظيع » ، ولم تتذكر الا على سريرها أنها « لامست الموت ملامسة قريبة » • فدمدمت تقول : « شيء رهيب ، شيء رهيب » ، ثم لم تلبث أن نامت نوماً عميقا هادئا • على أننى

ما كان لى أن أسهب فى ذكر هذه التفاصيل الدانوية ، لولا أن هذا اللقاء العجيب الذى يتم بين رجل شاب وأرملة ما تزال نضرة ، وهو هذا اللقاء الذى وصفنه الآن ، انما كان نقطه انطلاق فى حياة هذا الموظف الدقيق المنظم . ان الناس فى مدينتنا ما يزالون حتى يومنا هذا يتكلمون عن هذا مندهشين ، وربما عرضت لنا فرصة أن نقول بضع كلمات عنه فى نهاية هذه القصه الطويله التى نكتبها عن الاخوة كارامازوف .

٣

التبليغ

أن رئيس شرطتنا ميتسيل ماكاروفتش ماكاروف ، وهو ليوتنان كولونيل محال على التقاعد ويحمل رتبة « مستشار قضائى » ، رجل أرمل يمتاز بأنه على جانب عظيم من الشهامة والطيبة • لقد استطاع منذ ثلاث سنين فى مدينتنا ، أن يكسب مودة جميع الناس له ، ولا سيما لما أوتى من موهبة فذة فى « جمع وجوه المدينة بمنزله » • يظهر أنه ما كان ليستطيع أن يعيش يوما واحدا دون أن يستقبل فى داره عددا من الأصدقاء • كان لا يخلو بيته يوما من ضيف على العشاء ، ولو كان عدد الضيف شخصا أو شخصين ؛ وما كان ليجلس أحد الى المائدة فى منزله بغير مدعوين • وكان يتفق له فى بعض الأحيان أن يولم ولائم كبيرة ، متعللاً بحجج كثيرة متنوعة ، حجج قد لا تخطر بالبال • ولئن لم تكن أصناف الطعام فاخرة لقد كانت وافرة • ومع ذلك كان لفطائر السمك التى تقدَّم فى بيته شهرة ذائعة • وقد لا تكون أنواع الخمور أجود الأنواع ، ولكن كثرتها تنوب عن جودتها على كل حال •

ان الغرفة الأولى من مسكنه قد هيئت قاعةً للعب البلياردو ، وأُثِّثت تأثيثاً أنيقا ، وازدانت جدرانها بصور خيول سباق انجليزية ، وتلكم هى

كما تعلمون الزينة المألوفة التي تزيّن كلّ قاعة بلياردو في منزل رجل عازب • وكان يلعب بالورق كلّ مساء في منزل ميشيل ماكاروفتش ، وان يكن عدد اللاعبين محدوداً في كثير من الأحيان • على أن الاستقبالات التي تحضرها صفوة المجتمع من مدينتنا في منزله كانت كثيرة ، وكانت الأمهات تصطحب اليها بناتها ، لأنها كان يُرقص فيها • وكان ميشيل ماكاروفتش يعيش حياة عائلية رغم أنه أرمل ، في صحبة ابنته التي ترملت هي أيضا منذ مدة طويلة ، وفي صحبة حفيدتيه اللتين بلغتا مبلغ الرشد وأنهتا تحصيلهما • لم تكن الفتاتان دميمتين البتة ، وكانتا بما تنعمان بها من مرح الطبع وحسن المزاج تجتذبان شباب مدينتنا ، رغم أنه كان معروفا أنهما لا تملكان مهراً • ولم يكن ميشيل ماكاروفتش لامع الذكاء ، ومع ذلك كان يقوم بمهام عمله كما يمكن أن يقوم بها رجل آخر • واذا أردنا أن نقول الحقيقة وجب أن نذكر أنه كان ضئيل الحظ من الثقافة ، وكان قليل الاهتمام بالحدود الدقيقة التي تقف عندها صلاحياته الادارية • كان معنى بعض الاصلاحات * التي تحققت في النظام الجديد يغيب عنه ، وكثيرا ما كان يفسر هذه الاصلاحات تفسيراً يشتمل على أخطاء فادحة مذهلة ، لا لعجز منه بل لقلة اكتراث ، فانه لم يكن يجد في وقته متسعاً لدراستها دراسة عميقة • وكان يحب أن يقول عن نفسه : « ان لي روح رجل عسكري لا رجل مدني » • ورغم أنه كان من ملاّكي الأراضي ، فان ما علق بذهنه من معلومات تتعلق بالاصلاح الزراعي قد ظلت غامضة مبهمة ، وكانت هذه المعلومات تكتمل سنة بعد سنة ، على غير ارادة منه ان صح التعبير ، فانما هي تكتمل بالتجربة الناشئة عن الممارسة العملية •

كان بطرس ايلتش يعلم أنه سيلتقي عند رئيس الشرطة في ذلك المساء بضيوف ، ولكن كان يجهل من عسى يكون عنده من هؤلاء

الضيوف • ومن المصادفات أن ميشيل ماكاروفتش كان في ذلك المساء يلعب بالورق مع النائب العام وطبيب المنطقة (الدكتور الشاب فارفنسكى الذى وصل من سان بطرسبرج مؤخراً وكان من أوائل متخرجى مدرسة الطب) • فأما النائب العام هيبوليت كيريلوفتش ــ وكان يسمى نائباً من قبيل المجامله ، لأنه لم يكن فى الواقع الا وكيل نيابة ــ فهو رجل على حدة ، ما يزال شاباً ، لم يكد يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ، فيه استعداد للاصابة بمرض السل ، متزوج امرأةً سمينة عاقراً • انه شديد الشعور بكرامته وكبريائه ، سريع الغضب والحنق ، ولكنه يملك مزايا واضحة من حسن الذكاء ونبل القلب • يبدو أن آفة طبعه الأساسية ناشئة عن أنه مبالغ فى تقدير قيمته ، فهذا التباين بين كفاءاته الواقعية وبين رأيه فى نفسه كان يخلق له حالة قلق مستمر • وكانت له مطامح عليا ، بل ومطامح فنية ، وكان يعتز خاصة بمقدرته فى علم النفس ، فهو يعتقد أنه أوتى مواهب خاصةً فى النفاذ الى أسرار النفس الانسانية ، وفى اكتشاف البواعث العميقة لدى المجرمين • وكان لهذا السبب يعتقد أنه مجهول القيمة ، وكان يعيش على قناعة تامة بأن الناس لم يقدروه حق قدره ، أو أن هناك أعداء يكيدون له ويعرقلون تقدمه فى وظيفته • وكان فى ساعات حزنه ويأسه يمضى الى حد التهديد بالانتقال الى صف المعارضة ، فيعمل محاميا أمام المحاكم الجنائية • وقد استثارته قضية مقتل الأب كارامازوف واستنهضت همته ، فحدّث نفسه قائلاً : « هذه قضية ستشتهر غداً فى روسيا كلها • » • ولكن أرانى أستبق تتمة القصة •

وفى الغرفة المجاورة كان قاضى التحقيق الشاب نيقولا بارفينوفتش نلبودوف ، الذى وصل الى مدينتنا منذ شهرين ، يثرثر مع الفتاتين • لقد دُهش الناس بمدينتنا ، فيما بعد ، من وجود هؤلاء الأشخاص بأعينهم مجتمعين فى مساء وقوع « الجريمة » نفسه ، فى منزل أحد ممثلى السلطة

التنفيديه ، كأنما هم اتفقوا على ذلك • والحق أن تعليل هذه المصادفه طبيعى جدا : ان زوجه هيبوليت كيريلوفتش تشكو منذ يومين من آلام شديدة فى الأسنان ؛ فكان وكيل النيابة المسكين لا يفكر الا فى الهروب من المنزل حتى لا يسمع أنينهـا • فالى أين يمكن أن يذهب اذا هو لم يذهب الى ميشـيل ماكاروفتش ؟ أما الطبيب فانه ، بحكم مهنته ، كان لا يستطيع أن يقضى سهراته الا لاعباً بالورق ، لذلك كان وجـوده فى منزل رئيس لشرطه أمراً لا بد منه ولا محيـد عنه • وأما نيقـولا بارفينوفتش نليودوف ، فلقد كان ينوى منذ ثلاثه أيام أن يزور ميشـيل ماكاروفتش فى ذلك المساء ، وأن يجيء اليه « بما يشبه المصادفة » ، بغية أن يفاجيء بعد ذلك كبرى الفتاتين ، أولغا ميخائيلوفنا ، بأنه عالم بسرّها : وهو أن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلادها ، وأنها أرادت أن تخفى الأمر عن المجتمع حتى لا تقيم حفـلة رقصٍ فى منزلهـا • وكان نيقـولا بارفينوفتش يتصور أمازيح كثيرة سيقوم بها فى تلك المناسبة ، ويتلذذ سـلفاً بهذه الأمازيح : كالاشـارة الى أنها تخشى أن تعلن عن سنها ، وكالتهديد باذاعة الأمر فى المدينة كلها غداً ، الخ • ان هذا الشاب الفتان « عفريت » كبير ، حتى ان سيداتنا قد لقبنه بهذا اللقب ، وكان هذا يملؤه رضى وارتياحاً فيما يبدو • وكان ينتمى من جهة أخرى الى أسرة ممتازة ، وكان جمّ الكياسة رفيع المشاعر • ورغم انه كان بطبيعته محباً للمباهج مقبلاً على الملذات ، فقد كان كذلك على براءة وكان لا يخل بالمواضعات المقررة ولا يسيء الى الآداب الاجتماعية • وهو قصـير القامة ، ضعيف البنية ، رقيق مرهف ، تزين أصابعه النحيلة الشاحبة خواتم كبيرة كثيرة • وكان فى قيامه بأعمال وظيفته رصيناً رصانة عظيمة ، قوى الشعور بخطورة الواجبات الملقاة على عاتقه • وكان يمتاز خاصـةً بمهارته فى أن يحيّر القتلة وغيرهم من المجرمين من أبناء الشعب البسيط أثناء استجواباته ، كثيرا ما كان يثير فيهم من الدهشة ان لم يثر فيهم الاحترام •

حين وصل بطرس ايلتش الى منزل رئيس الشرطة صعقه فعلاً أن يعرف أن جميع الحضور كانوا على علم بالأمر • كان اللاعبون بالورق قد كفوا عن اللعب ، وأخذ سائر الضيوف يتناقشون في الحادث بحرارة، وقوفاً • لقد هرع نيقولا بارفينوفتش من الغرفة المجاورة عابس الوجه يوشك أن يكون مستعداً للهجوم • وما كان أشدّ ذهول بطرس ايلتش حين علم بالنبأ لرهيب : وهو أن العجوز فيدور بافلوفتش قد قتل في منزله فعلاً هذا المساء ••• قُتل وسُرق • وقد عرفت الجريمة في الظروف التالية :

لا شك في أن مارفا اجناتيفنا ، زوجة جريجوري ، كانت نائمة نوماً عميقا في اللحظة التي ضُرب فيها زوجها بمدق الهاون قرب السور• وكان يمكن أن تستمر في نومها زمناً طويلاً أيضا • ولكن شاءت المصادفة أن تستيقظ فجأة ، وأغلب الظن أنها استيقظت بسبب الصرخة الرهيبة التي أطلقها سمردياكوف الذي يرقد في الغرفة الصغيرة المجاورة مغشياً عليه غائباً عن وعيه • انها تعرف هذه الصرخة حق المعرفة ، فبهذه الصرخة انما تبدأ نوبات الصرع لدى سمردياكوف • وقد أرعبتها هذه الصرخة طوال حياتها ، وخلّفت في نفسها أثراً مرضيا ، ولم تستطع أن تعتادها في يوم من الأيام • نهضت مارفا منتفضة وهي ما تزال نصف نائمة وأسرعت الى الغرفة التي يرقد فيها سمردياكوف ، على غير شعور منها تقريبا • كان الظلام حالكاً ، فلا يُرى شيء ، وانما يُسمع الشخير الرهيب يخرج من صدر المريض الذي يتخبط • أخذت مارفا اجناتيفنا تصرخ هي أيضا ، منادية زوجها ، ولكنها أوجست فجأة أن زوجها لم يكن الى جانبها في السرير حين استيقظت من نومها ، فأسرعت الى السرير وأخذت تجس الغطاء ، فأيقنت أن الفراش ليس عليه أحد • تساءلت فالى أين ذهب ؟ هل خرج ؟ ولماذا خرج ؟ وهرعت الى درجات المدخل

وأخذت تناديه في الظلام وجلى ، ولكنها لم تتلق جوابا • وفجأة خيّل اليها أنها تدرك في حلكة الليل أناتٍ مخنوقة كأنها آتيه من الحديقه • فأصاخت بسمعها ، فتكررت الأنات • دمدمت تقول مضطربة « رباه ! يشبه هذا ما حدث في الماضي يومَ موت اليزابث سمردياستشايا ! » • وهبطت الدرجات خائفة ، فلاحظت أن باب الحديقة مفتوح ، فقالت لنفسها : « لا شك أن زوجي الطيب هناك » ، فلما اقتربت من باب الحديقة سمعت في هذه المرة زوجها جريجوري نفسه يناديها بصوت ضعيف محتضر مروّع : « مارفا ، مارفا ! » • فقالت مارفا متلعثمة « نجّنا من الشر يا رب ! » واندفعت في الاتجاه الذي كان يصدر عنه النداء • وهكذا اكتشفت جريجوري • ومع ذلك لم تجده قرب السور ، في المكان الذي صُرع فيه ، بل على بعد عشرين خطوة من ذلك المكان • وقد عُرف فيما بعد أن جريجوري ، حين أفاق من اغمائه وثاب الى رشده ، جرّ نفسه على الأرض مدة طويلة ، فأغمى عليه أثناء ذلك عدة مرات ، ولكنه كان يصحو ثم يستأنف زحفه • وسرعان ما لاحظت مارفا أنه كان مضرجاً بدمائه ، فأخذت تصرخ • وكان جريجوري يتمتم بصوت واهن جملاً مضطربة لا تسلسل فيها ، قائلاً : « قتل ••• قتل أباه ••• لماذا تصرخين يا امرأة غبية ؟ هلمى ! أركضى ! نادى !» • ولكن مارفا اجناتيفنا لم يهدأ روعها ولم تنقطع عن اطلاق صرخاتها الوحشية • فلما لاحظت فجأة أن نافذة غرفة مولاها مفتوحة ومضاءة ، أسرعت الى هناك تنادى فيدور بافلوفتش • واذ لم تسمع جوابا نظرت من النافذة ، فرأت عندئذ مشهداً فظيعا : رأت فيدور بافلوفتش راقدا على الأرض جثةً هامدة • بلغت مارفا اجناتفنا ذروة الهلع ، فاندفعت عندئذ الى خارج الحديقة ، ففتحت الباب الكبير ، وهرعت الى عند جارتها ماريا كوندراتيفنا • كانت المرأتان ، الأم وابنتها ، نائمتين حينذاك ، ولكنهما لقوة الطرقات العنيفة

على مصراعى الباب ، ولشـــدة الصرخات الحادة التى كانت تطلقها مارفا اجنانيفنا ، استيقظتا من نومهما واقتربتا من النافذة . فقصت عليهما العجوز المسكينة ما نزل بدارهم من شقاء ، قصت عليهما ذلك بأقوال مضـــطربة مشوشة تقطعها أنات . ومن المصادفات أن توماس الذى يسكن مستأجراً فى منزلهما ، والذى يتنقل عادة فى البرارى ، كان يبيت فى المنزل فى تلك الليـــلة . فسرعان ما أوقظ من نومه ، وخفّ الجميـــع الى مكان الجريمة . وتذكرت مارى كوندراتيفنا أثناء الطريق أنها قد سمعت فى نحو الساعة التاسعة من المساء ، عويلاً صادراً من الحديقة أرعبها . لقد كان ذلك هو الصرخة التى أطلقها جريجورى لحظةَ أمسك بيديه احدى ساقى ميتيا الراكب السور ، قائلا : « يا قاتل أبيه » .

قالت ماريا كوندراتيفنا شارحةً : « ان أحداً قد صرخ عندئذ صراخا قويا جداً ثم صمت فجأة» . ووصل الثلاثه الى قرب جريجورى ، فأنهضته المرأتان بمعاونة توماس ، ونقلوه الى الملحقات . وأشعلوا شمعه . وحين مروا أمام الغرفه التى يرقد فيها سمردياكوف لاحظوا أنه ما يزال يتخبط فى تشنجاته وقد جحظت عيناه وخـــرج الزبد من فمه . غسلوا رأس جريجورى بمـــاء ممـــزوج بخل ، فجعله ذلك يصحو تماماً ، فسرعان ما ألقى عليهم هذا السؤال : « أقُتل مولاه أم لا ؟ » . وأرادت الجـــارتان عندئذ أن تصحبا توماس الى غرفة فيدور بافلوفتش . فلما اجتازتا الحديقة لاحظتا أن النافذة لم تكن وحدها مفتوحة ، وانما كان باب المسكن مفتوحا أيضا ، مع أن فيدور بافلوفتش قد أصبح منذ أسبوع يحكم اقفال البـــاب بالمفتاح كل ليلة ، ولا يسمح حتى لجريجورى بأن يدخل عليه لأى سبب من الأسباب ، وبأى عذر من الأعذار . فلما رأت المرأتان وتوماس هـــذا الباب مفتوحاً ترددوا عن الدخول الى غرفة الجريمة «خشية المضاعفات» ، وعادوا الى الملحقـــات ، فطلب جريجورى ابلاغ رئيس الشرطه بالحادث

فورا • فتولت ماريا كوندراتفنا القيام بهذه المهمة ، فأهاج وصولها ضيوف ميشيل ماكاروفتش ، وأقامهم وأقعدهم • لقد وصلت ماريا الى منزل رئيس الشرطة قبل وصول بطرس ابلتش بخمس دقائق لا أكثر ، وهكذا مثل بطرس ابلتش أمام هؤلاء الرجال لا مثول انسان يريد أن ينقل اليهم شكوكه واستدلالاته ، بل مثــول شاهد عيان ، فلم تزد التفاصيل التى ذكرها على أن عززت ما كانوا قد تصوروه من فروض عن شخص القاتل (الحق أن بطرس ايلتش نفسه قد ظل الى آخر لحظة يشك فى أن يكون ميتيا هو القاتل) •

وتقررت المبادرة الى العمل فورا • وأُبلغ مفوض الشرطة المساعد، وتم القيام بالتحريات الأولى فى مكان الجريمة بمنزل فيدور بافلوفتش ، وفقا للأصول القضائية التى لا داعى لى وصــفها هنا • وقد أصر طبيب زمستفو ، وهو طبيب مبتدىء ممتلىء همةً وحماسة ونشاطاً ، أصرَّ على أن يصحب رئيس الشرطة ووكيل النيابة وقاضى التحقيق • وسأقتصر هنا على تلخيص ما شاهدوه : لقد صُرع فيدور بافلوفتش ، وكسرت جمجمته، ولكن ما هو السلاح الذى استعمل فى قتله ؟ لعــله ذلك السلاح نفسه الذى استعمله القاتل بعد ذلك فى ضرب جريجورى • واكتشفت أداة الجريمة أخيرا بفضل ما استطاع جريجورى أن يذكره لهم على نحــو متسق ، ولو بصوت واهن متقطع ، بعد أن أُسعف الاسعافات الطبية التى تتطلبها حالته • استكشف رجال الشرطة الأرضَ التى تجاور الســور مستعينين بمصباح ، فلم يلقوا عناءً فى العثور على مدق الهاون النحاسى• وجدوه ملقىً وسط الممر الذى يشق الحديقة ، فى موضع يلفت الأنظار على الفور • ولم تكن الغرفة التى يرقد فيها فيــدور بافلوفتش فوضى ، ولكنهم اكتشفوا على الأرض وراء الحاجز ظرفاً ملقى قــرب السرير • وكان ظرفاً كبــيراً مصنوعا من ورق ســميك ، وقد كتب عليه ما يلى :

« هديه صغيرة من ثلاثه آلاف روبل أهدبها الى ملاكي جروشنكا اذا هي رضيت أن تجيء » وفي أسفل الطرف كتبت عبارة أخرى أغلب الظن أن فيدور بافلوفتش أضافها بعد ذلك هو نفسه : « الى حمامتي » • وكان الظرف الذى ختم بالشمع الأحمر ثلاثه أختام كبيرة قد فضّ وأفرغ مما فيه : لقد سُرق المال الذى كان يضمه الظرف • واكتشفوا كذلك على أرض الغرفة الشريط الوردي اللون الذى كان يلف الظرف •
وقد أحدثت أقوال بطرس ايلتش أثراً عميقا فى وكيل النيابه وقاضى التحقيق وهزتهما هزاً قوياً ، لا سيما بسبب ما ذكره لهما من أن دمترى فيدوروفتش كان يبدو عازماً عزماً مطلقاً على أن ينتحر قبل طلوع الفجر؛ وان دمترى فيدوروفتش قد أفهمه ذلك نفسه ، حين حشا أحد المسدسين بالرصاص أمامه ، وحين كتب بطاقة صغيرة يشرح فيها السبب الذى يدعوه الى الانتحار ودسَّها فى جيبه ، الخ ، حتى اذا قال له بطرس ايلتش الذى لم يشأ أن يصدق قراره انه سيبلغ أقرباءه ما عزم عليه حتى يمنعوه من انفاذه ، أجابه ميتيا بلهجة ساخرة : « لن يتسع وقتك لهذا يا عزيزى » • معنى هذا كله أن من الواجب الاسراع فى العمل ، والوصول الى موكرويه على عجل ، حتى يفاجأ القاتل قبل أن ينفذ ماعقد النية عليه •

كان وكيل النيابة يردد قوله مضطربا اضطرابا شديدا :

ـ القضية واضحة وضوح ماء الصخر • ذلك بعينه هو ما يفعله جميع هؤلاء العابثين القاصفين الأشقياء حين يقعون فى الجريمة • غداً أنتحر ، أما الليلة فألهو وأتسلى •

وازداد اهتياج وكيل النيابة حين سمع تفاصيل ما حدث فى المتجر حين اشترى ميتيا الشمبانيا وأنواع الحلوى •

ـ هل تتذكرون ، أيها السادة ، ذلك الشاب الذى قتل التاجر

أولسوفيف ليسلبه ماله ؟ انه بعد أن استولى على ألف وخمسمائة روبل كانت مع ضحيته ، فكّر قبل كل شيء في أن يصفف شعره منموجاً عند حلاق ، ثم أسرع الى البغايا حتى دون أن يكلف نفسه عناء اخفاء المال ، فكان يمسكه بيديه تقريبا ، مثل هذا القاتل الجديد تماما •

على أن التحقيق وتفتيش منزل فيـــدور بافلوفتش والاجـــراءات القانونية الشكلية ، كل ذلك قد استغرق وقتا ، لذلك تقرر أن يوفد الى موكرويه ، على جناح السرعة ، موظف الشرطة موريس مافريكيفتش شمرستوف الذي جاء الى المدينة في الليلة البارحة لقبض مرتبه • أصدرت اليه تعليمات بأن يذهب الى موكرويه ، منتحلاً عذراً من الأعذار ، بحيث لا يلفت الانتباه ، وأن يراقب المجرم في الخفاء دون أن يغيب عن بصره، الى حين وصول السلطات • وكان على موظف الشرطة هذا أن يكون في عداد الخفراء الذين سيقتادون المتهم • نفّـــذ موريس مافريكيفتش الأوامر التي تلقـــاها ، ولزم التخفي ، واقتصر على أن ذكـــر لتريفون بوريستتش الذي يعرفه منذ عهد بعيد بعض الايضاحات عن الأســـباب الحقيقية لمجيئه • وفي ذلك الوقت انمـــا التقى ميتيـــا بصاحب النزل في أسفل السلم المفضي الى الشرفة ، فلاحظ تغـــيراً غريبا في تعبـــير وجهه وطريقة كلامه • وعلى هذا النحو لم يستطع أحـــد ، لا ميتيا ولا سائر الضيوف ، أن يخطر ببالهم أنهم مراقبون • أما علبة المسدس فقد أسرع تريفون بوريستتش يخفيها في مكان مأمون على الفور • ولم تصل السلطات الى موكرويه الا في الساعة الخامسة ، عند طلوع الفجر • استقل وكيل النيابة ، ورئيس الشرطة ، وقاضي التحقيق ، وحاشيتهم ، عربتي تروكاء • ومكث الطبيب في منزل فيدور بافلوفتش ، ليباشر تشريح جثة القتيل منذ الصباح • ولكنه كان مهتما اهتماما خاصا بحالة سمردياكوف •

ـــ ان نوبات الصرع التي تبلغ هذه الدرجة من الشدة وتدوم مثل

هذه المدة مستمرة يومين ، هى حالات نادرة كل الندرة ، حالات يهتم بها العلم ويكب على دراستها •

كذلك قال الطبيب لصحبه مهتاجاً حين سافروا الى موكرويه ؛ وقد مازحه صحبه وهنأوه على ما أوتى من فرصة مواتية وحظ نادر •

وقد تذكر وكيل النيابة وقاضى التحقيق فيما بعد ، تذكراً واضحاً، أن سمردياكوف سيموت قبل طلوع الفجر فيما زعمه الطبيب الشاب •

بعد هذه الشروح التى كانت طويلة بعض الطول ، ولكنها كانت لا بد منهـا ولا غنى عنها ، سنستأنف الآن قضيتنا من حيث قطعناها فى نهاية الباب السابق •

٣

محن نفس

المحنة الأولى

كان ميتيا يتصفح وجوه محدثيه ، مجنون العينين ، ولا يفهم ما يقال له • وها هو ذا ينهض فجأة، فيرفع ذراعيه الى السماء ويهتف قائلا بصـــوت قوى :

ـ لست القاتل ! أنا لم أسفح ذلك الدم ! لم أسفح دم أبى ••• كنت أريد أن أقتله ، ولكننى لم أفعل • لست أنا القاتل !

فما ان قال ميتيا هـــذه الكلمات حتى اندفعت جـروشنكا من وراء الستائر وسقطت عنـــد قدمى رئيس الشرطة ، وأعولت تقول بصـــوت ممزّق ، وهى تبكى بكاء غزيراً وتمد ذراعيها نحو الحضور :

ـ أنا المذنبة ، أنا الشقية المذنبة • بسببى انما قتل ! أنا التى قدته الى ذلك من كثرة ما عذبته ••• ولقد عذبت العجوز المسكين الراحـل أيضاً ، بدافـــع الشر الذى فى نفسى ••• أنا سبب كل شىء ، أنا ، أنا وحدى • أنا القاتلة فى حقيقة الأمر •

ـ أما أنك القاتلة فهذا صحيح لا شك فيه ! أنت مجرمة كبيرة ، أيتها المرأة الضالة الفاسقة ! أنت المسئولة عن هذه الجريمة •

SS

كذلك صاح يقول رئيس الشرطه وهو يلوّح بقبضه يده مهدداً • ولكن سرعان ما حُمل رئيس الشرطه على السكوت ، حتى أن وكيل النيابة أحاطه بذراعيه ليتحكم به ويسيطر عليه ، قائلاً له بصوت عال وهو يكاد يختنق غيظاً :

ـ لقد أحدثت فوضى يا ميتيل ماكاروفتش ، هذا لا يجوز ! انك تشوش التحقيق وتفسد كل شيء •

وقال نيقولا بارفينوفتش مضطرباً بدوره :

ـ يجب اتخاذ اجراءات ••• حالاً ••• يجب اتخاذ اجراءات •

واستأنفت جروسنكا كلامها فقالت بحرارة وحماسة وهي ما تزال جاثيه على ركبتيها :

ـ احكموا علينا معا ، أعدمونا معاً ، أنا مستعدة لأن أشاركه العقوبة القصوى !

فهتف ميتيا يقول وهو يرتمي على الأرض فيجثو الى جانب جروشنكا ويعانقها :

ـ جروشا ، حياتي ، روحي ، دمي ، قديستي ! لا تصدقوا ماتقوله، انها ليست مذنبة في شيء ، انها لا تشارك أية مشاركه في المسئولية عن هذا الدم المسفوح ، انها لم تفعل شيئاً !

تذكر ميتيا فيما بعد أن عدة رجال قد فصلوه بالقوة عن جروشنكا التي أقصيت عن الغرفة ، وأنه في اللحظة التي ثاب فيها الى وعيه ، وجد نفسه جالساً أمام المائدة • وكان يقف وراءه رجال يضعون على صدورهم صفائح من معدن • وفي الجهة الأخرى من المائدة ، كان قاضي التحقيق نيقولا بارفينوفتش الذي جلس على الكنبة ، يلح عليه أن يشرب قليلاً

من الماء مشيراً الى الكأس الموضوعة على المائدة ، قائلاً له بلهجة مهذبة جداً :

ـ اشرب ، الماء ينعشك ويهدئك . لا تخش شيئاً .

خطفت انتباهَ ميتيا ، على حين فجأة ، الخواتمُ الكبيرة التى كانت فى أصابع قاضى التحقيق . أن أحد هذه الخواتم يزدان بالجمشت ، والثانى يزدان بحجر أصفر واضح شفاف قوى السطوع . سوف يظل ميتيا يتذكر خلال زمن طويل مدى ما أحدثته هذه الخواتم فى نفسه من افتتان حتى أنه طوال الساعات الرهيبة التى استغرقها الاستجواب لم يستطع أن يحول بصره عنها ، ولم ينقطع عن النظر اليها وهو فيما هو فيه من ظروف لا تتفق مع اهتمام تافه هذه التفاهة . والى يسار ميتيا ، فى المكان الذى كان يشغله ماكسيموف فى بداية السهرة ، كان يجلس وكيل النيابة ؛ والى يمين ميتيا ، فى المكان الذى جلست فيه جروشنكا بضع ساعات قبل ذلك ، كان يجلس شاب زاهى اللون ، يرتدى سترة عتيقة جدا مما يلبسه الصيادون ، وأمامه محبرة وورقة . ولقد اتضح فيما بعد أنه كاتب قاضى التحقيق . أما رئيس الشرطة فقد كان واقفا قرب النافذة، فى الطرف الآخر من الغرفة ، على مقربة من كالجانوف الذى كان جالسا على كرسى .

كرر قاضى التحقيق يقول بلطف ورقة للمرة العاشرة :

ـ اسرب ماء .

فصاح ميتيا يقول ، وهو يبت على قاضى التحقيق نظرته الجامدة جمودا رهيبا فى عينيه الجاحظتين :

ـ شربت يا سادتى شربت ... والآن فاسحقونى ، اعدمونى ، قرروا مصيرى !

سأله القاضى بصوت لطيف رفيق ولكنه ملح :

ــ أأنت نصر اذن على أنك برىء من مقتل أبيك ؟

ــ برىء ! لقد سفحت الدم ، سفحت دم العجوز الآخر ، ولكننى لم أسفح دم أبى . آه ... لشد ما يؤسفنى ما فعلت . لقد قتلت ذلك العجوز المسكين ، صرعته . غير أنه يشق على أن أصبح بسبب هذه الجنايه مسئولاً عن جريمه أخرى ، جريمه فظيعة لم أرتكبها ... ذلك اتهام رهيب يسقط علىّ سقوط الصاعقه ! ولكن من ذا الذى قتل أبى ؟ من هو القاتل ؟ من عسى يكون القاتل اذا لم أكن أنا ؟ هذا جنون ...

بدأ قاضى التحقيق يقول :

ــ أتسأل من هو القاتل ؟ سأقول لك ذلك ...

ولكن وكيل النيابه هيبوليت كيريلوفتش سارع يسكته بنظرة منه ، ثم قال مخاطبا ميتيا :

ــ تخطىء اذا قلقت على مصير الخادم العجوز جريجورى فاسيليف. اعلم أن هذا الخادم لم يمت ، وأنه أفاق من اغمائه واسترد وعيه . حتى أن الطبيب يرى أنه ليس فى خطر رغم الضربة الفظيعة التى شهد هو واعترفت أنت بأنك أصبته بها .

هتف ميتيا فجأة يقول وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى (وقد أشرق وجهه فرحاً) :

ــ أهو حى ؟ اللهم انى أحمدك على هذه المعجزة العظيمة التى تهبها لى ، لى أنا الخاطىء المجرم ؟ اللهم انى أحمدك على أنك استجبت لدعائى ... ذلك أن دعائى هو الذى قُبل ... لقد لبثت أدعو طوال الليل أن لا يموت .

ورسم ميتيا اشارة الصليب ثلاث مرات وهو يختنق انفعالاً .

استأنف وكيل النيابه كلامه قائلاً :

ـ من جريجورى هذا نفسه نما حصلنا على معلومات خطيرة جدا في شأنك ...

ولكن ميتيا قاطعه ووثب عن كرسيه قائلاً :

ـ دقيقة واحدة أيها السادة ! اسمحوا لى بدقيقه واحدة ، دقيقة واحدة ، أناشدكم الله ... أريد أن أكلمها هى ...

فصرخ نيقولا بارفينوفتش يقول له بصوت حاد ، ناهضا عن مقعده على حين فجأة هو أيضا :

ـ آسف ! ذلك مستحيل استحالة مطلقة الآن .

وأمسك الرجال الذين يضعون على صدورهم صفائح معدن ، أمسكوا ميتيا ، فسرعان ما عاد يجلس دون احتجاج ، وقال :

ـ هذ يؤسفنى أسفاً عميقاً يا سادتى ، لأننى لم أكن أريد أن أراها الا لحظة قصيرة ... لأبلغها أن ذلك الدم قد امحى من حياتى ، ذلك الدم الذى عذبنى طوال هذه الليلة ، واننى لست قاتلاً ! انها خطيبتى أيها السادة ، هل تعرفون هذا ؟ (هكذا صاح يقول فجأة وهو ينقل بصره على محدثيه جازماً) . أوه ! شكراً لكم أيها السادة ! لقد رددتمونى الى الحياة بهذه الكلمة وحدها : حى ! ان ذلك العجوز كان يحملنى بذراعيه أيها السادة ، وكان يغسلنى فى جرن حين كنت فى السنة الثالثة من عمرى وتركنى الجميع .. كان لى بمثابة أب !

همّ القاضى أن يتكلم قائلاً :

ـ وهكذا ، فأنت ...

ولكن ميتيا قاطعه وهو يضع كوعيه على المائدة ويغطى وجهه بيديه:

ـ اسمحوا لى بدقيقة تفكير أيها السادة ، دقيقة واحدة . دعونى أتنفس لحظة ، وأحاول أن أرى رؤية واضحة . ان هذا الأمر قد هـزنى هزاً قوياً وقلب نفسى رأساً على عقب ، هذا فظيع ... ليس يُقرع انسان كما يقرع طبل أيها السادة !

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول له :

ـ عليك أن تشرب جرعه أخرى من الماء .

أبعد ميتيا يديه عن وجهه وأخـذ يضحك . ان فى نظرته الآن لفة ، وقد تبدل تعبير وجهه فى طرفة عين . وتغير موقفه كذلك ، فهـو يتكلم بلهجه غير اللهجه التى كان يتكلم بها من قبل . هو يحس الآن أنه عاد ندا لهؤلاء الرجال الذين يعرفهم والذين كان يمكن أن يجتمع بهم ، البارحه ، فى سهرة تضم عليه القوم ، فكأن شيئاً لم يكن . يحسن أن نشير هنا الى أن ميتيا كان قد استقبل استقبالاً حاراً جداً بمنزل رئيس الشرطه ، فى بداية اقامته بمدينتنا ، ولكنه انقطع عن التردد الى هـذا المنزل بعد ذلك ، ولا سيما خلال الشهر الأخير . وأصبح رئيس الشرطه، منذ زمن ، يقطب حاجبيه حين يرى ميتيا فى الشارع ، ولا يرد على تحيته الا من باب الأدب ، وقد لاحظ ميتيا هذا. أما وكيل النيابه فقد كانت معرفة ميتيا به أقل من ذلك أيضا ، رغم أن ميتيا قد زار زوجته ، وهى امرأة عصبية ذات هواجس ، عدة زيارات شكلية تماما ؛ كان يذهب اليها دون أن يعرف لماذا ، وكانت تستقبله حتى هـذه الأسابيع الأخيرة بكثير من البشاشة والمودة ، بل وكانت تبدى شـيئا من الاهتمام به . وأما قاضى التحقيق ، فلم تكن بينه وبين ميتيا علاقات اجتماعية ، واقتصر كل شيء بينهما على حديث أو حـديثين تبادلا خلالهما كلاما غامضا عن جنس النساء .

SS

قال ميتيا مرحاً :

ـ أرى يا نيقولا بارفينوفتش أنك قاضٍ بارع جدا ، ولكن أحسب مع ذلك أن عليّ أن أساعدك . أوه ! لقد تنفست أيها السادة ... لا تؤاخذونى اذا أنا كلمتكم بغير كلفة . ثم انني ثمل قليلاً ، أعترف لكم بذلك صراحة . أظن يا نيقولا بارفينوفتش أننى قد سبق لى أن سُررت وسرفت بلقائك ، عند ميوسوف ، قريبى ... معذرة أيها السادة ! لست أدعى المساواة بكم الآن ، فأنا أعرف موقفى أمامكم حق المعرفة... هناك تهمة رهيبة تجثم عليّ... طبعا... اذا كان جريجورى قد شهد عليّ ... فلا بد أن تكون القرائن قوية فى الظاهر ... نعم ... أنا موضع شبهة خطيرة ! فظيع ! فظيع ! اننى أفهم هذا حق الفهم ، ثقوا من ذلك ! ولكن فلنصل الى الوقائع أيها السادة ! اننى مستعد ... وسنوضح الأمور فى بضع دقائق يا سادتى ، أليس هذا صحيحاً ؟ ما دمت بريئاً ... اصغوا الىّ ، اصغوا الىّ ! ما دمت أعلم أننى لم أرتكب هذه الجريمة ، فسوف نبدد سوء التفاهم فى طرفه عين ، أليس كذلك أيها السادة ؟

كان ميتيا يتكلم متعجلاً متدفقاً على نحو عصبى ، وبنوع من الاصرار العنيد على أن يعد محدثيه كأنهم خير أصدقائه .

قال نيقولا بارفينوفتش بلهجة رصينة :

ـ سنسجل الآن اذن أنك تنكر انكارا قاطعا التهمة الموجهه اليك .

ثم التفت نحو الكاتب ، وأملى عليه بصوت خافت خلاصة انكارات ميتيا .

ـ آ ... أأنتم تسجلون أقوالى ؟ أتريدون تدوينها ؟ طيب ... اكتبوا اذا شئتم ... أوافق على هذا ... لا أرى فى هذا ضيراً أيها السادة ... ولكن ... لحظة من فضلكم ! أريد أن تكتبوا كما يلى :

« ارتكب جرم استعمال العنف ، فضرب عجوزا مسكينا ، وهـو يعترف بذلك » ثم اننى فى أعماق نفسى ، فى قرارة ضميرى ••• ولكن لا داعى الى كتابة هذا (هكذا قال ملتفتاً الى الكاتب) ••• تلك حياتى الخاصـة التى لا شأن لكم بها أيها السادة ، هذه أغوار قلبى ••• أما قتل أبى فأنا برىء منه ! تلكم تهمة حمقاء ! ذلكم افتراض سخيف ••• سأبرهن لكم على هذا ، فتقتنعون اقتناعا تاما • سـوف تضحكون أيها السادة ، سوف تضحكون أنتم أنفسـكم من الشكوك التى راودتكم ، سوف تنفجرون ضاحكين •

تدخل قاضى التحقيق فقال وكأنه يريد أن يضرب بهدوئه هو مثلاً لميتيا المندفع المضطرب :

ــ هدىء نفسك يا دمترى فيدوروفتش ! أحب أن أرجوك ، قبـل أن نتابع الاستجواب ، أن تؤكد لى ــ اذا كنت توافق على ذلك ــ أنك لم تكن تحب فيدور بافلوفتش كثيرا ، وأن مشاجرات كثيرة كانت تقع بينكما • لقد صرحت أنت نفسك ، منذ ربع ساعة ، فى هذا المكان نفسه ، اذا لم يخطىء ظنى ، أنك كنت تنوى أن تقتله • لقد صحت تقول : « كنت أريد أن أقتله ولكننى لم أقتله • » •

ــ أقلت أنا هذا ؟ أوه ! جائز أيها السادة ! نعم ••• وا أسفاه ! لقد تمنيت أن أقتله ، وراودتنى نفسى على هذا مرارا ••• وا أسـفاه ! وا أسفاه !

ــ كنت تنوى اذن أن تقتله • فهل تستطيع أن تشرح لنا أسباب هذا الكره الذى كنت تحمله لأبيك ؟

قال ميتيا بلهجة متجهمة وهو يرفع كتفيه ويخفض رأسه :

ــ ليس هناك ما يُشرح أيها السادة ! أنا لم أخف عواطفى ، والمدينة

كلها تعرفها ، حتى أن الناس يتحدثون عنها في الكاباريه • ومنذ بضعة أيام لا أكثر ، عبرت عنها في الدير ، في حجرة الشـيخ زوسيما ••• وفي مساء ذلك اليوم نفسه ضربت أبي وأوشكت أن أقتله ، وحلفت أمام شهود لأعودنّ فأجهز عليه • آوه ! في وسعكم أن تجدوا ألف شـاهد عليّ ، بغير عناء • انني لم أزد على أن هدأت كرهي له خلال هذا الشهر ••• النـاس جميعاً يشـهدون ••• الوقائع متوفرة ••• الوقائع تتكلم من تلقاء نفسها ، بل هي تصرخ ••• أما عواطفي أيها السـادة فأمرها أمر آخر ! يخيل الىّ أيها السادة (وهنا قطب ميتيا حاجبيه) أنه ليس من حقكم أن تسـألوني عن عواطفي • ان وظائفكم تخـولكم سلطات ، أنا أعرف هذا وأفهمه ، ولكن عواطفي هي من شأني أنا ؛ هي تتصل بحياتي النفسية ، الحميمة ••• على كل حال ، ما دمت لم أكتمها حتى الآن ••• لم أكتمها في الكاباريه مثلاً ، وكنت أكاشف بها أول قادم ، فليكن ما تريدون ! فلن أخفيها عنكم أنتم أيضاً • أيها السادة ، انني أدرك حق الادراك أن الشبهات كبيرة وأن القرائن قوية : فلقد أعلنت لجميع الناس أنني سأقتله ، وها هو ذا يُقتل • فكيف لا أكون أنا القاتل والحالة هذه ؟ هأهأ ! انني أعذركم أيها السـادة ، أعذركم كل العذر • أنا نفسي قد أذهلني هذا الحادث : من عسى يقتله اذا لم أقتله أنا ؟ أليس كذلك ؟ اذا لم أقتله أنا فمن يقتله ؟ من ؟ من ؟ (ثم صاح فجأة يقول :) أريد أن أعرف منكم أيها السادة ، أطالبكم بأن تقولوا لى الحقيقة : أين وُجد مقتولاً ؟ وكيف قتل ، بأى سلاح وفي أية ظروف ؟ قولوا لى هذه الأمور ! (كذلك ردّد بقوة ، وهو ينظر الى وكيل النيابة وقاضي التحقيق واحداً بعد آخر) •

أجابه وكيل النيابة قائلاً :

ـ وجدناه راقداً على ظهره فوق أرض الغرفة ، مكسور الجمجمة •

قال ميتيا مرتجفاً وهو يضـــع كوعيه على المائدة ويخفى وجهه بيده اليمنى :

ـ هذا فظيع أيها السادة !

وتدخل نيقولا بارفينوفتش قائلاً :

ـ لنتابع لاستجواب • لأى سبب كنت تكره أباك ؟ لقد صرحت على رءوس الأشهاد ، فيما أظن اننى أعلم ، أن لغيرة هى التى كانت تؤلبك عليه ، فهل هذا صحيح ؟

ـ هى الغيرة ان شئتم • ولكن الغيرة ليست السبب الوحيد لموقفى منه •

ـ لعل هناك خصومات على مال ؟

ـ نعم ، نعم ، مسائل مالية •

ـ كان الخلاف يدور، اذا لم يخطىء ظنى ، على ثلاثة آلاف روبل هى من حقك فى الميراث ولم يدفعها لك •

قال ميتيا مستاءً :

ـ ثلاثة آلاف روبل ؟ بل أكثر كثيراً ، أكثر كثيراً • كان مديناً لى بأكثر من ســـتة آلاف روبل ، وربما بأكثر من عشرة آلاف • قلت هذا لجميع الناس ، صحت به فى كل مكان ! ولكننى كنت مستعداً لقبول ثلاثة آلاف روبل تســـاهلاً ، لأننى كنت فى حاجة مستعجلة رهيبة الى هذا المبلغ ••• فكان ذلك الظرف الذى يضم ثلاثة آلاف روبل والذى يوجد تحت وسادته ، (أنا أعلم ذلك) والذى أعدّه هو لجروشنكا ، كان فى نظرى مالاً سُرق منى • هل تفهمون أيها السادة ؟ كنت أعد ذلك المبلغ حقاً من حقوقى ، وملكاً شرعياً لى •

بادل وكيل النيابة قاضى التحقيق نظرة ذات دلالة ، وغمزه بعينــه غمزة خفيفة •

أسرع القاضي يقول :

ــ سنعود الى هذه المسألة • واسمح لى أن أسجل هده النقطة بعينها : وهى أن ذلك المبلغ المودع فى الظرف كان فى رأيك حقاً مشروعا لك •

ــ اكتبوا أيها السادة ! اننى أدرك أن هذا قرينة جديدة علىّ ، ولكننى لا أخشى شيئاً ، ولسوف أمدكم بقرائن أخرى • سوف أمدكم أنا نفسى بقرائن أخرى ، هل تسمعوننى ؟ يبدو لى أيها السادة أنكم ترون فىّ رجلاً مختلفا كل الاختلاف عمّا أنا فى الواقع (كذلك أضاف يقول حزينا مظلم الوجه) • ان أمامكم أيها السادة انسانا صادقا مستقيما لا يعرف طبعه الالتواء والمخاتلة ، ان أمامكم انسانا ــ لا يغب هذا عن بالكم ــ ان يكن قد ارتكب حقارات كثيرة ، فانه ظل دائما فى قرارة نفسه ، أعنى فى أعماق قلبه ، طاهرا ••• الخلاصة ••• اننى لا أحسن الافصاح عما بنفسى ••• لقد تألمت طول حياتى بسبب اندفاعات روحى الى ما هو خير وسمو ، وكنت أبحث عن نبل الطبيعة الانسانية بحث ديوجين عنه ان صح التعبير ، حاملاً مصباحا ••• ورغم ذلك قارفت دناءات فى كل خطوة من خطواتى ، كما نقارف جميعا هذه الدناءات أيها السادة ••• أقصد ••• لا ••• لا كما نقارفها جميعا ، بل كما أقارفها أنا وحدى ، لقد أسأت التعبير يا سادتى ••• نعم ، كما أقارفها أنا وحدى ••• ان بى صداعا أيها السادة (كذلك قال فجأة وقد تقبضت قسمات وجهه على ألم) ••• نعم يا سادتى ••• كنت أكره مظهره ؟ كان فى جسمه شىء يوحى بالدنس ، كان فيه تبجح واحتقار لكل ما هو عظيم مقدس ، كان فيه سخريه وكفر ! أوه ! كان هذا دنيئاً ، دنيئاً جداً ! ولكننى أفكر الآن غير هذا التفكير بعد أن غاب عن الوجود •

ــ غير هذا التفكير ؟ ماذا تعنى ؟

ـ لا غير هـــذا التفكير ، ولكنني آسف لأني كرهته ذلك الكره الشديد كله •

ـ أأنت نادم اذن ؟

ـ لا ، لا يعني ذلك انني نادم ، لا تكتبوا هـــذا ! أنا نفسي مليء بالعيوب أيها لسادة ! أنا لست مثال جمال النفس ، فلم يكن من حقي اذن أن أنفر منه ذلك النفور كله ••• هذا ما تستطيعون أن تكتبوه •

وبدا على ميتيا ، بعد هذا الجواب الأخير ، أنه قد خارت قواه جدا على حين فجأة • وكان وجهه قبل ذلك ببضـــع دقائق قد أخذ يزداد اكفهراراً وجهامة كلما تتابع الاستجوب • وهذا مشهد لم يكن في الحسبان يقع بغتةً في تلك للحظة نفسها • كانت جروشنكا قد أبعدت من الغرفة طبعاً ، ولكنهم لم يقصوها الى مكان ناءٍ ، وانما أودعوها في الغرفة الثالثة ، وهي غرفة لا يفصلها عن الغرفة الزرقاء التي يجلس فيها ميتيا والقاضي الا القاعة التي قام فيها الرقص وتم فيها لقصف أثنا ءالليل • هي غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة جلست فيها جروشنكا بصحبة ماكسيموف الذي روّعته الأحداث فكان يتشبث بجروشنكا تشبث الغريق بلوح النجاة • وعلى باب تلك الغرفة كان يرابط فلاح على صدره صفيحة من معدن • كانت جروشنكا تبكي ، وها هي ذي تحس فجأة أنها أصبحت لا تقوى على كبح حزنها ، فاذا هي تنهض وتضم يديها احداهما الى الأخرى ، وتصيح قائلة : « يا للشقاء ! » ، ثم تندفع الى خارج الغرفة ، متجهة اليه ، الى عزيزها ميتيا ؛ وقد تم ذلك على نحو بلغ من المباغتة أن أحداً لم يتسع وقته لصدّها • وقد سمع ميتيا صرختها ، فارتعش ، ووثب عن كرسيه ، وأطلق من صدره نوعاً من العويل ، واندفع نحوها طائش العقل ، كأنه نسي الوضع الذي هو فيه •لم يُترك لهما أن يلتقيا ، وان تكن نظراتهما قد التقت • أُمسك ميتيا بقوة ، فأُخذ يصارع حانقاً مسعوراً ، ولم تمكن

السيطرة عليه الا بنعاون ثلاثه رجال أو أربعة • وأُمسكت هى أيضاً ، ورأى ميتيا كيف كانت تصرخ وتمد اليه ذراعيها فى لوعة شديدة بينما كانوا يقتادونها • حتى اذا رجع كل شىء الى الهدوء وجد مينيا نفسه مرة أخرى فى ذلك المكان نفسه ، أمام المائدة ، قبالة القاضى ، فصاح يسأل القاضى قائلاً له :

ــ ماذا فعلت لكم ؟ لماذا تعذبونها ؟ انها ليست مذنبة ، انها لم تصنع شيئاً •••

فحاول وكيل النيابه وقاضى التحقيق أن يهدئاه • وانقضت على هذه الحال عشر دقائق • وأخيراً عاد الى الغرفه ميشيل ماكاروفتش الذى كان قد غاب ؛ وتقدم نحو وكيل النيابة بخطى سريعة وقال له بصوت عال واضطراب شديد :

ــ ابعدناها من هنا • هى الآن تحت • هل تأذنون لى أيها السادة أن أقول كلمتين لهذا الانسان العاثر الحظ ، كلمتين لا أكثر ؟ بحضوركم أيها السادة ، بحضوركم •••

فأجابه القاضى :

ــ لك ما تشـــــاء يا ميشيل ماكاروفتش ، نحن لا نرى فى هذا أى بأس ، فى هذه الحالة الخاصة •

فبدأ ميشيل ماكاروفتش يقول مخاطباً ميتيا :

ــ دمترى فيدوروفتش ، بنىّ المسكين ، أصغ الىّ •••

كان وجهه ، المحمرُ من الانفعال ، يعبرٍّ عن شفقة على المسكين تشبه أن تكون شفقة أب • وتابع كلامه قائلاً :

ــ لقد توليت بنفسى أخذ أجرافين الكسندروفنا الى الطابق الأرضى ، وعهدت بها الى بنات صاحب النزل ؛ كما أن العجوز الصغير ماكسيموف

أصـــبح لا يتركها . وقد كلمتها ، وطمأنتها ، هل تسمعنى ؟ أفهمتها أن عليك أن تدافع عن نفسك ، أن تبرىء نفسك ، فما ينبغى لها أن تمنعك من ذلك بتشويشك ، والا فقد تدلى من شـــدة اضطرابك بأقوال خطأ تشهد عليك ، هل تفهمنى ؟ الخلاصة ... أقنعها فقالت انى على حق . انها ذكية وطيبة جداً ! كانت تريد أن تقبّل يدىّ لأننى شيخ عجوز ، وتضرعت الىّ من أجلك ؛ وطالبتنى ملحةً بأن أجىء اليك لأطلب منك أن تكون مطمئن البال عليها . يجب أن تطمئن يا عزيزى ، وأريد أن أعود اليها الآن لأبلغها أنك مطمئن وأنـــك لا تخشى عليها من شىء . هدىء نفسك يا عزيزى ، ذلك واجبك . أنا أحس بأننى مذنب فى حقها. ان لها نفساً مسيحية ؛ نعم يا سادتى : هى طفلة وديعة بريئة . هـــل أستطيع أن أبلغها يا دمترى فيدوروفتش أنك ستهدأ الآن ؟

كان الرجـــل الطيب يخبـــط فى كلامه خبط عشـــواء . ان ألم جروشـــنكا ، هذا الألم الانســـانى ، قد نفذ الى قلبه رأســاً ، فكان فى عينيه دموع . نهض ميتيا واندفع نحوه ، وصاح يقول :

ــ باذنكم يا سادتى ، باذنكم . انك يا ميشيل ماكاروفتش ملاك من ملائكة الخير . شكراً لك من أجلها . نعم ، أنا هادىء ، قل لها هـــذا ، وسأكون مرحاً ... قل لها ، بما لك من طيبه وأريحية ، اننى مرح ، مرح جداً ، حتى لأشتهى أن أضـــحك ، لعلمى بأنها فى حماية ملاك حارس مثلك . سأنهى هذا الالتباس بسرعة ، حتى اذا انتهيت ، خففت اليهـــا . فلتعتمد علىّ ولتنتظرنى واثقـــة . أيهـــا الســـادة (كذلك قال يخاطب قاضى التحقيق ووكيل النيابة) ، سوف أفتح لكم نفسى كلها ، سوف أسرّ اليكم بكل شىء ، فنفرغ من هذا الحادث بسرعة وننتهى منه مرحين ضاحكين ، لأننـــا سنضحك جميعا فى النهـــاية ، أليس كذلك يا سادتى ؟ ... ان هذه المرأة هى ملكة قلبى ! أوه ! اسمحوا لى أن

أقول لكم اننى أشعر بالحاجه الى أن أفضى اليكم بما فى قلبى ••• لأننى أرى أن أمامى أناساً لهم نفوس نبيلة • انها ضيائى وحياتى أيها السادة ! آه ••• ليتكم تعلمون ! هل سمعتم كيف صرخت تقول : « سأشاركك العقوبة القصوى ! » ؟ فماذا أعطيتها أنا الذى لا أملك شيئاً ، حتى أستحق منها مثل هذا الحب ؟ لست جديرا بهذا الحب ، أنا الانسان السيء ، بوجهى المنفّر ، وسلوكى الأخرق ، ومظهرى الثقيل • أأنا جدير بمثل هذا الحب ؟ ماذا فعلت فى سبيلها حتى تكون مستعدة لأن تتبعنى الى سجون الأشغال الشاقة ؟ لقد ارتمت على أقدامكم منذ هنيهة فى سبيلى ، هى الشماء التى لم ترتكب ذنباً يمكن أن تلام عليه • فكيف لا أعبدها ، كيف لا أندفع نحوها كما اندفعت منذ لحظة ؟ اغفروا لى أيها السادة ! ولكننى قد تأسيت الآن •••

قال ميتيا ذلك وعاد يتهالك على الكرسى ، وأخفى وجهه بيديه وأخذ يبكى ناشجاً منتحباً • ولكن دموعه فى هذه المرة كانت دموع التخفف والسكينة والطمأنينة • كان يشعر أنه استرد ذاته ورجع الى نفسه • وأشرق وجه رئيس الشرطة ، وظهر الرضى والارتياح على رجلى القضاء أيضا : لقد أحسا أن الاستجواب سيدخل مرحلة جديدة • ورجع ميتيا اليهما بعد أن شيّع رئيس الشرطة ، عاد هادىء النفس مطمئن الجنان • وقال :

ـ والآن أيها السادة ، أضع نفسى تحت تصرفكم • ولكن ليتكم ترضون أن لا ترتبكوا بجميع تلك التفاصيل ، فنتفاهم عندئذ بسرعة كبيرة • انتى أتيه فى تلك التفاصيل • أنا مستعد أيها السادة ، ولكن صدقونى اذا قلت لكم : ان الثقة المتبادلة لا بد منها ولا غنى عنها فى مثل هذه الحالة • يجب أن تصدقونى كما أصدقكم ، والا فلن نصل أبدا الى

النهاية • أقول لكم هذا لمصلحتكم أنتم • فهيّا بنا أيها السادة ، هيا بنا الى الوقائع ! ولكن كفوا خاصة عن النبش فى نفسى ، ولا تعذبونى فى سبيل سفاسف وترهات ؛ ألقوا علىّ أسئلة تتصل بالقضية وحدها دون غيرها• اطلبوا وقائع ، وقائع ، ولأجيبنكم بما يرضيكم كل الارضاء • دعونا من التفاصيل !

كذلك صاح ميتيا ، واستؤنف الاستجواب •

٤

المحنة الثانية

بدأ نيقولا بارفينوفتش كلامه قائلاً :

ـ لا تستطيع أن تتصور يا دمترى فيدوروفتش الى أى مدى تشجعنا نيتك الطيبة هذه ...

كان الرضى يُقرأ فى عينيه الشهباوين الواضحتين الحسيرتين اللتين رفع عنهما النظارتين حين بدأ كلامه . وتابع يقول :

ـ ان ما قلته عن ضرورة الثقة المتبادلة صادق كل لصدق صحيح كل الصحة . ان هذه الثقة المتبادلة شرط أساسى فى قضية لها هذه الخطورة ، ولا سيما حين يريد الشخص المتهم أن يبرىء نفسه وحين يكون فى امكانه أن يبرىء نفسه . نحن من جهتنا سنفعل كل ما يتعلق بنا ، ولا بد أنك لاحظت بنفسك بأية روح نجرى هذا الاستجواب ... أنت توافقنى على هذا يا هيبوليت كيريلوفتش ، أليس كذلك ؟ (أضاف هذا مخاطبا وكيل النيابة فجأة) .

أجاب وكيل النيابة مؤيداً ، ولكن بلهجة جافة بعض الجفاف ، لهجة تتعارض مع ما أظهره قاضى التحقيق من اندفاع حار :

ـ بدون شك .

ولنذكر مرةً واحدة أن نيقولا بارفينوفتش الذى وصل الى مدينتنا

منذ زمن قصير والذى هو فى بدايه عهده بمهنته ، قد شعر دفعه واحدة باحترام عظيم لشخص وكيل النيابه عندنا هيبوليت كيريلوفتش ، فانعقدت بين الرجلين صداقة قويه • وكان على كل حال هو الانسان الوحيد المؤمن حقا بالموهب السيكولوجية والخطابيه الفذة التى ينعم بها هيبوليت كيريلوفتش « الذى لم يقدر حق قدره » • وكان يعتقد هو أيضا ، اعتقادا جازماً ، بأن المراجع العليا تظلم وكيل النيابة هذا الذى سمع عنه فى سان بطرسبرج قبل أن يجىء الى مدينتنا • وكان نيقولا بارفينوفتش ، الشاب جداً ، هو كذلك الانسان الوحيد الذى شعر نحوه صاحبنا « المجهول القدر » بعاطفة صادقة • وقد اتسع وقتهما فى طريقهما الى موكرويه ، لأن تتفق آراؤهما فى هذه القضية ، ولأن يُجمعا على الموقف الواجب اتخاذه ، والطريقة الواجب تبنيها ، بحيث أن الفكر المرهف الذى ينعم به نيقولا بارفينوفتش يلتقط الآن بسرعة البرق أخفى الخواطر والنوايا التى تجول فى ذهن زميله الأكبر منه سناً ، ويحزرها بنصف كلمة ، باشارة خاطفة ، بحركة فى عضلات وجهه ، بغمزة من عينيه •

استأنف ميتيا كلامه متحمساً :

ـ دعونى أتكلم أيها السادة دون أن تقاطعونى مستوضحين تفاصيل تافهة ؟ وسأبسط لكم القضية كلها بسرعة •

ـ موافق • شكراً لك • على أننى قبل أن أسمع ما تريد أن ترويه لنا أحب أن أستوضح واقعة صغيرة تهمنا كثيراً ، هى مسألة تلك الروبلات العشرة التى اقترضتها أمس مساءً ، فى نحو الساعة الخامسة ، من صديقك بطرس ايتلتش ، وأودعته مسدسيك رهناً •

ـ صحيح أيها السادة ، نعم ••• رهنتهما ! أى شىء خارق فى هذا ؟ اننى ما ان عدت الى المدينة بعد تلك الرحلة ، حتى رهنت المسدسين ••• الأمر بسيط جدا •

ـ بعد تلك الرحله ؟ هل تغيبت اذن ؟

ـ طبعا ! سافرت الى خارج المدينة ، على مسافة أربعين فرسخاً من هنا • أكنتم تجهلون ذلك اذن ؟ تبادل وكيل النيابة وقاضي التحقيق النظرات •

ـ لعلك تحسن صنعاً اذا أنت بدأت بسطك للقضية بأن تصف لنا على وجه الدقة توزع وقتك بالأمس منذ الصباح • اسمح لي أن أسألك مثلاً ، ماذا كان الغرض من تغيبك ، ومتى سافرت ، وفي أية ساعة رجعت • ان جميع هذه الوقائع •••

قاطعه ميتيا وهو ينفجر ضاحكا :

ـ كان ينبغي أن تسألني عن ذلك فوراً • بل انني لأعتقد أنه يحسن أن نبدأ القصة لا من أمس بل من أمس الأول ، من صباح أمس الأول ، وستفهمون عندئذ لماذا قمت بتلك الرحلة ، وماذا كان هدفي منها ، وما هي الظروف التي أحاطت بها • في صباح أمس الأول ، أيها السادة ، ذهبت الى التاجر سامسونوف على نية أن اقترض منه ثلاثة آلاف روبل لقاء ضمانات موثوقة تماما • ذلك انني احتجت الى هذا المبلغ احتياجا مستعجلا على حين فجأة ، احتياجا مستعجلا جدا أيها السادة •••

قاطعه وكيل النيابة يسأله بأدب :

ـ اسمح لي أن أسألك لماذا احتجت فجأة الى المال ، ولأي غرض وجب عليك أن يكون معك ثلاثة آلاف حتماً ؟

ـ ما فائدة هذه التفاصيل كلها أيها السادة ؟ لماذا ومتى وكيف وأين ••• ما فائدة هذا كله في الواقع ؟ لأن أحتاج الى ثلاثة آلاف روبل أو الى أي مبلغ آخر ••• لن نفرغ من الأمر أبداً اذا نحن تهنا

في هذه التفاصيل الدقيقة ! لسوف نحتاج عندئذ الى ثلاثة مجلدات على الأقل ، عدا المقدمة ! ...

كان ميتيا يتكلم بلهجة خالية من الكلفة رغم التململ ، لهجة انسان يريد أن يذكر الحقيقة كاملة وتحركه أطيب النوايا . واستأنف كلامه فجأة يقول :

ـ لا تؤاخذوني أيها السادة على هذه الخشونة . ثقوا أنني أشعر نحوكم بكل الاحترام الواجب لكم عليّ ، وانني مدرك موقفي تمام الادراك . وهأنذا أكرر ما سبق ان قلته : لا تظنوا كذلك أنني ثمل . فقد صحوت من سكري كل الصحو . ولكن حتى لو كنت ثملاً ، فان ذلك لن يغير من الأمر شيئاً ، ولن يكون له أي تأثير فيما سأوضحه لكم . أنا واحد من أولئك الذين يصدق فيهم قول الشاعر :

انا ان صحوت رأيتني غبيا
فاذا سكرت غدوت عبقريا !

هأ هأ هأ ! ولكنني ألاحظ أيها السادة أنه لا يليق بي الآن أن أنكّت ، الى أن نفرغ من ازالة هذا الالتباس على الأقل . فاسمحوا لي اذن أن أحافظ على وقاري . انني أدرك حق الادراك التفاوت القائم بيننا الآن : فأنا على كل حال انما أقف أمامكم موقف مجرم ، فهيهات أن أكون لكم نداً . ان مهمتكم هي أن تراقبوني . ولا شك أنكم لن تلاطفوني وتلاعبوا بأيديكم شعري وتهنئوني على الحادث الذي وقع لي مع جريجوري . فليس من الجائز للانسان أن يصرع الشيوخ بغير ذنب جنوه ، وأنا أعلم حق العلم أنكم ستطالبون بأن يُحكم عليّ بالسجن ستة أشهر أو قولوا سنة ، معاقبةً لي على هذا الفعل الذي اجترحته ، ولكن دون سقوط مدني . أنا لست معرّضاً للحرمان من حقوقي المدنية ، أليس

كذلك يا وكيل النيابة ؟ قلت اذن أيها السادة انني أدرك حق الادراك الفرق بين موقفي وموقكم ••• ومع ذلك أرجوكم أن تعترفوا من جهتكم بأن الله نفسه يمكن أن تربكه أسئلة من هذ النوع : كم خطوة مشيت ، في أي لحظه رفعت قدمك اليسرى ، في أية لحظة أنزلت قدمك اليمنى ، على أي شيء سرت ؟ اذا أخذتم تلقون عليّ مثل هذه الأسئلة ، فسأرتبك أخيراً ، وستسجلون الخطأ الذي سأقع فيه ، وسينشأ عن ذلك أن لا نصل الى شيء • وما دمت قد بدأت ببعض الكذب ، فلا بأس أن أستمر في الكذب ، وستغفرون لي كذبي ، لأنكم أناس مهذبون مثقفون ثقافة عالية• أحب في الختام أن أرجوكم أيها السادة أن تقلعوا عن تلك الأساليب البالية في الاستجواب ، أعني البدء بالقاء أسئلة تافهة : كيف نهضت من نومك هذا الصباح ؟ ماذا أكلت ؟ أين بصقت ؟ ثم المبادرة ، بعد « تنويم يقظة المجرم » على هذا النحو ، الى مباغتته فجأة بهـــذا السؤال : « أين قتلت القتيل وسلبته ماله ؟ » • هأ هأ ! ••• ذلكم هو روتينكم ، ذلكم هو علمكم كله ، تلكم هي الحيلة الكبرى في أسلوبكم ! قد تستطيعون أن تباغتوا فلاحين بمثل هذه الأنواع من المكر ، ولكن ذلك لا ينطلي عليّ أنا ! أنا نفسي خبير في هذه الشئون ، لقد عملت أنا أيضا في هذا المجال ... هأ هأ هأ ! لا تزعلوا يا سادتي ، واغفروا لي هذه الوقاحة (كذلك صاح وهو ينظر اليهما ببراءة تبعث على الدهشة) فما دام ميتكا كارامازوف هو الذي يتكلم بهذه الطريقة ، فان التسامح والتساهل ممكن ، لأن ما لا يمكن غفرانه اذا هو صدر عن رجل ذكي ، يجب أن لا يُكترث به حين يكون ميتكا هو الذي يقوله ! هأ هأ ! •••

كان نيقولا بارفينوفتش يضحك أيضا وهو يصغي الى ميتيا ، ولكنه كان يلاحظه بالحاح ، ولا يحول عنه بصره النافذ ، ويحاول أن يسـجل

كل كلمة من كلماته بل وأيسر حـــركة من حـــركاته ، وحتى أخف لاختلاجات فى عضلات وجهه •

قال القاضى وهو ما يزال يضحك :

ـ يجب أن تنصفنا هذا الانصاف على الأقل ، فتعترف بأنا لم نستعمل عك هذا الأسلوب • اننا لم نحاول أن نربكك بسؤالك كيف نهضت من ومك فى الصـــباح وماذا أكلت ، وانما واجهنا الأمر الأســـاسى دفعة احدة ، بسرعة لعلها كانت مفرطة أيضا •

ـ اننى أفهم هذا وأقدره حق قدره • وأقدر كذلك ما أظهرتموه حوى من طيبة وشهامة تدلان على سمو أخلاقكم • اننا جميعا ، نحـن لثلاثة صادقو النية تحركنا أنبل المشـــاعر • فليجر كل شىء بيننا كما ينبغى أن تجرى الأمور بين أصحاب يثق بعضهم ببعض ، وتربطهم روابط النبالة والشرف ! اسمحوا لى على كل حال أن أعدكم أصدقاء فى هـذه الدقيقة من حياتى ، فى هذه الساعة التى يذل فيها شرفى أكبر الاذلال ! أرجو أن لا يسوءكم هذا يا سادتى !

قال نيقولا بارفينوفتش مؤيداً :

ـ بالعكس ! لقد عبَّرت أحسن تعبير ، ووجدت أنسب الكلمات !

صاح ميتيا يقول بحماسة :

ـ أما التفاصيل ، أما تلك التفاصـــيل الزخرفية السـخيفة كلها ، فلندعها وشأنها ، والا لم نعلم الى أين يمكن أن ينتهى هذا كله ، أليس ذلك صحيحا يا سادتى ؟

قال وكيل النيابة يخاطب ميتيا فجأة :

ـ أنا مستعد كل الاستعداد لأن آخذ بنصائحك السديدة ، ولكننى

لن أستطيع مع ذلك أن أعـــدل عن سؤالى . فانه لعلى جانب عظيم من خطورة الشأن فى نظرنا أن نعلم لماذا احتجت ذلك الاحتياج الشديد كله الى هذا المبلغ ، أعنى الى الثلاثة آلاف روبل .

ـ لماذا احتجت الى ذلك المبلغ ؟ احتجت اليـــه لأسباب عدة ... الخلاصة : لأردّ ديناً علىّ .

ـ ديناً لمن ؟

ـ ذلك أرفض أن أقوله لكم رفضاً قاطعاً أيها السادة ! أرفض أن أقوله لكم لأننى لا أستطيع أن أقوله لكم ، لا عن خوف من أى شىء ، بل لأن الأمر فى الواقع هو من السفاسف التى لا قيمة لها البتة . ولئن صمتُّ عنه مع ذلك ، فلأن القضية قضية مبدأ : ان هذا السؤال يمس حياتى الخاصة ، ولن أسمح لكم بالتدخل فى حياتى الخاصة . لا ... هنا لا تسامح ولا تنازل ! ان ما تسألون عنه لا علاقة له بالقضية ، وكل ما يتجاوز هذه الحدود فهو من حياتى الخاصة ! لقد أردت أن أردّ ديناً هو دين شرف ، ولكننى لن أذكر لكم اسم الشخص الذى كنت أريد أن أردّ له هذا الدين .

قال وكيل النيابة :

ـ اسمح لنا بتسجيل تصريحك .

ـ سجلوا ما شئتم ! اكتبوا أننى لن أجيب عن هذا السؤال بحال من الأحوال ! اكتبوا أن فى الاجابة عن هذا السؤال اخلالاً بشرفى ! ليس الوقت هو ما يعوزكم فيما يبدو !

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بصوت أصبح قاسياً رصيناً على حين فجأة :

ـ أعتقد أن من واجبي أن أنبهك أيها السيد ، اذا كنت تجهل ذلك ، أن من حقك طبعا أن لا تجيب عن الأسئلة التي تلقى عليك ، وأننا لا نملك أن نجبرك على الاجابة اذا أنت رأيت لسبب من الأسباب أن تخفي هذه النقطة أو تلك من النقاط . ولكن من واجبنا أيضا أن نلفت نظرك الى الأذى الذي يمكن أن تلحقه بنفسك اذا أنت رفضت الادلاء بالمعلومات المطلوبة .

دمدم ميتيا يقول وقد اضطرب من اللهجة الرصينة التي خاطبه بها وكيل النيابة :

ـ ولكنني يا سادتي لم أغضب .. أنا .. أنا .. ان سامسونوف ذاك الذي ذهبت اليه حينذاك .. يا سادتي ..

لن ننقل هنا سلسلة الوقائع التي ذكرها ميتيا ، فان القارىء يعرفها. لقد أراد ميتيا أن يقدم عرضاً كاملا ومفصلاً ، وكان من جهة أخرى يستعجل انجاز هذا العرض . لذلك كان يتكلم متسرعاً . غير أن تصريحاته كانت تسجل شيئاً بعد شيء ، فكان هذا يضطره الى التوقف دائما من حين الى حين ، وكان هذا التوقف يضايقه ويزعجه ، فكان يتوقف عن الكلام وهو يدمدم متململاً ، ولكن دون أن يخرج عن طيبته وبساطته . كان يتفق له أن يصيح قائلاً في بعض الأحيان : « أيها السادة، لو كان الله نفسه في مكاني لضاق صدره في هذه الظروف ! » أو « لست أرى أيها السادة ما الفائدة من امتحان أعصابي على هذا النحو ! » ، ولكن دون أن يفسد من ذلك مزاجه الذي كان عندئذ منطلقاً ودوداً . روى كيف أن سامسونوف قد خدعه قبل يومين (لقد أخذ يدرك الآن أن سامسونوف ضلّله وغرر به) . وذكر أنه باع ساعته بستة روبلات ليتمكن من السفر ، وتلك واقعة كان يجهلها وكيل النيابة وقاضي التحقيق، وقد لفتت انتباههما وظهر عليهما أنهما اهتما بها اهتماماً شديداً. فكان من شأن

الحاحهما على هذه النقطه أن أخرجا ميتيا عن طوره ، لأنهما رأيا أن من الضرورى تسجيل هده الوافعة ، دليلاً جديدا على أنه كان عشية وقوع الجريمة لا يكاد يملك قرشاً واحداً . ومنذ تلك اللحظة أخذ يتجهم وجه ميتيا مزيداً من التجهم شيئاً بعد شيء . وبعد أن روى قصة سفره سعياً الى لياجافى ، وقضائه ليلةً فى الكوخ الذى يملؤه الدخان ، وصف عودته الى المدينة ، وأخذ يصوِّر ، من تلقاء نفسه فى هذه المرة ، دون أن يُطلب منه ذلك ، جميع تباريح غيرته على جروشنكا . فكان القاضيان يصغيان اليه بانتباه صامتين . وقد سجلا خاصةً أنه كان قد أنشأ منذ زمن طويل ، مركزاً للمراقبة وراء منزل فيدور بافلوفتش فى حديقة ماريا كوندراتيفنا ، وأنه كان يترصد جروشنكا من هناك ، وأن سمر دياكوف كان ينقل اليه أخباراً ويطلعه على ما يجرى فى منزل أبيه . هذه الظروف كلها قد سُجِّلت بكثير من العناية والاهتمام . وتكلم ميتيا عن غيرته بافاضة وانفعال . فانه رغم الحرج النفسى الذى شعر به من عرض عواطفه الحميمة وتعرية نفسه تعريةً تسىء الى شرفه أمام الناس ، قد حاول أن يتغلب على هذه المقاومات وأن يذلل هذه الصعوبات حرصا منه على أن يقول الحقيقة صادقا . غير أن النظرات القاسية الباردة التى كان يصبها عليه قاضى التحقيق ووكيل النيابة محدِّقين اليه متفرسين فيه أثناء روايته القصة قد اضطربت منها نفسه آخر الأمر . قال فى سرِّه حزيناً : « ان هذا الصبى الغر نيقولا بارفينوفتش الذى بادلته منذ مدة أحاديث تافهة غثة عن النساء ، وان وكيل النيابة هذا المريض النفس ، لا يستحقان أن يسمعا ما أفضى اليهما به من اعترافات نفسى . يا للعار ! » . ولكنه استرد عزيمته مردداً ذلك البيت من الشعر الذى يقول : « قلبى اعتصمْ بالصبر والاذعان » . وتابع يروى قصته مجاهداً متجلداً . فلما وصل من حديثه الى الكلام على زيارته للسيدة هوخلاكوفا انبسطت

أساريره من جديد وشاع فى نفسه المرح ، وأوشك أن يروى نكتة عن هذه السيدة كانت تشيع فى صالونات المدينه ، ولكنها لا تناسب الظروف كثيراً. لذلك اسوقفه القاضى عن الكلام بلطف وكياسه ، راجيا منه أن ينتقل الى وقائع أهم . وحين وصف انصرافه من منزل تلك السيدة واليأس الذى اجتاح نفسه فى الشارع ، لم يسقط من حديثه تلك الواقعة ، وهى أنه قد خطر بباله وهو فيما هو فيه من حيرة واضطراب « أنه لم يبق له الا أن يذبح أحدا ويسلبه ماله بأقصى سرعه للحصول على ذلك المبلغ . » . عندئذ طلب منه القاضيان أن يكرر أنه « قد خطر بباله أن يذبح أحداً » ، وأسرعا يسجلان ذلك . وتركهما ميتيا يسجلان أقواله دون امتعاض أو احتجاج . فلما وصل من حديثه أخيرا الى اللحظة التى علم فيها فجأة أن جروشنكا قد كذبت عليه حين زعمت له أنها ستبقى عند سامسونوف الى منتصف الليل ، مع أنها فى الواقع قد تركت التاجر العجوز بعد أن ودّعها ميتيا ببضع دقائق أمام باب منزل كوزمتش ، لم يملك أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً :

ــ لئن لم أقتل فينيا تلك حين علمت النبأ ، فان السبب الوحيد يا سادتى هو أننى قد أعوزنى الوقت .

سُجِّلت هذه الأقوال كذلك بعناية واهتمام . فكان ميتيا ينتظر ، عابسَ الوجه مكفهر الأسارير ، أن يفرغ الكاتب من كتابته ؛ وهمَّ أن يشرح بعد ذلك كيف أسرع الى حديقة أبيه ، ولكن قاضى التحقيق قاطعه فجأة ، اذ فتح محفظة أوراقه الموضوعة على الكنبة قربه ، وأخرج منها مدق الهاون النحاسى ، وسأله :

ــ هل تعرف هذه الأداة ؟

فقال ميتيا وهو يبتسم ابتسامة شاحبة :

ــ هذا ؟ آ ••• نعم ••• طبعا أعرفها ! أرنيها ••• بل لا داعى لأن أراها ••• ما فائدة ذلك ؟

ــ نسيت أن تتكلم عن مدق الهاون هذا •

ــ صحيح • كان ينبغى أن أذكر هذه الواقعة ، فلولا هذا المدق لما وقع شيء ، ولكن الأمر كان قد خرج من ذهنى •

ــ هلاّ ذكرت لنا الظروف التى تسلحت فيها بهذا المدق !

ــ بكل سرور يا سادتى •

وروى ميتيا كيف تناول مدق الهاون من مطبخ فينيا عرضاً •

ــ ماذا كان هدفك من أخذ هذا السلاح ؟

ــ ماذا كان هدفى ؟ لم يكن لى غرض ، وانما أخذته هكذا •••

ــ ما هذا الكلام ؟ أكنت تأخذه لو لم يكن لك هدف ؟

غلى ميتيا حنقاً • كان يتفرس فى « الفتى الغر » مبتسما ابتسامة عداء وكره • ذلك أنه كان يشعر بمزيد من الخزى والعار ، شيئاً بعد شيء ، من أنه ارتضى أن يصف « لأناس مثلهم » ، بمثل هذا الصدق كله وبمثل هذا الاندفاع العاطفى كله فوق ذلك ، مشاعرَ الغيرة التى كانت تعذبه •

ــ مالنا ولهذا المدق اللعين ؟

ــ ولكن •••

ــ ولكن •• ولكن •• طيب •• كنت أريد أن أدافع عن نفسى من كلاب الشارع •• فى الظلام •• احتياطا للمفاجأة ••

ــ هل اعتدت ، من قبل ، حين تخرج ليلا ، أن تتسلح خوفا من الظلام ؟

ـ هوه ! حقاً انه ليستحيل الحديث معكم أيها السادة ...

كذلك صاح يقول ميتيا وقد بلغ أوج الغيظ والحنق .

ثم التفت نحو الكاتب ، فقال له بصوت فيه اهتياج غريب ، وقد احمر وجهه غضباً :

ـ اكتب ... اكتب حالاً « انني أخذت المدق على نية الذهاب فورا الى أبي فيدور بافلوفتش .. لقتله .. لتحطيم جمجمته .. » .

ثم هتف يقول مخاطبا قاضي التحقيق ووكيل النيابة ، وهو يرشقهما بنظرة متحدية مستفزة :

ـ أأنتم راضون الآن أيها السادة ؟ هل طبتم نفساً ؟ هل اغتبطت قلوبكم ؟

فأجابه وكيل النيابة بلهجة جافة :

ـ نرى انك قد أعطيت هذا التصريح بسبب حنقك منا وبسبب ضيقك بهذه الأسئلة التي تظن أنها تافهة . ولكننا مضطرون الى القاء هذه الأسئلة عليك لأنها في الواقع هامة جدا .

ـ أرجوكم أيها السادة ! أخذت هذا المدق ... طيب ! ان المرء يشعر أحياناً بالحاجة الى أن يكون في يده شيء ... الحق انني أجهل لماذا أخذته . لقد أخذته راكضاً ، هذا كل شيء . ألا تخجلون أيها السادة ؟ دعونا من هذا ، والا فيميناً لن أحكي شيئاً بعد الآن !

قال ميتيا ذلك ووضع كوعيه على المائدة ، وجعل رأسه في يده . كان جالساً الى جانب بالنسبة الى الرجلين ، وكان ينظر الى الحائط محاولاً أن يسيطر على غضبه .وكان يغريه فعلاً أن ينهض وأن يصرح بأنه لن يقول بعد الآن كلمة واحدة « ولو سيق الى الموت » .

قال فجأة وهو يجاهد فى سبيل أن لا ينفجر :

ــ أتعرفون أيها السادة ؟ اننى ، وأنا أصغى اليكم ، أشعر باحساس غريب ••• يذكرنى هذا الاحســـــاس بحلم ••• بحلم ما ••• يعاودنى فى كثير من الأحيان أثناء النوم ••• أحلم أن أحداً يطاردنى فى الليل ، فى الظلام ••• أحداً أخاف منه خوفاً رهيباً ••• انه يبحث عنى ،وأحاول أنا أن أختبىء منه ، أن أغيب عن بصره ••• فألوذ جباناً وراء باب أو وراء خزانة ، فألطو هناك جامداً لا أتحرك ••• والرجل الآخر يعرف أين أنا ، يعرف مخبئى ، ولكنه يتظاهر بأنه يجهله ليطيل عذابى ••• وليتمتع بهلعى زمناً أطول ••• ذلك هو بعينه ما تفعلونه أنتم فى هذه اللحظة أيها السادة ! ذلك هو بعينه تماماً !

ــ أتراودك اذن أحلام فيها خوف وقلق ؟

ــ أى نعم ••• ألا تريدون أن تسجلواهذا أيضاً ؟

ــ لا ••• لن نسجله • ولكنه اشارة هامة فى الواقع • الحق انك ترى أحلاماً غريبة •••

ــ غير أن ما أراه الآن ليس حلماً ! انه واقع أيها السادة ، هو واقع الحياة الرهيب ! أنا ذئب وأنتم الصيادون • فهلموا وراء الذئب !

قاطعه قاضى التحقيق قائلا له برقة ولطف :

ــ تخطىء أن ترى الأمور هذه الرؤية • لماذا هذا التشبيه ؟

فقال ميتيا غاضباً :

ــ بلى أيها السادة ! ان هذا التشبيه يصدق على الظرف الحاضر كل الصدق !

غير أن جوابه هذا قد خفف عنه ، فهدأ قليلاً ، وأخذت الطيبة تغزوه من جديد ، فتابع كلامه قائلاً :

ـ من حقكم أن تشكوا فى مجرم أو متهم تعذبونه باستجوابكم ، ولكن حين يكون أمامكم انسان مستقيم نبيل أيها السادة ، وحين يكلمكم هذا الانسان مستسلماً لأصدق اندفاعات قلبه ، فما ينبغى لكم عندئذ أيها السادة أن تشكوا فى كلامه ... لا يحق لكم أن لا تصدقوه ... لا يحق لكم ذلك حينذاك ...

... عليك بالصمت قلبى*

اصبر وأذعن ، وصمتا !

ثم سألهم فجأة وقد أظلم وجهه :

ـ أأستأنف سرد قصتى ؟

فأجابه نيقولا بارفينوفتش :

ـ طبعا ! لقد هممت أن أرجوك أن تفعل .

٥

المحنة الثالثة

ميتيا سرد قصته بصـــوت كالح ، ولكنه يحاول الآن ، أكثر مما كان يحـــاول قبل ذلك ، أن لا يُسقط أى واقعة من الوقائع التفصيلية • روى كيف وثب فوق السور ليدخل الى حديقة أبيه ، ووصف مشيته الصامتة للاقتراب من النافذة ، وعرض عرضا دقيقا ماجرى أثناء اللحظات التى ظل فيها متربصا مراقبا وراء الشجيرات ، وصـــور تصويرا واضحا ــ وهو يفصّـل كلماته ــ العواطف التى هزت نفسه حين كان يحاول قلقاً أن يعرف هل جروشنكا عند أبيه أم لا • ولكنه استغرب أن يرى أن وكيل النيابة وقاضى التحقيق يصغيان اليه فى هذه المرة وقد ظهرت فى وجهيهما قسوة ، واصطنعا الجد والكلفـة ، أصبحا لا يسـألانه عن شىء • كان يستحيل عليه أن يدرك من تعبير وجهيهما ما كانا يفكران فيه • قال فى نفسه : « لا شك أنهما غاضبان مستاءان ؟ فليكن ما يكون ! »• حتى اذا وصل من حديثه الى « الاشارة » التى قرر أن يستعملها حتى يظن أبوه أن جروشنكا وصـــلت فيفتح النافذة ، لا حـــظ أن قاضى التحقيق ووكيل النيابة لا يوليان هذا الأمر أى انتباه ، فكأنهما لايدركان خطورته ولا يفهمان ما هى تلك « الاشارة » التى يتحدث عنها ، فاستغرب ميتيا ذلك أشد الاستغراب • فلما وصل أخيرا الى اللحظة التى رأى فيها

أباه يميل من على النافذة ، فشعر بتأجج كرهه له وأخرج مدق الهاون من جيبه ، توقف ميتيا عن الكلام كأنه تعمد ذلك ، وأخـــذ يحدق الى الجدار ، ولكنه أحس أن الرجلين يرقبانه بانتباه شديد • قال وكيـــل النيابة :

ـ هيه ، أخرجت السلاح من جيبك ••• ثم ••• ثم ••• ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك ؟ قتلته ••• ضربته على صدغه وكسرت جمجمته ••• هذا ما حدث فى زعمك ، أليس كذلك ؟

هكذا صاح ميتيا وقد قدحت عيناه شراراً • لقد تأجج الغضب فى نفسه من جديد ، بعنف متزايد •

قال نيقولا بارفينوفتش :

ـ ذلك فى زعمنا نحن • طيب • فماذا فى زعمك أنت ؟

حمض ميتيا عينيه • وخيّم صمت طويل •

ثم استأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت هادىء :

ـ فى زعمى أنا ، اليكم ما حدث أيها السادة • لا أدرى أبتهلت أمى الى الله فى تلك اللحظة ، أم انسكبت دموع بريئة طاهرة لابعاد الشر ، أم أمسكنى من يدى ملاك لا يُرى ؟ المهم أن الشيطان قد غُلب • ابتعدت عن النافذة ، وركضت متجهاً نحو السور ••• ذعر أبى ، وعرفنى فجأة ، وأطلق صرخته ، وغاب عن النافذة ••• أتذكر هذا تذكراً واضحاً • اجتزت الحديقة ، وأسرعت أبلغ السور ، وفى تلك اللحظة انما ظهـر جريجورى الذى أدركنى حين كنت قد جثمت على السور •

قرر ميتيا أخيراً أن يرفع عينيه نحو محدثيه • فلاح له أنهما كانا

ينظران اليه بغير اكتراث • فألمت به رعدة من غضب • وقال لهما :

ـ ألاحظ يا سادتى أنكم تسخرون منى !

فسأله نيقولا بارفينوفتش :

ـ ما سبب خطور هذه الفكرة ببالك ؟

ـ انكم لا تصدّقون كلمة واحدة مما أقول ، أنا أدرك هذا • أوه ! فهمت : لقد وصلت الى عقدة القضية • العجوز يرقد الآن جثة هامدة محطم الجمجمة ، وأنا ، بعد أن وصفت لكم وصفا فاجعا كيف أردت أن أقتله ، وكيف أخرجت مدق الهاون من جيبى لهذا الغرض ، أصرّح لكم فجأة بأننى لم أزد على أن ابتعدت عن النافذة ! ••• هذه قصيدة حقا ، أليس كذلك ؟ كان ينبغى أن يقال هذا الكلام كله شعراً ! كيف يمكن أن يُصدّق رجل مثلى ؟ آه ••• ألا أنكم لتعرفون كيف تسخرون وتضحكون دون أن يظهر عليكم ذلك •

قال ميتيا هذا الكلام ، واستدار ثقيلا على كرسيه فقرقع الكرسى •

قال وكيل النيابة عندئذ دون أن يبدو عليه الاكتراث باضطراب ميتيا :

ـ هل لاحظت أثناء ابتعادك عن النافذة أكان الباب المفضى الى الحديقة فى الطرف الآخر من المبنى مفتوحا أم كان مغلقا ؟

ـ كان مغلقا •

ـ مغلقا ؟ أأنت متأكد ؟

ـ كل التأكد • كان ذلك الباب مغلقاً • ثم انه ما كان لأحد أن يستطيع فتحه •• هذا •• هذا الباب •• لحظة ! (كذلك صاح ميتيا يقول

مرتعشاً ، كأن فكرةً قد ومضت فى ذهنه فجأة) . ألعلكم وجدتم ذلك الباب مفتوحا ؟

ـ نعم ، كان مفتوحا .

ـ فمن عسى يفتحه ان لم تفتحوه أنتم أيها السادة .

كذلك قال ميتيا مندهشاً كل الاندهاش .

فقال وكيل النيابة بصوت رصين بطيء ، مقطعا كلماته :

ـ كان الباب مفتوحا ، ومن المؤكد أن قاتل أبيك قد دخل المنزل من هناك ؛ حتى اذا أتم جريمته خرج من ذلك الباب نفسه أيضا . تلك نقطة نعدها مفروغاً منها . فمما لا يخالجنا فيه ريب أن القاتل قد ارتكب جريمته فى الغرفة لا من خلال النافذة . ان هذه النتيجة يدل عليها جميع ما شاهدناه ، يدل عليها وضع الجثة وتدل عليها مجموعة من القرائن الأخرى . لم يبق أى شك من هذه الناحية .

عبَّر وجه ميتيا عن دهشة عميقة . وصاح يقول زائغ الوجه :

ـ ولكن هذا مستحيل كل الاستحالة . أنا ... أنا لم أدخل البيت ! أؤكد لكم جازماً أن الباب ظل مغلقا أثناء وجودى فى الحديقة ، وأنه كان مغلقا أيضا حين هربت . اننى لم أتحرك من مخبئى ؛ ومن النافذة وحدها انما رأيت ... من النافذة وحدها ... اننى أتذكر جميع التفاصيل . وهبنى لا أتذكرها ، فاننى على يقين من أن الباب كان مغلقا ، لأن أحداً لم يكن يعرف « الاشارات » الا أنا وسمردياكوف ، والمتوفى طبعا ؛ وبدون الاشارة المتفق عليها لا يمكن أن يفتح العجوز الباب .

ـ الاشارات ؟ عن أى اشارات تتكلم ؟

كذلك سأله وكيل النيابة بفضول شره محموم أفقده وضع الرصانة

والوقار فى لحظه . كان فى نبرة سؤاله شىء من مذلة ، شىء من ضراعة، ذلك أنه قد أحس أن هناك واقعه هامه كان ما يزال يجهلها ، وهو يخشى أن يرفض ميتيا أن يكشفها له بأكملها .

أجابه ميتيا وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة ماكرة :

ـ آ ... أنت لا تعلم ؟ فما رأيك اذا لم أشأ أن أقول لك شيئاً عن أمر تلك الاشارات ؟ من عسى يطلعك على ذلك فى هذه الحالة ؟ ذلك أن هذه الاشارات لا يعرفها أحد الا أنا وسمردياكوف والمتوفى. ان أحداً لم يُطْلَع على السر ، فليس يعرفه ، عدانا ، الا الله ... ولكن الله لن يقول لك شيئاً عن هذا الأمر ؟ وهو أمر هام الى أبعد الحدود ، لا يعرف الا الشيطان جميع النتائج التى يسمح بالوصول اليها . هأ هأ هأ ، مخاوفكم حمقاء ! انكم لا تعرفون الانسان الذى تخاطبونه . ان أمامكم متهماً يتلذذ بجمع القرائن التى تشهد عليه ! آ ... نعم يا سادتى ! ذلك أننى أنا فارس شرف ، ولكننى لن أقول مثل هذا الكلام عنكم أنتم !

بلع وكيل النيابة هذه الأقوال الجارحة برفق ولطف ، لأنه كان يحترق رغبةً فى معرفة الواقعة الجديدة . تكلم ميتيا بافاضة ودقة عن كل ما يتصل بالاشارات التى تصورها خيال فيدور بافلوفتش لاستعمال سمر دياكوف ، وأوضح معنى كل طريقته من تلك الطرق المختلفة فى قرع النافذة ، ومثّلها هو نفسه بالضرب على المائدة . فسأله نيقولا بارفينوفتش عندئذ هل قرع النافذة بالاشارة المتفق عليها لينبىء فيدور بافلوفتش بأن « جروشنكا وصلت » ، فأجابه ميتيا بأنه قد قرع النافذة فعلاً بعدد الضربات المتفق عليها لاعلان وصول السيدة الشابة . وختم ميتيا كلامه قائلاً :

ـ فهأنتم أولاء اطلعتم على الأمر . هلموا اجمعوا القرائن فوق القرائن ، وتابعوا استدلالاتكم واستخرجوا نتائجكم .

ثم حول وجهه عن الرجلين باحتقار .

سأله نيقولا بارفينوفتش مرة أخرى :

ـ أنت تؤكد اذن أنه لم يكن أحد غيركم ، أنت وأبوك والخادم سمر دياكوف ، يعرف هذه الاشارات ، أليس كذلك ؟ ألم يطلع عليها أحد غيركم البتة ؟

ـ لم يطلع عليها أحد غيرنا ، أنا وسمر دياكوف والله . لا تنسوا أن تسجلوا أن الله كان على علم بالسر . قد يكون العون الالهى ضروريا لكم أنتم أيضاً فى هذه القضية .

أسرعوا يسجلون جميع هذه التفاصيل . ولكن بينما كان الكاتب يكتب ، قال وكيل النيابة فجأة كأن فتراضا جديدا قد ومض فى ذهنه على حين بغتة :

ـ ولكن اذا كان سمردياكوف يعرف هذه الاشارات هو أيضا ، واذا كنت تنكر من جهة أخرى أن تكون أنت قاتل أبيك ، أفلا يمكن أن يكون هذا الخادم نفسه قد قرع الاشارة المتفق عليها ، فاستدرج أباك الى فتح الباب ، ثم ... ارتكب الجريمة ؟

فرشقه ميتيا بنظرة فيها سخرية شديدة وكره عنيف فى آن واحد؛ وظل يحدّق اليه مدة طويلة دون أن ينطق بكلمة واحدة ، حتى أن عينى وكيل النيابة أخذتا تطرفان . ثم انفجر ميتيا يسأله أخيرا :

ـ أتريد أن تقبض على الثعلب من جديد بهـذا السؤال المغرى ؟ ولكن الثعلب قد هرب .. هأهأهأ ! ...لقد أدركت لعبتـك يا وكيل النيابة ! خيّل اليك أننى سأثب على هذا « الطُّعم » الذى تمده الىّ ، وأننى سأتبنى هذا التعليل الجميل الذى توحى به ، أليس كذلك ؟ لاشك أنك كنت تتـوقع أن أصـبح ملء حنجـرتى قائلاً : « نعم نعم ، هو

سمردياكوف ؟ سمردياكوف هو القاتل ؟ » اعترف" بأن هذه هى فكرتك الخفية ، اعترف بذلك ، فأتابع قصتى .

ولكن وكيل النيابة لم يعترف ، بل ظل ينتظر صامتا . قال ميتيا :

ــ خطأ ! لن أتهم سمردياكوف .

ــ لا ولا يساورك أى شك فيه ؟

ــ وأنت هل يساورك هذا الشك ؟ هل تشتبه فيه ؟

ــ لقد تصورنا هذا الاحتمال أيضا .

أطرق ميتيا الى الأرض . ثم استأنف يقول وقد أظلم وجهه على حين فجأة :

ــ كفى مزاحاً . واليكم ما أريد أن أقـــوله لكم اذا شـئتم الجد لا الهزل . اننى منذ البداية ، وفى اللحظة التى أزحت فيها الستائر متقدما نحوكم ، فى تلك اللحظة تقريبا ، ومضت فى ذهنى هذه الفكرة « أيكون هو سمردياكوف ؟ ... » . ثم ، حين جلست أمامكم ، وبينما كنت أصيح قائلاً اننى لم أسفح دم أبى ، كنت أقدر فى قرارة نفسى أن سمردياكوف قد يكون هو القاتل ، ولم يبارح هذا الافتراض ذهنى بعد ذلك . وفى هذه الدقيقة نفسها ، بينما كنتَ تلقى علىّ هذا السؤال ، قلت لنفسى مرة أخرى : « انه ســـــمردياكوف ! » ، ولكننى سرعان ما انتهيت الى هذه النتيجة قائلا فى سرى : « لا ... ليس هو سمردياكوف ! » . ليست هذه الجريمة من صنعه .

سأل نيقولا بارفينوفتش محاذرا :

ــ هل تشتبه اذن فى شخص آخر ؟

فقال ميتيا جازما :

ــ لا أدرى من عسى يكون القاتل ، اللهم الا أن يكون الله أو أن

يكون الشيطان هو الذى تدخل فى الأمر ... ولكن لا يمكن أن يكون سمردياكوف هو القاتل .

ـ ما الذى يدفعك الى أن تؤكد جازماً هذا الجزم ، ملحاً هــذا الالحاح ، أن القاتل ليس سمردياكوف ؟

ـ هو اقتناع داخلى يستند الى احساسات كثيرة . اننى أعتقد أنه ليس القاتل ، لأنه انسان ذو طبيعة حقيرة جدا ، ولأنه رعديد فوق كل شىء . ليس سمردياكوف رجلا جبانا بل هو جميع أنواع الجبن فى هذا العالم قد تجسدت كائناً حياً يسعى ؟ ان هذا الانسان هو الخوف نفســه متجسدا أيها السادة . لقد ولد هذا الرجل فى خم ! كان ، كلما كلمته ، يرتجف خوفا من أن أقتله ، مع أننى لم أكن أرفع يدى عليــــه . كان يرتمى على قدمىّ باكياً ويقبل حذاءىّ ضارعاً الىّ أن لا « أخيفه » . هل تسمعون ؟ « أن لا أخيفه ! » ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ ومع ذلك كنت لطيفا معه على الدوام ، وكنت أهدى اليه الهدايا . هذا فرخ ممروض مصـاب بالصرع متأخر العقل يستطيع أن يضربه طفل فى الثامنة من عمره . أهذا رجل ؟ لا يا سادتى ، ليس لسمردياكوف ضلع فى هذا الأمر . ثم انه لا يحب المال ، ولقد كان يرفض المكافآت التى كنت أريد أن أهبها له . وما عسى يكون الباعث له على قتل العجوز ؟ ربما كان سمردياكوف ابن العجوز ، ابنه غير الشرعى ، هل تعرفون هذا ؟

ـ نعرف هذه الشائعة . ولكنك أنت أيضا ابن فيدور بافلوفتش ، ثم لم يمنعك ذلك من أن تعلن فى كل مكان أنك تنوى قتله .

ـ وهذا حجر آخر فى حديقتى ! انه لصغار وحطة منكم أن تأخذوا علىّ هذا ! هيّا أيها السادة ، أنا لا أخشى غمـــزاتكم ولمزاتكم ! ولكن ألستم ترون أيها السادة أنه ليس لائقا أن ترموا وجهى بما أسررت به اليكم أنا نفسى ؟ هيه ... طيب ... أنا لم أشأ أن أقتله فحسب ، بل

كان فى وسعى أن أفعــــل ، وقد اتهمت نفسى أمامكم بأننى أوشكت أن أصرعه ذات يوم . غير أنى لم أقتله ، فان ملاكى الحارس قد حمانى من ارتكاب هذه الجريمة ... ولكنكم لا تعتقدون أن عليكم أن تقيموا وزنا لهذا الكلام . ذلك هو الشر فى موقفكم ، ذلك هو فى موقفكم مايستحق الاحتقار ! اننى لم أقتله ، اننى لم أقتله ، لا ، لم أقتله ، هل تسمع ياوكيل النيابة . أنا لم أقتله !

كان ميتيا يوشك أن يختنق . انه لم يضطرب هــــذا الاضطراب الشديد كله فى أية لحظة أخرى أثناء الاستجواب . وسأل بعد صمت :

ـ فما الذى قاله لكم صاحبنا ســــمردياكوف ؟ هل يجوز لى أن أسألكم عن هذا ؟

فأجابه وكيل النيابة قائلاً بلهجة قاسية جافة :

ـ من حقك أن تلقى علينا ما تشاء من أسئلة . اننى أسمع لجميع الأسئلة التى تتصل بالظروف المادية للقضية . أعود فأقول لك ان من واجبنا أن نطلعك على جميع النقاط التى قد تنيرها . لقد وجدنا هذا الخادم سمر دياكوف الذى سألت عنه الآن راقداً على سريره مغشياً عليه يعانى من نوبة صرع شديدة ، هى النـــوبة العاشرة فيما أظـن ، لأن النوبات تتلاحق بلا انقطاع ، حتى لقد صرّح الطبيب الذى رافقنا صرّح ، بعد أن فحصه ، أن أغلب الظن أنه لن يعيش بعد هذه الليلة .

ـ فالشيطان هو الذى قتل أبى اذن !

بهذا هتف ميتيا ، كأنه لا يزال يتساءل حتى تلك اللحظة : « أهو سمردياكوف أم لا ؟ » .

قال نيقولا بارفينوفتش حاسماً المناقشة :

ـ سنعود الى هذه المسألة فيما بعــــد . هل يمكننى أن أرجوك أن تستأنف سرد الوقائع ؟

طلب ميتيا أن يؤذن له بأن يستريح بضع لحظات ، فوافق وكيل النيابة على ذلك بلطف وكياسة . وتابع ميتيا كلامه بعد انقطاع قصير ، ولكن كان واضحا أنه أصبح خائر القوى ، وأن الاستجواب قد أرهقه ، وأن نفسه كانت مهتزة مستاءة . ثم ان وكيل النيابة كان يبدو أنه يتعمد الآن أن يثير أعصابه بتصديعه فى كل لحظة بأسئلة تتناول أمورا تافهة لا قيمة لها . من ذلك مثلا أنه ما كاد ميتيا يصف كيف جثم على السور وكيف ضرب بمدق الهاون الخادم جريجورى الذى تشبث بساقه اليسرى وكيف سارع يثب الى الحديقة بعد ذلك ويميل على الضحية ، حتى استوقفه وكيل النيابة راجيا منه أن يوضح طريقة جلوسه على السور . فدهش ميتيا من هذا الالحاح ، وقال يجيبه :

ـ جلست .. هكذا .. راكبا .. كركوبى على حصان ... فى كل جهة ساق .

ـ ومدق الهاون ؟

ـ مدق الهاون ؟ كنت أمسكه بيدى .

ـ لا فى جيبك ؟ هل تتذكر هذا تذكراً تاما ؟ هل اندفعت اندفاعة قوية لتضربه ؟

ـ لا بد ... ما دمت قد ضربت ضربة قوية . لماذا هذا السؤال ؟

ـ هل لك أن تجلس على هذا الكرسى بالطريقة التى جلست بها على السور ، وأن تقلد الحركة التى قمت بها ، والاندفاعة التى اندفعتها بذراعك ، والجهة التى سددت اليها الضربة ، زيادةً فى الايضاح ؟

سأل ميتيا محدثه وهو يرشقه بنظرة متكبرة :

ـ أتراك تسخر منى ؟

ولكن وكيل النيابة لم تطرف عينه . فاستدار ميتيا فوق كرسيه

بحركة عصبية ، وجلس عليه راكبا ركوبه على حصان ، ورفع ذراعيه ، وقال :

ــ انظروا كيف ضربته ، انظروا كيف قتلته ! أأنتم راضون الآن ؟ ماذا تريدون أيضا ؟

ــ شكراً • هلاّ شرحت لنا الآن لماذا وثبت بعد ذلك الى الحديقة ، وماذا كان هدفك من هذا ؟ ما هو الدافع الذى خضعت له حين تلبثت هذا التلبث قرب ضحيتك ؟

ــ عجيب ••• هل أعرف لماذا ؟ ملت عليه وكفى ، لست أعـرف السبب الذى دفعنى الى ذلك •

ــ لقد قفلتَ راجعاً الى الحديقة مع انك كنت تعانى انفعالاً شديدا وكنت تريد أن تهرب • فهلاّ شرحت لنا هذا ؟

ــ نعم ، كنت منفعلاً وكنت أريد أن أهرب •

ــ فهل كان فى نيتك أن تسعفه ؟

ــ لا ••• على كل حال ، لا أدرى • لعلنى أشفقت عليه ، لا أتذكر الآن •

ــ لا تتذكر ؟ أكنت قد أصبحت لا تعرف ماذا تفعل ؟

ــ بل كنت واعيا كل الوعى ، وانى لأتذكر أيسر التفاصيل • دعونا من ذلك الكلام ! لقد أردت أن أرى الحالة التى كان عليها ، وأن أمسح دمه بمنديلى •

ــ عثرنا على المنديل • هل كنت تأمل انقاذ حياة الانســان الذى صرعته ؟

ــ لا أدرى هل كنت آمل ذلك • لقد أردت ، بكل بساطة ، أن أعرف أهو ما يزال حياً أم لا ؟

ــ ها ؟ أردت أن تعـــرف أهو ما يزال حياً أم لا ؟ فماذا وجدت عندئذ ؟

ــ لم أستطع التأكد ، لأننى لست طبيبا • ثم هربت معـــتقدا أننى قتلته • وها هو ذا صحا من اغمائه •••

قال وكيل النيابة أخيرا :

ــ عظيم • شكراً • ذلك بعينه ما كنت أريد أن أعرفه . هلاّ تفضلت فتابعت سرد الوقائع ؟

وا أسفاه ! لم يخطر ببال ميتيا ــ رغم أنه يتذكر تذكراً واضحا ــ أن يذكر أنه انما وثب الى الحديقة بدافع الشفقة ، وأنه حين مال على العجوز جريجورى قد نطق بكلمات تعبّر عن الشفقة على ذلك العجوز الذى آلمه أن يراه مجندلاً فى هذا المكان • ان كل ما حفظه وكيـــل النيابة من أقوال ميتيا هو أنه وثب عن السور « فى لحظة كتلك اللحظة ، رغم الاضطراب الشديد الذى كان يعانيه » ، دون أن يكون له من هدف الا أن يعرف هل الشاهد « الوحيد » على جريمته ما يزال حياً أم أنه مات • وحدّث وكيل النيابة نفسه قائلاً : « ان هذا السلوك يدل على قدر كبير من هدوء الأعصاب وقوة التصميم ودقة الحساب لدى هذا الرجل »، ثم أضاف يقول لنفسه : « وأخيرا ! لقد استطعت أن أنهك قواه بهـــذه السفاسف ، فاذا هو يفضح نفسه • • »

وتابع ميتيا سرد قصته فى عناء ومشقة ، ولكن نيقولا بارفينوفتش استوقفه عن الكلام من جديد • سأله :

ــ كيف ذهبت الى الخادمة فيـــدوسا ماركوفنـــا مع أن الدم كان ما يزال يلطخ يديك وحتى وجهك ، كما ثبت ذلك فيما بعد ؟

ــ لم ألاحظ عندئذ أننى كنت مضرجا بالدم •

قال وكيل النيابة وهو ينظر الى قاضى التحقيق :

ـ انه يقول الحقيقة الآن ، فذلك ما يحدث عامة فى مسل هذه الحالة •

فقال ميتيا مؤيدا كلامه بحرارة :

ـ لم ألاحظ ذلك عندئذ ، نحن الآن متفقان كل الاتفاق يا سيادة وكيل النيابة !

بقى عليه أن يروى كيف قرر فجأة أن « يتنحى عن الطريق » ، وأن « يخلى الدرب للحبيبين السعيدين » • ولكنه أحس أنه لا يملك الآن ، كما كان يملك فى بداية الاستجواب ، القدرة على أن يفتح قلبه ، وأن يتحدث عن « ملكه قلبه » حديثا طلقاً حراً • ان شعورا بالاشمئزاز أمام هذين الانسانين الفاترين اللذين يثبتان عليه أعينهما ، بل يغرسانها فى لحمه غرساً كحشرات تمص دمه ، أقول ان شعورا بالاشمئزاز كان يصده عن الانطلاق فى الكلام • فاقتصر على بضعة أجوبة مقتضبة جافة عن أسئلة مكررة ألقيت عليه حول هذه النقطة •

ـ نعم قررت أن أنتحر • لم يبق ثمة ما يربطنى بالحياة ويشدنى اليها ، وكان هذا الحل يفرض نفسه بنفسه • ان صديقها القديم الشرعى الذى هجرها فى الماضى قد عاد اليها بعد خمس سنين ممتلىء القلب حباً ، ليتزوجها فيصلح بذلك ما أفسد من أمرها ، ويزيل عنها الأذى الذى ألحقه بها • أدركت عندئذ أن كل شىء قد انتهى ••• وعدا هـذا كان يلاحقنى ذلك العار ، وكان ورائى دم جريجورى هذا ••• ففيم الحياة بعد ذلك كله ؟ هكذا ذهبت الى ذلك الموظف لأسترد منه المسدسين ، وحشوت أحدهما على نية أن أطلق فى رأسى رصاصة منذ الفجر •••

ـ وبانتظار ذلك ، قررتَ أن تلهو وأن تعبث وأن تقصف طوال الليل ؟

ـ نعم نعم ، قررت ذلك ! هلاّ انتهينا من هذا أيها السادة ! لقد

عزمت عزماً أكيدا على أن أنتحر هناك ، فى أقصى هذه القرية ، وكان ينبغى أن أنفذ عزمى هذا فى الساعة الخامسة من الصباح • وقد هيأت كلمة أشرح فيها السبب ، كلمة كنتم ستجدونها فى جيبى • لقد كتبتها عند برخوتين حين حشوت مسدسى • اليكم الورقة التى كتبت عليها تلك الكلمة ، اقرأوها ان شئتم •

وأضاف يقول فجأةً باحتقار :

ـ ولست أروى هذا كله من أجلكم أنتم •

ثم سلّ من جيبه ورقة ورماها على المائدة • قرأ وكيل النيابة وقاضى التحقيق الورقة باستطلاع شديد ، وضمّاها الى الملف وفقاً للأصول •

ـ ألم يخطر ببالك أن تغسل يديك قبل أن تذهب الى السيد برخوتين ؟ ألم تكن تخشى اذن أن توقظ شبهات وشكوكاً ؟

ـ شبهات وشكوكا ؟ ماذا يهمنى هذا ؟ كنت سأجىء الى هذا المكان لأطلق على رأسى رصاصة فى الساعة الخامسة من الصباح ولو لم تحم حولى شبهة ارتكاب جريمة • وما كان لوقتكم أن يتسع عندئذ لتدخلكم• فلولا المصيبة التى حلت بأبى ، لما عرفتم شيئاً ولما وُجدتم الآن هنا • ذلك من صنع الشيطان ، هل تعلمون ؟ ان الشيطان هو الذى قتل أبى وتولى مهمة ابلاغكم بهذه السرعة ! ماذا فعلتم حتى استطعتم أن تصلوا الى هنا بعد وقوع الجريمة بزمن قصير هذا القصر ؟ ذلك أمر لا يصدّق !

ـ ذكر لنا السيد برخوتين أنك حين دخلت عليه كنت تمسك بيديك •• بيديك الداميتين •• أوراقا مالية •• مبلغا ضخما •• حزمة من الأوراق المالية من فئة المائة روبل ؟ ويظهر أن خادمه الصغير قد رأى هذه الأوراق المالية أيضا •

ـ صحيح • فعلا • أظن أننى أتذكر هذا •

قال نيقولا بارفينوفتش بصوت رفيق جدا :

ـ هنا ينبثق سؤال صغير • ألا تستطيع أن تقول لنا من أين جاءك هذا المال ، مع أن جميع انظروف تدل على أنك لم يتسع وقتك حتى للمرور بمنزلك ؟

انتفض وكيل النيابة قليلاً حين سمع هذا السؤال يلقى دفعةً واحدة بهذه الطريقة المفاجئة ، ولكنه لم يقاطع قاضى التحقيق •

أجاب ميتيا قائلاً بهدوء ظاهر ، ولكن مطرقاً الى الأرض :

ـ لم أمرّ ببيتى فعلاً !

فعاد نيقولا بارفينوفتش يقول برفق وجل غامز :

ـ فاسمح لى اذن أن أكرر سؤالى : من أين جئت بهذا المبلغ مادام ينتج من تصريحاتك نفسها أنك فى الساعة الخامسة بعد الظهر كنت •••

ولكن ميتيا قاطعه بعصبية قائلاً :

ـ فى الساعة الخامسة ؟ كنت فى حاجة ملحة الى عشرة روبلات ، فرهنت مسدسىّ عند برخوتين ، ثم ذهبت الى السيدة هوخلاكوفا لأقترض منها ثلاثة آلاف روبل ، فرفضت أن تقرضنى ، وهلم جرا ••• أعرف القصة (كذلك أضاف ميتيا يقول بلهجة هجومية) • كنت لا أملك قرشاً واحداً ، أليس كذلك أيها السادة ، ثم اذا بى أملك ألوف الروبلات على حين فجأة ، هه ؟ أحسب أيها السادة أنكم ترتجفون خوفا من أن أرفض أن أذكر لكم مصدر هذا المال ، أليس كذلك ؟ طيب ••• أنا أرفض ، نعم أرفض أن أشير لكم الى مصدر المال • لقد حزرتم • لن أتكلم ، ولن تعرفوا شيئاً عن هذه النقطة •

كذلك حسم ميتيا الكلام بلهجة قاطعة وهيئة حازمة •

وساد صمت •

واستأنف نيقولا بارفينوفتش حديثه يقول بلهجة فيها رفق واذعان:

ـ اعلم يا سيد كارامازوف أنه لا غنى لنا عن معرفة مصدر المال •

ـ أدرك ذلك ، ولكننى مع هذا لن أقول لكم شيئاً •

وتدخل وكيل النيابة هو أيضاً ، فذكّر ميتيا مرةً أخرى بأن من حق المتهم أن لا يجيب عن الأسئلة الملقاة عليه اذا هو قدر أن الصمت أنفع له وأجدى عليه ، ولكن لما كان يتعرض باتخاذ مثل هـــذا الموقف لأن يلحق بنفسه أذى ، ولا سيما حين يكون الأمر أمر وقائع لها مثـل هذه الخطورة •••

فقاطعه ميتيا قائلاً بفظاظة :

ـ وهلمَّ جرا أيها السادة ، وهلمَّ جرا ! كفى ! لقـــد سبق أن سمعت هذه الأقوال المعادة المكرورة ! ثم اننى أدرك أنا نفسى خطورة هذا السؤال الذى تلقونه علىَّ ، وأعلم أنه النقطة الرئيســية فى القضـــية ، ولكننى مع ذلك لن أتكلم •

فقال نيقولا بارفينوفتش بلهجة عصبية :

ـ هى مصلحتك أنت لا مصلحتنا نحن على كل حال ! لك أن تفاقم حالتك ما دمت حريصا على ذلك !

رفع ميتيا عينيه ، ونظر اليهما بصلابة وثبات قائلاً :

ـ اسمعوا أيها السادة • سأكون صريحا • لقد أحسست منذ البداية أننا سنصطدم عند هذه النقطة • ولكن حين بدأت قصتى هذه كان هذا الحاجز ما يزال يبدو لى فى مكان بعيد غائم ، كأنه غارق فى الضـــباب ، حتى لقد بلغت من الســـذاجة فى تلك اللحظة اننى اقترحت عليكم أن نقف دفعة واحدة على أرض الثقة المتبادلة • وانى لأدرك الآن أن هـــذه الثقة كانت مســـتحيلة ، لأننا كنا سنصطدم بهـــذا الجدار عاجلاً أو آجلاً ••• وها نحن أولاء نصطدم به ••• فمن المستحيل أن نستمر •

هذا كل شيء • ولست ألومكم على كل حال ، فانني أفهم حق الفهم أنكم ليس في وسعكم أن تصدقوا ما أذكره لكم على عهد الشرف •

قال ميتيا ذلك وصمت مظلمَ الوجه •

ـ ألا تستطيع على الأقل ، دون أن تتزحزح عمّا عزمت عليه من صمت حول النقطة الأساسية ، ألا تستطيع أن تذكر لنا ولو باشارة يسيرة البواعث القوية التى أمكنها أن تحملك على أن لا تجيب عن سؤالنا فى ساعة خطيرة وخطرة الى هذا الحد بالنسبة اليك ؟

ابتسم ميتيا حزينا واجما مفكرا •

ـ أنا خير مما تتصورون أيها السادة ، سأشرح لكم هذه البواعث، سأذكر لكم ما تطلبونه ، رغم أنكم لا تستحقون ذلك كثيرا ! اننى أرفض أن أتكلم لأننى أخشى العار • ان الجواب على السؤال عن مصدر ذلك المبلغ من المال يشتمل بالنسبة الىّ على دناءة اذا قيست بها جريمة قتل أبى وسلبه المال بدت أمرا هينا يسيرا ، حتى ولو كنت أنا المجرم • ذلكم هو سبب اضطرارى الى الصمت • ان الشعور بالعار يخنقنى • ماذا تفعلون أيها السادة ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضا ؟

تمتم نيقولا بارفينوفتش يقول :

ـ نعم سنسجلها •

ـ ما ينبغى لكم أن تسجلوا ما قلته عن « الدناءة » • لقد فتحت لكم قلبى من قبيل المجاراة • كان بمكننى أن أمنع عنكم هذا الايضاح • لقد قدمت اليكم هذا الايضاح بغير داعٍ الى ذلك ، فهل تسارعون الى تسجيله أيضاً ؟ ليكن أيها السادة ! اكتبوا ما شئتم أن تكتبوا ، أنا لا أخشاكم ، ولن أطأطىء رأسى أمامكم •

بهذا ختم ميتيا كلامه مشمئزاً •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يسأله :

ـ هل تقبل أن تقول لنا ما نوع الدناءة التى تعنيها ؟

ـ انتهى ! لا تلحوا ! اننى اذ تكلمت أمامكم قد دنست نفسى بما فيه الكفايه ، فعلام أدنس نفسى مزيداً من الدنس ؟ ... كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذه اللحظة كلمة واحدة .

تكلم ميتيا بلهجة قاطعة جداً ؛ فاعتقد نيقولا بارفينوفتش أنه لا جدوى من الالحاح ، ولكنه سرعان ما أدرك من نظرة هيبوليت كيريلوفتش أن هذا لم ييأس بعد .

ـ قل لنا على الأقل مقدار المال الذى كان بيديك حين وصلت الى السيد برخوتين . كم روبلاً كان المبلغ ؟

ـ لا أستطيع أن أقول .

ـ ألم تتحدث الى السيد برخوتين عن ثلاثة آلاف روبل زعمت أنك أقترضتها من السيدة هوخلاكوفا ؟

ـ ربما ذكرت له شيئاً من هذا القبيل . كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذا كلمة واحدة .

ـ أوضح لنا اذن كيف جئت الى هنا ، وماذا فعلت منذ وصولك الى موكرويه !

ـ ستعرفون ذلك بسهولة متى سألتم الأشخاص الآخرين الموجودين هنا . على كل حال ، لا أرى بأساً فى أن أروى لكم هذا .

وقص عليهم ميتيا قصة هذه الليلة التى يعرف القارىء جميع تفاصيلها . وكان يتكلم هذه المرة فى جفاف ، مقتصراً على اشارات مقتضبة ، فلم يتحدث عن اندفاعات حبه الحارة . ومع ذلك ذكر أن عزمه على الانتحار قد زال بسبب « ظروف جديدة » . ولم يتحدث عن حالاته

النفسية ، بل اقتصر على الوقائع المادية وحدها • ولم يزعجه أحد بالأسئلة أثناء ذلك ، فلقد كان واضحاً فى نظر وكيل النيابه وقاضى التحقيق أن الأمر الأساسى ليس هنا •

قال نيقولا بارفينوفتش ليختم الاستجواب :

ـ سنتحقق من صدق أقوالك ، وسنعود اليها حين نسمع أقوال الشهود ، بحضورك طبعاً • أحب أن أرجوك الآن أن تضع على هذه المائدة جميع الأشياء التى معك ، ولا سيما الأموال ••• جميع المبالغ التى هى فى حوزتك الآن •

ـ المال أيها السادة ؟ طيب ، طيب ••• أنا أفهم أن هذا لا بد منه ، بل اننى لأستغرب أنكم لم تظهروا هذا الفضول قبل الآن • وما كان لى أن أتهرب طبعاً ، ما دمتم تراقبوننى • اليكم المال • عدّوه • خذوا • أحسب أن هذا كل شىء •••

أفرغ ميتيا جيوبه افراغاً كاملاً ، وأخرج حتى النقود الصغيرة ، ومنها قطعتان نقديتان من فئة العشرة كوبكات ، أخرجها من جيب صديريته • وجُمعت الأموال ، فبلغت ثمانمائة وستة وثلاثين روبلاً وأربعين كوبكاً •

سأله القاضى :

ـ أهذا كل شىء ؟

ـ نعم •

ـ لقد تفضلت فقلت لنا منذ قليل ، أثناء سرد الوقائع ، أن ثمن ما اشتريته من متجر آل بولتنيكوف قد بلغ ثلاثمائة روبل ، فاذا أضعنا اليها العشرة روبلات التى رددتها الى برخوتين ، والعشرين روبلاً التى أعطيتها الحوذى ، والمائتى روبل التى خسرتها فى اللعب بالورق أثناء الليل ، ثم •••

أجرى نيقولا بارفينوفتش الجمع تفصيلاً ، وكان ميتيا يساعده راضياً ، ووُضعت قائمة دقيقة بجميع النفقات ، وحسب نيقولا بارفينوفتش الحاصل ، فقال :

ـ فاذا حسبنا الثمانمائة روبل التى بقيت لك ، كان معنى هذا انك كنت تملك ألف وخمسمائة روبل ، أليس كذلك ؟

ـ ممكن

ـ فكيف يُجمع الشهود اذن على أن المبلغ أكبر من ذلك .

ـ لهم أن يقولوا ما يشاءون .

ـ لقد أكدت أنت نفسك أنك كنت تملك أكثر من هذا .

ـ لعلنى أكدت ذلك .

ـ سنمتحن هذه الوقائع على ضوء شهادات الشهود الآخرين . أما المال فلا تخش عليه . سنحتفظ به فى مكان مأمون ، وسيُرد اليك فى نهاية ... هذا التحقيق ... اذا ظهر عندئذ أو قل اذا ثبت عندئذ ثبوتاً قاطعاً أنه لك أنت بغير شك ...

قال نيقولا بارفينوفتش هذا ، ونهض فجأة ، وأعلن لميتيا بصوت قاطع أنه يرى نفسه « مضطراً » الى أن « يفتش ملابسه وكل ما معه تفتيشاً دقيقاً » .

ـ افعلوا أيها السادة . سأقلب جيوبى ان شئتم .
وأخذ يقلب جيوبه .

ـ لا هكذا . لا بد من أن تخلع ملابسك .

ـ ماذا ؟ أخلع ثيابى ؟ عجيب ... ألا يكون نبش جيوبى أسهل من ذلك ؟

ـ بل لا بد من خلع ثيابك يا دمترى فيدوروفتش • يجب أن تخلع ثيابك •

قال ميتيا عابساً مذعناً :

ـ كما تشاءون • ولكن لا هنا ، بل وراء الستائر ••• أرجوكم ••• من يتولى التفتيش ؟

قال قاضى التحقيق وهو يحنى رأسه موافقاً :

ـ طبعاً وراء الستائر •

وطاف بقسمات وجهه الدقيقة عندئذ تعبير عن وقار خاص •

SS

٦

وكيل النيابة يستجوب ميتيا

إن ما حدث عندئذ لم يكن في حسبان ميتيا أبداً . ما كان له أن يتخيل ، قبل دقيقة واحدة ، أن من الممكن أن يعاملوه هذه المعاملة ، هو ، دمترى كارامازوف ! ان في هـــذا « اذلالاً » له ، « وازدراء متعالياً » منهم ! وليتهم لم يطلبوا منه أن يخلع الا ردنجوته ! لقد رجوه أن يخلع ملابسه كلها ... بل لم يكن هذا منهم رجاءً ، وانما كان في الواقع أمراً ، وقد فهم هو ذلك ، فخضـــع للأمر دون تذمر ، كبرياءً واشمئزازاً ! وقد دخل الى ما وراء الستائر ، عدا وكيل النيابة وقاضي التحقيق ، عددٌ من الفلاحين أيضاً ، فقال ميتيا يحدث نفسه : « لقد دخل هؤلاء للمساعدة في اجباري على خلع ملابسي ، وربما لبواعث أخرى كذلك » .

سأل ميتيا بصوت يصطنع الحزم :

ــ هيه ! هل أخلع القميص أيضاً ؟

ولكن نيقولا بارفينوفتش لم ير داعياً الى الاجابة . لقد كان مشغولاً مع وكيـــل النيـــابة بتفتيش الردنجوت والسروال والصـــديرة والقبعة . وكان يبدو على الرجلين أن هذا التفتيش يهمهما الى أقصى حد . قال ميتيا

في نفســـه : « أصبحا لا يتحرجان من شيء ، ولا يراعيان أبسط قواعد الأدب واللباقة ! » وقال يسألهما :

ـ أسألكم مرة أخرى : أيجب أن أخلع القميص أم لا ؟

فأجابه نيقولا بارفينوفتش قائلاً بلهجة جافة آمرة (هذا احساس ميتيا على الأقل) :

ـ لا تقلق ، سنقول لك ذلك في حينه .

كان وكيل النيابة وقاضي التحقيق يتبادلان الرأي بصوت خافت . ان هنـاك بقع دم ، غير متخثرة تخثراً كاملاً ، تظهر على الردنجوت ، ولا سيما في الظهر وفي الحافة اليسرى . وان هناك بقع دم أخرى تُرى في السروال أيضـاً . وعدا ذلك أخذ نيقولا بارفينوفتش ، بحضـــور الفلاحين المكلفين ، يجس الياقة وطيات الأكمام ، ويجس كذلك مختلف خياطات الثياب ، كأنه يقدِّر أن يكتشف فيها شيئاً ... هو المال طبعاً ... وأخطر ما في الأمر أن الرجلين كانا يدلان بذلك ، بحضور ميتيا ، على انهما يريان أن من الجائز جداً أن يكون قد أخفى المال المسروق في بطانات الثياب . فجمجم ميتيا يقول :

ـ انني أعامل الآن معاملة لص ، لا معاملة ضابط .

لقد كانا يتبادلان الآراء بصـــوت عال وصراحة تامة دون اكتراث بوجوده . من ذلك مثلاً أن الكاتب ، الذي كان كثير الحركة هو أيضاً ، قد لفت انتباه نيقولا بارفينوفتش الى القبعة التي أخذ يجسها أيضـــاً ، قائلا له:

ـ تذكروا المستخدم جريدنكا . لقد أوفد في هذا الصيف لقبض رواتب جميع موظفي الدائرة ، فلما عاد صرَّح بأنه فقد المال وهو في حالة سكر . فأين وجدوا المال بعد ذلك ؟ وجدوه في شريط قبعته ! لقد صنع

من أوراق المائة روبل لفاتٍ صغيرة استطاع أن يدسّها تحت الشريط ، ثم خاط الشريط .

لم يكن وكيل النيابة وقاضى التحقيق قد نسيا قضيه جريدنكا ، فوضعا قبعة ميتيا فى جانب وفى نيتهما أن يفتشا ملابسه بعد ذلك بمزيد من التدقيق أيضاً

ورأى نيقولا بارفينوفتش قبضة الكم اليمنى من قميص ميتيا ملطخة بالدم ومقلوبة ، فهتف يقول فجأة :

ــ هل تسمح ؟ هذا دم أيضاً ان لم يخطىء ظنى .

فأجاب ميتيا قائلاً بصوت قاطع :

ــ نعم ، هو دم .

ــ دم ؟ أى دم ؟ ... ولماذا قلبت الكم ؟

فذكر ميتيا أنه بعد أن تلطخ كمه أثناء اهتمامه بجريجورى ، قد شمره عند برخوتين الذى غسل يديه عنده أيضاً .

قال نيقولا بارفينوفتش :

ــ سيجب أن تنزع قميصك أيضاً ... هذا أمر هام جداً لاستكمال المشاهدات المادية .

فاحمر وجه ميتيا وقال غاضباً :

ــ أأصبح عارياً الآن ؟

ــ اطمئن ... سنرتب هذا . وبانتظار ذلك ، أنزع جوربيك من فضلك .

سأل ميتيا وقد سطع فى عينيه حنق :

ــ أأنتم تمزحون ؟ أهذا ضرورى حقاً ؟

فأجابه القاضى قائلاً بلهجة قاسية :

ــ ما نحن فى موقف المزاح فنمزح !

غمغم ميتيا يقول وقد جلس على السرير وأخذ يخلع جوربيه :

ــ ليكن ... ما دام هذا ضرورياً ... أنا ...

كان يشعر بخزى لا يطاق ، اذ يرى نفسه خالعاً ثيابه هكذا بين أناس يظللون مرتدين ثيابهم . شيء غريب : انه حين خلع ثيابه شعر فجأة بأنه مجرم . كاد يسلّم هو نفسه عندئذ بأنه أصبح دون الآخرين قيمةً على حين بغتة ، وأنه أصبح من حق هؤلاء أن يحتقروه . قال يحدّث نفسه : « حين يكون الجميع عراة فلا عار ، أما حين أكون وحدى عارياً فذلك هو العار ! لكأننى فى حلم ! لقد سبق أن عانيت فى الحلم انحطاطات من هذا النوع » . وقد شق عليه كثيراً أن يخلع جوربيه : انهما وسخان ، كسائر ملابسه الداخلية أيضاً ، ففى وسع الجميع أن يلاحظوا هذا الآن . ذلك عدا أن ميتيا كان طوال حياته يكره قدميه ويعد أصابعهما بشعة ، ولا سيما أصابع قدمه اليمنى التى كان أحد أظافرها مسطحاً تاماً فلا ينحنى الا فى نهايته . سوف يراه الجميع الآن . اجتاحه الشعور بالخزى والعار ، ففارت نفسه ، وأصبح فظاً عن عمد . قال :

ــ ألا تحبون أن تلاحقوا تحرياتكم الى أبعد من هذا اذا كان الحياء لا يصدكم ؟

ــ لا ، لا داعى الى ذلك الآن .

وسأل ميتيا بلهجة حانقة :

ــ هل علىّ أن أنتظر عارياً ؟

ــ لابد من ذلك . تفضل فاجلس هنا . فى امكانك أن تتدثر بغطاء السرير ... وسأحاول أن أتدبر الأمر .

أُظهر الفلاحون على ملابسه ليكونوا شهوداً . حتى اذا انتهى تحرير المحضر خرج نقولا بارفينوفتش . وأُخذت الملابس ، وانصرف

وكيل النيابة أيضاً • لبث ميتيا وحده مع الفلاحين الذين كانوا يرقبونه صامتين ولا يحوّلون عنه أبصارهم • تدثر ميتيا بالغطاء ، لأنه كان يحس ببرد شديد ، ولكنه لم يستطع أن يحمى قدميه العاريتين على أى نحو تلفف • وتأخر نيقولا بارفينوفتش عن العودة ، كأنه يريد « اطالة تعذيبه » •

وجمجم ميتيا يقول وهو يكز بأسنانه :

ـ يحسبنى صبياً ! وقد انصرف الوغد وكيل النيابة كذلك ••• احتقاراً فى أغلب الظن ••• واشمئزازاً من رؤية رجل عار •

وكان ميتيا يقدر مع ذلك أنهم سيرجعون اليه ثيابه بعد تثبت جديد • فما كان أشد استياءه حين رأى نيقولا بارفينوفتش يعود اليه ووراءه فلاح يحمل ثياباً أخرى غير ثيابه •

قال له القاضى بلهجة ودود طلقة :

ـ اليك هذه الثياب التى حصلنا لك عليها أخيراً •

وكان واضحاً أنه سعيد بالنتائج النى وصلت اليها مساعيه ، وتابع كلامه يقول :

ـ ان السيد كالجانوف هو الذى تفضل ، فى هذا الظرف الغريب ، فقدم اليك هذا الرداء وقميصاً نظيفاً قد أتى بهما فى حقيبته من حسن الحظ • أما ملابسك الداخلية وجواربك ففى امكانك أن تحتفظ بها •

انفجر ميتيا فزأر يقول بصوت مهدد متوعد :

ـ لا أريد هذا الرداء الذى ليس لى • ردوا الىّ ردائى •

ـ مستحيل •

ـ أريد ردائى أنا • شيطان يأخذ كالجانوف وثيابه !

ولم يمكن ردّه الى الصواب الا بكثير من العناء ولكنه هدأ آخر الأمر بعد أن شرحوا له ضرورة « ضمّ الثياب الى وثائق الاثبات » مادامت ملطخة بالدم • وقد حرص قاضي التحقيق على أن يقول له « انه لم يكن من حقه أن يدع له ملابسه الخاصة ، فليس يدرى أحد ما هو المجرى الذى قد تجرى فيه القضـــية » • اقتنع ميتيا أخيراً بهذه الحجج ، وأخذ يرتدى الثياب الجديدة ، مع محافظته على صمت متجهم عابس • واكتفى بأن قال وهو يلبس رداء كالجانوف ان هذا الرداء أثمن كثيراً من ردائه ، وانه يكره أن « يستفيد » منه ؟ وأضاف يقول :

ـ ثم انه ضيّق عليّ فهو يجعلنى مضحكاً • هل عليّ أن أظهر للناس مضحكاً ••• لتتسلوا أنتم ؟

وحاولوا أن يقنعوه من جديد بأنه يبالغ ، وبأن قامة السيد كالجانوف كقامته هو ، وان يكن السيد كالجانوف أطول منه قليلاً ، وبأن السروال وحده سيكون طويلاً عليه بعض الطول • ولكن اتضح ان الســـترة مشدودة جداً عند الكتفين ، فجمجم ميتيا قائلاً من جديد :

ـ يستحيل عقد أزرارها • أرجوكم أن تبلغوا السيد كالجانوف أننى لست أنا الذى رغبت فى أخذ ثيابه ، وأننى أُكرهت على ارتدائها كمهرّج !

فدمدم قاضي التحقيق يقول :

ـ هو يفهم هذا ، وهو يأسف ••• لا يأسف على حرمانه من ثيابه ••• لا ••• بل يأسف لما وقع لك •

ـ لا حاجة بى الى أسفه ! أين يجب أن أذهب الآن ؟ أم أنا مضطر الى البقاء هنا ؟

ـ أرجو أن ننتقل الى « الغرفة الأخرى » من جديد •

دخل ميتيا الى هناك متقبضَ الوجه غضباً ، يحاول أن لا ينظر الى

أحد . كان يحس وهو فى ثيابه المستعارة أنه مذل حتى فى نظر الفلاحين ، وفى نظر تريفون بوريستش الذى لاح وجهه خلسةً من خلال بابٍ شقه ثم أسرع يغلقه. قال ميتيا فى نفسه : « أراد أن يتأملنى وأنا فى هذا الزى المضحك ». وجلس على الكرسى الذى كان يشغله منذ قليل. كان يبدو له أنه يعيش حلماً ثقيلاً ، أنه يعيش كابوساً ، وكان يتساءل ألم يفقد عقله ؟

التفت ميتيا نحو وكيل النيابة منقبض الفكين :

ـ هيه ، والآن ، هل تأمرون بجلدى ؟ لم يبق لكم الا هذا !

لم يشأ أن يخاطب نيقولا بارفينوفتش ، لأنه أصبح يعده غير جدير بانتباهه بعد الآن . وقال يحدث نفسه : « لقد تلذذ بتأمل جوربى زمنا طويلا جدا ، حتى لقد أمر بقلبهما عامداً ـ يا للشقى ! ـ بغية أن يُظهر الجميع على أن ملابسى الداخلية قذرة جدا ! » .

قال نيقولا بارفينوفتش وكأنه يجيب عن سؤاله :

ـ سنبدأ الآن استجواب الشهود .

فقال وكيل النيابة يؤيد كلام القاضى ساهماً :

ـ نعم نعم .

لقد كان يبدو على وكيل النيابة أنه يفكر فى أمرٍ ما . وتابع القاضى كلامه فقال :

ـ لقد بذلنا قصارانا يا دمترى فيدوروفتش لنساعدك فى موقفك . ولكن بعد أن رفضت رفضا خشنا أن تلبى طلبنا فتقدم لنا بعض الايضاحات عن مصدر المبلغ الذى فى حوزتك ، فاننا نرى أنفسنا ملزمين الآن بأن ..

قاطعه ميتيا سائلاً :

ـ من أى نوع من أنواع الحجارة الكريمة صُنع هذا الخاتم ؟

SS

كان ميتيا يتكلم كمن هو فى حلم ، مشيراً الى واحد من الخواتم الثلاثة التى تزين يد القاضى الصغيرة • فسأله القاضى فى دهشة :

ـ خاتمى أنا ؟

ـ نعم ، هذا الخاتم ••• ذلك الذى بزين الاصبع الوسطى ••• ما هذا الحجر الكريم ؟

كذلك قال ميتيا ملحاً بلهجة فيها غير قليل من نفاد الصبر ، كطفل عنيد ذى نزوات • فأجابه نيقولا بارفينوفتش مبتسما :

ـ هو زمرد أدكن ! هل تريد أن تراه ؟ سوف أنزعه ف •••

فصاح ميتيا يقول بعنف وقد ثاب الى رشده ، واضطرب وخجل وثار على نفسه :

ـ لا •• لا تنزعه •• ليس يعنينى هذا •• آه •• لقد دنستم نفسى أيها السادة ! هل تظنون اذن أننى كان يمكن أن أكذب عليكم لو أننى قتلت أبى فعلا ، هل تظنـــون اننى كان يمكن أن أرتضى لنفسى هوان الانكار وتمثيل دور البراءة وبراعة التهرب من أسئلتكم ؟ انكم لاتعرفون دمترى فيدوروفتش ! ما كان له أن يمثل مهزلة كهذه المهزلة ! يمينا ، لو كنت مجرما لما انتظرت أن تصلوا الى موكرويه ، ولما بقيت حيا الى الفجر كما كنت أنوى ذلك ، وانما كنت أقتل نفسى فورا ! لقــد تعلمت فى هذه الليلة الواحدة المنحوسة أكثر مما كان يمكن أن أتعلم على مدى عشرين عاما من الحياة ! أكان يمكن أن أتصرف كما تصرفت هذه الليلة، أكان يمكننى فى هذه الدقيقة نفسها أن أخاطبكم كما أخاطبكم الآن ، أكنت أجد هذه اللهجة ، أكنت أقوم بهذه الاشارات ، أكنت أستطيع أن أنظر اليكم وجهاً لوجه ، أنتم والعالم بأسره ، لو كنت قاتل أبى حقا ؟ على أن مجرد تصورى أننى ارتكبت جريمة قتل جريجورى عرضا قد ظل يعذبنى طوال الليـــل ، لا خوفا •• أبدا ••• لا خشية من عقابكم !

SS

... يا للعار ! ثم تريدون بعد ذلك ، أيها العابثون الهازلون ، تريدون أن أفضى الى أناس منلكم ، أناسٍ لا يصدقون شيئا ولا يرون شيئا ، تريدون أن أحكى لكم ، أيها المناجذ المعى ، دناءةً أخرى ارتكبتها ، حتى يزداد عاري؟ أبدا ... لن أفعل ذلك ولو أدى الى تبرئتى من انهاماتكم ... أبدا ، أبدا ... انى لأوثر على هذا سجون الأشغال الشاقة ! ان القاتل هو الشخص الذى فتح الباب ودخل الى بيت أبى من ذلك الباب ... انه ذلك الشخص هو الذى سرق مال أبى ! من هو ذلك الشخص؟ اننى أتيه فى مجاهل الظن والتخمين ، وألقى عناء كبيرا فى محاولة حزره . ولكن ذلك الشخص ليس هو دمترى كارامازوف على كل حال ، فاعلموا هذا ... ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لكم ... وهو كاف ، فلا تلحوا ... اصنعوا بى ما شئتم ، أرسلونى الى سيبريا ، أو نفذوا فىّ الحكم بالاعدام ، ولكن لا تهيجوا حنقى وغيظى بعد الآن . هأناذا أسكت . أدخلوا شهودكم .

ختم ميتيا كلامه المستفيض وقد بدا فى وجهه أنه عازم عزما مطلقا على أن لا ينطق بعد الآن بكلمة واحدة . وكان وكيل النيابة يرقبه بانتباه، منتظرا أن ينهى كلامه ، فما ان ختم ميتيا قوله حتى قال له بهدوء بارد ، كأن الأمر أمر مشاهدة طبيعية جدا بسيطة جدا .

ـ فى موضوع ذلك الباب بعينه ، ذلك الباب المفتوح الذى جئتَ على ذكره الآن ، نستطيع أن نطلعك ـ وهذا هو الوقت المناسب لذلك فيما أظن ـ على واقعة من أغرب الوقائع ومن أخطرها شأنا كذلك ، بالنسبة اليك وبالنسبة الينا معا ، وهى واقعة تنتج من أقوال العجوز جريجورى فاسيليف الذى جرحته . لقد صرّح هذا العجوز ، بعد أن أفاق من اغمائه وثاب اليه وعيه ، صرح على نحو واضح جازم قاطع ، فى الاجابة على أسئلة ألقيناها عليه ، أنه حين خرج من باب مسكنه فسمع

ضجة مشبوهة ، قرر أن يدخل الحديقة ماراً ببابها الحديدى الذى لم يكن مغلقا ؛ ولكنه قبل أن يلمحك فى الحديقة أثناء هروبك فى الظلام مبتعدا عن النافذة التى رأيت فيها أباك كما قلت لنا منذ قليل ، قد لاحظ أيضاً ، من مكان أقرب اليه كثيرا ،لاحظ أيضا ذلك الباب الذى تزعم أنه ظل مغلقا طوال مدة وجودك فى الحديقة ، فرأى أنه كان مفتوحا على مصراعيه خلافا لدعواك .ولا أستطيع أن أكتمك أن فاسيليف يستنتج من ذلك ويؤكد جازما أنك لا بد أن تكون قد هربت من هذا الباب ، رغم أنه لم ير هروبك بعينيه وانما لمحك حين كنت قد أصبحت من الباب على مسافة ما ، وسط الحديقة ، راكضاً نحو السور ...

وثب ميتيا عن كرسيه دون أن يدع لوكيل النيابة أن يتم كلامه ، وأعول يقول خارجا عن طوره :

ـ هذا كذب . هذا كذب دنيء ! لا يمكن أن يكون قد رأى الباب مفتوحا ، لأن الباب كان مغلقا فى تلك اللحظة ... انه يكذب !

ـ من واجبى أن ألفت انتباهك الى أن أقواله واضحة جدا فى هذه النقطة ، وان شهادته لم تختلف ولم تتناقض ، بل هو ظل مصراً عليها بالحاح ، لأننا سألناه عن هذا الأمر مرارا كثيرة .

قال نيقولا بارفينوفتش مؤكدا كلام زميله بشيء من الحماسة :

ـ أنا نفسى استجوبته .

فاستأنف ميتيا كلامه صارخا :

ـ هذا كذب ! هذا كذب ! لا يمكن أن يكون هذا الا وشاية تستهدف الايقاع بى، أو أن يكون أوهامَ رجلٍ يهذى. لا بد أن العجوز قد رأى حلما أثناء هذيانه بسبب جرحه وانسكاب دمه ... فقصَّ عليكم ما رآه فى الحلم حين صحا من اغمائه ... وأغلب الظن أنه ما يزال يهذى .

ـ أتمنى لو أصدِّق ما تقول ، ولكن العجوز لم ير الباب مفتوحا

بعد أن أفاق من اغمائه ، وانما لاحظه قبل أن يُجرح ، لحظة دخوله الحديقة .

ـ هذا كذب ، هذا كذب ، ذلك لا يمكن أن يكون ! ان الكره هو الذى يدفعه الى اتهامى ... لا يمكن أن يكون قد رأى ذلك الباب ... أنا لم أهرب من الباب !

هكذا صاح ميتيا مختنقا .

فالتفت وكيل النيابة الى نيقولا بارفينوفتش وقال له بلهجة رصينة :

ـ أره الظرف .

فاذا بالقاضى يضع على المائدة ظرفاً كبيرا من ورق قوى ، تُرى عليه ثلاثة أختام من شمع لم تمس ، وقد أُفرغ الظرف بتمزيقه من أحد أطرافه ؛ وَل القاضى يسأل ميتيا :

ـ هل تعرف هذا ؟

فدمدم ميتيا يقول :

ـ لا شك انه الظرف الذى كان عند أبى ... الظرف الذى كان يضم ثلاثة آلاف روبل ، اذا كان عليه كتابة ... هل تسمح لى بأن أرى ؟ نعم ، هذه هى الكتابة : « الى حمامتى » ، وهنا : « ثلاثة آلاف روبل » .

وصاح ميتيا :

ـ ثلاثة آلاف روبل ... أرأيتم ؟

ـ طبعا رأينا ... ولكننا لم نعثر على ذلك المبلغ . كان الظرف ممزقا ملقى على الأرض قرب السرير وراء الحاجز .

لبث ميتيا بضع ثوان كالمصعوق . ثم صاح يقول بغتةً بكل ما أوتى من قوة :

ـ هو سمردياكوف ، أيها السادة ! انه هو القاتل والسارق . انه الانسان الوحيد الذى كان يعرف الموضع الذى خبأ فيه العجوز الظرف . انه هو ، كل شيء واضح الآن !

ـ ولكنك كنت أنت أيضا تعلم بوجود هذا الظرف ، وتعرف انه موضوع تحت الوسادة .

ـ بل كنت أجهل ذلك كل الجهل . لم أر هذا الظرف حتى الآن ، ولم أكن أعلم بوجوده الا من مسارات سمردياكوف ... كان سمر دياكوف وحده يعرف أين خبأ العجوز الظرف ... أما أنا فكنت لا أعرف ..

كذلك قال ميتيا متقطع الأنفاس .

ـ عجيب ! لقد أكدت أنت نفسك منذ قليل أن هذا الظرف كان موجودا تحت وسادة المتوفى أبيك . لقد حددت بنفسك أنه كان مخبأ تحت الوسادة . معنى هذا أنك كنت تعرف المخبأ !

وأمّن نيقولا بارفينوفتش على كلام زميله قائلا :

ـ لقد سُجِّلت تصريحاتك فى محضر الاستجواب .

ـ سخف ... جنون ! ... لم أكن أعرف أنه تحت الوسادة .. ولعله كان فى موضع آخر . لقد ذكرت الوسادة مصادفة ... ماذا قال لكم سمر دياكوف ؟ هل سألتموه أين كان الظرف مخبأ ؟ فماذا قال لكم ؟ تلكم هى النقطة الرئيسية ! ... أما أنا فقد كذبت عامداً ... كذبت وكنت لا أعرف أن الظرف كان تحت الوسادة ، وهأنتم أولاء سوف ... كثيراً ما يقول المرء بعض الأمور مصادفة وعرضاً ... يخطر بباله أن يقولها ... لقد كان سمردياكوف وحده عارفاً بالأمر ، ولم يكن

يعرفه أحد سواه ! رفض أن يكشف لى عن المخبأ ، حتى أنا رفض أن يكشف لى عن المخبأ . انه هو ، هو القاتل ! هو القاتل لا محالة ، لقد وضح الأمر الآن وضوح النهار .

كذلك صاح ميتيا مضطرباً اضطراباً ما ينفك يزداد ، وقد أصبحت عباراته مفككة غير متماسكة ولا منسجمة من فرط الانفعال .

ـ افهموا أخيراً واعتقلوه فوراً دون أن تضيعوا لحظة واحدة ! ... لقد أصبح واضحاً انه قتل أبى بينما كنت أنا أهرب وكان جريجورى راقداً فى الحديقة بلا حراك . أصبح كل شيء واضحاً ... قرع الباب بالاشارة المتفق عليها ، ففتح له أبى الباب ... ذلك أنه الشخص الوحيد الذى كان على علم بالاشارات التى ما كان لأبى أن يفتح الباب لولا أن سمعها

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بتلك اللهجة الموزونة نفسها على شيء من التعبير عن الانتصار فى نبرة صوته :

ـ يظهر أنك تنسى من جديد أن الاشارات تصبح زائدة لا داعى اليها ولا ضرورة لها ما دام أن الباب كان مفتوحا من قبل ، بينما كنت أنت ما تزال فى المكان ، أعنى فى الحديقة ...

قال ميتيا متلعثماً :

ـ الباب .. الباب ...

وسكت ، وحدّق الى وكيل النيابة بنظرة متجهمة . ثم تهالك على الكرسى كالمنهار . وساد صمت . ثم هتف يقول زائغ الوجه :

ـ نعم .. الباب ! .. كان هذا شبحاً ! الله ضدى ! ...

قال وكيل النيابة بلهجة رزينة :

ـ أرأيت ؟ فاحكم الآن بنفسك يا دمترى فيدوروفتش . هناك من

جهـة أولى هذه الشـهادة القوية الدامغة ، فى نظرك وفى نظرنا ، أعنى الشـهادة بأن الباب كان مفتوحا وأنك هربت منه • وهناك من جهة ثانية هذا الصمت العنيد الذى لا يُفهم ، هذا الصمت الذى تلوذ به عن مصدر المال الذى أصبح فى حوزتك فجأة بينما كنت قبل ذلك بثلاث ساعات ، فيما صرحت به أنت نفسك ، مضطرا الى رهن مسدسيك للحصول ولو على عشرة روبلات • فماذا نصدق وعلى أى شىء نستند ؟ هلاَّ قلت لى ••• فلا تأخذ علينا ، ظلماً وعدوانا ، أننا أناس مستهزئون باردون مستهترون ، عاجزون عن أن نفهم ما فى نفسك من اندفاعات نبيلة ، بل ضع نفسـك فى مكاننا ••• وحاول أن تفهمنا أنت أيضا •••

كان ميتيا مضطربا • وشحب لونه • ثم هتف يقول فجأة :

ـ طيب ! سأكشف لكم عن سرى ، سأطلعكم على مصدر المال ••• سأكشف عن عارى ، حتى لاألوم نفسى ولا ألومكم فى المستقبل •

قال نيقولا بارفينوفتش بفرح يوشك أن يكون فيه حنان :

ـ ثق يا دمترى فيدوروفتش أن اعترافا صادقا كاملا منك الآن قد يخفف عنك كثيرا فى المستقبل ، حتى لقد •••

ولكن وكيل النيابة لكزه بقدمه لكزةً خفيفة من تحت المائدة فصمت القاضى فى الوقت المناسب • وكان ميتيا لا يصغى اليه على كل حال •

٧

السر الكبير الذي يحتفظ به ميتيا
يتّخذ هزأة

بدأ ميتيا كلامه فقال منفعلاً أشد الانفعال :

ــ أيهـــا السادة ••• أريد أن أعترف بالحقيقة كلها ••• كان هذا المبلغ لى أنا •••

استطال وجها وكيل النيـــابة وقاضى التحقيق • لقد خاب فألهما وأخفق انتظارهما ، لأنهما كانا يتوقعان اعترافا يختلف عن هذا الاعتراف كل الاختلاف •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول :

ــ كان ذلك المال لك أنت ؟ كيف هذا ؟ أنت تقول فى اعترافاتك نفسها انك فى الساعة الخامسة بعد الظهر •••

ــ سحقاً للساعة الخامسة ولاعترافاتى ! ليس هذا هو الموضـــوع الآن ! لقد كان ذلك المال لى أنا ••• أقصد أننى استوليت عليه ، سرقته ، نعم سرقته • هـــو مبلغ ألف وخمسمائة روبل ••• كنت أحملها دائما معى ، معى •••

ــ من أين أخذتها ؟

ـ من صدرى أيها السادة ، من هذا الصدر الذى ترون ... كنت أخبئها هنا ، معلقة بعنقى ، مخيطة فى خـــرقة ... هكذا كنت أحمل عارى منذ زمن طويل ، منذ أكثر من شهر ...

ـ ولكن من عند من ... استوليت ... على هذا المبلغ ؟

ـ تريدون أن تقولوا من عند من « سرقته » ، أليس كذلك ؟ سمّوا الأشياء بأسمائها ! أنا أعتقد فعلاً أننى سرقت هذا المال ، أننى « استوليت » عليه اذا كنتم تؤثرون هذا التعبير . وأنا أرى أنه سرقة . وأمس مساء ، اكتملت السرقة .

ـ أمس مساء ؟ ولكنك قلت انك ... حصلت على هذا المـــال منذ شهر .

ـ نعم ، ولكن لا من عند أبى ، لا من عنده ، اطمئنوا ! لم أسرقه من عنـــد أبى ، بل من عنـــدها . دعونى أروى لـــكم الوقائع دون أن تقاطعونى . انه لأمر قاس على نفسى أن أتكلم ، هل تفهمون ؟ منذ شهر ، نعم منذ شهر استدعتنى كاترين ايفانوفنا فرخوفتزيفا ، خطيبتى السابقة .. هل تعرفونها ؟

ـ كيف لا ؟

ـ أعلم أنكم تعرفونها . هذه انسانة ذات نفس نبيلة ، لا تضارعها فى نبلها أحد ... ولكنها كانت تكرهنى منذ زمن طويل ... طويل جداً ... وكان من حقها أن تكرهنى على كل حال ... هناك أسباب تحملها على كرهى .

سأله القاضى مندهشاً :

ـ كاترين ايفانوفنا ؟

وظهر الاستغراب على وكيل النيابة أيضاً .

قال ميتيا :

ـ أوه ! لا تذكروا اسمها بغير داعٍ الى ذلك ! ما كان أشقانى حين ذكرت اسمها هنا ••• نعم ، كنت أعلم انهـــا تكرهنى ••• منـــذ زمن طويل ••• منذ اليوم الأول ، فى مسكنها هناك ••• ولكن كفى ! كفى حديثاً فى هذا الأمر ! انكم لا تستحقون أن تعلموا هذه الأشياء ، ولا داعى الى ذكر هذه الأشياء على كل حال •• يكفيكم أن تعلموا أنها استدعتنى منذ شهر وأعطتنى ثلاثة آلاف روبل كلفتنى بأن أرسلها الى أختها والى قريبة أخرى لها بموسكو (أما كانت تستطيع أن تتولى ذلك بنفسها ؟) •• وأنا ••• كانت تلك الساعة هى بعينها الساعة الحاسمة فى حياتى ، كانت تلك اللحظة هى اللحظة التى •• الخلاصة •• هى اللحظة التى كنت قد أحببت فيها امرأة أخرى منذ قليل ، هى اللحظة التى كنت فيها قد أحببتها «هى» •• امرأة هذا اليوم •• تعلمون ••• تلك التى أودعت تحت ، جروشنكا •• فجئت بها الى هنا ، الى موكرويه ، فأنفقت خلال يومين من الاحتفـــال والقصف ، نصف ذلك المبـــلغ اللعين ، أعنى ألفاً وخمسمائة روبل ، واحتفظت بالنصف الآخر • فهذه الألف وخمسمائة روبل الباقية هى ما احتفظت به منذ ذلك الحين معلقا بعنقى مخيطا فى كيس • وقد فتحت الكيس أمس ، فأنفقت هذا المال فى القصف هنا • وان الثمانمائة روبل التى وضعتها فى مكان مأمون يا نيقولا بارفينوفتش هى كل ما بقى من الألف وخمسمائة روبل التى أخـــرجتها من الكيس أمس •

ـ اسمح لى ! هناك شىء ليس واضحا • فى المرة الماضية ، أعنى فى الشهر الماضى ، أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل لا ألفاً وخمسمائة • ذلك أمر يعرفه جميع الناس •

ـ من أين عرفوه ؟ من ذا الذى حسب نفقاتى ؟ أنا لم أطلع على ذلك أحداً •

ـ كيف ؟ لقد حكيت لكل انسان أنك أنفقت ثلاثة آلاف روبل •

ـ صحيح ، حكيت هذا ، بل لقد حكيته للمدينة كلها ، والناس يتحدثون عنه فى كل مكان ، وما من أحد الا ويعتقد اعتقادا جازما بأننى أنفقت ثلاثة آلاف روبل • وأهل موكرويه مقتنعون بهذا أيضا • ولكننى، مع ذلك ، لم أنفق فى الواقع الا ألفا وخمسمائة روبل ، ثم خطت باقى المبلغ فى كيس • تلكم هى الحقيقة أيها السادة ، ذلكم هو مصدر المال الكبير الذى كان فى حوزتى أمس •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول :

ـ يشبه هذا أن يكون من المعجزات •

وتدخل عندئذ وكيل النيابة فقال يسأل ميتيا :

ـ اسمح لى أن أسألك هل أفضيت بهذا السر الى أحد قبل هذا اليوم ••• أعنى : هل يعرف أحد أنك احتفظت بمبلغ الألف وخمسمائة روبل هذا ؟

ـ لم أفض بذلك الى أحد •

ـ غريب ••• لم تذكره لأحد فى العالم كله ؟

ـ فى العالم كله • لم أذكره لأحد البتة • أؤكد لك ذلك •

ـ فلماذا هذا السكوت ؟ ما هى الأسباب التى دفعتك الى الاحتفاظ به سراً لا يذاع ؟ سأشرح ما أريد أن أقوله • لقد كشفت لنا أخيرا عن سرك الذى تراه « مخزياً » الى هذا الحد فى نظرك ، رغم أن هذا الفعل ليس فى الواقع ـ اذا قيس بغيره طبعا ـ الا هفوة صغيرة • ان استيلاءك على مبلغ الثلاثة آلاف روبل التى عهد بها اليك وأؤتمنت عليها فاحتفظت بها لنفسك •• مؤقتاً ••• أنا متأكد من هذا ••• انما ينبغى أن يُعد طيشاً ، انما ينبغى أن يُعد خطأ مرده الى الخفة ، ولكنه ليس فعلاً يدنس الشرف ، ولا سيما اذا نظرنا بعين الاعتبار الى طبعك

••• فلنفرض أن هذا الفعل فعل يؤسف له •• وأنا أسلم بذلك ••• ولكنه ليس دناءة أو حقارة أو حطة أو ما أشبه ذلك ••• واعلم على كل حال أن كثيرا من الناس ، في هذه المدينة ، قد حزروا ، أثناء هذا الشهر، أنك بددت الثلاثة آلاف روبل التي ائتمنتك عليها الآنسة فرخوفتزيفا • لقد اشتبهوا فيك واعتقدوا أنك بددت المال ، رغم أنه لا أدلة على ذلك ، حتى لقد وصلت هذه الشائعة الى أسماعنا ، وعلم بها ميشيل ماكاروفتش أيضا ، فليس الأمر أمر سر اذن ، وانما هو كلام يقال ويردد في كل مكان ••• ويبدو من جهة أخرى كذلك أنك اعترفت أنت نفسك ذات مرة ، أثناء حديث خاص ، اذا لم يخطىء ظني ، بأن ذلك المبلغ مصدره الآنسة فرخوفتزيفا ••• لذلك استغرب أشد الاستغراب حين أرى حتى هذه الدقيقة أنك تولي هذه الألف وخمسمائة روبل ، فيما تدعي ، اهتماما خارقا وتضفي عليها خطورة عظيمة ، ولا أفهم البتة أن تجعلها سراً لاتتكلم عنه ، سراً مصحوبا بنوع من الهلع الأخلاقي ••• ليس من المعقول أن يسبب لك سر من هـــذا النوع عذابا كهـذا العـــذاب ، وأن يبدو لك الاعتراف به صعبا الى هـــذا الحد ••• ألم تعلن منذ قليـــل أنك تؤثر السجن على مجرد الاعتراف بالحقيقة ؟

سكت وكيل النيابة • وكان قد تحمس أثناء الكلام ، واشتعل فيه استياء متزايد يشبه أن يكون غضبا ، وساق كلامه دون اهتمام بالخطابة ، ودون كثير من التسلسل أيضا ، وانما كان يدع لأفكاره أن تنفجر انفجاراً في جمل مقطعة •

قال ميتيا بصوت جازم :

ـ ليس العار في الاستيلاء على هذه الثلاثة آلاف روبل ، بل العار في أنني ادخرت نصف هذا المبلغ ، أي ألفا وخمسمائة روبل !

فقال وكيل النيابة وهو يضحك ضحكة اغتياظ :

ـ حقا ؟ هلاَّ قلت لى أين العار فى أن تحتفظ بنصف المبلغ كنت قد استوليت عليه استيلاء غير لائق ، أو استيلاء مخزيا ان كنت تؤثر أن تصمه بهذه الصفة ؟ ان الأمر الهام هنا هو أنك حصلت على هذا المبلغ بطريقة ليس فيها كبير من الأمانة ، لا أنك تصرفت فى المال على هذا النحو أو ذاك من الأنحاء ! بالمناسبة : هل تستطيع أن تقول لى لماذا قسمت المبلغ نصفين ، وماذا كان هدفك من ادخار أحد النصفين ؟

صاح ميتيا يقول :

ـ ذلك بعينه هو الدرامه كلها ! لقد قسمت هذا المبلغ عن حقارة ودناءة ، أى عن حساب . ذلك أن الحساب هو بعينه الدناءة والحقارة فى مثل هذه الحاله ... وقد امتدت هذه الدناءة وهذه الحقارة على شهر بأسره !

ـ كلام لا يُفهم !

ـ أستغرب هذا منكم . ولكننى سأشرح ما أريد قوله . اننى أسلّم بأن كلامى قد يبدو من أول وهلة أنه لا يُفهم . فاصغوا الىّ وتابعوا ما أقول : لنفرض اننى استوليت على ثلاثة آلاف روبل اؤتمنت عليها ، فأنفقتها فى القصف الى آخر كوبك منها . ان فى امكانى أن أذهب الى آنستى فى الغد وأن أقول لها : « كاتيا ، اغفرى لى ، لقد بددت الثلاثة آلاف روبل التى ائتمنتنى عليها » . ليس هذا خيراً بطبيعة الحال ، وانما هو سوء أمانة ، وضعف خلق ؟ هو سلوك انسان لا يستطيع أن يسيطر على اندفاعاته . ولكننى فى هذه الحالة لن أكون سارقاً ، لن أكون لصاً . لن أكون لصاً بالمعنى الشائع لهذه الكلمة . هل توافقوننى على هذا ؟ لقد بددت المال الذى اؤتمنت عليه ، ولكننى لم أسرقه . فلنفرض الآن فرضاً ثانياً ، فرضا أفضل من الأول أيضا . تابعوا ما أقول ، والا فقد أرتبك من جديد . أن رأسى يدور قليلا ... اليكم الفرض الثانى : لنفرض أننى

أنفقت في القصف نصف المبلغ فقط ، أي ألفاً وخمسمائة روبل ، ولنفرض أنني ذهبت اليها في الغد حاملاً ما بقي من مال ، وقلت لها : « استردي مني المال يا كاتيا لأنني لست الا انسانا شقيا طائش العقل محموم الرأس • استردي نصف المبلغ الذي ائتمنتني عليه ، والا فقد أبدده كما بددت نصفه الأول • انني لا أريد أن أتعرض لهذه الغواية!»• فماذا أكون عندئذ ؟ أكون ما شئتم ، أكون شيطانا وأكون شقيا ، ولكنني لن أكون لصا ، لن أكون قد أصبحت لصا حقيقيا • لأنني لو أردت أن أسرق لما رددت الألف وخمسمائة روبل الباقية ، وانما كنت أحتفظ بها لنفسي • كانت ستدرك هي عندئذ أنني ما دمت أرد اليها نصف المبلغ ، فسأرد اليها النصف الثاني آخر الأمر ، في يوم من الأيام وأنني قد أظل أعمل عند الضرورة طوال حياتي مدخراً قرشا فوق قرش لأجمع المال الذي أنفقته في القصف فأرده اليها في ذات يوم • صحيح أنني أكون في هذه الحالة رجلا جبانا ، ولكنني لا أكون لصا ؛ أكون ما شئتم ، ولكنني لا أكون سارقا على الأقل •

قال وكيل النيابة بلهجة فيها سخرية باردة :

ـ لنسلم بأن هناك مجالاً للتمييز فعلاً • انني أظل أستغرب أن تضفي على هذا الفرق الزهيد دلالة تبلغ هذا المبلغ من شدة الخطورة وصفة المأساة !

ـ بالعكس • ليس هذا الفرق زهيداً بل هو فرق رئيسي • ان أي انسان يمكن أن يكون جبانا ، ولا شك أننا جميعا جبناء بدرجات متفاوتة• ولكن ليس كل انسان لصاً • لا بد من حقارة خاصة حتى يكون المرء لصاً • أحسب أنني لا أجيد التعبير لأنني تعوزني الرهافة ••• ولكن اللص أحقر الحقراء وأدنأ الأوغاد • تلكم هي قناعتي العميقة ! اصغوا الي • لقد حملت هذا المال في عنقي مدة أربعة أسابيع ، وكنت أستطيع

فى كل لحظة أن أذهب فأرد اليها هذا المال ، فلو فعلت لمـا كنت وغداً حقيرا ، أما وأننى لم أستطع أن أتخذ هــذا القرار ، فذلك هو الأمر الخطير ! كنت كلّ يوم أفكر فأقول لنفسى : « فرد أيها الشقى ، يجب أن ترد المال » • ولكن القرار لم يجىء ، وطالت القضية شهراً بأكمله • فما رأيكم ؟ ألعلكم ترون هذا جميلا ؟

أجابه وكيل النيابة بصوت مكظوم :

ـ أعترف بأن ذلك شر • أنا أفهم هذا حق فهمه ، ولا يخطر ببالى أن أجحده • ولكننى أقترح عليك مع ذلك أن تدع الكلام عن هــذه الفروق ، وأن تدع هذه الرهافة فى التمييز بين الأمور ، وأن تعود الى جوهر القضية • لأنك لم تقبل حتى الآن أن تشرح لنا ، فى الاجابة عن سؤالى ، السبب الذى دفعك الى أن تقسم هذا المبلغ نصفين فتنفق النصف الأول منه فى القصف وتحتفظ بالنصف الثانى معك • ماذا كان هدفك من ذلك ، وعلى أى غرض وقفت هــذه الألف وخمسمائة روبل التى احتفظت بها ؟ اننى أصرّ على هذا السؤال يا دمترى فيدوروفتش !

صاح ميتيا وهو يلطم جبينه :

ـ ها •• ولكن •• هذا صحيح •• معذرة •• اننى أعذبكم بهذه المناقشات بدلا من أن أشرح لكم جوهر الأمر • لقد نسيت أن أفعل ! سأقول لكم الآن فسرعان ما تفهمون • ذلك أن العار كله يكمن هنا • اسمعوا : لقد كان العجوز ، المتوفى ، يلاحق أجــرافين ألكسندروفنا بالحاحه ولجاجته ، وكنت أشعر أنا بغيرة شديدة • وكنت أتخيل فى ذلك الحين أنها مترددة بينى وبينه لا تعرف أتختارنى أم تختاره ، فكنت أتساءل كل يوم : « ما عسى يحدث اذا هى حزمت أمرها فجأة وكفت أخيرا عن تعذيبى وصارحتنى قائلة : أنت الذى أحبه لا هو ، فلنسافر ••• خذنى الى مكان بعيد ، الى أبعد مكان تســتطيع أن تأخذنى اليه ! » • كنت

أتساءل ما عسى يحدث عندئذ وأنا لا أملك فى جيبى الا بضعه كوبكات ! أين لنا المال الذى نسافر به ؟ ما عساى فاعلاً حينذاك ؟ كان ذلك هو الهوة ، هو اليأس ! لاحظوا أننى لم أكن قد عرفتها حق معرفتها فى ذلك الأوان . كنت أظن أنها لا تستغنى عن المال ، وأنها لن تغفر لى فقرى . ذلكم هو السبب الذى من أجله قررت ، جبانا ، أن أحتفظ بنصف الثلاثه آلاف روبل ، وأن أخيط المبلغ فى كيس . وذلك ما فعلته ببرود ، بحساب ، من قبل أن أسكر ! وبعد ذلك ، بعد أن طويت الكيس وخطته، انما سافرت ألهو وأقصف بالألف وخمسمائة روبل الأخرى . لا ... لا ... لقد كان ذلك حقارة ودناءة وخسة . هل فهمتم الآن ؟

انفجر وكيل النيابة وقاضى التحقيق فى ضحك صاخب . وقال نيقولا بارفينوفتش ساخرا :

ــ فى رأيى أن قرارك كان عين العقل ، بل وعين الأخلاق ، على عكس ما تقول ، ما دمت قد عرفت كيف تعتدل فلا تنفق المال كله دفعةً واحده . أين فى هذا ما يثير السخط ؟

ــ أننى سرقت ، هنا الحقارة ! آه ... يا رب ! ان عجزكم عن الفهم يروّعنى ! كنت أثناء حملى هذه الألف وخمسمائة روبل فى عنقى ، أردد على نفسى كل يوم وكل ساعة : « أنت لص ، أنت لص ! ». وبسبب هذا العار الذى يرهقنى ، بسبب هذا الشعور بأننى سارق ، انما كنت شرسا تلك الشراسة كلها عنيفا ذلك العنف كله خلال هذا الشهر الأخير . ذلكم هو السبب فى أننى تشاجرت واقتتلت فى الكاباريه ، وأننى ضربت أبى . وحتى أليوشا أخى لم أجرؤ أن أعترف له بالحقيقة فى موضوع الألف وخمسمائة روبل ، فالى ذلك الحد كنت أشعر بالحقارة والدناءة ! ولاحظوا أيضا اننى طيلة مدة احتفاظى بالمال المودع فى الكيس سليما لا أمسه ، كنت أستطيع أن أقول لنفسى كل يوم وكل ساعة :

« لا يا دمترى فيدوروفتش ، ربما لم تكن لصا ! » . لماذا ؟ لأننى كنت استطيع فى كل لحظة أن أذهب الى كاتيا فأرد اليها هذا المال . وأمس فقط ، بعد أن تركت فينيا ، وفى طريقى الى منزل برخوتين ، انما قررت أن أفض ّ الكيس . أما قبل ذلك فلم أستطع أن أحزم أمرى . ولكننى منذ تلك اللحظة قد أصبحت لصاً بالفعل ، لصا لا يمكن انكار انه لص ؛ أصبحت رجلاً فقد شرفه الى آخر الحياة . لأننى حين مزقت الكيس قد مزقت فى الوقت نفسه أملى فى أن أذهب الى كاتيا وأن أقول لها : « أنا جبان ... هذا صحيح ... ولكننى لست لصاً » . هل تفهموننى الآن أيها السادة ؟

ــ فلماذا اتخذت قرارك هذا أمس ؟

ــ لماذا ؟ يدهشنى سؤالكم ! لقد اتخذت قرارى لأننى عزمت على الانتحار ، فى هذا المكان ، عند الفجر . قلت لنفسى : « ما قيمة أن اموت شريفا أو وغداً بعد الآن ؟ » . ولكننى أدركت أن الأمرين لا يستويان.. صدقونى أيها السادة ! ان العذاب الأكبر الذى عانيته فى هـــذه الليلة الرهيبة لم يكن شعورى بأننى قتلت الخادم العجوز ، ولا تصورى اننى سأُحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة . لا ... صحيح أنه أمر رهيب أن أرحل الى السجن فى اللحظة التى أخذ فيها حبى ينتصر ، فى اللحظة التى انفتحت فيها سماوات السعادة أمامى ... ولكن ذلك لم يكن عذابى الأكبر ... ولا كان يساوى ، على الأقل ، عذابى من تصور أننى فتحت ذلك الكيس اللعين ، وأتلفت ذلك المبلغ المنحوس ، وأصبحت بهذا لصاً الى الأبد ! أيها السادة ، اننى وقدتهدمت الى أعمق أعماق كيانى ، أعود فأقول لكم : لقد تعلمت أشياء كثيرة فى هذه الليلة . لم أتعلم فقط أنه أمر لا يطاق أن يعيش المرء جبانا ، وانما تعلمت أيضا أنه أمر مستحيل أن يموت المرء وغداً حقيراً ... لا ، لا يمكن أن يموت المرء الا وهو

يشعر انه انسان شريف ! •••

كان ميتيا شاحب اللون ، مشدود العضلات ، وكان وجهه المتقبض على ألم يبدو كأنه خلا من الدم ، رغم أنه قد تحمس أثناء الكلام •

قال وكيل النيابة بلهجة ملطفة فيها شيء من عطف ، قال ببطء :

ـ بدأت أفهمك يا دمترى فيدوروفتش • ولكننى أعتقد أنك تبالغ قليلا ، وأن أعصابك ، أعصابك المريضة ، هى السبب الحقيقى لعذابك•• هيم ••• فمثلاً : لماذا لم يخطر ببالك ، حتى تتخلص من الآلام النفسية التى قاسيت منها خلال شهر بأكمله ، لماذا لم يخطر ببالك أن تذهب الى تلك الانسانة التى ائتمنتك على ذلك المبلغ لترد اليها الألف وخمسمائة روبل ؟ ألا يكون أبسط من هذا كله ، بعد أن تشرح لها الخطيئة التى ارتكبتها فى لحظة ضلال ، أن تعمد الى حل يخطر على البال من تلقاء نفسه ، وكان يمكن أن يخرجك من المأزق الذى كنت فيه كما تقول ؟ لقد كان فى وسعك ، بعد أن تعترف لها اعترافا مليئــا بالنبل ، كان فى وسعك أن تطلب اليها أن تقرضك المبلغ الذى كنت فى حاجة اليه ؟ وانى لعلى يقين ، لمعرفتى بسمو نفسها ، أنها ما كان لها أن ترفض اقراضك ذلك المبلغ ، ولا سيما وأنت فيما أنت فيه من ضياع نفسى ••• خاصةً وأنك كنت تستطيع أن توقع لها سنداً أو أن تقدم اليها الضمانات التى عرضتها على التاجر سامسونوف ، وعلى السيدة هوخلاكوفا أيضا ! أظن طبعا أنك ما تزال تعد تلك الضمانات موثوقة تماما •

احمر وجه ميتيا فجأة • ثم هتف يقول مستاءً وهو يحدّق الى عينى وكيل النيابة تحديق من يشك فى أن يكون وكيل النيابة قد فهم الموضوع:

ـ هل يُعقل أن تتصورونى منحطاً الى هذه الدرجة ؟ أنا لا أستطيع أن أصدق أنكم تتكلمون جادين !

فدهش وكيل النيابة هو أيضا ، وانبرى يقول له :

ـ أؤكد لك انني جاد كل الجد • لماذا تشك في ذلك ؟

ـ عجيب ! لو قد فعلت ذلك لكان حطة ً ما بعدها حطة ! هل تعلمون أيها السادة أنكم تعذبونني تعذيبا رهيبا ؟ طيب ! سأقول لكم كل شيء ، انني أذعن لارادتكم فأقول لكم كل شيء • سأتيح لكم أن تروا الحقيقة لجهنمية ؛ فتعرفوا ، لتشعروا أنتم أنفسكم بالعار والخزي ، الى أي جبن يمكن أن ينحدر ضمير انسان • ان هذا الحل الذي ذكرته الآن يا سيادة وكيل النيابة قد خطر ببالي • نعم يا سادتي ! لقد فكرت في هذا الحل أيضا خلال هذا الشهر المنحوس ، وكنت على وشك أن أذهب الى كاتيا من فرط حطتي وصغاري ، أذهب اليها فأعترف لها بخيانتي ، ثم أطلب اليها بعد ذلك الاعتراف ، أن تقرضني مالاً لأنفذ هذه الخيانة ، لأسدد النفقات التي كانت ستقتضيها هذه الخيانة • أطلب مالاً منها هي ، كاتيا ، أطلب ، أتضرع ، هل تسمعون ؟ ثم أهرب مع امرأة أخرى ، مع غريمتها ، مع امرأة تكرهها ، امرأة أساءت اليها وأهانتها • ألا انك لمجنون يا سيادة وكيل النيابة !

ـ أما أن أكون مجنونا ، فقد لا أكون مجنونا ؛ ولكنني أثناء احتدام النقاش لم يخطر ببالي عنصر الغيرة النسوية هذا اذا افترضنا أن من الممكن أن يكون ثمة غيرة في هذه الحالة كما تقول ••• والحق أن من واجب المرء أن لا يغفل عن عاطفة من هذا النوع •••

كذلك ختم وكيل النيابة كلامه بلهجة ساخرة •

زأر ميتيا يقول وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية :

ـ ان عملاً كهذا العمل يكون فيه من الصغار والحطة والدناءة ، ويبلغ من شدة ما يبعثه في النفس من اشمئزاز ، أنني قد تراجعت عنه أنا نفسي ! هل تعلمون أنه كان يمكن جدا أن تعطيني ذلك المال ؟ أنا على يقين من أنها كانت ستعطيني ذلك المال ، بدافع الانتقام ، انتلذذ بالثأر،

لتظهر لى احتقارها ، لأنها هى أيضا نفس جهنمية عنيفة غضوب ! وكنت سآخذ منها المال ، هذا أكيد ، فأظل طول حياتى ... أوه ... رباه ! معذرة يا سادتى ! لئن صرخت الآن ، فلأن هـذه الفكرة الكريهة قد ساورتنى ، ساورتنى أمس الأول ، بينما كنت أتخبط ليلاً قرب لياجافى ... وعاودتنى أمس مرة أخـرى .. نعم .. اننى أتذكر هـذا .. وحاصرتنى طول النهار الى حين وقوع ذلك الحادث .

ــ أى حادث ؟

كذلك تدخل يسأله نيقولا بارفينوفتش مستطلعاً ، ولكن ميتيا لم يأبه لسؤاله . وختم متيا كلامه يقول مظلم الوجه :

ــ لقد قدمت اليكم اعترافاً رهيباً ، فاقدروه حق قدره أيها السادة ، بل انه لقليل أن تقدروه حق قدره فحسب ، وانما ينبغى لكم أن تعترفوا بقيمته ... والا ... اذا انزلق هذا الاعتراف على صفحة نفوسكم دون أن يؤثر فيكم ، فيجب أن نسلم عندئذ بأنكم لا تضمرون لى أى احترام ، انكم تحتقروننى ؟ ولأموتنّ عندئذ من شعورى بالعار لأننى فتحت قلبى لأناس مثلكم . لأطلقنّ عندئذ رصاصةً فى رأسى ! ولكننى أرى أنكم لا تصدقوننى ، أرى ذلك ! ماذا ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً ؟

هكذا صاح ميتيا مروّعاً جداً . فأجاب نيقولا بارفينوفتش يقول وقد أدهشه قلق ميتيا :

ــ لن نسجل الا التصريح الذى أدليت به الآن ... سنسجل انك كنت تنوى ، حتى الدقيقة الأخيرة ، أن تذهب الى الآنسة فرخوفتزيفا لتقترض منها هذا المبلغ ... تلك واقعة هامة جداً بالنسبة الينا يا دمترى فيدوروفتش ... صدقنى ... هذه التفاصيل كلها هامة ... ولا سيما بالنسبة اليك ، اليك أنت .

SS

هنف ميتيا يقول وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى متوسلاً :

ـ أضرع اليكم يا سادتى ! اعدلوا عن تسجيل ما ذكرته لكم الآن ، اعدلوا عنه من باب الحياء والخفر على الأقل ! لقد فتحت لكم نفسى ، فاذا أنتم تسرعون فتغمسون فيها أيديكم لتنبشوا آلامى . آه ... رباه !

قال ذلك وأخفى وجهه بيديه كمداً وكرباً وقنوطاً !

فتدخل وكيل النيابة يقول :

ـ اطمئن يا دمترى فيدوروفتش . ان كل ما نسجله الآن سيُقرأ عليك بعد ذلك ، وسنعدّل عندئذ الفقرات التى لا توافق عليها متقيدين بما تذكره . ولكن يجب علىّ الآن ، مرةً ثالثة ، أن ألقى عليك سؤالاً صغيراً : هل يُعقل فعلاً أن لا يكون أحد ، أن لا يكون أحد على الاطلاق ، قد علم بوجود ألف وخمسمائة روبل مخيطة فى الكيس ؟ اعترف لك بأن هذا يبدو لى غير معقول كثيراً ...

ـ قلت ان أحداً لم يعلم بهذا الأمر . لم أحك هذا الأمر لأحد . اذن لم تفهموا شيئاً البتة ! دعونى وشأنى أخيراً .

ـ طيب . لن ألح . سيكون علينا أن نوضح هذه النقطة ، ولكن ما يزال لدينا وقت كثير . على اننى أرجوك أن تفكر فيما يلى : ان عندنا عشرات من الشهود سيشهدون جميعاً بأنك كنت تروى أنت نفسك ، حتى لتكاد تصيح بذلك صياحاً من فوق سطوح المنازل ، أنك قد أنفقت فى القصف فى المرة الماضية مبلغ ثلاثة آلاف روبل ، لا ألف وخمسمائة وحتى فى هذه المرة ، قلتَ لعدة أشخاص بصدد المال الذى أصبح فى حوزتك فجأة ، انه يبلغ ثلاثة آلاف روبل أيضاً ...

صاح ميتيا يقول :

ـ الشهود ؟ ستجدون من الشهود مئات لا عشرات ! سيجىء مائتا شخص يؤكدون ذلك ، وربما جاء ألف شخص . ستجدون من الشهود ما تشاءون .

SS

ـ هأنت ذا ترى اذن •لقد سمعك جميع الناس تقول هذا الكلام • وهم جميعاً يؤكدونه اليوم • هل تفهم ماذا تعنى كلمة « جميع الناس » هذه ؟

ـ لا تعنى شيئاً ! أنا كذبت وكرر الناس كذبتى •••

ـ فلماذا « كذبت » ؟ على حد تعبيرك •••

لا يعلم ذلك الا الشيطان ! لعلنى كذبت افتخاراً ••• أو لأسباب أخرى ••• لألمع بالكلام عن قصـــف بلغ ذلك المبلغ من البذخ ••• أو لأنسى ذلك المال المخيط فى الكيس ••• نعم ، ذلك هو ، ذلك هـو الباعث الحقيقى الذى دفعنى الى الكذب ••• أنا أحس هذا ! ••• الى الشيطان على كل حال ! انكم تعودون فتلقون علىّ نفس الأسئلة • لقد كذبت وكفى ! هذا كل شىء • هل يعلم أحد ما الذى يمكن أن يدفع الانسان الى الكذب ، فى بعض الأحيان ؟

قال وكيل النيابة بصوت رزين :

ـ حقاً ان من الصـعب ان يعرف المرء ما قد يدفع الانســان الى الكذب • ولكن قل لى : ماذا كانت ابعاد الكيس الذى كنت تحمله معلقاً برقبتك ؟ هل كان كبيراً !

ـ لا ، لم يكن كبيرا البتة •

ـ ماذا كانت أبعاده تعريباً ؟

ـ أبعاد ورقة المائة روبل حين تطوى الورقة نصفين •

ـ هل بقيت لك منه قطع ؟ هل تستطيع أن ترينا تلك القطع ؟

ـ قطع الكيس ؟ أتريد أن تضحك ؟ اننى لا أدرى ما الذى صارت اليه •

ـ عجيب ! أين ومتى نزعت الكيس عن عنقك ؟ لقد صرّحت أنت نفسك بأنك لم ترجع الى منزلك •

ـ نزعته أثناء الطريق بعد أن تركت فينيا لأذهب الى برخوتين • نزعته عن عنقي وأخرجت منه المال •

ـ فى الظلام ؟

ـ هل كان عليّ أن أشعل شمعة ؟ لقد توصلت اليه باللمس فى مثل لمح البصر •

ـ فى الشارع ؟ بدون مقص ؟

ـ نعم • تمّ ذلك فى الميدان اذا لم يخطىء ظنى • ما الداعى الى مقصٍ حين يراد تمزيق خرقة عتيقة بالية ؟ لقد تمزقت من تلقاء نفسها •

ـ ماذا فعلت بتلك الخرقة بعدئذ ؟

ـ رميتها •

ـ أين ؟

ـ عجيب ! فى الميدان ! أنّى لى أن أتذكر المكان الذى رميت فيه الخرقة على وجه التحديد ؟ لماذا هذه الأسئلة ؟

ـ ذلك هام جدا يا دمترى فيدوروفتش • ألا تفهم أن هذه الخرقة يمن أن يكون وثيقة اثبات لصالحك ؟ من ساعدك فى خياطة الكيس على المال ، منذ شهر ؟

ـ لم يساعدنى أحد • قمت بذلك وحدى •

ـ أأنت تعرف اذن أن تخيط ؟

ـ لا بد أن يعرف الجندى كيف يخيط • ثم ان هذا لا يحتاج الى أية براعة •

ـ أين وجدت القماش ، أعنى تلك الخرقة التى خطتها على المال ؟

ـ أأنتم تسخرون منى ؟

ـ أبدا • ثق أننا لا نرغب فى الضحك أية رغبة يا دمترى فيدوروفتش !

ـ لا أتذكر من أين أخذت تلك الخرقة • لا بد أنني لمتهـا من مكان ما •

ـ كيف يمكن أن تنسى ذلك ؟

ـ أحلف لكم أنني لا أعرف • لعلني قد مزقت أحد الملابس •

ـ هذا شيء هام • قد نعثر غدا في منزلك على ذلك اللباس الممزق الذي انتزعت منه قطعة ، وربما كان قميصا من قمصانك ••• ما نوع نسيج تلك الخرقة ؟ أكانت من كتان أم كانت من قطن ؟

ـ أأنا أعرف ؟ لحظة •• لا ••• لم تكن قطعة قماش منتزعة من أحد الملابس •• كانت الخرقة من قماش خاص •• أظن أنني خطت المال في طاقية لصاحبة المنزل الذي أقيم فيه •

ـ لصاحبة المنزل الذي تقيم فيه •

ـ نعم ، اختلست هذه الطاقية من عندها ؟

ـ اختلستها ؟

ـ أظن أنني أتذكر فعـلاً أنني في ذات يوم أخـذت طاقية من عندها • كنت في حاجة الى خرقة ، ربمـا لأمسح قلمي ، فأخذت تلك الخرقة دون أن أقول لأحد ، لأنها طاقية لا قيمة لها ••• طاقية عتيقـة من قماش قطني غُسل وأعيد غسله مائة مرة ••• وظلت الطاقية ملقاة في غرفتي مـنذ ذلك الحـين ••• فلمـا أردت أن أخبيء تلك الألف وخمسمائة روبل ، تناولت الطاقية وخطتها على المال •••

ـ هل تتذكر هذا تذكراً واضحاً ؟

ـ لا أدري هل هذه الذكرى واضحة جداً • يخيّـل اليّ انها الطاقية ••• ولكن ما قيمة هذا !

ـ في هذه الحالة ستستطيع صـاحبة المنزل أن تذكر انها افتقدت طاقية ، أليس كذلك ؟

ـ لا ... أبداً . انها لم تلاحظ غياب الطاقيه . تلك خرقة عتيقة غير ذات فائدة ...

ـ والابرة ؟ من أين أخذت الابرة ؟ والخيط ؟

ـ أتوقف عن الكلام . أرفض الجواب عن مثل هذه الأسئلة . كفى !

كذلك حسم ميتيا المناقشة وقد نفد صبره .

ـ انه لغريب حقاً أن تنسى في أى مكان على وجه الدقة رميت ذلك الكيس في الميدان !

ـ ليس عليكم الا أن تأمروا بكنس الميـــدان غداً ، فربما عثرتم عليه .

بهذا أجاب ميتيا ساخراً . ثم أردف يقول بصوت متعب مكدود :

ـ هذا يكفى أيها السادة ، يكفى ويزيد . انني لأرى رؤية واضحة أنكم لا تصدقونني ! انكم لم تصدقوا كلمة واحدة مما كنت أقول . وذلك خطئى أنا لا خطؤكم أنتم : كان عليَّ أن أصمت بدلاً من أن أفضى بذات نفسى أمامكم في غباء وبلاهة . آه ... لماذا ، لماذا أسففت ذلك الاسفاف فكشفت لكم عن سرّى ؟ انكم لا تزبدون على أن تضحكوا من ذلك ، أنا أقرأ هذا في نظراتكم . أنت الذى دفعتنى الى الكلام يا وكيل النيابة . أنتم الآن منتصرون أيها الجلادون المناحيس !

قال ميتيا ذلك ، وخفض رأسه وأخفى وجهه في يديه . وصمت وكيل النيابة وقاضى التحقيق . وبعد دقيقة ،رفع ميتيا رأسه ونظر اليهما فارغ العينين . ان قسمات وجهه تعبر في هذه المرة عن يأس كامل لا برء منه ؛ وظل جامداً على كرســـيه لا ينطق بكلمة واحدة كأنه غائب عن نفسه . وكان لوقت أثناء ذلك ينقضى ، فلا بد من الانتهاء ، ولا يمـــكن تأخير سماع الشهود مزيداً من التأخير . لقد دقت الســـاعة الثامنة من

الصباح ، وذابت الشموع منذ زمن طويل • وهذا ميشيل ماكاروفتش وكالجانوف اللذان غابا عن العرفه مراراً أثناء الاستجواب ، يخرجان الآن من جديد • وان وكيل النيابة وقاضى التحقيق يبدوان متبعين هما أيضاً الى أقصى حدود التعب • والصباح كالح مكفهر ، والسماء تغطيها الغيوم ، والأمطار تهطل سيولاً غزيرة • وميتيا ينظر من خلال النافذة كالآلة •

قال ميتيا يسأل نيقولا بارفينوفتش :

ـ هل أستطيع أن ألقى نظرة من النافذة ؟

فأجابه هذا بقوله :

ـ ما شئت أن تنظر •••

فنهض ميتيا واقترب من النافذة • المطر ينهمر على الزجاج انهماراً قوياً • وأمام المنزل يُرى طريق قذر ؛ وبعد الطريق ، فى الضباب الماطر ، تُلمح الكتل السوداء البائسة ، كتل الأكواخ التى تبدو فى المطر ملفعة بمزيد من الجهامة والحزن • فكر ميتيا فجأة فى « فيبوس ذى الضفائر الذهبية » ، وفيما كان قد عقد عليه عزمه من انتحار عند الفجر • فقال فى نفسه وهو يبتسم ابتسامة مرة : « هذا صباح كان يناسب مشروعى جداً » ثم طرد هذه الرؤيا بحركة عريضة من يده ، والتفت الى جلاديه وصاح :

ـ أيها السادة ، أرى أننى ضعت • ولكن ماذا عنها هى ؟ قولوا لى ، أضرع اليكم ، هل سيكون عليها أن تهلك معى • انها لا شأن لها بالأمر ؛ وفى لحظة من ضلال انما اتهمت نفسها أمس بأنها « مسئولة عن كل شىء » • هى لم ترتكب أى خطيئة ، هى غريبة عن هذه الدرامة كل الغرابة • لقد تألمتُ طوال الليل وأنا أفكر فيها بينما كنتم تستجوبوننى •• ألا تستطيعون أن تقولوا لى ما هو المصير الذى ينتظرها ؟

بادر وكيل النيابة يجيبه :

ـ اطمئن عنها يا دمترى فيدوروفتش . ليس هناك حتى الآن أى سبب يدعونا الى اقلاق الانسانه التى تهتم بها هذا الاهتمام كله ، وأرجو أن تضعها نهاية التحقيق فى خارج القضية نهائيا ... وسنعمل من جهتنا كل ما فى وسعنا فى سبيلها . فلا تخش عليها شيئا !

ـ شكراً ياسادتى . كنت أعلم حق العلم فى الواقع أنكم رغم الظروف أناس عادلون شرفاء . لقد أزحتم عن صدرى عبئاً ثقيلاً ... ماذا أنتم صانعون بى الآن ؟ اننى مستعد .

ـ لم يبق لنا وقت نضيعه . يجب أن نبادر الى سماع الشهود حالا، وهذا لا يكون الا بحضورك . لذلك ..

قاطع نيقولا بارفينوفتش قائلاً :

ـ ألا يكون من الأفضل أن نحتسى فنجانا من الشاى أولاً . أحسب أننا نستحق فنجانا من الشاى !

وتقرر احتساء شىء من الشاى اذا وجد شاى ساخن تحت (وهذا مرجح ، والا فهل كان يتغيب ميشيل ماكاروفتش الا لطلب الشاى ؟). وبعد الشاى يُستأنف الاستجواب ويتابَع بلا كلال . أما الافطار بمعنى كلمة الافطار ، أما الافطار مع « الزاكوسكى » * فيؤجل الى ما بعد . واتضح أن هناك شاياً مهياً بالفعل تحت ، فجىء بالشاى الى الغرفة . رفض ميتيا فى أول الأمر أن يتناول الكأس التى مدّها اليه نيقولا بارفينوفتش بكثير من اللطف والمودة ، ولكنه عدل عن رأيه بعد لحظة فتناول الكأس واحتسى الشاى بشراهة . كان يبدو مرهقا ارهاقا غريبا. ما كان لليلة قصف ، ولو حفلت بانفعالات عنيفة ، أن تهدم هذا التهديم رجلاً له مثل قوة جسمه . ولكن ميتيا كان لا يكاد يستطيع الثبات على كرسيه ، وكانت الأشياء الموجودة فى الغرفة تدور أمام عينيه فى بعض اللحظات . قال يحدث نفسه : « لحظات ثم أهذى » .

٨

أقوال الشهود . الصبيّ

بدأ استجواب الشهود • ولكننا لن نذكر هنا جميع تفاصيله ، كما فعلنا باستجواب ميتيا • لن نحكى اذن كيف أوضح نيقولا بارفينوفتش لكل شاهد أن من واجبه أن يقول الحقيقة كاملة ، وأنه سيحمل فيما بعد على أن يكرر أقواله معززة بحلف اليمين ؛ لا ولن نصف الشكليات الاجرائية، كتذييل الشهود لمحضر استجوابهم بتوقيعهم. وحسبنا أن نشير الى أن الأسئلة التى ألقيت على مختلف الأشخاص انما دارت فى الدرجة الأولى على الثلاثة آلاف روبل : لقد طُلب من الشهود أن يقولوا هل أنفق دمترى فيدوروفتش ، فى موكرويه ، أثناء سهرة القصف السابقة ، فى الشهر الماضى ، ثلاثة آلاف روبل أم هو أنفق ألفاً وخمسمائة فحسب ، وهل كان معه فى الليلة البارحة ، فى أول سهرة القصف الثانية هذه، هل كان معه ثلاثة آلاف أم كان معه ألف وخمسمائة. واحزناه ! لقد شهدوا جميعا عليه ولم يشهد أحد له • حتى أن عددا منهم ذكروا قرائن جديدة قوية تكذب دعاواه •

وكان تريفون بوريستش أول من سُمعت شهاداتهم • تقدم أمام القضاة دون أن يبدو عليه أى خجل ، فهيئته هيئة رجل مستاء أعمق الاستياء من سلوك المتهم ، وهذا ما أضفى على تصريحاته طابعا قويا من

الصدق ، وأتاح له أن يصطنع أوضاعا فيهـــا كثير من الكرامة والمهابة والوقار • وكان موجزاً فى كلامه ، متحفظا فى أقواله ، ينتظر الأسئلة بدلاً من أن يستبقها ، ولكنه أجاب عن كل ســـؤال بكثير من الدقة والروية والتأمل • وقد أكد بلا تردد أن المبلغ الذى أُنفق فى الشـــهر الماضى لا يمكن أن يقل عن ثلاثة آلاف روبل ، وأن جميع فلاحى المنطقة قد سمعوا رقم الثلاثة آلاف ينطقه « دمترى فيدوروفتش » بلسانه نفسه، وانه يكفى أن يُسألوا عن ذلك • وختم صاحب النزل كلامه بقوله :

ـ لقد أنفق على الغجر وحدهم ثروة طائلة ، أعطى النساء ألف روبل فى أقل تقدير •

فعلق ميتيا على ذلك قائلاً وهو مظلم الوجه :

ـ لم أكد أعطيهم خمسمائة روبل • من المؤسف أننى لم أحسب، لأننى كنت ثملاً ، ولولا ذلك •••

كان ميتيا جالسا عندئذ فى جانب ، جاعلاً ظهره الى الستائر ، وكان يبدو كالح الوجه حزين النفس متعب الجسم ، يستمع الى أقوال الشهود مستسلما مذعنا بغير انفعال ، فكأنه يقول لهم : « هيَّا ••• قولوا ماشئتم •• يستوى عندى كل شىء بعد الآن ! » •

ردَّ عليه تريفون بوريستش قائلاً بلهجة حازمة :

ـ لقد كلفوك أكثر من ألف روبل يا دمترى فيدوروفتش • كنت ترمى اليهم المال بدون حساب ، وكانوا يلتقطونه من الأرض • ان هؤلاء الغجر أوغاد ••• ذلك معروف •• هم لصوص خيل ••• وقد طُردوا من المنطقة ، ولولا ذلك لكان يمكن أن يؤتى بهم ليقولوا كم سلبوك فى تلك الليلة • لقد رأيت بعينى الحزمة التى كنت تمسكها بيديك • ولئن لم أعدَّ الأوراق المالية التى كانت تضمها الحزمة ، لأنك لم تتح لى ذلك، فاننى أتذكر أنها كانت تضم أكثر كثيرا من ألف وخمسمائة روبل ، اذا

SS

صدق النظر •• أكثر كثيرا على كل حال ! أتظن أننا لم نر مبالغ ضخمة في حياتنا ••• اننا نستطيع نحن أيضا أن نقدر ما تضمه حزم الأوراق المالية •••

أما عن المبلغ الذى جاء به ميتيا فى الليلة البارحة فقد صرح تريفون بوريستش بلهجة قاطعة لا تقبل الجـــدل بأن ميتيا ما ان نزل من عربة الترويكا حتى قال له ان معه ثلاثة آلاف روبل •

فحاول ميتيا أن يحتج قائلاً :

ـ ما هذا يا تريفـون بوريستش ؟ أأنا زعمت بمثل هـــذا القطع والجزم ان معى ثلاثة آلاف روبل ؟

ـ أنت قلت ذلك يا دمترى فيدوروفتش ! وقد قلته بحضور آندره• وهو ما يزال هنا لم ينصرف ، فاسألوه • وبعد ذلك بقليل صحت تقول فى القاعة ، وأنت تغدق على أفراد الجوقة ، انك تنفق هنا الألف السادس من الروبلات ، جاعلاً الثلاثة الآلاف الأولى فى حسابك طبعا • ولقـد سمع كلامك ستيفان وسيمون ، وسمعه بطرس فومتش الذى كان الى جانبك عندئذ ، فلعله يتذكره هو أيضا •••

اهتم القضاة بهذا التصريح المتعلق بالألف السادس من الروبلات اهتماماً شـديداً • ان هذه المعـادلة الجديدة تخلب عقولهم : ثلاثة آلاف فى المرة الأولى + ثلاثة آلاف فى هذه المرة = ستة آلاف فعلاً •

واستجوب الفلاحان اللذان ذكرهما تريفـون بوريستش ، وهمـا ستيفان وسيمون ، واستجوب الحوذى آندره ، واستجوب كذلك بطرس فومتش كالجانوف • فأما الفلاحان والحوذى فقد أيَّدا تصريحات صاحب النزل بلا تردد • وقد سُجِّلت ، بوجه خاص ، التفاصيل التى أوردهـا آندره عن الحديث الذى جرى بينه وبين ميتيا أثناء الطريق حين سأله ميتيا : « هل سيذهب ، هو دمترى فيدوروفتش ، الى جهنم أم الى الجنة،

وهل سيُغفر له فى السماء أم لا » • وقد تذكر هيبوليت كيريلوفتش فى هذه المناسبة مواهبه الرفيعة فى « النفاذ السيكولوجى » ، فاستقبل ما رواه آندره بابتسامة مفهومة ، وأمر بضم هذا التصريح الى ملف القضية •

واستُدعى بعد ذلك كالجانوف ، فدخل القاعة وقد بدا فى وجهه التململ والضجر والتجهم ، وأظهر أثناء الاستجواب كثيرا من النزوات وأبدى كثيرا من سرعة الغضب • تحدث مع وكيل النيابة وقاضى التحقيق حديثه مع أناس يراهم لأول مرة ، مع أنه يعرفهما منذ زمن طويل ، ومع أنهما التقى بهما مرارا فى المجتمع • وقد بدأ كلامه بقوله « انه يجهل كل شيء عن هذه القضية ، ولا يحب أن يقحم نفسه فيها » • ولكنه اضطر أن يوافق على أنه سمع صيحة ميتيا فى موضوع الألف السادس من الروبلات ، وأنه كان الى جانبه فى تلك اللحظة • فلما سئل كم كان مع ميتيا من المال قال : « لا أعرف عن هذا شيئاً » • وأكّد فى مقابل ذلك أن الرجلين البولنديين قد غشّا أثناء اللعب بالورق • وذكر كذلك ، بعد الحاح القضاة عليه الحاحاً متكرراً، أن ميتيا قد حظى، بعد طرد البولنديين، برضى أجرافين ألكسندروفنا ، وأن أجرافين الكسندروفنا قد أكدت أنها تحبه • وقد تكلم كالجانوف عن أجـــرافين ألكســندروفنا بلهجة فيها احتشام واحترام، ولم يسمح لنفسه مرةً واحدة بأن يسميها «جروشنكا». ورغم الانزعاج الواضح الذى كان يحسه هذا الشاب من اضطراره الى الادلاء بشهادته ، فان هيبوليت كيريلوفتش ظل يستجوبه مدة طويلة ، حتى علم منه جميع التفاصيل التى تألفت منها خلال الليل « رواية » ميتيا• وقد ترك ميتيا للشاب كالجانوف أن يتكلم دون أن يقاطعه ، وصُرف الشاب أخيرا ، فابتعد دون أن يخفى استياءه وامتعاضه •

واستجوب البولنديان أيضا • كانا قد استقرا للنوم فى الغرفة التى حُبسا فيها ، ولكن لم يغمض لهما جفن طوال الليل ، وأسرعا يرتديان ثيابهما حين سمعا وصول القضاة ، لأنهما كان يقدّران أنهما سيستدعيان

للادلاء بشهادتهما • تقدما نحو القضاة برصانة ووفار ، ولكن بشيء من الخوف والخشية مع ذلك • وعُرف عندئذ أن « السيد » الصغير الذى كان يبدو أنه هو الشخصية الهامة من الشخصيتين ، موظفٌ محال على التقاعد من الدرجة الثانية عشرة ، قد خدم فى سيبريا طبيبا بيطريا • وأن اسمه موزيالوفكتش • أما « السيد » فروبلفسكى فقد صرح بأنه «طبيب أسنان حر » ، وهذا اصطلاح يعنى فى الروسية أنه « خالع أسنان » •

منذ أن دخل البولنديان الغرفة التفتا نحو ميشيل ماكاروفتش ليجيبا عن الأسئلة كان يلقيها عليهما نيقولا بارفينوفتش• كان واضحا أنهما يتصوران أن رئيس الشرطة ، المتنحى قليلاً ، هو أرفع الشخصيات الموجودة فى الغرفة رتبةً ، فكانا لا ينفكان يخاطبانه بقولهما : « سيادة الكولونيل » • ولم يعزما أمرهما على الاتجاه بحديثهما الى نيقولا بارفينوفتش الا بعد احتجاجات كثيرة من ميشيل ماكاروفتش، مصحوبة بايضاحات وتعليمات• وقد تبيَّن أنهما يجيدان الكلام باللغة الروسية اجادة تامة ، بصرف النظر عن بعض عيوب النطق • عرض «السيد» موزيالوفكتش علاقاته الحاضرة والماضية بجروشنكا ، متكلما بلهجة مسرحية ، مظهرا كثيرا من الحرارة والكبرياء ، فكان من شأن ذلك أن أحنق ميتيا وأخرجه عن طوره فصاح يقول انه لا يحتمل أن يتحدث انسان «حقير» على هذا النحو أمامه • فسرعان ما ألحّ «السيد» موزيالوفكتش على أن يُسجَّل فى المحضر أن ميتيا استعمل كلمة «حقير» • فصاح ميتيا يقول :

ــ حقير ••• نعم ••• حقير ! سجلوا هذا الكلام ، وسجلوا أيضا أننى لا أعبأ بالمحضر • ولن يمنعنى المحضر من أن أصرخ فى وجهك مرة أخرى قائلاً : أنت حقير !

أمر نيقولا بارفينوفتش بتسجيل الاهانة ، ولكنه عرف بعد ذلك كيف يختم هذا الحادث الأليم ببراعة عظيمة وحنكة مهنية فائقة • دعا

SS

ميتيا الى التزام الهدوء بلهجة قاسية ، وعدل بعد ذلك فورا عن القاء أسئلة جديدة تتناول الجانب الروائى من القضيه • وعلى وجه الاجمال ، كان فى أقوال «السيدين» البولنديين نقطه لفتت انتباه القاضيين لفتاً خاصاً ، وأثارت فيهما اهتماما شديدا ، ألا وهى محـــاولة ميتيا أن يتخلص من «السيد» موزيالوفكتش بأن يعطيـــه ثلاثة آلاف روبل ثمناً لتنازله عن جروشنكا ، منها سبعمائة روبل ينقده اياها فورا ، والباقى وهو ألفـان وثلاثمائه روبل ، يدفعه له « منذ صباح الغد فى المدينة » • وقد ذكر «السيد» البولنـــدى أن ميتيـا حلف له أنه لا يملك المبـــلغ كاملا فى موكرويه ، ولكنه يملكه مخبأً فى المدينة • احتد ميتيا حين سمع هـذا التصريح وأنكر أن يكون قد وعده باكمال المبلغ منذ الصباح فى المدينة• غير أن «السيد» فروبلفسكى أيد أقوال رفيقه • ففكَّر ميتيا قليلاً ، ثم وافق ، مقطباً ، على أن من الجائز فعلاً أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو الذى يذكره «السيدان» البولنديان ، وقال انه كان مهتاجا أشد الاهتياج أثناء ذلك الحديث ، فمن الممكن أن يكون قد قال ذلك الكلام• وهكذا بدا ثابتا الآن (وذلك ما لم يفتهم الاستناد اليه فيما بعد) أن نصف الثلاثة آلاف روبل التى صارت الى يدى ميتيا انما هو مخبأ فى المدينة ، وربما فى موكرويه نفسها • بذلك تبدد ذلك الظرف الذى كان يعرقل الاتهام ، أعنى كون ميتيا لا يحمل الا ثمانمائة روبل ، وهذا أمر كان الى ذلك الحين هو العنصر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى دعم صدق أقواله ، وان تكن دلالة هـذا العنصر ضـــعيفة • هكذا انهارت المشاهدة الوحيدة التى كان يمكن أن تدافع عن ميتيا • فلما سأل وكيل النيابة ميتيا من أين كان يأمل أن يأخـذ ما ينقصـه ، وهو ألفان وثلاثمائة روبل ، من أجل أن يدفع «للسيد» البولندى ، ما دام جميع ما يملكه هو ألف وخمسمائة ، وما دام قد وعد باكمال المبلغ فى الغد ، أجاب ميتيا

جازماً بأنه كان لا ينوى أن يعطى البولندى المبلغ مالاً سائلا ، بل تنازلاً خطياً عن حقوقه فى أراضى تشرماشنيا ، وهى الحقوق التى سبق أن أراد التنازل عنها للتاجر سامسونوف وللسيدة هوخلاكوفا . فابتسم وكيل النيابة من «سذاجة هذا التملص » .

ـ هل تظن جاداً أنه كان سيرضى بهذه الحقوق بديلا عن ألفين وثلاثمائة روبل عداً ونقدا ؟

أجاب ميتيا قائلا بحرارة :

ـ طبعا كان سيقبل . ذلك أنه يربح بذلك أكثر من ألفى روبل. ان فى وسعه أن يقبض بهذه الطريقة أربعة آلاف روبل على الأقل ، وربما قبض ستة آلاف . كان سيسرع الى توكيل بعض المحامين ، اليهود أو البولنديين، فيجبر العجوز على التخلى لا عن ثلاثة آلاف روبل بل عن قرية تشرماشنيا !

سُجِّلت أقوال «السيد» موزيالوفكتش طبعا ، بجميع تفاصيلها ، ثم صُرِف البولنديان . ولم يزعجهما أحد بموضوع الغش فى اللعب بالورق . لقد كان نيقولا بارفينوفتش شاكرا لهما تصريحاتهما فلم يشأ أن يصدّعهما بسفاسف وترهات ، لا سيما وأن الأمر لا يعدو أن يكون بعد كل شيء خلافا فى اللعب بين قاصفين سكارى . ألم تكن الليلة كلها حافلة بفضائح وحوادث شتى ؟ هكذا بقيت المائتا روبل ملكا حلالا «للسيدين» البولنديين .

وجاء بعد ذلك دور العجوز ماكسيموف . بدا عند وصوله وجلاً كل الوجل ، واقترب من القضاة بخطى صغيرة ، حزين الوجه شديد الارتباك . كان قد ظل طول الوقت فى صحبة جروشنكا ، لاطياً بها كأنما لتحميه . وكان فى كل لحظة ينفجر باكيا ، ويمسح عينيه بمنديل أزرق ذى مربعات ، كما روى ذلك ميشيل ماكاروفتش فيما بعد . وقد بلغ من فرط الكرب واليأس أن المرأة الشابة اضطرت أن تهدئه وأن تواسيه

مرارا . اعترف العجوز دفعةً واحدة ، والدموع في صوته ، أنه يعد نفسه مذنبا لأنه افترض من دمترى فيدوروفتش عشرة روبلات « بسبب شدة فقره » ، وأنه مستعد لردّها ... فلما سأله نيقولا بارفينوفتش هل يعلم كم كان فى يدى ميتيا من مال ، لأنه استطاع أكثر من أى شخص آخر أن ينعم النظر فى الحزمة حين تناول العشرة روبلات ، أجاب على الفور باقتناع : « كان فى الحزمة نحو عشرين ألف روبل » .

فسأله نيقولا بارفينوفتش مبتسما :

ـ هل أتيح لك قبل ذلك أن ترى مبلغ عشرين ألف روبل ؟

ـ هل رأيت ؟ طبعا رأيت ، ولكننى لم أر عشرين ألفا بل رأيت سبعة آلاف ، وذلك حين رهنت زوجتى قريتنا الصغيرة . لقد تباهت أمامى بالمبلغ الذى أُعطيته ، وأذنت لى أن أنظر الى الحزمة ، ولكن من بعيد . كانت حزمةً كبيرة من أوراق نقدية كالأوراق التى كانت مع دمترى فيدوروفتش .

ولم يطيلوا استجوابه . واستدعيت أخيرا جروشنكا . كان القضاة يخشون ما قد يرد به ميتيا حين يراها ، حتى لقد اعتقد نيقولا بارفينوفتش أن من الضرورى أن يقول له بضع كلمات من باب النصح . ولكن ميتيا اقتصر جوابه كله على أن حنى رأسه قليلا ، كأنه يريد أن يقول : « لن يحدث اضطراب ! » .

ان ميشيل ما كاروفتش هو الذى أدخل جروشنكا . وقد دخلت عابسةً مقطبة ، ولكن على هدوء ظاهر ، وجلست بغير ضجة على كرسى أشار لها اليه نيقولا بارفينوفتش أمامه . وكانت شاحبة الوجه جدا ، وكان يبدو أنها تشعر ببرد شديد ، وكانت تتلفع بشالها الأسود الرائع . والحق أنها كانت تشعر برعدات حمى هى بداية ذلك المرض الطويل الذى أُصيبت به منذ تلك الليلة . وكان من شأن قسماتها الرضية ونظرتها الجادة الصريحة ووضعها الهادىء أن أحدثت فى نفوس الجميع أثراً

عظيما • حتى لقد «فتن» بها نيقولا بارفينوفتش بعض الشيء • فقد روى فيما بعد ، حين وصف مشاعره في ندوة من ندوات المجتمع ، أنه أدرك مدى جمال تلك المرأة لأول مرة حينذاك • وقال انه لم يكن يرى فيها حتى ذلك الحين الا « غانية ريفية » • وقد صاح يقول ذات مرة في مجتمع نسوي : « ان لها أداباً عظيمة ، فأحدثت هذه الصيحة استياء شديداً في نفوس سامعاته ، فسرعان ما وصفنه بأنه «فاسق»، فسُرّ هو بهذا الوصف سرورا عظيما •

حين دخلت جروشنكا الغرفة ألقت على ميتيا نظرة خاطفة ، فتأملها قلقا ، غير أن منظر هدوئها لم يلبث أن طمأنه • سألها نيقولا بارفينوفتش، بعد الاجراءات الشكلية وبعد بضع كلمات تشجيعية ، سألها مترددا بعض التردد ، ولكن بكثير من الأدب والتهذيب « ماذا كانت علاقاتها بالملازم المتقاعد دمتري فيدوروفتش كارامازوف » ، فأجابته جروشنكا بصوت حازم رقيق عذب :

ــ كان أحدَ من أعرف من الناس ، وبهذه الصفة انما كنت أستقبله في بيتي أثناء الشهر الأخير •

وأُلقيت عليها أسئلة أخرى كان بعضها دقيقا محرجا ، فكانت تجيب في كل مرة بصراحة تامة • وهكذا اعترفت بأن ميتيا كان قد أعجبها « في بعض الساعات » ولا شك ، غير أنها لم تكن قد أحبته ، وانما كانت تلعب به لعبا « بدافع الخبث المنحط وحده » ، كما كانت تلعب « بالعجوز » من جهة أخرى ؛ وكانت قد لاحظت أن ميتيا يغار جدا من فيدور بافلوفتش ، ومن رجال آخرين أيضا ، ولكن ذلك لم يكن عندها الا موضوعا جديدا للتسلي والضحك • أما فيدور بافلوفتش فانها لم تزره في يوم من الأيام ، لأنها لم تزد على السخرية منه طول الوقت • وأضافت تقول :

ـ ثم اننى قد كانت لى خلال هـــذا الشهر الأخير مشاغل أخرى مختلفة عن ذلك كل الاختلاف • فقد كنت لا أفكر فيهما ، لأننى كنت أنتظر وصول رجل أعده آثماً فى حقى •• ومهما يكن من أمر ، فاننى أحسب أنه ليس لكم أن تتدخلوا فى هذا الشأن ، وليس علىّ أن أروى هذه التفاصيل ، لأن هذا من حياتى الخاصة •

أسرع نيقولا بارفينوفتش يخضع أمام هـــذه الحجة ، فكف عن سؤال جروشنكا عن العناصر الروائية فى القضية ، وبادر يواجه النقطة الأساسية رأساً ، أعنى مسألة الثلاثة آلاف روبل • فأيدت جروشنكا أن المال الذى أُنفق في موكرويه فى الشهر الماضى يرتقى الى ثلاثة آلاف روبل • فلئن لم تعدّ المال ، لقد سمعت دمترى فيدوروفتش نفسه يذكر هذا الرقم •

سألها وكيل النيابة :

ـ هل أسرّ اليك بهـــذا الرقم على انفراد أم بحضـــور أشخاص آخرين ؟ أم هل عرفته لأنك سمعته يُذكر لآخرين ؟

فأوضحت جروشنكا أنها سمعت ميتيا يذكر هذا الرقم لأشخاص آخرين ، ولكنه حدثها عنه أيضا ، على انفراد وبحضور آخرين •

فسألها وكيل النيابة مرة أخرى :

ـ هل سمعته يذكر هذا الرقم مرة واحدة أم عدة مرات ؟

فأجابت :

ـ بل عدة مرات •

رضى هيبوليت كيريلوفتش عن هـذه التصريحات رضىً عظيما • وقد أتاحت تتمة الاستجواب أن يُعرف ، عدا ذلك ، أن جروشنكا كانت

على علم بمصدر هذا المبلغ ، وأنها كانت لا تجهل أن ميتيا قد أخذه من كاترين ايفانوفنا •

ــ ألم تسمعى أبدا أن المبلغ الذى أُنفق فى القصف فى الشهر الماضى لم يكن ثلاثة آلاف روبل ، بل دون ذلك كثيرا ، وأن دمترى فيدوروفتش قد احتفظ بنصف المال ؟

ــ لا ، أبدا • لم أسمع هذا فى يوم من الأيام •

واذ طلبوا الى جروشنكا أن تزيد هذه النقطة وضوحا ودقة ، فقد تأدوا بها الى أن تصرح بأن ميتيا ، خلافا لذلك ، قد أكد لها طوال هذا الشهر أنه لم يبق معه كوبك واحد • وختمت جروشنكا كلامها قائلة :

ــ وكان يأمل دائما أن يأخذ مالاً من أبيه •

هنا تدخل نيقولا بارفينوفتش فسألها :

ــ هل اتفق له أن قال بحضورك أو ذكر عرضاً أو صاح وهو فى سورة من غضب أنه ينوى أن يقتل أباه ؟

فأجابت جروشنكا متنهدة :

ــ قال ذلك وا أسفاه !

ــ أقاله مرةً واحدة أم قاله مرارا ؟

ــ قاله مرارا ، ولكن فى لحظات الغضب دائما •

ــ هل صدقت أنه سيقدم على تنفيذ نواياه ؟

ــ لا ، لم أصدق هذا فى يوم من الأيام ، لأننى كنت على ثقة بنبل خلقه •

كذلك قالت جروشنكا بلهجة حازمة •

فصاح ميتيا يقول فجأة :

ـ اسمحوا لى أيها السادة ! هل أستطيع أن أقول كلمة ، كلمة واحدة ، بحضوركم ، لأجرافين ألكسندروفنا ؟

قال نيقولا بارفينوفتش :

ـ افعل !

فقال ميتيا وهو ينهض عن كرسيه :

ـ أجرافين الكسندروفنا ، صدقينى ، فان الله على ما أقول شهيد : أنا لم أسفح دم أبى !

قال ميتيا تلك الكلمات وعاد يتهالك على كرسيه . فنهضت جروشنكا ، ورسمت اشارة الصليب بخشوع وتقى وهى تتجه الى أيقونة ، وقالت بصوت حار مؤثر :

ـ الحمد لله !

ثم أضافت تقول مخاطبة نيقولا بارفينوفتش بينما كانت تعود تجلس :

ـ ان ما قاله هو الحقيقة ، وعليكم أن تصدقوه . أنا أعرفه . قد يمزح لعباً أو عناداً ، ولكنه لن يكذب فى يوم من الأيام مخالفا ضميره. سيقول الحق دائما فى الأحوال الخطيرة . كونوا من هذا على يقين !

قال ميتيا بصوت يهدجه الانفعال :

ـ شكراً أجرافين ألكسندروفنا ! ان أقوالك قد واست قلبى .

وفى موضوع المال الذى كان مع ميتيا فى الليلة البارحة ، صرحت جروشنكا بأنها لا تعرف مقداره ، ولكنها اعترفت بأن ميتيا قد أكد لعدة أشخاص أنه جاء بثلاثة آلاف روبل . وأما عن مصدر ذلك المال فقد قالت جروشنكا أن ميتيا اعترف لها ، لها وحدها ، بأنه « سرقه » من

كاترين ايفانوفنا ، وانها أجابته على ذلك بأن هذا ليس سرقة ، وان عليه أن يرد اليها المال منذ الغد • فلما ألح وكيل النيابة على أن يعرف ما هــو المبلغ الذى يدعى ميتيا أنه سرقه من كاترين ايفانوفنا ـ أهو الثلاثة آلاف روبل التى كانت معه فى الليلة البارحة ، أم هو الثلاثة آلاف روبل التى أنفقها بموكرويه فى الشهر الماضى ـ أجابت بأن ميتيا قد تكلم من الثلاثة آلاف روبل التى أنفقت فى الشــهر الماضى ، وأن هذا ما فهمتــه هى من كلامه •

هنا انتهى استجواب جروشنكا • وأسرع نيقولا بارفينوفتش يعلن لها أنها حرة تستطيع أن ترجع الى المدينة ، فاذا كان فى وسعه أن يعمــل شيئاً من أجلها ، كأن يأمر لها بخيل أو أن يهيىء لها خفراً ، فانه سوف يسعده أن •••

فقاطعته جروشنكا تقول وهى تنحنى انحناءة توديع يسيرة :

ـ أشكر لك لطفك . ولكننى أنوى البقاء فى صحبة هذا العجوز المسكين ، هذا الملاك الذى أرغب فى أن أوصله الى منزله . وبانتظار ذلك أوثر أن أبقى تحت ، اذا أذنتم بذلك ، ريثما تقرروا مصير دمترى فيدوروفتش .

وخرجت جروشنكا من الغرفة . كان ميتيا هادئاً ، حتى لقد كان وجهه يعبر عن رباطة الجأش وطمأنينة البال ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . ان وهناً جسميا شديدا كان يغزوه شيئا بعد شيء ، وان عينيه كانتا تغمضان من فرط التعب ؟ ولم يكن قد بقى شهود يُستمع الى شهاداتهم ، وقد بدأت كتابة المحضر فى صورتها الأخيرة • فها هو ذا ميتيا ينهض عن كرسيه ، ويتجه الى زاوية الغرفة قرب الستارة ، حيث تتمدد حقيبة كبيرة مغطاة بسجادة ، فسرعان ما ينام ، فيرى فى منــامه حلمــاً غريبا لا يتفق مع هذه الظروف فى شيء من الأشياء ـ رأى نفسه فى عربة

تجتاز سهوباً فى المنطقة التى كان قد خدم فيها ضابطا ، والعربة يقودها خلال السهل الموحل فلاح يعمل حوذيا • ان ميتيا يشعر ببرد • هـــذه أوائل شهر تشرين الأول (نوفمبر) • الثلج يتساقط سبائخ كبيرة رطبة ما ان تلامس الأرض حتى تذوب • الفلاح يستحث الخيل ويشجعها على أن تسرع العدو ملوّحاً بسوطه • ان له لحية حمراء طويلة جدا • ما هو بالعجوز • قد يكون فى الخمسين من عمره • انه فلاح بسيط يرتدى قفطانا فقيرا أشهب • وهذه ضيعة صغيرة تتراءى فى مكان قريب • ان الناظر يلمح أكواخها السوداء الحزينة وقد احترق نصفها ولم يبق منها الا هياكل محترقة • وعند مخرج الضيعة تصطف نساء ، تصطف كثرة من النساء • انهن هزيلات هزالا رهيبا • وجوههن بلون التراب • بينهن واحـــدة تلفت النظر خاصة ، قد وقفت على حافة الطـــريق • هى امرأة بارزة العظام طويلة القامة ، تبدو فى الأربعين ولكن ربما كان عمرها لا يزيد على عشرين • وجهها مستطيل جاف• وعلى ذراعيها طفل يبكى• لا شك أن ثدييها قد نضبا ، فلم يبق فيهما قطرة من لبن • الطفل يبكى، وما ينفك يبكى بلا انقطاع ، ماداً ذراعيه الصغيرتين ، ذراعيه العاريتـين البائستين اللتين ازرقت قبضتاهما من شدة البرد •

سأل ميتيا حين مرت العربة أمامهم مسرعة :

ــ لماذا يبكون ؟ لماذا ؟

فأجابه الحوذى :

ــ الصبى هو الذى يبكى •

فوجىء ميتيا من قول الفلاح : « الصبى » ، بدلا من أن يقول : « الطفل » • أعجبه من الفلاح أن يستعمل هذه التسمية • ان فى كلمة « الصبى » من العطف والشفقة ما ليس فى كلمة « الطفل » •

ألح ميتيا يسأل الفلاح رغم شعوره بغباوة سؤاله :

ـ ولكن لماذا يبكى ؟ لماذا ذراعاه عاريتان ؟ لماذا لا يغطون ذراعيه؟

قال الفلاح :

ـ الصبى قد تخدر من البرد ؟ تجلدت ثيابه فأصبحت لا تقيه •

عَنَدَ ميتيا فظل يسأل فى غباء :

ـ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

ـ هؤلاء نساء فقيرات ، احترقت دورهن ، ولم يبق معهن خبز ، فهن يستجدين •

قال ميتيا وكأنه لا يفلح فى أن يفهم :

ـ لا ، لا • قل لى : لماذا هن هنا ، تلك الأمهات اللواتى احترقت دورهن ، لماذا هن فقيرات الى هذه الدرجة من الفقر ، لماذا هذا الصبى يبكى ، ولماذا هذه السهوب عارية كل هذا العرى ؟ نعم ، لماذا لا يتعانقن جميعا ، لماذا لا يرتمى بعضهن فى أذرع بعض منشدات أغنية فرح ؟ لماذا أصبحت وجوههن بلون التراب من شدة الفقر والبؤس ، لماذا لا يطعمن الطفل ؟

ان ميتيا يحس فى قرارة نفسه أن هذه الأسئلة بلهاء سخيفة، ولكنه يشعر بحاجة قوية الى القائها ، ويعلم أنها يجب أن تلقى • وهو يشعر كذلك بشفقة كبيرة تشب فى قلبه ، شفقة لا عهد له بمثلها من قبل ، وهو يريد أن يبكى ، ويتمنى أن يفعل شيئاً ليساعدهن جميعا ، حتى يكف الصبى عن الأنين ، وحتى تنقطع عبرات أمه ذات الوجه الهزيل المغبر ، وحتى لا يبكى أحد فى هذا العالم بعد اليوم • انه يريد أن يعمل شيئاً على الفور ، بغير انتظار ، وبدون أنْ يحسب حساب أى شىء ، مندفعا ذلك الاندفاع الجامح الذى يتميز به آل كارامازوف •

ـ سأكون معك ، لن أتركك بعد الآن ، سأبقى الى جانبك مدى الحياة •

كذلك قال على مقربة منه صوت جروشنكا الرقيق الحنون المتأثر.

اشتعل قلبه مندفعا نحو ضياء بعيد . انه يريد أن يحيا ، أن يحيا ، أن يمشي ، أن يمشي بلا توقف نحو ذلك الضياء الذى يناديه ، أن يسافر حالا ، بمزيد من السرعة ، على الفور ، على الفور !

هتف فجأة وهو يفتح عينيه ويجلس على الحقيبة ، كأنه يصحو من غيبوبة :

ـ أين ؟ كيف ؟

وكانت بسمة مشرقة تضيء وجهه .

كان نيقولا بارفينوفتش واقفا أمامه يدعوه أن يسمع قراءة المحضر وأن يوقعه . أدرك ميتيا أنه نام ساعة أو أكثر . ولم ينتبه أى انتباه الى كلام نيقولا بارفينوفتش ، لأنه لاحظ أن وسادةً كانت موضوعة تحت رأسه ، مع أنه لم يكن ثمة وسادة حين استلقى علىالحقيبة مهدود القوى. هتف يسأل وهو يشعر بامتنان متحمس ، وفى صوته دموع ، كأنه قد مُنَّ عليه بفضل عظيم :

ـ من وضع وسادة تحت رأسي ؟ من عطف عليَّ هـذا العطف النبيل ؟

غير أن الانسان الذى قام ببادرة العطف النبيلة هذه قد ظل مجهولا. لعل أحد الشهود أو لعل كاتب نيقولا بارفينوفتش هو الذى أمر باحضار الوسادة . أحس ميتيا بتأثر شديد يرقرق الدموع فى العينين . واقترب من المائدة ، وأعلن أنه سيضع توقيعه على كل ما يشاءون أن يضع توقيعه عليه .

وقال بصوت غريب :

ـ رأيت حلماً جميلا يا سادتى .

ان قسمات وجهه لا تعبر الآن عما كانت تعبر عنـه أثناء الليل . لكأنه قد بدّل انسانا آخر . ان محيّاه غارق فى ضياء مشرق .

٩

اقتياد ميتيا

حين تمّ توقيع المحضر التفت نيقولا بارفينوفتش نحو ميتيا فى أبهة ، وقرأ عليه نص « قرار » يتضمن أنه فى يوم كذا ، سنة كذا ، وفى مكان كذا ، استجوب قاضى التحقيـــق فلانا (أى ميتيا) ؛ وحيث أن المتهم ، رغم انكاره التهمة المنسوبة اليه ، لم يكن قادرا على أن يبرىء نفسه ؛ ونظراً للتهم المنسوبة اليه من الشـــهود (و'تليت قائمــة بأسماء الشهود) ، ونظرا لظروف القضية ، فقد قرر قاضى التحقيـــق ، بالاستناد الى مواد القانون (و'تليت أرقام المواد) أن يودع المتهم السجن•• حتى لا يستطيع الفرار من وجه العدالة ، وأن تبلغ صورة من هذا الحكم لوكيل النيابة ، الخ •

الخلاصة : أ'علم ميتيا أنه معتقل ، وأنه سينقل الى المدينة ليسجن فى مكان ليست الاقامة فيه بالممتعة • وقد أصغى ميتيا الى قراءة هــــذه الورقة بانتباه ، ولكنه لم يزد على أن رفع كتفيه قائلا :

ـ ليكن ما تشاءون يا سادتى ••• لست أؤاخذكم ، أنا مستعد ••• اننى لأدرك حق الادراك أنكم ما كان فى وسعكم أن تفعلوا غير مافعلتم•

فشرح له نيقـــولا بارفينوفتش ، فى لين ورفـــق ، أن موريس مافريكيفتش الذى كان فى المكان بما يشبه المصادفة، هو الذى سيقتاده •

SS

هتف ميتيا يقول فجأة في سورة جامحة لا تقاوم ، متجهاً بكلامه الى جميع الحضور في القاعة :

ــ لحظة يا سادة ! نحن جميعا قساة ، نحن جميعا وحوش مفترسة، نحن سبب الدموع التى تسكبها الأمهات ويسكبها الأطفـــال الرضّع ، ولكننى أنا ــ أقول هذا جهارا على رءوس الأشهاد هنا ــ أنذل الناس ، وأدنأهم طرا ً . اننى أسلّم بهـــذا . وما من يوم انقضى فى حياتى الا وحلفت فيه ، وأنا ألطم صدرى ، لأصلحن أمرى ولأقومّن عوجى ، ولكننى كنت أهوى الى أخطائى منذ الغد . اننى أدرك اليوم أن رجالاً مثلى محتاجون الى أن يضربهم القدر ، محتاجون الى أن يضربهم القــدر ضربة تدمّر كيانهم وتوقظ فى أنفسهم قوى الحقيقة العليا . ما كان لى أبداً ، أبداً ، أن أستطيع النهوض من تلقاء نفسى ! ولكن الصـاعقة قد نزلت علىّ . وأنا أقبل عذاب الاتهام الموجه الى ، وأقبل العار الذى تلطخ به شرفى أمام الناس . أريد أن أتألم ، وأن أتطهر بالألم . لأننى سأفدى نفسى بالألم ، أليس هذا صحيحا أيها السادة ؟ ولكننى أؤكد لكم آخر مرة : أننى لم أسفح دم أبى ! اننى أقبل العقاب لا على قتله، بل على أننى أردت أن أقتله ، وربما كنت سأقتله فى النهاية ... ولكننى سأكافح لدفع التهمة عن نفسى ، فاعلموا هذا ! سأدافع عن نفسى حتى النهاية ، وسيقرر الرب مصيرى . الى اللقاء أيها السادة . واغفروا لى ما ظهر منى من غضب أثناء الاستجواب . آه .. ما كان أغبانى عندئذ ! بعد بضع ثوان لن أكون الا ســـجينا ؛ ولآخر مرة انما يمـــــد دمترى فيدوروفتش كارامازوف يده اليكم مصـافحا مصافحة رجـــل حر طليق . وانى اذ أودعكم انما أودّع العالم ..

أخذ صوته يرتجف ، وقدم يده ، لكن نيقولا بارفينوفتش الذى

كان أقرب الحضور اليه ، سحب يده فجأة بحـــركة تشـبه أن تكون متشنجة • فلاحظ ميتيا ذلك فارتعش وسقطت يده •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول محرجا :

ـ لم ينته التحقيق • وسنستأنفه فى المدينة • وأنا من جهتى أتمنى لك النجاح فيما ستبذله من جهود لتبرئة نفسك • لقد كنت أميـــل دائما يا دمترى فيدوروفتش الى أن أعدك انسانا عاثر الحظ ان صح التعبير ، لا انسانا مجرما ••• ونحن جميعا مستعدون ـ اذا جاز لى أن أنطـق بلسان الآخرين أيضا ـ لأن نرى فيك شابا نبيل الخلق فى قرارة نفسه، لكنه ، وا أسفاه ، قد اندفع مع أهواء عنيفة جامحة اندفاعا ربما كان فيه افراط •

وحين نطق القاضى بهذه الكلمات الأخيرة اصطنع شخصه الضـئيل وضع مهابة قصوى ووقار عظيم • وأحس ميتيا فجأة أن هـــذا « الولد الصغير » سيمسكه من ذراعه فينتحى به جانبا ويستأنف معه حديثه الأخير عن « النساء الصغيرات »• هل يتصور أحد أية خواطر غريبة شاذة يمكن فى ظروف كظروف هذه اللحظة أن تومض فى ذهن الانسان ، ولو كان هذا الانسان مجرما يُساق الى التعذيب ؟

سأل ميتيا :

ـ سادتى ، أنتم أناس طيبون انسانيون • فهل تسمحون لى بأن أراها مرة أخيرة لأودعها ؟

ـ طبعا ••• ولكن ، بالنظر الى الظروف الخاصة ••• أقصد •• لا يمكن أن تراها على انفراد بل بحضور شهود •

ـ لا أرى أى ضير فى أن تحضروا اللقاء •

مضى بعضهم يحضر جروشنكا • ولكن الوداع كان موجزا ، وهذا ما خيب ظن نيقولا بارفينوفتش • انحنت جروشنكا تحيى ميتيا تحية عميقة • وقالت له :

ـ قلتُ انني سأكون لك الى الأبد • سأصحبك حيثما تذهب ، مهما يكن مصيرك • استودعك الله ، يا من ضيعت نفسك دون أن تكون مذنبا •

واختلجت شفتاها ، وسالت الدموع من عينيها •

ـ اغفرى لى يا جروشنكا ، اغفرى لى أننى أحببتك • فسببت لك الضياع بهذا الحب •

أراد ميتيا أن يضيف شيئا آخر ، ولكنه انقطع عن الكلام فجأة وخرج من الغرفة • وسرعان ما وجد نفسه محاطا برجال لم يغب عن أنظارهم • وتحت ، أمام درجات الباب الذى وصل اليه الليلة البارحة على عربة آندره محدثا ضجة كبيرة ، كانت تنتظره عربتان • ان موريس مافريكيفتش ، وهو رجل سمين قصير مغضَّن الوجه ، يبدو معتكر المزاج قد أحنقه طارىء ما ، فهو يغضب ويصيح • وها هو ذا يدعو ميتيا الى ركوب العربة بلهجة عدَّها ميتيا مسرفة فى الخشونة . قال ميتيا يحدث نفسه : « حين كنت أسقيه خمراً فى الكاباريه ، كان يبدى غير ما يبدى الآن • » • وظهر تريفون بوريستش فى أسفل درجات الباب أيضا • واحتشدت جمهرة من الفلاحين والنساء والحوذيين قرب الباب تتفرس فى ميتيا •

هتف ميتيا يقول لهم من مكانه :

ـ استودعكم الله أيها الناس الطيبون ! سامحونى !

فترجّعت أصوات تقول له :

ـ اغفر لنا نحن أيضا .

ـ أستودعك الله أنت أيضا يا تريفون بوريستتش !

ولكن صاحب النزل أبى حتى أن يلتفت . لعله كان مشغولا جدا، فلقد كان يصرخ ويتحرك منهمكا هو أيضا : والحق أن العربة الثانية التى يجب أن يركبها خفيران من رجال موريس مافريكيفتش لم تكن بعد مستعدة للسفر كل الاستعداد . كان الفلاح القصير الذى كلف بسوق العربة يصرّ على أن يزعم ، بينما هو يرتدى قفطانه ، أن الدور دور آكيم ، لا دوره هو ، فى القيام بهذه المهمة . ولكن أين آكيم ؟ ان أحداً لم يستطع العثور عليه . لقد بحثوا عنه فى كل مكان . والفلاح القصير ما يزال يصرّ ويتوسل أن ينتظروه مزيدا من الانتظار .

هتف تريفون بوريستتش يقول :

ـ ان هؤلاء الناس الذين ينتمون الى سقط الشعب وقحون وقاحة فظيعة يا موريس مافريكيفتش ، أنظر كيف يتصرفون !

وأضاف يخاطب الفلاح الصغير :

ـ لقد أعطاك آكيم منذ ثلاثة أيام خمسة وعشرين كوبكا ، فشربت بها خمرا ، وتريد الآن أن يحل محلك وأن ينوب عنك .

وعاد تريفون بوريستتش يخاطب موريس مافريكيفتش :

ـ يدهشنى يا موريس مافريكيفتش ما تعامل به هؤلاء الفلاحين الأدنياء من رقة وتسامح . ذلك كل ما أستطيع أن أقوله .

تدخل ميتيا قائلا :

ـ لماذا هذه العربة الثانية ؟ تكفينا عربة واحـــدة ، ألا تظن ذلك يا موريس مافريكيفتش ؟ اننى لن أتمرد ولن أزعجك فى شىء ! لاحاجة الى خفر من أجلى !

فأجابه موريس مافريكيفتش قائلاً بشراسة :

ـ تعلم كيف يجب عليك أن تكلمنى يا سيد اذا كنت لا تعرف ذلك بعد . أنا لست رفيقك ، واننى أمنعك من مخاطبتى بصيغة المفــرد. مفهوم ؟ أما نصائحك ففى وسعك أن تمتنع عن اسدائها الىّ فى المستقبل.

كان واضحا أنه يسعده أن يفرّج عن نفسه بالاستسلام لغضبه .

صمت ميتيا . وكان قد احمر احمرارا شديداً . وها هو ذا بعد لحظة يشعر ببرد . لقد انقطع المطر عن الهطول ، ولكن السماء الشهباء مغطاة بالسحب ، وان ريحا جافة جدا تسفع وجهه . تســـاءل ميتيا بينه وبين نفسه وهو يضم كتفيه فى تشنج : « أهـــذه رعدة حمى ؟ » . وركب موريس مافريكيفتش العربة أخيرا . جلس فى مكانه ثقيلا ، واسترخى على راحته دافعاً ميتيا الى ركن المقعد دون أن يبدو عليه أنه لاحظ ذلك. الحق أنه كان معتكر المزاج جدا ، وكان مستاءً أشد الاستياء من هذه المهمة التى عهد اليه بها .

ـ استودعك الله يا تريفون بوريستش !

كذلك صاح ميتيا يقول مرة أخرى ، ولكنه شعر بأنه لا يخاطب صاحب النزل فى هذه المرة بروح المودة ، وشعر بأن الغضب هو الذى انتزع منه هذه الصيحة انتزاعا بغير ارادته .

ظل تريفون بوريستش ساكنا لا يهتز ، واضعا يديه وراء ظهره.

وحدّق الى ميتيا دون أن يجيب ، ناظراً اليه نظرة منقلة بالكبرياء و لتعالى زاخرةً بالاستنكار والاستياء •

ودوّى صوت كالجانوف يقول فجأة وقد انبجس لا يدرى أحد من أين :

ـ الوداع يا دمترى فيدوروفتش ، الوداع !

كان كالجانوف يجرى نحو العربة عارى الرأس ، ماداً يده الى ميتيا ، فاتسع وقت ميتيا لأن يمسك يده ويصافحه ، قائلا له :

ـ الوداع أيها الصديق الشهم • لن أنسى كرمك ما حييت ! ولكن العربة تحركت ، فانفصلت يداهما ، ورنت الجلاجل • اقتيد ميتيا •

انسحب كالجانوف الى الدهليز ، فجلس فى ركن ، واضعا رأسه فى يديه ، وأخـــذ يبكى • وظل يبكى زمنا طـويلا ، كصبى صغير ، لا كشاب فى العشرين من عمره • لقد كان شبه مقتنع ، وا أسفاه ! ، بأن ميتيا قد قتل أباه • فكان يهتف بغير انقطاع ، وهو يشــــعر بحسرة مرة ولوعة شديدة : « ما قيمة البشر بعد هذا ؟ كيف يثق المرء بالبشر بعـد الآن » • وبدا له فى تلك اللحظة أنه أصبح لا يحب أن يحيا ، فهـــو يتساءل قانطاً : « فيم الحياة ؟ فيم الحياة ؟ » •

حواش

٦ ★ « Sosna Kak So Sna» : ها هنا لعب بالالفاظ قائم على التشابه بين كلمة Sosna ومعناها الصنوبر وبين So Sna بمعنى : « فى الحلم » ٠

٢٤ ★ « أنا الآن فى موقف فاموسوف » : اشارة الى المسرحية الهزلية التى كتبها جريبويدوف وعنوانها : « كثير من الذكاء ضرر » ، ودوستويفسكى كثيرا ما يستشهد بهذه المسرحية ٠ فى المشهد الاخير من هذه المسرحية يفاجىء فاموسوف ابنته صوفيا متحدثة مع تشاتسكى على السلم الكبير فى المنزل ٠

٢٨ ★ « بقوة عظيمة انجذب » : أغنية يقول دوستويفسكى فى رسالة كتبهـا سنة ١٨٧٤ انه سمعها فى موسكو قبل أربعين عاما ، وكان يغنيها الخدم ٠ (وسوف تذكر أيضا فى الصفحة ٣٣ من هذا المجلد) ٠

٣٠ ★ «لأن أمى امرأة نتنة» : اشارة الىمعنى اسم أمه «سمردياشتيايا» (راجع حاشية الصفحة ٢٣٦ من المجلد السابق) ٠

٣١ ★ « نابوليون الأول ، وهو أبو الامبراطور الحالى » : واضح خطأ سمردياكوف فان نابوليون الاول هو عم نابوليون النالت الذى حكم فرنسا بهذه الصفة من سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٧٠

٤٢ ★ «وريقات الاشجار الطريات النديات» : استعمل دوستويفسكى هذه العبارة مرارا ، وهى مستمدة من قصيدة للشاعر بوشكين فى وصف الربيع ٠

٥١ ★ « اذا كان الله غـير موجود فيجب اختراعه » : هنا استشهاد بعبارة للكاتب الفرنسى فولتير فى « رسـالة الى صانع الخدع

صفحة

البلاث » ، وقد تحورت عبارة فولتير قليلا ، لانها فى الاصل : « اذا لم يكن اله ... » .

٥٢ ★ يجب أن نتذكر أن العالم الروسى نيقولاى لوباتشفسكى قد عرض سنة ١٨٢٦ مذهبا جديدا فى «هندسة غير اقليدسية» ، فسبق بذلك أنيشتاين ومهد له .

٥٥ ★ « يوحنا الرحيم » : يخطىء دوستويفسكى هنا ، فلا شك أن المقصود هو « جوليان الرحيم » الذى اتخذه الكاتب الفرنسى فلوبير موضوعا لاحدى قصصه ، وقد قام تورجنيف بترجمة هذه القصة الى اللغة الروسية سنة ١٨٧٧ .

٦٠ ★ ينقل دوستويفسكى هنا نقلا أمينا مضمون وأسلوب النشرة التى أصدرتها « لجنة توزيع الكتب الدينية فى اقليم « فو » بسويسرة ، وعنوان النشرة « جذوة جديدة تنتزع من النار ، أو القصة الحقيقية التى تروى اهتداء وموت لويس فردريك ريشار الذى أعدم بمدينة جنيف فى ١١حزيران يونية ١٨٥٠» . وان تنفيذ عقوبة الاعدام هذه التى أنزلت فى ريشار وشهدها ما يقرب من عشرة آلاف شخص ، قد وصفت فى نشرات أخرى ، منها النشرة التى أصدرها ارنست كرامر فى جنيف سنة ١٨٥٠ ، وعنوانها : «قصة اللحظات الاخيرة التى عاشها لويس فردريك ريشار » .

٦٢ ★ يجب أن نتذكر أن الليوتنان ايلنسكى لم يحكم عليه ، بتهمة قتل أبيه ، عام ١٨٤٨ ، الا بالسجن مع الاشغال الشاقة عشرين سنة .

٦٣ ★ ان الشاعر ن.آ. نكراسوف قد صور هذا المشهد فى قصيدته «تأملات فى هذا الزمان» (١٨٥٩) ، وتحت تأثير هذه القصيدة انا ألف دوستويفسكى حلم راسكولينكوف فى الفصل الخامس من الجزء الاول من روايته « الجريمة والعقاب » .

٦٤ ★ هى قضية ابن صاحب البنك كرونبرج، الذى أحيل الى المحكمة لسوء معاملته ابنته ، ثم برأته هيئة المحلفين بفضل المرافعة الداهية التى ألقاها المحامى فلاديمير سباسوفكتش . وقد وقف

صفحة

دوستويفسكي على هذه القضية فصلا كاملا من «يوميات كاتب» (شباط فبراير ١٨٧٦) ٠

٦٦ ★ هما مجلتـــان كانتا تصدران بانتظـــام منـــذ ١٨٦٣ ، وكان دوستويفسكي يقرؤهما في كثير من الاحيان ٠ غير أن الواقعة التي يذكرها هنـــا مأخوذة عن « مذكرات قن » التي كتبهـــا كاتكوف ، وهو من أنصار السلافية ، ونشرتها مجلة «الرسول الروسي» سنة ١٨٧٧ ٠

٦٦ ★ « محرر الشعب » : هو اللقب الذي أصبح يلقب به الاسكندر الثاني بعد الغاء نظام القنانة في ١٩ شباط فبراير سنة ١٨٦١

٧٥ ★ وصف دوستويفسكي كتاب فكتور هوجو «أحدب نوتردام» بأنه عمل عبقري قوي ، وقد نشر في مجلته «الزمان» أول ترجمة روسية لهذا الكتاب ، سنة ١٨٦٢

٧٥ ★ « وعندنا في موســـــكو » : نظم القسيس جريجـــوري عروضا مسرحية في موسكو منذ سنة ١٦٧٢ ، لبلاط القيصر ألكسي ٠ وقد بدأها بمسرحيتين اقتبستا عن اللغة الالمانية وهما «استير» و « توبي » ٠

٧٦ ★ « نزول العذراء الى الجحيم » : هي قصيدة بيزانطية منـــحولة حظيت برواج كبير في روسيا ، ولعلها أثرت في كتاب دانتي « الكوميديا الالهية » ٠

٧٦ ★ « سأعود قريبا » : قول المســـيح في رؤيا يوحنا الرسول ، (الاصحاح الثاني والعشرون ، ١٢)

٧٧ ★ بيتان من قصـــيدة شيللر « الرغبة » ، نظمها الشاعر سنة ١٨٠١ . وترجمها الى الروسية ف٠جوكوفسكي

٧٧ ★ « ظهرت هرطقة » : اشارة الى حركة «الاصلاح» ٠

٧٨ ★ « أيتها الارض التي ولد فيك ملك السماوات » ، الخ : آخر رباعية من قصيدة للشاعر ف٠اي٠ تيوتشيف عنوانها : «هذه القرى الفقيرة ، هذه الطبيعة الهزيلة » ، وقـــد كتبها الشاعر

صفحة

سنة ١٨٥٥ ، وان قوله « فى صورة عبد » تعبير مستمد من رسالة بولس الرسول الى أهل فيليبى (الاصحاح الثانى ، ٦) .

٧٨ ★ « فى نيران رائعة » الخ : بيتان مستمدان من قصيدة للشاعر ألكسندر بوليجايف (١٨٠٤ ــ ١٨٣٨) .

٧٨ ★ « تمجيدا للرب » : هو شعار اليسوعيين .

٧٨ ★ « كبرق يسطع من الشرق الى الغرب » : هكذا ستكون عودة المسيح على نحو ما يصفها انجيل متى (الاصحاح الرابع والعشرون ، ٢٧ : « كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر الى المغارب ، هكذا يكون أيضا مجىء ابن الانسان ») .

٨٠ ★ من معجزات المسيح فيما أورده انجيل متى (الاصحاح التاسع، ٢٥) وانجيل مرقص (الاصحاح الخامس ، ٤١) .

٨٠ ★ « الهواء معطر بعبق أشجار الرند والليمون » : هكذا يصف الشاعر بوشكين مدينة اشبيلية فى قصيدته عن دون جوان .

٩٠ ★ « اذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب ... » : جاء فى انجيل متى (الاصحاح الرابع ، ٥ ــ ٦) : «ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل ، وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك الى أسفل ، لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك فعلى أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك » . ومثل هذا جاء فى انجيل لوقا (الاصحاح الرابع ، ٩ــ١١) .

٩٢ ★ « ان رسولك الكبير يروى ... » : هو يوحنا الرسول فى رؤياه (رؤيا يوحنا الرسول ، الاصحاح السابع ، ٣ ــ ٨) . يذكر فلاديمير سولوفييف أن رؤيا يوحنا الرسول كانت سفر دوستويفسكى المفضل فى السنين الاخيرة من حياته .

٩٤ ★ « فمنذ ثمانية قرون .. » : اشارة الى انشاء دولة البابا سنة ٧٥٦

٩٨ ★ صورة من رؤيا بولس الرسول (الاصحاح السابع عشر) ولعلها رمز الى روما الوثنية .

١٠٨ ★ « الاب سيرافيكوس » : أطلق هذا الاسم من أسماء القرون

صفحة

الوسطى على القديس بونافانتورا ، وهو يظهر فى المشهد الاخير من الجزء الثانى من « فاوست » جوته ·

١١٤ ★ «تشرماشنيا» : هو اسم قرية ملحقة بأملاك والد دوستويفسكى · وقد زار دوستويفسكى هذه الاماكن منذ طفولته حتى سنة ١٨٧٧

١٣١ ★ « كولاك » : كان اسم « كولاك » يطلق على المحتكرين وعلى الفلاحين الاغنياء ، وهو من الكلمة التترية كولاك ومعناها قبضة اليد ·

١٣٣ ★ «لياجافى» : نعت معناه «كلب راقد» ·

١٤٥ ★ « اذا لم تفن حبة القمح ··· » : قول المسيح بعد قيام عازر من الموت ، كما ورد فى انجيل يوحنا (الاصحاح الثانى عشر ، ٢٤ ــ ٢٥) · وبهذا القول صدر دوستويفسكى روايته هذه ·

١٥٤ ★ « أثر الكتب المقدسة فى حياة الاب زوسيما » : فى رسالة تاريخها ٧ آب (أغسطس) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن· ليوبيموف ، وهو نائب محرر مجلة « الرسول الروسى » ، يقول دوستويفسكى حين بعث اليه بالنص : « ان فى هذا الفصل حماسة وشاعرية ، مثله كمثل بعض تعاليم تيخون زادونسكى، وسذاجة التعبير فيه مستوحاة من الكتاب الذى عنوانه «أسفار الراهب بارثين» ·

١٥٥ ★ « مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل » : قالت أرملة دوستويفسكى : « فى هذا الكتاب انما تعلم فيدور ميخائيلوفتش القراءة » · وهو موجود الآن فى متحف دوستويفسكى بموسكو ·

١٥٥ ★ « على انى أذكر أن الانفعال الدينى الاول··· » : تقول أرملة دوستويفسكى: هنا يروى فيدور ميخائيلوفتش ذكريات طفولته الشخصية ، فقد سمعته يتكلم عنها مرارا ·

١٥٥ ★ « كان يعيش فى أرض عوص ··· » : اشارة الى الفصل الاول من سفر أيوب ·

صفحة

١٦٦ ★ « ... فى موضوع حدث كان قد وقع ... » اشارة الى ثورة الديسمبريين فى شهر ديسمبر ١٨٢٥ .

٢٤٢ ★ « كانت حياته هادئة وادعة » . يضيف دوستويفسكى هنا حاشية الشرح التالية : « حين انهاض جثمان راهب بسيط (لنقله من الحجرة الى الكنيسة ، ونقله بعد قداس الجنازة من الكنيسة الى المقبرة) تتلى الآية: كانت حياته هادئة وادعة، أما اذا كان الراهب من أصحاب النذور ، من المرتبة الثانية ، فانه يرتل له النشيد « ربنا هب لنا من لدنك عونا وارحمنا » .

٢٦١ ★ « فينيا » : تصغير اسم فيدوسيا .

٢٧٣ ★ فى رسالة تاريخها ١٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن . ليوبيموف ، كتب دوستويفسكى يقول : « أرجو أن تعتنى بتصحيح أسطورة «البصلة» . لقد أخذت هذا النص الثمين من فم فلاحة ، ولا شك أنه يسجل الآن أول مرة . أنا على الاقل ، لم يسبق لى أن رأيته » .

٢٨٩ ★ « وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل ... » : من انجيل يوحنا ، الاصحاح الثانى ، ١ ــ ٩

٣٣٩ ★ « كفى ! » اشارة الى قصة تورجنيف التى تحمل هذا العنوان والتى ظهرت سنة ١٨٦٥ ، وفيها يعلن تورجنيف عزمه على الانقطاع عن الكتابة ، ويودع قراءه .

٣٤٢ ★ « ستيدرين » : أحد محررى مجلة « المعاصر » ، وهى مجلة لبرالية ، أوقفها الرقابة عن الصدور سنة ١٨٦٦ .

٣٦٥ ★ « متجر آل بلوتنيكوف » : ذكرت أرملة دوستويفسكى أن زوجها كان يذهب كثيرا الى بقالية ب.ج. بلوتنيكوف ، فى مدينة ستارايا روسا ، ليشترى منها مقبلات وحلاوى .

٣٧١ ★ بيتان من الشعر يقولهما أوليس فى المقطع الخامس من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها « عيد النصر » ، وهى تصور معسكر اليونان بعد أخذ طروادة ، وقد قام بترجمة القصيدة الى اللغة الروسية ف.ج. تيوتشيف سنة ١٨٥١ .

صفحة

٣٨٠ ★ شطران ألفهما دمترى نفسه ، وقد سبق ورودهما فى الصفحة ٢٥١ من الجزء الاول من هذه الرواية .

٣٩٧ ★ كان موظفو دوائر الدولة فى روسيا يرتدون زيا رسميا .

٤٠٠ ★ « بارين » : بهذا اللقب كان يخاطب الخدم سادتهم فى روسيا قبل الثورة (١٩١٧) .

٤٠٣ ★ يا « سيد » : قال البولندى السمين كلمة «سيد» هذه باللغة البولندية . والبولنديان كلاهما سيدور أكسر كلامهما بهذه اللغة البولندية ممزوجة بألفاظ روسية . وكان ينبغى أن نميز البولندى من كلامهما فى هذه الترجمة العربية بأحرف طباعة خاصة لو لم يتعذر ذلك .

٤١٦ ★ « النفوس الميتة » هى رواية جوجول الشهيرة (١٨٤٢) التى كثيرا ما يستشهد بها دوستويفسكى . أما نوزدريوف وتشتشيكوف فهما من أبطال هذه الرواية .

٤١٨ ★ «نوزدريف كان اسمه الحقيقى نوسوف» : ها هنا تلاعب لفظى بكلمتى mozdri ومعناها « المنخران » و moss ومعناها « الأنف » .

٤١٨ ★ « أهذا أنت ... اساعر بوالو ؟... » : مطلع أبيات ساخرة للشاعر اى. آ . كريلوف نستهزىء بما فعله الكونت د . ج. خفوستوف ، وهو شاعر ضعيف ، حين ترجم كتاب بوالو «فن الشعر» ترجمة رديئة .

٤١٩ ★ أبيات ساخرة للشاعر باتيوشكوف عنوانها « قصيدة الى سافو جديدة » ، وفيها يتهكم بالشاعرة الروسية الاولى آنا بونينا ، آسفا على أنها لم تغرق كما غرقت الاديبة اليونانية الشهيرة سافو .

٤٢٢ ★ « روسيا بحدودها السابقة على سنة ١٧٧٢ » : ابتداء من سنة ١٧٧٢ انما استردت روسيا بعض الاقاليم ، بعد اقتسام بولنده ثلاث مرات ، وهذه الاقاليم التى سبق أن احتلها اللتوانيون كانت أحد مطالب الثوريين البولنديين .

صفحة

٤٢٧ ★ « قصة السيد بودفيزوكي » : في رسالة الى محرر مجلة « الرسول الروسي » ، كتب دوستويفسكي يقول : «سمعت هذه القصة ثلاث مرات في حياتي ، في أمكنة مختلفة ومن بولنديين مختلفين » ٠

٤٤٦ ★ في رسالة تاريخها ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن٠آ٠ ليوبيموف ، كتب دوستويفسكي يقول: «هذه الاغنية، التقطتها بنفسي ، وهي مثال على الفن القروي الحالي » ٠

٤٦١ ★ « من آخر سيبريا » : في سيبريا انما كان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يقضون مدة العقوبة ٠

٤٦٤ ★ كانت السلطات التي ينتخبها الفلاحون في قرية من القرى تحمل على صدورها صفائح معدنية تشير الى رتبها أثناء ممارستها عملها ، وهي تقوم بدور الشهود أثناء تحقيق قضائي٠

٤٨٠ ★ « معنى بعض الاصلاحات » : اشارة الى اصلاحات الكسندر الثاني في سنوات ١٨٦١ ــ ١٨٦٦ (الغاء القنانة ، الاصلاح القضائي ، الخ) ٠

٥١٩ ★ « عليك بالصمت قلبي ٠٠٠ » : من قصيدة «الصمت» للشاعر الفيلسوف ف٠ج٠ نيوتشيف (١٨٣٣) ٠

٥٧٤ ★ « الزاكوسكي » : مائدة مقبلات باردة ، مع فودكا ، يصيبها الطاعمون عادة في حجرة مجاورة لقاعة الطعام ، ويمضون اليها قبل الوجبة ٠

SS

فهـــرس

الصفحة

الصفحة

SS

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعيا يدافع عن "الفقراء" "والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التى يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكى إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية، وأن دوستويفسكى كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسى التى أنشأها فرويد وآدلر، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية، مشكلة الصراع بين الخير والشر، فى كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف